

الکاتب المصری

مجلة ادبية شهرية

رئيس التحرير: طه حسين

فهرس

طه حسين	ماوراء النهر (قصة) يتبع 	۷
محمد رفعت	حديث الامبراطورية البريطانية	۲۳
محمود عزى	بلاد المغرب	۳۳
محمود تيمور	سائح في العالم الجديد	۳۹
علي محمود طه	أندلسية (قصيدة)	۵۲
طه الخاخرى	فصول لم تنشر من آثار الجاحظ	۵۵
طه الراوى	رأى في ترتيب المعجم العربى الحديث ..	۶۳
سلامه موسى	إهناماتى ودراساتى العلمية	۶۹
محمد عبد الله عنان ..	مسألة الهند وقضية الباكستان	۷۸
س . د . غيوطاين ..	حوادث سهر أبو الدراسات الاسلامية ..	۸۵
إتيامل	التروبادور وشعراء الأندلس	۹۶
عبد الرحمن صدق	بعد انقضاء عامين (قصيدة)	۱۰۱
فرانز كفكا	طبيب القرية (قصة)	۱۰۳
مراد كامل	حول مشروع بحيرة طانا	۱۱۰
محرى شهاب	اللحن الضائع (قصة)	۱۱۹
عبد الرحمن الحميدى ..	إنطلاق (قصيدة)	۱۲۴
محمود الدسوقي	الاختان (قصة)	۱۲۶
أحمد فكرى	خطرات في القنوق الجميلة	۱۲۹
عباس أحمد	قصة سلامان وأيسال	۱۴۱

من هنا وهناك (بشر فارس — على حافظ)

شهرية السياسة الدولية — شهرية نسر و السينا — من كتب الشرق والغرب
من وراء البحار — ظهر حديثاً — في مجلات الشرق — في مجلات الغرب



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مسندة

القاهرة

يوسف كرم

مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

فَاتِحُ الْفَلَسَفَةِ الْأَوَّلِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْوَسْطِيِّ

كتاب يقع في ٢٦٨ صفحة

الثنى ٥٠ قرشاً (البريد المسجل ٥٦ ملياً وللخارج ٦٨ ملياً)



مُلَاحَظَاتُ جَنِينِ الْفَائِزِ الْأَوَّلِ فِي مَسَابَقَةِ التَّرْجُمَةِ

- تجرى محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية مسابقة للترجمة يقدم لها الأدباء والكتاب قبل يوم ٢٠ فبراير ١٩٤٧، ترجمات تتوفر فيها الشروط الآتية :
- أولا : يجب أن تكون القطعة المترجمة نثرية إما من الأدب الإنجليزي ، أو من الأدب الفرنسي ، وأن تكون من أدب القرن التاسع عشر أو أدب القرن العشرين .
- ثانيا : يذكر اسم المؤلف والمرجع الذي أخذ منه المترجم ، وترسل نسخة مطبوعة من الأصل المترجم عنه .
- ثالثا : يجب أن لا تزيد الترجمة العربية على ألف وخمسة مائة كلمة وأن لا تقل عن ستمائة كلمة .
- رابعا : ترسل المقطوعة مطبوعة على أربع نسخ على أن لا يذكر المترجم اسمه على هذه النسخ بل يرفق اسمه وعنوانه مكتوبين على ورقة منفصلة .
- خامسا : تبقى القطع المترجمة الفائزة ملكا للاذاعة مدة ثلاثة أشهر من تاريخ إعلان نتائج المسابقة وبعد ذلك يحق لأصحابها التصرف بها .
- سادسا : تقبل القطع المترجمة حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٤٧ .
- سابعا : ترسل القطع المترجمة إلى محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية — يافا — فلسطين ، برسم مسابقة الترجمة .
- ثامنا : تعلن اللجنة القطع الفائزة بالترجمة في جلسة مذاعة يوم الجمعة ٢٨ مارس (آذار) سنة ١٩٤٧ .
- قاسما : توزع الجوائز كما يلي :
- للفائز الأول : ٣٠ (ثلاثون جنيها فلسطينيا)
- للفائز الثاني : ١٥ (خمسة عشر جنيها فلسطينيا)
- للفائز الثالث : ١٠ (عشرة جنيها فلسطينية)



LA REVUE DU CAIRE

REVUE DE LITTÉRATURE ET D'HISTOIRE

SOMMAIRE DU NUMERO DE JANVIER

- LOUIS DE BROGLIE . . . Les Ondes hertziennes ultra-courtes
- AMEDEE POLET Le communisme dans la pensée grecque
(à suivre)
- MANIG BERBERIAN . . . Le château inachevé
- EMILE SIMON Vacances à Ras el Barr
- TAHA HUSSEIN L'Arbre de misère (suite)

VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTÉRATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ECRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DES SEPTIÈME ET HUITIÈME CAHIERS

Octobre 1946 — Janvier 1947

ROBERT LEVESQUE
LA CLEF D'ALEXANDRIE

JOE BOUSQUET
FRILEUSES

EMILE SIMON
L'ESPRIT DU BAROQUE

GEORGE HENEIN
PORTRAIT PARTIEL DE LIL

HENRI CALET
RUDOLPH CHARLES VON RIPPER

GISELE BRELET
CHANCES DE LA MUSIQUE ATONALE

JULES SUPERVIELLE
LES B. B. V.

GEORGES LAMBRICHS
LE PARTI DU REFUS

T.E. LAWRENCE
TROIS LETTRES INEDITES

EDGARD FORTI
NIETZSCHE ET LA DECADENCE EUROPEENNE

TAHA HUSSEIN
AL-MOUTANABBI: LA GRANDE AVENTURE D'UN POETE

JEAN-PAUL SARTRE
ECRIRE POUR SON EPOQUE

MARCEL ARLAND
POUR UN VITRAIL

ETIEMBLE
DE L'ENGAGEMENT

GWYN WILLIAMS
VENUS MUILEE

ALEXANDRE STOPPELAERE
INTRODUCTION A LA PEINTURE THEBAINE

CHARLES PICHON
DU NOUVEAU SUR LA GUERRE DE TROIE

MARCEL PROUST
CINQ ETATS DES « JEUNES FILLE EN FLEURS » (Fin)

ETIENNE DRIOTON, ETIEMBLE, HUSSEIN FAOUZI, JEAN GRENIER,
RENE GUI'LY, BERNARD GUYON, HADJIANESTIS,
GEORGES HENEIN, FRANCIS JEANSON, HENRI EL KAYEM,
J. L., JEAN SCHERER, EMILE SIMON.

EXPOSITION DE LA TAPISSERIE FRANCAISE;
SALON D'AUTOMNE, SURINDEPENDANTS, CHASTE'U, FINI,
CALDER, DUBUFFET; SEULS LES HOMMES ONT DES AILES
(EXPOSITION MICHAUX); APOSTOLI ET DETRE;
EXPOSITION DE DESSINS D'ENFANTS EGYPTIENS;
REVUE DES LIVRES, NOTULES; REVUE DES REVUES; BULLETIN.

العقيدة والتشريع

في الإسلام

تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الديانة الإسلامية

للمستشرق العظيم إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية
وعلق عليه

محمد يوسف موسى	عبد العزيز عبد الحق	علي حسن عبد القادر
المدرس بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر	المدرس بكلية الشريعة بجامعة الأزهر	دكتور في العلوم الإسلامية مدير المركز الثقافي الإسلامي بلندن

أبواب الكتاب :

محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام — تطور الفقه
نمو العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف
الفرق — الحركات الدينية الأخيرة
ولكل باب حواش من المؤلف وتعليقات من المعربين

كتاب ضخمة يقع في ٤٠٠ صفحة

التمن ٨٥ قرشا (البريد للسجل ٦٠ ملها وللخارج ٧٢ ملها)



الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصري في أول كل شهر عن دار الكاتب المصري ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعها .

الاشتراك

١٠٠ قرش في السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً في السنة للخارج أو ما يعادلها .
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب
المصري . لا تقبل الاشتراكات لأقل من
سنة كاملة .

نمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصري تعنى بكل
ما يرد إليها من المقالات والرسائل
ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردّها

إدارة الكاتب المصري

• شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الإدارة : ٤٥٠٣٤ - ٤٧٨١٥ - ٤٢٧٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published
by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.

5 Kantaret el Dekka Street

Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصري

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير
طه حسين

مجلد ٥



القاهرة ١٩٤٧

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب للمصري

الكاتب المصري



ربيع الأول ١٣٦٦

فبراير ١٩٤٧

السنة الثانية

مجلد ٥ - عدد ١٧

ما وراء النهر^(١)

وأنت بالطبع عجل ، تريد أن ترى صاحب القصر . وأنا مثلك عجل أريد أن أراه ؛ لأن الأمد بينه وبينى قد بعد وأسرف في البعد . والشاعر نفسه يريد أن يلقاه منذ سمع من نعيم ما سمع ، وعرف من أمر الأسرة ما عرف ، وروعه من هذا الطلاق ما روعه . وهو من أجل ذلك حريص على أن يسرع الخطو ، لولا أن إسراع الخطو لا يليق بالشيوخ ، الذين أفناهم مر الغداة وكر العشى ، وعطفتهم الأيام على العصا ، وعلمتهم المشى على ثلاث ، فخطوهم متقارب ، وسعيهم بطيء . وشاعرنا حريص دائماً على أن يكون شيخاً متهاكاً ، قصير الخطو بطيء السعى . وهو على ذلك كله عجل يريد أن يلتقى صاحب القصر ، فيسمع منه ويقول له . وهو من أجل ذلك لا يمد الخطو لأنه لا يستطيع ، أو لا يريد أن يستطيع أن يمد الخطو ، وإنما يتعجل على أسلوبه في التعجل ، فيسعى إلى أمام ، لا يقف كما تعود أن يقف دائماً أمام آيات الفن هذه الرائعة التي نسقت في أبهاء القصر تنسيقاً ليس أقل منها روعة وجمالاً .

والشاعر متعود ألا يمر بهذه الآيات مرّاً سريعاً أو بطيئاً ، دون أن يقف عندها ، ملقياً إليها تحيات الاعجاب والحب ، واقفاً عند هذا التمثال مطيلاً إليه النظر ، مهدياً إليه الحديث ، منتظراً منه الجواب ، وواقفاً عند هذه الصورة محلاً معللاً ، مستوحياً مفتوناً . وواقفاً عند هذه القطعة أو تلك من قطع الأثاث الفخم القديم ، يلتهمها بعينه التهاماً ، ويداعبها بيده مداعبة رقيقة ، يصنع ذلك كل ما دخل القصر ليلقى صاحبه في مكتبه أو في حجرة من حجرات الاستقبال ،

(١) الكاتب للمصري عدد ١٤ و ١٥ و ١٦ (نوفبر - ديسمبر ١٩٤٦ ، يناير ١٩٤٧) .

لا يمنعه من ذلك مانع مهما يكن ، ولا يصرفه عنه صارف مهما تكن الظروف . وهو من أجل ذلك ينفق وقتاً غزير قصير منذ يبلغ أرق سلم القصر إلى أن يصل إلى صاحبه ، سواء كان على موعد أم زار على غير ميعاد ، وربما ضرب لصاحب القصر موعداً للقاء في الساعة الحادية عشرة ، ولكنه يقول ضاحكاً : على أنى سأكون هنا قبل أن تبدأ الساعة العاشرة ؛ وربما نسي الموعد نسياناً تاماً ، وانتظره صاحب القصر ، فلما طال عليه الانتظار خرج يلتمسه في هذا البهو أو ذاك ، فوجده قائماً أمام صورة ، أو تمثال ، أو أثاث ، وقد استأثر به إعجاب ينتهي إلى شئ يشبه الذهول . ذلك أن هذا القصر ، ليس كغيره من قصور الأغنياء المترفين ، يزدان بفخامته وضحامته ، وامتلائه بالأثاث الفاخر الكثير قد نسق على وجه يلائم الذوق أو لا يلائمه ، ولكنه يدل دائماً على ضخامة الثروة ، وكثرة المال ، وحب الاتفاق ؛ وإنما هو قصر له فخامته وضحامته ، ولكنه أشبه بالمتحف منه بالقصر . فليس فيه إلا ما يروق النفس ، ويلذ العين ، ويملا القلب رضا وإعجاباً ؛ قد جمعت فيه آيات من الفن ، على اختلاف هذا الفن في النوع ، وفي العصر والطراز ؛ ففيه القديم والحديث وما بين ذلك ، من آيات المثاليين والمصورين ، ومن آيات العصور البعيدة التي يتحدث عنها التاريخ القديم ، وفيه من طرَف الأثاث ضروب وألوان ، بحيث لا يستطيع ذو الذوق المترف أن يدخله إلا لقي فيه فتنة أي فتنة ، وبحيث يستطيع ذو الذوق المترف أن يزوره مصباحاً وممسياً في كل يوم من أيام الأسبوع ، دون أن يقضى عجبه أو إعجابه بما فيه من هذه الروائع والآيات . فإذا مر الشاعر قصير الخطو بطي السعي بهذه الآيات والروائع ، غير واقف عندها ولا مطيل نظره إليها ، فذلك الدليل كل الدليل على أنه معجل حقاً ، وعلى أن الذي يعجله عما أحب وما سيحب دائماً ، لا يمكن أن يكون إلا أمراً ذابال .

ومما يدل على أن الشاعر كان معجلاً حقاً ، وعلى أنه كان أشد عجلة منك ومنى إلى لقاء صاحب القصر ، أنه انتهى إلى البهو الذي ينبسط أمام المكتب ، وهم أن يمضوا إلى المكتب فيطرق بابه طرْقاً خفيفاً ، دون أن يقف وقفته تلك الطويلة ، أو يدور دورته تلك البطيئة ، حول هذه الكتب التي نُسقت أجمل تنسيق وأدق إلى هذه الجدران العراض المرتفعة ، ودون أن يمر يده في كثير من الحب والهيام على صفوف هذه الكتب ، كأنما يحياها بيده تحية تشبه عطف

الأب حين يمسح رأس ابنه في كثير من الحنان . وربما أخذ منها كتاباً ، فجمع يديه حول دفتيه ، ثم فتحه ونظر فيه قائماً فأطال النظر ، ثم أثر صحبة الكتاب على لقاء صديقه ، فانحاز إلى زاوية من زوايا البهو ، وفرغ لكتابته منصرفاً إليه عن كل شيء وعن كل إنسان ، حتى يأتي صديقه ، فيفرق في عنف أو في رفق بينه وبين هذا الكتاب الحبيب . ولكنه في هذه المرة لم ينظر إلى الكتب ، كما أنه لم ينظر إلى التماثيل والصور ، إلا نظرات قصاراً خاطفة ، ومضى أمامه مستأنياً ، يريد باب المكتب ليطرقه ويفتحه ويغلقه من دونه حين يسمع الاذن له بالدخول . غير أنه لم يمتكن من الوصول إلى الباب ؛ فقد لقيه الخادم مكبراً له حياءً به ، ولكنه يؤذنه بأن سيده لن يلقى أحداً الآن ، لأنه خالٍ في هذه الساعة إلى ضيف قد أقبل منذ حين .

ولست أدري أَرْضَى الشاعر عن هذا الحجاب أم ضاق به ، ولكني أعلم أنه تحول في بطنه إلى صف من صفوف هذه الكتب ، فحياه بطرقه ، ثم مسح يده ، ثم استخرج منه كتاباً ، واتزوى في ناحية من نواحي البهو ، وجعل ينظر فيه مقبلاً عليه غير فارغ له مع ذلك ، بل رافعاً رأسه ومديراً طرفه في البهو من حين إلى حين ، كأنما كان يترقب أن يخلو له وجه صديقه هذا الذي جعل أمره يتعقد منذ اليوم .

وما أحب أن أقتحم الباب الذي لم يقتحمه الشاعر ، وأن أدخل بك على صاحب القصر خالياً إلى ضيفه ؛ لا لأني أخشى أن يردنا الخادم عن هذا الباب مكبراً لنا حفيماً بنا كما رد الشاعر ، أو ناهراً لنا متعللاً علينا ، كما كان خليقاً أن يصنع بكل من يحاول اقتحام هذا الباب .

فأنت وأنا مطمئنان إلى أننا نستطيع أن نقتحم الباب دون أن يشعر بنا هذا الحاجب ؛ لأن الفن قد منحنا هذه القلنسوة السحرية التي تخفيها على عيون الحجب والرقباء ، وتتيح لنا أن نذهب حيث نشاء ومتى نشاء وكيف نشاء ، دون أن يستطيع أحد لنا ردّاً أو صدّاً ، بل دون أن يستطيع أحد أن يفتن لنا أو أن يشعر بمكاننا .

ولست أدري لماذا لا يتنبه القراء إلى هذه الخصلة الرائعة من خصال الفن ، وإلى قدرته على أن يخفي الكاتب وقراءه على العيون والأسماع ، وسائر أدوات الحس والشعور ، بل على أن يتيح للكاتب وقرائه قدرة هائلة بلفون

بها مسافات الزمان والمكان ، وما يقوم في الزمان والمكان من عقبات تحول بين الناس وبين أن يروا ويسمعوا ويعلموا ما يريدون أن يروا وأن يسمعوا وأن يعلموا . فنحن نستطيع من غير شك أن نتسل إلى داخل المكتب دون أن نشعر بنا أحد ، وأن نرى صاحب القصر وضيفه ، ونسمع ما يدور بينهما من حديث دون أن يأذنا بدخولنا عليهما أو مكاننا منهما . بل نحن نستطيع أن نرقى إلى أى عصر من عصور التاريخ وما قبل التاريخ ، في أى قطر من أقطار الأرض ، فترى ونسمع ونعلم ما نريد ، كما أننا نستطيع أن نسبق الزمن ، وأن نمضى في أعماق المستقبل ، إلى حيث نحب أن نمضى في أى قطر من أقطار الأرض ، بل في أى نجم من نجوم السماء ، لا يحد قدرتنا على ذلك إلا ما نريد نحن لا ما تريد الأحداث . وبعبارة أدق : يستطيع الكاتب وحده أن يفعل هذا كله وأن يبنى قراءه إن أراد بما رأى وما سمع وما علم ، أو ببعض ما رأى وما سمع وما علم . فأننا قادر إذن على أن أتجاوز باب المكتب ، وأشارك في زيارة هذا الضيف لصاحب القصر . ولكنى لا أفعل لسبيين : أولهما يتصل بالأخلاق ؛ فأننا لا أحب اقتحام الأبواب ، ولا التسمع على الناس حين يتحدثون ، وأبغض شئ إلى التطفل والوغل . ولن أغير من أخلاقى شيئاً لأرضى القراء ، مهما يكن حرصى على رضاهم ، ومهما يكن لرضاهم من خطر . والثانى يتصل بالفن ؛ فقد يحسن أن أعرف صاحب القصر إلى القراء ، قبل أن أدخلهم عليه ، حتى لأفجأهم به وبضيفه وبما يديران بينهما من حديث . ذلك أجدر أن يهيبهم للقائه عن علم به ومعرفة لخصاله ، لفهم ما يصدر عنه من أعمال نائية ، وأقوال نائية عما يلائم الرشد والصواب .

والقراء بعد ذلك ليسوا خيراً من الشاعر الذى هو صديق حميم لصاحب القصر . وإذا كان هذا الشاعر قد رضى أن يُردّ عن صديقه ، وقبل أن ينتظر حتى يخلو له وجهه ويؤذن له بالدخول ، فليس على القراء بأس ، من أن ينتظروا كما انتظر .

والشاعر يستعين على الانتظار بالكتاب الذى ينظر فيه ، فليستعنى القراء على الانتظار بما أسوق إليهم عن صاحب القصر من حديث . وقد لا يكون هذا الحديث ممتعاً إمتاع هذا الكتاب الذى ينظر فيه الشاعر ، ولكنه من الممكن على كل حال كلاً ما يقرأ : وما أكثر ما يفرغ القراء للسلام المكتوب

الذى يساق إليهم فى كل يوم ، على ما يكون فيه من مخف ، وعلى ما يكون له من قيمة وإمتاع . !

ورءوف صاحب القصر شيخ تقدمت به السن شيئاً ، ولكنها لم تبلغ من قوته ولا من شباب قلبه وجسمه شيئاً ، وإنما هو رجل طوال ، يميل إلى البدانة أكثر مما يميل إلى النحافة ، وهو رائع الطلعة ، رائق المنظر ، لا تقتحمه العين ، وإنما تتصل به فتطيل الاتصال ، تجد شيئاً من اللذة فى النظر إلى وجهه الذى لا يخلو من جمال مهيب ، والذى تضطرب فيه عينان صغيرتان نقادتان ، فيها شئ من حدة ، ولكنهما تصوران هدوءاً ودعة وثقة ، تقرأ فيهما الايمان بالنفس ، والشك فيما عداها ومن عداها من الأشياء والناس . وتقرأ فيهما الرضا المطمئن عن النفس ، والسخط على من عداها وما عداها من الأشياء والناس . وتقرأ فيهما أن لصاحبهما ضميراً مرناً أشد المرونة ، يسيراً أعظم اليسر ، يؤثر نفسه بكل شئ ، ويرى أن الحياة لم تخلق إلا له ولم توقف إلا عليه ، وأنه إنما يحتمل مشاركة الناس له فيها احتمالاً ، ويطيقها عن تفضل وتطول .

تقرأ فى هاتين العينين الأثرة فى أبشع صورها ، وفى أظرف صورها أيضاً . وهذه القراءة لا تكذبك ولا تغرك عن الحقيقة الواقعة ؛ فصاحبنا أثر كأبشع ما تكون الأثرة ، وكأظرف ما تكون الأثرة فى وقت واجد . يندفع إلى ما يريد فى غير هوادة ولا أناة ولا إسماح ، لا يقبل أن تقوم بينه وبين ما يريد عقبة مهما تكن طبيعتها ، ومهما يكن مصدرها . وهو من أجل ذلك غضوب ، جامع الغضب ، عنيف مسرف فى العنف ، لا يروض الصعاب حين تغرض له ، وإنما يحطمها أو يحطم نفسه من دونها . وهو من أجل ذلك يمر حتى لا يسيغ مذاقه أشد الناس رياضة لنفسه على احتمال المكروه والصبر على الأذى ومراس أصحاب العنف والجماح .

ولكنه على ذلك تحلو شمائله ، وتحسن أخلاقه ، وترق حواشيه حين يقبل على الله . ويأنس إلى الناس ، لا يصدر فى عنفه ولينه عن بغض الناس ونحب لهم ، وإنما يصدر فيهما عن حب لنفسه وإيثار لها بما يراه خيراً ؛ يبتغى ذلك باللين ، حين يكون اللين سبيلاً إليه ، ويبتغى ذلك بالعنف حين لا يكون عن العنف بد ، وهو على كل حال أقل الناس حظاً من اللين والاعتدال . لا تعناه يوماً

أو ساعة على خلق سواء ، وإنما هو مندفع في الغضب حتى يصرف الناس عنه ، أو مندفع في الرضا حتى يتهالك الناس عليه . وأصل ذلك فيما يظهر أنه كان وحيد أبويه ، قد ولد في بيئة ناعمة مترفة ، موفرة الحظ من الثراء ، قد يسّرت لها الأمور كلها تيسيراً ، ولم يولد له إخوة يشاركونه في حب أبويه له ، وعطفهما عليه ، وحرصهما على تدليله وتنويله كل ما تطمح إليه شهواته الجامحة أو تطمح فيه أهواؤه التي أرسلت على سجيتها إرسالا . وقد وصف الشاعر القديم بعض المدوحين بأنه لم يقل «لا» قط إلا في تشهده ، وبأن لاه كانت خليقة أن تكون «نعم» لولا تشهده وإيمانه بالله . ويمكننا أن نقول إن صاحبنا هذا لم يسمع «لا» قط في صباه ولا في شبابه إلا حين كان يتعرض لما كان يمكن أن يسوءه أو يؤذيه . ومع ذلك فقد كان أبواه والموكلون بخدمته لا يصدونه عما يسوءه ، ولا يردونه عما يؤذيه إلا في كثير من الرفق والاحتيال ، وفي ألوان من الترغيب والاغراء ، بحيث لم يكن يشعر أن هذه الكلمة البغيضة كلمة «لا» تقال أو توجه إليه . لم يكن يسمع هذه الكلمة ، ولكنه كان يقولها كثيراً : يقولها لأبويه ، ويقولها لخدمته ويقولها لأترابه حين يلقي أترابه ، وكان هؤلاء جميعاً يسمعون منه هذه الكلمة ، فيرضون عنها ، ويبتهجون بها ، ويستجيبون لها . ولذلك نشأ على حب هذه الكلمة حين يجري بها لسانه هو ، وعلى بغضها حين يجري بها لسان غيره من الناس . وكان من الطبيعي ألا يعرف المصاعب ، ولا يمرن على رياضتها وتدليلها . وكان من الطبيعي كذلك ، ألا يفهم كيف يمتنع عليه غرض من الأغراض ، أو يفوته أمل من الآمال . كان مدلاً كأتقى ما يكون التدليل ، مترفاً إلى أبعد حدود الترف ، سى الخلق من أجل ذلك كاسواً ما يكون الخلق ، ضعيفاً كاشنع ما يكون الضعف ، عنيفاً كأشنع ما يكون العنف . وليس من الغريب بعد ذلك أن نلاحظ أنه ، وقد أنفق حياة فارغة ميسرة ، لم يتعلم إلا بمقدار ما استطاع ، وبمقدار ما أتاحت له هذه الحياة المدللة المترفة أن يتعلم . فهو لم يذهب إلى مدرسة ، وإنما سعى إليه المعلمون . وهو لم يذعن قط لمعلم أو أستاذ ، وإنما أذعن له دائماً أساتذته ومعلموه . منهم من وجد إلى قلبه سبيلاً ، فالتقى فيه بعض العلم وأودعه بعض المعرفة ، ومنهم من لم يجد إلى قلبه سبيلاً ، فتملق أهواؤه وتزواته ، وقنع من الجهد بما كان يتاح له من الأجر في آخر الشهر . وما ينبغي أن تغرك آيات الفن هذه التي نسقت في القصر أحسن تنسيق ،

ولا صفوف الكتب هذه التي ملأت هذا البهو العريض مما يلي مكتبه ؛ فهو لم يكسب من هذه الآيات ولم يجمع من هذه الكتب شيئاً ، وإنما وجدها في القصر ، فلم يحفل بها أول الأمر ، ثم جعل يقف عند بعضها من حين إلى حين ، ثم فتن بها فتنة مصدرها الغرور أول الأمر ، ثم أصبحت جزءاً من حياته ، لا يستطيع أن يستغنى عنها ، ولا يتصور أن يعيش دون أن يراها مصباحاً ومسياً . ولم يكد يبلغ أول أطوار الشباب ، حتى استجاب لدعاء شهواته وغرائزه ، فعبث ما شاء له العبث ، وأفسد ما شاء له الفساد . وهم أبواه أن يكفاه عن بعض ذلك في تلطف ورفق ، فلم يبلغا منه شيئاً ، وإنما كان لومهما له إغراء ، ونصحهما له دفعاً إلى الغلو والاسراف . ثم أتاحت له الغربة ، ففارق القصر والربوة إلى ما حولها ، وطوف في الآفاق الغربية ، وأقام في العاصمة فأطال المقام ، ثم طوف في الآفاق البعيدة ، وزار العواصم الكبرى ، وألم بمواطن الجد والهزل ، وعاد إلى أبويه قتي كامل الفتوة ، قد ردت له الحياة إلى شيء من القصد في سيرته ملاً أبويه إعجاباً به ورضاً عنه ، وأتاح له النظر في شؤون الأسرة قليلاً قليلاً . ولم تمض أعوام حتى كان مستقلاً بكل شيء ، متصرفاً في كل شيء ، ملغياً أباه من كل جهد ، ناهضاً من دونه بكل عبء .

ولست أعرف شيئاً أشد تعقيداً ، ولا أكثر اختلاطاً ، ولا أعسر على الفهم من نفس الانسان ؛ فهي ملتی المتناقضات ، وهي غريبة فيما يختلف عليها من الأطوار . لقد كان كل شيء في صبا رءوف يؤذن بأنه سيكون قتي ضائعاً ، مضيعاً ، لا يغني عن أسرته شيئاً ، وإذا هو يعود إليها قتي رشيداً إلى حد ما ، قادراً على النهوض بالأعباء ، نافذاً حين يتصرف في الشؤون ، بعيد الحيلة حين يحتاج إلى بعد الحيلة . وكان هذا خليقاً أن يلتقي في روع الذين يعرفونه من قريب أنه القتي كل القتي ، قد جمع من أخلاق الرجال ما ينأى به عما يعيب ، ويرتفع به عن الصغائر ، ويهيئه لجلال الأعمال . وقد كان فيه من هذا كله شيء ، ولكنه على ذلك كان ضعيفاً أمام غرائزه ، متهاكاً على لذاته . يسمو إلى الجليل من الأمر ، ويعنى مع ذلك بالصغائر وسفاسف الأمور عناية مؤذية . يضبط نفسه أحياناً ، فيبلغ من ضبطها ما يريد ، ويحملها من عظيم الأمر على ما يجب ، ثم يرسل لها العنان فجاءة ، فاذا هي تتابع الهوى حتى تجور عن القصد ، وتتورط في أعظم الشطط .

.. وقد التفت الأسرة لابنها الزوج التي تلامي مكانه ، وجعله ، وثرائه ،
فوقته لما أرادت . وأصهر الفتى إلى أسرة صالحة ، وسعد بحياة زوجية ناعمة ،
ولكن هدوءها لم يتصل ؛ فقد كان رءوف صاحب نزوات طالما آذت زوجه ، وطالما
آذته هو ، وطالما أرهقته وأرهقت زوجه من أمرهما عسراً . ويمكن أن يقال إن
نعيم ابنه قد نشأ في بيئة ظاهرها النعمة ، وباطنها النعمة . كل شئ من حوله
ميسر إلا أمر أبويه ، فانه كان عسيراً أشد العسر ، ملتوياً أعظم الالتواء .

وكل قارىء يستطيع أن يصور لنفسه حياة هذه القصور التي يملؤها الترف ،
ويشيع فيها النعيم ، وتفيض من حولها السعادة ، ولكنها تشتمل في أعماقها على
غرفة أو غرفتين من غرفات الجحيم ، لا يرى الذين يأوون إليهما فيها إلا الشر
كل الشر ، والنكر كل النكر ، والعذاب كل العذاب . ولم يكن قصر رءوف الذي
نشأ فيه نعيم إلا واحداً من هذه القصور : سعادة ظاهرة ، وشقاء خفي . أب يلهو
ما وجد إلى اللهو سبيلاً ، وأم تشقى ما استطاعت المرأة أن تحمل الشقاء ،
وخصومة وعبوس حين يلتقى الزوجان ، ووافق وابتسام حين يظهران للناس .
والصبي بين هذا كله يرى ويسمع ويحس ، ويسجل قلبه الصغير كل ما يرى
ويسمع ويحس . وهو يؤثر أمه البائسة بالحب والرحمة والرثاء ، ويختص
أباه الماخن بكثير من السخط واللوم ، ولكنه يخافه أشد الخوف من جهة ، ويعجب
به أشد الإعجاب من جهة أخرى . يكره سيرته مع أمه ، ويرضى عن سيرته مع
الناس ، ويعجب بسيرته مع نفسه ، ويتحدث إلى ضميره ، بأنه إذا شب
فسيكون أبر بزوجه من أيه ، ولكنه سيسير سيرة أيه في الناس ، وسيؤثر نفسه
من متاع الحياة بمثل ما يستمتع به أبوه . على أن رءوفاً لم ينشئ ابنه كما نشأه
أبواه ، وإنما أخذه بشئ من الصرامة والحزم ، فكان هذا أيضاً مصدراً
للخصومة بينه وبين زوجه ، ومصدراً للتعقيد في نفس الصبي الذي كان يجد من
أمه اللين والاسباح ، ووجد من أبيه الصرامة والحزم ، فيرضى ويسخط ، ويجب
ويبغض . وتتعدد نفسه على مر الأيام تعقداً شديداً .

وقد كنت خليقاً أن أمضى معك في الحديث عن حياة رءوف في شئ من
التفصيل ، وعن نشأة نعيم في شئ من الاطناب ، لولا أن باب المكتب يفتح
ويخرج منه رءوف متضاكاً ، يشيخ ضيفه إلى سلم القصر ، ثم يعود وهو لا يكاد
يملك نفسه من ضحك يريد أن يملأ أبياء القصر . فيصرف الشاعر عن كتابه ،

ويصرفني أنا عما كنت أقص عليك من حديث . وها هو ذا قد أقبل على الشاعر ، غرقاً في الضحك ، يقول في صوت متقطع : ها أنت ذا ! لقد أطلت انتظارك منذ اليوم ، وإني لراض عن اضطرارك ، إلى أن تنتظرنى كما انتظرتك . قال الشاعر وهو ينهض مثاقلاً ، ويرد الكتاب إلى مكانه من الصف : لست أدرى أينما انتظر صاحبه ! لقد ذهبت إلى حيث تعودنا أن نلتقى ، فأنبتت بأنك تنتظرنى في هذا المكتب . ولن أبلغ من الحق وخطئ الرأي أن أترك اللجنة النضرة ، والسماء الصفو ، والجو الصحو ، والنهر الجميل ، لأحبس نفسى معك في هذا المكتب وإن كان جميلاً أنيقاً . على أنى لم أستطع حتى أن أستمع بالخلوة إلى هذا الجمال وقتاً قصيراً ؛ فقد أقبل ابنك نعيم ، فنغص على كل شئ . قال رءوف وهو يغرق في الضحك : ابني نعيم ! فهو إذن قد لقيك ، وقد ألقى إليك بسخافاتہ التي لا تنقضى ، والتي ليس لها رأس ولا ذيل . ولكن هلم ! ما قيامنا في هذا البهو؟ أقبل ، لأحبسك في هذا المكتب الذى تكره أن تحبس فيه ، أقبل واجتهد في ألا تنحنى على العصا إن استطعت ؛ فان نفسى ليست ميالة إلى شعر جرير ، أقبل واعدل قامتك إن استطعت إلى ذلك سبيلاً . لعلاك قد شربت قهوتك على ضفة النهر مستمتعاً بالجنة النضرة ، والسماء الصفو ، والجو الصحو ، والنهر الجميل ، أم تريد قدحاً آخر من القهوة ؟ ولكن النهار قد انتصف أو كاد ينتصف ، ولم يبق بيننا وبين الغداء إلا ساعة وبعض ساعة . ما تقول في قدح من قهوة أخرى خير من قهوتك تلك التى احتسيتها على ضفة النهر الجميل ؟ ثم أغرق في ضحك طويل ، والشاعر قائم واجم ينظر إليه ويسمع منه ، ولا يفهم عنه . فلما سكت عنه الضحك ، قال بصوت ضخم مرتفع : الشراب يا غلام . ثم عاد إلى ضحك متقطع ، وأخذ بذراع الشاعر وهو يقول : إعتد على ذراعى إن شئت ، أو تعلق بها إن أحببت ، ودع عصاك لا تأخذها يمينك ولا تنحن عليها ؛ فقد كان يقال لنا في طور التأديب إن المهذين من الناس لا يستصحبون عصيهم إلى حيث يستقبلون ، وإنما يتركونها في مواضعها المقسومة لها حين يدخلون الدور أو القصور . هلم ! هلم ! ثم مضى يقود الشاعر وكأنه يحمله حملاً ، ويعلقه في الهواء تعليقاً ، حتى انتهى إلى مكتبه ، فأجلس الشاعر ، أو قل وضع الشاعر وضعاً على كرسي عريض وثير . وهم الشاعر أن يتكلم ، ولكن رءوفاً أو ما إليه أن لا يفعل ، وقال في صوت هادئ بعض الشئ : لا تسألنى الآن

عن شئ ولا تحدثني الآن بشئ ، وإنما أرح نفسك وأرحني من الحديث والاستماع ، حتى إذا أقبل الشراب وفرغنا من القدح الأول ، أخذنا في الحديث ؛ فأنبأتني بما عندك ، وما أرى أنك ستنبئني بشئ ذي خطر ، وتحدثت إليك بما عندي ، وما أرى إلا أني سأشغلك بقية يومك . فأسلف نفسك شيئاً من الراحة ؛ فأنك ستستقبل بعض العناء . ثم انصرف عنه ، وجعل يذرع الحجرة ذاهباً جائئاً ، مغرقاً في تفكير عميق .

وأقبل الخادم يحمل قواريره وأكوابه ، وهم أن يملاؤ القدحين . ولكن رءوفاً قال له في لهجة حلوة ، وعلى ثغره ابتسامة راضية : لا تشق على نفسك يا بني ، فساقوم عنك بهذا الجهد ، ولكن امنع علينا بابنا ؛ فلسنا في حاجة إلى الواغلين . فانحنى الخادم وانصرف وأغلق الباب من دونه . وأقبل رءوف على قواريره وأكوابه فصب ومزج ، وقدم إلى الشاعر قدحه وهو يقول :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

فاشرب هذه على لذتك ، ثم أداويك منها بالأخرى .

قال الشاعر : إن أمرك لعجب منذ اليوم أتخذ هذه الحجرة لنفسك سجنًا منذ آخر الليل ، وتحظر على نفسك النزول إلى الحديقة والاستمتاع بصفاء السماء وجمال النهر ، ولا تصيب من طعامك شيئاً حتى يظن الخدم بك الظنون ، ثم ها أنت ذا الآن لا تملك نفسك ولا تضبط أمرك ، وإنما تندفع في ضحكك لعل البكاء وهنا قاطعه رءوف قائلاً : أن يكون خيراً منه . كلا يا سيدي كلا ! إنه الضحك الذي يصور الرضا ، والأمن ، وصفاء النفس ، واطمئنان القلب . ولكن ألم أقل لك إنا لن نتحدث حتى نفرغ من قدحنا الأول ! ثم قال بعد صمت قصير : بعداً للخدم ! لأسبيل إلى أن نحقق عليهم شيئاً ، ولا سبيل إلى أن نكف ألسنتهم عن الحديث بعلم وبغير علم .

أكان الظمأ هو الذي دفعهما إلى الإسراع في الشرب ، أم كان التلهف على الخمر هو الذي أغراهما باستنفاد ما في القدحين ، أم كان تعجل الحديث من الذي جعلهما يأنسا بهما ؟ إننا لا نعلم ما بينهما وبينه من هذه العقبة الرائقة الشائقة التي لم يكن شيء أحب إليهما من إزالتها ؟ مهما يكن من شيء فقد أقبل كل منهما على قدحه شرهاً ، فلم تمض إلا دقائق حتى ارتويا هما ، وظمى القدحان .

ونفض رءوف فأعاد إلى القدحين ريهما ، وأعاد إلى نفسه وإلى صديقه ظمأهما ، ولكنه كان ظمأ هادئاً مستأنياً لا عجلة فيه ؛ فأقبل كلا الرجلين على صاحبه يستبقان إلى الحديث استباقاً ، وأقبل كلا الرجلين على قدحه يحسو منه في تمهل مثل حسو الطير ماء الثماد . قال رءوف متضحكا : أما الآن فتستطيع أن تستمع لى يا أبت أو يا بنى ؛ فسكن وانحناؤك على العصا يجعلانك لى أباً ، وسداجتك وسلامة نفسك تجعلانك لى ابناً ؛ فلى من غير شك أن أدعوك بأى الدعاءين شئت . استمع لى إذن ، وافهم عنى ولا تعجل على ؛ فانك لن تنبئنى بشئ أجهله . لقد أنباك نعيم بحبه ، وثورقى على هذا الحب ، وإصراره على أن يمضى فيما بدأ ، وعطف أمه عليه ، ونطقى بهذه الكلمة التى تفرق بين الالفين . وكل هذا حق . ولكن الشئ الذى لم ينبئك به نعيم لأنه لم يكن يعلمه ، ولعله لا يعلمه إلى الآن، هو أن الستار قد أسدل على بعض هذه المأساة ؛ فقد اختطف الموت من نعيم هواه . ثم أطرق حيناً وأقبل على قدحه ، فحسا منه حسوة ورده إلى مكانه فى هدوء ، والشاعر واجم لا يدري كيف يقول ، كأنما سقطت عليه الصاعقة . قال رءوف : نعم ! ماتت خديجة ، قتلها أخوها انتقاماً لشرفه فيما يظهر ، كأن لأمثال هؤلاء الناس شرقاً تراق فى سبيله الدماء ، ويحتمل فى سبيله العقاب والعذاب . لقد تغيرت الدنيا وفسد الناس ، وهبت على هؤلاء البائسين من أهل القرية وأمثالهم ريح لا أدري من أين جاءتهم ، ولكنها حملت إليهم شرّاً عظيماً : علمتهم أن لم شرقاً ، وأنهم يستطيعون أن يغضبوا لهذا الشرف ، وأن يسفكوا فى سبيله الدم ، ويتعرضوا فى سبيله للموت . ومن يدري ! لعلها علمتهم ، أو لعلها أن تعلمهم أشياء أخرى ، ليست أشد من هذا نكراً . ولن أدهش إذا أنبت غداً ، أو بعد غد ، بأن هؤلاء الناس يضيقون بخضوعهم لنا ، وتسلطنا عليهم ، ويرون أن لم فى أنفسهم حقوقاً يدافعون عنها ، ويتكفون فى الدفاع عنها ما لم يتعودوا أن يتكفوا ، وأن لم فيما تخرج الأرض من الثمرات حقوقاً أكثر مما نعطيهم ، وأن لم فى الحياة مطامع وآمالاً لم تكن تخطر لهم من قبل . كل هذا ممكن ، وكل هذا خطير سيء العاقبة . لقد كنا نرى هؤلاء الناس يسعدون السعادة كلها حين تهبط إليهم أبصارنا وحين تختصمهم بشئ من العطف ، أو نلقى إليهم شيئاً من التعية . لقد كان أعظم ما يطمحون إليه أن يرقوا إلى هذا القصر خداماً لأهله ، فاذا رقوا إليه وظفروا بالخدمة

فيه ، فأعظمهم حظًا من السعادة ، أقربهم مكانًا من السادة . فأين نحن من هذا الآن ! أتري إلى ابنة الحذاء يؤثرها ابن سيدها بعطفه ويختصها بحبه ، ويمنعها مكانًا من قلبه ، فتتم وتسعد ، وتري في هذا الا يثار حلمًا لم يكن يتاح لأمثالها . ولكن أخاها ينكر ، ثم يغضب ، ثم يثور فيقتل أخته ... ولو قد استطاع لقتل معها شخصاً آخر . وهنا برقت عيناه بريقاً خفيفاً ، وجرت في جسمه كله رعدة خفيفة ، لم يلبث أن ردها إلى الهدوء ، ثم أقبل على قدحه فألقى ما فيه في جوفه إلقاء . ثم نظر إلى الشاعر نظرة حادة وهو يقول : إنك لقليل النشاط إلى الشراب ، أفرغ قدحك كما أفرغت قدحي . ولم يجب الشاعر كأنه لم يسمع منه . قال رءوف وهو يضرب يده على المائدة : أسمح لي أفرغ قدحك ، كما أفرغت قدحي ؟ أو قم غني ؛ فلست في حاجة إلى الجلساء الفاترين . وكان الشاعر يعرف صديقه حق المعرفة ، ويعلم أنه عنيف إذا غضب ، منكر السيرة إذا عربد على نديمه . فلم يكذ يسمع طرق المائدة حتى هب من وجومه مذعوراً . ولم يكذ يسمع نذير صاحبه حتى أسرع إلى القدح فصبه في فمه صبا . قال رءوف وقد نهض متضحكا : أما الآن فنعم . ثم أقبل على زجاجاته فصب ومزج ، وعاد إلى مجلسه هادئاً مطمئناً ينظر إلى قدحه متهاكاً عليه .

قال الشاعر : لقد أنبأني نعيم أنه أرسل فتاته أمس إلى العاصمة ، ليلحق بها اليوم فكيف . . . فقاطعه رءوف قائلاً : كيف قتلها أخوها ، أو أين قتلها ؟ أدركها في العاصمة ، وقتلها بملا من الناس ، وأسلم نفسه للشرطة . وأكبر الظن أنه كان يرقب أخته ، وأنه كان يعلم من أمرها كل شيء ، وأنه كان يدبر هذا الشر تديراً . والمهم أنه فعل فعلته ، وأنه بهذه الفعلة قد رد عنا شرّاً عظيماً ، ونهبنا لخطر عظيم . أراحنا من هذا الزواج المنكر ، وقطع على نعيم طريق التمرد والعصيان ، ونهبنا إلى أن في أمثاله من أهل القرية نزوعاً إلى شيء جديد ، فيجب أن نسير معهم سيرة جديدة ، وأن نلائم بين طموحهم هذا الطارىء وسياستنا لأموالهم .

ولكن هذا حديث لم يحن حينه بعد ؛ فقد نستطيع أن نفكر ونزوي متى أتبع لنا التفكير والتروية ؛ فاما الآن فقد يظهر أن لدينا ما يشغانا من الأمر . ثم رفع القدح إلى فمه فكاد يأتي على نصف ما فيه . ثم أشار إلى الشاعر أن اشرب . قال الشاعر : إن لم تكن في حاجة إلى عقلك ، فقد تكون في حاجة إلى

بعض عقلى ؛ فأمهاني ولا تشتط على . قال رءوف : أما أنا فشديد الحاجة إلى عقلى كله ، وإنك لتعلم أن الخمر أعجز من أن تذهب به . وأما أنت فلست في حاجة إلى عقلك ؛ لأنى لا أريد منك روية ولا تفكيراً ولا مشورة ، وإنما أريد منك طاعة وتنفيذاً للأمر وتحقيقاً لما أريد .

قال الشاعر : وعندك إذن أمر تريد أن تصدره إلى ؟ وما عسى أن يكون هذا الأمر ؟ قال رءوف : أتعرف لماذا حجبك آنفاً ؟ قال الشاعر : لأنك كنت مشغولاً ببعض الضيف . قال رءوف : ألم تر هذا الضيف ؟ ألا تعرف من هو ؟ قال الشاعر : لقد كنت مشغولاً عنك وعنه بالنظر في ذلك الكتاب . قال رءوف : فانه حاكم الاقليم ، قد أقبل يزورنى ، ويسألنى في بعض حديثه عما سمع من أن نعيماً معترماً أن يسافر إلى إيطاليا وغيرها من بلاد أوربا ، ليقضى عاماً أو أكثر من عام . قال الشاعر : فانى لم أسمع قط بشئ من حديث هذه الرحلة . قال رءوف : لم تسمع أنت ، ولكن حاكم الاقليم سمع ، وأقبل ينبئنى بما سمع . ويجب أن يتحقق ما سمع ، وأن يرحل نعيم إلى حيث يريد من بلاد الله ، فيغيب عن هذه الأرض عاماً أو أكثر من عام . في هذه الرحلة تهدأ نفسه ، ويستقر قلبه بين جنبيه ، ويسترد شيئاً من صواب ، وينتفع بما تفرض الغربة على المغترين من التجارب . أعدده إذن لهذه الرحلة ، ويسر له أمرها ، واصحبه فيها إن شئت أو شاء ؛ ذلك أجدر أن يريح الأسرة من بعض اللغط ، وأن يرد عنها بعض الشر ، وأن يصلح بعض ما فى النفوس . ثم رفع القدح وأتى على ما فيه ، وأشار إلى الشاعر فلم يجد منصرفاً عن الطاعة ، فأفرغ قدحه . وهم رءوف أن يصب ، ولكن الشاعر استعفاه قائلاً : لم أحتج قط إلى عقلى كما أحتاج إليه الآن . وإذا لم يكن للخمر سلطان عليك ، فان سلطانها على عظيم . ثم نهض مشاقلاً . قال رءوف : إلى أين ؟ قال الشاعر : إلى حيث ألقى نعيماً ، ثم إلى حيث أصلح من أمرى ، ثم إلى حيث أنفذ ما تريد . قال رءوف : إن نعيماً مسافراً إلى العاصمة اليوم ؛ فاصحبه فى سفره ، وتحدث إليه أثناء الطريق . وما زال عندك فضل من وقت فأقم ؛ فما أريد أن أجلس وحدى إلى مائدة الغداء . ثم ضرب إحدى يديه بالأخرى ، فأقبل الخادم ، فأشار إليه أن يرفع أداة الشراب ، وقال له وهو ينصرف : إرسل إلى خليل .

وخليل هذا كاتب من كتاب القصر ، أقبل بعد قليل ، فلم يكذب ينحنى

ويلقى التحية حتى ابتدره رءوف قائلا : ألم أسمع أن شراً عظيماً قد نزل ببعض أهل القرية ؟ قال خليل في صوت خافت متهدج : هو محمود الحذاء أصيب في ابنه جميعاً ، قتل ابنه أحمد أخته خديجة ، وأسلم نفسه إلى الشرطة . قال رءوف : اذهب فواسه ، ويُسّر له العسير من أمره ، وأعنه على الرحيل عن القرية إلى حيث يشاء إن أظهر رغبة في الرحيل . قال خليل : الرحيل ! وإلى أين يمكن أن يرتحل ؟ قال رءوف في صوت كاد يمتد ولكنه رده إلى الهدوء : اذهب فأنفذ ما أمرتك به . فلم يستطع خليل إلا أن ينحنى ، ويحيى ، وينصرف . ولم يكده يغلق الباب من دونه حتى قال رءوف : بعداً لهؤلاء الموظفين ! ما أعظم حظهم من الغباء !

قال الشاعر وهو يشعل سيجارة : أما أنا فإن لى من الغباء حظاً ، ولكنه ليس عظيماً فيما أظن . قال رءوف : وما ذاك ؟ قال الشاعر : إن لم أكن كهؤلاء الموظفين فقد يخيل إلى أنك تريد أن تحدث من حولك فراغاً ، وأن تعرض أمامك لوحة بيضاء كما يقال . فلم يجب رءوف ، وإنما استلقى في أعماق كرسیه ، وأغرق في صمت طويل ، ثم قال في صوت يشبه صوت النائم : لا أريد إلا أن أستريح . قال الشاعر : وتريد أن يستصحب نعيم أمه في سفره البعيد ؟ فأشار رءوف بيده إشارة المتعب المكدود ، وقال : هيات ! ذاك شئ لاسبيل إليه . ستبقى حيث هي ؛ فانما هو لسان هفا فسبق بكلمة لا تقدم ولا تؤخر . وما أكثر ما يهفو الناس ثم يصلحون هفواتهم !

ولبت الرجلان في مكاتهما ثابتين مطرقين لا يديران بينهما حديثاً ، ولا ينظر أحدهما إلى صاحبه . ولو قد رآهما راء لقدراً أن قد استحالاً تمثالين جامدين . ثم أزعجهما عن سكونهما هذا طرق الباب ، ثم ظهور الخادم يدعوهما إلى المائدة . وما أظنك تريدني على أن أصحبهما إلى المائدة ، ولا على أن أراققهما بعد غدائهما لأشهد ما يجري حولهما وحول الأسرة كلها من الخطوب . فانت تستطيع أن تقوم مقامى في ذلك ، وأن تتصور ما يحدث لهؤلاء الناس على اختلاف أشخاصهم وأماكنهم من الأحداث كما تشاء ؛ فليس يعينى الآن من أمرهم إلا أن الفتى قد ارتحل إلى أوربا ، وأن أمه قد استقرت في مكانها من القصر ، وأن الشاعر قد عاد بعد رحلة قصيرة إلى العاصمة ، فاستقر في جناحه المقسوم له واستأنف حياته . كعهده قبل أن تحدث هذه الأحداث ، يلقي رءوفاً حين يرتفع

الضحى فيتنزه معه في الحديقة ، أو يجلس معه على ضفة النهر ، أو يخلو معه في مكتبه ، يتحدث إليه ويسمع منه ، وينشله من شعره ، ويقرأ له ما شاء الله أن يقرأ في هذا الكتاب أو ذاك . وقد يلقاه إذا أقبل المساء فيستأنفان حياة كحياتهما في أول النهار . والأيام تمضي بسرعة أو مبطئة ، وأكبر الظن أنها تمضي بسرعة بالقياس إلينا نحن لأن أيام القصص بسرعة دائماً ، كما كان يقول لنا الذين كانوا يقصون علينا الأحاديث أثناء الصبا ، وتمضي مبطئة أشد البطء بالقياس إلى الذين يحيونها بالفعل ، إذا ألت بهم النوازل أو ألح عليهم الشقاء ، وتمر مر السحاب بل أسرع من مر السحاب ، إن أتيت لم حياة ناعمة راضية . وقد مضت الأيام على هؤلاء الناس مبطئة ومسرعة ، ولكنها مضت على كل حال ؛ لأن من طبيعة الزمن أن يمضي دائماً ، وهو لا يعرف الوقوف كما أنه لا يعرف الإسراع ولا البطء ، وإنما هو يمضي على نسق واحد نراه نحن سريعاً حيناً وبطيئاً حيناً آخر .

وفي ذات ليلة جلس الصديقان في جوسقهما ذاك على شاطئ النهر يتحدثان في هدوء ودعة ، وقد سكن من حولهما كل شيء إلا هذا النهر الذي يجري في يسر ، وتصطفق أمواجه في خفة وعدوية ، وإلا هذه الغصون التي يداعبها النسيم ، فيسمع لأوراقها هفيف وحفيف ، وإلا هذه الضفادع التي تسكن حيناً ، ثم تنق كأنها تنتظر من الليل شيئاً ، فإذا أبطأ عليها أو التوى بما تنتظر منه جأرت بالسؤال والالاحاح ، ثم ثابت إلى الدعة والسكون ، ثم استأنفت دعاءها ونداءها وإلحاحها .

ولست أدري فم كان الصديقان يتحدثان ، ولكني أعلم أن رءوفاً قطع الحديث فجأة ومس كتف الشاعر في رفق ، ثم قال له : أنظر إلى ما وراء النهر أترى شيئاً ؟ فمد الشاعر طرفه ثم رده ، ثم قال : تريد هذه النار التي تتألق على هذه القمة ؟ قال رءوف : نعم ، متى عهدك بها . قال الشاعر : منذ أشهر . قال رءوف : ولم تكن تراها قبل ذلك ؟ قال الشاعر : لا أعلم أني رأيتها قبل أن تلم بنا تلك الأحداث . وهنا أطرق رءوف إطراقة طويلة . ثم قال : أما أنا فأعرف متى رأيتها لأول مرة . أتذكر تلك الليلة التي أنفقتها في مكتبي ساهراً أنتظر الصباح ! في هذه الليلة رأيت هذه النار تتألق من وراء النهر . ولست أدري لماذا وصلت نفسي الحائرة بين ظهور هذا اللهب المضطرب ، على هذه القمة

الساكنة ، وبين مصرع تلك الفتاة التي أغواها نعيم ، وقتلها أخوها في العاصمة على ملاء من الناس . لقد ألقى في روعي ليلتئذ أن هذه الفتاة قد عبرت النهر لتستقر في حيث يستقر الذين يعبرونه دائماً ، وأن بين هذه الفتاة في دارها النائية وبين دارنا هذه أسباباً لم تنقطع وأوطاراً لم تنقض ، فهي تشير بهذا اللهب ، الذي يخفق دائماً ، ولكننا لا نراه إلا حين يحين الليل . إلى ما بينها وبيننا من أسباب وأوطار .

قال الشاعر وهو يرفع القدح إلى فمه : تفسير لابأس به . إنك لتعلم أن ما وراء النهر أشد غموضاً من أن تنفذ إليه أفهامنا . وطالما سألت النهر عما وراءه فلم ينبئ بشيء . قال رءوف : أما أنا فما أشك في صدق ما أحدثك به ، وإلغما بال هذا اللهب لم يخفق ، وما بال أعيننا لم تره إلا منذ صرعت تلك الفتاة ! ولكن في الأمر ما هو أشد من هذا غرابة وأعظم خطراً . أتعلم أني أجد في خفق هذا اللهب شيئاً يشبه أن يكون دعاءً لي ، وأن نفسي تازعني إلى أن أعبر النهر ؟ قال الشاعر : حسبك ! فاني أخشى على عقلك الاختلاط . ولو علمت أنك تسمع لي إن أشرت عليك ، لقلت إن حاجتك إلى الرحلة والاعتراب ليست أقل من حاجة نعيم . قال رءوف في صوت يشبه أن يكون همساً ، وقد مال إلى أذن صاحبه كأنما يريد أن يسر إليه : فانك لا تعرف من القصة كل شيء . قال الشاعر : وفي القصة إذن شيء غير ما علمت ؟ قال رءوف : نعم ، في القصة أن هذه الفتاة كانت قد وقعت من نفسي موقعاً غريباً ، قبل أن يفتن بها نعيم .

ط م صين

ا يتبع ا

في أفق السياسة العالمية

حديث الامبراطورية البريطانية

تقول الأساطير الاغريقية القديمة ان البطل الاثيني ثيسيوس Theseus حين ذهب إلى قصر التيه في جزيرة كريت متحديا ملكها ، أمسك بيده خيطا دقيقا كان يرخيه كلما تابع السير ، وبذلك أمن العثار ، فلم تختلط عليه مسالك القصر وعرصاته ، واستطاع في آخر الامر أن يجد لنفسه من التيه مخرجا . وليست الامبراطورية البريطانية الآن من حيث التعقيد والتنوع وكثرة الشعاب أقل من قصور التيه في الأساطير القديمة جميعا . فما علينا إذا أردنا البحث في موضوعها إلا أن نسير في أحنائها ومعاطفها ويدينا حبل من التاريخ نثبته في نقط معينة تختارها ، حتى لا نغيد عن محجة الطريق ، ثم نمضي بعد ذلك قدماً في بحثنا . ولتكن هذه النقط التي تختارها حول تطور حركة الاستقلال في الاملاك الحرة داخل الامبراطورية البريطانية .

وما دعاني إلى الكتابة في هذا الموضوع إلا أمران : الأول أن نهرو الزعيم الهندي ونائب رئيس حكومة الهند ، كان قد اقترح على الجمعية التأسيسية التي تضطلع الآن بمهمة وضع الدستور أن تعلن حكومة الجمهورية في الهند . وقد أرجأت الجمعية بحث الموضوع مؤقتاً . وإقرار هذا الاقتراح يقتضي حتماً أن ينزل ملك انجلترا عن لقب «إمبراطور» ؛ فيفقد التاج البريطاني بذلك ألمع جوهرة تزينه . ذلك لأن الملك ليس له أن يتسم بلقب الامبراطور إلا بالإضافة إلى الهند ، أما في خارج الهند وفي انجلترا نفسها فهو الملك لا غير .

فهل مقدريا ترى أن تصبح الامبراطورية البريطانية اسما على غير مسمى ؟ أما الأمر الثاني فهو ما نلمسه الآن من تعنت الحكومة الانجليزية بشأن الجلاء عن مصر ووحدرة وادي النيل . ولو تقصينا تاريخ الانجليز مع أبناء جلدتهم المنتشرين في أنحاء العالم ، ووقفنا على الجهود التي بذلتها هؤلاء في المستعمرات التي اتخذوها وطناً ، والوسائل التي تذرعوها بها للخلاص من سلطان

البرلمان الانجليزى ونير الحكومة الانجليزية، لأدركنا أنه ليس أوقع في نظر الانجليز من قوة الأمر الواقع، وأن الحقوق المهضومة لا يكسبها أصحابها برخصة أو سند من الخارج، بل يستخلصونها بأيديهم ويستمدونها من ذات أنفسهم أولاً؛ وحينئذ لا يلبث الناس جميعاً أن يعترفوا لهم باستحقاقهم لما أحرزوه. وقد سلخ الانجليز قرابة ثلاثة قرون ونصف قرن يزاولون الاستعمار في قارات العالم القديم والجديد، وقد صادفهم في أثناء اضطلاعهم بهذه الشؤون ظروف مواتية وثروات طائلة، إلى جانب محن وأحداث وحروب وثورات ودروس وتقلبات كان من شأنها أن تكسب الحكومة الانجليزية خبرة ومراعاة في تكييف مسائل الشعوب الصغيرة والضعيفة التي تعرض لها. ولكننا مع الأسف نراها كملوك البوربون في فرنسا في القرن الماضي لم ينسوا شيئاً ولم يتعلموا شيئاً كثيراً؛ فهي إذا تعلمت كيف تعامل أبناءها وبناتها متى شبوا عن الطوق، نراها مع غير هؤلاء تعيد كتابة اللوح القديم من ألفه إلى يائه، وتقف أمامهم ملوحة بعصاها في انتظار الناقوس الذى سيدق حتماً مؤذناً بانتهاء حصّة المدرس وانصراف التلاميذ إلى بيوتهم حيث آباؤهم وأمهاتهم وبنو عشيرتهم يلقنونهم دروس الحياة في الحرية وحب الوطن.

وقد كابلت إنجلترا أول دروسها في أمريكا، وكان تلاميذها من صفوة أبناء الطبقة المتوسطة. أولئك الذين جاهدوا بأموالهم وأرزاقهم وعزائمهم في سبيل مبادئهم وضمائرهم، واشتروا الحرية في العالم الجديد بكل ما كان عزيزاً عليهم في العالم القديم.

فهل نعموا حقاً بالحرية التي تعشقوها، ورضيت لهم إنجلترا في مقامهم الجديد بحق الاستقلال الذاتى يباشرونه بحراسة الحكومة الانجليزية وتحت إشرافها؟ لم يحدث شيء من ذلك، بل ظلت الحكومة الانجليزية تتدخل في شؤونهم، فتفرض عليهم القوانين التي يسنها البرلمان في إنجلترا، وتطلب أن يعرض عليها ما تقرره مجالس المستعمرات للموافقة عليه أو رفضه، وتتدخل الكنيسة الانجليزية في شؤون المستعمرات الدينية، على حين أن الرواد الأوائل من هؤلاء المستعمرين لم يهاجروا من بلادهم إلا فراراً من التحكم في ضمائر الناس ومعتقداتهم. وأخيراً أصرّ البرلمان الانجليزى ومعه الحكومة على تقرير رسوم وضرائب جديدة على أهل المستعمرات لتسديد بعض الديون التي

كابيتها إنجلترا في حروبها ضد فرنسا . فاعترض أهل المستعمرات وقالوا إنهم غير ممثلين في البرلمان الانجليزي ، ولا يستجيبون في دفع الضرائب إلا للقوانين التي تصدرها جمعياتهم التي يمثلون فيها . وقد بعثوا بموقفهم هذا النظرية القانونية الشهيرة التي تقول : « إنه لا ضريبة من غير تمثيل » . ومع أن الحكومة الانجليزية قد اضطرت إلى سحب بعض هذه الضرائب التي كانت قد فرضتها فإن البرلمان قد أصرّ على حقه في التشريع لجميع أجزاء الامبراطورية البريطانية . وكانت نتيجة هذا التعنت من جانب الحكومة الانجليزية أن نشبت حرب الاستقلال الأمريكي في سنة ١٧٧٥ . وقد لاقى أهل المستعمرات في أول الأمر محناً وشدائد عدة ؛ فقد كان يعوزهم المال والرجال ، وينقصهم حسن القيادة وهم يحاربون أقوى دول الأرض مجراً وأكثرها مالا وجاهاً . ولكنهم سرعان ما حزموا أمرهم وجمعوا كلمتهم ، فاختروا لقيادتهم بطلهم جورج واشنطن ، فجعل يدرّب الجيوش ويرسم الخطط ويتفق عليها مع أصدقاء أمريكا من قواد فرنسا وأسبانيا اللتين اغتمتا الفرصة وأعلنتا الحرب على إنجلترا . وكان مندوبو المستعمرات الأمريكية قد اجتمعوا في مدينة فيلادلفيا في مايو سنة ١٧٧٦ وأعلنوا استقلالهم في الوثيقة التاريخية التي قالوا فيها تأييداً للآراء الديمقراطية التي تقوم عليها حكومة الولايات المتحدة : « إن الحكومات تستمد قوتها من إرادة المحكومين ورضائهم . فإذا أخلت حكومة بذلك الأساس صار من حق الشعب أن يقوض هذه الحكومة ويقم بدلا منها غيرها على أسس ومبادئ خليقة بأن تحقق للناس أمنهم وسعادتهم . » وكان لاعتراف فرنسا وأسبانيا وغيرها من دول أوروبا التي كانت تنقم على إنجلترا حق سيادتها على البحار أثر ظاهر في تقوية الروح المعنوية لدى الأمريكيين ، وتحول الحرب من البر إلى البحر بوقوف الدولتين الاستعماريتين المتنافستين إنجلترا وفرنسا وجهاً لوجه . واستمرت الحرب سجالاً بين الجانبين إلى سنة ١٧٨١ حين انتصر واشنطن وحلفاؤه الفرنسيون ، واضطر الانجليز إلى التسليم أمام يوركتون ، وعقدت معاهدة الصلح في سنة ١٧٨٣ ، وبها أقرت إنجلترا استقلال الولايات المتحدة ؛ وبذلك انطوت الصفحة الأولى من سجل الاستعمار الانجليزي . ولو أن إنجلترا كانت قد سارعت إلى إجابة أبناء مستعمراتها إلى ملتسمهم برفع الضرائب والرسوم المفروضة عليهم كرهاً

والنزول عن حق التشريع لجماعات تفصلهم عنها آلاف من الأميال يقتضى طيها. في تلك الأيام ذهاباً وإياباً ثلاثة أشهر على الأقل — لبقيت أمريكا إلى اليوم إحدى مجموعة الأمم الحرة داخل نطاق الامبراطورية البريطانية .

ولكن خيبة الأمل التي عانتها إنجلترا بضياع الولايات المتحدة من يديها قد علمتها أن تحترس وتسخر في معاملاتها مع باقي المستعمرات التي تقوم على جهود المستعمرين من الانجليز وغيرهم من الشعوب الأوربية، فانتهجت في كندا سياسة ما لبثت أن اتخذتها نموذجاً احتذته في باقي المستعمرات . ففي سنة ١٨٣٧ عين لورد درهام Durham حاكماً عاماً على كندا ؛ وكان الغرض الأول من تعيينه تهدئة النفوس الثائرة ضد الموظفين الانجليز. الذين كانت ترسلهم الحكومة الانجليزية لشغل الوظائف التنفيذية ، وتسوية الخلافات بين أهل المستعمرة من الانجليز والفرنسيين . فنجح درهام في مهمته ، وقبل أن يبارح البلاد في سنة ١٨٣٩ وضع تقريراً تاريخياً هاما في سياسة الاستعمار ضمنه المبادئ الكبرى التي سارت عليها الحكومة الانجليزية فيما بعد . وتتلخص هذه المبادئ في ضرورة منح المستعمرات حكومات ذاتية ، تكون مسئولة رأساً أمام الهيئة التشريعية في المستعمرة ، وضم الأقاليم التي تتألف منها المستعمرات في نظام فدرائى أو اتحادى شبيه بالنظام الذى سلكته الولايات المتحدة . وكان إنشاء السكك الحديدية قد بدأ ينتشر حينذاك ، فحضر لورد درهام على تعمير البلاد وربط أطرافها ببناء السكك الحديدية ؛ وبذلك تألفت الأقاليم وتندمج المصالح ويكثر العمران . وقد أقرت الحكومة الانجليزية هذا النظام ، واتبعته تدريجياً في كندا ثم في سائر أملاكها . وبعد أن كان النزاع حاداً بين الانجليز والفرنسيين الذين استعمروا وادى نهر سنت لورنس في كندا اتفق العنصران واثلفت مصالحهما ، وأصبحت اللغة الانجليزية واللغة الفرنسية التي يتكلمها ٣ في المائة من سكان كندا مستعملتين رسمياً في البلاد . وقد تمتعت كندا بالحكم الذاتى في سنة ١٨٤٩ وتألفت حكومة الدومينيون باتحاد ولايات كندا سنة ١٨٦٧ .

وحذت أستراليا حذو كندا ، فبدأت ولاياتها تتمتع بالحكم الذاتى منذ ١٨٦٠ ثم توالى الأحداث التي جعلت أهل الولايات يطالبون بتكوين اتحاد

قدرائى ، حتى يمكن مواجهة الخطر الصينى واليابانى ، وكان كلاهما يهدد القارة الجديدة بخطر داهم . فالصينيون كانوا يتزحون بسرعة وبكثرة للعمل فى مناجم الذهب والنحاس التى استكشفت فى استراليا . واليابان كانت تعد نفسها الدولة الحرة البحرية الاولى فى الشرق الأقصى ، وكانت ترنو ببصرها نحو أستراليا . لذلك اتفق الاستراليون على تأليف حكومة اتحادية ، وأصدر البرلمان الانجليزى قانونا بذلك فى سنة ١٩٠٢ ، ولم يطلق الاستراليون على اتحادهم اسم « الدومينيون » مثل كندا ، بل أسموا اتحادهم « الكومنولث » Commonwealth وهى أقرب الكلمات إلى معنى الجمهورية . ولم تشترك نيوزيلندة فى هذا الاتحاد ، بل كونت حكومة ذاتية مسئولة منذ ١٨٥٢ وجعلتها صورة قريبة من شكل الحكومة الانجليزية . وأهل نيوزيلندة من أشد الناس تعلقا بالامبراطورية البريطانية وأكثرهم شبهاً بأبائهم وأجدادهم .

أما فى جنوب إفريقية فقد صادف الاستعمار الانجليزى من جانب المستعمرين الهولنديين الذين عرفوا بالبوير صلابة وشدة مراس ، أدت فى النهاية إلى نشوب حرب مريرة بين العنصرين . وقد آلت مستعمرة الرأس من الهولنديين إلى الانجليز فى أثناء الكفاح بين فرنسا وانجلترا فى عهد الثورة الفرنسية ونابليون بونابرت ، وكانت هولاندة خاضعة إذا ذاك لنابليون باسم جمهورية بتافيا . وقد تأيد امتلاك انجلترا للمستعمرة بمقتضى قرارات مؤتمر فيينا . ولكن الهولنديين الذين هاجر أجدادهم من بلادهم ، كما فعل المستعمرون الأمريكيون ، فراراً من الاضطهاد ، لم يطبقوا أن يخضعوا لحكم الانجليز ، فأخذوا يرحلون بين سنتي ١٨٣٥ و ١٨٣٧ بالآلاف من دورهم ومعهم أولادهم ونساؤهم وماشيئهم نحو الشمال ، ضارين فى آفاق الأرض على غير هدى ، مستهدفين لغارات القبائل الهمجية ، ثابتين لتقلبات الجو ووعورة الطرق ، حتى حط بعضهم الرحال فى إقليم ناتال على ساحل المحيط الهندى ، وتابع بعضهم السير غرباً وشمالاً حتى استقروا فى إقليمى نهر أورانج والترنسفال . وكانوا يمتنون أنفسهم بعد هذه الهجرة أن يعيشوا أحراراً فى مواطنهم الجديدة بعيدين عن مضايقة الاستعمار الانجليزى . ولكن آتى لهم ذلك وقد أصبحوا مواطنين خاضعين للقانون الانجليزى ! فما زالت حكومة الرأس تتعقبهم مرحلة بعد أخرى حتى مد الأخطبوط الاستعماري أطرافه واحتضن هذه الأقاليم جميعاً

وما جاورها . وكان إقليم ناتال أول ما امتدت إليه يد الانجليز لوقوعه على ساحل المحيط الهندي ، وإمكان تهديده لمراكز الانجليز في مستعمرة الرأس . وعلى أثر ذلك هاجر البوير من ناتال بقضهم وقضيضهم تاركين مواطنهم للمرة الثانية سنة ١٨٤٥ ، قاصدين إلى الشمال والغرب والترنسفال والأورنج . ثم هبت على البلاد نسمة من أريج الحرية ، كان مصدرها حكومة الأحرار في إنجلترا ، فسمح لمستعمرات الرأس جميعاً بالحكم الذاتي ، وأصبح البوير أحراراً في جمهوريتهم اللتين أقاموهما في الأورنج والترنسفال . ولكن سرعان ما استكشفت مناجم الماس والذهب في الترنسفال والأورنج . ولما كان إنتاج الجمهوريتين ، وخاصة في الترنسفال ، لذين المعدنين النفيسين قد فاق كل ما كان منتظراً ، فقد انجذب الانجليز من رجال الأعمال وغيرهم من الأوربيين نحو مصدر هذه السعادة الدافقة ، وبدأت الحكومة الانجليزية منذ ذلك الوقت تضع خططها لضم الجمهوريتين . فكأنما كان كشف الماس والذهب في تلك الأرجاء نذيراً للبوير بضياع حريتهم واستقلالهم .

وقام النزاع بين الانجليز والبوير بشأن حق التمثيل في الترنسفال ؛ إذ قصره كروجر Kruger رئيس الترنسفال على البوير دون الآخرين ، وكان على رأس حكومة مستعمرة الكاب أو الرأس سسل رودس Rhodes الذي يرجع إليه فضل توسيع النفوذ الانجليزي في تلك الأرجاء ، وقد دبر سرّاً مع أحد أصدقائه هجوماً سريعاً على الترنسفال ؛ لكنه مالبث أن أخفق وكسب البوير أول موقعة من مواقع الحرب التي استعرت بين الانجليز والبوير واستمرت إلى ١٩٠٢ . وقد حالف النصر البوير في أول الأمر ، لضعف القوادِ الانجليز من جهة ، ومهارة البوير في الكر والفر من جهة أخرى ، وقد انتهز وليم الثاني إمبراطور ألمانيا الفرصة لظهار حنقه على إنجلترا ، فأرسل برقيته الشهيرة يهنئ كروجر على انتصاره . وبدأ للناس جميعاً أن الانجليز لابد مغلوبون أمام صلابة البوير وحنكة قوادهم . ولكن الانجليز ، كطبيعتهم في الحروب ، تذرعوا بالصبر وضبط النفس على رغم هزيمتهم ، وأخذوا يعدون العدة لفك الحصار عن المدن التي طوقها البوير ، وعينوا لقيادة الحرب اثنين من أكبر قوادهم ، وهما لورد روبرتس Roberts قائداً عاماً . ولورد كتشنر رئيساً لأركان الحرب . وعلى أثر ذلك توالى انتصارات الانجليز وفك الحصار

عن المدن ، وآخرها مافكنج . ومن ثم سقطت بريتوريا عاصمة الترنسفال ، وجوهانسبرج الشهيرة بمناجم الذهب ، وكذلك سقطت مدن جمهورية الأورنج حليفة الترنسفال في الحرب ، واضطر الرئيس كروجر إلى الفرار إلى أوربا حيث بقي بها إلى أن مات سنة ١٩٠٤ . ولكن البوير كشعب وجيش محارب لم يقهروا ولم يذعنوا ، بل لجأوا إلى حرب العصابات ، وأخذوا يغيرون باستمرار على السكك الحديدية ومراكز الانجليز وقواعدهم ليلة بعد أخرى ، والانجليز حائرون في أمرهم لا يعرفون لهم مستقراً . وأخيراً لم يقو البوير على متابعة هجراتهم ؛ فقد أخذت أعدادهم تقل . وكان كتشنر الذي تولى القيادة العامة بعد روبرتس قد أمر بجمع أسر البوير نسائهم وأطفالهم في معسكرات خاصة تحت حراسة الانجليز ؛ فلم ير البوير مندوحة من مفاوضة الانجليز للصلح . وانتهت الحرب في مارس سنة ١٩٠٢ بمعاهدة فرينجنج Vereeniging وقد أبدى فيها الانجليز كثيراً من الكرم والمروءة ، فدفعوا للبوير تعويضاً عما أصاب مزارعهم وحقولهم من التلف ، وقرروا أن يبقى تعليم اللغة الهولندية بالمدارس ويستمر استعمالها بالحاكم ، وأن يتمتع الذين يستسلمون منهم بحرياتهم وأموالهم كاملة . وشفعوا هذه المعاهدة بعد خمس سنوات بأعطائهم حق الحكم الذاتي . وبعد ذلك بسنتين تألف اتحاد جنوب إفريقية من الولايات الأربع : الرأس وناقال والترنسفال والأورنج ، وصارت اللغة الهولندية المعروفة في جنوب إفريقية بالأفريكان *Africaans* رسمية إلى جانب اللغة الانجليزية . ويبلغ عدد البوير الذين يتكلمون هذه اللغة نحو ٦٠ في المائة من مجموع السكان الأوربيين . ولما آنسوا صعوبة في تعيين العاصمة اتفقوا على حل طريف ، وهو أن تكون بريتوريا مقر الحكومة التنفيذية ، ومدينة الكاب مقر الهيئة التشريعية ، ويلمفتين عاصمة الأورانج مقر الهيئة القضائية العليا ، واختاروا لرياسة حكومة الاتحاد القائد البويري بوذا *Botha* ومنذ ذلك الوقت أخذت الجروح التي خلفتها الاجيال السابقة تندمل . وقد اشترك اتحاد جنوب إفريقية في الحربين العالميتين إلى جانب إنجلترا ، وكان المارشال سمطس رئيس الحكومة إذ ذاك عضواً في وزارة الحرب في أثناء الحرب العالمية الأولى ، ولا يزال من كبار أساطين السياسة في الامبراطورية البريطانية .

أما تاريخ إيرلندا فمأساة طويلة بدأ الفصل الأخير منها سنة ١٨٠٠ حين

قرر البرلمان الانجليزى ضم ايرلندة إلى بريطانيا على غير رضا الأهالى . وقد حاولوا إرضاء الشعور الكاثوليكي في ايرلندة خاصة وسائر أنحاء الامبراطورية عامة برفع القيود المدنية التى كانت تحول دون اضطلاع الكاثوليك بالاعمال الحكومية . ولكن ذلك لم يجد شيئاً ، إذ عمد نواب ايرلندة في البرلمان الانجليزى إلى عرقلة الاجراءات البرلمانية ووضع العقبات في طريق الوزارات التى كانت تتناوب الحكم سواء من المحافظين أو الأحرار إلى أن قام الوزير الانجليزى المعروف غلادستون زعيم الأحرار ينادى بضرورة إعطاء ايرلندة نظام الهوم رول Home rule أو الحكم الذاتى . وقد أثارت سياسته ضجة هائلة بين الأحزاب الانجليزية ، فانحاز عدد كبير من الأحرار إلى جانب المحافظين أو الاتحاديين أى الذين يحبذون بقاء الاتحاد بين بريطانيا وإيرلندة ، وظل مشروع الحكم الذاتى لارلندة بين الصعود والهبوط والاقرار والرفض إلى سنة ١٩١٤ حين وافق البرلمان الانجليزى على نظام الهوم رول مع استبعاد إقليم ألستر في شمال ايرلندة من هذا النظام وإبقائه على اتحاده مع بريطانيا .

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فوقفت تنفيذ الهوم رول ، واشترك فيها الارلنديون بحماسة المعهودة حتى إن الأنشطة التى أصبحت علماً للحرب وتناقلها الألسن وتغنى بها جنود الحلفاء من كل جنس وفي جميع الأصقاع كانت تردد في مطلعها الحنين إلى تبرارى Tipperary أحد أقاليم ايرلندة تلك الجزيرة الزمردية الخضراء . ولكن كل هذا لم يمنع قيام ثورة مخففة في سنة ١٩١٦ بمساعدة ألمانيا ، ثم تكوين جماعة الوطنيين المعروفين بالسن فين sinn fein الذين نظموا صفوفهم تنظيمًا عسكرياً ، ونادوا باستقلال ايرلندة التام . فما كادت تنتهي الحرب حتى كانت ايرلندة في حالة هياج شديد ضد الانجليز . ولم يلبث أن نشب القتال بين الجانبين واجتمع في سنة ١٩١٨ ٧٣ عضواً من أعضاء البرلمان الذين انتخبوا من حزب السن فين وأعلنوا جمهورية ايرلندة المستقلة ، وكونوا وزارة لارلندة أخذت تواصل أعمال العنف ضد الانحياز ورجال البوليس بصنعة خاصة ، واستمرت هذه الحال إلى سنة ١٩٢١ حين بدأت المفاوضات بين ديناليرا De Valera رئيس السن فين والحكومة الانجليزية . وعقد الجانبان «معاهدة الارلندية» . وبمقتضاها صار لدولة ايرلندة الحرية ما عدا إقليم ألستر في الشمال نظام الحكم الذاتى أو الدومنيون على مثال نظام الحكم في

كندا . ولكن الوطنيين الارلنديين لم يقنعوا ولم يتقيدوا بهذا النظام ، وسرعان ماتخلصوا من القيود الى فرضت عليهم ، فأبطلوا تعيين الحاكم العام الذى كان يمثل التاج البريطانى ، وحلف يمين الطاعة للملك ، وأصدروا دستوراً جديداً فى سنة ١٩٣٧ أعلنوا فيه الجمهورية ، وجعلوا اللغة الارلندية اللغة الرسمية للجمهورية الجديدة التى أطلقوا عليها اسم « إير » Eire وأجازوا استعمال اللغة الانجليزية ولكنهم لم يذكروا شيئاً فى دستورهم الجديد خاصا بالملك أو التاج البريطانى . ولما أعلنت الحرب العالمية الثانية التزمت إرلندة الحيدة إلى النهاية ، ولا يزال الوطنيون ينقمون على انجلترا فصل شمالى إرلندة عن بلادهم . ومادام الخلاف بين الشعبين يقوم على اعتبارات دينية فان الأمل فى الاتفاق بين الشعبين يبدو غير قريب .

وعلى ذلك فالمستعمرات البريطانية التى تتمتع الآن بنظام الحكم الذاتى هى كندا ، وأستراليا ، ونيوزلندة ، وجنوب إفريقية تضاف إليها إرلندة . وكان المحافظون كعهدهم دائماً كلما همت الحكومة الانجليزية باقرار الحكم الذاتى لاحدى هذه المستعمرات جاهرُوا بأن هذه القوانين لا بد أن تؤدى إلى انحلال الامبراطورية البريطانية وتصفيتها ، وحذروا الحكومات من المضى فيها . ومع ذلك فقد احتفظت انجلترا بتعيين حكام عامين يمثلون التاج فى هذه الأملاك ، كما احتفظت فى أول الأمر بقواعدها البحرية وحامياتها ، ويتوجيه السياسة الخارجية للامبراطورية ، وتقرير الحرب والسلم وحق الاحتكام إليها فى المسائل الثانوية والدستورية التى يختلف فيها رأى . ولكن هذه التحفظات أخذت تتساقط واحدة بعد أخرى ؛ إذ جاءت الحرب الكبرى ومكنت المستعمرات من مزاولة الأعمال الدولية فى الحرب والسياسة ، مما قوى فى نفوس أهل المستعمرات شعورهم بالمسئولية الذاتية ، وانبى على ذلك أنهم اشتركوا فى مؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ لا بصفتهم تابعين لبريطانيا ولكن باسم بلادهم ، واختير أربعة منهم ضمن الدول المؤسسة لعصبة الأمم ، كما عهد إلى بعضهم ، كاستراليا وجنوب إفريقية ، بالانتداب على بعض الأقاليم والجزر التى كانت تابعة لألمانيا . وكانت الحكومة الانجليزية تنظم بين آونة وأخرى اجتماعات تضم فيها ممثلى الامبراطورية البريطانية للاتفاق على المسائل المشتركة بينها . وكان آخر هذه المؤتمرات فى سنة ١٩٣١ وفيه صدر قانون وستمنستر Westminster الذى وضع القواعد العامة التى تنظم الامبراطورية . وقد

نص فيها على أن التاج هو الرمز الذي يربط بين أعضاء مجموعة الأمم الحرة البريطانية ، وأن أى تغيير فى وراثة التاج يستلزم أخذ رأى برلمانات الدومنيون على حد المساواة مع البرلمان الانجليزى . ونص فيها أيضاً على أن القوانين التى يصدرها البرلمان الانجليزى لا تسرى على الدومنيون إلا إذا أرادت ذلك برضاها . وبذلك زال أثر القانون القديم الذى كان يحيز للبرلمان الانجليزى حق إلغاء أو تعديل القوانين التى تصدرها المستعمرات . وبإصدار هذا القانون أصبحت المستعمرات فى حقيقة الأمر دولا ذات سيادة داخل مجموعة الأمم الحرة البريطانية ، وصارت حكوماتها مساوية فى المركز لحكومة بريطانيا نفسها ، وصار من حقها أن تتعاقد مع الدول وأن تتبادل معها التمثيل السياسى ، ولها أن تقرر دخول الحرب التى تشتبك فيها إنجلترا أو ألا تدخلها . ومعنى ذلك أن الملك فى بريطانيا قد يكون فى حالة حرب مع ألمانيا على حين يكون هو نفسه فى حالة سلم معها بصفته ملكا على جنوب إفريقية . وقد جنح التاج أخيراً إلى تعيين الحكام العامين من رجال المستعمرات نفسها .

وقد يبدو لأول وهلة من هذه القوانين أو التصرفات أن الأملاك البريطانية المستقلة لم تعد تابعة لبريطانيا إلا بالاسم ، على أن الحقيقة التى دلت عليها الحرب العالمية الثانية هى أن توافق الأمزجة والمشاعر بين الشعوب التى تسكن هذه الممتلكات وتقديسهم جميعاً للحريات وأساليب الحكم الديموقراطى الصحيح بالاضافة إلى روابط الدم واللغة والدين التى تربط بين معظم هذه الشعوب - كل ذلك قد جعل من التاج الذى يربط الجميع خيوطاً دقيقة رفيعة هى إن دقت النظر أمضى من الصلب وأرق من الهواء .

بلاد المغرب

أحاول منذ سنوات ، بقدر وسائل بحوثي اللغوية والتاريخية ، وهي متواضعة ، أن أحدد أوضاع لفظ « المغرب » جغرافية واستعمالا ، فلم أوفق ، على ما يرضيني من دقة . ولجأت إلى من هم أكثر منى توافراً على تلك الدراسات ، ومنهم بعض الأساتذة المستشرقين والمستعربين ، فلم أحظ منهم بما يطمئن . ورجوت أن أعثر خلال رحلتى الأخيرة إلى الشمال الافريقي بين مراجع مكتباتها العامة على ما يهدى فلم أجده . وأخيراً انتهيت إلى الوقوف عند حد « المشهور » ، وهو أن العرب الذين فتحوا أفريقيا هم الذين أطلقوا الغرب والمغرب على ما وراءها نحو المحيط الأطلنطي ، وأن الاصطلاح قد جرى على نعت منطقته البعيدة عن أفريقيا بالأقصى تمييزاً لها وتعييناً ، كما يجري عرف العامة الآن على تسمية ما بين المغرب الأقصى وتونس بالوسطى ، وهي المنطقة الوسطى من مناطق الجزائر السياسية الحالية ؛ لأن منطقته الغربية بعاصمتها تلمسان إنما كانت دوماً من المغرب الأقصى ، ولأن منطقته الشرقية حتى قسطنطينة كانت دوماً من أعمال أفريقيا . ولم يجر ، عند حد علمي ، استعمال « المغرب الأدنى » للدلالة على شئ بعد . أما تحديد المغرب الجغرافي فانه يبدأ عند المصريين والمشاركة من حدود مصر الغربية ، أى إنه يشمل برقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وهو عند المغاربة في عموم من حدود تونس الشرقية ، فلا يشمل طرابلس ولا برقة . لكن التحديد الوارد في بعض الموسوعات وفي بعض المؤلفات في الأجناس إنما يعتبر صحراء لوبيا الكبرى هي الفاصلة بين المشرق والمغرب ، وهي الصحراء التي تقوم من ناحية البحر المتوسط بين برقة وطرابلس ، فتكون برقة ومصر وما شرقيهما إلى الخليج الفارسي بلاد المشرق ، وتكون طرابلس وتونس وما إلى غربيهما إلى المحيط الأطلنطي بلاد المغرب .

أما سكان المغرب فهم في كثرة عظيمة من العنصر البربري الذي استوطن

شمال أفريقيا منذ عرف التاريخ هذا الشمال . والمعتبر الآن عند المؤرخين أن البربر كنعانيون ، هاجروا محترقين مصر ولوبيا منتسبين لمازيغ بن كنعان ابن سام بن نوح ، فدعوا أنفسهم « الأمازيغ » ، وفسروا اللفظ على أنه يعنى « السادة الأحرار » لا يتحملون الخضوع لسلطان ولا يذعنون إلا للقوة على مضض ، ولا يخالطون . وقد ذكر ابن خلدون أن البربر ارتحلوا مما بين النهرين ، وأنهم أقاموا بعض الوقت في مصر قبل أن يقصدوا إلى شمال أفريقيا « خوفاً أو طمعاً » كما فعلت من بعد « في دولة الحماديين جماعة عظيمة من الأعراب من صحراء مصر » . وذهب هذا المذهب البحاثة الفرنسي دوما ؛ إذ قرر أن البربر من أبناء كنعان ، وأن بينهم وبين أهل الصعيد المصرى وجوه شبه عدة . وأيد غيره هذا التقرير بأنه يوجد حتى اليوم « في الزناقة وهي قرية في جنوب الجزائر عند منتصف الطريق بين بنى سويف وواحة الفقيق — وهما بالجزائر أيضاً — رسم بربرى عتيق منقوش على صخر يمثل الاله المصرى آمون بصورة كبش على رأسه شمس ممثلة لصورة آمون رع المنقوشة على حجر بمعبد الكرنك الفرعونى » .

والبربر قلة في تونس حيث العنصر العربى هو الغالب ، وقد كانت الفتوحات الاسلامية تعتبرها هي المعسكر والمستقر ، لكنهم كثرة في الجزائر وفي مرا كش . وقد تعربوا لغة في عموم ، وأسلموا ديناً في شمول ، بل إن الاسلام ليبدو فيهم أمتن وأدنى إلى الغلو والاغراق ، وإن كانت بينهم قبائل تريد أن تتميز ببربريتها فتحافظ على تقاليدھا الخاصة في الاجتماع . وتستند هذه التقاليد إلى نظام الأسرة ، فتكون من مجموع الأسر التي يتحد أصلها وحدة اسمها الخروية تخضع لسلطة كبيرها الذي يشرف على حفظ النظام وفض المشاكل العائلية والقضايا المدنية ، ويرجع إليه أمر الزواج والطلاق ، ويقوم باكرام الزائرين والضيوف ، ويسير الأمور الفلاحية ويوزع أعباءها على أفراد خرويته .

ومن مجموع الخرويات تؤلف القبيلة مجتمعة حول ذكرى جد أعلى . وتعنى القبائل أكبر عناية بموضوع الحرمة أى احترام الجوار لأرض القبيلة أو القرية وشرفها ، ويتحالف القبيلة مع القبائل الأخرى للهجوم أو الدفاع أو تبادل المصالح . وللبربر مجالس عرفية هي مجالس الجماعة يجتمع في كل منها رؤساء الخرويات والمشايخ والأعيان ويلقبون بالضمان . ويختص المجلس بالنظر في قضايا الجنايات والجنح وفي الشؤون السياسية والمالية ، ويقوم بعارة المسجد

والمحافظة على المقابر وتوزيع مياه الري وإضافة رجال السلطة . ويجب أن تصدر قرارات المجلس باجماع الآراء ، فان لم ينعقد الاجماع على رأى تأجل صدور القرار إلى وقت ملائم آخر ، أو جرى تحكيم أجنبى عن المجلس فى موضوع الخلاف، ويكون قولهم هو الفصل . وللمجلس رئيسه ينفذ قرارات الجماعة ويسهر على الأمن واحترام الأخلاق .

ويقع شئ من الخلاف على تسمية الجزء الرابع من أجزاء المغرب بعد طرابلس وتونس والجزائر : فمن قائل إنه مرا كش ، ومن قائل إنه المغرب الأقصى ومن قائل إنه المغرب . ويقع هذا الخلاف فى التعبير فى بلاد المغرب كلها وفى بلاد المشرق أيضاً . أما فى بلاد المشرق وفى تونس فيغلب استعمال مرا كش للدلالة على ذلك الجزء الرابع ، ويقل استعمال المغرب الأقصى ، ويندر استعمال المغرب وحده . وأما فى الجزائر فيندر استعمال مرا كش ، ويتناوب القوم استعمال المغرب أو المغرب الأقصى . وفى الجزء الرابع ذاته يغلب استعمال المغرب ويتداول استعمال المغرب الأقصى ويندر استعمال مرا كش . على أن بين أهل الذكر والشباب المثقف تياراً متجهاً إلى إثارة استعمال مرا كش . ويستند هذا الاتجاه إلى أن التعبير بالمغرب فى شموله قد قل كما قل استعمال لفظ المشرق ، وأن التعبير بشمال أفريقيا هو الذى أخذ يغلب استعماله ، أو أن التعبير بالمغرب العربى مقابلاً « للمشرق العربى » هو الذى يدعى له الآن فى بعض البيئات ، وأن النعت بالأقصى يستدعى قيام مقابلة التعبير بالأدنى والأوسط ، وشئ من هذا لم يجرب به اللسان ولم تجر به الأقلام لافى العربية ولا فى لغة من اللغات الأجنبية . وكذلك يستند الاتجاه الجديد إلى أن مرا كش هو الاسم القديم الأصيل لتلك المنطقة ، وقد أطلق عليها أخذاً عن اسم عاصمتها على النحو الذى كان ذائعاً فيما مضى من عهود ، وأنه مركب من لفظين ، يرجع أحدهما إلى أصل عربى صميم ، ويرجع ثانيهما إلى أصل بربرى ؛ فكأنه يمثل الوحدة الحالية بين فريقى السكان المتأخين ، و « مر » بضم الميم فعل أمر من مرو « كش » بضم الكاف أيضاً معناها بالبربرية سريعاً . وإلى هذا فان أصحاب الاتجاه يحسبون تحقيقه تحية منهم للاستعمال المشرقى ، وهم يريدون أن تحكم الأواصر بين المغرب والمشرق . . .

ويختلف الوضع الدولى فى بلاد المغرب باختلاف هذه البلاد ذاتها . فاذا أخذنا بوجهة نظر المشاركة إلى بدء حدوده عند تخوم مصر الغربية ، فان ذلك الوضع فى برقة هو وضع إحدى المستعمرات الايتالية التى قضى مشروع معاهدة الصلح مع إيتاليا بنزول هذه الدولة عن حقوقها فيها ، وتأجيل تقرير مصيرها سنة . وهو كذلك وضع الاقليم الذى تحتله قوات بريتانية وتتولاه إدارة بريتانية خالصة . أما الموقف من طرابلس فهو أيضاً ذات الموقف من برقة من حيث الاعتبار النظرى وتأجيل المصير النهائى إلى سنة والاحتلال بقوات بريتانية . لكنه يختلف من ناحية أن الادارة فيه معهود بها للموظفين الايتاليين الذين كانوا يتولونها قبل الحرب ، تحت الاشراف البريتانى . والوضع فى تونس وضع الارتباط بمعاهدتى حماية مع فرنسا منذ سنة ١٨٨٢ . والوضع فى الجزائر أنها تؤلف ثلاث مقاطعات فرنسية تتكون منها ولاية عامة . وأما الوضع فى مراکش أو المغرب الأقصى فرباعى المظاهر : مظهر الحماية الفرنسية فى المنطقة السلطانية الكبرى ، وعاصمتها الآن هى الرباط . ومظهر الحماية الاسبانية فى المنطقة الخليفة الصغرى وعاصمتها الآن تطوان ، ومظهر اللحاق المباشر بأسبانيا فى سبتة ومليلة ، ثم مظهر الادارة الدولية فى الركن الأصغر المطل على المحيط الأطلنطى والبحر المتوسط وهو ركن طنجة . ورأس الدولة فى هذه المناطق ، إلا سبتة ومليلة ، هو سلطان المغرب الأقصى الجالس على عرشه فى الرباط ينوب عنه خليفة من بيته فى تطوان ، ويمثله مندوب فى طنجة . وإلى جانب السلطان المقيم العام الفرنسى ، وإلى جانب الخليفة المندوب السامى الاسبانى ، وإلى جانب المندوب مجلس إدارة يرأسه الآن « مراقب » برتغالى يعاونه مديرون فرنسى وأسباني وبريتانى وأميريكي وبلجيكي وهولندى يلحق بهم فى القريب روسى . . .

وكانت الفكرة التى سادت « تدويل » منطقة طنجة إنما هى فكرة الاعتبار الاستراتيجى البريتانى ، وقد أرادت بريتانيا العظمى ألا تقابل جبل طارق - قلعتها فى الشاطئ الأوروبى من مدخل البحر المتوسط - قلاع لدول قوية على الشاطئ الافريقى . أما الفكرة التى سادت فتح الجزائر فحماية تونس لحمايتى المغرب الأقصى ثم فتح طرابلس الغرب ، فكانت هى فكرة الاستعمار والاستعمار المباشر ، إذ نظم انتقال الفرنسيين والاسبانيين والايتاليين ، وكثر

بين الفرنسيين أهل الألزاس عندما استولت عليها ألمانيا بعد حرب السبعين وأهل الكورس ، كما كثر بين الايتاليين أهل صقلية ، وانضم إلى الجوانب كلها نازحون عن مالطا ، وإذ نظم بينهم امتلاك الأراضي ، وهيئت لهم أسباب الاستثمار ووسائل الفلاحة ، ودخل في أبواب هذا التنظيم تجريد الملاك الأصليين والدفع بهم إلى الداخل ، وفك الأحباس واعتبارها من أملاك الدولة وتوزيعها على النازحين . . .

وقد نشأت عن هذه الخاصية ، خاصية الامتلاك الواسع والاستقرار الطويل من جانب عدد وفير من الفرنسيين والاسبانيين والايتاليين ومن إليهم ، حالة يتميز بها المغرب في عمومته عن مصر وبلاد المشرق في عمومها كذلك . فالحياة فيه حياتان ، تكاد تكون الواحدة منهما منعزلة تمام الانعزال عن الأخرى . ولقد شهدت في تونس والجزائر ومراكش - وهي الأقطار التي زرتها أخيراً - أن سياسة العمران مستندة إلى مبدأ الثلاثية ، فكل مدينة مؤلفة من ثلاث وحدات : المدينة القديمة ، والمدينة الجديدة ، والمدينة الأوربية . والمدينة القديمة هي الأصلية العتيقة التي تحرص إدارة الفنون الجميلة على إبقاء قديمها على ما هو عليه مهما يكن هذا الإبقاء منافياً لأصول الصحة ومستلزمات الراحة . والمدينة الجديدة تتسع الشوارع فيها عن « حارات » المدينة القديمة ، وتقوم فيها الدور التي لا بأس بها . والمدينة الأوربية تشق فيها العمارات وتنظم الطرقات وتتوافر فيها وسائل الحديث في كل شيء . وقد تتصل المدينة الجديدة بالمدينة القديمة أو لا تبعد عنها إلا قليلاً ، ولكن المدينة الأوربية تبعد عنهما بكيلومترات . ويقطن أهلون المدينة القديمة والمدينة الجديدة ، ويقطن الأوروبيون المدينة الأوربية ، فتكون العزلة بين الحياتين . وهكذا أحسست في بنزرت وفي فاس وفي الدار البيضاء .

على أن هذا التجاور بين القديم والحديث لا تقف مظاهره في المغرب عند حد العمارات في المدن ، بل إنه ليتجاوز إلى جميع مظاهر الحياة في الاقتصاد والاجتماع والثقافة . فآلات الانتاج الحديثة تتأخم الآلات التقليدية العتيقة ، والمذاهب الشيوعية ، تدعو إليها أحزاب منظمة وتنطق بلسانها صحف منتشرة ، تتأخم أضرحة المرابطين ودور أرباب الطرق . ومعاهد التعليم الفرنسي الخالص على ما هو قائم في باريس نفسها من رياض أطفال ، و « ليسيئات » للتعليم

الابتدائي واثناوي الموصلين لاجازة البكالوريا ، وجامعة كاملة الكليات ملحقة بها معاهد الدراسات العليا ، تتاخم الكتاتيب التي يجلس فيها الأطفال على الحصير ويحفظون فيها القرآن على الطريقة البالية ، وإن كان بينهما نظام وسط فيما يسمونه المدارس الفرنسية الاسلامية وما تمتاز به المدرسة الصادقية بتونس ، وما يتجلى من اتجاه إلى الاصلاح والترقي يلوح في « الخلدونية » التي أقيمت إلى جانب جامع الزيتونة بتونس لتم الدراسة التقليدية بالجوانب العصرية والطرائق الحديثة .

ولقد نشأ من ذلك التناخم بين القديم والحديث — وإن كانت العزلة بينهما هي المتجلية — شيء من التفاوت في طبائع الحركات الداعية إلى الاصلاح والتحرر في بلاد المغرب ، وقد وجدتها هي الأخرى ثلاثية كما سجلتها بالنسبة لحركة العمران في المدن . ففي تونس مثلاً جماعة الزيتونيين ، وحزب الدستور القديم ، وحزب الدستور الجديد . وتستند الجماعة الزيتونية إلى الروح الاسلامية ، ويحرص الدستوريون القدماء على أن يظلوا في حدود الاصلاح الاجتماعي المعتدل ، ويحمل الدستوريون الجدد طابع التقدم والعصرية . وفي الجزائر يتجلى الطابع الديني عند جماعة العلماء ، ويستمسك حزب الشعب بالاتجاهات اليمانية الشعبية ، ويذهب زعماء اتحاد البيان إلى حدود الأخذ بالعصرية . وفي مرا كش تبرز الدينية عند جماعة الخلافة ، ويقف حزب الاستقلال عند الاستمساك بتعاليم الاسلام . ويلوح لى حزب الشورى والاستقلال أميل إلى طريق التقدميين وإن كان يحرص على ألا يدع حزب الاستقلال يسبقه إلى الظهور بمظهر الاستمساك بالاسلام وتعاليمه .

ويرجع ذلك التفاوت إلى ما بين الزعماء من تفاوت بين أنواع التحصيل ؛ فيتولى الحركات التقدمية من حصلوا العلم في المدارس الفرنسية أو بجامعة باريس ، ويتولى الحركات الاصلاحية الدينية من نشأوا نشأة دينية في القرويين بفاس أو الزيتونة بتونس ، ويتولى التوجيه السياسي من كان وسطاً بين الاثنين . على أن حركاتهم كلها من الناحية الوطنية تهدف إلى هدف واحد هو هدف التحرر والاستقلال .

سائح في العالم الجديد . . .

[مشاهد مرّ بها الكاتب في يوم من الأيام التي
قضّاها في نيويورك في صيف العام الماضي ، يصنّها
في هذه المجالة]

حقاً إنه ليوم عاصف .

لم تكن سماءه ملبدة بالغيوم ، ولم تتطّير فيه البروق ولا دوّت الرعود ، ولم
تهطل فيه شأبيب المطر ولا هجهجت الرياح .

إنه كان عاصفاً ببرناجه الذي أعدّته لنفسى ، أو بالحرى الذي أعدّوه لى .

أنت الآن في نيويورك عروس العالم الجديد حضارة وطراقة . . .

أترك الأيام تتابع يوماً إثر يوم ، دون أن تقتحم المدينة في عرينها الأصيل ،

وفيا يحف بها من أرباض ؟

إنك لتلقى بنفسك في الشارع تجول فيه وتصول . ولكن أليس لحياة

« الشارع » من نهاية ؟

إنها لحياة رخوة على الرغم مما بها من زحمة وتدافع .

هى لا تكلفك إلا هبوطاً إلى الطريق ، وانسياباً فيه ، ترجيك أمواجه . . .

حقاً أن للشارع مباحج تفعم النفس من لذة وإمتاع ، ولكنها ذات طابع

واحد ، وإن تغيرت ظواهره وألوانه . . .

لقد حلت نيويورك منذ قليل ، وستفارقها عما قريب ، فاذا بك تعود خاوى

الوفاض إلا من شارع وبعض شارع !

حقاً أنك لم تقدم هذه المدينة لنزهة أو طواف ، وإنما قدمت في مهمة علاج

وامتشاف . ولكنك على أية حال سائح أبيت أو رضيت ، وعلى السائح فروض

يجب أن ترعى . . .

لقد اندجعت في زمرة أولئك السادة الذين يسيحون في الأرض ، ويرتادون

البقاع والأصقاع . . . فعليك أن تمثل دور هؤلاء الأبطال ، لتشبع من نفسك غرورها المنهوم !

للسائح في كل بلد مقام ملحوظ ، فالتبجيل يكتنفه ، وتيسير سبيله حق له على كل من يتصل به .

إن الأدلاء والتراجمة لا يكادون يلمحونه حتى تراهم يهرعون إليه يخطبون وده ، ويكرمون وفادته ، ويغدقون عليه ألقاب العزة والاعظام .

همهم الأول أن يزينوا له النزهة ، ويعدوا له الأهبة ، ويتخذوا لذلك زخرفاً من القول يبتزون به بضعة دريهمات . . . لا يعينهم بعد ذلك أأصاب متعة أم ضل سعيه وخاب !

إن السائح في الواقع هو الرمز الأكبر للتغفل . . . الدليل يعلم ذلك حق العلم ، والسائح نفسه يعلم ذلك حق العلم . بيد أن هذا لا يمنع أن يتحد كلاهما وأن يتصافيا وأن يسلم كل منهما عنانه لصاحبه .

لا يفوت السائح أنه مضحوك منه ، مكذوب عليه ، في أغلب الأمر ؛ وأن ما يبيده الأدلاء من علائم التبجيل وآيات المصافاة ليست إلا شباكا منصوبة لتصيد مغانمه . ولكنه على الرغم من ذلك يلقي قياده هؤلاء الأدلاء ، لغير شيء إلا أن يبدو في أعين الجماهير سائحاً . . . سيداً من السراة الأعلام ، دفع به الترف إلى أن يقدم الديار ، إبهاجاً لنفسه ، وتنعيماً لناظره . . .

إنه يطمع في أن يبرز أمام سواد الناس تحديق به العيون وتحديق فيه ، وتشير إليه الأصابع إشارة الاهتمام . . . فيحس أنه طراز آخر من الناس أنفس وأغلى ، وطينة أخرى من الخلق أطيب وأزكى . . .

إنه في بادئ الأمر سائح مستطلع ، فاذا غمرته موجة الحفاوات ، وأحاطت به التشاريف من كل جانب ، نسي أن ذلك كله تمثيل وتمويه ، وخيل إليه أنه حقاً أحد أولئك السراة الأعلام الذين يشار إليهم بالبنان !

بهذه الخواطر رضيت لنفسى أن أكون سائحاً بحق !

أليس لي العذر بعد ذلك في أن أعد هذا اليوم عاصفاً ؟

سألت مراقبي :

— إلى أية وجهة أنت ماض بي ؟

— إلى ولدرف أستريا . . .

— وما هذا « الولدرف أستريا » ؟

— فندق نيويورك الأول ، وإذن هو فندق العالم الأول !

ومثلت أمام ذلك الصرح الشاهق العظيم في « بارك أفنيو » أصعد فيه النظر . إنه ليعلو بطباقة ويتشامخ ، وإنه لينبسط يمنة ويسرة ، فإذا به يحتل بضخامته رقعة مربعة من الأرض تتفرع على جوانبها شوارع أربعة فساح . . . ولم يطل بي التطلع ، خشية أن يعاجلني دوار ، فاندفعنا مقتحمين بابه ، فطوانا الصرح في جوفه طى القطرة في صخب الأمواج ، وأخذ يرمى بنا من جانب إلى جانب ، كأننا في قصر التيه ، ندور في مسالك متشابكة مفض بعضنا إلى بعض ، لا مدخل لها ولا مخرج .

ولبثنا نجوب هذه المتاهة ، نخرج إلى سائها ، ونهبط إلى قاعها ، ونضرب في أرجائها طولا وعرضا ، تتوالى علينا الصور والمشاهد ، كأننا في منام مضطرب تراءى لنا فيه أضغاث أحلام .

ردهات فخمة ، مطاعم متباينة الدرجات ، مسارح ومراقص ، قاعات للمحاضرات ، أبهاء للحلاقة تعد فيها المقاعد عشرات ، مكاتب ، حوانيت ، مضخات للصوت يتعالى ضجيجها حيناً بعد حين . . . وهذه الأكداس من البشر ، تحسبها حزماً ضخمة من أوراق مالية تخطو هنا وهناك !

وخلف هذه المظاهر المألوفة أمثالها في دنيا الفنادق ، حياة أخرى مستورة ، لا تقل عنها ضخامة وسعة . . .

أنت إذا قرأت نبأ موقعة حربية طالعتك على الفور صورة الكتائب تلتحم وتتطاحن ، ولكن هذه الكتائب خلفها أمداد أخرى قد تفوقها عدداً هي عدة النصر الحقة ، كتائب من العمالة والصناع الفنيين القائمين على الميرة والذخيرة والتمريض وضروب الخدمة العامة .

فذلك ما تراه مائلا في هذا الفندق ؛ فان وراء الردهات والقاعات والمطاعم والمراقص وغيرها تختنى حجرات وساحات تحوى المطاهي والمصانع والمغاسل ، فيها جحفل جرار من العمال الساهرين على سد حاجات تلك المدينة الحافلة التي تسمى في نيويورك فندق ولدرف أستريا !

وسمعنا الدليل يقول خاطف اللهجة ، كأنه يلقي درساً :

« الفندق يتسع صدره لعشرين ألف طارق .

« الفندق يشرب كل يوم أكثر من سبعة آلاف لتر من اللبن .

« الفندق يهضم كل يوم ألفي كيلو من ضروب اللحم .

« الفندق يأكل كل يوم عشرين ألف رغيف .

« الفندق متأهب لأن يقدم عند الطلب من الأنبذة ما قيمته مائتا ألف دولار .

« الفندق يحوى ثلاثة آلاف من الخدم يتولونه ، إلى جانبهم مئون من

ماسحى الزجاج « البهلوانيين » مخصصون لتنظيف ستة آلاف من النواقد .

« الفندق . . . »

قلت لصاحبي :

— حسبك !

— ألا تريد أن تعلى السطح لتشاهد منظراً لا يساميه منظر آخر عظمة

وروعة ؟

— أريد أن ألتس عظمة أخرى غير ما أشهد !

وخرجت ناجياً بنفسى من أغوار تلك المتاهة ، أحاول أن أتنسم نسيماً يمنحني

الهدوء وراحة الأعصاب .

وسرت خطوات ، وقد لمحت في رأسى أطراف قرى المتواضعة في ريف مصر

بأكواخها التى لاتناطح شجرة ، بلله سحابة ، ودارى المتخاضعة التى لاتتطلب

نوافذها ألباناً واحداً يتراقص عليها لتنظيفها ! . . .

وهممت أناجى نفسى :

— حقا أن السعة والضخامة والسموق عظيمة أى عظيمة ، ولكن أليس

في السذاجة والضالة عظيمة لا تقل عنها قدراً ؟

والتفت إلى مرافقى أقول :

— إلى أين المساق ؟

— إلى « أمباير ستيت بلدينج » كبرى نواطح السحاب في نيويورك فهى

إذن أكبر أبنية العالم أجمع !

— أما نتهى من نواطحك هذه ؟ إني لأشعر بها تكاد تحطم رأسى تحطياً !

ومضينا إلى تلك الناطحة التى تربي طباقها على المائة ، والتى يبلغ علوها نحو

ألف ومائتين وخمسين قدماً . . .

حقاً إنها مسارد من مردة سليمان مائل بقوامه الفارع المشيق يتعالى فرعته

وعتوا . . . في استطاعتك أن تحترق جوفه بمصعد جني يبلغ قمته في طرفه عين .
هنالك في رأس ذلك انارد تنظر بعينه حولك ، فتكشف لك نيويورك على مد
البصر : جزيرة رشيقة ، شوارع منظمة ، حدائق منسقة ، أبنية متراصة ، أنهار
جارية ، جبال نائية . . .

وبينما أنت تتملى خلاصة هذا المنظر الجميل إذا به يختفي بين غلائل من
السحاب تحاصر ك من كل جانب ، فلا ترى إلا غيا يندسط تحت ناظريك ، فيخيل
إليك أن انارد قد طار بك بين أجواز انفضاء ، وأنه يحترق بك طباق السماء .
ولا يلبث ان يغمض عينيه ، ويحتدبك إلى جوفه ، ثم يهبط بك إلى قراره في
لحظات ، ثم يلفظك في الطريق ، فاذا بك قد قطعت الرحلة بين السماء والأرض
في غفوة خاطفة من غفوات الأحلام ! . . .

وملت على مرافقي ، وأنا أمر يدي على جبهتي ، أستعيد يقظتي ، فقلت له :
— ماذا بقي من برنامجك ؟ ألم تنته بعد ؟

— إننا لم نكد نبدأ . . .

— إلى أين بربك ؟

— إلى تمثال الحرية .

— وبعده ؟

— نزهة حول جزيرة مانهاتان . . .

— وبعدها ؟

— جولة مسائية في أحياء نيويورك الأصلية .

ووضعت يدي على كتفه في استسلام وأنا أقول :

— قدنا حيث تريد ؛ فلقد أسلمنا أمرنا إليك وإلى الشيطان . . .

إلى تمثال الحرية .

وحشرتنا في سيارة حافلة ، جرت بنا إلى منطقة نيويورك الجنوبية : حي

كأنه من أحياء أوربا العتيقة ، شوارع مسماة ، لم يجر عليها نظام الترقيم الجديد .

طرق ليست مخططة بالمسطرة والفرجار ، هي التي تقرب من أفهامنا ونظامنا

المعهود . . .

إن هذا الحي هو نيويورك القديمة ، بل إنه أمستردام الجديدة ، محط رحال

الهولنديين ، حين هبطوا هذه الدنيا مستعمرين . وما زال هذا الحي يحمل من

هولندة ظلالاً وتفتحات . . . لقد أقاموا سوراً يخدم مدینتهم ، ويحميها من العدوان ، فأصبح مكان السور طريقاً ضيقاً يحمل اسم السور . . .
في ذلك الحى طفنا طوافاً عاجلاً بمتحف لواشنجتون : طُرف ومخلّفات ومصورات من عهد ذلك الرئيس الأول للجمهورية الأمريكية . . . ما برح المتحف يحمل روح العصور الوسطى ، ويتنفس أنفاس حرب الاستقلال .
إسراع إلى السيارة الحافلة . . .

هبوط عند المرفأ . . .

قيل لنا إننا في الميناء . ولكن أى ميناء هذا ؟ إنه ساحل مرصوف يتناول ويمتد دون أن يدرك له انتهاء . فيه تتراص البواخر على نحو أمريكى ، كله زحمة واحتشاد . . .

هناك زجّوا بنا في باخرة أو شبه باخرة على الأصح ، فراحت تمخر بنا الماء إلى الجزيرة التى يقوم فيها تمثال الحرية .
أتمثال للحرية هو ؟

إنه يبدو للعين كما اقتربنا منه كأنه إلهة لذلك المعنى المحبوب الذى تهوى إليه أفئدة البشر !

طالعنا تلك الالهة بوجهها الوسيم ، ورأسها المتوج ، وثوبها الفضفاض ، ومشعلها البلورى تحمله يدها الطولى . . .
لقد ارتفعت تلك اليد بذلك المشعل ، وما برحت مرتفعة مناراً للسالك ، ورمزاً لتلك الفكرة المثالية المنشودة الخالدة . . .

كرمت تلك اليد ، ولا زالت قبلة السلام ومبعث النور وفجر الأمل الرحيب .
هى إلهة حقاً ، ولكنها من خلق البشر ! . . .

عبقرية فرنسية صاغتها ، ونفخت فيها من روحها . وعبقرية أمريكية أخرى صنعت لها طوداً باذخاً تعتليه لتبعث من عليائه النور على الانسانية الشقية بالظلام . . .

إن فرنسا وأمريكا لتجتمعان في ذلك النصب العظيم : في التمثال يتجلى الفن الفرنسى الرائع ، وفي القاعدة تتجلى العظمة الأمريكية بضخامتها وجلالها . . .
نزول في جزيرة التمثال . . .

صعود في جوفه . . .

شرفة نطل منها على نيويورك ، فترى شواهدقها مشرقة بهيجة تتجمع متطلعة إلى إلهة الحرية ، كأنها عذارى يتزاحمن مستمدات من أمهن الرءوم روح الحياة !

فترة راحة واستجمام في أحد المـشارب .

قفول إلى المرفأ .

وهناك ركبنا إحدى البواخر ، نستمتع فيها بضع ساعات بنزهة بحرية حول جزيرة مانهاتان . . . وما مانهاتان هذه إلا قلب نيويورك الخفاق !
رشيقة أنيقة هي تلك الباخرة ، لم يعبها إلا ذلك التكـدس والازدحام ، ونظام الطواير الذي استتب أمره في نيويورك ، فأصبح لا غنية عنه في كل شئ ولا معدى . . .

وتحركت بنا الباخرة يشق صدرها مجرى من الماء ليناً سهلاً في جو طيع ، كأننا في سيارة حافلة تقطع بنا طريقاً معبداً من الطرق الفساح .
وأخذنا نشهد ما يمر بنا من المباني والحدائق ، وذلك الطريق العجيب تتعدد طبقاته وتتباين أشكاله ، وهذا الصف الممتد من البواخر والسفائن كأنها كتائب في يوم عرض عظيم .

وتغيرنا مكاناً ينأى عن الزحمة ، يتوافر لنا فيه الهدوء . . . وما كدت أستمع فيه بمجلسي وأتنسم نفحات البحر ، حتى علا صوت لا أدرى من أين نجم . إنه يجلجل وسط الباخرة ، وينفذ إلى أعماقها وخوافيها ، هو صوت إنسان يتحدث في أداة من مضخات الصوت ، أما ذلك المتحدث نفسه ، فلم أعثر له على ظل . . .

وعلمت أن صاحبنا دليل يكمن في ركن مخصوص ، يلقي بشظاياة وهو آمن في مكانه مستقر . . . لقد أتوا به ليشرح لنا ما نجوز به من العالم والمغانى .
ليته يعلم أنى أوتر الاستمتاع وحدى ، مستدلاً بعينى ، مستوحياً من المعالم نفسها فيض الشرح والايضاح ، تاركاً لمخيلتى أن تسبح بى في آفاق التأمل ما شاءت أن تسبح ، غير مزعجة بمنكر من الأصوات !

ويحك من ثرثار جهوورى الصوت ، مصم للأسماع !

إنك صوت مجرد . . . لقد طالما بحثت عن شخصك ، فأعياى العثور عليك .
لعلك اختراع أمريكى جديد . . . ضفدع من طراز حديث في الصياح والتقيق .

مكانك أيتها الضفدع تستريح وتريح !
ولكن الضفدع لا تبرح تنق ، ولا يبرح تقيقها يأخذ على الأذان سبيل
الاصغاء !

ماذا تريد أن تقول هذه النقاقة اللجوج ؟
إنها تلم بكل شيء ، وتعبر عن كل شيء ، ماهرة في اللقاء والتعبير . . .
تارة هي شاعرة تتمدح بمفاتن نيويورك ، ثم لا تلبث أن تنقلب تارة أخرى
مؤرخة عالمة تقص عليك تاريخ المباني والمعاهد والآثار ، وتسرد لك الوقائع
والأحداث ، وتشرح لك من ظواهر العمارة والتخطيط ما يدل على إحاطة . . .
وهي في هذا وفي ذلك تحاول أن تكون طليعة الحديث ، فكهة الروح ، تنق
عليك النوادر والنكات مستورة حيناً مكشوفة حيناً آخر . ولكنها لا تنتظر منك
قهقهة استحسان ولا صفير استهجان . . . إنها ماضية لطيتها ، كالقلم المسترسل ،
أو كقرص الحاكى لا يفتأ يدور حتى ينتهي الدور !
الأمر لله أولاً وآخراً أيتها الضفدع . . .

سنشتف كأس لجابتك حتى الثمالة ، طوعاً أو على كره . . .
كنا نحسبها تزهة تقرر لها الأعصاب ، فإذا بها حرب وقودها الأعصاب . . .
وظلت الباخرة تسير ، والصفدع لا يخلو لها صوت من طول النقيق .
عن الشمال مانهاتان وعن اليمين جزائر وخليجان ، وامتداد لنيويورك
العظيمة : بروكلن ، كوينز ، برونكس ، جسور شوامخ كأنها أطواد معلقة
تكسوها الرهبة والجلال ، أو كأنها مهولات تمددت بأجسادها فوق الماء لتصل
بين أجزاء اليابسة !

وسمعت الضفدع تقول :

— أمامكم جزيرة أصدقائنا المجانين !

والتفت أنظر ، فإذا بجزيرة مزهرة مشمسة ، تجوس خلال خمائلها جداول
رقاقة ، وفي وسطها مبنى جميل تبدو حوله أشباح تروح وتجي في رزانة وهدوء .
ليست جزيرة المجانين إلا جنة عدن !

وددت لو وجدنا السبيل إليها ، لنخلص على الأقل من صفدع الباخرة ،
ولسنا نبالي بعد ذلك أن نحرم ألقاب العقلاء !

وجهر الصوت يقول :

— ها هو ذا سجن البرونكس . . . لا تنسوا أن حجراته مجهزة بالآلات
تكييف الهواء !

يا للعجب ! . . .

نحن في بلد يحظى بالسعادة فيه صنفان من منكودي البشر : المجانين
والمساجين ! . . .

وانبرت الضفدع تسرد أنباء العالم والمشهد ، مؤيدة حديثها بلغة الأرقام :
لغة الملايين ، غير ناسية في كل مرة أن تصف ما تصفه بأنه أعظم أمثاله في
العالم المسكون . . .

هذا معهد بلغت تكاليفه كذا مليون دولار ، وإنه أعظم معهد من نوعه في العالم !
هذا 'نُصْب' بلغت تكاليفه كذا مليون دولار ، وإنه أعظم نصب من
نوعه في العالم !

يزهى الأمريكي دائماً بثلاث ضخامات :

ضخامة المال .

ضخامة الشكل .

ضخامة الصيت .

وإنه ليؤسس مدنيته على تلك القواعد الثلاث !

وطالعتنا في أطراف جزيرة مانهاتان غابة من أروع الغابات ، قائمة على
تلال عجيبة ؛ غابة موحشة تمثل البداوة والفطرة في قلب الحضارة وال عمران .
لكأنهم اقتلعوها من مغرسها الأصيل في المجاهل والأدغال ، وجاءوا بها
ليتخذوها طرفة وقرّة عين ، كما تجتلب الوحوش من مغاورها وأججارها ومسارحها
لتسكن في الحواضر حدائق الحيوان . . .

ودارت بنا البأخرة يسرة ، ومضينا . . . فاذا نحن أمام جسر واشنجتون
العظيم ، يتلأأ بلونه الفضي في وهج الشمس ، ويمتد بجرمه الرائع وبسلاسله
الضخام ، كأنه صرح عمرد من زئبق رجراج . . .

ثم بدت نيوجرسي محتالة بمصانعها ، يحدها الشاطئ الجميل ، وتتناثر فيها
المغاني أنيقة رشيقة ، وتنسبط فيها المروج بهيجة نضيرة !

وما زالت البأخرة تمخر العباب ، والضفدع توالى النقيق ، والمناظر الأمريكية
كأنها ألواح فنية يحاول كل لوح منها بفتنته أن يقيد الأنظار . . .

وبلغنا غاية المطاف .

فوقفت الباخرة ، وخرست الضفدع
وإذا بنا ندفع خارج الباخرة دفعا ، ويلقى بنا في عرض الطريق . . .
والتفت إلى مرافقي يقول :

— حان وقت الجولة المسائية في أحياء نيويورك الأصلية . . .
وما كاد الظلام يسبل أستاره ، حتى انبرت له الأنوار الألاقة تطارده ،
فيرتد مقهوراً على أعقابهِ
طرقنا أول ما طرقنا قرية جرينوتش

ليست بقرية ، وإنما هي حي معروف له طابعه وروحه ، ولكن ما سمعناه
عنه أكبر من مظهره . . . إنه مثابة الفنانين ، فيه نبت أكثرهم وترعرع .
نشأوا فقراء في أكنافه المتواضعة ، فلما أخذت أسماؤهم تعلو ، وصيتهم يطير ،
ارتحلوا عنه إلى منطقة نواطح السحاب ، كأنهم يوازنون ويلائمون بينها وبين
ما كتب لأسماؤهم من علو ويعد صيت

إن من بين هذه الدور الضئيلة ما هو معروف حتى اليوم باسم أصحابه
الأقدمين من الفنانين الذين هجروه وخلّفوه لغيرهم من السكان المحدثين .
إن جرينوتش قرية حقا إذا ووزنت بنيويورك . . . قرية بمنازلها المتخاضعة
ونواديها المنزوية حيث لا يقيم أهلها شأنًا للعرف ولا للتقاليد . . . وما أشبه
مشاربها ومراقصها ومغانيتها بنظائرها في مثل ذلك الحي من عواصم أوروبا العجوز .
لقد جبنا أرجاء جرينوتش وقضينا فيها بعض الوقت ، ولكننا لم نفز بغير
ظاهرها المكشوف ، وليس بذى بال . . . أما الحفى المستور فهو لأهلها
خاصة ، لا يزاحمهم فيه واغل دخيل . . . من ذلك الحفى المستور مسارح
للفن قائمة ، ولكنه الفن الوضع فيما يرى بعض الناس ، أو جوهر الفن الحق
فيما يرى بعض آخرون !

في تلك الدمن تنبت زهرات نواضر تتفتح بين الفينة والفينة ، فإذا تزع
الشوك عنها ، وأزيل الغبار منها ، كانت أهلا أن ترين صدور المجامع والمحافل
وتنفحها بعطرها الفواح

وطرقنا « البورى » مباءة الإجرام ، ومشوى الصعلكة والتشريد ، ووكر
الفن البتذل الرخيص .

على السطوار يستريح الصغاليك ، فاذا لحك واحد منهم وآنس فيك مغنا
تقدم إليك بحسمه الرخو وثيابه الرثة وخطواته المتسكعة وأنفه المتورم المخمور ،
يمد إليك يد السؤال وعليك حتماً أن تجيب ، وإلا انقلب السؤال إلى
وعيد وتهديد !

يا لله ها نحن أولاء في أمريكا دنيا الرخاء والثراء ، يلاحقنا ذلك
الصنف من الناس ، أولئك المستجدون الذين لا ينقطع لهم سيل في بلاد
الشرق ولكن المستجدي الأمريكي والمستجدي الشرقى يمثل كل منهما
طابع أمته وروح وطنه فالسائل في القاهرة مثلاً إذا زجرته استعان
عليك بالله ، وانصرف عنك في استسلام . وأما السائل في نيويورك فانه
يتقاضاك ما يعده حقاً له بالظفر والناب !

وهذه مشارب ومراقص تكتظ على سعتها بالحشود من الأوشاب ، طلاب
الدنايا من المتع ، يتجمعون حول موائد الشراب ، وقد اندست بينهم الغواني
المتبذلات

وبدت لنا على منصة في أحد تلك المراقص امرأة ، بل كتلة خسيصة من لحم
وشحم ، بوجه لوّنه الطلاء البشع ، وقد اكتست حلة برقشها زوائف الزينة
والوشى . وهى تصوّت أمام مضخم الصوت في نغمة منكرة ، موهمة سماعها أنها
تشدو وتتغنى !

ما أشبه الليلة بالبارحة !

أليس هذا المكان هو نفسه ذلك الرقص الوضع الذى كان يزخر بالقصائد في
أحط أحياء القاهرة إبان الحرب العالمية الأولى منذ أكثر من ربع قرن ؟
ألا فلنول فراراً من « البورى »

وحشّنا الخطأ

إلى أين ؟

إلى مدينة الصين ، إنها منا على مقربة

حيالك الله أيتها الصين النائمة في وداعة وهذوء إنا ملاقوك بعد

قليل ، وإن باعدت بيننا الديار ، وعز المزار

وأقبلنا على ما يسمونه مدينة الصين

حقاً أنه حى متميز قائم بنفسه ، لا تطالع فيه إلا أشباحاً صينية في

أزياء غريبة ، تتناثر بينها الأحاديث في لهجة تشبه همس القططة !
ثمة حوانيت ترى على جبينها تلك النقوش والزخارف الصينية التي هي في
أغلب الظن أحرف وكلمات !

وثمة دور متواضعة متخاضعة ، وطرق ضيقة غير مستقيمة . . .
ولكن أنحن حقاً في مدينة الصين ؟
دخلنا مطعماً نستهديه الجواب .

إنه ليحمل نفحة صينية استرعت أنظارنا بظاهرتين :
الأولى تلك الألوان الغريبة التي قدمت لنا ، فكان مذاقها مبعثاً للحيرة
والعجب ، وإن الرز ليقدّم بينها بديلاً من الخبز ، والشاي يقدم أثناءها عوضاً
عن الماء !

والظاهرة الأخرى ، ذلك النادل الصيني الذي ما كاد يبدأ خدمته لمائدتنا ،
حتى انتحى ناحية عن كשב منا يلثم عشاءه ، بعصوين تقومان مقام الشوكة
والمعلقة ، وهو يحركهما في مهارة تستدر الإعجاب !

وحمداً لله ما قدّر ويسر ، وخرجنا وفي بطوننا كخواء !
وانصرفنا نسلك الشارع الضيق ، تطل علينا من نوافذ دوره تلك الوجوه
الصفراء ، والأنوف الفطس ، والحواجب المشربشة . . .

وسمعت مراقبي يقول :

— هل لكم في زيارة المعبد ؟

— تالله إنني إليه لمشوق !

مدخل ليس فيه من روح التعبد إلا مظهر ضئيل .
واجترنا ممراً ضيقاً ينتهي بنا فذة ، كأنها شباك التذاكر في دور اللهو . . .
أمعبد هذا أم مسرح تمثيل ؟

واشترينا تذاكر الدخول ، وتابعنا الخطأ . . .

بهو غير فسيح تتراص فيه المقاعد ، ترين حائطه نقوش صينية ، وخرق
ملونة كأنها أعلام . . . وفي صدر المكان محرابان ، أو بالحري هيكلان مشحونان
بالطُرف والتأثيل من فن الصين ، يتميز أحدها بالعظمة والفخامة ، وما أظنه
إلا تمثال بوذا المعبود . . . إنه حقاً لتحفة من تحف النحت ، تدل على صبر
الفنان الصيني ودقته وأناقته . . .

وكان دليلنا في المعبد فتاة صينية على جانب من الرقة والأدب ، انطلقت تصف لنا مراسم الزواج ، وكيف تتم أمام هذا الهيكل .
وحانت منى التفاتة ، فألفت أريكة ساذجة تتربع عليها امرأة صينية هزيلة تخطت عصر الشباب . . . وسرعان ما أدركنا أنها أم تلك الفتاة التي تقوم في المعبد مقام الدليل . . .

لقد كانت هذه الأم تمثل في جلستها بوذا آخر ، بيد أنه بوذا من طينة البشر، منهمك في تقشير برتقالة ! . . .

واقتربنا من الاله البشري نبادله إيماءة التحية في صمت ووقار . . .
ما بال هذه البرتقالة تشوب في هذا المكان صفاء التعبد ؟
أغلب الظن أن ذلك المبنى دار تسكنها هذه الأسرة ، وقد أحالتها مسرحاً كما نرى تمثل فيه العبادة تمثيلاً لا حقيقة له ولا روح فيه . . .

إنه معبد للأجانب من الزوار ، لا للمواطنين من أهل الصين !
ولكن حسبه أنه يكفل الرزق لتلك الأسرة ، ويعينها على أعباء العيش . .
فلا ضير علينا في أن نحني له الرأس خاشعين !

كثير من معالم المدينة يصور مظاهر من حياة الصين على الأسلوب الذي هو أقرب إلى التمثيل منه إلى الحقيقة والواقع . . .

إن مدينة الصين ، على الرغم من كل شيء ، وعلى الرغم مما قيل فيها وما توصف به ، رقعة من نيويورك لا قطعة من الصين الأصيلة . . .

أراهن على أن الصيني المقيم في هذه المدينة قد بدأ ينسى صينيته ، ولم يحتفظ منها إلا برطانة كلمات يميز بها شخصيته ، كما يحل حانوته ببعض الزخارف والنقوش . . . وقد يكون مثله في ذلك كمثل الملحد الزنديق يتخذ السبحة ليحرك حباتها بين أنامله ملعبة وملهاة !

أراهن على أن صيني نيويورك لم تطأ قدمه أرض الصين يوماً في حياته ، حتى إنه لم ير منها ظل شغهاى مدينة الأوربيين في الصين !

إن مدينة الصين في نيويورك تمثل ما كان يمثل قصر المهرابا في معرض ومبلى في لندن . . . وأخشى أن أقول ما يمثل اليوم مسجد باريس ! . . .

أندلسية

[من ذكريات بحيرة لوجانو
السويسرية. صيف عام ١٩٤٦.]

حسبك النشوان والكأس الروية جددا عهد شبابي فسكرت
حلم أيام ويلات وضية عبرت بي في حياتي وعبرت
أنا سكران وفي الكأس بقيه أي نهر من جنى الخلد عصرت
آه هاتي ، قرّبي الكأس إليّ
واسقنيها أنت يا أندلسية

لا تقولي أي صوت ملهم قاد روحينا ، فجئنا ، والتقينا
دمك المشوب فيه من دمي روح ماض بالهوى يهفو إلينا
أخت رحي ! قرّبيها من فمي إن شربنا أو طربنا ما علينا
آه هاتيها من الحسن جنيّة
واسقنيها أنت يا أندلسية

كانت النظرة أولى نظرتين ثم صارت لفظة ما بيننا
والهوى يعجب من مغترين لم تقل أنت ... ولا قال أنا ...
وسبّحنا فوق وادٍ من لجين تحت أفق من غمام وسنى
أتمسكها سمات عريسة
وأنادي أنت يا أندلسية

صَحْتُ يا للشمس في ظلِّ المغيَّبِ تَلَمَّ الزَّهْرَ وأوراقَ الشَّجَرِ
 خَلَّتْهَا بينَ محبٍّ وحبيبٍ لحظةً عند وداعٍ وسَفَرِ
 فانتنتُ تنظرُ للوادي العجيبِ صوراً يَذْهَبْنَ في إثرِ صورِ
 وبسمي همسةٌ منها أشجيتُ
 وبروحِي أنتِ يا أندلسيَّةُ .

ونزلنا عند شطِّ من نُضارِ وانتحينا خلوةً بعد زجامِ
 قلتُ والليلُ بأعقابِ النهارِ ألكِ البليَّةُ في لحنِ وجامِ ؟
 ما على مغتربي أهلِ ودارِ إنَّ أدارا هاهنا كأسَ مدامِ
 آه هاتِها كخديكِ قفيه
 واسقنيها أنتِ يا أندلسيَّةُ

واحتوتنا بينَ لحنِ مطربِ حانةً مثلُ أساطيرِ الزَّمانِ
 صوَّرتُ جدرانها بالذَّهَبِ فتَنَ العشقُ وأهواءُ الحسانِ
 قالتُ : اشربِ قُلْتُ لبيكِ اشربي ملءِ كأسينِ فإنَّا ظامئانِ
 خمره روميَّةٌ أو بابليَّةُ
 إسقنيها أنتِ يا أندلسيَّةُ

هتفتُ بي ويداهُ في يدي تدفعُ الكأسَ باغراءٍ وعُجبِ
 أيُّ قيثارِ شجىٍّ غرِدِ خَلَّتْهُ ينطقُ عن أسرارِ قلبي !
 قلتُ طفلٌ من قديمِ الأبدِ يمزجُ الألحانَ من خمرٍ وحبِّ
 ملءِ كأسٍ في يديه ذهبيَّةُ
 فاسقنيها أنتِ يا أندلسيَّةُ

ومضى الليلُ فنادى بالروحِ كلُّ خالٍ وتعايا كلُّ صَبٍّ
 وخبأ المصباحُ إلاَّ كأسَ راحِ نورهُ ما بين إيماضٍ ووثب
 قد تحدَّى وهجُهُ ضوءَ الصباحِ فبقينا حوله جنباً لجنب
 تتساقاها على الفجرِ ندِّيهِ
 وأغتنى أنت يا أندلسية

يا عروسَ الغربِ يا أندلسية بَعُدَتْ داركِ والصيفُ دنا
 أين أحلامُ الليالي القمرية والبحيراتُ مُطيفاتُ بنا
 إذ كرى بين الكؤوس الذهبية حانةً ، يا ليتها دامت لنا
 حين أدعوكِ صباحاً وعشيهِ
 إسقنيها أنتِ يا أندلسية

على محمود طه

فصول لم تنشر من آثار الجاحظ

هذه بقايا كتاب من كتب الجاحظ التي عدت عليها عوادي الزمن ، فلم يبق منه إلا هذه الفصول القليلة ، احتفظت بها المخطوطة البرلينية التي أشرنا من قبل إليها ، ونشرنا عنها الرسالة السابقة (١) . وكلا الأثرين يعتبر مظهراً من مظاهر التطور في النثر العربي ، وإن اختلف موضوعهما ؛ إذ كان هذا في الهجاء وذاك في الرثاء . ولكن الهجاء — كالرثاء — فن شعري ، استأثر الشعر به . واختص بالتعبير عنه ، حتى حدث ذلك التطور .

وليس بنا في هذه المقدمة القصيرة أن نحلل هذه الفصول من الناحية الأدبية ، أو أن نتعرف الخصائص التي اجتمعت لها وجمعت فيها بين روح الشعر وروح النثر ، أو أن نشير إلى بعض الصلات التي تصل بينها وبين كتاب ككتاب «البخلاء» ؛ فلهذا وما إليه موضعه الذي هو أملك به وأوسع له . ولكننا لا نستطيع أن نقفل سؤالا من أخص الأسئلة بهذه الفصول : من عسى أن يكون موضوع هذا الهجاء اللاذع ؟ وماذا عسى أن تكون شخصية الرجل الذي وصفه الجاحظ بهذا المييم ؟

والفصول التي بين أيدينا لا تسمى ذلك الرجل ، فليس لنا بد من أن نلتمس السبل إليه . ولعل الكتاب لو وصل إلينا كاملاً لم تكن بنا حاجة إلى مثل هذا التلمس ، فأكبر الظن أن الجاحظ لم يترك تسميته ، كما صنع في رسالة الترييع والتدوير وفي معظم فصول «البخلاء» . ومذهبه في التسمية قد ذكره في كتاب البخلاء بقوله : «ولسنا من تسمية الأصحاب للتهتكين ولا غيرهم من المستورين في شيء : أما صاحب قانا لا نسميه حرمة وواجب حقه ، والآخر لا نسميه لستر الله عليه ، ولما يجب لمن كان في مثل حاله . وإيما نسمي من خرج من هاتين الحالين . ولربما سمينا صاحب إذا كان ممن يمازح بهذا كثيراً . ورأينا يتظرف به ، ويحجب عن ذلك الظرف سلماً إلى منع شينه » . وهذا الرجل ليس من الأصحاب ولا من المستورين . كما يؤخذ من هذه الفصول .

وإذا كان قد فاتنا أن نعرفه من الكتاب مباشرة ، فقد أتيح لنا أن نعرفه من نسيل غير مباشرة ، بفضل اعتماد كثير من المؤلفين على كتب الجاحظ واستمدادهم منها ؛ إذ نجد عندهم ما ضاع عنده . وبذلك قدر لنا أن نعرف هذا الذي وصفه الجاحظ بكتابه وصيه عليه ، وهو محمد بن الجهم البرمكي . وقد وجدنا ذلك عند ابن قتيبة من معاصري الجاحظ في القرن الثالث ، في كتابه : «عيون الأخبار» ، و«تأويل مختلف الحديث» ، وعند أبي إسحاق الحصري من علماء القرن الخامس في الأندلس ، في كتابه «زهر الآداب» ، وعند جمال الدين الوطواط من علماء

القرن السابع والثامن في مصر ، في كتابه « غرر الحقائق الواضحة » ، إذ ينقلون فقرات من هذا الكتاب ، مع النص على أنها في صفة محمد بن الجهم هذا . كما نجد في بعض هذه الكتب وفي غيرها كشرح الشريشي على مقامات الحريري فقرات أخرى في صفة ، تجري على سياق هذه الفصول ، حتى ليثلب على الظن أنها مأخوذة من هذا الكتاب .

وإذن فمن هو محمد بن الجهم هذا ؟

هو - فيما تؤدي إلينا أخباره القليلة المنشورة هنا وهناك - عالم من سرة العلماء في القرن الثاني والثالث ، نشأ - فيما يبدو - مولى من موالى البرامكة ، وتربى في ظلهم ، فاتجه في الثقافة اتجاههم . وبذلك كانت ثقافته مزاجاً من الفارسية ، وهي تمثل العنصر الأول الضروري منها ، واليونانية ، وهي تمثل ناحية الترف العقلي فيها . ومظهر ثقافته الأولى ترجمته لكتاب خدای نامه الذي ترجمه ابن المقفع من قبل ، كما ينص على ذلك صاحب الآثار الباقية . وأما مظهر ثقافته الثانية فهو هذا الذي عرف به واشتهر عنه من إقباله على كتب اليونان كأرسطو وأقليدس واستغراقه فيها ، حتى اتخذ خصومه من ذلك مادة للتندر به والتشنيع عليه ، كما نرى في هذه الفصول ، وكما نجد صورة منه عند ابن قتيبة إذ يقول : « ثم نصير إلى محمد بن الجهم البرمكي ، فنجد مصحفه كتب أرسططاليس في الكون والفساد والكيان وحدود المنطق ، بها يقطع دهره » .

وجلة القول أنه كان من أصحاب الثقافة المتأخرة في عصره . ولعله هذا استطاع أن يظهر من الخليفة للأُمون بالمنزلة الرفيعة التي ظفر بها لديه ، فكان أحد ولاته على الأهواز ، وكان من أصحاب مجلسه الذين يوكل إليهم أحياناً بمناظرة الزنادقة والملاحدة وأهل النحل المختلفة . وقد ألف له فيما يقول القفطي - كتاباً « في الاختبارات ، قريب المأخذ صحيح العبارات جدا » . ولكن ثقافته هذه لم تتخذ - فيما يظهر - صبغة دنيوية ، فكان ذلك من أول الفروق بينه وبين المعتزلة .

ثم كان من ناحية الخلق الشخصي رجلاً شديد الصلف والاعتداد بالنفس ، كبير التيه أناني المذهب ، فكان لهذا مبنضاً . وقد يكون لمكانه في القصر ، ومناقسته المعتزلة عند الخليفة . مع اختلاف النزعة العقلية ، ما يمكن أن يعزى إليه هذا الجو البغيض الذي أحيط به وعاش فيه بين سخط المعتزلة وأهل السنة جميعاً ، وكان من مظاهره - ولعله يكون من العوامل التي شاركت في تهيبته - كتاب الجاحظ الذي نملك منه هذه الفصول التي تقدمها اليوم ، بعد أن صححناها نصها ، في حدود الأصول العلمية للنشر .

طه الطابري

... وسأخبرك عن هذا الرجل ، من لؤم الطبع ، وسخف الحلم ، ودناءة النفس ، وخسب المنشأ ، بما يشفي الصدر ويثلجه ، ويبين عن الغدر فيه ويكشفه . وأستشهد العبدول ، وأهل الخيلة والعقول ، على أنني لم أر له محتجاً ، ولا عنه مكذباً ، ولا رأيت أحداً يرحمه ، أو يحفل به ، أو يمسك عنه ، أو يشفع فيه .

قلت لمعاذ بن سعيد : أدخلت عليه ؟ قال : نعم ! قلت : فكيف رأيته ؟ قال : لا يعود إليه حر .

وقلت للفيض بن يزيد : صفه لي ، فانك تعرف الأمور ؛ وقل ، فانك تحسن أن تقول . قال : يضر — والله — عنده ما ينفع عند الكرام ، وينفع عنده ما يضر عند الكرام . قلت : فكيف عِشرته ؟ قال : فوق العذاب الأدنى ، ودون العذاب الأكبر .

وقال أبو عقيل بن دُرُست : اللهم إني أعوذ بك من باطن عزمه ، كما أعوذ بك من ظاهر عمله !

وقال شدّاد الحارثي : لم أرَ لؤمًا قط إلا والدهر ينقص منه أو يزيد فيه ، إلا لومه ؛ فانه قد تناهى في القوة ، وبلغ أقصى النهاية ؛ وعاد مُصمّتًا لا يدخل عليه ، ومشتبهًا لا حيلة فيه . فان كان إلى الغاية أجرى ، فقد حوى قصبات السبق ؛ وإن كان للتفرد طلب ، فقد خلا بالرياسة ، واستبد بالوحدة .

وقال سهل بن هارون : إن الحاسد والغضبان والحاقد والعيّاب ، إذا استنفدوا العيوب ، استتلوا قول الزور ، واتمسوا ما شا كل الحق وقاربه ، وأشبه ما في المسبوب وناسبه ، وبهتوا الرجل بقرنائه . وفحشُ عيوبه ، وظهور لؤمه ، وكثرةُ الشهود عليه والقائلين فيه ، لا يحوجك إلى اليمين والشاهد ؛ فعائبه سليم من الذنب ، مُعفى من الكذب ؛ لا يعيبه ورع ، ولا يسفّهه كريم ؛ وله عند ذامه والواصف لعيوبه أياذ لا تشكر ، ونعم لا تنكر .

ووصفه آخر فقال : هو منحرف عن الجادة ؛ يخبط خبط العشواء ، ويحكم حكم الورهاء ، ويناسب أخلاق النساء ؛ لأن المرأة لاتسمو إلى مراتب السادة ، ولا تروم منافسة القادة ، وليس لها من عقلها مادة ؛ همها قصير ، وركبها ضعيف ، وصدرها ضيق ، ورأيها منتشر ؛ وفي قوى هواها فضل على قوى عقلها ، وسخفُ رأيها غامر لرجاحة حلمها ؛ لا تعرف حدود الاعتدال ، ولا مواقع الاقتصاد ، ولا التوسط في الأمور ، ولا عواقب التدبير .

ووصفه آخر فقال : هو يظلم الضعيف ، ويقتل الصريح ، ويدفق على الجريح ، ويطلب الهارب ، ويهرب من الطالب ، ولا يعرف التقية ولا المروءة . يعق أباه ، ويحسد أخاه . العجب شقيقه ، والبذخ صديقه ، والنفج أليفه ، والصلف عقيده .

قد تمكن منه الشيطان ، فهوّن عليه سخط الرب ، وسهّل عليه عقاب الأبد ، ووعده الظفر ، ومنّاه السلامة ، ولقنه الاحتجاج بالباطل ، وزين له قول الزور ، ونظم له خلال الشر . في أنفه خنزروانة ، وفي رأسه نُعْرة ، وكأنما أنفه في أسلوب . ومن عَظُم كبرُهُ اشتد عجبه . ومن أعجب برأيه لم يشاور كفتاً ، ولم يؤامر نصيحاً .

ووصفه آخر فقال : أسلمته الحال إلى القسوة ، واستفرغته الغفلة ، واستولى عليه سلطان الطَّبَع ، وكُثِفَ على قلبه حجاب الرِّين ؛ فلم يبق في عقله فضل للاستماع ، ولا في استطاعته بقية للتصرف . ينبو عنه السيف وإن كان صارماً ، وتقف عنه الحجة وإن كانت قاطعة . ولا يجد النافع فيه خيراً ، ولا القابس قبساً ، ولا المورى زنداً .

قال معمر السلمي — وذكره مرة في كلام له — : موكل بلوم المحسنين ، والتعجب من الْمُفْضِلِينَ . يعدّ الاقتصاد جوداً ، والجود سرقاً . ويعجب من الطامع فيه ، والراغب إليه . ويضعف من جزع من الدم ، وهشّ للحمد . لا يعد الحزم إلا المنع ، ولا العيش إلا الجمع . لم يحدث عن جواد قط ، ولا ندم على سوء قط ، ولا أمسك عن الاحتجاج له . ثم ماظنك بعِرْقِ السوء إذا تقادم ، واللؤم إذا تمكن ، والبخل إذا تفحّل ، والفحشاء إذا تمت ، والدناءة إذا كلت ! يعظّم الغنى وإن كان عُفْلاً . ومن الأدب خلواً ، ومن حلى الجود عُطْلاً ؛ ويحقر المقل وإن كان أديباً ، حكماً علياً ، وُحُولاً بارعاً ، ولجهوده باذلاً . شديد الكبر على جلسه ، متهاوناً بعظيم حقه . ولو انقطع إليه أبوه ، واحتاج إليه أخوه ، وأعظم الناس عنده يداً ، وأظهرهم فضلاً ، لنضحه من غريب الكبر ، ولصب على ذروته من بديع الذل ، مالا يقوم به عز ، ولا ينهض به حر ، ولركبه بما لا يحتمله الكم ، ولا يرومه العزم . يقدّر أن الله لم بفقر الكريم إلا ليُضْرَع خده ، ولا أغنى اللئيم إلا ليرفع قدره .

وقال ثُمَامَةُ بن أشرس ، في كلام له : لم يطمع أحداً قط في ماله إلا ليشغله بالطمع فيه عن غيره ، ولا تشفّع في صديق ، ولا تكلم في حاجة متحرم به ، إلا ليلقن المسئول حجة منع ، وليفتح على السائل باب حرمان .

وقال أبو بكر الأصم : لم أر مثله ، بل لم أسمع ، والسماع أكثر ، بل لا أتوهم ، والتوهم أفسح . وما ظنكم بمن يمسي في غضب الله تعالى وسخطه ،

ويصبح في خذلان الله وتخليته من يده ! وما ظنكم بمتكلم لا يعرف قوله ، ولا يقضى على مذهبه ؛ سواء عنده التشبيه ونفيه ، والجبر وضده ، والا رجاء وخلافه ، ولا يعادى الخارجى ، ولا يتولى النابتى ، ولا يحفل بالجماعى ، ولا يغضب على الرافضى .

وقال الحصين بن الحسين ، في كلام له : إن مما يؤثس من رجوعه ، ويُقنط من نزوعه ، وأن الله قد طبع على قلبه في اللؤم ، وضرب على سمعه في البخل ، أن البخيل الموسر ، والمنوع المثرى ، إذا كان عاقلاً وبأمور الناس عارفاً ، لا يسوغ له شراب ولا يطيب له عيش ، وأنه لا يقدر على مخالطة الناس وملاستهم ، ومجاراتهم ومصاهرتهم ، إلا بأن يجعل التواضع دريئة دون ماله ، والسعى في حوائجهم جنةً دون عرضه ، وعلى ألا يجمع بين الكبر والمنع ، وبين التنبل والبخل ؛ إلا ما كان من هذا الرجل ؛ فانه قد خرج من طياع الأمة ، وتقصر ما عليه تجرى العادة ؛ فبلغ في الكبر الغاية ، كما بلغ في البخل النهاية ؛ إلا أن كبره لا يجوز إلا لعامة الرعية والحرمة . هذا مع ثقل الروح والقدامة ، والبرد والوخامة . فلو كان حلو الحديث عذرتة ، ولو كان حسن الاستماع أمسكت عنه . ولو تمسك بسبب من الخير وإن ضعف ، أو رغب في شئ من المعروف وإن قل ، لأضربت عنه صفحاً ، وطويت عنه كشحاً . ولكن استفرغ اللؤم وتعرقه ، وبلغ غايته واستوعبه . وكيف ولم يسمع بمُلححة قط ولا فهمها ، ولا ابتسم من نادرة قط ولا عقلها .

١

وذكره مرة أخرى ، فقال : امتنع — والله — من استحسان ما يقوله المتحرم به ، ومن استجادة ما يظهر من المنقطع إليه ، وإن حسنت معانيه ، وشرفت ألفاظه ، وسهلت مخارجه ، مخافة أن يزيد ذلك في طمعه . ويفسح من أمله ، ويجعله حجة عليه عنده في تقصيره به ، وحرمانه إياه .

لم يفهم عن الله شيئاً قط إلا ازدراه ؛ ولا روى أثراً ، ولا طلب شعراً ، ولا حفظ خبراً ، ولا قرأ تنزيلاً ، ولا ع تأويلاً . وقد رضى بكتاب المنطق بدلاً من القرآن ، وبالكون والفساد عوضاً من الأحكام ، وبالعرض والجوهر خلفاً ، وبالجزء والطفرة شرفاً . إذا فكر المسلمون في الجنة والنار ، فكر في الدرهم والدينار ؛ وإذا فكر الكرم في الذكر ، والعابد في الأجر ، فكر في الاحتيال للمنع ، وفيما زاد على الجمع . فهو نسيج وحده في اللؤم ، وواحد عصره في البغض ؛ وهو

الصرف فيهما البحت ، والخالص المحض . قد أصبح إمام كل لثيم ، وقائد كل دني .
وحسبك برجل أوصى إلى العتي ، وتفرّس الخير في المروزي ، وقال في وصيته ،
وبحضرة جماعة من فقراء أهله : يزعمون أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
قال : « الثلث ، والثلث كثير » ، وأنا أزعم أن ثلث الثلث كثير . للمساكين
حقهم في بيت المال ؛ إن طلبوه طلب الرجال أخذوه ، وإن جلسوا عنه جلوس
النساء منعه ؛ فلا يرغم الله إلا أنوفهم ، ولا رحم من رحمهم !
فهذه وصيته ، والعتي والمروزي خيرته ، وتلك سنته وطريقته .

فلا تعجل أيها السامع ، واعلم أني مقصر فيما أتولى من وصفه . فهو رجل
لا تنجع فيه الرثي ، ولا تنفذ فيه الحيل ، ولا يهزه المديح ، ولا يحز فيه اللوم ،
ولا يتوهم أحاديث غد ، ولا يؤله التوبيخ ، ولا يبالي سخط الكرام ، ولا شكية
الأحرار ، ولا وعيد الرجال ، ولا لزوم الحجة ، ولا إناخة العلة . وليه كعدوه ،
وجاره الأدنى كالأجنبي الأقصى . رفيقه جائع ، وصديقه ضائع ، وجاره ذليل ،
وناصره مخذول ، وجليسه مقموع ، وغريمه ممنوع ، وصفيه محبوب ، وخادمه
مكروب ، وكلبه مهزول ، وبابه مهجور ، وأكيله في تقية ، وشريبه في بلية ؛
وكلهم في جهد البلاء ، لولا راحة الدعاء .

هذا مع ظلم العباد ، وإخراب البلاد ، والخيانة الكثيرة ، والتضييع
الفاحش ، والضعف عن عمله ، وابتلاء الجند على رغبته ، والحكم بالرّشا ،
والحجاب الشديد ، وضرب الخصوم ، والحبه للشهود ؛ مع الجهل بالحكومة ،
وضيق الصدر في المنازعة . لا يرحم المظلوم ؛ فاذا استرحمه ازداد عليه غلظاً .
ولا يرقّ لفقير ؛ فان تعرض له قتله جوعاً .

أنا أدلك على صفة هذا الرجل :

ويل لمن ظن أنه يرجوه ، أو يطمع فيه ! وويل لمن عاد إلى تأميله ، أو طمع
في ماله ! وويل لمن أثنى عليه خيراً ، وقد رلديه عرفاً ! وويل لمن ترك الرد عليه ،
ولم يرفع ذلك إليه !

لم يضمّر لأحد قط حباً ، ولا تمنى له خيراً ؛ ولا اشتاق إلى صديق ، ولا
استوحش إلى أنيس . لم يتوكل قط إلا على حيلته ، ولا فزع إلا إلى رأيه ، ولا

عرف الاستخارة والاستشارة . يسخر ممن يرى أن البركة في المشورة ، وأن النجح مقرون بالاستخارة ، وأن الدعاء يكشف البلاء . ولا يعرف التوفيق ، ولا يثق بالتوكل .

وقال محمد المكي : قلت له مرة : جعلت فداك ! لعل إخوانك أن يجلسوا عندك فوق مقدار شهوتك ؛ فإن أقمتم استحييتهم ، وإن تركتهم ثقل عليك مكانهم . وما زالت الملوك تجعل لهذا أمانة ، وتنصب له علامة . وقد قيل هذا لمعاوية بن أبي سفيان ، فقال : آية ذلك أن ألقى الخيزرانة من يدي . وقال يزيد ابن معاوية : آية ذلك أن أستلقي على فراشي . وقال عبد الملك بن مروان : آية ذلك أن أقول : إذا شئتم . وقال سليمان بن عبد الملك : آية ذلك أن أقول : على بركة الله . فاجعل لنا آية تنتهي إليها ، وأمانة لا نجاوزها . قال : آية ذلك أن أقول : يا غلام ، الغداء !

وقال مرة : بئس الشئ الصديق : إن أعطيته أفقرك ، وإن منعه وجد عليك ؛ ومتى وجد عليك ظلماً أغضبك ، ومتى أغضبك أوحشك ، ومتى أوحشك استوحش منك .

وقال أيام ولايته بالأهواز : من وهب المال في عمله فهو أحق ، ومن وهب ماله بعد عزله فهو مجنون ، ومن وهب ماله من جوائز مملوكة ، أو من ميراث لم يتعب فيه ، فهو محدود ، ومن وهب من كسبه ، وما استفاد بحيلته وكده ، فذاك المطبوع على قلبه ، المأخوذ بسمعه وبصره .

واحتجب حيناً عن زواره ، ليستعدوا النفقات فيعجزوا ، وليضجروا فيذهبوا . فان أمسكوا عن ذمه فقد أعفوه ، وإن ذموه فقد منعوا الناس منه . فخرج يوماً فقاموا إليه فناشدوه ، وأذكروه الحرمة ، وقرظوه ؛ فجيهم مرة ، وحاجهم مرة ؛ بقلب جامع ، ولسان غضب . فلما رأوا ذلك انصرفوا عنه بجيد اللعن فيه والسب له .

وكيف ألام على بغضه ، وعلى إرغامه ومقته ، وأنا لو أحببته لاستوحشت من الوحدة ، وجئت في الاسلام ببدعة ؟ وكيف أحبه وأتولاه ، وقد قال الله تعالى : « ومن يتولهم منهم فانه منهم » ، وأعلم أن من أحب الناس في الله أبغض فيه ، ومن أحب الكرم أحب الكرام ، ومن أبغض اللؤم أبغض اللئام ، ومن أحب الله أبغض من لا يحبه الله !

وبعد هذا كله ، فكيف أحبه وأقصر في بغضه وأفتر عنه ، وهو يزعم أن اسم الكرم كلمة وضعها المستأكلون من العرب ، ولقنها عنهم المولدون ، وأنه لا يعرف للذمام معنى ، ولا للحرمة حقيقة ، وأن هذه الأسماء الموضوعة والصفات المصنوعة ، إنما هي خدعة وحيلة ، وخلاصة ومكر ، ومخاريق وباطل ، وأن المغرور من غره المدح ، واستماله حب الذكر ، وهش للتطرية ، وفرح بالتقريظ . وزعم أن الثناء عرض والمال جوهر ، والمال جسم باق والثناء عرض فان .

وقال : ألا ترى أن ذا المال يعظم وإن كان غير ذي وجود ، والجواد لا يعظم إن كان غير ذي مال . وزعم أن الثناء أشبه شيء بالسراب المائع ، وبجلم النائم ، وبأمس الذهاب ، وبأضاليل النى . وزعم أن مدار الأمر في الأخبار على المنافع والمضار . وأن الصدق لا يحسن إلا لأنه ينفع ، والكذب لا يقبح إلا لأنه يضر ؛ فإذا نفع الكذب فقد تحول حكمه ، وإذا ضر الصدق فقد تبدل اسمه . وليس بين نفس الصدق والعقول ولاية ، ولا بينها وبين الكذب عداوة ؛ ولكن لما كان اتفاق النفع في الصدق أكثر ، صار عند العوام أحمد ؛ ولما كان ما يتفق بالضررة في الكذب أكثر ، صار عند العوام أذم .

فماله لعنه الله ، ثم ما له لعنه الله ! كيف نصب للكرم ونهى عنه ، وتكفل باللؤم ودعا إليه ؟ وكيف اعترض على جميع المتقين ، وبلغ كيده جميع المؤمنين ؟

رأى فى ترتيب المعجم

العربى الحديث

[كتب هذا المقال أديب العراق وفقيد العالم العربى
المغفور له الأستاذ طه الراوى وأراد أن يخص به مجلة
«الكاتب المصرى» فأعجلته المنية عن إرساله إلينا. وتفضل
ابنه الأستاذ هاشم الراوى فأرسله إلينا بعد وفاة والده
الكريم، فكان وصوله إلينا تجدداً للأشى فى نفوس
لم تنزع بعد وهيات أن يدركها الزاء .
ونحن ننشر هذا المقال راجين للفقيه العظيم رحمة واسعة
ولأسرته ووطنه العراق وأمة العربية صبراً جميلاً .]

لما شعر علماء العربية الأولون بديب اللحن فى اللغة المضرية العربية ، بسبب
اختلاط بنيا بجمراء الأم وصفرائها ، فزعوا إلى جمعها وتدوينها وضبط مشكلها
وإيضاح مبهمها ، وسلكوا إلى ذلك طريقين :

الأول — يبتدىء باللفظ وينتهى بالمعنى .

الثانى — يبتدىء بالمعنى وينتهى باللفظ .

مثال الأول قولهم : القطار عدد من الابل مقطورة على نسق واحد .
والقطر (بكسر القاف) النحاس ، والقطر (بضم القاف) الجهة والناحية ، والقطر
(بفتح القاف) المطر . ومثال الثانى قولهم : ولد الناقة يسمى الحوار ، وولد الفرس
يسمى الفلو . وثمر النخلة عندما يصفر أو يحمر يسمى البسر ، فاذا نضج فهو
الرطب ، فاذا تم جفافه فهو التمر . . . الخ .

والطريق الأول يسهل على القارى فهم ما يمر أمام نظره وعلى سمعه من
الألفاظ المبهمة ؛ فان من قرأ أو سمع كلاماً مشتملاً على ألفاظ استبهم عليه معناها
رجع إلى معجم مؤلف على هذه الطريقة .

والطريق الثانى يسهل على الكاتب وغيره معرفة الألفاظ الدالة على الأشياء التى تقع تحت نظره والمعانى التى تمر بذهنه ولا يحضره اللفظ الدال عليها . فاذا رأى الانسان شيئاً أو تصور معنى ولم يعرف اللفظ الدال عليهما فإنه يرجع إلى الكتب المؤلفة على هذه الطريقة . ومن ثم نجد أكثر الناس انتفاعاً بهذه الكتب أولئك الذين يعنون بالترجمة إلى العربية والتأليف فى العلوم العصرية ؛ لأنهم يجدون أمامهم من المعانى ما تحتاج إلى قوالب من الألفاظ لا تحضرهم ، فيرجعون إلى هذه الكتب ليهتدوا بها إلى بغيتهم . وقد رأينا أن نسمى الطريق الأول « بالطريق اللفظى » لأن البدء فيه يكون بجانب اللفظ ومنه ينتقل إلى جهة المعنى ، والطريق الثانى « بالطريق المعنوى » لأن البدء فيه يكون بجانب المعنى ومنه ينتقل إلى جهة اللفظ .

ولكل من الطريقين فروع ليس هذا موضع الافاضة فى استقصائها . وكل ما نريد أن نذكره هنا أن الطريق المعنوى هو الطريق الذى مشى عليه رجال الصدر الأول من نقلة اللغة ، فألفوا فى ضروب من المعانى مثل خلق الانسان وخلق الفرس والأنواء والنبات والنخل والكرم إلى غير ذلك من الأنواع . أما التأليف على الطريقة اللفظية فقد كان متأخراً فى الزمان عن التأليف فى الطريقة المعنوية . ويعتبر الخليل ابن أحمد الفراهيدى بن بجدة هذا الطريق حين وضع كتاب « العين » أو وضع خطوطه الأساسية على بعض الأقوال ؛ فقد وجه همه إلى ضبط اللغة وإحصاء كلماتها والتمييز بين المهمل والمستعمل من الألفاظ ، وتبعه أبو بكر بن دريد فى جمهرته ، ولكنه لم يتقيد بما تقيد به الخليل من الشروط الدقيقة والقيود الوثيقة معتذراً بقصور هم أهل زمانه وضعف عزائمهم وعدم صبرهم على المجاهدة والمجادة . وقد حذا حذو هذين الامامين إمام ثالث هو أبو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التيانى القرطبى المتوفى سنة ٤٣٣ هـ فإنه وضع كتاباً أتى فيه على ما فى كتاب العين من صحيح اللغة وزاد عليه ما زاده ابن دريد فى الجمهرة وسماه « فتح العين » . وآخر من سلك هذا المسلك فى التأليف — على ما نظن — أبو الحسن على بن إسماعيل المعروف بابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ فإنه ألف كتابه « المحكم والمحيط الأعظم » . ومن أصحاب الطريق اللفظى من سلك فى تأليفه مسلكاً آخر غير مسلك الخليل ومن تبعه ، فرتب الألفاظ معتبراً أواخر حروفها الأصلية أبواباً وأوائلها فصولاً ، ومن أشهر سالكى

هذا المذهب الجوهري فى كتابه «صحاح اللغة» ، وتبعه مجد الدين الشيرازى فى قاموسه ، وتبعهما خلق كثير . ومن أصحاب الطريق اللفظى من تنكب هذين المسلكين وسلك مسلكاً ثالثاً هو أوضح معالم من سابقه ، فبوب معجمه على ترتيب حروف الهجاء ، واعتبر أصول أوائل الكلم أبواباً وما يليها من الحروف الأصلية ثم ما يثلاثهما فصولاً ، فتجد كلمة «أسد» مثلاً قبل كلمة «أسر» ، وهذه قبل كلمة «أسف» ، وهذه كلها قبل كلمة «أشر» . وأول من سلك هذا المسلك فى الترتيب — على ما أظن — أبو الحسين أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ هـ فى كتابه «المجمل فى اللغة» ، وتبعه الزمخشري فى كتابه «أساس البلاغة» ، وجاء بعده تلميذه ناصر بن عبد السيد المطرزي المتوفى سنة ٦١٠ هـ فألف كتابه «المغرب فى لغة الفقهيّات» ، وسلك فى ترتيبه مسلك شيخه فى أساس البلاغة . ومن سلك هذا هذا المسلك أحمد بن محمد المقرئ الفيومى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ فى كتابه «المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير» . وكذلك سلك هذا المسلك من مؤلفى المعاجم الخاصة أبو السعادات ابن الأثير فى كتابه «النهاية فى غريب الحديث والأثر» . وكذلك فعل الراغب الأصفهاني فى مفرداته . وأتباع هذا المسلك كثيرون فى المعاجم العامة والخاصة ، منهم المؤلفون من المعاصرين . والمؤلفون على هذا النمط يعتبرون من الكلمة حروفها الأصلية ، فيضعون كلمة اتصل — مثلاً — فى باب الواو لأنها من مادة (و ص ل) ومثلها اتاد واتسع واتكأ واتسق واتهم واتكل لأنها من (و أ د) و (و س ع) و (و ك أ) و (و س ق) و (و ه م) و (و ك ل) . ويضعون كلمة تترى — مثلاً — فى هذا الباب لأن مادتها (و ت ر) . وفى هذا ما فيه من العسر على الذين لا علم لهم بمبادئ اللغة وأصول تصريفها .

ولهذا رأى بعضهم أن توضع المعاجم على أسلوب تكون العبرة فيه بحروف الكلمة كلها سواء فى ذلك الأصلية والزائدة ، فتوضع كلمة (تترى) مثلاً فى باب التاء والتاء وما يثلاثهما ، وكلمة (اتقى) فى باب الهمزة والتاء وما يثلاثهما ، وهكذا كما فعل واضعو معاجم البلدان ؛ فانك إذا راجعت معجم ياقوت فى كلمة (أسورة) مثلاً تجدها فى باب الهمزة والسين وما يليهما ، وإذا طلبت هذه الكلمة فى الصحاح وجدتها فى فصل السين من باب الراء ، وإذا طلبتها فى المصباح وجدتها فى باب السين والواو وما يثلاثهما . قالوا : وفى هذا عنت ليس بالهين .

وقد سلك واضعو معاجم الأسماء والطبقات مسلك واضعى معاجم البلدان ؛ فانك تجد فيها اسم (المعلی) مثلاً في باب الميم والعين وما يليهما ، ولو طلبت هذه اللفظة في القاموس لوجدتها في فصل العين من باب الواو والياء ، وإذا طلبتها في المصباح وجدتھا في باب العين واللام وما يثلاثهما . قالوا : فلماذا لا يسلك اللغويون في معاجمهم هذا المسلك على ما فيه من تسهيل المراجعة ولا سيما على أولئك الذين يتعسر عليهم تمييز أصول الكلمات من زوائدها ؟

ونحن نرى أن هذا الرأي على ما فيه من ظاهر جذاب ، غير سديد ؛ لأننا لو سلكنا في وضع معاجم اللغة هذا المسلك لجاءت ضخمة جداً كثيرة التكرار مضطربة الترتيب والتبويب ؛ وذلك لما في لغتنا العززة من الوفرة في المشتقات والتنوع في المصادر والجموع ؛ فاذا أردنا أن نأخذ مثلاً على ذلك ما اشتق من مادة (خرج) وما يتصل بها كان علينا أن نثبت كل واحدة من الكلمات الآتية في موضع يختلف عن موضع أخواتها : (خرج ، يخرج ، خرجاً ، مخرجاً ، مخرج ، خارج ، خارج ، خوارج ، أخرج ، إخراج ، استخرج ، يستخرج ، استخراج ، المستخرج ، أخارج . . الخ) . وكل كلمة تذكر في موضع تحتاج إلى تفسير قائم بنفسه ، وفي هذا ما فيه من التطويل الذي لا طائل تحته ؛ وكذلك القول في المصادر ، فرب فعل له أكثر من مصدر واحد ، مثل (كتب ، ومصادره كتباً وكتاباً وكتابة وكتبة) فاذا أخذنا بهذا الترتيب المقترح وجب علينا أن نفرق هذه المصادر في مواضع شتى مع أنها في الترتيب التقليدى تجمع في موضع واحد . وكذلك القول في الجموع ، فرب كلمة لها عدة جموع مثل (كاتب فانك تجمعها على كتبة وكتاب وكاتين) ، فاذا نحن مشينا على الترتيب المقترح وجب علينا أن نفرق بين هذه الجموع في مواضع مختلفة مع أن جمعها في موضع واحد ألصق بحاجة المراجعين من تفريقها على مواضع شتى وتفسيرها في كل موضع . ولنضرب للقارىء مثلاً واضحاً في هذا الباب ؛ فانك إذا راجعت كلمة (أكمة) مثلاً في المصباح المنير وجدتھا في فصل الهمزة والكاف وما يثلاثهما على هذا الوجه : « الأكمة تل وقيل شرفة كالرايية ، وهو ما اجتمع من الحجارة في مكان واحد ، وربما غلظ ، وربما لم يغلظ ، والجمع أكم وأكمت مثل قصبة وقصب وقصبات ، وجمع الأكم إكام مثل جبل وجبال ، وجمع الإكام أكم بضمين مثل : كتاب وكتب ، وجمع الأكم آكام مثل عتق

وأعناق... » هذه هى طريقة المعاجم التقليدية ، وإذا أردنا أن نهج منهج المعجم المقترح وجب علينا أن نفرق هذه الجموع الخمسة فى خمسة مواضع ، وأن نذكر فى كل موضع شرحاً على نمط الشرح الذى جاء فى عبارة المصباح فى كلمة (أكمة) ، فنقول مثلاً فى كلمة (أكام) : «إنها جمع أكم التى هى جمع الاكام التى هى جمع الأكم التى هى جمع الأكمة وهى تل وقيل شرفة كالراية وهو ما اجتمع من الحجارة فى مكان واحد ، وربما غلظ وربما لم يغلظ » ، وهكذا يلزمنا فى كل جمع أن نرجع به إلى مفردة ثم نشرح معنى ذلك المفرد ، وفى هذا ما فيه من إسراف فى الجهد يمكن الاستغناء عنه بالطريقة المألوفة المبنية على الاقتصاد فى كل شئ . أما القول بأن الكثيرين من الذين يحتاجون إلى مراجعة المعاجم لا يهتمون إلى أصل الكلمة فهو من المغالاة بمكان ؛ لأن الذى لا يميز بين الأصول والزيادات ولو على سبيل الاجمال لا يحتاج إلى مراجعة المعاجم ، فالمعاجم إنما توضع لأولئك الذين يملكون حظاً ولو قليلاً من التفريق بين الأصول والزوائد ؛ أما الكلمات التى يتعسر على جمهرة المتعلمين معرفة أصولها فلا مانع أن تذكر فى موضع يسهل على المراجع العثور عليها ثم يشار إلى موضعها الأصلي ، فتوضع كلمة (تترى) مثلاً فى موضع تأتى فيه التاء والتاء وما يثلاثها ثم يشار إلى مراجعتها فى مادة (وتر) ، وكذلك يفعل فى كلمة (اتصل) من الوصل و (اتعد) من الوعد وهكذا .

والذى نراه أن العربية محتاجة إلى معاجم تؤلف على الطريقة اللفظية على أنماط ثلاثة : مبسوط ووسيط وموجز : الأول للمتبحرين من العلماء ، والثانى لأوساط المتعلمين ، والثالث للمبتدئين منهم . وكذلك هى فى حاجة إلى معاجم على الطريقة المعنوية مبسطة ومتوسطة وموجزة ، ليستعين بها الناقلون عن اللغات الأجنبية والمؤلفون فى العلوم والفنون العصرية . وينبغى أن تبسط العبارة فى كل هذه المعاجم بسطاً يوضح المقصود من كل كلمة ، وأن يستعان على الايضاح بالصور ، فإذا أريد إيضاح أعضاء الانسان فى المعاجم المعنوية مثلاً يصور الانسان ويشار إلى العضو إشارة تجعله مفهوماً جلياً ، وكذلك إذا أريد بيان خلق الفرس أو خلق الجمل مثلاً ؛ وهكذا يستعان بتصوير الأشجار والأزهار والبقول وغيرها تصويراً من شأنه أن يعين المراجع إعانة تامة على فهم ما يريد فهماً لا غموض فيه ولا غبار عليه .

ولا شك أن هذه الطريقة تستلزم جهوداً متضافرة من جماعات متأخرة .
وأجدر من يعهد إليه بذلك هى المجمع اللغوية التى أنشئت وستنشأ فى الممالك
العربية ؛ وقد بلغنا أن المجمع اللغوى فى الكنانة مضطلع ببعض هذه المهمة . كان
التوفيق حليفه .

طه الراوى

اهتماماتى ودراساتى العلمية

لما تركت مصر إلى فرنسا فى سنة ١٩٠٧ كان « التطور » من مركباتى الذهنية البارزة ، بل المركب الأول . حتى إنى حين هبطت باريس جمعت طائفة من الكتب التى تعالج هذا الموضوع ، ولكنى لم أستطع فهمها وقتئذ ؛ لأنى أسأت الاختيار فلم أقتن الكتب الابتدائية أو بالأحرى لم أجدها . فلما قصدت إلى لندن وجدت العشرات من هذه الكتب الابتدائية . وكانت جمعية « الثعابين » تنشرها وتبيعها بأثمان التراب بسعر ٢٥ ملياً لكل كتاب . فأكبت عليها فى دراسة مثابرة ، مع استخراج الخلاصات وكتابة التعليقات . وقرأت كتاب داروين « أصل الأنواع » . وليس فى هذا الكتاب شىء يشق على الفهم . ولكنه يحتاج إلى التأمل الكثير . وداروين بعيد كل البعد عن التعبير المسرحى ؛ إذ هو متواضع معتدل يكتب فى حذر كأنه يخشى أن يؤمن القارئ بكل ما يقول . وهو الضد لنيته فى الأسلوب ؛ فان نيته نارى ساوى ، أما داروين فأرضى طينى . وأسلوب نيته عاطفى ذاتى حتى حين يهتدى إلى الحقائق الموضوعية . أما داروين فيكتب عن وجدان وتعقل ؛ حتى لتحس أنه ينفذ عن نفسه عاطفته وذاتيته كما ينفذ أحدنا الغبار عن شخصه .

وليس شك أن حى لداروين وتحيزى لنظرية التطور ، منذ نشأت الثقافة ، قد تركا أثرهما فى أسلوبى الكتابى . فقد قيل إن الأسلوب يدل على الجانب الأخلاقى للمؤلف بل يكشف عنه ؛ أى يدل على الاتجاه الفكرى وإيثار بعض القيم على بعض . وأنا أؤثر أسلوب داروين : أسلوب المنطق الصارم والحذر والاعتدال على أى أسلوب آخر يوصف بأنه « أدبى » . وكثيراً ما وصفنى الكتاب فى مصر بأنى لست « أدبياً » ؛ لأنهم لا يجدون عندى تلك الزخارف والتزاويق المألوفة فى غيرى من الكتاب . ومع ذلك فانى لا أنكر سحر الأسلوب العاطفى . ولكنى إذا كنت ألتذ السحر أحياناً وأستمع بما فيه من مهارة

فاني أؤثر عليه أسلوب التعقل والوجدان . وأذكر أني حين قرأت « من الأعماق » تأليف أوسكار وايلد أعجبت بسحره . حتى إنني عندما بلغت الصفحة الأخيرة عدت فوراً إلى الصفحة الأولى أقرؤه ثانية كأنني أستعيد لحناً جميلاً وأنغاماً رائعة . ولكنه لم يترك في رأسي مركبات ذهنية كتلك التي تركها « أصل الأنواع » لداروين . فقد غيرني داروين . أما أوسكار وايلد وجون روسكين وكارليل من الكتاب الذاتيين فقد نسيتهم ؛ لأنهم جميعاً بعيدون عن الحقائق الموضوعية

وحين أقرؤهم الآن أشعر أنهم يخطبون أو يصرخون أو يتفصحون . فأجد اللذة العابرة في أسلوبهم ولكني أحس أنهم ليسوا مفكرين أساسيين . والمفكر الأساسي عندي هو داروين الذي يتحدث في اعتدال وحذر . وأسلوبه هو الأسلوب الرصين . وأقرب الناس إليه في هذا الأسلوب هو برنارد شو . وقد سبق أن قلت إن المقاييس للكاتب أن نعرف مقدار ما تركه لنا من المركبات الذهنية ؛ لأنه على قدر هذه المركبات يكون تفكيره محوريّاً أو بذريّاً ، أي إننا لا نأخذ منه المعرفة الجامدة فقط ، بل نأخذ المعرفة النامية التي تنمو وتتسع في الخلايا الرمادية من المخ فتركنا ونحن تفكر ونشتبك في اشتباكات جديدة لا تفتأ تنبها إلى توسع وتعمق فإيناع . ومنذ ١٩٠٨ حين قرأت « أصل الأنواع » وأنا في هذا التوسع والتعمق . فقد درست البيولوجية والجيولوجية بل سيكولوجية فرويد بحافز من داروين . كما أن داروين كان السبيل إلى التعرف إلى هربرت سبنسر . وكان داروين يصفه بأنه « فيلسوف التطور » . والحق أن سبنسر هو المسئول عن تعميم هذه النظرية ونقلها إلى المجتمع ، ولا عبرة بأنه ارتكب أخطاء كثيرة في التفاصيل . فان الأخطاء أحياناً قد تكون منيرة مثل الاصابات ؛ لأنها تفتح كوة على ناحية لم تكن مفتوحة من قبل . فإذا كان الناظر إليها قد أخطأ الرؤية ، فان فضله لا يزال عظيماً لأنه فتح الكوة . وهذا هو ما أراه في كثير من المفكرين مثل فرويد وسبنسر بل داروين نفسه . فقد نبهنا فرويد في خطئه عن « مركب أوديب » ، كما نبهنا سبنسر في خطئه عن وراثية الصفات المكتسبة ، وكذلك نبهنا داروين في خطئه عن تنازع البقاء . وكل هذه الأخطاء كانت كوات جعلتنا نفكر ونبحث ؛ لأنها فتحت لنا آفاقاً جديدة . وقد انتقلنا بها من الميدان البيولوجي إلى ميادين الاجتماع والدين والاقتصاد .

ومن الكتاب البذريين الأساسيين الذين تأثرت بهم ، ومازالت المركبات

الذهنية التى خلفوها فى خلاياى المخية قائمة بل نامية ، كارل ماركس . فقد وصلت إليه عن استعراض ضده من كتاب « الانفرادية » الذين يقولون بالمباراة الاقتصادية مثل هربرت سبنسر ، وخرجت منه على احترام له واحتقار لهربرت سبنسر . ولكن هذا الاحتقار ، فى هذه النقطة المعينة ، لم ينقص من إكبارى للقوة التفكيرية عند سبنسر . والحق أنها قوة عظيمة جدا ؛ فان نظرتة شاملة وهو فيلسوف أكثر مما هو عالم ، ولكنه فيلسوف بعيد عن الغيبيات . وقد احترف هذا الرجل التفكير احترافاً . حتى ليسأم الانسان حين يقرؤه ويكاد يسائل : لماذا هذا الجد ؟ لماذا يجهد ويعرق ؟ ألا يفكر فى إجازة يستريح فيها ؟ والحق أنه لم يفكر فى إجازة . وقد أصيب لهذا السبب بانهايار عقلى تألم منه نحو سنتين . وحتى بعد ذلك كان أحياناً يطلب من ضيوفه ألا يتكلموا بل أن يقبوا فى ضيافته أو رفقة صامتين . . .

وفى هذه السنين كدنا ننسى هربرت سبنسر . ولكن كارل ماركس يزداد بمرور السنين قوة بل حياة ؛ فان نظرياته تحيا فى كل مكان فى العالم . والأزمة العالمية الحاضرة هى أزمة الصراع المنتظر ، أو الوفاق المحتمل ، بين الماركسيين دعاة الانتاج التعاونى وبين الديمقراطيين دعاة المباراة الاقتصادية . ولذلك لا يمكن أحداً أن يصف نفسه بأنه مثقف إذا كان يجهل الماركسية ولو كان يكرهها .

وقيمة الماركسية فى فهم السياسة العالمية والتطورات الاجتماعية والأخلاقية الحاضرة كبيرة جدا . ولكن لها قيمة أخرى فى فهم التطورات التاريخية . والمتعمق فى دراسة ماركس لا يتألك من الشعور بأنه هو ، لا فرويد ، الأساس الصحيح للفهم السيكلوجى . فان ماركس أثبت أن العواطف الاجتماعية ، أى التى نكتسبها من المجتمع ، أكبر قيمة وأبعث على التغير والتطور وأثبت فى كياننا مما نسميه العواطف الطبيعية . ولذلك لا يقتصر فضل ماركس على أنه جعل الاقتصاد علماً ، لأن الحقيقة أنه جعل كذلك الأخلاق والاجتماع والسيكلوجية علوماً . ولا يستطيع أحد أن يفهم هذه الثلاثة على حقيقتها الفهم الموضوعى إلا إذا كان ماركسياً .

داروين وماركس ، كلاهما قد غرس فى رأسى مركبات ذهنية ، وجعلنى أنظر إلى الدنيا وإلى الأحياء فى استعراض علمى وتحليل اقتصادى وسيكلوجى . وعندما

أستبطن إحساسى الدينى أجد أن بؤرة هذا الاحساس هو « التطور » وهذا الاحساس الدينى هو فهم وممارسة . فانى أفهم أننا وجميع الأحياء أسرة واحدة بما فى ذلك النبات ، وأن الخلية الأولى التى نبض بها طين السواحل قبل نحو ألف مليون سنة هى عنصرنا الأول ، وأننا مازلنا نبض ونتغير فى تجارب لاتنقطع ، وأن سُنتنا هى لذلك سنة التغير ، وجرىمتنا هى لذلك جريمة الجمود . ولكن إلى جنب هذا الفهم الدينى يجب أن « نمارس » ممارسة دينية باحترام الحياة أيًا كانت والتعرف إلى أشكالها وحمايتها من الأميين المستهترين بالطبيعة . هذه الطبيعة التى تكتسب فى ذهنى قداسة كلما فكرت فى غابات أفريقيا أو الهند وما تحوى من تحف الحياة ، أو كلما فكرت فى غياهب المحيط الهادى أو الأطلنطى أو المحيطين القطبيين وما بهما من أحياء يحاول التجاريون ، فى غير شرف، أن يبيدوها باللاحاح عليها فى الصيد .

وكذلك لا أقرأ الجريدة اليومية ولا أسمع عن خبر سياسى أو مشروع لقانون جديد إلا وأنظر إليه بالاستغراض الماركسى من حيث دلالاته على النوازع المخفية التى دفعت إليه ، فى حين أن الذى يجهل الماركسية يتطوح ويتخبط فى تقديرات « شخصية » للممثلين السياسيين أو الحريين . مع أن هؤلاء ليسوا سوى أدوات تأخذ مكانها فى دورة الآلة الكبرى ، فى حركة المجتمع الاقتصادى . ولذلك أيضاً أصبحت فكرة « البطل » فى التاريخ من الأفكار التى كانت تتقهقر فى وجدانى كلما تقدمت فى التحليل الاقتصادى . ولكن يجب أن أعترف أنها مع تقهقرها لم تمنح ، وأنه لا يزال للشخصية قيمتها فى تفكيرى .

وفرق عظيم ، بل عظيم جدا ، بين شخص قد قرأ ماركس ودرس التفسير الاقتصادى للتاريخ ، وبين آخر يجهله . لأن الأول يجد فى أخبار الجريدة اليومية من المعنى والمعزى ما لا يجده الثانى الذى يحسب أن الحوادث التافهة والخطيرة ، والاتجاهات السياسية، والتطور والثورة ، والحرب والسلام ، كلها أشياء تجرى جزافاً .

ويأتى فرويد ، بعد داروين وماركس ، فى إيجاد المركبات الذهنية التى عملت فى توسعى وتعمقى . وعندى أن « مركب أوديب » الذى يعد محور السيكولوجية الفرويدية هو خطأ . ولكنه خطأ مثير ، لأنه نبهنا ، كأنه دسيسة علمية تحركنا إلى البحث والتنقيب فى كهوف النفس المظلمة ، إلى قيمة السنين الأولى أيام الطفولة فى تكوين الشخصية . وقد وصفت أفكار فرويد بحق بأنها

« سيكولوجية الأعماق » ، وهى كذلك وإن كنا نختلف كثيراً عما نجد فى هذه الأعماق . ولولا فرويد لما كان هذا الجيش الذى يتألف من آلاف العلميين الذين يبحثون النفس البشرية فى جميع الأقطار المتعدنة . وقد جمعت بين فرويد وماركس وخرجت منهما بأزكى الثمرات . بل فطنت إلى أن ماركس هو السيكلوجى الأساسى ؛ لأنه يجعل وجدان الفرد ثمرة المجتمع .

وفى حياتنا العصرية لا يستطيع أحد أن يهمل التفكير العلمى ؛ لأن الحضارة الصناعية السائدة هى حضارة العلم . وقد دأبت فى دراسة العلوم التى تدور حول التطور أو الاقتصاد أو السيكلوجية أكثر من ثلاثين أو أربعين سنة ، ولذلك أستطيع أن أتناول كتاباً عن الهورمونات ، أى مفرزات الغدد الصماء ، أو كتاباً عن الايكولوجية ، أى علاقة الحى بالبيئة ، أو كتاباً عن مشكلات الوراثة ، أو كتاباً عن جنون الشيزوفرينيا ، فاقرأوها جميعاً فى رغبة وفهم ولا أجد ذلك الصدود الذى يحده غيرى ممن لم يعنوا بالعلوم .

وكل هذه العلوم هى دراستى المستقلة ؛ لأن ما حضرته من محاضرات فى لندن لا يؤبه به . ومما آسف عليه أحياناً أنى لم أجد المرشد حوال ١٩٠٧ الذى كان يستطيع أن يعين لى منهجاً دراسياً فى العلوم . ولكنى ، بعد التفكير ، أسألك : هل كان يكون أفضل لى لو أنى كنت انغمست فى دراسة علمية تجريبية معينة ؟ ألم تكن مثل هذه الدراسة مانعة بطبيعتها الإحصائية من ألوان أخرى من الثقافة الموسوعية التى أتمتع بها الآن ؟ إني لأأكاد أعرف إحصائياً فى علم ما ، نجح فى أن يكون موسوعياً ينطلق فى سهولة ويسر إلى رياض الفلسفة والأدب والاجتماع ؛ مع أن كل هذه الميادين ، فضلاً عن العلوم ، قد ألفتها وجلت ، بل نقبت ، فيها وفكرت فى تناسقها ، وسرت فيها بروح المتعلم الذى يربى نفسه فى بعد عن الاغترار والزهو . فاذا اعتبرت القيم ، قيم الحياة لا قيم التخصص الثقافى ، فانى أجد أنى نجحت فى تربية نفسى أكثر مما لو كنت قد تخصصت ؛ لأن المتخصص فى الجيولوجية أو البيولوجية أو الايكولوجية قلما يفكر فى دراسة أفلاطون أو قراءة الجاحظ أو دراسة الحضارة الفرعونية . ولكنى أنا بالاتجاه الموسوعى الذى اتجهته قد درست هذه العلوم ، فى غير تخصص ، ولكن مع الاستطلاع الدائم لغيرها من الثقافة ، حتى أنى أقدر ، مثلاً ، عدد المؤلفات التى قرأتها عن حضارة الفراعنة بما لا يقل عن أربعين أو خمسين كتاباً . ولم أترك كلمة مطبوعة للجاحظ لم أقرأها .

ولذلك أستطيع أن أولف كتاباً عن جيته أو الاصلاح الزراعى فى مصر أو المسألة الهندية بأيسر عناء .

ولذلك يرى القارىء أنى درست ، لا للثقافة ، بل للحياة . وقد حملتنى دراستى العلمية على أن ألتفت كثيراً إلى المراحل البعيدة التى قطعتها العلوم المادية ، كالطب والهندسة والكيمياء والميكانيات والطبيعات ، مع تأخر العلوم الاجتماعية ، التى حال دون التفكير الحرفى فيها وتغيير قواعدها ، تقاليد وشعائر وسنن وقوانين تعمل كلها لتجميد تطورنا الاجتماعى . فالاجتماع ، باعتباره علماً ، يعيش على مستوى التفكير فى ١٦٠٠ أو ١٧٠٠ ميلادية ، بل هو فى أقطار آسيا وأفريقيا يعيش على مستوى سنة ١٠٠٠ للميلاد ، فى حين أن الكيمياء أو الطب يسبقانه بنحو ٣٠٠ أو ٤٠٠ سنة ، ولذلك نحن لا نعيش المعيشة العلمية فى بيوتنا ولا يسود حكوماتنا النظام العلمى . ولو أنه كانت هناك تقاليد وشعائر وسنن وقوانين للكيمياء مثلاً ، كما للمجتمع ، لبقى هذا العلم على مستواه حين كان كل هم الكيماوى أن يحيل الرصاص إلى ذهب . كما أننا لو استطعنا التخلص من تقاليدنا ومن الاستغراضات التى تخدم بعض الهيئات والطبقات لكان فى مقدورنا أن نرتفع بالاجتماع إلى مستوى العلوم التجريبية المادية .

ولهذا أيضاً نجد أن الطالب الذى يدرس الطب يقول له فى صراحة إن الذباب ينقل عدوى الرمد أو الدوسنطاريا ، أو إن لحم البقر الذى أصيب بالدرن تنتقل عدواه إلى آكله من البشر . ولكننا لا نقول لهؤلاء التلاميذ أو الطلبة إن الأجور المنخفضة التى يحصل عليها العمال فى مصر تقضى بينهم الدرر والعمى والموت ؛ لأننا نخشى هنا الاستغراضات الامتيازية والاحتكارية الاقتصادية .

ذات يوم فى ١٩١٨ كنت قاعداً فى الريف إلى قناة صغيرة فى ظل شجرة وإلى جنبى فلاح قد بلغ الثمانين ، وكنت أتأمل يرقات الضفادع وهى تسبح . فسألت الشيخ عنها فأتضح لى أنه لا يعرف أنها ضفادع صغيرة . ثم تشعب الحديث إلى النبات فقال : « إن لكل نبتة من هذا لأعشاب التى تنمو على شطوط القنوات ملكا يحرسها . » ولما نهضت أخذت أفكر فى هذه الرواسب الثقافية التى انحدرت إلينا عن الفراعنة والكلدانيين والبابليين ، وجعلتنا نعيش فى غيبات تحملنا على النظر المخطئ لحقائق هذا العالم وتباعد بيننا وبين النظر العلمى

الموضوعى . وقلت فى نفسى : هذا الرجل غيبى يؤمن بأن العالم حافل بالأرواح التى تحرس الناس والحيوان والنبات . إذن هو من خصوم داروين . ولكن هذا الفلاح المسن يمثل فى سذاجته المركزة جهل الرجل العادى والمرأة العادية . وكلاهما يعيش بذهنه على رواسب قديمة من العقائد . حتى إن فكرة « القرينة » عند الفراعنة ، لا تزال حية فى أيماننا . أجل ! لقد ذكرت الآن ؛ فقد كنت طفلاً لم أتجاوز السابعة أو السادسة ، وكنت قد غضبت وصرخت ورفست وأنا على العشاء . فقالت لى أمى تخيفنى : « دلوقت أختك ترعل منك وتضربك » .

وكانت تعنى بأختى هذه « قرينة » الفراعنة ، وقصدت إلى الفراش ونمت بلا عشاء . وإذا بى أحلم أن فتاة قد حضرت وهى تحمل سوطاً ترفعه فى الهواء كى تتحفز لضربى ، فصرخت فى النوم ، وأقبلت إلى أمى فى فزع فأيقظتنى وحضنتنى وجاءتنى بكوب من الماء شربت منه جرعة . ثم أخبرتها عن الحلم ، فأخذت تقبلنى وهى تبكى : « حقك على يا ابنى . أنا كنت يضحك . مفيش أخت . مفيش أخت . » ولكن مجتمعنا لا يزال فى أسر هذه القرينة أو ما يشابهها من العقائد التى تتخذ أحياناً أسلوب البحث العلمى . كما نرى مثلاً فى أولئك الذين يزعمون أنهم يستجلبون الأرواح فتتقر على المائدة وتتحدث عن العالم الثانى . . . وهذه العقائد تعيش كأنها كابوس للمجتمع تعمل على تجميده وتخويله حتى لا يتطور . ودعاة الروح هؤلاء لا يختلفون عن تلك الأم الساذجة التى تقول عندما يعثر طفلها : « وقعت على أختك أحسن منك » تمدح الأخت وتسترضيها حتى لا تصيب طفلها بأذى . . .

وهذه القرينة أو هذه الأخت التى أفرغتنى فى نومى ، وهذه الملائكة التى تحرس النباتات عند ذلك الفلاح المسن ، هى ضباب العقل الذى يقشعه العلم . وقد انتشع أو كاد فى أمريكا وأوروبا . ولكنه لا يزال يخيم علينا ؛ لأن الثقافة العلمية لا تزال بعيدة عنا لم تنتفس هواءها الصافى .

وهذه الثقافة العلمية هى ما أفتأ أرجو أن أجعلها أسلوبى فى الحياة الشخصية والاجتماعية . ولكن لم أخطئ قط ذلك الخطأ المألوف بأن أجعل العلم غاية إذ هو وسيلة فقط . أما الغاية فيعينها الأدب والفن والفلسفة ، أى إن غاية العلم هى الدين ، أى كيف نعيش فى مجتمعنا أصلح العيش وأروحه وأقصده وأشرفه .

وقد وضعت كتابى « نظرية التطور وأصل الانسان » ولى مأرب هو مكافحة الغيبات الشائعة . ونشرته كله مقالات فى البلاغ قبل طبعه كتاباً ، كى أصل إلى أكبر عدد من القراء . ومن الذكريات السعيدة أنى وقتت ذات يوم إلى دكان صغير لا تزيد مساحته على ثلاثة أمتار أشتري لابنى بعض الحلوى ، فعرفنى البائع وأخبرنى أنه قرأ كتابى هذا وفهمه .

ولو أنى وجدت التشجيع لأرصدت حياتى لاخراج كتب شعبية مثل « نظرية التطور » و « العقل الباطن » ونحوهما . وكثيراً ما كنت أتحسر حين كنت أرى مؤلفات العقليين فى لندن . فان كتاب « أصل الأنواع » الذى زلزل به داروين الثقافة الأوربية يباع بأقل من خمسة وعشرين ملياً .

وحوالى ١٩٣٠ وجدت أنا والأستاذ فؤاد صروف الفرصة سانحة لايجاد حركة علمية شعبية فى مصر . فعقدنا العزم على تأليف « المجمع المصرى للثقافة العلمية » . وكانت الغاية منه أن يضم جميع المهتمين بالثقافة العلمية ونشرها بين الجمهور . ونجحنا فى المشروع نجاحاً لم نكن نتظره ، مما دل على أن المجمع أدى حاجة عضوية فسيولوجية فى مجتمعنا . وعقدنا الاجتماع السنوى الأول له وألقيت فيه محاضرة سيكلوجية عن طبيعة التفكير فى ضوء الأحلام فى قاعة الجمعية الجغرافية . ولكنى فى ذلك الوقت كنت أمارس نشاطاً سياسياً مركزاً فى مكافحة إسماعيل صدقى باشا حين ألغى الدستور واستبدل به غيره ، واتفق مع المستعمرين والمستبدين على إعادة الحكم التركى الشر كسى الذى حاول عرابى أن يحطمه . وأدى نشاطى هذا فى السياسة إلى طردى من المجمع .

وكان من حظنا السيئ أننا اخترنا معظم الأعضاء من الموظفين . ولذلك حين اختير حسين سرى (باشا) رئيساً لاجتماعه الثانى أرسل إلى خطاباً يفصلنى من المجمع « مع الشكر » . وكان وقتئذ وكيلاً لحدى الوزارات ، فوافق جميع الأعضاء « الموظفين » ولم يشذ غير واحد ، غير موظف ، هو الأستاذ إسماعيل مظهر . وجاء فى عقب طردى الصديق زكى أبو شادى يعتذر إلى بأنه لم يجرؤ على مخالفة « وكيل وزارة » ، ولذلك أعطى صوته ضدى ووافق على طردى ، على أنه يعرف أنه ليس من حق المجمع أن يفصلنى لنشاطى السياسى . واتجه المجمع بعد ذلك وجهة إحصائية غير شعبية ، ولذلك لم ينتفع به الجمهور كثيراً .

وعندما أقارن بين الثقافة العلمية والثقافة الأدبية أجد أن القيمة العظمى

للاولى أنها تحريرية ؛ لأن التفكير العلمى يسير على نهج ارتقائى : هذا سىء فيجب أن نبحث عن الحسن ، وهذا أحسن ولكن يجب أن ننشد أحسن منه بالاكشاف والاختراع ، والتفكير الارتقائى هو بطبيعته تفكير علمى . وهو لم ينشأ فى أوربا إلا بعد أن اتجه الأوربيون وجهة علمية فى القرن السابع عشر . أما قبل ذلك فلم يكن هناك من يقول بأن الشعوب يجب أن ترتقى وتتغير ، وقد يردّ هنا على بأنه كان هناك طوبويون يتخيلون حالا سعيدة للبشر غير حالم الحاضرة . ولكن الفكرة الارتقائية لم تنبت قط فى هذه التربة الطوبوية . وإنما نبتت من البذور العلمية .

والثقافة الأدبية ، إذا لم تجد الحافز من العلوم ، تركد . وقد كان هذا شأنها فى العصور الماضية . وسط زراعى راكد يعيش فى ثقافة أدبية راكدة محافظة . أما الآن فالعالم المتمدن يعيش فى وسط صناعى متحرك ، يعيش فى ثقافة علمية متحركة متغيرة .

ومن هنا قيمة التوجيه العلمى فى الثقافة العربية الحاضرة . بل يجب أن يرتفع هذا التوجيه إلى مقام الدعاية .

سلام مرمى

مسألة الهند وقضية الباكستان

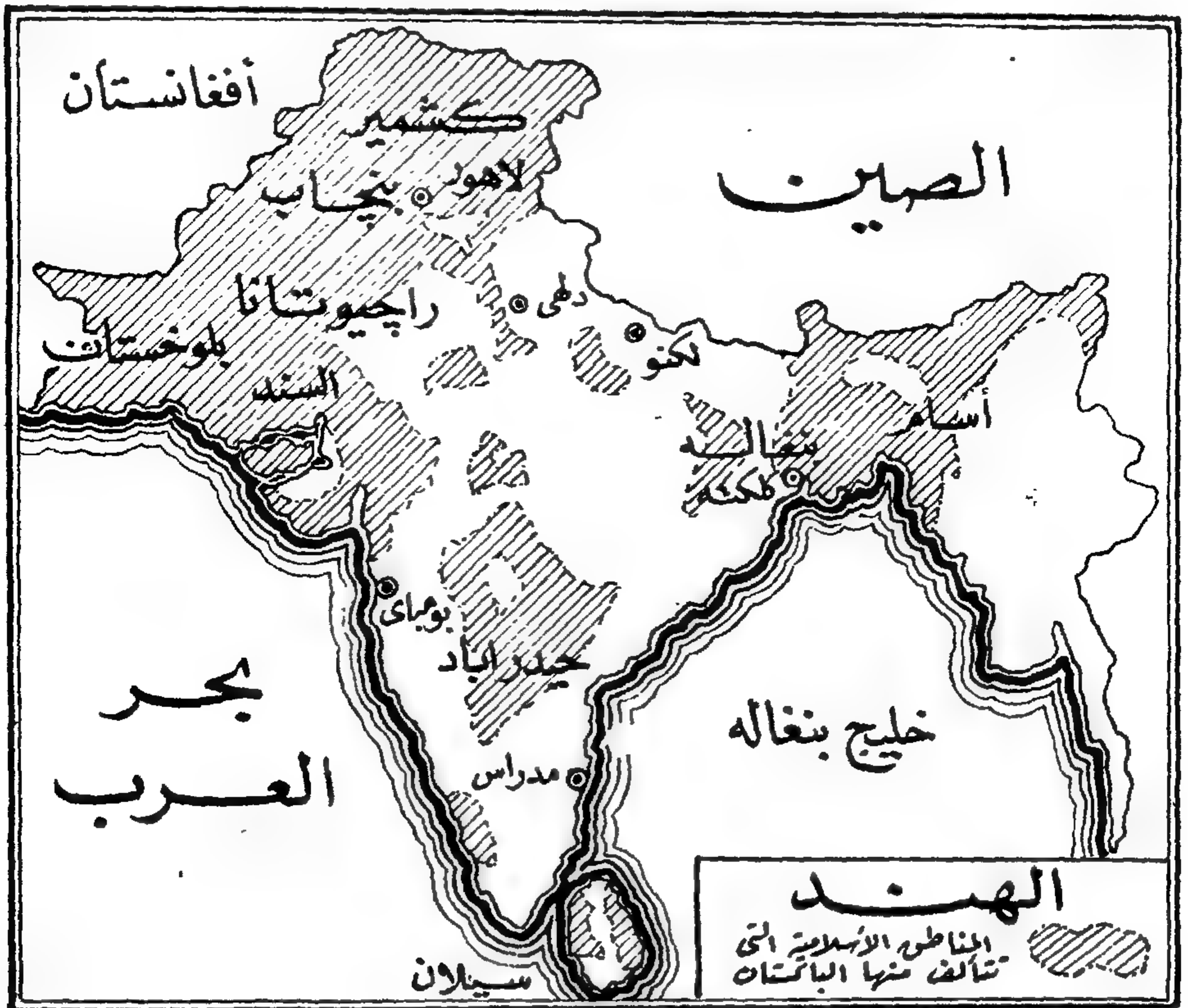
سبق أن تناولنا مسألة الهند على صفحات هذه المجلة (١)، وشرحنا بالتفصيل مراحلها المتعاقبة بصفة عامة ، والآن نعرض إلى ناحية خاصة من نواحيها برزت في العهد الأخير بروزاً يلفت النظر ، وتكاد لدقتها وتعدد نواحيها أن تغدو قضية مستقلة بذاتها .

تلك هي مسألة الباكستان ، أو مسألة الدولة الاسلامية الهندية المنفصلة التي اتخذتها الكتلة الاسلامية بالهند شعاراً لها ، وجعلتها قبلة أمانها السياسية . ولقد سمعنا من السيد محمد علي حنة زعيم الرابطة الاسلامية ، وهي الهيئة السياسية التي ينضوى تحت لوائها مسلمو الهند ، عند مروره أخيراً بمصر أقوالاً تدلّ بما وصلت إليه المسألة الهندية من الدقة ، وبما يعلقه المسلمون الهنود من أهمية بالغة على تحقيق أمانهم في مسألة الباكستان .

إن مسألة الباكستان أحدث عناصر المسألة الهندية ، ولم تظهر في ميدان الصراع بين المسلمين والهندوس بصفة جدية قبل عشرة أعوام ، وكان الداعى إلى ظهورها أسباباً وعوامل سياسية واجتماعية حملت كثيراً من المسلمين المستنيرين على الاعتقاد بأن مستقبل المسلمين في الهند الجديدة المستقلة وفي ظل الأثرة الهندوسية الساحقة لن يكون مأموناً أو زاهراً إذا لم يكن للمسلمين أنفسهم ضمانات سياسية وطائفية خاصة تحميهم من طغيان الهندوس .

ولقد سارت المسألة الهندية وسار الكفاح القومى الهندى منذ بدايته في أواخر الحرب العالمية الأولى على أسس قومية مشتركة وتضامن تام بين الهندوس والمسلمين . وكان السيد جنة زعيم المسلمين الذى يحمل اليوم لواء الباكستان ، في طليعة المجاهدين يومئذ في سبيل تحقيق الوئام الدائم بين الطائفتين

الكبيرتين . وكان ميثاق لكنو الذى عقد بين الفريقين فى سنة ١٩١٦ عنوان هذا الكفاح القومى المشترك ، وهو الذى اتخذته السياسة البريطانية أساساً لوضع الاصلاحات الدستورية التى عرفت باسم قانون مونتاجو وشلمسفورد وصدرت فى سنة ١٩١٩ كخطوة أولى فى معالجة المسألة الدستورية الهندية . ولكن الحوادث أثبتت فيما بعد أن الأكثرية الهندوسية لا ترى فى الكتلة الاسلامية سوى طائفة من طوائف الأقليات ، وأنها تجرى فى سياستها وتصرفاتها على هذا الاعتبار ، وأن فكرة التضامن القومى التى آمن بها المسلمون حيناً لم تكن



إلا سراباً خادعاً تروج له الأكثرية تمكيناً لسلطانها الذى يدعمه تفوقها العددي الساحق . ذلك أن الهندوس يبلغون زهاء ٢٢ مليوناً ، ولا يبلغ المسلمون سوى ثمانين أو تسعين مليوناً .

وقد ظهرت نيات الهندوس بوضوح فى مؤتمر الطاولة المستديرة الذى عقد فى لندن سنة ١٩٣٠ لبحث المسألة الهندية ؛ فقد تمسك الزعماء الهندوس وعلى رأسهم

غاندى بالقاعدة القومية فى حل المسألة الهندية ، وأبوا الموافقة على منح المسلمين أية ضمانات خاصة ، و بذلك أخفق المؤتمر . ولما صدر قانون الهند الجديد فى سنة ١٩٣٥ وأقيمت بمقتضاه حكومات برلمانية محلية فى الولايات الهندية ، عانى المسلمون فى ظل حكومات الأ كثرية الهندوسية أشد ضروب الاضطهاد والظلم ، واتخذت هذه الحكومات الهندوسية ضدهم خطة سافرة من الاضطهاد المنظم فى سائر المرافق الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وأرغموا فى أكثر من ولاية على مراعاة بعض الطقوس الهندوسية ، وتعالى أصوات المسلمين بالشكوى من هذا الاضطهاد ، ولبث زعيمهم السيد جنة يجاهد لدى نائب الملك ولدى الحكومة البريطانية لرفع هذه المحنة ، حتى قرر نائب الملك بما له من السلطة بمقتضى دستور سنة ١٩٣٥ إلغاء هذه الحكومات الاقليمية ، وذلك فى ديسمبر سنة ١٩٣٩ وكان هذا ظفراً عظيماً للمسلمين وللرابطة الاسلامية ، واعتبر يوم الالغاء عيد إنقاذ قومى يتقدم فيه المسلمون بالشكر إلى يومنا .

فى مهاد هذه الظروف والعوامل نشأت فكرة الدولة الاسلامية الهندية المستقلة . وترجع بواعثها كما رأيت إلى الخلاف الجوهرى بين المسلمين والهندوس على المبدأ الأساسى الذى يجب أن يكون عليه دستور الهند المستقلة . فالأ كثرية الهندوسية تتمسك بما تسميه المبدأ القومى العام واندماج الأ كثرية والأقلية فى أمة واحدة يحكمها دستور واحد ، و يطبق فيها مبدأ الانتخاب العام . وأما الكتلة الاسلامية فتتمسك بالعكس بمبدأ الضمانات الخاصة ، وهى بتعدادها البالغ ثمانين أو تسعين مليوناً لا تعتبر نفسها أقلية بل وحدة قومية وسياسية قائمة بذاتها ، ولكنها إزاء تفوق الهندوس الساحق من الناحية العددية تعارض فى مبدأ الاندماج القومى ؛ لأنه يعنى فى نظرها الوقوع تحت نير الهندوس .

هذا من الناحية السياسية . ولكن الكتلة الاسلامية الهندية ترجع أمانها فى قيام الدولة الاسلامية المنفصلة أيضاً إلى بواعث تاريخية وأدبية ؛ فقد حكم المسلمون الهند قروناً وأنشأوا لهم بها حضارة زاهرة لها مميزات الخاصة ، والكتلة الاسلامية وريثة هذا التراث التاريخى تنظر بعين الجزع إلى احتمال وقوعها تحت حكم الأغلبية الهندوسية . هذا إلى أن الكتلة الاسلامية لها دينها الخاص ولغتها الخاصة ومميزات العنصرية والأخلاقية الخاصة ، فكيف يمكن بعد ذلك أن

تسمح هذه الكتلة لنفسها بالانزلاق إلى بحر الهندوس الخضم فيطغى عليها ويطمى سائر مقوماتها ومميزاتها !

والمسلمون الهنود لا يريدون أن يتحرروا من السيطرة البريطانية ليسقطوا بين براثن السيطرة الهندوسية ، ولكنهم يريدون استقلالهم القومى الخاص أسوة بالهندوس أنفسهم .

وقد أخذت أمانى الكتلة الاسلامية تتبلور منذ ظهورها من الناحية الجغرافية ، تبعاً لمواقع الولايات الهندية التى تسكنها أكثرىات مسلمة . ومنذ سنة ١٩٣٣ أخذ أحد الزعماء المسلمين وهو السيد رحمت على المحامى ينادى بوجوب استقلال الولايات الهندية التى تضم أكثرىات مسلمة فى كتلة جغرافية وسياسية موحدة . ولما كان معظم هذه الولايات يقع فى الشمال الغربى للهند فقد اصطلح على أن تسمى هذه الكتلة من الناحية الجغرافية « باكستان » وهو الاسم الذى أطلقه عليها صاحب الدعوة . ومعنى « باكستان » بلاد « الباك » . وكلمة باك بالأوردية معناها تقى أو طاهر ، وهى ترمز إلى كل ما هو مقدس ونبيل فى حياة المسلم .

وتمثل الأحرف التى يتكون منها هذا الاسم بداية أسماء الولايات الهندية الشمالية الغربية على النحو الآتى :

(ب) ترمز إلى ولاية بنجاب

(ا) يراد بها « أفغان » ممن يقطنون الشمال الغربى

(ك) ترمز إلى ولاية كشمير ، وهى إحدى الولايات المستقلة

(س) ترمز إلى ولاية سند

(تان) ترمز إلى بلوختان-، والأحرف هنا فى نهاية الكلمة

وتتلخص دعوة الباكستان فى كلمة واحدة هى قيام الدولة الاسلامية المنفصلة . ومع أنها تتركز من الناحية الجغرافية فى الولايات الشمالية الغربية إلا أنها ترمى أيضاً إلى إدماج جميع المناطق الأخرى التى بها أكثرىات إسلامية مثل بنغالة والولايات الوسطى فى هذه الدولة الاسلامية المنفصلة .

ولا ترجع فكرة الباكستان إلى أساس طائفى فقط بل تذهب إلى آفاق أوسع مدى . ويرى فيها الهنود المسلمون اليوم مسألة قومية أكثر منها

طائفية ، وأن قضية الهند الكبرى لا يمكن أن تحل حلاً نهائياً إلا على هذا الأساس ، أعني تسليم بريطانيا والهندوس بأن تستقل الكتلة الإسلامية كأمة موحدة في هذا النطاق الجغرافي ، وأن يكون للدولة الإسلامية المستقلة (باكستان) نفس حقوق الدولة الهندوسية (هندوستان) ونفس الحقوق التي تتمتع بها الدول المستقلة الأخرى .

وتعتبر حركة الباكستان أول فورة للوعي القومي الاسلامي في الهند منذ سقوط الدولة الإسلامية المغلوبة . وقد أثرت الدعوة في عقول الشباب المستنير أعظم تأثير ، وزادت بين جماهير المسلمين ذيوماً عظيماً ، حتى أصبحت شعار الأثرية العظمى من المسلمين . وقد أعلنت الرابطة الإسلامية في مؤتمر لاهور في سنة ١٩٤٠ عزمها الذي لا يتزعزع على التمسك بميثاق الباكستان . ويسود بين الكتلة الإسلامية الهندية اليوم شعور عميق بأنها تكون أمة مستقلة بذاتها وبخواصها ، وأن لتراثها السياسي والاجتماعي أهمية لا يمكن الإغضاء عنها ، وأن موقفها وأمانها أضحت تكون عنصراً حاسماً في أية تسوية توضع لحل القضية الهندية .

تلك هي وجهة نظر الكتلة الإسلامية الهندية في شأن قضيتها القومية ، وتلك هي البواعث والاعتبارات التي يرجع إليها تمسكها بقيام الدولة المسلمة المستقلة . وقد أشكل على الكثيرين فهم موقف مسلمي الهند ، ورأى البعض في اعتراضهم على قيام الدولة الهندية المتحدة وتمسكهم بقيام الدولة المنفصلة خروجاً على الاتحاد القومي وإهداراً للمبادئ الوطنية وممالة للاستعمار البريطاني . ولكن هؤلاء لم يفهموا المسألة على حقيقتها ، ولعلمهم بعد استعراض هذه البواعث والاعتبارات القومية التي يسوقها المسلمون تبريراً لموقفهم يصححون هذا التصوير الخاطي لفهم قضية الباكستان .

وقد اهتم الزعماء الهندوس بأمر هذه الحركة الإسلامية القومية ، وأخذوا يتوجسون شراً من عواقبها ؛ لأنها تحول دون بغيتهم في سيطرة الأثرية الهندوسية على مصائر الهند الجديدة ، وهم يحاولون كسب السياسة البريطانية إلى جانبهم ، وإقناعهم بأن هذه الحركة أو أية حركة مماثلة أخرى إنما هي خطر على مصير الهند المتحدة ومصالح بريطانيا ، كما أنها خطر على مصير الأقليات الهندوسية في الولايات الإسلامية .

وقد كسب الهندوس فيما يبدو الجولة الأولى في هذه المعركة العنصرية السياسية ، وتقدمت الحكومة البريطانية إلى الهند بمشروع التسوية الجديد في مايو الماضي خلواً من كل ضمانات خاصة للأقليات . وخلاصته أن تؤلف في الحال حكومة هندية مؤقتة يتولى سائر مناصبها الهنود ، وتقوم بوضع دستور الهند الجديد جمعية تأسيسية تمثل فيها الطوائف الكبرى كل منها حسب نسبتها العددية ، وأن يقوم الدستور الجديد على أساس اتحاد قومي يشمل الهند البريطانية والولايات المستقلة مع اختصاص مشترك في شؤون الدفاع والمواصلات والسياسة الخارجية ، وأن يقوم مجلس تشريعي مشترك ، وأن تحتفظ الولايات بالاشراف على الشؤون المحلية الأخرى ، وأن تؤلف حكوماتها المحلية الخاصة على أساس القواعد الدستورية .

وهكذا استبعد مشروع الباكستان من التسوية الجديدة ، وأهملت مطالب المسلمين الانفصالية . وكان من جراء ذلك أن عارضت الرابطة الاسلامية هذه التسوية بكل قواها ورفضت أن تشترك في تنفيذها ، وقامت الوزارة الهندية الجديدة دون اشتراك الرابطة الاسلامية فيها ، وقامت الجمعية التأسيسية أيضاً دون أن يشترك فيها نواب الرابطة الاسلامية . و يبلغ عدد أعضاء هذه الجمعية ٣٨٩ وفقاً للنسبة العددية لمختلف الطوائف ، منهم ٨٠ نائباً مسلماً . وقد افتتحت في اليوم التاسع من ديسمبر الماضي ، ولم يشترك في أعمالها سوى ٢٢٢ نائباً منهم ٢٠٥ من نواب حزب المؤتمر الهندوسي وستة نواب مسلمين من المشايخين لحزب المؤتمر . وعلى ذلك فلا يمكن أن يقال إن هذه الجمعية التأسيسية تمثل الهند تمثيلاً صحيحاً ، وهي لا تمثل بوضعها الحاضر سوى الأقلية الهندوسية .

وقد حاولت الحكومة البريطانية قبيل افتتاح الجمعية التأسيسية بأيام قلائل أن تبذل مجهوداً أخيراً للتوفيق بين المسلمين والهندوس ، فدعت البانديت جواهر لال نهرو زعيم حزب المؤتمر ورئيس الوزارة الهندية الجديدة والسيد محمد علي جنة زعيم الرابطة الاسلامية إلى لندن ، وجرت بينهما وبين مستر أتلي رئيس الحكومة البريطانية محادثات لم تسفر عن أية نتيجة . وعرض البانديت نهرو على الجمعية التأسيسية يوم افتتاحها مشروعاً لإعلان الهند جمهورية اتحادية ذات سيادة ، وأن يشمل دستورها المستقبل كل أراضيها ، وأن يقوم على مبادئ ديمقراطية محضة ، فوافقت الجمعية على اقتراحه . وفي الوقت الذي يصرح فيه البانديت نهرو وزملاؤه

الزعماء الهندوس بأنهم لن يوافقوا مطلقاً على تحقيق مشروع الباكستان أو الدولة الإسلامية المنفصلة ، يصرح السيد جنة زعيم الرابطة الإسلامية بأن مشروع الباكستان قد غدا بالنسبة لمسلمي الهند مسألة حياة أو موت ، وأن المسألة الهندية لا يمكن أن تحل على أسس عادلة دائمة إلا بتحقيق هذا المشروع . وما زال كل من الفريقين عند موقفه . على أنه يبدو أن حزب المؤتمر وإن كان قد ظفر في الجولة الأولى باستبعاد مشروع الباكستان من دستور الهند الجديد ، يقع الآن من الناحية العملية في مأزق حرج ، ولا يستطيع المضي في مهمته مطمئناً . فقد رأت الجمعية التأسيسية من جانبيها وكل أعضائها الحاليين من ممثلي حزب المؤتمر ، أن ترجى البحث في دستور الهند المستقبل إلى موعد آخر ، ليتسنى لنواب الرابطة الإسلامية والولايات المستقلة أن يشتركوا مع الجمعية في وضعه إذا شاءوا ، ومن جهة أخرى فإن بعض الزعماء المعتدلين من الهندوس يشيرون إلى حل وسط يمكن الأخذ به ، وهو أن تفصل بعض الولايات الهندية المسلمة في وحدة سياسية مستقرة على أن يكون ذلك بموافقة الجمعية التأسيسية ، لا بموافقة الحكومة البريطانية ، وذلك تمشياً مع نظرية المؤتمر في وجوب الأخذ بانبدأ القومى العام .

ولسنا نعرف ماذا يكون موقف الرابطة الإسلامية من هذا الحل الجزئى . ولكن الذى لا ريب فيه هو أن أى حل للمسألة الهندية لا يحقق فيه أمانى الكتلة الإسلامية بصورة مرضية لا يمكن أن يقوم على أسس مستقرة . ومن العسير أن تغفل السياسة المستنيرة إرادة تسعين مليوناً من البشر .

محمد عبد الله عناه

جولدتسيهر أبو الدراسات الاسلامية^(١)

بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على وفاته

في الثالث عشر من نوفمبر الماضي تمت خمس وعشرون سنة على وفاة أجناتس جولدتسيهر المستشرق العالمى الفريد الذى عد فى آخر حياته أبا الدراسات الاسلامية المصرية . فقد قضى ج . مخلصاً تراثاً علمياً ضخماً يبلغ زهاء ٦٠٠ كتاب ومبحث^(٢) فى الدين الاسلامى وفلسفته ، وتصوفه وشيعته ، وتاريخ مذاهبه وفرقه ، وفى أدب العرب ولغتهم وفى مواضيع أخرى . وإنى لأشهد أنى فى كل ما قرأت لج . من البحوث العلمية لم أقع على صفحة واحدة تخلو من شىء جديد لم يسبقه إليه أحد ، ولا سيما الشواهد التى جمعها من مصادر ومظان شتى بين قديمة وحديثة . أجل ! إن كمية إنتاج ج . العلمى لجديرة بالاعجاب والتقدير . غير أن ما يخلد ذكره ويرفع مكانته بين باحثى الشرق ومحبيه ليست كمية إنتاجه العلمى بل ابتكاره طرقاً جديدة فى درس التمدن الاسلامى وتطوره . قال العلامة المستشرق ك . ه . بيكر فى رثائه لج . — وكان بيكر حينئذ وزير المعارف فى بروسية ، ورثاؤه من أحسن ما كتب عن ج .^(٣) — « مهما تكن التطورات والتعديلات التى تطرأ على بحث الاسلام فى المستقبل فما لا شك فيه أن هذا البحث سيقوم دائماً على الأسس والمناهج التى وضعها ج . »

(١) كتب هذا المقال باللغة العربية للمستشرق المعروف الأستاذ . س . د . غويطايين خاصة لمجلة «الكاتب للمصرى» .

(٢) أحصى برنرد هيلر فى كتابه « مؤلفات أجناتس جولدتسيهر » باريس ١٩٢٧ ، ٥٩٢ مؤلفاً ومبحثاً . غير أن هيلر سها عن بعض البحوث ومنها المقالات التى وضعها ج . بالعبرية ، وسيأتى ذكرها فيما يلى .

(٣) رجع الأستاذ عبد الرحمن بدوى إلى ذلك الرثاء فى الفصل الذى كتبه عن ج . فى كتابه « التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية » الطبعة الثانية سنة ١٩٤٦ ، ص ٣٠٨-٣١٩ .

ولد ج. في سنة ١٨٥٠ في إحدى مدن المجر . غير أن أصل أسرته سفارادى
 أى من الأندلس . وقد هاجرت هذه الأسرة — ككثيرات غيرها — من جنوب
 أوربا إلى هولندا ، ومنها انتقلت في القرن السابع عشر إلى هنبورج في ألمانيا .
 وفي النهاية استقر فرع منها — وهو الفرع الذى ينتسب إليه ج. — في بلاد
 المجر التى كانت في ذلك الحين جزءاً من الامبراطورية النمساوية . فلا عجب
 إذن أن يتقن ج. اللغتين المجرية والألمانية من صغره . ثم درس العبرية
 وهو طفل على معلم خصوصى أقام في دار والديه . وقد لبث ج. يذكر
 هذا المعلم شاكراً مطناً طوال حياته ويردد : إن كنت قد فزت بشئ من
 الأخلاق الحميدة فانما يرجع ذلك إلى اثنين : إلى مطالعتي الدائمة في كتاب
 الهداية إلى فرائض القلوب (وهو كتاب فلسفى أخلاقى وضعه الحاخام بحاي
 بالعربية) وإلى معلمى موسى الذى كان مثلاً للورع والتواضع مع أنه كان
 يضربني كلما غلطت أيسر غلطة في تلاوة التوراة . وطبقاً للمعتاد في ذلك الوقت
 درس ج. اللغتين اللاتينية واليونانية وأجادهما . وقد أعانه إتقانه هاتين اللغتين
 كثيراً على بحثه فلسفة القرون الوسطى وسائر علومها ؛ فقد تجد مراجع كلاسيكية
 وافرة واردة في معظم كتبه يضاف إلى ذلك أنه كتب بحوثاً خاصة لقضية تأثير الفكر
 اليونانى في العالم الاسلامى ، مثل مقاله الممتاز عن العناصر الأفلاطونية الحديثة
 والأجنوسطية في الحديث أو بحثه عن موقف الاسلام القديم من العلوم اليونانية^(١) .
 كان ج. ناضج العقل وهو صغير ؛ فقد طبع أول كتاب له ولما يَعدُّ
 الثانية عشرة من عمره . ما رأيت هذا المؤلف ولكن من التلخيص الفرنسى الذى
 وضعه له البروفسير برنهد هيلر في كتابه « مؤلفات جولدتسيهر » يتبين أن
 طريقته كانت علمية محضة . وموضوعه تطور الصلاة في الدين الموسوى وإلغاء
 الزيادات المتأخرة التى أضيفت إليها على مرور الزمن . نشر ج. وهو شاب
 يدرس في إحدى المدارس الثانوية قطعاً مترجمة عن اللغة التركية إلى المجرية .
 وكذلك نقل — وهو طالب في الجامعة — قطعاً عن اللغة الفارسية إلى العبرية .
 وما يلفت النظر مقالة نشرها وهو ابن تسع عشرة سنة في جريدة عبرية أسبوعية
 كانت تصدر في باريس قابل فيها بين طريقة البيضاوى في تفسير القرآن وطرق

(١) ترجم هذين المقالين إلى العربية الأستاذ عبد الرحمن بدوى في كتاب التراث اليونانى
 السابق الذكر .

الشرح للتوراة في التلمود . وأضاف إلى ذلك قوله : إن بحث هذه الطرق وعلاقات بعضها ببعض أمر مفيد جداً . ولا شك أن من يتناول هذا البحث الواسع العميق يستحق الشكر . ونحن نعرف اليوم من كان الرجل الذي تناول هذا البحث الواسع العميق . وبعد مرور أكثر من خمسين عاماً على نشر تلك المقالة أصدر جولدتسيهر في سنة ١٩٢٠ كتابه العبرى « اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين » الذي أنجز فيه وعداً قطعه على نفسه وهو شاب في العقد الثاني من عمره . درس ج . المشرقيات في بودابست عاصمة المجر على فامبيري ، وهو مستشرق يهودي الأصل اشتهر بسياحاته الجريئة في تركستان وغيرها من بلاد آسيا الوسطى ، وبتأليفه الكثيرة عن اللهجات التركية والحياة الاجتماعية والسياسية في بلاد الشرق . وقد أخذ ج . عن هذا الأستاذ علاقته الحية المباشرة بالشرق الحاضر . ومع أنه ما كان أحد يضاهي ج . في كثرة المطالعة للكتب والمخطوطات القديمة ، فانه لم يزل يتبع تطور الشرق المعاصر إلى يومه الأخير . وكثيراً ما كان يفسر ظاهرات مبهمة مذكورة في المصادر القديمة على ضوء الحياة الشعبية العصرية في الشرق . غير أن ج . خلافاً لأستاذه فامبيري ما كان يتدخل في الأمور السياسية مطلقاً ، وكان يرفض رفضاً باتاً كل محاولة ، مهما كان مصدرها ، ترمى إلى استغلال مكانته ونفوذه لأغراض سياسية .

وفي سنة ١٨٧٠ فاز ج . بالدكتوراه وهو في العشرين من عمره من جامعة ليبتيك باطروحة لغوية . وفي السنين التالية لها نشر عدة كتب ومقالات عن درس اللغة عند العرب وغيرهم . ولكن اللغة كانت عند ج . وسيلة لا غاية . وما كانت عنايته الجوهرية الرئيسية إلا بالأفكار وتطورها من جهة ، والحياة — الحياة الدينية والحياة الشعبية — من جهة أخرى . وما مرت أربع سنوات على نشر أطروحته حتى وضع كتابين بشراً بأنه سيكون مؤرخ الاسلام المستقبل : كتاباً بالجرية في العروبة والشعوبية ، وآخر بالألمانية في مؤلفات مذهب الشيعة والجدل بين المذهبين الشيعي والسني . وفي ذلك الحين سنحت له الفرصة بالسفر إلى الشرق ، فزار سوريا وفلسطين ومصر ، وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين بعض علماء دمشق وبعض شيوخ الأزهر . وقد استمرت تلك الصداقة إلى آخر أيامه . غير أنه شكا في كتاب أرسله إلى صديق له أثناء الحرب العالمية الأولى أن أكثر أصدقائه الخصوصيين في الشرق قد توفوا ولم يبق منهم على قيد الحياة إلا القليل .

وبعد رجوعه من هذا السفر الخصب عاجل ج . موضوعاً شاقاً واسع الأطراف أبعد كل البعد عن بحوثه الاسلامية ، وهو كتاب دافع فيه دفاعاً حماسياً عن الشعوب السامية ، ورد على أرنست رينان الذى زعم فى كتابه المشهور « تاريخ اللغات السامية » أنه ليست للساميين ميثولوجيا — أى أساطير — لأنهم عديمو الخيال الفنى . وبين ج . فى كتابه ضخيم اسمه « الميتوس — أى الأساطير — عند العبريين » أن الميثولوجيا درجة من درجات التطور الانسانى لا بد أن تتجاوزها كل أمة فى حين من الأحيان . واستشهد على ذلك بكثير من قصص الكتاب المقدس وغيره من المصادر السامية مثبتاً أن الساميين كغيرهم من الأمم كانوا أصحاب أفكار خيالية ميثولوجية قبل أن تنشأ فيهم الدعوة الدينية . وقد صادف هذا الكتاب إقبالاً حسناً فى وقته ، وترجم على الفور إلى اللغة الانكليزية . واليوم بعد كشف الآثار البابلية الأكادية ، ولا سيما بعد حل رموز ألواح رأس الثمرة فى شالى سوريا ، تقدر أن تقول إن رأى ج . كان أقرب إلى الصواب من زعم رينان . غير أن ج . لم يلزم بعد ذلك هذا النوع من البحوث طويلاً بل رجع إلى الدراسات الاسلامية والعربية التى قصر عليها جهوده طيلة عمره . ونظراً للعلاقات الوثيقة بين الدينين الاسلامى والموسوى واللغتين العربية والعبرية كان من طبيعة الأمور أن يجعل هذا العالم الاسرائيلى الكبير نصيباً من عنايته لبحث هذه العلاقات . نذكر سلسلة مؤلفة من أربع وثلاثين مقالة عنوانها بحوث يهودية عربية نشرت فى مجلة الدراسات اليهودية الفرنسية أثناء عشر سنوات (١٩٠١ — ١٩١٠) أو مقالته « فكرة يوم السبت فى الاسلام » أو بحوثه الكثيرة عن تأثير الأدب العربى فى الشعر العبرى والفلسفة اليهودية فى القرون الوسطى . ولكن ج . إنما كان عزمه شديداً أن يتخصص فى دراسة الاسلام والأدب العربى فقط . وفى كتاب بعث به ج . إلى صديق له شجعه على تناول مواضيع يهودية كتب ج . متفكها : إني خلقت تحت نجم هاجر — أم إسماعيل — وكتب على أن أستنفذ جهدى فى أدب حفتها العرب ودينهم .

وقبل أن نعرض لنتيجة هذا الجهد الكبير الفريد يجدر بنا أن نصف بإيجاز ظروف حياة ج . الخارجية منذ رجوعه من سفره إلى بلاد الشرق الأدنى فى سنة ١٨٧٤ إلى حين وفاته فى سنة ١٩٢١ . سبق لـ ج . أن أحرز إجازة التدريس فى جامعة بودابست منذ عامه الثانى والعشرين . غير أن تفوذ الدوائر الدينية

كان حينئذ قويا جداً في تلك الجامعة ، ولم يكن يعين فيها حتى عالم بروتستنتى مدرساً رسمياً إلا بعد الكثير من المتاعب ، فكيف بعالم يهودى ؟ لذلك اضطر ج . إلى أن يبحث له عن عمل خارج الجامعة ، فشغل منصب سكرتير الطائفة الاسرائيلية في تلك المدينة الكبرى طوال ثلاثين عاماً . وبالرغم من عدم الفراغ والراحة أثناء أحسن أوقات حياته ، وبالرغم من عمله الإدارى المرهق الذى يكرهه وضع ج . في تلك السنين كتباً عديدة ومئات البحوث واشتهر في العالم حتى صار ثقة في الاسلام والآداب الاسلامية . وأخيراً في سنة ١٩٠٤ عين مدرساً رسمياً في جامعة بودابست ، وانتخب رئيساً للقسم الأدبى في الأكاديمية المجرية ، ونال تشريفات أخرى منها لقب دكتور شرف من جامعتى كامبريدج الانكليزية وأبردين الأسكتلندية وعضوية شرف في المجمع العلمى المصرى .

عانى ج . عناء شديداً حتى بلغ في النهاية هذه الدرجة الرفيعة . غير أنه ما كان من المتذمرين . كان هذا الرجل صاحب توكل وصبر . وقد مهر رسائله بخاتم فيه الآية القرآنية الواردة في سورة يوسف « فصبر جميل والله المستعان » وإنه لفى وسع كل عربى مثقف اليوم أن يقدر طرفاً من الخدمة التى أداها ج . لدراسات الاسلام بعد أن ترجم اثنان من مؤلفاته المهمة إلى اللغة العربية ، وهما : « اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين » وهو آخر كتاب له صدر في حياته وكتاب « العقيدة والشريعة في الاسلام » الذى سبقه بعشر سنوات ونشر سنة ١٩١٠ .

لقد قيل إن من المحتمل أن يكتب تاريخ الفكر الدينى الاسرائيلى بصورة وصف تطور التفسير للتوراة على مرور الأجيال ؛ لأن كل شئ في اليهودية يبدأ من التوراة وكل شئ يرجع إليها . فأخذ ج . هذه الفكرة ونقلها إلى البحوث الاسلامية . وعلينا أن نذكر أن كتابه « اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين » كان آخر كتاب وضعه وهو النتيجة الناضجة لدراسات قام بها خلال خمسين سنة تقريباً . لم يدع ج . فرعاً من فروع العلوم الاسلامية إلا عالجه . أما في آخر عمره فقد استرعى اهتمامه ذاك الأصل الذى بدأ منه كل شئ في الاسلام وإليه يرجع كل شئ وهو القرآن وتفسيره . وأهمية التفسير : أن آراء كل جيل من أجيال الاسلام وبواعثه النفسية لا بد أن تبدو بأوضح طريقة في شرح الكتاب الذى هو أساس الدين وحيثه في كل زمان .

ونرى ج . يقف أولاً عند اختلاف القراء القدماء في قراءات القرآن موقناً أن هذه الاختلافات في كتابة القرآن وتشكيله ربما تعبر في الواقع عن اختلاف الآراء والبواعث . ونراه يسهب في الكلام عن تفسير الطبرى الكبير الذى يقع في ٣ مجلدات ؛ لأن هذا الأصل النفيس يشف عن أفكار الاسلام القديم الأصنى . ويتبعه بشرح المعتزلة أهل العدل والتوحيد ، وتأويل الصوفيين الذى فيه شئ من طرق التأويل التى اخترعها فيلون الفيلسوف الاسكندرى ، كما يتحدث عن تفسير الشيعة على مختلف فروعها . ويختم الكتاب بفصل كبير عن النهضة الحديثة في مصر وسائر البلاد العربية وتركيا وفي بلاد الهند وتأثيرها في التفسير العصرى للقرآن .

في رسالة بعث بها ج . إلى صديق له في آخر أيامه شكاً إليه المتاعب التى عاناها في وضع هذا الكتاب : « كم ليلة أحييت وكم سنة أبليت في إعداد هذا المبحث الجاف » . بل لنسمع ما قاله عنه يكر في رثائه المشار إليه سابقاً : « كتب ضخمة عظيمة الحجم كدنا نحن نعرف أسماءها قرأتها أنت يا ج . من أولها إلى آخرها ، وحددت مكاتبتها من تطور الاسلام . لذلك حق لك شكرنا وشكر هذا الفرع من علوم الاسلام الذى ما كان معروفاً منه قبلك إلا القليل . »

لست أرى ضرورة إلى أن أسهب في الكلام عن كتاب ج . الآخر الذى حظى بالتعريب ، أعنى كتاب « العقيدة والشريعة في الاسلام » ؛ لأن هذا الكتاب من أمهات المصادر العلمية التى تجب تلاوتها على كل من يريد أن يتتقف في شؤون الشرق . قسم ج . الكتاب ستة أقسام ، خصص أولها للقرآن وأوائل الاسلام ، وثانيها للفقه والمذاهب الأربعة الرئيسية وغيرها من المذاهب ، والقسم الثالث لللاهيات والعقائد ، والرابع للزهد والتصوف ، والخامس للشيعة وللفرق الاسلامية الأخرى ، والسادس للحركات الدينية الحديثة عند المسلمين . وكان ج . قد وضع مثل هذا الكتاب باللغة المجرية في سنة ١٨٨١ أى قبله بثلاثين عاماً ، فجاءت فيه فصول لم يكررها في تأليفه المشهور . وأهم هذه الفصول فصل عن الآثار الفنية الاسلامية وعلاقاتها بالفكر الاسلامى ، وفيه فائدة طائلة . ترجم كتاب العقيدة والشريعة في الاسلام إلى اللغة الانكليزية في أميركا أثناء الحرب العالمية الأولى ، فطبعت هذه الترجمة ، وأحرقت كلها لأنها كانت زاخرة بالأغلاط . وترجم الكتاب إلى اللغة الفرنسية أيضاً . وما كانت هذه الترجمة فيما

أعرف تخلو من المآخذ كذلك . ولا أقدر أن أقول شيئاً عن الترجمتين الروسية والمجرية . أما الترجمة العبرية الأولى التي صدرت قبل عشرين عاماً فقد اضطرت . أن أشهد أن الحرق كان أولى بها أيضاً (ستصدر في هذه السنة ترجمة عبرية جديدة) . ولعل ج . شعر بأن حظ كتابه سوف يكون على هذا النحو ؛ لأنه لما بعث به إلى المطبعة كتب إلى بعض أصدقائه يقول : « يقشعر جلدي من متاعب تصليح المسودات (البروفات) ومن حماقة القراء في المستقبل » . يدل ذلك كله على أن هذا الكتاب يحتاج إلى الدرس وإمعان الفكر مع أنه واضح العبارة جذاب الأسلوب .

وضع ج . هذين الكتابين في أيام شيخوخته بناء على طلب تلقاه من جامعات ودوائر علمية شتى . فكتابه « العقيدة والشريعة في الاسلام » عنوانه في الأصل « محاضرات عن الاسلام » ؛ لأن الكتاب أعد ليكون سلسلة من المحاضرات تلقى في أميركا . ومن جهة ثانية قبل دعوة جامعة إبسالا في بلاد السويد حيث ألقى محاضرات أخرى أخرجها بعد ذلك بصورة كتاب « اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين » . فمن العجب أن ج . مع أنه خلف كما ذكرنا زهاء ٦٠٠ كتاب ومبحث ومع أنه كان أستاذاً موقفاً جداً ومحدثاً طلق اللسان — من العجب أنه لم يكن معنياً إلا بالبحث والاستكشاف والعشور على معلومات ماسبقه إليها أحد ، ولم يكن يعنيه كثيراً أن يلخص نتائج دراساته و ينشرها للجمهور . لذلك فمن أراد أن يعرف ج . حق المعرفة ويستفيد من جهده العلمي تمام الفائدة فعليه أن يكتفى بمطالعة كتابه التلخيصي الشامل عن الاسلام الذي وضعه وهو طاعن في السن ، بل عليه أيضاً أن يرجع إلى مباحثه الاختصاصية العبرية التي ابتكر فيها طرقاً جديدة في دراسة الاسلام . لا تقدر أن نشير إلى هذه المباحث إلا في غاية الإيجاز . وفي الابتداء يجدر بنا أن نتكلم عن كتابه المشهور « مباحث إسلامية » الذي صدر في مجلدين سنة ١٨٨٩ و ١٨٩٠ ، والذي عالج فيه ظواهر شتى في الحياة الدينية والاجتماعية في الاسلام ، منها « المروءة والدين » أي النضال العنيف بين روح الجاهلية العنصرية الأرستقراطية وروح الاسلام الداعية إلى المساواة الديمقراطية . وهو موضوع كان قد كتب عنه من قبل بالعبرية في بحثه « العروبة والشعوبية » السالف الذكر . وإنما أردنا أن نلفت النظر إلى بحثه عن الحديث الوارد في ذلك الكتاب لأنه مثال واضح لمنهجه المبتكر .

من المشهور أن مع الأحاديث الصحيحة الحقيقية تقلت أحاديث أخرى كثيرة شهد علماء الاسلام أنها ضعيفة أو موضوعة . فلنسمع رأى ج . في هذا النوع من الأحاديث . صحيح أن هذه الأحاديث لا قيمة لها أو أن قيمتها ضئيلة لمعرفة عصر النبي وأصحابه . أما لمعرفة الآراء والبواعث النفسية التي كانت تسود في العصور التي وضعت فيها تلك الأحاديث فهي أصدق مصدر وأفصح . لأن المرء ما كان ليضع شيئاً وينسبه إلى النبي وأصحابه إلا وهو معتقد اعتقاداً قوياً أن هذا الشيء حق وفي مصلحة الاسلام . وبناء على هذه الطريقة وضع ج . تطور الاسلام في قرونه الأولى وضعاً مفصلاً كل التفصيل ، توجد خلاصة منه في كتابه « العقيدة والشريعة في الاسلام » .

وما عدا الحديث عاجل ج . كثيراً الفقه والعقيدة . من المشهور أن تقسيم أهل الاسلام إلى المذاهب الأربعة الرئيسية إنما هو نتيجة تطور امتد قروناً عدة . فلايضاح هذه القضية رأى ج . أن يبحث مذهباً ليس من المذاهب الأربعة الكبيرة ، وهو مذهب الظاهريين ، أى مذهب من كان يقول بظاهر الكتاب فقط ، وكان يرفض تأويل القرآن وما يستنتج منه . هذا الرأى الظاهري له علاقة بالشريعة والعقيدة معاً . ولذلك كان كتاب ج . في الظاهرية الذى صدر في ١٨٨٤ بحثاً مركباً من دراستي الفقه والإلهيات . وأن هذا الكتاب أول بيان مسهب لماهية الفقه في دين غير الدين المسيحى ؛ ولأجل ذلك أثر تأثيراً كبيراً ويعتبر إلى اليوم من أحسن ما كتبه ج . وجدير بالذكر أن علماء المسيحيين الذين كتبوا عن اليهودية وبالأخص جورج فوت مور في مؤلفه المهم *Judaism* إنما كانوا يعتمدون على هذا الكتاب لإيضاح خصائص الدين الاسرائيلي . ومن بحوث ج . الأخرى في الفقه والعقيدة كتابه (١٩٠٢) عن أبى تومرت المهدى مؤسس حركة الموحدين في المغرب ، درس فيه خصائص الفقه المالكي وآراء المهدى الجديدة المتعلقة به ، وكتاب عن رد الغزالي على الباطنية وهي فرقة متطرفة من فرق الشيعة الاسماعيلية (١٩١٦) .

ولا بد من الإشارة إلى بحوث ج . في التصوف . في كتابه *An Intro- duction to the History of Suffism* وهو بحث عن تقدم الدراسات الصوفية في أوربا حدد البروفسور اربرى مقام ج . في هذا التقدم قائلاً : إن ج . هو الذى أوضح بإسهاب الفرق العميق بين الزهد (يعنى حركة

العباد الزهاد السذج للقدماء) وبين التصوف الفلسفى الفكرى الذى ربما تأثر بالآراء الأفلاطونية الحديثة والبوذية الهندية . غير أننى أريد أن أذكر من مباحث ج. بحثاً آخر لم يرد فى كتاب اربرى ، برهن فيه ج. على أن الحد بين التصوف القديم غير المركب والتصوف الأحدث الفلسفى ليس قطعياً ؛ إذ توجد حتى فى الحديث القديم آراء ليست بعيدة عن الأفكار الأفلاطونية الحديثة التى بدت بعد ذلك فى التصوف . وهذا المثال يدل على أن بحوث ج. بحر لا نهاية له يصعب أن يحيط به أحد . ولذلك لو قام عالم ونظم فهرساً لأهم الأعلام والمواضيع الواردة فى مباحث ج. لأدى خدمة جليلة للدراسات الاسلامية .

وهناك ملاحظة عن شئ استغربه غير واحد ممن قرظ ج. حيا أو رثاه بعد وفاته . وهو أن ج. قد كتب كثيراً عن العلاقات بين الأديان ؛ فانه وضع مبحثين باللغة الألمانية عن تأثير المسيحية فى الحديث وغيره من أصول الدين الاسلامى ، ونشر مقالة بالفرنسية عن المجوسية والاسلام ، ومقالة بالمجربة مسهبة عن نفوذ البوذية الهندية . غير أن هذا العلامة الذى كان يشهد على نفسه أنه ما كان يمر به يوم إلا وهو يدرس قطعة من التلمود والذى جاء بمئات من المقابلات بين ظاهرات فى الاسلام واليهودية منبثة فى مباحثه ، لم يخص تأثير اليهودية فى الاسلام بمبحث على حدة . كان سبب ذلك فى رأى رغبته فى الابتعاد حتى عن مجرد التهمة بالتعصب والإيثار . لأن ج. كان رجلاً منصفاً وربما كان يخشى أن يخل بالانصاف بمبحث من هذا النوع .

ذكرت أن ج. زار مصر فى أيام شبابه ، وأن عرى الصداقة توثقت بينه وبين بعض علمائها . وبذلك تمت علاقاته بهذه البلاد . فلما أسست الجامعة المصرية فى سنة ١٩٠٨ حرص مؤسسها الكريم الأمير فؤاد - الذى تسلم عرش مصر بعد ذلك - على أن يجذب إليها أشهر المستشرقين ، فوجه إلى ج. رسائل يعرض عليه التدريس فيها ، ثم سار إلى بودابست حيث كان يقيم ج. ليفاوضه شخصياً وليحمله على قبول عرضه ، وقد جرى ذلك فى شهر أكتوبر سنة ١٩١١ . وج . يتحدث مراراً فى رسائل بعث بها إلى أصدقائه عن الشرف العظيم الذى أنالته إياه زيارة الأمير المليك .

غير أن ج. الذى كان قد بلغ العقد السابع من عمره التمس من الأمير المليك أن يعفيه من هذا الشرف ، وأن يعهد بهذه المهمة الخطيرة إلى علماء أحدث منه

سناً ، ولا سيما أنه كانت لديه مواد علمية كثيرة جمعها خلال السنين الطويلة التي قضاها في الخدمة الإدارية ، وكان شديد الرغبة في تنقيحها وإصدارها في حياته . ومن أهم هذه المواد كتابه القيم « اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين » وكتب وبحوث أخرى سبق ذكر بعضها .

إن ج. لم يحظ بالعودة إلى مصر شخصياً ، بل تمكن من العودة إليها بصورة أفضل وأعظم دواماً ، إذ ترجم اثنان من أحسن مؤلفاته إلى اللغة العربية ، وقام بهذا المشروع خير من يصلح له وهم طائفة مختارة من علماء مصر والأزهر الشباب الذين أضافوا إلى ثقافتهم العربية الاسلامية العميقة ثقافة أوربية واسعة كذلك . ويسرني أن أورد نبذة مما استقبل به عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين صدور كتاب « العقيدة والشريعة في الاسلام » باللغة العربية إذ يقول : « وما من شك في أن الذين يقرءون هذا الكتاب من المثقفين العرب لن يجدوا في قراءته لذة ومتعة فحسب ولكنهم سيجنون من هذه القراءة ثمرات لا يستطيع كثير منهم أن يجنيها من قراءة كتبنا القديمة التي بعد العهد بينها وبين عقلنا الحديث . »

فاني لك أي ج. أن تسمع هذه الشهادة التي يشهد لك بها من هو أهل لتقدير خدماتك للاسلام والعرب . وهنيئاً لك أن يقال عن كتابك هذا الذي وضعته للمثقفين من أهل أوربا وأميركا والمتخصصين في الدراسات الدينية بأنه يستطيع أن يكون كذلك وسيلة مجدية حتى للمثقفين العرب لفهم غابر دينهم وتاريخه . وأحسبك ما كنت تطمح أن تنال ثواباً أعظم من هذه الترجمة وهذا التقدير .

ويستطيع علماء مصر أن يجعلوا هذه الخدمة أعم إذا نهضوا لترجمة تلك الكتب التي نشرها ج. بلغات غير عالمية ولا سيما بالمجرية ، ومنها « مكان عرب أسبانيا في تاريخ الاسلام ومقارنته بمكان عرب الشرق » و « تاريخ علم اللغة عند العرب » وفصل عن « الآثار الاسلامية وعلاقاتها بتطور الفكر الاسلامي » من كتاب بالمجرية عن الاسلام سبق ذكره . ومبحثه « فن كتابة التاريخ عند العرب » و « تأثير البوذية في الاسلام » .

وفي الختام أحب أن أقرر بأن ج. كان يعتقد أن دراسة الأديان لا تهم المتخصصين فقط بل عامة المثقفين كذلك : لقد كان بحث الأديان ديناً له . وقد

تعرض ج. لهذا الموضوع في كتابه « ماهية اليهودية وتاريخها » الذي صدر بالإنجليزية بعد وفاته وتوجد خلاصة عنه بالفرنسية في كتاب « مؤلفات جولدتسيهر » السابق ذكره .

أجل ! لقد كان ج. المثل الأعلى للبحث المنزه الذي لا ينطق عن الهوى ولا يسأل الأجر ، إنما هو ابتغاء وجه الحق وطلب العلم ، لا العلم لأجل العلم . فحسب ، بل العلم المؤدى إلى تهذيب الأخلاق وهداية الناس إلى ربهم .

م. د. غريطايين

TROUBADOURS
ET POETES HISPANO - MAURESQUES
ETIEMBLE

التروبادور وشعراء الأندلس

حينما تحدث دى بيللى Du Bellay عن شعر التروبادور قال: « ما أحقره !
دعنى من كل هذه التوابل التى تفسد علينا مذاق لغتنا ، والتى ليس وراءها
نفع إلا أن تكون شاهداً على جهالتنا . » وهكذا أصدر حكمه على الشعر
البروفانسى فى استهانة وجور نجدهما عند نقاد القرن السابع عشر نحو هذا
الشعر . وبعد أمد طويل ، فى نهاية القرن التاسع عشر، رُدَّ على أناشيد الجسَّت
chansons de geste وقصص المائدة المستديرة وشعر التروبادور اعتبارها فى
صورة مضطربة مختلطة ، وذلك تحت تأثير عامل الخوف الشديد الذى دفع
الطوائف المُرشدة إلى الأسف على القرون الوسطى والترحم على أيامها الجميلة .
فأصبح الشعر البروفانسى فجأة شعراً فرنسياً له حكمته وقيمته . وشرع العلماء
الأجانب — تحت تأثير الدافع الوطنى قبل العلمى — يكشفون عن ماض حافل
لهذا الشعر ، فيرجحون تارة أنه من أصل يونانى رومانى ، ويقطعون تارة بأنه من
أصل سلتى . ومع ذلك فالمسرفون فى العصبية القومية لم يقبلوا الاعتراف بهذا
النسب . والأمر عندهم أن شعر التروبادور بموضوعه وأسلوبه ظهر فجأة ظهور
المعجزة دون مقدمات ، فكأنه زهرة بغير ساق ولا جذر . (وكان الألمان
— الذين اهتموا لبرتراند دى بون Bertrand de Born أو بير فيدال
Peire Vidal — يريدون أن يثبتوا العنصر القوطى . وهذا للأسف أثر
من آثار العصبية القومية) . وبالرغم من كل هذا فالمفكرون المتنازون منذ
نصف قرن يرفضون تلك الأحكام من أسامها . فأوجين باريت Eugène Baret
وآخرون بعده يؤكدون أن التأثير العربى وحده هو الذى يستطيع أن يفسر لنا
السِر فى ظهور هذا النوع من الشعر ، وهم فى ذلك يتفقون مع رأى كثير من
النقاد الايطاليين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وخاصة باربيرى Barberi
الذى كتب بحثاً عن ازدهار الشعر العربى عند الاسبان والبروفانسيين .

ولا يستطيع اليوم أى أوربي مثقف أن ينكر ما يقال من أنه فى الوقت الذى حمل فيه الغزو الجرماني إلى الغرب الاضطراب والوحشية كان تأسيس الخلافة القرطبية هو الذى سمح لأوربا بأن تحيا فيها الثقافة مرة ثانية . وكان من آثار ذلك أن أصبح حوض البحر الأبيض مركزاً للعلوم الرياضية والطب والفلك والكيمياء والفلسفة . ولقد قال بحق ألكسندر كوريه Alexandre Koyré : « إن العرب كانوا أساتذة الغرب اللاتيني ومثقفيه، ولم يكونوا مجرد واسطة بينه وبين الشرق اليوناني كما شاع القول واستفاض . فلولا ابن سينا ولولا ابن رشد لكان ظهور القديس توما أمراً مستحيلاً ، وفى اتهامه مرتين بمشايعته لتفكير أحد (الوثنيين) دليل على ذلك . وأى مصير كان ينتظر المخطوطة الوحيدة من كتاب أقليدس لولا وجود العرب الذين جعلوها حتى القرن السادس عشر مرجعاً فى قرطبة يرحل إليه الراحلون ؟ ولم يكن هنالك من علم إلا العلم الذى فى الكتب العربية ، كما أعلن ذلك روجر يكون Roger Bacon . ولما كانت كل الثقافات الأدبية والعلمية فى القرون الوسطى المسيحية موسومة بخاتم الاسلام وعلامته ، فيكون عجباً جداً لذلك أن ينبثق الشعر البروفانسي فى أرض فرنسية فجأه وينبت من تلقاء نفسه .

لقد نشر الأستاذ روبرت بريفو Robert Briffault منذ عشرين عاماً مؤلفاً ضخماً عن أصول العواطف والمؤسسات الانسانية . وهو اليوم يتحفنا بكتاب كبير مركز فيه البراهين على ما نميل إليه من أن شعر التروبادور إنما هو وليد الشعر العربى . قال المؤلف : « قبل أن يترنم شاعر من شعراء التروبادور بأول أناشيده فى بروفانس بنحو قرن من الزمان كان أدباء الأندلس قد تحمسوا لنوع جديد من الشعر اعتبر ظهوره بينهم ثورة أدبية » . لقد مجدوا فيه جمال المحبوب كما تغنوا بجوره وقسوته وبذلة العاشق وكأبته . ومن ناحية أخرى هنالك فى قصور الوزراء والخلفاء ، كانت النساء الجميلات — وفيهن أنشدت أشعار — قد شغفن بجمع المخطوطات ، وأولين شعراءهن الحماية والرعاية ، وكن أيضاً ينظمن الشعر (هكذا كانت ولادة ابنة المستكنى ، وهكذا كانت عائشة بنت أحمد) . أما عن الموضوعات التى أحدث فيها هذا الشعر تجديداً فهى أغاني الصباح L'aubade وأناشيد الربيع . وأما ما حدث من تجديد فى الشكل فهو أنه حول القصيدة القديمة الطويلة بأبياتها التقليدية إلى مقطوعات تتألف كل مقطوعة من أربعة

أجزاء ، يشترك الثلاثة الأول منها في قافية متشابهة ، ويتخذ الجزء الرابع — وهو ما يسمى بالسبط — قافية جديدة تتكرر في آخر كل مقطوعة . ومضوا أبعد من هذا فأحدثوا تغييراً في لغة الشعر لتتلاءم مع أنواعهم الجديدة . يشهد بذلك ديوان ابن قزمان الذى التزم اللغة العامية فيه ، وتشهد بقية الآثار التى استخدمت فن الزجل . وفى تلك العصور كانت الصلات الوثيقة قائمة بين الولايات الأسبانية (مسيحية وإسلامية) وبين ما نسميه بالعالم البروفانسى أى بروفانس وقطلونية وإمارة تولوز . وكان أمراء هذه الولاية الأخيرة يعيشون فى دائرة النفوذ الأسباني أكثر من خضوعهم لملوك الفرنجة . ولم يكن هنالك تعصب دبنى يحول بين أهل بروفانس وبين أهل قرطبة . وأكثر ملوك النصرانية إخلاصاً لدينهم كانوا لا يدعون حين يحاربون الأمراء المسلمين إلا أنهم يريدون توحيد الملكين تحت تاجهم ، أى الملك النصراني والأمانة الإسلامية ، وهما ما كان يعبر عنهما وقتئذ (بالملتين) . وكذلك كان الشأن فى حركة الاسترداد *riconquista* فالفرسان العرب كثيراً ما ساهموا فى تلك الحركة التى أظهرت فيما بعد على أنها النصر المبين للدين الحق على جموع الكافرين . وكان أهل بروفانس أقل من غيرهم عصبية للوطن والدين ، فكان أفرادهم فى القرن الثانى عشر يحترمون أهل قرطبة المعاصرين لهم ويتعاملون معهم .

وأول شاعر معروف من شعراء التروبادور هو جيوم صاحب مدينة بواتيه الذى ولد سنة ١٠٧١ . فكان تبعاً لذلك معاصراً لابن قزمان . وكان جيوم هذا مشهوراً يتحدث عنه كل الناس . وكان فوق ذلك حليفاً لأمراء ليون ، وقد أمدهم بمعونته أحياناً . فهل يعقل ألا يتأثر رجل كهذا بأسبانيا المسلمة وهو الذى أوغل فيها حتى بلغ غرناطة وقرطبة ؟ وتأكيذاً لذلك نرى أن نظام القوافى فى أغاني الصباح البروفانسية وهو بببب — احدا — ١١ يشبه قوافى الزجل أو هو متأثر بها مقلد لها ، وكان نظام الزجل ١١ — بببب — احدا (١) ونرى

(١) اختلاف حروف الهجاء يدل على اختلاف القوافى التى فى آخر الشطرات ، وعدد الحروف وترتيبها يدل على عدد القوافى وترتيبها . فحرف ال (ا) يشير إلى الاسماط التى تتكرر قافيتها فى المنتوعات وال (ب) وال (ح) إلى قسم السبط وهو الذى يسميه ابن سناء الملك فى « دار الطراز » ، دليت ، والذى يحسن أن نسميه بالنصن اقتباساً عن ابن خلدون فى مقدمته وابن بسام فى الذخيرة . والسبط يسمى عند ابن سناء الملك بالقتل . (انترجم)

أيضاً موضوعات شعر التروبادور وقواعده هي نفس موضوعات الشعر العربي وقواعده : إنهم يتغنون بعذاب الحب وآلامه ، ويتغنون بمحاسن المرأة وما يثيره جسدها من فرح ولذة . لقد رفع شعراء التروبادور منزلة الحب فوق موثيق الزواج وعقوده . وإن قيل إنهم بذلك هونوا من شأن الأمانة الزوجية واتهموا الغيرة على العرض بأنها جلافة ، أمكن أن يدافع عنهم بأن إخلاصهم للدين على حقيقته ، أو قل — وهو الأرجح — إن إخلاصهم لتعاليم الفروسية في الحب التي سنها شعراء الأندلس هو الذي حملهم على هذا . إن الأخلاق في تلك كانت على جانب من التحرر والتساهل ، شكت منه الكنيسة حين قالت : « إن أ كيتانيا ليست إلا مباءة واسعة للآثم والفجور » . ومعنى هذا أن العفاف الذي أرادت المسيحية أن تجعله الفضيلة العليا لم يكن محل رعاية دقيقة من الناس . حقا أن التروبادور أرغموا شيئاً فشيئاً على التوفيق بين الموضوعات والأخلاق التي أورثها لهم العالم العربي ، وبين إلحاح يزداد صرامة من كنيسة متجهمة عابسة . ولكنهم عرفوا مع ذلك كيف يحتفظون حتى في أغانيهم المهدبة ببعض الصفات الجسدية البريئة التي ترامت إليهم من خلف جبال البرانس .

وعلى الضد مما استطاع أن يكتبه عدد من النقاد المعجبين لم يكن الشعر البروفانسي يتغنى بامرأة خيالية ، ولم يكن يحرق وراء الأشياء المقدسة . ولكنه كان يتغنى في صراحة وفي غلظة أحياناً بلذة معانقة امرأة جميلة عارية تحيط صاحبها بذراعيها . واستطاع هذا الشعر ، استجابة لما فيه من إحساس جنسى ومن فجور أحياناً ، أن يعلن أن ليلة من ليالى الغرام تساوى في قيمتها الجنة المفقودة . وفجأة تنعكس الأمور ، فبدلاً من أن يمجّد الشاعر عشيقته ويصف بياض صدرها أخذ يقدم المدائح « للعدراء » التي استقطرت ثديها العذب وقدمت لبنه الأبيض لراهب صغير كي يشفى من مرضه . فماذا حدث ؟

هذه هي القصة : كان من نتائج الاتصال بين العرب والبيئات البروفانسية أن ارتقى هذا القسم من فرنسا إلى مستوى ثقافي — حوالى سنة ١٢٠٠ — أصبحت به إمارة تولوز على رأس الممالك المتحضرة الغنية الشاعرة المزهرة . ولم يكن هذا يرضى أتباع ملك قشتالة (وهو دومنيك دي جزمان الملقب بكذاب قشتالة) . فأشار هؤلاء على البابا إينوسنت الثالث فأعلن الجهاد الصليبي ضد هذه الأراضى الفرنسية التي عرف الناس فيها كيف يحيون (لقد أعلن من قبل ترتوليان أن مملكة

السموات هي وطن الخصيان) . واستجابة لدعوة الأب المقدس (البابا) اقتضى أهل الشمال على وطن التروبادور . فكم كان صرعى الحديد والنار والعذاب ؟ إنهم عشرات الألوف ، ويحتمل أن يكونوا قد بلغوا مائة ألف . إن أبناء سان دومنيك أنجزوا ما بدأ به سيمون دي منتفورد . ومن سنة ١٢٠٩ إلى سنة ١٢٥٠ محوا كل آثار تلك الحضارة التي نضجت قبل الأوان ، والتي « كان يبدو أنها اختيرت لتقود أوروبا » . فلما تمت إبادة انتقل إلى إيطاليا شرف القيام بحركة النهضة بدلا من تولوز التي كان ينبغي أن تقوم بها . وصادر أساقفة الدومنيك أناشيد الباطل أو أشعار التروبادور ، وألقوا إلى هؤلاء الشعراء الأمر بأن ينظموا التسايح الدينية بدلا من تلك التي قدمت طعمة للنيران . فمضى ذلك الشعر الغنائي الذي أنتجته بروفانس ، والذي تفتحت فيه عبقريتان : عبقرية العرب وعبقرية الفرنسيين وحل محله بغير حق شعر تعبدى ولد في أحضان الخوف . وهو الشعر الذي تريد من صاحبنا جوستاف كوهين أن يعتقد بأنه قد استنزف دماء القرون الوسطى (١) وأرهقتها .

هذا هو كتاب الأستاذ بريفو كما يبدو لي . وتستطيع أن تحذر ما فيه من ثروة وغنى . ويضيف المؤلف إلى ذلك أن هذا الاقتران النادر بين ثقافتين ينبغي أن نرجع الفضل فيه إلى ما كان لدى الأمراء الأمويين من حرية وشك ديني ، وما كان عليه الخلفاء العباسيون الأول من ميل يقوى أو يضعف إلى مذهب المعتزلة . وفي الحق أن بروفانس أيضاً قد أصيبت بهذه المذاهب المكروهة ، وذلك قبل سنة ١٢٠٩ وهي السنة التي أعلن فيها الجهاد الصليبي ضد طائفة ألبيجوا Albigeois وضد التروبادور أهل السوء والضلال . ويفضل العقل ، الذي يعرف كيف يستفيد مما هو أجنبي ، استطاع أهل بروفانس أن يفهموا العرب وأن ينتجوا شعر التروبادور . فهل نستطيع ، مسترشدين بهذا الماضي المجيد ، أن نتأخي عقولا وأن نتعاون لنهتف يوماً ما على شواطئ بحرنا الأبيض ، الذي هو ربيب الاسلام والغرب ، بشعر جديد يتجلى فيه فن جديد من فنون الحياة !

اتيا بمل

نقلها عن الفرنسية عبد العزيز محمد الأهواني

(١) انظر - والاولى ألا تنظر - كتاب جوستاف كوهين : « الازدهار الكبير

للقرون الوسطى » Gustave Cohen, *La grande clarté du Moyen-Age*.

بعد انقضاء عامين

١ - الموسيقى

يا قلبُ ، شأنُك والسَّماعَ عَجيبُ
كم شاقك النغمُ البديع كأنه
يعلو بهمَّك ساعةً فوق الدُّنا
فاليومَ مالك ليس يعزف عازفُ
لا تستخفك نعمةٌ مجبورةٌ
إلا ذكرتَ شريكَ أنسك في الثرى
وزفرتَ زَفراً كالشواظ من اللظى
يا قلبُ ، لا حَرَجُ ولا تَثريبُ
فاستأنفِ الدنيا بما تحلو به
هيهات ! ذاك هو الرشادُ وحكمه
جانبَتَ مجلسه وكان يطيب
رَجَّعُ لأفلاك القضاء مُجيب
ترتادُ جَنَّاتِ العلا وتُجوب
— يا قلبُ — إلا هاج منك وجيب
نشوى بأفراح الحياة صُخوب
فغصصتْ ، يعصرُك الأسى وتذوب
وشرقتْ بالعبرات وهي صيب
إن ساعةً مرَّت وأنت طروب
قد مُرَّ — إن يوماً سُرِرتْ — حبيب
لو أن قلباً للرشاد يشوب

٢ - ذكرى دعاء

بِسْمِ مَنْ قَالَ خَفْتُ الْجَرَسَ أَوَاهُ
مَقَالُكَ فِي التَّوْدِيعِ آخِرَ لَيْلَةٍ
يدوَّى إذا غشَّى على البيتِ مُسَاهُ
بصوتِ كَأَدْنَى الهمسِ : « بَارَكَ اللهُ »

لقد عشتِ — يا زوجي — ومتَّ رضيةً
دعاؤك ما أحراه مني بالرضا
يُعاد على سمعي ، فأسكن برهةً
وتسترسل الذكرى وتنبعث الرؤى
فأرثي لحالي اليومَ أرملَ موحداً
وأرثي لعيشي عاطلَ القلب من هوى
يضعضع حسي من دعائك وقعُوه
وأسهر ليلي يا كياً متفجعاً

بعيش لنا ما كان بالود أحلاه
يؤدِّي إلى قلبي هواك فأهواه
إليه ، وأستأني مع الليل ذكراه
تجسم لي الماضي وهيئات أنساه
وقد غاب عن بيتي سناه ونحياه
فكل الهوى قد بات في الترب مثواه
ويُعجز عقلي من دعائك معناه
أسائل نفسي : « فيمَ بارك لي الله ؟ »

٣ — حلم شاعر

يا ضيعةً للسجايا الغبرِّ والشِّمِ
وقفْ على نشرها ما امتدَّ من أجلى
أطيل تَوْصافها للشعر في نسقي
وكل همِّي أن تحيي كما خلدت
فما عسان ، أُمستول على أُملي
لكم تأملتُ في شعري أسائله
« تراك خلَّدتها — يا شعر — في النغم ؟
وتلك معجزةٌ — يا شعر — تعرفها
ما طاب لي بعد زوجي سعيٌ منتبهٍ

إن تبلى ذكراك — يا زوجي — مع الرم
وجهدُ ما بُلِّغَتْهُ طاقة الكلم
جمِّ الحياة غذته مهجتي ودمي
نظائرُ لك بين العُرب والعجم
أولاً ، فيابؤس لي من عيشٍ منهزم
سؤال منتقدٍ للشعر منهم :
تراك ألقذتها من سطوة العدم ؟
فاهدف إليها بما يجري به قلبي
فإن يطيب بعدها حلمٌ ، فذا حلمي »

طبيب القرية

كنت في موقف عصيب . فقد كان ينبغي أن أرحل على عجل لعيادة مريض ينتظرنى في قرية تبعد منا عشرة أميال ؛ وكانت عاصفة جليدية هوجاء تحتل الفضاء الممتد بيننا ؛ وكان عندى مركبة خفيفة كبيرة العجلات ، وهى خير ما يصلح لمثل هذه الطرق في الأرياف ؛ ووقفت في فناء الدار ، متدثراً بمعطفى المصنوع من الفراء ، حاملاً علبة الأدوات الجراحية في جيبى ، متأهباً للرحيل . غير أن شيئاً واحداً كان ينقصنى : ذاك هو الفرس . . . فقد هلك فرسى البارحة تحت وطأة البرد . وأرسلت خادماً تطوف القرية عسى أن تجد من يعيرنا فرسه . ولكنى كنت أعلم أنه سعى مقضى عليه بالاختناق . ومكثت بلا أمل هامداً في مكائى ، تزداد شرايئى تصلباً ، وتتراكم فوق كتنى طبقات الجليد ، حتى لمحت خادماً تقترب فارغة اليد إلا من مصباح ينير أمامها الطريق . . . وأى عجب في هذا ؟ . . . وأين هو ذاك الذى يعير فرسه في هذه الأيام لرحلة تمتد عشرة أميال ! وعبرت الفناء ثانية ، لا أستطيع التفكير فى شىء . وإذا أنا هكذا شارد البال معذب النفس رككت بقدمى باب حظيرة الخنازير المتحطم ، فانفتح متخبطاً ولم تك هذه الحظيرة قد استخدمت منذ سنوات ، فدهشت للرائحة والدفء المنبعثين منها . ورأيت فى الداخل مصباحاً شاحب الضوء مشدوداً إلى طرف حبل . ثم لمحت رجلاً أحذب الظهر قابعاً فى أحد الأركان يدير لى عينيه الزرقاوين ووجهه المنبسط . واقترب منى الرجل زاحفاً على يديه وقدميه ، وسألنى :

— أتريد أن أجمهما ؟

وكانت الخادم بجوارى ، فصاحت مازحة :

— حقا أنه لا يدرى إنسان بكل ما يحتويه بيته !

وضحكنا معاً . وسمعت السائس ينادى الخيل . وسرعان ما ظهر فرسان قويان يجبو أحدهما خلف الآخر ، حتى إذا وصلا إلى باب الحظيرة طأطا رأسيهما وانسلتا بحركة رشيقة من النفذ الضيق المنخفض . فلما انتصبا ، بدهنى منهما فراعة القوام .

والتفتُ إلى الخادم وقلت :

— ساعدى السائس .

وسارعت الخادم المطيعة إلى اللجام تقدمه للسائس . ولكن ما إن اقتربت منه حتى أمسك بها وانقض بوجهه على وجهها . فصرخت الفتاة ولاذت بي . ورأيت خدها وقد طبع عليه باثلون الأحمر صفان من الأسنان . فصحت غاضباً :

— أيها الوحش ، أتريد أن ألعك بالسوط !

ولكنى تذكرت على التوأنى أمام شخص لا أعرفه ، ولا أعرف من أين أتى ، وأنه تقدم لمعونتى حينما تخلى عنى الجميع . وكأنما الرجل قد قرأ ما يدور بخاطرى ، فلم يحنقه وعيدى ، بل التفت إلى ، ولم يزل منهمكاً فى عمله ، وقال فى بساطة :

— تفضل واركب . . .

وكان فى الواقع قد أعد كل شئ .

وتذكرت أن عربتى لم تحظ قط بمثل هذين الفرسين الرائعين؛ فصعدت مبتهجاً . ثم نظرت إلى الرجل وقلت :

— سأسك أنا باللجام ، فأنت لا تعرف الطريق .

فأجاب :

— بكل تأكيد . . . فلست ذاهباً معك ، بل سأمكث مع روزا .

وصاحت روزا محتجة . فلما شعرت بمصيرها المحتوم على يدى الرجل ، فرت هاربة إلى داخل المنزل .

وسمعت صوت السلسلة تشد ، والقفل يوضع وهى توصلد باب المنزل . ورأيتها تطفى نور البهو ، ثم أنوار الحجرات جميعاً ، كيما تخفى نفسها .

والتفت للسائس وقلت :

— إما أن تأتى معى أو أعدل عن الرحيل بالرغم من ضرورته العاجلة .

فلست أرضى أن أدفع لك هذه الفتاة ثمناً لرحلتى .

وكان كل جواب الرجل أن صاح فى الفرسين وصفق يديه ؛ فانطلقت بي المركبة كأنها قطعة من الخشب يحملها سيل جارف . ومع ذلك فقد سمعت باب منزلى يتحطم تحت ضربات السائس ، ثم امتلأت أذناى وعيناى بطنين تشعب وانتشر حتى استحوذ على جميع حواسى . ولكن ذلك لم يدم أكثر من لحظة . ولكان باب غرفة المريض يطل على باب غرقتى ؛ إذ سرعان ما رأيت

نفسى قبالتة . ووقف الفرسان لا يريمان . وأقبل والدا المريض تتبعهما أخته ، فانتزعوني من المركبة انتزاعاً . ولم أستطع أن أفهم شيئاً من أقوالهم المرتبكة المختلطة . وكان الهواء في غرفة المريض خافقاً . ورأيت المقلاة تحترق دون أن يعيرها أحد انتباهاً . وأردت أن أفتح النافذة ، ولكنى تذكرت أنه ينبغي أولاً أن أحص المريض . وكان الصبي ناحل الجسم فارغ العينين عارى الكتفين ، ولكنه لم يكن بارداً ولا ساخناً . وما إن اقتربت منه حتى زحف ورفع رأسه وتعلق بعنقى ثم همس في أذنى :

— دعنى أموت يادكتور .

وتلفت حولى ؛ ولكن أحداً لم يسمع قول الصبي . ورأيت الوالدين واجمين مطرقين في انتظار حكمى . وكانت الأخت قد أحضرت مقعداً لأضع عليه علبة الأدوات الجراحية . وفتحت العلبة وعلبت النظر في الأدوات ؛ في حين كان الصبي لا يكف عن الایماء إلى يده تلميحاً بوصيته . وأمسكت بمقاط ، وفحصته على ضوء الشمعة ، ثم أعدته إلى مكانه . وقلت لنفسى ناقماً : حقا أن الآلهة في مثل هذه الظروف لا يضمنون علينا بمعوتهم . . فهم يرسلون لك فرساً بدل الفرس المفقود ، بل يتكرمون عليك بفرس ثانى كي يتيحون لك الذهاب إلى أبعد مما تريد . وهم يهبون لك سائساً بأجنس الأثمان . . .

وعندئذ فقط تذكرت روزا . ماذا أفعل ؟ كيف أنقذها ؟ كيف أخلص جسدها من وطأة هذا السائس ، وهى تبعد عني عشرة أميال ، ولدى فرسان لا سلطان لى عليهما ؟ فرسان يرفعان عن نفسيهما اللجام ، ولا أدرى كيف يقطعان السلاسل ، ثم يطلان برأسيهما من خلال النافذة ويراقبان المريض دون أن ترعجهما صرخات الأسرة . . .

وقلت لنفسى : سأعود في الحال ؛ كما ما كان الفرسان يدعوانى للعودة . ولكنى مع ذلك تركت الأخت تنزع عني معطى . وقدموا لى كأساً من الشراب . وربت الأب على كتفى ؛ وكان في تقديم هذا الكنز الثمين مايسوغ رفع الكلفة بيننا . فأومات بالرفض ، لا لسبب سوى أنى شعرت بنفسى أختق إذ أدخلنى الرجل في نطاق ذهنه الضيق . ودعنى الأم إلى جوار المريض ؛ فأطعتها . وبينما كان أحد الفرسين يرسل صهلة عالية في فضاء الغرفة ، وضعت أذنى على صدر الصبي الذى ارتعش للمس لحتى المبتلة . وما لبث أن تحول شكى

يقيناً ؛ فهذا الغلام لا داء به . وربما كان مصاباً بعض الشيء بفقر الدم ، ولكنه مع ذلك معافى البدن ، ولا أفضل له من « علقه » كي ينتصب على قدميه . إلا أنى لست من رجال التربية ولا من رجال الاصلاح ، فتركته آمناً في فراشه . إنى أحد الموظفين التابعين لسلطات المنطقة . وإنى لأقوم بواجبى إلى آخر ما ينبغى ، بل إلى الحد الذى يوشك أن يتعدى معه ما ينبغى . فمع أجرى الضئيل ، لا أضن قط بمعوتى على الفقراء . على أن هذا كله لا ينسنى روزا . وبعدها ، فلعلنى انتصحت بالغلام وطلبت الموت أنا أيضاً . وماذا عسى أن أفعل هنا في هذا الشتاء الذى لا ينتهى ؟ لقد نفق حصانى ، ولم أجد أحداً يرضى أن يعيرنى فرسه ، فلم يبق أمامى غير حظيرة الخنازير . ولولا أن شاءت المصادفة أن أجد خيلاً في هذه الحظيرة ، لاضطرت أن أوثق بعض الخنازير إلى عربتى ، هذا هو مجمل قصتى . وأخذت أهز رأسى حسرة وأنا أتأمل وجوه الأسرة . إنهم لا يعلمون شيئاً من كل هذا . وإن علموا به فلن يفهموا معناه . إنه من اليسير أن نحرر لرضانا البطاقات ؛ ولكن العسير حقاً هو أن نفهم الناس ، ونحمل الناس على فهمنا . وهكذا انتهت مهمتى . ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يقلقنى الناس فيها بلا مسوغ . وقد تعودت ذلك ؛ فسكان المنطقة جميعاً لا يكفون عن طرق بابى طوال الليل وآناء النهار . ولكن الفاجع فى هذه المرة أنى أرغمت على التخلّى عن روزا ، هذه الفتاة الباهرة التى عاشت كل هذه السنوات فى بيتى دون أن أعيرها إلا أقل الانتباه . . . ومس قلبى الشعور بجسامة هذه التضحية من جانبها ، حتى أوشكتُ — لولا جهدى فى ضبط عواطفى — أن أنقضّ على هذه الأسرة التى عاقنتى عن إنقاذ روزا . ولكنى بعد أن أقفلت علبة أدواتى وأمسكت بالمعطف استعداداً للرحيل ؛ ثم رأيت الأب والكأس فى يده ، والأم التى خيبتُ ظنّها ، يغصان بالبكاء ويعضان شفاهما ؛ ورأيت الأخت تمد لى منشفة ملوثة بالدماء ؛ إذذاك شعرت أنى على استعداد للتسليم بأن الصبى قد يكون مريضاً . واقتربت منه ، فبادرنى بابتسامة عريضة كما لو كنت قد جلبت له أطيب الطعام . . . آه ! ها هما الفرسان يعودان للصهيل . ولا بد أن هذا الصوت قد أوحى به السماء ليسهل الكشف عن الأدوية . فالآن حقاً أبصر العلة ؛ والغلام مريض ما فى ذلك شك . لقد رأيت جرحاً طويلاً عريضاً فى اتساع طبق فنجان ينكشف أمام ناظرى فى الجنب الأيمن عند ارتفاع العجز . إنه قرمزى اللون ، تتعدد

الظلال الثقيلة في وسطه ، وتحف تدريجياً عند أطرافه في شكل حلقات متعرجة ، وتتجمع في أقنيته الدماء بغير انتظام . هكذا كان يبدو الجرح من بعد . أما عن كشب فالأمر أدهى . ومن يستطيع أن يحدق في هذا دون أن ينطلق الصفير من فمه ! لقد أبصرت ديداناً في حجم الخنصر ، مخضبة بالدماء ، تتلوى أجسامها ، وترفع رؤوسها الصغيرة البيضاء ، وتحتلج سيقانها الدقيقة التي لا حصر لها في قاع الجرح . . . ولكنى ، أيها الغلام المسكين ، لا أستطيع أن أفعل لك شيئاً . لقد عثرت على الجرح الخطير ، هذا الجرح الذي يفتك بك . وقد أبدت الأسرة اغتباطها إذ رأتني مشمراً عن ساعد الجد . همست بذلك الأخت في أذن الأم ، والأم في أذن الأب ، والأب في أذن زائر انسل على أطراف قدميه تحت ضوء القمر المنسكب من الباب المفتوح ، رافعاً ذراعيه حتى يحتفظ بتوازنه .

ويبدو أن هذه الحياة الزاخرة المضطربة في باطن الجرح قد استأثرت بلب الصبي ، فتوقف لحظة عن النشيج ، وسألني متوسلاً :

— ألا تنقذني !

وهذا هو العجيب من أمر الناس في بلدي ؛ فهم دائماً يطلبون المستحيل من الطبيب . لقد تضعضع إيمانهم القديم القويم . وبينما يجلس القسيس عاطلاً في بيته ينسل أثوابه الكهنوتية الواحد بعد الآخر ، يطلب من الطبيب أن يأتي بالمعجزات . . . ولكم مع ذلك ما تشاءون . ولست أنا الذي قدمت لكم نفسي ، ولكنى لن أصدكم إذا ابتغيتم أن تتخذوني أداة لتنفيذ غاية مقدسة . وماذا في وسعي أن أفعل خيراً من هذا ، ولست إلا طبيباً قروياً شيخاً ، اغتصبت خادمته ! وهام أولاء القوم يقبلون على مجموعهم ، أفراد الأسرة وكهول القرية ، فينزعون عني ملابسى . على حين تحتشد أمام المنزل فرقة من التلاميذ على رأسهم أستاذهم ، فينشدون في لحن لا أسلس منه هذه الأغنية :

جردوه من ملبسه
كى يحسن التطيب
واقتلوه إن لم يفلح
فما هو إلا طبيب
ما هو إلا طبيب . . .

وهأنذا أقف عارياً ، أنظر في رباطة جأش إلى وجوه القوم ، ممسكا لحيتي
بيدي ، وقد مال رأسي إلى أحد الجانبين ، وكنت أشعر أنني سيد القوم جميعاً ؛
ولكن ذلك لم يُجِدني فتيلًا . فقد أمسكوا برأسي وقدمي ، وحملوني إلى الفراش ،
وأرقدوني ناحية الحائط بجوار الجرح الخطير . وبعدئذ غادروا الغرفة جميعاً
وأسكتوا المنشدين ، ومرت السحب فحبت القمر . وانبعث حولي دفء الفراش .
وقد ألقى الفرسان ، كالظلال ، رأسيهما على النافذة .

وسمعت من يهمس في أذني ويقول :

— لا أخفي عليك أنني غير مطمئن إليك . فلقد قذفت إلى هذا المكان قذفاً ،
ولم تحملك إليه قدماك . وعليك بدلا من أن تساعدني ، أن تدفعني إلى الانكماش
في فراش الموت . ولو تركت لنفسى عنانها ، لانتزعت عينيك من رأسك . . .
فقلت :

— هذا حق ؛ وإنه ليبعث على الخجل . ولكنني لست إلا طبيبا ؛ فماذا
أستطيع أن أفعل ؟ صدقتي إذا قلت إن الدور الذي أقوم به ليس بالهين ولا
باليسير . . .

— أينبغي أن أقنع بمثل هذا الاعتذار ؟ إني مرغم للأسف على الرضا به .
بل لا مفرّ لي من الرضا في جميع الأحوال . فلقد أتيت إلى هذا العالم لا أملك غير
هذا الجرح الجسيم ، ولم أجلب للعالم شيئا سواه . . .
وأجبتة قائلا :

— إن آفتك يا صاح أنك لا ترى كل ما يدور حوالبك . وأستطيع أن أنبئك ،
أنا الذي طفت بغرف المرضى جميعاً ، أن جرحك ليس من الخطورة كما تتوهم .
لقد أصابتك فقط تقرتين من معول . وهناك آخرون كثيرون يكشفون عن
جوانبهم دون أن يصيخوا باذانهم إلى ضربات المعول في الغابة ، بل إنهم ليصيبهم
الصمم إذ يقترب من جوانبهم المعول .

— أهنأك حقاً مثل هؤلاء القوم ، أم أنت تجدعني وأنا في هذيانى ؟

— بل هناك مثل هؤلاء القوم . وخذها كلمة من طبيب حلف اليمين . بل
احملها معك إلى العالم الآخر . . .

وكان أن سكت وحملها إلى العالم الآخر . ولم يبق إلا أن أفكر في أمر
نفسى . وكان الفرسان لا يزالان في مكانهما . فهرولت أجمع ملابسى ومنعطفى

وعلبي ، جمعتهما ولكني لم أرتدها ، حتى لا تضيع لحظة من وقتي . وإذا ما ركض الفرسان بالسرعة نفسها التي أحضرائي بها ، فلسوف أقفز من هنا إلى داري فيما لا يتجاوز غمضة عين . وقذفت بملابسي إلى العربة ؛ ولكن المعطف ذهب إلى أبعد مما أردت ، فاشتبك من كنهه بقضيب العربة الخلفي . لا بأس . . . وقفزت إلى ظهر أحد الفرسين . وأخذت حطام اللجامين تسلف الأرض . وقد كاد ينبت كل رباط بين الفرس والفرس ، وبين الفرسين والعربة المتعثرة خلفنا وفي طرفها معطى الزاحف على الجليد .

وصحت بالفرسين أن يسرعا . ولكنهما سارا في ثققل الكهول خلال هذه الصحراء من الجليد . وبقي صوت الأغنية الجديدة ، أغنية الأطفال المخطئين ، يترامى إلى أذني فترة طويلة من الزمن . وكانوا ينشدون قائلين :

ابتهجوا أيها المرضى .

فها قد عادكم الطبيب .

ولم أبلغ قط داري . وهكذا فقدت زبائني الذين لاحصر لهم . وسوف يغتصبهم ولا شك خلفي . ولكن ذلك لن ينفعه . فالسائس اللعين يعيث في بيتي ، وقد أمست روزا فريسته . ولست أحب إمعان التفكير في هذا الموضوع . وهأنذا أضرب في الأرض ، ومعى عربة من صنع البشر وفرسان خارقان للطبيعة . إني أضرب في الأرض وأنا الرجل الشيخ ، شريداً عارياً لا يقيني لباس من برد هذا العصر التعيس . وأرى معطى يزحف خلف العربة ، ولكن يدي لا تبلغه . ولن يتحرك لمعوتي واحد من أولئك المرضى الأوغاد المترنحين . . . لقد غدر بي ! لقد غدر بي ! وكفاني من ذلك مرة . لقد أخطأت عندما استجبت لنداء الطارقين . ولا مرد لما ارتكبت .

فرانز كفا

نقلها إلى العربية رمسيس يونان

حول مشروع بحيرة طانا^(١)

تعتبر بحيرة طانا أهم حوض من حياض المياه في الحبشة . و يقول أصحاب الاختصاص إن تنظيم مياهها يعود بالفائدة على أراضي السودان الواسعة لتطور زراعة القطن . وقد أولت كل من الحكومتين المصرية والسودانية اهتمامها بدراسة بحيرة طانا منذ أوائل هذا القرن ، فتوضحت الفائدة التي تعود من هذا للسودان ومصر وكذلك للحبشة .

تاريخ المشروع

وقد شغلت بحيرة طانا الكاشفين والباحثين من الأوربيين منذ زمن بعيد ، ولكن المعلومات التي جمعها هؤلاء لم تكن كافية حتى تسمح بتفكير جدى للاستفادة من البحيرة وإمكان استغلالها ؛ لذلك لم تكد الحال تستقر في السودان بعد القضاء على ثورة المهدي سنة ١٨٩٨ حتى أرسلت حكومة السودان بعثة إلى بحيرة طانا لاستكمال دراستها وأتبعها بثانية وثالثة .

وقد خصت بريطانيا بحيرة طانا بالعناية ووضعتها في المكان الأول بين المسائل عند عقد معاهدات أو اتفاقات مع أتيويا أو مع دولة من الدول المستعمرة في شرق أفريقيا .

ففي سنة ١٨٩١ نصت بريطانيا في معاهدة سرية بينها وبين إيطاليا على أن تحتفظ ببحيرة طانا ، وتترك لإيطاليا الحرية في سائر بلاد الحبشة .

وفي ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ أمضى الامبراطور منليك معاهدة مع بريطانيا اتفق فيها على الحدود بين أتيويا والسودان . ولم يفت اللورد هرنجتون ممثل بريطانيا أن ينص في المادة الثالثة بأن « يتعهد جلالة الامبراطور منليك الثاني

(١) الكاتب المصري عدد ١٦ (يناير ١٩٤٧) .

ملك ملوك أتيويا لحكومة جلالة ملك بريطانيا ألا يقيم أى مشروع أو يسمح باقامته على النيل الأزرق أو على بحيرة طانا أو على السوبات ، من شأن هذا المشروع أن يحجز جريان الماء فى النيل ، بدون الاتفاق مع حكومة جلالة ملك بريطانيا وحكومة السودان على ذلك » .

كما نصت المادة الخامسة على أن يمنح منليك لحكومة جلالة ملك بريطانيا وحكومة السودان حق إنشاء خط حديدى على الأراضى الأتيوية يصل السودان بأوغندة ، وهو الخط الذى قصد به وصل القاهرة بمدينة الكلب .

وقد كان منليك يداهن الانجليز و يلاطفهم . وقد أثرت عنه هذه العبارة : الانجليز كالقط ، إن أنت داعبته ارتاح إليك وإن أردت انتزاعه وثب عليك . وبعد أن ضمنت بريطانيا جانب أتيويا وجهت همها لتسوية المسألة مع جارتها فى أفريقيا الشرقية . وقد تم الاتفاق بين بريطانيا وإيطاليا وفرنسا فى ديسمبر سنة ١٩٠٦ ، ووافقت على نصوص معاهدة سنة ١٩٠٢ ، كما اتفق على أنه إذا حدث أى تغيير فى الحالة القائمة فى أتيويا فإن الحكومات الثلاث تحمى المصالح البريطانية . ونصت المادة الرابعة على الاعتراف بمصالح بريطانيا العظمى ومصر فى حوض النيل وبخاصة ما يتعلق بتنظيم مياه النيل وفروعه . كل ذلك مع اعتبار المصالح المحلية ومراعاة المصالح الإيطالية . كما نصت على الاعتراف بمصالح إيطاليا فى إريتريا والصومال الإيطالى ووصلهما بخط حديدى . ونصت المعاهدة أيضاً على احترام مصالح فرنسا فى الصومال الفرنسى وحماية مصالحها فى ربط جيبوتى بأديس أبابا بخط حديدى .

خرجت أوربا من الحرب العالمية الأولى منهوكة متعطشة إلى القطن لترويج صناعتها ، فارتفعت أسعار القطن ارتفاعاً كبيراً ، وبدأ التنافس بين أمريكا وبريطانيا فى أسواق المنسوجات ، وبدأ كل منهما فى البحث عن الطريق إلى القطن ، فاتجهت الأنظار مرة أخرى إلى حوض النيل وبحيرة طانا . وعملت بريطانيا على التوسع فى زراعة القطن فى مصر والسودان . والتفتت إلى أتيويا ، فكونت فى ديسمبر سنة ١٩١٨ شركة توصلت إلى الحصول على امتيازات لزراعة القطن فى المقاطعات المحيطة ببحيرة طانا . وكان غرض الشركة الحقيقى مراقبة تجارة أتيويا كلها . فاغتازت فرنسا وإيطاليا لهذا واحتجتا على هذا الاحتكار . وأعارت

فرنسا أتيويا المال الكافي لرد ما كانت الشركة قد دفعته ثمناً للتعاقد . وكذلك أثارت إيطاليا في مؤتمر الصلح مسألة مصالحها في الحبشة ، وأرادت أن يفصل المؤتمر في العقوبات التي أقامها الانجليز في تفسير المادة الرابعة من معاهدة ١٩٠٦ لأن حاكم السودان يقول إن النص على حقوق بريطانيا المائية في بحيرة طانا يعطيها حق تنظيم مياه البحيرة كما يترأى لها وحدها . ولم تصل إيطاليا إلى حل هذه المسألة ، فطالبت أن تعطيها الحبشة تعويضاً عن خسائرها في الحرب .

واضطرت بريطانيا أمام الصعوبات التي أثارها إيطاليا وفرنسا أن تحل الشركة وتبحث عن سياسة أخرى ، فحاولت أن تثير حرباً داخلية في أتيويا بتشجيع ليج ياسو بالمال ، والراس سيوم بالسلاح . على أن ولي العهد الراس تفرى مكونن (الامبراطور الحالي) أحبط مساعيها . ولما لم تفلح بريطانيا في هذا أيضاً حولت سياستها من العنف إلى اللين ، فعرضت على أتيويا في ديسمبر سنة ١٩٢١ أن تنزل لها عن زيلع ميناء حرة في مقابل أن تمنحها امتيازات على بحيرة طانا ، فرفضت أتيويا . وقد أثار هذا غضب بريطانيا ، فقامت بحملة على صفحات الجرائد توجه اللوم فيها إلى أتيويا وتندد بسياساتها الداخلية وفساد الحكم فيها وانتشار تجارة الرقيق . وقد قصدت بذلك أن تنتدبها عصبة الأمم على أتيويا . وأفسدت عليها فرنسا خطتها ، وتقدمت بطلب إلى عصبة الأمم أن تقبل أتيويا عضواً فيها ، وقد أجيبت إلى ذلك في سبتمبر سنة ١٩٢٣ . ولم تر بريطانيا بدءاً من التزام الصمت وانتظار الفرص .

وكان التنافس قد بلغ أشده بين بريطانيا وأمريكا على البترول والكوتشوك والقطن ، وكانت أتيويا تبحث عن مخرج من بين براثن المستعمرين فرحبت بأمريكا عندما طلبت إليها أن تمنحها امتيازات على بحيرة طانا . وقد تم ما أرادته أمريكا سرّاً ، فشرعت في دراسة أراضي المقاطعات المحيطة بالبحيرة لتزرعها قطناً .

ولما أيقن الامبراطور من وقوف أمريكا إلى جانبه اطمأن على بلاده ولم يعد يحسب لبريطانيا أو إيطاليا حساباً . ولذلك لم يتأثر الامبراطور لما علم في سنة ١٩٢٥ بالاتفاق الذي تم بين بريطانيا وإيطاليا بشأن أتيويا . فقد تبودلت الرسائل في شهر ديسمبر من ذلك العام بين الوزير البريطاني في روما وموسوليني باعتباره وزير خارجية إيطاليا ، فطلبت بريطانيا مساعدة إيطاليا لها واستعمال نفوذها لدى الحكومة الأتيوية لتمكن من الحصول على امتيازات على بحيرة

طانا ، وإنشاء طريق للسيارات من الحدود السودانية إلى البحيرة لنقل الأدوات والعمال .

فوافقت الحكومة الإيطالية ، على أن تساعد بريطانيا في الحصول على امتياز من الحكومة الأثيوبية لمد خط حديدي من حدود إريتريا إلى الصومال الإيطالي . وبذلك أصبحت اتفاقية سنة ١٩٠٦ نافذة بعد أن دمرح اللورد كيرزون قبل ذلك بسنتين (أي سنة ١٩٢٣) بأنها ملغاة .

وقد قابل مشروع الخزان في ذلك الوقت معارضة قوية من الكنيسة الأثيوبية ، وقد بينا القيمة الدينية والتاريخية للكنائس والديارات الموجودة في الجزر ؛ إذ خافت الكنيسة أن تغطي المياه على كثير منها إذا تحولت البحيرة إلى خزان . ولم يكن لولى العهد في ذلك الوقت (الامبراطور الحالي) من الأمر ما يكفي لاقتناع الكنيسة بقبول تنفيذ المشروع .

ووضحت سياسة أتيويا لدى بريطانيا في التسوية وإظهار الصعوبات التي من شأنها أن تعوق البدء في تنفيذ المشروع . ولم يكن هذا الاتجاه جديداً في سياسة أتيويا ؛ فقد عرف حكامها وشعبها في التاريخ بتحفظهم الشديد في معاملة الأجانب والتشكك في أغراضهم . وهذا سر من أسرار احتفاظ أتيويا باستقلالها في وجه مطامع الدول المستعمرة . وكانت ترمي سياسة أتيويا دائماً على ألا تمنح امتيازاً في أرضها إلا إذا عاد عليها بفائدة مباشرة ، أو إذا اضطرتها إليه عوامل سياسية .

ظلت بريطانيا متحيرة في موقف أتيويا ، حتى كشفت في سنة ١٩٢٧ بفضل قلم مخبراتها السرية عن اتفاقية أتيويا السرية مع أمريكا ، فثارت ثائرتها ، كما ثارت ثائرة إيطاليا وفرنسا ، فاحتجت لدى أمريكا وأتيويا وذكرتهما بمعاهدة سنة ١٩٠٢ التي تعهدت فيها أتيويا ألا تقيم أي مشروع أو تسمح باقامته على البحيرة دون أخذ موافقة بريطانيا والسودان . فتراجعت أمريكا وأوضحت لبريطانيا بأن المشروع لم ينفذ بعد ، ومن الممكن الاتفاق على كيفية تنفيذه . وقد تم الاتفاق في سنة ١٩٢٩ بين ممثل الشركة الأمريكية وممثل حكومة السودان ووزير خارجية أتيويا على أن تدرس الشركة المشروع تمهيداً لوضعه موضع التنفيذ . وقد طلبت الحكومة الأثيوبية أن يكون نقل الأدوات اللازمة للبناء عن طريق جيبوتي إلى أديس أبابا لا عن طريق السودان .

وتعهدت الحكومة أن تقوم بتعبيد طريق للسيارات يمتد من أديس أبابا إلى البحيرة . وبذلك تم للحكومة الأتيوية ما أرادت من أن يقوم بتنفيذ المشروع دولة غير الدولة المستعمرة للبلاد المجاورة لها . وتم لبريطانيا أيضاً ما أرادت من تنفيذ المشروع على أى وضع مع عدم ارتياحها إلى الشركة الأمريكية . ولما لم تجد أتيويا في أمريكا سنداً قوياً بل رأتها قد تفاهمت مع بريطانيا ، حولت نظرها إلى اليابان التي كانت في حاجة شديدة إلى القطن لتغرق الأسواق العالمية بمنسوجاتها . فأبرمت معاهدة تجارية في سنة ١٩٢٧ بين أتيويا واليابان . وأرسلت اليابان بعثة سنة ١٩٣٢ لدراسة بحيرة طانا واستئجار مناطق واسعة حول البحيرة لزراعة القطن ، وطلبت أن تعفى جميع الأدوات اللازمة من الرسوم الجمركية والضرائب . وتوثيقاً للعلاقات تمت خطبة أحد الأمراء الأتيويين لابنة أحد أصحاب الأعمال من اليابانيين ، وكسب اليابان كثيراً من الأصدقاء في أتيويا وراجت تجارتهم فيها . فأغضب هذا بريطانيا ، وأمكنها أن تقضى على تلك الصداقة بعد سنتين من قيامها ، كما صرح وزير خارجية الحبشة سنة ١٩٣٤ بأن الزواج لم يتم بين الأمير الأتيوي والفتاة اليابانية تحت ضغط دولة أجنبية . وفي ديسمبر من سنة ١٩٣٤ قررت الحكومة الأتيوية سحب الامتياز من الشركة الأمريكية . فلم يقع هذا الخبر من الناس موقع الغرابة ؛ لأن المناوشات بينها وبين إيطاليا كانت قد بدأت في ولول فأعلنت في الصحف أنها ستقوم بتعبيد الطريق بين أديس أبابا والبحيرة التي كانت قد وعدت بها الشركة الأمريكية سنة ١٩٢٩ . ثم لجأت إلى بريطانيا تعرض عليها امتياز تنفيذ المشروع لكي تسترضيها لتقف إلى جانبها إذا هي دخلت في حرب مع إيطاليا . وفي سنة ١٩٣٥ دعت أتيويا كلا من بريطانيا ومصر والسودان لعقد مؤتمر في أديس أبابا للوصول إلى اتفاق حاسم في مسألة مشروع بحيرة طانا . ولكن الحكومات الثلاث طلبن تأجيل الدعوة حتى تنجلي الحالة السياسية .

وقد أظهرت إيطاليا من جهتها في يناير سنة ١٩٣٥ للحكومة البريطانية أنها ربما تدخل في حرب مع أتيويا ؛ ولذلك فإنها تعطى بريطانيا ومصر الضمانات الكافية لحماية مصالحهما في بحيرة طانا ، وقد صرحت بذلك في عدة مناسبات ، على حد قولها .

وفي اليوم السابق لعرض مسألة النزاع بين أتيويا وإيطاليا في عصبة الأمم

أعلنت الصحف في ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ قرار مجلس الوزراء في مصر بفتح اعتماد ٣٦ مليوناً من الجنيهات لتنفيذ مشروع السنوات الخمس للتوسع في إنشاء الخزانات على النيل ومنها خزان بحيرة طانا .

وأعلنت الحكومة الأتيوبية أنها منحت شركة سويسرية امتيازاً لمد طريق من أديس أبابا إلى كورموك على حدود السودان يتم في سنتين . ثم اقترحت على الوزير البريطاني في أديس أبابا أن أتيويا مستعدة لمنح بريطانيا امتياز البحيرة لقاء دفع ثلثائة ألف جنيه انجليزي . ولكن بريطانيا أعلنت أن الحالة السياسية لا تسمح بالمفاوضة في مسألة مشروع طانا .

وقد عطل حرب الحبشة تنفيذ المشروع ، كما عطل بناء الخط الحديدي الممتد من أسمرا إلى مجدشو مخترقاً الحبشة لوصول القاهرة بمدينة الكاب بعد تكملة مسافات قصيرة من كسلا إلى أجوردات ومن مجدشو إلى نيروبي . وضعف أمل بريطانيا ومصر بعد جهاد ثلث قرن في تحويل بحيرة الكنائس إلى بحيرة استغلال . ولما استتب الأمر لاطاليا في الحبشة أسرع إلى إرسال بعثة لدراسة البحيرة رغبة في استغلالها على وجه يتفق ومصالح إيطاليا في أفريقيا الشرقية مع مراعاة مصالح البلاد التي تصلها مياه البحيرة .

والآن وقد عادت الحالة السياسية في أتيويا إلى وضعها القديم ، نلاحظ أن السياسة البريطانية التي استمرت في جهادها منذ أوائل هذا القرن لتحقيق هذا المشروع قد فترت أو تراخت أو تبدلت . فهل سبب ذلك عدم استقرار الأمور بين بريطانيا ومصر ، أو اتجاه جديد في سياسة بريطانيا بالاضافة إلى السودان الجنوبي دون الشمال ، أو كما يقال بأن أرض الجزيرة التي كانت أساس التفكير في المشروع لن تستفيد كثيراً منه بحسب ما جاء في التقارير الأخيرة ، أو يكون هناك من الأسباب ما نجهله ؟

لكن الوقائع أثبتت اتجاهاً جديداً في السياسة البريطانية . كانت بريطانيا تحرص على ذكر بحيرة طانا في نصوص المعاهدات أو الاتفاقات التي تجري بينها وبين أتيويا أو بينها وبين الدول ذوات المصالح هناك . وقد رأينا المعاهدة الأخيرة المبرمة بينها وبين أتيويا في ديسمبر سنة ١٩٤٤ أهملت ذكر بحيرة طانا إهمالاً تاماً ، فاتجهت اتجاهاً جديداً تعلله سياستها في السودان الجنوبي وتحقيق فكرة الصومال الكبير .

المشروع

والت وزارة الأشغال المصرية إرسال الفنيين من الانجليز إلى بحيرة طانا منذ أوائل القرن الحالى ، فرجعوا بنتائج بحوثهم وكتبوا تقاريرهم . ومع اختلافهم فى التفاصيل أجمعوا على ضرورة إنشاء خزان بحيرة طانا للفائدة المحققة التى تعود منه على السودان ومصر . وقد أرسلت الوزارة سنة ١٩٢٠ بعثة إلى البحيرة تحت إشراف يلال وجراهم بقيت سنة كاملة هناك لتتمكن فى أثناءها من دراسة البحيرة دراسة دقيقة . فرجعت البعثة بنتائج باهرة وبحوث قيمة وملاحظات مختلفة ، وبخاصة من الناحيتين الجوية والمائية . وقد نشرت هذا ضمن مطبوعات وزارة الأشغال سنة ١٩٢٦ . وكذلك نشر قسم الطبيعيات بالوزارة ما يتعلق بمستوى مياه البحيرة فيما بين سنة ١٩٣١ وسنة ١٩٣٣ تحت إشراف هرست وفيلبس .

ولم تقنع بعثة جراهم بالبحوث العلمية فحسب بل اقترحت طريقة استغلال مياه طانا ، باقامة سد يحوّل البحيرة إلى خزان لكى يمكن توزيع مياه النيل الأزرق بحسب اقتراح سابق لبعثة باكلى سنة ١٩١٥ . واقترحت إقامة سد عند منبع النيل الأزرق يرفع مستوى مياه البحيرة مقدار خمسة أمتار يحجز وراءه ١٤ ملياراً من الأمتار المكعبة تكفى لتعويض مياه النيل الأزرق فى أشهر الانخفاض .

ولما تحصلت الشركة الأمريكية على امتياز تنفيذ المشروع أرسلت بعثة على رأسها روبرتس سنة ١٩٣٠ على نفقة حكومة السودان ، ثم سنة ١٩٣٣ على نفقة الحكومة المصرية لدراسة المشروع من الناحية العلمية ولتكملة بعض المحاسن والمقاييس .

وقد أسرعت إيطاليا لما آل إليها الأمر فى الحبشة بإرسال بعثة يرأسها داينيلى أقامت عند البحيرة سنتى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ ، فدرست كل ما يتعلق بالبحيرة دراسة وافية من الناحيتين العلمية والاقتصادية . وكان رائدها فى دراستها اعتبار الحبشة مستعمرة إيطالية يجب أن تستغل لصالح إيطاليا أولاً . وقررت فيما قررت أن أثر خزان بحيرة طانا فى النيل الأزرق لرى السودان ومصر غير محقق ؛ لأن الغرين الخصب لا يأتى من البحيرة بل من روافد النيل

الأزرق . وقد استبعدت الحكومة الإيطالية تنفيذ المشروع بالطريقة المقترحة ، وادعت بأن هذا يمنع أفريقيا الشرقية الإيطالية من الاستفادة من أهم مواردها المائية . ووجهت همها لاستخراج التيار الكهربائي من مرا كز تبدأ عند انحدار مياه النيل الأزرق من اينجيريار ، واقترحت أن يكون مركز مثلاً عند مساقط طيس وها وآخر عند انحدار رافدى الثور والثول . واقترحت البعثة مشروعاً آخر استمدت فكرته من اقتراحى دوبروى الذى زار البحيرة سنة ١٩٠٢ ، وشيسمات الذى زارها عدة مرات بين سنة ١٩٢٦ وسنة ١٩٢٩ ، وهو شق قناة من خليج زوداى جرار فى غرب البحيرة تحمل المياه إلى رافد البلاس . وينشأ عن ذلك عدة مرا كز لاستخراج التيار الكهربائي ورى منطقة واسعة تصلح لزراعة القطن . ويمكن أن تستخدم القناة لخفض مستوى البحيرة ؛ وبذلك يمكن الاستفادة من الأراضى الواسعة الخصبة الناشئة عن الانخفاض .

ومما يسترعى الالتفات أن الفنين من الطليان اعترضوا على تنفيذ المشروع ، بأن هناك عوامل وظواهر مختلفة لا تزال مجهولة أو غير مضبوطة . فالمشروع مقبول من الناحية النظرية ، ولكن هناك قصصاً شائناً فى دراسة الشبكة المائية الواسعة الممتدة على النيل الأزرق من البحيرة إلى الحدود السودانية ، كما يحتاج تنفيذ المشروع إلى معرفة أحوال المياه فى النيل الأزرق معرفة دقيقة .

الغائرة

إن إقامة سد عند منبع النيل الأزرق من البحيرة سيجعل من البحيرة خزاناً يحتفظ وراءه بكمية من المياه تتجمع فى الفجوة الطبيعية المحيطة بالبحيرة . ولن يضر ارتفاع الماء فى البحيرة إلا بعض الكنائس والديارات الموجودة فى بعض الجزر .

والمقترح أن يرفع السد مستوى الماء فى البحيرة من مترين إلى خمسة ، وترتفع كمية المياه من ستة مليارات من الأمتار المكعبة إلى أربعة عشر ونصف مليار يستفاد منها بنحو ١٢ مليار من الأمتار المكعبة ، أى ثلاثة أضعاف ما تحتفظ به فى خزان أسوان تقريباً .

وتحجز المياه في موسم الأمطار من شهر يونيه إلى شهر سبتمبر ، وتصرف بحسب الحاجة في أشهر الانخفاض الثمانية .

وستكون الفائدة المباشرة لهذا المشروع زيادة الأراضى المزروعة في السودان ومصر زيادة كبيرة . وكذلك يمنع حجز مياه البحيرة في موسم الأمطار خمسة في المائة على الأقل من مياه الفيضان .

وقد رأت الحكومة الأتيوية أن تنفيذ المشروع سيعود عليها بالفائدة . فانه من الناحية الصحية سيقضى ارتفاع الماء على المستنقعات المنتشرة هناك والتي تعتبر موطن جراثيم الملاريا . كما سيسبب تصريف المياه الكشف عن منطقة واسعة حول البحيرة مغطاة بالغرين صالحة للزراعة ، وسيعم الرخاء جميع أهالى المنطقة نتيجة لما سيصرف من المال في دفع أجور العمال ووسائل النقل .

فالمشروع في ظاهره وباطنه مفيد كل الفائدة لمصر وأتيويا ، وهو مفيد للسودان على أى حال ، لا يحتاج في تنفيذه إلا أن تستأنف المفاوضات بين مصر وأتيويا ، وبخاصة بعد أن ذلت عقبة المواصلات . فقد مهد الطليان أيام احتلالهم لأتيويا طريقاً للسيارات يبدأ من أديس أبابا إلى أديس ألم فديرا مرقص ، ثم يمر بغرب البحيرة متجهاً إلى مدينة جوندرا في شمالها ، ومنها إلى أسمرافمصوع . كما مهدت طريقاً من حدود السودان إلى أديس أبابا ماراً بأديس ألم .

مراد لامل

الحن الضائع

كان من منهاج حياتنا اليومي أن نلتقى . وكانت الندوة مقهى أنيقاً بشارع أكسفورد في لندن . وكان للقائنا ميعاد موقوت لم نتخلف عنه طوال سنوات التحصيل الثلاث الطبية التي قضيناها في تلك المدينة الخالدة . وكان هو يمضي أكثر ساعات نهاره وطرفاً من الليل في مختبر تجاربه الكيميائية، وكنت أنا أمضي مثل ذلك من أيام الشباب الجاد في مكتبات الجامعة الحاشدة . وكان حرصنا على اللقاء في الندوة المختارة عظيماً ودائماً على رغم كل ما قد يستجد من الظروف . وكنا نتفق كثيراً في مجالس السمر العامرة تلك ، وكنا نختلف كثيراً أيضاً ، وقد نمضي عنها غضاباً وقد نمضي فرحين . ولكننا كنا نعود ، في الركن المعين والموعد الموقوت . ولم أقطع أنا عن السعى إلى تلك الندوة منذ تعارفنا ، ولم ينقطع عن مثل ذلك صاحبي غير مرة واحدة ! وما كانت هذه المرة لتذكر لو لم تكن على النحو الذي تمت عليه . ومع بعد العهد بما قد تم وبالجو العامر بالسعادة الذي كان يغمرنا يومئذ ، فما زالت ذكرها عالقة بذهني كأنها وقعت بالأمس القريب ! لقد انفرط بعدها عقد صفائنا، وما أحسب أنه عائد أبداً

في مساء اليوم السابق لانتقطاعه كنا جلوساً على العادة في الندى المختار . وكان الحديث يشتمل على أفانين شتى من الجد والفكاهة ، وقطع من الموسيقى الهزجة تنتشر في جو الندى ، ومن حولنا صخب الناس ، وضجيج السيارات وهمس رواد المكان . وفجأة أدارت العاملة الموكلة بالاسطوانات اسطوانة لم يلبث صاحبي عند سماعها أن وقف حديثه بغتة لأجلها ، وأنصت إنصاتاً تقله بما حوله إلى جو خاص . وأمضى في سهومه نحواً من دقيقة تجهمت في خلالها أسارير وجهه الأسمر ، وانعقد حاجباه واتسعت عيناه السوداوان ، وارتسمت على جبينه آثار الرجوع إلى حلم قديم . ثم أدار وجهه نحوى وقال : « اصغ . . هذه

قطعة من قطع زيمسكى كورساكوف الخالدة . هذه « شهر زاد » ؛ عروس الشرق تنهادى فى موكب زفاف غربى .

وأنصت — ولم يكن لى علم كعلمه بالموسيقى — فأعجبني ما سمعت ، واستخفني ألحانها ، وخيل إلى أنى فى جو علوى ، لا هو شرقى خالص ولا غربى خالص ، بل مزاج إنسانى رفيع . وأنصت أيضاً فشعرت أنى لا أسمع هذه الألحان سمعاً فقط ، ولكن حواسى الخمس جميعاً قد تمازجت فهى حس واحد واستحسان أتم لهذه الأنغام .

ونبهنى صاحبي ، قال : « اسمع هذا الترديد » وجعل يساير الاسطوانة بصفير أوقعه بحساب الموسيقى الرائعة ، هذا ترديد لليالى الألف التى قضتها شهر زاد المرأة الحكيمة مع الملك الفذ شهر يار . ومضى وقت — لست أدري ما مداه — ثم تخافتت الألحان وتخافتت حتى غمرتها ضجة المكان . وظل صاحبي ساهماً ، يعاود صفيhre بين آونة وأخرى . ولم أشأ أن أقاطعه ؛ فقد كانت تم هيأته على استحسان ما هو فيه ، وكنت أنا أيضاً قد استحسننت الحن فأعجبني ترديده فسكت وأضغيت . ثم أفاق صاحبي من حلمه ، وقال : « هذا الحن كان ضائعاً — أعنى من ذا كرتى — وقد وجدته وسأجدها معه ! هذا الحن الذى هزك هنا وسط لندن قد كان هزنى من قبل . لقد سمعته قبل ست سنين على حفافى الصحراء فى مصر الجديدة . وظل فعله يستجد فى كلاً سمعته وأينما سمعته . وقد حفظت الترديد كما حفظت أكثر أنغام القطعة . وكان من رأي إذا جلست وحدى أن أعيدها على نفسى . وذات مرة — وقبل أن ألقاك بعامين — كان القطار يقلنى من باريس إلى هذه الأرض ، ولم أبال الناس الذين معى أول الأمر ، فطاف بذهنى أن أردد لحنى المختار ، ففعلت ، وظللت أعيد ترديده وأنا أستطيب ذلك ، حتى ذكرت أن ذلك قد لا يطيب لمن حولى ، فكففت خجلاً . وكنا ثمانية ركاب فى المقصورة : شابين مصريين وزوجتيهما وأنا وثلاث سيدات بينهن إنجليزية واحدة . وقد بادرتنى الانجليزية — وكانت أصباهن وأحلاهن — فقالت : « عفواً ، أليس هذا الترديد من قطعة شهر زاد ؟ » قلت : « بلى ! بعينه » . فردت تقول : « رائع ! » قلت : « صدقت » . واستمر الحديث بيننا ، وجر الحديث إلى معرفة ، والمعرفة إلى دعوة لبيتها ، ثم أفضى ذلك إلى صداقة لم تلبث أن انقلبت حباً آخر الأمر . وكانت شمس مصر الحبيبة لم يزل أثرها فى نفسى وقلبي ، ودفعها

الذى يبعث الحياة كنت لا أزال أنعم به ، فكان حبي من أثر ذلك عنيفاً . . . »
قال صاحبي : « وفجأة ألفتني ذات يوم أقعد الحن الأثير ، وأقعد دين في
ذلك اليوم نفسه ! »

. . . قال : « كنا قد اتفقتنا على أن نلتقي على رصيف إحدى محطات القطار
الكهربائي تحت الأرض ، وتوافقنا في الموعد المضروب ومضيت بها إلى حديقة
سان جيمس ، وكان يوماً تضرن بمثله الطبيعة على الناس في إنجلترا : زانته الشمس
الساطعة ، وانقشعت عن وجه السماء الغيوم غير قطع صغيرة زادت زرقها
روعة . وكانت ساعة المغرب تاجاً لذلك النهار المشمس ، فقد تجمعت دكنة الغيوم
وزرقة السماء وذهب الأصيل لا خراج مشهد من المشاهد النادرة في تلك الآفاق .
وكنا — دين وأنا — نستجلي ذلك المشهد في مجلسنا في الحديقة حتى غابت
الشمس واضمحلّت حمرة الشفق ، ثم لم تلبث الظلمة أن خيمت بعد أن غلبت
بقايا النور فطمستها ، فأمسينا في عتمة تتبين العين من خلالها الأشباح لا تفاصيل
المرئيات . واستدارت دين نحوي وقالت : « أعجبك المشهد الجليل ؟ »

« قلت : نعم ! قالت : نعم وحسب !

« والواقع أن «نعم» وحدها لم تكن تكفي للاعراب عن شعور المرء وإعجابه
بما قد رأى في ذلك المساء ، غير أن عاملين اجتماعاً بغم ثقيل على صدرى في تلك
الساعة فجاء الجواب مختصراً على هذا النحو ؛ فغلبة الظلام على النور تكرب
نفسى دائماً ؛ وقد سعيت إلى التفريغ عنها بالحن الأثير فضاعت كل محاولة عبثاً
لاستعادته يومئذ ، لم أستطع قط أن أذكره ، وفقدته ، وفقدتها معه أيضاً كما
قلت . فقد اشتد الضيق بصدري حتى لم أ كد أطيقتها ، فكان كل جواب صدر
منى لها خشناً ، وكل عبارة قاسية ، وكل لفظة وخزاً أليماً لنفسها الرقيقة . وقد
أدهشها ذلك منى ، وتلطفت بي ، وحاولت أن ترضاني وتستأنسني ، فلم يجد ذلك .
وأمسّت آثار الظلماء تحيم على ، وفقدان الحن يكربنى . وقد حاولت دين أن
تذهب ما بي بمحاولات شتى من عندها ، فاقترحت أن نسير في ممشى الحديقة
الناضرة ، فقمت وإياها ، وكان الظلام قد أحكم إرخاء سدوله وشمل الحديقة
كلها ، وأطبقت معه الغيوم على السماء إطباقاً ، فانتشرت كثيفة على صفحتها ،
وحجبت كل نجم كان قد بدأ متلاًئلاً فيها . وسرنا في الممشى التي كانت تبدو كالأخاديد

السود ، وأوغلنا ونحن ساكتان وكل همى أن أستعيد لحنى الضائع لأسترد بذلك طمأنينة نفسى ، ولكن كل محاولة كانت باطلة . وبدأ لى أن كل جهد أبذله فيضيع يزيد كرب نفسى ويبعدنى عن اللحن بعداً ينضاف إلى به هم جديد . وشعرت أنى فى ذلك الجو الذى لفه السكون والظلام حبيس ، وأن رثى لا تجدان من الهواء الطلق كفاية تعينهما على التنفس ، فأنا أختنق . فالتفتت إلى دين وقلت لها : « دين ! إنى تعب . جد تعب ؛ فهل تأذن لى فى الاضطجاع على العشب خمس دقائق فقط ؟ »

« قالت وقد أخذتها الدهشة : ولماذا ؟ ولكنه مبلول وأخشى عليك البرد . فلم أجبها وأفلت يدي المشبوكة فى يدها وجلست متخاذلاً ، ثم ما لبثت أن اضطجعت .

« كان المشهد رائعاً : ظلمات شاملة فى السماء ، تتلقاها أشباح الشجر القائم عند ملتقى الأفق فى الجانب الشرقى ، ويقابلها من الغرب خط من الأنوار المنبعثة من الشارع البعيد . وكنت — وأنا مضطجع — أستطيع أن أتبين قوام دين الجميل وبعض قسما وجهها ، وبخاصة بريق عينيها وطرف أنفها ، وكانت تطل على من عليها ، فكأنها مخلوقة هابطة من الظلمات العليا . . أعنى السموات . وظلت مدة وأنا سادر أتأمل وأحلم ، وقد اختلطت الحقائق فى عيني بالرؤى ؛ فقد كان للظلماء التى صبغت كل شىء بلون حجابها القائم أثر فى ذلك الخلط .

« فى تلك الضجعة على أعشاب حديقة سان جيمس فقط تبينت أن البشر خلق علوى وأن موضعه السموات . لقد رأيت الأرض نجماً ساجماً فى فضاء رحب كما يصورها الفلكيون حقاً . إذاً فليس بين أرضنا الأم وبين نجوم السموات من فرق فى الأصل . . كل شىء بدا لعينى يمت بصلة للأشياء الأخرى التى فى هذا الكون : الأرض والانسان والنبات والنجوم كلها خلق واحد ومادة واحدة . ونبهنى من حلمى صوت دين الرقيق يقول : « مضت عشرون دقيقة . وأخشى أن يصيبك البرد فتم . » وسكتت ، فجعلت أصداء كلماتها تتردد فى أذنى وفى نفسى . وقمت فخرجنا وتعشنا وعاد إلى نفسى بعض هدوئها وإن كنت ما أزال شاعراً بأن فى قرارها شيئاً نفيساً مفقوداً . »

قال : « ومضت على تلك الليلة قرابة ثلاث سنين . لم أذكر اللحن الضائع ولم أر فى خلالها دين . ولم أسع إلى سماع الأسطوانة التى تحفظه — وذلك

ميسور — لأن سحر المصادفة يضع منى وتفوتنى متعته . كانت المصادفة هى التى وافقت بينى وبين دين وهذا الحن ! وقد مضى الحن وضاع وسط ملايين من الحان الكون الرحب التأهة . ومضت دين أيضاً وضاعت وسط هذه الملايين من سكان لندن . وما بى من حيلة إلى خلق المصادفة ، وإن كنت قادراً على إيجاد الحن . ولكنى أرى المصادفة قد جاءت الآن : عاد الحن ، وإنى لعلى يقين بأنها هى أيضاً ستعود . »

فى الليلة الثالثة غاب صاحبى على غير عادته عن الندى ، وامتد أمد غيابه أسبوعاً بأ كمله . وقد قلق أصحابى لغيابه ، وافتقدوه وافتقدته أنا أيضاً بأشد مما افتقدوه ، ولكن كان فى نفسى من حس الطمأنينة بالتقاء الحبيين وعودة الصفاء بينهما ما لم يكن مثله فى قلوب الآخرين . . . وصبح ما قد توهمت وأحسست ، فقد تبيننت أنه نعم بصفاء لقيها طوال ذلك الأسبوع ؛ وعاد ليطمئننا ثم يستأذنا فى الغيبة من جديد . . . وكان ذلك إيذاناً بانقراط العقد ، وقد كان !

فخرى شهاب .

انطلاق . . .

[إلى الذين أرادوا شراء قلبي
فباعوا ضمائرهم]

وسكبتُها لخواطري قربانا
عند الوري فأحلتُها إيماننا
وشقاوتي ، وأبشها ألعانا
فاضتُ على أنعامه تحنانا
وتخذتُ بين رياضك الأفتانا
والفجرُ يخفق ... والدجى سهمانا
سجاً همتُ فوق الثرى إحسانا
أحلامهُ فرحانٌ أو غضبانا
عند الغروب وشاحها ألوانا
بالأنجم النشوى لها تيجانا
والنأيُ قد صيرتهُ سكرانا
منه بشائرُ تغمر الأكوانا
أكامهُ وتضوَّعت بستانا
والحب والأفراح والأحزاننا
وأقمتُ تمثالا له فتَّانا
في كلِّ ناحيةٍ دمي ألعانا
وأغصُّ لا أرضي لها إذعاننا

إني اعتصرتُ مدامعي من مهجتي
وأقمتُ محرابي ... وكان خطيئةً
لي مذهبُ الغرَّيد... أنشد فرحتي
أنا طائرٌ متفرِّدٌ بصبايةٍ
يا هذه الدنيا عبدُك مخلصاً
لي ذلك الأفق المذهبُ . . والضحى
لي هذه الشمسُ الكبيرة أحرقتُ
لي ذلك البحرُ العظيمُ وما طوتُ
هذي السماءُ تجملتُ لي فارتدتُ
وترينتُ لي في الظلام فنسَّقت
الليل ... كم أوقفتهُ مترنحاً
والنور . . كم أذهلتُهِ فتقدمت
والزهر ... كم أرقصته فتفتَّحت
هذي أغاريدى ... فسَلَّ عنها الهوى
إني وهبتُ لكلِّ معنى غنوةً
غنيتُ حتى للدماسة مرسلًا
هذي أغاريدى ... فكيف بجبسها

هذى أغاريدى ... فكيف يجبسها
هذى أغاريدى تفورُ بأضلعي
لييك يا قللى مسطرَ شقوتى
لييك يا قللى ... غمستك فى دى
أنا لا أغنى للجُمادات التى
تمشى فتحسبها نفوساً ... إنها
هل غيَّضوا النهر المبارك سيره ؟
هل أوقفوا ركبَ الحياة ؟ وأطفأوا
هل صيروا الليل البهيمَ صحيفةً
هيئات ... لن يقووا على حبس الذى
أنا طارحٌ عنى عباءةَ مجدهم
خلعتُ لأشواقى الحياةَ قناعها
وتسرَّب الوجدانُ بى متغلغلاً
ياروحَ هذا الكونِ ... إنى عابدهُ
أستقبل الدنيا وفى شبَّابى
وأحبُّ هذا السهل مُنبسطاً ، كما
وأقاسمُ الليلَ الحزينَ شجونه
وأطيرُ حتى أستحيل غامةً
قد عشتُ هذا الكونَ بين جوانحى
حريتى ملكى ولستُ مُخلفاً

وأرى السبا قد أرهفتْ آذاناً
وتشَّقُّ مُنْفَسِحاً لها ظمأنا
ومسرتى للخالدين كياناً
وبثتُ منك مشاعرى ألواناً
ضاحتُ بها تلك القبورُ هواناً
كُتِلْ تذبُّ على الثرى أبداناً
أم صَيَّروا هذا السحاب دخاناً ؟
شمسَ الأصيل ؟ وبدَّلوا الإنساناً ؟
يضاء ؟ أم هل أنبتوا الكُثباناً ؟
فى خاطرى متدفقاً ... هتَّانا !
ولقد بُليتُ بجمالِها أكفاناً
وأباحَتِ السرَّ الحُبِّ عياناً
خلفَ المدى متطلعاً حيراناً
لكَ ناثِرُ صلواته قرباناً
نغمٌ يقدس ما أرى ألحاناً
أهوى الجبالَ وأعشَقُ الودياناً
وأساجلُ الفجرَ الجميلَ حناناً
وأرفُّ طيراً شادياً لهفاناً
وتمثلته مشاعرى ألواناً
إلا السجون وخلفها السجَّان !

الأختان

كان لى بنتان ، كبراهما سمراء ، هيفاء ، فاحمة الشعر ، باسمة الثغر ، لها وجنتان ورديتان ، وعينان دعجاوان ، وجسم نحيل . ولدتها أمها سهلة ، فجاءت إلى هذه الدنيا سهلة ، وخرجت منها سهلة . وكانت وهى رضيع كثيرة البكاء ، قليلة النغاء ، تتبرم أمها بكائها مع أنها البكر ، وتضيق بصراخها ؛ فلما أدركها الفطام هدأت ، واطمأنت ، وألفت المناغاة ، واعتادت الابتسام . فكنت إذا دخلت البيت أقبلت علىّ ، واندفعت إلى ، وأسلمت إبطيها ليدى ، وارتفعت عليهما إلى شفتى ، فأقبلها ولا أشبع من التقيل ، وأحتضنها وأضغطها على صدرى ، وأناغها ، وتستغرقى المناغاة ، حتى تصرفنى عن الطعام والشراب ، فتبرم أمها كما كانت تتبرم ، ويسخطها نغاؤها كما كانت تسخط على بكائها ، وتضيق بفرحها الذى يصرف أباهما عن زاده كما كانت تضيق بترحها .

كانت إذا جرت اندفعت ، وإذا اندفعت تعثرت ، وإذا تعثرت همت فى الحال وهبت ، واندفعت واصطدمت ، وبكت ، ثم لا تلبث أن يعاودها الابتسام . وكانت وهى دون العاشرة مثلها وقد جاوزتها حركة ، نشيطة ؛ لاهية ، عابثة ؛ لا تفارقها عيني ولا حى ، ويهفو إليها فى الغيبة قاي ، وأخشى على نحوها من عبث الأيام وعوادي الأسقام ، وأرعاهما كما أرعى النبتة الرقيقة الدقيقة ، وأسقيها ماء الحياة من معين حياتى ، فهى الفراشة المتقلة ، الطروب ، الهابطة ، الطائرة ، التى تجعل فصولك جميعاً ربيعاً ، ولا تذكرك أبداً بخريف الحياة .

وكانت روحية إذا حل الشتاء أطل وجهها النضير المستدير الجميل من فروها الوثير ، فرأيت لعينيها بريقاً يدفى قلبك ، ولثغرها نوراً خليقاً بالاجتلاء ، ولورد خديها ناراً من وهج ذكاء ، ولطلعتها معنى يشع بالرجاء . كلها حرارة دافئة دافئة ، من نار ونور ، ونشاط وحبور ، قد قدر فى اللوح المسطور أن يكون كله نزيل القبور .

وولدت حورية بعد مولد روحية بعامين اثنين ، وتعسرت ولادتها فترة قدرية ، ولبثت أياماً لا تعرف لها هوية ، ثم أشرقت طلعتها ندية بهية ، وتفتحت

اللامح عن وجه مليء ، وخلق هنيئاً ، وهدوء ملحوظ ، فكانها خبرة الأيام اكتسبت قبل الخبرة ، ونهية المرام اكتملت قبل الحسرة .

وكانت حورية متعة أمها ، أثيرة عندها ، لا تبكي في الرضاع على تقيض أختها ، إذ وضعت تواضعت ، وإذا حملت تهالكت ؛ لا تكلف أمها مشقة ولا ترهقها عسراً ، تحبوا إلى غير غاية ، وتقف بلا غاية ؛ وتظل الساعات لا يسمح لها حس ، لا تزعج ولا تنزعج ، إذا أبطأ عليها الرضاع وهمت بالصياح استدركت وأسعفت . فكانت على الجملة الطفلة التي تنشدها الأم : هذوء واستسلاماً ، ورضا وقناعة ، وسكوتاً يعينها على تصريف ما خلا الطفولة من شئون .

وكبرت حورية واكتنزت وربت بيضاء ، شقراء ، زرقاء العينين عميقتهما ، لا يدرك لعمقهما مع الصفاء قرار ، فريدة تمثل لوناً مرهوباً من ألوان الجمال . تميل إلى الوحدة ، ولا تأنس إلى الأتراب ، وتتجنب الضيف ، وتتعرض للعتاب ، وتعود من كل ذلك بسمعة النافرة ، وسخط النسوة ، حذرة مسترة لا يعرفها الرجال . ونضجت الأختان كبراهما متأخرة ، والصغرى مبكرة ؛ وتبدت فتنهما قبل الألوان ، وتفتحت الزهرتان عن مختلف الألوان ، وتعددت فيهما الشيات ، وتعارضت السمات . وكنت أعنى بتتبع نشأتهما منذ الصغر ؛ وأرعى نموهما حتى الكبر ، فخشيت كل الخشية على روحية ، ولم ينشغل بالي من نحو حورية . وتعقبت سلوك الأولى في السن العاتية ، فرضيت عنه واطمأنت إليه ؛ لأنه لم يعلق به غبار ، فهي سريعة الخطى لا يدركها هراء الغوغاء ، وهي ذكية الفؤاد لا يزهىها إطراء ؛ وهي فاضلة لا يميلها إغراء .

وخطبها في الثامنة عشرة شاب من خريجي الفنون الجميلة ، وشغف بها ، وخالطت فنه ، وأذكته ، وعلق عليها وعلى مستقبله الآمال الكبار .

وجاء الشتاء كعادته لينضر خديها ، ويروى وردتها ، فرماها على غير عادته بداء عضال ، فازداد ضرام الخدين لكنه حال لونهما ، وشابت حمرة الوجنتين صفرة فيما يليهما ، وكابد جسمها النحيل نحولا فوق نحول ، وطال اعتكافها والتزامها الفراش . وفي ساعة صافية من ساعات النهار وقف بعتبة الحجرة زائر غريب ، لا عهد للسعيد بزيارته ، أو لعله لا يزور إلا السعيد : ملك أبيض الثوب ، ناصع البياض ، مخفوض الجناح ، يمد ذراعيه إلى روحية في حنو المشتاق ، فتسلمه الروح ! في عمر الزهرة ، وطور الفكرة ، لم تصبح بعد

حقيقة . وتتجلى السماء من حجرة روحية ، وينشر الملك الجناح وقد ضم إلى صدره روحها الطاهرة قبسا من نور ، أو جذوة من نار ، ما كاد الملك يصعد بها حتى أظلمت الدار ، وخبث النار من الجسم الهامد الممدود .

أيها الدمع ! ما بال العين المتفجرة والسيل الجارى قد كتب على مائه أن يفيض ! ما بال الذهول والطرف الساهى قد منع الماء أن يفيض ! أيقف الجمود كذلك بالباب يطلب فريسته فلا يجد ما يملكه سوى المحزونين ؟ أتذهب قرة العين فلا تبكيها العين ، ولا تذرف عليها الدمع السخين ؟ أيتها العين تفجرى كما غضت ! أيتها الجيوب انشقى !

ويرتفع الذهول ، ويرتفع الصياح ، وينسكب الدمع الغزير ، إلا حورية فيأبى الذهول إلا أن تكون الضحية ؛ فهي فاغرة فاها ، جاحظة عيناها ، لا حراك بها ، ولا حياة فيها ، أو لا دلالة فيها على الحياة .

وتفتقد حورية بعد ذلك فتلقى في مخدعها مطرقة ، يزداد انزواؤها ، ويتعاضم انطواؤها ، وقد سارت من قبل هذه السيرة فلم يطمع أحد أن تتبدل سيرتها . لكن ابنة السادسة عشرة توشك اليوم أن تذبل نضرتها ، ويوشك لونها الزاهى أن يغيب ويتولاه الشحوب .

ويقع ما كان يوشك أن يقع فيجف العود ، ويسير في البيت خيال بعد أن كان المثال ، وتنقلب العاقلة المقلدة مكثارة ، والصامتة ثرثارة مهزارة ، والمتسدة متعجلة متسرعة . ويخرج الوقار المطبوع عن طبعه فتبدو الخفة وتنقش العزلة ، وتقبل حورية على الضيف تسرف في تحيته ، ويراها الأتراب فيبدها العجب العجائب ، وتتساءل أحورية هذه أم روحية ؟ أيها الموت الطالع علينا في ثوب الملك ! لقد اختطفت بدل الروح روحين ، فحملت إحداهما إلى السماء ، وخلقت الأخرى على الأرض شوها ، فسلبتنا كل غراء !

أيتها الروح التى فى السماء أدركى الروح التى على الأرض ، فما عاد ينفعها البقاء فى دار الفناء !

كان لى بنتان ، كبراهما توفيت ، وتنكرت الصغرى ، ولم يبق منهما سوى الذكرى . والذكرى تؤلم المحزونين ، وتنفع المؤمنين ، وترفع إلى عليين . فاللهم ألحقنا بالسابقين !

خطرات فى الفنون الجميلة

الفن لغة : الكثرة والأنواع والألوان ، ومنه الأفنان والفنان والأفانين والفنون . ولعل أحدث مشتقات هذه الألفاظ وأقربها إيضاحاً لتلك المعانى ما اصطلح العامة على التعبير عنه بالتفنين والتفانين . والسائر أن الفن يحمل معنى الفنون ، وأن مدلول اللفظ مفرداً لا يختلف كثيراً عن مدلوله جمعاً ، فلا غضاضة أن يقال فن الأدب وفنون الأدب . ولا فرق فى المعنى بين فن العمارة وفنون العمارة . ولكن مدلول اللفظ أخذ ينكمش من جهة ويعم من جهة أخرى . والذى أعتقده أن تفسير كلمة « الفن » قد وقف عند حد كل معرفة لم تنحصر أطرافها فى أسس محدودة ، أو أنه كل معرفة قبلت التنوع فى شكل من أشكال التجديد والاقتباس ، أو الزيادة والحذف . أى إننا إذا أردنا أن نطبق هذا المعنى بصفته العامة ، أصبحت العلوم كلها ، وأصبحت أنواع المعرفة كلها تدخل فى نطاق الفنون . ولكننا فى صدد تحديد المعنى لا تعميمه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتمييز اللفظ أو نعتة . فلنتفق على أن نميز الفنون بأبوابها ، كما اتفقنا على أن نميز العلوم بخواصها ، فنفرق بين علوم الحيوان والنبات والطبيعة والكيمياء والرياضة ، كما يجب أن نفرق بين فنون الأدب والحديث والفروسية والتجميل والطباعة ، فلكل من هذه المصطلحات مدلول واضح صريح ، ولعل الأمر كذلك فيما يتصل بالفنون الجميلة .

ويبدو لى أن الذى يقصد بالفنون الجميلة هو كل معنى متجسم من خواطر الرأى والفكر التى ترمى إلى التعبير عن الجمال وعن الحسن من الأشياء . ومع ذلك فأننا مقتنع بأن هذا التفسير ناقص غير واضح ، أو أنه أكثر إجمالاً مما يذهب الفكر إليه عند ذكر الفنون الجميلة . فالشعر والغناء والرقص والموسيقى والتصوير الآلى تجسيم لمعنى من معانى الجمال ، ومع هذا فالحديث فى الفنون

الجميلة لا ينصب عليها في أغلب الأحيان ؛ إذ أن الكتاب والأدباء والعلماء قصرُوا مدلول الفنون الجميلة ، في اللغات الأوربية ، على فنون العمارة والنحت والتصوير ، وهي التي يعبرون عنها في مصطلحات تلك اللغات بما تطابق ترجمته الحرفية لفظي الفنون الجميلة *Beaux-Arts, Fine Arts, Die schönen Kunste* والخير أن تتبع ما اتبعه هؤلاء الكتاب والأدباء والعلماء ، وأن نتفق على ما اتفقوا عليه . أما الفنون التي تتصل بالعمارة والنحت والتصوير أو تتفرع منها فقد أطلق عليها اسم الفنون التطبيقية ، أي التي تطبق صفات الفنون الجميلة على نواحي الصناعة ، وهي فنون الخزف والأثاث والحديد المطروق والحفر على العاج والخشب والنسيج وما شابه ذلك .

وكذلك اتفق علماء الفلسفة والتاريخ في أوربا على تفسير الفنون الجميلة بأنها كل ما يعبر عن الجمال ، مما تخرجه يد الإنسان ، بعد التفكير أو الخيال ، من مادة طبيعية أو صناعية ، لها صفة البقاء والدوام . ولسنا نجد هذه الصفات كلها مجتمعة إلا في تلك الفنون التي ذكرتها . فالشعر مثلاً يفقد صفتين أو ثلاثاً من هذه الصفات . فأنت تحس بحمال الشعر دون حاجتك إلى صياغته من مادة طبيعية أو صناعية ، كما أنه ليس لليد التي تسجل شعر الشاعر أثر فيما قد ينطق به هذا الشعر من جمال . والشعر كذلك تعوزه صفة البقاء ؛ إذ أن الشاعر يستعين بأداة خارجة عن موهبته الشعرية لتحقيق هذه الصفة . وقد يبدو غريباً أننا حين نخرج الشعر من الدائرة الاصطلاحية للفنون الجميلة ، نستطيع أن ندخل في هذه الدائرة نفسها ذلك الخط الذي ينقش به الشعر في رسم بديع ، لأن في الخط نفسه جمالاً سجلته يد الخطاط ، بعد سعي وإيحاء وتفكير ، وأصبحت له من الحجارة أو من الجلد أو من الورق أو من القماش الذي نقش عليه صفة من صفات البقاء والدوام .

ولست في هذا أفضل فناً على فن ، أو أقارن فناً بآخر ، ولكني أسعى إلى تحديد معنى لمصطلح الفنون الجميلة ، وأود أن أساير اتجاه اللغات الأوربية ، فهذه المادة حديثة العهد في لغتنا وفي آدابنا ، وجدير بنا ألا نرمي بالخلط في الكلام عنها والبحث في أبوابها ، مادام لنا على كل حال مخرج لكل فن في تمييزه ، وما دام علماءنا وأدباؤنا يتحدثون عن أجيال بعيدة عن فنون الأدب والشعر والموسيقى ، وعن أنها فنون جميلة . لا نزاع في ذلك ، ولكني أعرف أنهم أطلقوا

عليها يوماً لفظ الفنون الجميلة ذاته ، أو لفظ الفنون مجرداً ، من غير نعت أو تمييز لكل لون من ألوانها .

ولعل فى إيضاح تلك الصفات الخمس للفنون الجميلة ما يبرر حصر مدلول هذا اللفظ على ما ذكرت من فنون العماره والنحت والتصوير . فصفة الجمال شرط بديهي يفرضه تخصيص هذه الفنون بنعت « الجميلة » . وسنعود إلى الادلال ببعض خطرات عن الجمال . وبديهي أيضاً أن يشترط فى تلك الفنون تدخل يد الانسان فى إخراجها . فقد تبدو صخرة فى الفضاء ، عن قرب أو عن بعد ، على هيئة تمثال بديع ، تتحرك مشاعرنا لرؤيته ، ولكنها الطبيعة هي التي نحتت هذه الصخرة فأخرجت منها صورة التمثال ، فهو تحفة من تحف الخليقة ولا سبيل إلى حصره فى دائرة الفنون الجميلة . وإلى هذا فالطبيعة من حولنا كلها جمال وإبداع وإيجاء لرجل الفن ولنتجات الفنون . أما أنها يجب أن تكون مصنوعة من مادة طبيعية أو صناعية ، فذلك تفسير لصفة تجسيم تلك الفنون للجمال والمادة وسيلة التجسيم ، ولهذا عرفت الفنون الجميلة بالفنون المادية أو الملموسة . والفكر شرط واجب لتقدير الفنون كما هو شرط واجب لتكوينها . والفكر ينصب على الكلمة فى أوسع معانيها ، فتشمل الخيال كما تشمل اللعب واللهو . فقد يلهو الطفل ويحسم عجينة من الطين أو يسطر خطوطاً على قطعة من الورق ، فتجلى من هذه أو تلك صورة بديعة يعدها بعض الناس تحفة فنية رائعة . ولكن الصورة التي تتركها على القرطاس رقعة من حبر مسبوك ، سقط عفواً عليها وسال ، وتشكل على صورة من الصور ، ليست من الفن فى شيء ؛ إذ لم يحدد الفكر هذه الصورة ، ولم يشكلها الخيال . وكذلك قد يقطع الرجل من الجبل قطعة من الحجارة ليرص منها أساساً لبيت ، أو ليجسمها فى شكل من الأشكال ، وقد تترك هذه القطعة فى صخر الجبل فجوة أو تجعدات تتجمع منها صورة جميلة ، ولكن لم يكن للخيال أو للفكر فضل فى صياغتها ، فهي فلتة من عمل الفنان وليست تحفة من تحف الفنون .

وأخيراً تشترك فنون العماره والنحت والتصوير فى صفة البقاء . فالبناء الذي يشيد فى مناسبة خاصة ليهدم بعد ذلك تنتقى منه صفة الفن الجميل . والتمثال الذي يصاغ من الشمع فيوقد ويسيل ، أو من الحلوى فيؤكل ويلتهم ، ليس له موضع فى متحف للفنون .

وليس الأمر أمر اتفاق على لفظ شامل لفنون جميلة ثلاثة ، إذ أن العمارة والنحت والتصوير فنون تتفق معانيها ومراميها ، وترتبط أسبابها بنتائجها ، بحيث لا غنى عن تحديد اسم شامل لها ، ولا مفر من تمييزها عن بقية الفنون بتلك الصفة البارزة وهي الجمال .



قناع رأس من فنون الكونتو البنيجية بين مدى اختلاف تقدير الشعوب
لمعنى الجمال تبعاً لاختلاف درجة تهذيبهم وثقافتهم

وقد اختلف الناس في تقدير معنى الجمال وتفسيره ، وكان اختلافهم هذا تابعاً لاختلاف مقدار تهذيبهم وثقافتهم . ولهذا قد يكون من الصعب تعريف الجمال تعريفاً دقيقاً . ويرى الفلاسفة أنه الانسجام بين أجزاء الشيء المختلفة ، أو النسبة المعينة بينها . أو أنه الصلة التي تربط حساسيات النفس فتحركها ،

والوحدة الوجدانية التى تجمع بين صلات مشاعرنا المختلفة ، فتدخل عليها الفرح والبشاشة ، أو الاعجاب والتقدير ، أو الراحة والطمأنينة ، أو أى شعور آخر يرفعنا عن عالم المادة .

والجمال والفنون صلة بين الشاعر والحساسية من جهة ، وبين الذكاء والفكر من جهة أخرى . وهذا هو السبب فى اتفاق تقدير الناس للجمال ، إذا استوى تهذيب أفكارهم ، وارتقى إلى درجة سمو . كما أن هذا هو السبب فى اختلاف تقدير الناس لفكرة الجمال ، وفى تطور هذه الفكرة فى مختلف الأمم على مدى العصور والأجيال .

ونضيف إلى درجة اختلاف الحساسية وتباين الشاعر ، وإلى اختلاف درجة سمو الفكرة والتهذيب التى بلغتها الشعوب ، سبباً آخر لاختلاف تقدير الجمال ، هو مبلغ الاتقان الذى وصلت إليه تجارب كل أمة فى وسائل فنونها ، ومدى الصلة التى تربط تجارب هذه الأمة بعناصرها الطبيعية وبنظمها الاجتماعية . فقد كان للعبيد مثل عليا للجمال غير المثل العليا التى تشبع بها أصحاب البشرة الصفراء من أهل الصين واليابان . وكان لقدماء المصريين فكرة فى الفنون غير الفكرة التى تعلق بها سكان بابل وآشور .

ولكل وطن من الأوطان فنون تختلف فى مادتها وفى روحها وفى أشكالها اختلاف بلاده فى طبيعتها وفى مظاهرها وفى تكوينها . فترى السقف المسطحة تنتشر على المباني فى بلاد صحا الجوف فيها ، وأقيمت السقف منحنية أو مقوسة أو مدببة فى بلاد اشتدت الأمطار فيها وقسا البرد . ونرى بلاداً أخرجت تحفاً من الزجاج لأن طبيعتها أوحى لها ذلك وأمدتها بوسائله ، وأخرى علقت بفنون السجاد ، وأخرى مهر أهلها فى صناعة الأخشاب وفى فنونها ، وأعمدة الجرانيت الضخمة فى الفن المصرى ، غير أعمدة الرخام الرشيق فى بلاد الإغريق . وبلاد أقامت عمائرهما من الحجارة ، وأخرى أقامتها من الحجر ، وغيرهما ترفعها على عمد من الخشب . فالطبيعة عامل رئيسى من العوامل التى تشكل الفنون ، وهى لهذا من العوامل التى تؤدى إلى اختلاف تقدير معانى الجمال .

وليس الفن فحسب تقليداً للطبيعة ، ونقلًا لمظاهرها ، وتعبيراً لحقائقها ، بل هو فوق هذا صورة سامية لها ، وتمثيل مجسم لصفة هامة من صفاتها ، وفكرة خاصة لظاهرة من ظواهرها تلك التى كان للفن الفضل الأول فى اكتشافها ،

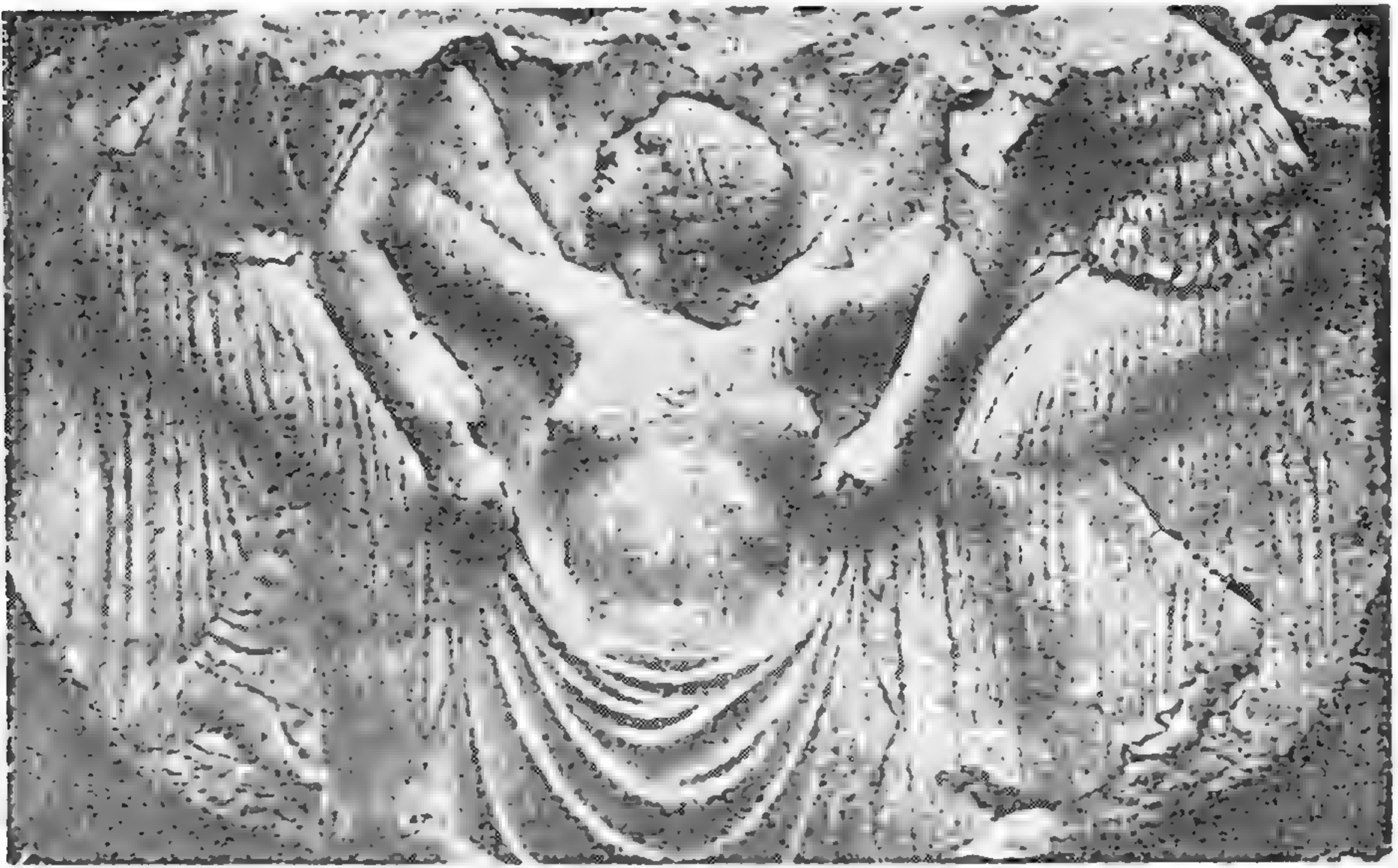
والتي كان للفنان الفضل البارز فى اتخاذها وسيلة تربط الحقائق والطبيعة
بالمشاعر والأفكار ، وتجعل منها مثلاً علياً على الجمال .
والديانة عامل رابع لاختلاف تقدير معنى الجمال . فالعلاقة قوية بين الفن
والديانات والاعتقادات ، بل إن الفنون لم تشب وتم وتزدهر إلا بانتشار



أعمدة الجرانيت الضخمة فى بهو رمسيس الثانى بمعبد الكرنك ، تجسيم للمعينة
وتحقيق لما تقدمه الطبيعة من مواد ووسائل للفنون

الديانات . وإذا كان الفن قد وصل إلى درجة عالية من السمو عند الاغريق ،
فما ذلك إلا لأن الصلة كانت وثيقة الارتباط بين الفنون وبين اعتقادات
الاغريق الدينية ، تلك الاعتقادات التي كانت تجعل من الطبيعة مثلاً علياً ،
والتي كانت تضيء الجمال على الحياة . وإنا لنلاحظ مدى الشعور الدينى فى

تطور الفنون ، ونرى مدى هذا الشعور في أعمال رجال الفن ، مهما تباينت دياناتهم ، أو اختلفت اعتقاداتهم أو أفكارهم الدينية . وإذا كان بعضهم قد نزعوا أحياناً من قلوبهم هذا الشعور الديني ، فهم إنما استعاضوا عنه بفكرة شخصية قوية ، تخلق الصلة بين ابتكاراتهم الفنية ، وتبعث في نفوسهم الحس والشعور . فإذا كانت الديانة والعقائد تجمع بين أسباب التفكير فينا ، وإذا كانت الأخلاق والشرائع تقرب وسائل الإرادة منا ، فإن الفن هو الذي يوحد مشاعرنا ، ويوجه طريقة إحساسنا .



أفروديت إلهة الحب والجمال تولد من خوف الطبيعة ، وتنشق من أحضانها ،
تجسيد للمثل العليا في حياة الاغريق

هذه العوامل الأربعة : الحس وما يتبعه من اختلاف الشاعر ، والذكاء وما يتبعه من اختلاف درجة التجارب ، والطبيعة وما يتبعها من اختلاف الوسائل ، والديانة وما يتبعها من اختلاف العقائد ، هذه العوامل الأربعة ، وكثير غيرها مما يدخل فيها أو يتشعب منها ، ترتبط فيما بينها ارتباطاً وثيقاً . فالدين فكرة وشعور معاً . والشعور قد ينبعث عن عقيدة ، وقد يتولد من الذكاء . والتجارب مظاهر للذكاء قد تتحكم فيها العقيدة والشعور . والطبيعة ترتبط بكل هذه العوامل ، فتتحرك بعضها ، وتتحكم في البعض الآخر ، وتلونها جميعاً بالوان من صبغها .

إذا كانت هذه الأسباب قد أدت ، كما قدمنا ، إلى اختلاف الناس فى تقدير قيم الجمال ، وفى تحديد معانى الفنون ، فإنها تدلنا على أمرين : الأمر الأول أن الفن عالمى غير شخصى ، وجماعى غير فردى ، أو أنه رابطة من روابط الجماعة ، ومظهر من مظاهرها . فكل عمل فنى يكون جزءاً من مجموعة فنية تفسره وتوضحه ، وهو ليس منعزلاً بنفسه ، فيصح الحكم عليه منفرداً . وقد كانت الحضارات المختلفة ، حضارة المصريين وحضارة الإغريق وحضارات الإسلام وحضارات المسيحية ، كانت هذه الحضارات تدرس فيما مضى منفصلة ، كل منها قائمة بذاتها ، فأصبحت اليوم ، بفضل تاريخ الفنون ، تظهر كأنها مقاطعات إمبراطورية واحدة ، أو كأنها أجزاء لا تنفصل من عالم فرد واحد .

ولكل فنان شخصية ذاتية ، كما أن له عادات وميولاً خاصة ، تظهر فى مجموعة أعماله ، ولكن الفنان نفسه ليس منعزلاً بدوره ، فهو عضو من أسرة كبيرة مكونة من رجال الفن فى الوطن الذى يظله ، وفى الزمن الذى يعيش فيه . ولهذا الأسرة كذلك ميزات وصفات فنية تنعكس فى أعمال جميع أفرادها ، وتنتمى إلى مجموعة أكثر عدداً واتساعاً ، وهى مجموعة الجمهور الذى يحيط بها ، والذى يتفق معها فى الذوق والمزاج ؛ فما رجال الفن إلا صدى تقياً لأصوات الجماهير . وليس هنالك من شك مثلاً ، فى أن رجال الفن من قدماء المصريين كانوا يعيشون عيشة مواطنيهم ، فكانوا متفقين معهم فى الآراء والعادات ، وفى الثقافة واللغة ، وفى الدين وفى أسباب الحياة .

وتدلنا متابعة النظر إلى الأمم جميعاً ، وإلى العصور التاريخية المتعاقبة ، دلالة واضحة صريحة ، على أن الصلة قوية محكمة ، وأن الوفاق شامل تام ، بين رجال الفن وبين مواطنيهم . وهكذا فإن شخصية الفنان لا تتكون إلا تحت عوامل الجماعة ، ولا تظهر إلا متأثرةً بالظروف التى تحيط بزمانها . وإذا اختلفت الأمزجة وتباينت المشاعر ، فإن الفن وحده يجمعها ويوفق بينها ، أو يستخرج منها مجموعة متحدة الشعور والمشارب والأفكار . ولهذا كانت الفنون وسيلة من أقوى وسائل اتحاد المجتمع . وإذا توصلت جماعة ما إلى التفكير بأسلوب واحد ، فقد لا يكون هذا كافياً لأن تتحد رغباتها ، غير أن الفنون وحدها هى التى تصل بهذه الجماعة إلى الشعور بعاطفة واحدة .

والأمر الثانى أن الفن تعبير للحياة ، بل هو تعبير لأسمى نواحيها ، تعبير

للعواطف والمشاعر والذكاء ، تعبير للنفس والحس والعقل ، فهو صورة رفيعة للانسانية . وللـفنون جميعاً ، مهما اختلفت ، مصدر واحد تفرعت منه ، فهي تعبر ، أول الأمر وفوق كل شيء ، عن القوى الدفينة في طبيعة الانسان وحياته .

وعلاقة الفنون بالحياة الاجتماعية تتفرع منها ثلاثة أوجه ، من حيث مصدر هذه الفنون ونشأتها ، ومن حيث نهايتها ، ومن حيث روحها وتكوينها . والشعور الفني شعور اجتماعي في أدق معانيه ، هو شعور يرمي إلى النهوض بحياة الفرد ، وإلى إدماج هذه الحياة في حياة الجماعة . فالـفنون ترفع الانسان عن حياته الفردية ، لتصله بالحياة العالمية ، مستعينة في ذلك باتفاق الحس والشعور . فقد انتقلت السيدة مونا ليزا من حياتها الخاصة إلى حياة عالمية ، وكان فن المصور الايطالي ليوناردو دافنشي هو الذي منحها هذه الحياة الخالدة . وكذلك يرتقى جميع النظارة إلى لوحة « الجيوكندة » هذه في متحف اللوفر من حياتهم الذاتية إلى سمو الحياة العالمية .

وحواس الانسان أصدق برهان على هذا الارتقاء والسمو . فالذوق والشم واللمس حواس تتصل كلها عن قرب بالحاجيات المادية في حياة الانسان . أما حاستا السمع والنظر ، فهما حاستان رفيعتان ، لأنهما تتصلان بالقوى السامية في هذه الحياة . وقد تولدت عن هاتين الحاستين فنون الجمال ، تلك الفنون التي تتجه بالانسان إلى ما وراء الحواس ، وإلى ما هو أسمى منها في القوى الدفينة من حياته ، وهي الذكاء والخيال والعاطفة .

والفنون تتحلى بالذوق الجميل ، وهي لهذا تشاطر في تثقيف الجماهير ، وفي ربطها بصلة واحدة ، صلة تتفق في الاعجاب ، كما تتفق في الشعور وفي ذلك فضل اجتماعي مرجعه إلى الفنون الجميلة ، فضل تربية الذوق السليم ، وفضل توحيد الشعور بالاعجاب .

وإذا كان الانسان يقترب من الحيوان في حاجته إلى الأكل والشرب ، وفي تحفزه إلى الدفاع عن نفسه وعن أسرته ، وفي تطلعه إلى تكوين الجماعات ، فانه يرتفع بتفكيره وحده عن منزلة الحيوان . وأوصله هذا التفكير من جهة إلى العلوم ، فوضع لها أصولاً وقواعد لا يتفهمها إلا خاصة الناس ، ولا تدركها عامة الجماهير . وقاده تفكيره وخياله من جهة أخرى إلى الفنون يغير بها عن

الطبيعة ، أسبابها ومحركاتها ، بواطنها وظواهرها ، ويستعين فى هذا التعبير بالعقل والحس معاً ، ويصل إلى ما لم تصل إليه العلوم ، من إرضاء عقول الخاصة ، وتحريك شعور العامة .

فاذا كانت مظاهر الفن ضعيفة راكدة فى شعب من الشعوب ، فذلك لا يرجع إلا إلى أحد أمرين : إما أن شعور الجماهير فيه قد انحطت مداركها إلى درجة لا تطمح معها إلى ما يهزها ، ولا تحتاج إلى ما يحركها ؛ وإما أن الأفكار السامية فى هذا الشعب قد تضاءلت إلى درجة لا حاجة لها معها إلى التعبير والانتاج .

وهكذا يجمع الفن بين تمثيل الجماعة ، عامتها وخاصتها ، وبين التعبير عن الحياة ظواهرها وبواطنها . ولهذا لا نجد صورة نهضة أمة أوضح من تلك التى ترتسم فى فنونها ، ولا كيلا تزن به رقيها أدق من آثار فنونها . فلم تنهض أمة إلا كان الفن أساساً لنهضتها ، أو على الأقل ، لم تتم نهضتها إلا بنهوض فنونها .

الفنون الجميلة دعامة الحضارة ، ومرآة النهضة . هى مرآة نهضة قدماء المصريين ، وهى عنوان مجدهم وفخار عصورهم . فلا يذكر التاريخ مصر إلا تجلت ذكرى فنونها ، ولا يتحدث الناس عنها إلا تصدرت حديثهم عظمة مبانيها ، وإبداع ما خلدته آثارها من صور زاهية ، وتماثيل رائعة ، وتحف ثمينة . أما نيلها وصحراؤها وزرعها ، وأما ملوكها وحروبها وعلومها وآدابها ، فلا شك أنها محط أحاديث الناس ، وموضع إعجاب العالم ، ومرمى تمجيد المصريين ، ولكنها لا تبلغ فى كل هذا من قوة الحجة وبلغ الأثر ما بلغته فنون قدماء المصريين .

وهكذا فالآثار خير ما ينطق من وثائق التاريخ ، والفنون أصدق الشهود إجابة ، وأقواها ذا كرة ، وأفصحها تعبيراً . وهى تنقل من المدينيات أفضل ما فيها من ثمار الفكر ، وأعز ما ابتكرته قرائح العبقرية . وكأن الآثار أحياء تتحدث وتنطق بلغة حقلها شاسع لا حدود له ، لغة يفهمها الناس جميعاً ، لغة عالمية لأنها لغة الطبيعة .

والتاريخ يحدثنا عن الإغريق ، وعما احتلة الشعب الإغريقى فى العصور القديمة من مكانة سامية بين الشعوب ، وعما يدين له به العالم إلى يومنا هذا فى



تجبة الانسانية يقوم القنار القنكي بطرس بروجيل في لغة مائية يتقدمها الناس جميعاً

ميادين العلوم والفلسفة والآداب . ولكن لآثار الإغريق الفنية من الشهرة ولها من البيان ، ما لم يبد بمثل هذا الجلاء في غيرها من نواحي مدنيّتهم . ويحدثنا التاريخ عن عصر النهضة والاحياء ، وكيف بدأ العالم به مرحلة جديدة من حياته ، هي المرحلة التي تتصل عصورنا الحديثة بها . وإذا ذكر عصر الاحياء هذا بما شمله من نواحي النهضة الفكرية والعلمية والانسانية والاستكشافية والسياسية ، ذكرت نهضة الفنون في مقدمة كل هذا ، وذكرت أسماء ليوناردو وميكيل أنجلو ورفائلو في الصف الأول من مقدمة عظماء رجال هذا العصر .

حلقات المدينيات كلها ، ونهضات الشعوب جميعاً ، ناطقة بما للفنون الجميلة في حياة الأمم من قوة دافعة توجه هذه النهضة ، وتحيط تلك المدينيات بأطار تربطها على مر الزمان ، ويكسوها بلوح مصقول براق ، تنطبع فيه صورة نقية منها .

أحمد فكرى

قصة سلامان وأبسال^(١)

للشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا

(٨٣٧٥ - ٨٤٢٨ هـ)

٢ - تحليل شخصيات قصة سلامان وأبسال

« سلامان : إنسان من العارفين - أبسال : العقل النظري - زوجة سلامان : القوة البدنية - أخت زوجة سلامان : القوة العملية - الجيش : القوى الحسية والخيالية والوهمية - الطابخ والطاعم القوة الغضبية والقوة : الشهوية . »

قصتنا ذات بطل واحد ، عاش مرة على ظهر الأرض ، حينما تكيفت له ظروف وجوده - ما عثرنا له على أثر في أيونيا أو إيليا أو أثينا ؛ لأن الإله اليوناني ، كان إنسانيا بكل معنى الكلمة ، فلم تكن ثمة هوة تفصل بين الإنسان والله . وابتدأ جنينا في الأسكندرية ، ثم صار في عنقوانه في ظل المسيحية من جهة والاسلام من جهة أخرى . لقد عمر طويلا جدا ، وتضافرت الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، على إمداده بالحياة - والحق أن القوة الوحيدة التي استطاعت أن تصرعه هي الآلة ، بما أثارت من انقلاب في النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي . لقد ذهب سلامان إلى غير رجعة ، غير أن صورة صراعه الإرادي لن تذهب أبداً ؛ لأن إرادة الإنسان الحديث ، للقبض على زمام الوجود بأي معنى من معانيه ، لا تختلف عن إرادة سلامان ، إنسان العصور الوسطى ، إلا من حيث هدف الاتجاه . سنظل دائماً نحاول أن نقبض على شيء ليس في متناول أيدينا ، وهذا هو سر الإرادة ، أو سر الحياة عموماً .

كان رائد سلامان ، في هذا الطريق الوعر ، هو العقل . إن سلامان ماضٍ إلى الله الذي هو عقل محض ، وفكر خالص ؛ فلتكن الأداة التي تذهب

(١) الكاتب المصري عدد ١٦ (يناير ١٩٤٧) .

بسلامان إلى هذا الهدف ، من طبيعة الهدف . العقل النظرى هو المركب الملائم للوصول إلى مملكة الله ؛ فليفكر سلامان ، وليكن تفكيره في الدرجة العليا ، وما عليه من بأس إن هو تطور تطوراً طبيعياً مع درجات ذلك العقل ، فيبدأ بأن يتعود تزع الصور المجردة من المحسوسات المشخصة ، وهذه هي الدرجة الهولانية للعقل النظرى ، ثم تنظم هذه الصور على حسب المقولات الأولى العامة كالمبادئ المنطقية ، وهذه هي درجة العقل النظرى الذى يكون فيها بالملكة ؛ وإدراك هذه الصور المجردة ، بعد أن لاءمت بينها تلك المبادئ الأولى ، هو العقل النظرى في درجة العقل . كل ذلك طبعى في حركة إدراكنا للموجودات . ولكن لى ندرك الله ، لا بد من درجة أرقى من تلك الدرجات الآتفة ، درجة تكاد تكون لا إنسانية ، وهي درجة العقل المستفاد ؛ فالعقل النظرى في تلك الدرجة ، يكون على استعداد لتلقى الفيوضات الدينية . إنها على كل حال ، درجة من درجات العقل ، ولكنها غير معقولة . وهذا التناقض ، لا يسوغه إلا أمر واحد ، هو المواضع الفكرية التاريخية ، التى كثيراً ما أوجدت أشياء ليس لها وجود . من يدري ! كم في حضارتنا ذاتها من الموجودات التى ليس لها وجود !

هذا هو سلامان بعقله النظرى . والعقل وحده ملكة سكونية ، فهو يدرك فقط . ولكننا لى ندرك لا بد أن نريد الإدراك وتنزع إليه . وإرادة الإدراك ، غير الإدراك لأنها مبدأ محرك — فلا بد لى يقوم أبسال العقل النظرى بدوره ، من قوة تحرك هذا العقل . هذه القوة المحركة ، هي زوجة سلامان . والحق أن حركة العقل النظرى ، الناجمة عن تلك القوة ، ليست مباشرة ؛ لأنها في اتجاهها الطبيعى أمارة بالشهوة والغضب ؛ إنها في حقيقتها شديدة الشبه بمبدأ « الليبدو » عند فرويد ، ولكن العقل النظرى ، يتحرك بأن ينفر منها ، ويوجه طاقتها إلى الخير ، أى إلى ما يضاد طبيعتها . في كياننا تعيش تلك المرأة الفاجرة ، وهي ما تنفك تدفعنا إلى انتهاب الذات ، وتغرينا بعبادة الحب ، وتملأ الدنيا من حولنا بارتعاشات الشهوة ، ولكن ترويضها على الرغم من ذلك ، في حيز الامكان . إنها وإن كانت جزءاً من النفس الحيوانية ، فطاقاتها قابلة لأن تستقل فيما هو إنسانى بحت . وسلامان الذى عقد العزم على الرحلة إلى الله ، لا بد أن يعي قواه جميعاً . إنه يريد أن يعرف الحقيقة ، والحقيقة وراء الورا ، وبعد البعد ، ودونها طريق تكتنفه الأهوال والمخاطرات . وأبسال أخو سلامان ، سوف يقود

الركب ، وزوجة سلامان سوف تعوقه وتحاول تضليله ، ولكنه سيقاومها ، وسينتصر عليها ، ويمضى في طريقه تحدوه أمانى الكشف ، وتغريه لذة الفتوحات الروحية .

سلامان وزوجه وأخوه . أترانا — لو كنا من أشياع مدرسة التحليل النفسى — نستطيع أن نلاحظ في هؤلاء الثلاثة ، المكونات الرئيسية لعقدة أوديب ؟ أجل ! فسلامان يمثل الأب ، وزوجه تمثل الأم ، وأبسال يمثل الابن ، وسوف ينشأ الصراع الجنسي بين الابن والأم ، ولكنه لن يمضى إلى حالة يتحقق فيها حصول الابن على موضوع لذته الأولى ، وإلا كان ابن سينا يمثل حركة من الحركات النفسية الشاذة . سيخضع أبسال لمبدأ الواقع ، وينصرف إلى موضوع حب صحيح ، ذلك لأنه سيحب الحقيقة أو الله .

غير أن هذا الحب لن يستغرقه إلى الدرجة القصوى ، إن الحياة أيضاً في حاجة إلى جزء من هذا الحب . لقد عاش متصوفة كثيرون لم يعبأوا بأمر الأرض فتحققوا بالفقر والافتقار ، ومارسوا الزهد والتقشف ، ووصلوا في إضناء الجسد إلى درجة فوق الطاقة . أما سلامان ، إنسان ابن سينا ، فكان ما يزال معنياً بشؤون المجتمع والحياة ، ولذلك ركب فيه ابن سينا قوة خاصة بالعمل ، هي ما يرمز لها بأخت زوجة سلامان . هذه الأخت تمثل القوة العاملة إذن (ولها اعتبار بالقياس إلى القوة الحيوانية النزوعية ، واعتبار إلى القوة الحيوانية المتخيلة والمتوهمة ، واعتبار بالقياس إلى نفسها . من كتاب النجاة) ، ولقد نص الطوسى على تسميتها بالنفس المطمئنة ؛ ذلك لأنه لم يلق بالاً لتلك الاعتبارات الثلاثة ، وإنما قصر نفسه على الاعتبار الأخير ، وفيه تكون تلك القوة العاملة بالقياس إلى نفسها ، وخاضعة للعقل النظرى . ولكننا نلاحظ أن نص الطوسى غير صحيح ، لأنها في قصة ابن سينا سيكون لها كل تلك الاعتبارات — فلا سبيل إلى تسميتها بالنفس المطمئنة إلا في حالة ما تكون خاضعة للعقل النظرى . إنها بالاعتبار الأول تهى الإنسان لسرعة الانفعال كالخجل والحياء والضحك . وبالاختبار الثانى تستعمل في استنباط الصناعات الانسانية ، وبالاختبار الثالث ، تتولد فيما بينها وبين العقل النظرى ، تلك الآراء الذائعة المشهورة ، مثل إن الكذب قبيح والظلم قبيح . . . الخ . . .

تلك هي المهام التى أفرد ابن سينا لها قوة خاصة في النفس ؛ فقد كان ينظر إلى

سلامان ، من حيث أنه إنسان في حاجة إلى التدبير والتوازن الاجتماعي ، والعناية بشؤون الواقع ؛ وهو لاهتمامه بهذا الأمر ، جعل له قوة خاصة في النفس . إن ابن سينا ، والحق يقال ، معبر حقيقي عن روح الحضارة الإسلامية .

تلك هي الشخصيات الرئيسية في القصة ، أما الجيش فهو يمثل القوى الحسية والخيالية والوهمية ، وهي جميعاً من أقسام النفس الحيوانية . لقد عرفنا أن زوجة سلامان تعبر عن الجانب الإرادي النزوعي لتلك النفس ، أما الجيش فيمثل الجانب الإدراكي فيها ، فيحس أو يتخيل أو يتوهم . ولسوف يطول الأمر بنا ، إن نحن أخذنا في تحليل كل قوة من تلك القوى ، وموضوعها من الدماغ ، ووظيفتها الخاصة في الإدراك ، وإنما نكتفي هنا بأن نقول إنها جميعاً قوى تتضافر وتتفرع على الإدراك الحسي .

وهنا ينتهي تحليل شخصيات القصة ؛ لأن الطابع الذي يمثل القوة الغضبية ، والطاعم الذي يرمز للقوة الشهوية ، ليسا في حقيقة الأمر إلا القسمين اللذين تنقسم إليهما النفس الأمانة أو زوجة سلامان ، ولسنا ندرى على وجه الدقة لماذا أفرد لها ابن سينا دوراً خاصاً في القصة ، مع أنهما مضميران في زوجة سلامان ، ودوريهما مضميران في دورها . ولكن لعل ذلك كان لابرار أهمية هذه القوة بفروعها ، فلم يكتف ابن سينا بتمثيل القوة العامة ، وإنما مثل أيضاً فروعها الخاصة . فاللذة في الحقيقة هي المحور الذي تدور حوله كل قوى النفس الأخرى ، ولعل ابن سينا في ذلك غير شاذ ولا مبالغ .

ها نحن أولاء . قد استقصينا كل قوى النفس عند ابن سينا ، ما عدا النفس النباتية لأنها نفس غير ديناميكية ، فلا تصلح أن تكون فرداً من أفراد قصة تقوم على الحركة . ولعلنا لاحظنا — على الرغم من ذلك التحليل — أن النفس واحدة عند ابن سينا ؛ إن كل قوة يمكن أن ترد إلى التي فوقها ، حتى لا يبقى في نهاية الأمر إلا سلامان . . . الإنسان الحي النزاع المتحرك .

٣ — عمره قصة سلامان وأبسال

« . . . والنفوس البشرية إذا نالت الغبطة في حياتها الدنيا ، كان أجل أحوالها أن تكون عاشقة مشتاقة . » (إشارات) .

يقول ابن سينا : « إن قوى النفس لا تخلص عن علاقة الشوق ، اللهم إلا في الحياة الأخرى » . فأنت حي لأنك محب مشتاق ، وستظل حيا ما ظلت محباً مشتاقاً . والشوق يدفع ، ويجعل للحياة معنى بوساطة الحركة التي يغري بها ، ويحضر عليها . وسلامان مشتاق ، وسيمضي به الشوق رويداً رويداً ، إلى درجة العشق . . . والعشق عند شيخنا الرئيس ، هو الابتهاج بتصور حضرة ذات ما . فالعشق حالة ستاتيكية سكونية ؛ لأنه يكاد يكون نهاية الرحلة إلى الله — في حين أن الشوق حالة ديناميكية حركية من شأنها أن توالى الدفع والتحريك .

والآن نجد سلامان العارف ، قابلاً في عباءته الفضفاضة . ولعله أن يكون شاخصاً بصره إلى سماء غامضة . ومن يدرى أيضاً ! لعل بعض الموسيقى كان يطوف في المكان . إن اللحن كان دائماً وسيلة من وسائل الصوفية ، ومعيناً لهم على إدراك الحق ، والتحقق بالوجد والعشق . ولكننا لا نريد أن نقف أنفسنا على منظر سلامان . إنه من العارفين ، وهو موصى أن يتروّض حتى يصل إلى الحد الذي يعتريه فيه الوجد ، ويستبد به الوقت ، دون أن تظهر على وجهه دلائل الوقت أو الوجد . سنتسلل إذن إلى نفس سلامان . إنها مسرح كبير توافرت فيه كل صنوف الحركة ، وفي مكان بارز يسطع النور على امرأة . إنها فاجرة خليعة متهتكة ، وهي شهية لذيدة مغرية . . من يدرى ! لعلها أن تقوم ، وتمضي راقصة الردفين ، شماء الثديين . إنها زوجة ، ولكنها فاجرة ؛ فما عليها من بأس إن هي أغرت ذلك الشاب المليح أخت زوجها . إنها مشتاقة ، يكاد لهيب الشهوة أن يتفجر من جسدها ، فلقد أعدت العدة ، ونصبت الشرك للايقاع بهذا الشاب . قالت لزوجها : اخلطه بنا ، ودعه في بيتنا ، فنستفيد من علمه وأدبه ، ونقوم نحن على تنظيم حياته وقضاء حاجاته . وأذن الزوج ، وجاء بأخيه إلى بيته . فاذا بالزوجة تنهض ، تدفعها قوة الشوق لتحقيق لذتها . وإذا بها تقبل على أبسال ؛ وتظهر له مفاتن جسدها ، وتكشف له عن معين اللذة الذي يترقرق في لحمها الملتهب . ولكن أبسال يرتد ، بارادة بتارة حاسمة . إنه لن يتخلى عن أخيه العارف الذي يعلم عنه أنه في سفر شاق إلى الحقيقة البعيدة . إن (أول درجات العارفين ما يسمونه هم الارادة ، وهو ما يعتري المستبصر باليقين ، أو الساكن النفس إلى العقد الايمان في الرغبة في اعتلاق العروة

الوثقى ، فتحرك سره إلى القدس ، لينال من روح الاتصال ، فما دامت درجته هذه فهو مريد . (إشارات .)

ولو أتيح لنا أن ننظر في وجه سلامان ، في تلك اللحظات ، لرأيناه زاماً شفتيه ، مصلوب النظرات ، لاهث الأنفاس . لقد عقد العزم على اعتلاق العروة الوثقى . وهذه الحركة من غير شك ليست عشقاً ، كما قال الطوسي ، لأننا عرفنا العشق . إن تلك الحركة في الحقيقة نوع من شوق الإرادة الخيرة للنيل من روح الاتصال .

سلامان الآن مريد . ومن هنا ذهب يحقق واجبات المريد ، فراح ليخى ما دون الحق عن مستن إشاره ، ويخضع النفس الأماراة للنفس المطمئنة ، ويلطف سره للثبته .

ولنتسلل الآن مرة أخرى إلى نفس سلامان ، لنشهد مصرع الزوجة الفاجرة . أترانا نجدها مضرجة بدمائها ، وقد خمدت فيها جمرة الحياة ؟ كلا ! فانها لتجمع قواها جميعاً ، وتضم أعضائها ضماً ، وإنها لتستشعر في ذاتها الحياة موفورة دافقة ، فاذا بها تتلوى كالأفعى ، لتوقن أن الحياة ما زالت تدب في جسدها . وإنها لتنهض فجأة ، وفي عيناها يتألق بريق عجيب مخيف ، ثم تمضى ، وكأنما تريد أن تذيب الأشياء بنظراتها النارية . . . وهنا تلمح أختها عاكفة على نوع من التأمل ، وقد ملأت البراءة عينيها ، واكتسى وجهها بقناع من سذاجة الأطفال . وفجأة تلمع فكرة في رأس الزوجة الفاجرة . إنها تريد أن تنتقم ، ولسوف يكون انتقامها مروعاً هائلاً ، ولسوف تحطم كبرياء أبسال تحطياً ، وتنال منه كل ما تشاق إليه . فلتذهب إذن إلى زوجها تغريه بتزويجه أخاه من أختها . إن ذلك يجعله أوثق علاقة بالأسرة ، ويسبغ على وجوده معها شرعية مأمونة . وتعرض الأمر على أبسال ، فلا يمانع فيه ؛ فانه مع تلك الزوجة الصالحة التي تعنى كثيراً بشؤون المنزل والحياة ، يستطيع أن يبلغ حياة أكرم وأيسر . إن اتحاد العقل النظري ، بالقوة العملية ، من شأنه أن يجعل مصالح الواقع على خير حال .

ولكن الزوجة الفاجرة ، ما كانت لتدع الأمر يمضى في ذلك الطريق الخير . ففي ليلة الزفاف راحت في جنح الظلام تتسلل إلى فراش أختها . كان الظلام مخيماً ، والسكون جليلاً رهيباً ، وكانت زوجة سلامان في فراش أخيه تلهث ،

ويكاد جسدها يتصبب شهوة ولذة . لسوف يأتي الآن أبسال ؛ وسوف يظنها زوجه ، فيطلق نفسه وجسده ، يجوسان في أحضانها الدافئة . ها هو ذا أبسال مقدم بخطاه الوئيدة ، وقد أخذت قطع الأثاث تبرز في أنحاء الحجرة المظلمة ، وهو يتحسس طريقه بينها ، قاصداً مخدع العروس ؛ إن الشهوة فاعرة فاهما ينخلع له القلب رعباً وخوفاً .

أما سلامان القابع في عباءته الفضفاضة ، فيرتعد ويرتجف ويتصبب عرقاً . لقد راح يقدم على الشر ، ويخوض في الخطيئة ، وهو يخدع نفسه بأنه مقدم على الخير ، وواصل إلى الفضيلة . ما أكثر ما نرتكب الشر ، لأننا قنعناه بصورة الخير ! فان شارب الخمر يقول لك إنه يتداوى بها من آلامه . والخلاص من الألم حركة طبيعية ، ولكن الخلاص منه باغراقه في بحر من الخمر حركة خداعة ، فيها نوع من إضفاء الخير ، على ما هو شر ؛ هذا إلى ما في ذلك من استهتار بقيمة الألم ، وزرابة بجوهريته وأصالته ؛ إن سلامان يعاني مثل تلك الأزمة ، فان عقله النظري يكاد يهوى بين برائن القوة الشهوية ، وهو يخدع نفسه بأن ذلك حركة خيرة لا غبار عليها . إنه في حالة سراب روحى ، لعلها أن ترجع به تلك الخطوات التي بذل الجهد الجهد لقطعها في طريق الله . فتراه لذلك يرفع ذراعيه إلى السماء ، يطلب العون ، ويستدر الرحمة ، وهنا فقط تهلل أسارير وجهه بنور إلهي ، وتتألق على لحيته البيضاء أنوار قدسية . أجل ! لأن أبسال ، كان قد وصل إلى فراش عروسه ، وأوشك أن يهم بزوجة أخيه ، وكادت تلك الزوجة الفاجرة تنال مأربها وتشبع لذتها . لقد مدت إليه ذراعين عاريتين ، وأطلق لها هو جسداً مشتاقاً وحينما كان على حافة الهاوية انبلج برق لامع في ثنايا الغيم المظلم فأراه وجهها ، فارتد . لقد همت به وهم بها ، لولا أن ذكر برهان ربه ، فأثقت سلامان بخطفة إلهية سنحت له من جانب القدس . لقد رأينا سلامان وقد وصل إلى الدرجة الأولى من مقامات العارفين ، فكان ينحس مادون الحق عن مستن الايثار ، ويطوع النفس الأمانة للنفس المطمئنة ، ويلطف سره للتنبيه ، وهو الآن يصل إلى الدرجة الثانية ؛ فانه (إذا بلغت به الارادة والرياضة حدًا ما ، عنّت له خلصات من اطلاع نور الحق عليه ، لذيدة كأنها بروق تومض إليه ، ثم تحمد عنه ، وهو المسمى عندهم أوقاتاً)

وإذن فما يزال سلامان ، سائراً في طريقه السليم إلى الله . ولما كانت ذكرى الخطيئة التي كاد يتردى فيها ، تعذبه ، أخذ يسرى عن نفسه ، فحشد جيش الحواس ، وذهب يغزو مملكة الأرض ، ويدبر شأنها ، ويقيم ما اعوج من أمرها . فهو بعقله النظري يستشرف السماء ، وحينما يخضع الحواس لنفسه العاملة ، وهي النفس المطمئنة لأنها خاضعة بدورها للعقل النظري ، يستطيع أن يدبر الأرض ، فالقوة النظرية إذن ، هي ملكة تفتح السماء والأرض جميعاً ، وتخضع الشرق والغرب كليهما ؛ فلا بأس أن يشبهها ابن سينا بذى القرنين الذي ملك الخاقين .

ولسنا نريد أن نفصل الأمر مرة أخرى ، في عودة الزوجة الفاجرة لاغراء أبسال ، فانها حركة شبيهة بالحركة الآنفة تماماً ، ولكن ذلك لا يسوغ عدم ذكر الطومى لها . إن تلك العودة هامة للغاية ؛ لأنها تبين لنا إلى أى مدى كان ابن سينا يدرك القوة الشهوية التي تحتاج الانسان ، وهي من ناحية أخرى ، تتيح فرصة جديدة ، ليترقى سلامان ، بارتداد أبسال عن تلك المرأة ، في سلم العارفين درجة أخرى .

وعلى أثر هذه الحركة الثالثة ، يعلم سلامان أن القوة الشهوية ما زالت تعيش ، فيقسو على نفسه في الرياضة ، ويخضع جسده لكل صنوف الحرمان . إن الناظر إلى سلامان الآن يراه وقد هام على وجهه ، نحيلاً هزيراً ، قد نضا جسده ، وكان يتجرد منه . إنه ولهان مشبوب ، والسماء من فوقه تنزاح عنها الغيوم قليلاً قليلاً ، وهو ما ينفك يصوب إليها بصره وبصيرته ، يريد أن يكشف السر ، ويطلع على المكنون ، ويهتك حجاب المجهول . إن الفلسفة ، كما يقول أفلاطون ، هي ممارسة الموت . إن الذي يصل إلى قمة الحياة ، يشرف على هاوية المات . ولقد ذهب سلامان يمارس الموت فعلاً ، ولكن الموت الذي كان يعانيه إنما هو موت الجسد ، والبقاء بالله يكون بالفناء بالجسد ؛ ذهب لا الألم يثنيه ، ولا بعد الغاية يوثسه ويضنيه ، بل مضى وهو الانسان العاقل ، يريد أن يحصل على اللامعقول ، والحق أنه لم يكن عاقلاً بكل معنى الكلمة . وكيف يكون عاقلاً وقد تعطلت حواسه ، وخمدت شهوته ، واندثرت قواه العملية ؛ بل إن قوته النظرية ، تكاد تكون هي أيضاً قد توقفت . هنا فقط ، يسقط الصوفي الذي يعشق الله ، يسقط إعياء وهياماً . . . فاذا بمرضعة من حيوانات الوحش ، تبرز من بعيد ، وتهرع إليه ، وتدر بين شفثيه شراباً شهياً ، لعله أن

يكون من خمرة الألوهية . إنسان ابن سينا الآن مهزول البدن ، ولكنه مبتهج الروح ، بل هو مبتهج الروح لأنه مهزول البدن ، وهو خالص للنيل والاتصال ؛ فان فيض الكمال عليه الذي يمثله ما درت عليه تلك المرضعة من شراب ، يدل على أنه قد انتقل من مرتبة الرياضة ، حيث كان مريداً ، إلى مرتبة النيل ، (فصار سره مرآة مجلوة ، ودرت عليه اللذات العلا ، وحينئذ يفرج بنفسه لما بها من أثر الحق ، وكان له نظر إلى الحق ، ونظر إلى نفسه ، وكان بعد متردداً . إشارات .)

أترى سلامان قد وصل ؟ لا ! فما زال له نظر إلى نفسه ونظر إلى الحق . والمحجوب يأبى أن يكون له شريك ، وألا يؤثر وحده بالحب . وعاشق الله ، هو عاشق الوجود ، والوجود هو الكل . فلا بد لسلامان من أن يمضي خطوة بعد ذلك ، فيكون نظره إلى نفسه ، لا من حيث هي نفس ، ولكن من حيث هي عاشقة ، وحينئذ لا يكون ثمة شيء إلا الله . وهنا تتحقق الوحدة ، لا تقول وحدة الوجود ، كما قال ابن عربي ، بل وحدة الشهود كما قال ابن الفارض .

ولكن سلامان ، على كل حال ، لم يكن من المتصوفين ، بل كان من العارفين ، والعارف عند ابن سينا ، تقوم حياته أصلاً على العقل والتأمل ، لا على العاطفة والارادة ، كما تقوم حياة الصوفية الخالص . والعقل معتدل متزن ، يقبل الحلول الوسطى ؛ ولذلك أخذ سلامان ، وقد رأى حاله من اضطراب في شؤونه الدنيوية ، وتعطيل لبقية قواه النفسية . أخذ يعنى بتلك القوى من جديد ، وعاد ينظم حال رعيته ، ويصلح ما اختل من أمرها .

في سلامان الآن عقل نظري نهكه طول التأمل ، وأضناه الصراع الطويل مع القوى الشهوية ، وبرَّح به العشق ، وأضعفه مرور الزمن . أو ليست هذه فرصة لأن تكيد له النفس الأمارة من جديد ؟ إنها ضربة أخيرة ويقضى على أبسال العنيد المتكبر ، وتنتصر الزوجة الفاجرة ، وتحقق الأمنية التي عاشت طوال حياتها تحاول تحقيقها . إنها لن تلجأ في هذه المرة إلى أختها ، ولن تذهب بنفسها ، وإنما ستلجأ إلى أشد الناس ولاء لها ، وهما الطابخ والطاعم . وما كانت في حاجة إلى أن تغريهما أو تمنيهما ؛ إنهما رهن إشارتها وطوع أمرها ؛ فما هي إلا أن تأمر حتى يذعنا لأمرها . وقد أمرتهما فعلاً بدس السم لأبسال ، لقد تعرض

سلامان لمؤامرة نفسية أخرى . أترأه يهوى إلى الخطيئة بعد أن فر منها مراراً ، ووصل في مقامات العارفين إلى درجة النيل ؟ أترى كان ابن سينا من التشاؤم بحيث يجعل كل هذا الجهاد والصراع يذهبان عبثاً ، فيموت الانسان ، وهو مكبل بأغلال الخطيئة ؟ قال الطوسي في شرحه للقصة ، باضمحلال أبسال نتيجة للسم الذي دسته له الزوجة بمعاونة الطابخ والطاعم . وسيكون آخر عهدنا بسلامان ، وجهاً مربداً ، وقبضتين تهددان السماء ، وقدمين تغوصان في مستنقع من اللحم والدم !

كلا ! ما كان ابن سينا ليجرؤ على إنهاء القصة بتلك المأساة المروعة . إن خطة القصة موضوعة من قبل في مقامات العارفين ، وإن السير الطبيعي لبطل القصة لينأى به عن تلك الخاتمة . لقد اضطرب الطوسي هنا ، وحسب أن الزمان محطم لكل شئ ، حتى القوة النظرية ، مع أن هذا يتعارض مع مذهب ابن سينا في النفس عامة . لقد بلغ العقل النظري في درجة ترقيه ، إلى أن أصبح عقلاً مستفاداً ، تشرق عليه المعقولات المحضة من العقل الفعال . وهو لأجل ذلك يصبح شبيهاً بذلك العقل الذي رمز له بحى بن يقظان . وحى بن يقظان لا يموت أبداً ، ولا يضمحل البتة . إنه (في طراوة العز ، لم يهن منه عظم ، ولا تضعضع له ركن ، وما عليه من المشيب ، إلا رواء من يشيب — في أسرار الحكمة المشرقية) . لقد كان العقل النظري الانساني ، دائم الشوق إلى ينبوع الشباب ، حيث الحسن حجاب الحسن ، والنور حجاب النور ، وحيث توجد إمكانية الخلود . إن حى بن يقظان هو الذى يفيض على أبسال العلم والخير والكمال ، وعنده ينبوع الشباب . فهل يدرك الهرم أبسالاً فقتله الشهوات ، وقد كاد يمرق إلى الدرجة الأخيرة من درجات العارفين ؟ وقصيدة النفس لابن سينا ، تقول بما لا يدع مجالاً للشك ، إن النفس في جزئها النظري ، خالدة ، لا تندثر ولا تضمحل . ولذلك فإن النفس الأمارة ، بتآمرها مع القوتين الشهوية والغضبية ، على دس السم لأبسال ، لا تعنى إلا أن ابن سينا قد قدم بهذه الحركة السلبية الأخيرة ، ليتمكن من عرض الحركة الإيجابية الأخيرة . وإذن فلن يكون آخر عهدنا بسلامان ، تلك الصورة التى تكشف عنه ساقطاً في حمأة الرذيلة ، وإنما ستكون صورة أشبه بصورته ، حينما كاد عقله النظري : أبسال ، يخضع للزوجة المفاجرة في ليلة العرس . وهنا يذهب سلامان يستوحى ربه ، ويستدر نوراً

يكشف له عن حقيقة تلك المؤامرة الجديدة . وهنا أيضاً ينكشف له الحق ، ويتضح له الأمر . يدرك سلامان بوحى من الله ، أنه كان مسوقاً إلى الشر ، وأنه يجب أن يتخلص نهائياً من حواسه ، فلا يلبث أن يقضى عليها قضاء مبرماً . ومجرد الاستيحاء دليل على أن النفس النظرية ، ما تزال تعمل فى منتهى قوتها ؛ لأن هذا الاستيحاء الإرادى هو درجة سامية من مقامات العارفين . لقد كانت معارفة الحق تعنّ له أحياناً ، أما وقد صارت تعن له متى شاء ، فتلك درجة سامية من درجات المعرفة الفيضية .

لقد تركنا سلامان ، فى مرتبة النيل ، يتردد بين نفسه وبين جناب القدس . أما بعد أن هزم النفس الأمارّة هزيمة لا رجاء بعدها ، فلا بد أنه (يغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس ، وإن لحظ نفسه ، فمن حيث هى لحظة ، لا من حيث هى بزيتها ، وهناك يحق له الوصول . إشارات .)

لقد هجر سلامان حواسه وقوته الغضبية والشهوية ، وفوض لغيره أمر ملكه ، أي إنه هجر استخدام قوته العاملة أيضاً ، وفرغ هو بكل قوته النظرية للوصول الذى أصبح حقاً له . أترأه وصل ؟ من يدري !

إن التحقق التام بالله على هذه الأرض غير ممكن . وقد يماً أخبرنا الحلاج بأن الفراشات ، طفقت تحوم حول المصباح إلى الصباح ، وعاد بعضها يتجبر عن نوره ، وعاد بعضها الآخر يخبر عن حرارته ، وبعضها الآخر ، ما عاد ، ولا أخبر بشئ ؛ لأنه احترق فى النور .

ما كان سلامان ، إنسان العصور الوسطى ، يعلم أن الكواكب من تراب ، وأن السماء من غازات ، وأن فكرة الله من خلقه وإبداعه . ولكن ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن إرادته الطامحة ، جديرة بالاعجاب ، لأنها إرادة حققت إمكانيتها ، وتحققت بأصالتها وطبيعتها ، فأرادت كل شئ حتى اللامعقول ، أو بالأحرى اللاموجود .

من ههنا وههنا

أنستاس ماري الكرملي

[الدنيا كلها ظلمة إلا مجالس العلماء]
للحسن البصري

للمعاصرين بلغ إليه . وقد اتفق لي الحين به .
الحين أن أتناقشه في هذا الباب فداني على أسرر
ونتهى إلى دقائق . وكان أسلوبه محكاً متيناً
سليماً ، إلا أن رهافة الأديب للنشئ كانت تزايل
قلبه أحياناً . وأما علمه فكان غاية في الرسوخ ،
ألا ترى إلى تحريره النصوص المطوية مثل
الجزء الثامن من « الاكليل » للمهداني
(بغداد سنة ١٩٣١) ومثل الكتب الأربعة
التي جمعها في « النقود العربية وعلم النيات »
(القاهرة ١٩٣٩) ومثل « نخب الدخائر في
أحوال الجواهر » لابن الاكفاني (القاهرة
١٩٣٩) . وكان إلى جنب التنقيب والتحقيق
قبحاً في أوضاع اللغة وصيغها وتراكيبها .
وحسبه دليلاً على ذلك كتابه الفريد النافع
« أغلاط اللغويين الأقدمين » (بغداد
١٩٣٣) ، فلا يقدم على معالجة مثله سوى إمام .
ومما أخرج الكرملي فوق هذا عدد وافر
من المباحث والمقالات في موضوعات شتى
يتقدمها الحيوان والنبات ، نشرت في مجلته
« لغة العرب » و « الشرق » و « المقتطف »
و « مجلة المجمع العلمي العربي » بدمشق ،
و « مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية » وذلك
إلى جنب الصحف السيارة مثل « الأهرام » .
وتمتاز هذه المباحث والمقالات بالطراقة والمثانة
مع سعة الاطلاع وإن اتفق أن يجري فيها
الاشتقاق مجرى قد يكون مستغرباً .
وكل ما أذاعه الكرملي للناس إنما يعنى

هذا راحل ثالث أشيعه في هذا المكان ولم
تض سنة . هل أدع الفطنة في اتقاد والعلم
في مكنة والسعي في جد يذهين ولا أنحسر ولا
أتأوى ؟

شيخ أسبل اللحية على هواها ، فانتشرت
وكشفت وطوقت أسفل الوجه بهيبة ذكرتني
أول ما أخذت عيني بالجلال الذي يحف أولئك
الآباء الموصوفين في التوراة للصوريين في
الكتب للمسيحية الشرقية . وكان يزيد في تلك
الهيئة ثوب الرهبان الكرمليين على سذاجته
وفضفته . وكان الأب الكرملي - رحمه الله -
مع جلاله وادع النفس ، حلو للعشر ، لطيف
الإشارة ، كثير التندر ، إلا إذا وثب إليه
غامر أو غاظه منازع ، فقرأه كأنه الفارس
الذي ما ترك لونا من ألوان السلاح إلا شده
إلى جنبه ، فهو الضارب الرامي والطاعن
القاذف . ولا تهدأ له يد حتى يسقط خصمه
وحجته مقولة :

ولعل هذا البأس انحدر إلى طبعه ، فغلب
على حاله ، من جيلة أجداده وهم أهل جبل ،
أشداء . فقد ولد الكرملي سنة ١٨٨٦ في
بكفيا من قرى لبنان ، في بيت لامع . ثم هبط
به أبوه إلى العراق ، فأقام هناك وترهب ،
وتلقى علوم الدين في بلجيكة خاصة .

انقطع الكرملي لبقته الكريمة ، فأكب
على درسها حتى حذقها أي حذق . وقد صارت
بصارتته بعتن اللغة إلى حد ما أعرف أحداً من

إلى تكريم اللغة العربية وتعزيزها وتكثيرها
وتدبيرها أحسن تدبير. ذلك فضل عظيم ، وقد
عرفه ذووه يوم أوفدت بغداد الكريمة هذا
الزاهد ، بلحيته وثوبه ونعله إلى مصر ليجلس
عن علماء العراق كافة في مجمع اللغة العربية .
ولن أنسى استنكار بعضهم لقدم الرجل ،
وفي أنفهم ظلمة ظالمة .

في ذمة أليك الذي في السماء أيها الشيخ
الصالح ! سميت فنغت وزهدت فظفرت .
ولعل ما خلفت من نقائس مطوية أو منتثرة

ينشرها ناشر ممن يعرف فضلك ويحب لغتك ،
أو يجمعها جامع من تلامذتك وفيهم نفر من
أعلام بغداد : فقد كنت حدثني فيما حدثني
عن معجيك الوافي واسمه « المساعد » . وأما
مخطوطاتك ومطبوعاتك ففي العراق أو في
مصر من يقدرها فيحفظها إن شاء الله . . .
فألى رحمة ربك يا من جعل لي من نفسه موضعاً
وآثرني بمطفه وإن قطع ما بيني وبينه آخر
أيامه ، فحزنتي مرضه . . . يسر العلي لك طريق
أنسه !

بشر فارس

خطاب إلى الطفل الناشئ في القرية

إني جاوزت جانب البحر ذات نهار ، وحال
بينى وبينك للموج . . . وجاوزت وسط الحياة
ذات نهار ، وحال بينى وبينك النهار والليل ،
ولكن سبل الذكر لم تنقطع بينى وبينك . . .
في ما تسمع الأرض من نبا أثر من الحديث
وظلال من المودة تجمع الشقيتين . والفكر
الدائم الدائب يسرى بك إلى الأرض التي تحملني ،
وأرتد إليك بقاي من أمل ومن إشفاق ،
واعتر بما حملتني من رجاء يوم يتزل بي الكلال ،
وتأفل في ليل الأعياء نجوم سيلي . . . والتي
لم تملك حيلة من المقادير والبعد ولم يوصد قلبها
عن الدعاء والذكر ، عرفت أن خير ما ينفع
المحب رجاء ، فأجابت حديث ذكرى بدعاء :

« ألا فلينع عليك الله بضياء ينير سبيلك
وبأمل يدفعك إذا هبط عزمك
وبكل سعادة نزلت بقلب . . .

ولا يدرك الذكر والأمل والحكمة بصروهي
التي يسرت كل امرئ إلى قدره .
ولم أبصر فيما تحدثني من هذه الديار
أثراً سعادته إلا انسان حيناً من الدهر ،
حتى حدثتني النفس أن آتيك به أو بأحسن منه .
ولم أمعن فيما علمت الحكمة من آثار سعد بها
الأحياء زماناً حتى أعددتها ذخراً أقدمه
إليك . . . وكأن كل ما أسمع أحمله إليك . . .
وما كان ذلك أدباً ولا كذباً من القول ،
وإنما هي فطرة ركبت في خلق الأحياء . . .
وأنا أكاد أومن أن في الإنسانية أواصر
وقرابة وأرحاماً لا تنقطع ، حتى يجمد الانسان
ما خلق الله . أو يرضى الانسان لنفسه
الشقاء . . . وللأرض التي نلت منها كل حي
رحم وقرابة .

وما ينكر منك نعمة هذه الشجرة التي ترى
والتي تهتر أغصانها من النسيم ، وينفرد في
أحضانها الطير . . . وتسكن من حولها الأغنام
والأنعام . عند هذه الشجرة يهبط فكري ،
فأرى شيوخكم يتحدثون بما حفظوا من أسرار
الحياة . . . وهل أباحت الحياة سرها لأحد !

عرفت عند مرافق الحياة أن وراء النفس
إن آمنت به النفس ذكر جميل ، وأمل يرسله
إليك في مجاهل الحياة قلب سليم ، وحكمة تهتدي
بصيرتها عند الذي تلقى من الأحداث . . .

ومن يعجل به الحرمان صيباً إلى آفات المصانع
يفسد ترابها رثية . . . ومن لا يعصمه
منكم حاصم فيهم طفلاً في كل سبيل . . . ومن
تدركه هائماً جائئاً آفات الفساد كان إنمياً
ارتكبه الجماعة . ربما تهذبك الجماعة إن
اضطربت موازينك بالسجون . . . وحينئذ
يحق لك أن تذكر ضمير الجماعة بقول العرجي:

أضاعوني وأى فتي أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثمر

فانك ثروة إن تولت قدرها أمة رشيدة
جعلت منك طيباً وخطيباً ومعلماً وجندياً
ورجلاً سعيداً ، وباهت بعقلك وجمالك الأمم .
وكم من أمة تمنى لو كنت من أبنائها ، وإذن
لآمتك خيراً وفضلاً كبيراً . فلا قرانك في بلاد
أخرى حداثاً أطفال . وسنت لأقرانك
قوانين تحميهم من الجهل والفساد وانفاقة .
ولأقرانك تنافس المتنافسون من الفلاسفة
والحاكين ، وانصرفت إليهم أمم بكل آمالها .
ولأقرانك في الأساطير قديماً نزل أبولون
إلى الأرض ومكث راعياً بين الرعاة ، وكانوا
قبلئذ جاهلين فطربوا بنائه وعلمهم جمال
الزهر ودورة الفصول وما حولهم من
آيات الطبيعة ، فأخذ الرعاة يفنه ، فانقلب
كل كوخ موثلاً للسعادة والفن والفرح ،
واستأثرت بعدها هذه الأكواخ بما عز على
قصور الأغنياء .

إنني أخاف عليك من حياة هذه المدينة
التي لم يسعد بها قومها ، والتي زودت الانسان
بقوى فني بها الانسان ، وأمست المحبة كلمة
يتحدث بها كتاب ، وأغنت الصناعة الانسان
عن الانسان ، وقطعت الأرحام ، وحجزت
الانسان في حجازها ، وجعلت القرابة بين
الناس قرابة رياضية بحساب ، وأمست هذه
المخترعات أمة في كل بيت ، وأمة في كل
طريق ، وأمة في كل عقل . . . وأمة تسمى

ومنذ غدوت من أهلي أسأل عن ضميرها
كل كتاب فلم يفن الكتاب شيئاً ، وركبت
لمرقتها كل صعب فلم أجد على الأرض غنى . . .
وحسبت حين حملني المقدور إلى ما أجهل أن
أسارع إليك بما أجد من سعادة وهدى .
لا سبيل إلى أن أحدثك عن ضمير الحياة ،
فإن حدثك به أحد فقد عرف شيئاً وغابت
عنه أشياء وسيبقى إليك ببعض العلم هذا
الكتاب الذي تنشر صحفه على الأحياء كل نهار ،
والذي يتلقاه الأحياء سجوداً في مشرق
الشمس وسجوداً في غروبها . وسيبقى إليك
بعض العلم نجوم الليل ونور النهار ، وتقضى
إليك الأرض ببعض العلم حين تأخذ زيتتها
وحين تتجرد . ويفضى إليك ببعض العلم يقظة
الصبح ونوم المساء . . . ومنذ دبت على
الأرض دابة نشر ذلك الكتاب على الناس
ولم يقرأ الناس إلا ظاهراً لم تتجاوزهم عقولهم ،
وآمنوا أن من وراء ذلك يدأ استمسكت
بهذا الضمير لا تسلمه لأحد . . .

وما يملك أحد أن يتعنى لك أمنية أسعد
من أن تقرأ الطبيعة عليك كتابها كل يوم ،
فتعقل آثارها إلهاماً ووضوحاً وأنت سليم . . .
وإذن لقرأت جمالا ودينا وحكمة ، وآمنت إذا
اكتسبت فضيلة العمل والوفاء بما آمن به
المصالحون الذين لم يقرأوا حياتهم سوى حديث
الزهر والماء والانعام ولم تجعل السماء آمالهم
سوى الخير . فكانوا في حياتهم رجالاً عادلين
يتقون الله ، فأثبتت لهم الأرض نباتاً طيباً ،
وحمل لهم الشجر ثمراً شهياً ، ورعى لهم البحر
بخييره ، وأحاطت بهم ذرية سعيدة طيبة .

فهل من سبيل إلى أن تعصم طفولتك من
آفات الحياة . . . إنه لا يحمل لأمة أنبتك وأن
تتسال صيباً وأنت أعز ما تملك الأمم . . .
ومن يعجل به الفقر منكم فينتقي من الأرض التي
حملته ليعخدم كالعبد في منازل الأغنياء .
ولا يفرس الأرض ولا يقرأ كتابها . . .

حر الشمس وبين يدي للاء والزهري ، وتنمو
أجسامهم بالرياضة ، وعقولهم بالحكمة ،
وتتغذى نفوسهم بالقول الحكيم الرصين من
الشعر ، وتسو للموسيقى بعزمهم وآملهم .
ويتعلمون أن غاية السعادة الفضيلة ، وأن
الفضيلة سعادة في نفسها ، وأن كل شرف فهو
خير ، وكل عار فهو شر ، وما بينهما أحداث
لا يقيم لها الانسان وزناً .

إني أخاف عليك ، بعد الآفات والجهل ،
أن يهلك الدين دأبوا بدين الأمة والدين
يملكون البطالة والفراغ ، وما مرتع خصب
لسائر العمل . . . إنهم لا يرون ولا يستطيعون
أن يقيّموا آثار أعمالهم . . . فهم لو يعلمون
سيلا إلى سعادة الأرواح والآبدان . . .
وما فعلوا إلا أن عطلوا هذه اللواحب الفطرية ،
ليجعلوا من الأحياء مرتزقة لا تنزع آمالهم
لشيء لا يعد من دور الحكومة ليعيشوا
بين جذرها عيش البطالة والفراغ . وإذا
خرجوا من فراع أعمالهم لاذوا بفراغ القهوة
وكأن من فتح مدرسة فقد فتح قهوة .
وخسرت الأمة بذلك من أعدتهم لسعادتها ،
وخسر هؤلاء سعادتهم . . .

إني أتمنى لك زماناً تبرا فيه الأرض ومن
عليها من الفساد والبنى والجهل ، وأن يعلم
الناس أنك سيد الأرض التي أنبتك ون
تتولى إليك عقول هذه الأرض جيماً وآمال
هذه الأرض جيماً .

على ما فظ

في الأرض وتجري في السماء . وتعتدى هذه
الأمة على الأبرياء ، وتكذب كما تكذب
الأماء ، وتخدع كما تخدع الأماء ، وتتقم
انتقام الأماء ، وأملت على الانسانية سياسة
الأماء .

وقد حسب الانسان يوماً أنه سيد هذه
الأمة يسخرها كما يشاء ، وتطيعه إن هدم بها
ملكاً أو غزا بها أرضاً ، وتمتع بها دهرأ
متاع الغرور . ثم تنكرت هذه الأمة لسيدتها
ذات نهاراً فأكلتها ، ولم تفرق بين صديق وعدو ،
وحجرت الانسان هلعاً في بطون الأرض .

وهذه الأمة تزين للانسان بزينة ظاهرة
من أدب ظاهر ، وحديث مصطنع ظاهر ،
واختارت ثراء المال وأمسى ما آمن به
الأولون حديث خرافة . ستسمع يوم تعقل
قبل أن تبرح الأرض شيواً يذكر المروءة
والدين والعدل والاحسان . ولا تعرف
مدنية الصناعة من هذه الفضائل إلا ما تحدث
به الكتب ، ولا يتحدث بهذه الفضائل ساسة
هذه المدينة إلا حين يريدون أن يحلوا حراماً
أو يحرموا حلالاً .

وسيكفر الانسان بما آمن به حيناً ، ويفر
بنفسه إلى الدين والفضائل الأولى ، وإلى
الحرف والنسل ويختار سعادة الخير . وقد
عرف الأولون سبيل هذا الخير في تعليمهم . . .
إنما هي حديقة يزرعها الحكيم وتلاميذه في

شهرات

شهرية السياسة الدولية

إذ ينتخب رئيسها الجديد ، او تتخذ إجراءات انتخابية ولما تصف الخلافات الجدية القائمة بين الأحزاب ، وفي ركننا المحدود تتطور الأحوال في فلسطين نحو الحل الذي يراود فرضه على الجانبين ، وتوسع شقة الخلاف بين إنجلترا ومصر على كيان السودان وطبيعة التحالف ، وفي برقة وطرابلس وسائر بلاد المغرب شكوى من نظام الاستعمار ومطالبة بالسيادة والاستقلال ، وفي أميركا البعيدة عن هذا العالم القديم يحل فريق من أصحاب للمكانة السياسية إلى تأليف حزب جديد يقسم الميادين مع الجمهوريين والديمقراطيين .

وذلك كله من دلالات القلق القاطنة . وقد جاءت الحوادث الأخيرة تزيد من مضاعفاتها ، إذ طلبت حكومة إيران من الاتحاد السوفييتي تسليم بعض زعماء الحركة الأذربيجانية الذين قصدوا إلى أراضيهم ، فرفض الاتحاد السوفييتي طلب الحكومة الإيرانية لأنه يعتبر أولئك الزعماء لاجئين سياسيين ، ولا يوجد بين إيران والاتحاد السوفييتي معاهدة تسليم اللاجئين ، وتريد حكومة طهران أن تعتبر الزعماء الذين تطلبهم مجرمين عاديين ، إذ قاموا في نظرها بأعمال قتل ونهب واغتصاب أموال من أهل أذربيجان .

كذلك ضاعفت الأحوال الداخلية في الولايات المتحدة اضطرابات فكرية وقت مناسبة الاجتماع الأول لمجلس الكونغرس الجديد ، وهو الذي أسفرت الانتخابات الأخيرة عن كثرة جمهورية فيه بعد أن كانت كثرة السابقة ديمقراطية فدا هذا

« لا يزال العالم في قلق رغم الجهود المبذولة في سبيل استقراره . » هذه هي العبارة التي نستطيع أن نقب بها على حوادث العالم في الشهر المنقضى : ففي الصين مظاهرات تنادي بخروج الأميركيين ، وفي الهند الصينية ملحمة بين قواتها الوطنية وجيش الاحتلال الفرنسي ، وفي أندونيسيا استئناف للمقاتلة بين أهلها والهولنديين ، وفي الهند نزاع على أشده بين الهندوكيين والمسلمين ، وفي إيران اتساع لمسافة الخلاف المسلح بين حكومة طهران المركزية ونظام أذربيجان للمعترف بذاتيته منذ وقت قريب ، وفي العراق مشادة بين الأحزاب حول حرية الانتخاب ، وفي سوريا ولبنان وشرق الأردن عدم انسجام في الرأي بصدد « سوريا الكبرى » والعلاقة مع تركيا ، وفي تركيا بالذات مقاومة لحركات حزبية متهمه بالاتجاه شطر الاتحاد السوفييتي واليسار ، وفي اليونان حرب أهلية سافرة تذكر ظروفها بالحرب الأهلية الأسبانية الأخيرة من ناحية موضوع الخلاف الداخلي ومن ناحية انقسام التأيد الخارجي أيضا ، وسائر بلاد البلقانات محل اتهام من ناحية الانجليز والأميريكانيان إذ يحتجون بمذكرات على عدم حرية الانتخاب في بلغاريا ورومانيا وعلى مواقف معادية في ألبانيا ، وكذلك الموقف من بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ، وفي إيطاليا حيث كان أهلها ينتظرون جلاء قوات الاحتلال هذه السنة يعلن أن هذا الاحتلال مستمر فيها إلى سنة ١٩٤٩ ، وفي فرنسا يبدأ باللكاد عند كتابة هذه السطور عهد الجمهورية الرابعة

انوضع إلى شيء من الشذوذ ، إذ لا يزال الرئيس ترومان هو المتولى الحكم في الولايات المتحدة ، وهو ديمقراطي الحزبية ، وهو مطالب بأن يحكم مع كثرة جمهورية مناوئة لحزبه . وتوقع المراقبون أن تحدث أزمات عنيفة بين السلطة التنفيذية ومجلس الكونجرس وأن يقف هذا الأخير حجر عثرة في سبيل كل مشروع يقدمه الوزراء حتى يضطروا إلى الاستقالة واحدا بعد الآخر . فإذا جاءت انتخابات الرئاسة في أول عام ١٩٤٨ لم يكن في الوزارة غير قلة من الحزب الجمهوري . وقد بدأ شيء مما توقع المراقبون ، إذ استقال وزير الخارجية مستر بيرنز الذي أدى خلافه مع وزير التجارة مستر والاس إلى استقالته ، ومستر والاس هو الساعي الآن إلى تأليف الحزب الثالث الجديد .

ولحق غبار بصفاء العلاقات بين فرنسا من ناحية وانجلترا والولايات المتحدة من ناحية أخرى على أثر الخلاف الذي قام حول انفراد الدولتين الانجلوسكسونيتين باستثمار بعض آبار البترول في العربية السعودية ، وزعم فرنسا أن اتفاقية استثمار بترول العراق تنص على مساهمة فرنسا معها في استثمار جميع الآبار الواقعة في الأراضي التي كانت جزءا من الدولة العثمانية قبل قيام الحرب العالمية الأولى ، وأراضي العربية السعودية من تلك الأراضي . وذهب الخلاف إلى حد الاتجاه إلى عرضه على القضاء .

على أن ذلك القلق البادى في هذه اللوحة اننى رسمناها لمواقف العالم خلال الشهر المنقضى يقابله مجهود يبذل في سبيل الاستقرار ، وقد صدر أكثره عن هيئة الأمم المتحدة وعن اجتماعات وزراء الخارجية للدول الأربع العظمى ، كما صدر عن إجراءات داخلية في الولايات المتحدة ومجاملات متبادل بين ممثلي الجيش البريتاني والسوفييتي ، وعن مساع يبذلها رئيس

الحكومة الفرنسية في لندن بالذات . وكان من شأن اجتماعات وزراء الخارجية أن مهد السبيل لكثير من المشاكل وأصبح من المأمول أن يستند اجتماعهم بموسكو في شهر مارس المقبل في جو أبقى من الأجواء التي عقدت فيها اجتماعاتهم حتى اليوم ، وأن تتقارب وجهات النظر إلى المسألة الألمانية بحيث يوقع الصلح مع ألمانيا خلال هذا العام للبتي . وكان من شأن عناية هيئة الأمم المتحدة أن تقرر إرسال لجنة تحقيق إلى اليونان تسيطر اللثام عما يقال من أن مساعدات جديدة تقدم للثوار اليونانيين من جانب الأقاليم البلغارية واليوغوسلافية للثأمة . فقد أذيع أن الثوار استعدادا للتحقيق قد ثقلوا مراكز هجومهم إلى الجنوب حتى يستطوا دعوى الاتصال بينهم وبين دول أجنبية . فإذا ثبت عدم اتصالهم عن طريق الاقتناع الجديد فإن شيئا من ظل الاتهام بالتحريض الأجنبي سيتقلص ، وقد يعمل هذا التقلص على الحد من مدى إساءة الظن المتبادلة بين الانجلوسكسونيين والسلافيين .

وكذلك كان من شأن التفاهم على الموقف من حكومة الجنرال فرنكو ، وهو الموقف الذي يقضى بسحب التمثيل السياسي من مدريد ، قل لحدة الخلاف الذي كان متجليا في العلاقات بين الكتلتين الجبارتين . وقد كان عدم الوصول إلى هذا الموقف الموحد محل ذبذبة في العلاقات الدولية طوال العام المنقضى .

ولا شك أن ما قد أعلن حتى اليوم عن الاتجاهات البادية في لجنة تنظيم الطاقة الذرية في هيئة الأمم المتحدة مما يسجل في قائمة الجهود الحيرة المبذولة في سبيل الاستقرار العالمي . ولعل زيارة الجنرال مونجوموري رئيس هيئة أركان حرب الجيوش البريتانية لموسكو ومقابلته للمارشال ستالين ذاته وما تبودل خلال الزيارة من مجاملات بين رؤساء الجيشين السوفييتي والبريتاني مما يزيد في تأييد تفاؤل

للتفائلين الذين تلوح لهم العلاقات بين الكتلة الانجلوسكسونية والكتلة الصقلية الآن أقل توتراً مما كانت عليه أثناء انعقاد مؤتمر الصلح في باريس .

ولعل استبدال الجنرال مارشال بمستر بيرنز في وزارة الخارجية الاميركية يعين على دعم قول القائلين بأن الظروف منتهية إلى إملاء خطة التفاهم مع روسيا على الدولتين الانجلوسكسونيتين . فابعاد مستر بيرنز يخفف في ذاته من وطأة ذكرى للمواقف للريرة التي وقفها من الرفيق مولوتوف طوال مؤتمر الصلح في باريس ، والعودة إلى الرئيس الأعلى لهيئة أركان حرب الجيش الاميريكي أثناء الحرب توجه إلى إعادة ذكرى الوثام الذي كان سائدا طوال تلك الحرب بين الثلاث العظميات جميعا .

أما سفر رئيس الحكومة الفرنسية إلى لندن فمحاولة لتسوية الخلاف الناشئ عن مساهمة فرنسا في بتول العربية السعودية وما إليها . ورئيس الحكومة الفرنسية الحالي هو ميسو بلوم ، ولشخصه مكانة بين حزب العمال للتولى الآن الحكم في انجلترا . وعلى هذا الاعتبار يعتمد بلا ريب في محاولته التسوية ، وإن كان

يغلب أن يداعبه اعتبار آخر هو أن نجاحه في التسوية يعينه على نجاح آخر في السياسة الفرنسية الداخلية ، يقاوم به العقبات التي سيضعها الشيوعيون في سبيل إعادة تأليف الوزارة الجديدة من الاشتراكيين وحدهم . ميل إلى التفاهم يبدو إذن في أفق السياسة الدولية خلال الشهر المنقضي ، بفضل ما بذل في مختلف البيئات من مجهود جبار في سبيل التوفيق بين عديد وجهات النظر ، ولكن يتأخم هذا الميل إلى التفاهم جانب غير قليل من القلق لا يزال يصر على مساورته مالا يزال عالقا بنفوس الناس من ضعف الثقة للتبادلة بينهم .

ورجاؤنا أن تعمل حوادث العام الجديد . بل تعمل تطوراتها على دعم الميل إلى التفاهم . فيقل القلق وتزيد الطمأنينة ، وتستند العلاقات الدولية إلى المستقر من الاعتبارات ، فيصح على الأقل ذلك التصريح « للتواضع » الذي صدر أخيرا عن رجل الدولة العالمي الكبير الرئيس بنيش رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا ، وقد جاء فيه :

« إن العالم لن يعرف الحرب خلال الخمسين سنة المقبلة » .

محمد عزمي

شهرية المسرح

الموسم الغنائى التمثيلى فى دار الاوبرا الملكية

الغنائى إلى داره ، ولم تكن تلك السنوات المظلمة لأملة إلا غمامة انقشمت ، ولم يبق ثمة شك فى أن الادارة المصرية التى تتولى أمر هذا المسرح الملكى تعلم حق العلم واجبا نحو هذا المسرح ، ونحو تاريخه ، ونحو غرض منشئه العظيم .

كم سحنا وكم قيل لنا فى معرض الحديث والنقاش : ما فائدة الاوبرا ! كأن الشئ لا يمكن أن تكون له فائدة إذا لم تترجم هذا الفائدة بالدرهم والدينار . الواقع أن أكبر مظاهر الحضارة ، وأن الأمور الجديرة بأن يقطع الانسان من أجلها مرحلة هذه الحياة ، لا تقوم عادة بالمال ، فهى فى مظهرها عديمة القيمة للمادية ؛ ولكن الواقع أن قيمتها المعنوية عظيمة . وهذا ما أعتقد أن العاهل العظيم فكر فيه عندما أقام هذه الدار ، وقد أراد أن تكون بلاده جزءا من أوروبا ، وأوروبا تعرف التمثيل والموسيقى ، وتصرف تلك الروايات التى جمعت بين التمثيل والموسيقى ، وهى خلاصة الحضارة الأوروبية ، فليكن فى وطنه إذن دار تكون دائما علما على اتصال الحضارة . قد يقال إن هذه الدار لا يؤمها من المصريين إلا قلائل . ولكن هذا العيب فى رأي ليس عيبا فى هذا المهد نفسه ، ولا هو عيب فى الجمهور ، وإنما هو عيب فى الذين يعملون على ثقافة الجمهور وتربيته التريسة الموسيقية الواجبة . ونحن نعلم أن المصريين يزيدون فى الاقبال سنة بعد سنة على التصوير ، ويزيدون فى الاقبال سنة بعد سنة على النحت . ونعلم أن القاعين بتقنيهم فى هذين

عند ما وقع نظرى فى صحيفة من الصحف اليومية على خبر قدوم فرقة إيطالية لتمثيل الروايات الغنائية المعروفة بالأوبرا ، على المسرح الملكى بالقاهرة ، اتابنى شعور هو مزيج من الجذل والابتهاج الكبير . ذلك أنى بدأت أشعر أن أزمان المحنة قد انتهت . وبدأت أشعر حقا بأن العالم دخل فى فترة السلام . وهو شعور لم أجده عند تسليم بعض للتجار بين البعض الآخر تسليما نهائيا ، ولا زلت أفقده فلا أجده حتى الآن لما يحيط بنا فى هذا العالم من قلق وعدم استقرار .

وأى برهان على السلام أكثر من انتقال فرقة غنائية من إيطاليا للتمثيل فى للمسرح المصرى ، بعد أن حيل بينها وبين زيارة هذه البلاد نيفا وست سنوات ، كان فيها للمسرح الملكى الذى أنشأه العاهل المصرى العظيم للأوبرا خاصة بعيدا عما أنشئ له . كان فى تلك السنوات مقفرا إلا من التمثيل العادى وهو لم ينشأ لذلك . وكان مقفرا إلا من فرقة عابرة أرسلت لتسليه الجنود المحاربة للقيمة فى هذه البلاد وإرضاء أذواقهم الحشنة . وكان مقفرا إلا من فرق الهواة التى تألفت لأغراض خيرية بعضها عظيم الفائدة وبعضها مشكوك فى فائدته .

لقد أققر للمسرح الملكى للأوبرا من تمثيل تلك الروايات الغنائية للسماة بالأوبرا . وهو لم ينشأ إلا لها ، ويجب ألا يخلو منها موسم من مواسمه . أققر للمسرح الملكى حتى خشى ألا تعود إليه الاوبرا مطلقا . واليوم طادت إليه الاوبرا . وعاد التمثيل

للمتعهدين . ومع ذلك نفتقر نحن له هذه المرة
عدم التوفيق في اختياره ، ونحمد له مجرد
تمكّنه من تدبير إحضار هذه الفرقة لتشرنا
بالسلام .

على أننا نأمل كثيراً في الإدارة المصرية
الحاضرة في دار الأوبرا ، بما نعهد
في رئيسها ووكيلها من الذوق السليم ، أن
تحذر اختياراً للمتعهدين ، وألا تأخذ برأيهم
إلا بعد مراجعة ؛ فقد عرفت دار الأوبرا في
ماضيها ليالي باهرة ، وشهد الناس فيها فنا
عظيماً . فانا لا ننسى أننا قبل هذه الحرب
الأخيرة سمعنا فيها موسيقى فاجر في تانهورز
ولوهنجرن وزيجفريد من فرق إيطالية
وفرنسية ، وسمعنا فيدليو روية بهوفن
الحالدة ، وأكثر من روية من روايات
موتزارت من فرقة نمساوية ، وسمعنا بوريس
جوادونوف ، للموسيقى الروسي مسورسكي
من فرقة لا أتذكر أهي كانت فرنسية أو
إيطالية . بل سمعنا بلياس ومليزاند تلك
الرواية التي هي في رأيي للتحيز خير الأوبرات
الحديثة .

فلا ينبغي للإدارة المصرية أن تنسى
هذا الماضي ، ولتذكره ولتعمل على التفوق
عليه سريعاً ، ولتذكر أيضاً ولتقلب سجلات
ماضيها ، لتذكر أنه كان يطلب إلى المتعهدين
دائماً أن يقدموا فضلاً عن الروايات المعروفة ،
عدداً من الروايات التي لم يسبق تمثيلها على
المسرح للنسكي . فلترجع الإدارة المصرية إلى
تلك الخطة المحمودة ، ولتوسع أقطار قستعين
بمشاق للموسيقى على تدبير البرامج واختيارها
وتبحث عن الفرق الممتازة في مختلف الأقطار
دون التقيد باللغة . فالبناس يذهبون إلى
الروايات الموسيقية للموسيقى ولا يهمهم فهم
اللغة . وقد تستعين برجال الدبلوماسية من
مختلف الدول في تدبير هذه الفرق ، فما أحب
التأثير بالفن ، وما أكرم الدعاية بالفن .

الفن ينحون نحو الأوربيين في التعليم ،
فلماذا نراهم لا ينحون هذا النحو في التعليم
والثقيف للموسيقى ؟

لندع هذه الآراء التي تطفئ علينا جانباً ،
ولنعد إلى اغتباطنا بالفرقة الإيطالية
وحضورها إلى مصر ، بل حضورها إلى
مصر بالطائرة في بضع ساعات ، مما يشر
بزيادة الاتصال والارتباط بأوروبا . ولكن
هذا الاغتياب لم يكن خالياً مما يشوبه ، ذلك
أنه كان من الطبيعي أن تتطلع وتتطلع إلى
البرنامج ، وإذا بهذا البرنامج يعلن إلينا ،
فاذا بمجد فيه ؟

أسماء كبيرة حقاً في عالم الموسيقى . هذا
قردي ثلاث أو أربع من رواياته ، منها
ريجولتو وتراقياتا وعائدة . وهذا يوتشيني
ثلاث من رواياته منها توسكا ومدمام
بتر فلای . ثم دوتزني بروايتين أو ثلاث منها
لوشيا دي لا مرمور . وجوردانو برواياته
أندريا شينيه وروسيني بحلاق إشبيلية ،
وكرمن وهي الرواية الوحيدة التي لحنها
موسيقى فرنسي .

فكأن الروايات التي اختارتها الفرقة
الإيطالية أو اختارها لها متعهد الفرقة إنما
اختيرت لتمثيل الفن الموسيقي الإيطالي الحديث ،
ولكن لا لتمثله في خير مظاهره . وقد
يسترض على بأن قردي هو أكبر مؤلفي
الأوبرا من الإيطاليين في العصر الحديث .
وهذا مالا أريد إنكاره ، ولكننا إذا أردنا
أن نختار ما يمثل قردي في خير مواهبه حقاً
وما جعله جديراً بالمجد حقاً ، فلا نختار
ريجولتو أو تراقياتا ، وربما لا نختار عائدة ،
ولكننا نختار شيئاً آخر .

أغلب الظن أن متعهد هذه الفرقة أحب أن
يختار من الروايات ما يروق في نظره لدى
الجمهور ، والويل للجمهور من إعطاءات

لم نر حتى كتابة هذه السطور من روايات
الفرقة غير عدد قليل ، ولكننا نستطيع أن
نحكم من الروايات التي شهدناها على أن هذه
الفرقة ممتازة ، وهي تمثل مستوى عالياً في
الغناء الايطالى . ولا غرو فان الاعضاء
جمعوا من أكبر مسارح الاوبرا في إيطاليا
من لاسكالا ذى التاريخ المجيد في فن الاوبرا
بميلانو ، وريالى للمسرح العتيق بروما ، ودار
الاوبرا ب نابولي — وهم يمثلون التمثيل
الغنائى في إيطاليا بمحاسنه ومعايه أيضا .
فلقد سمعنا مثلاً كنيلىا في صوتها الرنان
البديع ، وحسن غنائها في دور توسكا ،
وصفقتنا لها طويلاً ، ولكننا نكون خاطئين
إذا أخذنا عليها ، كما أخذ عليها صديق ، أنها
لا تحسن التمثيل . فأية مغنية إيطالية تحسن
التمثيل ، وتزى أن من واجبها أن تمثل الدور
حين تغنيه إلا في القليل النادر ! فلنكتف
إذن بما نجد من سحر في الغناء . وما ألفت
الاوبرات الايطالية وما وضعت للواقف فيها

إلا للغناء ، لا للموسيقى وحدها ولا للتمثيل
مطلقاً . وإن أردت أحد هذين أو اجتماع
هذين فالتسـ ذلك في غير فرقة إيطالية ،
وعليك في الغالب أن تدفع ثمن ذلك طيلاً في
أن تنزل عن شيء من الابداع في الغناء ،
والتلعب بالصوت كيفما شاء للمغنى أو
للمغنية . .

ومع ذلك ليس لنا أن نشكو ؛ فلقد رأينا
في بعض السنوات ، وعلى مسرح الاوبرا
نفسه ، فرقاً جعلت أبداننا تقشعر . وأذكر
في دور توسكا ذاته مغنية إيطالية بلغ من
سوء أدائها ، أن أقسمت ألا أشهد تلك
الرواية لسنوات عدة ، وبررت بقسمى نحو
عشر سنين .

إذن لم يبق لى إلا أن أعود إلى الثناء على
القائمين بأمر المسرح الملكى لتدبير هذا الموسم
الغنائى ، وألح في أن يكون فى كل موسم
جانب ، وجانب كبير للتمثيل الغنائى ؛ فـ
أنشئ هذا للمسرح إلا من أجله .

مصطفى محمود

شهرية السينما

أحمر شفايف (أفلام الريحاني)

ما هو ذا الأستاذ الريحاني بوالى نشاطه السينمائي ويبتج لنا فيلماً آخر أسماه « أحمر شفايف ». ومن يقرأ هذا العنوان ويكون من الذين يتبعون إنتاج الأستاذ الريحاني المسرحي والسينمائي، يعتقد أنه سيشاهد ملهامة ظريفة عن أحمر الشفايف ودوره في حياة المرأة . ولكن أحمر الشفايف لم يوح بكوميديا مضحكة ، وإنما أوحى بقصة أراد مؤلفها أن تكون مبكية أحياناً فلم تبك ، وأراداً أيضاً أن تكون مضحكة أحياناً أخرى فلم تضحك . وللشاهد يجد نفسه في حيرة إزاء هذه القصة : أ كان يشاهد كوميدياً وقاته ن يضحك ، أم كان يشاهد دراماً وقاته أن يتأثر ويبكى . إن القصة التي ساقها إلينا هذا الفيلم تختلف عن القصص التي شاهدناها في مسرح ريقس أو في « لعبة الست » أو في « سلامة في خير » ، تلك المسرحيات الفكاهة التي لا تخلو من نقد اجتماعي لاذع مصوغ في قالب ساخر . فليس مسرح الريحاني إلا مدرسة للشعب ، يتعلم فيه كيف يعالج مشكلاته الاجتماعية ، وكيف يعالج عيوبه الشخصية . ولم يرد الريحاني هذه المرة أن يتخلف عن أداء هذه المهمة التي أخذها على عاتقه وهي إصلاح ما أعوج من أخلاق المصريين في أسلوب فكاهي حلو ومر في وقت واحد . لقد واصل أداء هذه المهمة ، ولكنه لم يصطنع الأسلوب الذي اعتدناه ، بل أتى علينا هذه المرة عظة كأنه الخطيب على المنبر . ولعل في إلقاء العظات ما يكون سيلاً إلى إرضاء الجمهور .

فكم سمعنا في قاعات العرض من تهامس ينم عن إعجاب . ولكن هل للريحاني أن ينزل عن قه ليرضى الجمهور ، وهو بهذا الفن يحتل المكان الأول في المسرح المصري ؟ على أنك تجد في القصة بعض نواح جديدة بالتقدير ، ففي الجزء الأول صورة صادقة لحياة الأسرة المصرية الهادئة ، ولعقيلة الموظف المتوسط الحال وما يشغله في حياته من توافه الأمور . ولا تنسى أيضاً أن تذكر له سخريته في لباقة لا تثير دهشتنا وإن أثارت إعجابنا من طريقة في الغناء يسجد لها الشرقيون . ولكن القصة تتعد وتضطرب حينما تبتدىء الأمور تتعد : الزوجة تظن أن زوجها يخونها مع الخادمة ، ودليلها على ذلك آثار من لون أحمر على منديله ظنته أحمر للشفاه مع أنه لم يكن إلا بقعا من قلم أحمر للكتابة . ويتفصل الزوجان رغم ولوع كليهما بصاحبه ويأس الزوج وتيئس المرأة من العودة إلى حياة هائثة لما تشهده فيها الفيرة من الغيظ . وتدوم الحال هكذا حتى استطاعت الزوج أن تميز بين أحمر الشفاه وأحمر القلم . ولم يجمع الأستاذ الريحاني حوله من الممثلين تلك العناصر القوية التي كنا نراها في مسرحه وأفلامه ، بل اجتمع لأداء القصة من هم دون فن الأستاذ الريحاني في التمثيل، حتى لقد لاحظت تفاوتاً كبيراً بين أدائه وأدائها . ولعل ذلك يكون من الأسباب التي عاقت القصة عن الوصول إلى النجاح المطلق . لقد مثلت السيدة زوزو شكيب دور المرأة المصرية بكل

وكنّا نود أن يكون إخراج هذه الرواية مناسباً لما أئسناه في إخراج ما سبق من روايات، وألا نشعر بأن ما يجري من حوادث في القصة إنما يجري في استوديو بين مناظر شيدت للتمثيل . لقد كان على الإخراج أن يمحو هذا الأثر ويصنع القصة بطابع واقعي يناسبها . ومهما آخذنا القصة والتمثيل والإخراج ، فلا ينبغي أن ننسى أن الأستاذ الريحاني من القليلين الذين جاهدوا في سبيل إحياء المسرح « مصرى » ووصلوا به إلى درجة فنية رفيعة ، وأن له الفضل الأكبر في وجود الملهة المصرية . فهل من الوفاء والتقدير أن نؤخذ رجلاً له هذا الماضي الغنى المجيد بتلك الهنات ؟

ما يقتضى هذا الدور من ثقل وقصور . وقامت سامية جمال بدور الخادمة اللعوب بكل ما لها من مؤهلات لهذا الدور ؛ ولكنها في رقصاتها الشرقية لم تصل إلى رضا الجمهور رغم ما في هذه الرقصات من خلعة ترضى جمهورنا . أما الأستاذ الريحاني فقد أيقن تمثيل شخصية الموظف المتوسط الحال ، وأبدع خاصة في أدائه حينما اقتصر وأخذ يطوف الشوارع طالباً ما يسد رمقه . فتمثيله في منظر المطعم الذى يدخله ليأكل من الطعام ما يساوى عشرة القروش التى يملكها واضطرابه حينما فقد هذا المبلغ يدلان جلياً على مقدرته على التعبير الصحيح الذى لا يشوبه أى غلو .

ذات الشهرة السيئة (شركة ر . ك . و) (١)

مغامرات فتاة ألمانية استخدمها قلم المحاربات الأمريكى للكشف عن مؤامرة جواسيس ألمان في ريو دي جانيرو . ويصطنع المؤلف الأسلوب المألوف في حبك قصص الجاسوسية . فالفتاة تقع في غرام شاب أمريكى من قلم المحاربات وهو المكلف بإرشادها في مهمتها . ثم تقع في شرك الجواسيس الألمان ، فيحاول عشيقها أن ينزعها من مخالبهم ، ويتم له ذلك في ظروف مستحيلة ، ولكن لمؤلف القصة القدرة على أن يخلص شخصياته من أى موقف مهما كان وعراً ، وعلى المشاهد أن يرضى عن سلوك المؤلف أو لا يرضى

أما إخراج الفيلم وتمثيله فكانا متقنين حتى أنسيانا معايب قصته . ففضل الإخراج المتقن شهدنا مناظر جميلة خلابة مصورة تصويراً جديراً بالاعجاب . غير أننا تأخذ على المخرج المغالاة في مناظر القبلات التى احتلت الثلث الأول من

إن الشركات السينمائية الأمريكية متى لمست في ممثل من ممثلها أنه وصل إلى الشهرة وأصبح محبوباً إلى الجمهور لا تتورع من أن تظهره في أفلام ضعيفة قصة أو إخراجاً أو حواراً . ذلك لأنها تعلم أن الجمهور يسعى إلى دور العرض وقد جذب إليه اسم الممثل الذى يعرف عنه الكثير لا القصة أو عنوانها اللذان لا يعرف عنهما إلا القليل . ومن العجيب أن الممثلين الأمريكيين لا يابون أن تستغل أسماؤهم في دعاية رخيصة لفيلم رخيص . فالمثلة أنجريد برجان لم ترفض أن تشارك في تمثيل ثلاثة أفلام في موسم واحد ليست ذات شأن مطلقاً : لقد قامت بالدور الأول في « المسحور » وفي « مناصرة سراتوجا » وفي « ذات الشهرة السيئة » والأفلام الثلاثة سقيمة ضعيفة من جهة القصة . و « ذات الشهرة السيئة » فيسلم عن الجاسوسية إبان الحرب الأخيرة يسوق إلينا

الفيلم . وقد جمعت هذه الرواية ممثلين شهيرين ، هما أنجريد برجمان وكارى جرانت الذان قاما بالدورين الرئيسين خير قيام . والآن وقد انتهت ظروف الحرب التى اضطرت الشركات إلى إنتاج رخيص لعدم توافر العناصر اللازمة من ممثلين ومصورين ومخرجين، هل لنا أن نتمنى على المنتجين الأمريكين أن يراعوا ذوق الجماهير، وألا يفرضوا علينا هذه القصص الضعيفة التى سمعنا مشاهدتها طوال سنى الحرب الست ؟

مشرى طاب

من كتب الشرق والغرب

صور من العنف والقسوة في الأدب الأمريكي

وبأسلوب عار عن كل زخرف وتنميق . وقد بلغ بعض هؤلاء الكتاب الواقعيين في وصفهم الحياة الأمريكية حدا من القسوة لم يبلغه سلف ، ونظروا إليها بمنظار أسود لا سبيل معه إلى بارقة أمل ، وقد فاقوا أحيانا ما وصل إليه الأدب الروسي السابق للثورة من تشاؤم وزهد في الحياة . وأخذت موجة العنف والاقذاع في القول تجتاح الأدب الأمريكي إلى درجة خطيرة أدت إلى تدخل السلطات العامة لوقف تدفق أفكار يخشى معها أن تؤدي بسمعة البلاد ، ولا سيما أن كثيرا من هذه القصص المثيرة للعواطف كان يتكالب عليها مخرجو السينما لعرضها على الشاشة البيضاء ولا يخفى ما في هذا العمل من دعاية ضارة لأمريكا وتلويت لسمعتها . ولا يفوتني في هذا المضمار أن أذكر ما أقدمت عليه الرقابة الأمريكية للسينما من حظر إصدار قصتين خالدين لكتاب الشهير ستاينبك Steinbeck إلى أوروبا وهما رواية « غنب الغضب » *The grapes of wrath* ورواية « جرذان وبشر » *Of mice and men* إذ تصوران أبشع مناظر الحياة الأمريكية رغم أنهما آيتان رائعتان من الوجهة الأدبية ومن وجهة فن التصوير الصادق ؛ هذا في حين تغمر تلك الرقابة نفسها أسواق العالم بأفلام لا أثر للفن فيها ، ولكنها تروج للدعاية الوطنية التقليدية الزائفة ألا وهي أن أمريكا فردوس تجري من تحته الأنهار وجنة الله في أرضه .

وقد لاقت قصص إرنست همنجواي Ernest Hemingway معارضة قوية من فئة

تبدو أمريكا لعيان الزائر العابر أو القارئ المتطفل نعيمًا يسبح أهله في رخاء شامل ويرتع نزلاؤه في بحبوحة من العيش لا يعكر صفوه منغصات الحياة التي يشقى بها سكان العالم القديم . فأمريكا موطن الاختراعات الحديثة ونبع الابتكارات الجليلة التي ترفه عن النفس . وأمريكا بلد الثراء الطائل ، والحرية التامة التي ترنو إليها عيون كل من أهدرت حقوقه على وجه الأرض ، وهي تستهوي ألباب الشعوب للمتعطشة إلى السعادة والهناء . وطلق الأمريكيون يدوون في الأبواق ويروجون بدعائهم للماهرة إلى بهرج الحياة الأمريكية وما ينعم به المواطن في ولاياتهم من عز وجاه وترف ، حتى نسجوا غشاء كثيفا من الخداع ظنوه يستر عن الأبصار النافذة حقيقة أمرهم وطبيعة عيوبهم وردائلهم ، ومنها ما هو عام يشمل بني البشر أجمعين ، ومنها ما هو خاص بهم ينجم عن خصالهم وطرق معيشتهم واقتصادهم وتفكيرهم .

لقد وصلت أمريكا إلى مرحلة من الحضارة الزائفة دفعت منذ بضع سنين كثيرا من خير كتابها ومفكرها إلى أن يحاولوا تمزيق حجب الزيف والخداع ، وجلاء ما خفي وراء الظواهر البراقة من بؤس وشقاء ويأس وبكاء . فتسلطت على بعض أدباء أمريكا المعاصرين نزعة تحليل وتمحيص لمقومات الحياة الأمريكية الحديثة ، وجنحوا إلى سبر غور نفس الأمريكي المادي للوقوف على آماله وأحلامه وأفكاره ونوازعه ، فباء جلهم بصورة قاتمة حالكة صاغوها في قصصهم بعبارات عنيفة كل العنف

بودلير لأجل مجموع ديوانه الشعرى الرائع
Les fleurs du mal.

والآن أبدأ بعرض موجز وتحليل مقتضب
 لقصتين لكاتبتين أمريكيتين نشرتا أخيراً في
 باريس حيث ظهرت تواتر ترجمة فرنسية لهما،
 على حين لم تنشر إحداها في أمريكا إذ لم
 يجرؤ أى ناشر على طبعهما. وقد راجت القصتان
 في باريس رواجاً لا مثيل له، وتناولها النقاد
 الفرنسيون في الصحف والمجلات الأدبية بالنقد
 والتحليل بين محبذ لهما مولع بهما أشد الولع
 وبين ساخط عليهما مستهجن لهما أشد الاستهجار.
 وقد أثارت القصتان جدلاً عظيماً بين من ولج
 التحدث عنهما وأوقدتا نقاشاً مراراً احتدم بين
 أدباء فرنسا احتداماً لم يخف سعيه لأن.
 أما القصة الأولى فنصوانها « سوف ابصق

على قبورك » *J'irai cracher sur vos tombes* (éd. du Scorpion, Paris)
 لمؤلفها فرنون سليفان Vernon Sullivan
 وقد نشرت حديثاً في باريس في شهر نوفمبر
 سنة ١٩٤٦ ولم تنشر بلغتها الأصلية الانجليزية
 لأن، وهى قصة عنيفة مقدعة فتاكه قصد
 بها مؤلفها الانتقام للزواج في أمريكا لما
 يسامون من ألوان العذاب على أيدي
 الرجال البيض. أما فرنون سليفان فهو
 من أولئك البيض المنحدرين من سلالة
 سوداء عريقة في السواد، اختلطوا منذ القدم
 بنساء بيض قتلون بشريتهم على مر الحقب
 والأزمان، حتى انتهى بهم الأمر إلى أن ابيضت
 تماماً بحيث يتعذر تمييزهم عن البيض الأصليين.
 وفي كل عام تقوم الحكومة بأجراء تعداد لهم
 توطئة لنقل قيد أسمائهم من قائمة السود إلى
 قائمة البيض. وهذه العملية يعبر عنها في أمريكا
 باصطلاح طريف « اجتياز الخط ».

وقد كان فرنون سليفان ممن حظوا بنعمة
 الابيضاض الرسمي في أمريكا. وهى نعمة
 لا يقدرها حق قدرها إلا الزنوج المناكيد

من القراء في أمريكا أقدمهم أسلوبه اللاذع
 ووصفه بعض الحانات الرخيصة حيث يحتسى
 فيها روادها الخمر حتى تلب برءوسهم
 ويفوهون بألفاظ أو يرتكبون أعمالاً
 لا تستحي منها نفس القارئ الأمريكي
 الوديع.

ولا يخفى على الأدب أن أمريكا تلجأ كل
 يوم إلى مصادرة كتاب أو منع نشر مؤلف
 أو القبض على قصصى ومحاكمة بتهمة الاعتداء
 على الأخلاق القومية وزجه في السجن حتى
 يتأمل مغبة عمله ويدرك أن حرية القول في
 ذلك البلد محاطة بأسوار شائكة ومقيدة
 بأغلال ثقيلة. ولم يغرب عن البال ما آل إليه
 الكاتب الانجليزي الشهير جيمس جويس
 James Joyce إذ أقيمت عليه الدعوى
 المومية ووجهت إليه أشد التهم خطورة،
 واستقر الرأي على مصادرة كتابه المعروف
 « أوليس » *Ulysses* وأخيراً واقتنا
 الصحف بأنباء تقيد مصادرة كتاب الشابة
 الأمريكية النابهة كاتلين ونسور المعنون
For ever Amber.

لذلك عمد كثير من المؤلفين الأمريكيين
 الذين لم يأنسوا في بلادهم قسماً من حرية
 التفكير يؤهلهم للتعبير عما يجيش في صدورهم
 من أفكار قد لا تروق أولى الأمر إلى مغادرة
 العالم الجديد والهجرة إلى بعض أصقاع العالم
 القديم، حيث حرية الفكر مكفولة موفورة،
 وحيث لا يعوقهم عن الافصاح عن خوالجهم
 أى عائق من قانون أو عادات أو طباع.
 وغنى عن القول أن أولئك الكتاب لم يرحلوا
 إلى بريطانيا العظمى أو روسيا السوفيتية حتى
 لا يستجبروا من الرضاء بالنار، وإنما يعموا
 شطر فرنسا مؤئل الحرية الفكرية في العصر
 الحاضر بعد أن تفضت فرنسا غبار الماضي
 ونسيت محاكمة فلوير لأجل قصته الخالدة
 « مدام بوڤارى » أو الشاعر الموهوب

ولكنه رغم هذه المنحة لم يكن لآثاره السابقين السود أى شعور بالازدراء أو التماهى عليهم ، ولم يعرب لرفاقه البيض الجدد عن أى شعور بالامتنان ولم يستول على نفسه تيه ولا زهو لما آله الأخير ، وإنما ظل حاقدا على الجنس الأبيض ناقما عليه مبيتا له نية التشفى منه . ولذا أقدم على وضع قصته وخلق عليها ذلك العنوان المفترس « سوف أبصق على قبورك » . وقد رمى من ورائها إلى إظهار قوة الاسود عندما تختبر في رأسه فكرة الانتقام لبني جنسه .

أما هذه القصة فيرويها شاب يمت إلى تلك الفئة من الزنوج الحديث عهد بالايضاخ وسم الطلبة شقر لا يبدو على سواه أى أثر لأصل أسود ، وطد العزم على الانتقام من الجنس الأبيض بعد أن حز في نفسه قتل أخيه الصغير لتجربته على مبادلة الحب مع فتاة بيضاء . وقد أتاحت الأيام للراوى أن يوثق بأواصر الصداقة مع أختين يافعتين تنحدران من أرومة كريئة وتمتان إلى أسرة من البيض عريقة النسب ، وما فتى يحوك حولها الجبائل زاعماً أنه مدله في حبهما حتى وصل إلى ضالته للنشودة واستأثر بقلبيهما الواحدة أثر الأخرى . ولما أن جاءت إحداها في يوم من الأيام تنبئه أنها حملت منه سفاحاً ، رأى الفرصة سانحة للأخذ بثأر أخيه الصغير الذى مات شرمية على أيدي الرجال البيض ، فدير لها غمّاً شيطانياً واستدرجها إلى جهة نائية منزلة ، ثم انقض عليها انقضاض الوحش الكاسر وأوسعها اطماً وضرباً وركلاً ، حتى لفظت النفس الأخير ، فتركها جثة هامدة ، ولم شعثه وقفز في سيارته وسار حثيثاً حتى بلغ مكاناً آخر عينه للأخت الصغرى للقائها ، فاستدرجها أيضاً إلى جهة أخرى ليعيد الكرة ولما يجف دم ضحيته الأولى من يديه المحضبتين ، فابندرت المسكينة تذكره بوعده إياها بالزواج

فلم يجبها ، وإنما أسرع السير حتى وطأ بقعة مقفرة ، فانهال عليها ضرباً وأخرج مسدساً وأرداها قتيلة ، ثم اغتصبها وهى جثة دافئة زايستها الحياة وقد ظل الراوى طريد اعدالة إلى أن دهمه رجال الشرطة فأفرغوا فيه رصاصهم وأردوه قتيلاً . ولما علم أهل القرية أنه من أصل أسود علقوا جثته على شجرة وشنقوه . وقد روى قرنه ن سليفان قصته بأسلوب توخى فيه الاءفحاش عن عمد ، ولم يتورع عن وصف مناظر بشعة وصفا تقشعر له الأبدان ، كما أنه صور العراك الوحشى الذى دار بينه وبين ضحيته تصويراً أميناً فى بيان تفاصيله حتى الغثيان . وهذا اللون من الأدب العنيف لا قبل للنفس الملهفة الحس على احتماله ، ولكنه يدل على أن موجة القسوة تطنى على مشاعر بعض الكتاب لهول ما رأوا من العذاب الذى يتجرعه بعض أفراد الناس لغير ما سبب اللهم إلا اختلافهم فى البشرية أو العقيدة أو للمبادئ السياسية .

أما الكتاب الثانى الذى أعرضه اليوم فقد ظهر فى صيف سنة ١٩٤٦ فى باريس أيضاً ، وهو للمؤلف الأمريكى الشهير هنرى ميلر Henry Miller وعنوانه « مدار الجدى » *Tropique du Capricorne* (éd. du Chêne, Paris) وهو يكمل كتاباً آخر لنفس المؤلف ظهر منذ حوالى عشر سنين اسمه « مدار السرطان » .

أما هنرى ميلر فهو كاتب أمريكى من أصل ألماني ذاع صيته فى أوروبا ، إذ استوطن فرنسا وعاش فيها ردحا من الزمن يصدر فيها مؤلفاته متمتعاً بحرية تامة بعد أن نبذه بنو وطنه . وتعد جميع مؤلفات ميلر من المحظورات فى أمريكا ، فلا يجزؤ أحد على نشرها أو تداولها رغم ما فى هذا الحظر نفسه من دعاية غير مقصودة لهذه المؤلفات . لذا لاقت بعض النسخ القليلة التى تسربت خلسة إلى داخل

القارة الأميركية إقبالا شديداً من جبهة القراء وتهاقنا على اقتنائها . ولا غرابة في ذلك فكل محذور مرغوب . وقد توخى هنري ميلر في كتبه كيل الصاع صاعين لأمريكا التي حرمت حرية القول والفكر حتى تطلعت عليه سبل العيش فيها ؛ لذا خصها بأمضى ما في جعبته من سهام ، وشهر عليها حرباً شعواء شحذ لها أشكى سلاح ألا وهو قلبه الذي ينفث الحقائق المخرجة بأسلوب مسرف في الاقتداع كما تنفث الأفعى السم الزعاف .

أما مؤلفه الأخير « مدار الجدى » فهو كتاب ضخيم يحوى خمسمائة صفحة كثيفة لا تتخللها فصول أو أبواب ، وكأنه لفظه دفعة واحدة حتى ينتهي من أمره ويتنفس الصعداء .

ويتعذر على القارئ أن يستخلص من خضم الألفاظ التي يزخر بها الكتاب أى موضوع متماسك ؛ فهو لا يعدو كونه سلسلة من الأحاديث الطويلة عن شتى الحوادث التي مرت بالراوي .

ولكن حديث ميلر ذو شجون فهو بينما يسرد عليك شعوره في مطعم أو مرقص مثلاً يأخذ عليك السيل فجأة وينقلك معه على أعنة ذاكرته إلى عالم صباه ، فيسترسل في وصف والده وطباعه ، أو يبين لك خواطر أخته

البلهاء أو يروى حياة أترابه الصغار ومميزات كل منهم ، وهو يعنى في إبراد أدق التفاصيل عنهم . ثم يستطرد في الحديث إلى أن ينقلك مرة أخرى دون أى إنذار أو تمهيد سابق

إلى الخوض في مناظرة فلسفية عميقة عن الروح أو للموت أو الاله . ثم يجذبك عنوة إلى شوارع نيويورك فيذرعها معك في الليل أو في

النهار ، ويرتاد معك أوضاع الحانات حيث يكب على احتساء المدام حتى يثمل . وهكذا دواليك مما يدعو القارئ إلى السؤال عند الفراغ من قراءة الكتاب : ألم يكن يستمع إلى هذيان محوم يعالج سكرات الموت ؟

ويبدو أن هنري ميلر مولم أشد الولع

بارتياد الشوارع في نيويورك ، وهو يكلف كلنا شديداً بالتأمل في المنازل التي تحدها من الجانبين ، وفي القطارات التي تجرى على معابر الجو ، وفي مهرجان النور واللافتات المضاءة بالكهرباء ، وفي قافلة السيارات التي تجوب أرجاء المدينة بلا انقطاع ، وفي مواكب المارة على اختلاف أجناسهم وأشكالهم ولبوسهم . وله في التعبير عما يختلج من الاحساس الذي تثيره في نفسه هذه المشاهد صفحات رائعة لعلها خير ما كتب في هذا الشأن . استمع إليه يصف ناطحات السحاب لمدينة نيويورك ، وقد أرخى الليل عليها سدوله :

« عند ما يكسو الجليلد شوارع نيويورك

ويخيم عليها صمت رهيب ، يذم من قبج مبانيها تغم حزين ممض ميمت يهزله البدن . إني لا أرى قالبا من هذه القوالب المتراسة أقيم فوق القوالب الأخرى عن رغبة أو

إجلال . لا أرى شارها من هذه الشوارع خط للرقص أو الجذل ، وإنما أضيفت أشياء إلى أخرى وسط فوضى اختلط فيها الحابل بالنابل لغرض واحد ألا وهو ملء البطن .

لذا فالشوارع تشتم منها رائحة البطون الحاوية والبطون المليئة والبطون المليئة إلى النصف . والشوارع مليئة بأريج طوى لا دخل له بالحبة . تنبعث منها رائحة بطون لا تعرف الا كفاءة ، لها رائحة الأعمال التي أنجزتها بطون فارغة ، وهذه الأعمال نفسها

ليست إلا فراغا وعدما . »

لا غرو أن الكاتب عبر تعبيراً فريداً غريباً عميقاً عن نوازعه إزاء مشهد الشوارع الزاخرة بالتناقضات . وقد يمر بها عابر مرورا عاجلا فلا يحفل بها ويمضى في سبيله قدما وقد

يمر بها رجل يذرعها عندما يجثم على صدرها صمت الليل فيقف متأملا غارقا في تفكيره مستاويا أسرار الصروح الشاهقة التي يأوى

إله في ساعات محدودة قوم غافلون أو راضون و قانعون أو حاقنون . للشوارع روعة لا يدركها إلا من قصد استيضاح حقيقة أمرها مثل هنري ميلر .

ولهذا الكاتب صيحات مؤثرة تدوى في جنبات القارئ وتستوقفه لشدة الحسرة التي تولدها ثم ترددها بين ضلوعه . ولا بد أن ميلر شعر في أعماق قلبه بتلك الالهة الممضة اللاذعة التي وفق للافصاح عنها بألفاظ بسيطة كل البساطة لها وقع أليم يحز في النفس كالرجع الحنون . ان ميلر تأثر فوضوى وتلك أخص مميزاته ، تأثر على كل شيء ، تأقم على كل شيء ، حائق على الحياة ، حاقده على الانسان شاعر بنقصه ، حائر قائمه يسير في الحياة لا يلوى على شيء ، وإنما يحياها لأنها فرضت عليه فرضا ، لا يكثر لئال أو عمل أو زوج أو نسل ، يواصل السير فيها وهو يتخبط بين جذران أسرار الكون والقناء ، لا يستيقن حلا مرضيا لمشاكلها يحس بمرارة العاجز عن إدراك سر غامض لا سبيل إلى جلائه ولا إلى تبيان كسبه . فهو تأثر لا تحمده ثورة ، ينال على الحياة سببا وقدفا ، يطرها وابلا من اللعنات فاقد الأمل في المستقبل ، شاعر بمحن غريزي إلى الماضي إلى البداءة . لذلك فهو لا ينفك يصيح ويصرخ ويرغى وزبد في أسلوب من نار يقذف القارئ في أحضان تيار جارف لا قبل له بمقاومته وسط عباب منلاطم من الألفاظ الفظة الحشنة ، بل وسط طوفان من الذكريات والاستعارات والصور والرموز التي تتمخض عنها مخيلته الحصبة المريضة . ثم يستسلم بلارحمة ، لا يدع لك سيلا للتنفس أو التهتد ، حتى يتناكب دوار فتتف ذاهلا مشدوها متعبا .

استمع إليه مثلا يحدثك عن فلول النجولين الذين يلتقي بهم في مكتبه كل يوم وهم من اللذة واللذ ، الذين يسعون عن عمل ، وقد

نيط به عرضهم جميعا لا تتواءم من أنس فيه السكافية وطرد البائين رغم إخفهم . يقول ميلر :

« خرجت من مكنتي قبيل الرأس وما زالت مشاهد اليوم التي صرت على ناظري عالقة بذهني . كنت أنحيل ذلك الجيش من الرجال والنساء والأطفال . كنت أنحيلهم وهم يكون ويصلون ويتوسلون ويستعطفون ويخلفون ويصقون وينضبون ويهددون . كنت أراهم وهم يتسلطون خلسة قطارات البضاعة . كنت أرى الأكواخ القذرة التي سيأوون إليها والأهل العراة ودلو الوقود الفارغ وعرق الحوائط والصراير المتسابقة ، كنت أراهم وهم يقفزون كالقزام أو يهوون على الأرض . كل هذا على حين يستوى السادة الرؤساء على مقاعدهم الوثيرة غورين بصلابة منطقهم مدلين مسلحين بأزدرأهم واحتقارهم متمصين تعاليمهم وخيلاءهم ، أقدامهم على المكاتب وفي أفواههم سيجار ضخمة » .

وكثيراً ما يتلك ميلر الشعور باليأس والقنوط وتقاهة ما يبذل من جهد للتعلق بحطام دنيا لم يقرأها ولم يتمس دخولها ، فيسأم الحياة وقد ألقاها عملة مضنية لا معنى لها وتساوره أفكار مظلمة قائمة ممضة كالندم ، يشعر أنه لن يبلغ نفسه أبداً ، ويرغب عن الكفاح ويژهده في الدنيا وينكشف له العدم ويردف مناجيا نفسه في حيرة مؤثرة :

« لم ذاهب أنا إلى عملي ؟ فيم أرغب هذه الليلة ؟ لم لا أهرب إلى بلاد آلاسكا للبحث عن الذهب ؟ لم لا أتزوج إلى الغرب فأصبح من رعاة البقر ؟ لم لا أغادر القطر حتى لا أعود أدراحي إلى الوراء ؟ أأقتر في النهر لأتهدى لاخوض فيه ، لأغوص فيه ، لا تردى فيه حتى القاع إلى أن يتلوث جسمي بطين القاع بين الأسماك التي تحوم حولي تقضم أعضائي وتهش فيها . وغداً أحيا حياة جديدة . أين ؟ في أي

جهة ؟ ولكن ما الفائدة من تكرار نفس الشيء دائماً أبداً ! انقضاء الموت هو الحل الوحيد . ولكن صبراً . ولم لا أمنح نفسي هبة يوماً واحداً ؟ ومن يدري ! ربما يتغير حظي ، وجه جديد ، صديق جديد ، حظ سعيد . ما زلت في مستقبل العمر ساعة يأس إنك لا تدري مرادك ، وعلى العموم فإن الناس لا يبالون بك على أي حال أحييت أو مت »

لا يسعني إلا أن أحجم على مضمض عن إيراد نبذة أخرى من كتاب «مدار الجدي» حتى أعود إلى تحليل نفسية المؤلف ومأربه النهائي للوقوف على مشربه الروحي .

لا يخفى على القارئ أن فلسفة هنري ميلر فلسفة فاتكة هادئة ، ولكن ميلر لا يلجأ إلى المعول كي يقيم على الانتقال شيئاً جديداً ، إذ ليست له أية أفكار إنشائية وإيماء هو يكتب بالهدم والافناء . ويحس للمرء أنه أينما سار ميلر ترك وراءه الفراغ والعدم ، فهو لم يبق شيئاً ولم يضر بشيء وإيماء هاجم للمبادئ والعادات والتعاليد والأحلاق ، والثورات للمنظمة المحككة ، والأديان هاجمها بعنف شديد وجعل منها تراباً وسط جلجلة ملحمة دامية وضوضاء صراع مميت . وهو لا يبنى ولا يكمل حتى يقضى على ما يدعى مدنية ، ويتركنا حيارى جزعين مبليلى الأفكار تجاه أنقاض دارسة وعدم لا خلاص منه .

ولا يفوتني أن أشير إلى نبذة قصيرة من كتاب آخر له عنوانه «الربيع الاسود» لما فيها من دلالة واضحة على ما استنبط من عقلية . « من الجائز تنامتني علينا وأن لا سبيل لنا إلى أي أمل البتة لأي شخص منا . ولكن ما دام الأمر كذلك فعلينا أن نصيح صيحة مدوية ، صيحة أخيرة ، صيحة ألم مبرح تتلجج الدم في الشرايين لنصرخ صرخة تحد تقطع الأوصال صرخة حرب . »

ويعد هنري ميلر على حق فريداً في موته ، إذ شق طريقه في الأدب ولم يسر على درب السابقين . وهو بين اثنين والخين ينشر كتاباً أو مقالا أو بحث كما يلقي الفوضى فنبلة . ولا يدانيه في أسلوبه وآرائه في اعتقادي إلا الكاتب الفرنسي لويس فرديناند سيلين . L. F. Céline في كتابه الشهير «رحلة إلى أقصى الليل» *Voyage au bout de la nuit* وقد أحدث ضجة واحتدم الجدل حوله كما يحتدم اليوم حول جميع مؤلفات ميلر . وقد شبه الناقد الفرنسي المعاصر موريس بلانشو M. Blanchot في مقال له ظهر في مجلة «لارش» *L'Arche* هنري ميلر بشاعر فرنسي غامض عاش في القرن الماضي وهو الكونت دي لوتريامون Comte de Lautréamont مؤلف كتاب «أغاني مالدورور» *Les Chants de Maldoror* وعكف على المقارنة والمفاضلة بينهما ، فأبان مثلاً أن الشاعر الفرنسي كان أرق حساً منسجماً في حديثه لا يبدو مشقت الفكر زائنه كما هو الحال بالنسبة لميلر ، على أنهما من جهة أخرى التقيا في صعيد واحد وهو اللجوء إلى قسوة وإقذاع وعنف ينذر أن يعثر الباحث على مثلهما في كتب الأدب الحديث أو القديم .

وقد أجمع النقاد على تجريح ميلر بسبب جنوحه إلى الأدب للفضوح واستعماله ألفاظاً نائية وإيمانه في وصف تفاصيل مواقف غرامية من الناحية الجنسية وصفاً تشمئز منه النفس الرقيقة . ويلوح لكثيرين منهم أن الأمور الجنسية متسلطة على عقل ميلر وتفكيره تسلطاً يفسد عليه أروع صفحات كتبه ويدع القارئ يسائل في شيء من الغرابة أيرمي للمؤلف بتوغله في المسائل الجنسية إلى إخراجها في حياته . ولم يفت بعض النقاد المناوئين لهنري ميلر أن يتذرعوا بهذا العيب للقومه حجة أمتددين بأسفاهه وإماخته ، فحشة

ميلا إلى العنف والقسوة ؛ لأنه وليد حروب
وثورات وقلاقل فهو مرآة تنعكس فيها نوازع
نفوس حائرة مزعزعة متشككة تبحث عن
أوضاع متينة وقيم ثابتة تتلمس السيل إلى
الاتزان والبقاء ، فتطوح بها الأحداث إلى
العدم والفتناء .

المتعمد الذي يزل باده إلى مرتبة الأدب
الرخيص المتبدل . ولكن ميلر رد عليهم في
مقال طويل نشرت مجلة « فوتتين » الفرنسية
ترجمته وأشارت إليه مجلة « الكاتب للمصري »
في عدد شهر يناير سنة ١٩٤٧ .
ويلوح لي أن الأدب المعاصر عامة يزداد

فؤاد وصفي أبو الذهب

من وراء البحار

الموسيقى في ألمانيا

وصارت همبرج الآن مركز النشاط الثقافي في المنطقة البريطانية ، وقد أقيمت فيها أول حفلة موسيقية عامة بعد خمسة أسابيع من الاحتلال أقامتها فرقة فيلهارمونيك بهمبرج في قاعة كبيرة لم يصيبها شيء من الدمار . وكثيراً ما أشيع في الخارج يومئذ أن الاحتلال شرد الكثير من الموسيقيين ، والواقع غير ذلك . ولم تفقد الجوقة الموسيقية من أعضائها أكثر من بضعة عشر موسيقياً . وهذا هو السبب في المستوى الرفيع الذي ظل محتفظاً به بين العازفين الألمان في هذه الحفلة ، وإن كان قائد الجوقة ضعيفاً . وما انتهى خريف ذلك العام حتى كانت تعمل في همبرج فرقتان موسيقيتان ، وهما فيلهارمونك والاركسترة السنفونية لشبكة محطات الراديو في الشمال الغربي لألمانيا ، وهي فرقة أغنى السلطات البريطانية .

على أن همبرج تأخرت عن المدن الأخرى في المنطقة البريطانية وفي غيرها من مناطق الاحتلال في تمثيل الروايات الموسيقية « الأوبرا » ، ومع ذلك استأنفت هذا النشاط في شهر يناير الماضي ، وهو مما لا يكاد يصدق إذا لاحظنا الأحوال التي كانت سائدة عندئذ ؛ فقد احترق قسم الجمهور من مسرح الأوبرا الحكومي ، ولكن القسم الباقي فيما وراء الستار الحديدي ، وهو الخاص بمسرح من أكبر المسارح الأوربية ، وفيه معدات من أحدث ما يستعمل ، ظل سليماً . وما كانت مواد البناء قليلة فقد تعذر بناء قسم وقفي لجمهور مع استعمال ماسلم من المسرح . وعلى ذلك أقيم في الجانب الآخر مكان يسم

إنه إما يسر المحبين للإنسانية أن يسموا بأن الألمان أخذوا يستيقظون تدريجياً من آثار الهزيمة . ففي عدد ديسمبر من مجلة « القرن التاسع عشر » الإنجليزية وصف للحياة الموسيقية في ألمانيا بقلم جاك بورنوف . ومن هذا الوصف يتبين لنا المجهود الذي يبذل للعودة إلى الحياة العادية . ويصف الكاتب بنوع خاص ما يجري في منطقة الاحتلال البريطانية . على أنه يحذرنا في بدء مقاله من اتخاذ مظهر الألمان وإقبالهم على مؤلفات موسيقية خاصة دليلاً على اتجاه جديد . فقد اعتاد الألمان في مدى اثني عشر عاماً أن يلقنوا الآراء التي يبدوونها . وهم لا يزالون إلى حد كبير معتادين ذلك ، وليس من السهل إنلاعهم عن هذه المادة . فهم يؤثرون أن يتجهوا باتجاهات صاحب السلطان في ميولهم . ولذلك نرى أن مؤلفات الموسيقيين البريطانيين صار لها مكان بارز في المنطقة البريطانية ، بسبب رغبة السلطات في ذلك ، وبسبب رغبة الألمان في إرضاء هذه السلطات .

لقد وقعت الحياة الموسيقية في ألمانيا وقوفاً تماماً أثر التسليم ، بسبب تدمير أكثر دور التمثيل الموسيقي والحفلات الموسيقية . وانصراف الناس إلى تدبير الضروريات لحياتهم . ولكن الموسيقى الآن استيقظت بأكثر مما يتناسب مع الحياة الاقتصادية . والسبب في هذه اليقظة يرجع إلى عوامل ثلاثة : أولها المساعدة التي يلقاها هذا النشاط من القوات المحتلة في المناطق الأربع . ثم نشاط الألمان ودأبهم كدأب النمل في عمله . ثم إحلاس الألمان للموسيقى وتعلقهم بها .

ستائة متفرج ، ومكان الجوقة الموسيقية يسع نحو ستين عازفا . ومن الغريب أن هذا البناء الخشبي كان آية في ثقل الصوت .

ومما يدل على نهضة الحياة الثقافية في همبرج أن أقيمت في يونية الماضي سلسلة حفلات موسيقية ومسرحية ، وكان المستوى فيها عاليا بحيث تعتبر حدثا جديرا بالذكر في أى وقت من اوقات السلم . وعزفت قطع موسيقية مختلفة ، ومثلت روايات موسيقية عدة منها رواية يرسل الموسيقى رالاملنزي القديم : « ديدو وإنياس » ، والرواية الراقصة للموسيقار الألماني هندم : « الخيال النبيل » ولعل المانيالم تشهد في السنوات الأخيرة ما يماثل برامج هذه الحفلات في حسن لاحتيار .

ولا يقتصر النشاط في المنطقة البريطانية على همبرج وحدها ، ففي كولوني مدينة نهر الراين ، حيث تهدم أكثر الدور ، استعملت القاعة الكبرى في الجامعة للحفلات الموسيقية وممثل « الأوبرا » ، وأعيد تأليف فرقة « جورزنيخ » للموسيقية ، وإن كانت القاعة الشهيرة الذي استمدت الفرقة منها هذا الاسم قد دمرت . وفي برنسيك نشط المدير الموسيقي هاتز شترومباخ فأخرج بعض المؤلفات الحديثة .

والحال في المناطق الأخرى لا تقل عن المنطقة البريطانية ، ففي مونيخ عزفت عدة مؤلفات موسيقية كبيرة ، من بينها السنفونية الثانية من تأليف ماهر ، وهي تحتاج لفرقة موسيقية وجوقة غنائية . وفي برلين استأنف كل من فرقة الأوبرا الحكومية ، وهي واقعة في المنطقة الروسية ، وفرقة أوبرا شرلوتبرج الواقعة في المنطقة البريطانية ، نشاطهما في مسارح أخرى . وخسرت فرقة فيلهرمونك ببرلين بعض أعضائها بسبب نظام التطهير من النازية ، ولكن مستواها لم يزل عن عادته . ومما هو جدير بالذكر أن السواد الأعظم من

مهرة العازفين لم يكونوا من النازي إلا بالاسم . وأكبر قواد هذه الفرقة الشهيرة هو الآن شاب روماني اسمه سرجيو سليبيداك . ولكن الناس يلحون في عودة فورتهاجلر . ولقد قوبلت سياسة تشجيع الموسيقى من الموسيقيين الألمان بالترحاب ، لأنهم استطاعوا الآن أن يتفلسفوا ربح العالم الخارجي . وهم منصرفون إلى تعرف للمؤلفات الموسيقية التي كانت محرمة عليهم في عهد النازي ، واكتشاف المؤلفات التي كانت مهمة ، ولقد أبدى أحد مشاهير العازنين على البيانو حماسة كبيرة في العودة إلى أناشيد شومان المسماة « حب شاعر » وكانت هذه الأناشيد محرمة ، لأن صاحب الشعر هو هيني الشاعر الألماني اليهودي . وتعزف الآن في كل الأماكن قطعة مندلسون للكنجة وهي أيضا كانت محرمة بسبب أصل مؤلفها . ومما يلاحظ هذه المناسبة أن نسبة الذين يحيدون العزف على الكنجة من اليهود كبيرة . ولذلك لم يبق في ألمانيا من مشاهير العازفين على هذه الآلة الموسيقية غير قليل . ومما يلاحظ أيضا أن ألمانيا لم تحدث حدثا جديدا في التأليف للموسيقى أثناء السنوات العشر الأخيرة ، وأن المؤلفين المعاصرين متأخرون عن أقرانهم في البلاد الأخرى ، ما عدا للموسيقار ريكارد شتراوس ، الذي بلغ الآن الثانية والثمانين من العمر ، وهو يشرف على تقلبات الحياة الألمانية من على ذلك قابت الدوائر للموسيقية مؤلفات للموسيقين الألمان الذين عاشوا خارج ألمانيا باهتمام . ويتوجه هذا الاهتمام بصفة خاصة إلى هندم ، فؤله تسمع في كل مكان . وقد دعى إلى برلين ليتولى إدارة الأكاديمية الموسيقية . واهتم الموسيقيون أيضا بمؤلفات سترافسكي . ويهتمون أيضا بمؤلفات المعاصرين من الروس . والظاهر أن السلطات المحتلة في جميع المناطق تتبع طرقا واحدة في تشجيع النشاط الموسيقي ،

أنه نال شهرته حتى قبل عهد النازي ، ولا تزال شهرته كبيرة حتى الآن ، ومع أنه اظهر شجاعة في أول عهد النازي حين رفض أن يفصل اليهود من أعضاء فرقته الموسيقية ، واستقال من منصب ثقافي كبير في سبيل الدفاع عن الموسيقى هندمت . وإذا كان قد شغل فيما بعد مكانا بارزا في حياة الموسيقى في عهد النازي ، فذلك بسبب كفايته الممتازة ، ولا يعرف عنه أنه اهتم بالسياسة .

وهكذا نرى الألمان في محنتهم لم ينسوا الموسيقى وما لها من تأثير كبير في حياتهم اليومية .

والخلاف بين هذه السلطات أقل في هذا الناحية منه في نواح أخرى . على أن فكرة تطهير الحياة الموسيقية من النازي قد بولغ فيها في بعض المناطق . ولذلك نجد مثلا أن المنطقة البريطانية طردت جماعة من أمهر المازفين وهم الآن يبدون نشاطا موسيقيا كبيرا في المنطقة الفرنسية ، في حين أن الروس احتفظوا بجميع مشاهير المغنين في دار الأوبرا مع أنهم كانوا مشهورين بميولهم النازية . والأمريكان أيضاً يعملون على إبعاد الموسيقيين الذين شغلوا مركزاً هاماً في زمن النازي . ولقد تضايق الألمان من إبعادهم للموسيقار فورتشاجلر مع

فن الحديث الصحفي

هذا التصرف ، فكان يمثل هذه الأسئلة البسيطة يفتح له القائد أو السياسي قلبه .

ويقول لدقيج إن من الواجب على الصحفي أن يدرس أخلاق العظم الذي يريد أن يتحدث إليه بكل الوسائل الممكنة . والصورة الفوتوغرافية هي ضرورة أساسية ؛ ففيها تظهر خصائص الرجل على وجهه بالرغم من إرادته . ومن الواجب على الصحفي أن يجذب إليه اهتمام المسئول ، فلا يقنع بمجرد السؤال والجواب ، إذ من الخير في هذه الحالة أن تفضل الأسطوانة الحاكية . فليس الغرض أن يذكر المتكلم آراءه ، بل الغرض الحقيقي هو طريقة الحديث وحالته العقلية عند الإلقاء بالحديث . فقد لا يهمنا سؤال مركوني مثلا ما هي عواطفك عند اكتشافك التلغراف اللاسلكي ، بقدر ما يهمنا سؤاله كيف حدث أن قضيت أنت وغيرك من العلماء سنين عديدة إلى جانب هذا الاختراع .

وذكر لدقيج أنه استطاع أن يمضي عدة أيام في حديث مع أديسون المخترع الشهير

كتب إميل لدقيج الكاتب الألماني الشهير مقالا ممتعا في مجلة « ريفي دي پاري » - عدد ديسمبر سنة ١٩٤٦ - عن فن الأحاديث الصحفية وهو يرى أن هذا الفن من أمتع الوسائل الصحفية وظيفتها ، وأنه ليس مجرد نقل حديث كما قيل حرفيا بل إنه يحتاج إلى فن وأسلوب أكثر مما يعتقده القارئ العادي .

وأول خطوة في هذا الفن هو إظهار البساطة ، وذلك ما يمتاز به الصحفيون الأمريكيون . فإن مشاهير الرجال يؤثرون بأحاديثهم للصحفي البسيط على الرجل المتعالم الذي ياقشهم القول .

وذكر الكاتب أمثلة من حياته عندما كان صحفيا مبتدئا أثناء الحرب العالمية الأولى ؛ إذ عهد إليه في التحدث إلى عدد كبير من الأمراء والقواد ورجال السياسة ؛ وكان قليل العلم بأمور السياسة ، فكان يوجه إليهم في نسائهم أسئلة يتحاشاها عادة العالم بالأمور . كان يسأل أحدهم لماذا تصرف أمس مثل

وأخذ منه أجل الاجابات ، وذلك لأنه لم يمس قط الجانب الفنى . وقد وجد فيه رجلاً ذا شعور حساس ، تكفى مجرد الاشارة ليفتح كنوز عقله . ففى ذات مرة كان يتحدث إليه فى وحدات ليبتز وشبهها بما كان من أمر فاوست . وعلى حين فجأة أمسك بيد امرأته التى كانت جالسة إلى جانبه وقال ضاحكاً : « وهذه هى مرجريت » .

ويجب ألا يتحدث الصحفي إلى المثرى الكبير فى أمر قيمة النقود ، بل يدفعه إلى الكلام فى هذا الأمر بوسيلة أخرى . وروى لدقيج أنه دفع روكفلر مرة إلى هذا الحديث بأن قص عليه مسامحه قصة صغيرة . وتحدث لدقيج مرة إلى ميلون الثرى الصموت وصاحب البواخر العديدة ولقبه فى أثناء الحديث بتاجر البندقية ، فكأنه فك بذلك عقدة لسانه وسمع منه أبدع القصص عن بواخره وثروته .

وكان يتعشى ذات مرة فى نيويورك مع عشرين من كبار الرجال ذوى النفوذ فى أمريكا ، وكان هو الوحيد بينهم الذى لا يملك مالا ، وقد أراد أن يصل إلى قصص ارتقائهم ، فروى كيف قام ذات مرة فى سويسرا برحلة لارتقاء الجبل الأبيض الشهير ، وكيف بلغ القمة بعد تعب كبير ، ولكن الجو كان بارداً والهواء لاثخاً ، فقل فى أسرع وقت . ووجه إليهم الحديث سائلاً هل هذا شأنهم فى علومهم الآن ؟ فنظروا إليه وكأنما كانوا ينظرون إلى معنوه ، ثم أخذوا واحد منهم بعد الآخر ، ومنهم شواب وكاهن ولورز ولامونت ، يروى كيف تسلى قمة المجد فى صعوبة وتعب ، ولكنه حين بانها ، وجد الدفء والسماء الصافية . وكأوا بعد ذلك يفتحون له قلوبهم فى كل فرصة . قالوا جب إذن على الصحفي المتحدث أن يظهر شيئاً من البساطة بل النقلة . وقد حدث لدقيج ذات مرة أن دفع هنرى فورد

القليل الكلام إلى النطاق بعبارة تسترعى النظر . فقد كانا سائرين فى الطريق ، فرأى لدقيج سيارة صغيرة فاخذ يمتدحها ، وسكنه سأل سؤال للتجاهل : « أظن هذه السيارة أكبر بعض الشيء من النموذج لذى تخرجه مصانعك ؟ » فاستولى على فورد شعور الام التى ترى تجاهل أبنائها فتحركت عيناه حركة خاصة ، وقال : « إنها إحدى سياراتى . لقد أخرجت ١٤ مليوناً مثلها » وفى هذه العبارة القصيرة وصف حياة جد طويلة ودل على خيال واسع .

ومن الطرق التى يراها نافعة للصحفي للتحدث إذا أراد مقابلة عظم أن يتعرف إلى خصومه ، والفرض من ذلك لا تصديق أقوالهم فيه بل معرفة مآلديه من المسائل الحساسة التى تثيره وتدفعه إلى الرغبة فى الحديث وبحب ألا يشتم العظيم رائحة الخصوم ، بل يحب الحذر غاية الحذر فى هذا الأمر ، فقد حدث أن قابل صحفى ألماني موسولينى وسأله « ذا يحدث يا صاحب السمو بعد وفاتك ؟ » فانهت للمقابلة عند هذا الحد .

وللصحفى الذى خبر التأليف للمرح يكون فى يده سلاح قوى ، فالكثافة للمرح تقتضى إدارة الحوار فى مهارة وبطريقة تقسانية ، وإن كان المتحدث لا يذكر اخوات الماضى كما يفعل المؤلف المسرحى . فقد ذهب لدقيج ذات مرة إلى لندن خاصة لحدث لورد جراى وزير الخارجية البريطانية عند ما أعلنت حرب سنة ١٩١٤ على ألمانيا ، واحتتم به فى حفلة غداء ، ودار الحديث على جلسة مجلس العموم فى اليوم السابق . وقد جاء فيه ذكر خلاف برز بين الوزراء ، وأخذ لورد جراى يشرح الموقف ، فقال لدقيج وكأنه يتحدث لنفسه : « هذا شبيه بموقف يوليه سنة ١٩١٤ » وقال هذه العبارة فى صوت خفيض ولكنه مسموع ، وإذا باللورد بعد الغداء ينتحى به

ناحية ويتكلم في إسباب يسوغ موقفه في تلك الفترة الخطيرة ، وكيف أنه لم يكن يستطيع منع سير الحوادث إلى الحرب . ولو ان لدقيج ذكر هذا الخلاف رسماً للورد على صورة سؤال لتلقى رداً قصيراً قاتراً ولما استرسل اللورد في الحديث .

وكثيراً ما تكون العبارة القصيرة التي تلقى إلقاءً أبلغ أثراً من الأسئلة الطويلة في اجتذاب الحديث . ولذلك ربما كان الصحفي الصوت نقوى الملاحظة اتقمع من الصحفي المدرب اللسان الذي لا يلاحظ الظروف والواقع أن الأذن تطغى أكثر من العين . ولقد لاحظ لدقيج ذات مرة كاتب رئيس الجمهوريات السرفيقية في مادة غمة فيها ، لو ان من الطعام الشهى يكفي محساء بسيط ، مما يدل على ان هذا المزارع اصلاً لا يزال يحافظ على تنفس . كما رأى تروتسكي ذات مرة يتلقى نافذة في عناية بالغة مما يدل على أنه رجل عمل قبل أن يكون رجل نظريات وفلسفة . ولاحظ أيضاً أن جميع الدكاتوريين تكون أيديهم عادة ناعمة وممتلئة بها بالرغم من انهم قضوا زمناً عمالاً ، وذلك يدل على انصرافهم للتفكير أكثر من العمل . وفي سنة ١٩١٦ كان حاضراً وليمة عشاء ، فلاحظ نظرة ألقاها الجنرال فون سيكت الألماني على رئيسه فون ماكتزن ، ومن هذه النظرة عرف أنها على غير وفاق ، وظهر عدوهما سافراً فيما بعد .

ومن الصعب إيجاد الاتصال الواجب إذا كان المتحدثون من ذوي المراكز العالية . فستالين مثلاً كانت تترجم له أقوال محدثيه وذلك مما يجعل الاتصال الشخذي يكاد يكون مستحيلاً . أما الملك فيكتور عمانويل ملك إيطاليا السابق فقد حادته لدقيج باللغة الإيطالية ولكنه ظل متحفظاً ، ودار الحديث على بسمارك الوزير الألماني شهير ، فقال للملك : « إنه عمل كل شيء بمفرده » ، وحينئذ قال

لدقيج إن الفضل للامبراطور غليوم الأول الذي اختاره . فسأله الملك فجأة : « هل اختاره حقاً ؟ » ومن هذا السؤال عرف الصحفي مركز الملك من وزيره موسوليني . وفي سنة ١٩٣٢ أراد لدقيج أن يضع كتاباً عن موسوليني ، فظل مقبلاً في روما واستأذن الدكتور في أن يلازمه بعد الظهر مدة أسبوعين ويحدثه مرات ، وكان قد أعد سلسلة من الأسئلة والاجابات المحتملة عنها ، وكان يسجل كل عبارة وكل تغير في ملامحه أو إشارة من مده ، وكان موسوليني يجيبه إجابات واضحة . وقد شعر بالتعب من هذه الجلسات أكثر مما ظهر على الزعيم الإيطالي . وكان الزعيم يقبل معارضته في بعض المسائل بسعة صدر على أن لدقيج كان لا يعارضه في حضرة ثالث .

ومما يرتاح له الدكاتوريون أن يقارن بينهم وبين نابليون وقد تمكن لدقيج بمثل هذه المقارنة من أن يجتذب إليه الزعيم التركي كمال باشا ، فانطلق لسانه في الحديث وأخذ يشرح بعض نقائص نابليون وكيف يمكن اجتذاب مصيره

وقابل لدقيج في سنة ١٩١٥ زعيماً تركيا آخر هو أورهان باشا وأراد أن يجري تجربة معه ، فبينما هو يتحدث إذ بالصحفي يضع يده في جيبه فجأة ، فإذا بالزعيم يفعل مثله . وكان من الظاهر ان الزعيم قبض على مسدس في جيبه إذ خشي الاعتداء عليه . وقد حارب الصحفي مثل هذه التجربة مع ستالين وموسوليني ولكنهما كانا ثابتي الجنان مع أنهما يحملان سلاحاً بلا ريب ، ولكنهما كانا من النباهة بحيث فهم أن الصحفي إنما أقدم على تجربة . وسأله ستالين سؤالاً عجيباً ذات مرة بعد أن قضى معه ثلاث ساعات . فقد قال له : أحب أنا أيضاً أن أوجه إليك سؤالاً هاماً . إنك ستريح تقوداً بفضل هذا الحديث . فهل أنت على استعداد لهبة شيء من المال الذي

رجال الولايات المتحدة ، وهو أيضا من الذين يحبون الفكاهة ، وهو يستطيع التحدث إلى الفلاحين وعامة الناس والاختلاط بهم في بساطة .

والجنرال باتون يكلف بالتصنع ، ومع ذلك لا يتخرج من السخرية من نفسه ، فقد روى لدقيج ذات مرة أنه عندما عبر نهر الراين في سنة ١٩٤٤ ارتدى على الأرض كما فعل سيبون القائد الروماني ، وقال إنه فعل ذلك تقليداً للأسطورة .

وحدث للمصحف لدقيج ذات مرة حادث غريب ، وهو أنه قابل هنري بورديو الكاتب الفرنسي المعروف ، وكان الحديث ظريفاً طبعاً ولكن عندما خاضا في السياسة أبدى الكاتب الفرنسي تحفظاً فأفهمه لدقيج أنه لا ينوي نشر هذا الحديث السياسي وخذ لدقيج بكلمه في بساطة . وبعد بضعة أيام يجد هنري آراءه منشورة في إحدى المجلات الباريسية ، فاذ بالرجل الذي ظنه خائفاً فوعده أن لا ينفذ بشيء قد خدعه وأخذ منه حديثاً .

ترجمه للأطفال الألمان المعوزين ؟ وقد دفع لدقيج بعد ذلك ، إذ ربح شيئاً من المال ، جزءاً منه لجمعية الأيتام ، وأرسل الإيصال للزعيم الروسي .

ويقول لدقيج إن قداسة البابا هو آخر زعيم يحتفظ بتقاليد لماضي ، إذ يجب لمنازلته الذهاب في سترة سوداء عند الظهر وركوع والانتظار حتى يسمح لمحدثه بالقيام إذا رغب في ذلك . وكان البابا السابق يترك محدثه راكماً ، وبذلك كان الحديث يكاد يكون مستحيلاً . أما البابا بنديتو الخامس عشر فهو سياسي قدير وسيد كبير . كان يتحدث بحماسة في الموضوع السياسي الذي يثار بقوة وحرارة . وكان روزفت طبيعياً في حديثه ويجب الفكاهة والنكات . ولكن يجب أن يظهر المتحدث لباقة ، فقد لمح أحد الحضور ذات مرة بين يديه إلى فضيحة تنزى إليه في شيكاغو عند ما رأى تبسطه في الحديث فامتنع لونه امتناعاً شديداً .

ويعتبر هنري والاس الآن من خيرة

ظہر حدیثا

الفلسفۃ الاورینیۃ فی العصر الوسیط للآستاذ یوسف کرم (دار الکتاب المصری)

لقد بدأ الأستاذ المؤلف سلسلة مباركة عام ١٩٣٥ ، فأرخ للفلسفة اليونانية في كتاب عد — ولا يزال — من أدق وأكمل مصادرها الحديثة في العربية . وبقينا نتوقع أن يتابع الخطى ويستمر في السير ، خصوصا وفي الحلقة الأولى ما يشوق إلى حلقات تليها وترتبط بها . وما هوذا يحقق رجاءنا ، ويقدم لنا « تاريخ الفلسفة الاورينية في العصر الوسيط » ، فأضاف حلقة أخرى في تكوين السلسلة الذهبية التي ينشدها لتاريخ الفكر الفلسفي .

وقد قسم كتابه هذا إلى مقدمة وأربعة أبواب : فعرض في المقدمة للفلسفة المدرسية في خصائصها ومميزاتها ، وحاول في الباب الأول أن يبين أسانئذتها وأصولها ، وفي الباب الثاني أن يشرح عوامل تكوينها ، وفي الباب الثالث أن يوضح مظاهر أوجهها واكلالها ، ثم انتهى به اللطاف في الباب الرابع إلى وصف مظاهر انحلالها وتلاشيها . وهكذا بدت هذه الفلسفة على يديه في صورة كأن حي مر بأدواره الطبيعية : من نشوء وتكون ، إلى كمال ونضج ، ثم إلى تدهور وانحلال . ولسنا في حاجة أن نعرف بمؤلفنا في أسلوبه ومنهجه ؛ فقد امتاز بالضبط والدقة التي لا تعرف للحشو مجالا ولا تترك للتردد محلا ، دقيق اللفظ مضبوط العبارة ، في غير ما غموض ولا تعقيد ، وما أحوج العالم إلى ألفاظ دقيقة تؤديه وعبارات مضبوطة لا تشوه معالنه . وأما منهجه فتطبيق المنهج

التاريخي في صدق ونزاهة ، فلا يصدر إلا عن المنبع الأول ، ولا يحكم على فيلسوف إلا في ضوء ما قال وما كتب . وهو في كل هذا مرتب منسق ، يقسم الباب إلى فصول ، والفصل إلى أعداد ، والمعد إلى فقرات ؛ تبويب محكم وسير منظم .

وليس يسير أن ترتب الفلسفة المدرسية المسيحية ونبويها ، لأنها تصدق على مرحلة طويلة من الزمن ، فتبدأ من القرن الرابع الميلادي وتمتد إلى القرن الرابع عشر . عشرة قرون أو تزيد تتلاحق فيها الآراء والأفكار ، وتشابه الشخصيات والمدارس ، وقل أن نحظى فيها بعقيدة ممتازة ، أو تجديد بارز يخرج على القديم المؤلف ؛ وفي هذا ما يحول دون وضع الفواصل المحكمة بين جيل وجيل ، ولا بين مدرسة وأخرى .

ومفكرون هذا شأنهم لا يأتقون من أن يقفوا طويلا عند الدارج والمألوف ، ولا ينفرون من بعض الغريب والمستعجن . وكثيرا ما يردد بعضهم بعضا ويكررون ويعيدون ، أو يجمعون ويلفنون . وليس شيء أثقل على المؤرخ من أن يجاريهم في سيرهم ويحاول أن ينقل صورة صادقة عنهم ، وبمها لخص واستخلص وتفتح وهذب فلأصل عليه دون نزاع تأثير .

وأمل هذا هو السر فيما نلاحظه لدى مؤلفنا من وقفات كما نود لو قصرت ، وأسماء ربما كان الأولى أن يمر عليها من الكرام . ويظهر أن متابعتة للقرون في تلاحتها تفي

لوحة مستوعبة للفلسفة المسيحية ، وقد سد
قصصنا بحسب جميعا في اللغة العربية .
وسيجد فيه طلاب الفلسفة الاسلامية مجالا
لمقارنات وموازنات كثيرة، وسيدر كون أكثر
من ذى قبل أن فلسفة القرون الوسطى —
مسيحية كانت أو إسلامية أو يهودية —
تخضع لموامل متقاربة ومتشابهة . وكم نود
لو وقف مؤلفنا الفاضل عند أوجه التشابه
والتقارب هذه ، ولو قليلا، ولكنه أثر فيما يظهر
أن يرجئها إلى حلقة أخرى من سلسلته للتصقة .
وإننا إذ نقدر ونسجل مجهوده الحالى
نرجو له دوام العافية والتوفيق ليتحفنا بثمار
جهوده المستقبلية .

ابراهيم مركور

عليه بأن يسرد في كل قرن طائفة من أسمائه ،
كيفما كان وزنها ونوعها . وأخشى ما أخشاه
أن تطنى مدارس وأشخاص من الدرجة
الثانية أو الثالثة على تلك التى تعد في الدرجة
الأولى . وعلى كل يشعر القارئ بأنه كان في
حاجة إلى بيان أتم وتوضيح أكثر للخصائص
العامة والمميزات الرئيسية للجيل أو المدرسة ،
بدل تتبع بعض الأفراد في حياتهم ومؤلفاتهم .
ولا شك في أنه يفيدنا أن نقف على حركة
بعض الآراء والنظريات الكبرى ، لا أن
نضل في ثنايا بعض انتقاصيل والجزئيات .
ومهما يكن من أمر هذه الملاحظات ، فإن
« تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط »

أقوالنا وأفعالنا للأستاذ محمد كرد على (دار إحياء الكتب العربية - القاهرة)

أنه رجل صريح الرأى في الناس ، لا يكاد
يخفى على أحد رأيه فيه وإن أغضبه ذلك
الرأى وساءه . عرفت ذلك من بعض ما قرأت
في هذا الكتاب من صور الناس ؛ فانه
ليصف بعض أصحابه صفات أحسبها لا ترضى
أحداً منهم لو عرف ، وهو مع ذلك لا يحاول
أن يلقي على بعض من يصف حجاً بما يحول
دون معرفته باسمه ورسامه ؛ فلو شاء القارئ
لوضح اسم كل منهم بأزاء صفته . على أن
الكتاب إنما يتناول موضوعات عامة وإن
جاءت هذه الصفات التي أشرت إليها في بعض
الحديث للشاهد والدليل .

ويخص المؤلف مصر والشام بما يقصد من
الحديث عن « أقوالنا وأفعالنا » وإن أوهم
العنوان عموم البلاد العربية ، أو لعله لم يقصد
إلا الحديث عن سورية وإن لم يكده بتقل
مرة واحدة عن ذكر مصر ، حباً لها

وهذه أيضاً طائفة من المقالات ولكن
بينها وحدة جامعة ، فالكتاب كما قد يدل
عليه عنوانه يتحدث في موضوع واحد ، فهو
يصف المبادئ والأخلاق في بلاد العربية ،
والحال العامة في الأقوال والأفعال كما رآها
رأى العين أو رأى العقل في هذه البلاد .
وهو فيما يصف من تلك الحال يقصد إلى
الإصلاح والنقد في أسلوب صريح قد يجد فيه
بعض القراء لونا من العنف أو نوعاً من
الاسراف ، ولكن رجلاً في مثل مقام
الأستاذ محمد كرد على قد اجتمع له ما اجتمع
من التجارب ومر به ما مر من الأحداث
وشاهد ما شاهد من الصور — من حقه
أن يعنف في النقد وإن يسرف في الملامة ،
وأن يصطنع المجاملة في الحديث .

ولقد يجنب إلى — وإن لم عرف الأستاذ
محمد كرد على معرفة صاحب والعشير —

« لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول صاحب للملكة المصرية أيده الله » ، إذ كان المؤلف قد حظى في السنة العاشرة بشرف للثول بين يدي جلالتة ، « وكان من جملة ما تفضل وتحدث به أخلاق بعض المصطنعين من الرجال » .

والكتاب بضعة وثلاثون فصلاً في ثلاثين وأربعمئة صفحة ، تناول فيها كل ما يمكن أن يقال عن ذلك الشرق في أيامه الحاضرة : فقيه الوصف ، والنقد ، والتاريخ ، والتعليق ، وفيه لأسباب والتأنيج ، وفيه العلم والسياسة ، وفيه الآماني والآلام ؛ وهو بكل ذلك صورة نفسية لهذا الشرق كما ترسم في مرآة شيخ من أهل العلم والتجربة عان بنفسه ودرس واختبر ومثل بعض أدوار الرواة . . . فهو كتاب لليوم والغد ، ولعله — على ما فيه — أحسن كتاب ظهر حتى اليوم في تاريخ الشرق الاجتماعي .

وشعوراً بما يربطه إليها من أوامر العربي ؛ بل إن حبه لبصر ليحمله أحياناً على الاسراف في — الظن بها وبأهلها ، فلا يكاد يذكر من « أقوالها وأفعالها » في معرض الموازنة إلا ما يراه حسناً يذكر وقدوة تحتذى . وما أريد أن نتحدث عن مصريتي فأؤيده في كل ما ورد من محاسن المصريين ؛ فلهذه لو نعم الطر في مواطن كثيرة الحمد قومه ! على أني لاحظ في هذه المناسبة أن المؤلف بتدري ما أسرف في لوم المشاركة لبعض ما يراه منهم ، قد أسرف كذلك — في مواطن عدة — في الثناء على الغربيين واعتدهم المثل والقدوة ؛ حتى لكاد يزعم أنهم يقرب من المسلمين إلى الاسم ! ولست عند نفسي بملتزلة التي تسح لي أن أذكر للسيد الجليل مقالة ابن خلدون عن الغالب والمغلوب ؛

وقد أهدى الأستاذ محمد كرد علي كتابه

سنة الامام أحمد أخرجه الشيخ أحمد محمد شاكر (دار المعارف - القاهرة)

ثلاثة آلاف صفحة كبيرة ، بحروف صغيرة ، وكان قد طبع منه قبل ذلك جزء صغير في الهند ، ثم لم يطبع بعد ، على شدة الحاجة إليه وكثرة طلبه .

وقد تهيأ للشيخ أحمد محمد شاكر منذ بضع وثلاثين سنة أن ينظر في هذا المسند ، فحبب إليه أن يستوعبه درساً وقراءة ، فوجده كما يقول « بحرأ لا ساحل له . . . تقطع الأعناق دونه ، بأنه رتب على مسانيد الصحابة ، وجمعت فيه أحاديث كل صحابي متتالية دون ترتيب ، فلا يكاد يفيد منه إلا من حفظه ، كما كان القدماء يحفظون وهيات . . . »

وخطر للشيخ منذ شبابه ذاك أن يعكف

روى أن الامام أحمد بن حنبل لما اجتمع له هذا المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابنه عبد الله : « احتفظ بهذا المسند ، فإنه سيكون للناس إماماً » . وقد حقت كلمة أحمد بن حنبل هذه فصار مسنده إماماً له خطره واعتباره . فلولا أن أحمد بن حنبل من أصحاب الرأي وله مذهب في الشريعة ، ولولا ذنوع مذهبي أبي حنيفة والشافعي دون مذهب ابن حنبل ، لاشتهر مسنده في الحديث وأخذ ذكر البخاري ومسلم وانقرض دون سائر كتب السنة .

وقد طبع مسند أحمد في مصر لأول مرة منذ قراءة أربعين سنة ، طبعه السيد أحمد البياضي الخلي في ست مجلدات كبار ، فيها نحو

كالمقدمات للمستند نفسه ، هذه الكتب هي :

- ١ — « خصائص المسند » للحافظ أبي موسى المديني المتوفى سنة ٥٨١ هـ .
- ٢ — « للمصنف الأحمد في ختم مسند الإمام أحمد » للحافظ شمس الدين الجزري المتوفى سنة ٨٢٣ هـ .
- ٣ — « القول المسدد في الذب عن المسند » للحافظ ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ .
- ٤ — « ذيل القول للمسدد » للمحدث قاضي الملك محمد صيغة الله المدراسي من علماء الهند في القرن الماضي .

وكان لا بد مع ذلك كله من التعريف بجامع هذا للمسند الإمام والترجمة له . فكات الفرصة لنشر الكتاب الخامس ، وهو ترجمة الإمام أحمد مأخوذة بالنص من مخطوطة الحافظ الذهبي « تاريخ الاسلام » . وتقع هذه الترجمة وحدها في بضع وسبعين صفحة ، وتطبع في هذا الكتاب لأول مرة . وقد اقتضاه طبع هذا الجزء من « تاريخ الاسلام » للذهبي ان ينشر إلى جانبه فصلا في بضع صفحات لتعريف بهذا التاريخ ومؤلفه . على انه لم يكتف في الترجمة لأحمد بن حنبل بهذا الجزء الذي نشره من تاريخ الذهبي ، فذكر ثمة حافلا بأسماء الكتب والموسوعات العربية التي يمكن الرجوع إليها لتزود بأكثر مما ذكر الذهبي من تاريخ صاحب المسند ، وعدتها تسعة عشر كتاباً مذكورة بأرقام صفحاتها ، إلى ثبت آخر بالمراجع ترجمة عبد الله بن أحمد ، والقطبي ، الذين روي ذلك للمسند .

فإذا فرغ من هذه التراجم عقد فصلا بعنوان « أصح الأسانيد » لبيان ما يئنيه أهل الحديث بهذه العبارة ، ثم أورد بعد ذلك ثبنا بالأسانيد الضعيفة وعدتها ستة وستون سنداً .

عليه . لا ليستظهره بل ليخرجه للناس مبوياً مرتباً ، محققاً تحقيق أهل الحديث ، معروفاً برواه تعريف أهل السند ، مفهرساً فهرسة كتب العلم ، إلى غير ذلك مما يسر النفع به للخاصة والكافة ، ويجعله إماماً كما أرادته جامعه — عليه رضوان الله — أن يكون . ووقف عليه الشيخ وقت فراغه منذ ذلك التاريخ البعيد ، حتى وفق لما أراد ، أو لكثير مما أراد ، فدفنه إلى دار المعارف لتعينه على طبه ونشره . وهذا هو الجزء الأول منه . خمسمائة صفحة وبضع وعشرون صفحة تضمنت سبعة وعشرين وخمسمائة حديث ، مبوية مذكورة بسندها ورقها ، مضبوطة بالشكل مقسمة تقسيماً واضحاً يسرها لكل قارئ ، مذيبة بتحقيقات في المسانيد وشروح في متن اللغة ، إلى خمسين ومائة صفحة كالمقدمة لهذا الجزء ، فجملته تقرب من سبعمائة صفحة .

ولقد يحق لي في هذه الصفحات المخصصة للتعريف بما ظهر حديثاً من الكتب ، أن أعرض لهذا العمل الكبير بما هو أهله . أما متن الحديث وروايته ومسانيده فاني أدعها للمختصين من أهل هذا الفن ، لأنهم نفسي عليهم فيما لا طاقة لي بالتعمق فيه ، وحسي في هذا الشأن ان أشير إلى مكانة الشيخ شاكر بين علماء الحديث وأصحاب الرأي . وأما الاخراج العلمي للكتاب فحسي في الإشارة إلى توفيق مخرجه أنه حبب إلى هذا النوع من القراءة ولم يكن لي على مثله صبر ولا إليه ابتغاء .

على ان هذه المقدمات التي صدر بها للمسند ، والتي سماها . أو سماها له بعض أصحابه « طلائع الكتاب » جديرة بالتقدير حقاً ، فلم يكتف مخرج الكتاب بما روى من قصته معه ، وطريقته في العمل به ، بل اهتمها فرصة لينشر كتباً أربعة ، أو خمسة ، تتصل بـ ضوع الكتاب وصاحبه ؛ فجعلها

وقد ألحق بهذا الجزء « جريدة المراجع »
 مرتبة على حروف للمعجم في بضع صفحات ،
 ثم فهرس للموضوعات العامة ، مرجئاً سائر
 الفهارس اللفظية والعلمية إلى حين الفراغ
 من طبع السند لينشرها مستوفاة في
 خاتمة .
 ذلك جهد حقيق بأن يذكر في تاريخ
 علم الحديث ، نسأل الله أن يقوم به .

محمد سعيد العربي

في مجلات الشرق

شكيب أرسلان

الاجل وقد تجاوز الثمانين ، ثم تحدث معجلاً عن مكاته في الأدب ومنزله بين أهل الفن وما ترك من الآثار الأدبية ، مطبوعة وغير مطبوعة ، وأشهرها : الحلل السندسية ، الابتسامات اللطاف ، غزوات العرب في أسبانيا ، حياة السيد رشيد رضا ، لماذا تأخر المسلمون . ومن آثاره المترجمة : آخر أيام بني سراج ، أناطول فرانس في مبادله ، حاضر العالم الاسلامي ، وله على هذا الكتاب الأخير تعليقات ضافية وفصول لها اعتبار كبير في ميزان أهل الأدب . وقد أحيانا إلى ذلك طائفة من الآثار الأدبية القديمة ، مثل المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي ، الدرة اليثيمة لابن المقفع ، إلى رسائل ومخطوطات لا يكاد يبلغها الحصر .

لا تزال مجلات الشرق تردد سيرة قعيد العروبة الكبير للرحوم شكيب أرسلان الذي غاثه للنون في ٩ ديسمبر الماضي ولما يمض على مقامه في بلاده إلا شهراً وبعض شهر ، بعد سنين متطاولة قضاه في منفا البعيد جزاء كفاحه المستمر لحرية العرب ومجد العروبة .

وقد نشرت مجلة « الأدب » البهوتية ، في عدد يناير فصلاً ضافياً عن الأمير شكيب أرسلان بقلم أمين محمد أبو عز الدين تحدث فيه عن آل أرسلان منذ أوليتهم فوصل نسهم بالتمعان بن المنذر اللخمي ، ثم تحدث عن أمراءهم في الاسلام منذ عهد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور حتى انتهى إلى الأمير شكيب . فدكر جهاده الوطني منذ كان حتى وافته

عبداً

ثم يتحدث عن مظهر آخر من مظاهر العبودية التي يرسف في أغلالها أهل هذا الزمان ، فيذكر الملائق الاجتماعية بين الناس وما تتطلبه من المداينة والرياء وإحراق البخور لكل ذي مال أو سلطان وحب التشبه والتقليد . ثم يذكر الحياة العائلية في المجتمع الحاضر وما يفرض من زيارات وأعياد وحفلات وولائم وغير ذلك مما لا يتحقق به الإنسان معنى الحرية ثم يسترسل فيما يصف من حياة الأسرى في هذه الأيام حتى ينتهي إلى أن يقول : « أجل ! إن حكم التقاليد والعادات لا تقبل

وفي هذا العدد من مجلة « الأدب » ، مقال للدكتور يقول لافاض بهذا العنوان يقول فيه : « منذ القدم . . . لم يكن الإنسان في زمن من الأزمان أكثر عبودية مما هو الآن ! » ويمضي الدكتور في تأييد دعواه هذه بما يورد من الأمثلة ، فيذكر الحرب الأخيرة وما جرته — وتجره — من ويلات ، فيراها مظهراً من مظاهر عبودية الطمع ، « فما دام الإنسان مطلقاً بالرجاء يدفع به حيث يشاء وله في الحياة ما يرب لا بد منها وحاجات لاغنى عنها فمن المستحيل أن يكون حراً » .

إن إنسان الغابة ليس أكثر استمتاعاً بالحرية من ابن المدينة ما دام في نفسه الظمأ والجوع والخوف والرغبة ، فهو عبد لأن له رغائب ومخاوف وشهوات ، وهو عبد لأنه ليس أقوى ما في الغابة من الكائنات ، وهو عبد لأن الطبيعة تمنحه ما تشاء لا ما يشاء ، وتقرض عليه أسلوب العيش الذي يستطيع لا أسلوب العيش الذي يرجوه ؛ وهو بكل ذلك عبد وإن كان يملك الغدو والرواح حين يشاء إلى حيث يشاء . ثم لم تكن الحضارة من بعد إلا محاولة إنسانية للتخلص من التبعية للطبيعة والخضوع لبعض ضروراتها ؛ فإذا كانت هذه الحضارة قد تسقذت من بعد حتى عادت لوناً من ألوان العبودية ، فذلك لأن الإنسان — على الأرض — لا يمكن أن يملك الحرية المطلقة وهو إنسان ، فاعمال الحرية اعتبار لا حقيقة ما دام الإنسان جزءاً من كل وفرداً من جماعة .

قيوداً من حكم أتيل وجنكيزخان ؛ لأنها تملك على الإنسان تفكيره وتديره ولا تدع له مجالاً للتبصر ولا فرصة للتزوي ، فهو محكوم عليه أن يمشى بلا انتطاع كاليهودي النائم ، وكلما أراد الوقوف أهاب به صوت يقول له سر وإياك أن تقف ؛ اذهب من زيارة إلى زيارة ، ومن حفلة إلى حفلة ، ومن سهرة إلى سهرة إلى أن تموت . . . وهكذا ترى أن أهل اليسار « والبسطة في العيش » أكثر عبودية من سواهم . . . ليت شعري ، أينكر الدكتور فياض هذه العبوديات أم ينكر هذه الحضارة وإنما هما أمران متلازمان لا سبيل إلى انفصل بينهما . ومن أين للإنسان أن يكون حراً وهو الذي اصطنع هذه الحضارة بقيودها فراراً بنفسه من العبودية للطبيعة ، والطبيعة أقوى سلطاناً على الحي من للدنية بقيودها وعاداتها وما اصطنعت من التقاليد ورسوم الاجتماع !

إخوان الصفاء

ويستمر في افتراض هذا مستنداً إلى ما بين يديه من براهين ، ملاحظاً ما بين رسائل إخوان الصفاء ومباحث جابر بن حيان من تشابه واتفاق ، ثم يتبع حياة جابر في غموضها وما يكتنفها من الريب . فينتهي إلى افتراض آخر ، وهو أن جابر بن حيان هذا قد يكون شخصية خرافية أسطورية ، ثم يسأل عن الحلقة الجامعة الخفية التي تصل هذه الشخصية الأسطورية بإخوان الصفاء الذين يتشابه وإياهم فكرة وأسلوباً وملاحح وغاية وإضماراً للوثنية !

وكانما أحسن الباحث في خاتمة القول مخطوطة ما وصل إليه من النتائج ، فهو يترث حذراً ليسأل : « أين إخوانه (إخوان

ويحاول الأستاذ حبور عبد النور أن يثبت صلة ما بين الصابئة الوثنية وبين إخوان الصفاء ، فيأشر بحثاً متمماً في ذلك العدد من مجلة « الأدب » عنوانه « معالم الوثنية في رسائل إخوان الصفاء » ، فيتبع تلك الرسائل تتبعاً علمياً دقيقاً في أناة وصبر وملاحظة واعية منهيّاً بالمقدمات إلى نتائجها المنطقية حتى يخلص إلى ما يريد ، فيزعم « أن إخوان الصفاء كانوا من الصابئة أو أي نوع آخر من عبدة الكواكب السيارة ، وأنهم لا يصرحون في الرسائل العامة بما يضررونه من عقيدة وثنية ، وإنما يشيرون إليه بإشارات خفيفة لا يمكن حيينها إلا بأعمال الروية والاستنتاج والمقابلة بين نص وآخر والموازنة بين فكرة وفكرة . »

الاجابة عليها في الوقت الحاضر بما يطمئن إليه التحقيق العلمي ، ولكننا نطرحها على بساط البحث آمليين أن يتصدى لها من يجب عليها إجابة مرضية . »

جابر (وإخوان الصفاء قراءة ؟ أيؤلفون جماعتين تدافعان عن فكرة واحدة ، وتسعيان لغاية واحدة في زمانين متباعدين ؟ ما حقيقة جابر بن حيان ؟ ... كل هذه الأسئلة لا يمكن

أنصار الأدب

— أنصار الرسالة الواعية والنهم القومي —
وجعلت اشتراك الأنصار — لمن يشاء منهم أن يؤازرها فيما هي بسيله — ١٤ جنيتها مصريا ؛ لتتمكن بما يجتمع لها من اشتراك الأنصار ، من متابعة سيرها في أداء رسالتها .

يالها معابة في وجه قراء العربية في مختلف أقطارها ، أن تكون مجلة مثل « الأدب » من أن تقسم بالمنزلة التي تحملها مكرهة على أن تتقدم إلى قرائها بمثل هذا الرجاء لتلتبس أسباب الاستمرار ! وكم مجلة في العربية مثل الأدب ، على حين تعيش في بحبوحة مثاث من المجلات لا أسميها ولا أصنفها !

ولكني آمل أن يكون عند قراء العربية من الوعي ما يحملهم على أداء واجبهم لهذه المجلة التي تذكر في طليعة المجلات العربية حين يبدو لنا أن نباهي بما بلغنا من المنزلة في الصحافة الادبية الراقية .

هذا عدد من مجلة « الأدب » — ككل عدد من مجلة « الأدب » — غني بما فيه من ألوان الأدب والفن والبحث العلمي الناضج ؛ فلو اتسع لي المجال لنوهت بكل مقالة فيه ، عرفانا بحقه ، ولا يزال لبنان وأدباء لبنان في الصف الأول من قادة الفكر العربي وأسائذة فن الصحافة . وإنما أقولها اليوم ، وما قلتها من قبل ، لمناسبة كلمة قرأتها في هذا العدد وقرأت مثلها في العدد الذي سبقه ، عنوانها « في سبيل رسالة الأدب » تتحدث فيها أسرة التحرير في هذه المجلة التي أمت خمس سنين من عمرها المديد — إن شاء الله — دائبة على نهجها الرفيع — عما تلقى من ضيق مادي يحملها على أن تتوجه إلى أنصارها بالرجاء أن يعينوها على أداء الرسالة التي تهض بها منذ نشأتها . وفي سبيل التماس هذه المعونة من أنصارها جعلت الاشتراك فيها على نوعين : اشتراكا عاديا ، واشتراك الأنصار

مكتبة الإسكوريال

خزائن الأندلسيين والمنارية ، وتبلغ عدة هذه المخطوطات نحو ألفي مجلد ، هي كل ما بقي بعد الحريق الذي شب في الاسكوريال منذ ثلاثة قرون .

ولا شك أن أكثر هذه المخطوطات أو كثيراً منها معدوم النظير في المكتبات

في عدد يناير من مجلة « المرة » التي تصدر عن إدارة المراسين البولسيين بلبنان مقال بعنوان « الاسكوريال في أسبانيا » لفنيكونت فيليب دي طرازى يتحدث فيه عن دير الاسكوريال ومكتبته وما تشتمل عليه من المخطوطات العربية التي آلت إلى أسبانيا من

ويجرت في هذا الحديث إلى حديث آخر تمت إليه بسبب ؛ فإن بعض المخطوطات العربية التي لا تزال بين أيدينا لم تزل حتى تتسرب شيئاً بعد شيء ، إلى مكتبات الأوربيين الذين يتصيدونها من المكتبات العتيقة فينقلونها إلى بلادهم ونحن أولى بالاحتفاظ بها . فها شرعنا قانوناً يمنع تسرب هذه الآثار العلمية إلى خارج البلاد على مثال القانون المفروض لحماية سائر الآثار ! وإلا فإذا يجدي علينا أن نطالب بما ليس في أيدينا والذي في أيدينا لا يكاد يبقى لنا !

وقد قيل إن اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية بسبيل عمل من هذا النوع فما أحراها أن تجد جدماً لفرض مثل هذا القانون والعمل على أن تضم مكتبات الشرق كل تراث الشرق المبعثر في بلاد المتحضرين وغير المتحضرين على السواء !

العربية ، فهي ولا شك ذات صلة بماضيها العلمي والفني ، تفرض علينا العناية بالاطلاع عليها ومعرفة محتوياتها والنظر في أوجه الاستفادة منها ؛ وحسبنا ما ضاع من تراثنا العلمي في عصور الجهل والانهطاط ، وما نكبتنا فيه الحروب والغارات في التاريخ القديم .

لست أعني أن نطمع في الحصول على ما تضم هذه المكتبة من نقائس المخطوطات العربية بغير حقه ، فإنا لملك وسائل أخرى للاقتناع بهذه المخطوطات في نهضتنا العلمية الحاضرة بإيفاد بعثة من التخصصين لاستنساخ هذه النقائس أو تصويرها ، واستنساخ مثما في خزائن الفاتيكان وغيرها في عواصم أورنا ، حتى لا نظل جاهلين أبداً بتراثنا العلمي الذي تضمه تلك الخزائن البعيدة ونحن نزعج أنفسنا قد بلغنا من الوعي العلمي المبلغ الذي يحملنا على المباهاة والتفخر .

سمر الليالي

ألسنة السامرين ، فيها وصف حي لبعض عادات أهل البادية في أسلوب ممتع ، وحوادث ملسلة فيها إمتاع ولذة وفيها علم ما لا نعلم من أخبار سكان الوب .

وفي العدد نفسه من مجلة « المسرة » الحلقة الثانية من سلسلة قصصية ممتعة عنوانها « سمر الليالي في القلمون » لخورى نقولا دمبر ، يقص فيها قصة بدوية مما يجرى على

العقل والله !

قرأت الأبيات الآتية للشاعر الصافي النجمي ، في مجلة « الاعتدال » التي تصدر في النجف - العراق :

إذا طغى العقل على ربه	فالعقل معناه هو الجهل
يعتدس العقل على خالق	من بعض مصنوعاته العقل !
إن بأن فضل العقل في صنعه	فصانع العقل له الفضل
عبده لم أدر ما كنهه	والجزء هل يعرف ما الكل ؟
لم أدر إلا أنه خالق	وأنتى لشمسه ظل

وضعنا الاجتماعي

على جذوعها ، والامتصاص من جذورها ،
والتطعلب على حفافها ، والنشوة بما تهبث من
أسباب « الاستحمام في الجماهير » والاسفاف
إلى مستوى الفرائث .

ويمضي في تفصيل ما أجمله من أثر السياسة
في تعوق التقدم الاجتماعي وضرب الأمثلة
وتفريق الفروع تدعيماً لرأيه .

وأما الأستاذ روي فيصل ، فينسب ذلك
إلى جهل المرأة وإغفالها :

« فما أشك أننا مطلقاً في أن تحرر للمرأة
هو نقطة البداية في موضوع التقدم والرقى
والقوة . . . وإذن لو قدر للمرأة أن تتثقف
الثقافة النسوية والأخلاقية والعلمية أيضاً ، ثم
أن تدرك أنها في عبودية فرضتها هي على
نفسها ولا أقول فرضها الرجل عليها ، هنالك
تستطيع أن تشرك نصفها الآخر في شتى
مبادئ العمل وأن تقوم بتصحيحها من الخدمة
العامة . . . »

وتوجهت مجلة « المعرفة » التي تصدر في
دمشق إلى فريق من قرائها تسألهم : « ما هي
الظاهرة الاجتماعية التي تعوق تقدمنا الاجتماعي »
فأجاب الدكتور صبحي أبو غنيمه :

« أنا لا أعتقد أننا لم نتقدم اجتماعياً من
حيث العلم . . . نحن نباشون في قافلة البشرية .
ولكننا نتقهقر أخلاقياً مع هذا العالم المتقهقر
أخلاقياً ، ولعله - في نظري لم يمر على البشرية
دور هوت فيه إلى الدرك الأخلاقي المنحط
كهذا الدور ، ونحن مع الأسف نسير أيضاً في
القافلة . . . فهي نفس الظاهرة التي تعوق تقدمنا
الاجتماعي . وفي زمن ما كان الأنبياء يقولون
عثرة البشرية كلما تدنت ، وهم لن يعودوا ؛
ولكن أنبياء الفكر لن يفقدوا من البشر ! »
أما الأستاذ فؤاد الشايب فيقول إن
الظاهرة التي تعوق التقدم الاجتماعي هي
السياسة . « من حيث الاشتغال بها ،
والاعتماد عليها ، والانصراف إليها ، والتسلق

ركود الشعر

« فلان » لا يستطيع أن يرفع من شأن الأمة
قيد أئمة ، بل هو إلى غير ذلك أميل ، بل هو
إلى غير ذلك كان

« قلت إن الشعراء مقصرون ، وأقول
كذلك إن الناس مقصرون ، لأنهم لا يريدون
أن يفهموا الشاعر الذي يغنيهم من آلامه
ويشجئهم من تاريخهم الحاضر والمستقبل
وينساقون وراء الترهات والأضاليل . وهنا
نصل إلى عقدة ، هي أيها الذي يشق الآخر ،
أهو الشعب الجاهل نلسكين ، أم الشاعر الذي
يمخرق حجب الماضي وظلال الحاضر ليشق لهم
فجراً إلى المستقبل السعيد ؟ »

ويتحدث الأستاذ حسني فريز في العدد ٣٤
من مجلة « الند » بالقدس عن ركود الشعر
بالقياس إلى ما كان عليه في العصور الخوالي .
حين كان الشاعر يفرض رأيه على الجماعة ،
وحين كانت الجماعة تسمع لرأي الشاعر وتطيع ،
فيفصف من أسباب هذا الركود ما يرى من صور
الحياة الجديدة التي من شأنها أن تصرف الناس
عن الاستماع إلى شعرائهم . ثم ينتهي إلى أن يقول :
« ليس الذنب ذنب الناس ، إنه ذنب
الشعراء الذين لا يعرفون ماذا يريدون أو ماذا
تريد الأمة وماذا يتطلب العصر . إن ألف
ديوان مزوق بالتصاوير العارية كديوان

في مجلات الغرب

من موسكو

« مجلة الأدب السوفيتي » . في هذه المجلة دائماً رغماً عن عنوانها طائفة لا بأس بها من المقالات التي تهتم بالأدب الأجنبية ؛ ولنلاحظ أولاً أن أكثر هذه المقالات يتجه إلى الأدب الانجليزي .

في العدد الرابع والخامس من هذه المجلة (أبريل — مايو ١٩٤٦) مقال قيم ، أو قل إنه دراسة مفصلة لشكسبير ، بقلم إسكندر أنيكست (١) . قسم الكاتب مقاله إلى ثلاثة أقسام ، ويفسر في مقدمة قصيرة غايته وكيف يريد أن يلفها ، فقال : « إن آثار شكسبير جزء مقوم من أجزاء الثقافة الروسية منذ زمن بعيد . وقليل جداً مما كتب المؤلفون الروسيون لا يرد إلى شكسبير على وجه ما ... ولضيق المكان الذي لا يسمح أن أعرض بالتفصيل بحوث الروس عن مسرحيات شكسبير وتمثيلها ، يكفي أن أبين أثر هذا الشاعر المسرحي العظيم في الحياة الثقافية الروسية . » يعرض علينا أ. أنيكست في القسم الأول من مقاله تاريخ ترجمة شكسبير في روسيا أو ، بعبارة أصح ، تاريخ علم شكسبير في روسيا . ويخبرنا بأن الشاعر العظيم وصل إلى الجمهور الروسي في وسط القرن الثامن عشر حين مثلت مسرحية « هامليت » Hamlet في مدينة پيترسبورج Saint-Petersbourg سنة ١٧٥٠ . وقد ترجم هذه المسرحية الكاتب الكلاسيكي أ. سوماروكوف Soumarokov

سنة ١٧٤٨ . يقول صاحب هذا المقال عن هذه الترجمة : « إنها غيرت للمسرحية حتى لم يعرفها أحد ... وعرضت مكانها مسرحية تشبه « السيد » Le Cid لكورني Corneille أكثر مما تشبه للمسرحية الانجليزية . » ولم يعرف الجمهور الروسي شكسبير حقاً إلا في سنة ١٧٨٧ حين قدم إليه نيكولاى كارامزين Nicolay Karamzin (المؤرخ القصصي الشاعر) ترجمة قصة « يوليوس قيصر » منذ ذلك الوقت أخذ الأدباء ينقلون مسرحيات شكسبير ، وأصبحت ، بطبيعة الحال ، هذه الترجمات أصح وأدق حتى نصل إلى الوقت الحاضر حين نجد مدرسة جديدة في فن الترجمة . « وبينما كان المذهب القديم يجهل نظام الوزن والانسجام في شعر شكسبير ، حقق المترجمون السوفيتيون هذا النظام في شعر روسي معادل لشعر شكسبير في النسق والعدد والوزن . » وخصص القسم الثاني من هذا المقال لتمثيل مسرحيات شكسبير في روسيا . ويلاحظ الكاتب أن المذاهب الأدبية الروسية قد وضعت طابعها على طرائق تمثيل شكسبير كما طبعت ترجمته . فكان هذا التمثيل « كلاسيكياً » ، ثم كان « رومانتيكياً » إلى أن كانت اللوحة ذات يوم من القرن التاسع عشر بين المذهبين الكلاسيكي والرومانتيكي حين مثلت مسرحية « هامليت » في موسكو وفي مدينة پيترسبورج في وقت واحد .

وبقي الجمهور منقسماً حتى ظهر في أواخر القرن التاسع عشر مذهب جديد في فن التمثيل ، وهو مذهب الواقعيين الذي لا يزال متفوقاً في روسيا إلى الآن .

أما القسم الثالث فيدرس فيه ١ . أنيكست كتب نقد شكسبير التي نشرت في روسيا . ويقول في أول هذا القسم لآخر من مقاله إن إحصاء ما كتب الروسيون في نقد شكسبير يحتاج إلى كتاب كامل ؛ يعرض لنا الكاتب آراء أهم النقاد في تاريخ الأدب الروسي . ولتقف عند رأي يوشكين Pushkin الشاعر الروسي العظيم في القرن التاسع عشر : « إنى لواقع بأن الواقعية الشعبية في مسرحيات شكسبير توافق موقفة شاملة مسرحنا . » وكانت واقعية شكسبير تعجب الشاعر الروسي الذي شبهها بالمذهب الكلاسيكي عند موليير Molière . والظاهر أنه كان يفضل طريقة الشاعر الانجليزي . على الأقل في هذه الأسطر : « إن الأشخاص التي خلقها شكسبير ليست كرموز موليير التي تمثل بعض الشهوات والعيوب ، بل هي مخلوقات حية . قد أفعمتها شهوات مختلفة متباينة ، وهي تكشف نواحيها المتنوعة للنظارة أثناء التمثيل . »

وقد أصبح أدب شكسبير موضوعاً للدرس في الجامعات الروسية في أوائل القرن التاسع عشر . وكلنا يعرف ما يراه جوته Goethe من ضعف شخصية هامليت وضآلتها . وقد عارض الناقد الروسي يلينسكي Belinsky هذا الرأي قائلاً : « إن هامليت رجل قوى بطبعه . » وقد ثارت خصومة أخرى بين النقاد الروسيين والألمانيين في نفس هذا القرن حين عارض الناقد الروسي تشرنيشفسكي Chernychevsky وهو مشايخ لمبادئ فلسفة الفن المادية ، مبادئ فلسفة الفن للعنوية

التي كان الألمانيون يكفون بها . وعارض تشرنيشفسكي على الخصوص النظرية التي تبين أن أشخاص المأساة يحدون عقوبتهم فيما يرتكبون من جرائم ، فثبت أن هذا قد يصح غالباً لا دائماً ؛ واستشهد بشخصية دسديمونا Desdemona في قصة « عطيل » ؛ فهي لم ترتكب جريمة ولم يكن موتها عدلاً ، وإنما هي بريئة أسيرة والضمير . وناقش تشرنيشفسكي هيغل Hegel وفisher أكبر انصار هذا الرأي . وتابع الناقد ستوروجنكو Storozhenko (١٩٠٦ - ١٨٣٦) تشرنيشفسكي في آرائه الفنية في كتبه . وكان عنوان كتابه الأول « سباق شكسبير » وكان كتابه الثاني عن حياة روبرت جرين Robert Green أحد سباق شكسبير . وكان بحث الأستاذ نيكولاى ستوروجنكو أول رسالة عن هذا الكاتب ، فترجمت إلى الإنجليزية ، وانتخبت « جمعية شكسبير الجديدة » صاحبها نائباً لرئيسها .

وفي آخر هذا المقال يعرض لنا ١ . أنيكست بحوث النقاد الروسين التي ظهرت بعد ثورة أكتوبر . وقد اتجه النقاد ، بطبيعة الحال ، اتجهات أخرى في نقد آثار هذا الشاعر العظيم . فهناك تصدر كتب يحاول فيها أصحابها أن يطبقوا طرق التحليل الاجتماعي على آثار شكسبير . فبعضهم يرى أن قصص شكسبير تدافع عن حياة الأشراف ، وبعضهم يرى أنها تمثل ثقافة الطبقة الوسطى في عصر النهضة . وهذا الرأي الأخير هو الذي انتصر الآن على غيره في روسيا السوفيتية . ونقول أخيراً مع صاحب هذا البحث الدقيق إن : « جهود النقد الروسي القديم والحديث في دراسة شكسبير خليفة أن تعرف وتذاع . »

من باريس

مارسيل النقاد، الروسيين السوفيتيين الذين يرون أن شكسبير كان يمثل ثقافة الطبقة الوسطى في عصر النهضة .

أما في مجلة « لانيف » *La Nef* فقد حظيت قصة « هامليت » بمقال أو بجزء من مقال أطول قليلا مما كتبه ج . مارسيل . ونلاحظ أولا أن ج . ج . رينييري *J. J. Rinieri* (صاحب هذا المقال عن المسرح في باريس) خصص للترجمة نفسها أول تقده . فقال في عمل جيد : « إن ترجمة « أتوان وكليوباترا » أظهرت لنا مهارة أ . جيد الفائقة في الترجمة ، ولكن هذه المهارة تحس أكثر مما ينبغي ؛ لأن قصة شكسبير من الثروة والسعة بحيث يجد أ . جيد فيها بعض الحرج لطبيعته التي تميل إلى التحفظ والقصد . أما قصة « هامليت » فهي على عكس ذلك ملائمة لمزاجه الخاص . فالمهارة هنا إعجاز والتكلف يتحول إلى ابتكار مستمر ، والروعة والفكاهة معا منقولتان على أكمل وجه . فلم يضح المترجم بشيء من أشد دقائق النص عرا . فتكاد الترجمة لذلك أن تكون إنشاء . وإذا طلب النظارة رؤية المنشيء في الليلة الأولى من ليال التمثيل فقد كان هذا تسجيلا لنجاح باهر نادر . »

أما التمثيل نفسه فيقول فيه ج . ج . رينييري : « من أجل أن تحتفظ القصة بروعتها كلها يجب أن تظهر صورة هامليت في أفق رائع بطبعه ... ولكن التمثيل الجديد ينقصه بعض العظمة : كأن للمسرح ليس على قدر القصة ، فهو يظهر خاليا حينا ومزدحما حينا آخر . ونحن نرى ج . ل . بارو وحده مالكا أمره . » ويحتم الكاتب عرضه هذا بنقد حاد للملابس والمناظر، فيقول إنها كانت « في غاية القصور . »

على أننا حين نتنقل من موسكو إلى باريس لا تفارق شكسبير ؛ فكلنا يعرف أن ترجمة جديدة لقصة « هامليت » مثلت (وما زالت تمثل فيما أظن) في العاصمة الفرنسية . وصاحب هذه الترجمة الجديدة هو أندريه جيد *André Gide* . وقد نهض بدور أمير الدانمارك الممثل المعروف جان - لويس بارو *Jean-Louis Barrault* . وقد أثار تمثيلها على النحو الجديد مقالات كثيرة في جميع صحف باريس اليومية ومجلاتها الأدبية . نقرأ في « مجلة الانسان والعالم » *La Revue* *Hommes et Mondes* . في أول شهرية المسرح ، رأى الفيلسوف المعروف جيريل مارسيل *Gabriel Marcel* في تقديم شكسبير على مسرح ماريني *Marigny* . ونلاحظ في أول المقال أن جيريل مارسيل لا يقول شيئا عن الترجمة نفسها . لماذا ؟ نلاحظ أيضا أنه يمدح ج . ل . بارو لا لأنه مثل تمثيلا حسنا فقط ، بل لأنه لم يخطيء (في ظنه) الخطأ الذي أخذ عليه ، أي : أولا أن الجلال ينقصه ، ويرى ج . مارسيل أن هذا الدور لا يحتاج إلى جلال . وثانيا أن ج . ل . بارو عرض على النظارة شخصية فرنسية لهاملت لا الشخصية الدانماركية التي تعلمت في فيتنبرج *Wittenberg* فقد كان الممثل في ظن بعض النقاد يحتاج أن « يتألم » شيئا ويظهر عليه أثر العلم بما بعد الطبيعة . فيقول ج . ل . مارسيل : « إن هامليت الذي نراه قد يكون فرنسيا ، وقد يكون في بعض الأحيان من قتيان فلورانس . فهل يجب أن نأسف لهذا ؟ كلا ، فيما أرى . لقد قلت في غير هذا الفصل إن هذه القصة تلقى ضوءا ساطعا على شكسبير تلميذ مونتيني *Montaigne* » ويلقى هنا ج .

قائلا : « إذا وقعت الحرب فلا ينبغي أن يقال : إنهم شهدوا تقدم دنو أعظم كارثة تصيب الانسان وسكتوا . » واستطاع الجمهور في باريس أن يسمع لكاتب آخر من أعظم كتّاب فرنسا وهو أندريه مالرو André Malraux وقد سأل المحاضر نفسه عن الانسان أحي هو أم ميت ؟ ولخص ج. ل. دوما جواباً. مالرو على هذا السؤال في هذه الأسطر الأخيرة من مقاله : « في اعتقاد أ. مالرو أنا لسنا في أرض الموت ولا أمام حظ موروث ، وإنما نحن أمام نظام من الإرادة . ويمجد أ. مالرو الجهاد ، وإن كان يائساً أو مجدياً ، ضد القضاء ، فيعلن أن من الممكن تحقيق ثقافة إنسانية ، وأن الانسانية الجزعة وحدها هي التي تشعر بالتبعات . »

في نفس هذه المجلة تحت عنوان « ملاعب باريس » ، مقال قصير عن المحاضرات . لا يعرض فيه صاحبه إلا المحاضرات التي ألقاها السفراء أو ألفت في الأونيسكو U.N.E.S.C.O. ويلخص الكاتب ما قال جان-بول سارتر Jean-Paul Sartre في محاضرة عنوانها « مسئولية الكاتب » . وقد بين المحاضر أولاً إلى من يوجه الكاتب حديثه . وقد رأى أن المستمعين لهذا الحديث إنما هم أصحاب الإرادة الحسنة من أهل الطبقة الوسطى ، ثم أخذ في تحليله الوجودي يشرح للمحاضرين غاية الكاتب حين يكتب وهي الحرية للجميع . والوسائل إلى هذه الغاية مهمة لأن احتقار القيم الخلقية يضيع الغاية . وختم ج. ب. سارتر محاضرتة

من لندن

في هذه الفصول الثلاثة شعوراً قنيا وذوقاً رفيعاً في ترتيب موقف الأشخاص ومظاهرهم ولا سيما إذا أضفت إلى ذلك عمق المعنى . وقرأ في نفس هذا العدد مقالا عن المصور الأسباني جويا Goya وعنوان هذا المقال : « عود إلى زيارة جويا » يريد فيه صاحبه دونالد ج. ماكري Donald G. Macrae أن يسجل مفكراً إحدى الوظائف لنوع من أنواع الفن وهي تصوير الاعتقاد أن في الحرب عنفاً مادياً وهولاً وتدميراً ، ثم تصوير ما يكون لهذا كله من رد الفعل في نفس الانسان . وينظر الكاتب هنا إلى رسوم جويا التي سماها « كوارث الحرب » (٢) وحسب أن أنقل هذه الأسطر : « إن سلسلة الرسوم المسماة

يظهر أن للموت أصبح موضوعاً محبباً إلى كل من يريد أن يصور ويعد موضوعاً للرقص في عصرنا هذا . أمي الحرب التي سببت هذا ؟ من يدري !

شهد بعضنا في باريس في الصيف الماضي مرقص « الفتي والموت » للشاعر الفرنسي الكبير جان كوكتو Jean Cocteau وها نحن أولاء نقرأ في مجلة « الحياة والأدب » Life and Letters عدد ديسمبر ١٩٤٦ موضوعاً لتمثيلية راقصة ذات ثلاثة فصول عنوانها : « فرحة الموت » (١) لفريد مارتو Fred Marnau ويقسول المؤلف في بدء تفسيره للفصل الأول : « إن غاية هذا المرقص تحريرنا من خوف الموت » . وفي الحق أن

The Merriment of Death. (١)

Los desastros de la guerra. (٢)

أخرجت من هذه القصة الممتعة فيلماً يكاد يعتبر من أجل الأفلام التي ظهرت في هذا النوع من القصص التاريخية . ونلاحظ أن هذا الدعاء يجمع بين قوة الوطنية وروعة الفن . وهذه ترجمته : « أيتها الأرض المشرقة المنيرة المسلحة في روعة بكل فنون الزينة ، أي أرض روسيا ! »

والغرض من هذا المقال أن يبين أن القصص الحربية التي يعرضها لنا الكاتب هي لون أدبي يخبرنا عن تكون الشعور الوطني « الذي هو قوة الشعب الروسي اليوم ، كما كانت قوته منذ خمسة قرون . »

واقراً في هذا العدد أيضاً بياناً قياً مفصلاً للكاتب نفسه عن الدراسات السلافية في فرنسا (٣) .

أمينة طه حسين

في غير تصنع « كوارث الحرب » تجمع البراعة ودقة الحس وشدّة العنف فتؤثر في أُنقسنا المنقبضة مباشرة . »

« مجلة السلافية وأوروبا الشرقية » (١) وهي تتخصص بشعوب أوروبا الشرقية وتاريخها وانتشارها الاقتصادي ودراسة لغاتها وآدابها . فاقراً فيها (عدد نوفمبر ١٩٤٦) بحثاً جيداً للأستاذ أ. مازون André Mazon باللغة الفرنسية . عنوانه : « القصص الحربية في الأدب الروسي في القرن الخامس عشر . » (٢)

وهي دراسة دقيقة بارعة ينقل أ. مازون في أول مقاله الدعاء الذي يفتح إحدى هذه القصص ، قصة « حياة إسكندر نيتشكي » والقراء يعرفون بالطبع أن السينما السوفيتية

(١) *The Slavonic and East European Review.*

(٢) *Les récits de guerre dans la littérature russe du XVe siècle.*

(٣) *Slavonic Studies in France, by André Mazon.*

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس

١٩٧	طه حسين
٢١٤	محمد رفعت
٢٢٦	محمود تيمور
	سليم حسن
٢٣٥	الموظفين
٢٤٧	بشر فارس
٢٤٨	سلامه موسى
٢٥٨	محمد عبد الله عنان
٢٦٦	الكسندر كواريه
٢٧٨	حسن محمود
٢٨٨	ابراهيم محمد نجما
٢٩٤	روحيه أرنالديز
٣٠٦	ريمون فرنسيس
	إتيامبل
٣١٣	جديد
٣١٧	محمود الدسوقي
٣٢٢	هيلديه زالوش
٣٣٧	محمد كامل حسين
٣٤٠	طه حسين

من هنا وهناك (مبارك ابراهيم)

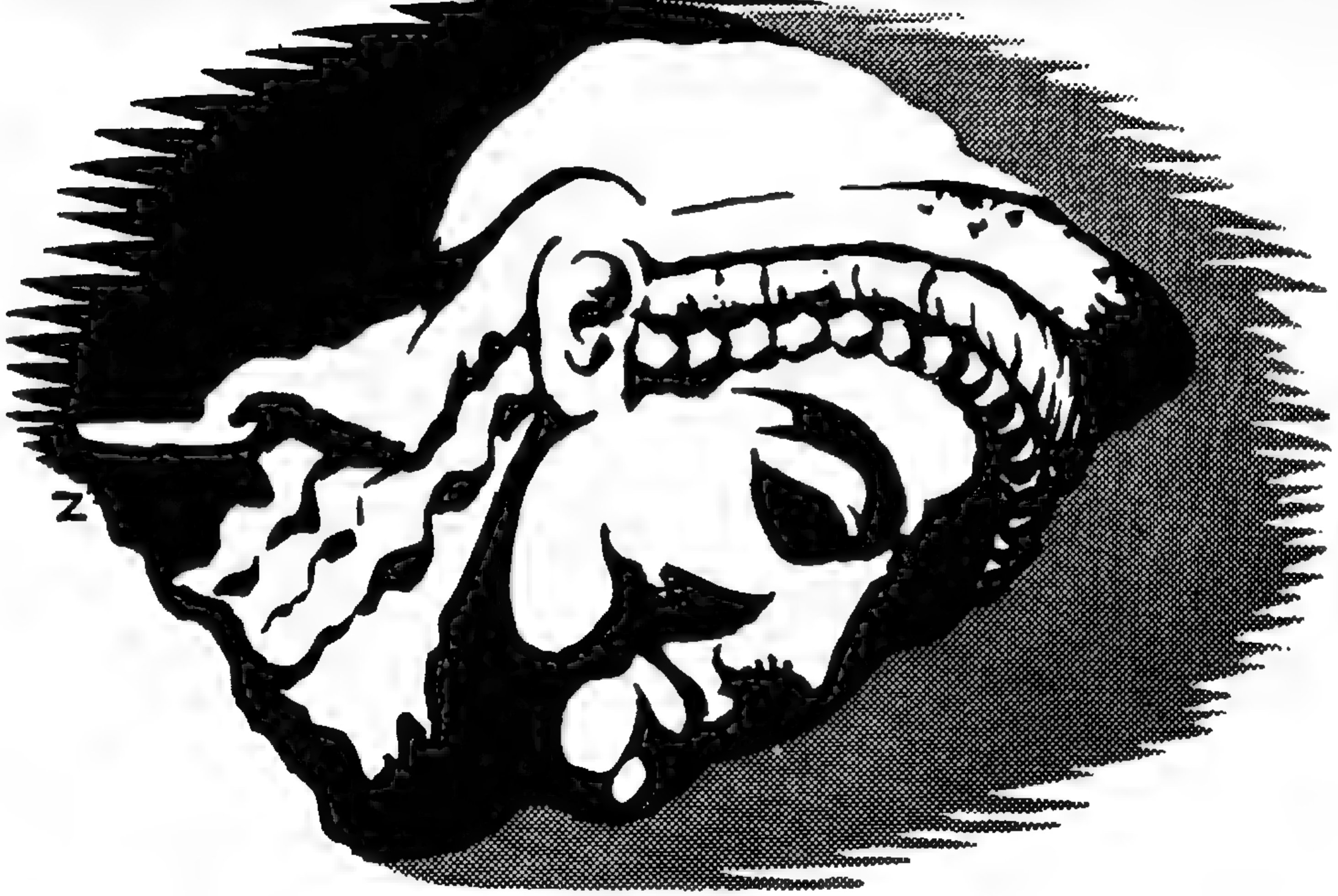
شهرية السياسة الدولية - شهرية المسرح والسينما - من وراء البحار
ظهر حديثاً - في مجلات الشرق - في مجلات الغرب



تصدرها دار الكاتب المصري

شركة مساهمة مصرية

القاهرة



من أبطال الأساطير اليونانية

أوديب * ثيسوس

تأليف أندريه جيد ترجمة طه حسين

صديق أندريه جيد

سمعتك تقرأ لنا قصتي «أوديب» و «ثيسوس» فعرفت الحنان الخاص الذي تؤثرهما به . ومن أجل هذا علمتهما العربية ليلفنا إلى قراء الشرق رسالتك التي هي ثقة وشجاعة واستبشار . وسأشهدان كذلك بما أضمر من إعجاب بك قد أصبح مند التقينا وداً كريماً .

طه حسين

الثمن ٢٥ قرشاً

البريد المسجل ٤٤ مليماً وللخارج ٥٦ مليماً



كتابان

في مجلد واحد



بيار
القلم الذي
لا يبارك

الناقة

BAYARD
le style
sans reproche

تباع كتب
دار الكاتب المصري
ومجلة الكاتب المصري
في سوريا ولبنان
في المكتبة العمومية
لصاحبها عطا مكي
دمشق — شارع فؤاد الأول
بيروت — جادة الافرنسيين
الموزع الوحيد في سوريا ولبنان

تباع كتب
دار الكاتب المصري
بالعراق
في المكتبة العصرية
ببغداد
لصاحبها محمود حامي
تليفون ٦٤٨٠ — ٤٢٧٦ — ٩٤٧٠
وعند وكلائها في الألوية
الموزعين الوحيدين في العراق

يوسف كرم

مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

فَاتِحُ الْفَلَسْفَةِ الْأَوَّلِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْوَسْطِيِّ

كتاب يقع في ٢٦٨ صفحة

الثنى ٥٠ قرشاً (البريد المسجل ٥٦ ملياً وللخارج ٦٨ ملياً)



العقيدة والتشريع

في الإسلام

تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الديانة الإسلامية

للمستشرق العظيم إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية

وعلق عليه

محمد يوسف موسى

عبد العزيز عبد الحق

المدرس بكلية أصول الدين
بجامعة الأزهر

عبد العزيز عبد الحق
المدرس بكلية الشريعة
بجامعة الأزهر

علي حسن عبد القادر
دكتور في العلوم الإسلامية
مدير المركز الثقافي الإسلامي بلندن

أبواب الكتاب :

محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام — تطور الفقه

نمو العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف

الفرق — الحركات الدينية الأخيرة

ولكل باب حواش من المؤلف وتعليقات من المعربين

كتاب ضخم يقع في ٤٠٠ صفحة

الثن ٨٥ قرشا (البريد المسجل ٦٠ مليا والخارج ٧٢ مليا)



الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصري في أول كل شهر عن دار الكاتب المصري ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعها .

الاشتراك

١٠٠ قرش في السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً في السنة للخارج أو ما يعادلها .
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب
المصري . لا تقبل الاشتراكات لأقل من
سنة كاملة .

تمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصري تعنى بكل
ما يرد إليها من المقالات والرسائل
ولكنها لا تلزم نشرها ولا ردها

إدارة الكاتب المصري

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الإدارة : ٥٤٢٧٣-٤٧٨١٥-٤٥٠٣٤



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published
by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصري

الكتاب المصري



مارس ١٩٤٧

ربيع الثاني ١٣٦٦

مجلد ٥ - عدد ١٨

السنة الثانية

فراز كفكا

مرّ بهذا العالم مرّاسرياً ، فلم يعيش فيه إلا أربعين عاماً . أنفق جزءاً غير قليل منها في الطفولة والصبا ، متأثراً بما حوله غير مؤثر فيه ، متلقياً ما ينحدر إليه من أبويه اللذين منحاه الحياة ، وما يقدم إليه أبواه أثناء التربية من ألوان التصور للأشياء ، والتقدير لها ، والحكم عليها ، والوقوف أمامها ، قابلاً حيناً ورافضاً حيناً آخر . متلقياً كذلك ما تقدم إليه بيئته الخاصة التي تحيط به وبأسرته في مدينة براج ، في أواخر القرن الماضي ، من ألوان الحضارة وفنون الحياة التي كانت الطبقة الوسطى تحياها في ذلك الوقت .

ثم أنفق بعض هذا الأمد طالباً في المدارس الثانوية ثم في الجامعة ، مندفعاً بميله الأول إلى العلم ، ثم متحولاً عن العلم التجريبي إلى الفقه والقانون ، حتى إذا أتم دراسته التمس عملاً يكسب منه القوت ، ليظفر بشئ من الحياة المستقلة ، فوجد هذا العمل في شركة من شركات التأمين . وهو في أثناء ذلك يتكلف أسفاراً قصيرة في وطنه وفي ألمانيا وسويسرا ، وإيطاليا وفرنسا . ثم لا يكاد القرن العشرين يتقدم قليلاً ، حتى يقضى عليه الموت سنة ١٩٢٤ ، وقد ولد سنة ١٨٨٣ .

حياته العاملة الظاهرة كما ترى قصيرة جداً ، بسيطة جداً ، ليس فيها عوج ولا التواء ، وليس فيها تكلف ولا تعقيد . ومع ذلك فلم يعرف التاريخ الأدبي كثيراً من الأدباء تعقدت حياتهم النفسية ، والتوت بهم طرق الاحساس والشعور والتفكير ، كهذا الأديب والذين يدرسون حياته النفسية . هذه في آثاره الكثيرة ، يردون تعقيدها إلى طائفة من المؤثرات ، قريبة في نفسها ، ولكنها

بعيدة أشد البعد فيما نشأ عنها من ضروب الشعور والتفكير . فقد كان أديبنا من أسرة يهودية تعمل في التجارة ، متأثرة أشد التأثر ، وأيسره في الوقت نفسه ، بالتقاليد اليهودية المتوارثة ، في شرق أوروبا ووسطها ؛ فهي محافظة أشد المحافظة على هذه التقاليد السطحية التي يحافظ عليها اليهود . وهي في الوقت نفسه متهاونة أشد التهاون في حقائق الدين ودقائقه . ترى أنها قد أدت الواجب على وجهه إذا اختلفت إلى المعبد في أوقات معلومة ، فسمعت ما يسمع الناس ، وقالت ما يقولون ، وأتت من الحركات والأعمال ما يأتون ، دون أن يتجاوز شئ من هذا كله أطراف اللسان وأعضاء الجسم ، إلى دخائل النفوس وأعماق القلوب فدينها ظاهر من الأمر ، كدين غيرها من عامة الناس ، صور أشكال لا تمس الضمير ، ولا تؤثر في السيرة اليومية ، ولا توجه الحياة الداخلية والخارجية إلى وجه دون وجه ، وإنما الحياة الداخلية والخارجية موجهتان دائماً بما وجه حياة الناس ، على اختلاف أديانهم وعقائدهم ، من هذه الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، التي تدفع الناس إلى العناية بمنافعهم القريبة العاجلة ، أكثر من العناية بحقائق الدين ودقائقه ، ويتعمق الحياة وما يكون فيها من الأحداث ، وما يمكن أن يكون لها من الأغراض العليا والغايات البعيدة . ولذلك لم يلبث أديبنا أن ضاق بهذه الحياة الدينية الظاهرة المتكلفة ، التي تقوم على النفاق أكثر مما تقوم على الإيمان . فجدد دين الأسرة والشعب اليهودي أولاً ، ثم جدد الدين نفسه بحقائقه ودقائقه بعد ذلك ، وأقام حائراً لا يستطيع أن يعود إلى دين آبائه ؛ لأن عقله لا يطمئن إلى هذا الدين ، ولا يستطيع أن يستغنى عن حياة دينية صادقة تعمر القلب وتملأ الضمير ثقة واطمئناناً . فهو ينكر من جهة أشد الإنكار ، ويسعى من جهة أخرى أشد السعى ، إلى أن يجد ما يؤمن به قلبه ، وترتاح نفسه إليه .

وهذه المحنة القاسية التي امتحن بها في إيمانه ، قد نشأت عنها محنة أخرى ليست أقل منها قسوة وعنفاً ، وليست أيسر منها تأثيراً في حياته الداخلية ؛ فقد امتحن أديبنا في الصلة بينه وبين أبيه . أنكر سيرة أبيه في الدين ؛ لأنه لم ير فيها صدقاً ولا إخلاصاً . ثم أنكر سيرة أبيه في الأسرة ؛ لأنه رآها تقوم على التسلط والاستطالة وعلى القوة والقهر أكثر مما تقوم على الرحمة والحب وعلى البر والعطف والحنان . ثم أنكر سيرة أبيه في تدبير منفعه التجارية

المختلفة ؛ لأنه رآها تقوم على الحرص والأثرة وانتهاز الفرص ، أكثر مما تقوم على القصد والعدل والانصاف . فنظر إلى أبيه على أنه طاغية مخيف ، ولم يستطع أن ينظر إليه إلا على هذا النحو ، وأقام الصلة بينه وبين أبيه على الشفاق والخوف ، ثم على المصانعة والمداراة ، ولم يستطع أن يقيّمها على شيء آخر من هذا التعاطف الرقيق الرفيق الذي يكون بين الأبناء والآباء .

فهو إذن منكر للدين وسلطانه ، وهو في الوقت نفسه ضيق بالأبوة وسلطانها . وهو لا يلبث أن يوحد بين هذين النوعين اللذين ينكرهما من السلطان ، سلطان الدين وسلطان الأبوة ، فيقف منهما موقفاً قوامه القلق والفرع والهول . وهو يشقى بهذا الموقف حياته كلها ، قد حاول ما وسعته المحاولة ، أن يخلص من الشك إلى الثقة ، ومن الخوف إلى الأمن ، فلم يجد إلى ذلك سبيلاً .

ثم تنشأ من محنته في الدين وفي الصلة بينه وبين أسرته ، محنة أخرى ليست أقل منهما قسوة ولا تعقيداً ، وهي المحنة التي تمس حقه في أن يحيا حياة الآباء ، فيتخذ الزوج ويمنح الوجود للولد ، كما اتخذ أبوه الزوج وكما منحه ومنح إخوته الوجود . فهو يشعر بأنه مدين لأبيه بوجوده ، لا يشك في ذلك ، ولا يشك في أن الدين يجب أن يؤدي ، ولا يشك في أن الوسيلة الوحيدة إلى أن يؤدي الابن ما عليه لأبيه من الدين إنما أن يمنح الوجود الذي تلقاه من أبيه لأبناء يتلقونه منه ويمنحونه بعد ذلك لأبنائهم . فإذا اتخذ الزوج ورزق الولد ، فليس عليه لأبيه دين . هو يؤمن بهذا كله ، ولكنه في الوقت نفسه يقف من هذه القضية موقفاً يشبه موقف أبي العلاء في البيت المشهور :

هذا جناه أبي عليٍّ وما جنيتُ على أحد

ذلك أنه يرى الحياة التي تلقاها من أبيه شرّاً لا خيراً ، لأنها لم تمنحه رضا القلب ، ولا هدوء النفس ، ولا راحة الضمير ، ولا هذه الثقة الباسمة التي تنشأ عنها كل هذه الخصال . فهو مدين لأبيه بالوجود ، ما في ذلك شك . وليس أحب إليه من أن يؤدي ما عليه من الدين ، ولكن بشرط ألا يكون أداء الدين مصدراً للشر ، ولا سبيلاً إلى الأذى ، وبشرط ألا يجنى على أبنائه ، ما جنى عليه أبوه من هذا القلق المتصل ، والخوف الملح ، واليأس المقيم ، وإلى جانب هذه المحن الثلاث ، في الدين والأبوة والزواج ، تضاف محنة أخرى

لعلها أن تكون هي التي أسبغت لونها القاتم على محنة الأخرى كلها ، وهي محنة المرض ، المرض الذي لا يظهر فجأة ولا يثقل على المريض ثقلاً طويلاً ، وإنما يداوره ويناوئه ، ويسعى إليه سعيًا خفيًا بطيئًا متلكنًا ، يدنو منه لينأى عنه ، ويلم به ليفارقه ، ويقفه من الحياة موقفًا غريبًا لا هو باليأس الخالص ولا هو بالأمل الخالص ، وإنما هو شئ بين ذلك ، يملأ القلب حسرة ولوعة ، ويملأ النفس شقاء وعناء ؛ حتى إذا استبان أنه قد نهك فريسته وكلفها من الجهد أقصاه ولم يبق فيها قدرة على المقاومة ، أنشب فيها أظفاره ، وصب عليها آلاماً ثقلاً وأهوالاً طويلاً ، ثم قضى عليها الموت في ساعة من ساعات الليل أو من ساعات النهار .

فأنت ترى أن أدينا عليل قد ألحت عليه العلة ، وأن علته معقدة أشد التعقيد ، بعضها يتصل بالدين . وقد عجز أطباء اللاهوت عن علاجه ؛ فهو قد قرأ التوراة وتعمق دراسة التلمود ، ودرس المسيحية ودرس فلسفة الفلاسفة المؤمنين والملحدين ، فلم يجد لعلته الدينية هذه طباً ولا شفاء . وبعضها يتصل بالوراثة والصلة بين الابن وأبويه . فهو إلى علم النفس التحليلي أقرب منه إلى أى شئ آخر . وقد عجز علم النفس التحليلي عن علاجه ، فلم يستطع أحد ولم يستطع شئ أن يصلح رأيه في أبيه ، أو يصلح العلاقة بينه وبين أبيه ، وإنما ظل طول حياته واقفاً من أبيه موقف الطفل الخائف المروع الذي يرى تفوق أبيه وتسلطه ، ويحاول أن يخلص من سلطانه فلا يستطيع ، ويحاول أن يحبه وأن يظفر منه بالحب فلا يستطيع . وبعضها يتصل برأيه في الحياة ، وموقفه منها ، ورغبته في أن يحياها كما تعود الناس أن يحيوها ، وخوفه مع ذلك من العجز عن احتمال أثقالها ، وخوفه بنوع خاص من أن يحمل هذه الأثقال قوماً آخرين ، أبرياء لم يحنوا ما يستحقون من أجله احتمال الأثقال ، وهم الزوج والولد . وبعض علته جسمي يتصل بالفسيولوجيا ، وقد عجز الأطباء عن علاجه ؛ فما زال السل يداوره ويناوئه حتى قضى عليه آخر الأمر . فاذا قدرنا هذه المحن كلها ، وقدرنا أنها لم تصب على رجل عادي ، وإنما صبت على رجل ممتاز له من القلوب أذكاه ، ومن العقول أصفاه ، ومن الأذواق أرقها ، ومن المشاعر أدقها ، ومن الحس أشده إرهافاً ، وله بعد ذلك إرادة حازمة صارمة ، وقدرة مدهشة على الملاحظة ، وعلى ملاحظة نفسه أكثر من ملاحظة غيره من الناس ، وبراعة

خارقة للعادة في أن يجعل نفسه موضوعاً للدرس والبحث والتحليل ، وأن يكون هو الدارس الباحث المحلل ، وأن يسجل ما ينتهي إليه درسه وبجته وتحليله ، في آثار مكتوبة طوال وقصار — أقول إذا قدرنا هذا كله ، لم نر غريباً أن يكون أديبنا هذا بهذه المنزلة التي شغلت الناس ، ويظهر أنها ستشغلهم وقتاً طويلاً . وربما كان أخص ما يمتاز به فرائز كفكا أشد الامتياز ، أنه كان أصدق الناس لهجة ، وأشدّهم إخلاصاً ، وأبغضهم للتكلف ، وأبعدهم عن التصنع ، وأعظمهم حظاً من التواضع الذي يأتي من معرفة الانسان قدر نفسه بعد الدرس المتصل والاستقصاء العميق . وهو من أجل ذلك كان يكتب لنفسه ؛ أكثر مما كان يكتب للناس ؛ فقد كان من أشد الناس زهداً في نشر آثاره ، وأعظمهم إخفاءً لها وضئاً لا لأنه كان يكبرها أو يغالي بها ، بل لأنه كان يزدرىها كما كان يزدرى نفسه . وقد نشر قليل من آثاره أثناء حياته في المجلات ، ولم ينشر في أكثر الاحيان إلا على كره منه . كان صديقه ما كس برود يختطف هذه الآثار اختطافاً ، ويدفعه إلى نشرها دفعاً . فلما أدركه الموت وقرئت وصيته ، تبين أنه قد اختار صديقه هذا ، (ما كس برود) وصيّاً ، وأنه يطلب إليه أن يحرق آثاره كلها . وألا ينشر منها في الناس شيئاً . وقد وقف الوصي من هذه الوصية موقف الحيرة التي لم تتصل ، فشك غير طويل ثم خالف عن أمر صديقه ، وأخذ في نشر آثاره ملتصقاً لذلك ما شاء من العلل والمعاذير . وقد مات فرائز كفكا سنة ١٩٢٤ ، ولم تمض على وفاته أعوام حتى كانت آثاره بعيدة الانتشار في ألمانيا ، بل في أوروبا الوسطى كلها ، ثم تجاوزت حدود أوروبا الوسطى إلى أوروبا الغربية ، فتلقاها الفرنسيون لقاء غريباً . وربما كان من طرائف الأشياء ، أن آثار فرائز كفكا ، كانت تستقبل أحسن استقبال في غرب أوروبا ؛ وينكل بها أبشع تنكيل في أوروبا الوسطى ؛ فكان الفرنسيون والانجليز يترجمونها ويفسرونها ، على حين كان الألمان الهتلريون يحرقونها جهرة في الميادين .

وقد يكون من الخير أن نلاحظ ، قبل أن نتحدث عن آثار فرائز كفكا ، أن ظروف الحياة الأوربية كانت ملائمة كل الملاءمة لظهور هذه الآثار . فقد بدأ كفكا يشعر ويفكر قبيل الحرب العالمية الأولى ، فكان كل شيء من حوله يؤذن بالكارثة ويدفع إلى البؤس واليأس . ثم مضى في تفكيره وإنتاجه أثناء الحرب العالمية الأولى ، فكان في تلاحق الكوارث والفواجع من حوله ما يزيد إيمانه

في البؤس واليأس . ثم نظر ذات يوم فإذا كل شئ من حوله ينهار : فامبراطورية النمسا والمجر تتفرق أيدي سبا ، والامبراطورية الألمانية العظيمة تلقى السلاح وتركع متلقية شروط المنتصر ، فلا يزيد هذا كله إلا إيغالا في البؤس واليأس . ثم يمضي في تفكيره وإنتاجه . وقد تم الصلح ، ولم تلبث الانسانية بعد إمضائه أن استشعرت خيبة الأمل وكذب الظن ، فلم يتحقق العدل الذي قيل إن الحرب أثرت لتحقيقه ، وإنما عادت الانسانية بعد الحرب ، كما كانت قبل الحرب ، بائسة يائسة ، متخبطة لا تدري إلى أي وجه تتجه ، ولا في أي طريق تسير .

حياة خاصة كلها نكر وشر ، وحياة عامة كلها بؤس ويأس ؛ فأى غرابة في ان يكون الأدب الذي ينتجه فرائز كفكا في هذه الظروف كلها هو الأدب الأسود بأدق معاني هذه الكلمة وأشدّها سواداً وحلوكا . وواضح جداً أن هذا القلب الذكي ذا الحس المرهف والشعور الدقيق ، لم يصور الحياة كما رآها من حوله فحسب ، وإنما صور هذه الحياة ، وصور آثارها القريبة ؛ فكان في أدبه هذا المظلم ، شئ من التنبؤ المزعج ، بما ستعرض له الانسانية من الكوارث والأخطار . وكان من أجل هذا بغيضاً إلى الذين كانوا يريدون أن يعيدوا الحرب جذعة ، مثيراً للشوق وحب الاستطلاع عند الذين كانوا يخافون الحرب ويشفقون من أن يدفعوا إليها كارهين . ومن أجل هذا كانت آثار فرائز كفكا في وقت واحد ، تترجم في باريس ، وتحرق في برلين . والآثار الأدبية التي تركها فرائز كفكا كثيرة متنوعة ، لم تنشر كلها بعد ، وإنما نشر أكثرها . وأظهر ما تمتاز به من الخصائص أنها تصور القلق الذي يوشك أن يبلغ اليأس ، وتصور الغموض الذي يضطر القارئ إلى حيرة لا تنقضي ، ويدفعه إلى كثير من المذاهب في فهم هذه الآثار وتأويلها ، وحل ما تشتمل عليه من الألغاز والرموز . فقد كان فرائز كفكا أشد الناس صراحة وأعظمهم إخلاصاً في حياته اليومية ، وفيما كان ينشأ من الصلات بينه وبين أصدقائه وذوى معرفته ، وفيما كان يسجل لنفسه من الخواطر والمذكرات في يومياته المتصلة ولكنه بعد هذا كله كان أبعد الناس عن الصراحة وأناهم عن الوضوح ، فيما كان ينتج من القصص الطوال والقصار .

وليس المهم أن نلتبس العلل المختلفة لهذا الغموض ؛ فالأدب الرمزي

في نفسه ظاهرة سائغة طبيعية، ليست في حاجة إلى أن تلتبس لها العلل والمعاذير، وإنما هي أثر من آثار بعض الأمزجة، ولون من ألوان الفن، في كثير من الآداب القديمة والحديثة، على اختلاف البيئات والعصور. فقل بعد ذلك إن فرانز كفا قد أمعن في درس التلمود، وتعمق ما في آداب إسرائيل من الأسرار والألغاز، وتأثر بهذا كله في فنه؛ فهذا حق من غير شك، ولكنه ليس كل شيء، فما أكثر الأدباء الرمزيين الذين يستمدون رمزياتهم من مزاجهم الفني وحده، لا من دراسة التلمود، ولا من تعمق الأسرار والألغاز في أدب إسرائيل! والغموض في أدب فرانز كفا من نوع خاص. فالرجل المثقف حين يقرأ هذا الأثر أو ذاك من آثاره، لا يشعر بالغموض لأول وهلة، وإنما يخيل إليه أنه يقرأ شيئاً يسيراً سائغاً قريب الفهم، لا يتكلف في تذوقه جهداً ولا عناء. ولكنه لا يلبث أن يحس شيئاً من الغرابة، أو قل شيئاً من الغربة في هذا الذي يقرأ؛ لأنه يرى أشياء مسرفة في البساطة مألوفة أشد الألف، ليس من شأنها أن ترتفع إلى حيث تكون أدباً ينتجه الفن الرفيع، وإنما هي من هذه الأشياء التي يراها الإنسان في كل يوم وفي كل مكان، وفي الطبقات الساذجة العادية من الناس؛ فيسأل القارئ نفسه، أو قل يقنع القارئ نفسه، بأن الكاتب لم يرد إلى هذه البسائط، وإنما اتخذها وسائل قريبة لغايات بعيدة. وهنا يدفع القارئ إلى التماس هذه الغايات، فيذهب في التماسها كل مذهب، ويسلك إلى استكشافها كل سبيل. وقد يصل إلى شيء يحسبه الغاية التي قصد إليها الكاتب، ولكنه لا يكاد يفكر ويروى، حتى يشك فيما انتهى إليه، وحتى يسأل نفسه ألا يمكن أن يكون الكاتب قد أراد إلى غاية أخرى أو إلى غايات أخرى، غير هذه التي انتهى هو إليها؟ وكذلك تستطيع أن تقول إن قارئ فرانز كفا، معلق دائماً، يخيل إليه أنه يفهم ما يقرأ، وهو يفهم معانيه القريبة من غير شك، ولكنه يشعر شعوراً قوياً بأن هذا الذي يفهمه ليس هو الذي قصد الكاتب إليه.

وإلى جانب هذا الشعور بالتعليق المتصل يجد القارئ أثناء قراءته حرجاً مرهقاً وضيقاً شديداً لأنه يرى نفسه في بيئة مهما تكن قريبة في ظاهر الأمر فهي غريبة في حقائق الأشياء. وهو من أجل ذلك لا يحس يسراً؛ ولا سهولة ولا سعة، وإنما هو يشعر بضيق الصدر وقلق النفس وهذا الجهد العنيف

الذى يفرض على العقل . فقارى فرائز كفكا فى الدنيا وليس فيها ، هو فى عالم غريب ، لا هو بالواقعى ولا هو بالوهمى ، وإنما هو شىء بين الواقع والوهم يملأ النفس حيرة وشوقاً وسأماً وإلحاحاً فى وقت واحد .

تأخذ فى قراءة القصة فيفجؤك قربها وتدهشك غرابتها ، وأنت لا تكاد تطمئن إلى هذا القرب اليسير المؤلف ، ولو قد اطمأنت إليه لتركت القصة وأعرضت عن الكتاب ، ورأيت أنك لست فى حاجة إلى تكاف الجهد لفهم ما لا يحتاج إلى فهم . وأنت لا تطمئن إلى هذه الغرابة ، ولو قد اطمأنت إليها لتركت القصة وأعرضت عن الكتاب يائساً من القدرة على الفهم ، ضنينا بوقتك وجهدك على إنفاقهما فيما ليس إلى فهمه سبيل . فأنت إذن معلق بين الوضوح الذى يملأ نفسك سأماً ، وبين الغموض الذى يملأ نفسك شوقاً . وما تزال فى هذه الحال المعلقة منذ تبدأ الكتاب أو القصة إلى أن تفرغ منهما . وأغرب من ذلك أنك حين تفرغ من القراءة ، لا تنتهى إلى ما يحسن الاطمئنان إليه والسكوت عليه ، وإنما أنت معلق بعد الفراغ من القراءة ، كما كنت معلقاً فى أولها وفى وسطها . ذلك لأن الكاتب لا يتم قصته ، وإنما يقتضبها اقتضاباً ، وينتهى بها إلى شىء لا يصلح أن يكون غاية لقصة أو كتاب . ومصدر ذلك فى أكبر الظن أن الكاتب نفسه لا يعرف لنفسه غاية يقف عندها أو أمداً ينتهى إليه ، وإنما هو يمضى بقصته فى طريقها ما وسعه المضى ، حتى إذا أدركه الاعياء أو انتهى إلى بعض الطريق ، وجد أمامه سداً منيعاً لا يستطيع أن يتجاوزه ، فوقف حيث ينتهى به السعى ، واستأنف السير فى طريق أخرى ، وانتهى من هذه الطريق الأخرى إلى مثل ما انتهى إليه فى الطريق الأولى ، فوقف ثم استأنف السير فى طريق ثالثة . وما يزال كذلك يبدأ الطرق ولكنه لا ينتهى منها إلى غاية ؛ لأنه هو فيما بينه وبين نفسه يائس من الغاية أو كاليائس منها .

فخذ مثلاً قصصه الثلاث الكبرى ، وهى القضية ، والقصر ، وأمريكا . فستراه يبدأ قصته الأولى بدءاً قريباً كل القرب ، غريباً كل الغرابة ، يفرض عليك أن تصحبه فى هذه الطريق التى يريد أن يمضى فيها : فهذا رجل لم تتقدم به السن ، ولكنه قد جاوز الشباب شيئاً ، يفيق من نومه ذات صباح ، وينتظر أن تحمل إليه الخادم طعام الافطار . ولكن الخادم لا تحمل إليه شيئاً ، بل لا تدخل

عليه ، وإنما يدخل عليه رجلان يزعمان له أنهما يمثلان الشرطة ، وأنهما قد أقبلتا للقبض عليه . وهما يدعوانه في شئ من العنف إلى أن ينهض من سريره ويدخل في ثيابه ، ويلحق بهما في غرفة مجاورة ليبدأ معه التحقيق . وهو دهش لهذا الحادث منكر له ، ضيق بهذين الشرطيين ، ولكنه مع ذلك مضطر إلى أن يطيع . فاذا لحق بالشرطيين في الغرفة المجاورة وجدهما قد أكلا طعامه غير حافلين به ولا آبهين له . ثم تُلقي عليه أسئلة سخيفة لا خطر لها ، ثم ترد إليه حرите ويقال له : إنه يستطيع أن يذهب إلى حيث يشاء ، وأن يمارس عمله في المصرف الذي يعمل فيه ، ولكن عليه أن يعلم أنه متهم ، وأنه سيدعى ذات يوم للمثول بين يدي القضاة ليسألوه عن التهمة الموجهة إليه . والشرطيان ينصرفان عنه ، ويثوب هو إلى نفسه ، حائراً أول الأمر ، ثم ساخطاً ، ثم منكراً لهذا التصرف ، ولكنه قلق يريد أن يتبين جلية هذه القصة . وهو يسأل نفسه فيطيل السؤال دون أن يظفر بجواب ، وهو يقبل على عمله كما تعود أن يفعل ، ولكن قلقاً قد استقر في نفسه ، إن أمكن أن يستقر القلق في النفوس . والشئ الذي لا شك فيه أنه يسعى قليلاً قليلاً إلى الثقة بأنه متهم ، وبأن من الحق عليه ومن الحق له أن يدافع عن نفسه . وفي ذات يوم يدعى إلى التليفون ، فيقال له : إن عليه أن يحضر إلى المحكمة يوم كذا ، ويدل على مكان هذه المحكمة ، وهو مكان غريب لا صلة بينه وبين الأما كن المعروفة للمحاكم ودور الشرطة . فاذا كان اليوم الموعد ذهب إلى حيث طُلب إليه أن يذهب ، فرأى عجباً أي عجب : رأى داراً كبيرة قدرة متداعية ، تكثر فيها السلام والدهاليز ، ولا يهتدى الناس فيها إلى طريقهم إلا بعد جهد شديد ، وهي على ذلك دار مسكونة كغيرها من الدور التي يسكنها الفقراء وأوساط الناس . وما يزال يسأل ويبحث ويستقصي ، حتى يصل إلى غرفة المحكمة ، فيرى جمهوراً من الناس غريباً ، ويرى جماعة من الموظفين قد جلسوا مجلس القضاء ، فيقول لهم ويسمع منهم ، وهو لا يفهم عنهم ، كما أنهم لا يفهمون عنه ، وكما أن النظارة لا يفهمون عنه ولا عن هؤلاء الموظفين . ثم ينصرف وقد استقر في نفسه أنه متهم وإن لم يعرف طبيعة التهمة . وقد استقر في نفسه أن من الحق أن يبرى نفسه أمام القضاة . ولكنه لا يعرف من هؤلاء القضاة ، ولا أين يكونون ، ولا كيف يصل إليهم ؛ لأنه لم ير في المحكمة إلا جماعة من صغار الموظفين . وهو ينفق

حياته في محاولات شاقة مرهقة ليعرف تهمة وليدافع عن نفسه ، فيتصل بكبار المحامين وصغارهم ، ويقوم آخري ن ليسوا من المحاماة في شئ . وأولئك وهؤلاء يعدونه بالدفاع عنه وتبرئته إن وجدوا إلى تبرئته سبيلا ، ولكن أحدا منهم لا يبين له طبيعة تهمة ، ولا يدلّه على مكان القضية ، ولا يلمح له بطريقة الدفاع عنه ، وإنما هو أمل يتبعه يأس ، ويأس يتبعه أمل ، وحيرة مهلكة للنفوس . وفي ذات مساء يقبل عليه رجلان في زى رسمى دقيق ، يدعوانه فيستجيب لهما ، وهو لا يعرف لماذا أقبلا عليه وإلام يدعوانه . وقد خطر له — لا أدري لماذا — أنهما مغنيان ، وهو يخرج معهما على كل حال ، فيأخذه كل منهما من إحدى ذراعيه ويمضيان به لا يلويان على شئ . حتى إذا تجاوزا المدينة دفعاه إلى مقطع من مقاطع الأحجار ، ثم طرحاه على الأرض ، ثم أقبلا عليه فذبحاه ، وهو يرى ذلك لا يقاوم ولا يحاول المقاومة ، حتى إذا أحس وقع الخنجر وعرف أنه الموت قال هذه الجملة التى تنتهى بها القصة : « كما يموت الكلب . »

ولم أعرض عليك شيئا من تفصيل القصة ، وإنما عرضت عليك خلاصتها فى كثير جدا من الأيجاز . ولو قد عرضت عليك تفصيلها لتقبلت بك من شئ سخي ف إلى شئ سخي ، ولتقبلت بك فى الوقت نفسه من لغز غامض إلى لغز غامض ومن رمز خفى إلى رمز أشد منه خفاء . وبطل هذه القصة رجل لا نعرف من اسمه إلا حرفاً واحداً هو « الكف » التى هى الحرف الأول من اسم الكاتب نفسه . فاذا سألت عما أراد إليه الكاتب بقصته هذه الرائعة ، فأكبر الظن أنه إنما أراد إلى أن يصور الانسان الخاطى الذى لا يشك فى خطيئته ، ولكنه لا يعرف طبيعة هذه الخطيئة ، ولا يعرف كيف دفع إليها ولا كيف تورط فيها ، ولا يعرف كيف يخلص منها ، ولا أمام من يستطيع أن يحاول الدفاع عن نفسه . فهو موقن بأنه خاطى ، وموقن بأن هناك قاضياً يستطيع أن يعاقب على الخطيئة كما يستطيع أن يبرى منها . وموقن أن هناك قانوناً ينظم تبعة الخاطئين وما يترتب عليها من عقاب . ولكنه يجهل طبيعة الخطيئة ، ويجهل طبيعة القانون ، ولا يعرف المكان الذى استقر فيه القاضى ، ولا يجد الوسيلة التى توصله إليه . وبعبارة واضحة إنما أراد الكاتب إلى أن يصور الانسان البائس اليائس الذى أجبر على الحياة دون أن يريد ها ، وأجبر على الموت دون أن يريد ه ، وخيل إليه أنه حر بين ذلك ، وانقطعت الصلة الدقيقة الأمانة بينه وبين الإله الذى

يدخله في الحياة ويخرجه منها ، ويجعله ما يحمله من الأوزار والتبعات ، لا يؤامره في شيء من ذلك ولا يشاوره ، ولا يتيح له حتى أن يلقاه ليستغفیه من التبعة ، ويطلب إليه الصفح والمغفرة .

فكاتبنا إذن لا يجحد الاله ، ولكنه لا يعرفه ولا يعرف السبيل إليه . وهو مشوق أشد الشوق إلى أن يعرفه ويعرف السبيل إليه ، وهو يبذل في سبيل ذلك الجهد كل الجهد دون أن يظفر بشيء . أترى إلى أننا لسنا بعيدين من حيرة أبي العلاء على اختلاف ما بين الرجلين في الزمان والمكان والبيئة والثقافة والوراثة !

فاذا تركت هذه القصة ، وعمدت إلى قصة أخرى وهي القصر، انتهيت إلى نفس النتيجة المؤسفة التي انتهت إليها في القصة الأولى . ولكن الكاتب يسلك بك إلى اليأس طريقاً أخرى ؛ فبطل هذه القصة الثانية رجل لا نعرف من اسمه إلا حرفاً واحداً هو « الكاف » التي هي الحرف الأول من اسم الكاتب . وهو قد أقبل من مكان مجهول إلى قرية مجهولة ، يشرف عليها قصر ضخم فخم ، وهو يعتقد ويقول للناس إنه قد دعى إلى هذه القرية بأمر من القصر ليشغل فيها منصب المساح . وهو يريد أن يتصل بالموظف المختص في القصر ليتسلم عمله ، ولكنه لا يجد سبيلاً إلى هذا الاتصال . يحاول أن يتصل من طريق التليفون فلا يسمع إلا أصواتاً غامضة لا تدل على شيء . ويحاول أن يتصل بالعمدة ، فلا يجد عنده علماً بهذا المنصب ولا باختياره له . ويحاول أن يسعى إلى القصر فلا يجد سبيلاً إليه ، ويحاول أن يتصل بالقصر بوساطة السعاة الذين يسعون بين سادة القصر وبين القرية ، فلا يظفر بشيء . وإنما هو الخداع يتبعه الخداع ، والحيرة تتبعها الحيرة ، والعناء المتصل والشقاء المقيم . وتنتهي القصة إلى غير غاية كما ترى : أنفق صاحبنا حياته في القرية ، لاهو بالموظف فيتسلم عمله ويعيش مع أهل القرية كما يعيشون ، ولا هو باليأس فيعود من حيث جاء ، وإنما هو معلق بين اليأس والرجاء حتى يدركه الموت .

ولم أعرض عليك تفصيل هذه القصة ، كما أني لم أعرض عليك تفصيل القصة الأولى ، وإنما اكتفيت هنا كما اكتفيت هناك بهذه الخلاصة اليسيرة التي تصور لك ما أراد إليه الكاتب من تصوير الانسان غريباً معلقاً لا يدري من أين جاء ، ولا إلى أين يمضي ، وإنما يخيل إليه أنه قد دعى ، وأن له عملاً ينبغي أن

يؤديه ، ثم يحال بينه وبين هذا العمل ، وتضيع حياته في هذه الجهود المجدة التي لا تغنى عن أصحابها شيئاً . ولو قد استطاع أن يصل إلى القصر ويتحدث إلى من فيه ، لعرف جلية الأمر . ولكن الأسباب متقطعة بينه وبين القصر ، فهو لا يستطيع أن يصل إليه . القصر موجود ، ما في ذلك شك . يسكنه أهله وسادته ، ما في ذلك شك . وهو يدبر أمر القرية والمقيمين فيها والطارئين عليها ، ما في ذلك شك ، ولكنه يدبر هذا الأمر من بعيد ، ولا يتيح للمقيمين ولا للطارئين أن يتصلوا به أو يراجعوه في قليل أو كثير . فموقف الكاتب هنا كوقوفه هناك ، لا ينكر وجود القوة القاهرة المدبرة ، ولكنه لا يعرف كيف يتصل بها ، ليتبين جلية أمره ، وليعرف لماذا يجب عليه أن يفعل ، ولماذا يجب عليه أن يترك ، ولماذا يحتمل ما يحتمل من التبعات .

أما القصة الثالثة « أمريكا » فلعلها أن تكون أقل إحراجاً وإرهاقاً من هاتين القصتين ، ولكنها على ذلك لا تخلو من الحرج والضيق والألم ، وهي كذلك لا تنتهى إلى غاية . ويستطيع ما كس برود ، صديق الكاتب ، كما يستطيع غيره من النقاد أن يرى في هذه القصة شيئاً من أمل ، وأن يظن أنها تدل على أن الكاتب قد ثاب إلى الثقة قبل أن يموت . أما أنا فلا أرى من ذلك شيئاً ، وكل ما في الأمر أن بطل القصة صبي لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، فأمره رفيق بعض الشيء ، ولكنه منته إلى مثل ما ينتهى إليه أمر غيره من هذا الغموض الذى لا غاية له . واسم هذا الصبي كامل غير منقوص ، وهو كارل روسمان ، وأوله « الكاف » كما ترى ، وقد سخط عليه أبواه ؛ لأن خادماً أغوته فنفاه من أوروبا إلى أمريكا . وفي أمريكا تختلف عليه الأحداث ، فمن نعيم ويسر ، إلى بؤس وعسر ، ومن استقامة ووضوح ، إلى التواء وغموض . ثم ينتهى الأمر به بعد كثير من الخطوب إلى أن يقبل عاملاً في فرقة تمثيلية غامضة أشد الغموض ، وقد وضع مع زملائه في قطار يذهب به إلى غير غاية معروفة . فأنت ترى أن المذهب هو هو ، لم يتغير : هذا الصبي عبث به خادم ، وقسا عليه أبواه فنفاه ، وتلقته أحداث غامضة مبهمة متناقضة مضادة لأخلاقه وآماله . ثم هو يوضع آخر الأمر في قطار يمضى به إلى مكان مجهول ، ثم نحن لانعلم من أمره بعد ذلك شيئاً . أتراه وصل إلى المدينة التى أرسل إليها أم لم يصل ؟ وما عسى أن يكون عرض له من الأحداث أثناء السفر قبل أن ينتهى القطار

إلى غايته إن كان قد انتهى إليها ؟ أترأه قد قبل حقاً في هذه الفرقة التثيلية ؛ فقد كان قبوله الأول مبدئياً ، أريد به إلى التجربة لا إلى الاستقرار . كل هذه أمور مجهولة يخيل إلينا الكاتب أن جهلها ناشئ من أنه لم يتم القصة ! ولكن لم لم يتم القصة ؟ لأنه لم يعرف كيف يتمها . وهو لم يعرف كيف يتمها لأنه لا يعرف كيف تتم قصة الانسان مهما يكن أمره ومهما تكن الظروف التي تحيط به ، ولأنه لا يعرف كيف تتم قصته هو ؛ فهو غير مطمئن إلى أن الموت يختم قصة الانسان ، ولكنه لا يعرف عما يكون بعد الموت شيئاً . وهو غير مطمئن إلى أن هذه الحياة التي نعيشها لم يقصد بها إلا إلى هذه الأغراض اليومية التافهة التي نحاول تحقيقها فنحقق أقلها ونعجز عن تحقيق أكثرها . ولكنه لا يعرف عن الأغراض العليا التي يمكن أن تكون الحياة وسيلة إليها شيئاً . محنته الكبرى ومشكلته التي لم يجد لها حلاً ، هي أنه لم يستطع أن يستكشف الصلة بين الانسان وبين الاله . وما مصدر العجز عن استكشاف هذه الصلة ؟ إن الانسان يشعر شعوراً قوياً متصلاً بوجود الاله ، ويحاول محاولة مستمرة ملحة أن يسمع كلمته ويتلقى أمره ليصدع بهذا الأمر ، فيبرأ من الاثم ، ويخرج من الخطيئة ، ويتخفف من ثقل التهمة التي ألقيت عليه ، فلا يجد إلى ذلك سبيلاً . أمصدر ذلك أن الانسان أعجز من أن يرقى إلى الاله ؟ أم مصدر ذلك أن الاله لا يريد ، عن عجز أو عن عمد ، أن يهبط إلى الانسان ؟ أم مصدر ذلك قصور في الانسان وفي الاله نفسه عن أن يلتقيا ؟ وإذن فقيم التهمة وقيم التبعة وقيم العقاب ؟

هذه هي المشكلات الكبرى التي فرضت على فرائز كفكا منذ امتحن في إيمانه فجحد دين آبائه ، ولم يستطع أن يهتدى إلى دين غيره يرد إليه هذا الايمان . وهي فيما أعتقد نفس المشكلة التي فرضت على أبي العلاء ، لافرق بين الرجلين إلا هذه القرون العشرة التي أتاحت للمعاصرين ضروباً من العلم وفنوناً من الفلسفة وألواناً من الحرية لم تتح لشيخ المعرة . ومع ذلك فقراءة اللزوميات ، وقراءة الفصول والغايات في تعمق واستقصاء ، تنتهي بك إلى نفس الموقف الذي تنتهي بك إليه قراءة « القضية » و « القصر » و « أمريكا » . فشيخ المعرة يرى كما يرى قتي مدينة براج أن للعالم خالقاً حكماً ، لا يشك أحد منهما في ذلك ، ولكنهما لا يفقهان حكمة هذا الخالق ولا يعرفان إلى فقهما سبيلاً . وهما من

أجل ذلك يمتنعان عن الشر أو عما يريان أنه الشر ما استطاعا ، ويقبلان على الخير أو على ما يريان أنه الخير ما استطاعا : يكفان أذاهما عن الناس ، ويتجنبان السعى إلى مخالطتهم والاضطراب معهم فيما يضطربون فيه ، ويحزمان على أنفسهما الزواج والنسل ، ويشقيان بقلبين يريدان الايمان ويحاولان الوصول إليه ما أطاqa المحاولة ، وبعقلين يعترفان بما فرض عليهما من الضعف والعجز والقصور . لا يستسلمان إلى اليأس المطلق ، ولكنهما لا يطمئنان إلى الأمل ، وإنما يعيشان في هذه الدار عيشة معلقة بين الرجاء والقنوط . وهما ينظران إلى العالم من حولهما يريدان أن يفهما ويستكشفا دقائقه وعمله ، فلا يبلغان من ذلك شيئاً . لا يرضيهما موقف العالم المتواضع الذى يستكشف قوانين الكون فيسجلها وينتفع بها وينفع بها الناس ، ولكنهما يريدان أن يعرفا علة هذه القوانين . وبينهما معرفة هذه العلة ، آماذ بعيدة لا يستطيعان لها عبوراً وهما من أجل ذلك ينكران العلة الغائية ، ولا يطمئنان إلى ما تعود الناس أن يطمئنوا إليه من أن العالم لم يخلق عبثاً ، ومن أن لكل ما يحدث في هذا العالم غاية بينة أو غامضة . وليس معنى ذلك أنهما يجحدان حكمة الخالق وما يمكن أن يكون لها من غايات ، ولكن معناه أنهما لا يعرفان هذه الحكمة ، ولا يستطيعان أن يعرفاها ، ولا يقبلان هذه العلل الغائية التى يقبلها الناس ، وإنما يميزان أشياء كثيرة لا يراها الناس جائزة ولا ممكنة ؛ لأنها تتخالف ما تواضعوا عليه من العلل والغايات .

فأبو العلاء يرى أن من الممكن أن يشم الانسان بغير أنفه ، ويرى بغير عينيه ، ويذوق بغير لسانه ، ويمشى على غير قدميه ؛ ذلك كله ممكن لأن الذى خلق الانسان على هذا النحو الذى نعرفه ، وصوره فى هذه الصورة التى نألفها ، يستطيع أن يخلقه على نحو آخر ، ويصوره فى صورة أخرى ، ويمنحه مزاجاً آخر ، ويركب حسه فى حيث يشاء من أعضائه .

وفرايز كفكا يحدثنا فى قصة المسخ عن هذا الفتى الذى أفاق من نومه ذات صباح فلم ير نفسه كما رآها قبل أن ينام ، وإنما رأى صورته قد مسخت إلى حشرة قدرة كأبشع ما تكون الحشرات ، وهو على ذلك محتفظ بشي من عقله وقلبه ، يفكر ويشعر ويحس ، ويميز بين الخير والشر ، ويقدر اللذة والألم ، ويعرف الرضا والسخط ، وهو يرى مكانه بعد المسخ من أهله ومن الناس ، يقدر

قسوة أبيه ، وحنان أمه ، وعطف أخته ؛ ثم ما يزال يلاحظ ازدياد القسوة في نفس أبيه ، وفتور الحنان في قلب أمه ، وتناقص العطف في قلب أخته ، وقد سعى السأم إليهم جميعاً من هذه الحياة المرة البائسة المخزية ، حتى تمنى الأخت لو تخلصت الأسرة من هذا العبء الثقيل ، وقرأها أبوها في صراحة ، ولا تجرؤ الأم على أن تقول نعم أو لا . ويبلغ منه هذا كله حتى ينتهي به إلى موت سخيّف حقير . وما الذي يمنع أن يمسح الانسان إلى حشرة قدرة ، أو إلى حيوان جميل ؟ فالذي ركب العقل في هذه الصورة الانسانية التي نراها ، يستطيع أن يركب العقل فيما شاء من الصور الجميلة والقيحة ، الحية وغير الحية . ومن يدري ! لعل الانسان كما هو أن يكون حشرة بشعة ، بغیضة بالقياس إلى كائنات أخرى في هذا العالم لا نعرفها ، أو في عالم آخر لا نعرفه . بل من يدري ! لعل الانسان بالقياس إلى نفسه العاقلة التي تفكر وتقدر وتحصى وتستقصى ، وتطمح إلى الحق والخير والجمال — لعل الانسان بالقياس إلى نفسه العاقلة هذه أن يكون حشرة بشعة بغیضة ، حين يرضى حاجاته الطبيعية على اختلافها وتباينها . ففي الانسان كثير من طباع الحشرات ، وفيه في الوقت نفسه شئ آخر يرفعه عن هذه الطبيعة الدنيئة .

ولو قد خلص الانسان لاحدى هاتين الطبيعتين من دون الأخرى لما أحس شقاءً ولا بؤساً ، ولما ذاق طعم الخطيئة ، ولما احتاج إلى أن يبرى نفسه من هذه التهمة التي لا يعرفها أمام هذا القاضي الذي لا يصل إليه . لو خلص الانسان لطبيعة الحشرة وحدها ، لما فرق بين الخير والشر ، ولا بين الاساءة والاحسان . ولو خلص لطبيعة العقل المجرد لما احتاج إلى أن يفرق بين الخير والشر ؛ لأنه في حاله تلك لا يعرف إلا الخير ، ولا يطمح إلا إليه . فالحنّة كل الحنّة هو هذا الازدواج بين طبيعة الحشرة القذرة ، وطبيعة النفس المتأزّة العاقلة .

وهنا أيضاً يلتقي فتى براج فرائز كفكا ، وشيخ المعرة أبو العلاء . والنقمة الكبرى عند أبي العلاء هي الحياة ، والنعمة الكبرى ، هي فقدان الحياة . والذي يجعل النقمة نقمة ، هو هذا العقل الذي ركب في هذه الصورة الانسانية فرأى الشرّ من قريب ولم يستطع أن يخلص منه ، ولا أن يتخفف من أثقاله ، ولا أن يتصور حياة إنسانية عاقلة تبرا من التبعات .

فأنت ترى إلى الآن أن أدب فرائز كفكا يقوم ، أو قل يدور حول هذه الأصول الثلاثة : وهى العجز عن الاتصال بالآله من جهة ، والعجز عن فهم الخطيئة والتبرؤ منها مع الثقة بالتورط فيها من جهة ثانية ، والعجز عن فهم العلل الغائية لما يكون فى العالم من الخطوب والأحداث من جهة ثالثة .

وأنت إذا قرأت هذه الآثار الكثيرة التى نشرت لفرائز كفكا على اختلافها فى الطول والقصر ، وتفاوتها فى الوضوح والغموض ، رأيتها كلها تدور حول هذه الأصول . وقد يلح هذا الأثر أو ذاك فى تجلية هذا الأصل أو ذاك ، ولكن مجموعتها تنتهى بك دائماً إلى هذه الخلاصة القاتمة السلبية ، التى تجعل حياة الانسان كلها عجزاً وقصوراً ويأساً أو شيئاً قريباً جداً من اليأس .

ومن أجل هذا وصف أدب فرائز كفكا كما وصف أدب أبى العلاء بأنه أدب قاتم حالك ، يفل العزائم ويثبط الهمم ، ويصد الانسان عن العمل ويرده عن الأمل ، ويدفعه إلى نشاط عقلى عقيم ، يدور حول نفسه أكثر مما يدور حول غيره ، ولا يحفز الناس إلى طمع أو طموح ، وإنما يمسخهم فى لون من الخوف المنكر، الذى لا أمن معه ولا اطمئنان . ومن أجل هذا حرقت كتب كفكا فى برلين أثناء الحكم الهتلرى . ومن أجل هذا أيضاً كان اليساريون فى فرنسا يبغضون هذه الكتب أشد البغض ، ويودون لو يحال بينها وبين الشباب ، ويعبرون عن هذا كله بهذه الجملة التى كثر حولها الحديث فى فرنسا أثناء الصيف الماضى : « يجب أن يحرق فرائز كفكا » .

وواضح جداً أن هذه العبارة ليست إلا رمزاً ؛ فتحريق الكتب لا يغنى شيئاً ، ويكفى أن تحرق الكتب ليزداد انتشارها ، وإنما الهم هو أن هذا الأدب القاتم مشبط لهم الشباب ، فلا ينبغى أن يخلى بينه وبين الشباب .

والقارىء العربى يعرف حق المعرفة أن آثار أبى العلاء تعرضت لمثل هذا الشر الذى تعرضت له آثار فرائز كفكا . ولكن الشرق قد يكون أعظم تجربة من الغرب فى بعض الظروف . وقد رأى الشرق العربى أن آثار أبى العلاء على غلوها فى التشاؤم والحلوكة لم تثبط الهمم ، ولم تقل العزائم ، ولم تصرف عن العمل ، ولم ترد عن الأمل ، وإنما منحت النفوس خصباً وفطنة وذكاء ، وحالت بين العقل الانسانى وبين الغرور الذى يطغيه ويدفعه إلى كبرياء عقيمة مهلكة فاضطرته إلى أن يضع نفسه حيث وضعه الله ، فلا يسرف على نفسه

بالبغى والطغيان ، ولا يزعم لنفسه القدرة على فهم كل شىء والنفوذ إلى دقائق ما فى الكون من أسرار .

وسواء رضى الناس أم سخطوا ، فان التشاؤم ظاهرة طبيعية فى حياة العقل والشعور. تبدو فى ظروف معينة ملائمة لها ، كالظروف التى أحاطت بفرايز كفكا ، وما زالت تحيط بكثير من كتاب الأدب المظلم فى أوربا وأمريكا ، وكالظروف التى أحاطت بحياة أبى العلاء منذ عشرة قرون . ولعل القراء يلاحظون أن أدب أبى العلاء قد نشأ فى عصر فساد وفتنة واضطراب ، وأنه كان تنبؤاً بكوارث خطيرة لم تلبث أن صبّت على العالم الاسلامى حين أغار عليه الصليبيون ، وأن أدب فرايز كفكا قد نشأ فى عصر فساد وفتنة واضطراب ، وكان تنبؤاً مروعاً بكوارث خطيرة لم تلبث أن صبّت على العالم باعلان الحرب العالمية الثانية . وقد احتفل العرب منذ أعوام بالعيد الألفى لأبى العلاء . وأكبر الظن أن الأوربيين لن ينتظروا ألف سنة ليحتفلوا بفرايز كفكا ، ولكنهم سينتهزون أقرب الفرص للاحتفال به ، وسيتبينون ، إن لم يكونوا قد أخذوا يتبينون بالفعل أن أدب فرايز كفكا قد كان من الخصب والقوة بحيث أخذ يترك فى الآداب العالمية أثاراً بعيدة عميقة ، ليس إلى محوها من سبيل .

طه حسين

في أفق السياسة العالمية

الحركة الوطنية في ليبيا

لما اشتدت الأزمة السياسية في إيطاليا وأثيوبيا في سنة ١٩٣٥ ، عرض أحد مندوبي الصحف الأمر يكية على مسؤوليني حلاً يقترح فيه اقتطاع جزء صحراوي من أثيوبيا لإيطاليا لعله. بذلك ينصرف عن نية إعلان الحرب التي كان يبيتها حينذاك ضد الأحباش . فرمق مسؤوليني محدثه بنظرة حادة كلها سخرية وزراية وأجابه قائلاً : « ومن قال لك إني من هواة جمع الصحاري في العالم ؟ » يشير بذلك إلى أنه يكفي إيطاليا أن تكون لها ليبيا وهو الاسم الذي أطلقه الطليان أخيراً على إقليمى برقة وطرابلس جميعاً .

والحقيقة أن هذه البلاد ما هي إلا جزء من الصحراء الكبرى المشهورة التي تمتد في شمال إفريقية من النيل شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، ومن ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى نهر النيجر جنوباً . ولشدة طغيان الصحراء في هذه البلاد اقتصر العمران فيها على طائفة من المدن الساحلية الصغيرة القليلة العدد والسكان مما دعا القدماء إلى أن يطلقوا عليها اسم « تريبوليس » أو طرابلس ومعناها المدن الثلاث . ولما كانت الزراعة في هذه البلاد مقصورة على بعض الواحات وأجزاء من السهول الساحلية التي تجود عليها الرياح الغربية أحياناً بفيض من أمطارها في فصل الشتاء ، فقد انصرف معظم الأهالي إلى الرعى وتربية الماشية . ولكن عدداً كبيراً من سكان هذه البلاد وما جاورها من شمالي إفريقية قد برموا بحياة الفاقة والشدة والاحمال التي تفرضها عليهم طبيعة بلادهم الصحراوية ، فانصرفوا من الصحراء وولوا وجوههم نحو البحر لعلهم واجدون فيه وعلى سواحله رزقاً طيباً ؛ وما لبثوا أن انتظموا في سلك قراصنة البحر وقطاعه من جبابرة الملاحين الأتراك والروم من أهل جزر بحر إيجه الذين اعتنقوا الاسلام واتخذوا البحر المتوسط مهاداً ومعاشاً ، وسعوا في مناكبه بالبطش والجبروت ، فكانوا يفرضون سلطانهم على السفن التي تتمخر عبابه ، ويقررون على أصحابها من الأوربيين الجزية

والضرائب والعطايا يدفعونها صاغرين ، وإلا سلبت تجارتهم وأسر مواطنوهم ويبيعوا الرقيق ودمرت سفنهم تدميراً . وقد ظل سلطان قراصنة البحر قائماً في شمال إفريقية منذ القرن السادس عشر ، وبلغ أشده وعنقوانه في القرنين السابع عشر والثامن عشر . ثم أخذ يتناقص شيئاً بعد شيء حتى احتلت فرنسا بلاد الجزائر في سنة ١٨٣٠ ومن ثم بدأ أثر القرصنة يزول في تلك الأرجاء .

كان طورغود القائد البحري التركي أول من أقام للقرصنة دولة في طرابلس في منتصف القرن السادس عشر ؛ فقد خلص البلاد من حكم الفرسان الصليبيين سنة ١٥٥٣ وأتبعها الدولة العثمانية ، وجعل يبني السفن ويسلحها ويحصن القلاع والمرافئ حتى شيد لطرابلس أسطولاً بحرياً من سفن القرصنة أنزل به الرعب في قلوب الملاحين والتجار من شعوب أوروبا . وقد أصبحت التبعية التركية بعد طورغود اسمية وآل أمر حكومة البلاد إلى أيدي رؤساء الجنود من الانكشارية الذين جاءوا مع طورغود وأثروا من الأسلاب والغنائم التي كانوا يستولون عليها . وظل زعماء الانكشارية هؤلاء يتنافسون ويقتتلون في سبيل الحكم حتى تسلم كبيرهم أحمد القرملي حكومة البلاد فجعلها وراثية في أسرته منذ سنة ١٧١١ معتمداً في موارده على ما تصيبه الحكومة من أموال القرصنة ، وما كانت تدفعه بعض الحكومات من الرسوم والعطايا لتأمين تجارتها وسفنها التي كانت تمر في شرق البحر المتوسط ، فكانت حيناً تتفق مع حكام طرابلس — أو الدايات كما كانوا يعرفون — في معاهدات تعقدها معهم رأساً دون حاجة إلى الرجوع إلى القسطنطينية ، وأحياناً ينشب النزاع بين هؤلاء الحكام والحكومات الأجنبية ، ويشتد التشاحن حتى يصل إلى لون من ألوان الحرب . وقد سirt الولايات المتحدة ذات حين طائفة من تجارتها لاحتلال ميناء درنة في أوائل القرن التاسع عشر ، وحاصروا طرابلس وضربوها بالمدافع ، وفقد الأمريكيون حينذاك إحدى سفنهم الحربية ، وأسر تجارتها . ولما لم يطق الأمريكيون صبراً على الإقامة في درنة آثروا أن يتفقوا مع الحاكم بعد أن اقتدوا أسراهم بمبلغ عظيم من المال . وهكذا كانوا كلما اشتط الحاكم معهم في تقدير الضريبة التي يدفعونها أرسلوا إليه سفناً من أسطولهم ترغمه على قبول مطالبهم .

وقد امتد سلطان أسرة القرملي على الساحل من غربي ميناء طرابلس إلى بنغازي ، وكانت الحكومة العثمانية تحتفظ بها كأحدى قواعدها في البحر المتوسط .

أما القبائل التي كانت تقيم في داخل البلاد فلم تتأثر كثيراً بنظام الحكم ، وظلت مشغولة بمنازعاتها الداخلية فيما بينها على ما عرف عنها إلى الآن . وقد طبعت القراصنة أخلاق أهل البلاد بصفات المخاطرة والجلاد والكفاح مع الأعداء والمنافسين أيّما كانوا ومهما نالت منهم الخطوب والأحداث .

ولما ضعف سلطان تركيا في أواخر القرن الثامن عشر ، وتعاقبت انهزماتها أمام روسيا وأمام ولايتها في البلقان وفي الشرق ، طمعت الدول الأوربية في ضم أجزاء من الامبراطورية العثمانية إلى أملاكها ، فكانت حملة بونايرت على مصر ، وأعقبها بعد عشرين عاماً ثورة الاغريق ، ثم تجاسرت فرنسا وأرسلت حملتها لاحتلال بلاد الجزائر في سنة ١٨٣٠ . فكانت هذه الأحداث جميعاً سبباً في كسر شوكة القراصنة في شرق البحر المتوسط وإضعاف دايات طرابلس ، كما كانت عاملاً قوياً في تنبيه الباب العالي إلى ضرورة التيقظ للاحتفاظ بالبقية الباقية من نفوذ تركيا في شمالي إفريقيا . لذلك انتهز السلطان محمود الثاني فرصة تفاقم النزاع في طرابلس بين المطالبين بالحكم من أسرة القرملي فأرسل في سنة ١٨٣٥ قوة بحرية مكونة من ٢٢ سفينة وعليها والٍ من قبله لتسلم الحكم في ولاية طرابلس الغرب ، وقد عرفت بالغرب لتمييزها عن طرابلس الشام وأصبحت تركيا منذ ذلك الوقت تحكم البلاد رأساً . وكأنما أحست بأن هناك دولا أوربية ترنو ببصرها نحو طرابلس وتطمع في السطو عليها ، فجعلت تستميل الأهالي إليها بإنشاء المدارس ، وإصلاح شؤون القبائل والادارة ، وتعيين بعض أهل البلاد في وظائف الحكومة ، وأخذت تقوى الثغور والحصون وتسليحها ؛ حتى إذا أعلنت فرنسا حمايتها على تونس في سنة ١٨٨١ ، واحتل الانجليز مصر في سنة ١٨٨٢ لم يبق شك في أن إيطاليا تعد عدتها للاتقضا على طرابلس لتحوز نصيبها من الغنيمة وهي البلاد التي بقيت في شمالي إفريقيا بل في إفريقيا كلها عدا الحبشة غير خاضعة لسلطان إحدى دول أوربا .

وكان بسمرك المستشار الألماني قد ارتضى أن ينصرف اهتمام فرنسا وتفكيرها عن الالزاس واللورين إلى شمالي إفريقيا ليوقع الشقاق بينها وبين انجلترا من جهة وبينها وبين إيطاليا التي كانت لها مطامع في تونس من جهة أخرى . وأرادت فرنسا بدورها أن تشتري سكوت إيطاليا فاتفقت معها سرّاً على أن تكون لها طرابلس مقابل عدم اعتراضها على مشروعات فرنسا في مراكش . وعلى ذلك

باتت إيطاليا تترقب الفرصة المناسبة للنزول بأرض طرابلس ، وقد سنحت لها الفرصة في سنة ١٩١١ وكانت تركيا إذ ذاك قد دخلت في طور جديد من حياتها الدستورية والسياسية على أثر ثورة جمعية الاتحاد والترقي في سنة ١٩٠٨ وإقصاء السلطان عبد الحميد عن عرشه ، وإثارة الشعور الاسلامي في العالم أجمع حول الخلافة العثمانية ضد أوروبا . وكان وليم الثاني إمبراطور ألمانيا إذ ذاك يشجع حكومة تركيا بالمال والرجال ، وبمعونتها على تنفيذ المشروعات الاقتصادية الكبرى وفي مقدمتها مشروع السكة الحديدية من برلين إلى بغداد ، ومد فرع منها إلى الحجاز . فخشيت إيطاليا لو انتظرت أكثر من ذلك أن يقوى مركز تركيا في طرابلس على الأيام بمساعدة ألمانيا، ويستعصى عليها بعد ذلك إخضاع البلاد التي سمحت الأقدار بأن تكون نصيبها من التركية . لذلك سارعت إيطاليا في سبتمبر سنة ١٩١١ بارسال إنذار نهائي إلى تركيا بشأن طرابلس ، وأعلنت الحرب بعد ٢٤ ساعة من تسلم الانذار . ولم يجد الأسطول الإيطالي صعوبة تذكر في إخضاع المدن الساحلية : طرابلس وبنغازي ودرنة ، ولكن القوات الإيطالية لم تجرؤ على التوغل في الداخل على حين قد تسرب الضباط الأتراك بين القبائل ووجدوا صفوف الأهالي وقادوهم ضد الطليان كما لاحت لهم فرصة للهجوم . وقد حاولت إيطاليا في أول الأمر أن تضغط على الأتراك قتهاجم أسطولهم البحري في شرقي البحر المتوسط ، وتخترق المضائق . ولكن النمسا كانت لها بالمرصاد ، فأندرتها بعدم الاقتراب من مياه البلقان ، فلم يسع إيطاليا سوى إرضاء حليفاتها النمسا وألمانيا ، واكتفت باحتلال جزيرة رودس وسائر الجزر الاثنتي عشرة أو الدوديكانيز . ثم أرادت أن تتعجل بالنصر إرضاء للرأي العام الإيطالي من جهة وخوفاً من كفهزار الجو الدولي من جهة أخرى ، فأرسلت أمداداً برية جديدة إلى طرابلس أحرزت بعض انتصارات على قوات المقاومة . وكانت دول البلقان تستعد لتوحيد كلمتها وجمع قواتها ضد تركيا ، فسارعت هذه بأجراء مفاوضات الصلح بينها وبين إيطاليا في أوشي لوزان بسويسرا في أكتوبر سنة ١٩١٢ ونزلت تركيا عن سيادتها على طرابلس إلى إيطاليا ووافقت على إخلائها من قواتها ، على أن تبقى لها السيادة الروحية . وقد أراد الأتراك قبل مغادرتهم البلاد رسمياً أن يداروا خجلهم أمام الأهالي ، فأعلنوا أنهم رغبة منهم في إعادة الطمأنينة والسلام إلى البلاد ، قد خولوا الأهالي حق التمتع بالاستقلال الذاتي . وكان هذا التصريح

من أهم العوامل التي ساعدت على تثبيت أقدام المجاهدين في حركتهم فصمموا على المقاومة إلى النهاية .

وهنا لا بد لنا من الإشارة إلى فضل الحركة السنوسية التي جمعت شمل القبائل ، وجعلت منها وحدة قوية خشيتها إيطاليا وفرنسا وإنجلترا ، وهي الدول التي كانت تشترك مصالحها في الصحراء الكبرى والسودان الغربي .

ولم تكن الحركة السنوسية في مبدئها إلا طريقة من الطرق الصوفية التي تدعو إلى تقوى الله والعمل الصالح والعودة بالاسلام إلى سابق مجده وقوته ، بالسير على سنن السلف الصالح ، ونبتذ الخرافات والبدع المستحدثة . ولكن أهميتها جاءت عن طريقين : الأول مرا كز التبشير ونشر الدعاية السنوسية . فقد أنشأ مؤسس الطريقة السيد محمد علي السنوسي ، الذي استقر به المقام في بنغازي سنة ١٨٥١ كثيراً من الزوايا في مختلف البقاع لتكون مرا كز للعبادة والتعليم ، وكان على رأس كل منها شيخ يجمع حوله الأهالي ويقضي بينهم في منازعاتهم ويرشدهم ويبصرهم بشؤونهم الدينية والدنيوية ، وكان عليه أن يجمع رسوماً محدودة يصرف منها على الزاوية والمدرسة ، وما يعود على الجماعة بالخير وعلى البلاد بال عمران ، كحفر الآبار وزراعة الأشجار ، ويحتفظ بحجز منها ثم يرسل ما يفيض بعد ذلك إلى الشيخ الكبير ، فكان نظام السنوسيين في مرا كزهم شبيهاً بحكومة داخل حكومة ، وهو ما يطلق عليه الغريون *imperium in imperia* .

أما الطريق الثاني الذي زاد أهمية الحركة السنوسية فهو انتشار الطريقة من برقة وتحولها في عهد السيد المهدي السنوسي الذي خلف أباه في سنة ١٨٥٩ من حركة دينية صرفة إلى حركة نظامية تكاد تفرض لها سيادة إقليمية في بعض المناطق . ولا شك في أن ضعف تركيا في ذلك الوقت قد ساعد على اشتداد ساعد هذه الطريقة وذيوع سلطانها ، لا في برقة وطرابلس فحسب بل كذلك في الصحراء الغربية كلها ، وفي السودان الغربي ووسط أفريقية ، فانتشرت زوايا السنوسيين بين بلاد المغرب إلى اسطنبول ودمشق ومصر والهند . ومع ذلك فإن السنوسيين لم يعمدوا إلى العنف والقوة في أول أمرهم وتجنبوا كل أسباب العداء والاصطدام بتركيا خاصة وبغيرها من الدول عامة . فلما بدأت تركيا تتوجس خيفة منهم انتقل السنوسي الكبير من بنغازي إلى واحة الجغبوب جنوب سيوه الغربي بمقدار ٣٠ ميلاً ، وفي سنة ١٨٩٤ ترك المهدي السنوسي جغبوب إلى واحة

الكفرة التي تبعد بمقدار ٧٠٠ ميل جنوبي بنغازي . وكان ارتحال السنوسيين جنوباً وتوغلهم في أعالي السودان واتفاقهم مع سلطان واداي شرقي بحيرة تشاد سبباً في اصطدامهم مع الفرنسيين الذين كانوا يعملون على تثبيت نفوذهم في تلك الأقاليم . وقد أدى ذلك الصدام إلى استعمال القوة بين الجانبين في سنة ١٩٠٠ . وقد انهزم السنوسيون ومات المهدي السنوسي سنة ١٩٠٢ بعد أن تعلم السنوسيون دروسهم الأولى في الحرب وأساليب القتال الحديثة . وكأنما كانت هذه المعركة الحربية الأولى تدريباً عملياً للسنوسيين ليستعدوا لمواجهة الأحداث التي كانت تنتظرهم . فما كاد شيخ السنوسيين يعود بهم إلى مقرهم في الكفرة حتى واجهت البلاد الغزو الطلياني ، فكان السنوسيون روح المقاومة ومضرمي نارها وخاصة في إقليم برقة الذي كانت لهم فيه السطوة والعصبية . وكان الأتراك حتى بعد عقد معاهدة أوشي لوزان قد تغلغلوا داخل البلاد واعتصموا مع المجاهدين في مكائهم وواحاتهم ، فلم تستطع إيطاليا نشر سلطانها إلا على المدن والسواحل . حتى إذا قامت الحرب العالمية الأولى ودخلت إيطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء بعد تسعة أشهر من نشوبها ، تشجع الأهالي في طرابلس وجاءتهم المؤن والذخيرة من تركيا بواسطة الغواصات الألمانية ، فقاموا وأعلنوا استقلالهم وكونوا جمهورية اختاروا على رأسها أحد زعمائهم ، واتخذوا مصراتة عاصمة لهم ، وكذلك أرسلت تركيا أميراً عثمانياً عينته قائداً عاماً على شمالي إفريقية ، ولم يسع إيطاليا حينذاك إلا سحب قواتها من البلاد مكتفية باحتلال بعض الموانئ وأهمها طرابلس وحمص .

ولكن سرعان ما دب الخلاف في صفوف المقاومين ؛ إذ كان فريق كبير على رأسه السيد أحمد الشريف السنوسي زعيم السنوسيين بعد وفاة عمه يؤازره الأتراك والألمان وبعض رجال العرب الذين انضموا إلى صفوف المقاومة — يريد انتهاز فرصة الحرب لمهاجمة الانجليز في مصر من ناحية حدودها الغربية على حين كان فريق آخر يتزعمه السيد محمد الإدريسي بن المهدي السنوسي وخليفة الشيخ الكبير ، وكان يقيم بمصر — يعارض فكرة الهجوم على مصر حرصاً على مودة الانجليز الذين كان لهم فضل إيواء السنوسيين وحمايتهم من مهاجمة الفرنسيين لهم في السودان والصحراء الغربية . وبمساعدة الألمان تغلب فريق الهجوم ، فقامت في أكتوبر سنة ١٩١٥ قوة صغيرة مؤلفة من ٥٠٠٠ من السنوسيين ونحو ألف جندي تركي وجماعة من البدو يقصدون غزو مصر من الغرب من ناحية

السلوم وواحة سيوة . وكان الانجليز قد أرسلوا معظم قواتهم إلى تركيا للاشتراك في حملة غاليبولي ، ولذلك اضطروا إلى إخلاء السلوم وركزوا قواتهم في مرسى مطروح . وتقابل الفريقان في عدة معارك أهمها في سيوة وقرب السلوم . ولم يكن يرجى للمهاجمين نجاح لضالة عددهم واستعداداتهم من جهة ، ولانقسام الآراء بين صفوفهم من جهة أخرى . ولذلك انتصر الانجليز رغم حرج مركزهم وخاصة في مصر ، واضطر الجيش المهاجم إلى الارتداد إلى برقة . أما السنوسيون فقد احتفظوا بالوحدات مدة قصيرة إلى أن تألفت وحدات حربية جديدة مزودة بالسيارات المصفحة والجمال ، فاستردت الوحدات سنة ١٩١٧ وبذلك تفرقت جموع السنوسيين وضؤل شأنهم ، واضطر السيد الشريف السنوسي إلى مغادرة البلاد إلى تركيا ثم الحجاز تاركا زعامة السنوسيين إلى ابن عمه السيد إدريس السنوسي وهو الزعيم الحالي ، وقد تفاوض مع الطليان بعد الحرب وكانوا في حال لا تسمح لهم باستئناف القتال مع أهل البلاد ، فاتفقوا معه على أن تكون له السلطة داخل إقليم برقة وتكون له الامارة أيضاً بلقب صاحب السمو بشرط أن يعترف لهم بحق السيادة ، فتم الاتفاق في سنة ١٩٢٠ ، وقام أهل طرابلس في سنة ١٩٢٢ بدعوته لزعامتهم أيضاً ؛ وبذلك جمع في شخصه وحدة برقة وطرابلس ، وبدا للناس أن كلمة البلاد قد توحدت في النهاية وأن زعيماً وطنياً مجاهداً من أهلها سيقود البلاد في كفاحها ضد الغاصب الأجنبي . ولكن ما كادت هذه الآمال تلمع في الأفق حتى جدت عوامل عجلت بنجبة الأمل ؛ فقد عارضت إيطاليا في حركة البيعة التي جاء بها الطرابلسيون للسنوسي ، ورجعت عن اتفاقها السابق معه وعادت تحارب حركة المقاومة بالايقاع بين الزعماء تارة وبالعذر حيناً وبالجيوش والدبابات والطائرات أحياناً . ولذلك لم يلبث السيد السنوسي أن غادر البلاد بعد بيعته إلى مصر وبقي متصلاً بحركة المقاومة عن طريق أخيه الرضا أولاً ثم بوساطة الزعيم عمر المختار الذي قاد الحركة بعد رحيل السيد ، واتخذ من الجبل الأخضر على ساحل برقة قاعدة له ومعقلاً حصيناً لأتباعه من المجاهدين الذين جاءوا إليه من كل فج وصدقوا على ما عاهدوا الله عليه من بيع أرواحهم رخيصة في سبيل الله والوطن .

وكانت الحكومة الفاشية بزعماء مسولين قد وليت أمر إيطاليا في خريف سنة ١٩٢٢ وفي مقدمة أغراضها السيطرة على حوض البحر المتوسط وإحياء مجد

الامبراطورية الرومانية القديمة ، وأن تعيد إلى حوزتها أملاكها وولاياتها القديمة ومنها طرابلس ، حتى يجد أهل إيطاليا الذين ضاقت بهم بلادهم في هذه المستعمرات الجديدة متسعاً كافياً لجهودهم ولذرائعهم التي كان مسولينى يباهى بها أم أوروبا جميعاً . لذلك نشط الايطاليون في العمل على استتباب النظام وإخضاع داخلية البلاد . ورأوا أن خير طريقة لقمع حركة المجاهدين أن يضيقوا عليهم الحصار من كل ناحية ، فطالبوا الحكومة الانجليزية بتحقيق وعودها لهم بشأن تعديل حدود ليبيا شرقاً ومساعدتهم لدى الحكومة المصرية في إدماج واحة الجغبوب قرب سيوة في المنطقة الايطالية فتم لهم ذلك في سنة ١٩٢٥ . وكانت الجغبوب من أهم قواعد السنوسيين ، وفيها قبر منشئ الطريقة السيد محمد على السنوسى ، وباحتلالها تمكن الطليان من حراسة الحدود الشرقية وامتنع تسرب المؤن إلى المجاهدين ، وأقفل الطريق في وجه اللاجئين منهم إلى مصر . وقد أحكم إغلاق الحدود بعد ذلك بوضع الأسلاك الشائكة على امتداد ٣٠٠ كيلومتر من البردية على الساحل إلى الجغبوب . أما جنوبى ذلك فقفار ووهاد لا سبيل إلى اختراقها أو عبورها إلا بالطائرة .

وأخيراً عين القائد الايطالى المشهور جراتريانى حاكماً عاماً على برقة وطرابلس ، وأخذ يعمل على إخضاع حركة المقاومة نهائياً بترغيب طائفة من السنوسيين وإرهاب طائفة أخرى بمختلف وسائل التعذيب ، ومن أقساها وأشدها وحشية أخذ المجاهدين في الطائرات والتعليق بهم في الجو ثم إلقاء جثثهم فوق مواطنهم على مرأى من ذويهم وقبائلهم . وأخذ الطليان يخضعون الواحات واحدة بعد أخرى حتى وصلوا إلى واحات الكفرة ، وتقع جنوبى بنغازى بنحو ألف كيلومتر . وفي هذه الواحات كان السنوسيون قد أنشأوا قرية التاج وزاويتها ، وهى تعتبر أكبر معقل للسنوسيين وفيها شيدوا دورهم ومخازنهم ، فسير الطليان إليها أكبر حملة اخترقت صحراء برقة في العهد الأخير ؛ إذ كانت تتكون من نحو ثمانية آلاف جمل وعشرين طائرة محملة بالقنابل . واشتبك الأهالى مع القوة الايطالية في معركة دامت بضع ساعات تمكن في أثناءها المجاهدون من التسلل وحداناً وجماعات في الصحراء ميممين شطر مصر والسودان شرقاً ومعهم نساؤهم وأطفالهم وما خف من متاعهم ، ومضوا مشاة وركباناً يتخبطون ذاهلين من أثر الصدمة نا كسى رءوسهم مما أصابهم من الهزيمة ، يرافقهم الجوع ويتعقبهم العدو بطائراته وقنابله

ويتخطفهم المرض والموت ، فكانوا يتساقطون على طول مسالك الصحراء وشعابها كأوراق الشجر أذواها الخريف . حتى إذا قاربوا حدود مصر وصل رائد منهم إلى الواحات الداخلة في مضر ، وقص على مسامع أهلها وحكامها حكاية هؤلاء التعساء المنكودين ، فسارعوا بانقاذ من أمكن إنقاذه منهم بعد مسيرة نحو شهرين قمرين .

وكان احتلال الكفرة كالصاعقة نزلت على رؤوس المجاهدين ، فأيقنوا بقرب مصيرهم . وأراد الطليان أن يسدوا في وجوههم جميع المسالك ، فأقاموا الأسلاك الشائكة على الحدود الشمالية الشرقية ، فانقطعت أمام السيد عمر المختار وأصحابه أسباب الاتصال بالخارج وأصبحوا مضيقاً عليهم من جميع الجهات . وذات يوم من ربيع سنة ١٩٣٢ وقع السيد عمر أسيراً في أيدي الطليان فسجنوه ثم حاكوه عسكرياً ونفذوا فيه حكم الاعدام ، فارتكبوا باعدامه إثماً لا يزال عاره يلمطخ صفحة استعمارهم إلى اليوم . وبموته انطفأ آخر بريق لحركة المقاومة في ليبيا . وأخذ الناس يتناقلون في جميع أنحاء العالم العربي أحداث البطولة التي اضطلع بها أهل برقة وطرابلس مدة عشرين عاماً ، والتي تمثلت في جهاد السنوسيين واستشهاد عمر المختار ومن سبقه من المجاهدين والشهداء ، وقد راح ضحيتها نحو ثلث شباب برقة ونحو تسعة أعشار ماشيتها ؛ فلم يبق من سكان البلاد اليوم أكثر من مليون نفس . وقد ظن الطليان أنهم بقضائهم على حركة المقاومة قد مكنوا لحكمهم وتيسر لهم استعمار ليبيا . ولكن سرعان ما خاب ظنهم ؛ فقد انتثر عقد المجاهدين حقا ولكنهم انتشروا بين الشعوب العربية في كل صقع يرددون مأساتهم ، وما اقترفه الطليان في بلادهم من ألوان الجور والغدر والوحشية، حتى أضحي الحكم الفاشي في نظر الأمم العربية مبعث الخوف والشقاء ، وجرثومة الفساد والانحلال التي يجب أن تستأصل إن كان مقدوراً للشعوب أن تعيش وتترق في مدارج المدنية .

وما كادت الحرب العالمية الثانية تنشب وتدخلها إيطاليا إلى جانب حليفتها ألمانيا ، حتى تجلت روح الكراهية والسخط ضد إيطاليا في شمالي إفريقيا ، وتقدم السيد إدريس السنوسي وأخطر الحكومتين المصرية والبريطانية باستعداده لمعاونة الحلفاء . وعلى أثر ذلك تألفت فرق القوة العربية الليبية من متطوعي برقة وطرابلس وأمدتهم انجلترا بالذخيرة والمؤن وبعض الضباط . وقد أبلى الليبيون بلاء حسناً

في المعارك التي تتابعت جيئة وذهاباً فوق أديم أرضهم ، فتارة كان يتقدم الطليان فيصدهم الحلفاء ، وأخرى كان يرتد الطليان ويتقدم الحلفاء ، وآونة كان يزحف الألمان ومعهم الطليان ثم يردهم الحلفاء . وكانوا كلما ارتد الانجليز وحلفاؤهم وعاد الطليان إلى قواعدهم آثروا بمقتهم وغضبهم أهل ليبيا ، واختصوا من بينهم من كانوا يتعاونون مع الحلفاء فأنزلوا بهم سوء العقاب .

وفي ديسمبر سنة ١٩٤٢ خرج الحلفاء ظافرين من موقعة العلمين وأخذوا يطاردون فلول المحور غرباً حتى قذفوا بهم إلى البحر ، فثبتت قدم الانجليز في ليبيا وبدءوا يقيمون حكومة مدنية يشترك فيها أبناء البلاد . وكان النزاع القديم بين القبائل في برقة وطرابلس قد بدأ يتحرك ، ولكن أحداث الحرب الأخيرة قد أوثقت الصلات بين الجانبين وتوحدت كلمتهم في القرار الذي أصدروه في أكتوبر سنة ١٩٣٩ ، ثم أيدوه بعد موقعة العلمين باعترافهم جميعاً بالأمير السنوسي زعيماً لهم ، وبأن له وحده أن يتكلم بلسانهم في مختلف شؤونهم . وقد أعلنت الحكومة الانجليزية من جانبها بلسان وزير خارجيتها عقب انهزام قوات المحور تصميمها على عدم السماح بعودة الحكم الايطالي إلى برقة أو قرنيقيه بأية حال ولكنها لم تصرح بشيء عن نيتها نحو طرابلس حيث يكثر الطليان وتشتد المنافسة .

وقد نبتت عقب انتهاء الحرب الأخيرة مقترحات مختلفة بشأن إدارة البلاد ؛ فقد طالبت روسيا بدون جدوى أن تكون لها الوصاية على طرابلس حتى تحل محل إيطاليا في حوض البحر المتوسط وتخرج من عزلتها في البلقان إلى مياه البحر المتوسط ، ولتشرف على شؤون الشرق الأوسط من كذب بعد أن أصبحت هذه المنطقة أشد مواطن العالم تنافساً بين الدول وأكثرها خطراً . وتقدمت مصر تقترح أن تتمتع ليبيا باستقلالها السياسي ، وإن كان لا بد من وضعها تحت الوصاية فترة من الزمن فإن روابط الجوار واللغة والدين تجعل حق مصر في ذلك أولى من غيرها .

وقد مضى الوقت الذي كانت مصر فيه مؤمنة بمناعة حدودها من ناحية الصحراء الغربية معتبرة خط الطول رقم ٢٥° درجة شرقى جرينتش آخر حدودها الغربية خطاً وهمياً ؛ فقد ذلت الصحراء للسيارات والدبابات وتقدم الطيران فالغى مسافة الصحراء زماناً ومكاناً ، وأصبح جديها وقيظها ووعثاؤها كل أولئك أموراً لا يحس بها العلم الحديث ولا تعترف بها السياسة . لقد أصبحت الصحراء

عنصراً مهماً في جسم السياسة ، العالمية وزالت عنها إلى غير رجعة تلك الحصانة الحربية الماضية . فقد أظهرت الحرب الأخيرة كيف استطاع العدو أن يتخذ من صحراء ليبيا ومن واحة الجغبوب التي اغتيلت منا حين كانت بريطانيا لا تزال تحسن الظن بإيطاليا — أن يتخذ منها قاعدة حربية يحشد فيها قواته ويشب منها على حدودنا . ولو لم تكن بريطانيا محتفظة وقتئذ بتفوقها في البحر المتوسط والبحر الأحمر لاستطاع العدو أن ينفذ خطة « الكاشة » الحربية التي دبرها ضد مصر والسودان بتسيير قواته شرقاً من ناحية ليبيا وغرباً من ناحية أرترية والحبشة . من أجل ذلك كان في مقدمة ما طلبته مصر في مؤتمر الصلح الذي انعقد في باريس في صيف سنة ١٩٤٦ إعادة واحة جغبوب إلى حدود مصر كما كانت . والناس في برقة شديداً التمسك باستقلالهم ، والسنوسيين بينهم مقام مرموق فلهم علمهم الخاص وتجمع الضرائب وتصدر المنشورات باسمهم ، وزعيمهم يجمع بين السلطتين الدينية والزمنية . أما في طرابلس فالحال غير مستقرة ، وللطليان فيها قضاة وأطباء وفنيون منتشرون في البلاد ، والانجليز لا يزالون يحتلون البلاد حراساً على أموال الطليان ، وذلك إلى أن يصل الحلفاء إلى قرار حاسم بشأن مصير ليبيا . وقد قرروا أخيراً إرجاء بحث المسائل الإقليمية الخاصة بمستعمرات إيطاليا إلى ما بعد انقضاء عام على توقيع معاهدة الصلح مع إيطاليا ، وقد وقعت المعاهدة في ١٠ فبراير سنة ١٩٤٧ .

ولا تزال إيطاليا تطمح في أن يجود عليها الحلفاء بشيء في طرابلس ثمناً لمعاونتها لهم في المرحلة الأخيرة من الحرب ضد ألمانيا واستمالة لها إلى جانب كتلة الدول الغربية . ولكن يبدو أن انجلترا تريد أن تبقى مضطلة بسياسة البلاد العليا سواء كان ذلك بطريق الوصاية أو بالاتفاق مع حكومة وطنية تتولى أمر البلاد بمعاونة مستشارين من الانجليز ، ويكون شأن ليبيا حينذاك كشأن مملكة شرق الأردن .

وتواجه ليبيا بعد الحرب الأخيرة أزمة اقتصادية اجتماعية على درجة عظيمة من الخطورة ؛ فقد أرسلت إيطاليا إلى ليبيا عشرات الآلاف من الطليان وأقطعتهم الضياع والمزارع من الأراضي التي صادرتها من أرض المجاهدين ومن أراضي الزوايا السنوسية . وكانت الحكومة الإيطالية تمد المستعمرين لهذه الأراضي بالماشية والعدد والبذور مما جعل الحكومة المحلية في ليبيا تهمل الاقتصاد العام

للبلاد ، حتى بلغت قيمة وارداتها في سنة ١٩٣٨ ثمانية أضعاف صادراتها ، وباتت البلاد بعد الحرب في حاجة شديدة إلى رؤوس الأموال وإلى الرجال الفنيين الذين يعالجون ما سببه الطليان من مغارم على البلاد وهي الفقيرة في المعادن والزراعة. ولما جلا الطليان عن البلاد غادرها كثير من مستعمري تلك الأراضي . ولكن ما كادت تنتهى الحرب حتى ضجر أولئك بمقامهم في إيطاليا وشموا اضطراب الأحوال فيها ، وحفزهم الحنين إلى ضياعهم وسابق رغدهم في ليبيا ، فبدءوا ينسلون إليها سرّاً وعلانية كما ينسل اليهود إلى فلسطين ، بعد أن أصبحت ليبيا لأهل إيطاليا عامة ولأهل صقلية بصفة خاصة « أرض المعاد » . وسيؤدي وجودهم حتماً إلى مشكلة اجتماعية خطيرة . فلعل بريطانيا وهي القائمة بشؤون الحكومة مؤقتاً أن تبادر بأخذ الحيطة حتى لا يشهد العالم حركة صهيونية جديدة تقوم في ليبيا . وأمام أهل برقة وطرابلس جميعاً واجب قومي يدعوهم في أثناء فترة هذا العام إلى التضافر والعمل يداً واحدة على مناهضة كل حركة ترمى إلى إعادة مأساة الاستعمار ثانية بين ظهرانهم . ومما يدعو إلى التفاؤل أنه قد عاد أخيراً إلى البلاد رجال من الليبيين كانوا قد نشأوا وتثقفوا أثناء الاحتلال الإيطالي في جامعات ومدارس مصر وغيرها من بلاد الشرق العربي ، وقد حملوا معهم جميعاً إلى ليبيا أمانى الجيل الجديد وأهدافه نحو الاستقلال في ظل الجامعة العربية . وإنهم وأيم الحق بهذا الجديرون .

محمد رفعت

من مشاهدات سائر في نيويورك

الأبيض والأسود . . . وقصص أخرى !

تتناثر في نيويورك الأحياء الخاصة بالأجناس المتباينة ؛ فهذا حيّ الإيطاليين ، وهذا حيّ الإيرلنديين ، وهذا حيّ الإسبان ، وهذا حيّ الروس ، وتلك أحياء آخر لأجناس آخر . . .

وإن تلك الأحياء لتبتلعها المدينة وتؤمركها ، فتتضاءل على مر الزمن ، كأجناس هذه الأحياء تربطهم جامعة أمريكية واحدة وإن تفرقت بهم المناسبات والأصول . . .

تتحلل أحياء الأجناس في بوتقة المدينة . كما تتحلل الأجناس أنفسها في بوتقة الأمة الأمريكية . . .

ولكنّ ثمة حيّ لا أدري كيف يتحلل في بوتقة نيويورك وكيف يتحلل جنسه في بوتقة الأمة ، ومتى يتم هذا وذاك ؟ إنه كالحجر الصلد لا يلين للأحماض المذيبة ، ولا ينصهر في أتون النار المتقدة . . .

ذلك هو حيّ الزنوج ، أو مدينة هارلم ، كما يسمونها هناك . . . إنه أبعد أحياء نيويورك صيتاً ، وأوضحها تميزاً . و مرجع ذلك إلى قوة المقاومة في جنسه ، وما يحيط به من ملابسات تعين على احتفاظه بجوهره . . . إن الأجناس الأخرى ليسرع إليها التحول والاندماج ، حتى لتكاد تنسى أصولها العريقة . أما الزنجي فإنه وإن استمسك بأمريكيته واعتز بها واكتسب كثيراً من مظاهر الحياة فيها ، فهو ما برح يعد نفسه غريباً في أمريكا . . . غريباً في وطنه !

إنه يشعر بأن جنسه هدف للضم والاضطهاد ؛ ولذلك يتحصن خلف أسوار حيمه ، يكاد يحظر دخوله على غيره ، بل يكاد يقيم عليه باباً لا يستطيع اقتحامه أحد . . .

ولأنه لمن عجيب المفارقات أن تجد جنساً لا يعرف له وطناً إلا أمريكا التي

يسكنها ، وهو مع ذلك يتأبى الاندماج في هذا الوطن ، أو لعله لا يجد السبيل إلى هذا الاندماج . . .

تجول في هارلم ، فاذا بك في حي كسائر أحياء نيويورك في ظواهر العمران ...
إلا في السكان !

مستعمرة سوداء لا ترى فيها الأشباح البيض إلا لما . . .
إن الأبيض يطرق هذا الحي وهو عليم بأنه إذا توغل فلن يأمن على نفسه
الغوائل . فكأين من كلمة أثارت شغباً وأججت حرباً ، وكأين من إيماءة أقامت
قتالا وأورثت وبالا . . .
إن هذه الوجوه السود لتقلب فيك نظر المستريب ، فاذا رجعت إليها البصر
تحفزت لك مستوفزة متمرة . . .

إن قصة الأبيض والأسود قصة تتجلى فيها الطرافة ، وإن شئت قلت الغرابة
والشذوذ . . . إنها مأساة دامية ، بل وصمة في جبين الحضرة الأمريكي الناصع !
كادت قصة الأبيض والأسود تقوِّض بناء الجمهورية الفتية وتقضم عراها ،
فتفكك دويلات ضئلا ضائعة الشوكة والسلطان ؛ ذلك لأن قديساً من البشر ،
مثالي الفكرة ، تعمر الانسانية قلبه ، أرى أن يكون في الجمهورية الجديدة أرقاء
من السود يباعون بيع السلع ، فمنحهم حق الانسان ، حق الحرية والمساواة ...
ذلك هو لنكولن العظیم الذي كانت روحه فداء لفكرته ، فما كاد يرفع راية
العدالة ، ويقضي على الثورة حتى خر صريعاً بيد رجعية آثمة ، وراح شهيد مثله
الأعلى . . .

لقد وضعت الحرب الأهلية أوزارها ، وعفّت الحقب آثارها ، ولكن ثمة
حرب أخرى ما برحت مستعرة الأوار ، في الخفاء !

لقد محا القانون معاني الرق والاستعباد ، ولكنها لما تزل عامرة بها
الصدور . . . الأسود والأبيض سيان أمام القانون ، وأمام فرص الحياة الرسمية
في كل منحى من مناحي الاجتماع ، ولكن نصوص القانون في واد ، وفهم القانون
والانطباع به في واد آخر بعيد . . . فاذا عرفت أن عقلية الأبيض لا تسينغ
بأية حال شخصية ذلك الأسود المنبوذ ، تسنى لك أن تعلم كيف يفهم الأبيض
ذلك القانون ، وإلى أي مدى يجري تنفيذه في المجتمع الأمريكي الذي نعده معقل
الديمقراطية وملاذها الأمين !

ربما تحدث الأبيض إليك عن الأسود بروح لنكولن العظيم ، روح الإخاء والمساواة ، ولكنه حين يمارس شؤون الحياة ، ويلابس ذلك الأسود في هذه الشؤون ، فسرعان ما تتبدل الحال غير الحال ، فاذا الأبيض ينظر إلى الأسود نظرة الأحرار إلى العبيد ، ويعامله معاملة السيد للمسود !

لا ألفة بين الأبيض والأسود في أمريكا ؛ فبينهما حاجز تكاثفت طبقاته وتحجرت على ترادف الأيام . ومنشأ ذلك أن الأبيض ما زال بواعيته الخفية ينظر بعين أجداده ، يرى الأسود عبداً رقيقاً ، له أن يبيعه وأن يشتريه وأن يسخره فيما ينبغي من الأعمال ، فكيف يراد الأبيض اليوم على أن يساويه أولئك العبيد الأرقاء ؟

ومن ناحية أخرى نرى الأسود قد استنار عقله ، واستبان له حقه في أن يعيش حراً على قدم المساواة بينه وبين سائر الناس . . . وإذا كان قد اتخذ أمريكا وطناً له فشأنه في ذلك شأن الأبيض سواء بسواء . . . وفوق ذلك فهو يرى بواعيته الخفية أن البيض القدماء قد استعبدوا أجداده ظلماً وعدواناً ، فهو يحفظ لأخلافهم البيض ثأر الجدود . ومن ثم تشهد في الأسود المعاصر عنجهية وخيلاء ، وتلمح في عينه نظرة الثائر المحقق ، فيزيد ذلك من حفيظة الأبيض عليه ، ويوسع بينهما هوة الشقاق . . .

ومن أضاحيك المفارقات أن الديمقراطية الرحبة التي هي شعار الجمهورية الأمريكية قد أعانت على التفرقة بين الأبيض والأسود دون عمد . . . فهذه الديمقراطية تمنح الهيئات والأفراد حرية التصرف في الأنظمة والإجراءات واتخاذ الخطط التي تيسر سبل النجاح ، وكان من أثر ذلك أن عمدت طائفة كبيرة من المعاهد والمؤسسات ونحوها إلى إقصاء الأسود عن رحابها ، مستخدمة في ذلك حقها في أن تقبل من تشاء وتأبى من تشاء . . . فلم يجد الأسود بدءاً من أن ينشئ لنفسه معاهد ومؤسسات خاصة ، فاشتدت بذلك الفارقة ، وتلظت البغضاء ، وتقطعت أسباب التواصل والاندماج . . .

ستظلين يا هارلم كما أنت ، لا يعنى عليك الزمن إلا إذا انقلب الأمريكيون البيض جميعاً أشباهاً للنكولن خلقوا من طينته ، وأشربت قلوبهم فكرته ، وكانوا كمثلهم قديسين ، نصب عيونهم مثله الأعلى في الإنسانية والأخاء ! ولكن أمن الخير للأمة الأمريكية أن تكون على غرار لنكولن مثالية

قديسة ، فيندمج العنصران التقيضان ، وتتزاوج العقليتان المختلفتان ؟
أم الخير كل الخير في أن يظل للأسود ميدانه ودنياه ، وللأبيض حضارته
يمضي بها طوع هواه ، ويطبعها بعقليته ومنحاه ؟
مهما يكن من قول ، فإن في سريرة الغد جلاء ما تضطرب فيه الظنون ! . . .

ما كان لنا وقد ذرنا شوارع نيويورك وتدسنا إلى أحيائها إلا أن نخرج من
عزلة المدينة ، متخطين أسوارها في نزهات قاصية بين الضواحي والأرباض . . .
وإنك لتحسب نفسك في نزهة حول المدينة ، فإذا بك تعلم أنك قد اقتحمت
حدود ولاية أخرى ، وبدأت تجوب مدائنها ، وتطرق عاصمتها . . .
تحاط نيويورك بضواحي طريفة ، سُمّها كما شئت ولايات أو مدائن أو مقاطعات ،
لها جميعاً طابع واحد ، فما أشبه بعضها ببعض : بالساد ، بيرماونتن ،
وست شستر ، لنج بيتش ، كوني أيلند ، وما إليها . . .
دساكر وبقاع تتجلى فيها مفاتن الريف جمعاء ، ولكنه الريف في مظهر
مثالي شائق . . . إن هذه الدساكر لتعد قرى هنالك ، ولكن أية قرى هذه ؟
تلك وسائل الحضارة في هذه المدن الريفية مستكملة مستوفاة تحيلها حضراً له
مزايا الريف . . .

للناس في نيويورك عادة ألفوها ، هي أن يخرجوا إلى تلك البقاع في أيام
الآحاد والعطلات ، وإن بعضاً من الناس ليتخذونها مستقراً ومقاماً ، يفزعون
إليها انتجاعاً للراحة ، ونجاء من الزحمة والضجيج . . .
وإن لأهل نيويورك نزعة قوية إلى طلب الراحة ، ينشدونها ويسعون إلى
تحقيقها ما وجدوا إليها الخلاص . . .

ترى أكثر كلماتهم دوراناً على ألسنتهم هي كلمة « ريلاكس » . . .
يتناقلونها في كل مناسبة ، فهي فردوسهم المفقود ، ونعيمهم الموعود . . . إنها
« التراخي » . . .

وحق للأمريكيين أن يحلموا بهذه الرخاوة ، يهيمون بها حباً ، ويتحرقون
إليها شوقاً . ولكن هذا الفردوس عزيز المنال على أولئك المساكين الذين
دارت بهم الآلة ، وضغطتهم الزحمة ، وجهدهم التكالب على الكسب
والاغتنام !

إنهم لا يخرجون من رَهَقٍ إلا إلى رَهَقٍ ، ولا يخلصون من مجهود إلا إلى مجهود . . .

إلى أين يقصدون ؟

إلى سفوح الجبال ، حيث تجول يد الفنان في مجالى الطبيعة فتحيلها جنات بحق : حدائق وغابات ، جسور معلقة ، وهاد ونجاد ، جداول وبحيرات للسباحة والجذف ، ملاعب تحت الحمائل ، مقاصف بين الأيك والغصون ، إلى غير ذلك من محاسن تقرُّ بها العيون ، وتشج لها الصدور ؟ . . .

ولكن كيف السبيل إلى الاستمتاع بهذه المجالى الفاتنات ؟
ليس ثمة من سبيل إلا أن ترهق نفسك وترحمها بين الكتل البشرية في البواخر والقطارات والسيارات الحافلة ، فاذا استخلصت جسمانك من بين الجموع في آخر المرحلة ، ورأيت نفسك قاب قوسين أو أدنى من تلك الجنان الزاهية ألفت شياطين الزحمة ، وأنظمة « الطواير » قد سبقتك هناك ، ووقفت لك بالمرصاد ، تعكر عليك الصفو ، وتسلبك أملك في « الريلاكس » فتتشد مع الشاعر العربي قوله :

المستجير بعمره عند كربته كاللستجير من الرمضاء بالنار

إن نشدان الراحة في مظان الراحة هناك معضلة من جسام المضلات !
ولذلك تجلت أمنية « التراخي » في مظاهر شتى من الأدب الأمريكى والفن الأمريكى ، ولا سيما الفلم السينمائى . . .

تراهم يصورون حياة الطبيعة الفطرية تصويراً بالغ الروعة ، ويشيدون بمفاتن المواطن غير المتحضرة إشادة ظاهرة . وليس ولعهم بذلك التصوير وتلك الإشادة إلا إرواء لظمأ نفوسهم إلى الراحة والرخاوة . . .

ما أكثر المتنزهات الخلوية ، وما أحفلها بالمتع المتنوعة تواتى كل امرئ بما تصبو إليه نفسه ! . . . وما أروع الطرق التى تصل بعض هذه المتنزهات ببعض ! . . . إنها طرق فسيحة معبدة ، أخلت مضاراً للسيارات تنتهيا وحدها انتهاياً . وقد يتحول الطريق جسراً عظيماً يمتد أميالاً طوالاً ، ثم ينقلب نفقاً هائلاً يتغلغل في جوف الأرض متسللاً تحت أعماق الماء ، ثم تخرج منه تستقبلك المروج الخضر والغابات المشتبكة وتلك المغانى الفاتنة تبدو في فن بنائها كأنها لعب مكبرة أو نقوش ملونة . . .

أما الشواطىء الخاصة بالاستحمام ، فلكل بقعة منها نصيب ، فإن ضنت الطبيعة به خلقوه لها خلقاً ، وأنشأوه إنشاءً !

ولعل أكبر ما يميز تلك الشواطىء حفولها بتلك الملاعب التى نسميها : « لونا بارك » . . .

ما أنس لا أنس ملعب كوني أيلند . . . رقعة واسعة تحوى كل عجيب غريب من الألعاب التى تأخذ بمجامع الألباب . . .

وإنها لظاهرة تسترعى النظر ، تلك الرغبة التى تمتلىء بها نفوس الأمريكين فى ارتياد أماكن التسلية الطفولية العامة بالصخب والضجة والمخاطر . . . ربما كانت علاجاً يفزعون إليه شفاء لأعصابهم المنهوكة ، على نحو ما كان يشفى به نفسه أبو نواس إذ يقول :

دع عنك لومى فان اللوم إغراء وداونى بالتى كانت هى الداء

إنهم يعبون من تلك الحمر الكاوية للأكباد ، لينسوا ما نهكهم من جهد ومشقة . . .

إنهم ليطرامون فى ذلك الصخب والضجيج ، يتركون أنفسهم على سجيئها منطلقة تمرح وتلعب . . .

هى رغبة فى التحرر من الأغلال : أغلال العمل الدائب ، وأغلال النظم الصارمة !

فى هذه الملاعب يحاولون أن يحطموا هذه الأغلال ، فتجد الرجل الناضج قد اهتز طرباً وهو يعتلى صهوة حصان من خشب يسابق به الريح ، أو ضج مرحاً وهو يترنح على مقعده فى ذلك القطار الأهوج الذى لا يفتأ فى صعود وهبوط ، أو انبعث ضاحكاً والرحى السحرية تدور به دورتها الحمقاء ، ثم تلفظه لفظ النواة ؛ فلا تراه قد ترك لعبة إلا مقبلاً على أخرى طلباً للمزيد من الضحك والمرح !

فى تلك الملاعب الشائرة تتجلى المخاطر فى صورة واضحة ، ولكنها مخاطر مأمونة العقبي . . . وإن الإنسان ليولع بها إرضاء لنزعة أصيلة فى أغوار نفسه . هذه الحضارة على وجه عام قد أمّنت عيشه ، ومهدت طريقه ، فأصبح يحيا حياة أمن لا تكلفه جهداً ذاتياً فى المغامرة ومجالدة المخاوف ، ولا تتطلب منه أية جرأة أو جسارة ، لا كما كان يعيش أبوه الأول ، يصارع ويصاول ، تعتاقه فى

كل طريق عقبة ، ونحشى في كل خطوة أن يقع في شرك ، فاذا ذلل العقبات ، وتخطى الأشراك ، أحس قوة الشخصية وكبرياء الفتوة وزهو الغلب . . .
أما هذا الانسان الحضري فانه قد أُحيط بما يؤمنه حتى مل الأمن الشائع حوله ، فهو تواق إلى أن يستعيد حياة الفرع ومجابهة الأهوال ، ولو ساعة في مجال تتناثر فيه ألعاب الصبيان !

ومن ثم يرمى بنفسه في تلك المخاطر المصنوعة ، ويخرج منها سالماً يوهم كبريائه أنه الفارس المغوار ، والبطل المقدام . . .

طال بنا التجوال يوماً في هذه الشواطئ العامرة بالملاعب والمساح والمقاصف ، حتى آذنت شمس النهار بالمغيب ، فاذا بي أسمع صوتاً يقول :
— هلاً رافقتموني إلى مغنى فكتور تقضى فيه هزيعاً من الليل ؟

فالتفت صوب الصوت ، فواجهني صديق كريم ، سمح المحيا ، طلق الأسارير ، فقلت له على الفور :

— وما هو مغنى فكتور ؟

— مثابة في إحدى الضواحي القصوى ، إن شئت سميتها مطعماً ، وإن شئت سميتها منتدى تستمتع فيه بجلسة صافية . . .

فقلت له :

— لبيك !

وأقلتنا سيارته الرشيقة ، فانسابت في طريق من تلك الطرق الفساح ، تمر بنا المروج والغابات والضياع ، يتلو بعضها بعضاً ، في جو رخي الأنسام ، حتى شارفنا مغنى فكتور . . .

حديقة طيبة ، وبركة أنيقة ، يتوسطهما مبنى جميل ، كل ما فيه يشعرك بالألفة ومظاهر الحياة العائلية . . .

لست في مطعم أو مشرب ، وإنما أنت في بيت غطريف سرى من أمراء الطليان له في الحياة ذوق فنى مصفى ، تحير هذه البقعة النائية ليحيا مع ضيوفه ورواد مغناه في دعة وطمأنينة وصفاء ، يقدم لهم أفخر الطعام وأطيب الشراب في تأنق وسخاء . . .

وتوخينا معزلاً هادئاً بجوار الشرفة ، وأمضينا فترة هائلة . . . لا موسيقى ولا رقص ، لا حركة ولا جلبة ، لا شئ مما تحفل به مقاصف الليل !

إن انتزاح هذه المثابة عن قلب نيويورك وقيامها على أطراف الأرباض ، وخلوها من المغريات الشائعة ، جعلها مهوى أفئدة أولئك الذين يبتغون تذوق المتع الغالية الرفيعة في سكينة وهدوء . . .

وتلفت حولى أقول :

— أين رب البيت السيد فكتور ؟

فعلا صوت ضخم رددت أصداؤه أبهاء المغنى ، وقد شاعت فيه نغمة حفاوة وترحيب ، تصحبها ضحكة رنانة لا يجيد إطلاقها إلا من كان خالى البال . . . فملت على صديقى أقول :

— قسما إنه السيد فكتور !

فاعتاض الصديق عن الجواب بالابتسام . . .

وهرع بعض قصاد المغنى إلى مصدر الصوت فى بشاشة وإيناس ، وأهاب بنا الصديق أن نهض كما نهضوا ، فتبعناهم ، فاذا بنا أمام قفص لطيف تقف على إحدى دعائمه ببغاء رشيقة تصوب فينا النظر وتصدده بعينين حادتين . . . فهمست فى أذن صديقى :

— من يكون هذا السيد الظريف ؟

— إنه الخُل الوفى والصديق الودود لرب الدار . . .

— حقاً إنه خير من يؤدى حق الضيافة !

ولبثنا حيناً يميناً هذا السيد ونحييه ، ويفا كهنا ونفا كهه ، وقد توثق بيننا الود ، واتصلت أسباب الألفة . . .

ولكن القصاد تكاثروا حول القفص ، وتكاثفت الحلقة ، فاذا بهذا السيد الظريف ينقلب عفريتاً من الجن يصخب ويثور ، ويسلقنا بلسان سليط ، فتراجعنا عنه مقهورين !

لقد استجبنا لنداء هذا الزعيم الحبيس ، فلم ندع صيحته تذهب مع الريح ، ولكنه ما كاد يحس عظمته تتجلى ، ويرى مكانته تتسامى ، حتى أشر وبطر ، وحسب نفسه زعيماً بحق ، وانبرى يثور على من استجابوا له ! . . .

ذلك صنيع حيوان .

أتراه محاكياً يفصح عن طبيعة الإنسان ؟

وشرع صديقى يروى لى قصة السيد فكتور . . .

إنه طلياني تأمرك ، طلياني فنان في روحه وذوقه ، احتل هذا المغنى بجديته وبركته ، فأقام هو في الطبقة العليا ، وجعل الطبقة الدنيا مطعماً ومثابة للوجهاء المترفين وإنه ليتفنن في كل ما يقدمه من مأكل ومشرب ، وما تقع عليه العين من أثاث ومتاع

ولقد استغل الحديقة ، فاتخذ منها حظيرة للدواجن ، ومزرعة للخضر والفاكهة ؛ ولذلك يقدم لك من ثمر المزرعة ما هو يائع جنى ، ومن نتائج الحظيرة ما هو منتقى شهى

كل ما عندك أيها السيد فكتور — أو على الأصح أيها السنيور فيتوريو — طريف شائق حتى هذه البيغاء المتمردة الشغوب !

لقد تفتقت عبقريتك عن عمل قتي يدل على أن الطليان القِدْح المعنّى في حب الجمال !

حقاً لقد ظلمكم زعيمكم الراحل موسوليني أيها الطليان ، إذ حاول أن يخلق منكم جبهة حرب وضرب ، وكر وفر ، وما أنتم إلا أمة فن جميل ، وذوق رفيع

وهل تقل عظمة الفن والجمال عن عظمة القتال والصيال ؟

محمود نجور

الفلاح المصرى يشكو اضطهاد طبقة الموظفين

كما دونها حكيم مصرى قديم على بردية منذ اثنين وأربعين قرناً

[ولا يجرمنكم شئآن قوم على ألا تعدلوا...
إعدلوا هو أقرب للتقوى]

سعيدة الأمة التى خلفت وراءها ماضياً مجيداً ، وتراثاً خالداً ، وتاريخاً حافلاً ، تستمد العون من معين عظاته ودروسه الخالدة ، عندما يقلب الدهر لأبنائها ظهر المجن ، وتنقطع بهم أسباب المعونة ، ووسائل الخروج من المأزق الحرجة ، وإذا كان لأمة من أمم العالم القديم أن تفخر بما لها من تراث تليد ومجد مؤثل فى الحضارة العالمية ، وبخاصة فى نشر المثل العليا فى الاجتماع والسياسة ، وسبل الحياة الحقة التى بنيت على العدالة الاجتماعية منذ انبثاق فجر التاريخ ، كان لمصر بلا نزاع لها قصب السبق فى ذلك المضمار ؛ إذ لا يعرف التاريخ حتى الآن حضارة مدونة محفوظة تضارع الحضارة المصرية فى القدم ؛ فقد انبثق فجرها منذ ٣٤٠٠ ق.م. تقريباً فى فترة من الزمن كان جل العالم الذى نعيش فيه لا يزال فى سبات عميق غارقاً فى لجة من ظلمات الجهل التى لم يفق منها إلا بعد أن أفاضت عليه مصر من نورها وعرفانها .

ولا غرابة إذن فى أن يقال عن مصر إنها المعلم الأول لدول العالم القديم ، على أن تاريخ المدنية المصرية يرجع إلى عهد أقدم بكثير من تاريخ ظهور مدنيّتها المدونة ، وهذا العهد كان عهد حكم الآلهة كما زعم المصريون وعلى رأسهم الإله الأعظم الذى كان يمثل فى الشمس ، وكان عهده نموذجاً للحكومة العادلة التى قوامها الحق والصدق والمساواة . ولا انتقل الحكم إلى أيدي البشر ساروا على نهج الإله الأعظم فى حكمه العادل الذى كان رائده الحق للحق مدة طويلة من الزمان تبلغ نحو ألف سنة أو تزيد . وهذه الفترة يطلق عليها فى التاريخ المصرى عهد الدولة القديمة أى من ٣٤٠٠ إلى نحو ٢٤٠٠ ق.م. تقريباً ؛ غير أن عامل

الفساد كان قد بدأ يسرى فى جسم الدولة وتبدأ فتنحى حكامها عن العدالة الاجتماعية ، فكان ذلك نذيراً بانحلال وحدة البلاد حتى رجعت سيرتها الأولى قبل توحيدها على يد مينا ، فصارت إقطاعات مستقلة عن العرش تقريباً . وقد أدى ذلك الانحلال إلى سقوط الدولة القديمة ، ومن ثم فشا الخراب ، وعمت الفوضى ، وقامت طبقة الفقراء والمضطهدين فى البلاد بثورة طاحنة أتت على الأخضر واليابس ، مطالبين بالعدالة وكشف الضر عنهم . وقد ظلت البلاد مقسمة إقطاعات مستقلة إلى أن قامت أسرة عريقة فى « إهناسية المدينة » وأسست حكومة ملكية ؛ غير أن سلطانها لم يكن يمتد على البلاد كلها إلا اسماً .

والواقع أن حكم الإقطاع الغاشم كان متفشياً فى ذلك العهد إلى حد بعيد ، وكانت مظالمه واقعة على الفلاح والعامل بدرجة شائنة غاشمة . ولقد رأى رجال الفكر فى ذلك العصر الحالة المحزنة والظلم الفاحش ، والاضطهاد الشائن ، الذى كان يئن منه الفلاح وغيره من أهل الطبقة الدنيا ، ثم قرنوا تلك الحالة بما كانت عليه حكومة البلاد قبل أن يدب فى جسمها الفساد ، وتذكروا عهد حكومة الإله العظيم أيام كانت العدالة هى قانون البلاد ، وكلمته العليا . ولذلك تطلعوا إلى ذلك الماضى المجيد ، فكانت ذكرياته وما فيه من مثل عليا حافزاً لهم على المحاربة بأسنة أقلامهم الملهبة حماسة بسبب ما وصلت إليه حالة البلاد من الخراب واتقلاب النظم الاجتماعية ، التى نشأت من ظلم طبقة الأغنياء للفقراء ، واستئثارهم بالثروة ، ووضعهم الفلاح والعامل فى مرتبة الحيوان أو أخط منزلة منه . غير أن بعض أولئك الكتاب كانوا يرجون ويؤملون صلاح هذا المجتمع الفاسد الذى انقلبت فيه الأوضاع الإنسانية ، وأخذ الفقراء ينقمون من أصحاب الثروة والجاه الذين ساموهم سوء العذاب . والواقع أن بعض أولئك الكتاب المفكرين كان مقتنعاً بإمكان السير نحو عهد جديد على أساس إيجاد جيل من الموظفين الأمناء العدول .

وطائفة أخرى رأت أن تحقيق ذلك قد يأتى على يد ملك عادل مخلص مجدد للمجتمع ، فعندما فحص رجال الطائفة الأولى الحياة رأوا وجوب التمسك بالمبادئ العملية للحياة الحققة ، التى يمكن أن تطبق على الحياة اليومية بانتقاء طائفة الموظفين على أسس متينة . وهؤلاء المفكرون هم الذين كانوا لا يزالون يؤمنون بوجوب سيادة الحق والعدالة الخالدة ، وهى التى كان يعبر عنها المصرى القديم

بكلمة « ماعت » . وقد استمروا على اتسك بأهداب ذلك الأمل ، ووجوب سيادة العدالة لأنها استطاعت السيطرة على الحياة المصرية قديماً .

وهذه الآراء قد عبر عنها فى مقال يمكننا أن نسميه الفلاح الفصيح ، أو شكاوى الفلاح المظلوم . ولحسن الحظ قد وصلت إلينا نسخة من هذا المقال الرائع كاملة غير منقوصة ، والبردية التى تحتويه موجودة الآن فى متحف برلين وكاتب هذا المقال جندى مجهول .

وقد وضع المؤلف بين أيدينا فى ذلك المقال المتع مناقشة فى هيئة قصة رائعة جعلها فى شكل سلسلة من البحوث المؤثرة المسرحية عن «خلق الموظف المستقيم» ، وما انطوت عليه روحه ، وما ينجم عن ذلك من إقامة العدالة الاجتماعية والادارية نحو الفقير المهضوم الحقوق ، فى ذلك العهد الذى طغى فيه الأغنياء حتى إن الرجل الفقير لم يكن ليجد قوة تحميه ممن هم أقوى منه . وقد كان ضمن المقترحات التى أشار بها أحد حكماء هذا العصر لعلاج طبقة الموظفين ، أن يجعل لكل موظف راتب عال وفير .

وسنرى فيما يلى أن هذا العلاج كان غير ناجع بمفرده ؛ لأننا سنجد فيما سيأتى ذكر أنه حدث بمشهد من القصر الملكى بجوار « إهناسية المدينة » عاصمة الملك إذ ذاك ، اضطهاد غاشم أقدم على ارتكابه موظف فاسد الأخلاق فى ضيعة مدير أملاك الفرعون فى ذلك الوقت . وهذا الحادث يدل دلالة قاطعة على أن الوظيفة ذات الراتب الضخم لا تغرس فى نفس صاحبها العدالة ، ولن تغنى الفقير شيئاً من اضطهاد رجال الحكومة له ، والعبث بالشىء القليل الذى يملكه . ومما هو جدير بالذكر أن ترى ذلك الفكر القديم الذى كتب قصة الفلاح الفصيح ، وهو يجاهد ليظفر بالتغلب على تلك العقبة الكأداء ، عقبة الاضطهاد القائمة أمامه التى صارت منذ ذلك العصر من أعقد المسائل فى بلادنا بل فى الشرق ، حتى إن الأوربيين قد استساغوها لأنفسهم فى معاملتنا .

والواقع أنها مسألة لم يستطع حلها حلاً مرضياً إلى الآن فى مصرنا الحديثة . ومجمل هذه القصة أن فلاحاً من أهالى الفيوم فى منطقة وادى النطرون ، كان يقطن قرية تسمى « حقل النلح » وقد وجد أن مخزن غلال أسرته قد أشرف على النفاد ، فحمل على قطيع صغير من الحمير حاصلات قرية وسار به نحو العاصمة ، وكانت وقتئذ « إهناسية المدينة » ، وكان غرضه أن يستبدل غلالاً بحاصلاته هذه .

وكانت الحالة تحتم عليه أن يمر من طريق به منزل رجل يدعى تحوتى نخت ، وهو موظف صغير من موظفى شريف يدعى رتزى وكان يحمل لقب « المدير العظيم لبيت الفرعون » . وعندما لمح تحوتى نخت حمير ذلك الفلاح تقترب منه سولت له نفسه تدبير حيلة لاغتصابها بما عليها ، فأرسل على الفور أحد الخدم إلى منزله ، فجاء بصندوق مملوء بنسيج الكتان فأخرجه ونشره على الطريق العامة حتى غطاها كلها من حافة حقله الذى كان وقتئذ مزروعاً قمحاً إلى حافة التربة التى كانت تقع على الجانب الآخر من الطريق . وكان ذلك الفلاح البرئ ، كما تقول القصة ، يتقدم فى سيره على الطريق العامة التى يسير فيها كل الناس ، وهى التى سدها تحوتى نخت المذكور بنشر النسيج عليها — ويلاحظ هنا أن العبارة الأخيرة تشف عن غضب الكاتب وحنقه مما حدث — ولما كان الفلاح يمشى السير فى الماء اضطر أن يمشى فى الجهة الأخرى فى شريط ضيق لم يكن قد غطاه نسيج هذا الموظف بجوار حقل القمح .

وفى أثناء السير التقم أحد الحمير بضع سيقان من القمح ، وبذلك تهيأت الفرصة لتحوتى نخت الماكر للوصول إلى مأربه وكان يترقب ذلك عن كثب . وفى هذه اللحظة تقدم الفلاح إلى تحوتى نخت مقدماً له الاحترام والخضوع بالفاظ لا تحط من كرامته . فما كان من تحوتى نخت المذكور إلا أن قبض على الحمير واستاقها إلى منزله ، وكان الفلاح وقتئذ يصيح ويستغيث محتجاً على ذلك الفعل فى أدب واحتشام ، ثم أردفه باحتجاج شديد، وانبرى يقول له : إن طريقى مستقيمة ، غير أن أحد جانبيها قد سد ، فمن أجل ذلك سرت بحميرى على تلك الحافة .

أتغضب حميرى لأن واحداً منها التقم ملء الفم من سيقان قمحك ؟ إني أعرف رب هذه الضيعة ، فهى ملك رتزى المدير العظيم لبيت الفرعون ، وأعرف أنه هو الذى يقضى على كل سارق فى هذه الأرض . فهل أسرق فى ضيعته ؟ فلما أحفظ تحوتى نخت من جسارة هذا الفلاح انتزع فرعاً من شجرة أثل وأخذ يضرب به الفلاح بدون رحمة ولا شفقة غير مبال بصياحه واحتجاجاته المتكررة ، واستاق كل الحمير إلى منزله ؛ واضطر الفلاح الشقى أن يمكث أربعة أيام يرجو فيها رد الحمير إليه بدون جدوى ، وكان يذكر له طول مدة بعده عن أسرته التى أشرفت على الموت من الجوع ، وهو لا يأبه لحاله . فلما رأى الفلاح المذكور منه ذلك صمم على رفع شكواه إلى المدير العظيم لبيت الفرعون نفسه ، وهو الذى

حدث فى ضيعته ذلك الاعتداء الصارخ . وزاد الفلاح شجاعة فى رفع شكايته إليه ما اشتهر به من حبه للعدل حتى صار مضرباً للأمثال فى عدالته . وبينما كان الفلاح يقترب من المدينة إذ قابله لحسن حظه مدير البيت العظيم المقصود خارجاً من باب ضيعته الواقعة على النهر وهو سائر فى طريقه ليركب فى قاربه البرسمى . وعند ذلك استطاع ذلك الفلاح بما أوتيته من أدب جم وسيطرة على أساليب البيان ، وتوجيهه للأقوال الحسنة التى يليق التفوه بها فى مثل هذا المقام ، أن يسترعى أذن ذلك الرجل العظيم حتى يصغى إليه بضع لحظات فى أثناء مسيره لركوب قاربه ، فأرسل أحد خدمه لى يعرف قصة ذلك الفلاح . فلما رجع ذلك الخادم وأخبر المدير رتضى بتلك السرقة التى ارتكبها تحوتى نخت لم يسعه إلا أن ييسط ذلك الأمر على موظفيه ليقولوا كلمتهم فيه ؛ فكان جوابهم على تلك السرقة هو الغرض الذى قصد إليه مؤلف هذه القصة ؛ فإنه يضع أمام القارى صورة واضحة للمعاملة الشائعة التى كانت تتبع فى مثل شكاية ذلك الرجل الفقير فى الدوائر الحكومية ؛ إذ نجد زملاء مدير البيت العظيم قد انحازوا إلى جانب مرءوسهم تحوتى نخت السارق ، ولذلك كان جوابهم على المدير رتضى جواباً ملؤه الفتور قائلين : إن القضية يحتمل أن تكون قضية فلاح قد دفع ما يستحق عليه من الضرائب إلى رئيس أعلى خطأ ، وأن تحوتى نخت قد استولى على ما يستحقه من الضرائب بحق من هذا الفلاح . ثم تساءلوا بغضب : هل يعاقب تحوتى نخت بسبب أخذ قليل من النطرون والملح ؟ وعلى أكثر تقدير فى موضوع كهذا يصدر إليه الأمر بإعادتها وهو بلا شك معيدها إليه .

ومما يلفت النظر هنا فى طبقة أولئك الموظفين أنهم تجاهلوا الحمير التى سرقت كلية ، وهى التى كان ضياعها معناه موت ذلك الفلاح وأسرته جوعاً . وفى ذلك الوقت نفسه كان الفلاح واقفاً على مقربة يسمع بضياح ماله وخرابه المحتم . وهكذا تغاضى عنه رجال السلطة وتجاهلوا أمره . (أليست هذه الصورة المخزية تمثل الواقع الآن ؟)

وفى تلك الأثناء كان مدير البيت العظيم جالساً يفكر فى صمت . والواقع أن هذا المشهد يمثل لنا باختصار عصوراً من التاريخ الاجتماعى فى بلادنا . فمن ناحية يصور لنا طائفة الموظفين اللينى الجانب المتملقين وهم فى ذلك يمثلون

الطراز الغالب فى طبقة الموظفين . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نشاهد صورة ذلك الفلاح المنكود الحظ الذى لا صديق له ينصره ، وقد اغتصب متاعه ، ثم يتمثل فيه صورة الصيحة التى كانت أول مظهر لطلب العدالة الاجتماعية فى ذلك الوقت السحيق الذى يرجع إلى نحو خمسة وأربعين قرناً مضت .

وهذا المشهد الذى وضعه هذا الكاتب أمامنا فى صورة قصصية يعد من أقدم الأمثلة التى تدلنا على المهارة المصرية فى تصوير المبادئ المعنوية فى شكل مواقف ملموسة ، وهى التى صورت بشكل مدهش فى أقوال عيسى عليه السلام التى جاءت بعد ذلك بقرون عدة .

غير أن الفلاح لما رأى أن مدير البيت العظيم لم يجر جواباً على كلامه حاول مرة أخرى أن ينجى نفسه وأسرته من الموت المحقق الذى كان يهددهم جميعاً بسبب الجوع ، فتقدم خطوة إلى الأمام وخاطب بفصاحة مدهشة ذلك الرجل العظيم الذى كانت قصته الآن بين يديه متمنياً له سياحة طيبة عند نزوله فى قاربه ، ثم لهج بشهرة مدير البيت العظيم فى فعل الخير ، وذلك ما كان يعلى به نفسه عندما رفع قضيته إليه ، فكان يقول له :

« إنك والدا لیتیم ، وزوج الأرملة ، وستر من لا أم له . دعنى أضع اسمك فى هذه الأرض فوق كل قانون عادل . يأبى القائد الذى لا يشوبه الطمع ، ويأبى الرجل العظيم الذى يتجنب الصغائر ، ويحطم الظلم ، ويثبت الحق ، أجب للصيحة التى ينطق بها فمى . فاذا تكلمت فعليك أن تسمع . أقم العدل ! أنت يا من قد مدحت ويا من يمتدحه المدوحون . إكشف عنى الضر . أنظر إلى ! فانى أحمل أثقالاً فوق أثقال ، حقق شكائى فإنى فى حيرة ! »

وقد كان مدير البيت العظيم يشعر بسرور عظيم من لباقة الفلاح الخارقة للعادة ، إذ كان يعبر بحسن منطق وفصاحة لسان ، حتى لقد تركه دون أن يفصل فى قضيته برأى ، وذهب على الفور إلى البلاط حيث قابل الفرعون وقال له : « يا سيدى ! لقد عثرت على أحد أولئك الفلاحين ممن يحسنون القول بحق » . فسر الفرعون سروراً عظيماً ، وكأف مدير البيت العظيم هذا أن يصحب الفلاح معه دون أن يفصل فى قضيته برأى طمعاً فى أن يرتجل له الفلاح خطباً أخرى . وكذلك أمر الفرعون بتدوين أقوال هذا الفلاح بدقة ، وأن يقدم له الطعام وكل ما يلزم لأمر معاشه ، وأن يرسل خادماً إلى قريته ليتحقق من أن أسرته ليست فى حاجة

لى شئ خلال تلك الفترة التى سيكون الفلاح فيها بعيداً عن مسقط رأسه .
وقد كانت نتيجة ذلك أن أخذ الفلاح يلتقى على أسماع رنزى مدير البيت
العظيم ما لا يقل عن تسع شكايات .

وعند هذه النقطة تنتهى هذه المقدمة التثيلية ، وقد كان الغرض منها أن
تضفى على ذلك المقال الاجتماعى الذى كان هدفه الإصلاح ثوباً يجعله فى صورة
قصة . وبعد ذلك نبتدى الشكاوى أو الخطب التسع التى يتألف منها جميعاً ذلك
المقال الاجتماعى . وهذه الخطب تكشف لنا أولاً عن خيبة الأمل المحزنة التى
صادفها الفلاح فى اعتقاده بشهرة ذلك الرجل العظيم التى كان يعرف بها ، وهى
أنه لا يحيد عن العدل . فنجد الفلاح يبتدى خطبته اثنائية بالتقريع اللاذع
فيقاطعه « رنزى » مهدداً إياه . أما فى خطابه الثالث فانه يعود إلى مدائح كالتى
ذكرها أول رفع شكواه إلى رنزى . فاستمع لما يقول :

« يا سيدى إنك رب السماء فى صحبة حاشيتك ، وإن قوام بنى الإنسان
منك ؛ لأنك كالفيضان وأنت « جعبي » (أى إله النيل) ، الذى يجعل المراعى
خضراء ، ويمد الأراضى القاحلة . ضيق الحناق على السارق ، ودافع عن الفقير ،
ولا تكونن كالسيل ضد الشاكي ، واحذر من قرب الآخرة ، وارغب فى أن
تعيش طويلاً ؛ لأن المثل السائر يقول : إن إقامة العدل هو نفس الأنف ،
وأوقع العقاب على من يستحق العقاب . وليس هناك شئ يماثل استقامتك .
هل الميزان يتحول ؟ وهل يميل لسانه إلى جهة ؟ . . .

« لا تنطقن كذباً ، فانك الميزان ، ولا تنكمش ؛ فانك الاستقامة . تأمل !
إنك على مستوى واحد مع الميزان فان انحرف انحرفت أيضاً . ولا تحيدن ، بل
أدر السكان ، واقبض على حبل الدفة . ولا تغضبين ، بل اعمل ضد المغتصب ،
وذلك العظيم ليس عظيماً ما دام جشعاً . إن لسانك هو ثقل الميزان ، وقلبك هو
ما يزن به ، وشفتيك ذراعاه . فاذا سترت وجهك أمام الشرس ، فمن ذا الذى
يكبح الشر ؟ » وهذه الموازنة بين أخلاق مدير البيت العظيم رنزى وبين الميزان
تظهر مرات متكررة فى خطب ذلك الفلاح .

أما العبرة التى تؤخذ من تلك الخطب فواضحة ؛ إذ أن مفتاح طريق الحق
كان بأيدي الطبقة الحاكمة ، فاذا أخفقوا فى اتباعها ففى أى مكان آخر يمكن
الحصول عليه ؟ إذ كان المرجو منهم أن يوازنوا بين الحق والباطل ثم يفصلوا

فيه بقرار عادل كالموازين الدقيقة التى لا تخطئ . ومن ذلك نعلم أن الموازين كانت تؤلف رمزاً أصبح شائع التداول فى الحياة المصرية ، حتى إن كفتى الميزان كانتا على ما يظهر قد صارتا بمثابة وسيلة دقيقة لتصوير محاكمة كل روح فى عالم الآخرة .

ولسنا مبالغين إذا قلنا إن الموازين قد وجدت لأول مرة فى ذلك المقال فى تاريخ الأخلاق ، وقد بقيت مستعملة فى يد العدالة المطلقة إلى يومنا هذا . وترجع نشأة هذا الرمز إلى الظهور أولاً بين رجال الفكر فى العهد الإقطاعى بمصر ، أى منذ ما يربى على أربعة آلاف سنة مضت . ولم يكن الأمر مقصوراً على استعمال الميزان بوجه عام بمثابة رمز للاستقامة فى ذلك العهد الإقطاعى فحسب بل كانت أجزاؤه كذلك تستعمل على الدوام لذلك الغرض أيضاً . ويجب أن نلاحظ هنا كذلك أن الفلاح كان يذكر مدير البيت العظيم بضرورة ظهوره أمام محاسبة الميزان الذى لا يتحيز إلى جهة ؛ إذ يقول له : « احذر قرب يوم الآخرة » . وهذا المثل من الأمثلة القليلة التى يلجأ إليها تحذيراً من الظلم وإشعاراً بما يتعرض له الظالم من المسؤولية أمام الله فى الحياة الآخرة .

وقد صارت الآن تهديدات الفلاح لمدير البيت العظيم وهو يلقيها واقفاً أمام القصر فى شدتها أكثر مما يمكن احتمالها ، حتى لقد أرسل خادمين ليجلدا ذلك التعس . ولكنه على الرغم من ذلك انتظر قدوم رتذى كرة أخرى بقلب ثابت لا يزغزعه خوف الضرب أو التعذيب . وعندما وقع بصره عليه واجهه بخطبة رابعة ثم تلاها بخطبة خامسة . وبالرغم من أنها كانت أقصر خطبه كلها فإنها كانت ألدعها فى الاتهام . فاستمع لما يقول : « لقد نصبت لتسمع الشكاوى ، وتفصل بين المتخاصمين ، وتكبح جماح اللص ، ولكن ما تفعله هو أنك تتحالف مع اللص . والإنسان يضع ثقته فيك ، ولكنك أصبحت معتدياً . لقد نصبت سداً للفقير ، فاحترس خوف أن يغرق . ولكن تأمل ! إنك تياره السريع ، وفيضانه الجارف ! »

ولكن رتذى كان لا يزال ملازماً الصمت ؛ من أجل ذلك اضطر الفلاح أن يبتدىء خطابه السادس لاجئاً من جديد إلى عاطفة العدالة التى اتصف بها مدير البيت العظيم ، وإلى ما اشتهر به من الرأفة . فاستمع لما يقول :

« يا مدير البيت العظيم ، يا سيدى ! . . . إن كل محاكمة حقة تدحض الباطل ، وتعلو بالصدق ، وتشجع الحسنة ، وتمحو السيئة ، كالشعب عندما يأتى يقضى على الجوع ، وكالبكساء يقضى على العرى ، وكالسماء تصفو بعد العاصفة الشديدة ، وتدفى كل من شعر بالبرد ، كالنار التى تسوى النى ، وكلاء الذى يطفى الظمأ ، أنظر بعينيك ! إن المحكم متلاف ، والمصلح موجد للفساد ، ومهدى الخلافات خالق للآلم ، والمغتصب يحط من قدر العدالة . »

ولما لم يجد الفلاح جواباً من رترى على استعطافه اهتاج من جديد وأخذ يقول : « إنك متعلم ، وإنك ماهر ، وإنك عادل ، ولكن ليس فى النهب والسرقة . والآن مثلك مثل كل بنى الانسان ، كل أعماله ملتوية ومفسد الأرض كلها يمشى مستقيماً إلى الأمام (لا يرى أمامه اعوجاجاً) ، وزارع الشكر يروى حقله بالأعمال الخاطئة حتى يجعل مزرعته تنمو بالكذب ، وبذلك يرى المتاعب إلى الأبد ! »

ومع ذلك فإن هذه الاتهامات لم تحرك ساكناً عند مدير البيت العظيم . ولذلك أخذ الفلاح التعس يفتح فمه بصوت عال ، وألقى شكواه السابعة . فابتدى كالعتاد بمدح مدير البيت العظيم ، فيقول له : « إنك سكان البلاد قاطبة ، والأرض حسب أمرك ، وإنك معادل للآله تحوت (إله العلم والمعرفة والمواقيت) تقضى دون أن تنحاز إلى جانب . يا سيدى ! كن صبوراً حتى يمكن الانسان أن يستغيث بك لقضيته العادلة . ولا تجعل قلبك جموحاً ، فإن ذلك لا يليق بك ، فإن الرجل البعيد النظر يكون حليماً . » ثم ترى الفلاح يرجع فجأة على الفور إلى وصف حالته التعسة فيقول : « حقاً ! إن جوفى للآن ، وقلبي لفعم ، وقد طفح من جوفى تقرير عن تلك الحالة . لقد كان صدع فى السد فتدفق منه الماء ، وقد انفتح فمى للكلام . » غير أن استمرار تغاضى ذلك الحاكم وعدم اكترائه مع ماهو مشهور عنه من عدالة ورأفة بالضعفاء ، قد زاد فى غيظ ذلك الفلاح التعس إلى حد جعله يتخذ من صمت مدير البيت العظيم عنه شاحداً لعاطفته ، ويرى فيه دافعاً يطلق عقاب السنة أكثر الناس لكنة وعياً ، فيقول مقررأ إياه : « إن خمورك سيضللك بك ، وشراحتك ستغشك ، وإن عدم اكترائك سيولد لك أعداء . ولكن هل يمكنك أن تجد فلاحاً آخر مثلى ؟ وهل الشاكي يقف على باب بيت الخامل ؟ على أنه لا يوجد إنسان صامت قد أنطقته ،

ولا نائم قد أيقظته ، ولا مكتئب قد نشطته ، ولا إنسان فمه مغلق قد فتحته ، ولا جاهل قد جعلته يعرف ، ولا غبي قد علمته . ومع ذلك فان الحكام هم الذين يقصون السوء ، وأرباب الخير هم أصحاب فن ليصنعوا أى شىء كائن ، ويصلوا الرءوس التى قد فصلت عن أجسامها ! »

ولما لم يكن فى مقدور ذلك الفلاح أن يكبح جماح غضبه وشدة حنقه ؛ أخذ يلقي خطابه الثامن ، واستمر فى تهديد رترى إذ يقول : « يأيتها المدير العظيم يا سيدى ! إن الناس يتحملون السقوط السحيق بسبب الطمع ، والرجل الجشع يعوزه النجاح ، ولكنه ينجح فى الخيبة ! إنك جشع وذلك لا ينسجم معك . وإنك تسرق وذلك لا يفيدك ، أنت يامن يجب عليه أن يسمح للإنسان أن يشرف على قضيته الحققة . ذلك لأن ما يقيم أودك فى بيتك ، ولأن جوفك قد ملئ . . . آه ! أنت يا من يجب عليه أن يقضى على اللص ، ويامن يقضى الحكام وقد نصبوا ليدرءوا السوء ، وهم همى الساخط . والحكام قد نصبوا ليكبحوا الكذب . . . إنك تملك حقلك فى الريف ، وضياحك التى وهبها لك الملك ، وخبزك فى الخبز ، والحكام يعطونك ومع ذلك تغتصب ! هل أنت لص ؟ هل يحضر إليك مجنود لتصاحبك عند تقسيم الحقول (المسروقة) ؟ »

ومع كل ما وجهه هذا الفلاح من تقرير واتهامات لاذعة إلى هذا الحاكم فانه لم ين عن المطالبة بتحقيق العدالة ؛ ولذلك يعود من جديد مطالباً بها فى أعظم فقرة فاه بها فى ذلك المقال العظيم ؛ إذ يقول : « أقم العدل لرب العدل ، والذى عدل عدالته موجود . وأنت يأيتها القلم ، وأنت يأيتها البردية ، ويأيتها الدواة ويا تحوت (رب العلم) ابتعدوا عن عمل السوء ، وعندما يكون الحسن حسناً فالأمر إذن حسن . غير أن العدل سيكون إلى الأبد ، ويذهب مع من يعمله إلى الجبانة ، وسيدفن وتطويه الأرض ، أما اسمه فلن يمحي من الأرض ، بل سيذكر للخير . وهكذا القانون التى رسمته كلمة الله العليا . »

على أن السؤال الذى ينشأ عن ذلك طبعاً بعد إلقاء هذه الكلمات الخارجة من الأعماق هو : ألا يزال هناك مجال للظلم بعد ذلك ؟ ولقد أخذ الفلاح يسأل هذا السؤال . فاستمع إليه وهو يسأل :

« هل هو ميزان ؟ إذن لا يميل . هل هو لسان الميزان ؟ إذن لا يحيد إلى جانب (لايزن غشا) . » ثم يستمر قائلاً : « وإذا حضرت أو حضر غيرى فخطابه

ولا تجيبن كانسان يخاطب رجلاً صامتاً ، أو كانسان يهاجم من لا يمكنه أن يهاجم ... إنك لا تظهر الرحمة . . . إنك لا تعطينى مكافأة على تلك الخطب التى تخرج من فم الاله نفسه . انطق بالعدل ، وأقم العدل ، لأنه خطير وعظيم ويعيش طويلاً ، والثقة به قد عرفت ، فهو يؤدى إلى العمر الطويل المحترم . هل الميزان يحدد ؟ فإذا كان الأمر كذلك فإن ذلك يكون بسبب كفتيه اللتين تحملان ما يوزن . ولا يجوز وجود الظلم مع القانون . »

ولما لم يفه رتزى بجواب على هذه الكلمات السامية ، رفع الفلاح صوته عالياً للمرة الأخيرة وألقى مرافعته النهائية عن قضيته اليائسة ، وهى خطبته التاسعة التى يذكر فيها مدير البيت العظيم بخطر الكذب والغش إذ يقول : « وإذا مشى الكذب فى الخارج فإنه يضل ، ولا يعبر فى قارب التعدي ، ولن يتقدم قيد أنملة . أما من تنمو ثروته به فلن يكون له أطفال ، ولن يكون له وارث على الأرض . ومن يسيح به فيتخذ به بضاعة فلن يصل إلى بر ، وسفينته لن ترسو على مرفأ . . . » ثم يختم الفلاح خطبته بالكلمات التالية :

« لا تكونن متحيزاً ، ولا تصغين لقلبك ، ولا تسترن وجهك من إنسان تعرفه ، ولا تتعالمين عن إنسان قد رأيت ، ولا تردن إنساناً يشكو إليك ، واترك هذا الخمول حتى يمكن أن تروى حكمتك القائلة « افعل الخير لمن يفعله لك » وأن تصل إلى مسامع كل الناس ، وحتى يرجع إليك القوم فيما يتعلق بالمطالبة بالحق . والأصم عن العدل لا رفيق له . والرجل الجشع لا فراغ لديه . وذلك الذى يوجه إليك التهمة يصير رجلاً فقيراً ، والفقير يصير شاكياً ، والعدو يصبح ذابحاً للفلاح . تأمل ! إني أشكو إليك ، وأنت لاتسمع شكواى ، فشأذهب وأشكو إلى أنوبيس . »

ولما كان أنوبيس هو إله الموتى ، فإن الفلاح كان يقصد من ذهابه إليه أنه سينتحر . وعندئذ يرسل مدير البيت العظيم خادمه على الفور ليحجى بالفلاح أثناء عزمه على الرجيل . وإذذاك تبادلا معاً بعض العبارات المبهمة فى المتن . على أن رتزى فى الوقت نفسه كان قد دوّن فى بردية أخرى كل شكايات الفلاح حسب تواريخها .

والمفروض أن ما انحدر إلينا من تلك الوثائق هو نسخة من تلك البردية . ولكن مما يؤسف له أن خاتمتها كانت ممزقة كل ممزق . ويمكننا أن ندرك أن

لقائف البردى التى أعطاها أمناء أسرار رتزى إياه هى التى حملها رتزى هذا إلى الملك . وقد وجدها الملك سارة لقلبه أكثر من أى شىء فى البلاد ، وبعد ذلك يأمر الفرعون مدير البيت العظيم أن يفصل فى قضية الفلاح ، وإذذاك يحضر المختصون بهذا العمل سجل الضرائب الذى يحدد ممتلكات ذلك الفلاح الرسمية ، ويبين موقفه القانونى والاجتماعى ، وعدد أفراد أسرته ، ومقدار ثروته ، ثم يعقب ذلك فى البردية بعض كلمات مفتتة يقل عددها عن اثنتى عشرة كلمة ، يمكننا أن نفهم منها على وجه التقريب أن تحوتى نخت قد عوقب ، وأن ممتلكات ذلك الموظف الجشع المغتصب قد أعطيتها الفلاح .

ولأمر هام نجد أن أشرف رجال البلاط الفرعونى منذ ما يرى على أربعة آلاف سنة مضت مهتمون بما فيه الكفاية لإسعاد حال الطبقات الدنيا ، حتى إنهم كانوا يكلفون أنفسهم مشقة تدوين مثل تلك المقالات والاعتناء بحفظها ، وهى لم تكن فى الواقع إلا دعاية لنظام قوامه العدل والشفقة بالفقراء . وأمثال أولئك الرجال كانوا حملة أقلام لاعلان حرب مقدسة مطالبين فيها بالعدالة الاجتماعية . وقد جعلوا ذلك المقال بالذات ممتعاً فى قراءته لطبقة الأغنياء الموجه إليهم ذلك المقال . وبالرغم مما يحده الأثرى من الغموض المستمر فى لغته وأسلوبه البليغ ، واستعاراته القوية ، وتشبيهاته القريبة مما صير فصاحة ذلك الفلاح غامضة المعنى فى أذهان عالمنا الحديث ، فإن ذلك المقال قد اكتسب مكانة جعلته أدباً من الطراز الراقى فى عصره . ولا شك فى أنه كتب بالأسلوب الذى كان مستحسنًا عند أهل ذلك العصر ؛ على أن ذلك التهمك اللاذع الذى يبدو فى نواحيه كان مما يزيد فى شهرته الأدبية عند قدماء المصريين الذين كانوا محبين بطبيعتهم للتهمك ، ولكنه مع ذلك كان أدباً يرمى إلى غرض خلتى . وقصة ذلك الفلاح الفصيح تعد تصويراً حياً ناطقاً عن عجز أولئك الموظفين الأمناء إذ لم يكن يشد أزهرهم ملك عادل حازم رءوف عليم بنجايًا الأمور يعرف ما يجرى فى مختلف بقاع بلاده من أصدقاء أوفياء لا موظفين متملقين يصورون له الحقائق مقلوبة ويعرضونها كما تشاء أهواؤهم وتتفق مع مصالحهم ومصالح من يلوذ بهم . والآن نسائل هل أعطى الكاتب الاجتماعى القديم درساً لمصرى الجيل الحاضر ؟

إلى فتاة

فيضُ أهواء العيون تَنشُد الرمي اللطيفُ
خاف جَسَّاتِ الجفون تحصر الوهم الرهيف
فرَّ هَفَّافَ الجنون نحو أبراج الطريف
يحتلى ما قد يكون بعد منظورٍ كثيف
عاد من قطب الظنون من سنا أوجٍ عفيف
مثل زهيو في العصور لم يروِّضه الخريف

بصّرني يا « وضوح » ثروة القطب الخطيرُ
أنا في وهج الفتوح يقظٌ لكن حسير
خفَّ بي كشفٌ طموح وكبا فهمٌ كسير
فسرت فوحاتٌ روح في غيابات الضمير
لمحاتٌ قد تبوح بنفسيات الأثير
ويثقه جودي بالشروح يسرى أنس الغرير

بشر فارسي

ذكريات الحرب الكبرى الأولى

كانت الحرب الكبرى في ١٩١٤ متوقعة ، وكان أساسها المباراة العظيمة بين الانجليز والألمان . فانهما كانا على تقدم صناعي عظيم يحتاج إلى المستعمرات والمواد الخام والأسواق . وكان الانجليز حاصلين على كل هذا ، ولم يكن الألمان حاصلين على شئ يؤبه به . فكانت الصناعات الانجليزية تمتاز بالمواد الخام الرخيصة التي تحصل عليها من الهند وجاوة ومصر وغيرها ، فتستطيع بيع مصنوعاتها بأثمان منخفضة . ثم في الوقت نفسه كانت تجد التفضيل في الأسواق في هذه الأقطار وغيرها ، وإذا لم يكن هذا التفضيل بالامتياز الجمركي الصريح ، الذي يجعل مصنوعاتنا تدخل هذه الأقطار بسهولة ، فانه يكون بالأعيب أخرى تؤدي إلى التفضيل ، ويقوم بها موظفو المستعمرات لخدمة طبقة الصناعيين والتجارين في بريطانيا .

ولم يطق الألمان هذه الحال ، أي أن يثرى الانجليز بأوضاع اقتصادية عالمية غير عادلة ، ويبقوا هم في تخلف اقتصادي . وشئ من هذه الحال كان أيضاً بارزاً في مقدمات الحرب الكبرى الثانية التي دعت اليابان فيها إلى « الرخاء المشترك » . وكانت الشرارة الأولى للحرب قتل أحد الأمراء من أسرة الامبراطور فرانز جوزيف ، وكان إمبراطوراً هرمياً على إمبراطورية هرمة ضعيفة . ولم تمض إلا أيام حتى كان العالم كله مشتعلًا ، وأخذ الجمهور في مصر على دهشة .

وكنت أصدر مجلة المستقبل في القاهرة . فدعيت إلى تعطيلها في إدارة المطبوعات . ثم شرع الانجليز في اعتقال من يتوجسون في اتجاهاته . ولبثت بعض الشهور وأنا أعمل مع مي في جريدتها ، أي جريدة والدها ، المحروسة . ولكني سئمت الرقابة التي لم تكن تسمح بنشر خبر صحيح إلا بعد أن تزيفه حتى تخرج الهزيمة التي كانت تقع بالحلفاء كأنها انتصار رائع لهم .

ورحلت إلى الريف ، ورأيت كيف كان يسلط الانجليز علينا الموظفين المصريين من مأمورين ومديرين وحكمدارين وشرطة لخطف محمولاتنا . وكانت الجمال

والحمير بل الرجال يخطفون أيضاً كما لو كانوا في قرية زنجية على خط الاستواء قد كبسها النخاسون لخطف سكانها ويبيعهم في سوق الرقيق . وكان المنظر يهين النفس كما يفتت القلب . فكان الرجل يربط بالحبل الغليظ من وسطه ، وخلفه أمثاله ، ويسرون على هذه الحال صفّاً إلى أن يبلغوا « المركز » فيجسسون في غرفة المتهمين ثم يرتحلون إلى فلسطين . وكنت أنجح أحياناً بالرشوة في استخلاص بعض هؤلاء المساكين . وذات مرة سمعت صراخاً ودخلت على نسوة في فزع ونحيب . وعرفت أن ثلاثة ممن يزرعون أرضنا ألقى القبض عليهم وهم يحرثون في الحقل . فخرجت ووجدتهم مربوطين بالحبال بحراسة أحد الشرطة . أما سائر الشرطة فقد تركوهم كي يغزوا قرية أخرى . واستطعت بمساومات مع الشرطة أن أحصل على الافراج عنهم . ولكني لم أكن أنجح كل مرة ؛ ففي ذات يوم قصدت إلى المأمور في الزقازيق أطلب منه إطلاق اثنين من الفلاحين . فتأملني ثم قال : أنا عايز أرحلك أنت لفلسطين . فتركته إذ لم تكن الظروف وقتئذ تآذن بالتحدى .

وفي تلك السنوات السود أترى كثير من العمد ثراء فاحشاً ؛ فقد فرضوا ضرائب على جميع الشباب من سن العشرين إلى الخمسين كل على مقدار ما يملك . فهذا يؤدي خمسة جنيهاً ، وذاك عشرة جنيهاً ، حتى يعفيهم من الاعتقال وبعثهم إلى فلسطين . وعرفت عمدة كان يملك ستة أفدنة فقط جمع نحو خمسة آلاف جنيه بهذه الطرق . وكان الفلاحون يجوعون كي يجمعوا هذه الغرامة ويؤدوها . وقد استمتعت بعد ذلك بالشهامة عندما رأيت هذا الشقي وقد قبض عليه الانجليز بعيداً عن قريته وأجبروه على النزول في ترعة يبحث عن أحد قضبان الخط الحديدي لشركة الدلتا . فقد فوجئ وهو على حمار قاصداً إلى الزقازيق فأنزلوه وضربوه وأجبروه على العمل في ترميم الخط الحديدي الذي كان الفلاحون قد نزعوه في ١٩١٩ . وعرفت بعد ذلك أنه تورط في معاكسات ومشاجرات بينه وبين الأهلين فضاع كل ما جمعه ؛ فقد تعقبوه بالشكايات جملة سنوات وتمسكوا عليه بمخالفات خطيرة جعلته ينفق في الرشوة وأجور المحامين كل ما جمعه من هؤلاء الفلاحين المساكين .

وكان معظم النقل في الحرب الكبرى الأولى على الخيول الاسترالية ، وكانت ضخمة يعلف الحصان منها بضعف ما يعلف به حصان من خيولنا . ولذلك كان التبن والشعير يخطفان من الريف . وقد قام عمالنا المصريون ، وهم من الفلاحين ،

بخدمة الحملة الانجليزية في فلسطين . وكانوا يعدون بعشرات الألوف مات أكثرهم وعمى بعضهم . ومع ذلك عندما انتهت الحرب واشتعلت الثورة في مصر في سنة ١٩١٩ وقف السفير البريطاني في واشنطن ينتقص من قيمة خدمتنا في الحرب كي يحول دون العطف الأمريكي على قضية استقلالنا ، فقال إن جميع من قتلوا في الحرب من المصريين لا يزيدون على ثلاثة أشخاص .

وكثير من الفلاحين يتركون الأرض إلى المدن لما يلاقون من قسوة المالكين الذين يعصرونهم بالايحارات والمحاسبات . ولكن الريف لا يزال معموراً بل مزدحماً بالفلاحين على الرغم من جميع ما يلقي هؤلاء فيه من مصاعب . وظنى أن بعض السبب لذلك أن في الأرض فتنة تسحر الفلاح وتربطه بها مهما قل كسبه منها . فانه يستيقظ قبل الشروق ، ويخرج إلى حقله ترافقه بقرته وحماره وعنزته أو نعجته . وهو يحس برفقة هذه الحيوانات ويجد في هذه الرفقة لذة تسمو على الاعتبار المالية . وهو يتشمم الأرض عقب حرثها حين تنفح التربة الهواء بروائحها التي توحى الرخاء والبركة . بل هو يبكر أحياناً كي يتحقق من النمو الجديد في الذرة أو القمح . وفي الشتاء حين يكسو الندى البرسيم تبدو الدنيا في بهاء لا يعدل الانسان به أى جمال آخر .

وقد وجدت هذه الفتنة في السنوات التي قضيتها في الريف مدة الحرب . وكنت كثيراً ما أتأمل الفلاحين وهم يكدّون من الفجر إلى الغروب ، ثم يعودون مرحين يتغنون بالمواويل خلف البهائم إلى بيوتهم . وهذا الحب للأرض وللنبات وللحيوان يلصق الفلاح بالريف ويجعله يرضى بالمعيشة الضئيلة من حيث الطعام واللباس والسكن ، بل يرضى بقسوة الايجارات والمحاسبات ، بل إن الفلاحة أيضاً تجد من الاهتمامات بتربية الدجاج والبط والحمام ما يجعلها مفتونة بهذه الطيور فتعنى بها كما لو كانت تؤدي هواية لذيدة . وكثيراً ما رأيت إحدى الفلاحات تخاطب البقرة التي عزفت لسبب ما عن الطعام بقولها : يا حبيبتى ، يا أختى ، ثم تمسحها بيديها كما لو كانت طفلاً تدله .

ثم يجب ألا ننسى القمر في الريف؛ فانه يسكب سحره على كل شئ ، وأبناء المدن الذين يرون القمر من خلال المباني لا يعرفون فتنة هذا الكوكب في الريف . وغيرى يعدّ الريف منفى ، ولكنى أعتقد أن أحسن سنى حياتى هى تلك التي

قضيتها في الريف . فقد أتاح لي الدراسة الجدية كما أتاح لي الاستمتاع بالطبيعة . ولم يكن يمر علىّ يوم دون أن أستيقظ في الساعة الرابعة أو الخامسة من الصباح وأسير في الحقول وهي مبللة بالندى في هدوء الطبيعة الرخيم أنتظر بزوغ الشمس فأحييها وأتأملها كأني في صلاة . وهناك آلاف من الناس لم يعرفوا قط هذه الصلاة ولم يحسوا هذا الاحساس الديني في الاتصال بالطبيعة في خلوة الحقول التي تنمو كل نهار بحياة جديدة . والسائر في الحقول في هذه الساعات الأولى من النهار تغمره نشوة حقيقية حتى ليجد خفة في نفسه لا تختلف من تلك التي يحدثها الكحول ، ولكن دون تخدير للوجدان .

والريف يوهم التجزؤ والانفصال . هذا نبات ، وهذا حيوان ، وهذا مسكن ، وهذا حقل ، بل هذا إنسان وهذا بهيم . ولكن المتأمل يجد الترابط والتكافل ، كأن كل هؤلاء وحدة حية .

وقد كان داروين يقول على سبيل الفكاهة إنه يستطيع أن يقدر عدد العوانس في قرية (في إنجلترا) بملاحظة حقول البرسيم المحيطة . فإذا كان البرسيم مزدهراً ناجحاً فانه يدل على أن العوانس كثيرات في القرية . ذلك لأنهن يربين الققط . والققط تأكل الفئران . والفئران تأكل النحل . والنحل هو الذي ينقل إلى البرسيم لقاحه من زهرة إلى زهرة . . . فإذا قلت العوانس قلت الققط وزادت الفئران ، وقل النحل ثم قل ازدهار البرسيم .

ونحن نرى هنا بالطبع فكاهة . ولكن لها مغزاها ، وهو أن النبات والحيوان يعيشان في تضامن سميوزي أي إن كلا منهما يخدم الآخر ؛ فحياة هذا تتوقف على حياة ذاك . وقد كنت أبتهج بالتأمل في الريف لهذه الروابط بين النبات والحيوان . وكثيراً ما كنت آسف وأنصح بشأن البومة ؛ فان الفلاحين قد ورثوا عقائد غيبية عنها إذ يقتلونهم لأنهم يتشاءمون منها ، مع أنها تأكل الفئران التي تقتات بذراهم وخبزهم . ثم إن تكاثر الفئران يؤدي إلى تكاثر الثعابين التي تقتات بها . بل إن للذئب والثعالب في ريفنا قيمتها السميوزية أيضاً لأنها تنظف القنوات من الرم .

وقد كنت ، وما زلت إلى الآن ، أجد لذة واهتماماً في أن أتابع فراشة بل أجرى وراءها كالصبي حتى أمسكها وأتأملها وأبحث عن أعضائها ، ثم أطلقها . وسلوكي هذا كثيراً ما كان يبعث الابتسامات بين الفلاحين الذين يعتقدون

أن مثل هذا العبث لا يتفق والوقار . وما زلت أحلم بأن أقضى السنة الأخيرة من عمري في الريف .

وريفنا الذى صنعتها الطبيعة ، ريف الحقول والزهر والشجر والطيور والفراش ، هذا الريف يتلأأ بالجمال ويبعث الحياة تنبض فى عروقنا حين نشرب من هوائه ونشم منه خضرة البرسيم أو الذرة التى تغمر نفوسنا . ولكن الريف الذى صنعه المجتمع المصرى ، ريف المساكن الكالحة المبنية من الطين المجفف ، ريف الايجارات والمحاسبات والحرمان للفلاحين ، هذا الريف لا يوحى إلينا الصلاة بل يوحى الغضب واللعنة وكراهة الحياة فى مصر . فان المالك يعامل أحياناً الفلاحين بروح تجارى لا يبالى هل هو يجوع أو يمرض بسبب الايجارات العالية التى يفرضها عليه .

وأذكر أن أحد الفلاحين فى عزبة غير بعيدة قدم إلى ذات صباح فى ١٩١٥ وعرض علىّ أن ينتقل إلى عزبتنا ، فقبلت . وقبيل الغروب حضر هو وزوجته التى كانت تحمل ابنتها على صدرها ، وكان هو يحمل جرة بها « مخلل » . وكانت هذه الجرة كل ما يملك من متاع فى الدنيا . فقد حاسبه صاحب الأرض وأخرجه خالصاً لا عليه ولا له . وفاحت رائحة كريهة من الجرة . فكشف عنها أحد الحاضرين وصب منها على الأرض ، وما زال يصب حتى فرغت . وكان هذا « المخلل » الذى ذكره هذا المسكين لا يتجاوز هذا السائل الكريه يبلل به هو وزوجته خبز الذرة ثم يبلعانه . وكان الهزال واضحاً فى الثلاثة . وكان أوضح فى الطفلة التى كانت تتعلق بصدر أمها كأنها خرقة بالية معلقة . وقد ماتت هذه الطفلة بعد نحو أسبوعين .

وقص علىّ على ، وهذا اسمه ، مأساته . فقد دخل تلك العزبة قبل ست سنوات ومعه بقرة وحمار ، وكان لزوجته صندوق ولحاف وحصير ومخدة . ولكن المالك كان « يحاسبه » كل عام ، فيخرج مديناً . وباع بقرته وحماره فى تسديد الدين . ثم باعت زوجته كل أمتعة البيت كى تشتري الذرة .

وذات مساء أقبلت على العزبة فوجدت علياً مبطوحاً على بطنه وهو يصرخ صرخات عالية . وفزعت عندما رأيته على هذه الحال ، وظننت أنه قد تسم أو أن وباء الكوليرا قد نقل إلى مصر مع بعض الجنود الهنود . ولكن المسكين سكت خجلاً عندما رآنى . وذهبت به فى اليوم التالى إلى الزقازيق لأحد الأطباء .

فقال إنه مريض بالبلاجرا ، وهو مرض ينشأ من النقص الغذائى ، فذكرت التجربة التى جاء بها وصيونا منها المخلل على الأرض
وتفاقت حاله ، وظهرت عليه أمارات البلاهة . وتركته زوجته وتزوجت غيره . ثم حدث حريق فى بهنباى بعد ذلك بسنين ، وكان هو فى أحد أزقتها .
فخانه ذكاؤه الذى تقهر من البلاجرا فعجز عن التخلص من النار ومات بالحريق .
وفى الريف المصرى الجميل ، آلاف من هذه الماسى التى تعود إلى الروح التجارى فى محاسبة الفلاحين وزيادة الايجارات حتى يموتوا فى بطن لقلعة الطعام .
وأغلب المسئولين عن هذه القسوة هم من المالكين الذين يعيشون فى المدن ويستغلون غيايا أرضهم ، فلا يستطيع وكلاؤهم التسامح ، ولا نقول الرحمة ، مع المأزومين والفقراء ، بل أحياناً يبرهن هؤلاء الوكلاء على إخلاصهم واجتهادهم للمالكين بزيادة الايجارات على هؤلاء المساكين .

وكنا نقرأ الأخبار كما يجب الانجليز أن تفهمها . ولذلك كانت الرقابة صارمة شاملة . فقد اشتركت فى بعض المجلات الأمريكية كى أصل عن طريقها إلى الأخبار الصحيحة . فكانت إما تمنع من الوصول إلى وإما تقص أوراقها التى تحمل أخباراً غير ملائمة للانجليز . ولكن حتى بين المحررين المصريين من كان يستطيع أن يروى الخبر بحيث يجوز ظاهره على الرقيب ويدرك قارئه ما بين سطره ، مثل :

« جاء فى التلغرافات أن هزيمة الألمان عند فردناش كانت فادحة ؛ إذ تقدموا بعد جهد كبير عشرة كيلومترات . ولكن ارتد عليهم الجنود الانجليز والفرنسيون فانتزعوا منهم طاحوناً . وقد أحدث هذا المنظر فرحاً عاماً فى قيادة الحلفاء . »

وكان الرقيب ينخدع بهذه اللهجة وينسى المعانى الواضحة .
وكان إعجاب الجمهور بألمانيا يفوق الوصف . وبعض هذا كان يعود بالطبع إلى الشماتة بالانجليز المحتلين لوطننا . وكنا نهجس أحياناً بأمل الاستقلال إذا انهزمت بريطانيا أو على الأقل لم تنتصر . وكان هذا الأمل قوياً فى بداية الحرب وبقي إلى أن دخلت أمريكا فى صف الحلفاء . ولم تكن الطائرات عنصراً خطيراً فى الحرب الكبرى الأولى . ولم تترننا فيها غير طائرتين : الأولى ألقت قنبلة بالقرب

من البنك الأهلي . والثانية ألقت قبلة في حي الفجالة ، وكان التلف صغيراً . وأيضاً أرسلت ألمانيا بلوناً عبر جوّنا ، ذهاباً وإياباً ، من أوروبا إلى المستعمرة الألمانية في أفريقيا الشرقية . ولم يلق أية معارضة من الانجليز . وكان على ارتفاع بعيد حتى لم يسمع أحد بأزيز موطراته .

وقد كانت براعة الألمان في القتال عظيمة ، ولكن إخفاقهم في السياسة كان عظيماً أيضاً ؛ إذ لم يستطيعوا أن يتوقعوا انضمام الأمريكيين إلى أعدائهم . ولذلك صحت كلمة لويد جورج رئيس الوزارة الانجليزية عندما قال : « الألمان يكسبون المعارك الآن . ولكننا نحن سنكسب الحرب » .

وكان تشرشل بطل الحرب الكبرى الثانية بطلاً أيضاً في الحرب الكبرى الأولى . فقد كان يتهم الألمان بأنهم يصنعون الصابون من جثث القتلى أي يستخرجون الشحم من هذه الجثث ويصنعون منه الصابون . وقال أيضاً إن الألمان يبعثون جنودهم إلى المدن لتلقيح النسوة بلا زواج وكانت هذه التهم بالطبع غير صحيحة . ومما قام به تشرشل في تلك الحرب أنه زيف ملايين النقود الورقية وبعث بها عن طريق سويسرا إلى ألمانيا حيث أفسد قيمة النقد الألماني . وتشرشل أيضاً هو المسئول عن الحصار الذي ضربه الانجليز على ألمانيا أحد عشر شهراً بعد إعلان الهدنة . فلم يكن يدخل ألمانيا شيء من الأغذية التي يحتاج إليها السكان ، وكانوا قد بلغوا حالا بشعة من القحط . وقد عم الكساح أطفالهم لهذا الحصار .

وارتفعت الأسعار والأثمان إلى أربعة أضعاف بل خمسة أضعاف ما كانت عليه قبل الحرب . ولكن الرخاء كان عاماً ، لأن الانجليز بعد أن كانوا قد حددوا أثمان القطن في السنتين الأوليين من الحرب تركوها حتى وصلت إلى . ٤ و ٥ جنيهاً للقنطار . وكان أردب القمح يصل إلى ٧ أو ٨ جنيهات . وبقيت إيطاليا مدة طويلة وهي محايدة ، فكانت تموننا بكثير من المصنوعات . ولذلك لم يزد قطن ثمن البذلة على ٨ أو ٩ جنيهات . وأحدثت أثمان القطن المرتفعة هوساً عاماً في الريف حتى بلغ ثمن الفدان خمسمائة جنيه وإيجاره . ٤ أو ٥ جنيهاً . وبدهى أنه في مثل بلادنا حيث منع الانجليز تأسيس المصانع يجب أن ترتفع أثمان الأرض كلما زاد النقد المتداول ؛ إذ ليس هناك شيء آخر لاستغلال النقد الفائض . وأعرف اثنين شقيقين في الريف كانا يتجران بالقطن في ١٩١٩ . وقد عمهما الهوس بشأن

الزيادة المستمرة في أثمانه ، فصارا يجمعان منه ويكتران حتى أصبحت ثروتهما كلها قطناً لا يملكان شيئاً غيره . وكان يعرض عليهما الثمن العالى فيرفضان انتظاراً لارتفاع الثمن إلى خمسين أو مائة جنيه . وهما في هذه الآمال والأحلام وإذا بالثمن يهوى إلى أقل من أربعة جنيهات . فجن أحدهما ومات الآخر . وكثر الانتحار بين المضاربين على أثمان القطن في بورصة الاسكندرية . وفي أثناء هذه الحمى كانت الثروات الضخمة تتكون في أيام أو أسابيع ؛ فقد كان هناك تجار يشترون البيض أو الزبد أو يتجرون في البهائم ، فلما رأوا أن القطن يصعد إلى السماء أقبلوا عليه . فلم يكن يدور العام على أحدهم ، فيما بين ١٩١٨ و ١٩١٩ ، حتى كان يملك عشرين أو ثلاثين ألف جنيه مع أن كل ما كان يملك في بداية تجارته لم يكن يزيد على مئتي جنيه . وكان بعض هؤلاء يتناسى قديمه ويزعم أنه أصيل عريق في الثراء . وبعض آخر كان يتبجح بعصاميته وأنه جمع ثروته بذكائه ، أو كما كان يقول بذراعه . وكلاهما كان كاذباً ؛ لأن كل ما في الأمر أن الحظ رفعهم كما خفض غيرهم .

وكانت الحرب تسير في سلحفة بطيئة خالية من الاقتحامات ، حتى كاد الناس يعدونها شيئاً مألوفاً ليس هناك ما يدعو إلى أن يتغير . فقد حفرت الخنادق ، من الجانبين ، في الاقليم الشمالى من فرنسا وجهزت بالأثاث والمصاييح الكهربائية ، ونظمت بينها المواصلات وحصنت بالأسمنت . وعم الجبهة الغربية ركود حتى صارت عبارة « كل شئ هادئ في الميدان الغربى » من العبارات الرمزية تقولها عندما لا نجد خبراً جديداً . وهنا الاختلاف بين الحرب الأولى والحرب الثانية في ١٩٣٩ . فان الغارات الجوية التى وصلت إلى مدنا جعلت هذه الثانية متحركة نشيطة بالمقارنة إلى سكون الأولى في الخنادق . وحاول الألمان أن يحركوا الجبهة الغربية بالهجوم الكبير على فردان . ولكنهم لم ينجحوا إلا في قتل عشرات الألوف من شباب الألمان والفرنسيين . والواقع أنه لم يكن في أخبار الحرب الأولى ، بعد الهجوم البرقى الألمانى الأول ، مما بقى أثره سوى ثلاثة أشياء هى دخول أمريكا في الحرب ، ثم انفصال روسيا بنظامها الجديد . وأخيراً شروط ولسن التى أحسنا بها كأننا نفتتح عصراً جديداً للسلام والعدل . وكان أهم ما في هذه الشروط حق تقرير المصير للشعوب التى يستعبدوها الاستعمار . وكانت « عصبة الأمم » إحدى ثمرات جهاد ولسن للسلام العام .

وقد ظهر ولسن بمذهبه الجديد كما لو كان نبيا . فان العالم الذى كان يئن من الامبراطورية البريطانية استروح نسيا منعشاً من هذه المبادئ الجديدة التى تقول بالمساواة والحرية وتقرير المصير . وعلقت هذه المبادئ بأذهاننا ، وصرنا نلهج بها ونفكر فيما نستطيع أن ننتفع به منها . وكان الساسة الانجليز يتعلمون من هذه المبادئ ولكنهم لم يستطيعوا منعها وإنكارها . وقد عادوا إلى مثل هذه الحال فى الحرب الكبرى الثانية عندما دعا الرئيس روزفلت إلى ميثاق الأطلنطى والحريات الأربع . فقد قبلوا مبادئ ولسن ثم مبادئ روزفلت بالقول مع نية نقضها بالفعل .

وكان ولسن يسير فى أوروبا ويتنقل من عاصمة إلى أخرى والجماهير تحتشد له وتتلقاه فى خشوع دينى ، حتى كان بعضهم يجثو على الركب على أرصفة المحطات . وكان الكاتب الفرنسى رومان رولان فى فرنسا التى غادرها احتجاجاً على الحرب . وقد كتب له خطاباً مفتوحاً قال فيه :

« أنت وحدك ، أيها الرئيس ، بين جميع أولئك الذين يحملون الواجب الرهيب لقيادة الأمم ، أنت وحدك تستمتع بسلطة روحية عالمية . فانك توحى الثقة العامة .

« أجب نداء هذه الآمال الحارة . وتناول هذه الأيدي التى بسطت إليك فاجعلها تصافح بعضها بعضاً . . . لأن الأمم إذا وجدت أنها خذلت فى هذه الوساطة فانها ستتفرق وتهيم فى فوضى ثم لا بد أن تتحطم فى الشطط . وعندئذ تنغمس الشعوب فى الدماء وتنكفى الأحزاب القديمة إلى رجعية دموية . . . أيها الوارث لجورج واشنطن وإبراهام لنكولن هلم إلى الراية وهى ليست راية حزب أو راية أمة وإنما هى راية العالم كله . وادع نواب الشعوب إلى برلمان البشرية . وأرأس أنت هذا البرلمان بالسلطة الكاملة التى هى حقك لملك من وجدان روى سام ، ولما لأمریکا من مستقبل عظيم . تكلم . تكلم إلى الجميع . لأن العالم متعطش إلى صوت يعلو ويغمر تخوم الأمم وطبقاتها . كن الحكم للأمم الحرة ، حتى يعرفك المستقبل بأنك كنت المصالح . . . »

وليس شك فى أن مبادئ ولسون الأربعة عشر كانت من أكبر العوامل لثورتنا فى ١٩١٩ . وكان ولسون يحاول تغيير العالم ، وكان يؤمن برسالته فى جد وشرف . ولكن الرجل فى شرفه وسذاجته لم يقدر عتو اللؤم والخسة

في الامبراطورين : كليمنصو رئيس وزارة فرنسا ، ولويدجورج رئيس وزارة بريطانيا .
 فقد سايره هذان الاثنان وأوهماه بالموافقة التامة على مبادئه . يلتى بكل القوة
 الأمريكية في كفة الحلفاء ضد ألمانيا . حتى إذا تم الانتصار بفضل هذه القوة
 للانجليز والفرنسيين تنكر هذان الاثنان له . وكان من الفكاهات التي يتنادر
 بها الفرنسيون في حمق ورعونة قول كليمنصو وقت المفاوضات : إتنى في مأزق ، فعن
 يمينى نابليون وعن يسارى المسيح . وهو يعنى بنابليون لويد جورج في زعمه أنه
 بطل ، وبالمسيح ولسون في زعمه أنه مصلح للعالم . ونحن الآن في ١٩٤٧ عندما
 نذكر هذه المفاوضات في ١٩١٩ ندرك أن ولسون لم يكن فقط الرجل البار بالبشر
 بل كان أيضاً الرجل البصير . أما هذان الاثنان فكانا أحقيين ، طربا للانتصار
 ورضيا بالنظر القصير . ولو أن مبادئ ولسون عمت العالم لما وقعت الحرب الكبرى
 الثانية .

وعلى كل حال ربح العالم من ولسون « عصابة الأمم » . وصحيح أن الامبراطورين
 من الانجليز والفرنسيين أفسدوها وأحالوها إلى هيئة ميتة عندما أيقنوا أنها
 تعارض المذهب الامبراطورى . ولكن هذه العصابة نهت الأذهان ، وبقيت
 ماثلة أمام العالم نحو عشرين سنة وهى تشهد ، حتى بضعفها وفشلها ، على
 ضرورة إقامة منظمة عالمية تشرف على مصالح البشر . وقد كانت هى الباعث
 بعد ذلك لايحاد « منظمة الأمم المتحدة » و « مجلس الأمن » .

والحق أن هاتين الحريين قد أنجبتا بطلين عالميين فقط ، كلاهما أمريكى
 هما ولسون وروزفلت . وكلاهما دعا دعوة عالمية فعبر عن أسى الأمانى وأنضر
 الآمال في السلام والعدل والشرف بين البشر . وفي العالم الآن ثقافة عالمية
 بشرية جديدة تحتمر . وعن قريب ستبلور . ثم سوف تتجوهر مبادئ عامة
 نؤمن بها جميعاً ونقول بها إن هذا الكوكب هو وطننا ، هو قرينتنا التى يجب
 أن نجوب شوارعها ونعرف أزقتها ، في القطب الشمالى أو جبال هملايا في الصيف ،
 وفي صحارى أفريقيا أو آسيا في الشتاء . وطن عالمى جديد كبير يلغى هذا العالم
 الجزأ أو هذه الأوطان القديمة .

وكثير من الفضل في هذا الاتجاه يعزى إلى ولسون وروزفلت .

الصحافة في عصر اسماعيل

حقائق وذكريات مطوية

كان عصر اسماعيل على قصره من أحفل عصور مصر الحديثة بالحوادث والتطورات السياسية والاجتماعية ، وكان أهم ما يميز هذا العصر تعدد نواحيه ، وتنوع اتجاهاته ؛ ففيه تمتد النهضة إلى سائر النواحي ، وتتغلغل في مختلف جوانب الحياة العامة . وكانت النهضة الأدبية والثقافية التي وضعت أسسها في عهد محمد علي ، وألفت ميدانها الخصب في مختلف البحوث العلمية والأدبية ، قد أخذت تتفتح وتزدهر . وحفل عهد اسماعيل بمجهره من الأدباء والكتّاب الذين درجوا في مهادها . وكانت الصحافة الشعبية تبدو يومئذ بدعة أدبية محدثة تتأهب لأن تخطو خطواتها الأولى . ذلك أن الصحافة المصرية لبثت حتى عهد اسماعيل تتركز في جريدة الحكومة الرسمية ، وهي الوقائع المصرية ، وتتركز حركة الطباعة والنشر في مطبعة بولاق الأميرية . وكانت هاتان المؤسستان العظيمتان ، وهما أيضاً من غرس محمد علي ، قد وهبتهما الحكومة في عهد سعيد باشا لأحد الموظفين ، وآل أمرها إلى التدهور والخراب ؛ فشاء القدر أن يفتح اسماعيل عهده بانقاذهما إذ قرر شراءهما ودفع ثمنهما من ماله ، وردّتا بذلك إلى حظيرة الرعاية الرسمية . ودل اسماعيل بهذا التصرف الحمود على ما يكنه نحو المنشآت العلمية من تقدير ، وهي عاطفة ظهر أثرها فيما بعد في فرص ومناسبات عديدة .

وكان مولد الصحافة الشعبية المصرية في بداية عهد اسماعيل ؛ ففي سنة ١٨٦٥ أنشأ الدكتور محمد علي باشا البقلي والشيخ ابراهيم الدسوقي كبير مصححي المطبعة الأميرية مجلة اليعسوب الطبية ، فكانت أول صحيفة مصرية خاصة ظهرت بعد الوقائع المصرية ، ولكنها احتجبت بعد زمن وجيز .

وفي سنة ١٨٦٧ صدرت أول صحيفة أدبية سياسية إخبارية ، وهي جريدة وادي النيل التي أنشأها الشاعر الأديب عبدالله افندي أبو السعود ؛ فكانت أول

جريدة مصرية من نوعها ، وكانت تصدر في شكل المجلة مرتين في الأسبوع ، وكان لها مطبعة خاصة تقوم إلى جانب طبع الجريدة بطبع بعض الكتب الأدبية القديمة . واستمرت وادى النيل في الظهور حتى عطلت بأمر الحكومة سنة ١٨٧٢ . وكان عبدالله افندى أبو السعود من نوابغ الكتاب والصحفيين ومن أنجب تلاميذ رفاة بك وأرسخهم قدماً في التحرير والترجمة ، وله عدة مؤلفات في التاريخ وديوان شعر حسن ، وتولى في عهد اسماعيل رئاسة قلم الترجمة وتدرّس التاريخ في دار العلوم ، ثم عين قاضياً بمحكمة الاستئناف وتوفي سنة ١٨٧٨ .

ولما عطلت وادى النيل أنشأ محمد بك أنسى نجل عبدالله أبو السعود افندى مكانها جريدة « روضة الأخبار » ، ثم غير اسمها إلى « النيل » في سنة ١٨٧٨ ، واستمرت تصدر بهذا الاسم حيناً .

وتلا جريدة وادى النيل في الظهور مجلة « ترهة الأفكار » الأسبوعية أنشأها في سنة ١٨٦٩ ابراهيم بك المويلحي ومحمد بك عثمان جلال ، وكلاهما من أساطين الأدب والبيان في ذلك العصر ؛ بيد أنها لم تلبث أن عطلت بأمر الخديو بعد ذلك بقليل .

وفي سنة ١٨٧٠ ظهرت مجلة روضة المدارس الشهيرة . أنشأها العلامة على باشا مبارك وقت أن كان ناظراً للمعارف ، وكانت مجلة حكومية تتولى نظارة المعارف إصدارها والإيتفاق عليها وتعنى بالشئون الأدبية والعلوم العصرية . وكانت في هذا العصر الذي ازدهرت فيه النهضة الأدبية روضة حقة ، تحفل بثمار جمهرة من الأقلام البارة ؛ وتولى رئاسة تحريرها في البداية العلامة رفاة بك الطهطاوى يعاونه ولده على بك فهمى رفاة ؛ وكان يساهم في الكتابة فيها على باشا مبارك ، وعبدالله باشا فكرى ، والشيخ حسين المرصفى ، ومحمود باشا الفلكى ، ومحمد قدرى باشا ، وأحمد بك ندا ، والسيد صالح بك مجدى ، وعبدالله أبو السعود افندى ، والشيخ حسونة النبواوى ، والشيخ حمزة فتح الله ، وغيرهم من أعلام البيان في ذلك العصر . واستمرت روضة المدارس تصدر بانتظام ثمانية أعوام ، وكانت تصدر مرتين في الشهر وتوزع على التلاميذ مجاناً ، وكان لها أثر كبير في خدمة النهضة الأدبية في ذلك الحين .

وصدرت في الوقت نفسه مجلتان رسميتان للجيش المصرى ، تسمى إحداهما

«جريدة أركان حرب الجيش المصرى» ، والأخرى «الجريدة العسكرية المصرية» ؛ يتولى تحريرها ضباط الجيش ورجاله الفنيون . وصدرت مجلة «أركان حرب» شهرية في سنة ١٨٧٣ واستمرت تصدر أعواماً ، وكانت تطبعان في مطبعة الجيش التي ضمت فيما بعد إلى المطبعة الأميرية .

وأنشأ سليم الحموى من الأدباء اللبنانيين النازحين جريدة بعنوان «الكوكب الشرقى» بالأسكندرية في سنة ١٨٧٣ ، ولكنها لم تلبث أن احتجبت ، فأنشأ بعدها مجلة أسبوعية تسمى «الاسكندرية» في سنة ١٨٧٨ ولكنها احتجبت بعد أعوام قلائل .

وقد كان اسماعيل يقدر بذكائه وبعد نظره ما للصحافة يومئذ من الأثر العميق في تكييف الأفكار والاتجاهات السياسية والاجتماعية ؛ ولهذا لم يضمن عليها بعطفه وإغداقه . بيد أنه يلاحظ أن الصحافة المصرية الحقيقية لم تكن قد نشأت يومئذ ؛ وبذا استأثرت بنفحات اسماعيل وصلاته طائفة من الصحف الأجنبية المحلية والخارجية .

وتدل الأوامر العالية والوثائق المختلفة التي استعرضناها في هذا الشأن على أنه كانت ترصد كل عام في عهد اسماعيل اعتمادات شتى لمعاونة الصحف ووكالات الأخبار الأجنبية في كثير من العواصم الأوربية ، وكذلك لبعض مكاتب الصحف . وكانت هذه الاعتمادات تصرف أحياناً بصفة ثابتة منتظمة ، وبعضها يصرف بدلا لاشتراك الحكومة في عدد كبير من هذه الصحف ، والبعض الآخر يصرف كإعانات وهبات لأسباب وبواعث سياسية أو شخصية يصعب استجلاؤها .

فمثلا تقرأ في إرادة صادرة لناظر المالية في سنة ١٨٦٣ بأن يصرف المبلغ المرتب سنوياً لصاحب الجرنال المستقل البلجيكي (وهو فيما نعتقد جريدة *Indépendance Belge*) وقدره ستون ألف قرش من خزينة نظارة المالية ورفعها لطرف الديوان .

وصدر أمر المالية في صفر سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) بصرف مبلغ العشرة آلاف فرنك مرتب الجرائيل المطالب بصرفه مسيو دومارتينو ، وكان يصرف سنوياً مقدماً لأخيه يصرفه بمعرفته إلى جرائيل تليانى .

وصدر في ربيع الأول سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) أمر للمالية بأن يدفع مبلغ

٢٣٨ ليره و ٦ شلنات قيمة سنوية (اشتراك) مائة نسخة من الجرنال المسمى المالية (وفي اعتقادنا أنه جريدة *Finance*) من ابتداء ٢١ أكتوبر سنة ١٨٧٤ ، ومبلغ ١٣٦ ليره سنوية مائة نسخة من الجرنال المسمى رفيو لنفس المدة . وصدر أمر في ربيع الثاني سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) بالموافقة على صرف مبلغ ثلاثين ألف فرنك ، صرفت إلى مسيو وينكر محرر جرنال لوفات هيرالد بالإستانة ؛ وصدر الأمر في نفس التاريخ « برفع الاعانة السنوية التي كانت تدفع إلى جرنال فينانسه التلياني من خمسة آلاف فرنك سنوي إلى عشرة آلاف ، وذلك ابتداء من سنة ١٨٧٥ » .

وفي سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) صدر للمالية أمر « بصرف مبلغ ١٢٦,٧٥٠ قرشاً إلى مسيو ما كدن المكاتب بلوندره ما يعادل ١٣٠٠ ليره أسترلينية منها ألف ليره مرتبه سنة كاملة ، والباقي نظير مصاريف أجرى صرفها » . وصدر في نفس العام أمر « باعتماد مبلغ ١٩,٥٠٠ قرش قيمة ٢٠٠ ليره أسترلينية نظير مصاريف جرانيل بمدينة فينا مدة ثلاثة شهور مقدماً ابتداء من يوليو إلى سبتمبر سنة ١٨٧٦ ، تدفع إلى مسيو بلوم ناظر البنك النمساوي » . ويتضح من مراجعة ميزانية الجرائد (أو مرتبات الجرانيل كما توصف) في سنة ١٨٧٧ أن حكومة الخديو كانت تصرف مبالغ كثيرة إلى صحف أجنبية عديدة في لندن وباريس وإستانبول وفيينا وغيرها ، وأنها كانت تؤدي إلى وكالة رويتر إعانة قدرها ٢٥٠,٢٤٦ قرش وإلى وكالة هافاس إعانة قدرها ١٠٠,٢٣ قرش . وكان هذا منشأ الإعانة الرسمية التي استمرت من ذلك الحين تصرف إلى هاتين الوكالتين الشهيرتين ، والتي ما زالت تؤديها الحكومة كل عام إلى وكالة رويتر حتى يومنا . كذلك كانت حكومة الخديو تدفع إعانات ضخمة للصحف الأجنبية المحلية ، مثال ذلك أنها كانت تؤدي سنوياً إلى صاحب جريدة « الفارد الكسندري » ، وهو محام يوناني مبلغ خمسين ألف فرنك سنوياً (نحو ألفي جنيه) مقابل اشتراكها في عدد من نسخ الجريدة كان يرسل إلى دواوين الحكومة ، وذلك بمقتضى عقد لمدة خمسة أعوام ابتداء من يناير سنة ١٨٧٥ .

وكانت تصرف بعض الإعانات أيضاً إلى بعض الصحف العربية ، بيد أنها كانت تصرف على الأغلب إلى الأدباء النازحين . وكان اسماعيل في سعة أفاقه يشمل برعايته كل مشروع أدبي أو صحفي عربي ولو كان خارج حدود مصر . من

ذلك أنه صدر أمر للمالية في سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) بصرف مبلغ ١٠٠٠ جنيه « إلى سليم افندى البستاني كدفعة من ثمن ألف مجلد من كتاب دائرة المعارف الجارى طبعه بطرفه بيروت » . وقد رفعت هذه الاعانة فيما بعد إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه نظير استلام الحكومة مائتى نسخة من الموسوعة المذكورة (١) وأنه كانت تؤدي إعانة سنوية إلى جريدة « الجنان » البيروتية التى كان يصدرها سليم افندى المذكور ، وأنه كانت تدفع إلى أحمد فارس الشدياق صاحب جريدة الجوائب إعانات مختلفة ، هذا عدا ما كان يدفع إليه نظير اشتراك الحكومة فى نسخ الجوائب وقد بلغ فى سنة ١٨٧٦ وحدها مبلغ ٣١,٥٩ قرش . وورد فى ميزانية الصحف (مرتبات الجرائل) فى هذه السنة ما يدل على أن مجلة روضة الأخبار المصرية لصاحبها محمد افندى أنسى كانت تستولى على إعانة قدرها ٢٧,٧٧٤ قرش ، وهى الجريدة المصرية الوحيدة التى ورد ذكرها فى قائمة الصحف التى تحظى بعون الحكومة (٢) .

وقد يبدو أن فى هذه المبالغ الكبيرة التى كانت تخصصها حكومة الخديو لإعانة الصحف الأجنبية والمراسلين الأجانب نوعاً من الاسراف الذى امتاز به هذا العهد . ولكن يجب أن نذكر أن السياسة المصرية كانت تجتاز فى أواخر عهد اسماعيل مرحلة دقيقة ، وأن الخديو كان يحاول بهذه الهبات أن يتقن قدر الاستطاعة شر الدعايات المغرضة .

هذا وقد كانت كلمة جرنال وجرائل تستعمل طوال القرن الماضى للإشارة إلى الصحف والصحافة ، وذلك منذ أنشئ ديوان « جرنال الخديو » فى أوائل عهد محمد على ، واستعملت أيضاً غير مرة للإشارة إلى « الوقائع المصرية » وظهرت فى كثير من الأوامر الرسمية المتعلقة بالصحف الداخلية والخارجية حتى قيام الثورة العرابية ، وكذلك استعملها قانون المطبوعات المصرى الصادر فى سنة ١٨٨١ ، واستعملت أيضاً فى الأوامر الرسمية كلمة الغازيتات إلى جانب كلمة الجرائل ، واستعملت كلمة « صحيفة » فى أحيان قليلة ولكن بدون أن يكون لها نفس المعنى الصحفى الواضح الذى تدل عليه اليوم .

(١) هى « دائرة المعارف » التى وضعها المعلم بطرس البستاني والد سليم المذكور .

(٢) اعتمدنا فى تلخيص الأوامر المتقدمة على ثبت الأوامر الخديوية الذى أورده للرحوم

أمين باشا سامى فى « عصر اسماعيل » .

ولم تظهر كلمة جريدة وجرائد بصورة منتظمة إلا في أواخر القرن الماضي ، ثم تلتها كلمة صحيفة وصحف وصحافة ، بمعناها الحديث ، واختفت كلمة جرنال وجرائل نهائياً من الوثائق الرسمية واللغة الثقافية الرفيعة ، وأضحت كلمة الصحافة ومشتقاتها هي الكلمة المفضلة اليوم .

وفي أواخر عهد اسماعيل وقع حادث صحفي ذو شأن هو صدور جريدة الأهرام ، وكان صدورها في أوائل أغسطس سنة ١٨٧٦ بشعر الأسكندرية على يد منشئها الأخوين سليم وبشاره تقلا اللذين نزحا إلى مصر قبل ذلك بقليل . وفي ملف الجريدة الرسمي بوزارة الداخلية صورة التصريح الصادر من الخارجية إلى ضبطية الأسكندرية في يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٧٥ بالترخيص باصدار الأهرام ، وقد جاء فيه : « إنه تقدم انهي من الخواجه سليم تقلا يلتمس التصريح له بانشاء مطبعة حروف تسمى الأهرام بجهة المنشية بالاسكندرية يطبع فيها جريدة تسمى الأهرام تشمل على التلغرافات والمواد التجارية والعلمية والصناعية والمحلية وألا تتعرض للمسائل البوليتيكية . . . »

وصدرت الأهرام منذ يوم السبت ٥ أغسطس سنة ١٨٧٦ أسبوعية ، وكانت تصدر كل سبت في أربع صفحات من قطع الصحف النصفى . ونمت الأهرام وتقدمت بسرعة ، وصدرت يومية بعد ظهورها بقليل . وغضب الخديو اسماعيل على الأهرام لتعرضها لبعض تصرفاته فأمر بتعطيلها والقبض على محررها سليم تقلا في أوائل سنة ١٨٧٩ ، وتقديمه للمحاكمة . ولكن تدخل قنصل فرنسا في الأمر انتهى بالعفو عنه والعدول عن محاكمته . واستمرت الأهرام تشق طريقها قدماً ، وهاجمت الثورة العرابية بعنف ، ثم عمدت بعد ذلك إلى معارضة الحكومة الخديوية وعطلت من أجل ذلك غير مرة ، بيد أنها استمرت في طريقها ثابتة راسخة القدم ، ونقلت إدارتها إلى القاهرة منذ سنة ١٨٩٨ ، واشتد ذيوها في مصر والعالم العربي كله ، وأضحت اليوم من أعظم الصحف العربية نفوذاً وانتشاراً .

وفي أواخر سنة ١٨٧٧ ظهرت جريدة « الوطن » القبطية أسبوعية سياسية ، وكانت في بداية أمرها مصرية وطنية النزعة وناصرت الثورة العرابية ، ولكنها جنحت فيما بعد إلى مقاومة الدعوة الوطنية التي يحمل لواءها مصطفى كامل وإلى مناصرة الانجليز ، وقامت بعد ذلك بدور لا يحمد في إثارة النعرة الطائفية .

وصدرت في نفس هذا العام بالقاهرة جريدة « مصر » الأسبوعية لصاحبها أديب إسحاق ثم عطلت بعد عامين . وأنشأ أديب إسحاق وسليم نقاش في سنة ١٨٧٨ بالاسكندرية جريدة « التجارة » يومية سياسية ، وكان الشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغانى يخصصانها ببعض رسائلهما ، ولكنها لم تلبث أن عطلت في سنة ١٨٨٠ .

وفي نفس هذا العام الحافل بالنشاط الصحفى أعنى سنة ١٨٧٧ ظهرت بالقاهرة صحيفة من نوع خاص هى مجلة « أبو نضارة » الهزلية لمنشئها ومحررها الكاتب الاسرائيلى الفكه الشيخ يعقوب صنوع ، وكانت أول مجلة نقدية فكاهية من نوعها بمصر . وكان الشيخ صنوع إسرائيليا مصرياً تلقى ثقافة واسعة في مصر وأوربا ، وأنشأ في سنة ١٨٧٠ أول مسرح عربى بالقاهرة بمساعدة الخديو اسماعيل ، ثم اتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، واتفقا معه على أن يصدر جريدة عربية هزلية لانتقاد أعمال الخديو وحكومته ، فأصدر مجلة « أبو نضارة » وكان يحرقها بلغة دارجة نصف عامية ، بأسلوب فكه لاذع ، وينشر فيها بريشته صوراً رمزية مسلية . وذاع أمر هذه الخجلة بسرعة . وغضب الخديو لتطاوها على نقده ، فأوعز إلى قنصل إيطاليا بنفى صاحبها إذ كان محتتماً بإيطاليا فأبعد عن القطر وسافر إلى باريس واستأنف هناك إصدار مجلته . وصدرت مجلة « أبو نضارة » في باريس في أغسطس سنة ١٨٧٨ ، ويعرضها محررها الكاتب الفكه في عددها الأول على النحو الآتى : « رحلة أنى نضارة رزقا الولى من مصر القاهرة إلى باريز الفاخرة بقلم جيمس سانوا (يعقوب صنوع) محرر جريدة أبى نضارة زرقا الباهية والدة النظارات المصرية » .

وكانت هذه المجلة الفكاهية تصدر يومئذ أسبوعية مكتوبة بخط اليد ومزينة بطائفة من الصور الرمزية ومحررة بأسلوب فكه ممتع ، وبها محاورات بين شخصيات مختلفة بلغة دارجة مضحكة ولكن قوية لاذعة ، وفيها حملات مرة على الخديو وتصرفاته ، ونكت وأزجال بلدية ، ورسائل رمزية على لسان شخص يدعى الشيخ يوسف الشفعاوى يستعرض فيها مثالب الحكم القائم إلى غير ذلك من الحملات والدعايات المرة^(١) . ومنعت أبو نضارة بالطبع من دخول مصر ولكن الشيخ صنوع كان يحتال في تسميتها وإرسالها سرّاً إلى مصر ، فكان يسميها

(١) محتفظ دار الكتب بمجموعة من أعداد « أبو نضارة » التى صدرت في باريس .

بأسماء مختلفة مثل « أبو زمارة » « وأبو صفارة » و « الحاوى » . واستمر الشيخ صنوع في منفاه يتابع الكتابة وإصدار الصحف التي تعنى بشئون مصر ، هذا عدا ما ينشره في كبريات الصحف الفرنسية من مقالات ممتعة . ولما وقع الاحتلال الإنكليزي اشتد في الحملة عليه واشتهر في باريس بين الشرقيين قاطبة ، وكان له في قلوبهم منزلة رفيعة لرفيع ثقافته ولأذع دعابته . وتوفي في باريس سنة ١٩١٢ وكان مجهوده في الصحافة الرمزية والهزلية أول مجهود من نوعه فهو المؤسس لهذا النوع من الصحافة بمصر .

وكان يصدر في عهد اسماعيل بمصر عدة صحف أجنبية في مقدمتها جريدة « الفار دالكسندري » *Le Phare d'Alexandrie* التي أنشئت بالاسكندرية سنة ١٨٧٤ ، وجريدة « البروجريه اجيبسيان » *Le Progrès Egyptien* وهي من الصحف المعارضة لإسماعيل ، وجريدة الريفورم ثم الاجيبشيان غازيت ، وقد ظهرت بالاسكندرية منذ سنة ١٨٧٨ . وكانت تصدر بالقاهرة جريدة « البوسفور المصري » *Le Bosphore Egyptien* صدرت أولاً بالفرنسية ثم نشرت فيما بعد قسماً بالعربية للدعاية لفرنسا ، وما زالت توالى الصدور حتى عطلت سنة ١٨٨٥ . كذلك كانت تصدر باليونانية أكثر من جريدة في الثغر والقاهرة . وكانت هذه الصحف الأجنبية على الأغلب حرباً على مصر وعلى الخديو وحكومته ، وكانت شديدة التعصب للمصالح الأجنبية ، وقد لعبت في تعكير الجوبين مصر والدول الأجنبية دوراً لا يحمد .

هذا استعراض سريع للحركة الصحفية في عهد اسماعيل . ومما يلفت النظر أن الصحافة المصرية الوليدة التي نشأت مع بداية هذا العهد ، قد استطاعت أن تصل في أواخره في ظرف خمسة عشر عاماً فقط إلى ذلك المدى من التعدد والقوة والنفوذ . ولكن الطموح من خواص عصر اسماعيل ، وقد كان الجديد في كل شيء يسير نحو التقدم في وثبات سريعة .

محمد عبد الله عنانه

CONDORCET
ALEXANDRE KOYRÉ

كوندرسيه

منذ ١٥٠ عاما مات في سجن بور- لا - رين جان أنطوان نيقولا كاريتاس ،
مركز كوندرسيه سابقا والسكرتير الدائم لأكاديمية العلوم وعضو الأكاديمية
فرانسيز وممثل الشعب في المؤتمر الوطني ، وكان قد أدين وصدر الأمر بالقبض
عليه من تلك الجمهورية الفرنسية ذاتها التي كان هو بين أوائل من تمنوها
وطالبوا علنا بتأسيسها ، وبذهابه ذهب عصر بأكمله .

وصدق برينور^(١) حين عبر خير تعبير إذ قال : « يشغل كوندرسيه مكانا
فريدا في تاريخ الفكر الفرنسي . فهو آخر « الفلاسفة » والوحيد منهم الذي
اشترك اشتراكا فعليا في الثورة . ولم يضع مذهبا خاصا به حقا ، وإنما جمع
كل نظريات سابقيه . وإنا لو وجدون لديه آراء من فولتير ومن روسو ومن تورجو
ومن هلفيسوس ومن كوندياك ، وقد تشكلت شيئا فشيئا في وحدة منسجمة
آخر ما يعبر عنها كتابه « الوجيز » وهو نوع من الملخصات الفلسفية للقرن
الثامن عشر^(٢) .

وليس للقرن الثامن عشر وفلسفته سمعة طيبة ، فهي بما فيها من مزيج
من العقلية الديكارتية ومن المذهب التجريبي الحسي^(٣) تبدو آخر الأمر
متناقضة غير ثابتة . فما يؤخذ عليها ، وما أخذ عليها بصفة خاصة في القرن
التاسع عشر ، أنها فلسفة متطرفة في فرديتها ، سطحية في مذهبها العقلي ،
ساذجة في تفاؤلها . كما أخذ عليها إنكارها للحقائق العميقة ، وعلى الأخص
إنكارها للتاريخ وإيمانها بالتقدم .

(١) راجع كوندرسيه : ملخص لوحة تاريخية لتقدم العقل الانساني . طبعة برينور ،
باريس ، بوقان ، ١٩٣٣ . المقدمة .

(٢) كانت حياة كوندرسيه رجل الرياضة والاقتصاد والفلسفة والسياسة ، ملخصا لكل
وجوه التطور الفكري في القرن الثامن عشر وللتحول من النظريات إلى الواقع والعمل .

(٣) فيما يتعلق بالمذهب الديكارتى في القرن الثامن عشر عموما ولدى كوندرسيه خاصة
راجع كتاب ف . بويه : تاريخ الفلسفة الديكارتية ، مجلد ٢ ص ٦٤١ .

وليست كل هذه المآخذ خاطئة . فمما لا شك فيه أن فلسفة القرن الثامن عشر قد تبدو قليلة العمق ، قليلة الحياة بالقياس إلى ما سبقها أو ما لحقها من مذاهب فلسفية كبرى . ومن المؤكد أيضاً أن القرن الثامن عشر قد تفاعل أكثر من اللازم ، وقد آمن بقوى العقل أكثر مما يجب ، وأنه أخذ مأخذ الجدل ذلك التعريف القديم للإنسان بأنه حيوان عاقل . وأنكر قوة العناصر اللاعقلية ، أو بتعبير أدق أنكر الأساس اللاعقلي لطبيعة الإنسان . كما أنه لم يعترف بالأهمية الاجتماعية والدور الرئيسي لما كان يدعو الآراء السابقة (أى الآراء الصادرة دون فحص) ، وباستغراقه في العدل على هدم بعض « الآراء السابقة » السائدة في ذلك الوقت (الآراء السابقة الاجتماعية والدينية) مستخدماً نور العقل ، تراه قد قلل من تقديره لقوتها وغاب عنه أن الإنسان قادر على أن يستبدل بالآراء السابقة المنهزمة ، « آراء سابقة » جديدة . وهذه المآخذ حقة ، ولكنها في رأى أقل خطورة مما يقال وبالأخص مما قيل (١) ولا يجدر أن تؤدي بنا إلى نسيان أن فلسفة القرن الثامن عشر قد أقامت مثلاً أعلى إنسانياً واجتماعياً وأن ذلك المثل سيبقى أمل الإنسانية الأوحده . ولقد رأينا ما تخسره فلسفة القرن الثامن عشر إن تركت الحرية والمساواة والاخاء في سبيل الرغبات العميقة لطبيعة الإنسان اللاعقلية . . . إن ما يفسر قلة التقدير التي هبط إليها القرن الثامن عشر ، هو أنه قد انهزم (٢) والهازمون هم الذين يكتبون التاريخ . وإن ممثلي الرجعية ، الرجعية الرومانطيقية ، والرجعية الرومانطيقية الألمانية بنوع خاص ، هم الذين حددوا أحكامنا التاريخية بل هم الذين عينوا لنا معنى التاريخ . وهم أيضاً الذين أقنعونا أن القرن الثامن عشر قد أنكره .

ويبدو لي أنه ما من خطأ أعظم من الزعم بأن القرن الثامن عشر قد أنكر التاريخ ، وهو زعم لا يمكن الدفاع عنه إلا بالموافقة على المعنى الرومانطيقى للتاريخ . فإذا لم نفعل ذلك وجدنا أننا على العكس مدينون

(١) يبدو أن تغيراً في رأى قد حدث مؤخراً . راجع مؤلفات ج . ر . كاريه «فوتنل أو بسمة العقل» باريس ١٩٣٢ ، و«تركيب قولتير الفيلسوف» ، باريس ١٩٣٨ . وراجع أيضاً ١ . كاسيريه : *Die Philosophie der Aufklärung*, Tübingen, 1932. (٢) راجع Bréhier, *Histoire de la Philosophie*, Vol. 2, Paris.

للقرن الثامن عشر ، مدينون لونتسكيو (١) ولفولتير (٢) ولونتيكلا ولجيون
باكتشاف التاريخ أو إذا شئت بالكشف عنه ثانية ، كما أننا مدينون للقرن
السابع عشر ، مدينون لسبينوزا ، وويل ومايون باكتشاف المعرفة التاريخية
والنقد التاريخي .

ومما لا شك فيه أن رجال القرن الثامن عشر لم تكن تنطوي قلوبهم على
احترام وعبادة وتقديس للتاريخ كما سيفعل الرومانطيقيون .

ومما لا شك فيه أيضاً أنهم لم يقدسوا المعرفة التاريخية ، وأنهم كثيراً ما
كانوا يجهلون تفاصيل الماضي (بل أكثر من التفاصيل) . ذلك لأنه لم
يكن لهم ما كان للرومانطيين من حنين إلى الماضي وألم عليه . وإنما على
العكس كانت أبصارهم متجهة إلى المستقبل . والتفكير الرومانطيقى (وكل
مذهب تاريخي قد ورث شيئاً من التفكير الرومانطيقى) تفكير «نباتي» ،
كما يقول بحق جوستاف هوبنر وهو يعمل في حيز سام مستخدماً استعارات
عضوية وبالأخص استعارات نباتية . فتراهم يتكلمون عن النمو والجذور ،
ويقارنون بين المؤسسات التي تكونت نتيجة لنمو طبيعي *natürlich gewachsen*
وتلك التي تكونت صناعياً *kunstlich gemacht* . أي إنهم يواجهون عمل
الجماعات الانسانية الذي تم بطريقة لاشعورية وغريزية بعملها الشعوري
الارادي ، أي يقارنون بين التقليد وبين التجديد الخ ...

وهذا الفهم للتاريخ أو هذا الاتجاه الذي ينظر إليه كأنه شيء ينمو
بطريقة شبه ذاتية والذي لا يرى في الانسان عاملاً مؤثراً وإنما يعده محصولاً
للتطور التاريخي وللقوى اللاشخصية فيه أو للقوى التي تمر به ، هذا الاتجاه
لا يرتبط بالضرورة بفلسفة سياسية أو بفلسفة تاريخية رجعية ؛ فليس النمو جهوداً ،
وليست الشجرة جذراً ولا الزهرة برعماً (٣) . . .

ولكن النمو النباتي عملية بطيئة ، وفي الغالب ما يحتفظ النبات في صورته

(١) إن مونتسكيو هو الذي أعطانا فكرة القوانين التاريخية المتغيرة والخاصة بمختلف
الصور الاجتماعية للجماعات الانسانية .

(٢) لقد جدد كتابا : « قرن لويس الرابع عشر » ، « بحث في الماديات » تأليف التاريخ
تجديداً تاماً .

(٣) إن الفلسفة الهيكلية للتاريخ ، وهي التي تنظر إليه باعتبارها عملية نمو ذاتي وتكوين
ذاتي للعقل ، تدعو في نفس الوقت ، إلى تفسير محافظ وإلى تفسير ثوري .

الجديدة بصورته القديمة . وكذلك ترى في المذهب الرومانطيقى اتجاهها إلى المحافظة بل إلى الرجعية . ولما للتقاليد من قيمة كبيرة لدى الرومانطيقين تجد مذهبهم يؤدي إلى معارضة التغير وإلى السمو بالماضى بل إلى تخيل الكمال فيه . . . (١) ومهما يكن من أمر فيكفينا القول بأن فهم الرومانطيقين للتاريخ يتضمن رفع قدر الماضى ، ذلك الماضى الذى يتحقق فى الحاضر ويمتد إلى المستقبل .

والأمر جد مختلف فيما يتعلق بفهم فلاسفة القرن الثامن عشر للتاريخ . فليس التاريخ لديهم قوة لاشخصية تتحقق فى الدنيا ، وإنما هو على العكس محصول عمل الانسان ونشاطه الذاتى . وليس التاريخ شيئاً يصنعنا وإنما هو شئٌ نصنعه نحن ، أى إنه جماع ماصنعه الناس وما يصنعونه وما سيصنعونه أو ما يستطيعون صنعه . ونتيجة لهذه النظرة العملية ، تجد المؤرخ لا يرنو ببصره إلى الماضى وإنما يتطلع إلى الأمام ، ويرى أنه ما من شئٍ أجدر بأن يقص ولا أقمن بأن يدرس من تاريخ التقدم ، أى تاريخ تحرر العقل الإنسانى تدريجياً ، تاريخ كفاحه قوى الجهل والخرافات التى تكبته أو التى كبته ، تاريخ النصر الذى ناله الإنسان شيئاً فشيئاً باستيلائه على قوى النور والحرية .

والتاريخ بهذا المعنى يبدو لنا كأنه تاريخ كفاح ، تاريخ معركة ضد القوى اللاعقلية التى تعوق تقدم الإنسان ، تاريخ الثورة على الماضى فى سبيل المستقبل . وإذن فلا يجب الاحتفاظ بآثار الماضى ولا بالتقاليد والعادات البالية بل يجب على العكس هدمها فى أغلب الأحيان . ومن هنا يدخل التاريخ — أو على الأصح المؤرخ — فى المعركة . فهو عند ما يكشف عن الأصل البسيط للتقاليد وللمعتقدات المقدسة المبجلة يرينا عدم جدواها فيقتلعها من جذورها ، ويمهد الأرض ويهيئها لبناء جديد ، بناء سيؤسس على العقل فى هذه المرة .

وإنه لمن مفاخر فلسفة القرن الثامن عشر أنها لم ترد تفسير الدنيا فحسب وإنما أرادت تغييرها أيضاً . بل كانت تؤمن أنها قادرة على تغيير الدنيا بتفسيرها ، أو بعبارة أخرى كانت تعتقد أنه يكفى أن تبين للناس أين تستقر

(١) ومثال ذلك السمو بالعصر الوسيط واعتباره مثلاً أعلى .

الحقيقة وأين يكون الخطأ حتى يسيروا — ولا محيص لهم عن ذلك — نحو الحق . وكانت تشعر أن التاريخ يؤيدها في إيمانها بقوة الحقيقة والعقل . وبين لنا كوندرسيه أن الإنسانية قد حققت رقيًا دائمًا رغم العقبات التي كانت تعوق سيرها إلى الأمام . أوليس من الحق أن سير التقدم منذ زمن ما ، منذ اختراع الطباعة ومنذ الثورة التي شنها ديكارت ، قد زاد بشكل جد محسوس ؟ أوليس من الحق أن انتصار النور في أيامنا في الحضارتين العظيمتين الفرنسية والانجليزية ، يبدو كأنه قد هانا من خطر الانتكاس كما حدث في سالف الأيام عند ما أعقت بربرية القرون الوسطى الحضارة اليونانية العظيمة الباهرة (١) ؟ وهكذا نرى أن تفاؤل كوندرسيه إنما هو تفاؤل مبنى على العقل وعلى التجربة . وليس التقدم شيئاً مقدراً لابد منه ، ولكن تاريخ الإنسانية يبين لنا حقيقته . أوليس من المعقول أن نعتف بأن الإنسانية ، التي عرفت كيف تحصل على الحرية العقلية ، وعلى الحقيقة العلمية ، بل الحرية السياسية لن تدع هذه الغنائم تفلت من يديها ولن تتحول عن نور العقل (٢) ؟

ولن نحاول هنا أن نعرض لكتاب كوندرسيه « الوجيز » ، ولا أن نحلل في تفصيل « العصور » وهي الدرجات لمتابعة التي ارتقى عليها الإنسان ليصل من البساطة الخشنة في حياته البدائية إلى نور الحضارة العلمية والحرية السياسية . وحسبنا أن نعلم أن كوندرسيه يقسم تلك العصور إلى عشرة ، وأنه يعد ديكارت خاتم العصر السابع الذي يمتد « من اختراع الطباعة حتى ذلك العهد الذي استطاعت فيه العلوم والفلسفة أن تتخلص من نير السلطة » . ويقول إن العصر التاسع يمتد « من ديكارت حتى تكوين الجمهورية الفرنسية » وأن العصر العاشر يشمل « تقدم العقل الانساني في المستقبل (٣) » .

والمكان الذي عينه كوندرسيه لديكارت مكان مميز حقاً . ولم يكن ديكارت

(١) وتلك نبوءة حقة ، لأن انتشار النور والمبادئ الديمقراطية في البلاد التي تتكلم الفرنسية والانجليزية ، هي التي انتقدت العالم من انتكاس يرجعه إلى البربرية .

(٢) لم يتنبأ كوندرسيه بذلك الاندفاع نحو العبودية ، وبذلك البعد عن التفكير الانساني الذين تراهما في أيامنا .

(٣) معرفة الطبيعة وقوانين العقل الانساني تمكنا ، في رأى كوندرسيه من معرفة تطورات المستقبل في مجموعها ، لا في تفاصيلها بالطبع .

العقلية الوحيدة التي زعزعت نير السلطة ، فقد سبق « أن كشف با كون Bacon عن الطريقة الحقّة لدراسة الطبيعة ولاستخدام الأدوات الثلاث التي وهبتها لنا لتتعمق أسرارها ألا وهي الملاحظة والتجربة والحساب . . . ولكن با كون — وهو الذي امتلك ناصية الفلسفة إلى حد بعيد — لم يجمع بينها وبين العلوم ، وأعجب الفلاسفة بطرقه لاكتشاف الحقيقة التي لم يعط عنها أى مثل — ولكنها لم تغير قط من سير العلوم .

«لقد سبق لجاليليو أن زاد تلك الطرق باكتشافاته المهمة الباهرة. وكان، على سبيل المثال ، قد علم الناس الوسائل التي تسمو بهم إلى معرفة قوانين الطبيعة... ولكنه وقد اقتصر فقط على العلوم الرياضية والطبيعية لم يستطع أن يطبع في عقول الناس تلك الحركة التي كانوا ينتظرونها .

« ولقد بقي ذلك الشرف ليحرزه ديكارت الفيلسوف العبقري المقدام . ولقد أوتي عبقريّة عظيمة في العلوم ، وجمع بين القول والفعل حين أبان لنا النهج لايجاد الحقيقة ومعرفتها . . . وكان يريد أن يمد طريقته ليستخدمها في كل نواحي العقل الانساني ، فكان الاله والانسان والكون ، على التوالي ، موضوعا لتأملاته . . . وكان إقدامه ، حتى في الخطأ ، معوانا على تقدم النوع الانساني ، ومحركا للعقول التي لم تستطع حكمة منافسيه أن توقظها . وطلب إلى الناس أن يرفعوا عن كاهلهم نير السلطة وألا يعترفوا إلا بما يمليه عليهم العقل . ولقد لقي آذانا صاغية لأنه استخدم إقدامه وحماسته . ولم يتحرر العقل ولكنه علم أن تكوينه يعده لذلك... ومنذ ذلك الحين استطاع الناس أن يتنبأوا أن أغلال العقل لا بد محطمة عما قليل (١) . »

وكبار العباقرة الذين بزغوا في العصر التاسع ، ذلك العصر الذي سمح فيه أخيرا باعلان حق طالما أنكر ، ألا وهو حق إخضاع كل الآراء للعقل ، أى استخدام الوسيلة الوحيدة التي منحناه لفهم الحقيقة ومعرفتها (٢) ، هم في رأى كوندرسيه — نيوتن الذي يرجع إليه الفضل في أن يعرف المرء أخيرا ولأول مرة

(١) أنظر *Essai* ص ١٤٣ .

(٢) ص ١٥٩ من *Essai* : لقد تعلم الناس أن الطبيعة لم تكتب عليهم أن يؤمنوا بكلام الآخرين . وهكذا اختفى من الجماعة الانسانية التطير القديم ، وخضوع العقل أمام المعجزات ، اختفى ذلك من الجماعة الانسانية كما اختفى من الفلسفة .

أحد القوانين الطبيعية للكون . . . وهو اكتشاف فريد ما زال للآن يعد مجدا لمن وجده^(١) ، ثم «لوك الذى أبان أن التحليل المضبوط الدقيق للآراء — وذلك باختزالها إلى آراء أكثر قربا من الأصل وأكثر بساطة في التكوين — إنما هو الوسيلة الوحيدة لكي لا نضل السبيل في فوضى الأفكار غير التامة ، التي لاوحدة بينها ولا تحديد فيها ، والتي قدمتها لنا المصادفة بلا نظام وتلقيناها نحن بلا تفكير^(٢)» ، ثم روسو الذى أصبح بفضل مبدأ المساواة الطبيعية بين الناس «وهو المبدأ الذى دافع عنه سدنى بدمه ، والذى أضفى عليه لوك قوة من اسمه .» أقول أصبح بفضل « في عداد الحقائق التي لم يعد سبيل إلى إنكارها ولا إلى محاربتها^(٣) » وكان ذلك العصر في الواقع هو العصر الذى وصل فيه الكتاب السياسيون إلى أن يعرفوا أخيرا حقوق الانسان الحق وإلى أن يستنبطوها من تلك الحقيقة الوحيدة ، وهي أنه كائن حساس قادر على التفكير وعلى اكتساب آراء خلقية .

« ولقد رأوا أن الاحتفاظ بتلك الحقوق هو الغرض الوحيد من اجتماع الناس في جماعات سياسية ، وأن الفن الاجتماعى يجب أن يكون فن الاحتفاظ بتلك الحقوق مع تحقيق المساواة التامة . ولا كان من الضروري أن تخضع الوسائل لضمان حقوق الأفراد لقواعد عامة ، وجب لذلك ألا تكون السلطة في اختيار تلك الوسائل ملكا لأحد اللهم إلا لكثرة الأعضاء في الجماعة . لأن أى فرد لن يستطيع أن يتبع رأيه الخاص في ذلك الاختيار دون أن يخضع الآخر له ، فرغبة الكثرة هي وحدها التي يمكن للجميع قبولها دون مساس بالمساواة^(٤) .

« ويمكن كل شخص أن يتعهد مقدما بالانضمام إلى رأى الكثرة فيصبح رأيا رأيا لكل . ولكنه لا يستطيع أن يضم إلا نفسه فقط . ولا يمكن أن

(١) في نفس المؤلف ص ١٧٥ ، يذكر كوندرسيه اسم دالمبرت إلى جانب اسم نيوتن ، ولو أنه يضمه في مرتبة أدنى منه بكثير ، ودالمبرت هو مكتشف القاعدة التي تسيطر على كل أعمال الانسان .

(٢) نفس المؤلف ص ١٥٥ .

(٣) نفس المؤلف ص ١٥٢ .

(٤) من المهم أن نرى كيف يبعث كوندرسيه روح العقل في مبدأ خضوع الفرد للكثرة فليس في ذلك خضوع الارادة الخاصة للارادة العامة ، وإنما خضوع الرأى الفردى لرأى الكثرة .

يتعهد — حتى نحو تلك الكثرة — إلا بالقدر الذى لا تمس به حقوقه الشخصية المعترف بها .

« تلك هى حقوق الكثرة على الجماعة أو على أفرادها وحدود تلك الحقوق . وذلك أصل الاجماع الذى يلزم الجميع ماتراه الكثرة ؛ وهو إلزام تبطل مشروعيته عند ما ينتهى وجوده بتغير الأفراد . ومما لا شك فيه أن رأى الكثرة فى بعض الأمور كثيراً ما يكون فى جانب الخطأ وضد المصلحة العامة . ولكن للكثرة — حتى فى هذه الحالة — أن تقرر الأمور التى لا يجب أن يرجع فيها رأساً إليها ؛ ولها أن تقرر من تنزل له عن حقها فى إبداء الرأى ، وأن تبين الطريقة الواجب عليهم اتباعها ليصلوا إلى الحقيقة بطريقة أسلم . وليس لها أن تنزل عن إبداء الرأى فى قراراتهم لترى أهى أضرت بالحقوق العامة للأفراد أم لا (١) .

«وهكذا اختفت إزاء هذه المبادئ البسيطة فكرة وجود عقد بين الشعب ورؤسائه ، ذلك العقد الذى لا يلغيه إلا اتفاق متبادل على إلغائه أو خيانة من أحد الطرفين المتعاقدين . كما اختفى أيضاً ذلك الرأى ، الذى يعتبر أقل عبودية ولكنه ليس أقل خطأ من سابقة ، ألا وهو ربط الشعب بالدساتير متى أقرت ، كأن الحق فى تغييرها لم يكن أول الضمانات لسائر الحقوق ، وكأنما تلك المؤسسات تستطيع أن تعيش إلى الأبد ، وهى مؤسسات من صنع الانسان وهو عمل بالضرورة ناقص وقابل للتحسن كلما استنار الناس . وهكذا اضطر القوم إلى ترك السياسة الخادعة الخاطئة التى نسيت أن للناس حقوقاً واحدة بطبيعتهم ، فأرادت حيناً أن تحدد لهم الحقوق على حسب اتساع أراضهم ، أو درجة الحرارة فى بلادهم ، أو صفاتهم الوطنية ، أو ثروة الشعب ، أو درجة تقدم التجارة والصناعة لديهم ؛ وأرادت حيناً آخر أن تقسم تلك الحقوق تقسيماً غير عادل بين طوائف الناس المختلفة وفقاً لأصلهم أو ثروتهم أو مهنتهم ، وخلقت بذلك مصالح متعارضة وقوى متضادة لتقيم بعدئذ بينها توازناً أصبح وجوده ضرورياً بموجب تلك المؤسسات ، ولكنه توازن لا يزيل أثرها الخطر (٢) .

« وهكذا لم يعد يجرؤ أحد على تقسيم الناس إلى سلالتين مختلفتين ،

(١) ومن هنا ضرورة الخضوع لقرار أو لقانون يعتبره المرء خاطئاً أو سيئاً .

(٢) أنا لرى، هنا هو سر ومه تسكم .

إحداهما لتحكم والأخرى لتطيع ، إحداهما لتخدع والأخرى لتُخدع . واضطر القوم الى الاعتراف بأن للجميع الحق في أن يتبينوا مصالحهم ويعرفوا الحقائق جميعا ، وبأنه ليس لأية سلطة — حتى التي أقامها الناس على أنفسهم — أن تحفى عنهم أية حقيقة (١) . »

هذه الصفحة الرائعة التي اقتبسناها آنفاً تلخص تلخيصاً وافياً معتقدات كوندرسيه بل إيمانه الديمقراطي الجمهوري . وليس ذلك إيمان كوندرسيه وحده ، وإنما هو إيمان القرن الثامن عشر بأكمله كما يقول لنا كوندرسيه نفسه ، إيمان ذلك العصر المجيد بين العصور جميعاً « عصر تكون أثناءه في أوروبا طبقة من الرجال وقفوا أنفسهم على متابعة الخرافات إلى معاقلها حيث أداها وحماها رجال الدين والحكومات والمدارس والنقابات القديمة . رجال وضعوا مجدهم في هدم الأخطاء الشعبية ، أكثر مما اهتموا بتوسيع نطاق المعارف الانسانية ، وتلك طريقة لخدمة التقدم الانساني ولو أنها غير مباشرة إلا أنها ليست أقل الطرق فائدة أو أقلها خطراً (٢) . »

كان حب الانسانية وبغض الظلم يملأ نفوس فلاسفة القرن الثامن عشر . ولهذا كونوا « جماعة فوق الأحزاب يربط أعضاؤها رباط قوى ولمكافحة الأخطاء وكل أنواع الاستبداد . ولما كان شعور الصداقة العالمية يجمع بين أفرادها كانوا لذلك يكافحون الظلم حتى وهو ناء عن بلادهم لا يستطيع أن يصيبهم بأذى ، وحتى لو كان وطنهم هو المسمى إلى شعوب أخرى . ويقومون في أوروبا ضد جرائم الجشع التي تدنس شواطئ أمريكا وأفريقيا وآسيا (٣) . »

وأعلنوا « مذهباً جديداً كان جديراً أن يقضى القضاء الأخير على البقية الباقية من الخرافات : ذلك هو مبدأ قابلية تحسن النوع الانساني إلى حد لا نهاية له . وهو مبدأ كان أشهر رسله ورواده هم : تورجو ، بريس ، بريستلي (٤) . »

(١) Essai ص ١٤٩ — ١٥١ .

(٢) نفس المؤلف ص ١٥٠ .

(٣) نفس المؤلف ص ١٦٥ . كان الفلاسفة يكونون جماعة من الكتاب لا تخون رأيها أبداً . ويرى كوندرسيه أن أجدرهم بالذكر هما قولتير وديدرو .

(٤) نفس المؤلف ص ١٦٦ . كان أثر تورجو في كوندرسيه عظيماً جداً ، فقد أخذ عنه آراءه الاقتصادية .

وكان كوندرسيه يضع ذلك المذهب فى العصر العاشر، عصر تطور العقل الانسانى وعصر المستقبل . ولهذا مايسوغه ؛ فان ذلك المذهب ، مذهب التقدم ، هو الذى يعبر خير تعبير عن النظرة الجديدة للتاريخ التى تكلمنا عنها آنفاً ، ألا وهى تفضيل المستقبل على الماضى ، وتفضيل العمل على الميراث ، والعقل على التقاليد .

وهذه النظرة هى التى بدت فى الحركتين العظيمتين : الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية ، وهما اللتان تمثلان أو تحققان — فى رأى كوندرسيه — نصر الفلسفة على الخطأ الشائع ونصرا لحرية على الاستبداد .

ومن المهم أن نرى الطريقة التى يحكم بها كوندرسيه على الدور الذى قامت به كل منهما وعلى أهميتهما التاريخية . فالثورة الأمريكية قد أظهرت للعالم « لأول مرة شعباً عظيماً قد تحرر من أغلاله ، وأقام لنفسه دستوراً وقوانين اعتقد أنها خير ما يوصله إلى السعادة » ، وهو دستور وقوانين « جمهورية أساسها الاعتراف الكامل بحقوق الانسان الطبيعية . » وكان الأمريكيون راضين عن القوانين المدنية والجنائية التى جاءتهم من انجلترا . ولم يكن لديهم نظام ضرائبى فاسد يستحق التغيير ، ولا استبداد إقطاعى ، ولا فروق وراثية ، ولا تقابات غنية قوية ذات امتيازات ، ولا نظام دينى عديم التسامح . ولهذا اقتصروا على إقامة سلطات جديدة بدلا من التى كانت الأمة البريطانية تمارسها لديهم^(١) .

ولهذه الأسباب كانت الثورة الأمريكية أقل كثيراً فيما أحدثته من انقلاب من الثورة الفرنسية التى جاءت نتيجة مباشرة حتمية لها .

« كان على الثورة فى فرنسا أن تهتم بالاقتصاد جميعه وأن تغير كل العلاقات الاجتماعية وأن تنفذ إلى آخر حلقات السلسلة السياسية . . . »^(٢) ولهذا كانت الثورة الفرنسية ثورة حقيقية ، وبعثاً حقيقياً ، وبناءً جديداً للهيكلى السياسى والاجتماعى . ولهذا يرى كوندرسيه أن « المبادئ التى بنى عليها الدستور

(١) نفس المؤلف ص ١٧١ . أما فى فرنسا فقد كانت القوانين المدنية والجنائية غاية فى السوء ، وكانت العدالة زائفة بسبب شراء الوظائف .

(٢) نفس المؤلف ص ١٧١ .

والقوانين في فرنسا أكثر نقاءً ودقة وعمقاً من المبادئ التي ألهمت الأمريكيين
 قد كان تخلصها من آثار المعتقدات الشائعة أعظم ولم تترك المساواة في
 الحقوق مكانها قط لما يدعى المصلحة العامة وما هي في الحقيقة إلا خدعة
 وأقيم مبدأ تحديد السلطات بدلا من ذلك التوازن الذي لا قيمة له والذي طالما
 أعجب به البعض . . . (١) فلا أول مرة وفي أمة عظيمة متفرقة بالضرورة ومنقسمة
 إلى العديد من المجالس المنعزلة ، جرؤ القوم أن يحتفظوا للشعب بحقه في
 السيادة ، وبحقه في ألا يخضع إلا للقوانين التي تصدر بموافقة المباشرة عن
 طريق ممثليه ، والتي لو مست حقوقه أو مصالحه فانه يستطيع تغييرها بما له
 من سيادة (٢) .

وكان لا بد للثورة الفرنسية أن تكون ثورة جذرية (راديكالية) أو هي قد
 نجحت بالفعل في أن تكون كذلك . ويفضل جذريتها هذه كان لها أهمية عظيمة
 جدا في تاريخ الانسانية : فهي تحتم تاريخ التحرير ، وتبدأ تاريخ الحرية . ففي الثورة
 الفرنسية وبالثورة الفرنسية استطاعت الانسانية أو استطاع العقل أن يمتلك زمام
 نفسه تماما . فمنذ ذلك الحين ، أصبح المرء سيّد نفسه ، وسيّد عمله ، وسيّد
 مستقبله ، سيّد المستقبل الذي يعدّه هو ويقرره هو بمحض إرادته وفكره . ولهذا
 كان العصر العاشر من تاريخ الانسانية ، وهو العصر الذي ندخل فيه ، عصر
 تفضيل المستقبل ، أو كما يقول كوندرسيه عصر التقدم الذي ننشده بارادتنا . .
 تقدم فكري وخلقى ، وكوندرسيه لا يفصل أحدهما عن الآخر ، بل هو
 وكل معاصريه يعتقدون أن الفصل بينهما مستحيل ، وأن التقدم الفكري يتضمن
 التقدم الخلقى ويهيء له . ولهذا تراه يرسم لنا صورة مشوقة لعالم متقدم في
 الصناعة والطب والزراعة بفضل تقدم العلوم التي تجدد مناهجها باستمرار
 لتزداد تعمقا في معرفة الحقيقة (٣) عالم عممّ التعليم ووضع للضرائب والتأمينات
 نظاما عادلا ، فتخلص بذلك مما كان فيه من تفاوت اجتماعي أساسه التفاوت في

(١) وكتليمز لروسو لا يرى كوندرسيه تقسيم السلطات ولا يوافق على إعجاب
 مونتسكيو بالدستور الانجليزي .

(٢) نفس المؤلف ص ١٧٢ .

(٣) برهن كوندرسيه على بعد نظر عظيم حينما أعلن أن محصول المنهج العلمي إنما هو شيء
 محدود وأن على العلوم أن تغير مناهجها باستمرار .

الثروات . . . عالم ترى فيه رجالا يدفعهم حب العدالة والحقيقة إلى أن يحملوا مشاعل النور إلى الشعوب التي ما زالت غارقة في ظلمات البربرية (١) . . . عالم يختفى منه الرقّ أولاً ، ثم ينعدم فيه استغلال شعوب المستعمرات ؛ لأن الناس سيجدون في الشعوب الملونة إخوانا لهم ورجالاً لهم حقوق مثل حقوقهم . . . وعندئذ ، لن تشرق الشمس في ذلك العالم الرخيّ المسالم السعيد إلا على رجال أحرار لا يعترفون بسيادة عليهم اللهم إلا سيادة العقل . . . أما المستعبدون والعبيد ، ورجال الدين وآلاتهم من منافقين وأغبياء فلن ، يظهروا بعدئذ إلا في التاريخ وإلا على خشبات المسارح . . . ولن يهتم أحد بهم إلا ليرثي لضحاياهم وللمخدوعين فيهم ، أو ليتحدث في روع عن جرمهم ليبقى الناس على حذر وليعلمهم كيف يعرفون ويحمدون بقوة العقل بواكير ما قد يظهر من جرائم التطير والاستبداد ، ذلك إذا اجتأت على الظهور مرة أخرى (٢) .

الكسندر كوايه

[يتبع]

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

(١) شعوب المستعمرات وشعوب آسيا وغرب أوربا .

(٢) *Essai* ص ٢١٠ .

من فلسطين إلى السودان

جولة موظف بريطاني

قد لا تكون الكتب التي تبحث في السياسة أحب الكتب إلى ، وقد لا أراها تجتذني وهي معروضة لدى بائعي الكتب ، كما تجتذني كتب الفنون والتاريخ . ولكن هذا الكتاب الذي أعرض له اليوم استرعى نظري ، لا بعنوانه فعنوانه الذي هو «جولة الواجب»^(١) لا أجد فيه جاذباً خاصاً ، ولكنه استرعى نظري باسم مؤلفه سير ستيوارت سيمز . فهذا الاسم قد لا يكون غريباً على وإن كنت نسيت أمره لأول وهلة ، ولكني مالبثت أن تذكرت أنه حاكم السودان في عهد قريب . وكلمة السودان في هذه الأيام تثير شعور كل مصري ، ولعلها تثير اهتمام غيره من العرب . لذلك لم يكن عجباً أن أخذت الكتاب في لهفة وعكفت على قراءته .

ليس للكتاب أهمية خاصة ؛ فهو لا يمتاز بأناقة في الأسلوب ، ولا هو أخاذ بحسن السرد ، ولا بنظامه في ترتيب الموضوعات . وإنما خير ما يمتاز به الكتاب صراحة صاحبه ؛ فالرجل ، كما تستبين من كتابه ضيق الأفق في السياسة ، لا يسائل فيما يؤمر أن ينفذه في عمله ، ولكنه واسع الحيلة في تنفيذ هذه السياسة ، يعرف كيف يصل إلى غرضه ، يساعده على ذلك اعتدال في طبعه ، وصراحته أو مظهر صراحته ؛ فهو يرى في هذه السياسة واجباً يؤديه ، لذلك أسمى كتابه «جولة الواجب» .

كانت حياة ستيوارت سيمز سلسلة منتظمة من أداء الواجب ، منذ التحق بخدمة حكومته ضابطاً صغيراً بالهند في أول هذا القرن ، إلى أن ترك هذه الخدمة حاكماً للسودان في سنة ١٩٤٠ . ويظهر أن حكومته عرفت فيه الاخلاص للواجب ، كما عرفت فيه خير من ينفذ سياسة من السياسات بدون مساءلة أو

(١) *Tour of Duty*, by Sir Stewart Symes. Collins, London, 1946.

تردد ، فصار ينتقل من عمل إلى عمل ويترقى من عمل أصغر إلى عمل أهم ، حتى استطاع أن يشغل عمليْن نرى أنهما في المكان الأول من الأهمية : أولها عمله بفلسطين بين سنتي ١٩٢٠ ، ١٩٢٨ ، حين كان حاكماً لا يحدى المقاطعات في السنوات الأربع الأولى ، ثم سكرتيراً عاماً بالقدس في السنوات الأربع الأخيرة . أما العمل الثاني الذي له أهمية كبيرة فهو منصبه حاكماً للسودان بين سنتي ١٩٣٤ ، ١٩٤٠ ، ثم اعتزل العمل ، وظل ست سنوات في عزله حتى أخرج لنا كتابه ، الذي أردنا أن نعرض بعض صوره ، ناقلين آراءه في هذا ، وفي بعض الأحيان عباراته نفسها .

في هذا الكتاب نجد صوراً عن حياته الأولى في السودان وفي غير السودان كبلاد الهند ومصر . وفيه نرى ذكراً لكتشنر وأيامه في السودان ، وكرومر وونجت وسير غورست الذي خلف كرومر ممثلاً لبلاده في مصر . ونجد وصفاً لمصر في عهد وزارة مصطفى باشا فهمي ، ووصفاً لمن فيها من شخصيات بارزة . ولكنه في ذلك الحين كان أقرب إلى المشاهد منه إلى الرجل الذي يشترك في تسير الأمور . أما في فلسطين ، لا سيما في الفترة التي شغل فيها منصب السكرتير العام الإداري ، فقد كان مسئولاً عن تنفيذ سياسة مرسومة ، وكان هو يعلم ذلك حق العلم ، ويعلم أن حكومة تلك البلاد تمثل في صورة مصغرة جميع المشاكل التي تعترض بلاد الشرق والغرب معاً . ولقد عهد إليه بين سنتي ١٩٢٠ ، ١٩٢٥ ؛ في إدارة مقاطعة تمتد من الخليل إلى سمره . ولم يكن هذا الإقليم معقد المشاكل مثل إقليم القدس ويافا ، على أن فيه ميناء كبيراً ، هو حيفا ، وبلدة نامية هي نابلس ، وأهله مزيج يغلب فيه المسلمون ، وقد قامت بينهم الحركة الصهيونية فرأوا فيها نذيراً ، وتغلّبت على ما عداها من اختلافات محلية .

وكان الموظفون الإداريون على الغالب غير خبراء بأعمالهم ولكن كانت عند كل منهم الرغبة في العمل . وكانوا يتلقون تثقيفهم على يد الجمهور ، وعلى يد رؤسائهم .

وكان المندوب السامي عندئذ سير صموئيل هور وهو إسرائيلي ، وصادف أن النائب العام كان إسرائيلياً أيضاً ؛ فكان العرب يشكون في عدم تحيز الحكومة . وقد حدث في ذلك الوقت أن أريد عقد اجتماع للغرف التجارية في حيفا يرأسه المندوب السامي ، ورأى العرب مقاطعة هذا الاجتماع ، فالتجأ المؤلف إلى أحد

أصدقائه من العرب المتحمسين ، وعمل على إقناعه حتى وافق على أن يحمل زملاءه على الحضور ، ولم يفعل ذلك إلا رغبة في إرضاء صديقه .

وانتهت مدة خدمة سير صموئيل هور ، كما تقل عندئذ ألبرت كليتون الذي كان سكرتيراً عاماً لحكومة فلسطين ، فاذا بسيمز يعين في مكانه ، ولم يكن ينتظر هذا التعيين . وظل ثلاثة أشهر يحكم البلاد ، إلى أن حضر المندوب السامى الجديد ، وهو فيلد مارشال لورد بلرومر . وكان يومئذ في السبعين من عمره ، يدل مظهره على النشاط والعزيمة ، وفي عينيه بريق أشبه بريق الشباب ، وكان يسأل عن الأمور ، ولكنه على غير عادة الحكام كان يصغى إلى الجواب في اهتمام .

وقد أراد سيمز أن يتركه وشأنه حتى يصدر حكمه على عمله الجديد . فاذا به بعد أيام شاقة يقول إن هذه البلاد لا تخلو مما يسترعى النظر . وكان سيمز قد انتدب ليحضر اجتماع جمعية الأمم ليتكلم عن الانتداب . وجاءت وفود العرب واليهود يقابلون المندوب السامى ، كل يدلى بآرائه ، فاذا بالمندوب يقول لسيمز بعد مقابلة هذه الوفود إن كلا منهم ينتظر أن تمثل آراؤه المعارضة في جنيف . ولقد ذهب سيمز إلى جنيف ثم لندن ثم عاد إلى فلسطين ، ووثق أن سياسة الحكومة الانجليزية قد رسمت ؛ فالحلم الذى بناه العرب بإنشاء إمبراطورية ، والفكرة الكبيرة عن التآلف بين الدول العربية ، بحيث تكون كل منها مستقلة في ذاتها ولكنها متحدة في سياستها ، لم تستطع أن تعيش إلى جانب الحقائق الخشنة للسياسة التي تنتهجها الدول العظمى ، وللخلافات بين العرب وعدم التنظيم . وكذلك ذهب مع الفكرة الكبيرة ، ذلك الأمل في أن يتقدم أمير صهيوني مليء الجيب بالأموال ليخطب فلسطين عروساً له ، ويدخل في خدمة مجموعة كبيرة من الدول العربية أو السامية . ولقد عرف الحلفاء وبريطانيا خاصة في أثناء الحرب ، كيف يتقاضون من اليهود مساعدة مكنتهم من الاستيلاء على فلسطين . وتقدم العالم اليهودى يطلب تحقيق الوعد في الدولة الجديدة ، ولكن بريطانيا أمة من التجار الحذرين لها آراء ديمقراطية ، ولها إمبراطورية تحتوى على ملايين من المسلمين ، فأخذت تعالج الأمر بالتجارب والمناقشات والمفاوضات دون أن تصل إلى نتيجة ، ولم يبق أمامها إلا الوقوف والانتظار .

وقد ظن سيمز أن شكوى العرب قائمة من مطالبهم وحاجاتهم الاقتصادية ، ولذلك أخذ يدرس نظماً للإصلاح ، وتحدث مع زعماء كل من العرب واليهود ، فوصل إلى اتفاق غير مكتوب بينهما بأن يلزم كل فريق جانب السكينة . وقد وفى الفريقان بهذا العهد طوال المدة التى قضاها لورد بلومر حاكماً على فلسطين ، وبهذا الاتفاق استطاع أن يسرح رجال الشرطة من البريطانيين ، وأن يوفر الكثير من النفقات .

وقد روى سيمز حادثاً ذا مغزى عندما كان مديراً لأحدى المقاطعات ، يمكن أن يفهم منه مركز الموظفين البريطانيين ، وما تعهد إليهم السياسة البريطانية من عمل . ذلك أنه دعى إلى اجتماع مع غيره من المديرين لمقابلة سير صموئيل هور المندوب السامى ، وكان موضوع بحث الاجتماع ثورة خواطر العرب من أجل الهجرة اليهودية ، وما أدى إليه ذلك من وقف الهجرة مؤقتاً مراعاة لعواطف العرب من جهة ، وحرصاً على سلامة المهاجرين من جهة أخرى ، وكانت مظاهر السخط فى تلك الأثناء قد هدأت ، ولكن العداوات قائمة فى القلوب . وكانت المسألة التى طرحت للبحث هى : هل من الممكن استئناف قبول المهاجرين بعد وقف الهجرة مؤقتاً ؟ وكان من رأى رجال الاستعلامات الذين حضروا هذا الاجتماع أن يظل المنع قائماً . ولما سئل سيمز عن رأيه ذكر أن هذا الاجراء هو إجراء ضرورة وانتهاز للفرصة ، وأنه بهذا الوضع لا يليق بالحكومة أن تستمر فيه . ووافق المندوب السامى على رأيه ، وسأله بصفته مديراً لمقاطعة يدخل فيها ميناء حيفا الذى هو أحد الميناءين الهامين فى البلاد ، هل هو على استعداد لتحمل مسئولية قبول المهاجرين فى الحال وفتح الميناء لهم ؟ وكانت العيون ترمقه فى شئ من الشك عندما أجاب بالإيجاب . ولكنه اشترط شرطين : أن يخبر بمجئ المهاجرين قبل أسبوعين من وصولهم ، وأن تطلق يده فى إخبار أهل المدينة بهذا الأمر قبل وصولهم .

وعاد إلى منصبه فى حيفا . وتناثرت أخبار هذا الاجتماع ، فجاء زعماء العرب وجاء زعماء اليهود يستطلعون الخبر . فلم يتردد فى الافضاء إليهم بالحقيقة ، وطلب إليهم أن يعملوا لهدوء أنصارهم قبل حدوث أية هجرة ، وأنه سيطلعهم على الحقيقة إذا ما جاءت أنباء عن مهاجرين .

ولكن حدث أمر لم يكن يتوقعه ؛ إذ دق بعد ذلك بأيام جرس التليفون

من القدس في داره في ساعة متأخرة من الليل ، وأبلغ في لهجة الاعتذار ، أنه وصلت سفينة تحمل بضع مئات من المهاجرين الذي طافوا البحر الأبيض بأجمعه ، وحاولوا أن ينزلوا مرتين في يافا فرفضوا ، وأن بينهم مرضى وعجزة ، وقد صرح لهم من قبل بدخول فلسطين ، وحال دون دخولهم منع الهجرة المؤقت ، وقيل له إن شروطه معروفة ، ولكن هل يستطيع في سبيل الإنسانية أن يقبلهم إذ أن السفينة ستدخل بهم ميناء حيفا بعد ست وثلاثين ساعة ؟ طلب مهلة نصف ساعة يفكر فيها ، ثم وافق على هذا الطلب على أن يرسل إليه كتيبة من الفرسان البريطانيين . وفي الصباح التالي أرسل إلى زعماء العرب مسلمين ومسيحيين ، وأطلعهم على الخبر في صراحة ، ولقد حافظوا على سكينتهم ومجاملتهم ، وإن أخبروه علانية بأن هذا الخبر سيؤدي إلى اضطراب كبير ؛ فالناس ثائروا الخواطر لمجرد الإشاعة ، فاذا علموا بأن حيفا ستقبل مهاجرين رفضهم الوطنيون في يافا ، فإن ذلك مما يبلغ بالأمور درجة الغليان ، وقد يؤدي ذلك إلى الاضطراب وإراقة الدماء ، وأبى الزعماء أن يتعهدوا بأي شيء يتحملون تبعته في هذا الأمر .

فأفهمهم سيمز أنه يعلم ما يساورهم من قلق ، وقال لهم إن تبعة الاحتفاظ بالأمن هي على كل حال من واجبات الحكومة ، وكل ما يرغب إليهم فيه هو بذل مجهود في هذا الاتجاه بقدر ما يستطيعون .

وقابل سيمز بعد ذلك وفداً من اليهود ، ومن الطبيعي أنهم وافقوا على غرضه ولكنهم كانوا يرهبون ما قد يتعرضون له من أخطار ، فهل يستطيع أن يضمن السلامة ، لا للمهاجرين وحدهم بل للعدد الكبير من السكان اليهود في أرواحهم وأموالهم ؟ وأجاب بأنه لا يضمن شيئاً ، ولكنه سيبدل كل جهد مستطاع . وطلب إليهم أن يحتفظوا بمظهر السكينة بالأيغلقوا حوانيتهم ، وأن يستمروا في أعمالهم مهما يحدث من الأمور .

كانت مشارب القهوة في اليوم التالي ، وإلى ساعة متأخرة من الليل ، تطن بالحديث بين غاضب وخائف . وأبدى قائد الشرطة مخاوفه من تجمهر الناس . فأمره المدير بأن يعمل ما في وسعه لحفظ النظام ، إذ هو لا يرغب في الالتجاء إلى معاونة الجنود البريطانيين إلا عند الضرورة القصوى .

وفي اليوم الموعد امتطى المدير جواداً ، وسار في شوارع المدينة الضيقة ومعه تابع ، ورأى فيها جماعات من الناس كالعادة ، ورأى الحوانيت تفتح في شيء

من التردد ، ورأى الهدوء مستتباً أكثر مما يجب . وقد اخترق بعض شوارع أحياء المسلمين فظهرت على أهلها الدهشة ، وكانوا يردون على تحيته في شئ من التردد . وفي ساحة صغيرة وجد جماعة من الرجال الأشداء يتناقشون في عنف ، وفي أيديهم هراوات ثقيلة ، وحدث حينئذ أن تجاوب صوت يشبه عدة طلقات ، فارتعد أصحاب الحوانيت وبدأ على وجوههم القلق ، ولم يكن ذلك إلا صوت دراجة ميكانيكية .

عاد المدير إلى مكتبه ، فأخبره كاتم أسرارهِ أن السفينة تقترب من الميناء ، وأنه اتخذت الاحتياطات من رجال الشرطة ، وأن الناس يتجمعون غاضبين حول خطباء يلقون خطباً نارية ، وأنه حدثت بعض حوادث ، وفي الوقت ذاته أعلن بوجود زعيم ديني كبير من المسيحيين جاء لمقابلته ، وهو يرغب أن يراه في الحال . كان هذا الزعيم ، على وصف المدير ، رجلاً مهيب الطلعة ، يقال إن صورته طبعت على بطاقات وبيعت في فرنسا ، لجمع أموال للأعمال الخيرية ، فلقيت نجاحاً كبيراً ، لما فيها من شبه للمسيح كما يصوره المصورون في القرون الوسطى ، وكان يلعب دوراً هاماً في الأمور المحلية ، وكان سياسياً متحمساً ، وفي بعض الأوقات يبلغ به التحمس أن يصير خطراً .

قابلهُ المدير ، وأخذ الزعيم الديني يتكلم في لغة عربية بليغة لم يكن المدير يفهمها حق الفهم ، فأخذ الزعيم يشرح رأيه بلغة فرنسية طليقة ، وكان يطلب إلى المدير حرصاً على مصلحة المدير نفسه ، ومصلحة العرب واليهود وسائر العالم ، أن يعدل عن السماح للمهاجرين بالنزول من السفينة إلى البر ، وأن يردهم من حيث أتوا . وظل يشرح رأيه ويبدى ويعيد في أقواله دون ملل ، ولم يقطع تدفق الحديث حتى صوت التليفون وهو يدعو المدير ، وحتى حديث المدير فيه . وقد استمر في بيانه بالرغم من أن المدير كان بين آن وآخر يصغى إلى محادثة تليفونية . وبعد آخر محادثة نظر المدير إلى ساعته ، فإذا الزعيم قد مضى ساعتين في شرحه . وعندئذ وقف المدير معذراً لكي ينهى المقابلة ، وقال الزعيم في رقة إنه يرجو أن لا يذهب توسطه هباء ، وأن أية محاولة لنزول المهاجرين ستكون ذات شأن خطير . فأخبره المدير في وداعة وصراحة ، أن المهاجرين قد نقلوا من السفينة إلى معسكر يقيمون فيه ، وأن قائد الشرطة حين أبلغه هذا الخبر تليفونياً قال له إن ذلك جرى في سكون حتى إنه لم ينبح كلب واحد .

وهكذا نرى صراحة المؤلف في وصف الدور الذي كان يقوم به في فلسطين ،
ويقوم به مئات من أمثاله من الموظفين البريطانيين حتى اليوم .

عندما عين سير ستيوارت سيمز حاكماً للسودان المصري الانجليزي في
سنة ١٩٣٤ ، لم يكن السودان غريباً عليه ، فقد عرفه وخدم فيه في مبدأ حياته
العملية ، وعاشر فيه كتشنر وونجت ، وخبر السياسة التي كان يكنها أولئك
البريطانيون الذين سلمت إليهم إدارة البلاد بعد أن أعيد فتحها ، ليشلوا مضر
وبريطانيا في تلك الأرجاء ، على أن يكونوا مخلصين لما أسموه بالحكم الثنائي .
وهو رجل ، كما أشرنا من قبل ، يؤمن بالسياسة التي وضعتها حكومته ، وينفذها
في دقة وإخلاص . وهو كذلك رجل صريح ، فهو يتكلم في بساطة متخذاً وجهة
نظر بريطانية صرفة ، لا يناقش شيئاً ولا يجادل شيئاً .

ولقد قابل تعيينه حاكماً بالسودان بالسرور ، لأنه كان يعرف دخائل
الإدارة فيه ، ويعرف الرجال الذين سيعملون معه ، وهم على قوله رجال من
خارجي المدارس العامة مثله ، أي ليسوا من الجامعيين ، ولكنهم قديرون
في الأعمال الإدارية ، يرمون إلى الغرض فلا يخطئون إصابته . ويرى أنهم نجحوا
في نقل السودان من حالة التوحش إلى المدنية ، وأنهم أوجدوا فيه الرخاء ، حتى
صار الأجني يستطيع السياحة في أرجاء السودان دون أن يحمل سلاحاً ، وينتقل
في البلاد فيقابل من الأهالي المحليين مقابلة الصديق ، وأن الانجليزي بنوع
خاص يعتبر ضيفاً كريماً ، وأنه لا توجد في السودان حوائل اللون ؛ فالسودانيون
والانجليز كل يحتفظ بعاداته وعقائده دون أن يقوم بينهم خلاف على حق التقدم .
والسودان مساحة واسعة ضخمة ، يسود فيها جو مرهق ، ويسكنه ستة
ملايين من الناس .

وقد يستطيع المرء أن يكون فكرة عن مساحته واختلاف سكانه ، إذا قام
برحلة جوية فوق الملايين من الأميال المربعة التي تتألف منها مساحته . فالسائح
الذي يسافر جنوباً من خط العرض الثاني والعشرين إلى خط العرض الرابع
فوق خط الاستواء ، يستطيع أن يرى مجرى النيل وفروعه الكبيرة ، فيرى
شريطاً ضيقاً من خضرة ماء النهر تتعرج فيما يبدو صحراء لا نهاية لها ، حتى خط
العرض الثالث عشر ، ثم يدخل هذا الشريط إلى أرض تغطيها الأحراش المنتشرة

ثم يمر بعد ذلك على مستنقعات منبسطة ، وهي المنطقة التي تعرف بمنطقة السدود . ثم يدخل المديرية الاستوائية . ويمكن هذا السائح أن يتعرف الأحوال إذا نزل في عدة أماكن ؛ فيرى أن السكان الذين يعرفون بالجنس البربري عند وادي حلفا يزداد لون بشرتهم سواداً حيث يرى الزراع فيما يجاور الخرطوم . وإلى جانبها عند أم درمان يرى خليطاً من الأجناس التي تمثل شمال إفريقية ، تعدادها مائة ألف رجل وامرأة . وفي الملا كال على بعد خمسمائة ميل إلى الجنوب ، يرى نوعاً من سكان النيل ، نحيلاً عارى الجسد . وهؤلاء يحيون حياة بسيطة ، ولهم عادات لا يألّفها سكان شمال السودان ، وبعد ذلك تأتي مساحة تسكنها قبائل زراعية لغتها تشبه لغة بعض سكان شرق إفريقية ووسطها .

والسائح الذي يسافر من الشرق إلى الغرب ، أى من البحر الأحمر إلى إفريقية الفرنسية الاستوائية ، وهي سياحة ألف وخمسمائة ميل ، يجد أيضاً مثل هذا التنوع . فهو يبتدىء من ميناء بورسودان الحديث إلى التلال التي تسكنها قبائل البجا منذ آلاف السنين ، ثم يصل إلى كردفان وما فيها من أهل التلال الوثنيين الذين صاروا الآن من زراع القطن . ثم يصل إلى دارفور التي كانت سنة ١٩١٦ ولاية وطنية ، وقد احتفظت إلى الآن ، بعد أن صارت تابعة لحكومة السودان ، بحياتها الخاصة ؛ فتجد الجمالة في الشمال والبقارة في الجنوب ، ولا يزال لما ملوكها وفرسانها الذين يلبسون الدروع في الاحتفالات ويمتطون الجياد المسومة . وهو يقول إنه بالرغم من هذا الاختلاف في سكان السودان أتيح للسودان فرصة أمن وهدوء بعد القضاء على حكم الدراويش في سنة ١٨٩٨ ، وكان الفضل فيها للضباط الحريين من البريطانيين ؛ يعاونهم زملاء مصريون قديرون . وكان عملهم في الأيام الأولى ثقيلاً جداً ، وكان مفتاح هذه السياسة الابتعاد عن المركزية ، واستخدام القوى الأهلية في إدارة السودان . واعترف في هذا النظام بالأقسام التاريخية للبلاد ، وبقوة العلاقات التقليدية ، مما مكن من إيجاد هيئات أهلية تتعاون في النهضة الاقتصادية . وقد أريد قيام فريق من الأهالي بالاشتراك في الحكم لكي تنمو الهيئات التي تؤدي للحكم الذاتي . ولا ريب أن الحالة كانت تحتاج في بادئ الأمر إلى أن يحال بين الأهالي الحاكمين وسوء استعمال سلطتهم . ولذلك كان الموظفون السياسيون حذرين كل الحذر ، وهم يراقبون انتقال النظم التي تقوم على تقاليد القبيلة إلى نظم حديثة .

ومما ساعد على الرخاء أنه أنفق مالا يقل على عشرين مليوناً من الجنيهات على الأعمال النافعة . وتقوم مصر بالنفقات الأساسية ، أما القروض السودانية التي تمت أخيراً فكانت بضمان الخزينة البريطانية .

على أن مشا كل السودان ليست بالقليلة ؛ فهو مساحة واسعة يسكنها عدد قليل من السكان موزعون . والبلد زراعى ، ولكن كثيراً من أراضيه غير خصب والأمطار غير موزعة توزيعاً حسناً ، وهي خفيفة في مناطق عديدة . وتقوم ثروة السودان على التجارة الصادرة في منتجات أولية تختلف أثمانها اختلافاً بيناً بين سنة وأخرى حسب الانتاج المحلى والأسعار العالمية . أما المنتجات المعدنية فقليلة جداً . وتختلف الأحوال العامة في شمال السودان عنها في الجنوب ؛ ففي الشمال تعتبر اللغة العربية هي اللغة المعروفة من الجميع ، والآراء الاجتماعية والثقافية العربية هي معروفة لدى الجميع . والسكان من مسلمين ومتعربين ، الذين يعيشون إلى شمال خط العرض الثانى عشر ، تطل نوافذهم السياسية على مصر والبحر الأبيض ، وتطل من الشرق على منبع دينهم . ولكن إلى الجنوب من ذلك الخط نجد خليطاً من القبائل لها لغات وعادات مختلفة ، لا يربطها رابط عاطفى غير الحاجة الأولية إلى الطعام والنسل والدفاع .

وقد أخذ في تنظيم هذه الجماعات الجنوبية ، وهذا هو الغرض مما سمي بسياسة الجنوب ؛ فهي سياسة تعترف بأن الجنوب إفريقى ينتمى كلية إلى الجنس الأسود . ويقول سير سيمز إن من المشاكل التى تقوم في السودان مشكلة الطبقة المتعلمة . وقد حرصت الادارة على ألا يزيد عدد المتعلمين تعليماً كتابياً عما تحتاج إليه الأعمال العامة . ومع ذلك فإن جميع الوظائف الصغيرة يشغلها سودانيون . أما الوظائف الكبيرة التى تحتاج إلى تعليم ففى فان عدد السودانيين فيها قليل جداً ، ولكن ظهر في ميدان العمل أخيراً عدد من ذوى المؤهلات الطبية والقانونية من السودانيين ، وهذا فال حسن للمستقبل .

ولم يقترح سير سيمز في أثناء حكمه إجراء أية تعديلات دستورية . وهو يرى أن الوصاية البريطانية ضرورية للاحتفاظ بمستوى الخدمات العامة ، ولكن قد يمكن السير خطوات نحو الاستقلال الذاتى ، وحتى في شمال السودان يجب أن يمضى بعض الوقت قبل إيجاد المنشآت النيابية لحكومة مسئولة .

وهناك فضلاً عن العقبات المحلية اعتبار آخر يجب مراعاته ، وهو حقوق

ومصالح شريك ثالث هو مصر. فان هذا الشريان القديم الذى هو نهر النيل ، يؤيد ويربط حظوظ ثلاثة عناصر متباينة من الجنس البشرى ، وهو ذلك الخليط من السكان الذين يعيشون فى جنوب السودان وأغلبهم وثنىون ، ثم العرب المسلمون فى شمال السودان ، ثم فلاحو الصعيد والدلتا . ولكل فريق من هذه العناصر مصلحة قائمة فى النهر . ولللاحين الأسبقية فى القدم وفى الأهمية المادية والسياسية . وهذا كان الباعث الأساسى الذى أدى إلى التدخل الحربى المصرى فى السودان فى أوائل القرن التاسع عشر ، ثم إعادة فتح السودان بالجيش المصرى البريطانى فى نهاية ذلك القرن . وهذا هو الذى دعا إلى تأليف الحكم الثنائى . ولقد أدى الاضطراب الوطنى فى مصر إلى إخراج الجيش المصرى منه ، وإحلال قوة الدفاع السودانية محله ، وعزل طائفة من الموظفين والضباط المصريين . ولكن هذه الحوادث أثارت فى نفوس المصريين تاراً مشبوبة . وظلت المسألة السودانية جرحاً لا يندمل بين مصر وبريطانيا ، وظل النفوذ المصرى مبعداً عن السودان مدة عشر سنوات أو أكثر .

ثم حدث الاعتداء الايطالى على الحبشة ، وهدد المحور سلامة البحر الأبيض والعالم ، فخلق ذلك موقفاً جديداً أرغم أشد الوطنيين المصريين تحمساً ، بزعامة النحاس باشا الرشيدة ، أن يعيدوا النظر فى موقفهم .

ومع ذلك فمشكلة العلاقات بين مصر والسودان ، لا سيما المسلمين من سكانه فى الشمال ، لا تزال وستبقى مشكلة شائكة . ولا يمكن الوطنى المصرى فى اهتمامه بمسائل مياه النيل والعلاقات الدينية مع السودان أن يقلع عن اهتمامه بمستقبل تلك البلاد ، ولا يمكن فى أى ظرف أن تقبل حكومة فى السودان تكون غير صديقة أو غير بادية الكفاية .

ولعل الخطر فى السير بسفينة الإدارة فى السودان فى رأى مؤلف الكتاب ، هو ألا يقدر البريطانيون الطبيعة المعقدة للمشاكل السياسية فى السودان ، وألا يقدروا روح الوطنية المصرية ، وألا يقدروا الروح الوطنية فى شمال السودان ، فبين هذه الصخور المعترضة يجب أن تسير السفينة . وفى رأيه أن خير حكمة تنطبق على حالة السودان ، هو العمل بقول القائل : العجلة من الشيطان .

على قيثارة الحياة

اللحن الأخير

[هأنا أعزف لحنى وهو اللحن الأخير]

الشاعر الحائر

لست أدري أيها القلب أبكى أم أغنى
فأنا أقضى حياتي بين يأس وتمنٍّ
تملأ الأفراحُ كأسى ويُريق الكأسُ حزنى
عَجَبْتُ حالى مع الدنيا وما أغربَ شأنى

أشتهى الموت على رغمى وأشتاق الحياة
ويهز الشك قلبي ثم أفنى فى الصلاة
إنه اليأس الذى يغمر أيامى دُجَاه
إنه الحرمان مما تفتن القلب رؤاه

آه لو مرت حياتي نسمة تسرى رُخَاء
آه لو عشت بقلبي كيفاً شئتُ وشاء
لملأت الكون شدواً وهتافاً وغناء
وملأت العمر أفراحاً وأحلاماً وضاء

اه لكنى شريد وغريب فى حياى
ماتت الأفراح فى قلبى ، فماتت أغنياى
وطغى اليأس على عمرى فغشى أمنياى
فتعلت من الدنيا بطيف الذكريات

يا حياى إنتى وحدى على الدنيا شريد
عذب الحرمان أيامى ولكنى أريد
وأذلّ السجن قلبى وطوت روحى القيود
من أنا يأبها الدهر ويا هذا الوجود

أنا طيف يقطع الأيام حيران شقيا
أستر الحزن وأخفى دمع عيني يديا
وشعاع الشمس يؤذنى ويغشى مقلتي
ليتنى ما كنت طيفا ! ليتنى ما كنت حيا

أنا قيثارة أنغام فمالى لا أغنى
عبث اليأس بأوتارى وأنغامى وفنى
أيها اليأس ألا تذهب بالأحزان عنى
إنتى ألقيت آمالى فخذها . . . ثم دعنى

أنا لحن وإله الأتات مشبوب البكاء
جاء من قيثارة الله إلى هذا الفضاء
هو فى الفجر حنين وأنين فى المساء
ليتنى عدت لقيشارك يا رب السماء

أنا قلبٌ حائر الأشواق في دنيا الغواني
 يشتهى قلباً عميق الحب فيّاض الحنان
 يصطفيه بهجة العمر وأفراح الزمان
 ويناجيه بسر الحب في ظل التداين

أنا روحٌ هائم بين عيون ونهود
 حالم بالنشوة الكبرى من الحب الفريد
 إنها إشراقة العمر وإشعاع الوجود
 ليها تحرق روي ثم أحياء من جديد

في دمي شوق إلى الحب وفي قلبي حنين
 وبأيامي صبايات وفي عمري فتون
 مجنٌ قلبي بالهوى العذري والحب جنون
 وأنا المحروم أيامي شكاة وأنسين

أيها الروح الذي أبحث عنه في زمان
 أيها الروح الذي يدعوه روي وكيان
 ليت شعري يا حبيبي أنت في أي مكان
 أقرب من حياتي أم بعيد كالأمان

أنت لا تعلم ما لي من شجون وعذاب
 أنت لا تصغي لأنثاتي من القلب المذاب
 أنت لا تدرك أني حائر فوق اليباب
 أنت لا تعرف أني ظامي بين السراب

إننى أصبحت أحياء فى زمانى مستطارا
تأثر الأحزان ليلا حائر القلب نهرا
ذاهل اللب اصطبارا ذاهب الفكر انتظارا
لا أرى إلا خيالاً وأوهامى حيارى

أنا قد طوّفت فى الدنيا وفى كَفِّ كَأْسِي
أطلب الرّىّ لروحى—وهى ظمأى—ولنفسى
وأغنى لحن أشواقى وتغريدة حسى
ثم ماذا؟ . . . هأنا عدت لأحزاني ويأسى

أنت يا قلبى أما يكفيك شجوى وانتحالى
أنت يا قلبى أما يكفيك يأسى واغترابى
هأنا أدفن أحلامى فى هذا التراب
فعزاء يا حياتى وعزاء يا شبابى

يا فؤادى إنما الحب سراب فى حىاتى
يتراءى دافق الأمواج رُحب الجنبات
فاذا سرت إليه راح يسرى فى الفلاة
واللظى يُحرق روحى والضحى يقتل ذاتى

خلّنى وابحث عن الحب إذا رمت المحالا
واطلب الظلّ من الرمضاء واستسق الرمالا
فأنا ودّعت أوهامى وشيعة الخيالا
وأنا جافيت آمالى نورا وظلالا

لن ترانى أشتى الغيد وأشتاق العذارى
لن ترانى أقطع العمر حيناً وادكاراً
سوف أحيا مثلما يحيا غدير فى الصحارى
رفرف الطير عليه ساعة . . . ثم توارى

لا تحدثنى عن الماضى الذى ولى وضاعا
ذهب الماضى وما نملك للماضى ارتجاعا
فدع الأيام يذهبن من العمر سراعاً
وكفانا أيها القلب حيناً والتمنا

نحن ضيعنا الليالى فى الأمان والخيال
وتركنا النور يا قلبى وهمنا فى الظلال
وغفونا فرأينا الكون فى أبهى مثال
ثم لما أن صحنونا لم نجد غير الرمال

أيها اللائم فى يأسى وشجوى وانتحابى
لا تلمنى حين أبكى . . . إتنى أبكى شبابى
لا تلمنى حين أشكو . . . إتنى أشكو لما بى
أنت لا تعرف أسرارى ولا تدرى مصابى

محنتى أنى تغرّبت عن الدنيا بقلبى
محنتى أنى ظمآن ولا ماء بقربى
محنتى أنى أريد الحب . . . لكن أى حب
محنتى أنى نداء لم يجسد سمعاً يلسبى

لو قضيتُ العمر أبكى ما شفى نفسى البكاء
إنما عمرى قضاء فيه أيامى هباء
لم يعد يخدعنى الوهم و يُغوينى الرجاء
وهمومى ليس يجدى الصبر عنها والعزاء

هأنا أُمسك قيثارى ولى قلبٌ كبير
هأنا أعزف لحنى وهو الحن الأخير
إنه رعدة غصن سوف تطويه الدَّبور
إنه أنات محزون ستخفيه القبور

ابراهيم محمد نجا

LES ORIGINES DE L'EXISTENTIALISME

ROGER ARNALDEZ

أصول الوجودية

الوجودية بالمعنى الخاص لهذا اللفظ تدل على فلسفة للوجود . وإذا كان هذا التعريف المشتق من اللفظ بعيداً عن توضيح ما تنطوي عليه ، فإن له على الأقل ميزة ، وهي أنه يذكر بتمييز أساس يعتمد عليه كل تاريخ الحركة الفكرية في الغرب ، وهو التمييز بين الماهية والوجود . ونرجو أن نتمكن على ضوءه من أن نرسم حدوداً للحركة الفكرية موضوع دراستنا .

والوجودية منتهى ما بلغتة الحكمة المعاصرة . على أن التفكير في الوجود ليس حديث العهد ، ولا يرجع إلى أيامنا هذه . فمنذ أفلاطون أخذت هذه الفكرة تظهر وإن كان ظهوراً مضطرباً غامضاً لأنها ما زالت ممتزجة بفكرة الماهية . فما الماهية ؟ هي ما يجعل كل كائن هو ما هو ولا شئ سواه ، أو هي لولاها لأصبح أى شئ لا قوام له خاضعاً لجميع الأحداث ولأشد أوضاع الوجود تناقضاً . والماهية لا تقتصر على تعيين الكائنات ، ولكنها تحدد أيضاً الميدان الذي يجوز أن تلحق الفرد في داخله ألوان من التحول دون أن يفقد ذاتيته . فقد يكون الرجل أبيض اللون أو أسوده أو أصفره ، وقد يكون موسيقياً أو طبيياً ، أصلع أو غزير الشعر الخ ... ولكن لا يجوز أن يكون له ريش الطير أو زعانف السمك . وعلى أى وجه ينبغي أن ننظر إلى تلك الماهيات ؟ هل يجوز أن نرفض لها الوجود في حين هي مبدأ الوجود في الكائنات ؟ يجب أفلاطون : لا ، بلا شك . فالماهية هي بالذات الوجود . وهذا المذهب الذي يزداد قوة في الأفلاطونية الحديثة التي ذهب إليها بلوتان Plotin سيسود طبقة واسعة من المفكرين أشهرهم سبينوزا وهجل . فهؤلاء المفكرون يرون أن التمييز بين الممكن والواقع ليس حقيقياً ، فإذا كانت جميع الماهيات موجودة فكل ممكن واقع . والممكن يفقد النفس الانسانية أحد أبعادها في الحيز الفكري الذي تجول فيه . فانها لا تستطيع أن تجدد أو أن تنشى ، ولا تستطيع أن توجد في العالم آثاراً مبتكرة حقاً . وقواها

الحية تكتظ من فرط الامتلاء . وكل شئ يأتي في حينه ، وكل شئ يتلقى اتجاهًا معينًا ويشارك في تكوين الواقع العظيم الضخم . فأيسر آهة وأضال ابتسامة يندرجان فيما قررلها من مكان في نسيج العالم .

على أن لونا آخر من ألوان التفكير أخذ يظهر بظهور أرسطو . فما كان عند أفلاطون عالمًا حقيقيًا أو مجموعة من الماهيات المتدرجة في المراتب المؤسسة على حفظها من الوجود ، أصبح عند تلميذه سلمًا منطقيًا بحتًا للأجناس والأنواع . ولم يعد يتبوأ قمة هذا الجدول الكائن أو الحيز أو المبدأ المشترك لكل واقع مهما كان اسمه . فما زالت هذه تصورات منطقية ، وهي الأجناس الأولى : المادة والكم والكيف الخ . . . ولا يمكن أن يجمع بينها أى جامع مشترك . فالماهيات التى تشملها مسميات الأجناس والأنواع هذه تؤلف إذن عالمًا مجردًا محلى هامش العالم الموجود . وليس لها وجود بذاتها ؛ فانها لا توجد إلا فى الكائنات الواقعة أو فى الأذهان التى تفكر فيها . فالرجل بمعناه العام ، أى ماهية الرجل لا توجد إلا فى كالياس أو فى سقراط أو غيرهما وهم رجال ، أو فى ذهن الفيلسوف الذى يفكر فى الطبيعة الانسانية .

وسنلاحظ بهذا الصدد ملاحظات أربعاً :

أولاً — أن هذا الهامش بين الواقع والماهية يحدد ميدان الممكن . فجائز أن ماهية لا توجد إلا فى ذهنى . أما فى ذاتها فهى إذ ذاك ممكن بحت . فالأثر الفنى الذى يفكر فيه الفنان ، والدستور الذى يحلم به المشرع ، ومشروع المهندس واقتراحات الاقتصادى ، هى كلها ممكنات بحتة قبل أن تتحقق . ويجوز أن تطرأ أحداث غير متوقعة تمنع تحقيقها ، ولكن ينبغى المخاطرة ، ينبغى الإرادة والمجازفة ، ينبغى أن نثق بالانسان وبالحياة وبالله . هذا أساس فكرة الالتزام التى تتميز بها الوجودية .

ثانياً — غير أنه من ناحية الفكر لا يوجد أى فارق بين الممكن وبين الواقع . كان كانت يقول : لا فرق بين مائة ريال ممكنة ومائة ريال واقعة . صحيح أن المائة الواقعة لا تزيد بواقعيتها ريالاً أكثر ، والفرق بين المائتين ليس فكرياً ، بل هو من نوع آخر ، فانا أوتر مائة ريال واقعة على مائة ريال ممكنة على الرغم من أن المقدار واحد ؛ فعصفور فى اليد خير من عصفورين على الشجرة ، ولكن القيمة التى تظهر هنا مخالفة قطعاً للقيمة المالية لهذه المائة .

والموضوع الهام الذى يعرض أمامنا هو أن نعرف أتدخل هذه القيمة فى النطاق الشخصى البحت لمجرد أنها تختلف عن القيمة المحددة موضوعياً على قطع العملة . ومع ذلك فمن ذا الذى لا يلمس فرقاً واضحاً بين إثارة الحقيقة الواقعة ، وبين ألوان الاثارة الشخصية البحتة ، كأن أوتر لحم البقر على الضأن ، أو الجبل على البحر ، أو اللون الأزرق على اللون الرمادى . . . وإثارة الواقع ينطوى على شئ من الموضوعية بسبب تعدد وقوعه واتساع مداه ، بل أكثر من ذلك فانه يبدو قرينة لتركيب بشرى معين ، قرينة لنوع بشرى خاص . وهذا يظهر جلياً إذا سلمنا إلى جانب ذلك الاثارة للواقع باثارة للأحلام ولغير الواقع . هل يوجد إذن ميدان خاص للقيم يحتل لنفسه مكاناً بين القيم الموضوعية البحتة التى يستطيع الفكر أن يزنها ، وبين القيمة الشخصية البحتة التى تقاس بشعورنا وميولنا ؟

وفى الحق أن اشتغال الضمير البشرى على مشاعر لا ترد إلى لون من ألوان الاثارة العاطفى ، ولا تفقد ما تتسم به إلى حد ما من طابع شخصى ، ولكنها مع ذلك تبدو أمامنا بحيث تنتظم فى الوجود ، ولها إذن كيان وجودى ، ذلك ما أوضحه مذهب هوسرل Husserl . فان مشاعر مثل التعاطف والوفاء والايمان والهلع ، على الرغم من الاحساس بها فى أعماق النفس ، فانها تفترض وإلى حد ما تضع ، لا مجرد أفكار تنشأ ، بل حقائق واقعة تتصل بها ؛ فاننا لا نؤمن بمجرد شئ ممكن ، ولا نحفظ بهذا الايمان لكائن لم تبق منه إلا الذكرى . واستمرار الوفاء لصديق بعد وفاته يكفل امتداد حياته ويدل عليها . وعلى ذلك فمثل هذه المشاعر يستطيع الانسان أن يدعى لنفسه مقدرة على استكشاف الموجودات وإظهارها . فالبخل أو أى لون آخر من ألوان التعلق العاطفى هو الذى يدلنا على وجود مائة ريال ، على حين يغيب وجودها من الفكر وهو متجه نحو الماهية مركز فيها .

ثالثاً — والوجود يختلف اختلافاً تاماً عن الماهية . فالماهيات تبدو إذن بالقياس إلى الوجود إما على أنها عنصر شكلى يكيف الوجود بهذه الكيفية أو تلك ، وإما على أنها عنصر مثالى يحاول إخراجه إلى الواقع على أكل وجه نستطاع . وبعبارة أخرى فان الماهية تستعمل لغرضين : أولها المعرفة ، وهى بذلك تعرف طبيعة ما هو موجود . والثانى العمل ، وهى بذلك تلهم بما يجب إخراجه إلى

الوجود . على أن العمل نفسه يعرض مشكلة : أليس من شأن الاخراج إلى الوجود أن يغير حتى من طبيعة الماهيات ؟ ألا يوجب أمل الكاتب بالمؤلف الذى كتبه ؟ أليست الصورة التى فى الخيال أروع بكثير من تلك التى تمثل أمام أعيننا ؟ وإذا كان هذا الأمر صحيحاً ، أفلا نستطيع أن نعم الحكم على الماهية بصفة إجمالية ، حتى باعتبارها وسيلة من وسائل المعرفة ، فلا فارق بين ماهية الدائرة والدائرة الحقيقية الواقعية المرسومة على اللوحة ! نعم لافارق بينهما إذا كانت هذه الدائرة تامة وبالقدر الذى يمكن أن تكون الدائرة فيه تامة . ولكن ليس فى الطبيعة دائرة يبلغ إتقان رسمها حد الكمال حتى إذا رسمت بالبركار . أليس ذلك حال ماهياتنا دائماً ؟ فهى تبدو كاملة ، ولكنه كمال غير واقعى ، كما يتضح ذلك فى نظرية الغازات الكاملة ، بل فى تسميتها نفسها ، تلك النظرية التى يؤدى إليها قانون ماريوت جاى لوساك Mariotte-Gay Lussac . ولكن لا توجد غازات كاملة . وحتى بالقياس إلى الريالات المائة ، فالفكرة المجردة وحدها هى التى تقرر أن هناك توافقاً تاماً بين ماهيتها البحتة وماهيتها المحققة . ولكنى أستطيع بمائة ريال ممكنة أن أتحيل شراء أشياء عجيبة ، فى حين إذا كانت هذه الريالات المائة واقعية فإنها تتبخر فى شراء أشياء عادية .

ونستطيع أن نستخلص من ذلك أنه حتى فى ميدان المعرفة فان الماهيات لا تعطينا إلا علماً مقارباً يبتعد عن الواقع بمقدار ما يقترب من الكمال . فالمعرفة الدقيقة المحددة ، والتفكير الهندسى الرياضى الذى يتغذى بالماهيات ، تقابلهما معرفة أخرى أشد اتصالاً بمنعرجات الواقع والوجود ، وهى المعرفة التى يحكمها التفكير الحاذق اللبق . يبدو إذن باسكال على أنه الفكر الذى استخلص فى وضوح النتائج الناشئة عن فلسفة للوجود . والركن الأساسى فيها هو تعارضها الجوهرى لنوع من الفكر المفكر الذى يمتد على هامش ظروف الحياة . وعلى ذلك فالوجودية تتجه مضادة للعقلية .

رابعاً — والغرض من الملاحظة الأخيرة لفت النظر إلى مقابل حتمى للوجود حين ننظر إلى ميدان الممكن ، وهذا المقابل هو العدم . فالممكن هو الذى يجوز أن يوجد كما يجوز ألا يوجد . والوجود يكتفه العدم وينجم من اللاوجود . وأل « من لا شئ » *ex nihilo* الذى تقوم عليه عقيدة الخلق يكتسب معناه ومغزاه هنا . وقد اتخذت هذه الفكرة أوضح تعبير لها فى كتاب القديس

توما الا كوينى « عن الخلق » . فهذا كائن أمامى ، وأنا أستطيع أن أرد كل خاصة من خواصه إلى سبب : فعيناه الزرقاوان ورثهما عن أمه ، وأنفه الأقى عن جده ، وبشرته النضرة ناشئة عن صحته التامة . وعلى ذلك فقوانين الوراثة والانتقال تفسر لى ما هو هذا الرجل . ولكن لا شىء يفسر لى وجوده . وبعبارة أخرى فالخواص الأساسية المميزة لكائن هى نتائج لأسباب ثانوية يمكن البحث عنها والافاضة فيها . ولكننا لن نجد فى هذه الأسباب كلها السبب فى وجوده . ومن ناحية فلسفة الماهية ، يبدو الوجود على أنه مركز التقاء لمجموعة لا حصر لها من الأسباب ، حتى إن حظنا من فرصة الوجود يساوى فى الواقع صفراً . وليس وجودنا إلا مصادفة وحدثاً عارضاً وأمرأ تافهأ لا خطر له خليقأ بالاهمال . فمن أراد أن يكسب ذلك الوجود الاحتمالى معنى — وهذا هو غرض القديس توما — فسيبله إلى ذلك أن يرده إلى السبب الأساسى الأول وهو الله الذى يخلق من العدم ، على أن بروزنا من اللاشىء يبقى دائماً معرضأ للفناء . وعلى ذلك نستطيع أن نلمس فى كل أوضاع الحياة البشرية هذا القرب الفاجع بيننا وبين الفناء .

كما أنه من الممكن إنكار الله ووجوده المحتوم . وهناك نستطيع أن نمنع النظر فى الوجود فلن نرى فيه إلا السلطان المطلق للاحتمال واللاعقلية والعبث . بذلك يبدو الاتجاهان الأساسيان فى الوجودية : من ناحية الوجودية الدينية ، ومن أنصارها : كيركجارد Kierkegaard ، وجاسبرس Jaspers ، وجابريل مارسيل Gabriel Marcel ، ومن ناحية أخرى الوجودية الملحدة ، ومن أنصارها نيتشه Nietzsche ، وهایدجر Heidegger ، وسارتر Sartre .

والملاحظات الأربع التى ذكرناها عن نتائج التفرقة بين الماهية والوجود ، تدلنا على أن للوجودية المعاصرة أصولاً بعيدة ترجع إلى عصر الفكر الكلاسيكى . على أن هذه ليست وحدها أصولها . فان الوجودية (وهذا مدعاة الغرابة) تستمد أصولها أيضاً من الماهية فى مظهر من مظاهرها ، ولا سيما من مذهب ديكارت الذى لا تقبله كما هو ، ولكنها تستوحيه وتغيره فى نفس الوقت تغييرأ عميقأ .

ومعلوم أن الحجة الكونية التى تقوم على استمداد الوجود من الماهية هى

من صميم فلسفة ديكارت في الميتافيزيقا . فلا يقتصر ديكارت على أن يثبت وجود الله مستمداً هذا الإثبات من ذات الله ، بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيصل عن طريق عبارة : « أنا أفكر وإذن فأنا موجود » *Cogito ergo sum* إلى أن يثبت في حدس عقلي وجود الـ « أنا » باعتباره متصلاً بالفكرة ومشمولاً بها . فالواقع أن الأولوية في هذا المذهب للماهية . ولكن إذا لم تقتصر على الوقوف على عبارة « أفكر فأنا موجود » وعلى الحدس الأكثر عموماً الذي قوامه : « أفكر وإذن فالله موجود » *Cogito ergo Deus est* وهما من حدود دراسة الميتافيزيقا ، بل استقرينا الحركة الفكرية كلها ، خرجنا من هذا الاستقراء بشئ آخر .

فما الذي يؤدي إلى عبارة « أفكر فأنا موجود ؟ » أليس هو الشك ؟ فقيمة هذه العبارة هي إذن نتيجة لما للشك من قوة . ولكن كوننا نشك معناه أننا نريد الشك ، أي أننا أحرار . فمذهب ديكارت العقلي معتمد في أساسه على إرادية تخرج الحرية عن نطاق العقل ، كما حاول أن يثبت ذلك الأستاذ جان لابورت Jean Laporte من ناحية تاريخية بحتة . ولنقل إذن إن الوجود لا يبرز من الماهيات ومن الفكر والآراء إلا بالاضافة لكائن يستعمل وجوده استعمالاً حرّاً ، أي لكائن يريد ويشعر ويؤمن ويشك ، لكائن يتخذ لنفسه مركزاً أمام نفسه وأمام المشكلات التي تقلقه وتثقل عليه .

كذلك الحال إزاء المذهب الذي كثيراً ما يردّد والذي قوامه أن حدس الحقائق فجائي في رأى ديكارت . فان جان لابورت كثيراً ما يورد نصوصاً من الأحاديث التي جرت مع بورمان Burman ، ومن بينها ملاحظته أن الفكرة نفسها تمتد في الزمن . كما أن كثيراً ما يورد جميع النصوص المتعلقة بوظيفة الذاكرة . ينتج من كل ذلك أن مجهودنا الفكرى له تاريخيته الذاتية ، بل له تاريخه الخاص ، فما عسى أن يكون المحرك الفكرى الذى يجعلنا نتمسك بسلسلة معينة من الحقائق دون غيرها ؟ هذه هي المشكلة التي نضعها موضع البحث . ولكن كل مشكلة حقيقية ، أى تلك التي تكسب الفكر صحة ، هي في ذاتها مشكلة شخصية راسخة في كياننا الخاص . وهذا ما يقرره النص الرائع للقاعدة الثالثة عشر :

« لست أدرج في عداد المشكلات الأسئلة التي تصدر عن الآخرين فحسب ،

فمشكلة سقراط كانت متصلة بجهله الخاص أو ، بالضبط ، بشكه . وما دام قد أخذ ، أثناء اجتهاده في حل هذه المشكلة ، يبحث أهو يشك حقيقة في كل شىء . وهذا التفسير لمذهب ديكارت ينتهى بنا إلى الفكرة الآتية : إذا أردنا أن نظفر بموجودات وراء الماهيات ينبغى أن نواجه هذه الماهيات على أساس موقف حقيقى نتخذه في الحياة إزاء صعوبات نشعر بها نحن أنفسنا . فالفيلسوف هنا الرجل الذى يواجه قبل كل شىء مشكلته الخاصة لا أحجية مسلية من تلك الأحاجى التى تعرضها صحيفة أو مجلة ، الذى يواجه مشكلة حقيقية داخلية تعطى معنى للتصرفات الفكرية فتكسبها قيمة ووجوداً ، ويعتبر كل شىء عداها لغواً بالألفاظ .

على أن الفلسفة السابقة على الوجودية حتى حين تعترف للوجود بالطابع الخاص ، وحين تفسح مكاناً للممكن ومجالاً للحرية ، فهى مع ذلك مدينة للماهية لسبب بسيط جداً ، وهو أنها تبحث عن « معرفة » الحقيقة باعتبارها غاية العقل وأثراً من آثار هذا العقل . إلا أن الوجود في جوهره أعسر من أن يدركه العقل ، وعلى ذلك أصبح حتماً أن يبقى على الهامش . وقد بقى على الهامش بفضل الحيلة التى قوامها أن كل حقيقة الوجود ترد إلى الماهية ، وبأن ما يتجاوز ذلك عارض يمكن وصفه بأنه مجرد وسيلة من الوسائل التى تظهر بها الماهية .

ولم يكن بد من قيام ثورة في الفلسفة حتى تنشأ الوجودية التى أخذت على نفسها — على عكس المذاهب الفلسفية السابقة — أن تتمسك بهذه التفاصيل الزائدة الميزة للوجود ، وأن تحاصر الماهية ابتداء من الوجود . وقد قامت هذه الثورة ، وهى ثورة مذهب كانت . وإذا لم يكن كانت وجودياً فقد مهد لنشأة الوجودية وجعل ظهورها ممكناً .

وقوام فلسفة تحديد المعرفة النظرية المجردة . فقد حصرها في نطاق التجربة المحسوسة والعلم ، لذلك حين يسأل الانسان : من أنا ؟ يمكن أن يرد إليه بجوابين : فمن حيث هو كائن موجود في الزمان والمكان قابل لأن يكون موضوعاً للتجربة ، أى بالقياس إلى الوجود النوعى الذى يكون المعرفة التجريبية ، يجب أن يتجه بسؤاله إلى علم الحياة وعلم النفس . ولكن هذا الجواب مهما يكن علمياً ، بل لأنه علمي ، لا يمكن أن يرضى الانسان ؛ لأن هذا الانسان يلحظ نفسه من عل من حيث هو كائن معنوى حر تميزه حرية على أساس فكرة مطلقة

للخير ، لهذا الخير الذى لا نجد له أى تحقيق فى العالم الحسى . وهو بهذا الاعتبار يشعر بوجود خارج من عالم الظواهر ، أى بوجود لا يبدو كغرض مسلم به فى التجربة الموضوعية ، ولا يكشف عنه إلا الفعل الخلقى ، ولا يبرز إلا عن طريق الحرية ، وفى داخل حدودها .

وعلى الرغم من الخطوة الواسعة التى تمت فما زلنا بعيدين عن الوجودية ؛ لأن قانون الحرية لا يزال كانت يؤديه عن طريق أصول عقلية عامة . ولكن الأمر الخطير هو أنه خارج نطاق « الطبيعة » تحدد نطاق « الحرية » ، أى نطاق للوجود الأعلى ، وهذا الميدان الأخير لا يمكن الوصول إليه عن طريق العقل بل عن طريق الايمان الخلقى . ولنلاحظ أن هذا الايمان ليس ولا يمكن أن يكون من نوع هذه العقائد التى تنشأ من ميل إلى الاعتقاد وهو شكل من أشكال الرغبة ، ولا هو من نوع التعلق العاطفى ببعض القيم . فما هو إذن على وجه التحقيق ؟ هنا تعرض مشكلة ينبغى للوجودية حلها . وهى مشكلة أوضاع وجودنا ، تلك الأوضاع التى تقع فى ميدان ضميرنا والتى لا تصل إلى أن تكون علماً ولكنها مع ذلك تريد على أن تكون مجرد تعلقات عاطفية شخصية . أما علم الظواهر *phénoménologie* فيحل هذه المشكلة عن طريق نظرية الشعور القصدى *la théorie des sentiments intentionnels* التى أشرنا إليها حين تحدثنا عن الوفاء .

أما وقد مهد كانت السبيل ، فلم يبق على الوجودية إلا أن تنشأ . ومؤسسها ، على حد قول الفيلسوف الوجودى كارل جاسبرس *Karl Jaspers* هما كيركجارد ونيتشه .

وقد ألقى جاسبرس محاضرة فى جامعة جروننج الملكية بين فيها أوجه الشبه الانسانية العميقة التى تجمع بين هذين المفكرين . فكل منهما يشرع فى تفكيره على أساس حالة هذا القرن التاسع عشر الذى يعيش فيه .

لذلك كان تفكيرهما معاصراً جداً لقرنهما بسبب الحكم الذى أوحاه إليهما هذا القرن وكان فى الوقت نفسه غير معاصر على الإطلاق لهذا القرن لما امتازت به وجهة نظرهما من جدة مستحدثة تتعارض كل التعارض مع وجهة نظر معاصريهما . فكيركجارد يعيش فى وسط يعتبر نفسه مسيحياً ، ولكنه ليس مسيحياً إلا بالقول . فكيف يستطيع ذلك الأستقف الذى يتحدث عن تضحية إبراهيم

أن يعرض هذا النبي على أنه شخصية ينبغي الاقتداء بها ؟ هل يجترئ على أن ينصح جميع الآباء الذي يستمعون إليه بالقيام بعمل مماثل لعمل إبراهيم ؟ لا يوجد مسيحيون . ولكن إذا لم يكن للمسيحية معنى فلن يكون لشيء معنى ؛ لأنه ليس في علم الأخلاق ولا في علم الجمال في هذا العصر الرومانتيكي ما يرضى الانسان . وقوانين الجمال والخير تتجه إلى مجموعة الأفراد ، وهي تحت على التقليد ، بل تنصح به . وهي لا تزال في ميدان الأحكام العامة . وقواعد العصر الكلاسيكي من باب أولى محصورة في هذا الميدان بما تدعيه لنفسها من العموم والاطلاق . ولكن الانسان كائن فردي . ولكل إنسان سره الداخلي الذي لا يمكن البوح به ، والذي لا يخضع للعقل ولا للمنطق ، ولا معنى له إلا في صميم حياة واقعة . وهذا المصير الشخصي توليه المسيحية الاعتبار الذي يستحقه ، تلك المسيحية التي تنطوي على الايمان بالله بغض النظر عن كل حساب أو تدبير ، عن كل قاعدة أو تفكير ، تلك التي تقول بعلاقة غير قابلة للوصف تصل الانسان بالله ، والتي تجعل من الحياة الانسانية شيئاً آخر غير الوجود الحيواني أو النباتي العديم الذاتية . ولكن أين المسيحي الصحيح في عصرنا ؟

يميل الانسان إلى ضرب من السبات ، وإلى اطمئنان ناعس إلى الأحكام العامة المقررة ، ويأبى إعادة النظر فيها ، والمسيحية وحدها تستطيع أن توقظه فتجعله يوجد حقاً لأنها دين اليقظة . ويتجه الذهن إلى كلام باسكال عن سر المسيح : « قام المسيح باتخاذ تلاميذه وهم نيام ، قام بذلك نحو كل من الرجال الصالحين في العدم قبل أن يولدوا ، وبالقياص إلى خطاياهم منذ ميلادهم . » وفي فقرة أخرى : « سيبقى المسيح يعاني سكرات الموت إلى آخر الدهر ، فلا يجوز لأحد أن ينام في هذه الأثناء . »

ونيتشه بدوره يثور على هذه المسيحية اللينة الطرية، وعلى الاشتراكية الناشئة التي صدرت عن الدين المسيحي ، والتي تقصر همها على أن تنزل على الأرض مثلاً أعلى تافهاً للجنة وللسعادة المصنوعة المقررة . ولكنه يبحث في الدين المسيحي نفسه عن مصدر هذا الانحلال الذي تعانيه الجماعة الحديثة . ويسائل ما مصير الانسان ، وبصفة خاصة ما مصير الأوربي ؟ هل ترضى الارادة الأوربية هلاكه ؟ ويضيف نيتشه إلى ذلك : « حذار من التدابير الوسطى . خير من ذلك الهلاك ! »

والواقع أن نيتشه ، مثل كيركجارد ، يهاجم القيمة المقررة ، يهاجم الايمان بكائنات مستقرة مكونة تكويناً نهائياً يعتمد الانسان عليها كانه أدرك هو نهاية نموه وبلغ منتهى ما في إمكانه . يجب هدم هذا العالم الصناعى المنطوى على حقائق مزيفة والتي يظن القرن أن يعيش على أساسها . وهذا الهدم يقوم به كيركجارد باسم مسيحية لا يمكن أن تمثل فينا إلا عن طريق أعمال سلبية منها تعليل النفس بالنفس ، والاستشهاد . أما عن نيتشه فالهدم على أساس مبدأ الرجعة الأبدية .

على أنه إذا أردنا أن نفهم الأساس الفلسفى لضرورة الهدم هذه وجب قبل كل شئ أن نعرف النقد الأساسى الذى يوجهه كل من كيركجارد ونيتشه إلى الفكر الانسانى . عيب هذا الفكر هو وضع أنظمة محددة . يجب أن تقرر ، خلافاً لما يذهب إليه هجل ، إن العقل لا يستطيع أن ينشئ أنظمة يحصر فيها الانسان . فمجموع الواقع البشرى ، أى مجموع العالم الذى يضطرب فيه الانسان ، لا يمكن حصره على وجه التحديد ؛ لأنه ليس مكتملاً فى أية ناحية من نواحيه .

والفيلسوف ذو الأنظمة المحددة يبنى قصرًا لا يسكن فيه ، إنما يعيش فى كوخ ، على حين يجب على الانسان أن يعيش فكره . لكن الفكر الانسانى تروية غير محدودة فى وجوده وفى حالته . يجب إذن أن يتعمق فكره إلى غايته ، ولا يترك هذا الفكر يمضى وحده . فان ذهبنا بأنفسنا إلى النهاية فان كيائنا الوجودى سيبتل ما ينشئه الفكر البحث من قيم زائفة ومن أشباح وأصنام . والنظريات التقليدية عن الحق والخير والشرستهوى على اعتبارها أبنية فاسدة للفكر المجرد .

إلى هذا الحد يحدث الانقلاب فى القيمة سواء عند كيركجارد أو عند نيتشه . فتهدم قيم العموم وتقوم مكانها القيمة الخاصة التى تتصل بالفرد . وانهزام الأخلاق عند كيركجارد يقابله تجاوز الخير والشر عند نيتشه . وما وراء الأخلاق عند كيركجارد هو النطاق الدينى الذى يشيع فيه الوجود الشخصى . وما وراء الخير والشر عند نيتشه هو عالم إرادة القوة . ولكن هذين الوراءين يشبه كل منهما الآخر ؛ إذ يشتركان فى نفى القيم العامة المقررة النهائية .

والآن نستطيع أن نفهم ما هو « العبث » l'absurde باعتباره المميز

للسلوك الدينى عند كيجارد . وما هى « الرجعة الأبدية » *l'éternel retour* باعتبارها أساس إرادة القوة عند نيتشه .

ليس العبث هو الانكار البحت لكل ما هو منطقى عقلى ، وليس هو عكس المنطق والعقل . بل هو ما لا يستطيع العقل التعبير عنه ، هو ما يقرر وجوده الخاص الذى لا يندمج بحال فى كل ما هو عام شامل . وليس العبث أساس قانون خلقى جديد ، بل هو يقاوم وضع كل قانون جديد .

وكذلك الرجعة الأبدية ليست فكرة تكفل الانتظام لأحداث العالم ، وإنما هى الفكرة الباهظة المضنية التى قوامها أنه لا يوجد هدف على الانسان أن يدركه ، ولا عالم مثالى ينفذ إليه ، وأنه لا يوجد استقرار فى أى من الأمور ولا أجل له . بل هناك موج الحياة غير المنقطع الذى يجب أن يقبله كل إنسان لنفسه ، وفى معيشته الخاصة ، ويستجيب لهذه القوة الهائلة العاصفة وهى قوة الحياة .

هذه هى الأصول البعيدة والقريبة للوجودية . وحتى تشعر هذه الفلسفة بنفسها شعوراً كاملاً ، وتعتبر وسيلة من وسائل التفكير التى لا يمكن بحال الملاءمة بينها وبين فكرة الماهية ، لم يكن بد من قيام الثورة التى أتى بها مذهب كانت ، هذا المذهب الذى استعان بملكات عقلية أساسها الخوف من الواقع . هذا ما يفسر لنا الحالة الراهنة للوجودية . ولكن إذا طرحنا جانباً القيمة العامة الدائمة ، فإن البحث الفلسفى ينتهى إلى دراسة « حالات » فردية على حدود الحالات المرضية ، لأن الحالة الفردية تتكشف بصفة خاصة فى الأمراض النفسية لا سيما إذا تمسكنا بمحتوياتها أكثر من تمسكنا بشكلها العلاجى ، كما فعل ذلك الدكتور منكوفسكى مثلاً الذى انطبع تفكيره انطباعاً عميقاً بالمذهب الوجودى . ومهما يكن من شئ فإن تصور الفلسفة على هذا الأساس كان لا بد من أن يزدهر فى الأدب . وهذا ما يبدو فعلاً فى آثار جابريل مارسيل وسارتر . على أنه فى هذه المرحلة من مراحل التطور لا يمكن أن نمنح مثل هذه الآثار من القيمة أكثر مما هى تدعيه لنفسها ، فهى ليست إلتحليلاً لحالات خاصة . وعلى أقصى تقدير ترفع هذه الحالات إلى مرتبة الصنف والنموذج . حقاً أنه يستطيع كل إنسان أن يرى نفسه فى كل شخص من أشخاص القصص . ولكن ما فائدته من ذلك ؟ إذا كان كل إنسان يسلك طريقه الخاص فما يضيرنا أن نقول إنه إذ يلتزم

هذه الطريقة يلزم بها جميع الرجال ؟ ما القيمة التي تبقى لفكرة أن كلا منا يعتبر نسخة من نسخ البشرية ، إذا لم يوجد بيننا جميعاً اشتراك في الانسانية ؟ ولكننا إذ نذكر الاشتراك نذكر بذلك العموم .

وإذا لم تكن فكرة الانسانية قوة محرّكة شديدة الدفع ، وإذا كان المذهب الانساني البحت يعتبر مذهباً خلقياً ضعيفاً معسراً ، أفلا نجد في التعرف على الطبيعة الانسانية قوة عظيمة ، قوة تولد الحب ؟ لأنه إذا كان الحب لا يخضع للعقل ، وإذا كان يتعلق بأشخاص فردية تحيا حياة كاملة في فرديتها ، أفلا نتبين أن هذه المعرفة التي تصحبها بمثابة المكبر للصوت الذي يزيد من رنينه ؟ ومن مزايا الوجودية الحديثة أنها تظهر ما في المذهب الفكري البحت من مغالاة وإسراف . ولكنها تترك مشكلة الانسان الأساسية كما هي دون أن تمسها . فاذا امتاز الانسان بعقله ويعلمه الناشئ عن هذا العقل ، فما مكانة العقل والعلم في حياته ؟

وهذه أيضاً مشكلة من مشا كل الوجودية لم يصل الوجوديون الحديثون إلى حلها ، لأنهم يمتنعون عن التعرض لها .

رومي أ. تاليز

نقلها عن الفرنسية توفيق شحاته

الشاعر رابندرانات طاغور

يجد الناقد مشقة ، عندما يحاول أن يشرك غيره في تذوق أدب غريب ؛ فالأمزجة الفنية تختلف باختلاف الشخصيات والميول ، ولا تتفق إلا في نطاق ضيق جدا على عناصر ضئيلة لا اختلاف فيها . ومن هنا كانت الاحتجاجات المرة والتذمر الملح والآراء القاسية التي نصادفها في بعض ما تقرأ لكتاب الغرب أمثال بلزاك ، وفلوبير ، وأندريه جيد ، وبول فاليري ، وأوسكار وايلد ، والشاعر الألماني رلكيه ، إذا أتيح لهم أن يعرضوا لمسألة النقد الأدبي .

وقد ذهب بعض هؤلاء الكتاب إلى القول بأن النقد شيء يؤسف له ينمو على أنقاض آراء عتيقة بالية ، لا صحة لها ولا طائل تحتها ، كشكلة الفكرة والصورة . وكان فلوبير من أشد الساخطين على النقد والنقاد ، وقد هاجمهم بشتى الوسائل مندداً تارة بتأثيرهم السيئ في عقول القراء ، ومترحماً تارة على الأدب الذي ذهب مع الريح لكثرة ما تعرض له النقاد بأساليبهم الفاسدة . ونحن نفهم هذا كله ونسلم به ، ولكن هناك نوعاً من النقد سمته الأجيال بأسماء مختلفة ، فوصفته مثلاً بالنقد الموضوعي ، وبالنقد العرضي ، الذي لا يخرج عن إطار الأثر الأدبي الذي يعالجه ، فيقدمه الناقد للقارئ ليشجعه على مطالعته ، تاركاً له الحرية الكاملة في استحسان ما يقرأ ، أو الاعتراض عنه . فالناقد في هذا الوضع يكون مرشداً لا حاكماً ، ومشيداً لا هادماً . غير أنه من الحق ألا نعترف للناقد بالحق في أن يبسط رأيه في صراحة تامة ، يميز بين الجميل والقيح ويشير إلى مواضع الضعف والقوة ، ويشرك القارئ في الفائدة التي جناها من مطالعته ، والعبرة التي خلص بها من تلك الرواية أو ذلك الديوان ، وهو فيما يقدم للقراء يعالج الأثر الفني من « الداخل » كما يقول الشاعر رلكيه ، ويذهب إلى صميم ما أراد الشاعر أو الكاتب من قصيدته أو قصته ، لا إلى صميم ما يريد أن يجد في الكتب التي ينقدها من إذعان للمذاهب السائدة ، والقواعد المتبعة .

ونحن نريد أن يكون بحثنا عن رابندرانات طاغور شاعر الهند الخالد ، حديثاً موجزاً بسيطاً عن أغراض الشاعر ، وعمّا دفعه إلى هذا اللون من الفن ، أو إلى هذا المذهب في الكتابة والتفكير .

لا بد لنا قبل الوصول إلى صميم شعر طاغور واعتبار خصائص هذا الشعر والرسالة البشرية التي يحملها إلينا ، من أن نعطي القارئ فكرة عابرة عن حياة الشاعر وبعض مؤلفاته . ويرجع الفضل الأكبر في هذه البيانات إلى المقالات التي نشرها الأستاذ محمود المنجوري على صفحات « المقتطف » سنة ١٩٤٢ ، وإلى بعض ما عثرنا عليه في المراجع الانجليزية والفرنسية . وقد دهشنا في بادئ الأمر لنقص هذه العناصر الأولية في مقدمات أندريه جيد سنة ١٩١٤ ، وييتس سنة ١٩٤٢ ، « للقربان الشعري » ، ومقدمات وديع البستاني ، وكامل محمود حبيب ، لديوان طاغور وعنوانه « البستاني » ، والمذكرة التي ذيل بها كاليداس ناج ويير جان جوف ترجمتهما إلى الفرنسية لديوان « البجعة » ، والبحث الذي صدر به الكاتب الفرنسي رومان رولان ترجمة مادلين رولان لكتاب عنوانه بالبنغالي « كاتورنجا » .

وإذا أمعنا النظر فيما أسميناه تقصياً وجدنا أن الحق بجانب هؤلاء الكتاب جوهريين ؛ فانهم أهملوا ، لاشك في ذلك ، ناحية ربما كان لها شأن في تاريخ الأدب الذي تقرأه في الكتب والبحوث العلمية التي لا تذكر اسماً أو عنواناً حتى تزوده بالتواريخ والمذكرات المختلفة ، ولكنهم فطنوا إلى حقيقة أرفع من التعلق بالتواريخ الدقيقة ، وهي أن شاعراً مثل طاغور لا تحده السنة التي ولد أو مات فيها ، ولا بلاد عاش بها ، لأنه يجاوز زمنه ، ولا يجوز لوطن أن ينفرد به ، فهو شاعراً ومفكراً أكثر منه فيلسوفاً عالياً ، وهو معاصر لكل فرد يطلب الجمال ويسعى للوصول إليه ، ليستمد من رسالته قوة وأملاً .

ومهما يكن من الحاجة إلى التواريخ والبيانات الخاصة بحياة طاغور ، فقد وفقنا لبعضها ، ومنها أن رابندرانات طاغور - وبعض الناس يكتب اسمه بالتاء « تاغور » ، ويقول أندريه جيد إنه يجب أن يلفظ « روبندرونات طوغور » - ولد في مدينة كلكتا سنة ١٨٦١ ، وكان أبوه فيلسوفاً يعيش متقشفاً ، وتوفيت أمه في حادثته ، فنشأ طفلاً محروماً عطف الأم وحنانها . أرسله أبوه إلى المدرسة ، ولكنه

لم يتردد إليها طويلاً ، فاضطر والده إلى أن يحضر له الأساتذة في البيت . وعهد التلمذة هو من الأمور التي ترك عادة أثراً عميقاً في نفسية الفرد ، ومن هنا كانت أهمية ما تقرأه لطاغور إذ يقول : « كنت أتألم مدة طفولتي من شعوري أن نظم التريية في المدرسة لا صلة لها بالعالم . » وفي سنة ١٨٧٧ رحل طاغور إلى بريطانيا العظمى حيث أتقن اللغة الإنجليزية وآدابها ، حتى استطاع فيما بعد أن يتقل بعض مؤلفاته من البنغالية إلى الإنجليزية . ثم عاد إلى بلاده وتزوج سنة ١٨٨٣ وبعد عامين ذهب إلى الريف ليشرف بنفسه على ممتلكات والده ، وقد كتب في الريف أكبر قسط من مؤلفاته ، وبقي هكذا إلى سن الأربعين إذ فجع في غضون بضعة شهور بوفاة زوجته وابنته الكبرى وأصغر أبنائه . تلقى شاعرنا هذه التجارب القاسية المتلاحقة بصبر وشجاعة وإيمان وهو يقول : « إن عاصفة الموت كانت على "نعمة ورحمة" » .

وقد أنشأ في سنة ١٩٠١ في مدينة بلبور على مقربة من كلكتا مدرسة للأطفال أطلق عليها اسم «شانتى نكتال» أي «دار السلام» . وقد استبدل باسمها في سنة ١٩٣١ اسم «صفا بهاراتى» ووسع نطاقها فأصبحت معهداً للتقارب والتعارف بين الشعوب . وقد بدأ من سنة ١٩١٢ سلسلة رحلات ، استأنفها في سنة ١٩٢١ ثم في سنة ١٩٢٦ ، فزار إنجلترا وفرنسا وألمانيا واليابان وأميركا وروسيا السوفيتية والصين وجنوب إفريقية والعراق وكندا وتركيا وإيطاليا ومصر ، وكان دائماً موضع حفاوة وتقدير وإعجاب .

وفي سنة ١٩١٣ منحه مجمع ستوكهلم جائزة نوبل في الآداب ، وفي سنة ١٩١٥ أنعم عليه ملك الانجليز بلقب «سير» وفي سنة ١٩١٩ لأسباب سياسية اعتذر طاغور من الاحتفاظ بهذا اللقب ، وفي سنة ١٩٣٠ عهدت إليه جامعة أكسفورد ببعض المحاضرات يلقيها على طلبتها ، وفي سنة ١٩٤١ منحته الدكتوراة الفخرية في الآداب .

ولما بلغ طاغور الثامنة والستين ، عكف على الرسم ، وقد عرضت آثاره في لندن ، ثم في برمنجهام وموسكو وبرلين ومونيخ وباريس ونيويورك ، وتوفي في ٧ أغسطس سنة ١٩٤١ .

ليس من شك أن للآثار الفنية لشاعرنا الفذ شأنًا عظيمًا إذا نظرنا إلى ضخامتها وإلى الموضوعات التي عالجتها .

وإذا استثنينا آلاف الأناشيد التي تركها طاغور كان عدد مؤلفاته الشعرية يبلغ الستين ، وله في النثر ، قصص وروايات وبحوث ومقالات وعظات وذكريات لا تحصى ، نقل معظمها من البنغالية إلى سائر اللغات ، غير أننا لم نقرأ في العربية سوى « البيت والعالم » ترجمة طانيوس عبده (مطبعة الهلال سنة ١٩٢٥) ، ومختارات عن « البستاني » مترجمة نظماً ونثراً ، بقلم وديع بستانى (مطبعة المعارف) ؛ وترجمة للديوان نفسه من محمد كامل محمود حبيب (مطبعة المقتطف سنة ١٩٤٠) . ومن أهم ما قرأنا له شعر مترجم إلى الفرنسية ، نخص بالذكر « القربان الشعري » و « قطف الثمار » و « البستاني » و « الهلال » و « البجعة » .

إن الشئ الرائع الذي نجده في شعر طاغور هو محاولته تصوير الانسان أمام ربه ، والفرق الشاسع بين الخالق والمخلوق من جهة ، والتقارب الغريب وعدم الكلفة بينهما من جهة أخرى . ولتلك الفكرة أهميتها الكبرى في فلسفة الهند .

يذكر طاغور الانسان في شعره ، فيشبهه بكأس دقيقة قابلة للكسر السريع ، وينأى صغير من القصب في يد الخالق . ولكن الشاعر يرى أن هذه الكأس وذلك الناي ، يكبر شأنهما إذا أراد الله أن يملأهما حياة متجددة ، وموسيقى أبدية ، في ذلك الحين يتسع قلب الانسان ويتهيج ، ويكاد يذوب فرحاً ، وتصبح يده قادرتين على أن تتلقيا أكثر مما أتخفهما به الخالق .

ويرى طاغور أن السبب الذي يصل الانسان بربه ، هو قدرة الانسان على الفناء ، فما الحياة وما بها من شدة ورخاء أو حزن وفرح ، إلا هذا النشيد الذي يصعد من الطبيعة ومن الكائنات ومن الجمال ، والطرب الذي يختلج له قلب المغنى فينسيه نفسه ومقامه الحقيقي ، فيدرك حينئذ أن صداقة تربطه بربه . والشعر الذي ينشده ويقربه شيئاً ما إلى الموسيقى الفياضة التي تتدفق من السماء ، وتشيع النور في العالم .

ويدور عدد وافر من قصائد طاغور ، حول أفكار محدودة ، حتى ليصيب القارئ شئ من الملل ، إن لم يترك وقتاً كافياً بين قراءة وأخرى . وقد يندر أن تقرأ صفحة من « القربان الشعري » مثلاً ، دون أن تصادقك عبارة من الموسيقى ، أو إشارة إليها . فالشاعر يحس تارة بسرور ، لأنه تمكن أن يجرد غناؤه من كل

ما يثقله من زينة أو بلاغة أو إطناب . وهو يعترف تارة أخرى ، في حسرة ويأس ، أنه حاول عبثاً الاهتداء إلى اللحن الموسيقى الذي يقصده ، فنجده ساخطاً على صوته السجين ، البعيد كل البعد عن الكلمات التي يدعوها فلا تجيب ، وينتظرها فتخيب أمله .

وإذا تركنا الموسيقى وما إليها من تشبيهات واستعارات ورموز شعرية في مؤلفات طاغور ، وبجثنا عن ألوان أخرى من التفكير ، وجدنا الشاعر عاكفاً على تحليل شخصيته وما تشمله من أمزجة وميول ، وانفعالات وطموح إلى الجمال وافتقار إلى الخير ، وسخط وإشراق ، وعبوس وأمل ، وهو في كل لحظة ، وعند كل محط لفكرة ، يتوجه إلى الخالق ليسمع له وليساعده على تحقيق مساعيه ؛ وليرشده إلى الجمال والكمال في الشعر وفي الحياة .

وفي موضع آخر من شعره يعلن الشاعر أن حاجته ماسة إلى عفة الجسم ، وطيبة القلب ، وازدهار الحب والأعمال ، وأن هناك ساعات عصيبة تمر به ، من حين إلى آخر ، فيشتقى لها ويشكو منها ، فتزيد رغبته في الراحة التامة ، وفي أن ينعم نظره في محاسن الطبيعة وجمالها .

والطبيعة كما يبدو للقارئ من أول وهلة ، ترهو وتنفوح في قصائد طاغور ؛ وصفحة الطبيعة كما يقول : « إنما هي لوحة متجددة الجمال ، يرقبها الشاعر بمنظار إلهامه ، ثم يفصح عنها بترنيم وتلحين وموسيقى ، دون استعمال أصباغ وألوان » . وللقارئ أن يطوّف بشعر طاغور ما طاب له التطويف ، فانه سيخرج من هذه الجولة وقد امتلأ بصره بألوان الزهر وازدحمت ذاكرته بأسماء السوسن واللوتس والصندل والزعفران وحقول الخردل وغابات المانجو ، ويصور القمر وهو يغازل الزنبق والاقحوان تارة ، ويحبو متكسلاً في دلال بين الشجر تارة أخرى ، والسحب التي تنعقد في السماء ، أو تتكاثف مثقلة بالمطر فوق هامات الشجر ، أو تسحب ذيولها على الكواكب ، وبرقة النسيم يعبث بأفنان شجرة الخيزران .

وقد أثرت في نفس الشاعر وحواسه فصول السنة ، بل شهورها ، وحركات الضوء والظل والريج والماء . وهو يدين للطبيعة بتشبيهات رائعة ، مما نجدها في أحسن الشعر الفرنسي الرومانتيكي . ولا يسعنا إلا أن نذكر بعضها : « إنما يداك زهرتان ناضرتان من زهرات اللوتس » و « دعج عينيك أشد حلوكة من سواد

السحابة المثقلة بالمطر » و « ستشع خواطرِكَ من عينيك السوداءوين كما يطل طائر من عشه » و « إنك تحتفين كأنك نجم توارى خلف التلال » و « أنت سحابة السماء التى تسبح فى سماء أحلامى » الخ . . .

والطبيعة تحدث الشاعر وتناجيه ، وتصرفه عن الأمور الخارجة ، والمصالح المادية . فيفطن لأهمية ما يقع عليه نظره ، ويهيئ نفسه لتلقى درسها ، والانتفاع به ، وربما دفعه إعجابه بالكائنات الطبيعية ، التى لم تعبت بها بعد يد الإنسان ، إلى شئ من الغلو والتطرف ، فيهجر العالم ومن فيه ، ويصبو إلى حياة هادئة بريئة ، لينصت إلى همس دفين فى قلبه ، عندما تغيب الشمس ويشعر الإنسان بجمال الطبيعة ، وجمال الحياة .

وهنا تبدو للشاعر عناصر من الفكر ، لم يكن له بها من قبل ذلك عهد ، وتتجلى له معان للحياة تريد من معرفته وطاقته على إدراك أسرار الكون والمخلوقات ، وتساعده على التأمل فى الأسباب الوثيقة التى تصله بالطبيعة وبالإنسانية ، وتجعل منه حلقة ضرورية من حلقات البشر ، وعاملاً أساسياً لانسجام العالم . ومن هنا كانت الناحية البشرية ، فى شعر طاغور . وهو يثق كل الثقة أن الأفكار التى تجول بنفسه ، والألفاظ التى يرددها لسانه ، والموسيقى التى تجمع بين الكلمات وتكسيها بهجة وتريد من تأثيرها فى العقول ، كل هذا وليد السكينة ، وغاية كل تأمل أو تفكير صادق .

ولكن الشاعر لا يعيش لربه ولنفسه فحسب ، فهناك قوم يترقبون حركة شفثيه ليتلقوا رسالته ، ويستقوا منها ما يرد عنهم شبح اليأس والقنوط ، ويعاونهم على الاقدام والصبر والشجاعة . ولا يجد طاغور فى بعض الأحيان ، متسعاً من الوقت ، ليتأمل فى الحياة ، وليقف فى خلوة عند الأفكار التى تجول بخاطره ؛ لأن هناك أصواتاً ترتفع فى الليل وقلوباً شابة ، ونظرات كلها حب ، تنطلق وتطلب الموسيقى ، فيسأل الشاعر : « من ذا يستطيع أن ينسج أغانيها إن اتزويت أنا على شاطئ الحياة ؟ لا أستشعر فى نفسى سوى الموت والحياة الأخرى » . ونحن نلمس هنا ناحية للنضال والخصومة بين مظهرين من مظاهر الحياة ، نرى الشاعر الذى يسعد بقدرته على التفكير فى أمور تهمة من جهة ، ومن جهة أخرى نرى الشاعر الذى لا بد له أن يشغل نفسه بالذين يفدون ويروحون أمامه وهو « لا يستطيع لهم دفعاً » .

هذا وليس في نيتي ، ولا في استطاعتي ، أن ألم بأطراف المعاني المختلفة الماثوثة في دواوين طاغور التي حصلت عليها مترجمة إلى العربية والفرنسية والانجليزية . وما الآراء التي بسطتها ، إلا الجزء الضئيل مما ينبغي أن يقال في شاعر ، لم يترك فكرة إلا وذكرها وشعوراً إلا وعبر عنه ، في أسلوب أخاذ موسيقي .

ومن المسائل التي اهتم بها طاغور ، والتي ربما أتيح لنا أن نعرضها في مقال آخر ، مشكلات الحب والحرية والموت . ونريد أن نشير ، في نهاية هذا البحث الوجيز ، إلى حقيقة لا ريب فيها ، وهي أن طاغور نال هذا الكمال في آثاره الفنية ، لأنه سما بالفن إلى مرتبة العقيدة ، وله مؤلف قائم بذاته عنوانه « دين الشاعر » . وقد لمسنا في بعض فصوله سر جمال شعر طاغور . وما ينتظره من هذا الدين ، هو أن « يساعد الضمير على التخلص من نير المادية » ، وأن يذكر الشاعر ومن يتلقى رسالته ، في ساعات الجهد والاضطراب ، بأن هناك « ترنيم البلب » وجمال الزهر . ويقول طاغور : « ليس هذا الدين جواباً على سؤال بل هو موسيقى تسلينا عن أفكارنا كلما امتلأت بها نفوسنا » .

وجاء شعر طاغور دليلاً قاطعاً ، وبرهاناً صادقاً ، على ما يقوله في كتابه ، ورسالة فكرية وخلقية من أعظم ما جاد به الشعراء على الإنسانية .

محمود فرسي

ROGER CAILLOIS
THEORICIEN D'UN CLASSICISME NEUF
EPIQUE

روحيه كايوا يضع نظرية مذهب كلاسيكي جديد

كان هذا الكاتب نصيراً قديماً من أنصار مذهب السريالزم ، ثم فارق بريتون زعيم هذا المذهب بعد أن جهز قضية العقل في الفن ، وكان عضواً بمدرسة باريس لعلم الاجتماع (مع جورج بتاي ، المدير الحالي لمجلة « كريتيك » وميشيل ليريس مؤلف كتابي « أفريقيا الشبح » و « عصر الانسان » وغيرهما . . .) قد فتن هذا الكاتب وقتاً ما بنزعات الفوضى والطغيان . كان العصر يقتضي ذلك . وما يزال بين الناس من يتهمة بأنه شديد الميل إلى هؤلاء الأقوياء الذين تجمعهم وإياه وحدة الآراء ، وأنه ينظر إلى الجماعات السرية وأعمالها في كثير من التسامح والعطف . ولو قد خير بين الفوضى والطغيان ، لكان من الجائز أن يختار كايوا الأمر الثاني مستجيباً للأخلاق وعلم الاجتماع . ولكن كايوا لا يريد أن يتورط في هذا الاختيار ؛ فحرصه على الدقة لا يعدله إلا حبه للحرية . ومن مفارقات الحرية أن نعمتها القيمة لا تنال إلا ممزوجة بالضغط ومخالفة له . ولا سبيل إلى ضمان نصيب قيم من الحرية الكريمة إلا إذا ضحينا منها بهذا الجزء اليسير الذي يوشك أن يكون اختلاطاً واضطراباً . « فهذه التضحية تثبتها وترفع قدرها ، على حين يهدمها الضغط الخارجي ويغض من قدرها الاسراف في الميل إلى السهولة . » يظهر من هذا النص وعشرة من أمثاله أن سوء النية وحده هو الذي يستطيع أن يتهم كايوا بحب الطغيان . ومن الحق أن عصرًا يمتاز بسياسة عامة تقوم على الإهمال والتراخي وترك الأشياء تمضي كما تشاء ، يتعرض فيه كل من يحاول أن يكون ذا ضمير وذا خلق وذا إرادة للاتهام والريبة أكثر مما يتعرض للاحترام ، وللبغض أكثر مما يتعرض لعرفان الجميل . فالكسالى والجبناء يبغضون كايوا لأنه يعرض عليهم صورة سيفسوس وهو يدفع صخرته أمامه .

فمنذ عاد من الأرجنتين حيث كان يدير أثناء الحرب « الآداب الفرنسية » ، نشر كايوا طائفة من الكتب : « تصافي الأقوياء » و « أكاذيب الشعر »

و«مناسبات» و«صخرة سيسفوس» ، وكلها كتب رائعة اللغة ، يقول فيها جايتون سيكون : إنها تدل على امتلاك للفن لا يطمع فيه الآن إلا أمثال أندريه جيد وجان بولون . وقد أضاف إلى آثاره هذه أخيراً كتاباً جميلاً وهو « لغة الجمال » : «قرأت نقد الكتب التي كانت تظهر ، أو ناقشت في قيمتها الهواة الذين أقدر أحكامهم ، فلاحظت أنني كثيراً ما كنت أوافق على الصفات التي كانوا يختصونها بها ؛ ولكنني كنت أخالف غالباً في القيم التي تضاف إلى هذه الصفات . فإذا وصف أثر بأنه صادق أو طريف، كنت أوافق على هذا الوصف، وكان النقاد يرون هذا مدحاً على حين كنت أراه أنا عيباً . وكذلك لم ألبث أن لاحظت أن لي آراء تناقض أشد المناقضة ما شاع الاتفاق عليه حين يذكر الفن للفن ، والأدب المهذب ، والقواعد ، والصورة والمادة ، والتحديد ، واستعمال الصور في الشعر ، وقيمة مالا سبيل إلى وصفه ، وتصور التاريخ الأدبي . »

وفي إطار من نوعين من التأمل في الطبيعة وفي الفن عرض كايوا لغة للجمال حلل فيها القاعدة والحرية ، والنظام والصدق ، والفن للفن والأخلاق ، تحليلاً يقوم به عقل من أعظم العقول صفاء في هذه الأيام . فالطبيعة عدو للعدل والأسلوب . ولا يستطيع أحد أن يجادل في هذا الغرض الذي هو أساس من أسس الحضارة . وكايوا يعرف ذلك كأحسن ما تكون المعرفة ؛ لأنه فكر فيه على ساحل باتاجونيا : « إن الانسان الذي يأخذ أثناء الحياة بحظه من غفلة الحيوان ، ويعجز عن أن يفكر في الأشياء وقتاً أطول مما تسمح له به الأقدار ليكسب قوته ، مضطر إلى أن يعود إلى الطبيعة في غير مشقة ولا مهل ، ويصبح نهياً مقسماً بين الشمس والموج . وهيكله المهمل في غير عناية والذي لا يلقى من الرعاية أكثر مما يلقى الحيوان ، يذبل كما يذبل الحيوان ويفنى في نفس السرعة التي تفنى فيها هذه الأحياء التي تشاركنا في الحياة والتي تستأنف حياتها في غير انقطاع وهي لم تحتفل بموتها . »

« إن الانسان حين يحتفر قبراً لجثته يضع الأساس لطمعه في المستقبل . . . ويثبت كذلك أنه يعرف كيف يذكر وكيف يعدّ . ينشئ استمراراً . ومن حيث إنه يضيف جهوده إلى جهود معاصريه، فهو يوحد على غير شعور منه بين هؤلاء المعاصرين وبين جماعات كثيرة مضت وجماعات كثيرة أخرى لا تزال في ضمير الغيب . وهو بذلك يشارك في إقامة بناء خفي لا يعرف رسمه ولا أبعاده... »

وكذلك يضع الخزّاف والشاعر شيئاً فشيئاً قواعد فنيهما . . . وعلى هذا النحو تظهر الحضارة . »

وقد استطاع الانسان وحده أن يفرض الأسلوب والعدل . ولو قد أعرض عنهما لكان لنفسه منكرًا . وكل واحد منا مدين لنفسه (وللذين سبقوه والذين سيلحقونه من أمثاله) بأن يدفع أمامه صخرته المشبهة بصخرة سيفسوس ، وبأن يضيف إلى الكنز المشترك « بفضل ما يبذل من جهد وما يتاح له من توفيق ، نصيباً ضئيلاً ليدخر فيه » . وبدلاً من هذه الآثار المحاكية للطبيعة التي تموت وتحيا « في شئ من الاختلاط البشع الذي لا يعرف نظاماً ولا غاية ، هذه الآثار التي تقلدها الرومانتيكية اللاواقعية والتي يحاول الاختلاط تنظيمها ، ينشئ الفن آثاراً تأتيها قيمتها مما تهدف إليه من غاية وما تعتمد عليه من نظام . » وفي أعماق هذا العالم البشع الذي يأتلف من اللحم والمهل والصديد ، وفي أثناء هذا التعفن الكدر المنتشر ، يجري دم حار يبعث الحياة في قوة إلهية نشيطة ، طامحة إلى ما هو فوق الفناء متعجلة براءتها من كل ما هو بشع قبيح « ومن كل ما هو مشترك بينها وبين القوى الطبيعية .

فكايوا لا ينكر إذن حظنا من هذه المادة الطبيعية التي تجنح إلى الفوضى ، وهو يعلم أن لا سبيل إلى البناء المتين إلا على الطين ، وأن مدينة مكسيكو التي تقوم على مستنقع تستطيع من أجل هذا أن تثبت للزلازل . ومع ذلك ألم يكن بد من تجفيف الوحل وإقامة البناء ؟ ومن هنا يريد فرويد أن الآيات التي ينتجها العقل لا تسمو إلا إلى أن ترتفع بجاجاتنا العضوية . ومع ذلك فقد يجب أن ترتفع بها ، أي أن تفرض على هذه الشهوات وعلى هذه القوى الغامضة « مقاومة وحواجز » ، وأن ترسم لها « قواعد دقيقة » ، وتستكشف لها « قيوداً محددة » ، فتدلل بذلك إسرافها في الاضطراب «حتى يصبح الجموح نظاماً ومعرفة . » هنالك يكون الوعي والحرية ما يسمى أسلوباً يختص بمزية توشك أن تكون مكافئة له ، وخلاصتها قدرته على أن ينتج آثاراً «لا يمكن أن تختلط ولا أن تشوه » كما تختلط وتشوه الآثار التي تفرزها الطبيعة في غير وعي ولا شعور .

حرية ، ولكننا قد قلنا إن الحرية يجب أن تفهم على وجهها ، وهي التي تعرف كيف تخلق لنفسها « قيوداً جديدة » ؛ فان « في النص الذي يلاحظه الكاتب ملاحظة دقيقة شاملة ، وينحضع كل لفظ من ألفاظه للنقد والتدقيق ، حرية

أكثر مما في النص الذي يقلت من الكاتب إفلاتاً . ومن هنا كان أشد أنصار الفوضى اندفاعاً إلى الفوضى سراعاً إلى نسيان مذهبهم كله حين يقبلون على الأثر الفني . وانظر إلى فكتور هوجو الذي هو ، إذا صدقناه ، قلنسوة حمراء وضعت على معجم قديم . كأنه لم يتخير الألفاظ في شعره تخيراً دقيقاً فيؤثر منها النقي بالمتاز ويهجر الشائع المتبدل . وزعيم السريالزم ، ذلك الذي كان يريد أن يقلب كل شيء رأساً على عقب ، تستطيع أن تهمل قليلاً من شعره — وهو أقله حظاً من الجودة — فسترى بعد ذلك أن كتب أندريه بروتون ، ولا سيما « الحب المجنون » ، تمثل الآن أجمل النثر الفرنسي ، نثر بوسويه ، والرائع من نثر شاتوبريان . ولم يزد كايوا في حقيقة الأمر على أن قال جهرة ما يقوله كثير من الآثار التي تنكر مذاهب أصحابها ، وهو أن قواعد الشعر لها أسبابها وقيمتها ، وأن الشعر المطلق لا يوجد إلا بالقياس إلى الشعر المقيد ، وأن نظام المأساة لا ينبغي أن يتأثر بما يغض من قدر السياسيين الذين يحرصون على أن يحتفظوا بما يلائم أهواءهم من الاضطراب ، وأن الحرص على الطرافة مهما يكن ثمنها يدل على شيء من الهمجية ، و« أن المهم ليس هو أن تبتدىء جديداً ، وإنما هو أن تتقن ما تحدث من الآثار » ، وأن الشعر ، كما كان يقول مالرميه ، يأتلف من الألفاظ لا بما لاسبيل إلى التعبير عنه ، وأنه لا يكفي لجمال الصورة أن تكون مفاجئة ، وأن الخير في ذلك أن يلائم الكاتب بين البدهاة والفجاءة ، وأن الفن للفن وهو نوع من هو الفنانين « لا يستطيع أن يرضى إلا هذه الجماعة الضئيلة التي تراها غاية الغايات » ، وأن الفن خلاق بتقدير أوسع وأشمل بحيث يستطيع أن يمس كثرة الناس وأن يبلغ من الإنسان « أيسر مشاعره وأكثرها إلهاً » ، وأن الكتاب إذا حسن أسلوبه ، وهذا هو الشرط الأساسي لكل أدب مثقف ، فليس ما يمنعه بعد ذلك من أن يكون شديد الملاءمة للخلق ، معيناً على إصلاح القيم .

وعلى الجملة « لا بد من التعليم في الآداب وفي الحياة كما في العمارة ، ولا سبيل إلى إيجاد الأسلوب إلا من طريق البناء والتأليف » . ونحن نعرف هنا هذه المقتضيات التي تفرضها اللحظات السعيدة حين يعمل العقل في مادة مصهورة مرنة ، فينشئ منها آثاراً نادرة يقيمها التوازن في مكان مقسوم بين الصور الهندسية الجافة والانتاج الطبيعي المختلط ، وهي لحظات الانتاج الكلاسيكي .

في صحراء الأقدار

الأقدار العاتية ، هائجة مائجة ، تهبّ على رجل في الحلقة السادسة يحمل حياته على كتفين هزيلتين ، قد برت الأيام ما كساهما من قوة الاحتمال . والحياة على كتفيه قلقة متفززة ، يخب بها تارة ويضع تارة ، ويترجح من وقرها إلى أمام ووراء . والأقدار تطوح به ذات اليمين وذات الشمال ، وتميل به في صحرائها كل ميل ، وتهيله على حسكها كل مهيل ، وتلطمه اللطمة تلو اللطمة وتكيل . حتى إذا لاحت في تلك الصحراء الهائلة واحة — والأقدار تترفق بالواحات ، وتدفع إليها في الشدائد والملمات — كان الرجل قد تخاذلت قدماه ، فبدا له أن يضع العبء على الأرض ويتأمل الحياة .

إنه يجدها شوهاء نكراء ، لا منفذ فيها لرجاء ، اللهم إلا تانك العينان اللتان تكران فيها إلى الوراء ، وتانك العدستان التي تقربان منها البعيد . ويقبل عليها يطل من عينيها على الماضي ، ومن عدستها على الذكرى ، وهي من ورائهما فسيحة الأرجاء ، طليقة الرحاب ، قد أسدل فيها ستار على كل باب ، وعهد الزمن إلى أبنائه بتلك الأبواب . ويذبح له الصبا ستاراً من تلك الأستار ، فإذا طفل على صورته في الثالثة من عمره ، تحمله امرأة ليست بأمه ، وحولها مأتى قائم ، وعويل صاخب دائم . ويكتنف الطفل الغموض فلا يدرى على التحقيق ما يداخل الطفل من مأتى أيه ؛ فقد تركه في الثانية من عمره ، وكان اليوم تمام العام على موته .

ويرى الطفل بعد ذلك في كنف أمه ترعاه ، وتحت سلطان الأكبر من إخوته يهمله ؛ الأم تضربه لتؤدبه ، والأخ يضربه ليعذبه . الأم تدخر له لتعلمه ، والأخ يبدد ما تدخره له . والطفل في تلك الأثناء ينمو على صورة ما ؛ إذا جاء أمه با كيّامن عبث الصغار انتهرت ، فتعلم ألا ييكي من العبث ؛ وإذا

قصد إلى أخيه ليقضى له أمراً ، منعه إياه ، وألحق به أذاه ، فتعلم كبت الشهوات ورياضة النفس على الحرمان .

ويتأمل الرجل من عدسى الحياة ويطيل التأمل وقد أهمته سيرة الصبي ، فيجده يخدم أخاه الأكبر على المائدة ولا يؤاكله ، وأخوه الأكبر يتزود من الأطايب بالنصيب الأوفر ، ويدع لأخويه الصغيرين والأم النصيب الأصغر . وتقطع الأم ولديها نصيبها القليل ، فيعتاد الطفل الرضا بالقليل ، وألا يطمع في غير عطف الأم وهو جد كثير .

ويرى الطفل ذاهباً إلى المدرسة خالي الجيب ، ليس فيه مما يشتهى الأطفال قليل أو كثير . ويعود الطفل من المدرسة فيلزمه أخوه البيت بحجة المذاكرة ، فينشأ قعيد البيت ، أليف ما يتردد عليه ، قريباً من بنات الحيران ، حبيبات إليه . ويروع المتأمل أن يرى طفله يعرج في ساحة الذكرى على منعطف الأوزار ، فيقف بالغريزة وهو بعد صبي في العاشرة ، وهي امرأة قوية شديدة البأس . ويراها تداعبه وتحتضنه ، وتلقى به إلى بناتها يتلقفنه وهن بعد غرار ، فيعبثن به ويعبثن بهن وهن وراء الأستار . وتدعوه إحداهن فيستجيب لها ، وتغريه كبراهن فيسيء الاختيار ، وينصرف عن المذاكرة إلى المعابشة ، ويحسن من الدرس علم الكلام ، ويرهف من الحس عاطفة الهيام .

ويتابعه المتأمل في الثانية عشرة إلى المدرسة ، فيلفيه المختار بين الصغار ، والمتحدث الذي لا يشق له غبار . ويقدم إلى الشخصيات العظيمة ليلقى كلمة الترحاب ، ويقف في مواقف الكلام ملء الإهاب .

فيغتنب المتأمل بمرأى طفله ومشهد ماضيه ، ويرتد عن عدسة الحياة إلى تأمل الحياة ، فيجدها هذه المرة باسمه ، ويجد ما كان تشوه منها قد برى من العيوب والأسقام ، ويجد الرجاء يطل من عينيها وفي يده خيط يربط ماضى الغلام في الثانية عشرة يحاضر الرجل في الخمسين ؛ فيحتملها عن الأرض يكاد لا يحس لها وزناً ، ويضعها على كتفيه لا تحسان لها وقرأ . ويسير منتصب القامة والحياة أمامه ووراءه ، وعن يمينه وعن شماله ، مريحة ضاحكة ، لاهية لاعبة . ويبلغ الواحة والأقدار ساهية ، ويدخلها والآمال فيها حوض من زهر يسقى من كوثر ، فيطيب له الجلوس على حافة الحوض الأزهر ، وتنقلب حياته فراشاً زاهياً يتنقل بين هذه الأزهار ، ويتغذى بآمالها الكبار والصغار . ويفيض الشعر من حوله

جدولا منساباً ، وغديراً وثاباً ؛ وتنسجم مشاعره فهي رائحة غادية ، مختالة متهادية . وينفسح خياله ليتلقى العرائس الهابطة السابجة ، والحياة تضم هذا كله ولا تفلته ، وتلمه ولا تشتته .

ويتعب الخيال من كثرة ما جاب في واحته فينام ، ويرى الحقيقة في منامه فيحاول اللياذ بالفرار ، فهي عدوته من قديم الزمان ، ولها عليه سلطان ، يغمره آنأً وينحسر في أكثر الأحيان . فتعاجله الحقيقة بوخزة من إبرتها قهبط فقاعته ، وتركد حركته ، ويزول سلطان الخيال عن الرجل الجوال ، الساكن إلى نعمى الآمال . وتقص الحقيقة ذلك الخيط الذي ربط به الرجاء ماضى الغلام بحاضر الرجل ، ويتحول الفراش الخفيف إلى هولة ثقيلة ينوء بها كاهله ، ويحس نشوب أظفارها في تينك الكتفين اللتين عاودهما الهزال ، وعاددت عليهما الحياة الربوض والإثقال .

ويرتد الرجل إلى صحراء الأقدار تتنكر له من جديد ، وتصطف أمامه الهموم للهجوم ، وتضرب حوله نطاقاً من نار وحديد . إنه يعود إلى دنيا الحقيقة : دنيا الحنظل والأشواك ، ويحس حياته فوق كتفيه مرهقة مرهقة . ويتمثل له العمل الذي يزاوله يصطدم فيه بعقد النفس ومركبات النقص ، وينغص عليه العيش . وعمله بين هذه الهموم يزامله فيه أصدقاء شر من الخصوم ، همهم الكيد له في الصميم ؛ كلهم يبسم له ، وكلهم يسقيه في ابتسامته شراباً من حميم . يعلم سبلهم ويعفّ عن انتهاجها ، ويرى مكرهم ويأبى أن يمكر بهم . ويتبين بين الهموم همّاً يحاول أن يخرج عن الصف ويشب عن الطوق ليخنقه : هو تلك الطفلة التي رباها صغيرة ورعاها كبيرة ، وكانت أنسه وغبطته . تلك التي أبقت عليه شبابه ، فلما فارقت أحس ديب الكهولة يسرى في عظامه ، والأرق يقتحم عليه كل ليلة منامه ، والذكرى تطغى عليه فتثير آلامه . يراها بعين القلب حين يأوى إلى فراشه ، فتشتد لوعته ، ويفيض حنينه ، ويظل الساعات يتقلب على جنبه والنار تلهب جوانحه ، وتكوى ضلوعه . وقد يظل الليل بطوله على هذه الحال ، فاذا نهض من نومه تمثلها بعين الخيال ، فتظل الساعات في البيت وفي الطريق وفي المكتب ، ثم في البيت ثانية نصب عينه ، ومرمى فكره ، وشغله شاغل . فهي سهومه ووجومه ، وهي يأسه القاتل ، بعد أن باتت أمله الزائل .

وبين الهموم هم يحاول ألا ينخرط في هذا السلك ، وأن يشيع في الظلماء
النور ، وفي الدهماء الجبور . إنها امرأته التي تزوجها صغيرة دون العشرين ،
غريرة لم تبلغ الرشد ، نحيلة عليلة ، هادئة قانعة ، لا تكلفه مالا يطيق ، وتحتمله
وقت الضيق .

كانت دون ما يطلب وفوق ما يستحق . لم يدر حين تزوجها أيحيا أم لا
يكثرث بها ، أتسعه أم يشقى بها . وما يزال بعد عمر طويل يسأل نفسه هذا
السؤال ، ولا يدرى ما المال .

تخلص له ، وتتعهد حاجاته ، وتماشى رغباته ، وتضحى في ذلك بالكثير
من راحتها ، وتذلل العصي من مشيتها ، وتبيئ له من أسباب الهناء ما هو خليق
أن يهنئه ، فلا يهنئه .

رزقها الله منه بنت شد ما اشتاقت أن تعزها بولد ، فشاءت الأقدار أن
تحرمها البنت ، وتحبس عنها الولد . ولم يعزها أنه يذكر من ماتت وبيكها ،
ويعزف عن كل من لعله يعوضه منها فينساها .

ترفع في بيته مشعلا من الإخلاص تعصف به الأيام بين الحين والحين ،
فتذبذب شعلته فلا تستقيم . لكن شيئا لم يستطع أن يطفئه رغم ما عمل على
إطفائه ، ولم ينفع هبوب الأقدار عليه إلا في اتساع شعلته وانتشار ضيائه .

وبين الهموم ما يخطف على خاطره كالبرق فلا يضيئه ، بل يسدد سهمه إلى
فكره فيدميه ويشيع الاضطراب فيه . فهذه حاشية تعرض له في حاضره كما
يعرض الشريط : هذا أخ ينهش في لحمه فيجرّحه ، وهذا صديق يأخذ من ماله
ووفائه فينكر كليهما : المال والصديق . وهذه أخت حنا عليها ، وصان أصغريها ،
ولم يدع مناسبة إلا سعى إليها ، وتذكر أعيادها فأهدى إليها الهدايا ، وأعرست
وأنجبت فأجزل لها العطايا ، وأساء وأساءت فما أسر لها حفيظة ؛ حتى رآها تتغير ،
وبدا عليه أنه تغير وما تغير ، فما هي إلا أن تصطدم بمصلحة لها حقيرة ،
بمصلحة له جليلة ، حتى تنقلب أفعى تلدغ ، ونميرة تنهش ، وحتى يمتد لسانها
عليه ، فلا ينقطع من الخجل قبل وصوله إليه ، فيبهت كالذي كفر وما كفر ،
ولكن كفرت وما بهت .

ونفسه التي بين جنبيه أشد همومه ، فهو محبوب مكروه : يحبه من يحبه
فيسرف في حبه ، ويكرهه من يكرهه فيسرف في كرهه . لا يعرف مبغضوه ألا

يكثر ثواله ، ويعرف هو دائماً ألا يكثر ث لهم . لا يمس إحساس أحد ، ويغضى عن كثير ، ولا يتعهد علاقة ، ولا يقطعها يده ؛ ويحيط نفسه بسياج من التحفظ لا يقرب أحداً منه ، ويرفع أحياناً ستار التحفظ فيعلقه من يقربه ، ثم لا يلبث حين يسدل الستار أن يفلقه . يعيش مع نفسه لغيره أكثر مما يعيش لنفسه ، ويحفظ غيبة الناس ، والناس لا تحفظ غيبته . يتكدر ويصفو ، فلا يحتفظ بعد الصفو براسب الكدر ، ويبدو له الغل والسخيمة فلا تفوزان منه بغير الهذر ، ويفطن إلى السيئة الخفية فيثور ثورة القدر . رقيق الحاشية ، شديد التهذيب ، لا يلقى مع ذلك إقبالا ، دقيق شديد التدقيق ، لا يشجع اتصالاً .

ما يزال الرجل في صحراء الأقدار يخب فيها ويضع ، ويترجح إلى أمام ووراء . وما تزال تلك الهولة المهولة المسماة بالحياة رابضة فوق كتفيه ، يهولها تربص الهموم فتزداد تشبثاً بالكاهل ، ويزداد ضغطها عليه . لكن الرجل يسمع من بعيد وقع عكاز ، فيلتفت فيرى عجوزاً تدب . إن بينه وبينها شقة ما تزال بعيدة ، وهذه العجوز من دأبها أن تسير ببطء ، لكنها هذه المرة تغذ السير وتحجل كالغراب . إنها تحاول أن تدركه لتزامل الحياة على كتفيه ، وقد تنتظر الحياة حتى تدركها الشيخوخة ، وقد تحطفها الهموم قبل الأوان .

لقد زهدت الإقامة فوق كتفى الرجل على كل حال ، وقد لا يطول المقام بها فوق ما طال ، فالحياة لا بد مفارقة .

محمود ا. الرموقى

الأثر الأخير لزعماء الفن

إن تعاقب الأساليب — بحيث يدل كل منها على فكر فني خاص بل على موقف مختلف من الحياة — ظاهرة يمتاز بها العالم الغربي . فالاتجاه الفلسفي والفني في الأسلوب الغوطي gothique يناقض كل المناقضة اتجاه عصر النهضة ، ومن جهة أخرى لا يقل هذا اختلافاً عن اتجاه العصر التالي أي نحو الشذوذ le baroque . فليس هناك نمو منطقي أو نضج لفكرة واحدة قد يمكننا تتبعها في مختلف مراحلها . ذلك أن تلك الأساليب تملأ في الواقع من أي رباط داخلي ولم يستقر كل منها إلا بضعة أجيال .

هذه التقلبات — وكثيراً ما تكون فجائية تتناقض في معظم الأحيان تناقضاً حاداً — تحملنا على الاعتقاد أنه في ميدان الفكر كما هو الأمر في العالم الطبيعي يلعب قانون الفعل ورد الفعل دوره . ومع ذلك فالحضارة الصينية لا تعرف إلا أسلوباً واحداً وهو الأسلوب الصيني ، وتتجه في تقلباتها البطيئة المطردة نحو غاية واحدة دون غيرها ، مظهرة بذلك القانون الدفين في كل كائن عضوي وهو قانون الحياة . ومثل ذلك يحدث في الفنون الفرعونية والعربية . فكل انقلاب فجائي يفسر هنالك بتدخل عناصر خارجية كطروء جنس جديد من الناس أو تغير في الموقع الجغرافي .

غير أنه فيما وراء هذه الأساليب المتنوعة المتباينة التي يخضع لها منشئو هذا العصر، بل فيما وراء ما يمكن أن يوجد من أسلوب شخصي قد يستطيع الانسان ، سواء كان سابقاً لعصره أو متنبئاً ، أن يبتكره معارضاً للأسلوب المقرر ، ومستقلاً عن التيارات والنماذج الفنية المتوارثة ، فيما وراء هذا كله نلقى من حين إلى حين أسلوباً يتجاوز كل هذه المقتضيات . في هذه الظاهرة تصطدم عوامل بيولوجية باتجاهات معنوية بحثة . وتحملنا هذه الظاهرة على الاعتقاد أن كل فنان ، سواء كان غوطياً أو شاذاً ، شاعراً أو موسيقياً ، يتخذ في بعض أطوار حياته أسلوباً خاصاً وثيق الارتباط بسنه . وكذلك يظهر التناقض بين التوقيت الذي يعرضه المؤرخ ،

والتوقيت الذى تعرضه الحياة ، وتصبح دقات القلب مقياساً لا يستطيع علم التاريخ إنكاره .

تبدو القرون للمؤرخ مغمورة بضوء متساو ، خالية من الأيام والليالى والفصول ، ويوضع فيها الناس وبينهم المنشئون وضعاً متشابهاً دون أى اعتبار لظروفهم الانسانية . غير أن مقاييس الزمان هذه ، وهى حدود ضرورية بالرغم من جهودها ، ليست إلا نتيجة الخيال . فليس لنا بد من الاعتراف بأنه إذا كان عصر من العصور مجرد زمن محدد نميل إلى اعتباره واقعة ثابتة ، فانما يكونه أناس ذوو حيوية متنوعة وأسنان مختلفة . وإذا كان الوجه الذى يضيفه إلى عصر من العصور ينعكس على المبتكرين من أهله — ولكل من الأجيال لونه وملامحه — وإذا كان توقيت الميلاد والوفاة يطوق فى آن واحد نظاماً من النظم السياسية ويحدد لحظة تاريخية بعينها ، فان معرفة سن المبتكر عند ابتكاره يعين كثيراً على تفهم الأثر وسره . وفى الحق أننا بهذا نعرض للجبر تأثيراً لا يخلو من الغلو ونغض فى الظاهر من حرية الفنان . ولكن إذا قبلنا أن الفن متأثر بنظام يألف فيه الجنس والعصر والموقع الجغرافى والظروف الاجتماعية فى توازن لا يكفله إلا تضامن تلك العناصر جميعاً ، فان إضافة المؤثر البيولوجى عند الفرد لن يزيد من قوة هذا الجبر كثيراً . فالفنان يتأثر بسنه وبتجربته فى هذه السن ، كما يتأثر بجماعته الروحية وبجنسه وعصره . وهكذا يظهر عامل جديد يجدر بنا أن نتعمقه كل التعمق .

فاذا عرضنا على هذا النحو لآثار رانبرانت Rembrandt أو ميكيل أنجلو Michel-Ange أو بيتهوفن Beethoven أو تولستوى Tolstoi أو جوته Goethe أو سيزان Cézanne ، تلك الآثار التى ابتكروها فى الثلاثين من أعمارهم ، فسنجد عناصر متشابهة لا تظهر فى الآثار التى ابتكروها حين تقدمت بهم السن . فهذه العناصر نتيجة مباشرة لسن الفنان ولتصور حياته وإلى ما له فى هذه السن من تجارب . وإذا أتىخ للفنان أن يبلغ بحياته السن التى قدرتها الطبيعة عادة للانسان ، هنالك يظهر فى الآثار التى أنشأها فى الستين من عمره أسلوب ترتسم فيه خصائص متشابهة معينة بحيث يمكننا أن نتحدث عن أسلوب للشيخوخة . إذا أنشأ الفنانون آثاراً فى أواخر حياتهم ، مهما تباعدوا فى الزمان والمكان ، فان هذه الآثار تتشابه تشابهاً غريباً فى حرصها على الأشكال المقررة وفى تناول الموضوع . ومن الواضح أن هذه الظاهرة لا ترى عند هؤلاء الفنانين ،

الكثيرين ، الذين فارقوا الحياة وهم شبان سواء كان ذلك عن مرض أو موت عنيف .

إن التحليل المنطقي الذي نحاوله لنعرف أسلوب الشيخوخة أمر يسير جداً في الفنون التشكيلية *Arts Plastiques* كالنحت والتصوير ، ولكنه عسير في الموسيقى . ذلك أن طابع هذه الفنون نفسه مادي ، وأن الفنون نفسها أقرب إلى المادة من سائر فروع الفن ، ولأننا كثيراً ما نرى الفنان يتناول الموضوع نفسه مراراً أثناء حياته . ففي هذه الحال تكون المقارنة منتجة . فان اتحاد الموضوع يبرز بوضوح مظاهر لتعديل الآثار التي تتأثر بها القيم المختلفة للأثر . ويقدم لنا ميكيل أنجلو جميع عناصر المقارنة . فقد تناول الفنان موضوع التقوى *La Pietà* والأم الثكلى *Mater Dolorosa* مرات ثلاثاً : الأولى في سن العشرين والثانية في سن الخمسين والثالثة في العام الثامن والثمانين من عمره . ثلاثة مراحل سلكها الفنان وثلاث محاولات لموضوع واحد تقوم في هذه المراحل مقام الأعلام ، وفي كل منها ملامح لمظهر نفسي عند رجل ذي نضج خاص . والمحاولة الأولى (سنة ١٤٩٩) وهي الآن في كاتدرائية القديس بطرس بروما ، من آثاره الأولى . وقد صنعها بناء على طلب خاص . وهذا مهم إذ يحق لنا أن نتساءل أكان ميكيل أنجلو في عمره هذا قد يختار عمداً مثل هذا الموضوع . في الواقع أن ذلك الموضوع ، أي الأم الباكية على جثة ابنها الذي أنزل من على الصليب والذي يرقد للمرة الأخيرة على حجر أمه قبل أن يودع القبر ، نادراً ما يرى في إيطاليا لطابعه المؤثر . فقد يكون بطبيعته هذه أعظم حظاً من ملاءمة طبع الشعوب الجرمانية التي تميل إلى المأساة . ولم يتأثر ميكيل أنجلو إطلاقاً بالتقاليد . فحله للموضوع حر شخصي وملائم لمزاجه . إن أهم الأمور للفنان شأنًا ، وهو الذي يوجه إليه كل جهده الفني ، هو إنشاء مجموعة يجب أن تضم شخصين . وهذا أمر قاس من ناحية النحت وشاق في نفس الوقت إذ أنه يجب أن يوازن حركتين متناقضتين وهما : حركة العذراء الجالسة في وضع عمودي ، وحركة الجثة الراقدة على حجرها في وضع أفقي . وقد حل ميكيل أنجلو هذه المشكلة بعقريّة فذة . فبواسطة الملابس وانحناء خفيف في جذع العذراء والتواء في جسم المسيح تنسجم هاتان الحركتان في قالب واحد ، يسوده توازن تام وانسجام بديع ، بحيث يمكن أن يطوق هرم متساوي الأضلاع هذا الهيكل النقي للمجموعة ، وتصبغ عليه

القاعدة الواسعة من الاستقرار الهادئ والاتزان الكامل ما لا يمكن أن ينال منه أى تعبير متألم أو معذب . أما الأشخاص فقد سما ميكيل أنجلو بها، ولكنه راعى فى أشد الدقة الحقيقة الطبيعية . فتناسب الأعضاء ونظام الطيات والملابس التى تستجيب فى حركاتها لقانون الثقل وخصائص النسيج ، كل ذلك أنجز بعناية ودقة رائعة . فلم يبتعد الفنان مطلقاً عن النموذج بل على العكس أطنب فى التفاصيل مثل العروق الناتئة على يدي المسيح اللتين تتدليان هامدتين ، والأثناء الدقاق على قرطق العذراء ، كل ذلك أنجز بشغف بالغ لعله أن يعرض الناحية الروحية لبعض الخطر .

إن ثروة العالم الطبيعى وتنوع ما فيه من صور يجتذبان الفنان الشاب اجتذاباً عظيماً ، فمذهبه الطبيعى الواقعى بما فيه من مراعاة لجميع التفاصيل ناتج عن ذلك . ألم تعنه القيم الروحية والدينية ومظهر الحزن على وجه العذراء فى هذه اللحظة المؤثرة ؟ ألم تؤهله بعد تجاربه الشخصية على فهم ذلك ؟ مهما يكن من شئ ، فوجه العذراء التقليدى (الكلاسيكى) الهادئ لا تغير فيه أى علامة من علامات الحزن .

وقد لوحظ دائماً أن هذا الحزن أبهى لا يعبر عنه إلا بإشارة اليد ، هذه التى تبسط لتدل على إعياء قد بلغ أقصاه .

وبعد سبعين عاماً تناول ميكيل أنجلو نفس الموضوع ، ولكنه فى هذه المرة قد قاده إليه الاختيار، بل كان الفنان قد خصص ذلك الأثر بضريحه هو ، وهو آخر ما نحته يده . ولنلاحظ أن ميكيل أنجلو تناول هذا الموضوع قبل ذلك بعشر سنين ولكنه لم يتم هذه البييتا ، وهى الآن فى كنيسة سانتا ماريا نوفللا Santa Maria Novella بفلورانس . وكثرت الأساطير حول هذا الأثر ولكننا لم نعرف ما هو الباعث الحقيقى الذى حمل الفنان على ترك هذا العمل . ولعله لم يجد نفسه بعد قادراً على ذلك ، فكان كل عذر كرداءة المادة مثلاً كافياً لصرفه عنه . غير أن كثيراً من تخطيطاته تدل على أن هذا الموضوع كان يشغله منذ عهد بعيد . وإذا نظرنا إلى الراحل المختلفة نراها تعبر عن تحول فى موقف الفنان من تصوير الموضوع . فهو يترك الوصف التقليدى للألم التى تبكى ابنها ، شيئاً فشيئاً يظهر تعبير جديد يصور الألم فى نفسه ، بل اليأس المطلق .

وكذلك يظهر الاختلاف بين المحاولة الأولى والمحاولة الأخيرة فى كل عنصر

من عناصر الأثر . فالمظهر الغريب من مظاهر التمثال يترجم عن أسلوب جديد ويحدثنا بلغة فنية تخالف كل المخالفة لغة التمثال الذي أنشئ سنة ١٤٩٩ . وقد استبدل الفنان بالهرم القديم ، وهو رمز توازن وحصانة لا شخصية لها ، صورة طويلة نحيفة متداعية كأنها عمود مثير للحزن لا حركة فيه إلا إلى أعلى كما يتحرك اللهب في ارتفاع مطلق . ومثل هذا ما يرى في التماثيل الغوطية حيث تتحد جميع عناصر الانشاء في اتجاه واحد ، أى اتجاه واحد نحو الارتفاع ، وهو رمز السمو الفكرى .

وفي إثر سنة ١٤٩٩ تبدو العذراء شابة جميلة ، أما في إثر ١٥٧٥ فوجهها ذابل وجسمها نحيل وحركاتها منقبضة . ولم يعنى الفنان باظهار معالمها ، فالأسلوب في غاية الایجاز ، فهو يبسط ويوحى ، وهو ليس في حاجة إلى أن يفسر أو يعلل وصفاً قد يكون في الواقع محالا . وليست هناك فائدة من الوقوف عند تفصيل الوجه والملابس والأوضاع .

وقد اكتفى في النحت رسم الخطوط الكبرى ، فأصبح الأثر وكأنه تجرد من كل المظاهر التي تصل بينه وبين العالم الواقعي . بناء رقيق بحيث لا توجد الصورة إلا لتكون وسيلة إلى التعبير ، وقد سمت المادة حتى برئت من كل كثافة وصلابة . وقد أهمل ميكيل أنجلو القيم الحسية إن لم يكن قد ألغاه ، وسلط على أعصابنا سحراً خلاباً فأثبت في هذا الأثر مظهره الجديد . كل شئ فيه يعين على وصف الألم وإعلان اليأس . وهنا كذلك يرتفع ميكيل أنجلو بموضوعه إلى عالم آخر . فاذا كان كل ثنى وكل ظل وكل انحناء في الحجر يصور الألم ، فليس المراد هنا ألم العذراء ولا تصوير مأساة بعينها ، وإنما البيتة التقليدية تعلقة يتوسل بها إلى إنشاء صورة للألم في أبعد أعماقه . وكذلك يرفع الفنان الشيخ ، وهو على حافة القبر ، يرفع قصة بعينها إلى حيث تصبح رمزاً إنسانياً ، فقد فهم المعنى الدقيق لحادثة بعينها . أعانته على هذا الفهم حياته بما ملأها من التجارب القاسية . ونحن نعلم أن هذا الوثني الملحد قد صار في آخر حياته إلى التصوف ، تدل على ذلك المقطوعة التي يهديها إلى صديقه الكبيرة فتوريا كوللونا Vittoria Collona التي تصور الايمان وتصور معه الأذعان للألم .

فاعراضه عن العناية بالتفصيل وازدراؤه لكل مذهب طبعي ، ليس إلا نتيجة لتغير دقيق داخلي يلتمس لنفسه تعبيراً جديداً . وكذلك يتحقق الاقتراق

بين مادة العالم الواقعي وطبيعة العالم الروحي ، ويصبح من غير المفيد تصوير الغلاف الخارجى . وللتعبير عن الفكرة يجب الاعراض عن كل اتجاه طبيعى والاتجاه إلى اختراع أسلوب جديد مجرد . ومن ناحية أخرى يجب أن يتمتع الفنان عن كل تعبير شخصى إذا أراد أن يصور فكرة عامة ، هنالك تظهر هذه الصورة المجردة العارية كأنما كشفت عن عمد لتشمل الفكرة البحتة ، والخلاصة الأخيرة لكل حياة إنسانية .

ونلاحظ الظاهرة نفسها عند رامبرانت . ولنختار بين آثاره التى استحدثها فى الشباب عودة الابن الضال . فقد أنشئت سنة ١٦٣٦ ، إذ كان الفنان فى الخامسة والعشرين من عمره . وإذا كان قد خلق الأثر خلقاً جديداً فى السنة التى مات فيها ، فقد نستطيع أن نقارن بين هذين الأثرين كما قارنا بين أثرى ميكيل أنجلو . فالصورة الأولى تطابق نص الكتاب المقدس مطابقة توشك أن تكون حرفية . وقد عرض المنظر فى أمانة وهو ممتلىء حياة ومرحاً ودهشة . لقد حدث حدث خطير . أتعرفه ؟ لقد عاد الفتى . ونحن نسمع الجيران والخدم يتساءلون ، ونراهم يستبقون إلى النوافذ والأبواب لينظروا إلى هذا الذى كان يظن أن غيبته كانت منقطعة . وهو يصعد السلم ويدخل البيت القديم ، وعليه أثماله وفى يده عصاه المعقدة التى اعتمد عليها فى سفره الطويل . وهو يرى منزل الأسرة وجدرانها المتصدعة . وأبوه أمام الباب قائماً لاستقباله . يقص علينا رامبرانت هذا كله ويشركنا فيما يثير من الفرح والدهش واضطراب الأشخاص . لم يترك من ذلك شيئاً . وهو يعكف على كل تفصيل من كثير فى الحب حريصاً على ألا يفوته شئ . ونحن نقرأ فى ملامح الوجوه وفى الثياب وفى الضوء ، ونمس الصدوع فى جدران الدار . وثروة من الأفاصيل تمد النظر الذى نريد أن نحيط به المنظر . ولهذه الثروة بيئتها المحدودة ، فنحن نرى سعتها وحدودها بحيث نجد فى الصورة وصفاً أميناً كاملاً .

ويعود رامبرانت إلى هذا الموضوع حين يبلغ الستين ، وهو شيخ فقير وحيد . يعود إلى هذا الموضوع فى آخر حياته التى أنفقها كلها فى إخلاص مطلق وفياً لنفسه ، يعود إليه بعد أن تناوله حين كان نشيطاً فى عنفوان الشباب . واللوحة التى تصور عودة الابن الضال ، والمحفوظة فى متحف الارميتاج بسان بطرسبرج ، مع صورته الأخيرة المحفوظة فى متحف ميونيخ ، تعد من أروع الآثار

الفنية التي أهداها إلينا النبوغ . وقد بقي الموضوع كما كان ، ولكن طريقة التعبير وسعت المنظر الذي رواه الكتاب المقدس فجعلته صورة للعفو والفهم وما يضطر الإنسان إليه من الوحدة والانفراد . وقد تغيرت البيئة تغيراً تاماً ، وتغير معها الجو . فلسنا أمام الدهش الأول والابتهاج بالعودة . وإنما اختار رامبرانت هذه اللحظة الرائعة التي يلتقي فيها الأب وابنه والتي تنتهى فيها المغامرة إلى غايتها . والمكان غامض غير واضح الأعلام فليس له خطر . إنما هى حجرة نتوهمها ويلمح لنا بجدرانها ومعالمها تلميحاً خفيفاً . كل شئ يغمره ظل كثيف مذهب ولكن الوجوه والأيدى التي تشرق بنور داخلى تنشى في هذا الليل الشفاف من الظلال سيئات واضحة . ليس في المنظر حركة عنيفة ولا اضطراب ملحوظ . والأشخاص قائمون صامتون في شئ من المهابة ، والأب قائم يرى مواجهة في الجانب الأيسر من اللوحة وابنه جاث بين يديه . وفي الجانب الأيمن رفاق شيوخ يشهدون في صمت رهيب وقوع حدث لانظير له . لا يدار بينهم حديث ما ، فكل حديث في هذا الطرف لغو ، لأن الشيوخ يتفاهمون بغير اللفظ . وهذا الفهم يتجاوز تبادل المعاني بين الناس ويبلغ أعماق دخائل الضمير . وهو يؤدي بالحركة التي تصدر عن الأب وجهه حين يضع يديه على كتفى ابنه معبراً بذلك عن عفو لا تحفظ فيه ، هذه الحركة التي توشك أن تقول : إني لأعلم أنك لم تكن تستطيع شيئاً ، فكلنا مضطرب إلى هذه الحال . وهؤلاء الرجال الخمسة الصامتون الذين تلوح أشباحهم أكثر مما تظهر قد امتزجوا بالفضاء وقد غمرهم ظله المذهب حتى أنهم ليكونون معه شيئاً واحداً . لا يعملون شيئاً وإنما يخضعون كما يخضع الفضاء لقانون غامض لا سبيل إلى مخالفته ؛ فهم مدعنون لقضاء محتوم . وكذلك يذهب رامبرانت في آخر حياته مذهب ميكل أنجلو فيعرض عن المذهب الطبيعي الدقيق في أسلوب شبابه ، ويترك ناحية الأقايص كما يترك كل استمتاع بالفن . كان في أول أمره قاضياً أميناً لحادث بعينه ، يعرضه في أدق تفصيل وفي طريقة موضوعية . كان في ذلك الوقت ثنائى الشخصية : يأتلف من الفنان والعالم الواقعي الذي لا يشاركه هوفيه ، وإنما هو يترجم عنه في صدق ، ويتحدث عنه حديث الغائب كما يتحدث القصاص عن أشخاص القصص . ويستطيع أن يدعونا كما يدعو القصاص قراءهم ليشعرنا بأنه يتحدث إلينا حديث المؤرخ . ولكن النابغتين حين يتناولان الموضوع نفسه في آخر حياتهما ، نلاحظ

أن طريقتيها في الانشاء تتغير تغيراً تاماً . وعلى ما بينهما من اختلاف في الزمن يوشك أن يبلغ القرن ، ومن اختلاف في الجنس ، فإن هذا التغير يشعر بتحول واحد داخلي في نفسيهما جميعاً . فليس واحد منهما يحاول أن يصور أو يقص نصاً من نصوص الكتاب المقدس . وهذا النص نفسه أليس رمزاً ؟ ولكن النابغتين في طور الشباب لم يكونا ناضجين في أكثر الظن ، أو لعلهما لم يحفلا بالرمز ، وإنما الذي كان يعنيهما هو الامكان التصويري الذي كان النص المقدس يشتمل عليه . ولكن الزمن يمر ويتيح لها الفهم . وقد فقدت ظواهر الأشياء جاذبيتها ، وخلت حوادث المنظر نفسها من قيمها الأولى . وأصبح المهم الآن شيئاً آخر هو الفكرة العامة التي توحى بها الحوادث ، والذين تجري الحوادث على أيديهم مهما تتابع القرون . فلسنا بازاء عودة الابن الضال كما أننا لسنا بازاء حزن العذراء . كل ذلك رمز ، وترجمته الموضوعية ترتفع إلى حيث تصبح حقيقة خالدة . أكان الذين سطوروا الكتاب المقدس شيوخاً كهؤلاء الذين يعطون الرمز معناه الحقيقي ؟

ونحن نجد عند رامبرانت في شيخوخته ، كما وجدنا عند ميكل أنجلو ، هذه الآثار العارية التي لم يترك فيها مكان للمذهب الطبيعي ولا للتفصيل . ذلك أن الترجمة عن فكرة عامة وعن المأساة التي تصل بحياة الانسان تحتاج إلى أسلوب مجرد . وكذلك نلاحظ التعارض بين الشباب والشيخوخة ، كما نلاحظ التعارض بين التركيب والتجريد .

ونستطيع أن نمضي في هذا البحث ، وأن نمد السلسلة ، ونتبع هذه الآثار لنرى الحياة تعمل بنفسها ، فتنشئ الصلة الدقيقة بين الأثر والدم الذي يجري في عروق منشئه . ولسنا نريد أن نضع قانوناً دقيقاً ، ولكن الشيء الذي لا شك فيه أن هذا النجم الفريد الذي هو الفنان يبقى حتى في آخر الآثار التي يتركها لنا . ولكن لا يوجد الفنان الذي يستطيع أن يفلت من هذا السيل الجارف الذي يكتسح كل شيء ويغمر كل شيء ، وهو الزمن . وأي تحول دقيق لا يظهره لنا تيزيانو Le Titien في إحدى لوحاته الأخيرة ، وهي تصور موضوعاً محبباً إليه امرأة عارية مستلقية ومعها عشيقها . وهو موضوع من موضوعات الأساطير تناولها الفنان غير مرة في حياته الفنية الطويلة . أي سلم من سلم الشعور

«التينا» ميجيلاكست (١٩١١م)



«الكلاب» ميجيلاكست (١٩٥٠م)



لم يعرض في هذا الموضوع ؟ ولكن حين تقارن بين لوحة من أسلوبه في أثناء الشباب ، وهي لوحة دنايه (١) تحت الغيث الذهبي المحفوظة في متحف فين ، مع لوحة من أسلوب الشيخوخة محفوظة في المتحف نفسه « النامف (٢) والراعى » نلاحظ نفس التحول : فجسم المرأة واحد تقريباً في اللوحتين اللتين تشتركان شيئاً ما في لون مذهب ، ولكن دنايه تستقبل الغيث الذهبي في سرير العرس . فيخيل إلينا أننا نسمع هفيف الحرير اللامع ورنين القطع الذهبية وصيحة الدهش تدفعها الخادم المروعة . وكأننا نحس حرارة الجسم النقى ، وبرد الذهب ، وكل هذه الجماعة من الاحساسات التي تتصل بالأذن واللمس والعين ، هذا النعيم النقى الذى تنقله إلينا هذه الأجسام الملساء الناعمة المعدنية التي تتكون من مواد متباينة ، حتى إن السحر ليداعب كل حواس الناظر إلى اللوحة . فاذا عاد تيزيانو بعد خمسين عاماً إلى هذا الموضوع الذى يؤثره احتفظ بمواده . فهي امرأة متجردة مستلقية وإلى جانبها عشيقها ، ولكن الجو يتغير تغيراً تاماً . فلسنا أمام الغرفة المترفة قد قام فيها السرير الواسع عليه كلة من القטיפه ، وإنما يقوم مقامها منظر من مناظر الأحلام : مغرب الشمس التي تلهب أشعتها الأخيرة السماء بحمرة قانية حيث ينشر الليل أستاره ، وشجرة جرداء ترفع عودها الملتوى ، وشئ حزين مروع كأنه الانتظار يضطرب في الجو . والنامف ترى مستدبرة وهي تلتفت إلى الراعى وقد جلس عند قدميها . لقد لعب بالمزمار وأتم اللعب وهو يمسك المزمار في يده . واللحن ما زال يضطرب في الهواء . وفي هذا الصمت الكثيف تسمع المرأة ويسمع الرجل ، اللذين لم يبقيا عاشقين ، لشئ قد مضى .

أيجب أن نعيد ما قدمنا ؟ فان تيزيانو في شيخوخته كغيره من الفنانين قد ترك إغراقه في الاحساس ذلك الذى ينطق به كل مادة أثناء الشباب ، وترك كما ترك غيره كل القيم التي كانت تروق العين وتملئ الحواس . أين تألق الألوان ؟ أين المواد الغنية المتموجة ؟ لقد ابتكر جواً جديداً عارياً شديد الكثافة ، فأضفى عليه واقعية مخالفة تلك التي كانت تتجه إلى الحواس .

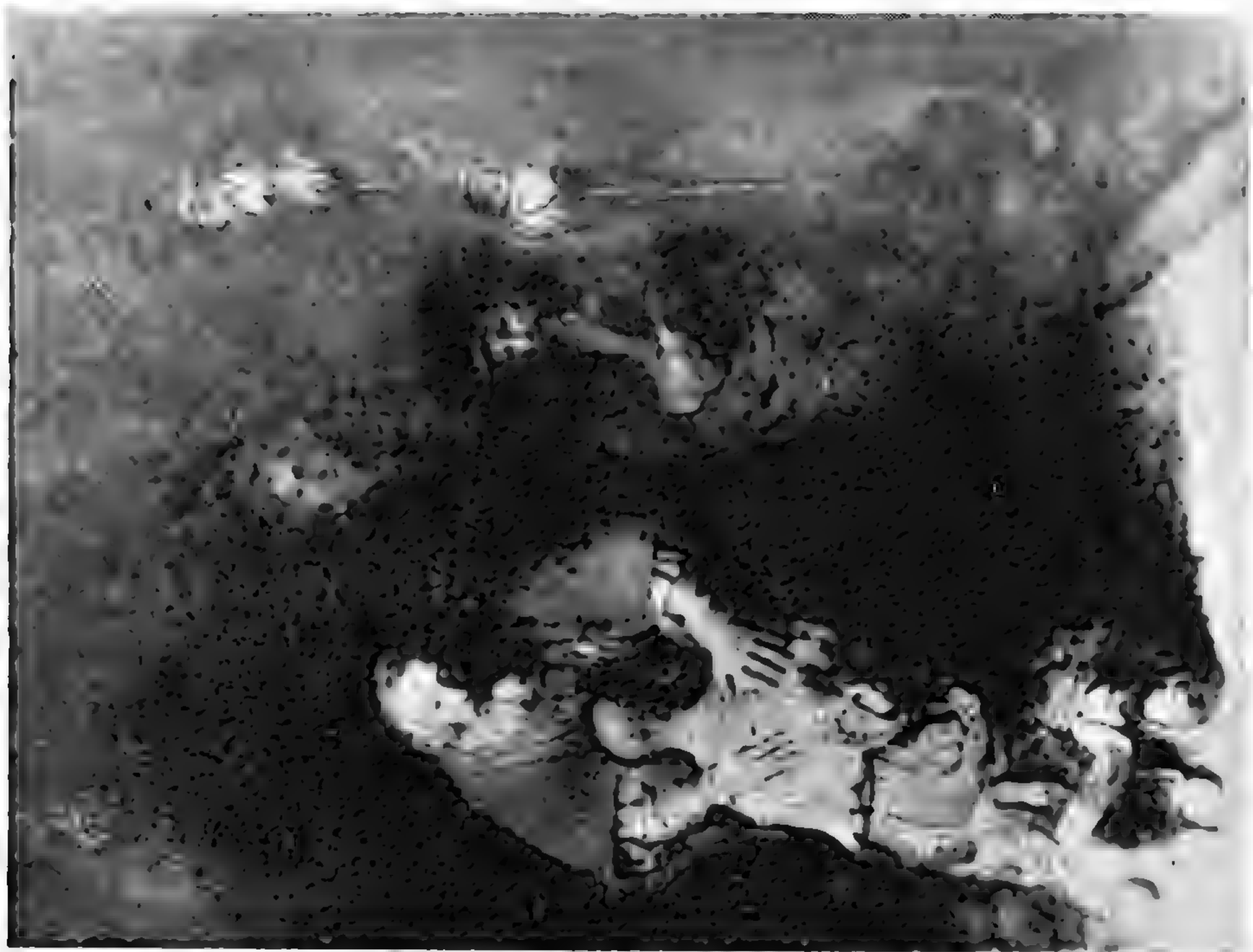
وفي عصرنا هذا تعرض سيزان للتجربة التي تعرض لها سابقوه . فنحن نعرف أسلوبه الشاذ العنيف في آثار الشباب ، والألوان الحارة والحركات الملتوية ، وكل

(١) فتاة من فتيات الأساطير أحبا كبير الآلهة قصور لها غيثا ذهبيا .

(٢) جيل من الآلهات العذارى كان يعيش في الماء والريف حسب الأساطير اليونانية .



«عودة الابن الضال» لأمبرانت (عام ١٩٣٦)



«عودة الابن الضال» لأمبرانت (نحو عام ١٩٦٨)

هذا الجو الحسى المثير الذى يصور الفنان يصارع شيطانه . ولكننا إذا قارنا آثاره الأولى مع آثاره التى ابتكرها بعد ذلك ، لاحظنا اختلافاً عظيماً يضطرنا أن نسأل أنفسنا أصدرت هذه الآثار المختلفة عن فنان واحد . وقد يصل سيزان أكثر من غيره بتخفيف الخصائص الطبيعية فى تصويره إلى درجة من التعرية والتجريد توشك أن تتجاوز طبيعة الانسان تجاوزاً تاماً . ومع أنه يحتفظ بالموضوع فإن التصوير لم يصل قط عند غيره إلى هذا الحد من التجريد . ولعل مصدر ذلك أن تصويره للواقع الطبيعى فى الطور الأول من حياته كان قوياً عنيفاً . فاذا حاولنا أن نعرف أتنطبق هذه الملاحظة على فنون أخرى غير النحت والتصوير ، فقد نرى أن أسلوب جوته يمتاز فى شيخوخته بصفاء خاص . هذا النابغة الممتاز الذى تبرز حياته وآثاره امتزاجاً تاماً دقيقاً قد وعى على التقريب مراحل حياته كلها . كان نموذجاً لطبيعة قوية متصلة أدق الاتصال بدور الحياة العالمية ، فكان نموه كأنما يعكس الأحوال والفصول التى تأتلف منها حياة الانسان . هذه الحياة الرائعة الصافية المتوازنة تعبر كل المشكلات وكل التجارب ملائمة فى ذلك بينها وبين ما يختلف عليها من الأصوار . وهى بمحدثها وقوتها البالغة توشك أن تكون تصويراً دقيقاً لهذه الحال .

فحركة تفكير جوته تصدر عن حرارة دمه ونحن نرى الأطوار الثلاثة التى تأتلف منها حياة الانسان ، وهى الشباب والكهولة والشيخوخة ، ترتسم فى آثاره كما ترتسم فى تفكيره الفلسفى واضحة خلاصة . وأكثر من هذا أن جوته قد فصل بين هذه الأطوار . وكما أنه أنشأ آثاره الفنية ، فهو قد أنشأ قصة حياته الرائعة نفسها . فهو فى شبابه متأثر بأنا كريون فى اندفاعه واضطراب عواطفه . وهو يختم هذا الطور بالذهاب إلى قصر ويمار . هنالك يصبح محافظاً بعد أن كان ثائراً متصوفاً ، وقد هدأت حياته واتخذت لنفسها غاية هى تنظيم دولة على نحو السياسة التى رسمها أفلاطون . وجوته فى هذا الطور وزير قبل كل شئ . فهو ينظر إلى الحياة من نواحيه المادية المركبة ، ونشاطه مقصور على مسائل عملية ، فهو معنى بتنظيم العلاقات بين الناس . ولكن هذا الطور الذى يحياه جوته فى قوة وعنف ينتهى إلى غايته ، ويدخل الكاتب فى الطور الأخير من أطواره . وفى هذا التنظيم الذى يهيئ نوعاً جديداً من الحياة ، ولكنه يبدأ بهدم الحياة الأولى ، نشهد أزمة خطيرة ، فكل شئ ينهار قبل أن يستقر توازن جديد . ونفس أعظم

الناس تصبح فريسة لزوبعة عاصفة تهدم كل القيم والآراء التي كانت مقررة إلى الآن . وهذه الأزمة التي تفصل بين هذين الطورين من حياة جوته هي أعنف الأزمات التي نعرف أنها عرضت له . ولأجل أن يحرق جوته نفسه، ينزع نفسه من كل شيء ومن كل إنسان . يتخلص من كل الصلات التي كانت تربطه بويمار ، صلات الصداقة وصلات الحب، ويلغى كل ما كان ادخر ، حتى إذا وجد الحرية سافر كأنه هارب يمضي أمامه حتى يعبر الألب . وكما أن سفره إلى ويمار قد بدأ طوراً جديداً من حياته ، فسفره إلى إيطاليا قد بدأ طوراً آخر . وفي الحق أنه في ظل الطبيعة الإيطالية الصافية قد أخذ يجمع بين استقصاء كل القيم . وبعد امتحانها وتعديلها يصل إلى توازن جديد، ويقف من مشكلات الحياة موقفاً جديداً، ويستحيل من وزير إلى عالم . وأصبحت المشكلة التي تشغل هذا الطور من حياته هي مشكلة المعرفة ، معرفة القوانين المستقرة في الصور المختلفة وقوانين التناسق التي يقوم عليها العالم . وهو يعنى بعلم النبات ، وبالتشريح ، ويصل إلى نتائج تجعله ممهداً لأصحاب التطور ، وهذا النشاط هو الذي يميز طور هذه الأزمة في حياته . وهو يعود إلى ويمار ولكن مظهره بعد هذه العودة يكسب شيئاً من الجلال الذي يمتاز به هذا الكلاسيكي الفذ . ثم هو يرقى بقوة نشاطه العجيب إلى قمة من العظمة والكمال حتى يصبح جوته الشيخ رمزاً كما كان جوته الشاب . ومع ذلك فهو كغيره من النابغين الذين انتهوا إلى الشيخوخة يترك الاتجاه الطبيعي الحاد والأوصاف الدقيقة المضطربة التي تتجه إلى الحواس كلها — وقد كان جوته مصوراً — كما يترك استقصاء العالم الطبيعي وسرعة الحركة ، ويعنى مكان هذا كله بالتفسير والتعليل . وتتغير لغته التي كانت غنية بالصفات والأفعال، فتصبح كلفة بالأسماء المجردة. ويدل ذلك على تحول يشبه التحول الذي لاحظناه عند غيره من الفنانين . ومنذ ذلك الوقت يصبح المعنى الخالص أعظم خطراً عند جوته من الظواهر ، وتقل في آثاره الأوصاف التي كانت أثناء الشباب تملأ إنتاجه تشويقاً . يقوم مقامها تأمل الحكيم . وهناك تغيير في نظره إلى نفسه . فآله ولذته لم يبقا إحساساً حياً ناشئاً عن حادث معين ، وإنما تتسع الأحداث وتعظم حتى تصبح فكرة عامة تحدث آثارها في أعماق نفسه . وقد تستحيل الصور إلى شيء من الروحية يقوى من يوم إلى يوم حتى يصبح في هذا الطور من أطواره رمزاً عقلياً لا حقيقة واقعة .

وهاتان المقطوعتان اللتان نريد أن نوازن بينهما قد صورتا عن حادث واحد محزن . فهما مرثيتان يبكي فيهما شخصاً عزيزاً . والموازنة بينهما تظهر التحول الذي كنا نترقبه . فأما الأول فيرثي فيها ممثلة شابة ، وأما الثانية فيرثي فيها صديقه شيلر . ففي المقطوعة الأولى يستحضر جوته صورة الفقيدة العزيرة : سحرها وجمالها وتفوقها . وهو يبكي فقدداً ، ويرثي للذين لن يجدوا عنها حزاء . وأما مقطوعة شيلر فتبتدى باستحضار نبوغ الفقيد . وبينما رثاء الممثلة يصور شخصية الشاعر والذكرى التي استبقاها ، نرى رثاء شيلر ، وهو أبلغ أثراً ، يرتفع إلى أسلوب مثير ولكنه لا شخصية فيه . وهو لا يشيد بملاح شيلر ولا بخصائصه المميزة له ، وإنما يشيد بالخصال التي جعلت منه مثالياً ممتازاً . فيصبح شيلر مشخصاً للرجل الكامل النبيل ، ففقده يسوء الانسانية كلها لأنها تفقد فيه رمزاً للنقاء . ثم يمضي الرثاء إلى لون آخر من الحزن ، فيندب قصر الحياة وسوء مصير الانسان ، ويصبح موت شيلر رمزاً للمأساة الانسانية كلها .

أنضيف كذلك قبل أن نختم هذا الحديث شيئاً عن الأسلوبين المختلفين على تخصصهما اللذين يعرف بهما تهوفن ؟ أقابل بين هذه الموضوعات الانسانية الحادة الحارة مع خصائصها الشكلية وتناسقها الفني في اعتدال وتقواء ، وبين هذا التفوق الممتاز الذي يتصف به أسلوبه المجرد في شيخوخته ؟ وأسلوباً تولستوى ؟ أنوازن بين قصة « القوزاق » هذا الأثر القوي العنيف وبين قصة « البعث » حيث يظهر الايمان المسيحي للتائب العظيم حتى في عنوان النص ؟ لقد كنا نريد بعض الأمثلة ونظن أن ما قدمناه يسمح لنا بالانتهاء إلى النتيجة : وهي أن هناك مؤثراً حيويّاً يتصل بطبيعة المنشئ نفسه ، ويجب أن يضاف إلى قوانين الانتاج الفني على ما فيها من التواء وتعقيد . ونحن نعلم أن مزاج الفنان وطبيعته قد لا يلائمان الأساليب المقررة ، بل قد يكون بينهما وبينها تعارض وتناقض ، وهناك يتمتع الذوق العام على أثر الفنان ويقاومه حتى يتم لهذا الذوق العام نضجه . ولكن إلى جانب هذه الظاهرة التي تصور لنا حركة الزمان توجد ظاهرة أخرى تتحقق في كل حال وفي كل فرد على حدة . فمهما يكن مكان الفنان وزمانه ، فهو إنسان من لحم ودم له قلقه ومطامعه . فاذا تقدم الانسان إلى آخرته وهم أن يصور مأساته في صورها الأخيرة ، تضاعل تأثير الزمان والمكان والبيئة الاجتماعية . كان عالم شبابه مفعماً بما كانت حواسه تحمل إليه من اللذات

والآلام ، كان صاحباً مندفعاً وكان حبه للاستطلاع يدفعه إلى التحليل . فأسلوبه كله يصور هذه الخصائص . ولكن وقتاً يأتي يفلت فيه الفنان من كل هذه الحدود بحيث تصبح آثاره الأخيرة ، على احتفاظها بنفس الخصائص التي امتازت بها آثار الشباب ، صورة لهذا الطور الذي يفرغ فيه الفنان بعد حياة العناء والجهد والاستمتاع ، للتفكير والتأمل والتجريد . فيستكشف وراء الظواهر حقائق المسألة الإنسانية التي لا مخرج منها إلا الإيمان .

وكذلك يسيطر توقيت الحياة ويصبح الأثر الأخير من آثار الفنان معبراً في هدوء وأناة عن هذه الشهادة الفنية الإنسانية التي يسجلها المبتكرون .

هيلمير زالوسر

١٠ الدكتور على ابراهيم باشا

كان أول عهدي به منذ أكثر من ربع قرن حين جلست منه مجلس الطالب المبتدئ من أستاذه الضخم ، حيث يباح للطالب أن يسرف في الإعجاب بأستاذه ؛ وآخر عهدي به قبيل وفاته بساعات حين جلست منه مجلس الصديق أشير عليه بما يخفف عنه بعض ألمه . فما كان حي له وتقديرى إياه في العهد الأول بأكثر منه في العهد الأخير ، ولم يزدنى طول خبرتى به إلا إعجاباً . ومن الناس من تراه أعظم بما يكون عن بعد ، تتضاءل معه هفوات الرجال ، ومنهم من لاتتبن طيب معدنه إلا عن قرب . وكان على ابراهيم فى كلتا الحالين موضع إجلال أقرب الناس إليه وأبعد الناس عنه .

ولعل لا أجد وصفاً له أكثر دلالة عليه من أنه كان بناء ، فقد شيد كثيراً وكأنما عاهد على أن لا يترك شيئاً مما تفخر به البلاد الحديثة إلا أنشأ له شبيهاً فى مضر . وكان يرى أن ينشئ أولاً وأن يترك للتطور الطبيعى أن يتم ما أنشأ . وقد عيب عليه ذلك ، ولكنه لم يكن يؤمن بالطفرة . وكان يرى أن الأمور يجب أن تبدأ صغيرة ، وأن علينا أن نبدأ على الزمن أن يستكمل النقص . وكانت فيه صفات تدق على غير البنائين ، فكان يضع نصب عينيه غايته لا يحيد عنها لآى أمر من الأمور ، وكان يرى أن الانشاء أهم كثيراً من المبادئ والنظريات . وكان أقدر الناس على التدبير الممتد لا ترعجه العقبات ؛ فان لم يستطع تذليلها احتال لها حتى لا تقف دون غايته ، وإن بعدت . فهو مثل حى لنوع من العقلية العملية التى لم ينتج الشرق منها الكثيرين إلا أخيراً ، وأنموذجاً للتفكير الموضوعى البحت الذى اعتاد الناس أن يروه أكثر ما يكون فى الأمم الشمالية ، حتى كاد يعدّ صفتهم الأولى .

وأكبر ماشيد على ابراهيم فى مصر الطب الحديث ؛ فكلنا مدينون له بما هيا لنا من وسائل إتقان ذلك العلم . ولكننا اهتدينا بهديه واحتدينا طريقته ، ولم يكن

له هو مثال يحتذيه ، بل اختط لنفسه سبيلاً مبتكراً وحملنا عليه ، فلم يشذ أحد منا عنه حتى الآن . ثم أحكم صلتنا بالعلماء الغربيين ومهد السبيل للكثيرين منا حتى لا نقل عن هؤلاء علماء وعملاً ، وحبانا بكل ما أوتى من وسائل التشجيع ، وضرب لنا مثلاً حياً لما يجب أن تكون عليه صلاتنا بهؤلاء العلماء . فقد كان أحب الناس إلى كبار الجراحين العالمين لما شاهدوه من علمه وفنه وحده على رقى الطب والأطباء . وله الفضل الأول أن أصبح الطب في مصر مصرياً . وهو عندنا جراح قبل كل شيء ، وجراحته صورة من نفسه . فكانت طريقته في الجراحة طريقة الفنان : كل عملية له عملاً فنياً جميلاً . وكان يكره أن تلهيه صغار الأمور عن كبارها ، وكان لا يريد السرعة وإن كان سريعاً ، ولا يريد أن يدل على المهارة وإن كان ماهراً ، ولا يتوخى إلا الوصول إلى غايته من أسهل الطرق . وعنى عناية خاصة بجراحة البلاد الحارة ، وله فيها مبتكرات لم تزل عندنا المرجع الأكبر لهذه الأمراض .

وكلية الطب كلها من إنشائه . وعهدى بها وهي صغيرة مبانيها ، ضئيلة معاملها ، فقيرة في الرجال والمال . وهي اليوم من أكبر المؤسسات ، ومعاملها ضخمة ، ورجال العلم فيها عديدون ، وإنتاجها كثير . ثم أنشأ الجمعية الطبية ورأسها طول حياته . وبنى دار الحكمة وأنشأ مجلتها وجعلها ندوة الأطباء . ثم أحكم الصلة بينها وبين البلاد العربية ، فأصبحت مؤتمراتها حدثاً علمياً لا يعدله حدث آخر في الشرق الأدنى كله . ثم أنشأ نقابة الأطباء وبذل في ذلك جهداً مضمناً . وقامت دونه عقبات كبرى مدى عشرات السنين ، فلم يهن له عزم ، وسامو الهيئات المناوئة له كثيراً حتى تم له ما أراد من تنظيم طائفته ، وكانت من أعز أمانيه عليه .

ثم وجه همه إلى النواحي العلمية الأخرى ، وانتخب عضواً في أكثر المجالس العلمية في مصر . وكان له النصيب الأكبر في تكوين الجامعة ، وكان يعدها عمله الأول . وكان حريصاً على أن لا يقف دون رقيها شيء ، ولم يبخل عليها يوماً بجهد أو مال ، وما زال بها حتى أصبحت ما هي عليه الآن . وكان فخوراً بها غاية الفخر . وله النصيب الأكبر في الدعوة إلى إنشاء جامعة فاروق وتكوينها ، ولو امتدت به الحياة لدعى إلى جامعة أسيوط .

ثم شغل بالحياة الاجتماعية ، ورأس عدة مشروعات غايتها الإصلاح

الاجتماعى . وكان رأيه فى ذلك أن أى عمل ، وإن قل ، فهو كسب لبلاد لم تعهد من قبل عناية بالأمور الاجتماعية ، وإن إحياء الوعى الاجتماعى أمر يجب أن نعى به جميعاً . فهذه المؤسسات الصغيرة لها دلالة كبرى ، وأثر يفوق كثيراً ما تؤديه من خدمات .

أما المؤسسات الكبرى التى رأسها فأهمها جمعية الهلال الأحمر . وأول صلته بها حين كان جراحاً موفداً من قبلها مع بعثة كبيرة إلى تركيا فى حرب البلقان ، ولم تنقطع صلته بها حتى أصبح لها رئيساً ، فأحيائها وأصبحت من مؤسسات القطر الناجحة نجاحاً تاماً . ولم تكن هناك مؤسسة اجتماعية لها صلة بالطب إلا وهو رأسها المدير : فقد حمل عبء مستشفى الجمعية الخيرية الاسلامية إلى أن قامت الحرب ، وساهم فى إدارة جمعية الاسعاف .

هذا ما خدم به الطب والعلم والاجتماع ، أما مانحن مدينون له به شخصياً فكثير جداً . وليس فى مصر طبيب لم يجد فيه الصديق الأوفى والأب الناصح ، وليس منا من لم يلجأ إليه فى شدة ، فوجد منه العطف والتصح السديد . وكنا جميعاً نعلم حين يجد الجد أن عنده رأى الأسد .

وكان فوق ذلك الصديق المرح الذى تتلقفه المجالس لظرف حديثه وسرعة بديهته ، حاضر النكتة ، وكان أسرع الناس تفكيراً وأخضبهم ذهناً فى غير عنف ، تواتيه الآراء الصائبة فى غير جلد ولا عناء . وكانت نفسه كريمة صافية من كل ما يشوب صغار الناس ، خالية مما اصطلاح الناس على تسميته العقد النفسية . وكان همه أن ينتج وأن يقوم بما يستطيع من خير ما دام له إليه سبيل . أما الناحية الأخرى من حياته فهى حبه للفنون الاسلامية ، فقد جمع من السجاجيد القديمة والخزف القديم ما يعد من خير المجموعات التى لدى الأفراد ، وكانت مصدر سرور له فى حياته وموضع شكواه فى مرضه الطويل ، ولم يكن فى مصر معرض فنى إلا وله فيه نصيب كبير .

وليس ذلك كل ما يقال عن أعماله ، فهى كثيرة يقصر دونها الحصر ، وفى بعضها ما يكفى أن يضعه فى الطبقة الأولى ممن خدموا بلادهم خدمات ستبقى على الزمن عنوان نهضتها وأساساً ثابتاً لرقياها .

محمد كامل حسين

أستاذ الجراحة بكلية الطب

مصطفى عبد الرازق

كان أحب شيء إليه المهل ، وأبغض شيء إليه السرعة . كان مستأنياً إذا قال ، مستأنياً إذا فكر ، مستأنياً إذا عمل ، مستأنياً إذا سعى . وكان يؤثر بيتين من شعر أبي العلاء في رثاء أبيه ويكثر إنشادهما ، ولعله كان يفضلهما على شعر أبي العلاء كله ، وهما قوله :

فيا ليت شعري هل يخفّ وقاره إذا صار أحده في القيامة كالعهن
وهل يرد الحوض الروي مبادراً مع الناس أم يخشى الزحام فيستأنى

ذلك إلى أنه كان وقور العقل والقلب والجسم ، وكنا نعرف منه ذلك ونداعبه به ونتندر بوصوله متأخراً في كل موعد . وكنا إذا ارتبطنا معه بموعد أو اجتماع قدرنا دائماً أنه سيصل متأخراً دقائق تكثر أو تقل . ليس لهذا كله مصدر إلا أنه كان مستأنى الطبع لا يحب العجلة في شيء . وقد كان لهذه الأناة أثر بعيد في حياته كلها ، فكان أقل الناس تورطاً في خطأ لفظي أو عملي ؛ لأنه لم يكن يتكلم إلا عن تفكير ، ولم يكن يعمل إلا عن روية ، ولم يكن يحكم إلا عن بصيرة .

ويمكن أن نلاحظ أثر هذه الأناة في صلاته بالناس . فما أعرف أن أحداً شكاً منه أو أضر له شراً أو احتفظ له في نفسه بموجدة أو ضغينة ؛ لأنه كان مكفوف الأذى عن الناس جميعاً ، مبسوط الخير للناس جميعاً . وأكثر ما يسيء بعض الناس إلى بعض حين يعجلون في الرأي والقول والعمل . ولم يكن يعجل في شيء من هذا ؛ فلم يكن يسيء إلى أحد . وقد كان الناس يعجلون عليه فيلقونه بالكلمة النابية أحياناً ، ولكنه كان يعرف كيف يستأنى بهم ويعلم عليهم ويردهم إلى الحياء منه بل إلى الحياء من أنفسهم قبل أن يستحوا منه . وفي الطبيعة الانسانية شر كثير ؛ فقد كان بعض الناس يكدون لهذا الرجل الذي برئت نفسه من الكيد ، ولكنه كان من طهارة القلب وصفاء النفس وتقاء

الضمير بحيث لا يؤذيه كيد الكائدين ، أو قل بحيث لا يبلغه كيد الكائدين . كان يرتفع عن الصغائر كلها ، وأى شئ أصغر من الكيد ! كانت صلاته بالناس كلها صفواً . وكان هذا الصفو يأتي منه أكثر مما يأتي من الناس ؛ وكان هذا الصفو يأتي منه لأنه كان يستأني بالناس دائماً ولا يعجل عليهم فى شئ . وأذكر أنه فى ذات عام من الأعوام تعرض لبعض الشر فى منصبه الذى كان يشغله بوزارة العدل ، فلم يعجل ولم يسرف على نفسه ولا على أحد بقول أو عمل ، وإنما ابتسم للمكروه حين أقبل عليه ، وابتسم للمكروه حين أدبر عنه ، ولم يصرفه هذا المكروه لحظة عن حياته النقية الصافية ، وصلاته الأبية الكريمة بالناس . كان ثروت باشا رئيساً للحكومة ، وكان الخلاف عنيفاً بين الحكومة والوفد ، وكان سعد بعيداً عن مصر فى منفاه فى أقصى الشرق أو فى أقصى الغرب ، لا أذكر ، وكانت أسرة مصطفى عبد الرازق مؤيدة للحكومة مخاصمة للوفد ، ولكن صلوات قديمة كانت تصل بين سعد وبين أسرة عبد الرازق ، فلم تستطع الخصومة على عنفها أن تبلغ هذه الصلوات فى قلب هذا الصديق الكريم . وقرأ الناس فى الصحف ذات يوم أن مصطفى عبد الرازق مر بدار سعد وترك بطاقته لمناسبة عيد من الأعياد ، فلم ينكر أصدقاء مصطفى من ذلك شيئاً . ولكن أيام العيد تنقضى ويستأنف مصطفى عمله فى وزارة العدل . وإنه لفى ذلك وإذا الوزير يدعوه فيسأله : أفى الحق أنك ذهبت إلى دار سعد ؟ قال مصطفى : نعم . قال الوزير : أتعلم أنك موظف ، وأن الموظفين لا ينبغي أن يسعوا إلى الدار التى تخاصم فيها الحكومة ؟ قال مصطفى : لا أعلم إلا أن بينى وبين سعد صلوات مودة قديمة ، وأن أيسر الوفاء لهذا الود يفرض على أن أمر بداره أيام العيد . قال الوزير : فانك منقول إلى أسيوط . فلم يزد مصطفى على أن ابتسم وانصرف .

وكان ثروت باشا غائباً عن القاهرة ، فلما عاد وصل إليه النبأ ، فتقدم إلى وزير العدل فى أن يلغى هذا الأمر السخيف ؛ لأن ثروت باشا كان كمصطفى عبد الرازق يقدر صلوات المودة بين الناس ، ويعلم أن لهذه الصلوات حقوقاً لا يقصر فيها الرجل الكريم .

وأشهد لقد سمعت ثروت باشا يقول متضحاً : سامح الله وزير العدل ! يريد أن يعاقب رجلاً على مروءته .

وقد مضى مصطفى على هذه السيرة حياته كلها ، لم تعجله السياسة ولم تعجله

المنافع الخاصة ، ولم تعجله الظروف مهما تكن عن رعاية الحقوق كما ينبغي أن ترعى ، وعن الوفاء للناس كما ينبغي أن يكون الوفاء .

كان خلقه يرفعه عن الصغائر حتى ينزله منازل النجوم . وكان خلقه يهبط به إلى حيث حاجات الناس وآلامهم ومصالحهم ذات الخطر وغير ذات الخطر . فلم أرى رجلاً كان أرفع منه نفساً وأشد منه تواضعاً في وقت واحد . وهل يكون التواضع إلا لأصحاب النفوس الرفيعة !

إن الذين يألون لفقد مصطفى من أهله وذوى خاصته ومودته من الأصدقاء الأقربين ومن الذين وصلت بينه وبينهم شؤون الحياة الاجتماعية لقليلون جداً بالقياس إلى هؤلاء الناس الكثيرين الذين لا يعرفهم أحد أو لا يكاد يعرفهم أحد ، والذين كان مصطفى يتلقاهم كما كان يتلقى أرفع الناس قدراً ، ويسعى إليهم كما كان يسعى إلى أرفع الناس قدراً ، ويرفق بهم كما كان يرفق بأقرب الناس إليه وآثرهم عنده ؛ لا يتكلف ذلك ولا يشق على نفسه به ، وإنما يراه شيئاً طبيعياً لا يحتاج إلى جهد أو عناء . كان يصنع ذلك حين كان طالباً في الأزهر ، يسمر إذا أقبل الليل مع أرفع المصريين مكاناً في داره ، ويسعى إذا أقبل النهار مع الطلاب من جميع الطبقات ، يسعى بينهم كواحد منهم لا يجدون منه كبراً ولا شيئاً يشبه الكبر . وكان يصنع ذلك بعد أن أصبح عالماً من العلماء وأستاذاً في مدرسة القضاء . وكان يصنع ذلك طالباً في أوروبا مع رفاقه من المصريين والفرنسيين جميعاً قبل أن تثار الحرب الأولى وبعد . أن أثرت . وكان يصنع ذلك بعد أن عاد من أوروبا وقد شغل المناصب المختلفة في الأزهر ووزارة العدل وفي الجامعة بنوع خاص ، في الجامعة حيث يسعى الفقر والغنى مصطحبين ، يظهر الغنى نفسه في كثير من القحة ، ويخفى الفقر نفسه في كثير من الحياء . في الجامعة حيث يذهب بعض الطلاب في السيارات وإن قربت الدار ، وحيث يذهب بعضهم سعيّاً على الأقدام وإن بعدت الدار . في الجامعة حيث تؤدي قلة قليلة أجور الدرس عن سعة ، وحيث تشقى كثرة كثيرة بالعجز عن أداء هذه الأجور . في الجامعة لا يكون الأستاذ الصالح أستاذاً صالحاً لأنه يلقي الدرس على وجهه ويعلم الشباب كما ينبغي أن يتعلموا فحسب ، وإنما يكون الأستاذ الصالح أستاذاً صالحاً حين يتفقد شؤون هؤلاء الشباب في إناة وخفة ورفق ، وحين يعلم من خفى أمرهم ما يعلم ، فيصلحه بالحب والعطف والعون الذي لا يصدر عن تفضل ولا عن

تطول ، وإنما يصدر عن محبة ومودة ، لا يكاد يشعر به من يبذله ، ولا يكاد يشعر به من يتلقاه .

وأشهد لقد كان مصطفى أصلح الأساتذة جميعاً في كلية الآداب من هذه الناحية التي لا يكون الأستاذ أستاذاً إلا بها .

هذا بعض آثار الأناة في الصلات بين مصطفى وبين الناس . ولكن للأناة آثاراً أخرى في حياته الخاصة ، في حياة مصطفى الأديب الذي لم يكن يحب التعجل بما يكتب ولا بما يقول ، وإنما كان يختار اللفظ ويلائم بينه وبين المعنى ، يبذل في ذلك أعنف الجهد وأقساه ، يخلو إلى ذلك حين يتفرق عنه الناس أى حين يتقدم الليل . يقتطع لذلك من وقت راحته ومن الوقت الذي كان ينبغي أن يختص به نفسه وأهله . يحكم المعنى ، ويحكم اختيار اللفظ لهذا المعنى ، ولا يكفيه ذلك حتى يلائم بين اللفظ واللفظ وبين المعنى والمعنى ، وحتى يخرج القطعة الأدبية كأنها قطعة الحلوى قد صيغت كأحسن ما يصاغ الحلوى على أدق أصول الفن وقواعده . وما أعرف أن أديباً معاصراً أتاحت له الاجادة الفنية كما أتاحت لمصطفى ، ومصدر ذلك أنه كان يستأنى بانتاجه ، ولا يعجل به .

وللأناة أثرها البالغ في حياة مصطفى الأستاذ ، وفي حياة مصطفى الباحث ؛ فلم يكن يحب أن يتعجل بالدرس قبل أن يتقن إعدادَه كأحسن ما يكون الاتقان ، ولم يكن يحب أن يتعجل بتلاميذه بالفهم عنه ، وإنما كان يأخذهم بالأناة في القراءة وفي الفهم وفي التفسير كما كان يأخذ نفسه بها . ومن أجل هذا كان له تلاميذ بأدق معاني هذه الكلمة بين الشباب الجامعيين . وكان يستأنى ببحثه عن أى مسألة من مسائل العلم ، يستقصى ما وسعه الاستقصاء ، ويحلل ما وجد إلى التحليل سبيلاً ، ويقلب النص على كل وجه من وجوه التقلب ، ولا يتعجل بعد ذلك بإصدار الحكم ، وإنما يضع أمامك النصوص ويعينك على فهمها واستخراج الحقائق منها .

ومن أجل هذه الأناة كان مصطفى أديباً مقلاً ، وعالمًا مقلاً . وربّ قليل خير من كثير .

لست أدري أفرغ الناس من هذا الحزن البعيف الذي يصدّم النفوس فيمنعها من التفكير والتأمل . وأكبر الظن أنهم لن يفرغوا من هذا الحزن البعيف على فقد مصطفى قبل وقت طويل جدًا . ولكن الشيء الذي أحققه هو أن الحزن

العنيف على فقدہ يمنعهم الآن من تقدير النكبة فيه . إنها نكبة في الخلق ؛ فقد كان مصطفى آية في الخلق الكريم . وما أقل الآيات في الأخلاق ! إنها نكبة في الأدب ؛ وقد كان مصطفى مؤمنا بكرامة الانتاج الأدبي . وما أقل المؤمنين بكرامة الأدب ! إنها نكبة في العلم ، فقد كان مصطفى أعرف الناس بحقوق العلم على العلماء . وما أقل العلماء الذين يعرفون ما للعلم عليهم من حقوق ! إنها نكبة في الإصلاح بأوسع معاني الإصلاح ؛ فقد كان مصطفى أحسن خليفة ممكن للأستاذ الإمام ، ورث عنه علمه وطموحه إلى الخير ، وأضاف إلى هذا التراث من العلم بالحضارة الحديثة شيئا كثيرا . وأتيح له منذ تولى أمر الأزهر ما لم يتح لأستاذه من السلطان . فكان خليقا أن يمضي بالإصلاح الديني والعلمي والخلق في البيئة الأزهرية إلى أبعد الغايات . وأشهد لقد كان يعمل لذلك جادا ، ولكن في أناة ورفق .

رحم الله مصطفى ! وأعزز على أن أملى هذا الدعاء . رحم الله مصطفى ! لقد كانت الأناة أخص صفاته ، ولكن الأناة ليست من صفات الموت . ليت الموت استأني بمصطفى ليم ما يسر له من الخير . ولكن الموت لا يستأني بأحد . وربما كان أبغض شيء إلى الموت أن يستأني بالأخيار من الناس .

من هنا وهناك

كلمة عن آدم بيد وقطعة مختارة منها

جورج إليوت هو اسم القلم الذى أطلقتته مارى آن إيفانس على نفسها . وقد ولدت الكاتبة فى أكسبوري عام ١٨١٩ وعاشت فى تلك الناحية ثلاثين عاماً . ويقول هربرت سبنسر — فى سذاجة العلماء — إنه فكر فى الزواج من جورج إليوت ، ولكنه لم يفعل ذلك لأنه يرى أن المرأة يجب أن تكون على شئ من الملاحاة والوسامة . واتصلت حياتها بحياة فيلسوف آخر من أصحاب المزاج البوهيمى ، هو جورج هنرى لويس ، وعاشت معه إلى أن مات . ثم تزوجت بعد ذلك رجلاً آخر . وقد تكون قصة « آدم بيد » أو إن شئت فقل قصة هيتى سوريل أحسن ما خطه يراعها . وهى قصة تمت إلى الواقع فى بعض أجزائها . وهى تذكر القارئ بقصة مرجريت فى رواية « فاوست » وهى فتاة ساذجة خلبت لها المظاهر وخدعتها ، فأودت بها وأسلمتها إلى اليأس وإلى العيش المرير وإلى العذاب .

وإن آدم ذلك الرجل الشريف الصعب المقادة ، والفنان الجليل الخطر ، قد اتخذ هيتى بنت أخت المزارع بويزر ، صديقة له وخليفة . ولكنهما تقاطعا وتدابرا عندما مالت إلى الكاتبة آرثر دوتنهورن ومال إليها . وكان هذا شاباً حسن الصورة لطيف الخلق وسيم القسمات . وفى رواية « آدم بيد » أشخاص غير هؤلاء يقومون بأدوار مهمة . والرواية ملأى بالتيارات المتعارضة ، ومشاكل الحياة المعقدة . وكذلك هى ملأى بومضات من الفكاهة مما يجعل هذه الرواية أثراً أديباً له جلاله وله خطره . وإليك الصورة التى رسمتها الكاتبة للعالم الذى كانت تعيش فيه هيتى سوريل :

لقد اعتادت هيتى التوهم أن الناس يحبون النظر إليها ، وهى لم تكن غافلة عن أن لوك بريتون قد جاء من بلده إلى بلدها ودخل الكنيسة فى أصيل يوم الأحد على أمل أن يراها ،

وأنه قد كان من الممكن أن يفسح المجال لآماله في حبها لو لم يصده خالها . ولو لم يوص هذا الخال امرأته بألا تبدى له أى لون من ألوان الجملة . وكانت هيتى تعلم كذلك أن مستر كريج الجنائى كان مدلها في حبها ، وقد أقام الدليل الذى لا ينقض على حبه بما كان يرسله من هدايا التوت المفرط في الحلاوة .

وكانت هيتى تعلم أكثر من ذلك أن خالها كان يسره أن يرى آدم بيد كل ليلة ، وكان يقول عنه : إن آدم على علم بطبيعة الأشياء أكثر من أولئك الذين يظنون أنهم أكثر منه دراية ومعرفة .

وكانت هي تعرف أن آدم هذا الذى كان دائماً مقطب الوجه والذى لم يكن يعرف كيف يجرى وراء الفتيات يخفق قلبه لو أنها نظرت إليه أو كلمته . وكانت تعرف أن آدم هذا قد يكون شيئاً مذكوراً إذا قيس إلى أهل الضاحية من الفلاحين .

وكانت تعلم علم اليقين أن عمها يريد أن يشجع آدم وأنه يسره أن تتزوجه .

وفي تلك السنين لم تكن هناك حدود بينة المعالم تقوم بين الفلاح والمزارع وبين الفنان . وهناك في

المنزل بجوار الموقد كانا يلتقيان ، كما كانا يلتقيان في الحانة حيث كانا يراهما الرءاؤون يشربان كوباً من البيرة معاً . ولم يكن مارتن بويزر من رواد الحانات ، وكان يفضل أن ينعم بالحديث مع صاحب من أصحابه وهما يشربان كوباً من البيرة المصنوعة في البيت .

وكان من دواعى سروره أن يفسر القانون لجار جاهل لا يعرف كيف يدير أمر غيطه . وكذلك كان من دواعى غبطته أن يتعلم شيئاً من رجل ذكى كآدم بيد .

ولذلك ظل آدم بيد ثلاث سنوات يلتقى كل ترحيب بين أفراد أسرة مارتن بويزر ، وبخاصة في ليالى الشتاء حيث كانت تجتمع الأسرة كلها : السيد والسيدة والأطفال والخدم في غرفة المطبخ الواسعة الأرجاء وهم من النار المتقدة على أبعاد متناسقة .

وقد اعتادت هيتى في السنتين الأخيرتين على الأقل أن تسمع خالها يقول :

قد يكون آدم بيد يعمل الآن من أجل الأجر ، ولكنه سوف يكون سيداً وجيهاً يوماً ما . وإني على ثقة من هذا الأمر كثقتي بأنى جالس على هذا الكرسي الآن . ثم أضاف إلى ذلك قوله :

إن مستر برج لعل صواب في رغبته
مشاركته وفي ترويجه بنته إذا صح
ما يقولون ؛ فانه صفقة رابحة لمن
تتزوج به . وكانت امرأته تقول كلما
سمعت هذا القول : آمين . . .

ولقد كان من المحتمل أن تنظر هي
وزوجها إلى هذه المسألة نظرة تختلف
عن هذه النظرة لو كانت هيتى بنتها ،
ولكنهما كانا يرحبان بتزويج آدم من
بنت أخت لها لا تملك درهماً .

ومن كانت تكون تلك الفتاة في
مكان آخر غير خادمة ، لولا أن اجتباها
خالها ورباها لتكون لحالتها عوناً في
خدمة المنزل .

ولكن آدم بيد لم يلق يوماً من
الفتاة هيتى شيئاً من التشجيع ، بل لم
تكن تفكر في أن تقبله زوجاً ، حتى في
الساعات التي كانت فيها تحس بتفوقه
على الآخرين المعجبين بها .

وكان يلذ لها أن تحس أن هذا
الرجل القوى الماهر في صناعته هو
طوع بنائها ، وأنه سوف يكون موضع
سخطها لو أبدى أى ميل للتخلص من
سطوة طغيانها ، ذلك الطغيان الذي
يبعثه الدلال . وكذلك لو أبدى ميله
لأن يصل حبله بحبال ماري برج اللطيفة
الظريفة التي كانت تتمنى نظرة عجلي
منه فتقابلها بمفور الشاء .

ولكن أن تتزوج هيتى آدم فهذا
شئ مختلف جداً . . . ولم يكن شئ
في الدنيا يغريها أن تفعل ذلك ، ولم
تكن تحس إذا رآته بما يحس به المحبون
من حمرة في الخد وخفقة في القلب
وأهة في الصدر .

ولكنها كانت تحس بالنصر البارد
لمعرفتها أنه يحبها ، وأنه لا يعنى بأن
يلتى نظرة على ماري برج .

وهو لم يكن يثير فيها النشوة
الحلوة للحب في عنفوانه أكثر مما
تستطيع الشمس أن تثيره من حركة
في العصارة المائية التي تجري في ألياف
النبات .

وكانت تنظر إليه نظرتها إلى رجل
فقير يعول أهله الفقراء الذين لا
يستطيعون حتى في زمن بعيد مقبل أن
يجعلوها في رغد من العيش كذلك
الرغد الذي تلقاه في بيت خالها ؛ فقد
كان رغد العيش مادة أحلامها في
الليل والنهار .

وكانت تقول في مناجاتها : لو كان
آدم غنياً لأحبته ثم لتزوجته .

ثم مضت بضعة أسابيع وإذا
بطائف جديد يطوف بخاطر هيتى ،
طائف غامض ، طائف في الأفق ، قد
اتخذ لنفسه صورة الأمل المرجو وكان
له في نفسها تأثير الخدر ، وقد جعلها

تمشى على الأرض وتغدو إلى عملها وتروح ، وهى فى شبه حلم روحى لا يعرف وزن المادة ، وهو يضمنى على الأشياء كلها نقاباً سائلاً شفافاً وكأنها كانت تعيش فى دنيا المادة التى قوامها القرميد والحجر .

وقد علمت هيتى أن مستر آرثر دوتهورن يتجشم كل مشقة ويركب كل صعب فى سبيل رؤيتها ، وأنه يغدو إلى الكنيسة ليراها وهى جالسة وليراها وهى واقفة ، وأنه كان يفترض الفرص للقاءها وسماع حديثها .

وكان لا يخطر ببالها أن ذلك السيد ذا الجاه والثروة والشباب يمكن أن يكون يوماً ما محباً لها مدهماً فى حبها . مثلها فى ذلك مثل تلك الفتاة الجميلة اينة الخباز التى ابتسم لها إمبراطور شاب ابتسامة الإعجاب ، فلم تصدق أنها سوف تصبح إمبراطورة . فذهبت ابنة الخباز إلى بيتها وهى تحلم بالامبراطور الجميل الشاب ، وربما طفت وزن الدقيق من فرط الذهول .

وكذلك مرت بهيتى ثلاثة أسابيع على الأقل لا يشغل عقلها شاغل غير ذكريات من كلمات آرثر ونظراته . وكان صدى كلماته يتردد فى مسامعها ، وحلته الجمينة تترادى لعينها ، ورائحة الطيب تملأ الجو حولها .

وإلى يومنا هذا لم يكن أشهى لديها من ترقب عودة السكابتين دوتهورن أو ترقب يوم الأحد التالى لى تستمتع برؤيته فى الكنيسة . ولكنها اليوم تفكر فى احتمال مجيئه إلى الصيد غداً ، وفى احتمال تحدثه إليها وسيره إلى جانبها وقد غاب الرقيب . وهو ما لم يكن قد حدث إلى تلك الساعة .

ولكنها اليوم أيضاً لا يتعقب خيالها الماضى بل يفكر فيما يحدث غداً ، وفى أى مكان سوف تلقاه ، وفى أى مكان من شعرها سوف تضع الشريط الوردى الجديد الذى لم تشتريه بعد . وما الذى سوف يقوله لها لجعلها تجاوب نظرتة إليها بنظرة منها إليه ، تلك النظرة التى سوف تستمتع بها بقية النهار . . .

وبينا كانت يدا هيتى تعملان فى لف الزبد فى الورق ، وبينما كان رأسها تملأه صور الغد المأمول ، كانت تداعب خيال دوتهورن آمال مرجوة غير واضحة ، آمال كامنة فى عقله . وقد صحا من غفوة خياله على صوت صاحبه مستر أورين وهو يسأله :

— ما الذى فتنك وأعجبك يا آرثر فى مصنع ألبان مسز بويزر ؟ أصبحت تهوى المكان الرطب وتحب صحاف القشدة ؟

وكان آرثر يعرف أورين ، ويعرف أن المراوغة لا تجدى معه . ولذلك قال في صراحته المعهودة :

— إنما ذهبت لأرى صانعة الزبد الجميلة هيتى سوريل ، وهى التى تشبه عندى إلهة الشباب فى الأساطير القديمة ولو كنت فناناً لصورتها . وإنه ليثير العجب أن يرى المرء ذلك الجمال الفاتن بين البنات الريفيات ، وآباؤهن هم أولئك المهرجون .

فقال له واروين : لا اعتراض لى على أن تفكر فى هيتى على ضوء الفن . ولكنى لا أود أن توقد جذوة الغرور عندها ، وأن تملأ رأسها الصغير بالقول الذى يوهمها بأنها آية من آيات الجمال . يفتن بها الشباب المترفون . إنك إن فعلت أتلقت فيها الزوجة المقبلة لرجل فقير ، كالرجل الطيب كريج مثلاً الذى رأيته ينظر إليها نظرة الإعجاب .

ويبدو أن تلك البنية الصغيرة قد ملأها الغرور ، وأن زوجها سوف يكون تعساً شقياً وفقاً للقانون الطبيعى الذى يجعل الرجل الفقير — إذا تزوج الحسنة الجميلة — يتلظى فى لهب السعير .

وعلى ذكر الزواج أرجو أن يكون قد تم لصاحبنا كل شئ . فقد مات

الرجل الهرم ولم يبق لصاحبنا من يعوله غير أمه . وإنى لأظن أن جبل الود متواصل بينه وبين تلك الفتاة اللطيفة المتواضعة مارى برج وقد عرفت ذلك من فلتات الحديث الذى دار بينى وبين الهرم يوناثان . ولكنى لما ذكرت القصة لآدم بدا عليه القلق وغير مجرى الحديث . وفى ظنى أن الود بينهما لا يجرى مجرى سهلا ، أو أن آدم يؤجل الأمر حتى يصبح فى رغد من العيش ، وهو رجل مستقل الرأى عظيم الكبرياء .

وسوف يكون هذا الزواج زواجاً طيب الثمر . وسوف تتوثق الصلة بين آدم وبين الهرم برج . وإنى لأود أن أرى آدم عظيم المكانة بيننا . وسأشدد به أزرى وأشركه فى أمرى . وعندئذ سوف يمتد أفق آمالنا فى التعمير والاصلاح . وإنى لم أر الفتاة من قبل ، أو على الأقل لم أنظر إليها .

فقال له محدثه : أنظر إليها يوم الأحد المقبل فى الكنيسة . إنها تجلس عن شمال المنبر . إنك إن نظرت إليها فلن تجد بك حاجة إلى النظر إلى هيتى سوريل . وإن المرء إذا عقد العزم على ألا يشتري كلباً من الكلاب الجميلة فانه يغض الطرف عنه . ذلك لأننا لو نظر كلانا إلى صاحبه نظرة ود ، إذن

لفعلت النظرات فعلها وأحدثت أثرها ،
وإذن لاشتد العراك بين علم الحساب
وبين الميل والهوى . وإني لأناخر
يا آرثر بحكمتي التي كسبتني إياها
السنون ، وإني لأضفي عليك ثوباً من
هذه الحكمة .

فقال له آرثر : أشكر لك هذا
الصنيع . وسأشد بهذه الحكمة يوماً ما
أزرى ، ولو أنى لا أرى بي حاجة إليها
الآن .

وبعد — فلنرجع إلى آدم بيد .
فقد كان موت والده غرقاً نكبة عليه .
وإذ هو مستغرق في حزنه ، أيقظ
حاسة الفضول عنده وقع أقدام خفيفة
تتخذ طريقها إلى البيت . ورأى بعين
خياله وجهاً ترينه النونات وتجمله
عينان دعجاوان ، وثغراً يفتر عن
ايتسامات خبيثة ما كره .

ولكن ما مر بباله لم يكن سوى
فكرة خاطئة . فلم تكن هيتي التي
جاءت لتعزية أهله ، ولكنها دينا تلك
الواعظة الصغيرة التي يحبها أخوه
Seth ولأول مرة أصبح آدم مشغولاً
بها معنياً بأمرها . وقال لأخيه : لست
أعجب من حيك إياها فانها قد أوتيت
وجهاً جميلاً هو بزهرة الزنبق أشبه .
ثم يمر الزمن وإذا بآرثر دونتهورن
يغازل هيتي سوريل . هما يسيران بين

أشجار الغابة . فوقعت عينا آدم على
شبحين يخطوان أمامه ، فوقف جامداً
في مكانه كالتمثال وامتنع لونه . وكان
الشبحان يقفان ووجهاهما متقابلان
وأيديهما متشابكة وكل منهما يهم بتقبيل
صاحبه . ثم افترقا بغتة وجرى أحدهما
وسار الآخر متلكناً إلى ناحية آدم الذي
عرف الآن كل شيء . وعرف كل السر
في جفاء هيتي وبرودها .

وفي ثورة من ثورات الهوى الذي
يعمى ويصم سب آدم خصمه ومزاحمه
دونتهورن وأغلظ له في القول . ثم
تعاركا عراكاً وحشياً كأنهما نمران .
وخر دونتهورن معشياً عليه بين
الحشائش وكأنه فقد الحياة . ولكنه
لم يمت فان القدر نجى له في مستقبل
أيامه مصيبة أخرى . فلما أفاق كتب
رسالة إلى هيتي يودعها فيها ثم ارتحل .
ثم أصبح آدم شريكاً لمستر برج في
عمل من الأعمال ، وخطب هيتي
لنفسه . فلم تنطق هيتي بكلمة . ولكن
آدم قرب وجهه من وجهها ووضعت
هي خدها لصق خده كأنها قطيطة
تريد أن تدلل ، وكأنها تريد أن تحس
أن آرثر كان معها مرة أخرى .

وتملك هيتي رعب شديد فسارت
مرتحلة تريد في ظاهر الأمر زيارة دينا ،
ولكنها اختفت . وفيما يلي وصف لما

تتابع من حوادث مبتدئة بالحديث الذى دار بين آدم وبين إروين : «أنت تريد التحدث إلى يا آدم .» قال إروين ذلك القول فى صوت هادئ هدهوءاً ، مقتسراً ، وكأنما لجأ إلى هذا الهدوء المقتسر ليكبت ما فى نفسه من ثورة وهياج . ثم قال له : «إجلس» وأشار إلى كرسي أمامه . فجلس آدم وقد أضاف البرود الذى لقيه من إروين صعوبة جديدة تمنعه من الافاضة بمكنون صدره . ولكن آدم وقد أجمع أمره على الافضاء بسره ، لم يكن بالرجل الذى ينكص على عقبيه إلا لأسباب قاهرة .

ولكن ضربة قاصمة قد نزلت بي ، ومصيبة كبرى قد ألت بساحتى . ولكن هيتى قد ذهبت ولست أدري أين استقر بها النوى . فقد قالت إنها ذاهبة إلى سنوفيلد يوم الجمعة . ومضى على يوم الجمعة هذا أسبوعان . وقد ذهبت يوم الأحد الماضى لأعود بها ، ولكنها لم تكن هناك . وقيل لى إنها استقلت عربة إلى ستونيتون وبعد ذلك لم أعرف أين ذهبت . ولكنى اعتزمت اليوم سفرًا طويلاً لأبحث عنها . ولن أستطيع أن أفضى بهذا السر إلى أحد سواك .

فقال له مستر إروين : وهل تعرف سبب هروبها ؟

وقد بدأ حديثه مع إروين بقوله : إني أُلجأ إليك يا سيدى كرجل نبيل هو عندى فوق الناس كلهم . وإني لمنبتك بأشياء تحز فى نفسى . أشياء قد يؤلمك سماعها كما يؤلمنى ذكرها . وإذا رأيتنى يا سيدى أتكلم عن مساوئ الناس وأخطائهم فاعلم أن الدافع لذلك دافع قوى .

فهدأ مستر إروين رأسه متمهلاً . واستمر آدم فى حديثه وهو يرتجف قائلاً : لقد كان موعد زواجى بهيتى سوريل يا سيدى اليوم الخامس عشر من هذا الشهر . وكنت أظنها تحببى ، وكنت بذلك الظن أسعد مخلوق .

— يبدو أنها كانت لا ترغب فى الزواج منى . وقد هربت عندما اقترب الموعد . ولكنى أشك فى أن هناك شخصاً ثالثاً قد بدا فى الأفق . فبدا السرور على وجه مستر إروين فى تلك اللحظة وكأنما أزيح عن صدره هم ثقيل .

ثم استأنف آدم حديثه قائلاً : أنت تعرف يا سيدى ذلك الرجل الذى حسبته أصدق صديق لى ، والذى كنت أفخر بأنى سوف أقضى حياتى أعمل لأجله وكانت هذه أمنيته منذ كنا صبيين ... وعندئذ أبسك مستر إروين بذراع

آدم ، وكأنما فارقه وقاره وشد عليها وقال في صوت متهدج : أرجو ألا تقول هذا . . .

فذهل آدم لما انتاب مستر إروين من انفعال وندم على قوله وجلس وقد تولاه صمت من أصابته مصيبة .

ثم ارتدى مستر إروين في كرسيه وقال لآدم : قل كل شيء فلا بد لي أن أعرف كل شيء .

فقال آدم : إن ذلك الرجل قد خلب لب الفتاة وسلك نحوها سلوكا لا حق له في سلوكه مع فتاة في مثل مركزها في الحياة ، وأهدى إليها الهدايا واعتاد أن يذهب لملاقاتها فيسيرا جنبا إلى جنب . ورأيتهما معاً قبل هروبا يومين وهو يقبلها قبل أن يغادرا مكانهما في الغابة . ولم يدر حديث بيني وبين هتي يومذاك ، ولو أني كنت أحبها منذ زمن وكانت هي تعرف ذلك . وقد عنفته وزجرته على أخطائه ثم تبادلنا الشتائم واللكمات ، ولكنه قال لي بعد ذلك في خشوع الرجل التقى إن الأمر بينهما لم يكن إلا عبثاً ، ولم يخرج عن حد الغزل . ولكنني جعلته يكتب خطاباً ينيء فيه هتي أنه لم يكن يعني شيئاً ، ذلك لأنني رأيت جملة أمور ما كنت أستطيع يومئذ أن أفهمها . فقد ملك قلبها حتى

لقد أصبحت به مغرمة ، وحتى لقد أصبحت عن حب من يرغب في زواجها معرضة . ثم أعطيتها الخطاب فتظاهرت بقبوله كما كنت أتوقع . ثم حنت على حنواً كان يزداد ساعة بعد ساعة . ولعل المسكينة لم تكن تعرف حقيقة أمرها ساعتئذ . ولكني لا ألومها ؛ ذلك لأنني لا أستطيع أن أظن أنها قد أرادت خداعي وغشي . وكان عندي ما يشجعني على الظن أنها تحبني . وأنت تعرف الباقي يا سيدي . ولكن لا يبرح من ذهني أنه كان كاذباً معي وأنه أغراها بالهرب ، وأنها ذهبت لتلحق به وإني ذاهب الآن لأرى . ذلك لأنني لن أستطيع أن أعود إلى عملي قبل أن أعرف مصير تلك الفتاة .

وبينا آدم يقص قصته كان مستر إروين قد استعاد رباطة جأشه على الرغم من الأفكار المقلقة التي طافت به يزدحم بعضها بعضاً . وكانت ذكرى مرة الطعم . إذ تذكر أن آرثر قد تناول الفطور عنده هذا الصباح ، وكان يبدو عليه أنه يريد أن يفضي إليه باعتراف . والآن قد تبين لمستر إروين ما كان يريد أن يفضي به آرثر .

ثم عاد مستر إروين فألقى يده في رفق فوق ذراع آدم التي كانت على المائدة وقال في خشوع :

— يا صديقى العزيز آدم : لقد

مرت بك نجارب قاسية فى الحياة .
وإنك لقادر على أن تحمل الحزن كما
يحمله الرجال ، وكذلك أنت قادر على
أن تعمل عمل الرجال . فإله سبحانه
يريدنا أن نكون كذلك . وإن هناك
حزناً ثقيلاً فى طريقه إليك ، وهو حزن
أشد من كل ما مر بك من أحزان .
ولكن الذنب ليس ذنبك . ثم اعلم
أن من الناس من ترجح كفهم فى
الحزن كفتك وهؤلاء لهم الله .

ونظر كلاهما إلى صاحبه وقد امتنع
لونهما . وكان يخامر آدم قلق يهزه هزاً ،
كما كان يخامر مستر إروين إشفاق يخالطه
التردد ، ولكنه استمر فى حديثه يقول :
— لقد جاءنى هذا الصباح خبر
عن هيتى فهى لم تذهب إلى صاحبك
بل هى فى ستونيتون .

فنهض آدم من كرسيه وكأنه قد
خيل إليه أنه يستطيع أن يطير إليها فى
تلك اللحظة . ولكن مستر إروين قد
أمسك بذراعه مرة أخرى وقال :
انتظر يا آدم . انتظر . ثم استطرد
يقول : إنها فى موقف لا تحسد عليه .
ذلك الموقف الذى لو رأيته فيه لساءت
الأمر بينكما أكثر مما كانت يا صديقى
المسكين ، بل لكان الأمر أسوأ مما لو
كنت فقدتها إلى الأبد .

فارتجفت لذلك القول شفتا آدم .
ولكنه لم ينطق بكلمة ، ثم تحركت
شفتاه مرة أخرى لهما بقوله :
« أنبتنى » .

— إنها مقبوض عليها . إنها فى
السجن . وكأن ذلك القول كان لطمة
قوية أحييت فى آدم روح المقاومة وصعد
الدم إلى وجهه وقال فى صوت عال :
وما جريمتها ؟

— إنها جريمة كبرى . إنها قتلت
طفلها . فصاح آدم : هذا مستحيل .
وقام من كرسيه متوجهاً إلى الباب ثم
عاد . ثم نظر إلى مستر إروين وقد
بدت عليه وحشية الغضب : ذلك
مستحيل . . . إنها لم ترزق طفلاً قط .
وهى لذلك لا يمكن أن تكون مجرمة .
ومن ذا الذى يقول ذلك القول ؟
— إني أدعو الله يا آدم أن تكون
بريئة .

— ولكن من قال أنها مذنبه ؟
قل لى كل شئ .

— هذا خطاب من قاضى التحقيق
الذى ينظر فى أمرها . ورجل البوليس
الذى تولى القبض عليها جالس الآن
فى غرفة المائدة . وهى مصرة على ألا
تبوح باسمها ، وأن لا تدل على بيتها .
ولكنى أخشى أن ليس هناك شك فى
أنها هى هيتى . فان الوصف ينطبق

عليها ، لولا شحوب ألم بوجهها ، ولولا سقم نزل بجسمها . وقد وجدوا في جيبها دفترًا كتب فيه اسمان : واحد في أوله وهو هيتى سوريل من مدينة هاى سلوب واحد في آخره وهو دينا موريس من مدينة سنوفيلد . وهى ترفض أن تقول أى الاسمين اسمها ، وهى تنكر كل شئ ، وهى لا تجيب على الأسئلة . وقد طلب إلى أن أعمل على التحقق من شخصيتها . ذلك لأنهم يرون أنه من المحتمل أن يكون الاسم الأول هو اسمها .

الكلمات ، ورمى بالخطاب إلى الأرض آخر الأمر ثم ضم قبضة يده . ثم قال : إن هناك جريمة فهى جريمة آرثر . ومفتاح الجريمة عنده ، لا عندها . فقد علمها الخيانة والغش وقد خدعنى أنا أول من خدع . فليقف معها جنباً إلى جنب عند المحاكمة . وسأخير القوم كيف اغتصب قلبها وكيف أغراها على فعل السوء . فهل يظل هو حراً طليقاً ، وتلقى هى العقاب وحدها وهى لم تنزل صغيرة مهيضة الجناح ؟

— ولكن أى دليل عندهم عليها لو كانت هى هيتى ؟ قال ذلك والاتفعال يهز جسمه هزاً عنيفاً . لن أصدق هذا . ولا يمكن أن يكون هذا قد وقع ولم يعلم به واحد منا .

— إنه دليل مزعج على أنها كانت تحاول ارتكاب الجريمة . ولكننا نرجو ونأمل أنها لم ترتكب هى تلك الجريمة وإليك هذا الخطاب فاقرأه يا آدم . فأخذ آدم الخطاب بين يديه المرتجفتين وحاول أن يثبت ناظريه فيه . وخرج مستر إروين ليأمر أمره فى بعض الأمور . ولما عاد كانت عينا آدم لا تزالان مثبتتان فى الصحيفة الأولى . وكان — لفرط ذهوله — لا يستطيع القراءة ولا يستطيع أن يفهم مدلول

ثم قدمت هيتى إلى المحاكمة . وبعد أن صدر الحكم دوت فى قاعة الجلسة صرخة تصم الآذان وكانت الصرخة صرخة هيتى . فوقف آدم على قدميه ومد ذراعيه إلى ناحيتها . ولكن الذى كان بينهما بعيداً . ثم سقطت هى وقد انتابتها نوبة إغماء . ثم أخرجت من دار المحكمة إلى السجن انتظاراً ليوم التنفيذ . وقد أصرت هيتى إصراراً تاماً على الإنكار أثناء المحاكمة وبقيت على إصرارها فى السجن . وقد خرجت عن صمتها نزلوا على رجاء صاحبها دينا وقالت والندم يهز كيائها ، وقد انفرجت شفتاها وهى تبكى بكاء صادراً عن القلب : « يا إلهى إننى أكرمت » . ثم طوقت عنقها بذراعيها وقالت :

سأتكلم . سأنبئك بكل شئ . ولن أخفى شيئاً .

ولكن العبرات كانت تختفيها . فحملتها دينا في رفق وأجلستها على الحصير مرة أخرى وجلست إلى جانبها ، وتماسكتا باليدين . وأخيراً همست هيتي قائلة :

— لقد ارتكبت الجريمة يا دينا . ولقد دفنته في الغابة . . . وأعنى به الطفل الصغير . . . وقد بكى . . . وقد سمعته يبكي طول الليل . . . ورجعت أدراجي لأنه كان يبكي .

ثم توقفت . ثم عادت إلى الكلام في صوت عال ، وفي لهجة فيها معنى التوسل . وقالت :

— وظننت أنه لن يموت . فقد يلتقطه بعض الناس . ولم أقتله أنا . . لم أقتله بيدي . . إنما ألقيته على الأرض . وجعلت فوقه غطاء . ولما عدت لم أجده . . وكان ذلك لأنني جد تعيسة يا دينا . ولم أعرف أنا إلى أين أسير . . . ولقد حاولت قتل نفسي فلم أستطع ثم حاولت الموت غرقاً فلم أقدر . . . فذهبت إلى وندسور ثم هربت كما تعلمين . وقد ذهبت أفتش عنه لكي يعنى بأمرى ، ولكنه كان قد رحل . . . وعندئذ ضاقت بي السبل ولم أجرؤ على أن أعود إلى البيت ، ولم

تكن بي قدرة على أن أنظر لأي مخلوق مخافة تهقيري وإذلالى .

ثم توقفت مرة ثانية كأنما الاحساس بالماضى كان أقوى مما تحتمله الكلمات ثم عادت إلى حديثها فقالت :

— ثم توجهت إلى ستونيتون وبدأت أحس بالرعب يدب في قلبي تلك الليلة ؛ لأنى كنت قد اقتربت من البيت . ثم ولد الطفل الصغير في وقت كنت لا أتوقع فيه ميلاده . . . ففكرت في التخلص منه ، وفي العودة إلى البيت . وقد خطرت لي الفكرة بغتة وأنا مستلقية في الفراش ، ثم بدأت الفكرة تقوى وتشتد . . . واشتقت أن أعود مرة أخرى . . . ذلك لأنى كنت لا أحتمل العزلة . ثم ألفت في نفسي القوة وصحة العزم والمقدرة على أن أرتدى ملابسى ، وأحسست أن ذلك واجب مفروض على . . . وتمنيت أن أجد بركة ماء في ركن من أركان المزرعة . ثم فكرت في الخلاص من أسباب البلاء وفي العودة إلى البيت . على ألا أحيطهم خبراً بأسباب هروبي . « خرجت مع البازي على سواد » والطفل تحت كسائى . وأسرعت الخطى حتى أبعدت . فلقيت جمعاً من الناس ثم أعطيت شيئاً ساخناً لأشربه ثم كسرة من خبز . . . ثم غذذت

السير . وكنت أخفف الوطء ثم أضاء القمر وقد تولاني الخوف منه يا دينا ، عندما نظر إلى من خلف السحاب . ولم أعهد في القمر تلك النظرات من قبل ثم عجت إلى الحقول . ذلك لأنى كنت أخشى أن ألقى أحداً من الناس والقمر يطل على . ثم ألقيت بنفسى على العشب اليابس أطلب الدفء وأحاول أن أنام . . .

وكانت هناك فرجة وسط العشب حيث اتخذت فراشى وحيث نمت نومة أحسست فيها بطعم الراحة . وكان الطفل فى دفاء وهو بجانبى وأظنى قد نمت نوماً طويلاً . ذلك لأنى لما صحت كان الوقت صباحاً وإن يكن النور لم يعم الكون بعد . وكان الطفل يبكى . ثم رأيت غابة على مدى غير بعيد ، وظننت أن قد تكون هناك بركة ماء أو أخدود . . . وخلت أن فى الوقت فسحة ، وأنى أستطيع أن أخبئ الطفل وأن أبعد فى سبرى قبل أن يستيقظ القوم ، وأن أركب إلى البيت وأنبئهم بأنى كنت أبحث عن عمل وأن مسعاى لم ينجح . . . وكم تأقت نفسى إلى هذا يا دينا . كم تأقت نفسى إلى أن أعود إلى البيت سالمة . أما شعورى نحو الطفل فلم أكن أتبينه . فقد كان يبدو لى أنى أكرهه .

وكان كأنه حمل ثقيل شد إلى عنقى . ومع ذلك فان بكاءه كان يبكىنى . وما كانت بى قدرة على النظر إلى وجهه وإلى يديه الصغيرتين . ولكنى مشيت قدماً إلى الغابة وجبت أنحاءها ولكن لم أجد ماء . . . ثم ارتجفت هتئ وظلت صامتة بضع ثوان ثم استأنفت حديثها وهى تهمس همساً : — وجئت مكاناً يكسوه العشب

وقطع الأشجار ثم جلست أفكر فيما سوف أفعل . ثم لاح لى بغتة حجر تحت شجرة من شجر البندق وبدا لى هذا الحجر كأنه قبر صغير ، وخطر لى فى مثل سرعة البرق خاطر أن أقذف الطفل فى هذا الحجر وأن أغطيه بالأعشاب وقطع الأشجار . وما كنت أستطيع قتله بطريقة أخرى غير هذه الطريقة . وقد فعلت ذلك كله فى دقيقة واحدة ، وقد علا صراخه يا دينا حتى لم أستطع أن أثقل عليه الغطاء . وطننت أن قد يمر به أحد الناس فيعنى به ، وينجو من الموت . ثم أسرعته الخطى وأنا أغادر الغابة ولكنى كنت أسمع بكاءه وقتاً طويلاً . ولا بلغت الحقول كنت كأننى سمعت فى مكانى فلا أستطيع حراكاً . فجلست على العشب لأنظر هل يقبل أحد من الناس .

وكان الجوع قد بلغ منى . ولم يكن
عندى غير كسرة من خبز ، ولكنى
لم أستطع المضى . وبعد لحظة حسبته
دهوراً ، جاء الرجل ذو القباء ونظر إلى
نظرة ألفت الرعب فى قلبى فذعرت
وأسرعت الخطى . ولقد ظننت أن
وجهته الغابة ، وأنه قد يعثر على
الطفل ، ثم مضيت قدماً حتى جئت
قرية على مدى بعيد من الغابة وقد
اجتمع على الجوع والتعب والمرض .
ولقيت هناك شيئاً آكله ثم اشتريت
رغيفاً . ولكن الرعب كان يمنعنى
البقاء . فقد كنت أسمع بكاء الطفل ،
وكان يخيل إلى أن الناس كلهم فى
جميع أقطار الأرض يسمعون بكاءه .
فاستأنفت السير ، ولكنى كنت جد
متعبة . وكان الليل مقدماً ، وهناك فى
ناحية من نواحي الطريق لقيت «شونة»
بعيدة عن مكان البيوت . وهناك
اختبأت واتخذت من القش حصيراً ،
ثم رقدت ثم غلبنى النعاس ولكن بكاء
الطفل كان يوقظنى . ثم صحوت وكان
الصبح قد بدا ، ثم دفعتنى قدامى إلى
العودة من حيث أتيت ، ولم أستطع
يا دينا لهذه الرغبة دفعاً . وكان بكاء
الطفل هو الدافع لى . ومع هذا فقد
كال الخوف يزلزل أقدامى ، وظننت أن
الرجل ذا القباء قد رآنى وأنه يعرف

أنى خبأت الطفل هناك . ولكنى
بالرغم من ذلك كله قد سرت فى تلك
الطريق ، وتخلّيت عن فكرة العودة
إلى البيت بل انتزعتها من مخيلتى
انتزاعاً . ولم يكن أمام ناظرى إلا ذلك
المكان فى الغابة حيث دفنت الطفل...
وإنى لأراه إلى هذه الساعة يا دينا...
فهل سأظل أراه إلى يوم تقوم الساعة؟
ثم تعلقت هتّى بأذيال دينا ثم ساد
السكوت بينهما ، وقتاً طويلاً قبل أن
تستأنف حديثها ، ثم قالت :
— لم ألق أحداً . ذلك لأن الوقت
كان مبكراً ثم وصلت إلى الغابة . . .
وكنت أعرف الطريق إلى المكان . . .
المكان الذى يقابل شجرة البندق .
وكنت أسمع بكاء الطفل فى كل خطوة .
وكنت أظنه حياً . . . ولست أعرف
أكان هذا الخاطر يرعبنى أم كان يبعث
إلى نفسى السرور . . . ولست أعرف
الشعور الذى أحسست به . وكل ما
أعلمه أنى كنت فى الغابة وأنى سمعت
بكاء الطفل ولم أتبين شعورى حتى
رأيت أن الطفل ، قد ذهبوا به .
وإنى عندما وضعته هناك خيل
إلى أنى أتمنى أن لو التقطه أحد لينقذه
من الموت . ولكنى لما رأيته قد ذهبوا
به طار لى من الفرع . وقد أوهن
ساعدى الخوف فلم أستطع حراكاً ،

وخلت أن كل من نظر إلى يعرف شيئاً عن الطفل . ثم تحجر قلبى فبقيت فى مكانى لا أتمنى شيئاً ، ولا أحاول أمراً . وخيل إلى أنه أصبح حتماً على أن أبقي هناك حتى يقضى الكتاب أجله ، وأن شيئاً من الأشياء لن يناله التبديل والتحويل . ولكنهم جاءوا وذهبوا بي . . .

ثم سكنت هيتى ثم عادت ترتجف كأن عندها للحديث بقية فى الزاوية ووقفت دينا موقف الانتظار . ذلك لأن الحزن كان قد لاع قلبها وأشرقها بدمعه ، ثم انطلقت هيتى تقول ، وقد جاشت فى صدرها غصص الهموم : — أظنين يا دينا أنى وقد بحت بكل شئ أن الله سبحانه سوف ينسينى ذلك البكاء ، بكاء الطفل ، وذلك المكان المعهود فى الغابة . . .

ثم يزور آدم هيتى فى الساعات الأخيرة التى تسبق تنفيذ الحكم . ثم تبدأ الخطوات الأخيرة فى سبيل التنفيذ ثم يحى صباح يوم تنفيذ الحكم بالاعدام . . .

وكان منظراً من مناظر الحزن التى يذكرها الناس أكثر مما يذكرون أحزانهم وهمومهم . ذلك النظر الذى رآه الناس فى صباح ذلك اليوم الصافى الأديم عندما جاءت العربة تقفل

المرأتين فى سن الشباب . وقد شاهدها عن بعد ذلك الجمهور المترقب وهى تشق طريقها ، ووجهتها المشنقة . تلك الصورة الشنيعة البشعة للموت المفاجئ الذى يسبقه الاصرار والعمد . . . وكل الناس فى ستونيتون قد سمعوا عن دينا موريس تلك الواعظة الشابة التى ألجأت تلك المجرمة المصرية على الانكار أن تعترف . وكل الناس كانوا فى شوق إلى أن يروها ، وأن يروا تلك الشقية هيتى .

ولكن دينا كانت عن الجمهور فى صم . وعندما وقع نظر هيتى على الجمهور أمسكت بدينا وهى ترتجف . فقالت لها دينا : أغمضى عينيك . ولتوجه إلى الله الغفور الرحيم بدعائنا وصلاتنا .

وفى صوت خفيض نطقت بدعائها — الذى كان كآخر سهم من سهام التوسل — لتلك المخلوقة المرتجفة . التى كانت تنظر إليها كآبة على الاشفاق والحب .

ولم تكن دينا تعرف أن الجمهور ينظر إليها فى شئ من الخشوع . بل لم تكن تعرف مدى ما بينها وبين ذلك المكان المشؤم مكان المشنقة ، حتى وقفت العربة ، وانتفضت هى فزعة مرعوبة لدى سماعها صرخة مزعجة

كأنها إحدى صرخات الشياطين . وكان راكب الجواد يتطاير الشرر
ثم اختلط صراخ هيتى بتلك من عينيه وكأنه قد جن جنونه . . .
الصرخة ثم أمسكت كتاهما بصاحبتهما وانظر إليه . . . أنه يحمل في يده
من فرط الذعر المشترك بينهما . شيئاً . . . وكان يرفع يده كأنه يشير
ولكنها كانت صرخة مبعثها إلى شيء . . .
الانفعال لا القسوة . إنها صرخة هياج وكان العمدة يعرفه — إنه آرثر
مفاجئٌ بعثها ظهور فارس يمتطى جواداً دوتهورن يحمل في يده ذلك الشيء
يشق الصفوف وهو في أقصى سرعة . الذي نجا من الموت بأعجوبة . . .

بارك إبراهيم

(عن الانجليزية)

شهرات

شهرية السياسة الدولية

محاولات الاستقرار

يصح أن نسمي الشهر المنقضى في ميدان السياسة الدولية شهر «محاولات الاستقرار» ؛ فقد انتهت فيه فرنسا إلى إعلان جمهوريتها الرابعة وختمت بهذا الاعلان عهد حكومتها المؤقتة ، ولفرنسا في الميدان الدولي مكانة كان العالم قد حرم الافادة منها طوال الحرب، وكان يترقب عودتها إليها سليمة ثابتة كي يعود هو إلى الافادة من تعاليمها التي خرجت من « الثورة الكبرى » وتميزت بروحها « العالمية ». وتم فيه التوقيع على معاهدات الصلح مع إيطاليا وفنلندا ورومانيا وبلغاريا والمجر ، وهي الدول التي وسعت من رقعة الحرب بانضمامها إلى ألمانيا العاتية ، فبدأ بهذا التوقيع إجراء من أهم إجراءات العودة إلى حالة السلم العادي ، وزاد النشاط من جانب بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا في سبيل إحكام العلاقات بينهما بالبحث في سبيل عقد محالفة

بين فرنسا وانجلترا من ناحية ، وتعديل بعض أحكام المحالفة المعقودة بين انجلترا وروسيا من ناحية ثانية ، ثم إصدار تصريح ثلاثي منهن جميعاً بتضامنهن لأجل السلام ؛ وأخذت لجنة التحقيق الدولية تقوم بمهمتها في بلاد اليونان توطئة لاقرار العلاقات بين هذه الدولة وجاراتها البلقانية من ناحية ، ولاقرار السلام الداخلي في اليونان ذاتها من ناحية ثانية .

وبدأ مجلس الأمن عرضه للخلاف البريتاني الألباني متلمساً تسوية لما نشأ عن إصابة بارجتين بريتانيتين في قنارة كورفو بقذائف تقول السلطات البريتانية إنها ألبانية ؛ كما انتهى الأمر في قضية فلسطين بتقرير بريطانيا العظمى عرضها على هيئة الأمم المتحدة بعد أن أخفقت في الوصول إلى حل يرضى به العرب واليهود معاً .

الجمهورية الرابعة

وكانت إجراءات إقرار الدستور الفرنسي الجديد قد تمت عن طريق الاستفتاء الشعبي ، وكانت الانتخابات العامة قد أجريت للمجلسين الجديدين المكونين للبرلمان الفرنسي الجديد ، مباشرة للجمعية الوطنية التي تقابل مجلس النواب في نظام البرلمان القديم ، وعلى درجتين لمجلس الجمهورية الذي يقابل مجلس الشيوخ في ذلك النظام ، وكان متبقياً أن يجتمع أعضاء البرلمان الجديد لينتخبوا رئيس الجمهورية ، فتبدأ الجمهورية الرابعة وينزل كل مظهر من مظاهر « الحكومة المؤقتة » ، وتكمل عناصر السيادة الفرنسية المنظمة . ولم يكن انتخاب الرئيس الجديد بالأمر الهين والبرلمان مؤلف من ثلاث كتل كبرى متعادلة العدد أو قريبة التعادل ، لا تحظى واحدة منها بالكثرة العددية منفردة ، ولكل منها مطالب قد يتعارض بعضها وبعضها الآخر ، وللاحزاب الثانوية كذلك مواقف لا يسهل التوفيق بينها ولا بين بعضها وبعض تلك الكتل الكبيرة ، ولا سيما إن اتصلت تلك المواقف جميعها بفكرة توزيع الرياسات الثلاث بين

الأحزاب الكبرى الثلاثة : ریاسات الجمهورية والوزارة والجمعية الوطنية ، بين الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي والحركة الجمهورية الشعبية ، في حين أن بين أعضاء الأحزاب الثانوية شخصيات لها مكانتها في السياسة الفرنسية ، ولها مواقفها الوطنية أثناء الكوارث التي انتابت فرنسا على أثر انكسارها الحربي ؛ وراح المعقبون السياسيون يقترضون المضاعفات ، وينتظرون على الأقل أن تطول جلسة فرساي ؛ لأن الانتخابات لن تسفر عن « كثرة مطلقة » يفوز بها واحد من المرشحين في الدور الأول . لكن « البصيرة » الفرنسية قد انتهت بمفاجأة أولئك المعقبين جميعاً إذ تمت الانتخابات في أقصر وقت ممكن ، وإذا نال الكثرة المطلقة مرشح الاشتراكيين منذ الدور الأول ، وكان هو مسيو مارسيل أوريول — الذي كانت الجمعية الوطنية قد انتخبته رئيساً لها قبل ذلك بأيام — فأعلنه البرلمان الفرنسي الجديد بلسان رئيس اجتماعه ، وهو نائب شيوعي ، رئيساً للجمهورية الجديدة ؛ فعاد إلى باريس بموكبه الرسمي ونزل

بقصر الاليزي الذي كان قد ظل شاغراً منذ غادره الرئيس لبران آخر رؤساء الجمهورية الثالثة في سنة ١٩٤٠ . وانتخبت الجمعية الوطنية رئيسها الجديد - وهو ثاني الرؤساء في فرنسا الجديدة - مسيو أريو زعيم الراديكاليين الاشتراكيين ، وكلف رئيس الجمهورية شخصية من شخصيات الحزب الاشتراكي ، مسيو راماديه مهمة تأليف الوزارة ، فتقدم إلى الجمعية الوطنية على حسب أحكام الدستور الجديد ببرناجه فقال ثقها ، ثم ألف وزارته ونال عليها الثقة أيضاً ، فأكملت بذلك كل عناصر بروز الجمهورية الرابعة .

وليس لاكتمال هذه العناصر فعل الاستقرار الداخلي بالنسبة لفرنسا وحده ، بل إن لها لفعلاً آخر بالنسبة للميدان الدولي كله أيضاً . ذلك بأن

فرنسا التي انهارت في ميادين القتال قد بقيت محتفظة بملكاتها السياسية الدولية ، وذلك بأن التطورات الدولية التي جاءت على أثر انهيارها وعلى أثر وقوف ربحي الحرب عامة ، قد جعل العالم في حاجة إلى تلك الملكات ، كما جعل فرنسا ذاتها تحس هذه الحاجة وتحاول سدها بمواقف وتوجيهات وتوفيقات في الميادين الدولية والدبلوماسية عرقها لها الشدائد والأزمات .

وقد راحت تلك التطورات في سبيل تقابل الكتلتين الأنجلوسكسونية والسلافية ، فكانت المواقف التي وقفها فرنسا في بعض اجتماعات هيئة الأمم المتحدة وفي بعض جلسات وزراء الخارجية حائلة دون التصادم الذي كان يحسبه البعض محتوماً ، وموفقة في كثير بين مختلف التيارات .

معاهدات الصلح

وكذلك عادت إلى باريس صفة من صفاتها الدولية التقليدية ، وهي صفة المكان المفضل للاحتفال بالأحداث الدولية الهامة ، أو على حد تعبير بعض الكتاب الفرنسيين ، صفة « عاصمة التوقيعات » . ففي العاشر من شهر

فبراير احتفل في وزارة الخارجية الفرنسية بالتوقيع على النسخ الأصلية لمعاهدات الصلح مع حلفاء ألمانيا السابقين ، وهي المعاهدات التي كان قد وقع عليها من قبل مستر بيرتر وزير الخارجية الأمريكية في نيويورك

وهو يحضر آخر اجتماع له في مجلس الأمن قبل أن يقدم استقالته ، والرفيق مولوتوف في موسكو ، ومستر بيغن في لندن . وقد تلت هذه التوقيعات السابقة توقيعات مسيو ييدو وزير الخارجية الفرنسية وسائر ممثلي الحلفاء ثم توقيعات ممثلي الدول المقهورة .

وبهذا الحادث ، بل بهذا الحدث تعتبر حالة الحرب مع الدول الموقعة على هذه المعاهدات قد انتهت . على أن خمساً من هذه الدول ، بينها اثنتان من غير « الأعداء السابقين » ، قد أوصلت إلى رئيس الحفل كتباً من وزراء خارجيتها قصد إبلاغها إلى سائر الموقعين يعرضون فيها الأسباب التي تدعوهم إلى اعتبار المعاهدات التي يوقعون عليها غير مرضية لدولهم .

وقد أجمعت المجر وبلغاريا ورومانيا على عدم عدالة بعض أحكام المعاهدات ، وعلى أن النصوص الاقتصادية الخاصة تكلفهم تكاليف باهظة . وإلى هذا فإن المجر تشكو من أن الحقوق الأساسية لأبنائها العائشين خارج حدودها غير مضمونة ، وتوجه شكواها في هذا الصدد بخاصة إلى تشيكوسلوفاكيا التي لم تحترم اتفاق تبادل السكان المعقود معها في شهر فبراير سنة ١٩٤٦ وهو الذي يقضي بتبادل فرد بفرد .

وأما بلغاريا فتشكو من عدم اعتبارها شريكة في الحرب مع أنها شاركت فيها إلى جانب الحلفاء بنصيب منذ سبتمبر سنة ١٩٤٤ ، وهي تحتج على أنها لم تنل مخرجاً إلى بحر إيجه ، وأن تراقيا الشرقية لم ترد إليها . وهي تن من ثقل عبء التعويضات المفروضة عليها ، وتطالب بامهاها سنتين كاملتين قبل أن تبدأ في تسديد أقساط تلك التعويضات ، ولا سيما أنها لم تحظ بمساهمة في التعويضات المفروضة على ألمانيا .

وأما رومانيا فلا تتردد في إظهار سرورها لما أصابها من تصحيح حدودها من ناحية ترانسلفانيا ولكنها تشكو إقصاءها هي الأخرى عن المشاركة في التعويضات الألمانية ، وتعلن أنها ستولى المفاوضة المباشرة مع جاراتها قصد تنسيق الأحكام الاقتصادية للمعاهدة .

وكذلك شكت يوجوسلافيا وشكت اليونان من أحكام المعاهدات . وتحتج يوجوسلافيا على طريقة تسوية مشكلة تريستا ، وتسجل مخاوفها بشأن اليوجوسلافيين الباقين في المناطق التي أبقها التسوية داخل الأراضي الإيطالية ، وتعلن أنها لا تنزل عن المطالبة بهذه المناطق اللازمة لكيانها لزوماً «فنيا» .

وتحتج اليونان على أنها لم تفز بأى تعديل لتخومها في حين تخرج بلغاريا وقد أضيفت إليها مناطق في دو بروجيه . كذلك تعلن احتفاظها بالمطالبة في المستقبل بأقاليم ابيروس الشمالية من ألبانيا ، كما تأسف لعدم النص صراحة على نزول إيطاليا عن بعض جزر مجاورة للجزر « الاثنتى عشرة » المعروفة . والفروض أن تلك الشكاوى لن تكون محل نظر إلا إذا تطور أمرها

مع الزمن فهدد الأمن أو أوجد نزاعاً يكون من اختصاص مجلس الأمن أن ينظر فيه . وإلى وقوع هذا التطور فإن التوقيع على معاهدات الصلح قد جعل السلم الرسمي هو الحالة الراهنة في أوروبا ما عدا النمسا وألمانيا اللتين ستعالج أمور الصلح معهما في مؤتمر وزراء الخارجية الذي سيعقد بموسكو ابتداء من اليوم العاشر من شهر مارس المقبل .

بين انجلترا وفرنسا وروسيا

كذلك تجلى خلال الشهر المنقضى نشاط في سبيل عقد تحالف بين فرنسا وانجلترا . وكانت انجلترا تطمح إلى هذا التحالف من زمان . وطالما سعى مستر تشرشل إلى تحقيق مشروع الحلف الغربى بضم انجلترا وفرنسا وبلجيكا وهولندا . وقد سبق له أن حاول تحقيقه أيام كان الجنرال ديغول على رأس الحكومة الفرنسية المؤقتة . لكن قيل في بعض الدوائر إن محاولته لم تنجح لأن روسيا كانت قد عارضت الفكرة إذ لمحت فيها شيئاً قد يكون موجهاً ضدها . وكان مسيو بلوم وهو في رئاسة الوزارة الفرنسية قد سافر إلى لندن للتحدث في أمر التحالف الفرنسى

البريتانى ، وقد قيل في ذلك الوقت إنه قد نجح في وضع المبادئ العامة التي يقوم عليها . وقد تبودلت خلال الأيام الأخيرة مذكرات بين الحكومتين انتهت بإبلاغ الحكومة البريطانية حكومة فرنسا مشروعاً للتحالف المنشود . فلاحظت عليه فرنسا ملاحظات أهمها أنه يقصر المعونة الحربية المتبادلة على حالة وقوع اعتداء مسلح فعلى من جانب ألمانيا في حين أن تاريخ الحربين العالميتين الأخيرتين يدل على أن انتظار وقوع الاعتداء الفعلى المسلح من ألمانيا يكون معه التعاون متأخراً بعد أن يكون قد صدر عن ألمانيا من الأعمال ما تقضى المصلحة العالمية

بوقفه في الحال . وضربت فرنسا
لذلك مثلاً في أمر تجاوز ألمانيا عن
التزاماتها إزاء منطقة السار ، ولو كان
ذلك التجاوز قد قابله عمل مشترك من
فرنسا وانجلترا معاً لما أعانت الظروف
ألمانيا على إعداد الحرب العالمية الثانية .
وكانت انجلترا قد أخطرت روسيا
باعتزامها عقد محالفة مع فرنسا حتى
لا يتكرر منها موقفها من المحاولة الأولى
مع الجنرال ديغول ؛ فانهزت روسيا
الفرصة وطالبت بتعديل بعض أحكام
المحالفة القائمة بينها وبين انجلترا ،
وتبادل الرأي بين الجانبين لكنهما
لم يصلا بعد إلى موقف نهائي .
على أن فرنسا تود لو انتهى الأمر
لناسبة عقد محالفتها مع انجلترا وتعديل
المحالفة الانجليزية الروسية إلى صدور
تصريح ثلاثي يؤكد الصداقة بين
الثلاث المتحالفات ويؤكد تضامنهن
في سبيل توطيد السلام . ولعل فرنسا
تقصد بذلك إلى إبعاد كل ريبة عن
تحالفها مع انجلترا . ولعلها تقصد كذلك
بعث الاتفاق الثلاثي من جديد تحيط
أطرافه بألمانيا من جميع الجهات .
وقد يؤيد هذا الاتجاه الأخير
سعى فرنسا إلى عقد تحالف مع بولونيا
وتحالف آخر مع تشيكوسلافاكيا على
غرار التحالف القائم بين روسيا وانجلترا .
ولقد كان مثل تلك المحالقات قائماً قبل
الحرب العالمية الثانية .

التحقيق الدولي في اليونان

وكانت اليونان قد تقدمت إلى
مجلس الأمن شاكية وصول المساعدات
المادية من أراضى الدول المجاورة إلى
الثأرين في وجه الحكومة اليونانية
القائمة ، وطلبت في سبيل ذلك تحقيقاً ،
فألف مجلس الأمن لجنة وعهد إليها
بأمر التحقيق في اليونان ، وبدأت اللجنة
أعمالها ورغبت هيئة « أيام » الثائرة
أن تستمع لجنة التحقيق إلى أقوالها .
وكان أحد أعضاء مجلس العموم البريتاني
قد قابل القائد العام لجيش تلك الهيئة ،
فحمله القائد كتاباً إلى أعضاء لجنة
التحقيق الدولية يدعوها فيه إلى
زيارته ، وبلغها استعداداه للذهاب
بنفسه إلى مقرها ليوضح شخصياً
وجهات نظر جيشه الذي يسميه الجيش
اليوناني الديمقراطي . وقد قررت
اللجنة إرجاء اتخاذ قرار في شأن
هذه الدعوة إلى أن تعقد جلساتها
في سلاتيك خلال الأسبوع الأخير

من شهر فبراير . وفي انتظار قواتها العسكرية من بلاد اليونان انتهاء التحقيق وظهور نتائجه أعلنت قبل اليوم الأخير من شهر مارس الحكومة البريطانية أنها ستسحب إلا فرقة واحدة .

الخلاف بين بريطانيا وألبانيا

وقد أخذ مجلس الأمن ينظر قناة كورفو طريق دولية معترف بشكوى بريطانيا من ألبانيا ، وقد اتهمتها بأنها « تعمدت سرا » بث الألغام التي نسفت مدمرتين بريتانيتين في مضيق كورفو في الثاني والعشرين من أكتوبر لسنة ١٩٤٦ ، وذهب ضحية هذا الحادث أربعة وأربعون من البحارة البريطانيين ، وجرح من جرائه اثنان وأربعون بحاراً آخرون ، كما راحت ضحيته إحدى المدمرتين . وحضر مجلس الأمن ممثل ألبانيا وهو وزيرها المفوض في بلغراد ، كما حضره وفد بريتاني بحري كامل برئاسة الأميرال تيلر ليؤيد مندوب بريطانيا الدائم لدى مجلس الأمن . واستند الاتهام البريتاني إلى أن

قناة كورفو طريق دولية معترف بدوليتها ، للسفن البريطانية حق المرور فيها قانوناً ، وإلى أن الألغام المبتوثة كان بعضها على مسافة ثلاثمائة ياردة من الشاطئ الألباني ، وإذن فيستحيل بثها دون علم الألبان . واستند الدفع الألباني إلى أن ألبانيا لم تعترف يوماً بدولية قناة كورفو ، وإلى أنها لم تعرف شيئاً عن اللجنة المشتركة للتقاط الألغام ، وإلا كانت هي عضواً من أعضائها . وهي مطللة على المياه التي تكتسح منها الألغام . وإلى ساعة كتابة هذه السطور ، لم ينته مجلس الأمن من النظر في الخلاف .

قضية فلسطين

وقد انتهى مؤتمر فلسطين الذي كانت قد دعت إليه إنجلترا وحضره مندوبون عن الدول العربية وعن عرب فلسطين ، انتهى إلى الاخفاق إذ رفض العرب المقترحات البريطانية ، وهي في نظرهم قاضية بتهيئة أسباب الكثرة اليهودية في فلسطين وبتشجيع إنشاء الدولة اليهودية بحيث تبتلع فلسطين كلها على الأيام .

وكانت الحكومة البريطانية تتصل بالصهيونيين أثناء انعقاد المؤتمر وتعرض عليهم مقترحاتها كذلك ، وقد قابلوها بالرفض هم أيضاً ورأت الحكومة الانجليزية أن تعهد بالمشكلة الفلسطينية إلى هيئة الأمم المتحدة بعد أن يئست من مساهمة الحكومة الأمريكية في تحمل أعباء المحافظة على الهدوء والنظام في فلسطين . وترمى إنجلترا بذلك إلى سبق الدول العربية إلى الهيئة الدولية العالمية ، وقد كانت هذه الدول مقررة في مجلس جامعتها بيلودان أن ترفع الأمر إلى هيئة الأمم المتحدة شاكية إنجلترا على اعتبار أنها صاحبة الانتداب ، فاستمهلها إنجلترا حتى هيات لنفسها ظروف التقدم إلى الهيئة ذاتها ، لكن لا بصفة المشكو منها بل بصفة الحائر في أمره من لغز فلسطين .

وقد نسيت إنجلترا أنها هي خالقة هذا اللغز بما سبق أن وزعته من وعود متناقضة للعرب وللإهود : وعد الاستقلال العربى الشامل للحسين بن على ، ووعد بلفور للصهيونية العالمية .

محمد عزمى

شهرية المسرح

الموسم الفرنسي للكوميدي

تأليف أو الرمال تأليف موليير (١)

افتتح الموسم الفرنسي للكوميدي بدار الأوبرا الملكية هذا العام بمسرحية من مسرحيات موليير . وهذا هو المتوقع المرتقب من فرقة على رأسها جان مارشام من الأعلام الفحول الراسخي القدم في المسرح الذين عركوا قديمه وحديثه واضطلعوا في الحالين بتأدية رسالته الخالدة . والناظر في ثبت الروايات المزمع تقديمها في هذا الموسم يلمس الحرص الشديد على أن تنعكس فيها صور الفن المسرحي على اختلاف سماتها في مختلف العصور على قدر ما يسمح به الزمن المحدود . وهذا الحرص الشديد مرجعه بلا ريب إلى شعور الفرنسيين بأن الفن المسرحي هو بين سائر وجوه الثقافة عندهم أغناها باللون وأنطقها بالتعبير ، وأنه عصاهم السحرية وأداة ذبوع شهرتهم الأدبية في العالم عامة وفي الشرق العربي خاصة . ومن ثمة احتشدت في برنامج الشهر الواحد جملة صالحة من أعيان التأليف المسرحي . وفي هذا الحشد الكبير نرى موليير ، وموسيه ، وكوديل ، وجيرودو ، وأنوي ، وفايدو ، وجيرالدي وسالاكرو وغيرهم يحمل كل منهم إلينا آية من روائع آياته الكبرى . وقد اختص — ولا جرم — بمكان الشرف في صدر الموسم بين هؤلاء أجمعين جان بابتيست الملقب بموليير العظيم . فهو — غير منازع — مبدع فن الكوميدي الحديث . ولقد كانت الكوميدي من قبله حكاية للمهازل الإيطالية التقليدية ، وهي في أكثر الأحيان غليظة الدعابة فاحشة المحجون ، وإن كانت على الدوام كثيرة النوادر حافلة بالمضحكات . ومعلوم أن هذه المهازل التقليدية كانت تدور على ما اصطلاح القوم . عليه من شخصيات هزلية بعيدة عن الحياة الواقعية ؛ فلم يلبث موليير أن عدل بها عن ذلك ، وعمد إلى تقريب فن المهزلة من الواقع ، وتوجه إلى خلق مسرح هزلي جديد قريب من الحياة في بيئته وزمنه ، بل قريب من الحياة الانسانية الخالدة في كل مكان وفي كل زمان . وقد وقع الاختيار من روايات

الهزلية مضحكا وفي الوقت نفسه رهيباً .
وقد اضطلع جان مارشا بهذا الدور
فأحاط بجميع خصاله وأظهر سائر ألوانه
وظلاله . وقد أجاد المثلون أجمعون ،
وعلى الأخص جان بول مولينو في دور
صاحب الدار المضيف في سذاجته وطيبة
قلبه وسرعة تصديقه وحسن اعتقاده .
ولقد كان لماريون دلبو الوصيفة أثر
ظاهر في إشاعة المرح في جو القصة
وإثارة الضحك بين النظارة .

ومما يجدر ذكره والاشارة إليه حرص
الفرقة على محاكاة المسرح في عهد مولير
نفسه . فقد أقامت على خشبة المسرح
الفسيحة مسرحاً صغيراً تنير حافته
الشموع أو على أصح القولين أشباه
الشموع من المصاييح الكهربائية ، كما
توخت البساطة في معدات المنظر وستائره .
وعلى هذا المسرح الصغير الأنيق بدت
ملابس العصر بديعة الألوان لطيفة
الهندام في أجمل رونق وزينة .

وقد أبى على جان مارشا أدبه الجم
وإدراكه لرسالة الفن في تقريب
الشعوب إلا أن يرتجل قبل تمثيل
الرواية كلمة في التنويه بالعلائق
الثقافية بين فرنسا والشرق أشار
فيها بموقف العطف الذي وقفته مصر
تجاه فرنسا في هزيمتها وفي أثناء مجهودها
للهوض من كيوتها ، وأعرب عن

مولير على « تارتييف أو الدجال »
لافتتاح الموسم بها . وهي الرواية التي
« أثارت حولها ضجة كبيرة واشتد
النكير عليها أمدأ طويلاً » على حد
قول المؤلف عام ١٦٦٩ .

والواقع الذي لا خفاء به أن
إضافة وصف « الدجال » إلى عنوان
الرواية شهادة ناصعة ودلالة قاطعة
على أن المؤلف إنما يقصد إلى المرائين
الذين يحترفون التقوى ويتجرون بالدين .

ورواية « تارتييف » أشهر من أن
نعرض لها بالتعريف ؛ فليس بين قراء
الأدب من لم يقرأها في أصلها أو في إحدى
تراجمها في مختلف اللغات . ورواد
المسرح المصري يعرفون تارتييف محمراً في
مسرحية « الشيخ متلوف » للمرحوم عثمان
بك جلال الذي نقل شعرها الفرنسي في
كثير من التصرف إلى زجله الحى اللطيف .
وليس دور مدعى التقوى الزائف

تارتييف من البساطة بحيث يقع
الاتفاق على طريقة تأديته ؛ وذلك
أن شخصية تارتييف مركبة معقدة
يجتمع فيها التظاهر بالورع والشهوة
المكبوتة وحب الرياسة والسلطة ،
فنحن بازاء مزيج من الدناءة الخلقية
المهينة والفطنة الذهنية العظيمة
والقوة النزوعية العارمة . ومن ثمة
كان دور البطل في هذه المسرحية

يقينه الجازم بأن موقف مصر من فرنسا باق على حاله مهما تبدلت الأحوال . ثم ختم الممثل الكبير كلمته بانشاد قصيدة وطنية للكاتب الشاعر الكبير بول كلوديل . وكان جان مارشا يلقي كلمته وخلفه منظومة من الحسان هن كواكب فرقته في أبدع

ما أخرجته دور الأزياء من حلل السهرة . وهكذا كانت حفلة الافتتاح جامعة بين الفن المسرحي والشعر الحماسي والمناظرات الثقافية ومعارض الأناقة الباريسية . ولا غرو أن يكون ذلك كذلك ؛ فتلك هي الروح الفرنسية .

لو أئني أرادت تأليف بول جيرالدي وروبرت سبتزر^(١)

هذه مسرحية من اللون المكفول سلفاً عند الكافة من المتفرجين نجاحه ورواجه ، وحظوته لديهم وحسن موقعه منهم . فهي تدور أولاً وآخرًا حول ذلك المخلوق العجيب الحبيب : « المرأة » . ثم هي تدور حول المرأة لا بالمعنى الفلسفي التجريدي ، بل بالوضع الغريزي والمعنى الطبيعي .

فهذا زوج وزوجته — فيليب وجرمين — يعيشان في مغناهم الريفى الأنيق ، وقد مضى على زواجهما نيف وعشر سنوات في صفاء ودعة وسكينة ، يعيش كل منهما لصاحبه ، مطمئنا إلى هواه ، مستريح البال من ناحيته حتى ليكاد أن ينساه .

وفي ذات ليلة رائقة مقمرة من ليالى الصيف يهبط على البيت في ساعة متأخرة ، وعلى غير موعد ولا انتظار ، صديقة لربة البيت هي مارسيل على نية المبيت وقضاء بضعة أيام . وكانت جرمين من ذوات العقل والرصانة بقدر ما كانت صديقتها من خفاف الأحلام .

وهنا في سكينة الريف ، وفي ركن هذا البيت الناعم القرير ، يدور بين المرأتين هذا الحديث الخطير .

تقول جرمين فيما تقوله تؤنب صاحبها : « هذا فظيع يا صغيرتى المسكينة ! فظيع هذا الذى تقولينه ! حسبتك قد نرعت عن جهلك وراجعت رشذك . لم تكونى مع زوجك سعيدة وقد انفصلت عنه بالطلاق ، فأنت اليوم حرة طليقة . ولكن ، ولكن يجب مع ذلك أن تتدبرى ما تأتينه . لقد تورطت منذ ذلك الحين في مغامرة

غرامية أولى ، فلم أواجهك بكلمة لوم .
تذكرين ؟ ولكن ، هذه أخرى .
يجب أن تفكرى فيما أنت صائرة إليه .
سوف ينتهى الأمر بك إلى التدهور ،
إلى سقوط الحرمة فى أعين الناس . ماذا
يظن الناس بك؟ ماذا هم قائلون عنك؟
حتى أحباؤك لن يجدوا سبيلا للدفاع
عنك ! »

هذه هى نقطة البداية فى الرواية
ومحور موضوعها ومدار حوادثها .

وتسلطت هذه الفكرة الواحدة على
جرمين ، وتربعت فى خاطرها ، وركبتها
واستبدت بها وأخذت المذاهب عليها ،
حتى وقر فى نفسها أن الفصل فى هذا
الأمر هو الحكم على حياتها ، المؤنثة
بالنجاح أو الحيبة .

ولاشك فى أن هذا المعنى الذى أورده
المؤلف مروع فى ذاته ، ولكن روعته
لا تمنع من صحته ، إن كان صحيحاً .
ومؤلف الرواية بول جيرالدى
من أشهر شعراء الغزل المحدثين عند
السواد الأعظم من الفرنسيين يديوانه
الموسوم « أنت وأنا » . وهو كاتب
مسرحى مقل ، فلا يزيد عدد مسرحياته
على أصابع اليد الواحدة ، بما فى ذلك
المأسى والملاهى ، وقد اشترك معه فى
الآخيرة صديقه الحميم سبتزر ، وقد كان
النجاح حليفها جميعاً . والرواية التى
نحن بصدددها ملهأة لطيفة لذيدة .
ومؤلفنا بول جيرالدى يجيد تصوير
دخائل الحياة الخصوصية الغرامية ،

وتدافع مارسيل عن نفسها فتقول
فيما تقوله : « أنت — يا عزيزتى ! —
غير مستطبعة فهمى . أنت تختلفين
الاختلاف كله عنى . وماذا تريدن
منى ؟ ليس الأمر فى يدي ، ولا الذنب
ذنبى ، إذا أنا رقت فى أعين الرجال .
صدقينى . لست أتعمد ذلك ولا أفكر
فيه ولا أنشده . ولكنها ميزة فى . هى
فتنة ، سحر ، أو ما شئت فسميه .
ولكن ، أنت لا تفهمينى . ليست كل
امرأة جميلة بالتى تروق فى أعين الرجال .
تقولين إنك لا محالة تروقين فى عين
فيليب ، وأنا معك فى هذا ، ولكن
فيليب زوجك . آه ، إنى شئ آخر ،
إنى أروق فى أعين الرجال جميعاً ... »
هذا الحديث أو ما فى معناه دار
بين المرأتين الشابتين . وجرمين زوجة
شريفة عاقلة ما فى ذلك ريب . ولكن
المرأة مع ذلك قد تعرض لها حال من
الأحوال فى لحظة من اللحظات تفقد

ويؤثر تناول القلب الانساني من نواحيه الضعيفة الرقيقة، ولا سيما قلب المرأة . وهو شديد الحرص عامة على الصدق ، ولكنه أشد حرصاً على النسق الزخرفي الشائق والحوار الشعري الرائق . وقد أظهر في هذه الرواية براعة في الالام بالمعاني الجريئة بعباراة ملفوفة غير مكشوفة ، متصونة غير متبذلة . وفي الرواية عاصفة كان يمكن أن تكون الجائحة الكاسحة ، ولكن التعقل والحكمة كانا عند المؤلف لحسن الحظمن الخصال المحببة الغالبة . ومن ثمة كان ما اختاره لروايته من النهاية السعيدة .

لقد تعرضت الزوجة يوماً كاملاً لمواقف دقيقة وأزمات عصبية ، فيها سخف وألم ، ولكنها تلقت آخر الأمر الجواب على سؤالها من غير أن تقع في الخيانة الكبرى لزوجها .

ولا يسعنا وقد شهدنا تمثيل الرواية بعد قراءتها إلا أن نقرر أنها فازت بالنجاح الذي قدرناه لتوافر عوامل النجاح فيها ، وأنها فازت بأكثر مما قدرناه من النجاح الباهر بفضل الممثلين الفنانين واقتدارهم على أدوارهم وحذقهم الأداء وإتقانهم المحكم للتمثيل . ونذكر في الطليعة جان مارشا . فما

ندري ماذا كان يمكن أن يكون فيليب الزوج غير ذلك في سباحة خلقه ، وسخاوة طبعه ، وخلوص نيته ، وصدق مودته وأريحيته ، واستقامة وجهته وصراحته . ثم جان ألفا في دور الزوجة الشابة المحبة ، الحائرة العاقلة ، الثائرة المتماسكة . وإلى جانبهما جيزيل كساديسو ، في دور مارسيل ، خفيفة الظل بقدر ما هي خفيفة العقل طياشة ، يسكرها الاطراء لجمالها فيدار برأسها إلى حد تسليمها في نفسها . ثم لوسيان باسكال ، فقد أبلى البلاء الحسن في دور صديق الأسرة برتييه الذي يجري جريه وراء متعته دون أن تضعف مروءته ، ودون أن يفقد الايمان بالفضيلة والاعجاب بها . وأخيراً أنطوان فليرى ابن عم الزوجة في حاسة شاعريته، وقد تعدد الفنان الخروج بها إلى باب الهزل فأتى بما أضحك الحاضرين جميعاً وصادف هواهم وكسب رضاهم .

وخلاصة القول إن الرواية قوبلت منذ أول ليلة لتمثيلها في عاصمة الديار المصرية كما قوبلت أول تمثيلها على مسرح الجمناز في عاصمة البلاد الفرنسية بأحسن القبول وآخر مظاهر الاستحسان والتقدير .

شهرية السينما

الحسناء والوحش (إنتاج أندريه بولفييه) (١)

هذا فيلم آخر يضيفه مسيو جان كوكتو إلى إنتاجه السينمائي وينال به استحسانا عاما - لأنه عندما يقوم بأثر فني يعكف عليه ، فما يزال به حتى يخرج به كاملاً محققاً لغايته . ولذلك قلما نجد في فيلم من إنتاج غيره ما نلمسه في إنتاجه هو من جهة التصوير أو الإخراج . وهو يجتهد حينما يعمل للسينما أن يبتعد عن الأسلوب المعتاد في الإخراج ليأتي بشيء جديد . وهو لا يعتمد في ذلك إلا على خياله من حيث هو شاعر ، وعلى ذوقه الفني من حيث هو رسام . وتمده الخدع السينمائية بكل ما يحتاج إليه من وسائل لتحقيق غرضه .

يطلب منا كوكتو عند ابتداء عرض فيلم « الحسناء والوحش » أن نشهد حوادثه في سذاجة الأطفال ، تلك السذاجة التي حملتنا ، ونحن في السابعة من عمرنا ، على الإعجاب بقصص الأعاجيب . فلم يكن ثمة سبيل إلى تذوق الجمال في أثر كوكتو الفني دون هذه السذاجة ؛ لأنه عرض علينا

قصة خرافية طالما شغفنا بها في طفولتنا . وسرعان ما تساءلنا والمشهد تمرأمامنا ألا يزال ثمة شيء من سذاجة القصة التي تكون مبعث الجمال فيها بعد أن لجأ إلى كل الحيل السينمائية لإخراج هذا الفيلم . إن المشاهد ليسعربغضاضة من تلك المناظر ؛ لأنه يعلم تمام العلم أنها نتيجة خدع المصور وخدع المخرج وخدع المؤلف فيتمحي الجمال ولا يبقى إلا إعجاب بتلك الصناعة السينمائية الماهرة . إن الخيال هو خير معاون للأثر الفني ، وخاصة إذا وجد السبيل إلى الجموح . أي إن على المؤلف أو المصور أن يترك للمشاهد أو القارئ فرصة أن يتمم الأثر الفني بخياله . فهناك تعاون بين المؤلف والقارئ أو بين الفنان والمشاهد . فالقارئ يجد عند مطالعة قصة مجالا يسبح فيه بخياله ليكمل ما عجزت عن تصويره الكلمات ، فيشيد قصراً من خياله ، ويؤثثه من خياله ، ويصنع الأشياء بالألوان التي تروق له . والقصص الخرافية خاصة ترسل العنان لخيال القارئ فيملأها بما يروق له من

أعاجيب . ولهذا تصادف تلك القصص هوى في نفوس الأطفال . فعندما قام كوكتو باخراج قصة « الحسناء والوحش » أزال كل فرصة للشاهد أن يترك خياله على سجيته ، وصور لنا الأشياء كما يراها هو لا كما نراها نحن أو كما رأيناها عند قراءة هذه القصة . فأفقدنا ذلك الحلم اللذيذ الذى طالما سبحنا فيه ونحن أطفال ، والذى لا نود أن ينهار بشهود ما حققه لنا كوكتو في هذا الفيلم من حوادث تلك القصة الشائقة . ومهما يكن من أمر فان فيلم

كوكتو ليس بالعمل الذى ينقصه شئ . فانه إنتاج فنى رائع يظهر فيه جلياً مجهود منتجيه ليصل إلى الكمال فى التصوير والاضاءة . وقد رفع من شأن هذا الإنتاج تمثيل جان ماريه فى دورين مختلفين هما دور عشيق الحسناء ودور الوحش . وقد أظهر رغم النقاب فى دور الوحش قدرة على التعبير المعتدل وعظمة فى إيماءاته ومشيته . أما جوزيت داي فقد مثلت دور الحسناء بكل ما يتطلب هذا الدور من وداعة ورقة .

رسائل غرامية (فيلم بامونت)^(١)

هذه قصة غرام ساذج نقى نشأ بين شابين جمعت بينهما الرسائل التى يتلقاها كل منهما من الآخر . لم يكد يجمعهما الزواج حتى دب بينهما الشقاق ، فقد وجدت الفتاة زوجها ذا عقلية تختلف عن العقلية التى لمستها فى رسائله . وفى الحقيقة أنه لم يكن هو كاتب تلك الرسائل ، وإنما كان يعهد بها إلى صديق له . فهى إذن لم تقترن بمن أحبت وإنما بمن غرر بها وحملها على الاعتقاد بأنها تحبه . فثمة شخص آخر سلبها لبها وامتك نفسها . وها هى ذى

فى محنتها تعود إلى قراءة تلك الرسائل لعلها تجد سلوى ؛ ولكن الزوج تدفعه الغيرة إلى أن ينتزع منها تلك الرسائل التى تنقل إليها عبر غرام شخص آخر . وتحدث بين الزوجين مشادة تنتهى بمصرع الزوج فى ظروف غامضة . تصاب الزوجة بفقد الذاكرة حينما ترى زوجها صريعاً أمامها ويديها مخضبتيْن بدمائه . ثم تجمعها الأقدار بصديق زوجها كاتب الرسائل دون أن تعلم عن حقيقته شيئاً ، وهو لا يحاول أن يظهر لها حقيقته لما فى ذلك من صدمة

عنيفة قد تذهب بقواها العقلية . تهيم بالفتى وتتزوج منه ويعيشان معاً عيشة هنيئة ، غير أن الأقدار تعكر هذا الهناء بعض الشيء ، ثم تعود به إلى صفائه الأول . ففي ظروف عصيبة مؤلمة تعود إلى الزوجة ذاكرتها ، ويتضح لها أنها لم تقتل زوجها الأول . يعود إليها صفاء النفس بعض الشيء ، وتهتم بالخروج للبحث عن ذلك الذى أحبت ، فتلتقى بزوجها وقد أخذ يعيد إليها جملاً من الرسائل التى كان يكتبها لها .

والقصة كما نرى تقوم على ذلك الغرام الذى نشأ بين الشابين من الرسائل ، وتوشك أن تنتهى بموت الزوج والفتى العاشق . ولكن هناك عنصراً آخر أدخله المؤلف ليؤخر من حل العقدة وهو مرض فقد الذاكرة وما يستتبعه من دراسة تحليلية لحالة الفتاة المريضة . وهذا هو الاتجاه الجديد الذى نلمسه فى العدد الأكبر من إنتاج السينما الأمريكية فى الموسم الحالى . وقد يعتبر هذا الانتاج انتاجاً موفقاً لما فيه من دقة وأمانة فى التحليل النفسى ومن حسن وإتقان فى الأداء . كان يقوم بدور الفتاة المثلة الناشئة جينيفر جونز . فكان النجاح حليفها .

وقام الممثل جوزيف كوتن بدور الفتى العاشق فى توفيق ونجاح .

عطلة الأسبوع المفقودة (فيلم برامونت) (١)

عرض لأول مرة فى مصرفيلم من الأفلام التى حازت جائزة مهرجان كان ، وهو فيلم « عطلة الأسبوع المفقودة » . وعرض أيضاً فيلم « الحسناء والوحش » الذى لم يظفر بجائزة رغم أنه يستند على إخراج متقن وتصوير فنى بارع وقصة ساحرة لا تخلو من جمال ، أما فيلم « عطلة الأسبوع المفقودة » فلم تجتمع فيه كل هذه العناصر لتمهد له السبيل إلى النجاح . فليس له قصة

كما يجب أن تكون القصة ، ولم يطغ فيه الإخراج المتقن على التمثيل . وإنما استند فى نجاحه على التمثيل البارع العجيب وعلى الصورة الواقعية التى ساقها إلينا . قدم لنا هذا الفيلم ثلاثة أيام من حياة شاب امتحن بداء الخمر حتى إنه لم يكن يستطيع أن يمضى دقيقة واحدة دون أن يتناول الخمر . لقد حاول أخوه وخطيبته أن يرداه عن تلك العادة القاتلة ، ولكن فى غير جدوى . فهو

يعرف كيف يخفى عنهما زجاجات الخمر وراء كتب المكتبة ، أو في الثريا ، أو مدلاة خارج النافذة . وإن منعت عنه النقود فلا يعوقه شيء عن تبديد نقود الخادم العجوز ، أو نشل حقيبة جارته في الحانة أو التوصل إلى صاحب الحانة ليتكرم عليه بكأس صغيرة . كان ينوى أن يقضى عطلة الأسبوع مع أخيه في الريف ، غير أن السكر أنساه ميعاد القطار ، فبقى في المدينة يتنقل من حانة إلى حانة يستأنف في كل منها تناول الشراب . ثم يعود إلى المنزل ليستأنف الشراب أيضاً . أصبح لا يعيش إلا بالخمر وللخمر ، حتى انتهى به الأمر ، وقد مضى عليه بضع ساعات دون أن يتناولها فأعياه ذلك إعياء شديداً ، إلى مستشفى مدمنى الخمر . وهناك رأى مال هؤلاء القوم التعساء ، فنفر من ذلك المصير المحتوم وولى الأدبار ليستأنف الشراب . وأخيراً لما خيل له أن نهايته قد دنت صمم على الانتحار ليخلص من محنته هذه . ولكن خطيبته تحول بينه وبين ما يريد ، وتقدم له الخمر لترجعه عن عزمه ، فينفر فجأة من الكأس . لقد أنقذته من تلك المحنة مغامراته في عطلة الأسبوع المفقودة . وقوة القصة في تحليلها الدقيق

الصادق ، وإن لم تكن نهايتها تتفق والمنطق . فليس ثمة من سبب يشئى هذا المدمن من دائه بعد أن عانى منه ما عانى ست سنوات ، وأصبح ينفر من الطعام فلا يتناول شيئاً منه . إن هذا الشفاء لا يأتي إلا بعد علاج طويل يتطلب إرادة قوية من المريض ، وينجح حيناً ويخفق أحياناً . وهذه القصة تفتح عهداً جديداً فى السينما . فلآن لم نر مثل هذه الأفلام التى لا تركز على قصة جذابة قوية ، وإنما تقوم على الدراسة والتحليل .

وقد يبدو أول وهلة أن هذا النوع من الأفلام لن يجد سبيلاً إلى رضا الجمهور ؛ فالمناظر قليلة حتى لا تطفى على القصة ، والقصة خالية من المفاجآت وليس هناك إلا ممثل واحد نراه لمدة ثلاث ساعات متتالية . ولكن فى الحقيقة وجد فيلم « عطلة الأسبوع المفقودة » سبيلاً إلى النجاح لطرافته أولاً ، ولبراعة ممثله راي ميلاند ثانياً . فهذا الممثل الذى يثير بتعبيراته الصادقة انتباه المشاهد طول عرض الفيلم هو ممثل ذو مواهب خارقة . لقد كان أدائه على درجة من الاتقان حتى لجئنا إلى من شاهدته أنه يطالع فى كتاب تحليلاً بارعاً لنفسية مدمن الخمر .

من وراء البحار

أدباء الألمان في الوقت الحاضر

يرى هاينريخ فيشر ، كاتب المقال الهام الذي يبحث في أدباء الألمان في الوقت الحاضر ، وهو مقال نشر في مجلة « هورايزن » الانجليزية في عدد يناير ١٩٤٧ ، أن منظر ألمانيا في الوقت الحاضر ، وهو منظر دمار وانحلال ، يدل دلالة بارزة على انحلال التفكير الانساني فيها ، وهو نتيجة ست سنوات بل اثنتى عشرة سنة قضتها ألمانيا في حرب ورعب . لذلك كانت الحياة الأدبية فيها الآن حياة فوضى غريبة ، حتى إنه لم يعد من السهل أن يعرف أكان الكتاب في ألمانيا شركاء لهتلر. أم هم ضحية له . لذلك يجب لكي يكون المرء فكرة عامة عن هذه الحال ، أن يحاول تبين خصائص الحياة العقلية في ألمانيا .

فمن أول . مميزات هذه الحياة ، وهى التى تبعت الدهشة لدى الأجنبي الذى يريد استكشاف الآداب الألمانية ، صفة تشاهد حتى قبل عهد هتلر ، وهى أن الأدباء الألمان قابلون للتحويل عن آرائهم يوماً بعد يوم . ففي البلاد

الأخرى نجد الأدباء هم الذين يخلقون الآراء التى يعتنقها الناس ، فى حين نجد الكتاب فى ألمانيا يسرون وراء الآراء التى يخلقها الجمهور ؛ إذ نجد بين كتاب الألمان من أقدم على تغيير ، لا رآيه السياسى فحسب ، بل أسلوبه ونظرتة إلى الأدب والحياة أيضاً ، ولم يتغير مرة بل ثلاث مرات أو أربع مرات . ونجد أمثلة كثيرة على ذلك بين كتاب الألمان من جرهارت هادثبان إلى هاتر كانوسا . ولقد كانت هذه الظاهرة من العلامات السيئة فى الأدب الألمانى . وقد اعتاد الجمهور الألمانى ألا ينتظر من أدبائه الاستمرار على فكرة والمحافظة عليها . وصار الأدب مجرد شعور ذاتى حتى لدى الأدباء الذين يصبون مؤلفاتهم فى قالب أخلاقى أو سياسى . فاذا كان هتلر قد استولى على السلطة فليس ذنب الكتاب أنهم لزموا الصمت بما يدل على الرضا ، إذ الواقع أنه لم يرتفع صوت احتجاج واحد داخل ألمانيا ، بل إنهم انقلبوا أنصاراً للاشتراكية الوطنية ، ورأوا فيها اتجاهاً أدبياً

ناجحاً يستطيع الأديب أن يسير في تياره فيصل إلى الشهرة في أقرب وقت. وقد يكون من المغالاة أن تقول إن هذا المظهر لم يكن إلا نوعاً من انتهاز الفرصة؛ إذ الواقع أن الاشتراكية الوطنية كانت توافق جانباً من تفكير الأديب الألماني الحديث، وهو إدارة ظهره عمداً لحقيقة الحياة. فقد أخذ الكتاب الألمان منذ عهد ستيفن جورج انفصلون عن العالم الذي يحيط بهم، ويخلون إلى أنفسهم. وإن الأسماء الكبيرة في عالم الأدب في الأربعين سنة الأخيرة لتدل على ذلك؛ فكارل ريلكى وفراتز كفكا والشاعرة الكبيرة لاسكار شويلر، والشاعر النمساوي جورج تراكل، كلها أسماء تبرهن على صحة هذا القول. وهذه الرغبة النفسية تظهر في الكتاب حتى عهد هتلر، وقد لحظها الناقد الألماني يا كوب فاسرمان.

فاذا ما سقط النظام الذي أقامه هتلر، كان على عالم الأدب أن يجيب على أسئلة عدة: كيف يقابل الأدباء الحرية التي ردت إليهم؟ وكيف يواجهون الظروف الجديدة؟ وماذا يعملون في سبيل الاتجاهات الأدبية؟ وإنها لفرصة كبيرة وصفها الكاتب كارل بارت بقوله: «إن ألمانيا هي الآن

معسكر ضخم لأسرى الحرب، والألمان هم الأسرى داخل البلاد وخارجها. ولكن لألمانيا اليوم، يزة ليست لغيرها من البلاد، وهي أنه لم يبق لها إلا أن تبتدى حياتها من البداية.» ومعنى ذلك في عالم الأدب أن تعود إلى الحقيقة، وأن تخرج من تصوفها وعزلتها، وأن تسلك طريق المسؤولية الشخصية، بعيدة عن الأعذار التي تنتحلها.

ويمكن أن يقال إن بعض الأدباء عرفوا واجبهم؛ فالروائي أرنست فيشر، الذي كان معادياً لنظام هتلر واعتقل في إحدى المعسكرات، أصدر من بضعة أشهر نداء للشبيبة الألمانية يدعوهم فيه إلى مواجهة الحقائق. ولكن الأصوات التي ارتفعت في هذا الاتجاه كانت قليلة، وظل السواد الأعظم من الأدباء والموسيقين ورجال المسرح ملتزمين الصمت، في الأشهر الأولى بعد التسليم ينتظرون في قلق ما يحل بهم من عقوبة. على أن هذه العقوبة لم توقع إلا في النادر. وعلى ذلك أخذ أبرز الكتاب في عهد هتلر يتجهون نحو الصحف التي سمحت قوات الاحتلال بظهورها، وابتدأت مقالاتهم بأنواع من الاعتذارات وبأقبح الذم في نظام هتلر، وبأكبر المبالغات في تمجيد إنجلترا وروسيا وأمريكا. ومن الأمثلة البارزة على ذلك

أن إميل ياننجز المثل المشهور في عهد الفوهرر أعلن أن جدته يهودية ولدت في روسيا . وأن دكتور كارل شارينج ، الذي كان من أوفى المذيعين لجوبلز ، كتب رسالة إلى الاذاعة البريطانية يطلب إليها عملاً . وأن أيرك إيرمير تقدم لخدمة الأمريكان في بافاريا فعين محافظاً لاحدى المدن ، فما كان من إحدى الصحف الألمانية إلا أن نشرت له رسالة كتبها في سنة ١٩٤٢ يفخر فيها بعلاقاته مع جوبلز وجورنج . وقد كتب أحد الكتاب الذين اشتهروا في عصر النازي ، وهو أوتوفليك ، نداء إلى الأدباء الألمان يعتذر فيه عن ضعفهم بأنهم اتبعوا مثل جيته ، والفيلسوف الصينى ثاو ، الذى قال إنه يجب على الانسان أن ينحنى ولا ينكسر بل عليه أن يعيش .

ولقد أدت هذه المحاولة التى أقدم عليها الأدباء الألمان بلا خجل إلى مواقف عجيبة ؛ فقد أعلن فى إحدى الصحف الألمانية أن روايات هاتر فلادا قد سحبت من المكتبة العامة ببرلين لما فيها من اتجاهات نازية ، وظهر فى العدد نفسه من الصحيفة حديث مع هاتر فلادا يعلن فيه أنه شرع يضع مؤلفاً ضخماً يستنكر فيه مبادئ النازية ، إذ يرى أن من واجبه أن يربى الشبيبة الألمانية !

ولكن المثل الأكبر لهذا الميل ، الذى ظهر فجأة فى الكتاب الألمانين لتسوينغ عملهم ، هو ما دار من نقاش حول موقف توماس مان .

لم يكن توماس مان بعيداً عن أخطار العزلة الفكرية التى كانت من نصيب الكتاب الألمان قبل أن يتسلم هتلر زمام السلطة ، وكانت هذه العزلة نوعاً من الاتجاه إلى تقليد الأدب الكلاسيكى . ولكن توماس مان صبت عليه المحن فى عهد هتلر ، فتعلم من هذه المحن الاعراب عن خواطره بقوة والاتجاه نحو الحقيقة . وكان ذلك السبب فى أن إذاعاته للألمان كانت مليئة بالحياة فتأثر بها كل من سمعها ، وإن لم يكن لها الا صدى ضعيف عند الكتاب الألمان ، ولعلمهم كانوا ينتظرون منه أن يمتطى جوداً أشهب ، ويدخل إلى برلين منتصراً على أثر جنود الحلفاء ، ليفتح صدره للأدباء الألمان ويعانقهم بعد القطيعة .

ولقد نشر كاتب من كتاب القصص التاريخية اسمه وولتر فون مولو رسالة مفتوحة الى توماس مان فى الصحف الألمانية ، دعاه فيها إلى العودة فى أسرع وقت إلى ألمانيا ليتزعم الحركة الأدبية . فرد عليه توماس مان رافضاً هذا العرض . وقام حول رفضه جدل

عنيف . ومن أهم ما جاء في رسالة توماس مان قوله :

« لقد سرتني طبعاً أن ألمانيا تريد عودتي ، ولكني أجد في هذه الدعوة شيئاً مقلقاً ومثيراً ، ولا أقول غير منطقي أو ظالم ، أو على الأقل لم يدرس جيداً . فانك تعلم أنه من العسير نصح ألمانيا ومساعدتها اليوم بعد الكارثة التي لا مخرج منها، والتي جرّها الشعب الألماني على نفسه . إني هرم وقد أثرت الأزمنة المثيرة التي عشنا فيها في عضلات قلبي . فهل أستطيع أن أساعد مساعدة جدية إذا جئت إلى تلك البلاد مجسدي ؟ وهل أستطيع أن أقبل من عشرة أولئك الذين سقطوا إلى الأعماق ؟ إني أعتقد أن ذلك مشكوك فيه . هل يمكن نحو هذه السنوات الاثنتي عشرة وما حدث فيها من الذابكرة كأن هذه السنوات لم تكن ؟ إنك يا سيدي لم تعرف قط ما يكتنف قلب المنفى من ضيق ، وما يشعر به من مخاوف وعزلة وما يتوقعه من مفاجآت ، ذلك الرجل الذي لا مأوى له . لقد مضت على أزمان كنت فيها حائقاً للمزايا التي ظلت أنت تتمتع بها ، ويدالي أن ذلك إنكار للتضامن بيننا . ولو حدث في مبدأ الأمر أن كل رجل وامرأة له اسم في عالم الفكر بألمانيا قد تار ورفض تلك الذلة ،

ولو حدث أن كل مفكر انضم إلى إضراب عام وهجر ألمانيا ، لكان لذلك شيء من التأثير في البلاد وخارج البلاد . ولو أننا جميعاً عملنا ذلك لما كان ما حدث من بعد لقد كان من وسائل العذاب العديدة لدينا أن رأينا الفكر الألماني والفن الألماني كيف يتطوعان لخدمة الدمار . فكيف يظن امرؤ أنه يقوم بخدمة شريفة إذا عهد إليه في تصوير رسوم لروايات فاجنر كي تمثل هذه الروايات في بايروت في عهد هتلر؟ إنها لحالة عجيبة يخيل لي أنها تدل على عيون عمياء وقلوب من حجر ؛ إذ نرى رجلاً يسافر إلى المجر أو أية بلاد أوروبية أخرى ، وفي جيبه جواز موقع عليه من جوبلز ليلقى بعض المناضرات الشيقة ، كي تكون دعاية ثقافية للدول الهتلرية . لا أقول إن هذا العمل فضيحة ، ولكني أقول فقط إني لا أفهمه وأشعر بالارتباك عندما أفكر أني قد أقابل مثل هؤلاء الأصدقاء مرة أخرى لست أفهم لماذا لم تمنع رواية « فيدليو » ، من تلحين بهوفن في هذه السنوات الاثنتي عشرة في ألمانيا . لقد كانت هذه الرواية جديرة بافتتاح الموسم في يوم تحرير الألمان لأنفسهم . ومن الفضيحة أن تكون هذه الرواية أخرجت قبل ذلك

إخراجاً جيداً ووجدت مغنيين يغنون أناشيدها ، وعازفين يعزفون نغماتها ، وجمهوراً يصغى إليها . ما أقسى الرجال الذين حضروا رواية « فيدليو » في ألمانيا الخاضعة لهملر ، دون أن يغطوا وجوههم بأيديهم ودون أن يتركوا دار الأوبرا مسرعين متألين

إنى لتواق لمعرفة كل ما أستطيع معرفته عما يحدث في ألمانيا بأية وسيلة ، فأنبأؤها تسترعى عيني قبل أية أنباء أخرى من العالم الواسع ، ذلك العالم الذى أخذ يشعر بنفسه دون أن يفكر كثيراً في ألمانيا ، وفي هذا ما يدلى يوماً بعد يوم على الرباط الذى لا ينقسم والذى يصلنى بتلك البلاد القديمة التى طردتنى من عداد أبنائها . هل أنا أمريكى ومواطن من مواطنى العالم ؟ أجل ! هذا ما صرت إليه ، ولكن كيف أنكر الجذور التى نبتت منها ؟ وبالرغم من الجرائم التى ارتكبها أولئك الذين جروا وراء آلهة غريبة كيف أنكر التقاليد الألمانية التى كانت فيها نشأة عملى وحياتى ؟

« لن أعدل عن اعتبار نفسى كاتباً ألمانياً . ولقد كنت أمنياً على اللغة الألمانية حتى فى السنوات التى كانت كتبى فيها لا ترى ضوء الشمس إلا فى ثوب انجليزى . وليس ذلك لأن السن

تقدمت بى حتى صرت لا أستطيع أن أتخذ لغة جديدة فحسب ، بل لأنى كذلك كنت أعرف أن لمؤلفاتى مكانها المتواضع فى تاريخ الأدب الألمانى

إن ألمانيا لم تمنحنى قط ساعات راحة : لقد كنت أتعذب معكم ، ولم أكن مبالغاً حين كتبت فى رسالتى إلى جامعة بون على القلق والحزن والعذاب الذى حاق بأفكارى وحياتى جميعها ، ولم تنج منها ساعة من ساعات السنوات الماضية فى حياتى . وهذه هى المحن التى كان على أن أقاومها فى عنف لأشق طريقى بوصفى فنانا خالقا » .

أثارت هذه الرسالة جدلاً عنيفاً بين الكتاب الألمان . ولا ريب فى أن مسألة المهاجرين وعودتهم جدية بالمناقشة . ولكن الكتاب الذين ردوا على هذه الرسالة كانوا من أولئك الذين لعبوا دوراً فى العهد الزائل ، وأرادوا أن يحتفظوا بمركزهم فى العهد الحاضر . من بينهم أديب اسمه فرانك تيس اخترع عبارة الهجرة الداخلية التى لجأ إليها هو وأمثاله فى عهد هتلر ؛ فهم على قوله كانوا مهاجرين سريين . هذا مع أن كتبهم كانت تدر عليهم الأموال والشهرة . قد يكون هذا الوصف منطبقاً على بعضهم ، ولكن السواد الأعظم منهم

لا ينطبق عليه هذا الوصف . والكاتب إرنست جوينجر مؤلف قصة
 فاذا كان واجب الأدباء الألمان « على تلال الرخام » .
 أن يتصلوا بالحقيقة ، وقليل منهم ولقد حافظ الشاعر ديتريش
 ويا للأسف يعمدون إلى هذا الاتجاه ، بونهيفر على نزعة أدب به إلى الاهتمام
 فان هنالك طريقين حاول بهما هؤلاء بالخيانة في سنة ١٩٤٣ ، ثم قتل في
 القلائل الاتصال بالحقيقة . أول هذين المعسكر الذي اعتقل فيه قبل أن تصله
 الطريقين الارتباط عمداً بالحياة العقلية جيوش الحلفاء .
 في غرب أوروبا ، والطريق الثاني العودة أما المهاجرون فمنهم ، فضلاً عن
 عودة حقيقية إلى التقاليد الألمانية ، توماس مان الذي عاد إليه شبابه ،
 لا اتخاذ هذه التقاليد على أنها زى جديد ما كس هرمان نيس الذي مات بلندن
 كما فعلوا في عهد هتلر . ونجد في في غارة جوية سنة . ١٩٤٠ ، وقد ترك
 أما كن مختلفة في ألمانيا وبين المهاجرين مجلدين من الشعر فيهما وصف للريف
 من اتبعوا هذين الطريقين . ففي عهد الانجليزى ومخاوف الغارات والوحدة
 هتلر نجد داخل ألمانيا الكتاب التى يجدها المهاجر .
 الكاثوليك هم الذين أزالوا الغشاوة ومن الكتاب المهاجرين برتولد
 عن أعينهم . ومن أشهر هؤلاء تيودور فرتل الذى كتب بالألمانية عن الحياة
 هيكرا الذى توفى في العام الماضى ، وقد في انجلترا وأمريكا ، ويرت درخت
 ترجم كتب كيرجارد وكردنيال الشاعر ، والكاتب المسرحى انريجو بك
 نيومان وييلوك وفرانسيس-تومسون ، الذى يعيش في سويسرا ، وقد
 ولكنه لم يكن مجرد ناقل بل كان كاتباً جمع بين وصف المناظر الألمانية
 من الطبقة الأولى بين كتاب المقالات . والأسبانية .
 وتعتبر كتبه « ما هو الانسان ؟ » عن فهل تجتمع هذه القوات المختلفة
 بول كلودل ، وكتابه الأخير : « عن الجمال » فتدب الحياة في الأدب الألمانى من
 مثلاً صحيحاً لما سمي بالمهجرة الداخلية . جديد ؟ كل ذلك سيتوقف على ظروف
 ومن بين أقرانه نجد المؤلفة الروائية خارجية وعلى أحوال ألمانيا الاجتماعية ،
 جرترود فون لفورت والشاعر شنيدر وعلى تعقل لجنة المراقبة للحلفاء .

ظَرْحِدِيثَا

مائة سنة من الحياة السويسرية في القاهرة^(١)

أخرج الأستاذ فيشتر ، مدرس اللغة الفرنسية بجامعة فاروق الأول ، كتاباً ذهبياً بمناسبة مرور عشرين سنة على ظهور جريدته السويسرية التي يصدرها في الاسكندرية لمواطنيه في مصر والشرق الأدنى *Journal Suisse d'Egypte et du Proche-Orient*. وهذا الكتاب الضخم ، الذي يحوى أكثر من ثلاثمائة صفحة مصورة من الحجم الكبير ، يعبر قبل كل شيء عن مظاهر السعادة والوداعة التي أسبغها السويسريون على حياتهم في مصر ، وعلى مظاهر الوئام والتعاون التي طبعوا بها علاقاتهم ، سواء فيما بينهم أو بينهم وبين المصريين .

والكتاب سجل للنشاط الفائق الذي قام به رجال هذه الجالية الأجنبية في القاهرة منذ مائة سنة في مختلف نواحي الحياة المصرية ، صناعية وزراعية وتجارية ، واجتماعية وثقافية ، سجل لا يملك المتصفح لأبوابه إلا أن يرمقها بالدهشة والاعجاب ،

ويمتلك المصرى الذى يطلع عليه شعور بالتقدير مختلط بنوع من الأسف . وهذا الأسف لا يرجع إلى أن هذه الجالية النشيطة الوثابة قد أفلحت وأثرت وأثمرت ، ولكنه أسف على أننا ، نحن أبناء مصر ، لم نهتد بعد إلى إخراج سجل مثل هذا الذى أخرجه السويسريون عما قام به أجدادنا وآباؤنا ، وعما قمنا به نحن أنفسنا من أعمال مجيدة في سبيل تحقيق نهضتنا الشاملة لمختلف نواحي الحياة ، مادية وفكرية . جميل أن نعرف ما يقوم به الأجانب في مصر ، وأجمل منه أن نعرفهم ما تقوم نحن به سواء بمفردنا أو بالتعاون معهم ، وأن نرسم لهم صورة واضحة بראה لمجهوداتنا المثمرة .

وقد لا يتسع المجال هنا لايضاح ما يحويه الكتاب الذهبى السويسرى من أبواب وفصول ، فهو بحق دائرة معارف « إقليمية » ، إن صح لى أن أختلس هذا التعبير لحصر ما تشعب في هذا الكتاب من مقالات وأبواب .

نقرأ في مقدمتها قصة الحياة الرسمية السويسرية وتاريخ العلاقات السياسية التي ربطت سويسرا بمصر ، وفي أبواب أخرى أبان لنا المسيو فيشر أطوار معاهد التعليم والرياضة والفنون والدين والصحة والسياحة التي أنشأها أفراد هذه الجالية وجمعياتهم في القاهرة . ونمر في أبواب أخرى بمؤسسات شركاتهم الصناعية والمالية والزراعية ، وبغير ذلك مما يزداد وضوحاً بالأرقام والصور والرسوم البيانية .

وفي الكتاب فصل كبير عن حياة عظماء الرجال الذين صرفوا شطراً كبيراً من حياتهم في مصر لخدمة العلم والأدب والفن ، من بينهم رحالون جاءوا مصر واستوطنوها . ولعل يوحنا بوكارت هو أكثرهم شهرة وأشدّهم مغامرة . وقصته لا شك جذيرة بالنشر ، مثيرة للعواطف ، وهو ذلك الفرنسي المعم ، والمسيحي المسلم ، والأديب المستشرق الذي اختطفه الموت في ريعان شبابه ، والذي ما زال قبره قائماً بين مقابر المسلمين ، تطل عليه مآذن القاهرة ، ويقرأ على شاهده

« هذا قبر الشيخ الحاج إبراهيم المهدي ابن عبد الله بوكارت اللوزاني » . ومن عظماء الرجال هؤلاء ، علماء في الطبيعة وفي علم طبقات الأرض ، وأطباء وقضاة وأساتذة ، ومستعربون ومستشرقون ، يكفينا أن نذكر منهم إدوارد نافيل E. Naville وما كس فان برشم Max Van Berchem . أما الأول فقد عكف على دراسة التاريخ المصري القديم ، وتفرغ للبحث عن حلقاته والكشف عن آثاره . وأما الثاني فتصدى للدراسات العربية ، وشهرة بحوثه في اللغة وفي التاريخ وفي الآثار الإسلامية أوسع من أن يشار إليها في مثل هذا العرض الوجيز .

يخيل إلى بعد أن قرأت كتاب « المائة سنة من الحياة السويسرية في القاهرة » أنني أقرأ في الوقت نفسه صفحات مجيدة من الحياة المصرية ، هذه الحياة التي اتسعت آفاقها فاجتذبت في كل ناحية من نواحيها رجالاً غرباء ، فطوتهم تحت كنفها وغرستهم بين زرعها ، فباتوا وأصبحوا من خيرة أبنائها .

أحمد فكري

تراجم اسلامية : شرفية وأثر لسية للاستاذ محمد عبد الله عنان (دار المعارف — القاهرة)

اختص الأستاذ محمد عبد الله عنان منذ بعيد بالغوص في موسوعات التاريخ الاسلامى لاصطياد لآله وجلاتها على أعين القراء في إطار بديع من أسلوبه ومن فنه ، ليقرب إلى هؤلاء القراء سبيل البحث والدرس ويكشف لهم من صور ذلك التاريخ لوحات رائعة لعلها لو لم يجهد الأستاذ عنان لكشفها ونفض غبار التاريخ عنها كانت حتى اليوم خبيثة تحت الركام لا تنفذ إليها العين ولا تخلص لها النفس . وقد نشر الأستاذ عنان وأذاع طائفة من هذه الصور لطائفة من حوادث التاريخ الاسلامى ورجاله أو نسائه كأنه بما جلاها وكشف عنها قد أنشرها من موت وردھا إلى الحياة . وهذه المجموعة التي تنشرها له اليوم دار المعارف بالقاهرة تصور حلقة من هذا الجهد المتصل الذي يبذله الأستاذ عنان لازاحة الأتقاض التراكمية عن أمجد صور البطولة في التاريخ العربى والاسلامى ؛ وقد ترجم فيها ثمانية عشر من أعلام هذا التاريخ في الشرق وفى الأندلس ، بين رجال ونساء لا تزال أسماؤهم على مر القرون تتردد على شفاه القوم وإن لم يعرف على التحقيق أولئك الذين تتردد هذه الأسماء على شفاههم ماذا كان شأن أصحاب هذه الأسماء ومتى ابتدأت حياتهم وأين كانوا وما أحدثوا في التاريخ أو أحدث بهم التاريخ ! فليس كل فضل الأستاذ عنان أنه يكتشف هذه الصور وينشر هذه التراجم ، ولكنه إلى ذلك يضع لهذه الأسماء الدائرة على الأفواه مسمياتها ، وهو جهد مشكور لمكافئة « الأمية التاريخية ، » في هذه الأمة التي تطلب المجد بغير أسبابه !

بلى ، فإن على الشفاه أسماء هرون الرشيد ، وست الملك ، وشجرة الدر ، وصقر قريش ، وعبد الرحمن الناصر وما شئت من أسماء بلا مسميات ولا معان ؛ يباهى بها من يباهى ولعله أن يذكرها في مقام الاحتجاج مفاخرًا بأعجاد الماضى فاذا سألته البيان عى واقطعت حجتہ ، وفى مثل هذا الكتاب الحجة الموصولة والبيان الذى ينشده .

على أننا نغمط الأستاذ المؤلف حقه إن تركنا القارىء يظن أن كل جهده في مثل هذا الكتاب هو « اكتشاف »

الصورة وجلأؤها في إطارها ، فانه
مطلب يسير على كل من يرصد له جهده
ولكن ثمة التحقيق والبحث والتنقيب
والدرس والرجوع إلى المصادر المختلفة
في كتب الشرق والغرب ، المطبوع
منها والمخطوط ، للنقد والموازنة والاستنباط
واستخلاص الحق من الباطل واستيلاد
الصواب من الخطأ ؛ وهو جهد
لا يقدر عليه ولا تنهياً أسبابه إلا
للقليل من أهل التحقيق والرأى
والاطلاع المنبسط العميق . وهو
الجهد الذي يبذله الأستاذ عنان
لوجه العلم ليقدّم لقرائه مثل هذا
الكتاب .

الأساس في تعليم القراءة للأستاذين إبراهيم أنيس وإبراهيم الشربيني
(مكتبة الجيزة)

روضة الطفل ، دار المعارف ، بمعاونة الأساتذة أمينة السعيد ويوسف مراد
وسيد قطب .

قصص المدرسة للأستاذين أمين دويدار ومحمود زهران (مكتبة نهضة مصر)

. أيقطيني المقام أن أقدم المذرة
لقرائي قبل أن آخذ في الحديث إليهم
عن هذه الكتب التي أخرجتها المطبعة
المصرية في هذه الأيام للصغار من
أبنائهم وبناتهم لا للكبار من قراء هذه
الصحيفة الخاصة بالكبار ؟

قد يكون من حق القراء أن أعذر
إليهم قبل أن آخذ في هذا الحديث ؛
لا من أنى أعرض عليهم هذه الكتب
الطفلية وكانوا ينتظرون ألا أعرض عليهم

في هذا المكان غير ما يعنيه من كتب
الكبار ، بل من أنى لم أعرض عليهم
قبل اليوم مثل هذه الكتب الطفلية .
وكان من حقهم على — أو على المؤلفين
إن الصيحات لتوالى من كل جانب
بالشكوى من قلة إقبال متعلمينا على
القراءة ، وإن المعنيين بشئون الأدب
والتربية ومستقبل الثقافة العربية

ليشفقون من سوء المصير لقلّة هذا الإقبال على القراءة ولا يكادون يلمسون أسبابه ؛ أما أنا فأزعم أنني قد عرفت السبب والنتيجة ؛ فما قل إقبال متعلمينا على القراءة إلا لأنهم لم يعودوها منذ الطفولة ، ولو قد عودهم معلموهم ومعلماتهم ، أو آبائهم وأمهاتهم ، أن يقرءوا منذ الطفولة ، لوجدوا لذة القراءة فتعودوها فالتسوا لذتهم منها كباراً كما كانوا يلمسونها صغاراً ؛ وإذن فمن هنا كان أول النقص في التربية ؛ ولكن ماذا يقرأ أطفالنا ؟ ماذا نقدم إليهم نحن المعلمين والمعلمات أو الآباء والأمهات من فنون المقروء لنغريهم بما فيه من المتاع واللذة على تعود القراءة ؟ هذا هو السؤال الذي لا أكاد أجد جوابه ؛ فما أظنني أكون غالباً في القول إن زعمت أن المطبعة العربية ، أو أن المؤلفين العرب ، لم يقدموا للطفل حتى اليوم شيئاً ذا بال يستطيع أن يضمه إلى مكتبته الصغيرة ليقول مباحياً إن لي كتاباً أخلو إليه ساعة من النهار كما يخلو أبي إلى كتابه ! بلى ، هناك محاولات في أدب الطفل العربي قد أصابت خطأ من التوفيق ، ولكن ذلك ليس شيئاً بالقياس إلى ما نريد . إن الطفل في أول مراحل التعليم أشبه إلى القراءة من

أبيه وأمه ، لأنه في هذه السن أفرغ وقتاً وأقوى رغبة في المعرفة ، ولأن أحب شيء إليه أن يقلد ، وأن يطلع ، وأن يحاول الوصول إلى أسباب المعرفة وحده . تلك حقيقة يعرفها كل معلم وكل أب ؛ فلو أننا أخذنا بالقياس لكان علينا أن تقدم إلى الطفل من الكتب أكثر مما تقدم إلى الآباء والأمهات قبل أن تزعم أن بين أيدي أطفالنا ما يقرءون ! وإذن فنحن لم تقدم حتى اليوم للطفل ما يقرؤه ، لأن هذا القليل النادر مما أخرجته المطبعة العربية من أدب الأطفال ليس شيئاً — من حيث الكم على الأقل — إلى ما ينبغي أن تقدم إليه ؛ وإذن فإن من حق أن أغتبط ، أنا الأب القارئ ، حين تقدم إلى المطبعة كتاباً أستطيع أن أدفعه إلى ابنتي ، أو إلى ابني ، ليقراه في ساعة من ساعات فراغه الطويلة ؛ وإذن فليس من واجبي أن أعذر إلى الكبار من قراء هذه المجلة من أنني أعرض عليهم اليوم هذه الكتب الطفلية ؛ فقد كان الأمثل أن أعذر ، أو أن يعتذر المؤلفون وأرباب الأقلام ، لأنهم لا يتيحون لمثلي أن أعرض على قرائه في كل عدد من أعداد هذه المجلة كتاباً أو طائفة من كتب الأطفال ؛ لأن مؤلفينا وأرباب الأقلام فينا لا يعترفون بما

عليهم من حق هؤلاء الأطفال ولا يزالون مع ذلك يجارون بالشكوى من قلة إقبال الكبار على القراءة ! والآن ما هذه الكتب التي أسلفت أسماها في صدر هذه الكلمة ؟ أما أولها « الأساس في تعليم

القراءة » فكتاب جديد في التهجى — وكتب التهجى كثيرة في أيدي التلاميذ والمعلمين — ولكن هذا كتاب له منهاج ؛ فقد استن فيه المؤلفان سنة جديدة يريانها أسرع بالطفل إلى التعلم ، بعد تجربة طويلة — كما يقولان — على التلاميذ الأجانب في كلية فيكتوريا ؛ وقد أتاحت لها هذه التجربة أن يضعها أساساً أو منهاجاً بسيطاً بإيجاز في المقدمة وجعلها هذا الكتاب تطبيقاً عليه .

وأما الثانى « روضة الطفل » فسلسلة من القصص الطفلية الطريقة ممتنة مصورة بلونة أخرجت منها دار المعارف حلقتين ، إحداهما قصة « أرنبو والكنز » ، والثانية قصة

« كتكت المدهش » ووعدت باخراج غيرها ؛ وقد دفعت الكتابين إلى ابنتى — وهى طفلة دون السادسة ولم تزل فى الفرقة الثانية بالروضة — فقرأتهما فيها دون الساعة وجاءت تقصهما على وتطلب المزيد . . .

وأما الكتاب الثالث « قصص المدرسة » فمجموعة من الأقاصيص الصغيرة للأطفال فى المدرسة الابتدائية أنشأها مؤلفاها وفاء بحاجة لتلاميذ المدرسة الابتدائية إلى هذا النوع من الحكايات ، فجاءت بأسلوبها وفنها وصورها وافية بالغرض إلى الحد الذى حمل وزارة المعارف على تقريرها لتلاميذ وتلميذات السنة الأولى بالمدارس الابتدائية .

ليت أدباءنا ومؤلفينا يعرفون ما عليهم من حق لأطفالنا الصغار فيفرضها كل منهم ضريبة على نفسه أن يقدم فى كل عام كتاباً للصغار إلى جانب الكتب الكثيرة التى تؤلف للكبار فلا يقرأها الكبار ولا الصغار !

في مجلات الشرق

فن الكذب

في العدد الثالث من مجلة «المعرفة» التي تصدر في دمشق ، مقال بهذا العنوان للأستاذ عزت النص ، يريد فيه أن يبرهن لقرائه على أن « أعذب التاريخ أ كذبه ! » فاذا كان الشعر — أو الأدب — هو فن الكذب السافر فان التاريخ — فيما يراه — هو فن الكذب المستتر !

وفي سبيل دعم هذا الرأي ، ثم في سبيل الارتفاع بمرتبة الكذب بين الفنون — ينقل الكاتب كلاماً للأديب الأمريكي مارك توين في الدفاع عن « فن الكذب » يسوقه مساق الفكاهة وإن لم يخل من مغزى جدى صارم . فاذا فرغ من سياق هذا الحديث أخذ في حديث آخر عن كذب التاريخ ، وراح يناقش بعض أكاذيبه المروية ، ويعرض للأسس التي يعتمد عليها المؤرخون لما يروون من أخبار التاريخ ، فينقضها أساساً بعد أساس ، فهل هناك إلا شهادات الشهود وقصص الرواة

وحكايات الاخباريين ؛ « فهل هؤلاء كلهم موضع ثقة ؟ . . . » ثم هناك المخلفات المادية ، الصامتة والناطق ، من أوابد وأنصاب وتماثيل ورسائل . « أكل حجر منقوش وإن صح نسبه واتصل سببه ، ثبت صدقه ووجب تصديقه ؟ . . . »

« وما العمل إذا انعدمت الوثائق أو صحت ؟ . . . هناك في سلسلة الحوادث التاريخية حلقات مفقودة يعمد المؤرخون إلى إيجادها بالاجتهاد العقلي ؛ فما هو نصيب هذا الاجتهاد الفرضي ؟ »

ويمضى الكاتب في تقض تلك الأسس على طريقته حتى ينتهي إلى ما يريد ليلفت الأنظار إلى « نسبية الحقائق التاريخية » ، ثم إلى ما تجمع كتب الأخبار والتواريخ من تناقض ومعارضة يؤكدان أن كتب التاريخ ، إن لم تكن كذباً خالصاً ، فلها على أي أحوالها ليست صدقاً خالصاً ! . . .

بريطانيا في الشرق

ويحرص الأستاذ خالد بكداش في عدد يناير من مجلة « الطريق » — بيروت — على أن يعرض لقرائه « السياسة البريطانية في الشرق العربي » وحالة بريطانيا من القوة أو الضعف بعد الحرب العالمية الثانية ، وهو يرى أن هذه الحرب قد انتهت ببريطانيا إلى الضعف وأبرزت تجاعيد الهرم والشيخوخة في هيكلها المتداعى

« وفي الحق كم جهد عمال الامبراطورية ودعاتها وكم اخترعوا ولفقوا لاقتناع الناس بأن أمهم على شيخوختها ما تزال في تمام العافية ، ولكن الناس لم يصدقوا شيئاً من صحة العجوز ! . . . »

ثم يحاول الكاتب فيما يلي أن يصف أثر ذلك الضعف وتلك الشيخوخة في سياسة بريطانيا في الشرق ، وكيف أخفقت في كل ماتحاول ، وعجزت عجز الضعيف عن تنفيذ ما كانت تعترزم من فنون سياستها الاستعمارية ، فيصف ما كان من أمرها في سوريا ولبنان ، وكيف بيتت النية لسلخهما عن فرنسا لتبتأثر فيهما بالنفوذ والقوة من دون حليفتهما ، فباعت بالخيانة وأخفق تدبيرها

واستقلت سوريا ولبنان عن فرنسا وانجلترا جميعاً ، وعاد البلدان لأهلها حريين مستقلين . ثم كيف أفلت العراق — فيما يرى — من القبضة البريطانية الهاشمية ، فأصبح الجلاء هو الشعار الأول للحركة الوطنية العراقية ، وقوى معناه في كل نفس حتى لقد أحجمت بريطانيا عن طلب تعديل المعاهدة العراقية القديمة — كما كانت تأمل — لئلا يكون ذلك سبباً إلى تنبيه العراقيين إلى المطالبة بالجلاء ! ثم يصف الموقف البريطاني من قضية وادي النيل ، وكيف أخفقت السياسة الانجليزية إخفاقاً ذريعاً في الوصول إلى شيء مما حاولته بشتى الأساليب لخداع المصريين عن حقهم في الجلاء ووحدة الوادي على كثرة المحاولة والمطاوله والحيلة واصطناع الأنصار . ويعرض بعد ذلك لقضية فلسطين والصهيونية ، ولم يكن إخفاق بريطانيا فيها أقل منه في غيرها من البلاد التي تحاول إخضاعها لسلطانها بالقهر أو بالخداع والحيلة ، بل لعل إخفاقها في هذه القضية كان أذل وأخزى .

ولا يفوت الكاتب أن يعرض
لسياسة بريطانيا في شرق الأردن وما
تأمله من بعث أسطورة « سوريا
الكبرى » لتضم تحت جناحها الدار
والجار ، وتجد سبباً آخر إلى ما عجزت
عنه في سوريا ولبنان وفلسطين . . .
ويستمر الكاتب في إيراد الشواهد
على ضعف سياسة بريطانيا وعجزها
وضعف أسباب حيلتها بعد الحرب
حتى ينتهي إلى ما يريد لينبئ
حكومات الشرق العربي وشعوبه
إلى الفرصة المواتية لهم ليستخلصوا
حرياتهم ويحققوا لبلائهم معاني
الاستقلال .

مؤتمر الأدباء العرب

ويتساءل الأستاذ سامي الكيالي
محرر مجلة « الحديث » - حلب - في
عدد يناير الماضي : لماذا لا يتداعى
أدباء العربية في مختلف أقطارها إلى
مؤتمر عربي عام يداولون فيه الرأي
حول ما يعنيه من شئون الأدب ،
وحقوق التأليف ، ووسائل نشر الثقافة
وترقية الفكر العربي ؟
ويرى أن الأدباء كانوا أحق
الطوائف بأن يكون لهم السبق في
الدعوة إلى مثل هذا المؤتمر العام ؛
لأنهم - قبل غيرهم - كانوا دعاة
هذه الجامعة المؤتلفة ، ومن صدى
هتافهم كان هذا الوعي المستيقظ في
نفس كل عربي .

ثم يردف بعد تفصيل فكرته :
« إن « الحديث » تدعو إلى عقد
مؤتمر أدبي تدرس فيه كل مشا كل الأدب ،
فلدينا عدة قضايا هامة تستوجب
اجتماع كبار أدباء العرب لبحثها : حالة
الأدباء ، موقف الحكومات من
اتجاهات الأدب ، حقوق المؤلفين ،
حرية التفكير ، الأدب القومي والأدب
الإنساني ، الجوائز الأدبية ، تشجيع

« أفلا يجدر بهم أن يتنادوا لعقد
مؤتمر دوري كل عام يدرسونه فيه
مشاكل الأدب وحقوق الأدباء والمؤلفين

المؤلفين ، التأليف والترجمة والنشر ،
والصحافة الأجنبية التي تصدر بلغة
الضاد . . . على أن يكون هذا المؤتمر
التمهيدى الركيزة الأولى لمؤتمرات عديدة
تشارك فيها المجامع العلمية والجامعات
والصحافة ودور النشر ، لوضع خطط
واضحة لازدهار الأدب العربي وتعزيز
مكانة الأدباء ، ووضع خطط ومناهج
واضحة لسير الأدب العربي في مجرى
التطور العالمي .

الأدباء كسالى

ويتناول الأستاذ رثيف خورى في
العدد ٤٤٧ ، ٤٤٨ من مجلة
« المكشوف » — بيروت — موضوعاً
طريفاً جعل عنوانه « الأدباء والكسل
والعزلة » ، فيتحدث عن طائفة من
الأدباء أو المعروفين بالأدب يؤثرون
الكسل والبطالة واعتزال الناس
مكتفين بما بلغوا من حظ كبير أو
ضئيل من الشهرة . فاذا سألتهم لماذا
آثروا البطالة والاعتكاف احتجوا بضيق
نطاق الحرية أو بسوء تقدير الجمهور
وقلة التشجيع أو الضيق بالناس ، إلى
غير ذلك من المعاذير التي لاتعفيهم مما
عليهم من تبعات وما يقتضيهم الأدب
من حقوق .

ويرد الكاتب هذه الظاهرة
بألوانها المختلفة إلى أن في مزاج أكثر
أهل الفنون نوعاً من النفور يبتعد بهم
عن الناس ، وهى ميزة ، أو عاهة ،

واسعة الانتشار في أدباء العرب شأنهم
في ذلك شأن معظم أدباء الأمم . ثم
يقول :

« وأكبر الظن أن هذا النفور
من الناس في مزاج الأدباء يرجع بعضه
إلى دلال وكبرياء قل من الأدباء من
تخلو نفسه منهما أو من أثر لها . يعتقد
الأديب — بمجرد ما يكون أديباً —
أن فيه سرا يضع مرتبته فوق الناس ،
وأن له على الناس حق الخدمة والاعزاز ،
فيلبث مكتوف اليدين يتوقع منهم تلك
الخدمة وذلك الاعزاز . . . ولكن
الناس . منهمكون في مشاكل حياتهم
لا يلتفتون إليه ، فيأخذ الحنق
عليهم ، ويدفعه الحنق إلى التيه
والتجنى على الناس ثم إلى الاستخفاف
بهم ، وهو لاعتقاده بأن له حقا عليهم
لا يغفر لهم أن يسيئوا إليه مهما أساء
إليهم . . . »

في مجلات الغرب

لانييف La Nef (عدد يناير ١٩٤٧)

في السياسة — اقرأ مقالا كتبه روبر آرول « الاشتراكية عند كارل ماركس » وهو النص الكامل للبحث الذي عرضه صاحب المقال في المؤتمر الدولي للفلسفة الذي عقد في روما في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٤٦ . وعنوان البحث : « تعقيل (١) الاشتراكية عند كارل ماركس » . ويتعرض روبر آرول في أول مقال له لمشكلة الفكر الملزم *la pensée engagée* ، وهي مشكلة ذات شأن في أيامنا هذه . فهو يقول : « إن كل فكرة نظرية مهما تكن ظاهرة التحكم ، فهي ملزمة دائماً بشرط أن تكون مبتكرة وجديدة . » وهذا الرأي يمكن أن يقارن برأي آخر لاحظناه عند كاتب روسي (٢) ، فالرايان متحذان تقريباً . وهذه المقارنة مجدية لولا أن هذا الرأي بديهي . ثم يقسم روبر آرول الملزمين ، أي المفكرين ، إلى قسمين : أحدهما قسم الذين يلتزمون عن إرادة ، والآخر

قسم الذين يلتزمون عن غير إرادة . وهؤلاء هم الأكثرون . وهم يذيعون رسالتهم (وهي كلمة أنشأها البدع الحديث) دون أن يعرفوا من هم الذين سيتلقون هذه الرسالة ولا في أي ظروف سيتلقونها . كذلك نلاحظ « تأثير المفكرين المعنيين في الدقة والفلاسفة المؤثرين للتشدد في تطور بعض المذاهب السياسية وفي الاشتراكية خاصة . وهذا التأثير يكون مباشراً يصدر عنهم أو غير مباشر يتم بوساطة تلاميذهم . » وهذه هي المقدمة التي يصل فيها الكاتب إلى موضوعه . فيقول : إن الفكرة الاشتراكية كانت تتجه اتجاهاً حسيماً قبل كارل ماركس طامحة إلى العدل في الاجتماع وإلى الحرية في السياسة . ولكن المنهج يتغير بظهور كارل ماركس فيقوم الاتجاه العقلي مقام الاتجاه الحسي . وصاحب المقال يحاول في بحثه أن يدرس هذا الانتقال من الاتجاه

(١) استعمل هذه الكلمة الأستاذ أحمد أمين بك ؛ كما استعملت من قبل كلمة التأميم .

(٢) الكاتب للصري عدد ١٦ (يناير ١٩٤٧) .

الأول إلى الاتجاه الثاني . فيلاحظ ويؤيد بأمثلة قاطعة أن «أخص ما كانت تمتاز به الحرية في الاشتراكية قبل كارل ماركس ، إنما هو التنوع والاجتناس» بحيث كان ذلك يقتضي في بعض الأحيان شيئاً من الاختلاط في بادئ الأمر . وهذا الاختلاف نفسه كان يحرص عليه بعض الاشتراكيين من أمثال برودون ، وهو الذي يفرق بينهم وبين ماركس . « ويجب أن نلاحظ أن الاقتراق بين ماركس وبرودون يدور قبل كل شيء حول الاختيار الذي يجب أن نعتمد عليه أو أن نتجنبه بين اتحاد الفكر والشعور أو اختلافهما . » والكاتب بهذه المناسبة يستعير جملة من الرسالة (١) التي أصدرها ماركس والتي كانت مصدر الفرقة بينه وبين برودون . وماركس في هذه الجملة يسخر من عجز برودون عن تكوين فكرة عامة حاسمة . يقول ماركس : « إن مسيو برودون برغم خوفه الشديد من التصعيد إلى أعلى درجات المذاهب وتناقضها ، لم يستطع أن يصعد إلا إلى أرقى هاتين الدرجتين ، وهما درجتا التعميم والتناقض البسيطين . وهو لم يصعد فيهما إلا مرتين ، خرف في إحداهما

صريعاً . » ثم يتبع تطور التفكير الماركسي من المثالية إلى المادية التاريخية . وفي هذا التطور نلاحظ التناقض في تفكير ماركس . فقد حاول أن يصطنع وسائل مذهبية جماعية ليصل إلى غاية لا يمكن أن تكون مذهبية ولا جماعية . ويرى الكاتب أن ماركس حين عقل الاشتراكية ، لم يستطع أن يفلت من المذهبية ؛ « فهو قد أقام مقام المذهب المستقر قبل هيجل مذهباً متحركاً ؛ ومكان المذهب الجامد الموقوف على لحظة ما من الدهر مذهباً آخر يمتد مع الزمن ويستعمر التاريخ . لم يعدل عن المذاهب المنظمة ، وإنما فضله أنه أتاح لهذه المذاهب أن تعمل . » ثم يختم الكاتب مقاله بعد أن بين تطور المذهب الاشتراكي بهذه الأسطر : « بعد هاتين الفترتين اللتين حاولت تشخيصهما من تاريخ الاشتراكية : فترة الحس وفترة العقل ، أرجو أن نصل إلى طور جديد نسمي فيه الأشياء بأسمائها ويكون طور التحقيق . »

كل عدد من أعداد « لانيف » . يعرض على غلافه وفي فهرسه عنواناً أو موضوعاً داخل إطار يكاد يشعر بأنه عدد خاص . فمرة يختار عنوان

« الصلات بين فرنسا وبلجيكا » ، وتارة يختار « لوتريامون » . أما هذا العدد فقد اختير سياسى عظيم من رجال الجمهورية الثالثة ، وهو ريمون بوانكاريه الذى يدور حوله البحث والحديث . وقد خصص له ثلاثة فصول : الأول كتبه إيمانويل بيرل واختار له اسم ريمون بوانكاريه عنواناً وإن لم يعرض فيه إلا للجمهورية الثالثة ، ولكن درسه كان من الدقة والوضوح والصدق بحيث لم يكن يصلح له إلا هذا العنوان ؛ لأن ريمون بوانكاريه ، كما يقول الكاتب ، هو أصدق ممثل للجمهورية الثالثة . ومزايا هذا النظام ، بل هذا الرجل ، هى مزايا الطبقة الوسطى فى فرنسا إذا لاحظنا أحسن مقوماتها . وقد كان الجيل المعاصر للجمهورية الثالثة من الطبقة الوسطى الفرنسية بحيث يعيش متأثراً بذكرىات الهزيمة طامحاً إلى التآثر مشغولاً بالثقافة حريصاً على الأمانة . « ومن هنا كانت أخص الصفات التى اشتهر بها بوانكاريه ؛ فهو من غير شك ، منذ روبسبير ، السياسى الذى آمن معاصروه إيماناً قوياً بنزاهته . » وإذا كان بوانكاريه قد امتاز ، كما امتازت الجمهورية الثالثة بهذه الخصال ، فانه قد اتصف واتصفت

معه الجمهورية ببعض العيوب : خاف من أن يتجاوز النزاهة ويتورط فيما لا يليق ، فخاف من كل التزام . ولندكر أن بوانكاريه تردد كثيراً قبل أن يكون لنفسه رأياً فى قضية دريفوس . وخصلة أخرى من خصال ساسة هذا العصر تأتى من تكوينهم القانونى الذى كان يدفعهم « إلى الأيمان الساذج بقوة ما يسمعون من حجج » . ثم يعرض إيمانويل بيرل الأزمة المالية التى أصابت فرنسا سنة ١٩٢٦ والتى حلها بوانكاريه بطريقة ساحرة . ثم يضيف : « أكان يظن أنه فقد شهرته . ولكن هذه الظروف أظهرت أن فى فرنسا نوعين من الشهرة ، تأتى إحداها من الحب ، وتأتى الأخرى من الاعتبار . »

المقال الثانى عن بوانكاريه يأتلف من مختارات أخذت من كتاب تحت الطبع عنوانه « تبعة دول الطبقة الوسطى » ومؤلفه ا . بودى لومينى^(١) وعنوان المقال : « كيف صار بوانكاريه اللورى العظيم » . والمقال تاريخ دقيق للمناورات السياسية التى انتهت ببوانكاريه إلى رئاسة الوزارة سنة ١٩١٢ ، ثم إلى رئاسة الجمهورية سنة ١٩١٣ . ويظهر من هذه المناورات التى جرت من وراء الستار أن المؤثر الأول فى فوز

إيزارد Georges Izard « الخاسرون هم الراجون » ، وهو يعرض السياسة الفرنسية الداخلية وبنوع خاص قضية الأحزاب وتعاون الأحزاب الثلاثة في الحكم ، وإلى مقال آخر في السياسة الدولية بقلم بيير دنوايه Pierre Denoyer يدرس فيه العلاقات بين الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا السوفيتية دون أن يصل إلى نتيجة معينة . وعنوان المقال : « أيمكن الاتفاق بين الولايات المتحدة وروسيا » . وهذان الفصلان قد كتبا في ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٦ ، فحائر أن يفقدا قيمتهما لمرور الوقت وإن كان التفكير فيهما أصدق من أن يغيره مرور الزمان .

في الأدب — اقرأ في « ملاحظات على الكتب » صفحة ونصف صفحة بقلم إدوارد دوليان Edouard Dolléans عن كتاب « صبي الحرفة » *L'apprenti* لريمون جيران . وأخص ما يمتاز به هذا الكتاب في رأى الناقد حرص الكاتب على أن يكون وصفه صادقاً لا تهاون فيه ولا لين . ويجب أن يكون الكاتب على حظ موفور من الشجاعة ليؤثر بفضله الحق على كل شئ .

بوانكاريه قد كان اريستيد بريان الذى « خاب أمله لأنه لم ينل الفائدة الذى كان ينتظرها من إسقاط كايو Caillaux ، فخطر له أن يدفع بوانكاريه إلى الرئاسة ليظفر بثقته ويكفل اعتراقه للجميل » . والذين يعينهم أن يتتبعوا دقائق الكيد السياسى لتحقيق الأطماع الخاصة يجدون ما يرضيهم في قراءة هذا المقال .

ولكن القراءة التى تلذحها أكثر من أى شئ آخر هى قراءة المقال الثالث ، وهو أثر من آثار بوانكاريه نفسه . وهى طائفة من خواطر الشباب أسرها إلى دفتر أحمر فى السابعة عشرة من عمره ، واختار موريس بورشيه Maurice Pourchet بعضها فى هذا الفصل . وفى هذا النص مزاج ممتع من عبث الأطفال والنضج المبكر ، وهما الخصلتان اللتان تمتاز بهما مذكرات الشباب . وانظر كيف يختم بوانكاريه مقدمة دفتره بهذه الجملة : « والآن أيها القارىء عم صباحاً إن شئت أن تقرأ ما وراء هذه الصفحة ، وعم مساء إن أردت أن ترد هذا السفر إلى حيث كان . »

وقبل أن نختم حديث السياسة فى « لانيف » يحسن أن ننبه الذين يعنون بالسياسة الحية إلى مقال بقلم جورج

في المسرح - يحدثنا ج . ج .

رنيري J.J. Rinieri عن المسرحيتين الأخيرتين لجان بول سارتر اللتين أسرع إليهما أهل باريس جميعاً وظفرتا على ذلك بنجاح خاص : الأولى « أموات لا قبور لهم » مشتقة من المقاومة الفرنسية ، يقول عنها الناقد إنها مسرفة في التفكير العقلي . فالأشخاص لا يكفون عن التساؤل ولا عن عرض ما يصلون إليه من تحليل ، فلا يبقى للنظارة شيء ، وليست الحركة في القصة إلا إسرافاً في إقامة البراهين . أما التمثيل فيود الناقد لو أن الممثلين آثروا الكلام على الصياح . ثم يختم نقده بأن لهذه القصة قيمتها ، وكانت خليقة أن تكون قصة عظيمة .

أما القصة الثانية «الموسم الطيبة» فقد ظن بعض الماكرين أن جان بول سارتر إنما اختار عنوانها هذا البشع ليشير استطلاع النظارة . ويظهر أن ج . ج . رنيري مفتون بهذه القصة . وموضوع القصة اضطهاد البيض للسود في أمريكا ، وما يرى الكاتب في النظام الأمريكي والخلق الأمريكي من نفاق عميق . والقصة رسالة في هباء عنيف .

ويظهر أن القصة الجديدة لسيو ج . نوفو Georges Neveux وعنوانها

« شكوى ضد مجهول » قصة ناجحة . وهي تعرض مسألة خطيرة تختلف فيها آراء المعاصرين فيما يقول الناقد وآراء الناس في مختلف العصور فيما نظن ، وهي مشكلة السعادة . فنفر من الناس قد استكشفوا أن ليس هناك ما يدعوهم إلى أن يحيا حياة ثابتة مستقرة ، وأن صفاء العقل يهدم السعادة . فهم يذهبون إلى النائب العام ليقدموا إليه شكوى ضد الاله قبل أن ينتحروا ، والنائب العام يحاول صرفهم عما أرادوا . فاذا يئس من ذلك تركهم وذهب إلى حفل موسيقى . وفي أثناء ذلك تتغلب طبيعة الحياة ، فاذا عاد النائب العام أقنع هؤلاء الناس باسترداد شكواهم . ثم يخلو إلى نفسه ، فلا يلبث أن يتبين أنه قد حصر حياته في حدود ضيقة ، وإذا هو يشتكشأن سعادته غرور ، وإذا هو ينتحر . فأنت ترى أن هذا موضوع من موضوعات اليأس ، ولكن يظهر أن الكاتب قد أحسن تصويره . وتنتهي هذه الشهيرة بمظهرين من مظاهر الاعجاب يندفع إليهما الكاتب ، تدفعه إلى أولها مسرحية جديدة هي « البورلادور » *Le Burlador* وهي تستعير عنوانها من الكاتب التثيلي الإسباني العظيم تيرسو دي مولينا Tirso de Molina . وصاحبة هذه

المسرحية هي سوزان ليلار ، وقد عرضت فيها حديث دون جوان . أما المظهر الثاني من مظاهرها إعجاب الناقد بموضوعه تمثيل « المذك لير » لشكسبير ، وقد قامت بهذا التمثيل فرقة أولد فيك . ويظهر أنها وقتت فيه توفيقاً عظيماً وظفرت باعجاب باريس .

فونتين Fontaine (نوفمبر ١٩٤٦)

في الأدب — يبتدىء هذا العدد بمقطوعات لم تنشر للشاعر الفرنسي العظيم ملرميه رئيس الرمزيين . وهذه المقطوعة مهداة إلى وليم بونابرت وايز ، حفيد لوسيان بونابرت ، وهو إرلندي فرنسي في وقت واحد . وإليك ما تقوله إيلين سوفران في تقديم هذه المقطوعة في « فونتين » . « وهذه المقطوعة تعرض لموضوع من أشد الموضوعات التي عرض لها ملرميه إلحاحاً ، وهو شعر الرأس . وأول ما يفجأ القارئ أن ملزميه يتناول هذا الموضوع على طريقة بودلير وإدجار آلان بو . فشعر الرأس يذكر مع الأستار والأكفان والعدم والموت . » ويختم تقديم المقطوعة بجملة من كتاب كتبه ملرميه إلى وليم بونابرت — وايز وهي تصور حياة الابتكار التي كان يحياها ملرميه إذذاك في السادسة والعشرين من عمره سنة ١٨٦٩ إذ يقول : « إني أحيى دائماً في الفكرة المطلقة وأعرف بعض الأشياء . »

واقراً في الشهرية مقالاً بقلم جايتون بيكون Gaëtan Picon وعنوانه « عصرية أندريه جيد » . وهذا المقال خليق أن يسمى دراسة . وقد قال الكاتب في الحاشية ، على هامش « ثيسوس » والمجلد الأخير من « اليوميات ١٩٣٩ — ١٩٤٢ » . وبعد أن لاحظ في أول مقاله أن ما يشع في شخص ثيسوس من محضر قوى لم يفقد شيئاً من سلطانه القديم يضيف الكاتب : « إن من أخص مميزات الآثار الكبرى أنها تستطيع ، مع أنها لا تعنى إلا بنفسها ، أن تحقق ما كنا ننتظر منها . ومن أسرارها التي لا تحاكي أنها على عكوفها على نفسها دائماً تكفل لنا ألا نسألها عبثاً . » ثم يعارض الكاتب بين وجهة النظر التي يتوخاها جيد والوجهة التي يتوخاها الأدب المعاصر . فالأدب المعاصر يرى أن الإنسان لم يبق كما كان يراه جيد كأننا له حياته الداخلية القوية . ذلك أن الأدب

المعاصر لا يعنى الآن » بتحليل الضمير الانساني وإنما يعنى بتحديد مركز الانسان . فالانسان هو موضوع الدرس دائماً ، ولكن تفكيره في نفسه يحل صورته بدلا من أن يحلها . ثم يستعرض الكاتب خصائص أدب أندريه جيد والمشكلات التي يثيرها . وإذا لم ير في « ثيسوس » آية أندريه جيد ، فانه يرى في هذا الكتاب أصدق صورة لمنشئه . وربما كان أهم ما يدعو الكاتب إلى تفكير عميق هو عصرية ، أو بعبارة أدق ، لاعصرية آثار أندريه جيد . فهو يقول : « إن الذي يؤثر في نفوسنا ويملؤها إعجاباً أمام جيد هو الشعور بأننا أمام آثار لن ينتج الأدب مثلها ، أمام ثمرات متأخرة لذيدة لثقافة قد جعلت تتلون بلون العصر الذهبي . » ويقول : « وليس من شك في أن أكثر هذه الآثار يعيش مصاحباً للعصرية ، وهذه اللاعصرية تصور قيمة عظيمة في مستقبل ممكن دائماً . ثم يقول الكاتب : « إذا كنا نحيا بتجاوز أنفسنا ، فان وقتاً يأتي من غير شك نشعر فيه بأن هذا التجاوز أشبه شئ بالرجوع إلى الماضي . »

ونحيل إلينا الكاتب أن من الممكن أن نعود في وقت قريب إلى العناية بالمشكلات التي شغلت أندريه جيد . ذلك لأن أندريه جيد لم ينقطع عن أن يعرض علينا مثلاً مستمدة من الحقائق الثابتة الأساسية ، ولأنه أثبت في قوة لم يبلغها أحد غيره فضيلة الحرية .

في الفلسفة — وقرأ في هذا العدد دراسة بقلم برنارد جروتويزين Bernard Groethuysen الذي توفي أخيراً موضوعها « مونتسكيو وفن تحرير الانسان » . وقد قدمت المجلة بين يدي هذه الدراسة صفحة مؤثرة في رثاء الكاتب بقلم جان فال Jean Wahl أحد أساتذة الفلسفة في السوربون . ولست أدري أترك الكاتب مقاله تاماً مستوفى أم ألقته يد صديق من مذكرات متفرقة . ولكن الشئ المؤكد أن في المقال شيئاً من التردد بل نجد في آخره نصوصاً قد كررت بحروفها . ومع ذلك نحن نقرأ في هذا المقال جملاً كثيرة لمونتسكيو نسيت إلى الآن وجمعها صاحب المقال على نحو مبتكر . وكل هذه الجمل تتحدث عن الحرية .

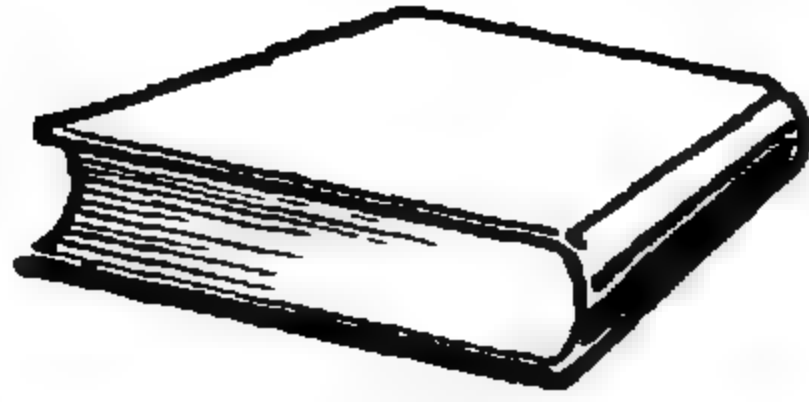
من موسكو

مجلة الآداب السوفيتية *Soviet Literature*

في الآداب - لا شك في أن الآداب الانجليزية تعنى المثقفين من الروسيين في هذه الأيام . فهذا العدد السابع (يوليو ١٩٤٦) من الآداب السوفيتية يحمل إلينا مقالا عن جورج برنارد شو كتبه ألفتيني المازوف ويريد أن يخيل أنه يهدى هذا المقال إلى برنارد شو لمناسبة العيد المئوى الثالث لمولده . والمقال يمضى على هذا النحو من الدعابة الحلوة ، ولكن هذا لا يمنع من أنه دراسة دقيقة كاملة للكاتب التشيلى العظيم . ولنتقل هذه الجملة الساخرة التى يعث فيها الكاتب بالنقاد الأديين « وكما كانت الحال في العصور الماضية ، فبعض هؤلاء النقاد لا يفهمونه ولكنهم يقرونه ، وآخرون يفهمونه ولكنهم من أجل ذلك نفسه يرفضونه . فهو بالقياس إلى بعضهم مهرج وبالقياس إلى بعضهم نبى . »

وتعلن المجلة إلينا ترجمة جديدة للشاعر اللاتينى لوكريس . فقد نشر فيودور بتروفسكى *Fedor Petrovsky* ترجمة « لطبيعة الأشياء » عليها تعليقات بقلم فاغيلوف عضو المجمع العلمى . وتشتمل هذه الطبعة على النص اللاتينى والترجمة الروسية وسبع عشرة لوحة محفورة على الخشب من صنع الفنان بيلوف *Belov* وبهذه المناسبة يبين المترجم الأسباب التى من أجلها يعنى الروسيون بهذا الشاعر الفيلسوف : « فشهرة لوكريس في روسيا تأتى أولا وقبل كل شئ من أن آثاره قد حملت إلينا أثناء ألفى سنة أرقى نمو للفلسفة المادية في العصر القديم . فقصيدته التعليمية مثل نادر للملاءمة التامة المنسجمة للصورة الشعرية الراقية والموضوع الفلسفى العميق . »

أمين ط م بين



مَا وَنَا بِحُوسْنَتِكَ

فِي الْفَقْرِ وَالرُّوْمَانِي

الْفَقِيرُ الْقِيَاةُ فِي قِطْطَيْنَتُهُ

الْأَمْرُ أَطْوَرُ بِحُوسْنَتِكَ

وَنَقَلْنَا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ أَمَامُ الْفَضْلِ فِي مِصْرَ

مَعَالِي سَيِّدِ الْعَرَبِيَّةِ فَهِيَ بَكَايَا

أَخْرَجَتْهُ

دَارُ الْكَاتِبِ الْمِصْرِيِّ

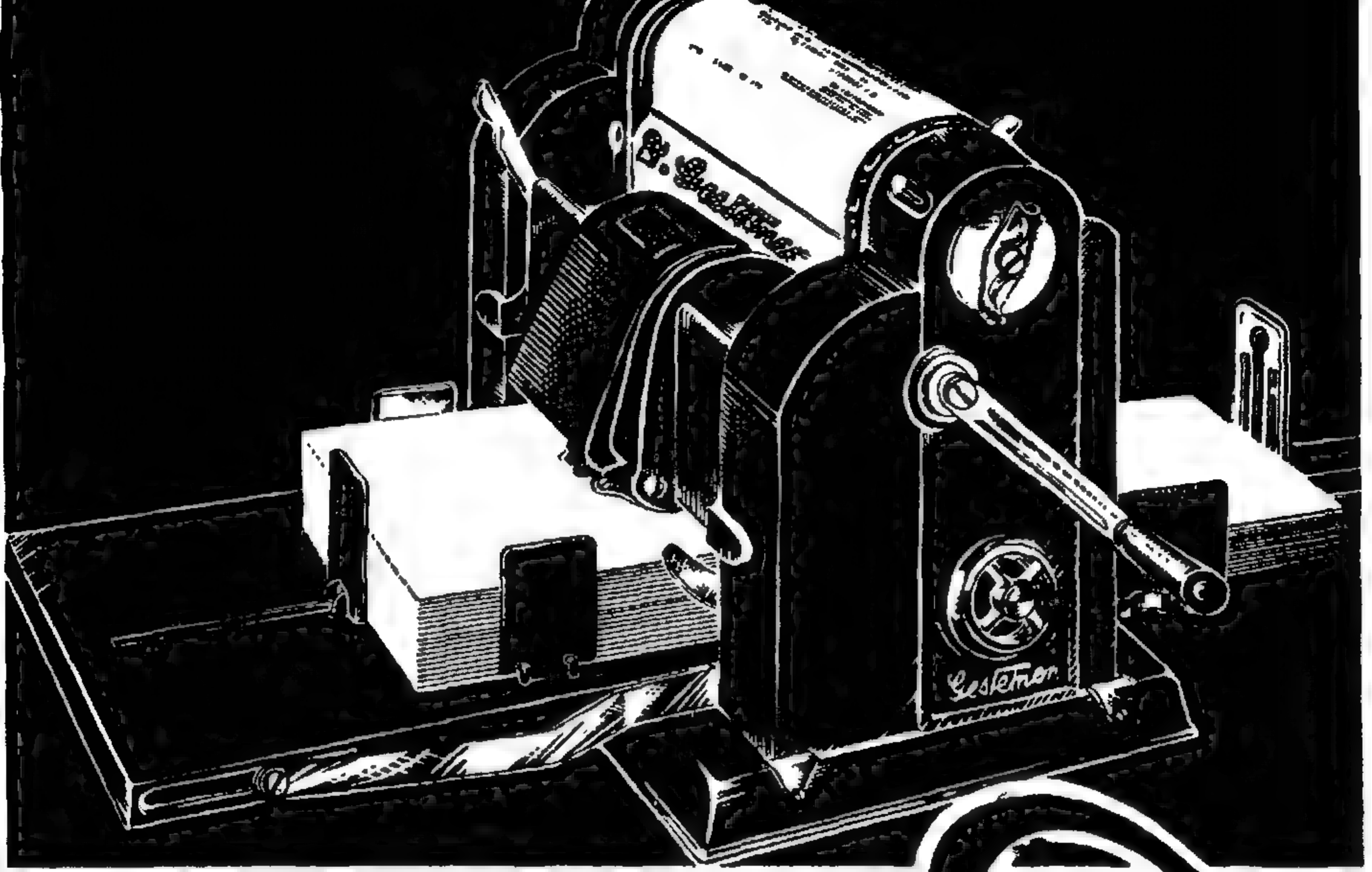
فِي طَبْعَتِهِمْ نَارَ

وَيَجْلِدُ أَنْ يَوْفَى

البريد المسجل ١٠٠
ولاحناج ١١٢



التمت
١٥٠ قرشا



جستيتنر

Gestetner

آلات نسخ الصور ولوازمها

أن ما بلغت منتجاته من
التفوق هو نتيجة للبحث المستمر والتحسين
المستمر منذ سنة ١٨٨١ .
وصلت في مصر آخر نماذج من هذه
الآلات ولوازمها، اطلبوا كافة الاستعلامات
من الوكلاء الموزعين الوحيدين .

جستيتنر

ضمانات للثقة في الصنوع
تحقق من هذا الاسم دائما



BE

الكاتب المصري شركة ممثلة في قسم آلات وأثاث وأدوات المكاتب
القاهرة
المنطقة السكنية بالقاهرة
شارع منطقة الدكة
بورسعيد



الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير: طه حسين

فهرس

طه حسين	رفيق	٤١٣
محمود عزى	صفحة دبلوماسية خلال قراءات	٤٢٤
محمود تيمور	كيف تلهو نيويورك	٤٢٩
سليمان حزين	بين العلم والسياسة	٤٣٥
حسين فوزى	هواة الموسيقى القرية	٤٤٦
محمد عبد الله عنان ..	حماية حقوق التأليف	٤٥٩
سهير القلماوى	وقفه خالدة	٤٦٦
محمد مفيد الشوباشى ..	جيوش كبرى أنوشروان (قصة)	٤٧٤
ألكسندر كواريه ..	كونفرسيه	٤٩٠
محمد عبده عزام	نوبان أسودان	٥٠٢
ريمون فرنسيس	الهجاء السياسى فى مسرحيات أريسطوفان ..	٥٠٦
هنرى بيرلين	الحياة فى بلد محايد	٥١٥
أحمد الصاقي النجفى ...	مقطوعات من الشعر	٥٢٠
عبد العزيز أحمد	للرأة فى الإنجلس	٥٢٢
راجية فهمى	أيلة العيد (قصة)	٥٣٢
ليعة عباس عماره ...	فى رثاء الأستاذ طه الراوى (قصيدة) ..	٥٣٩

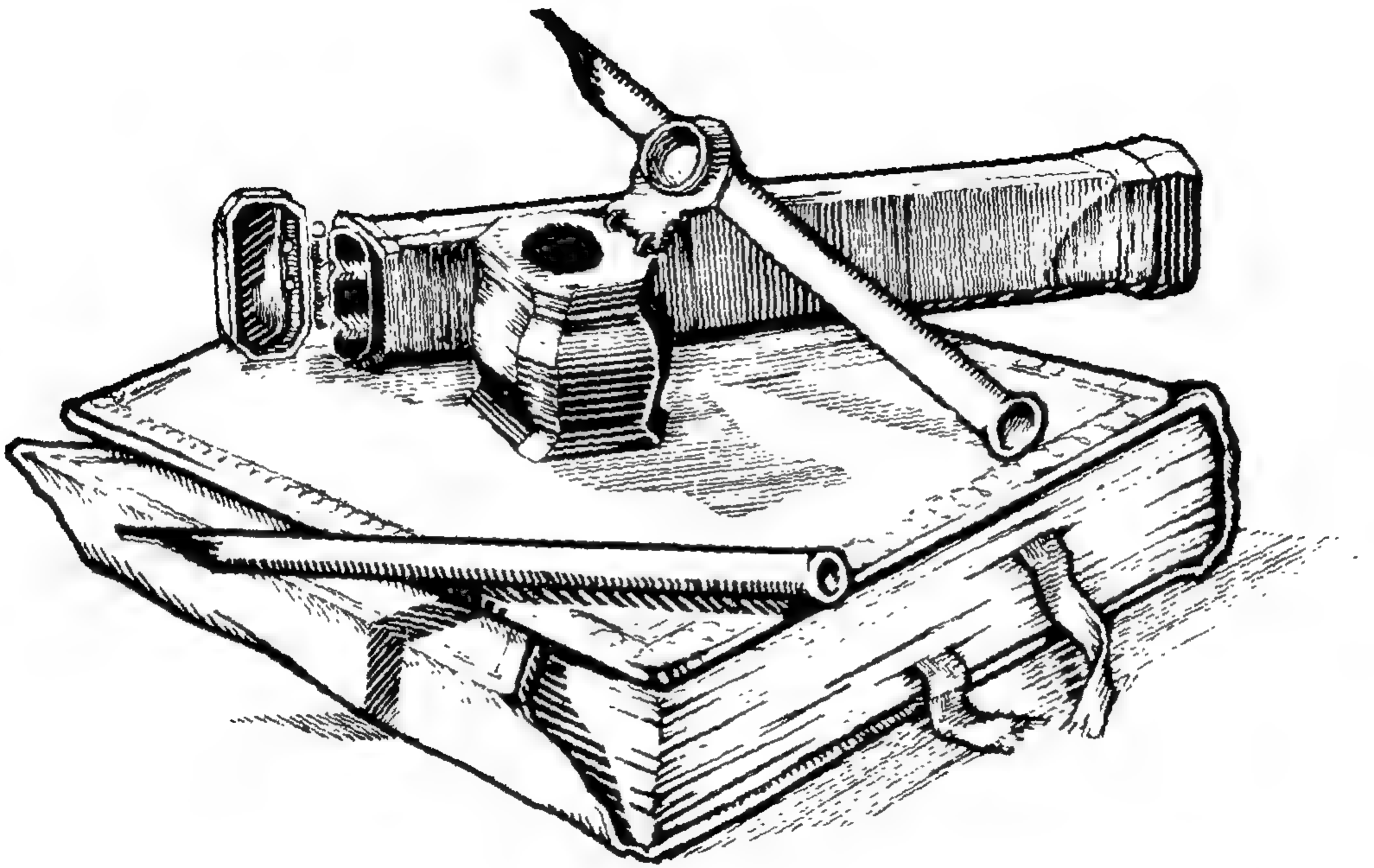
شهرية الفن — شهرية السياسة الدولية — شهرية المسرح — شهرية السينما
من هنا وهناك — من وراء البحار — من كتب الشرق والغرب
ظهر حديثاً — فى مجلات الشرق — فى مجلات الغرب



تصدرها دار الكاتب المصري

شركة سامية مصرية

القاهرة



لقد انتهى عصر المخطوطات والقلم والمحبرة...

وصارت الكتب الآن في متناول الجميع بفضل آلات الطباعة الحديثة التي تخرج الآلاف من الكتب في فترة قصيرة ؛ ومن المستطاع الحصول على الكتب القيمة بأثمان زهيدة .

لم يبق إذن لدور النشر إلا أن تتبارى في حسن اختيار مطبوعاتها وإخراج الكتاب في صورة أنيقة بديعة حتى لسكانه قطعة فنية .

وفي هذا المضمار تجدد القائمين على النشر بدار الكاتب المصري هم السابقين .



دار الكاتب المصري ، قسم النشر بإشراف الدكتور طه حسين بك

محمد سعيد العريان

عائى باب زوالة

قصة تاريخية



٣٥٠ صفحة ، طبعة مزينة بالصور

الشمس ٣٠ قرشاً

البريد ٢٨ ملياً



ظهر حديثاً

محمد عبد الحكيم عبد البدر

لفظة

قصة

جائزة فاروق الأول للفقهاء

من مجموع فوائد الأول للشيخ العريبي

٢٥٠ صفحة
الثمن ٢٥ قرشاً
البريد ٢٤ ملياً



ظهر حديثاً

هـ.ج. ولز

طعام الآلهة

وكيف جاء إلى الأرض

تقريب محمد بدران



٣٢٠ صفحة
التمن ٣٠ قرشاً
البريد ٢٤ ملها



ظهر حديثاً

فرنسوا موريالك

والدة

تعريب محمد عبد الحميد عنبر و عبد الحميد علاميين



١٧٥ صفحة
الثنى ٢٠ قرشاً
البريد ١٦ ملياً



ظهر حديثاً

اندريه چيد

مدرست الزواجات

يلها

روبير و چفشيف

تعريب منبري فيني

٣١٢ صفحة
الثمن ٢٥ قرشاً
البريد ٢٤ مليا



ظهر حديثاً

الباب الضيق

تأليف أندريه جيد

تعريب تزيه الحكيم

مع رسالة من أندريه جيد الى المترجمين
ورد له حسين الى أندريه جيد

١٤٦ صفحة

الثنى ١٨ قرشاً (البريد ١٢ مليماً)

وازن الارواح

تأليف أندريه موروا
عضو المجمع اللغوى الفرنسى

تعريب عبد الحليم محمود

هل توجد الروح ؟ وكم وزن ؟ هل
يمكن الاحتفاظ بها ؟ وهل يمكن
أن تخرج بعد الموت روحان كانتا
مؤتلفتين أثناء الحياة ؟

٢٠٠ صفحة

الثنى ٢٠ قرشاً (البريد ١٦ مليماً)

١٥٠

أرض البشر

للكاتب الطيار

أنطوان دى سانت اسكوپرى

تعريب مصطفى كامل فوده

أرض البشر ، تلك الهباءة من الثرى
التائهة بين الأجرام السماوية ، تلك
الأرض الجديرة باعجابنا لأنها وحدها
تكون الرجال .

طبعة مزينة بالصورة

٢٤٢ صفحة

الثنى ٢٥ قرشاً (البريد ٢٠ مليماً)

جنة على نهر العاصى

تأليف موريس بارس
عضو المجمع اللغوى الفرنسى

تعريب محمد عبد الحميد عنبر
وعبد الحميد عابدين

غرام أقرب إلى العبادة ومغامرات
أقرب إلى الأحلام على ضفاف نهر
العاصى حيث تملأ السواقي بأنينها
أجواز الفضاء .

١٦٦ صفحة

الثنى ١٨ قرشاً (البريد ١٦ مليماً)

صورة دوريات جري

تأليف أوسكار وايلد

تعريب لويس عوض

صورة الصراع بين الإثم والضمير
ونقد الحياة الاجتماعية الانجليزية
في مزاج من الهزل والجد .

طبعة مزينة بصورة فنية من فيلم

” م . ج . م . م ”

٣٠٠ صفحة

الثنى ٣٠ قرشاً (البريد ٢٤ ملها)

شبح كاتريفيل

تأليف أوسكار وايلد

تعريب لويس عوض

سجل للمحن الطريفة المضحكة التي
تلم بشبح قصر كاتريفيل وموازنة
بين العقل الانجليزي المحافظ والعقل
الأمريكي المجدد .

طبعة مزينة بصورة فنية من فيلم

” م . ج . م . م ”

١٢٨ صفحة

الثنى ١٨ قرشاً (البريد ١٦ ملها)

المقامر

تأليف فيدور دوستويفسكى

تعريب شكرى محمد عياد

قصة شاب ممتحن بداء القمار لقي
من هذا الداء في حياته شراً عظيماً .
وهي قصة عنيفة تستأثر بحاجة
القارئ إلى الاستطلاع .

١٦٩ صفحة

الثنى ١٨ قرشاً (البريد ١٦ ملها)

الحب الأول

تأليف إيثان ترجنيف

تعريب محمود عبد المنعم مراد

قصة ساذجة تصور قلب شاب ناشئ
يندفع إلى الحب في غير احتياط
ولا تحفظ وما يصيبه من يأس حينما
يعلم أنه كان يحب عشيقته أياًه .

١٠٤ صفحة

الثنى ١٥ قرشاً (البريد ١٢ ملها)

نابليون

تأليف إميل لودفيج

ترجمه عن الألمانية

محمود إبراهيم الدسوقي

البطل الذي اكتشف لودفيج وراء
قناع بطولته محيا الانسان ، فتجلت
بطولته في إنسانيته ، وفاقت كل
ما عرف إلى الآن .

طبعة مزينة بالصورة في جزأين

الجزء ٣٥٠ صفحة

ثمن الجزء ٤٥ قرشاً (البريد ٣٦ ملياً)

كليمنصو وحياة العاصفة

تأليف ليون دوديه

تعريب حسن محمود

كليمنصو . . . مسقط الوزارات . . . النمر
الرجل الذي عاش حراً فأصبح مغلولاً
الرجل الذي طلب أن يدفن واقعاً في القبر
زعيم في السياسة بقلم زعيم في الأدب

طبعة مزينة بالصورة

٢٨٨ صفحة

الثن ٣٥ قرشاً (البريد ٢٤ ملياً)

حكايات فارسية

٧ بقلم يحيى الخشاب

كتاب يحمل إلى قراء العربية عبيراً
رقيقاً حسن الموقع في النفس من
هذه الحياة الفارسية الممتازة بما
فيها من رقة وفطنة وفكاهة .

١٩٦ صفحة

الثن ٢٠ قرشاً (البريد ١٦ ملياً)

من حولنا

٧ قصص مصرية

تأليف محمد سعيد العريان

جيل من الناس في أفراحه وآلامه ،
يرى كل قارئ في مرآته صورة من
نفسه ، أو صورة من حوله ، في
إطار قصصي رائع في بيانه وفي فنه .

٢٦٠ صفحة

الثن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٠ ملياً)

INSTITUTES DE JUSTINIEN

مَلِكُ رُومِنا چوستِنِيانُ

قَالَ لِفَقِيْهِ الرُّومَانِيْنَ

ألفه

فقيه القياصرة في قسطنطينية

الإمبراطور چوستنيان

ونقله إلى العربية إمام القضاة في مصر

معالي عبد العزيز فهمي باشا

أخرجته

دار الكاتب المصري

في طبعة ممتازة

وتجليد أنيق

٤٠٩ صفحة

الثلث ١٥٠ قرشاً

البريد المسجل ١٠٠ ملها

وللخارج ١١٢ ملها

العَقِيدَةُ وَالشَّرْعِيَّةُ فِي الْأَسْلَامِ

للمستشرق العظيم
إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية وعلق عليه
محمد يوسف موسى
عبد العزيز عبد الحق
على حسن عبد القادر

٤٠٠ صفحة

الثلث ٨٥ قرشاً (البريد ٤٠ ملها)

فَاتِحُ الْفَلَسْطِينِ الْأَوَّلِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْوَسْطِيِّ

تأليف

الأستاذ يوسف كرم

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

بجامعة فاروق الأول

٢٦٦ صفحة

الثلث ٥٠ قرشاً (البريد ٣٦ ملها)

من أبطال الاساطير اليونانية

أوديب ثيسوس

تأليف أندريه جيد

ترجمة
طه حسين

صديق أندريه جيد

سمعتك تقرأ لنا قصتي «أوديب»
و «ثيسوس» فعرفت الحنان
الخاص الذي تؤثرها به . ومن أجل
هذا علمتهما العربية ليبلغنا إلى قراء
الشرق رسالتك التي هي ثقة وشجاعة
واستبشار . وسيشهدان كذلك بما
أضمر من إعجاب بك قد أصبح منذ
التقينا وداً كريماً .

طه حسين

كتابتان

في مجلد واحد

٣١٠ صفحة

التمن ٢٥ قرشاً

البريد المسجل ٤٤ ملياً وللخارج ٥٦ ملياً



476

انتقادات

٤



تباع كتب
دار الكاتب المصرى
بالعراق
فى المكتبة العصرية
ببغداد

لصاحبها محمود حلمى
تليفون ٦٤٨٠ — ٤٢٧٦ — ٩٤٧٠
وعند وكلائها فى الآلوية
الموزعين الوحيدين فى العراق

تباع كتب
دار الكاتب المصرى
ومجلة الكاتب المصرى
فى سوريا ولبنان
فى المكتبة العمومية
لصاحبها عطا مكى

دمشق — شارع فؤاد الاول
بيروت — جادة الافرنسيين
الموزع الوحيد فى سوريا ولبنان

LA REVUE DU CAIRE

REVUE DE LITTERATURE ET D'HISTOIRE

SOMMAIRE DU NUMERO DE MARS

- JEAN-EDOUARD GOBY. . . Le second centenaire de l'Ecole nationale des Ponts et Chaussées de Paris.
MAURICE BRILLANT. . . Un mercredi à l'Opéra.
RAYMOND COGNIAT. . . Somptuosité de la tapisserie française.
TAHA HUSSEIN. . . . L'Arbre de misère (suite).

CHRONIQUE THEATRALE

Robert KEMP

CHRONIQUE DES LIVRES

Jean DUPERTUIS

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصري في أول كل شهر عن دار الكاتب المصري ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعها .

الاشتراك

١٠٠ قرش في السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً في السنة للخارج أو ما يعادلها .
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب
المصري . لا تقبل الاشتراكات لأقل من
سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصري تعنى بكل
ما يرد إليها من المقالات والرسائل
ولكنها لا تلزم نشرها ولا ردها

إدارة الكاتب المصري

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الإدارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published
by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.

5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصري

الكتاب المصنوع



جہادی الأولى ۱۳۶۶

اپریل ۱۹۴۷

السنة الثانية

مجلد ۵ - عدد ۱۹

رفیق

9

كان ذلك في ساعة من ساعات الضحى ، حين كان النهار يجب أن يبطئ في سعيه ، ليحبس الصبية والشباب من أهل الكتاب ، ويمسكهم في حياتهم تلك التي كانت تخضعهم لعنف سيدنا ومكر العريف ، ويؤخر عنهم هذه اللحظة السعيدة التي يؤذن لهم فيها بالانطلاق ليصييوا غداهم ، والتي كانوا ينتظرونها متشوفين إليها ، لا ليرضوا حاجتهم إلى الطعام ، بل ليرضوا حاجتهم إلى الحرية واللعب . وكان الصبية والشباب من أهل الكتاب يستبطنون ارتفاع الضحى وزوال الشمس ، ويخدعون أنفسهم عن هذا الانتظار الشاق البغيض ، بنشاط غريب مفاجئ ، ترتفع فيه الأصوات بالقراءة وتكثر فيه حركة الأيدي التي تمسح الألواح لتزيل منها ما حفظ أمس ، وتكتب فيها ما سيحفظ بعد الغداء . وكان الكتاب في ذلك الوقت أشبه شئ بخلية النحل ، كله حركة ، وكله نشاط ، وكله دوى يرتفع حتى يسمع من بعيد جداً ، على ما فيه من تباين الأصوات واختلافها ، بين أصوات الصبية النحيلة الضئيلة العالية التي لم تثبت بعد ، وأصوات الصبية التي أخذت تمتلئ لأن أصحابها قد تقدمت بهم السن شيئاً ، وأصوات الشباب التي كادت تشبه أصوات الرجال وكادت تستوفي حظها من الامتلاء . وكانت هذه الأصوات المختلفة المنطلقة في وقت واحد ، تحمل إلى لآذان شيئاً حلواً رائعاً ، فيه كثير من الملاءمة والانسجام ، يشبه ما تحمله إلى الأذن الأدوات الكبيرة للموسيقى حين يشتد اختلافها في طبيعة الجرس ،

وينشأ عن ائتلاف مختلفها جمال يسحر السمع ، ويملا النفس روعة وطرباً .
 في هذه الساعة من ساعات الضحى ، وفي ساعة أخرى من ساعات النهار ،
 حين كان المؤذن يوشك أن يدعو إلى صلاة العصر ، كانت حماسة الصبية
 والشباب من أهل الكتاب تبلغ أقصاها . ولم يكن من اليسير أن يظفر
 سيدنا أو العريف بردهم إلى السكوت ، دون أن يصفق تصفيقاً قويا ، ويخرج
 من حلقه صوتاً كأنه الرعد يقرع الآذان ويفجأ النفوس ، فيعقد الألسنة عن النطق ،
 ويكف الأيدي عن الحركة ، ويلقى التلاميذ في صمت أبله ، وسكون أحرق ،
 ووجوم غريب .

في ساعة من تلك الساعات ، وقف على عتبة الكتاب بين شقى الباب
 رجل قد تجاوز الشباب ، ولكنه لم يعم في الشيخوخة . وعليه مظهر الثروة
 وارتفاع المنزلة ، يعرف ذلك من لباسه الأنيق ، ووجهه الذي تشرق فيه الثقة
 وتظهر عليه الكبرياء . وكان الرجل مرتفع القامة مهيب الطلعة ظاهر النعمة ،
 يدل منظره على أنه راض عن نفسه كل الرضى ، مستقر في الحياة كل الاستقرار ،
 لا يخاف شيئاً ، ولا يشك في شيء ، ولا يعرف التردد ولا الاضطراب . وأكبر
 الظن أنه كان ضابطاً من ضباط الجيش وقتاً ما ، ثم تحول عن الحياة العسكرية
 إلى الحياة المدنية ، فانتقل إلى هذه الحياة الجديدة محتفظاً بعاداته وتقاليده
 العسكرية كلها أو أكثرها . وأكبر الظن أنه لم يكن مصرى الأصل ، وإنما
 كان تركياً تمصر هو أو تمصرت أسرته ؛ فقد كان يحمل في وجهه وفي شكله
 كله شيئاً لا أدري ما هو ، ولكنه يبين أنه ليس من المصريين ، ويباعد بينه
 وبين المصريين مبالغة ما ، ويثير في نفوس المصريين إذا رأوه من قريب شيئاً
 غريباً فيه إكبار له ، وفيه استخفاف به .

وكان هذا الرجل حين وصل إلى الكتاب ، قد أعطى كتفا يديه لصبيين
 يكتفانه ويسعيان معه سعياً رقيقاً . فأما أحدهما عن يمينه ، فقد كانت على وجهه
 سحابة رقيقة من حزن . وأما ثانيهما عن شماله ، فقد كان باسم الشجر مشرق
 الوجه يكاد يخرج من جسمه قوة ونشاطاً . فلما بلغ باب الكتاب ومن حوله
 هذان الصبيان ألقى تحيته ، فسمع أهل الكتاب صوتاً لم يسمعوا مثله قط
 في قريتهم ، صوتاً ضخماً عريضاً ممتلئاً ، أغنى سيدنا وأغنى العريف عن التصفيق
 والزئير ؛ فقد قرع آذان التلاميذ ، وفجأ نفوسهم ، وعلقهم في هذا السكوت

الأبله ، وفي هذا السكون الغريب ، ووثب بسيدنا كأنما دفعه دافع ؛ فاذا هو قائم على دكتة قد أعجل حتى عن أن يقوم كما تعود أن يفعل في مهل وأناة ، وقد رد التحية على صاحبها في شئ من وجل ، ثم دعاه إلى أن يتفضل بالجلوس ، وتنحى له عن موضعه في صدر المكان . وشكر الزائر لهذا الشيخ احتفائه به ودعائه له إلى الجلوس ، ولكنه أبى أن يدخل ، وأبى أن يجلس ، وقال في صوته ذاك المهيّب المخيف : « إني حديث عهد بهذه المدينة ، لم أصل إليها إلا منذ يومين . وقد عرفت أن كتابك هو خير ما فيها من الكتاتيب ، فأحببت أن أقود إليه ابنيّ هذين ، وأن أكل إليك تعليمهما . فاما أحدهما وهو هذا — وقدم الصبي ، الذي كان قد أعطاه يده اليمنى — فقد قد بصره إلا قليلا ، فهبه كل عنايتك وأحفظه القرآن ، فاني قد وهبته للأزهر . وأما ثانيهما فعفريت ما أراه يصلح إلا للمدرسة ، فأمسكه في الكتاب حتى لا ينسى من الكتابة والقراءة ما تعلم ، وأحفظه شيئا من القرآن ، وخذه بالشدة إن أبى إلا أن يكون عفريتاً في الكتاب كما هو عفريت في البيت . » ثم دفع من فمه ضحكا عريضاً ، ما أظن إلا أنه روّع بعض القلوب في صدور أولئك الصبية الصغار . ثم تقدم خطوة وأخذ بيد سيدنا فوضعها على كتف أحد الصبيين وقال : « هذا هو الأزهرى . » ثم رفع يد سيدنا عن كتف هذا الصبي ووضعها على كتف الصبي الآخر وهو يقول متضحكا : « وهذا هو العفريت » . ثم قال لسيدنا : « فأما الأزهرى فاسمه عثمان وأما العفريت فاسمه محمود . أتريد أن أتركهما لك منذ الآن ؟ أم ترى أن أعود بهما اليوم على أن يستأنفا سعيهما إلى الكتاب إذا كان الغد ؟ » وهم سيدنا أن يجيب ، ولكن الرجل لم يمهله ، وإنما قال : « سأستصحبهما اليوم وسيسعيان إلى الكتاب منذ غد . ولا تطلقهما للغداء فسيحمل إليهما غداؤهما كل يوم ، ولا تطلقهما إذا صليت العصر حتى يأتي من يصحبهما إلى الدار ، فانهما غريبان لا يعرفان طرق المدينة بعد ، وليست الدار قريبة من الكتاب . » ثم ألقى تحيته بصوته ذاك المروع المخيف ، وأدار ظهره منصرفاً لم ينتظر أن تردّ عليه تحيته . وما أحسب إلا أنه قد سمع هذا الضحك الذي اندفع الكتاب كله فيه ، والذي لم يستطع سيدنا ولا العريف أن يكفا عنه التلاميذ إلا حين أذنا لهم بالانطلاق ليصيبوا غداءهم ، على أن يذكروا أن من تأخر منهم عن مواعده فلن تعفى رجلاه من هذا النصيب المعلوم من العذاب الذي لم يكن يقل عن خمسة سياط وربما بلغ عشرين سوطاً .

وقد رضى سيدنا ورضى معه العريف عن يومهما ، وعما ساق الله إليهما من الخير فيه ؛ فقد كان هذا الرجل موظفاً كبيراً طراً على المدينة منذ أيام ، ولم يكن شك في أنه ضابط تركي قديم من ضباط الجيش ، يظهر ذلك في حديثه ، وفي عريته التي تبرأ من الرطانة والتكسر ، ولكنها لا تمضي مستقيمة إلى غايتها ، وإنما يثقل بها لسانه ، ويتعثر بها منطقته . بل زعم العريف أن زوجه تركية خالصة لا تتكلم العربية إلا في مشقة شاقة وجهد شديد . وهي إذا أتيح لها أن تتكلم العربية التوى لسانها بها التواءً شديداً . وهي تؤنث المذكر ، وتذكر المؤنث ، وتفعل ببعض الحروف العربية الأفاعيل ، وزعم العريف أن لهذين الصبيين أختين قد بلغتا طور الشباب ، وظفرتا بحظ من جمال لا يتاح إلا للترك أو من يشبههم أو يقاربهم من الأوربيين . وقد سمع سيدنا لكل هذا الكلام غير حافل به ولا آبه له . وآية ذلك أنه لم يرد على العريف إلا بقوله : « ما أظنه يدفع أقل من عشرين قرشاً في الشهر أجراً لتعليم ابنيه . »

وكان في الكتاب صبي لم ينطلق مع التلاميذ ليصيب غداءه ؛ لأنه كان من الذين يحمل إليهم الغداء في الكتاب ، وقد سمع حديث الأب إلى سيدنا وسمع حديث سيدنا والعريف عن الأب وابنيه وعن الأسرة كلها ، فوعى هذا كله في صدره وحفظه في نفسه ، ولم يكده يبلغ داره بعد أن صليت العصر حتى أعاد إلى أمه ما سمع من حديث ، وسألها عن هذه الأسرة ، فقالت باسمه : « إنها أسرة المأمور الجديد ، وستزورنا السيدة وابنتاها بعد حين ، فاحذر أن تقع عين إحداهن عليك . »

٢

ولم يرتفع الضحى من الغد ، حتى كان الصبي قد تعرف إلى زميله في الكتاب عرفه إليهما سيدنا ، لأنه كان يحب أن يؤلف بين أبناء الأسر التي تستمتع بحظ من امتياز ، ولأن هذا الصبي كان حافظاً للقرآن مجوداً له . فلم يتردد سيدنا في أن يكلفه إقراء الصبي الأزهرى . وقال له وقد أخذ بيده الصغيرة فوضعها على لحيته الغزيرة : « لقد وكلت إليك ذقني ، فأحفظ هذا الصبي ما حفظت وأجدّه إحقاظه ، ولا تفضحنى عند أييه الموظف الجديد الكبير . وقد رأتني وكلت إليك عملاً كنت خليقاً أن أنهض به أنا ، أو أن أكله إلى العريف . » وقد وجد الصبي في نفسه

شيئاً من الكبرياء ؛ فقد أصبح معلماً بعد أن كان متعلماً ، وأصبح مقرئاً بعد أن كان قارئاً ، ووجد في نفسه شيئاً من الفرح والابتهاج لاتصال الأسباب بينه وبين هذين الزميلين المترفين اللذين يلبسان اللباس الأوربي ويضعان على رأسيهما الطربوش ، ولا يلبسان هذه الثياب الفضفاضة القذرة التي كان يلبسها التلاميذ من أهل المدينة ، واللذين ينتميان إلى أسرة تركية ولا يتحدران من هذه الأسر التي تأتلف من التجار والفلاحين . وقد أقبل الصبي على عمله ، فطلب إلى تلميذه أن يتلو عليه ما حفظ من القرآن في القاهرة ، ثم اتخذ هذا نفسه سبباً للسؤال عن كتاتيب القاهرة كيف تكون ، وعن سادة هذه الكتاتيب كيف يسرون مع التلاميذ ، وعن مذاهب هؤلاء السادة في تأديب تلاميذهم ووسائلهم إلى هذا التأديب ، والأدوات التي يصطنعونها فيه . وكان الصبي يسمع أحاديث تلميذه كلفاً بها متهاكاً عليها ، يكاد ينسى في سبيلها ما وكل إليه من إلقاء هذا التلميذ لولا أنه كان يذكر من حين إلى حين يده الصغيرة في اللحية الغزيرة ، وصوت سيدته الغليظ وقد تكف الرقة والرفق . وهو يلفته إلى أنه يكفه عملاً خطيراً كان خليفاً أن ينهض به هو ، أو أن يكمه إلى العريف . فكان ذلك يردّه إلى القصد ويحمله على أداء الواجب . وكان النهار يمضي ساعة للقراءة ، وساعة للحديث ، ثم ازدادت الأسباب بين الصبي وزميليه متانة واتصالاً ، فكان الثلاثة يخرجون من الكتاب إذا صليت العصر ، فيذهبون معاً إلى بيت الصبي قليلاً وإلى بيت الزميلين غالباً . وكان هذا البيت أنيقاً مترفاً في نفس الصبي يملأ قلبه حين يدخله روعة وكبراً . كان قائماً على القناة ليس بينه وبين الماء إلا هذه الطريق الضيقة التي يسعى فيها الناس ودوابهم بين المدينة والقرية ، وقد انبسطت من وراء سوره المرتفع الذي تكسوه الأغصان الخضراء والزهر النضر حديقة عميقة مترامية الأطراف ، عن يمين وشمال ، تقوم الدار من ورائها مطمئنة لا ترتفع في السماء إلا قليلاً ، ولكنها تمتد في الفضاء وتكثر فيها الحجرات . وكان الذي يفجأ الصبي من أمر هذه الدار ويملاً قلبه رضا وإعجاباً أنه كان إذا عبر إليها الحديقة العميقة ودخل الدهليز الذي ينبسط بين الحجرات ، لم يمش على أرض من تراب ، وإنما مشى على أرض قد بسط فيها البلاط . وكثيراً ما راعه أنه كان يرى الخادم تغسل هذه الأرض غسلاً وتنقيها تنقية ، ولا ترش عليها الماء رشاً ليستقر ترابها فلا يشور . وكان مما يملأ قلب الصبي رضا وإعجاباً

أنه كان لا يكاد يدخل الدار مع زميله حتى ينعطفوا إلى يمين ، ويأووا إلى حجرة خاصة لا يسكنها أحد من أهل الدار ، ولا يطرقها أحد غير هذين الصبيين ، قد خصصت لهما يلعبان فيها ، وجمعت لهما فيها أدوات كثيرة مختلفة غريبة للعب ، وأسندت إلى جدرانها كراسي ومجالس يستريح عليها الصبيان ومن يلاعبهما من الرفاق . فهما لم يكونا يجلسان على الأرض ولا يلعبان في الفضاء المنبسط أمام الدار ، ولا يتعرض لهما لضحك الكبار منه أو مشاركة الواغليين من الأطفال فيه . كان لعباً مترفاً في حجرة مترفة ، ليس للصبي بمثله عهد . وكان ثلاثتهم إذا وصلوا إلى الدار لا يكادون يستقرون في حجرتهم تلك حتى تلم بهم ربة الدار وآنسة من الأنستين ، فيكون الحديث الرفيق والحنان الرقيق والدعابة العذبة . ثم يخلو الصبية بعد ذلك إلى لعبهم ، فينفقون فيه ما شاء الله من وقت يقصر أو يطول .

وكانت ربة الدار سيدة كريمة ، قد تقدمت بها السن شيئاً ، ولكنها كانت حلوة الشائل ، عذبة الحديث ، في لهجة عربية ضعيفة أشد الضعف ، ملتوية أعظم الالتواء . وكان حديثها ذاك الملتوى المتعثر البطيء يسحر نفس الصبي ويملا قلبه فتوناً . فأما الأنستان فقد كانت كبراهما (تفيدة) رائقة الحديث ، شائقة الدعابة ، متكسرة اللفظ ، تتكلم فيخيل إلى السامع أن عهداها بالنوم غير بعيد ، وكانت على ذلك ماكرة حديدة اللسان ، لاذعة النكتة ، بطيئة الحركة ، قليلة النشاط . وكانت أختها الصغرى (إقبال) جذوة من نشاط لاتقطع لها حركة ولا يستقر لسانها في فمها ، وهي على ذلك حلوة المحضر ، مشغوفة باللعب ، لو أطلقت لها حريتها لما فارقت الصبية ولا زهدت في لعبهم . ولكن الدار كانت منظمة أدق النظام وأشقه ، فلم يكن يتاح لهاتين الأنستين إلا قليل من فراغ بين حين وحين . وقد نعم الصبي بهذه الحياة وقتاً لا يذكر أطال أو قصر . ولكنه يرى ذات يوم في الدار حركة غير مألوفة ، ويخيل إليه أن في الجو شيئاً لا يلبث أن يعرف ما هو ؛ فقد خطبت تفيدة ، وما هي إلا أسابيع حتى يقبل قوم من القاهرة ، وحتى تقام في الدار أعياد ، ثم يعود الزائرون من حيث أتوا ، وقد استصحبوا تفيدة ، فقدت الدار من جمالها وبهجتها شيئاً غير قليل . والحياة مع ذلك ماضية في طريقها في هدوئها المتصل واطرادها المل ، والصبي ناهض بواجبه ، يحفظ زميله القرآن ، ويشاركه في اللعب ويخوض

معه في فنون الحديث ، ولكن محمودا يتحول من الكتاب إلى المدرسة المدنية ، فيفقد الكتاب بانصراف العفريت عنه من بهجته شيئاً غير قليل . ويخلو الصبي إلى زميله وتلميذه عثمان يعلمه ويلعبه . ولكن السأم يسعى بينهما ، وإذا الصبي ينصرف عنه قليلاً قليلاً ، ويشغل شيئاً فشيئاً برفاق آخرين من أهل المدينة ، يعرضون عليه فنوناً جديدة من اللعب ، ويلقون إليه ألواناً طريفة من الحديث ، ويقرءون معه كتباً لا عهد لأبناء الكتاب بها ، ولا إرب لهم في قراءتها . والصبي مع ذلك يلقي رفيقيه المترفين في داره حيناً وفي دارهما حيناً آخر . ثم يسمع ذات ليلة أبويه يتحدثان في شيء من الحزن وفي شيء من السخرية أيضاً بأن هذا الضابط التركي القديم من ضباط الجيش قد سافر إلى القاهرة ، فأقام فيها أياماً ، ثم عاد ومعه سيدة تركية لم تبلغ الثلاثين بعد ، لها حسن رائع وجمال بارع ، وفتنة فاتنة ، وتسَلَّطُ على الضابط الشيخ عظيم ، وأن تلك الدار المترفة الأنيقة التي كانت جنة من جنات النعيم ، قد أصبحت مستقراً للحزن والبؤس والشقاء ، قد أصبحت جحماً تصلي فيه أم البنين نار الحزن ولوعة الغيرة ، ويشقى فيها هؤلاء الثلاثة بما يرون من حزن أمهم وبؤسها وبكائها المتصل واعتكافها في حجرة لا تبرحها إلا أن تكره على ذلك إكراهاً ، كما يشقون بهذا النعيم العظيم يستمتع به الضابط الشيخ وزوجه الشابة في طرف من أطراف الدار . كانا يستخفيان بسعادتهما أول الأمر ، فينعمان من وراء الأبواب المغلقة والأستار المسدلة . ولكن السعادة جمحت بهما حتى تجاوزا القصد . وأكبر الظن أن شقاء الأشقياء ، هو الذي أذكى سعادة السعداء . وكأن الزوجين السعيدين قد رأيا في اعتكاف تلك المعتكفة وبكائها المتصل . وفي هذه الوجوه العابسة الكئيبة من حولها ، وفي خفوت تلك الأصوات التي كانت تملأ الدار فرحاً ومرحاً ، وفي سكون تلك الحركات التي كانت تملأ الدار بهجة وسروراً ، كأنهما رأيا في هذا كله احتجاجاً على ما أتيح لهما من سعادة ، وإنكاراً لما سبق إليهما من نعيم ؛ فقبلا التحدى ، وأظهرا ما كانا يضمران ، وأعلنا ما كان يسران ، وظهرت سعادتهما وقحة ، مسرفة في القحة لا تتحفظ ولا تحتشم ولا ترجو لشيء وقاراً . فالتَّجَبَّلَ تحتلِس في هذه الزاوية أو تلك في غير احتياط أول الأمر ، ثم هي لا تحتلِس ولا يستخفي بها ، وإنما يتهداها الزوجان أمام هذه الكاعب البائسة ، وبمنظر من هذين الغلامين الشقيين ، وغير بعيد من هذه الأم التعسة

المحزونة . ثم تتجاوز القحّة حدودها ، ويتعمد الزوجان المفتونان إيذاء هذه المرأة الكئيب ، فينتهزان الفرص ليظهرها لها سعادتهما بشعة ليس لها حظ من تحفظ أو استحياء . ويتحدث الناس ذات يوم بأن هذه الأم البائسة عليلة لا تخرج من حجرتها ولا تترك فراشها . ثم يأتي النبأ ذات صباح بأنها قد فارقت الحياة ، فأراحت واستراحت وتركت في قلب أبنائها سعيّاً أي سعي . وقد استقرت هذه الأم البائسة في قبرها المتواضع من وراء النهر . وجلس صاحب الدار للمعزين يستقبلهم كما تعود الناس أن يفعلوا . وقد مرت الليلة الأولى كما تعودت ليالى العزاء أن تمر . أقبل المعزون فسلموا وجلسوا وسمعوا القرآن ، وانصرف فوج منهم ليخلفه فوج آخر ، ثم ختمت القراءة حين أوشك الليل أن ينتصف . ثم أقبل اليوم الثانى وأقبل معه القراء يتلون القرآن ، وأقبل الناس يعزّون ويستمعون ويخوضون في مختلف الأحاديث . وإنهم لفي ذلك بعد أن صليت العصر ، وإذا امرأة شابة تخرج من الدار وتتوسط جمع الناس هادئة مطمئنة رزينة الخطو سافرة لم تلق على وجهها نقاباً ، وقد اتخذت في إحدى يديها حقيبة صغيرة . فلما توسطت الجمع وجم الناس ، وهمّ صاحب الدار أن ينهض ولكن الوجوم أخذه هو أيضاً فأثبته في مكانه ، وارتفع صوت تفيدة هادئة رزينة قطع المقرئ قراءته واستمع لها الجمع كأن على رؤوسهم الطير ، وإذا هي تقول : « من ظن منكم أنه أقبل للتعزية والمجاملة فليغير ذات نفسه ودخيلة ضميره ، فليس هذا حفل عزاء وإنما هو حفل فرح وابتهاج . إن هذا الرجل الذى تعزونه قد قتل امرأته ، وابتهج بموتها ، لم يرع حرمتها ولم يرع حياء ابنته الكاعب ، ولم يرع صبا غلاميه الصغيرين ، وإنما ازدرى هذا كله في سبيل سعادته بزوجه الجديدة ؛ فكان يداعبها ويلاعبها ، وينال من مداعبتها وملاعبتها في الجهر مالا يناله الرجل الكريم ذو الروعة إلا سرّاً . وكنت في القاهرة لا أعلم من ذلك شيئاً ، فلما أقبلت لدفن أمى سمعت ، فأنكرت أذنائى ولم يصدق قلبى ، ولكنى أشهد وأشهدكم أنى رأيت ورأى إخوتى ، وفيهم كاعب وصبيان ، هذا الرجل يداعب امرأته الشابة ويلاعبها راضياً مغتبطاً مسروراً ولم يمض على دفن أمنا إلا يوم وبعض يوم . فان رأيت بعد ذلك أن هذا الرجل محتاج إلى تعزيتكم فأقيموا وإلا فانصرفوا راشدين . » ثم تحولت عن الجمع فلم تدخل الدار ، وإنما أخذت طريقها إلى المحطة لتركب القطار الذى يحملها إلى القاهرة . ولست أدري ماذا كان من أمر الجمع

المحتشدين بعد هذه الفضيحة ! ولكنى أعلم أن استقبال المعزين لم يبلغ أيامه الثلاثة ، وأن هذا الضابط التركي القديم من ضباط الجيش لم يستطع أن يقيم في المدينة إلا ريثما يدبر أمر سفره ، وأنه ارتحل ذات يوم بما كان يحيط به من نعيم وجحيم ، فانقطعت بينه وبين المدينة الصلات والأسباب ، لم يسمع أهل المدينة عنه شيئاً ولم يسمع هو عنهم شيئاً .

٣

ومضت الحياة في طريقها هادئة مطمئنة ، تعبت بالناس ويعبت الناس بها ، ويعفى ما يقبل من أحداثها على آثار ما أدبر من الخطوب . وقد هاجرت أسرة الصبي من المدينة إلى أعلى الأرض ، وهاجرت أسر أخرى إلى أدنى الأرض ، وشغلت كل أسرة بنفسها عن غيرها . وشغل كل واحد من أبناء الأسرة الواحدة بشأنه الخاص عن شؤون أهله وذويه . ومضت أعوام تبعثها أعوام ، وبلغ الصبي طور الشباب بعد أن خاض إليه غمرات الخطوب ، ولكنه يحس ذات مساء بين درسين من دروس الجامعة القديمة يداً تمس كتفه وصوتاً يمس أذنه ، وتقع في نفسه هذه الجملة : « ألا تذكرنى ! لقد كنت معك في الكتاب أنسيت العفريت ؟ »

بلى ! لم أنس العفريت وهيئات أن أنساه . وقد استأثر من قلبى ذاك الناشئ بمكان ممتاز لم يبلغه أحد من إخوته كما لم يبلغه أحد من رفاق الصبي أولئك الذين عرقهم في الكتاب ، أو عرقهم خارج الكتاب أولئك الذين اتصلت بينهم وبينى أسباب المودة أيام الصبا ، فكانت عشرينى لهم طويلة أو قصيرة ، بلى ! لم أنس العفريت . ولقد حدثت نفسى غير مرة حين هبطت إلى القاهرة ، لأطلب العلم في الأزهر الشريف بأن من الممكن أن ألقاه أو ألقى أخاه فأجدد من أسباب المودة ما رث ، وأصل منها ما انقطع ، وأنقل من صباى في المدينة إلى القاهرة طرفاً أستبقيه وأنميه ، وأجد في استبقائه وتنميته رضا القلب ومتعة النفس وسعادة الضمير . ولكنى اختلفت إلى الأزهر أعواماً وأعواماً ، وعرفت فيه كثيراً من الصبية والشباب والشيوخ دون أن ألقى العفريت أو أخاه أو أسمع عنهما قليلاً أو كثيراً . ولم أبج لنفسى أن أسأل عنهما أحدهما أو كليهما . ولو قد سألت

لكان من الممكن أن أصل إلى هذا الأزهرى الذى كنت أحفظه القرآن أيام الصبا ، وأن أصل من طريقه إلى أخيه العفريت . لم أبح لنفسي أن أسأل . وما أقل ما كنت أبيع لنفسي السؤال ! وما أكثر ما صرفنى الحياء عن السؤال والاستقصاء !

ثم أنفقت فى الجامعة عاماً وعاماً وعاماً ثالثاً ، ولقيت من الطلاب من درس فى الأزهر ومن تعلم فى المدارس المدنية على اختلافها ، وخطر لى غير مرة أن أسأل عن العفريت ما خطبه وأين يكون ؟ ولكنى لم أبح لنفسي السؤال فحفظت فى قلبى من ذكر العفريت ما كنت أردده على نفسي حيناً بعد حين ، أختصها به ولا أظهر عليه أحداً من الناس ، حتى أقبل على العفريت ذات مساء فمست يده كتفى ومس صوته أذنى ، ومست نفسه نفسي ، واستأنقنا فى الشباب حياتنا كما ألفناها فى الصبا . كان حديث عهد بالجامعة يدخلها فى أول العام الذى كنت أريد أنا أن أتركها فى آخره ، فكنا نجتمع وجه النهار لا فى داره نلك ، وأين كنا من داره نلك ! ولكن فى تلك الحجرة المتواضعة التى كنت آوى إليها أثناء الطلب . ولم يخطر له قط أن يدعونى إلى داره ولم يخطر لى قط أن أسأله عن هذه الدار . ولقد هممت أن أسأله عن إخوته فأجابنى من طرف اللسان ، فلما استزدته راغ عنى بالجواب وانتقل إلى حديث آخر . فأحسست أنه يستحي من أسرته فلم أسأله عنها بعد ذلك . كان قد تخرج فى إحدى المدارس الفرنسية ، وظفر بشهادته الثانوية والتحق بالجامعة . وكنت أنا أحاول أن أتعلم هذه اللغة الأجنبية وأبذل فى ذلك جهوداً مختلطة أشد الاختلاط ، منها الموفق ومنها غير الموفق ، وكان هو مشغولاً بالترجمة من هذه اللغة إلى اللغة العربية ، فكان يقرأ على بعض ما كان يترجم ، وكان يقرأ لى بعض ما كنت أريد أن أعرف من الأدب الفرنسى . وقد أنسى أشياء كثيرة ، ولكنى لن أنسى أنه قرأ لى أساطير لافونتين وقصة « كانديد » . وأحاول أن أذكر كيف قضينا أول الليل بعد خروجنا من الجامعة ذات يوم وأين قضيناه ، ولكنى لا أجد إلى ذلك سبيلاً ، وإنما أذكر أنى صرفت خادمى وبقيت معه على أن يردنى إلى دارى بعد أن تفرغ مما أردنا إليه . ولست أعرف ما هذا الذى أردنا إليه . ولكنى أعرف أن الليل بلغ نصفه وأنا كنا بعيدين عن دارى قريين من داره فى حى من الأحياء الوطنية المتواضعة ، فقال لى فى صوت متكسر : « لننلق سائر الليل معاً فنقرأ ما أطقنا السهر ، ثم تعود

إلى دارك في ضحي الغد.» وقد أجبته إلى ما أراد، فدرنا في حارات ملتوية وانتهينا إلى دار متواضعة حقيرة ، وأوينا من هذه الدار إلى حجرة بائسة قد ألقى عليها حصير بال ، وألقى على الحصير وسادة ولحاف ، في هذه الحجرة قرأ لي جزءاً عظيماً من «كانديد» ولم تم إلا بعد أن جاوز الليل ثلثيه . فلما كان ضحي الغد عدت إلى داري واستبقيته معي إلى آخر النهار . وفي تلك الليلة فهمت مصدر هذا الحياء الذي منعه أن يتحدث إلى من أمر أسرته بشئ .

ومضت أشهر الصيف التي يفترق فيها الطلاب ، وأقبلت أشهر الخريف التي يلتقي فيها الطلاب ، ولقيت صاحبي فيمن لقيت ، ولكنه كان لقاء قصيراً . فقد سافرت إلى فرنسا في خريف ذلك العام ، وودعت صاحبي في القطار. وأشهد ما نسيته أثناء ذلك العام الذي قضيته في فرنسا . وأشهد لقد عدت إلى مصر حين دعتنا الجامعة إلى أن نعود قبل أن تم الدرس وفي نفسي أني سأجد عند صاحبي هذا عزاء عن هذا الدرس المقطوع . ولكني أصل إلى القاهرة ، وأسأل عن صاحبي ، فأعلم أن حمى التيفوئيد قد أسلمته إلى الموت أثناء الصيف .

وما أريد أن أصور للقارىء ما وقع في نفسي من حزن ولوعة ؛ فاني لم أكتب هذا الحديث لشئ من هذا ، وإنما أذكر أني شعيت مع رفيقين لي ذات يوم بعد أن صليت العصر إلى قرافة المجاورين حيث قيل لي إنه قد دفن ، وأنى أنفقت مع رفيقي وقتاً طويلاً وجهداً ثقيلاً نلتمس قبره لنهدي إليه التحية ولنضع عليه شيئاً من زهر ، فلم نهتد إلى هذا القبر . فعدنا يائسين وقد ألقينا التحية إلى قبور القرافة كلها ، وألقينا الزهر على قبر ما في قرافة المجاورين . وكنت كثيراً كاسف البال مظلم النفس معقود اللسان ، وكان أحد رفيقي يهون عليّ وينشدني قول الشاعر العربي القديم :

رفيقي لتذراف الدموع السوافك
لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فدعني فهذا كله قبر مالك

لقد لاسني عند القبور على البكا
فقال أتبكي كل قبر رأيتَه
فقلت له إن الشجي يبعث الشجي

صفحة دبلوماسية خلال قراءات

الكونت سفورزا وزير لخارجية إيطاليا ، حالى وسابق ، وسفير لها فى باريس يوم استولى موسولينى على الحكم ، فلم يتردد لحظة فى الابراق باستقالته ، و أثر الإقامة فى باريس ، بعد زيارة قصيرة لروما ، يتردد على أوساطها الدبلوماسية وينشر مقالات دورية فى جريدة « لاديبيش دى تولوز » صحيفة سارو والراديكالين ، ومبادئهم أقرب ماتكون إلى مبادئه وهو من زعماء الأحرار الإيطاليين . فلما احتل الألمان فرنسا غادرها مع من غادر من زعماء إيطاليا السابقة للفاشية أمثال نيتى إلى الولايات المتحدة . ولما ساهمت إيطاليا فى الحرب إلى جانب ألمانيا أسس جماعة « إيطاليا الحرة » ودفع بها إلى المناذاة بالجمهورية الإيطالية . وعندما عقدت الهدنة بين الحلفاء وإيطاليا عاد إلى بلده حاملاً لواء الجمهورية فى عنف غير مكثف بنزول الملك فيتوريو أمانويل عن العرش بل ملحا فى إلغاء النظام الملكى جميعاً حتى جاء الاستفتاء محققاً لميوله .

وقد وضع الكونت سفورزا عن السياسة الإيطالية كتاباً سماه « إيطاليا كما رأيتموها » ، وعهد إلى دار نشر « برنار جراسيه » فى باريس باخراج طبعته الفرنسية ، التى لم تصل بعد — لا هى ولا طبعته الإيطالية — إلى مكاتب القاهرة . لكن مجلة « العالم الفرنسى » قد نشرت منه فصولاً فى أحد أعدادها الأخيرة ، وقد تضمنت هذه الفصول صفحة دبلوماسية انطوت على كثير من المعلومات المتصلة بمؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ الذى تحدثت فيه مواقف الدول الأوربية من مراكش والذى اعتبره سفورزا — وقد كان سكرتيراً للوفد الإيتالى فيه — مؤذناً بدلائل قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

ويقدم سفورزا لمؤتمر الجزيرة بمفاوضات « التحالف الثلاثى » بين ألمانيا والنمسا وإيطاليا ، التى لم تفز فيها إيطاليا من بسمارك سنة ١٨٨٢ بمساعدة ألمانيا فى سبيل « الاحتفاظ بالتوازن فى البحر المتوسط » ، فاضطرت للبحث عن ضمان

هذا الاحتفاظ فيما بعد لدى إنجلترا ولدى فرنسا باتفاقات خاصة بتونس سنة ١٨٩٨ وبليبيا ومراكش سنة ١٩٠٠ . لم تعترض ألمانيا عليها كما لم تعترض من بعد على الاتفاق الودي بين فرنسا وإنجلترا سنة ١٩٠٤ وإن كانت قد فوجئت به قبل توقيعه بأسبوعين اثنين ؛ إذ قصد سفير ألمانيا بباريس إلى وزير الخارجية الفرنسية دلكسيه واستأذنه في أن « يوجه إليه سؤالاً فيه جرأة على السر هو هل صحيح أن اتفاقاً على وشك التوقيع بينكم وبين إنجلترا ؟ » فأجابه دلكسيه : « إن فرنسا تريد أن تحتفظ في مراكش بالحالة السياسية الحاضرة ولكن مع تحسينها . على أن الحرية التجارية ستظل محترمة فيها احتراماً تاماً مهما يكن شكل المساعدة التي تلجأ فرنسا إلى تقديمها للسلطان » ، ورأى السفير الألماني أن هذه التصريحات « طبيعية جداً ومشروعة تماماً » .

لكن الموقف الألماني قد تغير فجأة بالنسبة لمؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ إذ شاءت أن تضيف على حضورها وحضور إيطاليا إياه صفة التحالف الثلاثي فتوحد خططهما وتنزل فيه إيطاليا منزلة التابع ليس غير . ولذلك فقد تولى برلين الغضب عندما عرفت بارحة المؤتمر أن وزير الخارجية الإيطالية الجديد قد عرض على الماركيز فيسكونتي فينوستا أن يكون رئيس الوفد الإيطالي إلى مؤتمر الجزيرة بدل سفير إيطاليا بمدير سلفستريلي الذي كان مشهوراً بميوله لألمانيا والذي كان قد اختاره لتلك الرئاسة وزير الخارجية السابق . وقبل الماركيز المهمة على شرطين اثنين : الأول ألا يحمل من التعليقات إلا ما كان « مستمداً من محادثات إيطاليا ومنبعثاً من مصالحها » . والثاني ألا يصحبه إلا سكرتير سياسي واحد ، مع ابنه الذي يقوم له بدور السكرتير الخاص .

وكان الشاب سفورزا هو هذا السكرتير السياسي الأوحـد .

وقد مثل فرنسا في المؤتمر بول ريفوال يقول عنه سفورزا إنه محام راح يترافع في قضية . ومثل ألمانيا أحد سفرائها القدماء يعاونه تاتنباخ الذي يصفه سفورزا بأنه « ألماني أكثر منه دبلوماسي » . وكان سر آرثر نيكولسون ممثل بريطانيا العظمى الأول ، ومن الصعب في نظر سفورزا أن يكون المرء أكثر منه تردداً وأكثر قسوة حسب الأحوال . أما مندوب أميريكافكان هنري وايت الذي يراه سفورزا « عشيراً من الطراز الأول وموفقاً بين مختلف الآراء بالتعريف » ، كما يرى سكرتيـره « ممتعضاً لجهل رئيسه بمسائل البحر المتوسط » . وكان رئيس

المؤتمر هو الوزير الأسباني دوق المودوفار الذي يقول عنه سفورزا إنه « أكثر عروبة من الثمانيين محمد الطربس الذي كان يتولاه « القرف » إذ يضطر لأن يمضي أيامه الباقية مندوباً أول لمراكش في ألفة جمع من المشاركين . »
ويقرر سفورزا إن الذين حضروا الأسابيع الأولى لمؤتمر الجزائر قد لاحظوا أن ما يقال عن دقة النظام الألماني أسطورة من الأساطير . فقد كان لألمانيا على ما تقدم مندوبان رئيسيان . وكانت تصل إلى كل منهما تعليمات من شعبتين متنافستين في وزارة الخارجية ببرلين . وكان الفرنسيون أول الأمر يرجعون اختلاف التعبيرات التي يلجأ إليها الممثلان الألمانيان إلى الإغراق منهما في الخداع ، ولكنهم انتهوا إلى تعرف الحقيقة خلال ما وقفوا عليه من إفضاءات المساعد الألماني في بعض الليئات المحايدة ، فكثيراً ما كان يقرر فيها أن ألمانيا لا تريد الحرب حقاً ولكنها إذا اضطرت إليها اضطراراً فانها « ستفعل الفرنسيين كالبقي » .

وجاء يوماً هذا المساعد تاتنباخ إلى المندوب الإيطالي الأول ووجه إليه اللوم إذ يلتزم موقفاً قريباً من الحياد . وأخذ يلقي عليه درساً في السياسة الأوربية ، فاستمع إليه المركيز — وهو تلميذ مازيني وصديق كافور — في صبر طويل ، ثم توجه إليه بالسؤال : « هل لك أن تقول لي أيها الكونت العزيز أنت تشرفني بهذا الحديث بناء على تعليمات من حكومتك ؟ » فاعترف تاتنباخ بالنفي ، فاستوى له المركيز وأنهى حديثه الطويل بقوله : « إني في سن أليك يا عزيزي الكونت ، ولذلك فاني أسمح لنفسي بملاحظة أن الفكرة التي تتصور بها المفاوضات الدبلوماسية هي أن تمسك بعنق خصمك وأن تطرحه أرضاً وأن تدوسه بالأقدام لتقول له بعد ذلك : هيتا بنا إلى الاتفاق ! وأن طريقة كهذه لو عومت في بلادكم لجلبت عليكم الشرور » .

وكان سفورزا حاضراً ذلك الحديث . وقد قال له المركيز بعد انصراف الكونت الألماني : « إنه على حق ! فلنذهب الآن لتسلي . إذ لو أرسلنا بما دار برقية لعرضنا الأمور إلى أن تؤخذ أخذ مأساة . »

وبرى سفورزا أن شخصية هذا المندوب الألماني — وهي شخصية سمجة — كان لها أكبر الأثر في تضامن الفرنسيين والانجليز ؛ إذ انتهى المندوبان البريتاني الأول إلى تأييد المندوب الفرنسي الأول في كل اتجاهاته مع ما كان بينهما من تفاوت في الطبائع ؛ فقد كان سر آرثر نيكولسون قليل الكلام متحفظاً ، وكان أول الأمر

محس امتعاضاً من ذلك المحامي الفرنسي ذى الحديث المتدفق المزدهر .
ويقرر سفورزا أن الموقف الألماني قبل أن تعمل الظروف على عزله كان يلقي
في روع المجتمعين كلهم أن الحرب قريبة ، وأن ألمانيا هي التي ستنتهي
إلى إعلانها . ولم تعمل الظروف على محو هذا الخوف إلا بفضل تفصيل من
التفصيلات الإجرائية . فقد عرضت مسألة تأجيل المؤتمر لأن التقارير الخاصة
بالبنك المراكشي لم تكن معدة ، والألمان لم يكونوا يريدوا أن تتناول
الناقشة مسألة البوليس قبل أن ينتهي بحث موضوع البنك . فاقترح المندوب
البريتاني — وقد نالت منه الالتفات الألمانية الطويلة — بما أنه ليس من اليسير
درس مشروع البنك بسرعة ، أن تخصص جلسة اليوم التالي لدراسة نظام
البوليس . فوافق المندوب الروسي في الحال ، وأقر المندوب الفرنسي الاقتراح ،
قم بذلك — على حد قول سفورزا — تجنيد الاتفاق الثلاثي بعد أن ظل الخوف
من ألمانيا حائلاً طوال المؤتمر دون ذلك . فغضب المندوب الألماني ووقف ملحاً
في الانتهاء من درس مسألة البنك قبل العرض لمسألة البوليس . فأعلن الرئيس
الأسباني أنه سيلجأ لأخذ الأصوات ما دام أمامه اقتراحان متناقضان . ولم يكن
له بصفته رئيساً إلا أن يفعل ما فعل . فأخذت الأصوات بترتيب أسماء الدول
المؤتمرة باللغة الفرنسية . فأصر المندوب الألماني على رأيه ، وانضم إليه بعد تردد
مندوب النمسا ، وأعلن مندوب بلجيكا أنه منضم إلى رأى الكثرة إذا يتبين .
وانضم المندوب الأمريكي إلى الرأى الانجليزى الفرنسى الروسى . وذكر المندوب
الانجليزى أنه صاحب الاقتراح فأيده .

وجاء إذن دور المندوب الايتالى ، فعاود المندوب الألماني الأمل . ذلك بأنه
إذا أيد الاقتراح الألماني فان مندوبي هولندا وسويسرا سيتبعانه ، وإذن فان
سته أصوات سينالها الاقتراح البريتاني وستة أصوات ستكون ضده ، فلا يعمل بصوت
بلجيكا إذ لا تكون هناك كثرة ينتمى إليها . لكن مندوب إيتاليا « اقترح
تخصيص جلسة لتبادل الرأى حول مسألة البوليس » فكان بهذا نجاح الاقتراح
« الاتفاقى » إذ تبع سائر المندوبين هذا الاتجاه وظهرت ألمانيا في عزلة لم يؤيدها
في الرأى إلا النمسا ومراكش .

وفقد مؤتمر الجزيرة منذ تلك اللحظة أهميته السياسية ؛ إذ انكشف ستر ألمانيا
التي كان يخشاها المؤتمرون جميعاً ، وتكتلت الأصوات ضدها إلى أن انتهى المؤتمر .

لكن ألمانيا « المنعزلة » قد قررت من تلك اللحظة الاستعداد للحرب حتى تنال بها ما لم تستطع أن تناله عن طريق الدبلوماسية ، فكان تديرها للحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

وبعد فتلك صفحة دبلوماسية نرجو أن يفيد الدبلوماسيون المصريون والعرب مما عمرت به من ملاحظات إذا ما كتب لهم أن يعالجوا أمور بلادهم في الحظائر الدولية .

محمود عزمى

كيف تلهو نيويورك . . .

عود إلى لغة الأرقام .

لا عجب في أن أتخذ هذه اللغة بين الفينة والفينة ؛ فاني ما برحت تزيل أمريكا ، أتشم هواءها ، وأحيا في مغانها . وليس لأمریکا معنى إلا أنها أرقام وأرقام . . .

أرقام متكاثرة متعالية . . .

نواطح سحب أخرى ، قوامها الأعداد لا الأحجار !

ليس ذلك بمقصود على ميادين العمل المختلفة ، ولكنه يتعداه إلى الملاهى

وما إليها من ضروب المتع .

تضم مدينة نيويورك سبعة مائة مبنى بين مسرح للتمثيل ، ودار للسينما ،

إلى جانبها ثلاثمائة وألف من أندية الليل ، تلك التى يسمونها بالفرنسية

« الكباريات » ، ولعلنا لا نخطئ إذا سميناهما : المساهر .

هذه المواطن ، على اختلاف أنواعها ، بمثابة متنفس لسكان مدينة التراحم

والضجيج . . . هؤلاء الآدميين الذين لو انتقلوا من عقال مدينتهم لكانوا

أحرى أن يعمرؤا أقطاراً شواسع .

تعمل تلك المسارح والمساهر وما إليها فى هذه المدينة عمل النوافذ للحجر

والرئات للأجساد .

إنها مشوى راحة ، ومثابة استجمام ، لذلك الآدمى الذى ينهمك فى عمله ،

رغبة فى الدولار ، كما كان ينهمك عمال السخرة فى الزمن القديم ، رهبة

من العقاب .

وبديه أن تكون تلك المتنفسات موفورة الحظ من أسباب الدعة والتسلية

وإمتاع النفوس ، وإلا انعكست الآية ، فازداد قصادها رهقاً على رهق ،

وشقيت أعصابهم بعذاب جديد .

وطوعاً لذلك الغرض المنشود حرصت تلك الدور على أن تقدم لروادها من إنتاج الفن ثمرات دانية المنال ، أخاذة المظهر ، وشراباً قريب المنهل ، سائغ المذاق ، وأن يكون فيها من عناصر التفكهة والمرح ما يملأ النفوس من اغتباط ، وينسيها ما يثقلها من أعباء المعاش .

ومن ثم كان الروح الغالب فيما يعرض بتلك الدور هو روح التسلية المحضة . على أن التسلية ألوان ، وإن منها لما يصدف عنه الرجل المذهب الذي علت ثقافته وصفا ذوقه ، فلم تعد نفسه تبتهج بالرخيص من التسليلات . ولذلك تعددت ألوان المسارح والمراقص والمساهر ، لكي توافي مطالب الأذواق والأهواء .

وعلى الرغم من أن روح التسلية تسرى في هذا النتاج الفني وتنداني به أحياناً إلى درجات التفاهة أو الانحراف ، فإن ذلك النتاج بمجموعه في المستوى الذي يلائم بلداً متحضراً ، أهلوه على حظ ملحوظ من الثقافة وسلامة الذوق . خرجت يوماً لأشهد حفلة موسيقية في « ستادיום كونسير » أستمع فيها إلى عازف على البيان أحسبه بولوني الجنس ، اسمه روبنشتاين . . . وبينما كنا نجتاز الطريق إلى المثابة المنشودة ، اعترضتنا زحمة هائلة اضطرب لها نظام المرور . وتناهى إلى أسماعنا أن وقائع دموية تجري ، وأن رجال الشرطة يعالجونها ضبطاً للأمن . . .

وبعد حين استباننا لنا جلية الأمر ، فاذا بنا نعلم أن الزحمة لم تكن إلا إقبالا من الجمهور على شراء تذاكر لمشاهدة الملاكم لويس ينازل خصما كبيرا الخطر .

وكان الطريق على رحابته وامتداده يمجج بتلك الجموع التي تتناقل الحديث والنقاش ، بين مشايخ للملاكم العالمي ، وبين مناصر لخصمه الذي تصدى له . فأذكرني ما أرى مجالس « شاعر الربابة » في العهود القريبة ، حين يتحلق الناس حوله ، يستمعون إلى ما يقصه من أساطير الزناتي خليفة ودياب بن غانم وما كان بينهما من حرب ونضال ، فاذا المستمعون فريقان : مشايخ لهذا ، ومناصر لذلك . وربما أدى الخلاف إلى شجار بين الفريقين حامى الوطيس . ما أشبه الآدمي بالآدمي ، مهما تختلف بهما الثقافة والتحضر !

ليس من فارق بين المعركة القائمة حول مجال الملاكمة ، وتلك المعركة التي كانت تقوم حول « شاعر الربابة » . . . إلا أن الجمهور الأمريكي تدور

معركته حول أبطال في عالم الحقائق ، والجمهور الشرقى تدور معركته حول أبطال في ذمة الأساطير وعالم الخيال .

ولقد انتقلت عدوى التحدث والمجادلة في شأن هذه الملائكة إلى ساقه السيارات ، فاندمج سائق سيارتنا في غمار المتحدثين والمجادلين ، حتى خشبنا أن تحدث مشجرة نكون من وقودها دون أن نحس ذنباً !

لقد كانت السيارات وهي تجتاز الطريق ، كأنها مراكز إذاعة متنقلة ، مراكز استقبال وإرسال في شأن هذه الملائكة الخطيرة .

وبعد لأي بلغنا « ستاديوم كونسير » في سلام ، ولم نكد نطأ أرضه حتى ألفينا أنفسنا بين حشود من الناس يفتق بهم المكان .

إن « ستاديوم كونسير » رجة فياحة مكشوفة للهواء الطلق ، مليء نصفها بكراسي مصفوفة ، وأقيم في نصفها الآخر مدرج عظيم . . . إنها ساحة للألعاب الرياضية على طراز روماني ، يتخذونها أحياناً مثانة للفن ومسرحاً للموسيقى .

كانت هذه الآلاف المؤلفة بموج بها المكان ويرتج ، فما إن جعلت الموسيقى تطلق أنغامها ، حتى عم السكون ، فاستحال المكان كعبة عبادة يخيم عليها الخشوع .

ولما تجلى العازف البولوني يصافح البيان بأنامله ، راحت هذه الجموع الحاشدة تهم معه في آفاق روحية رائعة .

وانتهى العزف ، فاذا الجمهور المتعبد الخاشع ينبعث متهللاً مرحاً ، يعلن حفاوته في حمية بين التصايح والتصفيق .

يمينا إن الفنان في روحه الانسانية السامية ليلقى من حفاوة الأمريكيين وتكريمهم مالا يقل شأناً عما يلقاه بطل الحرب وزعيم السياسة !

ولقد أثار انتباهي إقبال الجمهور الأمريكي بوجه عام على نوعين مختلفين متضاربين ، يستنفد فيهما وقت فراغه : أحدهما مجالات الملائكة والصراع ، والآخر أندية الموسيقى والغناء .

ظاهرتان قد تبدوان على تناقض : نزعة إلى الوحشية تسايرها عاطفة رقة وحنان !

ليس ثمة من تناقض .

إن الطبيعة قوامها هذان العنصران من خير وشر، من شدة ولين . وما زالت الانسانية بخير ، إذا استوفت نصيبها من هذين العنصرين على درجة سواء . فان لم تتوافر السلامة والاتزان بينهما ، فطغى أحدهما على الآخر ، صار الأمر إلى فساد .

والدول في ذلك كالأفراد ، بتكامل هذين العنصرين فيها ، تتصف بالاعتدال . وليست فورات الشعوب في الغارات والحروب ، إلا اختلالاً في أنسجتها الحيوية ، أفقدها ما بين العنصرين من توازن ووفق
إنها طغيان لعنصر على الآخر

وما أقرببه شهباً بثوران بعض الأنسجة في الأبدان ، ذلك الثوران الذي يحدث أوراًماً سرطانية تورد صاحبها موارد الحتوف !

والمسرح في نيويورك على تباين أنواعه لا يختلف كبير اختلاف عن أمثاله في أمهات المدائن المتحضرة ؛ فما يعرض فيها على مسرح « متروبولتان أوبرا » تصادف مثله في أوبرا باريس و « كوفنت جاردن » في لندن . وما يعرض في مسهر « كوبا كابانا » لا يزيد على ما يعرض في مسهر « الليدو » في باريس . وقد تجدد الرواية الفنية تمثل أعواماً تباعاً على أحد مسارح نيويورك فتذكر أن ذلك يجري أيضاً على هذا النحو في مسارح لندن

وإذا ذكرت المسرح الثلجي المسمى « أيس شو » في نيويورك طالعك على الفور قصر الجليد في باريس المسمى « باليه دو جلاس » .

فان أبيت إلا أن تلتبس بينها بعض الفروق ، لم تجد إلا تلك الفروق المظهرية بين بلد وبلد ، من حيث الطابع المحلي ، والذوق الشخصي .

ولكن ثمة في الفن الأمريكي ظاهرة خليقة بالذكر ، وإني لأحسب أن أمريكا قد تفردت بها ، أو لعلها سبقت غيرها إلى تجويدها .

هذه الظاهرة وليدة فكرة يسمونها « تيسير الفن للجميع » وغرضها تحييب الجمهور الكبير في الفن الرفيع ، بعرض نماذج شائعة منه يستسيغها مستوى الذوق العام .

وقد تكفل مسرح « رديوستي هول » بتحقيق هذه الفكرة . . . وهو في الحق مفخرة البناء المسرحي ، وآية إعجاز بين دور التمثيل .

إنه ليرحب بستمائة ألف ومائتين من النظارة ، على مقاعد فسيحة وثيرة ،

لا تقل فخامة ولا روعة عن المقاعد في أمهات دور الأوبرا في العالم المتحضر .
فأما الأجر الذى يؤديه المتفرج ، فهو زهيد تافه ، بالنسبة للأجور العالية
في الدور الرفيعة للتمثيل .

والبرنامج في هذا المسرح يبدأ منذ الصباح ، ولا ينتهى إلا بعد منتصف
الليل ، فهو في تكرار خلال هذه الساعات الطوال . وإنه لبرنامج طريف
نستطيع أن نعهده وافيًا بالغرض من تسلية الذهن وتغذيته . . . إنه يماثل
وجبة من الطعام خفيفة الهضم ، مستوعبة عناصر الغذاء الصالح . ولو ألقيت نظرة
على أى برنامج من برامج هذا المسرح ، لوضحت لك تلك الفكرة في غير عناء .
البرنامج عدة فصول :

عرض رواية سينائية من المشهورات . حفلة موسيقية قوامها ستون عازفًا
يؤدون قطعة عالمية متعارفة . فغناء تقوم به جوقة يرأسها مطربات ومطربون ممن
لهم مكانة ملحوظة وصيت بعيد . فعرض موسيقى غنائى راقص قوامه أسراب من
الفتيات يؤدين رقصات شعبية ، وأخرى فنية في مشاهد جميلة رائعة تتميز
بالطرافة في الإضاءة والإخراج .

أو لست ترى من تضاعيف هذا البرنامج أن الهدف الأول هو تقديم نماذج
طيبة لا تنزل إلى مستوى التهريج البرخيص ، ولا تسمو إلى الفن الذى قد
يستعصى على سواد الناس ؟

قيل إن الأوبرا محاولة لجمع فروع الفن في إطار واحد : التمثيل والغناء
والموسيقى والتصوير والبيان ثره وشعره .

وإني لأرى أن « رديوسى هول » هو محاولة أخرى ، وإن تكن في حادثة
عهدنا ، لجمع مناحى الفن الحديث في دائرة واحدة . وقد تنمو هذه الفكرة
على الأيام وتتطور حتى تلم شتات الفن على نحو جميل .

وعلى أية حال ، فإن هذا المسرح يطمح إلى أن يجعل الفن ديمقراطيا ،
وأن يخلع عنه رداء الأرستقراطية التقليدية التى طال عليها الزمن .

ولكن هل يمكن حقا أن تطوى الديمقراطية تحت جناحها روح الفن الرفيع ؟
إن هذا الفن الرفيع في معناه الأصيل أرستقراطى في كل ناحية من نواحيه ،
فهو سمو في التفكير ، وعلو في الذوق ؛ إنه أرستقراطية الذهن الذى يتفتق عن
عبقرية ونبوغ .

ولا نزاع على أن العباقرة في كل أمة وفي كل عصر نفر قليلون ، وأن ولائد قرائحهم ستظل بمعزل عن المستوى الشعبي الذي ينتظم أفهام السواد .
 وإذن فبون ساشع بين أرستقراطية الحياة التي هي في متناول التغيير والتبديل لقيامها على أسس من الماديات ، وبين أرستقراطية الفن التي هي عصية ممتنعة ، لقيامها على أسس من مواهب خفية ليس إلى اجتلابها من سبيل .
 وثمة ظاهرة أخرى في الفن هنالك ، لا يحتاج التدليل عليها إلى بيان ، تلك هي عظمة الفلم الأمريكي وتفردته بالغلبة ، وسموه إلى القمة .
 وجلي أن هذا الفلم يكاد يستوعب مظاهر النشاط الفني جميعاً ، فيه تتلاقى الجهود الفنية المختلفة الألوان ، وإليه تجند المواهب والعبقريات في شتى مناحيها .
 ولا مرية أن ملابسات دولية في الحرب العالمية الأولى ، أتاحت لأمريكا فرصة التجويد في هذا الفن ، وتزويد الأسواق به ، على حين أن الأمم الأخرى كانت في شغل بأثقال الكفاح ، فتخلفت في هذا المضمار . . .
 على أنه لو لم يكن الزاد الأمريكي الفني ثمين الجواهر ، لما أعانته تلك الملابسات الدولية على التغلب والظفر .

ولو ذهبنا نتقصى العوامل التي أبرزت الفلم الأمريكي ، وجمعت حوله الأهواء ، وجعلته فنا عالميا تنفسح له جوانب الأسواق ، لألفينا العوامل يتقدمها عامل الإخراج وما يكتنفه من معدات .

إن المخرج في الفلم الأمريكي هو روحه وقوامه ، وإن هذا المخرج قد تفتن إلى لب الحياة وزاويل من تجارب صناعته وتفهم جمهوره ما يبصره بوسائل النجاح . فهو إذا عرض عليك إنتاجه ، حاول أن يضع تجاه نظرك قطعة حية من دنياك التي تعيش فيها ، لا تزيين ولا تزييف ، فسرعان ما تستجيب نفسك لما تشهد ، وسرعان ما تتم بينك وبينه الألفة ، وتحس بأنك تغايش من ترى من الناس ، وتزاول ما يدور من المشاهد والأحداث .

لقد توارى في الفلم الأمريكي ما كنا نشهده قبلا من مبالغة في الأداء ، وتلفيق في الصور ، وتزوير على ما تراه العيون ، وتستشعره النفوس في دنيا الناس . . .

لقد أصبح فن الفلم الأمريكي هو فن الحياة !

بين العلم والسياسة

[عاد كاتب المقال من المؤتمر الالفريقى لدراسات ما قبل التاريخ الذى انعقد بمدينة نيروبي فى شهر يناير ١٩٤٧ ، بعد أن مثل فيه جامعة فاروق الأول . وهو يسجل هنا بعض انطباعات وملاحظات عابرة عن المؤتمر .]

يقال فى محافل العلماء وفى دور البحث والدراسة إن العلم ينبغى أن يطلب من أجل العلم ، وإن طلاب العلم والباحثين عن المعرفة ينبغى أن يخلصوا فيما يطلبون وفيما يبحثون ، فلا تكون لهم غاية تقسد ما يسعون إليه ، ولا غرض يهدف بهم ويوجههم فيما ينشدون . ويقال أيضاً إن العلم ينبغى أن يرتفع بأهله فوق الغايات ، وأن يتنزه بهم عن كل الأغراض ، فلا يبتغون من وراءه غير وجه الحق ووجه الله . وهو إن انتهى بالناس فى بعض الأحيان والحالات إلى غاية فانما ينتهى إلى ما يهذب النفس ويصقل العقل ويرقى بالفرد والجماعة إلى مراتب الإنسانية التى لا تعرف من الغايات والأسباب إلا ما يخرج بالناس من الضلالة إلى الهدى ومن الجهالة إلى النور . بل يقال أكثر من ذلك إن العلم الصادق ينبغى أن يكون خيراً للإنسانية كلها ، لا يسخر من أجل جماعة من الناس دون أخرى ، ولا ينتفع به فريق من الخلق دون فريق ؛ فالعلم شعاع من نور الله وقبس من ناره ؛ وما دام الله للخليقة جميعاً فالعلم ينبغى أن يكون وأن يبقى للناس أجمعين .

هكذا علّمنا أسيادنا فى مصر وفى غير مصر ؛ وهكذا كتب العلماء وتحدث المتحدثون عن العلم فى مختلف العصور ؛ فقالوا إن العلم لا وطن له ، وإن العالم الحق من ضاق به موطنه الصغير فاتخذ من العالم كله وطناً له ، وإن اتساع العقل ورحابة الفكر وبعد المعرفة وعمق الثقافة لا بد أن تنتهى كلها بطالب العلم إلى أن تكبر نفسه ويتسع قلبه ، فيجمع فى ذاته بين خير ما يستطيع أن يجمع

إنسان من ثقافة العقل وأدب النفس وحياة الضمير . . . ولعله أن يبلغ بذلك أرفع ما تستطيع أن ترقى إليه الإنسانية ، وأقرب ما يستطيع أن يكون عليه إنسان من الله .

ومع ذلك فالذى يدرس تاريخ العلم والعلماء منذ بدأ الانسان يبنى تراثه فى العلم والمعرفة ، لا يستطيع أن يقول فى إنصاف إن العلم كان فى وقت من الأوقات خالصاً لوجه الله كما أراد له العلماء ، وهو لا يملك إلا أن ينتهى إلى أن هذا الكلام الكثير الذى رددته حملة العلم عن رسالتهم كان أدنى إلى التمنى والرجاء منه إلى الحقيقة والواقع . بل إن الذى يدرس تاريخ العلم يكاد ينتهى إلى أن ما تمناه العلماء كان فيما يبدو أبعد من أن تستطيعه نفس إنسان . وما دام حملة العلم من بنى الانسان ولا من الملائكة ، فلا سبيل إلى أن نجرد العلم من « إنسانيته » ، بكل ما تحمل هذه الكلمة الأخيرة من معنى . وإذا كان بين البشر من حقق ما هدى إليه العلماء ، أو قارب أن يفعل ذلك ، فأولئك صفوة مختارة لا تمثل أبناء العلم فى جملتهم ، أو هم فلتة من فلتات الطبيعة لا يصح أن يعتد بها فى الحكم على طبيعة العلم والعلماء .

وفوق ذلك فنحن إن رجعنا إلى تاريخ الثقافة والمعرفة وجدنا أن لإنسان قد نزع أول ما نزع إلى إشباع حاجاته الروحية ، وأنه قدم تلك الحاجات على حاجاته العقلية . ولذلك فإن جانب الدين سبق جانب العلم فى تراث الإنسانية الثقافى . بل إن الروح سخرت جوانب الثقافة الأخرى فى الفن واللغة والعلم ، فسعت كلها فى أغلب أعصر التاريخ لتشبع نزوع النفس إلى الروحيات . ولئن كان العلم قد سعى فى العصر الحديث لأن يستقل بنفسه عن ثقافة الروح فانه لم يجاوز حتى الآن محاولاته الأولى فى أن يقف بذاته ؛ بل هو قد تجاذبته نزعات أخرى فى الحياة الجديدة ، منها النزعة القومية التى تأبى إلا أن تسخر كل شئ من أجل حياة الأمة بين غيرها من الأمم . ومنها النزعة الدولية التى همّت بنفر قليل من العلماء ورجال الفكر إلى أن يقحموا العلم فيما لا راحة للعلم والعلماء أن يقحموا أنفسهم فيه من نظم الجماعات ونظريات الحكم وتنظيم العلاقات الدولية فى عالم يضطرب ويتطور من يوم ليوم ، أو فى القليل من جيل لجيل . بل منها النزعة العقلية ذاتها ، وقد قسمت علماء الجيل فرقاً وأشياء فيما ينبغى أن يهدف إليه العلم والبحث العلمى من غاية أو غايات تتصل بالمادة وتلزمها حيناً ، وتجاوزها وتمتد إلى

ما وراءها حيناً آخر . وذلك كله إن دل على شئ فعلى أن العلم يصعب جداً ، أو يستحيل فيما يظهر ، أن يأتي مجرداً أو خالصاً لذاته . وما ذلك إلا لسبب بسيط جداً وهو أن العقل البشرى لم يخلق منزهاً عن الغاية أو مجرداً من الغرض ، أو حتى خالصاً لوجه الحق أو وجه الله .

وقد ينفعنا أن نذكر هذا كله وأن نتمثله واضحاً جلياً عندما نعرض لحياتنا الحاضرة وبعض ما يتصل بها أو يترتب عليها من مشكلات . فالعلم في عصرنا الحديث قد تدخل في حياة الناس والجماعات إلى حد بعيد ؛ والحياة القومية أصبحت لا تقوم على أساس مكين إلا إذا وجهها العلم ورسمت لها الخطط العلمية . والعلم ذاته قد غدا في خدمة المجتمع في كل جماعة تدعى لنفسها الرقي ، بل في الحياة الدولية بعد أن اتسمت بطابع التوجيه العلمى في غير قليل من الأشياء . لذلك كله لم يعد العلم خالصاً ولا مستقلاً عن الحياة القومية والدولية . وكما ازدادت الحياة القومية تعقداً والحياة الدولية تشابكاً برزت صلة العلم بأسباب الحياة العملية ومصالحها النفعية في صور وأشكال جديدة . ولعل أغرب ما تتجلى فيه تلك الصلة بعض المحافل التى يجتمع فيها نفر من العلماء ، يتذاكرون تقدم العلم والمعرفة ، ويعرضون خطواتها بين حين وحين . ففي هذه المؤتمرات يجتمع العلماء من أركان الأرض ، يمثل كل فريق منهم أمة من الأمم ، ويباهى بما لها من نصيب موفور — أو يجب أن يكون موفوراً ! — فى تقدم العلوم ، ويحاول كل منهم أن يكسب لأمته ما استطاع من علم جديد أو منفعة مترتبة على علم جديد . وبعض هذه المؤتمرات دولى عالمى يشمل أم الأرض جميعاً ، وبعضها الآخر يقتصر على قارة بالذات ، ويدرس شؤون العلم المتصلة بها . ومن هذا النوع الأخير مؤتمر عقد أخيراً فى نيروبي عاصمة كينيا بشرق إفريقيا ، ودعيت للاشتراك فيه دول القارة الإفريقية وبلدانها مستقلة وغير مستقلة ، وكذلك عدد من الدول المهتمة بشؤون القارة أو بالدراسات المتصلة بها . وكان المؤتمر خاصاً بعصر ما قبل التاريخ ، ونشأة الحضارات وتطورها فى القارة المظلمة قبل أن يبرز فجر التاريخ ؛ أى إنه كان فى ظاهر الأمر بعيداً كل البعد عن أوجه النفعية التى قد تتصل بحياتنا الحاضرة . ومع ذلك فإن هذا المؤتمر ، على بعد ما بيننا وبين العهد الذى انعقد من أجل دراساته ، قد مى السياسة الحاضرة سياساً تجلى فيه ما يمكن أن يكون بين السياسة والعلم من أسباب لا يضعفها بعد الشقة فى الزمان

ولا يقلل من قيمتها ارتباط العلم أحياناً بالماضى السحيق من جهة ، وارتباط السياسة غالباً بالحاضر أو المستقبل من جهة أخرى . . . إذ الواقع أن ليس بين العلم أيّاً كان ميدانه وزمانه وبين السياسة في هذا العصر الذى نعيش فيه حجاب لا تخترقه الغايات !

والذى يدرس شؤون القارة المظلمة في الجيلين أو ثلاثة الأجيال الماضية يعرف أن ظلمة هذه القارة لم تمنع أعين العالم الأوربي من أن تتطلع إليها ، وأن تمنح في التطلع ، علها أن تصل إلى قلب القارة المظلمة من أى طريق . وقد سبقت بريطانيا غيرها من الأمم الأوربية فتطلعت إلى إفريقية السوداء من الشمال ومن الغرب ومن الجنوب ومن الشرق ، وراح الجوّالون والمستكشفون البريطانيون من أمثال لفنجستون وستانلى وسبك وغيرهم يرتادون القارة ويتوغلون من الساحل إلى الداخل ، يضيفون إلى العلم والمعرفة ما لم يسمع به الرجل الأبيض من قبل عن أرض يقطنها المتوحشون والبرابرة من الزنج وأنصاف الحاميين . ثم راحت الجمعيات العلمية تعنى بنتائج هذه الرحلات ، وتذيع عنها بين الناس ما حفز همة الراغبين في الإفادة مما أتى به الرحالون من علم ومعرفة ؛ فتكونت شركات التجارة ، وتقدم أهل المشروعات ومن ورائهم الحكومة آخر الأمر — أو قل أوله — بل تقدم نفر متزايد من أهل الدين ورجاله وحملوا مشعل المدنية المسيحية إلى قلب القارة الذى لم يعرف عن الأديان السماوية إلا ما انتهى إليه من قبل عن الإسلام أو عن المسيحية الشرقية خلال بعض أطراف إفريقية البيضاء أو السمراء . وهكذا تداخلت المصالح المشتركة بين أهل الرحلة وأهل التجارة وأهل المشروعات وأهل الدين وأهل السياسة ؛ وانتظمت جهود هؤلاء وهؤلاء فاتخذت صبغة العمل الحكومى الذى استحال آخر الأمر — أو قل أوله أيضاً — إلى عمل عسكرى صحبه أو ترتب عليه قيام الاستعمار الحكومى الحديث في صوره وأشكاله المعروفة .

وقد يعيننا في صدد مؤتمر الدراسات الإفريقية لعصر ما قبل التاريخ أن نستشف ما قد يكون من وراء تنظيمه من سبب أو أسباب . فبريطانيا ، أو إحدى مستعمراتها الشرقية ، هي التى نظمته ودعت إليه . وليس من شك في أن علماءها كانوا مخلصين وجادين في الأمر حين دعوا أو قبلوا ما هيء لهم من دعوة المؤتمر للانعقاد والدراسة في إحدى مستعمرات الإمبراطورية . ولكن

المؤتمر قد سبقه تفكير علمي سياسي — أو سياسي — علمي إن شئت — فقد كان من ورائه فيلسوف الإمبراطورية وقائدها الإفريقي المرشال سمطس ، وهو الذي يعرف ما للدراسات والبحوث العالية من قدر وخطر ، وما يكون لها ويترتب عليها من نفع قريب أو بعيد ، وهو في الوقت نفسه راسم كثير من خطط الإمبراطورية السياسية ، وخير من يعرف أن روابط العلم قد لا تقل عن روابط السياسة ، وأن الخطة السياسية ينبغي أن تسبقها دراسة علمية ؛ فقد يركى العلم والمعرفة السياسة بأكثر مما تركيها القوة والسلطان ، وقد يكون العلم طريقاً إلى الربط بين بقاع من الأرض وأشتات من الخلق لا تقوى السياسة بمفردها على أن تربط بينها برباط مكين أو وثاق أمين ، بل قد يكشف العلم عن روابط خفية لا تراها عين السياسة بغير منظار العلم الذي كثيراً ما يتحرق الحجب في الزمان وفي المكان .

وسينفعنا هنا ولا شك أن نذكر أن الإمبراطورية البريطانية كانت تسعى في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن إلى أن تربط بين أقاصى القارة في الجنوب والشمال . فقد تقدم مستعمروها ، وعلى رأسهم سيسيل رودس ، من جنوب القارة في العشرة الثامنة وما بعدها من القرن التاسع عشر نحو ما عرف فيما بعد باسم روديسيا وإفريقية الشرقية ؛ وتلا ذلك تقدمهم في العشرة التاسعة وما بعدها إلى أرض مصر ووادي النيل . ولاح في الأفق مشروع ربط مدينة الكاب بمدينة القاهرة بطريق حديدي أو طريق آخر يربط أقصى الجنوب بأقصى الشمال ويفتح السبيل أمام أبناء الإمبراطورية فينفذون من أحد طرفي القارة إلى طرفها الآخر ، بعد أن تكالبت أم أوربية أخرى على غير هذين الطرفين من القارة فسدت المنافذ أمام بريطانيا وقطعت عليها السبيل في أن تنفذ من الشرق إلى الغرب ، وفي أن تتصل أملاكها بين ساحلي القارة على المحيطين الهندي والأطلسي . واستمرت الحال على ذلك حتى تحينت بريطانيا الفرصة ، وتم لها ما أرادت في خلال الحرب العالمية الأولى ، فاتصلت أملاكها والأراضي الواقعة تحت حمايتها بين أقصى الجنوب وأقصى الشمال . وكانت بريطانيا قد عنيت عناية خاصة منذ القرن الماضي بأن تكون لها السيادة على حوض النيل كله ، أو بأن يمتد سلطانها على الأقل بين مصب النيل في البحر المتوسط ومنابعه في الهضبة الاستوائية التي تقع على طريق الكاب والقاهرة . كذلك عنيت بريطانيا عناية خاصة بأن

تضييق الخناق على ألمانيا في توسعها الإفريقي ، بأن تطردها وتحل محلها في مستعمرة تنجانيقا عندما شبت الحرب العالمية الأولى . فلما تم لها ذلك زالت آخر عقبة في سبيل اتصال أملاك الامبراطورية ومناطق نفوذها في الشرق الإفريقي . وقد يسأل القارئ ولماذا اختارت بريطانيا شرق القارة دون غربها سبيلا للاتصال بين الجنوب والشمال ؟ والجواب على ذلك عند أهل الجغرافيا وأهل السياسة ! ففي شرق القارة هناك وادي النيل وخيراته التي تحدث عنها التاريخ ؛ وهناك الهضبة الاستوائية المرتفعة حيث يطيب المناخ وتصلح المرتفعات لهجرة العناصر البيضاء واستقرارها بصفة دائمة ؛ وهناك البحر الأحمر وهو الطريق إلى البحار الدفيئة وإلى الهند ؛ ثم هناك المحيط الهندي ذاته وهو طريق الامبراطورية إلى الشرق الهندي وما وراءه حتى استراليا . وكل هذه مغريات طبيعية وغير طبيعية ، يضاف إليها أن غرب القارة قد شاركت فيه دول أخرى كثيرة ، منها أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا والبرتغال بل أمريكا ذاتها ، فكثرت هناك أيدي الدول الأخرى ، ووجدت بريطانيا مجال التوسع في الشرق أدنى منالا وأبعد عن المشاحنات من ميدان التكالب الدولي العنيف على شواطئ القارة الغربية . من أجل هذا كانت عناية الامبراطورية بشرق القارة أشد من عنايتها بغربها . ومن أجل هذا حاول البريطانيون أن يعرفوا عن الشرق الإفريقي مايعينهم على رسم خططهم في استعماره واستغلاله على أساس علمي . ومن أجل هذا أيضاً عني قادتهم في الفكر الاستعماري بهذا الجانب من القارة أكبر العناية . . . وقد لا نبعد كثيراً عن الحق إن استنتجنا أن هذا كان من عوامل اهتمام بريطانيا بهذا المؤتمر بالذات ؛ واختيار نيروبي وأرض كينيا في قلب إفريقية الشرقية لتكون مقراً لأول مؤتمر إفريقي يعقد لتنظيم الدراسات الجغرافية والأثرية القديمة وغيرها من بحوث عصر ما قبل التاريخ ، ثم دعوة المؤتمر ليعقد دورته القادمة في جوهانسبرج باتحاد جنوب إفريقية بعد أربع سنوات . . . بل ربما كان هذا هو الدافع إلى إصرار فريق من علماء الامبراطورية في أن يكون تنظيم المؤتمر على نمط يغاير من بعض الوجوه ماجرى عليه العمل في المؤتمرات الدولية العالمية ، ومحاولة فريق منهم أن يضمن للمؤتمر أن يكون رئيسه وسكرتيه العام من البريطانيين ، لولا أن انتبه فريق آخر من غير البريطانيين ، فاختر للمؤتمر رئيس فرنسي واحتفظ للدولة الداعية بالوظيفة الأخرى . . . إلى غير ذلك من تيارات ظاهرة وأخرى خفية ،

أزيد بها فيما يبدو أن يتجه المؤتمر وجهة يصح بحق أن يقال فيها إنها تقع على هامش السياسة !

وهكذا اتضح منذ البداية أن العلم والسياسة كثيراً ما تتجاوب بينهما الأصداء ولو من بعيد ؛ فتنصر السياسة للعلم وتردد أحاديث ما ينبغي من رعاية للعلماء ، ويتغنى العلم بأنه في خدمة المجتمع ، أو أنه في القليل يخدم مصالح الإنسانية عن طريق خدمة المصالح القومية . . . ولكن الشئ الغريب أن السياسة في هذا المؤتمر سعت إلى أن يكون لها شئ من التوجيه عن طريق الرعاية ؛ كما أن العلم لم يقف عند الاستجابة لدواعي الخدمة القومية ، وإنما كاد ينحرف ويميل ، لولا بقية من روح العلم ، وتخوفاً من جانب العلماء أن يحرفهم التيار أو أن يميلوا كل الميل . . . بل لولا تلك الرقابة المتبادلة التي اعتادت فرق العلماء وأحزابهم أن يفرضها بعضهم على بعض ، وأن يتلقوها جميعاً بكثير من الخوف والحذر ، أو قل من المخافة والاشفاق !

ومن الغريب أيضاً أن فريقاً من العلماء البريطانيين في المؤتمر تعصبوا تعصباً ملحوظاً أو غير ملحوظ لإبراز قيمة شرق إفريقية في تطور الحضارات البشرية عامة والحضارات الإفريقية خاصة ؛ فقالوا إن بلاد كينيا وتنجانيقا وبقية الهضبة الاستوائية الشرقية ربما كانت موطن الحضارات الأولى ، وإنها في ذلك يجب أن تعتبر أعرق من غيرها من مناطق إفريقية بما في ذلك مصر أم المدينيات ! وهم قد جاولوا أن يسندوا حجتهم بمختلف الأسانيد ، وأرادوا أن ينتزعوا من هذا المؤتمر الدولي اعترافاً ضمناً أو تسليماً بأن هذه المنطقة أهم المناطق في إفريقية بل ربما في العالم كله ، رغم ما قد يبدو في ظاهر هذه الدعوى من إغراق وإغراب . . . وقد بدا كأن هؤلاء العلماء والباحثين البريطانيين إنما يقصدون من وراء دعواهم هذه وجه الحق دون سواه ، وأنهم إن عملوا على إقناع بقية علماء المؤتمر بوجاهة حجتهم فلن يكون ذلك إلا إظهاراً لما لإفريقية عامة من فضل على الإنسانية في بناء تراث حضارتها الأولى قبل أن يطلع فجر التاريخ ؛ كما أن بعض هؤلاء الباحثين البريطانيين قال إنهم إذ يرفعون صوته في المؤتمر ويرجون منه تسجيل هذا الصوت لا يهدفون إلى أن يفاخروا بما كان لإفريقية من ماض مجيد — فذلك الماضي ليس ماضيهم ، كما لمح بعض العلماء الفرنسيين في كثير من دهاء العلماء ! — وإنما هم يهدفون إلى إبراز قيمة هذه المنطقة للعالم

عامة وللعالم البريطاني خاصة ، فيزداد اهتمام الجمهور والهيئات العلمية بتشجيع البحوث الدراسية التي يصح أن تقوم بالبحث والتنقيب في هذه المناطق الاستوائية . . . وهذه حجة ولا شك وجيهة ؛ ولكنها تنحرف بالعلم والعلماء إلى ما يجب ألا ينحرفوا إليه ؛ كما أنها كانت في أغلب الظن تخفى وراءها وتطوى في باطنها من أفكار السياسة وأهدافها المرسومة أكثر وأعمق كثيراً مما ينطوى عليه الغرض العلمى الظاهر . فسياسة النابيين من دعاة الإمبراطورية وبناتها في القرن الماضي قد هدفت كما ذكرنا إلى زيادة اهتمام أبناء الإمبراطورية بشرق إفريقية عن طريق إيفاد الرحالين ، وإذاعة المعلومات وأبناء الاستكشافات الإفريقية عن طريق الجمعيات العلمية وغيرها ، مما انتهى به الأمر إلى أن سعت بريطانيا حكومة وشعباً ، أو شعباً وحكومة ، إلى أن تستعمر الشرق الإفريقى ، وتوطد أقدامها في أراضي المستعمرات فوق الهضبة الاستوائية . واليوم يشعر مفكرو الإمبراطورية وحفظة تراثها وميراثها ، وفي طليعتهم المرشال سمطس ، أن اهتمام الإمبراطورية وأبنائها بهذا الجانب من إفريقية ينبغي أن يشحذ من جديد ، إذا قدر لشرق إفريقية أن يصبح نقطة ارتكاز هامة في الإمبراطورية ، ومنطقة تجمع للقوى والقوات الإمبراطورية تنفذ منها إلى الشمال أو إلى الشرق وقت الحاجة على نحو ما هو مرسوم . وليس غريباً في هذا الصدد أن يسعى مفكرو الإمبراطورية وراسمو الخطط فيها إلى أن يلفتوا نظر مواطنيهم في أرجاء الإمبراطورية إلى ما لشرق إفريقية من قيمة وخطر عن طريق أحد المؤتمرات الدولية ؛ فالإمبراطورية ووسائلها في الدعاية والتعريف ينبغي أن تلائم الزمن ؛ وما كان يصلح في القرن الماضي من استخدام الرحالين والمستكشفين والإذاعة عن طريق الجمعيات العلمية ليس يكفى في جيلنا الذى نعيش فيه بعد أن تم استكشاف مجاهل إفريقية السوداء بصفة عامة ، وبعد أن غدت شهادة مؤتمر دولى كهذا الذى عقد أخيراً في نيروبي أرفع قيمة وأبعد أثراً من شهادة جمعية علمية أو عدد من الجمعيات العلمية ، مهما كان لتلك الجمعيات من سند ، ومهما ذاع لها من صيت .

ومع ذلك فقد تنبه المؤتمر لخطورة هذا الجانب مما عرض عليه من بحوث . وكان على مصر وعلى أنصارها من القائمين بالدراسات المصرية والمعجبين بما سبقت به مصر وشمال إفريقية إلى بقية القارة خاصة وإلى العالم عامة من فضل

كبير في نشأة الحضارات وتطورها . . . كان عليهم أن يقرعوا الحجة بالحجة وأن يقدحوا البرهان بالبرهان حتى برز الحق . . . أو حتى عاد إلى البروز وضاء منيراً بعد أن أزيل ما أثير حوله من حبار !

ولكن الأغرب من هذا كله أن أراد منظمو المؤتمر والداعون إليه أن يهدفوا إلى تقسيم إفريقية إلى ما يمكن أن نسميه « مناطق دراسية » ، تشمل كل منها عدداً من الدول أو المستعمرات الإفريقية ، يوحد التمثيل بينها في حفلة افتتاح المؤتمر وفي تكوين لجانه العلمية ، وتنسيق خطط الدراسة المتصلة بكل منها . ولم يبد في هذا الاقتراح ما يثير الريبة أو المخافة في نظر كثير من المؤتمرين ؛ ولكن الذين خبروا ما هدفت إليه بريطانيا في العهد الأخير من تشجيع الاستجابة المتبادلة بين أهل العلم وأهل السياسة ، كان لهم العذر كل العذر في أن يتوجسوا قليلاً وأن يترددوا كثيراً قبل أن يتقبلوا هذا الاقتراح . وقد تحقق ماخشوه وما ترددوا فيه عندما عرض الاقتراح البريطاني في صورة محدودة ، فتبين أنه يرمى إلى أن تعتبر مصر بمفردها أو بالاشتراك مع سواحل إفريقية الشمالية منطقة قائمة بذاتها ؛ ويعتبر السودان جزءاً من منطقة تمتد في شرق إفريقية إلى روديسيا ؛ ويعتبر جنوب إفريقية وجنوبها الغربي منطقة ثالثة ؛ والكونغو ومعه إفريقية الاستوائية المنخفضة منطقة رابعة ؛ ثم السنغال وسواحل إفريقية الغربية منطقة خامسة . . . وبهنا من هذا التقسيم المقترح — أو الذي كان مقترحاً — أنه يرمى إلى فصل مصر عن السودان ، فتمثلان في الحفلة الرسمية لافتتاح المؤتمر تمثيلاً مستقلاً ، وتعتبر كل منهما داخلة ضمن منطقة دراسية مستقلة ، ويفصل بينهما في التمثيل في اللجان ، ويبدو كأن المشكلات العلمية والدراسية فيهما لا ترتبط ولا تتداخل ، وحتى المصطلحات العلمية وأسماء الحضارات القديمة والسابقة للتاريخ في كل منهما تكون مستقلة عن الأخرى . . . ولم يكن ليهم أصحاب الاقتراح في ذلك أن تبقى مصر منفردة أو أن ترتبط ببقية إفريقية الشمالية في الغرب ؛ ولكن كان يهمهم بصفة خاصة أن يسجلوا في هذا المؤتمر الدولي أن السودان متصل بشرق إفريقية في مشكلاته الدراسية وفي تاريخ حضاراته ، وأن حوض النيل لا يمثل وحدة إقليمية ولا دراسية . وهم بالطبع لم يجاهرُوا بشيء من ذلك في قول صريح ، وإنما تجاهلوا هذا الهدف المستتر ، كما تجاهلوا الدافع إليه ؛ بل تجاهلوا أن يكون إليه دافع ما غير تبسيط

إجراءات التمثيل والدراسة في أقاليم إفريقية ومناطقها ! وهنا أيضاً كان على مصر أن تقف في المؤتمر وقفة قوية تدافع عن حقها الذي هو حق العلم من غير شك . ولم يكن عسيراً على مصر لحسن الحظ أن تؤلب معها عدداً كبيراً من العلماء وأعضاء المؤتمر من غير البريطانيين ؛ فليس هناك شك في أن جميع الأدلة القائمة تحتم اعتبار مصر والسودان منطقة واحدة ، تتداخل فيها المشكلات والمسائل العلمية ، سواء في ذلك ما يتصل بنهر النيل وتطوره الطبيعي ، وما يتصل بنشأة الحضارات وتطورها خلال أعصر التاريخ . . . ولم يكن عسيراً على مصر أن تثبت ذلك أو أن تبرز روعته في المؤتمر من جديد ؛ فبدت وحدة الوادى في شؤون العلم والبحث والدراسة بما لا يدع مجالاً لمكابرة ؛ وأقر المؤتمر هذه الوحدة ، وتقرر آخر الأمر أن يعتبر وادى النيل في شمال شرق إفريقية وحدة دراسية قائمة بذاتها ، لها تمثيلها الموحد في افتتاح المؤتمر الرسمي وفي لجانه العلمية ، ولها دراساتها المتشابكة التي تبرز هذه الوحدة وتجعلها للباحثين والمتعلمين . . . أما شرق إفريقية فقد انكمشت منطقته واقتصرت على أملاك بريطانيا وحماياتها وأراضى انتدابها في شرق القارة .

هذا طرف من حديث ذلك المؤتمر الإفريقى . وهو حديث قد لا يخلو من دلالة لمن أراد أن يستدل ، وقد لا يخلو من عبرة لمن أراد أن يعتبر . ولعل أول ما يدل عليه أن ماتجرى به ألسنة العلماء من أن العلم ينبغى أن يأتى خالصاً لوجه الله ووجه الحق ، إنما هو قول كغيره مما تجرى به ألسنة البشر من غير العلماء ! فطبيعة البشر ليست مما يغيره العلم ، وليس العلم مما تتغير معه طبيعة البشر . وخير لنا جميعاً أن ندرك ذلك وأن نتمثله في أعمالنا وأقوالنا ؛ وأن نكون في ذلك كله صرحاء مع أنفسنا وصرحاء مع الناس . ولئن كانت هذه الحقيقة قد تمثلت في هذا المؤتمر بالذات ، فإنها تمثل ولا شك في مؤتمرات أخرى كثيرة . . . تمثل ظاهرة أو خفية ، سافرة أو مخجبة ، وغاية ما هناك أن الأعضاء البريطانيين في هذا المؤتمر كانوا أشد حاجة وأكثر تلهفاً من غيرهم على أن يخدم المؤتمر أغراضهم الخاصة ، وعلى أن تسعفهم هذه الخدمة فيما هم بسبيله من إعادة تنظيم لشؤون الامبراطورية في إفريقية . وقد لا يملك النصف إلا أن يرى المعاذير للعلماء والباحثين في هذا العصر إن هم كانوا في خدمة السياسة القومية ؛ فنحن

خارجون من حرب ضروس ، سخرت فيها الأمم أبنائها في مختلف ضروب الخدمة الوطنية ، فاشتغل العلماء — والبريطانيون منهم خاصة — خلال الأعوام السبعة أو الثمانية الأخيرة في أعمال تمت كلها أو جلها إلى الحرب أو السياسة بسبب قريب أو بعيد ؛ وقد اكتسبوا في هذه الفترة عادة النظام والطاعة والتفاني في الخدمة القومية . ولعل هذا أن يكون من ورائه ما بدا من ميل أعضاء المؤتمر البريطانيين إلى الاتجاه به ، حسب خطة مرسومة ، في نطاق سياسة عامة لا يملك العلم والعلماء أن يحيدوا عنها أو يخرجوا عليها . وسواء أصح هذا الافتراض أم لم يصح ، فلا بد أن ننتظر فترة قد تطول أو تقصر قبل أن يتخلص العلماء في العالم كله من عصبيتهم القومية التي أكرهتهم عليها ظروف الحياة ومقتضياتها خلال هذه السنوات الأخيرة . ولكن الشيء الذي ينبغي أن نعيه تماماً وأن يتمثله القائمون على شؤون البحث والدراسة في مصر خاصة هو أنه من الخير لنا أن نحاول الاهتمام بهذه النزعات التي تسيطر على العلم والعلماء في غير مصر ، وأن نكون على حذر مما قد تجرنا إليه تلك النزعات التي قد تأتي من جانب بريطانيا على وجه الخصوص ، ولكنها قد تأتي من جانب غيرها من الأمم . فالعلم في هذا الزمن أصبح أقرب إلى حياة الأمم مما يبدو في ظاهر الأمر ؛ ومحافل العلماء ومؤتمراتهم تريد هذه الحقيقة جلاء ووضوحاً في كل يوم . . . يستوى في ذلك ما اتصل منها بعلوم المادة والحياة اليومية ، وما اتصل منها بفنون من المعرفة لا تمت إلى حياة اليوم وحضارته بسبب ظاهر . . . ومن واجب مصر وأمثالها من الأمم التي تقوم في قلب العالم ، وتتصل لدراسة حضارتها بل حياتها الحاضرة بكثير مما يتدارسه العلماء في هذه المحافل والمؤتمرات القارية والعالية . . . من واجبها أن تشارك بكل ما يسعها في هذه الدراسات ، وأن تسعى ليكون تمثيلها قويا في هذه المحافل والمؤتمرات ، مهما بدا ذلك بعيد النفع قليل الفائدة عند من لا يتعمقون الأمور ولا ينظرون إلى بعيد . ولن يكون من الخير بالنسبة لنا أن ننطوى على أنفسنا في هذا العصر الذي اتصلت فيه أسباب الحياة بين الأمم ، وفي هذا العالم الذي لا تنتهي فيه العزلة والانطواء ، إلا إلى ذبول وفناء .

هواة الموسيقى الغربية

أعرف منهم حسنين وحسيناً ومحمودين ويوسف . تجمعنا صداقة ثابتة الجذور وإن فرقت بيننا الأيام .

محمود من المحمودين اختصر الطريق من أوله ، واكتفى بهواية السماع . وأغلبنا انتهى إلى ما انتهى إليه محمود الأول الذى بدأ كما بدأنا بدراسة آلة موسيقية على الطريقة الغربية . وكانت فيما يختص به البيانو ، وفيما يختص ببقيتنا الكمنجة . وهو وإن انتهى إلى أستاذ بريطاني محترم فقد اختار في أول أمره أستاذاً من الأقطار الشقيقة يعطى دروسه في حانوت لتصليح الآلات الموسيقية . ولم ينجح هذا الأستاذ حتى في إصلاح البيانو الذى يعطى دروسه عليه . شعاره « هنا الفن » ، كثير التكرار للنطق به بلهجة بلاده هكذا : هنى الفن . يجلس إلى البيانو المتداعى يوقع مالا أنزل الله به من سلطان النغم ، فتخونه أصابعه مرة ، وتخونه أصابع البيانو مرات . إما لأن مطارقها تهوى على غير أوتار ، أو لأن مطارقها لا حشية فيها ، فتقرع الأسلاك قرعاً يخرج منه صوت الأواني المعدنية تنظف في المطبخ . فاذا هوت المطارق على فراغ ، التفت إلى تلميذه محمود وقال له « تخيل أنها مى ييمول . . . تصور هنا دو . . . الفن كله خييل (خيال) . . . هنى الفن هنى الفن . . . » واستمر يقرقع ما تخيله مطلع سونات « ضوء القمر » للمظلوم لودفيج فون بتهوفن .

ومحمود الثانى أعجبنا فى هواية الموسيقى الغربية ؛ لأنه على خلاف أغلبنا بدأ بالكمنجة العربية والشدة الشرقية ، وكان محبا لموسيقى « ولاد العرب » كما يقول — وينطق العرب نطقاً بلدياً قحاً أقرب ما يكون إلى نطق كلمة arab — وقد بدأ دروسه على أستاذ من الأقطار الحبيبة فى حانوت ، أوحق ، بشارع غيط العدة . لم يكن الحانوت يسع غير الأستاذ ونصف التلميذ ، وللنصف الآخر أن يتصرف بالقوس أو برأس الكمنجة ورقبتها على قارعة الطريق المزدهم بالمارة .

ويقسم الأستاذ الكمنجاتية إلى ذوى الأصابع الحصرم - ينطقها محمود الثانى حصرم - وذوى الأصابع الناضجة . ولا تنضج الأصابع قبل عشر سنوات دراسة متوالية . ومن المؤكد أن أصابع هذا الأستاذ قد نضجت ، بل حمضت ، منذ زمن طويل . فقد عرفت حانوته وأنا غلام صغير حتى نهاية الحرب الأولى . وما مررت به إلا ورأيتة إما بسبيل إلقاء دروسه ، أو هو يسلى نفسه وعمال معمل الطرشى القريب بالعزف على الكمنجة شتى الدواليب والبشارف والتقاسيم . بلغ محمود الثانى من إتقان الكمنجة العربية مبلغاً يحسده عليه المحترفون . وكان يقتنى كثيراً من الأسطوانات الشرقية قبل عهد التسجيل الكهربائى ، أيام كانت الأسطوانة تبدأ بصوت يخرج من النفير كأنه الزبد حين « يطش » على النار ، ثم ينطق نوع من البيغاء أو القراجوز معلناً « إسطوانات . . . افون » ويعدد الصوت أثناء الإيقاع أو الغناء مطيباً الفنان : « الله الله يا ست منيرة » أو « أهو كده يا سى سهلون » .

تعرف محمود الثانى على الموسيقى الغربية عند تاجر الأسطوانات . وقد أدرك تمام الإدراك كمية المهارة التى تبدو فى الإيقاع الأفرنجى ، فراح يقتنى أسطوانات كريسلر وميشا إيلمان وهايفتزو ويان كوبليك . ثم انتهى إلى تغيير شدة الكمنجة وانطلق يدرس على الطريقة الأوربية دراسة عنيفة ساعدته عليها حياة الوحدة التى كان يعيشها .

ولا أظنه اليوم مواصلاً دراسته هذه ، وأعرف منه أنه تابع هوايات فنية أخرى من الأويما إلى النقش على النحاس ، وأخيراً إلى تركيب الروائح العطرية . وحسن الأول عرفته فى آخر الحرب الأولى يجلس خارج مقهى بشارع عماد الدين ومعه كتبه ، ولا يشرب غير الكونياك مع قطعة من السكر . أقربنا جميعاً إلى الأوربيين تربية وثقافة واستعداداً . بشرته بيضاء مشربة بحمرة ، هادى بطنى الحركة ، شاعر بكل معنى الشاعرية . يضع نظارات سمكة باطار من الباعة ، تطالعك من ورائها عيون رائقة كلها طيبة وإنسانية . عرفته أول هوايتى للموسيقى واطلاعى على أدبها ، فاذا بى أتخيل أمامى . . . فراتر شوبرت بعينه . ولم يخطئ خيالى فيما أظن . فالشبه بين هذا الحسن وشوبرت يتناول الملامح والأخلاق والطباع جميعاً .

أولنا فى دراسة الكمنجة . بدأها على يد أستاذ إيطالى شيخ ، طويل عريض

الأكتاف ، أحمر البشرة في زرقة نشأت عن كثرة شربه للنبيد . له شارب كثيف وخطه الشيب ، من نوع الشوارب التي كانت سائدة قبل الحرب الأولى ، والتي كان المرحوم الشيخ سلامة يقتنى زوجاً منها يحتفظ به حتى في دور هاملت ، إلى حد أن زميلاً لنا من الظرفاء كان يقول : « يا خويا الشيخ عليه شنب مش بهلى أبو هاملت » . وكان حسن يذهب إليه في شقته ليتلقى دروسه فيجده جالساً إلى فياسكو من الكياتي ، يجرع الجرعة ثم يقوم إلى الكمنجة ليطلع حسن على دقائق الفن ، ويعود إلى قنينته البيضاء المترعة بنصير كروم توسكانا .

أكثرنا ثقافة موسيقية . عرف حياة الموسيقيين وتاريخ الموسيقى ، ودرس توزيع الأوركستر وأنواع آلاته . ولكنه لم يسلم من ألسنتنا يوم بدأ ينشر المقالات في الموسيقى الغربية ، وتحذلق في ترجمة « السيريناد » سرناتة ، وال harpe الأربا ، وهكذا .

أما حسن الثاني فهو أحسننا إيقاعاً وأقربنا إلى المزاج الفني الخالص . هو شعلة من الفن ، ولعله إلى اليوم أشدنا صلة بالفنون ؛ لأن عمله الأصلي لم يخرج عن مملكة الموزي التسع — أو الموزي الثمان كما كتبت في ذلك الزمان ، مصرّاً على حذف موزي التاريخ ، فكنت موضع سخرية صاحبة محبوبة من المرحوم محمد تيمور . بدأ دروسه على شيخ مضعضع يلعب الكمنجة في آخر صفوف أوركستر بولياكين ، لعله لفت نظر حسن بصلعته المشرقة . ولم يلبث الشيخ المسكين أن أصيب بالفالج ، وذهبنا حسن وأنا لنزوره في أحد المستشفيات الأجنبية بالعباسية فاذا بأهله مجتمعين هناك لتشيع جنازته . وأذكر أن حسناً تقدم لورثته في ذلك اليوم ودفع ما عليه من أجر الدروس التي قطعها مرض الشيخ فجأة .

وعزمنا أن نتلقى دروساً على أستاذ إيطالي نحيف رقيق ، سحر بكمنجته رواد محل صولت القديم بشارع بولاك (فؤاد الأول حالا) . وكان أجره أكثر مما يحتمله مصروفنا ، فاتفقنا أن نشترك في درسين أسبوعياً ، وهي وسيلة عملية جعلت كلاً منا يستفيد فعلاً بالساعة الكاملة ، إذ ينصت إلى درس زميله في نصف ساعته . ويوسف لا أعلم عن دروسه الأولى شيئاً . وقد عرفته كنجائياً رقيقاً يعزف تقاسيم هادئة حزينة ، ويقتنى كمنجة تقول « من الهواة دبنا » ، صور له من باعها أنها واحدة من كنجات كريمونا تم صنعها منذ بضع قرون قبل الميلاد أو بعده

لا أذكر ! وما من شك في أنها كانت أحسن الكمنجات في أيدينا جميعاً ، كما كانت كمنجتي أوحشها . وما أصدق قول حسن الأول فيها : « يتحمس لاعبها ما شاء له الحماس ، فلا يخرج عن وترها الرابع إلا صوت يقول واح واح » . وانتقل الحسنان واليوسف والمحمودان والحسين إلى أستاذهم الجديد . النمساوى يقطن شقة متواضعة قرب شارع دوبريه ، جاء إلى مصر عقب الحرب ، وقد سبقته إليها سمعة أستاذه الكبير سفتشك .

لم يلق هذا النمساوى الناعم نجاحاً يذكر إلى جانب الأساتذة المقيمين ، فلم أعرف له تلاميذ غير جماعتنا المصرية . وكان اسمه ساندى . وكما سألناه عن ديانته أجاب بأن الله رب الجميع . ففهمنا أن يهودى عودته الحياة في إمبراطورية النمسا والمجر الحرص في التصريح بديانته .

وكانت له زوجة جميلة لا أرق منها غير رقة حالها وحال زوجها واولادها . باعهم المطرباز بضع قطع من الأثاث تنهاوى كالتجوم في ليالى أغسطس . وكان يحذرنا من الجلوس عليها ، ويؤكد لنا أن من مستلزمات الدراسة إجراء التمارين وقوفاً . وهذا صحيح بصرف النظر عن حكاية تحمل الأثاث أو عدم تحمله .

كان لساندى أكبر الأثر في تعليمنا الموسيقى جميعاً . فقد قوّم بطريقة أستاذه سفتشك طريقتنا في العزف والأداء . وكان يحب تلاميذه المصريين جداً ، نبادله إياه ، ونتألم لعدم نجاحه وسط الايطاليين المقيمين الذين استحوذوا على كافة تلاميذ الكمنجة في مصر . وقد غادر البلاد بعد قليل ، ولم نسمع عنه خبراً . حتى إذا كانت سنة ١٩٢٩ وقد أخرجت سفرى من فينا خصيصاً لأحضر افتتاح الأوبرا ، وإذ جال بصرى بين أعضاء الأوركستر يعزفون افتتاحية « شعراء نورمبرج المغنين » رأيت ساندى أستاذى القديم يشارك الكمنجاتى الشهير روزيه في الدرج الموسيقى الأول !

وذهبت بعد الحفلة أنتظر بباب الأرتست خروج ساندى . وقد تلقاني بعيونه الباسمة وشعره المنتثر على جبينه . . . سعيداً برؤيتى . يذكر بالخير تلاميذه المصريين ، ويسألنى عنهم واحداً واحداً . وعرفت منه أنه فيما عدا أوركستر الأوبرا يعمل بالراديو الفيناوى ، وأن له عدداً طيباً من التلاميذ . هذا هو الرجل ، في عاصمة الموسيقى الرفيعة ، الذى لم تعرف له القاهرة وزناً ، وغلبت عليه كمنجانية القهاوى ومشارب البيرة !

عجيب أمر هذه الجماعة التي انصرفت في أوائل هذا القرن إلى دراسة الموسيقى الغربية . ولم تصل في دراستها إلى شيء كثير مع الأسف ، عدا واحداً ثابراً وتخصص فاصبح مؤلفاً للمقطوعات السمفونية .

ولا يمكننى أن أتكلم عن نوازع زملائي وأصدقائي . وكل ما أستطيعه هو التكلم عن نفسى ، مستعيذاً من الشيطان . ولم أعرف أن المراضع والمريبات الأجنبية تعهدتنى حتى أنشأ محبا للموسيقى الغربية ، فقد ولدت على قيد خطوات من مسجد الحسين الذى أحمل اسمه كما حمله جدى من قبل .

وأظن أن لوالدى الأثر الأول فى توجيهى إلى الغرب . فقد كان مؤمناً بأن مستقبل مصر رهين بتقدمها فى طريق الحضارة الغربية . ولعل هذا ما يميز جيل أبى عن الجيل الحاضر . كان الجيل القائم بتربيتنا يكره المحتل ، ويدعو بالنصر للسلطان فى الآستانة ، ويؤازر الحزب الوطنى وينادى بـ « الدستور يا أفندينا » . ولكنه لم يكن يتردد فى الاعتقاد بأن أسس نهضتنا يجب أن تنشأ على مقومات الحضارة الغربية ، ولم تحوله اتجاهاته الدينية ، وميوله الشرقية عن منارة العرفان فى الغرب .

أما اليوم ، فيظهر أن كثيراً من الناس شباناً أو غير شبان ، يجدون الكفاية وأكثر من الكفاية فيما نقلنا عن الغرب ، وينادون بوقف تيار الحضارة الغربية للاتصال بتيار حضارات شرقية مهما كان أمرها وخطرها وواجبنا حيالها ، فهى صفحة مجيدة من صفحات التاريخ فحسب ، نستوحىها أو نمجدها إذا أردنا ، ولكن على أن نذكر دائماً أن حضارة اليوم هى مجموعة حضارات الشرق والغرب ، أضفت عليها شعوب أوروبا الناهضة منذ عصر الإحياء تلك العناصر الأساسية فى حياة العالم اليوم شرقه وغربه ، وأن مال من يقصر عن حضارة اليوم هو الرجوع إلى الظلام والغيوبة .

المهم فيما يختص بموضوعنا أن عيوني تفتحت على صور من الحضارة اشرأبت إليها أعناق الجيل الذى قام على تربيتنا . والمهم أيضاً أننى كرهت موسيقى التخت منذ الصغر ، لأسباب مادية كما يظهر . منها أن التخت يبدأ متأخراً جداً فى الأفراح ، حين يبدأ النوم فى مداعبة أجفاننا الصغيرة . ومنها أن أعضاء التخت يصرفون فى إصلاح أوتارهم وقتاً طويلاً . فاذا بدأ الغناء تلقاه الجمهور بضروب من الحماس والـ « سمع هس » والتعلق بالتخت الخشبي ، ونوع من

الهوس العاطفى يؤكّدون لى بأنه ما زال معروفاً إلى اليوم فيما لم يعد يسمى التخت وهو وليده . وكنت أفضل على موسيقى التخت الموسيقى النحاسية ، خصوصاً الأميرية منها ، لنظامها وترتيبها ، ولأن أدوارها طبعاً خلو من التأوه والتكرار المضمّن يتداوله المذهبية والمطرب « بس لو يرضى الحا ... يـ... يـ... ب... ب... رى دوسى لا . بس لو يرضى الحاييب » أو « يا لى تلوم دا شى... بالعقل... دا شى... بالعقل » الخ .

وتنبتت فى سراهقى إلى الموسيقى الوترية بقاعات السينما الصامت ، فأحببتها من البداية ، وتبينت من بينها على الخصوص رخامة صوت الفيولونسل . وقد عنيت دور السينما باختيار الأدوار الموسيقية التى تلائم عرض الفيلم . كما قدمت فى أعقاب الحرب الأولى فيلم « مدام بترفلاى » وصحبت العرض بكثير من موسيقى أوبرا بوتشنى . وسمعت مرة « سونات إلى كرويتزر » تؤدى كاملة فى موضع من أحد الأفلام .

ولم يكن لى ذوق موجه تماماً ، إلا من الناحية السلبية ، كأن أكره موسيقى الرقص الأفرنجى بقدر كرهى لموسيقى التخت .

وتبدأ معرفتى الجديدة بموسيقى الغرب فى قاعتين من قاعات القاهرة اختفتا الآن ، هما قاعة سينما كبير ، وقاعة الكورسال ، كان يعزف فيهما صباح كل أحد فى الخريف والشتاء أوركستران أحدهما بقيادة بوليا كين ، والآخر بقيادة بونومى . وأذكر كأنه بالأمس أول سماعى للموسيقى السمفونية بقاعة كبير . فقد وجدتني أمام نحو خمسين رجلاً منهم أكثر من النصف يلعبون الرباعى الوترى (الكمنجات الأولى والثانية والفيولات والفيولونسلات والكونترباسات) والآخرين موزعون بين الآلات الخشبية والنحاسية والناى الفضى . وأحدهم يوقع على نوع من الطبول (الطنبال) لم أكن أعرفه قبلاً إلا فيما يشبهه من الطبول التى توضع على ظهور الجمال فى مواكب الحمل ، أوفى طليعة موسيقى الفرسان .

كانت أول مقطوعة سمعتها هى « السمفونية السابعة » لبيتهوفن . وما زلت أذكر نوعاً من الخشوع استولى على والمايسترو يستعد بعصاه ، ثم تنطلق كل هذه الآلات فى « زخمة » فجائية يتبعها لحن بطى . ثم تنهمر السمفونية نغمات راقصة تشبع فى الجون نشوة من الفرح . وكانت تلك القاعة المستطيلة الخسيصة يعبق جوها

بالألحان التي جعلت تنعقد هنا وهناك صوراً صوتية تختلط فيها حرارة الآلات الوترية بلهيب الآلات النحاسية يطفئها خير النايات الفضية ، ثم تضيئ عليها الآلات الخشبية أشعة زرقاء أو خضراء ، مائعة ناعمة .

واصلت الذهاب صباح كل أحد إلى كونسيرات بوليا كين وبونومي بالتوالي ، فسمعت أهم أعمال الموسيقيين الخالدين . وكنت في ذلك الوقت أقرب إلى فهم الموسيقى ذات البرنامج « كالسمفونية الريفية » (بتهوفن) « وليلة على الجبل الأجرد » (مسورجسكى) « ورقصة الموت » و « فيتون » (سان صانس) و « الصياد الملعون » (فرانك) و « شهر زاد » (رمسكى كورساكوف) الخ . ولكنى كنت أيضاً أتذوق الموسيقى لذاتها إلى درجة أننى كنت أخرج الساعة الأولى بعد الظهر من هذه الكونسيرات في شبه نشوة من الهناء والسعادة تلازمنى طول اليوم حتى آوى إلى فراشى ناعماً .

ولقد سمعت بكونسير بوليا كين الكمنجاتى أنطون تشيخوف الأستاذ بكونسرفتوار تل أبيب فيما بعد . وقع كونشرتو مندلسون باصطحاب البيانو لا الأوركستر مع الأسف . ومع أنى أدركت فيما بعد سطحية موسيقى مندلسون ، ما زلت حتى هذه اللحظة أعتبر هذا الكونشرتو أحسن ما كتب مندلسون ، بل من أجود الأعمال التى ألفت للكمنجة . فيه حرارة وحياة هوجاء ، مع الرقة والسهولة اللتين تميز بهما ذلك الموسيقى المترف الذى عاش عيشة رخاء ويسر . وكانت هذه الأوركسترات تعزف مؤلفات بعض الموسيقيين العصريين أمثال ديبوسى ورافيل ، فلم أتمكن من فهمها لأنى كنت أجهل الاتجاهات الفنية التى قامت عليها . ولا شك أيضاً أنها لم تكن تؤدى كما يجب ، فضلاً عن خلو تلك الأوركسترات من بعض الآلات الهامة . وقد عرفت عضواً من أعضاء الأوركستر كان يضع كل الموسيقى العصرية في جوالق واحد ويطلق عليها الموسيقى المستقبلية ! وسمعت أيضاً في ذلك الوقت موسيقى الأربعينات (١) (الكواتيور) من فرقتى هرش وسفتشك - لوتسكى .

كنا أقل من عشرة مصريين نتابع هذه الكونسرات . ولم نكتف بالسماع ودراسة العزف بل رحنا نطالع ما وقع بأيدينا من كتب عن الموسيقى والموسيقيين . ونكتب المقالات في التبشير بالموسيقى الغربية ، والمطالبة بالتجديد في الموسيقى

(١) تميزاً لها عن الرباعيات quatrains التى جرى بها العرف في الشعر .

المصرية على أسس غربية . ونادينا بتوجيه البعثات الموسيقية ، ووضع ثلاثة منا تقريراً لوزارة المعارف بما نراه من أوجه التجديد .
 وأنشأ برجرون الكونسرفتوار الذى يحمل اسمه ، وسعى للاستعانة بوزارة المعارف ، وسعينا لإلحاقه بتلك الوزارة . ولكنها اكتفت بأن تعهد إليه بتعليم بعض النشء . ولا أدري ما انتهى إليه أمر هؤلاء ، وإن غلب على ظنى أن التيار الرجعى جرفهم ، فصاروا موسيقارين بالمعنى المتداول الآن ، والله خير حافظاً !

وتتلذذت بمعهد برجرون على أستاذ يزاول مهنته إلى اليوم بمصر ، وما زلت أعتبره من أفضل أساتذة الكمنجة ، حتى بعد أن عرفت بعض كبار الأساتذة فى أوربا . وقد التقيت به مصادفة فى أول إقامتى بفرنسا ، فكان خير دليل إلى ارتياد الكونسيرتات الباريسية الكبرى . ولعله أول من نبهنى إلى فضائل أعلى التياترو فى سماع الموسيقى ، وهى فضائل فنية . . . واقتصادية أيضاً .
 وكشفت لنا الموسيقى عن ناحية جديدة علينا فى الفنون الغربية ، وهى ناحية الرقص « الباليه » . عرفناها أول الأمر فى الأوبرا ، ثم أدركنا مداه البعيد حينما طلعت علينا تلك المرأة العبقرية الفذة برقصاتها الخالدة ، أعنى أنا بافلوفا !
 وقد خاب ظن بعض مواطنينا الذين حسبوا أنهم سوف يطلعون على أنواع من رقص الحانات يثير غرائزهم الدنيا ، فخرجوا بين القلق والسخط على تلك المناظر التى لم تشبع شبقهم ، ولم تجد فى نفوسهم التربة الصالحة لفهمها . أما جماعتنا فقد سحرت بهذا الفن الرفيع الذى يجمع بين الموسيقى العالية وحركات الجسم الانسانى الكامل فى صور خلافة كلها شعر وإحساس .

وحين عرفت بوجود بافلوفا فى باريس أول عام لى بمدينة النور ، منعت نفسى قسراً من مشاهدتها وسط معامع الفن الأوربى ، إبقاء فى نفسى على أثرها الأول ، أثر الظمان يرد الماء السلسبيل ، والمسافر عبر الصحراء يحط الرحال بالواحة الخضراء .

وليس غريباً أن أشير هنا إلى « الباليه » ؛ فقد كان موضع دهشتنا حقاً أن نرى كثيراً من المقطوعات الموسيقية التى كنا نسمعها باعتبارها موسيقى بحتا ، تصبح أساساً لرقص الفرد والجماعة . وكانت فكرة الرقص عند ثقافتنا الضيقة وجونا المقل محدودة بالرقص الشرقى فى خلاعته ، أو الغربى فى سوقيته .

فهذه موسيقى شوبان ألفها لليانو ، تتحول إلى الأوركستر موسيقى لرقص رومانتيكي ، وهذه موسيقى شوبرت وتشايكوفسكي وبورودين تصور لنا في قصص صامتة ، بلاغتها جسم الانسان في كماله وقدرته على تأدية حركات توحى بالجمال العلوى والشعر العميق .

وكانت بافلوفا . . . ولكنى لست بعرض الباليه ولا بافلوفا ، وقد أعود إليهما في وقت آخر .

إنما أنا أعيش إذ أكتب هذه الكلمات في جو من الأحلام ، كأنى طائر يحمل الهواء ، أو مخلوق سابح في أعماق الماء . والحقيقة أننى أصبح بروحى في جو من النغمات . فهأنذا في قاعة من قاعات الموسيقى ، ولتكن بالقاهرة أو في باريس أو لوندرة أو فينا أو برلين . وقد دخل الموسيقيون أفراداً وجماعات يحتلون المقاعد أزواجاً أمام أدراجهم ، يأخذ كل منهم في تمرين أصابعه على آلة موسيقية . وصاحب الطبل (أو الطنبالى) يشد طبوله ويضبط نغمها فيسمع لها هزيم كالرعد البعيد . ثم يرتفع صوت الكلارينت بنغمة « لا » فتتبعها جميع الآلات لتحقيق التوافق التام . وتعود الجلبة الموسيقية متنافرة ، ولكنها محبة إلى نفس كل موسيقى ، لأنها تخلق فينا جوّ الترقب ، وتعد أوتار قلوبنا أيضاً للتوافق التام . ويدخل الكمنجاتى الأول ليحتل مكانه في الصدارة إلى يسار منصة رئيس الأوركستر .

ثم تحفت الجلبة فجأة لأن المايسترو بدأ يخترق الصفوف إلى منصته . قد يكون من العظماء الذين يقوم لهم أفراد الأوركستر إجلالا ، أو هو ضيف عليهم في هذه الحفلة يحيمونه وقوفاً . ويستعد كل موسيقى للنوات الأولى فوق درجه ، وتطفأ أنوار القاعة ، فتبدو المجموعة الموسيقية وحدها في إطارها النورانى . ويمسك المايسترو بعصاه الرفيعة ويدير نظره في أفراد الأوركستر ، ثم يرفع ذراعه اليسرى ويقرع بعصاه الدرج مرتين أو ثلاث مرات إيذاناً بالاستعداد . . . ثم يبدأ بتحريك ذراعيه فتتطلق النغمات يمنة ويسرة ، صعوداً وهبوطاً ، قوة وضعفاً ، وقد اختفى كل شئ عن ناظرى في جو مسحور من الألحان، تصور ما تصور مما قد تدركه بعين خيالك دوائر ومربعات ، أو طرقاً ملتوية وسط الأحراج ، أو أبنية إغريقية ذات درج وأعمدة وفرنتونات . أو أنت تحسه في أعماق مشاعرك ، فتندمج في الألحان كأنك روح علوى يتنقل هنا وهناك بين نغمات الرباعى الوترى

وأصوات الناي والأوبوا والكلارينيت والآرب والآلات النحاسية : طفل يستمع إلى صوت الأم الرءوم ، أو حبيب ينصت بروحه إلى حبيبة الروح ، مجاهد يجتاز ظلام اليأس والمحن إلى نور الأمل والظفر ، أو أنت المتنزه بخطوات الحائر بين الزهور ، الراقص بخطى الفرح بين الشموع ، المشرف على آفاق البحر والجو والسحاب !

وهناك شعور شبيه بهذا يعرفه من اشترك في عزف الأوركستر . وقد سعدت زماناً بهذا الاشتراك فعرفته . ويختلف الشعور شيئاً نتيجة الجهد الذى تبذله كعضو من أعضاء الأوركستر . فأنت غارق فى بحر النغم الخضم أكثر من المستمعين ، وأعصابك أشد إرهافاً ، وعيناك متطلعتان إلى المايسترو الذى يؤثر فيك وفى زملائك كأنه الساحر . يدك ممسكة بالقوس ، والكمنجة على كتفك ، وأصابع يدك اليسرى فى تأهب . ثم هى إشارة من الساحر لتبدأ ، وإذا بك وبمجموعتك تغوصون فى ذلك العباب الموسيقى . عيناك مركزتان فى النوتة أمامك ، وأذناك تستمعان لموسيقى مجموعتك وللمجموعات الأخرى . وأنت ترى من طرف جانبي ذراع المايسترو يوقع لك الوحدة ، ويشير إليك بالابطاء أو الاسراع ، بالهدوء أو القلق ، بالحنين أو الحماس . ولست بحاجة — ولا أنت مستطيع — أن تنظر إليه مواجهة ، فعينك تركزت فى النوتة فوق درجك تترجم رموزها أنغاماً . ولكنك تشعر بروح يسرى فى أعطافك من روح ذلك الساحر . وإذا انتهت فقراتك الموسيقية تخلفت أنت وجماعتك إلى حين ، تستريحون بقدر ما أمامكم من علامات السكوت ، فإن كانت قصيرة اضطرت لعدّها عدا ، لا بقدمك بل بقلبك ووعيك . وإن كانت طويلة فدليلك إلى دخولك القادم هو أولاً شعورك بموضعك من النغم المحيط بك ، وثانياً عين المايسترو ويده تشير إليك بالمسير .

هذه لحظات لا تنسى ، لا يعرف قدسيّتها إلا رجال الفن حين يؤلفون أو يصورون أو يوقعون ، وإلا الشعراء والكتاب يصوغون الشعر والنثر . لحظات ملك إنسانية عليا ، وعالم لا مادي .

ويتساءل الكثيرون ممن لا يعرفون عن فائدة رئيس الأوركستر ، وقد يعتبرون دوره كالساعة الدقاقة ، أو كالمصفق للراقصين . والواقع أن المايسترو هو سيد الآلاتية طراً ؛ فهو لا يعزف على بيانو أو أرغن ، إنما هو يوقع على أوتار

القلوب العديدة التي يتكون منها الأوركستر والخورس ، وقد تبلغ المئات . وهذا أيضاً شعور لا يدركه تماماً إلا من اشترك في الأوركستر . عرفته في جمعية « شارل بورم » ذلك النادي الموسيقى الذي كنت أذهب إليه ليلتين في الأسبوع للتمرن على المقطوعات التي نستعد لها في حفلات الجمعية . هناك اشتركت في إيقاع أوراتوريو « المسيح » لهيندل ، و « يهوديت » لهونيغر ، و « استشهاد سان سباستيان » لديبوسى . وعرفته في أوركستر السوربون حين كنت أتوجه ليلة في الأسبوع إلى قاعة من قاعات المحاضرة ، وأجتمع بزملائي لنشترك برئاسة أحد أساتذتنا في إيقاع سمفونيات بهوفن وشوبرت وموتسارت ومندلسون .

فهذا رئيس جمعية « شارل بورم » يدرّبنا شهرين على أوراتوريو « يهوديت » الأوركستر في ناحية والخورس في ناحية أخرى ، ثم يجمع شملنا لتكتمل الهارمونية ويزعق فينا بأعلى ثأفوخه ، يصب علينا التعنيف واللوم بلا جدوى . وينتهى بأن يقف التوقيع ليقول : « بدأت هادئين حقاً ، ولكنكم متى استقر بكم القرار في الصوت المرتفع ، وما أسرعكم إليه ، صعب على أن أعود بكم إلى الخفوت . لكأنى فتحت أبواب الجحيم ! »

ونبدأ مرة ثانية وثالثة لنقع في نفس المحذور ، وليعود الرئيس إلى قرع درجه بعصاه ليقفنا ، وليزعق ويؤنب . ماذا تستطيع يا سيدى الرئيس مع جماعة من الهواة المساكين ، قدرتهم من التأدية محدودة ! إغفر لهم يا سيدى الرئيس فقد أحبوا الموسيقى كثيراً .

وذات يوم يعلن لنا أن المؤلف آت ليقودنا في ثلاث أو أربع تجارب ، وفي ليلة الحفلة . هونيغر نفسه جاء ليقودنا ، هونيغر الذى سمعت له في باريس « الملك داود » و « القاطرة باسفيك » و « باستورال الضيف » و « الرجبي » ! هونيغر أحد أعلام الموسيقى الحديثة جاء ليقودنا ، بل جاء ليقود « يهوديت » لأول مرة في فرنسا !

ويسلط علينا الرئيس بعض المحترفين قبل اليوم العظيم . فيرأس الكمنجات الأولى الأستاذ الأول بكونسرفتوار تولوز ، والكمنجات الثانية مساعده . وهكذا نحاط بالمحترفين كما يحاط العصاة بالجندرية . ثم يحى أرتور هونيغر فتأمل رأسه الغضنفرى ، وشعره الأسود الكثيف ، ونعجب بشبابه ثم يهدوئه ،

فهو لا يزعم فينا ولا ينهر ، إنما يبدى ملاحظاته في هدوء ودمائة . وها هو ذا يوجه كلامه إلى أعضاء الخورس من الرجال : « يا سادة ! لا تنسوا أنكم تنشدون لحن الموقعة التي ينهزم فيها جنود أوليفرن أمام جنود يهوديت . بعضكم أصيب في بطنه بطعنة سيف ، والبعض الآخر دق عنقه هاوياً من فوق رأسه ، وثالث سحق رأسه بحجر . » يقول كل هذا بأساً ساخراً . ولكن ملاحظته بلغت الصميم منا جميعاً . واستنارت الموسيقى بضوء جديد ، واندمجنا فيها ، وفي روح مؤلفها اندماجاً غريباً !

لى صديق مداعب حكيت له حكايتي هذه متفاخراً بعد عودتي إلى مصر ، فنظر إلى منكرأ أن يكون هونيكر قد رضى عنا تمام الرضا إلا أن يكون قد طأطأ رأسه بعد أول تجربة وقال : « لا بأس يا سادة ، لولا أن هناك هذا المصري ذا الشعر الأجعد ، الذي أرجو إبعاده حالا لأن إيقاعه أفسد كل موسيقاي ! »

عدت إلى مصر بعد غياب خمس سنوات ، فوجدت حركتنا الموسيقية تحت الثرى ، وقد طلعت في سماء الفن كواكب « الطرب » تعود بنا إلى عهد ألز والحمولى وعبد الحى .

حسن الأول غارق في كتبه وصحفه ، وحسن الثانى فى مشروعاته المعمارية ، ومحمود الأول يعيش فى جوفنى قوامه المثلات ، ومحمود الثانى يمزج عطره . ودعيت ذات يوم إلى قاعة الاحتفالات بالجامعة ، قاعة الآلات . وإذ بمائة أو مائتين من الناس انتثروا هنا وهناك ، جاءوا يسمعون يوسف يقود الأوركستر فى إحدى سمفونياته .

خرج علينا يوسف فى البونجور ، بزة المايسترو التقليدية ، وقد تضافرت السنون والفنون العبقريّة على نتف شعر القمة من رأسه ، وتركت له شعراً كثيفاً أسود فى الفودين ومؤخر الرأس . بدا يوسف فى جسمه الممتلئ وقامته المديدة كأنه مزيج بالزبد من جوته وجرهات هاوبتمان . وقاد الأوركستر قيادة مترنة ، أسمعنا فيها مقطوعات من ألحانه ، أقل ما فيها الدلالة على حسن استيعاب لدراساته الطويلة المضنية ، وقدرة على التعبير السمفونى .

هذه نهايتنا إذن ، نحن النبت الشيطاني ، وقد انصرف عنا الناس ! ولا ألومهم ، فالموسيقى التي أعنيها ، والألحان التي بذل نفسه يوسف فى

وضعها ، لا تلك القائمة التي تهال على رؤوسنا في الحانات ، هي أرفع ما يصل إليه الإدراك والشعور الغربي . ويخطئ من يحسب كل الغربيين من هواة هذه الموسيقى . إنما هي النخبة المثقفة وحدها ترتاد قاعات الكونسير السمفوني . ويمكنني تقسيم أهل الغرب من هذه الوجهة إلى طبقة العوام ، وهؤلاء يكتبون بأغاني الأزقة والحانات ، وقد يرتفعون أكثر ما يرتفعون إلى . . . موسيقات الجيش في الحداثق العامة ، أو إلى الأوبرات البسيطة من أعمال الايطاليين ومن إليهم . وطبقة الخواص وهؤلاء يرتادون دور الأوبرا لسماع أرقاها وأعماها من أعمال موتسارت وفاجنر ورشارد شتراوس ومسورجسكى وديبوسى . ومن طبقة الخواص نخبة تفضل الموسيقى السمفونية البحت إلى درجة أنهم يؤثرون سماع الأوبرات العظيمة في قاعة الكونسير ، حيث يلقي المغنون أدوارهم وقوفا أمام الأوركستر بملابسهم العصرية دون حركة أو تمثيل . وقلة من بين الخاصة تستمع إلى الأربعينات الوترية ، وفيها خلاصة الفكر الموسيقى في أرقى تعبيره ، أى حين يرتفع إلى مرتبة التجرد والتصوف .

وليس هذا تقسيما بالمسطرة . كما أنه ليس من الضروري أن يتفق مع التقسيم الاجتماعى للطبقات . فقد نجد فيما تسمى نفسها الطبقة العليا أجلافا صعايك لا يرقون إلى أكثر من موسيقى الحانات ، كما نجد من بين الطبقة العاملة أكثر الناس تفقهاً وفهماً للأربعينات الوترية . إنما يتبع تقسيمى إلى حد ما مقدار الثقافة العامة فى الأفراد ، بصرف النظر عن حسابهم فى المصارف .

والآن إذ أستعرض فى مخيلتى صور زملائى الأعزاء ، ولكل موقف وطريقة فى حبه للموسيقى الغربية وأدائه لها ، أرى يوسف يقود الأوركستر بقاعة الاحتفالات بالجامعة فى سمفونيته المصرية . وصورته تلقى ظلها على المستقبل البعيد حينما يتاح لحفدتنا أن يستمعوا إلى موسيقانا المصرية وقد تحررت من سلطان الفطرة والغريزة ، وتطورت حسب قواعد الموسيقى الرفيعة ، وراحت تردد ألحانها فى أنحاء العالم المتمدن ، لا كتحفة غريبة فى معرض ، بل كما تسمع موسيقى الشراكسة والأوزبك والكرج والأسبان والتشك فى قاعات الكونسير شرقا وغرباً ، بفضل أولئك الوطنيين العباقرة من أمثال بالاكريف ورمسكى كورساكوف وبورودين وسميتانا وألبنيث وجرانادوس .

حماية حقوق التأليف

تجوز الحركة الفكرية في مصر منذ نحو نصف قرن نهضة زاهرة شملت سائر ضروب الكتابة والفنون . وقد غدت الملكية الأدبية والفنية حقيقة ملموسة بتوالى الإنتاج الأدبي والفنى القيم ، وقيام الهيئات العلمية والأدبية المختلفة ودور النشر المنظمة . ومع ذلك فإن مصر لم تظهر حتى اليوم بتشريع خاص يحمى حقوق التأليف ، وهو تشريع حرصت على إصداره سائر الأمم المتقدمة .

على أن ذلك لا يعنى أن المشرع المصرى قد أغفل هذه المسألة ، فهو لم ينس في الواقع أن الملكية الأدبية كأية ملكية أخرى تقتضى حماية خاصة ، ولم ينس أن يشير في القانون المدنى الصادر في سنة ١٨٨٣ في باب « الملكية » إلى هذا النوع الخاص من الملكية ، فنص على أن يكون الحكم فيما يتعلق بحقوق المؤلف في ملكية مؤلفاته وحقوق الصانع في ملكية مصنوعاته على حسب القانون المخصوص بذلك (المادة ١٢) . وإذن يكون المشرع المصرى قد اعترف بحقوق التأليف بصفة عامة في وقت مبكر جدا وإن كان يحيل في الوقت نفسه إلى قانون خاص يرجع إليه في هذا الشأن ، وهو قانون لم يصدر مع الأسف حتى يومنا .

وقد كان لهذه الإشارة العابرة لحقوق التأليف قيمتها من حيث المبدأ؛ إذ لم يك ثمة شك في أن الشارع المصرى يقصد بهذا النص إلى حماية الملكية الأدبية والصناعية . ومع أن القضاء لم يجد أمامه نصوصاً خاصة يطبقها في هذه المسألة فإنه لم ير مانعاً من أن تستلهم نصوص القانون العام ومبادئ العدالة كلما عرض عليه نزاع من هذا النوع .

وعلى ذلك فقد جرى قضاؤنا المصرى على تطبيق هذه النصوص والمبادئ فيما يتعلق بحقوق التأليف، وتعددت أحكام المحاكم الوطنية والمختلطة في تقرير مبدأ حماية الملكية الأدبية والفنية ، والحكم بالتعويضات المناسبة عند الاعتداء عليها . والظاهر أن إصدار التشريع الخاص بحقوق التأليف كان أمنية تساور المشرع

المصرى باستمرار . ويبدو ذلك فيما قرره فى قانون العقوبات المعدل من المعاقبة على الاعتداء على حقوق التأليف . فاذا طبع شخص بنفسه أو بواسطة غيره كتباً « على خلاف اللوائح والقوانين المتعلقة بملكية تلك الكتب لمؤلفيها فانه يرتكب جنحة تقليد يعاقب عليها (المادة ٣٤٨) . وكذا يعاقب كل من باع أو عرض للبيع كتباً أو أشياء مقلدة وهو عالم بحالها (المادة ٣٤٩) . وكل من قلد أشياء صناعية أو ألحاناً موسيقية مختصة بمؤلفها (المادة ٣٥٠) . وكل من غنى علناً بنفسه بالحن موسيقية أو حمل غيره على التغنى بها أو لعب ألعاباً تياترية أو حمل غيره على اللعب بها إضراراً بمخترعيها » (المادة ٣٥١) .

وهذه محاولة شاملة لحماية حقوق الملكية الأدبية . بيد أن قانون العقوبات يحذو حذو القانون المدنى فى الإشارة إلى التشريع المتعلق بتنظيم هذه الملكية دون أن يكون لهذا التشريع وجود ، وأخيراً عقد المشرع المصرى النية على إصدار هذا التشريع المرتقب والذي طال أمد انتظاره منذ سنة ١٨٨٣ فوضع فى سنة ١٩٢٧ مشروع قانون شامل لتنظيم حقوق التأليف ونشر يومئذ فى الصحف واستقبل بكثير من الترحاب والرضا ، وأبدت بشأنه آراء وتعليقات كثيرة . ولكن الأمر وقف عندها الحد وقبر مشروع القانون الجديد فى المهدي ، وذلك بالرغم من رصانته ووضوحه واسترشاده بأحدث المبادئ الدولية المرعية فى هذا الشأن . ولم تتضح لنا يومئذ بواعث العدول عنه وذلك بالرغم مما كان واضحاً من مساس الحاجة إليه .

والآن وقد انقضت عشرون عاماً أخرى تبذل محاولة جديدة لإصدار تشريع يحمى حقوق التأليف ، وتجيء المحاولة هذه المرة عن طريق اللجنة القانونية لجامعة الدول العربية التى تضم ممثلى مصر والدول العربية ، فتقدم إلينا مشروع قانون جديد فى هذا الشأن .

ومن المعقول أن يكون مثل هذا التشريع من حيث التطبيق شاملاً لسائر الأمم التى تتكلم العربية ؛ إذ هو خاص بتنظيم الحقوق الفردية ، فى التراث الأدبى والثقافى المشترك ، وهو تراث التفكير العربى الذى تتنافس الأمم العربية فى صونه والعمل على إغنائه وتدعيمه بكل طارف وجديد من منتجات أبنائها . ومن المرغوب فيه أن تمتد حماية حقوق المؤلفين الذين يكتبون بالعربية إلى سائر

البلاد العربية ، وهذا يكفله تبادل هذه الحماية أو تطبيق التشريع المشترك الخاص بها .

وأما نص مشروع القانون الجديد . وهو مشروع مفصل يشتمل على أربعة أبواب تضم أربعاً وستين مادة . ويتناول الباب الأول أنواع المصنفات التي تشملها الحماية ، والباب الثاني مدى حقوق المؤلف ، والباب الثالث الجزاءات التي توقع في حالة المخالفات ، والباب الرابع بعض الأحكام الختامية . وهو يستلهم في كثير من نصوصه نفس المبادئ التي أخذت بها معظم التشريعات الماثلة . بيد أنه يخطط في بعض المسائل خطة خاصة وقد يجاوب أحياناً بعض المبادئ الدولية المتفق عليها .

ولا شك أن حقوق التأليف وحمايتها ومدى هذه الحماية هي لب القانون . وقد أخذ المشروع الجديد في مدى هذه الحماية بالرأى الأكثر اعتدالاً ، فجعلها مدى الحياة وثلاثين عاماً بعد وفاة المؤلف (المادة ٢٣) . والواقع أن معظم الدول يأخذ في ذلك بمدد أطول ، ففي إنجلترا وفرنسا والسويد والنرويج ودانماركه والبلجيكا تمتد الحماية مدى حياة المؤلف وخمسين عاماً بعدها ، وفي إيطاليا تطبق الحماية مدى حياة المؤلف أو لمدة أربعين عاماً من تاريخ النشر ثم لأربعين عاماً أخرى بعد ذلك . وفي أسبانيا تمتد الحماية مدى ثمانين عاماً بعد الوفاة . وفي هولنده تمتد إلى أطول الزمنين حياة المؤلف أو خمسين عاماً . وفي أمريكا تمتد إلى ثمانية وعشرين عاماً من تاريخ النشر ، وتجدد لمدة أخرى مما يجعل مدى الحماية ستة وخمسين عاماً . وأما الدول التي تأخذ بمبدأ الثلاثين عاماً بعد الوفاة فهي ألمانيا والنمسا وسويسره واليابان . والظاهر أن اللجنة القانونية لجامعة الدول العربية تأثرت في تفضيل هذا المبدأ بالظروف المحلية ، فلم ترد أن تبالغ في حبس الانتفاع بالإنتاج العلمي والأدبي لمدة طويلة في بلاد لا تزال في بداية نهضتها الفكرية . بيد أن اللجنة نسيت أن استثمار المنتجات الفكرية لم يصل لدينا بعد إلى درجة من الازدهار تمكن المؤلف من التمتع بثمار إنتاجه على نطاق واسع وفي مدى قصير . والثلاثون عاماً التي تمتد إليها الحماية بعد وفاته قد لا تكفي لإصدار طبعة أو طبعتين من مؤلفاته ، وبذلك يقع الغبن على ورثته . وكان الأفضل في رأينا أن تأخذ اللجنة بمبدأ الخمسين عاماً بعد الوفاة ، على أن تضع لذلك بعض التحفظات على نحو ما يأخذ به القانون الإنجليزي حيث يجوز

نشر المؤلف بعد مرور خمسة وعشرين عاماً على وفاة المؤلف إذا وجدت لذلك مبررات عملية واتبعت إجراءات خاصة .

ويأخذ المشروع الجديد بمبدأ أشد فيما يتعلق بالشخص المعنوي ، فيجعل مدى الحماية لحقوق التأليف ثلاثين عاماً فقط من تاريخ النشر (المادة ٢٥) وفي ذلك إجحاف ظاهر بحقوق الهيئات العلمية والأدبية التي تشتغل بالنشر بل فيه ما يهدد كيانها .

وفما يتعلق بالمؤلف الذي ينشر على أجزاء يجعل احتساب مدى الحماية بالنسبة لكل جزء على حدة كأنه مؤلف مستقل (المادة ٣٠) وفي ذلك تجزئة للحماية بالنسبة للمصنف الواحد يترتب عليها اضطراب في مزاولة الحقوق .

ومن المسلم به أن الترجمة هي جزء لا يتجزأ من حقوق التأليف ، وهذا ما يقره مشروع القانون في مادته العاشرة . ومع ذلك فإن المشروع يحاول أن يضع حلاً خاصاً لمسألة الترجمة إلى اللغة العربية بالنص على سقوط الحق في حمايتها بعد مرور عشر سنوات على تاريخ أول نشر للمؤلف أو إذا انقضت سنة من تاريخ طلب الترخيص بترجمتها من المؤلف أو صاحب الحق (المادة ١١) . وقد تشعبت الآراء في هذه المسألة حسباً يبدو من محضر أعمال اللجنة . والظاهر أن الاتجاه الذي غلب على اللجنة هو أن المبدأ الذي وضعته الاتفاقات الدولية في برن و برلين وهو أنه لا تجوز الترجمة إلا بإذن صريح من المؤلف أو صاحب حق النشر يعتبر مبدأ قاسياً بالنسبة للبلاد العربية ؛ إذ الواقع أن الآداب العربية تجوز اليوم فترة نهوض وانتقال ، والترجمة عن المصنفات الغربية عنصر من أهم عناصرها . وقد صرح مندوب مصر في اللجنة بأن قسوة النص الخاص بمسألة الترجمة في اتفاق برن هو الذي حمل مصر على التردد في الانضمام إلى اتحاد برن الدولي . ولهذا رأت اللجنة أن تضع هذا النص التمهيدى بحماية حق الترجمة لمدة عشر سنوات فقط على أن تبدي كل دولة من الدول ذات الشأن رأيها في ذلك .

ونحن مع تقديرنا للبواعث التي حدت للجنة إلى اتخاذ هذا الموقف بالنسبة لمسألة الترجمة ، ومع تسليمنا بأن الترجمة ما تزال من أهم العناصر في تدعيم الآداب العربية ، فإننا نخالف اللجنة في هذا الاتجاه ، وذلك لأسباب أدبية بالأخص . ذلك أنه لا يسوغ لنا أن نستحل تراث التفكير الغربي بهذا اليسر والتساهل

في تقدير حقوق الغير . وعلى ذلك فإنه يحسن بنا أن نحترم المبدأ الدولي في هذا الشأن إذا كنا نعتزم بعد إبرام التشريع المقترح أن ننضم إلى الاتحاد الدولي الخاص بحقوق التأليف لكي يتمتع المؤلفون في البلاد العربية بحق الحماية المتبادل في الدول الأخرى المنضمة إلى الاتحاد ، أو يجب علينا على الأقل أن نحدد لحماية حق الترجمة أجلاً أطول كخمس عشرة عاماً مثلاً على أن يكون ذلك بطريق التبادل إذ يتاح نقل المصنفات العربية أيضاً إلى اللغات الأخرى . وقد دلت التجارب على أي حال أنه لم تقم إلى اليوم في سبيل الترجمة إلى العربية عوائق خطيرة ، وأن المؤلفين والناشرين الغربيين يرحبون على الأغلب بإجرائها دون مقابل أو نظير مقابل معقول .

ومن جهة أخرى فقد نص مشروع القانون في المادة السابعة عشرة على أنه يجوز للصحف والمجموعات الدولية أن تنقل المقالات العلمية أو الأدبية أو الروايات المسلسلة والقصص الصغيرة التي تنشر في الصحف والمجلات والمجموعات الأخرى ما لم ينص على عدم جواز النقل . وهذا النص يناقض المبدأ المعمول به في اتفاق برن الدولي وفي جميع قوانين البلاد المنضمة إليه . وتنص المادة التاسعة من اتفاق برن على أنه مع استثناء الروايات المسلسلة والقصص الصغيرة يجوز لأية صحيفة أن تنقل مقالا نشر في أية صحيفة أخرى على شرط أن تقرن النقل بذكر المصدر ، هذا إلا إذا كان النقل ممنوعاً بنص صريح . وعلى ذلك فإن مشروع القانون الجديد يرفع الحصانة عن الروايات المسلسلة والقصص الصغيرة ، وهي اليوم من أعظم عناصر الإنتاج الغربي ، وقد أخذت تغدو أيضاً عنصراً هاماً في إنتاجنا المحلي . وربما كانت بواعث الميل إلى هذه الإباحة هي نفس البواعث التي حدت بواضعي المشروع إلى التساهل في أمر الترجمة . وما يجدر ذكره أن المشرع المصري قد اتبع في المشروع الذي وضعه في سنة ١٩٢٧ أحكام التشريعات الأوربية الماثلة ونصوص اتفاق برلين ، فنص في المادة السادسة عشرة على حظر نقل المقالات العلمية والأدبية والروايات المسلسلة التي تنشر في الصحف في صحف أخرى دون إذن مؤلفها . واعتبر هذا الإذن ضمناً فيما عدا الروايات المسلسلة والقصص الصغيرة إلا إذا اشترط منع النقل بصورة واضحة . وهذا النص أفضل في روحه ومبناه من نص المشروع الجديد ، وهو في الواقع أكثر تمشياً مع قواعد العدالة والإنصاف .

وقد نصت المادة العشرون من المشروع على إباحة النقل من الكتب المعدة للتعليم وفي مؤلفات النقد والتاريخ وفي المصنفات العلمية ، وذلك في حدود الاعتدال « على ألا يشمل هذا النقل كل المصنف » . ومع التسليم بإباحة النقل خدمة للأغراض التعليمية والثقافية فإن هذا التعميم فيه تجاوز وإسراف ، ومن المستحسن أن يقرن ببعض التحفظات التي تحول دون الإجحاف بحقوق المؤلفين . ولم يخل المشروع الجديد مع ذلك من بعض المبادئ المستحدثة ؛ فهو مثلاً يعطى المؤلف الحق في المطالبة بجزء من الأرباح التي تنتج من استثمار مصنفه وذلك علاوة على ما يكفله له الاتفاق الخاص بذلك إذا تبين أن في هذا الاتفاق غبناً له أو لم تراعى في وضعه ظروف لم تكن في الحسبان وقت وضعه (المادة ٤٨) كما يعطى المؤلف الحق في سحب مؤلفه من التداول إذا طرأت أسباب أدبية خطيرة تدعو إلى ذلك أو إذا رغب في إدخال تعديلات جوهرية عليه ، وذلك بالرغم من تصرفه في حقوق امتيازها (المادة ٥١) .

وأما فيما يتعلق بأحكام الباب الثالث الخاص بالجزاءات فنلاحظ فيما يختص بمصر أن الاعتداء على حقوق التأليف أو إصدار الكتب المقلدة أو بيعها هي جرائم تناولها قانون العقوبات المصري (المواد ٣٤٨ وما بعدها) . وإذا فلا داعي لتكرارها في القانون المتعلق بحقوق التأليف . وفي نظرنا أن ما ورد في المادة الثانية والخمسين تكرار لا محل له . وعلى أي حال فمن الواجب أن يكون التناسق تاماً بين القانونين فيما يعرض له كل منهما من أحكام متماثلة . ونلاحظ أخيراً أن مشروع القانون يشير في مادته الستين إلى حرمان المصنفات الأجنبية التي تصدر في بلد أجنبي من الحماية إلا إذا تمتع رعايا الدول العربية بمثل هذا الحق بالنسبة لمصنفاتهم في هذا البلد الأجنبي والبلاد التابعة له ، أو بعبارة أخرى يعترف المشروع بأهمية الحماية الدولية . ومتى كان الأمر كذلك فقد وجب أن يكون المشروع في أحكامه الجوهرية متمشياً مع أحكام التشريعات الدولية الماثلة ، وهو ما لم يتوافر في كثير من نصوصه حسبما أسلفنا . هذه بعض ملاحظات أثارها مشروع القانون الجديد لحماية حقوق التأليف . وقد اقتصرنا فيها على ما تعلق منه بالناحية العلمية والأدبية . أما ما يتعلق بالناحية الفنية فقد تركنا الكلام فيه إلى ذوي الاختصاص . وفي رأينا أنه يجب إعادة النظر في كثير من أحكامه وخصوصاً ما كان منها معارضاً للمبادئ الدولية

المعمول بها . ذلك أن الحماية التي نسبها على حقوق التأليف تكون ناقصة إذا لم تكن حماية عامة شاملة تتناول سائر البلدان . ولا يقوم التبادل في الحماية إلا على قاعدة التماثل في المبادئ العامة . وقد أصبحت مصر والدول العربية الآن أعضاء في هيئة الأمم المتحدة وفي لجانها الفنية والثقافية . ومن المتعذر عليها أن تنفرد في الأخذ في هذا الموضوع بمبادئ وأحكام لا تتفق تمام الاتفاق مع ما يقتضيه روح التضامن الدولي في الشؤون العلمية والثقافية .

محمد عبد الله عنانه

فى الفن

وقفة خالدة

كان لاوكون راهباً يونانياً ، عرف بحبه لابنيه وحده عليهما ، كما عرف بحبه لأثينا وإخلاصه لها مدى الحياة . وكان هذا الراهب يعبد الإلهة منيرفا ، عبادة خالصة ، ولكن تحول عن عبادتها إلى عبادة إله البحر بسويدون . فأرادت منيرفا أن تنتقم منه فسلبته نور عينيه ، ثم أمعنت فى عذابه بأن سلطت أفعيين هائلتين على ابنه فافترستاها ، ولم يستطع الوالد المتفانى فى حب ولديه أن يدفع عنهما شر الموت . فكان هذا الصراع العنيف الذى جاهد به ، ثم هذا الإخفاق الحزين الذى آب به مضرب المثل فى انتقام الآلهة ممن كفر بها .

وفجرت مأساة هذا الراهب الذى كفر بإلهته فانتقمت منه وحى الشعراء والمثاليين ، فصوروا المأساة بطرق مختلفة صوراً عديدة ، لم يصلنا منها إلا صورتان خالدتان . أما الأولى فهى الأبيات التى خصها فرجيل فى أنيادته بهذا الراهب وقصته . وأما الأخرى فتمثال رائع لمثال يونانى لم يعرف اسمه محفوظ فى الفاتيكان . وجذب هذا التمثال الرائع أنظار زائرى المتحف ، فكتبوا عنه واصفين معجبين محاولين تحقيق تاريخه فى كثير من الإيمعان . ولكن الزمن لم يخلد لأحد من هؤلاء الزوار وقفته أمام هذا التمثال ؛ حتى كان منتصف القرن الثامن عشر ، عندما وقف أمام تلك الآية الخالدة من آيات الفن القديم ، رجل هزيل الجسم ، قد خط الحزن على جبهته سطوراً كثيرة عميقة ، لو قد امتد الزمن بصاحبها أكثر مما امتد لازدادت عدداً وعمقاً ؛ فلقد كان من هؤلاء الذين كتب عليهم أن يلموا بالحياة إلمامة قصيرة مفعمة بالأحداث الحزينة ، حتى إذا رحل عنها لا يملك من هذا الكد المتصل العنيف ما يكفل لجسد دفناً محترماً ، صحا الناس فجأة فتنهبوا إلى علو مكانته وما كان يجب له من سعادة ، بل من تشجيع وإكرام وإجلال فى هذه الحياة التعسة القصيرة التى حيها .

وقف الناقد الروائى العظيم جوتهلد إفرايم لسنج أمام تمثال لاوكون يوماً

في الفاتيكان وقفة خلدت اسمه في عالم النقد ، ورفعته من روائى ممتاز وأديب كبير إلى ناقد عبقرى فذ . فلقد وقف أمام التمثال وأخذ يتأمل ويتأمل . وعاد إلى ذاكرته ماقد حفظ من شعر لاتيني ، في وصف مأساة هذا الراهب ، وأخذ عقله المتعب اليقظ يقارن ويسائل ويحاول أن يصل إلى أشياء لم يكن يتبينها ، ولكنها كلها تصب في نهر واحد . لماذا اختلفت صورة لاوكون حجراً عنها شعراً ؟ أنقل الشاعر عن المثال ، أم المثال عن الشاعر ، أم تقلا عن مصدر مشترك ؟ وهل هذا الفرق ينطبق في جوهره على سائر ما عرف عن تماثيل صور بها أصحابها ما قد جاء في شعر هوميروس من قصص ومأس ؟

وما كادت الشعلة تنقد في رأس لسنج حول هذه الآية من آيات الفن ، وما يمكن أن تمثل من فرق بين فنى الشعر والنحت ، حتى علا لهيها وعم نورها وانتشرت نارها ، وكثرت الأسئلة وتزاحمت . وعاد لسنج في هذا اليوم إلى مكتبه مكدوداً تعباً ، يحاول أن يصور من هذه الأسئلة التى تلح على رأسه شيئاً فلا يستطيع . ومرت أيام وأيام ، وكتب لسنج شيئاً ونسى أشياء ، وعاد وكتب شيئاً ونسى أشياء ، حتى استوت الفكرة آخر الأمر قائمة ، وحتى استطاع أن يخرج إلى عالم النقد نظرية قوية ثابتة لم تعارض إلى اليوم . بل إننا تنادى فنطبقها على أوسع مما اشتملت عليه ، فتستمر صحيحة قوية تنير لنا أشياء كثيرة نحسها في عالم النقد ، ولا نجد أحياناً مايفسرها أو يعبر عنها .

ولما اجتمعت لدى لسنج جملة مقالات في هذا الموضوع أخرجها لنا كتاباً إن يكن متوسط الحجم فهو عميق الفكرة متسع الأفق ، يشمل كثيراً من النقد القيم حول شعر هوميروس وما قد تفجر عنه من تماثيل خالدة ، بل قد يشمل أيضاً شيئاً من شعر المحدثين وآيات فهمهم هم أيضاً .

وماذا أراد لسنج أن يقول بكل هذا ؟ إنه لم يرد أن يقول شيئاً كما يعترف . وإنما هى خواطر عديدة متفرقة خطرت له نأخذ في تدوينها ، لا يتبع نهجاً ولا يسير على خطة . وإذا الفكرة آخر الأمر تقوم بنفسها وحدها كما ينبت النبات الوحشى الجميل . إن الفرق الذى لفت نظره بين لاوكون في تمثال هذا الفنان المجهول وبينه في شعر فرجيل ، لهو فرق يأتي من طبيعة الفنين : فن النحت أو التصوير ، وفن الشعر أو القول .

وقديما حاول النقاد محاولات عدة أن يفرقوا بين الفنون . فلقد أحس اليونان

قبل الميلاد بقرون وقرون ، أن لهذه الفنون ميادين مختلفة ، يوم نصبوا لكل فن منها آلهة ترعاها . فلم يكن عبثاً جعلهم للفنون سبعة آلهة ، كل منها اختصت برعاية فن دون غيره . ولكننا في القرن الخامس قبل الميلاد وعند أرسطو في كتاب الشعر ، نجد نضوجاً قوياً للاحساس بهذه الفروق . فلقد سجل أرسطو أن هناك فنوناً شكلية لها جسد وكيان خارجي ، وفنوناً ليس لها في عالم الواقع شكل أو جسد : وجعل أساس التفرقة بين النوعين من أنواع الفن لا مامتاز به كل منهما من الآخر ، ولكن ما اتجه إليه كل منهما من حاسة في الإنسان . فهذه فنون يتلقاها البصر ، وتلك أخرى يتلقاها السمع ، والشعر من الأخيرة . ولم يحاول أرسطو ولا من جاءوا بعده لنحو عشرين قرناً أن يجدوا لهذه الحقائق نتائج تتبعها لها أثر في طريقة إخراج الفنان .

وما أخذت النهضة في أوروبا تم بلدانها وترحف مشرقة نحو ألمانيا ، حتى تصدى لمثل هذه المسائل التي شغلت أذهان الناس تقدة ألان عرفوا بما عرف به شعبهم من القدرة الفائقة على التحليل واستخلاص النتائج ، حتى إنهم ليعدون في ذلك إلى حد الإفساد أحياناً . وإذا كلام يدور حول الجمال وتحديد له ودرسه ، وماذا تحقق الفنون على اختلافها من ظواهر ، وماذا تستطيع الفلسفة أن تكشف عن جوهره ، وإذا كلام عن آيات الفن اليوناني القديم ، يكثر في المجلات والمجالس والكتب ، يمثل آثار النهضة في مثل هذه الميادين ، وكلما سار الزمن بهؤلاء النقدة نضج تفكيرهم وكثرت استعانتهم بالأمثلة من شعر هوميروس وفرجيل ، والمقارنة بين صور الشعر وصور النحت لهذا التاريخ الفني اليوناني القديم . ويقرأ لسنج هذه الكتب ، ويسمع لهؤلاء الناس ، فلا يجد فيما يقولون بغيته ، حتى يقف في هذا اليوم المشهود أمام تمثال لاوكون في الفاتيكان .

وكان أول ما أثار تفكيره عن الفرق بين الصورتين أن أثرهما في النفس يختلف . فالراهب في شعر فرجيل رجل عظيم ، ولكننا ننسى عظمته إلى حين في هذا الموقف بالذات من مواقفه ؛ لأننا نرى أمامنا آدمياً يتعذب مثلنا ويصرخ من الألم ، حتى ليلاً صراخه جنبات الوادي السحيق . إن راهب فرجيل كان مبصراً لا يرى صراع الأفعيين مع ابنيه ، ولكنه يصارعهما هو نفسه لأنهما سلطا عليه وعلى ابنيه معه . وهو يصرخ هذا الصراخ المدوي ، فنحس نحوه بالألم والشفقة ، بل إنا لنكاد نبكي معه من فرط ما يلقي من عذاب . أما الراهب

حجراً فهو يثير فينا شعوراً آخر . إنه يألم ، ولكن في صمت وصبر وجلد وثبات إنه الرجل العظيم الذي يقهر الآلام الانسانية في عظمة وجلال ووقار وهيبة . وإذا نحن نألم له على نحو آخر ، إننا نألم لألمه والاعجاب يملأ نفوسنا من ثباته وجلاله ، بل إننا نكاد نصفق له بدل أن نبكى معه .

قال لسنج : من أين أتى هذا الفرق بين الصورتين ؟ ترى لو قد أراد المثال أن ينقل إلينا صورة راهب فرجيل ، أميناً مخلصاً في تفاصيلها ، أكان مستطيعاً ذلك ؟ أكان يمكن أن يصور هذا الراهب في لباسه الكهنوتي ؟ كلا ! فان هذا اللباس وحده كان كافياً لإخفاء معالم الجسد كلها . والجسد في المثال كل شيء . إن أجمل لباس في الدنيا لا يمكن أن يعدل جمال هذا الجسد الانساني العارى ؛ لأنه قادر على التعبير ، وليس اللباس بمستطيع شيئاً إلى جانبه في هذا الميدان . أنظر إلى البطن وقد دخل فأوحى بالكبت والألم . وانظر إلى عضلات الصدر وقد عبرت عن جهاد فظيع لألم مروع . وانظر إلى الأفاعى نفسها ، إنها قد انتحت عن هذا الجزء الأعلى من جسد الراهب ، لتترك لتلك العضلات حريتها في التعبير . فما كان لوصف في الوجود أن يعادها في قوة التعبير عن غاية الألم . ثم هذه الأذرع الممتدة وقد شلت عضلاتها وظهرت معالمها واضحة لترينا قوة الراهب في هذا الصراع المميت . وراهب المثال لو قد صرخ كما صرخ راهب الشعر ما تجلت قدرة هذه العضلات جميعاً في التعبير عن الثبات والتجلد ، والشدة والمعاناة ، بل إنه لو قد صرخ لفتح فاه ولكانت هذه الفجوة السوداء في هذا الوجه المعبر عن أقصى درجات الألم تشويهاً وانتقاصاً من جمال الخطوط الفنية ، التي تسير في تناسق وتناسب ، من قمة الرأس إلى أسفل القدم . ولو قد أراد المثال أن يكون أميناً في نقل صورة الشعر لجعل هذا الراهب يحاول أن يعدو ويقفز من الأفعيين ليتخلص منهما ، ولكنه في الحجر واقف ، ولا يمكنه إلا أن يكون واقفاً . ولكن المثال لا يصوره واقفاً بلا سبب ، فيناقض الموضوع إخراجاً ، أنه أوجد لوقفته الفنية السبب . فلقد التفت الأفعيان بقدميه التفافة قوية ، منعتهم ومنعت ابنيه عن يمين وشمال من أن يتحركوا جميعاً منعاً قوياً .

إن المثال لا يستطيع أن يصور الحركة بالحجر ؛ لذلك هو يختار جزءاً من الحركة أو وقفة منها ، ليعبر بها عن كل ما يريد من حركة وحياة . وفنه يتجلى

في اختيار تلك الوقفة بالذات أو هذا الجزء المعين من أجزاء الحركة . ولا بد أن يكون هذا الذي اختاره يعبر عن كل ما قد سبق من حركات ، وما سيلحقه أيضاً منها . أنظر إلى تمثال السبع حارس النيل المحفوظ في المتحف البريطاني ! إنه بوقفته يوحى بغاية اليقظة ، بل بالقفز أيضاً ، لأنه يكاد يقفز بالفعل ، ولو قد صور هذا الأسد شعراً لقفز واقترس من تعدى على حرمة ما يحرس ولفعل كل ما أراد ، دون أن يخرج الشاعر أو يجعله يقف ليختار شيئاً من أفعاله بالذات . إن طبيعة الحجر وطبيعة فن النحت الذي يتخذ الحجر مادته ، هي التي جعلت لا وكون عند المثال ثابتاً متجلداً بطلا خالداً ، ولا وكون عند الشاعر آدمياً يصرخ صراخاً يملأ جنبات الوادي ، لأنه في أشد المواقف مدعاة إلى الصراخ والتألم ، وإذا نحن في الشعر نكاد ننسى أنه بطل من أبطال اليونان ، ووطني عظيم من مواطنيها .

والحجر معرض للنظر الدائم المستمر الطويل ، لذلك لا يمكنه أن يمثل قبحاً ، بل هو ملزم بأن يوحى لنا بالجمال . لأننا لا نستطيع أن نعاود النظر إلى قبيح ولا أن نستوحى تشويهاً . لذلك لم تكن عبثاً تلك القوانين التي كانت تسنها الحكومات قديماً فنسخر نحن الآن منها ، وننظر إليها على أنها عبث الطفولة الانسانية . إن هذه القوانين كانت أصدق فهماً لطبيعة الفن مما نظن . لقد كانت تحرم على المثاليين ألا يعرضوا على الناس إلا كل ما هو جميل ، والمثال الذي يعرض القبح يعاقب عليه عقاب من يخالف قانوناً من قوانين الدولة .

إن الشاعر يستطيع أن يصور القبح لأننا لا يمكن أن نرى هذا القبح كله دفعة واحدة ، وإنما بحكم مادته سنراه على أجزاء متفرقة ، على دفعات تتلوها دفعات ، نرى آخر جزء وقد بهتت ظلال الأجزاء الأولى منه . لذلك لن يبلغ في التأثير منا من حيث قبحه ما يبلغه فن النحت أو التصوير ، حينما نراه كله دفعة واحدة بكل بشاعته وبكل ما ينفر من إعادة النظر إليه ، بل إن صورته حجباً تظل عالقة بأذهاننا زمناً طويلاً ومعها آثارها السيئة التي تحدثها في النفس . إن الشاعر أكثر حرية من المثال . لأنه يستطيع أن يصور القبح والجمال ، وهو أقدر منه في تصوير الحركة بنوع خاص ؛ لأن مادته تعينه على ذلك . فمادته كلام يظهر ليختفى ، يسمع أو يقرأ ليأتي غيره ثم غيره ، وهكذا ، كالحركة في تتابع أجزائها واختفاء كل جزء بظهور ما يليه . ولكن الشاعر لا يستطيع أن

يصور صورة كاملة بكل أجزائها مهما حاول ذلك . إنه لا يستطيع أن يوحى لنا بالكل دفعة واحدة ، ولا بد له من رسم الأجزاء جزءاً جزءاً . أليست مادته الخام كلمات لا يمكن أن تقال كلها دفعة واحدة ، ولا يمكن للسمع إلا أن يتلقاها مجزأة ! فإذا حاول شاعر أن يصور وقفة جميلة أخفق في إشعارنا بجمال التناسب والتناسق بين كل هذه الأجزاء التي تؤلف الوقفة الساكنة . ولذلك نرى الشاعر الحق لا يصور لنا منظراً جامداً وإن بدا في ظاهره كذلك . إنه يصور لنا الحركة والحياة من وراء هذه المناظر الصامتة . أليست ترى إلى هوميروس وهو يصف درع البطل اليوناني أشيل وصفاً بارعاً ، لا يحاول حتى أن يوحى لنا بصورة هذه الدرع ، كما لو كنا نراها بالفعل ، مادة جادة . كلا إنه يصفها عن طريق وصف كيفية صنعها . فهذا هو الحفار الماهر وقد جلس إلى الدرع جلسة الفنان ، يصور منظراً منظراً من مناظرها . ما ينتهي من منظر ، بل من جزء منه حتى ينمحي ، ويبدو جزء آخر في حركة وفن وحياة .

ومحدثنا لسنج في سياحة طويلة شائقة عن كثير من صور الشعر والنحت ، التي رسمت صور التاريخ اليوناني الخالد ، مقارناً بين الصورة نفسها في الفنين ، خالصاً آخر الأمر إلى هذه النتيجة المؤثرة في تصورنا الفنين وتقديرنا لهما ، بل نقدهما أيضاً . وهي أن الكلمات أصوات تلقى في الفضاء لا يمكنها أن توجد دفعة واحدة ، ولا يمكنها إلا أن توجد في أذهاننا صوراً متعاقبة سلسلة ، ننسى إلى حد ما أولها عندما نكون نتصور فعلاً آخرها . ولذلك كان الشعر باعتباره فناً صوتياً أليق الفنون للتعبير عن الحركة عن هذا الذي يوجد مثله مجزأً على دفعات . أما الحجر الذي يوحى لنا بالأجزاء كلها دفعة واحدة وفي لحظة واحدة ، ولا بد لذلك من أن يتوافر فيه شرط التناسق والجمال ، فهو أقدر على التعبير عن وقفات بعينها ، توحى لكثرة النظر إليها بالمعاني الكثيرة المتوالدة ، وهو أقدر أن يوحى لنا بالخلود ، وأن يطبع الصور في أذهاننا بحيث لا تبرحها أبداً . ومن هذا الفرق بين طبيعة المادة الخام في الفنين وما يحيط بتلك المادة من ظروف ، نستطيع أن نتبين دقائق الاتجاهات في كل من الفنين ، بل أن نفهم تازيخهما ونتذوق آثارهما في ضوء يجعل لهذا التاريخ عمقاً ما أحسنه من قبل ، ولهذا التذوق طعماً ما لمسنا أسبابه من قبل . ترى لو قد طبقنا نظرية لسنج إلى أبعد مما قد سار بها صاحبها في عالم الأدب

وحده ، ألسنا نخرج من هذا التطبيق أشد اقتناعاً بسلامتها ؟ أنظر إلى المادة الخام وكل ما يحيط بها من ظروف في عالم الفنون الصوتية ، ثم في عالم الفن القولي بالذات ، تجد سلامة هذا التطبيق ومعونته في الوصول إلى نتائج طيبة . فالموسيقى أصوات ، ولكنها أصوات لا يجدها معنى متعارف عليه . فليس بين أنغامها نغم يمكن أن يثير في نفوس الناس صورة مشتركة لشيء بعينه ؛ لذلك كانت الموسيقى أليق من فن القول في التعبير عن الحركة الغامضة ، حركة العواطف والانفعالات العنيفة ، على حين أن وجود المعنى المتعارف عليه لصوت الكلم يجعله أقدر في التعبير عن الحركة المادية أو المعنوية المتضحة شيئاً ما . أو لسان نجد الأديب نفسه كلما قويت عاطفته أرتج عليه فلا يستطيع إلى وصفها بالكلام سبيلاً ! وإذا هو يستعين بالموسيقى ليصور بغموضها هذا الغامض الذي يحسه ، وإذا كلامه يخرج لنا موزوناً مقفى ، يخرج لنا شعراً تغلب عليه الموسيقى فلا نجد لكلامه رونقاً إلا بها . فإذا خمدت العاطفة قليلاً ولست نارت أمام الأديب سبل التفكير فاتضحت له معالم ما يريد أن يصور ، وفي الكلام المحدود بمعنى متعارف عليه بما يريد من غرض . بل إنه كلما نامت العاطفة وصحا العقل عمد إلى أكثر هذه الكلمات تحديداً في معناها ، ليدلنا على فكرته . وهكذا يظهر لك جوهر الاختلاف بين الشعر والنثر ، لمجرد التزام نظرية التفرقة بينهما على أساس المادة الخام . وما يقال في التفرقة بين الشعر والنثر ، يقال في التفرقة بين القصة والخطبة ، والمقال والمسرحية وهكذا . سائل نفسك دائماً ماهي المادة الخام ، وما الظروف المحيطة بها ، وماذا تستوجب تلك الصفات من آثار في الصورة التي يخرج عليها الفن ، فلن تجد لهذه النظرية شذوذاً في النقد ، بل إنك لو اجد منها خير معين ، لا في تصور هذه الفنون القولية وما بينها من اختلاف وتشابه ، فحسب ، ولكن في تذوق تلك الفنون أيضاً وفي الحكم عليها آخر الأمر وأنت تحاول أن تبين مواطن الجمال فيها والقبح .

لقد فطن النقاد قديماً إلى أطراف كثيرة من هذا الكلام ؛ فانا نجد كلاماً مثلاً حول الخطابة وما يميزها من سائر فنون القول ، على أساس أنها تقال لجمهور في مكان عام ، وكلاماً حول ما تمليه هذه الظروف على الخطيب من طرق في التعبير دون سواها . ولكن الذي أذاعه لسنج في عالم الفن لم يكن نضوجاً لتلك الفكرة المبعثرة ، بل إنه فكرة جديدة تؤدي إلى نتائج أعظم من هذه

ويصب فيها هذا القديم لأنه يتمشى معها . وفي ذلك مجرد إثبات للنظرية . ذلك أن القدماء نظروا إلى الموضوع من زاوية بعيدة عن الزاوية التي نظر إليه منها لسنج . إن نظرية المادة الخام وما تطبق هذه المادة من أنواع التعبير بحكم طبيعتها وما يحيطها من ظروف ، فكرة يجب أن نعتزف للسنج فيها بفضل الكشف الجديد . فان تداخل فيها شئ مما قد سبق إليه فان ذلك يزيد من قيمة الكشف ولا يقلل منها لأنه برهان على صحته ، كما يكون ذلك في سائر الكشوف العلمية والعملية التي نعرفها .

وبهذه النظرية ، نظرية التفرقة بين الفنون على أساس ما بين موادها الخام من فروق ، خلدت تلك الوقفة التي وقفها لسنج منذ أكثر من قرنين ، أمام هذا التمثال الرائع من تماثيل متحف الفاتيكان .

سهرير القلماري

جیوش کسرى أنوشروان

لم تهدأ حماسة الشعب ، ولم تسكن خفة طربه الجامح الذى تولاه منذ استوى عاهله كسرى أنوشروان على إيوانه . فقد ظل سبعة أيام تتدفق وفوده صوب القصر الكسرى هاتفة للشاه الجديد هتافاً ما زال يشد ويتقد حتى خرج بها عن وعيها .

وجلس كسرى على عرشه فى تلك الليلة يحتفل بمرور أسبوع على أسعد حادث قديع لانسان ، وقبع إلى يمينه عمه الأكبر ، وإلى يساره عمه الآخر . وامتدت أمامه حلقة دار بها رقص القيان الحسان ، وأحاط بالحلقة العازفون والزمارون يذكون الرقص بأنغامهم الشجية ، ومن وراء هؤلاء جلس أعيان البلاد وسراتها .

أخذ كسرى ينظر إلى ما حوله نظرة الحالم ، وازدحمت فى رأسه الخواطر التى ظلت تهيم عليه طوال الأيام السبعة . كانت هذه الخواطر تدور حول معنى واحد ، هو أنه صار مالك الملك والمتحكم فى رقاب أولئك الناس الجالسين حوله ، والمزدحمين أمام قصره ، والمنتشرين فى أرجاء مملكته . ولما كان الجشع يزداد بازدياد الغنى ، فانه طفق يحلم بتوسيع رقعة ملكه ، ومضاعفة عدد رعاياه ، ثم زخرف له الوهم أمانى حسبها قرية المال ، وهى أن يخضع العالم بأسره لسلطانه الشامل .

وفى أثناء الفترة التى توقف فيها العزف ليستأنف العازفون دوراً جديداً ، ملا الغرفة هتاف السابلة بحياة سيدهم الجديد . وتقدم الوزير فى خشوع إلى ملكه ، وتوسل إليه أن ينزل فيتفضل على عبيده المتشوفين فى الطريق إلى اجتلاء طلعتة الملكية باطلالة قصيرة من نافذة قاعة العرش ليثلج صدورهم ، ويمتع نواظرهم . وتنزل الشاه الخطير وقبل الرجاء ، وتهادى بين صفى الساجدين له إلى النافذة ، فقبل بصيحات طرب تصم الآذان ، وجازى الصائحين على إخلاصهم بابتسامة تم عن رضاه السامى . رأى من خلال أغصان الأشجار

ألوان المصاييح ذات الورق المكور المكسر ، واستطاع أن يتبين على ضوءها ذلك الحشد الزاخر الذى ضاق به شارع القصر على اتساعه ، واطمأنت نفسه إلى دلائل ولاء رعيته . ثم خاض بين الساجدين فى وقار عائداً إلى سدته العلية . ولكنه لم يكد يطمئن فى أريكته بعد عودته حتى توقف هتاف السابلة فجأة ، وساد الشارع صمت رهيب أعقبه هرج ومرج . وأسرع الوزير إلى النافذة ليتبين ما حدث ، فانخلع قلبه إذ رأى فلول الجماهير تولى الأدبار متوارية فى الأزقة المظلمة ، وإذ سمع الكلمة الرهيبة تتهدج كالخشركة فى أفواه الجازعين : « الثوار . . . الثوار » .

وهبّ الشاه واقفاً وقد أفقده الجزع وقاره ، وجالت عيناه ذات اليمين وذات اليسار . وتقدم خطوتين ثم نكص فى ارتياح على عقبيه . وجرى بعض الحضور من علية القوم إلى النافذة يستزيدون من أخبار ما يجرى خارج القصر . وتردد بعضهم الآخر لا يدرى أ يظهر للشاه عطفه وعزمه على الدفاع عنه حتى الموت فيتعرض لسخط الثوار فى حالة فوزهم ، أم يعرض عنه فيتعرض لسخطه فى حالة إخفاقهم .

وخاب أمل الشاه فى شعبه بعد أن كان موقناً منذ برهة من ولائه له . وتقوض على حين فجأة صرح آماله الباسق ، ولم يعد يملأ رأسه فى تلك اللحظة إلا خاطر واحد ، هو الاهتداء إلى مخرج من حرج المأزق الذى وقع فيه . ولم يجرؤ وزيره الذى نعم بآلاء أبيه على التخلي عنه وخذلانه فى محنته ، فأسرع إليه واقتاده إلى باب النفق السرى الذى أعد من قديم لمثل هذه المناسبة المنكودة . وهول وراءهما الأميران اللذان كانا يزينا العرش منذ برهة يجلس أحدهما إلى يمينه والآخر إلى يساره . وقال الوزير لساتته وهويهم باغلاق الباب السرى وراءهم : « سينتهى بكم هذا النفق إلى بئر مهجورة ذات سلم صاعد إلى وجه الأرض ، وستجدون هناك ثلاثة جياد لن يعجزها قطع المسافة القائمة دون الحدود . . . وأتمنى لكم التوفيق » . ورجع الوزير أدراجه ليعد الجياد الثلاثة ويرسلها إلى البئر المهجورة . أما السراة والأعيان الذين خذلوا مليكهم ، فقد استعدوا فى قاعة العرش لاستقبال التأثير بهرام ، وللمناداة به شاها على بلاد الأكاسرة . وبينما كان هذا الأخير يستقبل حياة جديدة حافلة بالعز والمجد والرفاهية ، كان كسرى يستدبر مثل تلك الحياة ، ويودع كافة آماني الدنيا

إلا أمنية واحدة . كان يتمنى أن تكتب له النجاة ، وأن تتاح له حياة لا يشترط لها شروطاً ، بل يرضى بها ولو كانت أتعس من حياة أتعس رعاياه
 تنكَّب الشاه وعماه اللذان صحباه الطريق السوى ، ولاذوا بالطرق الجبلية الوعرة يقطعونها تحت أستار الظلام ، ويأوون إلى الكهوف المعتمة طوال النهار ، فكان نهارهم أسود كليلهم سواء بسواء . ولم يكل الشاه ولم يتعب ، ولم تهدأ ثائرة خوفه . وكانت حوافر خيله التى تنهب الأرض تزعجه لأن الوهم أدخل فى روعه أن الثوار قد يسمعون وقعها ، فكان يكبح جماح جواده ويطلب إلى رفيقيه تخفيف سرعة العدو . ولكن سرعان ما كان الوهم يصور له من جديد أن أعداءه فى أعقابه وعلى وشك اللحاق به ، فيختلف رأيه ، ويلهب ظهر جواده بسوطه ، ويندفع بين الصخور الزلقة التى قد تكون أشد خطراً عليه من ملاحقة الثوار .

ومر على الطريد الشريد ورفيقه أسبوع لشد ما اختلف عن سابقه . أسبوع جزع وشدة وقنوط ، على حين قد امتلأ الأسبوع السابق بألوان الدعة والرفعة والأمل البراق . وأدرك عندئذ أولئك الهائمون على وجوههم أنهم صاروا بمنجاة من طائلة الثوار ، فأخذوا يتخيرون النجعة المناسبة للالتجاء إليها . وأشار الأميران بالتوجه إلى الجنوب صوب الحجاز أو اليمن منوهين بما جبل عليه العرب من حسن الضيافة وإغاثة الملهوف ، ومتوجسين خيفة من الروم الذين تأصلت كراهية الفرس فى نفوسهم . ولكن الشاه الذى بدأ يطمئن على حياته لم يشاركهم فى رأيهم ؛ لأن سراب الأمل عاد إلى مداعبته ، وأوحى إليه أن إمبراطور الروم قادر من دون العرب على إسداء يد المعونة إليه ، وإمداده بجيش يمكنه من استرداد ملكه . وغرَّب الركبان الجياع الواهنون فى اتجاه بلاد الروم لأن أمر الشاه مكتوب له النفاذ ولو كان صاحب الأمر مخلوعاً منبوذاً . ولم يلبثوا أن اعترضت سبيلهم ربوة لم يكادوا يتبوءون قماتها حتى أشرفوا على مدينة رومية تقع على الحد الفاصل بين بلادهم وبلاد الروم . وخفقت قلوبهم وتنزَّت بين جوانحهم لاقتراب الساعة التى سيتقرر فيها مصيرهم . وشطح بهم التخمين ورجَّحهم بين اليأس والأمل . والتمس كسرى الخلاص من عذاب خواطره المضنية بأعداد الحديث الذى سوف يلقي به بين يدى العاهل الذى يقصده ، وإحكام الحجج التى سيدلى بها إليه ليقنعه بضرورة معاونته على إخضاع

مغتصبى عرشه . ولم يشعر ثلاثهم ، وهم فى شغلهم الفكرى الشاغل ، بطول المسافة التى قطعوها إلى تلك المدينة ، ولم يفيقوا من سبحات فكرهم إلا وهم وقوف على باب السور الكبير .

رحب بهم حاكم المدينة وأكرم مشواهم . وقد أدهشهم أن يعلموا منه أن نبأ الثورة وما أعقبها من انتصار بهرام وهروبهم وصل إلى علمه منذ يومين ، وأنه أرسل إلى إمبراطوره رسولا يستطلع رأيه فى شأنهم لأنه توقع مرورهم بمدينته . وضائق الدنيا فى وجه كسرى وثقلت عليه خطوات الزمن وهو ينتظر قرار عدوه فى شأن مصيره .

وحان الفرج بعد شدة الحرج ، ووصل وفد من قبل الامبراطور موريق إلى هيرابوليس ، وهى المدينة التى تزلها كسرى وقضى بها حقبة عسيرة لم يعرف خلالها أهو أسير مقيد أم ضيف مكرم . وسمع هذا اللاجئ الحائر ، وهو لا يكاد يصدق أذنيه ، من رسل قيصر الروم ، أن سيدهم سعيد بالتجاء عاهل الفرس إلى بلاده ، وأنه يود أن ينعم بلقائه فى القسطنطينية ليظهر بنفسه مبلغ اغتباطه بهذه الزيارة الميمونة .

وانتشر بين الناس نبأ قدوم الشاه إلى بلادهم وترحيب قيصرهم به ، فخرجوا فى كل مدينة مر بها وهو فى طريقه إلى القسطنطينية لاستقباله ، وأظهروا له من دلائل الابتهاج بمقدمه ما أثار عجبه . ولو اطلع على ما يدور بأخلاقهم لهاله أن يعلم أنهم أملوا من وراء وقوعه فى أيديهم أن يتخذوه وسيلة لتغلغل جيشهم إلى قاعدة ملك أعدائهم . وبعد رحلة طويلة هونّت عليه مظاهر إجلاله وإكباره مشقتها ، وصل إلى شاطئ البسفور حيث استطاع أن يلمح فى شاطئه المقابل معالم القسطنطينية التى كان يطمع فى القدوم إليها غازياً ، وما ابتعدت السفينة التى استقلها لاجتياز المضيق عن الشاطئ قليلاً حتى أمكنه أن يتبين أعلام الزينة التى نصبت فى عاصمة بلاد أعدائه احتفاءً بمقدمه إليها .

رست السفينة إزاء حديقة القصر الامبراطورى ، وكان سيد القصر واقفاً بين وزرائه وكبار رجال حاشيته لاستقبال زائره . وما التقيا حتى طوق كل منهما الآخر فى عناق حار ، وبدا الحصان اللودان كأنهما صديقان هيان . واقتر ثغر كل منهما عن أعذب البسات ، فى حين لم يفكر كلاهما إلا فى أمثل طريقة يستطيع أن يستغل بها صاحبه .

ولم يعن كسرى بما حوى قصر بيزنطة الفاخر من روائع التحف التى ترمى إليه صيتها وهو لم يزل فى بلاده النائية ؛ فقد شغل عنها فى هذه الآونة العصبية بتهاك نفسه على معرفة النية التى يبيتها له مضيفه . وبعد جولة فى أنحاء ذلك القصر الفاخر جلس الضيف والمضيف فى شرفة شرقية تطل على القرن الذهبى حيث تبرجت الطبيعة عن أروع فتنها . وما وقع لمخلوق أن رأى تلك الفتن إلا بهر بها وأخذ أخذاً . ولكن نصيبها من اهتمام كسرى لم يكن أوفى حظاً من نصيب التحف والرياش البيزنطية التى مر بها منذ هنية وألقى عليها نظرات شاردة .

أخذ يتحدث إلى جلسه فى أمر استعادة ملكه . وقال له فيما قال إن الكارثة التى أصابته لا تتعلق به وحده ، لأن كل ذى سلطان معرض لمثلها ، فهى تتعلق بالملوك جميعاً . ومصلحتهم تقتضى التكاتف والمعاودة فى حالة نزول أية ملامة بأحدهم ، حتى يطمئن كل منهم إلى حصوله على العون نفسه فيما إذا احتاج إليه ، وحتى لا يحدث أى طامع فى الملك نفسه بالثورة على مليكه . وتكلف قيصر الروم العطف على المستعين به ، وتظاهر بأنه اقتنع كل الاقتناع بالآراء السديدة التى أدلى بها ، وعاهده على أن يحيش له جيشاً جراراً يضعه تحت تصرفه . ووقع كسرى فى الغفلة التى يقع جل الناس فيها ؛ لأنه لم يفتن إلى أن موريق قد يكون مثله فى طمعه وفى تحرقه إلى بسط سلطانه على بلاد غيره من زملائه الملوك .

اطمأنت نفسه ، وشاعت الغبطة فى كيانه ، وسرّح طرفه فى ألوان الطبيعة المتلائلة أمامه ، فرأى جمالا لا يطيف مثله بخيال الشعراء ، وتعاون الأمل الجديد المنبثق فى نفسه مع حسن المناظر المتجلية له على تهيئة جو حوله من السعادة لم يعرف مثله حتى أيام تتويجه السعيدة .

وجاء الليل بخواطره السود ، وأقضى مضجع كسرى التفكير فى أولئك الثوار الذين أزعجوه وشردوه ، وجعل يتخير لتعذيبهم أبشع الوسائل ، ويفتر ثغره عن بساط رهيبة وهو يفكر فيما يفكر فيه . ولم تحدث له فكرة استرداد سلطانه بعض النعيم الذى أحدثه شعوره بقرب إشباع شهوة انتقامه .

ولم يضيع موريق هنية من الوقت عبثاً . وأشرف بنفسه على الاستعداد لغزو البلاد التى طالما حلم بضمها إلى أملاكه . ولكن كسرى القلق المتبرم

كان يستبطن ذلك الاستعداد متهماً الروم بعدم المبالاة بأمر تلك الحملة التي تورطوا في تجريدتها لمجرد مرضاته . وبعد انتظار مضمّن مشحون بلواعج الضجر والسأم تم له ما أراد . وسار ملك الفرس على رأس جيش أعدائه ليفتك بجيشه ويرغم أنف رعيته .

توغلت كتائب الروم في أراضي الجارة المخوفة ، ولولا قيام الشاه على رأس الغزاة لقهرهم الجزع قبل أن يقهرهم أعداؤهم . ومر يوم بعد يوم دون أن يظهر للخصم المرتقب أثر . وعاود الشاه المتعطش لسفك الدماء ضيقه وتملله ، وزاده هذا الضيق والتحمل حرصاً على التشفى والأخذ بالثأر . وفي عشية أحد الأيام جاء المستطلعون الروم نبأ وضع حدّاً لذلك الانتظار المل . قالوا : إن جنود الفرس يرابطون على شاطئ نهر الزاب القريب .

طاف ترسيس قائد الروم في صحبة الشاه بفصائل جيشه متفقدّاً مبلغ أهبتها للالتحام بالعدو . ولم يغب عن الجند أن سيد الفرس كان أكثر لطفة على قهر بلاده من قائدهم . وخيم الليل وسجا ، واعتل نسيمه ، وانتثرت نجومه ، وأتاحت الطبيعة للقوم نعمة الاستمتاع بسحرها . ولكنهم انصرفوا عن هذا النعيم إلى التفكير في نار الجحيم التي سوف يصلونها في الصباح التالي . وانقضت ليلة رهبة اختلجت فيها القلوب ، واضطربت الأعصاب ، وبات الجميع يذكرون الموت الذي يترصدهم إلا كسرى الذي لم يكن يفكر إلا في استرداد عرشه ، وفي الانتقام من أعدائه .

وما كاد فجر اليوم التالي يرسل أشعته الأولى حتى مشى كل من الجيشين إلى الآخر في حذر وتهيب . ولم تلبث الواقعة أن وقعت ، والتحم الفريقان في قتال بذل أحدهما فيه دماؤه ليحتفظ بهرام بعرش الأكَسرة ، وبذلها الآخر ليشبع موريق مطامعه ويوسع رقعة ملكه . ولولا وصول الشاه سالماً إلى بلاد الروم واستعانتة بعاهلها لما أريقت تلك الدماء ، ولا بذلت تلك الأرواح .

ولم يشترك كسرى أنوشروان في المعركة ، ولم يُزج الصفوف تحت الدُّرّفس كما ظهر في نقوش أنطاكية ، ولكنه وقف مع عميه على ربوة عالية يرقب المعركة التي كانت تدور على آخر مرمى بصره ، ويغتلى غيظاً لقصور نظره عن تمييز ما يعتورها من كُرٍّ وفُرٍّ . وكان يزعجه بين حين وحين صهيل الجياد الثلاثة التي أعدت لهربه مرة أخرى إذا دعت إلى ذلك حاجة .

وجرى لبهرام أثناء المعركة ما جرى لكسرى في قاعة عرشه أثناء الثورة ،
إذ خشي أنصاره انتقام الشاه في حالة اندحارهم . وفكر كل منهم في أن يسبق
غيره إلى الاستسلام والاستغفار عما سلف . ولم يلبثوا أن تباروا في هذا المضمار ،
وظفقت جماعة من الزعماء تلقى سلاحها بعد جماعة ، وسعوا إلى الأسر صاغرين .
ثم توسلوا إلى نرسييس قائد الروم أن يقودهم إلى الشاه ليقدّموا إليه فروض
الطاعة . وعندما هلّ عليهم الملك الذي ثاروا عليه سجدوا له والتمسوا المغفرة .
وتفقد كسرى بينهم الثائر بهرام ، فلما لم يجده وعلم أنه ولي الأدبار ، وعد أن
يغفر لمن يأتيه برأسه .

وجرى الذين عاونوا بهرام على الثورة في كل اتجاه ، باحثين عن زعيمهم
المنكود . ومضى كل منهم نفسه بأن يتمكن من قتله ليعود إلى الشاه المنتصر برأسه
ويفوز برضاه . ولم يلبث بعض المحظوظين منهم أن فازوا بما أملوه ، وعادوا بالرأس
المقطوع تقطر منه الدماء ، وقدموه وهم يصيحون صيحات الطرب إلى العاهل
الغاضب . وما افتر لهم ثغره عن ابتسامة الرضا حتى سجدوا له وتمسحوا في
التراب .

وتبدلت حظوظ سراة فارس ، واختلفت أقدارهم ؛ فحظى بالعطف السامي
كل من أصابته نقمة في العهد الغابر ، كما أصاب التنكيل كل من نعم برضا بهرام .
وأُخرج وزير كسرى القديم من غيابة السجّين واقتيد إلى قصر سيده وقد أعشى
عينيه ضوء الصباح . وجرت الأمور من جديد في مجراها القديم . ولم يتغير إلا
قلب كسرى الذي زادت ثورته الثوار ثم العصف بقادتها عنتاً وخبث طوية ،
وإلا مجلسه في قاعة العرش إذ احتل نرسييس قائد الروم المقعد القائم إلى يمين
كرسى الملك .

ولم يهتم أحد بهذا التغير الأخير الطفيف إلا الوزير المسن ؛ فقد كره القائد
الرومي من صميم قلبه ، وازداد له على توالي الزمن كرهاً ؛ لأن ذلك الأجنبي
لم يجلس إلى جانب كسرى صورة كما كان يجلس عم هذا الأخير من قبل ، بل
كان يتدخل في كل حديث يجري بين العاهل وبين كبار رجال حاشيته أو كبار
حكام الدولة . وكان يبدى رأيه في كل شأن من شؤون الحكم ، ويصر على أن
يحمل رأيه دائماً على أنه أمر واجب الطاعة .

لم يطق الوزير الصبر على هذه الحال . وفاتح كسرى في أمر هذا الدخيل

التهجم على سيادة الدولة ، وعلى حق صاحب الأمر والنهي . ولكن صاحب الأمر والنهي كان مشغول البال عن مثل هذه الترهات بتوزيع رضاه وسخطه بين عبادته وفق أهوائه المتضاربة . وطال الزمن وقائد الروم ما يزال سادكاً بمقعده إلى مين الشاه ، وجيش الروم ما يزال مرابطاً بنعسكره إلى جانب قاعدة الملك .

وجرؤ الوزير على سيده ونبيه مرة أخرى إلى ما في بقاء تلك الحال على ما هي عليه من مساس بعزة الدولة وكرامة العرش ، وأشار عليه بأن يكتب إلى إمبراطور الروم مطالباً بأن يستدعى هذا الأخير قائده نرسيس ، ويسحب جيوشه التي فرغت من المهمة التي كلفت بها . وما طرقت أذن كسرى عبارة سحب الجيش الرومي حتى ثارت تأثرته ، واشتد حنقه على وزيره ، وربما بالحق وأفن الرأي .

وعوّل الشيخ المحنك على أن يحقق غايته بحسن السياسة ، فصبر على مضمض متحياً الفرص . واستطاع بما جبل عليه من دهاء ، وما اكتسب طوال إقامته في قصر سادته من طول باع في الحيلة والمكر والخداع أن يوغر على مر الزمن صدر كسرى على القائد الذي أعاد إليه ملكه ، وأن يحمله على الكتابة إلى موريق في أمر مسلكه إلنابي . وأملى الشاه على وزيره شكواه إلى الإمبراطور ، واقتصر على المطالبة بأراحته من ذلك المتن عليه . فلما أعاد الوزير الكرة وأشار عليه بأن يطالب كذلك بجلاء جيش الاحتلال عن بلاده ، غضب كسرى من جديد ، وربما بخيانة عهده وعدم مبالاته بسلامته وسلامة عرشه من طمع الطامعين فيه ، وتحمس فحتم رسالته بأن ذكر لموريق أنه اتخذ الجيش الرومي الذي وطد له ملكه حرساً له .

وحقق له صديقه الطامع فيه رغبته . وأرسل القائد جرمانوس ليحل محل نرسيس ، وقال في رسالة أنفذها إليه إن المحافظة على حياته الغالية التي هي أثمن شيء في الوجود لا تقوّم بعوض ، وهو لذلك لا يقتضي منه ثمنها كاملاً ، ولكنه يكتفى باقتطاع البلاد الفارسية الواقعة بين التخوم الشرقية لدولته وبين نهر الرس ، وبضمها إلى أملاكه . ولم يجد كسرى في طلب نصيره أي خير . فما هي قيمة البلاد والعباد إذا قيست بسلامة رأسه الغالية ! وقبل أن يجيب الطلب المتواضع كان جيش موريق قد غمر تلك المقاطعات السحيقة ونفذ رغبة سيده دون انتظار موافقة من صاحب الشأن عليها .

وصبر سراة الفرس مرغمين على تلك المرة التى لطخت بلادهم ، وسكتوا على رضا صاحب العرش بالضم وصبره عليه . ولم يشذ إلا الوزير الذى اعتاد أن يرى سادته أقوياء الشكيمة شم الأنوف . وصارح مليكه بأنه يفضل غيابة السجن على وضوح النهار الذى تجرى فيه هذه الخطوب . وتناسى كسرى أياديه عليه ، وأخذ بقوله ، وأعادته إلى الغرفة المظلمة التى اختارها له بهرام فيما مضى . ولم يكن جرمانوس أقل جوراً على سلطة الشاه من سلفه نرسيس ، ولكنه كان أكثر منه توخياً للكياسة واللباقة فى تحقيق مراميه . وجرت الأمور فى هواده على منوال واحد ، ولم يعكر صفو كسرى معكر وهو يغترف وسعه من متع حياته المترفة وملذاتها ، حتى ترامت إليه أنباء مشيرة عن أحداث جسام خطيرة العواقب حدثت فى بلاد الروم ، إذ وقع موريق فى محنة أشبه بالمحنة التى وقع هو فيها من قبل ؛ فقد شق عليه فوكاس عصا الطاعة ، وألب عليه شعبه ، واندفع على رأس جحفل جرّار من الثوار صوب بيزنطة ليثل عرشه .

دار الفلك دورته ، وأخذ نجم موريق يأفل على حين أخذ نجم كسرى يتألق من جديد . ونفض هذا الأخير عن نفسه الذلة والمسكنة ، وعصفت فى نفسه عواصف العزة المكبوتة إذ شعر بأنه يستطيع اليوم أن يرد مثل اليد التى أسديت إليه ، وأن ينقذ منقذه ويحمى من حماه . ونشط إلى إعداد جيشه ، وجهاز منه العدد العديد والعدة الوفيرة . واعتدل فى هذه المرة على ظهر جواده ، وسار على رأس جيشه الجرار ميمماً شطر جارته الثائرة . وكان كل جندى من جنوده يتحرق لهفة على الانتقام من الروم وغسل الإهانة التى لحقت ببلاده منهم بالدم المراق . وعب عباب ذلك الجيش وسال على بطاح أرمينية فغمرها . وشد ما اختلفت حاله اليوم عن حاله بالأمس حين انحسر عن بلاده أمام جيش نرسيس كاليم وقت جزره ، أما اليوم فهو يطم ويربى على البطاح كاليم إبان مده . ودلت الأنباء المتواترة على خطورة الحالة فى بيزنطة حيث وصل الثائر فوكاس إليها ، وضيق الحصار على الإمبراطور وأسرتة وهم قابعون فى قصرهم . وبينما كان كسرى يستعد لاقتحام آسيا الصغرى إذ وصل إلى سمعه النبأ الفاجع ، وهو مقتل موريق وأولاده فى قصرهم الإمبراطورى .

ونبتت فى ذهن الشاه من جديد تلك الفكرة التى خلبت فيما مضى لبه ، وهى ضم الإمبراطورية الرومانية الشرقية إلى أملاكه . ولكنها لم تكن فى هذه المرة

وهما يتوهمه حين يستطح به الخيال ، بل كان تحقيقها في متناول يده ، لا سيما بعد أن اغتيل موريق ، وشاعت الفوضى في أرجاء تلك البلاد ، وتخاذل حماها أمام قواته الزاحفة كما تحاذل الفرس من قبل أمام قوات نرسيس . وقسم جيشه قسمين ، وجه أحدهما إلى بيزنطة والثاني إلى الشام .

وبينا هو ينتظر تسليم مدينة أنطاكية بعد أن طال حصاره لها إذ جاء جرمانوس يبشره بأن هرقل والى ليبيا الذى زحف بجيش عرمرم إلى القسطنطينية بأمل إنقاذ الامبراطور ، اشتبك بجيش الثوار ودحرهم ، وتمكن من دخول بيزنطة والانتقام للملكه بقتل فوكاس وأشياعه . وظن جرمانوس أن كسرى سيغبط بهذا النبأ الذى سيكفيه مؤونة مواصلة القتال ، ويتيح له العودة إلى بلاده لاستئناف حياة المرح واللهو الماضية . ولكن الشاه الذى لم يشبع من إراقة الدماء صارحه بعزمه على مواصلة القتال متذرعاً بأنه يريد أن يتحقق بنفسه من أنه لم ينبج أحد من المعتدين على صديقه الراحل من القصاص .

تولى خوريام قيادة شطر الجيش الفارسى المتجه شرقاً . وما آنس من خصمه الضعف حتى انطلق بجنده في أعقابه من غير هوادة ، يدك حصونه ، ويتلف عدته ، ويشتت شمله ، ويلاحق فلوله . ولم يزل به حتى أوهن عزمه ، وقلقل البقية الباقية من نخوته وشجاعته ، ولم يجد بعد ذلك مشقة في القضاء عليه قضاء مبرماً . وسقطت دمشق وقصرية في يده كما تسقط الثمار اليانعة ، وواصل زحفه حتى وصل إلى بيت المقدس فحرب حوله الحصار .

ولم يجهل الفرس مناعة أسوار تلك المدينة ، ووطنوا النفس على احتمال طول الحصار . ولكن الحظ الذى واثم منذ ابتداء حملتهم لازمهم كعادته حتى النهاية . فثار جماعة من المضطهدين في المدينة على حكومتها . وتناحر أصحاب الملل والعقائد المختلفة . وهب اليهود في وجه المسيحيين مطالبين بدم شهدائهم الذين نكل بهم هؤلاء . وشاعت الفوضى في البلد المحاصر ، واختل فيه الأمن ، وعمه النهب والسلب ، فنفدت المؤونة قبل الأوان . وتمكن الساخطون الثائرون من فتح أبواب الأسوار المنيعه ، فتدفق منها جحفل الفرس كالسيل الجارف .

ولم يوطد الغزاة النظام بل زادوه اختلالاً . وأخلى لهم اللصوص الميدان ، فحلوا محلهم ، وأتوا على البقية الباقية من مال أهل المدينة ومتاعهم . ثم أعمالوا

السيف والنار ، فقتلوا من صادفهم من السابلة ، وأحرقوا الدور . وزادهم توقد النار وتدفق الدم جنوناً ، فلم يتورعوا حتى عن قتل النساء والأطفال ، وعن إحراق الكنائس والمعابد . وأعدت بذلك مدينة بيت المقدس أفخم إعداد لاستقبال الشاهنشاه المنتصر .

لزم فتي من طلبة العلم نافذة غرفته الحقيمة القائمة على دار متوارية في أحد الأزقة ، وأخذ يرقب في هلع واضطراب ما يحدث في الطرق المكشوفة له . وكانت عيناه تشخصان وتتسع حدقتاهما كلما تتبع حادثاً من الحوادث الرهيبة التي لم تكف عن الوقوع على مرأى منه ، ثم تدوران في أثر مشهد آخر لا يقل رهبة عن سابقه . رأى المذبحة منذ بدء نشوبها حين جرت الجماهير في الطرقات وهي تصيح صيحات وحشية : « دخل العدو المدينة . . . العدو في أثرنا » . ثم سمع الصراخ والعيول والأنين يتصاعد ويمتزج فيؤلف نغماً مؤلماً أشبه بموسيقى الجنازة . ولم تلبث شوارع المدينة أن أقفرت إلا من جثث القتلى والجرحى الملقاة في عرضها . وما هي إلا هنيهات أخرى حتى ظهر الفرس الذين كانوا يطاردون ضحاياهم ، ويرشقونهم بالنبال . وكثر جريهم يمته ويسرة ، واقتحامهم الحوانيت ، وملء أيديهم مما وقع تحتها من خيرات . وحاول بعضهم دخول المنازل فأخذ يدق أبوابها دقاً عنيفاً ثم يبذل جهده في سبيل خلعها . ولكن القوم المحتمين في عقر دورهم بذلوا هم كذلك قصارى جهدهم ليدفعوا عنهم غائلة أولئك المعتدين . فوضعوا كافة ما يمتلكون من أثاث وراء تلك الأبواب ، وقابلوا دفعها من الخارج بدفع مثله من الداخل . واستماتوا في الدفاع عن مساكنهم لأنهم لم يجهلوا المصير الذي كان ينتظرهم في حالة انخراطهم .

وما نشر المساء إهابه الأسود على المدينة حتى وقعت الطامة الكبرى . فقد طاف حملة المشاعل من جنود العدو بالأبواب الموصدة وأضرموها فيها النار . وهب نسيم السحر العليل فأجج اللهب المشتعل ، وارتفعت الألسنة الحمر متوهجة . وشاهد طالب العلم المروع على ضوءها تفتح الأبواب الموصدة ، وتدفق المناكيد منها ، ووقوف الفرس لهم بالمرصاد ، وانهبهم عليهم طعناً وضرباً . وسمع ولولة النساء وهن يحرن ممزقات الثياب ، مطوقات بالأذرع المفتولة العضلات ، وعبثاً كن يحاولن منها الانفكاك . وكثيراً ما لمح الفتي المروع أناساً يحرون صارخين وقد شبت النار فيهم ، وزادها جريهم تأججاً .

كان المسكين يحس كأنه يلفظ روحه كلما شاهد روحاً تلفظ ، وكان جلده يحترق كلما أبصر النار تمسك باطراف محترق . كان يموت ويحيا في كل طرفة عين ، ويعلم علم اليقين أن مصير هؤلاء ينتظره بين لحظة وأخرى . وكثيراً ما أيقن أن تلك اللحظة الأخيرة حانت فعلاً . فقد كان يطرق أذنيه وقع أقدام تصعد في السلم حتى السطح ، فيغمض عينيه ، ويحبس أنفاسه ويستسلم للموت الموشك على اقتراسه . ولكن الأقدام الصاعدة في السلم كانت تعود أدراجها ، وكان يسمع وقعها أثناء نزولها وهو يتنفس الصعداء .

ولم يطق البقاء على هذه الحال المفزعة . فقد كان على يقين من أن العدو سيصل إلى غرفته لا محالة ، وسيظفر به ويقضى عليه دون أن تتاح له فرصة للهرب . فاذا عوّق العدو في مجيئه فستلهمه النار التي كانت تقترب من داره شيئاً فشيئاً . ولم يزل في هذا الاضطراب والعذاب حتى زاغ بصره ، وخيل إليه أن الغرفة تضيق به ، وأن حوائطها تقترب بعضها من بعض ، فصرخ من هول ما هو فيها ، ووثب صوب السلم ، ونزل درجاته قفزاً ، وخرج من الدار لاهثاً . وما وصل إلى الطريق حتى سرت في بدنه رعدة جديدة من الخوف . فقد ذكر ما شاهده وهو يطل من نافذته على شوارع المدينة . فتوارى مسرعاً في الأزقة المظلمة ، مبتعداً على قدر إمكانه من الأحياء التي شبت فيها النار .

وقادته ساقاه المرتجفتان اللتان كانتا تحوران وتلتويان تحته إلى غرب المدينة . ووجد نفسه فجأة إلى جانب سورها الكبير . ورأى وهو يحسب ما يراه وهما ، أشباحاً تنسل من فجوة في السور أحدثتها أحجار مجانيق الفرس قبيل سقوط المدينة . واستطاع حين ثاب إلى رشده أن يدرك أنه يرى أناساً أسعفهم الحظ مثله ، وقادهم كما قاده إلى طريق النجاة .

ألقت المحنة بين أولئك المهاجرين الذين انضم إليهم الفتى طالب العلم . وعطف بعضهم على بعض ، وساعد قويهم الضعيف وهم يقطعون المفاوز والسهوب متخبطين في جنح الظلام ، متلهفين على الوصول إلى ساحل بحر الروم . وأشرق الصباح ، ثم توسطت الشمس عرض السماء ، وهؤلاء المنكودون يغذون في المسير دون توقف . واقتسموا فيما بينهم الزاد الذي استطاع أقوىاء الأعصاب منهم أن يفكروا وقت هربهم في حمله معهم .

واصلوا السير يوماً آخر ، وهانت عليهم مشقة السفر في وهج الظهيرة كما

هان عليهم سرى الليل ؛ لأنهم كانوا يشعرون بعد كل خطوة بخطونها أنهم صاروا أكثر بعداً من الهول الذى خلفوه وراءهم . وفى صباح اليوم الثالث هبت عليهم نسيمات البحر فأنعشت أجسامهم الخائرة القوى . ثم انبسط أمامهم الأزرق الرجراج الممتد إلى غير حد . فهبت عليهم نسائم الحرية والحياة الآمنة الرعدة . استقلوا سفينة سارت بهم فى طريق الاسكندرية ، وحدثهم الربان وهم فى عرض البحر عن ذلك الثغر التاريخى الذى ثبت لأشد الغزاة خطراً ، وردت أسواره الضخمة أعنف هجماتهم . ورشفت أذن الفتى طالب العلم هذا الحديث العذب وارتوت منه نفسه . وأخذ يحلم بيوم الوصول إلى ذلك الثغر المنيع ، غير عابئ بالبحر الذى زاد اضطرابه حتى أقلق بال جميع الركاب . وألقت السفينة مراسيها بعد أيام على شاطئ السلام والأمان . وتفتح للفتى مجال اغتراف العلم من مناهله الأصيلة ، وبدد بعد الشقة بينه وبين بيت المقدس كل أثر للوهم والجزع اللذين طالما انتاباه . وتوطدت طمأنينته توطد أسوار الثغر الضخمة . ومرت الأيام حتى كاد مرورها ينسى الفتى الأهوال التى وقعت تحت بصره فى البلد المنكود الذى خلقه وراءه .

ولكن سوء الطالع أبى إلا أن يلاحق الفتى حتى بعد اعتصامه بنجسته النائية الحصينة . فوصل إلى علمه فى يوم نحس نبأ تناقلته الألسن عن اقتحام الفرس مدينة بلوز القائمة على حدود مصر الشرقية ، وانحذارهم مع فرع دمياط إلى مدينة منف . ثم توالى الشائعات عن دورانهم حول رأس الدلتا ، وصعودهم مع فرع رشيد إلى الاسكندرية . ولم تفزع هذه الأنباء الفتى فحسب ، بل كذلك ملأت قلبه يأساً ؛ فقد أيقن أن حتفه يلاحقه ، وأن أسوار الاسكندرية لن تحول بينه وبينه ، بل إنه لا بد لاق هذا الحتف على يد الفرس ولو اعتصم بكبد السماء .

وخرج يوماً من داره فرأى الناس صفر الوجوه مرتعدى الفرائص . وسأل عما حدث فعلم أن حراس أسوار المدينة شاهدوا عن بعد طلائع الجيش الفارسى زاحفة صوبهم . وبعد ساعات مليئة بالجزع والخور سمع أهل الاسكندرية همهمة الغزاة متصاعدة من وراء الأسوار ، وشاهدوا جنود الدفاع تعتصم بأماكنها المنيع فى فجوات الحصون والقلاع .

وأعادت تلك المهمة المتصاعدة من وراء الأسوار إلى ذهن الفتى ذكرى

المنبجة الرهيبة التي توشك أن تقع من جديد ، وظهرت له صورها قوية واضحة حتى لكانها تتكرر أمامه ثانية . فانتفض كما كان ينتفض أمام نافذته في ذلك اليوم المشؤم . وحمل رأسه بين يديه ، وجرى في الطرقات كالمخبول ، وصاح في الناس يحذرهم بطش الفرس ، ويستنزل اللعنة على كل من تحدثه نفسه بخيانة المدينة وخذلان المدافعين عنها . ولولا الكرب الذي ملأ كل قلب لشبع سامعوه في ذلك اليوم سخرية منه ومفا كهة .

وشغل نفسه بالطواف المستمر بالأحياء المجاورة للأسوار ، يراقب قطانها . ويتجسس أخبارهم خشية أن يكون بعضهم قد بيت النية على فتح أبواب المدينة لمحاصريها كما فعل الخونة في بيت المقدس . وكان كلما حدث الناس عن وساوسه ، وقص عليهم نكبة بلده القديم أجابوه بأن أهل الأسكندرية يضعون مصلحة ثغرهم فوق كل خلاف خاص بنحلهم ومذاهبهم ، وأن كل واحد منهم أيا كانت عقيدته يؤثر الموت على أن تطأ قدم الغازي أرض وطنه .

ولم يهدأ الفتى ولم يطمئن بآله ، ولم يكف عن الطواف طوال النهار بالأحياء التي اشتبه في أمرها ، وعن التقلقل أثناء الليل في فراشه ، والتقلب فيه كل هنيهة على جنبه . وكثيراً ما كانت أعصابه المضطربة تصور له وهو على تلك الحال من التقلقل والتقلب أن الفرس تمكنوا من دخول المدينة ، وأن حملة المشاعل يضرمون النار في المتاجر والمنازل . فكان يحس ما أحسه في غرفته القديمة من خوف ويوقن أن بقاءه محصوراً بين الجدران الأربعة سينتهى به إلى الوقوع في قبضة السفاحين أو في لهب النيران دون أن تتاح له فرصة للهرب . وكان يقفز من فراشه كلما انتابته هذه الوسوس ، ويدخل ملابسه في مثل خطف البرق ، ويهفو إلى خارج الدار ليعود إلى طواف المراقبة والتجسس .

وبينا كان يجول ذات ليلة مثل هذه الجولات المسائية على أثر وقوعه فريسة لأوهامه ، قادته قدماه إلى شاطئ البحر ، واستهواه لألاء القمر المائج فوق سطح الماء ، فجلس على الرمال يرقب المنظر الساحر الذي خفف عنه عبء الوهم الجاثم على صدره ، ورأى القمر يغيب في أحضان اليم ، ولاحظ كفهراً الأفق وتجهمه بعد غيابه . ولم يطل أمد ذلك الا كفهراً والتجهم ، ونسيت البسيطة قمرها الراحل ، وأخذ الأفق الشرقى يتورد استعداداً لاستقبال الشمس المؤذنة بالطلوع . ولم يلبث الفتى أن غفل عن نفسه ووسواسها وهو يتأمل الطبيعة التي بدأت

تكتشف ، النقاب .: قسما حسنا الساحر . ورأى فيما رأى خطأ قائماً يرين على الأفق البعيد ، حيث يلتقى الماء بجافة السماء ، وحسبه بادى الأمر سحابة تساقطت على صفحة اليم وتراكت هناك . ولكنه لاحظ بعد قليل أن ذلك الخط يقترب من الشاطئ ، وسرعان ما ازداد ضوء الفجر سطوعاً ، وصرخ الفتى صرخة مدوية إذ تبين حقيقة ما رأى . وحاول الهرب من الشاطئ فخافته قدماه ، وسقط على الرمال فاقد الوعي . وفتح عينيه بعد قليل فوجد نفسه محاطاً بأناس أقبلوا على صراخه . وطن في أذنه لغطهم وتساؤلهم عما به . ودارت عيناه إلى البحر . وأيقن في هذه المرة أن ما رآه لم يكن وهماً . فالبحر ملى بألاف المراكب القادمة إلى الشاطئ ، وسرت في جسمه رعدة اصطكت لها أسنانه . وخرج من حلقه المرتعد صوت أشبه بصوت وحش مذعور ، وأشار يده إلى ناحية البحر ، واستطاع الملتفون حوله أن يميزوا من قوله كلمة « الفرس . . . الفرس » . وقهقه بعضهم ضاحكين لدى سماع هذه الكلمة ، وأقبل بعضهم الآخر عليه مشفقاً . وقال له رجل منهم وخط الشيب لحيته : « ليس هؤلاء القادمون إلى الشاطئ فرساً . ولكنهم صادة الأسماك ، يقضون ليلهم في رمى الشباك . ويعودون بصيدهم عند طلوع الفجر . »

ولم يهدأ روعه إلا عندما نزل الصيادون المصريون الشاطئ واستوثق بسمعه وأذنيه من حقيقة أمرهم . وسار إلى داره مضطجع الحواس . ودخل غرفته وارتمى على فراشه منهوك القوى . وظل باله مشغولاً بذلك الخط الذى اكتمل به الأفق في الصباح . وإذا به يستوى جالساً على حين فجأة في فراشه ، وإذا وجهه يمتقع ، وأطرافه تبرد وترتعد ؛ فقد خطر له خاطر رج كيانه رجاً : خطر له أن الفرس قد يلجأون إلى الحيلة ، فيرتدى بعض جنودهم ملابس صادة الأسماك . وينزلون الشاطئ دون أن يستلفتوا الأنظار ، ويقصدون إلى الأبواب فيقتلون حراسها ويفتحونها على مصاريعها ، ويتدفق جيشهم منها إلى المدينة ، وتتكرر مأساة بيت المقدس .

ظل ينتفض في فراشه ، وجحظت عيناه من شدة الرعب . ولكن خاطراً جديداً خطر له كالتماع البرق ، فهدأ فجأة ، وانبسطت أساريه ، وقرت عيناه . وشعر بعد الاضطراب المضنى بهدوء عجيب . خطر له أن ينسل تحت جناح الظلام إلى معسكر العدو ، ويقابل كسرى فيبسط له تلك الحيلة التى

تيسر له مهمته ، وتمكنه من فتح المدينة التي استعصت على جبابرة الفاتحين .
وبعد يومين نزل الفرس شاطئ الأسكندرية فجراً في ثياب الصيادين المصريين
وفتحوا أبواب الأسوار . وأخذ الجيش المصرى على غرة ، فانهزم أمام الخدعة
غير المتوقعة ، بعد أن عزت على أعدائه هزيمته عنوة .

وظل الفتى في معسكر العدو خارج المدينة لا يجرؤ على دخولها . ولم يذق
طعم الهدوء والاطمئنان كما توقع ؛ لأنه شعر بأنه يشارك كسرى هذه المرة في
تحمل وزر المذبحة التي أقامها الفرس هذه المرة على شاطئ عروس بحر الروم .
وصل جيش الشام في مده إلى آخر المطاف . ولو تبصر كسرى وفطن إلى
أن صرح المجد الذى يبنى على العدوان لا يلبث أن ينهار ، لاستطاع أن يرى
ما يخبئه الغيب ، وأن يعلم أن أوان الجزر قد آن ، وأن جيشه سيجلو عن الأصقاع
التي احتلها ، وينهزم أمام الأمم التي هزمها ، وسيتقلص سلطانه ، وسينكمش حتى
يقبع في دياره من جديد .

محمد مفيد الشرباشى

CONDORCET
ALEXANDRE KOYRE

كوندرسيه^(١)

وعمل كوندرسيه السياسى يتفق تماماً والمبادئ الفلسفية التى رأينا تفصيلها فى كتابه «الوجيز» . ولم يكن تفكير كوندرسيه فى تلك المبادئ واعتناقه لها فى آخر حياته ، وإنما قد أحس منذ بدء حياته الفكرية بحجب لا يقهر للعدالة^(٢) وآمن منذ أمد طويل ، وخاصة منذ معرفته لترجو Turgot ، بالنور والتقدم وبقابلية النوع الانسانى لتحسن دائم ، وبواجبنا فى استحثاثات ذلك التقدم ، وهو واجب يمنحنا من ناحية أخرى أعظم ما نشتهى من رضا .

ولهذا نشر فى سنة ١٧٧٣ بامضاء مستعار «خطاب من أحد رجال الدين إلى مؤلف قاموس القرون الثلاثة» دفاعاً عن الفلسفة والتسامح وحرية الضمير ضد الاضطهاد والتعصب ، كما نشر فى عام ١٧٨١ تحت اسم الدكتور شوارتز «آراء عن استعباد السود»^(٣) ومقطوعات عن «حالة البروتستانت فى فرنسا» وفيها يدافع عن حرية المعتقدات .

(١) الكاتب المصرى عدد ١٨ (مارس ١٩٤٧) .

(٢) أنظر : «Un ermite de la forêt de Sénart», dimanche 22 juin 1777 dans le Journal de Paris No. 173.

« سئل ديموستين : ما أول مزايا الخطيب ؟ فقال : العمل . فقيل له : وما ثانياً مزاياه ؟ فقال العمل — وما ثالثاً فقال : العمل . وأنا كذلك أجيب ، لو سئلت : ما أول القواعد السياسية ؟ هو العدل . وما ثانياً ؟ العدل . وما ثالثاً ؟ هو العدل أيضاً . »

أنظر : Bulsson, Condorcet . ص ٥٣ . إن كوندرسيه هو الذى أوحى إلى فولتير ذلك الاحتجاج الشهير على حادث تغيب الفارس دولابار . وفى عام ١٧٨٦ نشر آراءه فى قضية معروفة حينذاك ، وبهذا أنقذ حياة ثلاثة فلاحين كان برلمان باريس قد حكم عليهم ظناً بالتعذيب . وأول ما يأخذه كوندرسيه على مونتسكيو هو إيماله للعدالة .

(٣) فى نيوشاتل سنة ١٧٨١ وفى باريس سنة ١٧٨٦ . الجزء السابع من مؤلفاته ص ٧٠ .

ولقد سار بالطبع من الرياضيات البحتة (١) أول الأمر ، إلى الاقتصاد السياسي (٢) ثم إلى السياسة بعد ذلك . ونستطيع أن نقول إنه قد بقي رياضيا سواء في السياسة أو في الاقتصاد السياسي . ومنهجه عام ؛ فهو يضع القاعدة ويبين شروط تطبيقها ، ويستنتج النتائج المترتبة على ذلك ؛ أو هو بالعكس يحدد المشكلة ثم يبحث عن حل لها ينطبق مع القاعدة . ونستطيع أن نقول إن كوندرسيه قد عالج موضوع الدستور الواجب وضعه لفرنسا كما يعالج إحدى مسائل حساب التكامل . والنظرية أو البديهية التي تسيطر على علم السياسة في رأى كوندرسيه ، والتي يجب أن تسيطر على عملنا وأن توجهه ، هي تعريف الانسان بأنه « كائن حساس قادر على القيام بتعليقات منطقية وعلى اكتساب أفكار أخلاقية » . فهو كتلميذ لفولتير (٣) ولوك Locke يرى « أن الآراء عن الحق والعدالة والواجب ، والآراء عن الخير والشر ، إنما تولد من تفكيرنا في أنفسنا وفي علائقنا بالآخرين . وليست هذه الآراء التي تحددها طبيعتنا ، آراء مبهمة ولا غامضة . وللحقائق التي موضوعها هذه الآراء نفس التأكيد ونفس الدقة التي للحقائق في كل العلوم النظرية . وإذا تعمقنا بعدئذ في قلوبنا فسنجد أن ما للعمل الطيب من جال ، وما للعمل السيئ من شناعة وما يتبعه من تأنيب الضمير ، إنما هو نتيجة ضرورية لتكويننا الخلقى . » (٤)

(١) امتدح دالمبرت ولوجرانج كثيراً من مؤلفات كوندرسيه الرياضية وهي :

Essai sur le calcul intégral (1756), *Essai d'analyse* (1767-1768).

(٢) لم يكن الاقتصاد السياسي في رأى مؤلفي القرن الثامن عشر مقصوراً على دراسة ، الحقائق الاقتصادية ، وإنما كان يشمل العلوم السياسية والاجتماعية برمتها . ولما كان كوندرسيه تلميذاً لتورجو فقد اعتنق مذهبه الذي يعتبر الأرض مصدر الثروة الوحيدة ، وحاول أن يطبق الرياضة على العلوم الاجتماعية . قارن :

Essai sur l'application de l'analyse à la probabilité des décisions rendues à la pluralité des voix (1875).

Tableau général de la science qui a pour objet l'application du calcul aux sciences politiques et sociales (publié par le *Journal de l'Instruction Sociale* en 1795).

(٣) إن مايفسر أثر لوك Locke في القرن الثامن عشر هو — إلى حد ما — تصريح فولتير في خطابه السياسية بأنه من أنصار لوك . وإنا لنرى أثر لوك في كتابات فولتير .

(٤) راجع أوراق كوندرسيه الخاصة (١٧٨٩) بمكتبة المعهد :

Papiers personnels de Condorcet (1789) Bibl. de l'Institut.

وراجع : F. Quinson, *Condorcet* p. 37 .

أفراد النوع الانساني ، فينتج عن هذا إذن مساواة أساسية بين الناس بصفاتهم أناساً . ولكن هذه المساواة لا تنفى بالطبع كل اختلاف فيما بينهم ولا سيما الاختلافات الطبيعية والاجتماعية ؛ فليس الناس متساوين في المواهب الطبيعية ولا في نعم هذه الدنيا (١) ، ولكنها تتضمن أيضاً ملكية لا تفقد لنفس « الحقوق الطبيعية » التي لا استطاع حرمان أى كان من التمتع بها دون ارتكاب الظلم .

وهكذا نراه منذ عام ١٧٨٧ على لسان « مواطن من الولايات المتحدة » ، يوضح للفرنسيين أنه إلى جانب الأمان والملكية ، توجد المساواة . « وليست المساواة أقل أهمية منهما في كونها أحد الحقوق الطبيعية للانسان فالناس يولدون متساوين ، وقد أقيمت الجاعة لتمنع عدم المساواة القهرية — وهي الوحيدة التي تأتي من الطبيعة — من ارتكاب أى ظلم دون أن تنال العقاب عليه » (٢) ، وأعلن كوندروسيه في عام ١٧٨٩ تحت اسم فيلوللوس أنه « لا وجود للقانون ، ولا وجود للسعادة الحققة إلا مع المساواة المطلقة بين كل المواطنين » (٣)

وهذه « المساواة المطلقة » تتعارض بالطبع مع الفوارق الوراثةية بين مختلف المواطنين ، وتتعارض مع وجود طبقة الأشراف بل مع الملكية . وهي تتطلب دستوراً ديمقراطياً وجمهورياً للدولة حيث إن حرية المواطنين والمساواة بينهم مشتقة من حقهم المتساوي في العمل على إقامة قوانين تنظم الدولة . وهكذا يقول

(١) يرى كوندروسيه أن إلغاء الامتيازات الوراثةية ونشر العلم سيفتقان بالضرورة ، من عدم التماوى في الثروة ، وذلك شرط لا بد منه لقيام ديمقراطية حققة ، إذ أن هذه تتنافى مع الثروة العظيمة والفقر الشديد .

(٢) Lettre d'un citoyen des Etats-Unis à un Français sur les affaires présentes, Œuvres IX, p. 102, Buisson, p. 31.

لما كانت حقوق الناس الطبيعية بصفاتهم بشراً هي واحدة بالنسبة للجميع فينتج عن ذلك أن القوانين الأساسية لكل الجماعات الانسانية يجب أن تكون واحدة . فما هو حسن بالقياس إلى رجل فرنسي هو حسن كذلك بالقياس إلى أمريكي أو إلى روسي . وظروف التطبيق هي وحدها التي تتغير بتغير الجو والأعمال . . . الخ ، ولكن المبادئ لا تتغير . وأما أولئك الذين يقولون بالفروق وفقاً للتاريخ والعادات والدين فهم في الواقع حماة الأخطاء ومعارضو التقدم . ومن هنا يستنتج فلاسفة القرن الثامن عشر احتمال التشريع للجنس البشري بأجمعه .

(٣) راجع : Première lettre d'un gentilhomme à M. du Tiers-Etat,

Œuvres IX, p. 227, Buisson p. 32.

كوندرسيه حتى من قبل الثورة في كتابه « حياة تورجو » : « الدستور الجمهورى هو خير الدساتير » . (١)

ويكاد هذا أن يكون أمراً شائعاً ؛ ففلاسفة القرن الثامن عشر — ماعدا فولتير — لم يتشككوا إلا نادراً في إمكان الكمال في الدستور الجمهورى (٢) . وأما ما تشككوا فيه فهو إمكان تحقيقه في دولة كبيرة . ويبدو أن التاريخ ، قديمه وحديثه ، تاريخ روما وتاريخ إنجلترا ، قد أيد الشك لديهم .

وأما كوندرسيه — ولم يكن فريداً في ذلك كما نعلم — فيرى أن التجربة ، الأمريكية تثبت عكس ذلك ، حيث ظهر أن النظام الجمهورى ، ولو في صورة « فيدرالية » ، أمر ممكن في دولة كبيرة .

وربما استطاع المرء أن يذهب إلى أبعد من ذلك . ولكن الديمقراطية المباشرة أمر مستحيل أما إذا كان المقصود بكلمة « ديمقراطية » دستوراً ينتخب فيه المواطنون جميعاً نواباً مكلفين بتمثيلهم وبالتعبير عن إرادتهم أمام مجلس عام يمثل الأمة : أما إذا كان الأمر كذلك ، فمن السهل أن نرى أن مثل ذلك الدستور يلائم الدول الكبرى ، ويمكننا أن نطبقه حتى على أوسع الامبراطوريات بتكوين عدة مجالس تمثيلية . وبهذه الطريقة نهى لتلك الامبراطوريات كياناً لم تستطع إحداها أن تناله حتى الآن ونهى لها في نفس الوقت وحدة فردية في الاتجاه ، وحدة لا يمكن تحقيقها بوساطة الدساتير « الفيدرالية » . (٣)

وستقل الصعوبات التى تعترض إقامة نظام جمهورى لو اكتفى — بدلا من الجمهورية الديمقراطية — بإقامة نظام جمهورى غير تام تماماً ، يكون فيه حق الانتخاب مقصوراً على الملاك من المواطنين . وإن في هذا التضيق لمنافاة للحق

(١) راجع : Vie de Turgot, Œuvres V, p. 209. Notes sur Voltaire, Œuvres IV, p. 393.

وفيه يقول : « مامن أحد يقول أن الملكية خير من الجمهورية . اللهم إلا إذا كان الرجل من الرقيق . ففي الجمهورية يتمتع الناس بقوانين حسنة أساسها حقوقهم الطبيعية وفي ذلك النظام يكون الناس في حى أى استبداد خارجى » .

(٢) وحتى مونتسكيو نفسه يرى أن الدستور الجمهورى خير الدساتير . ولكنه للأسف قام على مبدأ الفصلية السياسية ، أى على حب المواطن لبلده ، مما لا يمكن تطبيقه في دولة كبيرة .

(٣) Notes sur Voltaire, Œuvres IV, p. 393. — Assemblées provinciales, Œuvres VIII, p. 127.

الطبيعى بمعناه الحرفى (١) . ولكن التجربة التاريخية تدلنا على أن طبقة العمال فى المدن ، ولا سيما فى المدن الكبرى ، هى التى كانت دائماً عماد الديكتاتورية والاستبداد . وهنا أيضاً نجد المثل فى التجربة الأمريكية . ونرى كوندرسيه يعطى هذا التحذير للفرنسيين باسم بوجوازى من نيوهفن : « لو أعطيتم حق التصويت للمواطنين جميعاً فقراء وأغنياء ، فإن نفوذ الأغنياء سيكون أظهر وأعظم فى المجلس الناتج عن ذلك مما لو كان فى مجلس أقل عدداً انتخب أعضاؤه مواطنون من ذوى الثروات المتوسطة لا المعدمون » . (٢)

وإذن فقصر حق الانتخاب على الملاك بشرط أن يكون معدل الثروة منخفضاً انخفاضاً كافياً ، سيأتى فى آخر الأمر بالفائدة لعدى الملكية . ذلك لأن الطبقة المتوسطة ، لا الفقيرة جداً ولا الغنية جداً ، هى صاحبة المصلحة الكبرى فى أن يسير الحكم فى الدولة سيراً حسناً .

وضرورة الانتلاك ، والحذر من قتل الجمهور فى المداخن . هى ملامح عامة نراها لدى كتاب ذلك العصر (٣) فليست هى بأى حال مما يميز أفكار كوندرسيه . وأما ما يميزه فهو تقديره ليوم ١٤ يوليه ، وهو القائل : « عند ما استولى شعب باريس على الباستيل أثبت نضجه السياسى وحبه للحرية . وبذلك أصبحت الجمهورية احتمالاً ملموساً بعد أن كانت مثلاً أعلى بعيد التحقيق . وأصبح بعدئذ من المعقول أن

(١) Assemblées provinciales, Œuvres VIII, p. 127

« حق المواطن ، هو الحق الذى تنبه الطبيعة لكل رجل يسكن بلداً ما فى أن يشارك فى وضع القواعد التى يجب أن يخضع لها السكان . »

(٢) Lettres d'un bourgeois de New-Haven, Œuvres IX, p. 12

راجع أيضاً : L. Cahen, Condorcet et la Révolution Française, Paris, 19, p. 138.

(٣) الديمقراطية لدى جيفرسون La démocratie Jeffersonienne هى ديمقراطية ملاك . ويرى الفيزيوقراطيون (القائلون بأن الأرض وحدها هى منبع الثروة) أن ملاك الأرض هو أساس البلد لأنه هو الذى يجعلها تعيش . وأما الفقراء والمحتاجون فهم لا يساهمون فى حياة البلد . ثم إنهم مستعدون لبيع أصواتهم لمن يدفع فيها أغلى ثمن ، وذلك اعتبار لا يخفى من وجهة . وبالاختصار ليس للرجل الذى يعتمد على آخر ليعيش الحرية الكافية لممارسة حق الانتخاب ، أى حق السيادة .

راجع : D. Mornet, La préparation intellectuelle de la Révolution Française, Paris 1933.

يعمل المرء لإقامتها (١) بوضع دستور لفرنسا يكون ديمقراطياً من أساسه .

ولن نبسط هنا عمل كوندريسيه السياسى بالتفصيل ، ولا نصيبه فى حوادث الثورة ؛ إذ لو فعلنا هذا لذهبنا بعيداً جداً . ويكفينا بضع كلمات ويضع وقائع تختارها بقدر ما تكشف لنا عن فكره . (٢)

لم يكن كوندريسيه عضواً فى الجمعية الوطنية — فقد كانت آرائه تسبق بكثير آراء ناخبيه — ولم يقدر هو أعمالها ، وانتقد بشدة روحها المشوبة بالخوف والمضادة للديمقراطية (٣) ، وبطئها فى إعلان حقوق تصریح الانسان ، بل انتقد ذلك التصريح ذاته (٤) والدستور الذى وضعته لفرنسا ، ذلك الدستور الاقطاعى . ورغم ذلك فأمام الفوضى المتزايدة ، وأمام انحلال الدولة ، وأمام أعمال الرجعية التى كانت تعود إلى الظهور شيئاً فشيئاً ، قرر كوندريسيه أن يدافع عن الجمعية التأسيسية ، وأن يدعو الوطنيين للالتفاف حولها ؛ إذ لو فقدت ثقة الأمة لضاع كل شئ . ولن تستفيد الجمهورية من الفوضى — وليست فرنسا للأسف ناضجة للديمقراطية ، فهى ملكية وليست جمهورية — وإنما سيعود الاستبداد . ولهذا نشر بالاتفاق مع سييس Siéyès ، قبل هروب الملك عند فارين ، منشوراً عدد فيه ما تتعرض له الحرية من أخطار ، ثم دعا الوطنيين إلى أن يعلنوا خضوعهم — بمحض إرادتهم — للدستور الفرنسى . . .

(١) راجع : L. Cahen, p. 138

(٢) L. Cahen, Condorcet et la Révolution Française. Allendy, Condorcet, guide de la révolution. H. Sée, Condorcet, ses idées et son rôle politique, Revue de Synthèse Historique, 1905.

(٣) وأخذ عليها هو و Siéyès رغبتها فى منع النظر فى تغيير الدستور لمدة عشر سنوات وذلك خطأ لا ينتفر ، فليس لأحد أن يشرع للمستقبل .

(٤) ويرى كوندريسيه كما يرى صديقه جفرسون Jefferson أن إعلان حقوق الانسان أهم من الدستور نفسه فهو ليس مقدمة له وإنما أساس له . ولذلك فهو يصر على صفة العلنية لذلك الاعلان : فهو إعلان لحقائق واضحة ، يعمل بها من ذاتها . وهو ليس بمرسوم أو قانون يعبر عن إرادة أحد ، وإنما هو تعبير العقل عن نفسه . وعندما يؤكد ذلك الاعلان القول : « نرى من الواضح . . . » فانه يحدد ما يقول به العقل . وأولئك الذين لا يرون هذا الوضوح فانهم غير جديرين بأن يتمتعوا بالحقوق التى يقول بها ذلك الاعلان .

ولم ينجح المنشور ، إذ قوبل بمقابلة سيئة من أحزاب اليمين ومن أحزاب اليسار . ومن جهة أخرى ، فقد قنب هروب الملك — وقد عرف في باريس في ٢١ يونيو سنة ١٧٩١ — الموقف رأساً على عقب ، وأمسى العرش خالياً وبقيت فرنسا قرابة شهر بلا ملك . وعد كوندرسية ذلك فرصة نادرة للتخلص من الملك ولتحويل الأمر الواقع إلى أمر قانوني . فأعلن كوندرسية^(١) أن الملك قد فسخ العقد الذي كان يربطه بالأمة ، وقد حنث في اليمين التي حلفها بالاخلاص للدستور . بل لقد ارتكب الخيانة بمحاولته مغادرة فرنسا والانضمام إلى أعدائها . وإذن فهو قد نزل عملياً عن العرش ، وقد أحل فرنسا من كل واجب حياله (وحيال الدستور الملكي) . ففرنسا حرة إذن في اتخاذ نظام جمهوري ، أي نظام تكون فيه السلطة التنفيذية مسئولة أمام الأمة . وذلك أمر ممكن التنفيذ جداً . ألا يوجد أمامنا الدليل الواقعي على أنه من الممكن الاستغناء عن الملك — وذلك أن يتفق في نفس الوقت « مع العقل ومع الكرامة الانسانية » ، على حين أن الميراثية وعدم مسئولية السلطة هي اعتداء على الشعب وعلى حقوقه ، وكل ما يقال للدفاع عن الملكية إنما هو أدلة خادعة ؛ « فيقال مثلاً إن الدولة في حاجة لملك ليحمينا من وجود طاغية ، ولكن الشعب الحر يعرف كيف يدافع عن نفسه . ومن ناحية أخرى ففرنسا واسعة جداً ، وإذن فليس هناك ما يخيفنا من أن يتحول معبود العاصمة إلى طاغية في الأمة » . أما عن تنظيم السلطات فليس علينا إلا أن نجعل الشعب ينتخب وزراءه ويجعلهم مسئولين أمام المجلس . وبهذا لا نخشى أن يجمع المجلس كل القوة في يده ؛ كما يمكن ضمان الاستقرار وقوة السلطات بانتخاب الوزراء لمدة طويلة — عشر سنوات مثلاً — مع تقرير عدم إقالتهم إلا كل سنتين (وكل مجلس ينتخب جديداً يعطى تصويتاً لكل وزير) وإذا لم نرد هذا النظام فبمقدورنا أن نجد غيره وليس ذلك يستعصى^(٢) . ومن المعروف أن فرنسا لم تصنع إلى نصائح كوندرسية ، فقد كانت فرنسا ملكية وبقيت كذلك . وأعيد الملك إلى العرش في شهر يولييه ، وكان ذلك خيبة أمل لكوندرسية ودرسا له لن ينساه .

(١) راجع : *Avis aux Français sur la Royauté, N° 1 du Républicain*, juillet 1791; Buisson p. 74.

(٢) راجع : F. Allendy; L. Cahen (سبق ذكره) .

ولما انتخب كوندرسيه عام ١٧٩١ عضواً في الجمعية التشريعية أعلن إخلاصه التام للدستور . وهو دستور غير كامل بلا شك . ولقد أخطأت الجمعية التشريعية باصدارها حكماً على المستقبل ، إذ منعت تعديل الدستور لمدة عشر سنوات . ولكن الأمة قد قبلته ، وإذن فهو القانون ، وهو المعبر عن إرادتها العامة (١) وتجب له الطاعة ، وليس لأحد أن يرفض ذلك الواجب . ومن ناحية أخرى فليس الدستور شراً كله ، إذ هو يضمن حقوق المواطن ويسمح بالقيام بذلك العمل الضروري الذي لا تقوم الديمقراطية بدونه ، ألا وهو تنظيم التعليم العام . فتأسيس المدارس وبتعليم الشعب نستطيع إذاعة النور وهدم الخرافات . وبهذا نعد الأرض لاقامة الجمهورية .

ومن المعروف أن مشكلة التعليم العام هي من أهم ما شغل أفكار رجال القرن الثامن عشر . فلقد آمن « الفلاسفة » بنعم التعليم وقوته . ويقول ديدرو « تعليم أمة هو تحضيرها . . . والجهل هو نصيب الرقيق والمتوحشين » (٢) « إنه لكفر منا أن نترك أحداً من إخواننا فريسة للجهل المفروض عليه » . هكذا يقول ميرابو إلى مارجراف دي باد وهو يبين له أن « التعليم العام هو أول وأهم الواجبات على الحاكم العادل » ، وأنه من مصلحة الدولة طبعاً نشر التعليم . ومن ناحية أخرى فإن المساواة المدنية تتضمن تعليم الشعب . فهذا التعليم إذن واجب على الدولة وحق للمواطن ، بل إنه حق « لكل مخلوق إنساني . . . فانه يحصل على حق التعليم عندما يمنح الحياة » . ولهذا يجب أن نفتح أبواب التعليم للجميع « لكل أبناء الدولة » كما يقول ديدرو ، لا للأغنياء فحسب . (٣) وإذن فكوندرسيه لا يأتي هنا بجديد . فلم يكن الدور الذي قام به ، كما رأينا ، دور المبتكر لآراء جديدة ، وإنما دور من ينظم ويجمع ويبوب مذاهب عصره ، ثم يدفع بها إلى خاتمتها المنطقية . هو لا يأتي بجديد عندما يعلن في مذكراته الخمس عن التعليم العام التي نشرها في سنة ١٧٩٠ في مكتبة « الرجل

(١) يؤمن كوندرسيه بهذا أشد الإيمان . فليس لأحد الحق في أن يشور ضد الأمة ، وإرادة الأمة ، حتى ولو كانت خطأ ، هي القانون . ولهذا فهو ينقد بمرارة حزب الجبل في بورتغال على المؤتمر الوطني .

(٢) Diderot, Projet d'une université, Œuvres III, p. 429-30

(٣) راجع : L. Cahen p. 326 (سبق ذكره) .

العام» (١) وفي « تقرير ومشروع قانون عن التنظيم العام للتعليم العمومي مقدم إلى الجمعية الوطنية » (٢) عام ١٧٩٢ أن « التعليم العام واجب على الجماعة نحو المواطنين » (٣) « واجب تقتضيه العدالة وتفرضه المصلحة العامة للجماعة بل للانسانية بأكملها » ، وأن الغرض منه أن يهيئ لكل مواطن « القدرة على تحسين صناعته ، والمقدرة على القيام بالوظائف العامة التي من حقه أن يعين فيها ، وأن ينمي فيه كل المواهب الطبيعية . وبهذا يقيم بين المواطنين مساواة حقيقية ، ويجعل المساواة السياسية المعترف بها في القانون أمراً واقعياً » . (٤) ويعترف كوندرسيه اعترافاً صريحاً بالصلة بين الحق في المساواة والحق في التعليم في « مشروع عن تصريح بالحقوق الطبيعية المدنية والسياسية للناس » عام ١٧٩٣ ويأتي فيه الحق في التعليم في مكان جليل بعد الحقوق الطبيعية وهي « الحرية ، المساواة ، الأمن ، الملكية ، الضمان الاجتماعي ومقاومة الاضطهاد » (٥) يجب أن يتساوى « أبناء الأمة » أمام التعليم وأن يتمكنوا جميعاً من التعليم . وليس معنى هذا أن يحصلوا جميعاً على تعليم واحد ، ولكن شيئاً من التعليم ضروري للمواطن . ويجب لهذا أن يكون إجبارياً . ولكن ليس من الضروري بل ليس من الممكن تعليم الناس جميعاً تعليماً ثانوياً أو تعليماً علمياً عالياً . فهذا النوع الأخير من التعليم لا يناسب بطبيعته إلا صفوة من الناس امتازوا بمواهب خاصة . وهذا التفريق الذي لا معدى عنه لا يمس المساواة الأساسية بين الناس على شريطة أن يكون الاختيار ، ولا سيما في درجات التعليم العليا ، متوقفاً على

(١) مكتبة « الرجل العام » هي مجموعة كتب في تحليل أشهر المؤلفات الفرنسية والأجنبية ، الخاصة بالسياسة عامة ، وبالتشريع والشؤون المالية والزراعة والتجارة ، والحق الطبيعي والعام بصفة خاصة وكانت تصدر في باريس لدى الكتيبي Buisson . وكان ينشرها كوندرسيه بمعاونة de Peyssonnel فصل عام سابق لفرنسا في سمرن ، وبمعاونة Le Chapelier نائب في الجمعية الوطنية . وتشمل تلك المكتبة ثمانية وعشرين مجلداً .

(٢) في يومى ٢٠ و ٢١ أبريل سنة ١٧٩٢ .

(٣) Mémoires sur l'instruction publique, Œuvres VII, p. 169

وراجع نفس الكتاب صفحة ١٧٠ وفيه : « عدم التساوى في التعليم هو أحد الأسباب الرئيسية للاستبداد . »

(٤) Rapport, Œuvres VII, p. 449-451

(٥) المادة ٢٣ : « التعليم هو ضرورة للجميع وهو دين للجماعة نحو كل أعضائها »

راجع : Œuvres XII, p. 417-22. Buisson, p. 109

الكفاية لا على المركز الاجتماعى أو المادى للتلاميذ أو لذويهم . وبعبارة أخرى يجب أن يُمْكِن كل تلميذ موهوب من الوصول إلى أعلى درجات التعليم مهما كان حال ذويه . ومن هنا وجب أن يكون التعليم مجانياً فى كل درجاته ..

وخطة تنظيم التعليم العام التى وضعها كوندرسيه (١) ، وهى خطة غاية فى الجراءة والاقدام (٢) ولم يتحقق منها إلى اليوم إلا بعضها ، مؤسسة من ناحية على معانى الحق والواجب ، حق الفرد وواجب الجماعة . وقد لخصناها آنفاً ، ومن ناحية أخرى على فكرة الاختيار والتقدم : اختيار المواهب المبعثرة فى الأمة حتى نوجهها لخدمة التعليم وتقدمه وهو صنو التقدم العام . ففى المدرسة وبالمدرسة نستطيع تهيئة المستقبل ، ذلك المستقبل الذى يراه كوندرسيه فى الجمهورية الديمقراطية العادلة التى تتجه بكليتها إلى التقدم أى إلى المستقبل . وهذا الاهتمام بالمستقبل ، وهذه الرغبة فى تركه مفتوح الأبواب هى التى أوحى إلى كوندرسيه مشروعاته الدستورية ؛ إذ أخذ يقتنع بالضرورة القصوى لوجود مؤسسات دائمة فى الجمهورية ، وللعمل على إقامتها بأقصى ما يمكن من السرعة مما يضمن استقرار الجمهورية . وبعبارة أخرى اقتنع بضرورة وضع دستور جديد نهائى ، كما آمن أيضاً باستحالة إبقاء ذلك الدستور كأنه نص مقدس . فالماضى

(١) يرى كوندرسيه وجوب إنشاء خمس درجات للتعليم :

- أ — تعليم ابتدائى إجبارى للجميع .
- ب — تعليم ثانوى «للأولاد الذين يستطيع آباؤهم الاستغناء عن عملهم مدة أطول» .
- ج — المعاهد التى يكون التعليم فيها كاملاً ويتخرج فيها مملو المدارس الثانوية والابتدائية (وهى توازى الآن مدارس النورمال) .
- د — الليسه « حيث تدرس جميع المواد مع التبحر فيها . وفيها يتخرج العلماء والأساتذة » (وهى تماثل الآن الكليات ومدرسة النورمال العليا) .
- هـ — الجامعة الوطنية للعلوم والفنون وهى مؤسسة للبحوث أو أكاديمية تعمل على تقدم العلم وتكون فى الوقت نفسه الشبان الذين يصبحون فيما بعد أعضاء الأكاديمية .

(٢) ينصح كوندرسيه بجعل التعلم حديثاً وبالأهتمام خاصة بالعلوم واعتبار الغرض من التعليم تنمية الذكاء وملكة النقد لدى التلاميذ بدلاً من إعطائهم علماً ومجهزات . ولا يفرض شيئاً كأنه العقيد حتى إعلان حقوق الإنسان . ولا يدرس الدين مطلقاً بالمدارس العامة ، فالدين مسألة خاصة بالمواطن وليس للدولة أن تتدخل فيها . وترك التربية للأسرة إلا فيما يختص بالتربية الوطنية التى تهدف إلى تنمية الاحساس بالواجب نحو الوطن ونحو الإنسانية ، وإلى تنمية معنى المساواة والشعور بالاخاء وضرورة العدالة .

لا يسيطر على الحاضر ، والحاضر لا يسيطر على المستقبل . وليس لأحد أن يشرع لأبنائه . ولهذا كان مشروع الدستور المسمى «الدستور المجرونديني» — وهو الذى قام بوضعه بمعاونة توماس بين (١) — وقدمه إلى المؤتمر الوطنى فى ١٥ فبراير سنة ١٧٩٣ ، متضمناً مواد تسمح بإعادة النظر فيه كل عشرين سنة .

وكان كوندرسيه جدي فخور بعمله . «وضع دستور لبلد شاسع (مساحته حوالى ١٢٠,٠٠٠ كيلومترا مربع) ، ويسكنه نحو ٢٥ مليون نسمة ، دستور مؤسس على مبادئ العقل والعدالة وحدهما مما يضمن للمواطنين تمتعهم التام بحقوقهم ، ثم تنظيم أجزاء الدستور بحيث تسمح بضرورة الطاعة للقوانين وخضوع إرادة الفرد لإرادة الجماعة ، بوجود سلطة الشعب ووجود المساواة بين المواطنين كما تسمح بممارسة الحرية الطبيعية ، تلك كانت المشكلة التى وجب علينا حلها » (٢) وهى المشكلة التى يفخر بأنه حلها .

ولكن دستوره الكامل لم يكن عملياً للأسف ؛ فهو بما فيه من حق أخذ رأى الشعب بالاستفتاء ، وهو حق لا حد له عملياً ، وبما فيه من توازن بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، وهو توازن يتسلل إلى الدولة بدعوى المحافظة على سلطان الشعب (فالشعب ينتخب الوزارة مباشرة ولا تستطيع الجمعية التشريعية إقالتهم إلا بحالتهم إلى محكمة وطنية) ، غير ممكن التطبيق ، ولو نفذ لجعل فرنسا كلها نادياً دائماً للمناظرات debating club . وليس من العجيب إذن أن يرفضه المؤتمر الوطنى ، وأن يفضل عليه الدستور الذى وضعه حزب الجبل . (٣) ومن ناحية أخرى كان من الضرورى أن يرتفع صوت كوندرسيه عالياً بالاحتجاج الشديد (٤) إزاء الانقلاب الحكومى الذى قام به حزب

(١) كان أثر T. Payne فى كوندرسيه عظيماً للغاية . ولقد درس M. G. Chinand أثر الأمريكين والآراء الأمريكية فى فرنسا . تراجع مؤلفاته .

(٢) Exposition des motifs, Œuvres XII, p. 335

راجع أيضاً: L. Cahen (p. 471)

(٣) وهو دستور لا يفضل من الوجهة العملية إلا قليلاً ، ولهذا لم يطبق قط . وقد قرر المؤتمر الوطنى عام ١٧٩٣ « أن حكومة الجمهورية هى حكومة ثورية ويجب أن تبقى كذلك » .

(٤) راجع Lettre à la Convention Nationale «عندما لا يكون المؤتمر حراً ،

فإن ما يصدره من قوانين لا تلزم المواطنين . »

الجيل ، وهو احتجاج كان كوندرسيه أول من يعلم أنه يوقع به وقية اتهامه .
ومنذ ذلك الحين لم يكن له من عاصم إلا الهرب ، وكتب كتابه الرائع
« الوجيز » الذي تكلمنا عنه طويلاً ، وهو هارب مخنف مهدد بالموت . وذلك
الكتاب هو في الوقت نفسه وصيته وصك إيمانه ، إيمان رجل مخلص لفكره
إيمان فيلسوف ، في العقل وفي التقدم . (١)

و« الوجيز » ، كما رأينا ، نافذة مفتوحة على المستقبل ؛ وهل كان يرجى أن
يكون غير ذلك ؟ أليست النظرة إلى المستقبل أو توقع المستقبل ، هي ما يميز
التفكير الانساني ؟ أليس تحديد الانسان للمستقبل . وتحديد نفسه هو ما يميز عمله ؟
وهكذا أبانت فلسفة القرن الثامن عشر في شخص كوندرسيه ، أن المرء ، ذلك
المخلوق العاقل ، حين يفضل المستقبل على الحاضر فانه يؤكد حريته ويحققها .

ألكسندر كواريه

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

(١) ولكن القوم رجعوا إلى الحق ، ففي يوم ١٣ جرمينان من السنة الثالثة للجمهورية
« قدم دونو Daunou مشروع مرسوم يصرح للمؤتمر بالحصول على ثلاثة آلاف نسخة من
كتاب كوندرسيه الذي نشر بعد وفاته » ، وقد ووفق عليه بالاجماع وقال وهو يقدم مشروعه
لقد ألف كوندرسيه كتابه في حال بلغ فيه نسيانه لنفسه ولآلامه درجة أن لم يتأثر كتابه
بشيء منها ، فلا شيء في ذلك الكتاب يشعر بالأحوال المروعة التي كتب فيها . وهو لا يتكلم فيه
عن الثورة إلا بكل حماسة . وإنا لنرى أنه لم ينظر إلى اضطهاده الشخصي إلا باعتباره كارثة
شخصية يكاد منها يكون مستحيلاً في مثل تلك الحركة العظيمة التي جلبت الخير للجميع .
راجع كتاب Bulsson عن كوندرسيه ص ١٩ Paris, Alcan . ولقد كان دونو على حق :
فإن كارثة الشخصية ، بل كوارث الثورة كلها لم تهدم إيمان كوندرسيه وثقته . ومات
كما عاش فيلسوفاً .

ثوبان أسودان

ثوبان أسودان يلبسهما بعض الناس . فأما أولهما فيلبسه آباؤنا الرهبان والقساوسة . وأما الآخر فيلبسه علماؤنا من أساتذة الجامعة وهذان الثوبان يتشابهان في الكثير من الصفات ، في لونهما الأسود ، وفي بسطتهما وسدولهما واتساع أكمامهما لكن أقرب ما يجمعهما في الحقيقة صفة متميزة غالبية ، فكلاهما يستبد بصاحبه حتى ليحيله في بعض الأحيان إلى إنسان آخر !

وقد شاء القدر أن يرتدى صديقان من أصدقائي هذين الثوبين ويظهرا بهما بين الناس ، حين صار أحدهما قسيساً والآخر أستاذاً في الجامعة . والحق أني دهشت لهذا ، فقد كنت أظن أن كل شيء يجوز أن يقع إلا أن يكون صديقي فلان هذا قسيساً وصديقي علان ذاك أستاذاً لكن هكذا حدث لنقول حين نرى هذا الصديق الأستاذ وهو في ثوبه الجامعي إن الله سبحانه قد ملأ صدر هذا الرجل بالعلم فعكف عليه حتى اتخذ مهنة ، ولنقول حين نرى هذا الصديق القس إنه سبحانه وتعالى أنزل التقوى على هذه النفس فاتقت ، وأودعها الرضا فرضيت ! . . .

رأيت صديقي الأستاذ ورأيت صديقي القس في ثوبيهما هذين الأسودين ، فابتسمت ثم تأملت وقلت : لشد ما يغالب كل منهما نفسه ويشد عليها ! أما أستاذنا فكما عرفته ليس في طبعه وقار العلماء وإخلاصهم للعلم ، لكن وظيفته اضطرته إلى الوقار الذي يصطنعه العلماء وإلى البحث والتقصى كما يصنع العلماء ، وهكذا رأيت بعد حقبة طويلة من الزمن فرقتنا لم يكن في طبعه الابتعاد كثيراً عن الناس ، لكن مركزه قد ارتقى به بحيث أصبح يصطنع ما يصطنع كبار الأساتذة الذين لا يختلطون كثيراً بالناس ، والذين تفرد لهم حجرات خاصة حتى لا يعكر الناس عليهم هدوءهم ويصرفوهم عن الاستغراق في التفكير والتأمل في

البحث ! لقد أصبح لا يضحك إلا بقدر ، ولا يتحرك كذلك إلا بقدر ؛ لأنه دائماً مهموم بحياته العقلية . . . بل رأيتُه أقلم ملامحه — إن صحَّ أن الملامح تؤقلم — لأن البيئة العلمية التي يشغل فيها مركزاً ممتازاً تحتاج إلى مثل هذه الملامح العلمية ، بحيث أصبح لا يبدو للناس إلا مفكراً أو شبه مفكر . وأعجب من هذا وأكثر سوءاً عليه وعلى الناس أنه اضطر ليؤلف بعض الكتب لأنه بغير هذه الظاهرة العلمية لا يستطيع أن يكون أستاذاً في مثل هذا المركز الممتاز ! والحق أني أشفت عليه حين رأيتُه يعكف على القراءة الكثيرة المتصلة ، ويضطر لتأليف كتابين طبعهما طبعة متقنة . . . وللعلماء لون خاص من ألوان العيش يصطنعونه في حياتهم المنزلية ؛ فشدَّ صاحبنا على نفسه في اصطناع هذا اللون ، فملأ الجدران بالكتب ، وظل طول ليله يقلب فيها . أي مغالبة وأي إرهاق ! أعلم أنه يود لو كان هناك بدل هذه الكتب بعض الصور التي يهواها قلبه . . . أعلم أنه يود لو قضى ليله فيما تشهيه نفسه ، لكن هذا الثوب الجامعي الأسود اللون مستبد به كل الاستبداد حين اضطره أن يبتعد كثيراً عن المجتمع ، وحين اضطره أن يقيد من حركاته ومن نزعات قلبه . . . بل لقد بلغ من استبداد هذا الثوب الجامعي الأسود أن كاد يحيل صاحبه إلى إنسان آخر غير هذا الإنسان الذي في نفسه وتحت قميصه ! . . .

قلت له حين رأيتُه : أراك صرت أستاذاً كبيراً ! . . . قال : نعم . قلت : أسعید أنت بهذه المهنة ؟ قال : إنه مركز ممتاز يا صديقي . . . لكني مع ذلك لا أكتمك شيئاً ، فإن هذا الروب الجامعي على جلالته ورحابته قد أفسد على الحياة ، وضيت على قلبي الخناق ! وأنت تعلم أن ظروف الحياة قد تدفع الإنسان منا نحو غاية لا تشهيه نفسه . . . وهل كنت تقدر أنت أو أقدر أنا أنني سأصبح أستاذاً في الجامعة ؟ كل ما في الأمر أن يداً ما دفعت كرة من الكرات نحو جهة ما ، فاندفعت هذه الكرة وصارت تتدحرج وتتدحرج ! . . . ولا بد أن ستقف هذه الكرة من نفسها أو بقوة خارجة عنها ، ستقف هذه الكرة يوماً ما أو ساعة ما ، غير أنني لا أعلم متى . . . أليس كذلك يا صديقي ؟ ألسنا في الغالب نشغل وظائفنا في الحياة مدفوعين بمؤثرات مختلفة ، ففسير أكثر ما نسير في حياتنا بهذا القصور الذاتي ؟ قد تعرف أنني رجل لا صبر لي على هذا التحقيق العلمي الدقيق ، لكني مع ذلك أحقق وأدقق . . . وقد تعلم أنه لا صبر لي على

هذه الحياة العلمية المنزلية بين هذه الكتب التي تطلق عليها المراجع ! لكنى مع ذلك ألفت هؤلاء الأصدقاء الثقلاء ، وفهمت قول المتنبي :

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدوّاً له ما من صداقته بُدّ

والذى يغىظنى حقا أنى لا أستطيع أن أقنع نفسى بترك هذا العمل إلى غيره ؛ لأن مركزه كما تعلم مركز ممتاز . . . وماذا تقول لو عرفت أن هذه الناحية العلمية التى برزت فيها يوماً ما والتى أقوم بتدريسها الآن فى الجامعة ، إن اتسع لها عقلى وأحبها ، فقد طالما ضاق بها قلبى وأراد الخلاص منها ! وإنى لأعلم أن قوماً آخرين من زملائى يشقون بمثل ما أشقى به لكنهم لا يتصارعون ! أرايتنى وأنا أدخل الكلية ! أرايتنى وأنا أضع هذا الروب على كتفى ! أرايتنى كيف أتركه فى بعض الأحيان يتهدل على جسمى دون أن أظهر العناية به لأنه لا ينبغى لرجل العلم أن يعنى بغير الفكر ! لشد ما يزعجنى يا صديقى حين أعلم أن الحياة بالنسبة لى لم تعد إلا معهداً للتمحيص والدرس ! لكن الكرة لا تزال تجرى قوية سريعة ، وربما سبقت غيرها من الكرات ، لا شئاً إلا لأن طاقتها الذاتية المادية قوية ! ثم سكت صديقى الأستاذ كأنه لم يشأ أن يصارحنى بشئ أكثر من هذا .

فأما صديقى القس فتوبه هو الآخر ثوب فضفاض ، ولكنه فى الحقيقة يضيق على نفسه الخناق ! وما أكثر ما أشفت عليه حين رأيتَه يصطنع من أجل هذا الثوب ما يصطنع ! . . . عرفته طروباً مرحاً يستخفه اللهو ويملك عليه أمره فى بعض الأحيان ، لكن حياته الدينية أصبحت لا تسمح له أن يأخذ من هذا الطرب أو هذا المرح بكثير أو قليل . . . رأيتَه يسير فى الطريق بتؤدة هادئة جداً ، وما كان يعرف التؤدة فى شئ . . . ورأيتَه يضع فى يده كتاباً صغيراً ، وكنت أراه يقبل على قراءة كثير من الكتب إلا هذا الكتاب الصغير الذى أصبح لا يفارق يده . . . ورأيت الزنار يلف خصره . . . فأما قسبات وجهه فقد أشفت عليه حقا حين رأيتَه يروضها على هدوء يشبه الجمود ! أقسم أنه لا يجب هذا الثوب الأسود الكنسى الذى يعوقه عن الحركة الخفيفة السريعة ، والذى لا يقدمه للناس إلا فى صورة الرجل الزاهد فيما فى الدنيا من متاع وجمال ! وأستطيع أن أقسم أيضاً أنه ضيق الصدر بهذا الكتاب الصغير الذى لا يفارق

يده ! . . . وهذا الزنار الأبيض المتدلى من خصره ، فلقد كان يود من صميم قلبه أن لو كان ذراعاً ملساء بضمة ! نعم ، ما أكثر ما أُشفق على صديقي القس هذا حين أراه يفتح عينيه الوادعتين فيرى ماتهفو إليه نفسه ويخفق له قلبه ، لكنه يسارع فيغض من عينيه ؛ لأن هذا الثوب الأسود يرده إلى ما ينبغي أن يرد إليه . . . لقد كان صديقي القس هذا يتحدث إلى كل شيء إلا حديث الدين ، فها هو ذا لم يعد يرغب من الحديث إلا فيما يتصل بالدين . . . أين تلك الحياة الفنية التي كان يحياها هذا الفتى قبل أن يصبح قساً ؟ أين لهوه وعبثه ! بل أين ذهب عنه شيطانه إن كان حقاً ذهب !

قلت له : أتصدقني ؟ قال : ماذا تريد ؟ قلت أسعيد أنت بهذه الحياة الدينية التي تحياها ؟ فنظر إلى نظرة وادعة هادئة وقال : نعم ! قلت ولكني أعلم أنك كنت تفكر في كل شيء إلا أن تكون عليك هذه المسوح . . . قال : ومن قال لك إن الانسان مخير ؟ قلت : أو ما يهفو قلبك حيناً إلى شيء مما كان يهفو إليه قديماً ؟

فابتسم صديقي القس وقال : دعنا من هذا . . .

محمد عبده غزّام

الهجاء السياسى فى مسرحيات أريستوفان

من الأمور التى تتردد عادة على خاطر المشتغلين بالأدب كلما عرض متحدث أمامهم لكاتب من الكتاب المعاصرين التساؤل عن آثار هذا الشاعر أو القصصى أفيها ما يضمن لها شيئاً من البقاء والتأثير فى نفوس الأجيال المقبلة ؟ وليس من الغريب أو النادر أن نرى النقاد يتحدثون عن بعض الكتاب قاطعين بثقة أن مؤلفاتهم ذاهبة دون شك مع سيرتهم . ويمر الزمان بالناقد فيظهر صدق حكمه أو كذبه ، وتأتى الأيام أحياناً بعكس ما كان يتوقع البعض ، فيكف الناس عن قراءة كتب كان المعاصرون يخالونها خالدة ، ويتهالك الناس على مؤلفات كان الجميع يتحدثون عنها يوم نشرها فى شىء من الاستخفاف والاحتقار . وأقطع مثل لذلك فولتير الذى كان يظن ويظن معه الناس أن رواياته المسرحية هى أحسن ما أنتج ، وأن قصصه الفلسفية ليست إلا مداعبات فنية أراد فولتير أن يشغل بها أوقات فراغه ليلهو بها القارىء ويستريح إليها من التفكير المضنى . والواقع أن مسرحيات فولتير لا يقرأها اليوم إلا الباحث فى أدب القرن الثامن عشر عامة ، وفى آثار فولتير بنوع خاص ، على حين تتعاقب طبعات قصصه الفلسفية ويتسابق الفنانون إلى إخراجها فى أناقة مزينة بالصور والرسوم .

وإذا كان الشعر من الآثار الفنية التى تبقى حية لما فيها من وصف خالد للشعور ، ومن صور لتجارب إنسانية يعانىها كل فرد ، ومن إيجاء إلى آمال وأحلام ملازمة لكل عصر ولكل جيل ، فالمسرحيات والهزلية منها بنوع خاص تقل فيها تلك العناصر . وقد استنبط برجسون فى كتابه — وعنوانه «الضحك» — الأسباب التى تدفعنا إلى الضحك ، وخصص ناحية من بحثه للإيجاء ووصفه بالعنصر الأساسى للضحك . وقد يضطر الكاتب فى أكثر من مناسبة ليثير الضحك (ومن الكتاب من ينسى أن الضحك على أنواعه هو الغرض الأخير لكل المسرحيات الهزلية)

إلى استغلال حوادث تاريخية أو أوضاع اجتماعية أو شخصيات سياسية يكفى أن يشير إليها ليضمن لروايته النجاح وللمتفرجين السلوة والمرح .

وفى مسرحيات أريسطوفان إشارات لا نضحك لها إلا بعد الرجوع إلى البيئة التى عاش فيها والوقائع التى يسخر منها أى — بعبارة أخرى — بعد الرجوع إلى التاريخ اليونانى فى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ فتكشف لنا وقتئذ الكلمات عن معان كنا نجهلها ، وتثير العبارات ضحكا كان يردنا عنه جهلنا لما تحتويه من دوافع إلى الضحك . وقد نشأت فكرة هذا البحث عن حرصنا على ألا تفوتنا فرصة للضحك ، وعن اطلاعنا على بعض المراجع مثل تاريخ الأدب اليونانى « لألكسيس بيرون سنة ١٨٩٤ والجزء الثالث من تاريخ الأدب نفسه لألفريد وموريس كروزيه سنة ١٩١٣ ودراسات فى أدب أريسطوفان لإميل ديشانيلي سنة ١٨٧٦ والمقدمة لآثار أريسطوفان فى مجموعة بوديه G. Budé بقلم فيكتور كولون ، والتعليقات على كل رواية بقلم فان ديل سنة ١٩٣٤ ، وأخيراً الكتاب القيم عن أريسطوفان والأحزاب فى أثينا بقلم نوريس كروزيه سنة ١٩٠٦ » . ولما كان الهجاء على اختلاف أنواعه من ضروب الأدب الفردى المتصل بحياة الكاتب ، فسنحاول أن نعطي القارى فكرة وجيزة عن أريسطوفان وعن بعض مؤلفاته .

من الأجزاء التى تتكون منها المسرحيات الهزلية اليونانية جزء يسمى « الاستطراد » parabase وهو عادة فى آخر النصف الأول من المسرحية ، يتجه فيه الشاعر مباشرة إلى مستمعيه . وهو فى أغلب الأحيان حديث يفتخر فيه تارة صاحبه بما أقدم عليه من عمل جرى فى محاربته أو تقده لحاكم أو زعيم ، وتارة أخرى يؤاخذ الحاضرين على سوء إدراكهم لرواية سابقة ، أو يطلعهم على ما يجول فى نفسه من شك أو أمل أو قنوط كما فكر فى هذا الزعيم أو ذاك من المستبدين بالشعب المسيطرين على عقله المزدرين لشعوره . وسيرة أريسطوفان التى نقرأها فى التراجم القديمة وفى الكتب الحديثة عن الأدب اليونانى نجد تفاصيلها منتشرة فى المسرحيات التى وصلتنا فى صفحات الاستطراد الذى أشرنا إليه .

وكذلك نعلم أن أريسطوفان ولد فى نحو سنة ٤٤٥ ق.م وكان أبواه فيليب وزينودورا من أحرار الأثينيين . وكان لأسرته فى مدينة ايجيين حيث استقرت سنة ٤٣٠ أرض تستغلها وقد يتعذر علينا أن نعرف بدقة المبادئ التى شب عليها

أريسطوفان والعوامل الثقافية التى أثرت فى تكوين عقله . ولكن هناك أمراً لا ريب فيه ، وهو أن عبقرية أريسطوفان ظهرت جلياً وهو فى الثامنة عشرة من عمره فى مسرحية نال بها الجائزة الثانية فى مسابقة سنة ٤٢٧ وفى العام التالى مثلت له مسرحية « الباييلين » وهى عبارة عن نقد عنيف لسياسة عهده وهجاء لاذع يقذف به الزعيم كليون . ولم يغفر له كليون هذه الجرأة بل قدمه أمام مجلس الشيوخ لمحاكمته . ولم يكن أريسطوفان من الذين تهزهم المحن أو تثبط همهم . ففى سنة ٤٢٥ قدم مسرحية « الأكرنيين » ثم « الفرسان » سنة ٤٢٤ وهى أكثر مسرحياته شجاعة وأشنعها هجاء . ومع شهرته الواسعة فانه لم يحصل فى سنة ٤٢٣ إلا على المرتبة الثالثة بمسرحية « السحاب » التى عرض فيها لأساليب التربية الجديدة ، كما أخذ يسخر سنة ٤٢٢ من داء القضاء فى مسرحية عنوانها « الزناير » وقد تبعها مسرحية « السلم » سنة ٤٢١ و « العصافير » سنة ٤١٤ و « ليزيزترات » سنة ٤١١ و « بلوتوس » سنة ٤٠٩ . وفى سنة ٤٠٥ لأول مرة فاز بالمرتبة الأولى بمسرحية « الضفادع » وهى خير ما أنتج فى الهجاء الأدبى ونجد فيها مقارنة بين أوريبيدوس وإسكيلوس .

وفى ذلك الحين حدث انقلاب فى أثينا عندما قهرها ليزندر ، فاجت الحياة واضطر الشعب أن يلجأ إلى العنف والحرب الأهلية ليخلص من نير « الثلاثين » وليعيد نظام الديمقراطية . كل هذا أضعف الدولة وصرف الجاهير عن اللهو البرى وعن إقامة الحفلات . وأول من فطن لهذا التغير هو أريسطوفان ، فتمشى مع الروح الجديدة وسائر معاصريه ، فلم يتحفهم بمثل المسرحيات الخالدة التى أشرنا إليها ولم يطرق باب الهجاء السياسى كما ألفه فى أول عهده بالمسرح ولكنه لم يكف عن الإنتاج الأدبى . ففى سنة ٣٩٢ مثلت له مسرحية « جمعية النساء » وهو يسخر فيها من النظريات الشيوعية التى كانت موضع جدال فى المدارس الفلسفية . وعاد سنة ٣٨٨ إلى مسرحية « بلوتس » فعدّل فيها وبدل ، وهى أيضاً من القصص الاجتماعية الخطيرة عن مشكلة توزيع الأموال . وينقطع هنا عهدنا بأريسطوفان ولا نجد فائدة من ذكر المسرحيات التى لا نعرف منها إلا عناوينها أو بعض أشعار ضئيلة . وحسبنا أن نعرف أن عدد مسرحيات أريسطوفان على أقل تقدير ٤٤ مسرحية ، وأن من بين المؤرخين من يعتقد أنه ٤٥ مسرحية . وعلى كل حال فقد بلغت إحدى عشرة منها .

ولما كان أريسطوفان ينشر مسرحياته بعد زمن قصير من تمثيلها ، فالنص الذى نقرؤه اليوم صورة للنص الأول الذى أشرف المؤلف على نسخه .

مما يقرب المسرحيات الهزلية إلى الحقائق الواقعية اتجاهها نحو الهجاء . وهناك ثلاثة موضوعات حاول الكتاب أن يعالجوها فى مؤلفاتهم ، وهى الأخلاق والعادات من جهة ، والسياسة من جهة أخرى ، والآداب من جهة ثالثة . وشاعر مثل أريسطوفان ترك لنا فيما ترك من مسرحيات تقدماً شاملاً لعصره من النواحي الثلاث التى ذكرناها . ونحن لا ننظر اليوم إلا فى مسرحياته السياسية مع ملاحظة أن الهجاء السياسى ، وإن كان العنصر الجوهرى فى بعض مسرحياته ، متكرر فى أغلبها على شكل إشارة أو تلميح . وقد اضطر أريسطوفان كغيره من الشعراء الذين سبقوه إلى أن يثير العواطف القومية السائدة فى عصره — تلك التى كانت لا تمس حتى ييار الشعب بسخريته وتقده وتهكمه . ولا بد من هذا الانسجام بين الجمهور والكتاب ، وبين موضوع الرواية والأمور التى تشغل بال الجمهور ، ليجوز الضحك ويستساغ الهجاء .

ولقد تواترت مسرحيات أريسطوفان وتلاحقت معها أساليب من الهجاء انفرد بلبداعها وبرع فى استعمالها ، فجاءت مرآة صادقة لما كان يتردد على ألسنة الأثينيين ويغلى فى قلوبهم من غضب وبغض واستنكار . وربما صادفوا من أريسطوفان هجاء يمسهم فيما ألقوه من عادات ودأبوا عليه من آراء ؛ غير أنهم كانوا يقبلون تقده وسخريته لما كانوا يعترفون له به من الإيصابة فيما بينهم وبين أنفسهم وهم المشهورون بجدة ذكائهم وحسن إدراكهم للأمور . ونحن عندما نعكف على دراسة الهجاء السياسى عند أريسطوفان تستوقفنا تفاصيل ربما كان الأثينيون يمرون بها مسرعين ، وتضيف إلى مشاعرنا أغراضاً ربما لم يعرض لها إلامصادفة ، ونعجب لآراء جريئة ربما صدرت عنه عفواً ، ولا نمنع النظر فى ألوان من النقد ربما كان يعتبرها هو ومعاصروه أقوى مافى المسرحية من عتاب وهجاء . وإليك نبذة عن الروايات التى يعتبرها النقاد الذى قرأنا بحوثهم واقتبسنا منها الكثير فى صميم عالم السياسة .

ليست مسرحية « الاكرنيين » أول محاولة لأريسطوفان فى باب الهجاء السياسى . وقد أشرنا فيما تقدم إلى مسرحية عنوانها « البابيليون » نقد فيها الشاعر

كليون تقدماً مباشراً مندداً بالزعيم المتملق للشعب العايب بأموال الدولة . أما مسرحية «الأكرنيين» التى تهمنا الآن فأننا نفهم من سياق الحديث أنها كتبت تحت تأثير الغضب والأخذ بالثأر؛ لأن كليون أبى إلا أن يقابل غلو الشاعر فى النقد بشئ من العنف . والمسرحية دفاع عن السلم ؛ فقد طال النزاع وسفك الدماء والعذاب ، ولم يتوقع فرد نهاية للحرب بين أثينا وسبورتا ؛ فقد عجز الأثينى ديكايوبوليس عن حمل هيئة الشعب على درس شروط الصلح ، فلجأ إلى توقيع هدنة شخصية مع العدو ، فلم يستجب له أحد بادية الأمر بل تهافت الجميع على لومه . ولكنه لم يضطرب لما شنوه عليه من عدااء ، بل أخذ يثبت لهم أن الحرب بدعة بعض الساسة الطامعين فى المال واللذة حتى بلغ منهم قصده . واقتنعوا أن أقطع دليل على حسن تفكيره السعة التى كان يعيش فيها على مقربة من أناس يقاسون مر الحياة ويؤسها .

أما مسرحية «الفرسان» سنة ٤٢٤ فهى أول مسرحية يتقدم بها أريستوفان باسمه . نرى خادمين ديموستين ونسيلس وهما يتظلمان إلى سيدهما ديموس (وهو يمثل شعب أثينا) من تصرفات البفلجونى (كليون) منذ دخوله البيت . وهما ذات يوم يستغلان نشوة زميلهما وإغراقه فى النوم ويسلبان نص التنبؤات التى كان يقرؤها من حين إلى حين على سيده لاستمالتة ، فيقع بصرهما على نص يشير إلى قهر كليون وإذعانه لغالبه وهو بائع . . . ويمر بهما البائع ويعلم منهما مافى الغيب من خير يخصه ومن مرتبة عالية سوف تسند إليه . ويحضه الخادمان على مطاردة كليون بمعاونة الفرسان وأهل الجاه . ثم يقبل كليون وهو يتأجج غيظاً ويفوه بالتهديد والندير ، فيستعين ديموستين بالفرسان فيذيقه الفرسان ألواناً من الضرب لم تكن تخطر بباله . ويتشجع بائع المقاتق فينشأ بينه وبين كليون نزاع شديد يخرج معه كليون مغلوباً ، ولكن يأبى إلا أن تكون له الكلمة الأخيرة ، فيطلب إلى منافسه أن يرفعا أمرهما إلى ديموس ليفصل بينهما . ويصغى ديموس إلى ثنائهما ويتقبل ما يجودان عليه من هدايا ، ثم يؤثر بائع المقاتق على كليون ، ويعينه ناظراً على بيته ومديراً لماله . ويأسف ديموس على ضلاله القديم ويقطع على نفسه عهداً بأن يعوض ما ضاع ويصلح ما فسد . وأخيراً يحكم على كليون بأن يرتدى ثوب بائع المقاتق وبأن يتخذ حرفته لبيع اللحم على أبواب المدينة .

ثم يستصحب ديموس فتاة جميلة (وهي تمثل هدنة ثلاثين سنة) ليعيش معها في الريف .

هذا ، ولا بد أن نرجع إلى تاريخ اليونان لنذكر معنى رواية « السلم » ، فقد فاز كليون بثقة الديمقراطيين واستأنف القتال ضد سبرتا ، ولكنه لقي حتفه في معركة أنفيبوليس . وقد شعرت أثينا وسبرتا بعد حين بحاجة ماسة إلى السلم والسكينة . فجاهد كل من ملك سبرتا ونسياس زعيم الحزب المعتدل لإعادة الطمأنينة إلى النفوس ، واتفق الفريقان على توقيع الصلح على أن يرد كل فريق للآخر الأقطار التي استولى عليها أثناء الحرب مع احتفاظ أثينا بميناء فيسيا ، فدعت سبرتا حلفاءها للتشاور فوافق بعضهم على شروط الصلح واعترض عليها البعض لأسباب قومية واقتصادية . فكتب أريستوفان مسرحيته ليشجع البعض على التمسك بنزعاتهم السلمية ولدعوة الآخرين إلى شيء من التأي ، وهو من أجل ذلك لا يجادل في السلم أهو مأمول أو محال ، وإنما يمثل عودة الحياة السهلة الهنيئة ليغري بها قلوب الجميع .

ونستطيع الآن أن نلخص موضوع المسرحية في كلمتين : يمتطي المزارع تربيته دابة ويرتفع بها في الهواء إلى أن يصل إلى الأولب وقد هجره الآلهة تاركين مكانهم لعملاق يحسم الحرب ولرفيق له يهين نفسه لسحق المدن المتحاربة في مهراس فخم ، وآلهة السلم كامنة في قاع مخفر على شكل كهف . ويجد اليونانيون على اختلاف ألوانهم لإخراج السلم من عزلتها ، وبعد مشقة وعناد يظهر تمثال السلم ، ويقدم الجميع الذبائح والقرايين ، وتنتهي المسرحية بالولائم والطرب .

وأخيراً يمكن اعتبار مسرحية « ليزيزترات » آخر محاولة من أريستوفان لوقف القتال بين شعبي أثينا وسبرتا . قد منيت أثينا بالهزيمة في صقلية وكان أجيس ملك سبرتا يحتل مدينة ديقلي على مسافة أربعة وعشرين كيلومتراً من أثينا فارتاع ، الشعب وفطن إلى ضرورة المقاومة . وفي أثناء ذلك تعاهدت سبرتا مع بلاد الفرس وضمنت ما كانت في حاجة إليه من المال والأساطيل . فكتب أريستوفان مسرحيته راجياً باسم البشرية أن ينصرف الجميع عن القتال ليدفعوا عن بلادهم شر الخضوع للأجنبي عدو المدنية ، ولا يهتم الشاعر بتحديد المسؤولية وهو لا يريد شيئاً إلا أن يذكر أولئك وهؤلاء أنهم من أصل واحد ويربطهم

دين واحد ، وأن لهم حقوقاً كما أن عليهم واجبات ، وأن الأفضل أن يقدر كل واحد خطورة الموقف ويعمل على تصفية الجو والضماير . فوجه أريسطوفان كلامه إلى نساء البلدين من زوجات وأمهات . وليوفق بين غرض كله جد وبين أصول المسرحية الهزلية اخترع الشاعر الموضوع الآتى :

« دعت ليزيزترات من النساء من يمثلن المدن المعادية ، وطلبت إليهن أن يتمردن على أزواجهن حتى يتم الصلح . فاحتجت واحدة منهن فى أول الأمر وكادت الفكرة تحقق لولا مهارة زعيمتهن . اقتنعت النساء شيئاً فشيئاً حتى قبلن وأقسمن ألا تلين الزوجة أمام زوجها أو على الأقل ألا تخضع له إذا لجأ إلى القوة إلا مضطرة ، ثم تحتل النساء وعلى رأسهن ليزيزترات حصن الأكروبول . وهنا تقدم جوقة الشيوخ لتصد النساء عن مقاومة لا طائل فيها وعن تثبيت مضحك ومحزن فى آن واحد . ولكنهن يظهرن ثباتاً وإلحاحاً لا حد لها ويهددن الشيوخ . وأخيراً يأتى الرجال من كل صوب من حلفاء وأعداء ساخطين تارة ومستعطفين تارة أخرى ومتظلمين على كل حال من قسوة تلك المعاملة ومن ذلك الامتناع الذى لا طاقة لهم به ولا صبر لهم عليه وازدراء زوجاتهم لهم . وهم مستعدون أن ينفذوا كل ما تشير به أزواجهم وأن يأتوا بالمعجزات فى سبيل ما يبتغون من عطف وما يطلبون من وصل . فتبدأ فعلا المفاوضات وتنتهى إلى الصلح والوثام والطرب . »

إن الهجاء السياسى فى المسرحيات التى ذكرناها واضح كل الوضوح . وهدفه الأول والأخير هو كليون الرجل المتشبع بمذهب الديمقراطيين من سكان المدن ، وهو المشاغب الذى ندد أريسطوفان بخلقه السيئ وبميله الآثم إلى القسوة والعنت وبعده عن الروح اليونانى الخفيف . انشق على بريكليس أيام حرب البلوبونيز . وفى سنة ٤٣٠ عندما ثار الشعب على حاكمه كان كليون فى صف المتهمين ليفوز بثقة الشعب وعطفه . يلومه أريسطوفان على عنف الأساليب التى كان يتبعها لإقناع الشعب ، وعلى سوء سياسته الداخلية إذ أنه حاول بجميع الطرق هدم آراء الطبقات الراقية والغض من قدرها ومحو أثرها ، وهو فى سبيل هذا الغرض لا يترك غريزة خسيصة إلا استغلها . وهناك غرائز تذهب بالأفراد ، فكيف بالجماعات ، إلى حيث لا تريد . فهو تارة يرفع أجر القضاة ليلبغ رضاهم ، وتارة

يتهم الناس ويقودهم أمام المحاكم ليظهر للشعب أنه الزعيم الوفي الأمين الساهر على مصالحه .

وبسط أريستوفان هجاءه على سياسة كليون الخارجية ؛ لأنه كان دائماً يحض أثينا على الطموح الباطل ، فلم يقنع بالسيادة على البحار بل كان يغري الشعب بأحلام استعمارية خلافة . وكان يعالج الشؤون الخارجية التي تطلب مهارة وحكمة ودقة بمثل ما كان يبدية من استبداد وتطرف وانفراد في الرأي والعمل . وكانت أنفته البغيضة تحول بينه وبين التروى والتفكير الطويل . وكان أريستوفان يمتقه لمعارضته التي لا هواده فيها لأي مشروع صلح . وكان الشاعر يعلم ما للحرب من ويلات ولا يفهم كيف يشجع امرؤ على متابعتها .

وكان النضال يثير غضب الشعب ، وبنوع خاص من اشتد عليه الدهر من الريفين الذين هجروا منازلهم خشية اكتساح العدو لأراضيهم وتساقطوا على أثينا من كل صوب ليأمنوا فيها ، لكنها ضاقت بهم وازدحمت مساكن الأهل والأصدقاء ، فلبأوا إلى المعابد والقلاع ، وهم عرضة لحرب ضروس ولأمراض فتاكة ، وقد نشأت عن هذا الضيق بالحياة ثورة على أعدائهم ورغبة ملحة في مطاردتهم بكل ما أتيح لهم من القسوة والشجاعة . وأصبح إذ ذاك حديث السلم من الشجاعة التي ليس بعدها شجاعة . والجرأة من صفات الكاتب الحر الذي يقدر قداسة فنه ويرفع من شأنه غير مكترث بما تخلق له تلك الحرية من مشقة وهم . وكان أريستوفان يعلم لكثرة ما جربه في حياته أن الضحك دواء نافع ناجع يجد فيه الانسان شيئاً من التسلية والعزاء والنسيان ، ومخدرأ لأعصاب متوترة ، وحلاً هيناً لصعاب يعجز الجد عن حلها . وربما فكر فرد غير أريستوفان أن يأتي بالبراهين الدقيقة والأدلة القاطعة والاعتبارات النظرية ليقنع سامعيه بوجاهة رأيه . ولكن أريستوفان شاعراً أكثر منه فيلسوفاً . لذلك نراه اتخذ في رواياته السياسية طريقة الهجاء والتهم ومحاربة المسئولين عن الحرب وعلى رأسهم كليون . فصور أهل عصره وقد أعياهم القتال ونهك قواهم وأفسد عليهم الجو ودس الاضطراب في نفوسهم وأثار الانشقاق بينهم . فمنهم من يرغب صادقاً أن تعود أيام الهناء ، ومنهم من يعارض الفريق الأول ، ومنهم من لا يقدم على عمل ولا يفكر في حل بل يكتفى بمشاهدة غيره وتشجيعه بالكلام حيث لا تنفع إلا الأعمال .

هجا أريستوفان كليون لشدة مايين نظرياتها السياسية الجوهرية من تناقض

وما أبعد ما كان الأمد بين مؤيد للديمقراطية المعتدلة المحافظة على التراث الأدبي
والخلقى القديم ، وبين رجل مثل كليون وأين ! كان السبيل إلى الوفاق بين كاتب
يكره التعسف والغرور والطموح المسرف ، وحاكم لا يحرص على طمأنينة الشعب
وغضارة عيشه واحترام حرите !

كان كل منهما فى عالم مختلف لا تجمع بينهما إلا تلك الساعات المضحكة كما
أتاحت للشاعر مناسبات النقد والهجاء .

ريمون فرانسيس

LIFE IN A NEUTRAL COUNTRY
IN SWEDEN TODAY
HENRY BAERLEIN

الحياة فى بلد محايد
فى السويد اليوم

[زار الكاتب مستر بيرلين المعروف برحلته
الوصفية بلاد السويد منذ شهر مندوباً لنادى القلم
البريطانى ، للمؤتمر الذى عقد فى تلك البلاد . وكتب
المقال التالى خاصة للكاتب المصرى .]

عندما كانت الحرب قائمة ، كنا نسمع كثيراً عن البلاد المحايدة السعيدة ،
وتنظر إليها البلاد المحاربة فى شئ من الحسد؛ ولكن تلك البلاد كانت لها متاعبها
التى ربما لا نشعر بها شعوراً كافياً . والآن ما هى حالها ؟ لننظر إلى السويد التى
تعتبر من أهم البلاد المحايدة .

كانت بلاد السويد فى أثناء الحرب تشعر بالقلق الذى ينتاب عادة شعباً
صغيراً يحيط به محاربون أقوياء . وقد ظل أهلها حتى سنة ١٩٤٣ لا يكادون
يستطيعون الدفاع عن حدودهم الأرضية الطويلة إذا ما غزاهم الألمان من
جهة بلاد النرويج . وفى سنة ١٩٤٣ كانت قواتهم مسلحة جيداً بأسلحة أكثرها
ألماني ، إذ أجبر النازى على أن يبيعوها هذه الأسلحة، كي يظلوا على علاقة حسنة
مع الدولة التى يستمدون منها أكثر الحديد الخام .

والآن قد لا يكون من المبالغة أن نقول إن الجيش السويدى هو خير
جيش شتائى فى العالم . ولقد وقفت السويد جهودها زمناً طويلاً على معالجة
المشاكل الخاصة بحرب الشتاء ، فعسكرت قوى كبيرة من جيشها عدة شهور فى
الغابات وفى العراء أثناء شهور شتاء كان قاسياً برده ، إذ كان البرد يبلغ درجة
٢٥ تحت الصفر بمقياس سنتيجراد . ومما يدل على مقدرة هؤلاء الجنود فى التغلب
على صعوبات الشتاء ، أنه لم يحدث أن أصيب جندى واحد إصابة ناشئة عن الجليد

والآن تستطيع السويد فيما يتعلق بمواد الحرب أن تعتمد إلى حد كبير على تصميماتها وعلى مصانعها . ويكفى أن نذكر فيما يتعلق بصناعة البنادق مصانع بوفورس التي ظلت تتمتع من زمن مديد بشهرة عالمية ، وصنعت سيارات مصفحة ودبابات من خير الأنواع . وأخرجت مصانع السفن السويدية للبحر سفناً جديدة خفيفة تسير في سرعة فائقة ، وتسلمت البلاد الكثير منها وبخاصة الغواصات . وكانت البلاد تعتمد في الطائرات على الاستيراد من الخارج أو البناء حسب نماذج أجنبية أكثرها بريطاني أو أمريكي ، أما الآن فقد قامت صناعة حديثة للطيران داخل البلاد . وأخبرني ضابط أمريكي للطيران منذ أيام أنه يعتبر الطيارين السويديين لا نظير لهم ، فهم مهرة في فهمهم . ومما يستحق الذكر في هذا المجال أن الخطوط الجوية السويدية تستخدم عدداً من قواد الطائرات البريطانية والأمريكيين والنرويجيين . والسبب في ذلك أنه لم يسرح من قوة الطيران الحربية السويدية عدد كافٍ للعمل في خطوط الطيران ، ولا يسمح لقائد الطائرة المدني أن يقوم بالعمل إلا إذا بلغت مدة طيرانه . . . ١٥ ساعة .

لم تكن السويد لتستطيع المحافظة على حيدها في أثناء الحرب مع العدد المحدود لسكانها ، أمام أي مهاجم محتمل ، بالاعتماد على التفوق العددي . فبذلت كل جهد للوصول إلى أسمى ماتستطيع الوصول إليه من حيث النوع . ويعتبر المجندون السويديون من خيرة المجندين في العالم . ولذلك لا يرفض في السنوات العادية من بين الشبان اللائقين للجيش بسبب حالتهم الصحية أكثر من خمسة في المائة . وتجري للمتقدم للخدمة العسكرية اختبارات نفسانية معدة إعداداً جيداً ، كي يتبين ماتتجه إليه ميوله ويصلح له من فروع الخدمة العسكرية . ويشعر أفراد الشعب بأن اللياقة الجسدية هي الهدف الذي يجب أن يصلوا إليه .

ومع ذلك ليس كل شيء في الحديقة السويدية جميلاً . فقد تظهر الصورة لامعة أمام عيني السائح ، فالحوانيت مليئة بالسلع الجذابة والطعام كثير ، منه فواكه كالأناناس والموز ، وتجد أطناناً من الشكولاتة ، والبيض كياته وافرة ، والأضواء في كل مكان ، والعلامات الملونة تضيء في الليل بما يذكركنا بليالي ما قبل الحرب تماماً ، وتجد قطارات كهربائية مريحة — والسويد استفادت من أنهرها الجبلية التي لا عداد لها ، وهي أكثر بلاد العالم استعمالاً للكهرباء — والمواصلات

بالسيارات ميسرة (فالسائح القادم من الخارج يسمح له بحمل سيارته إلى السويد من غير أجر) والعمل ميسور كل اليسر . ولكن هذه الصورة ، خداعة بعض الشيء ؛ فوراء مظهر الرخاء أهراء الفحم الخاوية . وتدل الأرقام الرسمية على أن واردات الفحم كانت في السنة الماضية كلها . ٤٤ ألف طن ، وهذا أقل من عشر الواردات مدة الحرب ، وهذه كانت نصف واردات السلم . ومن المستطاع الاستمرار مادام هنالك شيء من الفحم المخزن الذي احتفظ به في السنوات السابقة العجاف . ويمكن أن تبقى الصادرات وقتاً ما في مستوى عال بفضل هذا الفحم المخزن لهذه الفترة الانتقالية . ومن غير الفحم يستحيل الإنتاج إلى أقصى حد في صناعات مثل الأخشاب وعجينة الورق والورق ، فلا ينتظر تسليم كميات من هذه الصادرات بالمقدار الذي بلغته في سنة ١٩٤٥ . وقد يكون من العجيب أن يتوقف إنتاج الخشب على الفحم ، ولكن العلاقة في الحقيقة بسيطة . ففي الظروف الحاضرة يستخدم العمال في قطع الخشب للوقود . ولا تجد طواحين نشر الأخشاب حاجتها من القطع الخشبية . وكذلك مصانع عجينة الورق يتوقف جزء من العمل فيها على الفحم الذي يسير آلاتها . وقد وضعت الدولة يدها على بعض أخشابها من أجل الوقود . ومن الراجح أن السويديين بعد أن فتحت أبنامهم واردات الزيت يستطيعون أن يسدوا حاجتهم لسنة أخرى في تدبير أمورهم المنزلية بكميات الفحم القليلة التي تصل إلى بلادهم من الولايات المتحدة وبولونيا . ولكن هذا العمل غير اقتصادي للغاية ، وهم فضلا عن ذلك لا يقنعون به ؛ إذ هو لا يمكنهم من القيام بدورهم في سد حاجة أوروبا الملحة إلى صادرات الأخشاب لإعادة تعمير البلاد .

ولكن الأنباء عن شركة كيرونا للحديد الخام أحسن من ذلك . وهذه الشركة هي صاحبة المناجم التي تخرج أجود نوع من المعدن الخام في العالم . وهي تملك ميناء نارفيك وأبنيتها ، وهو الميناء التي سمعنا عنه كثيراً منذ سنوات . على أن الكثيرين قد يتطلعون إلى زيارة بلاد مثل السويد ، غير أن الوصول إليها عن طريق أوروبا ليس سهلاً ، ومع أن هنالك خط سيارات منظم يقطع الطريق من باريس إلى استوكهلم في ثلاثة أيام أو أربعة . إلا أن السويديين يحملونك بجرأ وجوا في خير ما يمكن من الراحة إذا كنت تحب عن طريق بريطانيا . وتوجد طبعاً خطوط جوية تصل السويد بجهات عديدة في القارة الأوروبية . وكان من

المنتظر أن تبني أفخم باخرة من بواخر الخطوط البحرية السويدية في بريطانيا ، ولكن عدل عن ذلك بسبب الحرب ، وبنيت هذه الباخرة التي سميت « ساجا » في جوتنبرج ، وكان كاتب هذا المقال أحد ركابها عندما قامت برحلتها الأولى في طريق العودة من إنجلترا إلى بلادها . وكانت الرحلة من تلمري وهو الميناء الذي يصل إليه المرء في ساعة من لندن بالسكة الحديدية . واستغرقت الرحلة اثنتين وأربعين ساعة ، وينتظر أن تستغرق فيما بعد خمساً وثلاثين ساعة فقط عندما يطهر بحر الشمال من الألغام . وتشغل آلة ديزل في هذه السفينة الجميلة الصنع نحو خمس المكان الذي تشغله هذه الآلة في غيرها من السفن . ولذلك تجد فيها أماكن فسيحة لثلاثمائة وتسعين راكباً وتسعة وتسعين من رجال السفينة . وفيها أماكن إضافية ذات أسعار معتدلة جداً لهيئات الشباب .

لم نسمع كثيراً عن طائرات السويد أثناء الحرب ، ولكن الألمان كانوا على علم بما تبذله السويد في نقل أشياء ثمينة مثل القذائف الحربية إلى بريطانيا ، ومغامرات الطيارين السويديين الذين يحملونها إلى اسكوتلندة . فما انتهى القتال حتى كانت خطوط الطيران المدني السويدية أول الخطوط الأوربية التي اجتازت الأطلنطي ، وهي الآن تطير إلى جهات كثيرة في العالم . وتستغرق الرحلة الجوية من لندن إلى ستوكهولم نحو ست ساعات ، ولا تنزل الطائرات في غير جوتنبرج . وفي كل نصف ساعة أو ما يقرب منه يرسل قائد الطائرة الذي يعلن اسمه للمسافرين بطاقة يذكر فيها الارتفاع والسرعة والوقت المحتمل للوصول وما شابه ذلك . وقد اهتم السويديون أيضاً بالنقل الجوي الداخلي . والسويد بلاد طويلة وضيقة ، والمسافة بين طرفي شمالها وجنوبها شاسعة ؛ ولذلك كانت المواصلات الداخلية كبيرة الفائدة . ثم هنالك الاتصال بجزيرة جوتلند الجميلة في بحر البلطيق ، وعاصمتها فيزبي . وهي مدينة محتفظة بطابع القرون الوسطى ، يحيط بها سور لا يزال متيناً ، يبلغ طوله ميلين ونصف ميل ، وبين مبانيها القديمة بيت لأحد الأشراف من القرن الثالث عشر هو الآن أجمل مكتب للطيران في العالم . ولقد مضى وقت كان محتوماً فيه على السفن الانجليزية والروسية وغيرها من السفن التي تتاجر في بحر البلطيق أن تخضع لقوانين فيزبي البحرية . وقد بنى تجار تلك الأيام الكثير من كنائس جوتلند التي تبلغ تسعين كنيسة ، أحدثها أنشئ

سنة ١٣٦٠ . ويقال إن الكثير منها بنى بنقود لإرضاء الضمير ، أى للتكفير عما جناه التجار من ربح غير مشروع . وأكثر هذه الكنائس الآن بلا أسقف وصارت جزيرة جوتلند تعرف الآن بأنها جزيرة الخرائب والورود . فإذا ذهبت إليها بين شهرى يونيه وديسمبر فإن الورود تحييكم فى كل مكان . وفيما عدا ذلك من أشهر السنة تجد الحواجز مغطاة بزهور الليلق من النوع العادى ومن النوع الأبيض الجميل .

وبماذا نصف أهل تلك البلاد الجميلة ؟ مثل واحد يكفى لبيان رقتهم . فقد حدث ذات مساء فى ستوكهلم أن كنت ألاحظ رجلاً يقترب من مواطن له ضرير ، جلس مسنداً ظهره إلى حائط ، وفى حجره وعاء من صفيح لوضع ما يقدمه الناس من نقود ؛ وقد تقدم الرجل ووضع شيئاً من النقود فى الوعاء وعند استئنافه السير رفع قبعته تحية للضرير . والغريب بعد هذا أنى عندما ذكرت هذا الحادث لبعض السويديين لم تأخذه الدهشة .

لهنرى بيرلين

نقلها عن الانجليزية ز.ى.ع.

مقطوعات من الشعر

زاد عنهم تباعدي واغترابي
فبدا الفرق داعياً لاجتنابي
وافترقنا لدى ظهور اللباب
فارق الماء عن خداع السراب
أخدع النفس في جديد الصباح
وأعزيه بالأماني الكذاب
لأناس حتى انقشاع السحاب

نسيت كل قريب
رجعت مثل الغريب
ألفت كل الكروب
والأهل صحب الدروب

بألف من الأعوام تقطعها وثبا
وعلمهم أفنى الذي دب أو هبا
وحوشاً كأهليه ! دعوا علمهم جنباً
فما هو إلا الجهل قد لبس الكتبا

فذا قد سما منه إلى فضلي الفضل
فيكبرني مهما يسد عقله الجهل
مضاعاً فلا روح لديه ولا عقل
وبين السما والأرض أجوف مختل

كلما زاد للأنام اقترابي
إذ بدا كنهم لعيني وكنهي
خدعتنا قشورنا فاجتمعنا
وإذا جئت تطلب الري تبصر
فتوخيت غير صحي صحباً
أنعش القلب في خداع جديد
أجعل الجهل لي وسيط ودادي

لقد تغربت حتى
فان رجعت لأهلي
سلكت كل الدروب
فغربة الدار داري

نروم لحاق الغرب لو ظل واقفاً
فهل صار أهل الغرب ناساً بعلمهم
أنعدو وراء الغرب دهرًا لنغتدي
إذا العلم لم يصلح سريرة أهله

يعظمني الفذ العظيم بعقله
ويفهمني الشعب البسيط بروحه
وينكر فضلي ناقص العلم إذ غدا
كذا يتلاقى ما كن الأرض والسما

تعجب صاحبای من انکماشى
فقلت ومن أعاشر خبرانى
وما ألقى بأهل العقل عطفاً
وخالا فى غطسة فضلاً
أريد عواطفاً وحجى وفضلاً
ولا ألقى بأهل العطف عقلاً

سرت دهرأ ولم أزل فى مكانى
درت حیران واهتدى بے أناس
وكذا النجم يهتدى بسناه
أترانى أسیر فى دوران
وأنا قد ضللت فى عرفانى
وهو باق يدور كالخیران

باتت لهدم كيانى
ما يهدم الدهر منى
كان نفسى شعر
هنوى على هادميه
معاول الدهر تترى
للأرض يسقط شعرا
میلور صیغ قصرا
ناساً وعصراً ودهرا

أحمد الصافی النجفی

المرأة في الأندلس

للمرأة في الأدب العربي أثر واضح لا يقل عن أثرها في الآداب الأخرى .
ففيه من روحها سمو ، ومن وحيها إلهام ، ومن مشبوب العاطفة ضرام .
تمثلت في خيال الشعراء واستولت على مشاعر الأدباء ، فأنطقهم بروائع الشعر
وطرائف الأدب هيأماً بها وحينئذ إليها وافتناناً في وصفها وتصويراً لمحاسنها .
ولم تقنع هي بأن يكون حظها منه التغنى بها ، فلا يكون له صدى من
نفسها وتجارب من حسها . . . بل شاركت الرجال في أدبهم مؤثرة فيه ومتأثرة
به . فنقلت عنهم ورووا عنها ، ونظمت الشعر ، وأجادت الغناء ، وطلبت كل
ما يصقل العقل ويهذب النفس ويرقى الشعور ، خصوصاً في عصر ازدهار
الحضارة العربية ، وما أتاحتها من حرية عقلية واسعة .

فبعث ذلك في الأدب العربي من فجر نهضته حياة زاخرة بالقوة ، على
تعاقب العصور واختلاف البيئات ؛ فكان لكل إقليم طابعه الخاص ولونه
الواضح من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب .

ذلك شأن المرأة في العالم العربي ، تستوى فيه الحرائر والجواري . . . وإن
كان أدب الجواري في المشرق أكثر وضوحاً وتأثيرهن فيه أشد ظهوراً .
فقد كان تأديب الجواري حرفة ، وتثقيفهن صناعة ، وتهيئتهن لامتاع العقل
والروح وسيلة مقصودة وغاية مطلوبة .

فاتجهت الرغبة إليهن والسعى في طلبهن ، ليسر اللقاء في غير خشية أو حرج .
وهل كن إلا متاعاً من أنفس المتاع أو طرفة من أمتع الطرف يقتنيها من أتيح
له فضل من مال ، ويتهادى بها ويغالى كل ذي جاه أو سلطان !
لقد أفدن من الأدب إقبالا عليهن وإعزازاً لهن . وأفاد منهن الأدب شغراً
رقيقاً ووصفاً دقيقاً وذخيرة ممتعة تفيض بالحياة وتنبض بأدق خفايا الشعور
وخلجات النفس . .

ولم يكن حظ الحرائر بأضعف من حظ الجوارى في الحرص على التزود من المعرفة ، ولم يحل الرجال بينهن وبين أن يبلغن من العلم والأدب ما يردن .
ولئن حرم الرجال من مجالستهن ، ولم يؤثر عنهن سعى ظاهر إليهن أو اندفاع نحوهن ، فما كان ذلك رغبة عنهن أو عزوفاً عن حديثهن ، ولكن الظروف قل أن واطتهم ، فلم يكن اللقاء ميسراً في كل آن ، فهن أسيرات بيئة محافظة غالباً وتقاليدها مرعية وحفاظ من الرجل يصونهن عن التبذل والابتذال .

فهن قريبات إلى قلوب الرجال بعيدات عنهم . ولعل الكثيرات إن تحدثن فمن وراء حجاب ، وإن خالطن ففى رفق وعلى استحياء .

هذا فى الشرق . أما فى أقصى المغرب فقد كان حظ المرأة فى الأندلس من التحرر أكثر من أختها بالشرق ، وتحللها من انقيود أبعد غاية ، ونشاطها المثمر أعم وأقوى ، بعد أن فك عقلاها وأصبحت طليقة من أسر موهوم ، وتفتح قلبها للحياة الحلوة ، واستمتعت بما فيها من جمال فغردت على كل فن ، وشدت ما طاب لها أن تشدو ، لم يحل دون ذلك حائل ولم يمنع منه حجاب .

أعجب الرجل بكل هذا واطمأن له ولم يجد فيه شذوذاً ، فسعى إليها وأقبلت عليه ، وإذا بغذائه الروحى غذاؤها ، ونشاطه الأدبى من وحيها وفى ظلها ، والانتاج العقلى شركة بينهما .

وليس هذا فى واقع الأمر بعجيب ؛ فلابئة أثرها ، ولامتزاج الأجناس نتائجها ، وللمؤثرات الاجتماعية ضروراتها .

لقد كانت الأندلس درة فى تاج الإمبراطورية العربية تتلأأ فى جبين الدهر . وكانت طبيعتها الضاحكة تجلو صدأ النفس وتذهب بأ كدار الحياة ، وتلهب الشعور وتذكى الخيال وتسحر الأبواب . وفى جوها تنفست الحضارة العربية وازدهرت ، وفى أحضان هذه البيئة الغنية شيدت القصور ، ومن حلالها أزينت فأبدعت زينتها .

وقد انعكس سحر الطبيعة على أهلها أخلاقاً عاطرة من غيرها ، ورقة ذوق من جمالها ، وخفة روح من نسيمها . فاتسموا بالظرف وعذوبة المنطق ورشاقة التعبير والنانق فى اللبس والتفنن فى أسباب المتعة وانتهاج المسرات . ثم إنها أفادت من المشاركة الفاتحين طيب عنصر وكرم عرق .

فاجتمع لأهلها عزة الشرق وسحر المغرب ، وابتسمت لهم الدنيا فرتعوا

في خيراتها وارتووا من النعمة ، واستمتعوا بألوان من الترف دونها غاية المتنى .

كذلك يسرت لهم الحضارة أسباب الرقي العقلي والنشاط العلمي .
فأتيح للدولة الفتية في المغرب أن تسامى دولة المشرق في سلطانها وتنافسها في جاهها ، وإن كانت تستمد من معينها وتعترف من بحرها ، ثم تنفخ فيه من روحها فتحيله أدباً جديداً وفناً طريفاً ، بفضل هذا الامتزاج بين خير ما في الشرق من روح وعقل ونشاط ، وما في الغرب من فتنة وإبداع وأسباب ثراء .
فكنت تراها موئل العلماء وملأذ الشعراء ، ومهد الفن ومرتع الأطباء .
احتلت المرأة من كل هذا مكاناً ممتازاً وظفرت برعاية كريمة .

فحفلت مدن الأندلس بالكثير من الأدبيات المشهورات ، وازدانت مجالس الأدب بكرائمه ، فكانت الجرائر أو العرييات كما كن يسمين زهرة النوادي .
ولسنا بسبيل الإحصاء إن ضربنا بعضهن مثلاً ولا علينا إن تجاوزنا بالحديث عن الجوارى إلى هؤلاء العرييات فهن قصدنا .

ولندع قرطبة حاضرة الحواضر وغرناطة عروس المدائن إلى حين ، لنلقى :
في المرية منهن أم الهناء بنت القاضي أبي محمد عبد الحق ، فقد كانت «حاضرة النادرة سريعة التمثل بالشعر ، من أهل العلم والفهم والعقل » ، ولم يحل بينها وبين هذا النشاط والشهرة أن أباهما كان قاضي المدينة !

وهل يتعارض وقار القاضي ومرح الأديب ؟ لقد اجتمعا في الأندلس .
وفي وادي آش شاعرة مشهورة كانوا يطلقون عليها خنساء المغرب ، هي حمدة (أو حمدونه) بنت زياد ، إن كان فينا من يجهل اسمها فلعل الكثير منا يحفظ هذه الأبيات ويتمثل بالأخير لنوع من البديع :

ولا أبى الواشون إلا فراقنا	وما لهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة	وقل حماقي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتي وأدمعي	ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

ولئن قيل إن هذه الأبيات لمهجة بنت عبد الرازق الغرناطية دون حمدونة فلا ضير فهي أندلسية على كل حال ، وكلتاهما شاعرة مشهورة مذكورة .
أما قرطبة وغرناطة فما أكثر من احتفلت لهن المجالس ، وعمرت بهن النوادي !

وهل يجهل أحد ولادة إذا ذكرت قرطبة؟ أو يجوز إهمال تزهون أو حفصة إن تحدثنا عن غرناطة؟

أما قصة ولادة بنت المستكفي وابن زيدون فهي أشهر من أن نفيض في ذكرها . . .

ألم تكن بنت خليفة ساء حظه وخبا نجمه بانقضاء دولته وقيام حكم بني جهور، فما حال ذلك دون أن يلمع في سماء قرطبة نجمها وأن يفتن الناس بها . كانت ذات جمال بارع، وحسن فائن، ودل وتيه عرفته من نفسها وأحست إعجاب الناس بها فأعلنت ذلك التيه والدلال، فكتبت بالذهب على طراز ثوبها الأيمن :

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتي وأتية تيهي

وكتبت على الأيسر :

وأمكن عاشقي من صحن خدي وأعطى قبلي من يشتهيها

وكانت خفيفة الروح حلوة النكتة واسعة الاطلاع في الأدب مشغوفة بنظم القريض، تتذوق الغناء وتحسن صنعه .

وكان ناديها كعبة الأدباء والأشراف والأعيان ومجلس السمار، يغشاه ويحرص عليه أبو عبد الله البطليوسي من سادة العصر، وابن عبدوس من كبار قرطبة وأعيانها، وذو الوزارتين أبو الوليد بن زيدون كاتب ذلك العصر وشاعره . وكانت ولادة واسطة العقد، وتزينه درة أخرى هي مهجة القرطبية صفية ولادة وتلميذتها في الأدب ومنافستها في الجمال والاستئثار بالقلوب .

كانت ولادة مصدر إلهام لفريق ومثار حسد وغيره لآخرين، وكلهم يحن إليها ويتهافت عليها .

ولها معهم نوادر وحوادث ولها بهم صلوات . . . أنطقت ابن زيدون بأروع الشعر، وأثارت في نفسه أرق العواطف، وأوقعت بينه وبين ابن عبدوس أبغض فرقة . وكان ذلك مصدر عبث ودعابة تارة، وتهكم لاذع وهجاء مر تارة أخرى . وما كانت رسالة ابن زيدون الهزلية التي عبث فيها بابن عبدوس وتهكم عليه إلا من وحيها وهي التي دفعته إلى تحييرها .

ألم تكن هي أيضاً تنتهز الفرصة للتهكم به ومداعبته دعابة قاسية ؟
لقد مرت بابن عبدوس وهو جالس أمام داره يملؤه الكبر والعجب وحوله
جلاسه وأمامهم بركة تجمعت فيها مياه الأمطار وتلوثت بالأقذار .
رأت ولادة هذا المنظر القبيح يجمع بين قذر المجلس وخيلاء الجالس ، فالتفت
إليه وقالت يا ابن عبدوس ! فابتهج للنداء وأقبل عليها بسمعه وبصره ، فما زادت
على أن أشارت إلى البركة وتمثلت بيت أبي نواس :

أنت الحصيب وهذه مصر فتدققا فكللا كما نهر

فبهت لسماعه وخجل من جلّاسه وارتد كسير النفس زائع البصر .
أما هي فقد انصرفت مزهوة بما أتيح لها من إذلاله .
أرأيت كيف أحسنت الاقتباس وبرعت في قلب المعنى من المدح إلى الذم !
وهل نعجب لهذا وهي الأدبية الشاعرة التي تتصرف في كل فن وتضرب
فيه بسهم ! فقد كان نظم القريض لها طبيعة ، وتراسلها به عادة ، وعدم الحرج
من ذكر ما تشعر به أو يجول بخاطرها من العواطف والأهواء سجية .
وأى حرج في أن تفصح عن هواها ومكنون عاطفتها ، فتكتب إلى ابن
زيدون وقد ظل يرقب رؤيتها بعد طول تمنع :

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فاني رأيت الليل أكرم للسر
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطاع وبالنجم لم يسر

وهل ترى غريباً أن تذكر الفراق ولوعته وساعة الوداع وحرقتها !
فتروى عنها هذه الأبيات المشهورة :

ودّع الصبر محب ودّعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطا إذ شيعك
يا أخا البدر سناءً رسنا حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطل بعدك ليلى فلکم بت أشكو قصر الليل معك

فاذا صحت نسبتها إليها فلا عجب ، فقد كان ذلك مألوناً شائعاً في الأندلس .
وبما أكثر ما أفصح النساء عن هواهن بأصرح من هذا .

لقد جمعت ولادة إلى بارع الجمال بارع الأدب ، والتصرف في فنون القول :
تشكو إذا أحبت ، وتعتب إذا هجرت ، وتهجو إذا أبغضت ، وتفحش في
الهجاء أحياناً حتى لتكاد تبذ ابن الرومي في إfachشه ، وهى مع كل ذلك حبيبة إلى
كل قلب قريبة من كل نفس .

وبعد فهذا لون من حرية القول وصورة من أدب النساء عرضنا عليك طرفاً
منه في شخص ولادة .

ولا يذهبن بك الظن إلى أنا نتجنى عليهن أو نسرف في تعميم الحكم حين
نسوق الرأى ؛ فالمقضى نفسه يقول في حديثه عن ولادة : « وكان لها مجلس
يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها ، فيمُثَر فيه من النادر وإنشاد الشعر كثيراً اقتضاه
عصرها من مثل ذلك ! »

فهذا حديث ولادة في قرطبة ، وقد عاشت في القرن الخامس حتى نيفت على
الثمانين . أما غرناطة وشاعرتها زهون القلاعية فما أقوى الشبه بين الأدبيتين
وأقرب التوافق بين الشاعرتين في المزاج وخفة الروح ورقة الشاعرية وما أتيح
لكل منهما من الخطوة ودواعى الشهرة !

وليس بينهما من فرق إلا أن ولادة كانت بنت خليفة من خلفاء الأندلس .
أما زهون فلم تسعد بذلك أو لم تنكب به نكبة ولادة في أبيها ، بزوال سلطانه
وضياع ملكه .

ولعلها كانت بنت عالم أو أديب ، وقد تكون ابنة أحد الأشراف أو الأعيان .
فما نعلم عنها إلا أن اسمها زهون بنت القلاعى . ولا يعنينا هنا تقصى حسابها
ونسبها . وإنما يكفى أن نعرف أنها كانت من الفتيات اللاتي نهض بهن أدبهن
وظرفهن وجمالهن ، فاحتضنتها غرناطة وهيأت لها كل أسباب الظهور .

فقد اجتمع لها — إلى جمالها وظرفها — حس مرهف ونفس شاعرة وبديهة
حاضرة واطلاع واسع أعانها على الامتياز في المسامرة والجلد على المساجلة ، فوق
مقدرتها على نظم القريض ، فأعجب بها الشعراء وناظرها الأدباء وهام بها
الأشراف فسعوا إليها ، فاستمعت لهم وتحدثت إليهم وجادلهم فخلبتهم وغلبتهم .
وكانت هى الأخرى في غرناطة كولاية في قرطبة درة المحافل وزهرة
المجالس .

ولئن كان ابن زيدون هام بولاية وشقى بحبها كما سعد بقرىها ، فلعل .

تزهون لم تكن أقل منها شأنًا ولا أضعف حظًا . فقد قتن بها الوزير أبو بكر ابن سعيد فتنة جعلته لا يطيق لها فراقًا ، وهو أديب شاعر ، فهو بجمالها مسلوب الفؤاد وبأدبها وظرفها مفتون . إن غابت عنه راسلها ، وإن سعى إليها أوزارته طارحها الشعر وبثها مكنون النفس .

وكم كانت لها مجالس معجبة مع ابن سعيد ضمت أمثال أبي بكر الكنتدي الشاعر وابن قزمان الأديب وأبي بكر المخزومي الأعمى وغيرهم ، وجرت فيها النوادر المستملحة والطرف المستعذبة ، ومطارحة الأشعار ، والاستمتاع بأعذب الغناء . وكانت تزهون تشارك في كل هذا ، فتسامر وتداعب ، وتنقد وتقسو في النقد . ولعل في رواية مجلس لها مع المخزومي ما يكشف عن دقة ملاحظتها وميلها إلى الدعابة ولو خرجت عن حدود الوقار المرسوم .

وذلك أنه وفد يوماً على غرناطة ، فدعاه الوزير أبو بكر بن سعيد إلى مجلس من مجالسه وقد عطر بالند والعود — وكانت تزهون حاضرة — فلما استقر به المجلس وأفعمته روائح الند والعود والأزهار وهزّت عطفه الأوتار — كما يقول نفع الطيب — طرب وأنشد :

دار السعيدى ذى أم دار رضوان	ما تشهى النفس فيها حاضر دان
سقت أباريقها للند سحب ندى	تحدى برعد لأوتار وعيدان
والبرق من كل دن ساكب مطراً	يحيى به ميث أفكار وأشجان
هذا النعم الذى كنا نحدثه	ولا سبيل له إلا بأذان

فلاحظ أبو بكر على الشطر الأخير ملاحظة عابرة .

وأما تزهون فكان لها موقف آخر مع المخزومي أدق وأشق ، ولم ترهب سلاطة لسانه فقد كان شديد الشر معروفاً بالهجاء مسلطاً على الأعراض . قالت : وتراك يا أستاذ قديم النعمة بمجرد ند وغناء وشراب فتعجب من تأتبه وتشبهه بنعيم الجنة وتقول ما كان يعلم إلا بالسماع ولا يبلغ إليه بالعيان . . .

ثم إنها لم تسكت عند هذا ولعلها حرصت على إثارة وإن كانت ستقاضى جزاءها على التعرض هجاء مرّاً وطعنًا بذيئاً . . . فهي تستدرك على ملاحظتها وتعتذر عن تقدّها بما هو أقسى وآلم فتقول :

ولكن من يحيى من حصن المدور وينشأ بين تيوس وبقر من أين له معرفة

مجالس النعيم . . . كانت مفاجأة للمخزومي لم يتوقعها ، فتنحى وتهاى للجواب وكأنها أرادت أن تهيج ليخرج عن حده فقالت : ذبحة .

ولكنه تمالك أول الأمر وقال : من هذه الفاضلة ؟

فتعمدت إثارته وقالت : عجوز مقام أمك ! فما بقى فى قوس الصبر منزع ، وأجاب : كذبت ، ما هذا صوت عجوز ، إنما هى نعمة . . . تشم روائح ها هنا على فراسخ . . . وأراد الاسترسال . . . فعمل الوزير أبو بكر بن سعيد على تدارك الأمر وقال : يا أستاذ هذه تزهون بنت القلاعى الشاعرة الأدبية . فأجاب : سمعت بها لا أسمعها الله خيراً ولا أراها إلا . . . وتطاول ، وتبادلا هجاء مقذعاً وطعنأ مرأ . . . لعل أهونه قوله :

على وجه تزهون من الحسن مسحة وتجت الثياب العار لو كان باديا
توارك تزهون قواصد غيرها ومن قصد البحر استقل السواقيا

ونضرب صفحاً عما أجابت به أو قاله مما جعل ابن سعيد يحلف ألا يزيد أحدهما على الآخر كلمة هجاء . . . ثم أصلح بينهما .

فهل سمعت فى حديث النساء مثل هذه الصراحة والجرأة فى المساجلة ولو انحرفت عن السبيل على نحو ما رأيت ؟

إن كان هذا قليلاً أو نادراً فى المشرق فما أكثر ما نراه فى المغرب . . . وإن دل على شئ فأنما هو مظهر لهذه الحرية الواسعة فى الحديث ، ونتيجة لهذا التسامح الذى أباح للأندلسية ما لم يكن يرضى عنه أو يطمأن إليه لمثلها من الحرائر فى المشرق .

وشاءت المصادفة أو قضت البيئة بأن تكون تزهون كولدادة فى سرعة الخاطر وحلاوة النكتة وتصيد الفرصة للفكاهة والمداعبة .

فاذا سمعت ابن قزمان يتحدث فى مجلس ابن سعيد — وقد أضافه — ويطول الحديث والنقاش وال مباراة ، فيعجبها منه ذلك ، ويغريها به جبة صفراء كانت يتزيا بها على هيئة الفقهاء فى ذلك العصر ، فتقول : أحسنت يا بقرة بنى إسرائيل إلا أنك لا تسر الناظرين . . . فيرد عليها بجواب لاذع فيه فحش أيضاً . وكذلك هى فى حضور بديتها فقد كانت تقرأ على المخزومي (أطرافاً من الأدب وفنوناً من الشعر) وقد عاد الصفاء بينهما ، فدخل عليهما الكنتدى .

وقال يخاطب المخزومي :

لو كنت تبصر من تجالسه

— وانتظر أن يحيزه فأفحم . . . وما وجد شيئاً فأسعفته نزهون وأجازت : —

لغدوت أخرس من خلاخله

البدر يطلع من أزّرته والغصن يمرح في غلالته

كانت شاعريتها وظرفها سبباً في أن يفتن ابن سعيد بها، ويشقى بعدها فيعاتبها

على تجنبها أو توهمه هجرها ويرسل إليها :

يا من له ألف خل من عاشق وصدیق

أراك خلّيت لنا من منزلا في الطريق

فتكتب إليه لتنفى عنه الوهم وتبين منزلته عندها :

حلت أبا بكر محلاً منعه سواك وهل غير الحبيب له صدرى

وإن كان لي كم من حبيب فانما يقدم أهل الحق حب أبي بكر

وليس يهنا ضعف الأسلوب ولا أن نشير إلى ما في الشطر الأخير من

استغلال لطيفة ، لاشتراك ابن سعيد والخليفة الأول أبي بكر الصديق في الكنية

فتستعير رأي جماعة المسلمين في تقديم الصديق على غير ما يراه الشيعة من تقديم

الامام على ، لتسجل به حب أبي بكر بن سعيد وأنه أولى بالتقديم في رأي

أهل الحق . . .

لقد أردنا من ذكرهما بيان ما في شعرها من صراحة في القول وإفصاح عن

مكنون العاطفة تدفعها إلى تذكر حنينها إلى اللقاء وتغنيها بأوقاته . . . ولعله

كان في الليل أكثر منه في النهار، وربما كانت ليلة الأحد هي الحبيبة. ألا تراها تقول :

لله در الليالي ما أحسنها وما أحسن منها ليلة الأحد

لو كنت حاضراً فيها وقد غفلت عين الرقيب فلم تنظر إلى أحد

أبصرت شمس الضحى في ساعدي قمر بل ريم خازمة في ساعدي أسد

هذه نزهون وتلك ولادة ، قد ذكرنا طرفاً يسيراً من أخبارهما . ولولا الاسراف في الطول لأتبعناهما بثالثة لا تقل عنهما حظاً في الجمال إن لم تزد . عنهما إمتاعاً في الحديث وتحللاً من القيود وإفصاحاً عما تريد ، حتى لقد كتبت إلى بعض أصحابها :

أزورك أم تزور فان قلبي إلى ما تشتهي أبداً يميل
فتغري مورد عذب زلال وفرع ذؤابتى ظل ظليل
وقد أملت أن تظما وتضحى إذا وافى اليك بي المقيـل
فعجل بالجواب فما جميل إباؤك عن بثينة يا جميل

وهذه هي حفصة بنت الحاج الركونية . وقد لا نعدو الحق أو نتجاوز الواقع إن رأينا في هؤلاء صورة صادقة للعربيات في الأندلس . فما كان الأمر مقصوراً على واحدة أو اثنتين فيوسم بالشذوذ . وينبو عنه القياس .

ولم تكن قرطبة أو غرناطة وحدهما منبت هذه الزهرات ومسرح أنس هؤلاء الأقوام ؛ فكل مدينة — كما قدمنا — تستمد من نفس المنبع وتفيض بماء الحياة الدافق فتروى هذه النفوس الظائمة .

وبعد أفلا ترى معي أن المرأة العربية في الأندلس قد نالت من الحرية الأدبية فوق ما نالته المشرقية ؟ ألم تستمتع بمجالس وتتحلل من قيود ما كانت لتظفر بالفكاك منها لو كانت في المشرق ؟

لعل هذه البيئة المرحية الطروب ، وهذا الامتزاج وتزاوج الأجناس ، وهذه الحياة الاجتماعية الجديدة ، هي التي سوغت كل هذا وأعانت عليه ، فأصبح ضرورة من ضرورات ذلك العصر .

عبد العزيز أحمد

ليلة العيد

ذهبت لزيارة خالتي أم عليّ عجزوز القرية عندما لبيت دعوة صديقتي المعتادة ، لقضاء إجازة عيد الأضحى . فقد كنت أجد عندها أحدث الأخبار والأقاويل ، وأكثرها تشويقاً . وكانت تحدثني دائماً أحاديث طويلة مضحكة لا أظنها إلا من نسج خيالها . وكانت أم علي خصة الخيال ، غزيرة المادة ، تعبر عما يجول بخاطرهما في طلاقة وقوة تدعو إلى الدهشة ، كما كانت تنحونحواً خاصاً عند قصها الحكايات والأخبار . وكانت حكاياتها تدور حول شبابها وحول جالها الفتاك ، الذي أصبح أثراً بعد عين ، والقلوب التي غزتها والمعارك التي كانت تقوم بين شباب القرية حولها . وكنت أحب الاستماع إليها لحفة روحها التي كانت تنسيني قبح شكلها ، بالرغم من أني كدت أحفظ عن ظهر قلب كل ما كان عندها من حكايات .

دخلت عليها هذه المرة وحييتها في حرارة ، غير أني لاحظت أن أمراً أصابها . فهي لم تستقبلني بالمرح والحرارة اللذين ألفتهما منها ، فهممت بالانصراف . وكأنها لاحظت مني ذلك ، فأسفت على ما فعلت ، وسرعان ما تغيرت وعادت إلى طبيعتها المرحية ، وهبت واقفة ترحب بي بالعبارات المعتادة التي كنت أشتاق إلى سماعها منها . ولكن ذلك لم يكن ليخفي الألم الذي كنت قد لاحظته عليها أول الأمر .

وقالت معتذرة :

— لا تؤاخذيني يا بنتي ! لقد سمعت قصة آلمتي . وكم أود لو أستطيع لهذا الاشكال حلاً .

فقلت لها :

— هات ما عندك يا خالة ، لعليّ مهتدية إلى حل إشكالك .

وهنا اتجهت بنظرها إلى ناحية من الغرفة ، وكنت إلى ذلك الوقت لم ألاحظ أن في الغرفة غيرها ؛ إذ شغلني ألمها البادي أول الأمر عن ملاحظة أي شيء

آخر . فرأيت في أحد أركان الغرفة الرحبة امرأة ترضع طفلاً عمره نحو سنتين . وتأملت في وجه الفلاحة فاذا بي أمام جمال يعجز القلم عن وصفه مهما أوتى من قدرة ؛ وجه كله فتنة فطرية ، فيه سذاجة وبراءة طبيعية ، لا نجد لها إلا في الريف ؛ وجه صبح يبعث الراحة والهدوء ، وثغر باسم وإن كنت قد لاحظت شيئاً لم أدرك كنهه وراء هذه الابتسامة الخلابة . واستوقفني جمال عينيها والروح التي تنبعث منهما ، ففي نظراتها حزن عميق ، وألم دفين ، وأسرار غامضة ، خيل إلي أنها تعود إلى سنين مضت . وشعرت صاحبتنا بعيني لا أرفعهما عن وجهها ؛ فحاولت إخفاء شئ عني ، كأنها تريد ألا تشعرني بما يجول في خاطرها فيؤلمها ويقلقها ، فابتسمت تلك الابتسامة الجميلة ، ثم حنت رأسها على طفلها كأنها تهمس في أذنيه بشئ ما . وذكرتني وهي في هذا الوضع بصورة مريم العذراء والسيد المسيح . وكم وددت لو كان ميكل أنجلو إلى جانبي ليرسمها على لوحة تبقى مدى الدهر ويتمتع بها محبو الفن . غير أن خالتي أم علي لم تتركها طويلاً تسبح في عالمها ، فحدثتها عني بما جعلها تطمئن إلى وتأنس بي ، فرفعت رأسها وتفرست في وجهي بضع ثوان ثم ابتسمت ثانية ابتسامة عبرت عن رضا تام وثقة كبيرة . وهنا كررت علي أم علي سؤالاً ، فقالت :

— المسألة مسألة الشبيخة فاطمة ، وقد سمعتها منها فأثرت في . كم أكون مسرورة يا بنيتي لو استطعت مساعدتها . لقد أطلق عليها أهل قريتها لقب شبيخة بعد ما وقع لها
فقلت ضاحكة :

— لعلها تتنبأ بخير يأتينا قريباً أو بعيداً .

فقالت أم علي :

— بالله عليك لا تبضحكي . وأمامك أم فقدت أعز ما تملك ، وهي علي حافة الهاوية مرة أخرى . إن مشكلتها كبيرة تحير الألباب ، لم أر مثلها في حياتي . حقا أني لست بعجوز ، ولقد مر بي كثير من الأحداث .

وكانت هذه عادة أم علي أن تذكرنا بأنها لم تهرم بعد ، وإن كان سن الشباب قد ولى . ورجوت الشبيخة فاطمة أن تقص علينا قصتها ، فقالت : إنها تزوجت من ابن عمها ، وكانت موفقة كل التوفيق في زواجها . وفي نهاية السنة الأولى من زواجها ، وضعت طفلة لم تقابل بالترحاب ؛ لأن الزوج كان يأمل

أن يولد له غلام . غير أنه سرعان ما نسي شوقه إلى غلام ؛ لأن زينب ملأت عليها البيت بضحكها وصراخها ، وخلقت في البيت جواً من البهجة والمرح . كما كانت مشغوفة بأبيها لا تتركه طويلاً . وسرعان ما مر الزمن ، وإذا بها تبلغ العامين من عمرها ، ووالدها في راحة وهناء قلما يتمتع بهما الناس ، ولكن . . . دوام الحال من المحال — ثم أغمضت فاطمة عينيها ، وتهدت بألم ، وعضت على شفتها كأنها تود أن تبعد من مخيلتها صوراً وذكريات ، ورأيت دمعة تسقط من عينيها المغمضتين ، حاولت هي إخفاءها بمسحها بيدها . فأردت أن أروح عنها ، ألا أتركها تكمل حديثها ، ولكنها صمتت على متابعة كلامها وقالت :

— انتظري قليلاً ، فما حدث بعد ذلك هو موطن دأئ . في ليلة عيد الأضحى جلست أخيط ثوب ابنتي الذي كانت ستلبسه أول يوم العيد . وما انتهيت من الثوب حتى آثرت أن آوى إلى فراشي لكي أدفأ ، إذ كان الشتاء في تلك السنة شديد البرد ينفذ إلى العظام . وسمعت طرقات خفيفة على الباب في منتصف الليل ، ففتحت عيني وأنصت ، ولكني لم أسمع سوى المطر المنهمر ، وكان أبواب السماء تفتحت عيون كبيرة ، يتدفق منها الماء تدفقاً هائلاً . وكنت أسمع صوت الرعد قويا وأرى البرق الخاطف ينير غرفتنا الصغيرة من آن لآخر . ورأيت زوجي نائماً نوماً عميقاً بعد عمله الشاق في الغيط . ولما لم أجدهما يزعج تركته ينام حتى يستقبل العمل في اليوم التالي موفور النشاط . ثم حاولت النوم ، غير أنه لم تكد تمضي بضع دقائق كنت قد استغرقت في النوم أثناءها حتى سمعت الطرق على نحو أعنف ، ففتحت عيني ثانية ، وجعلت أنصت إلى صوت آخر إلى جانب صوت المطر الذي كان قد اشتد . وشعرت أني منقبضة النفس ، كأنني أنتظر حدوث مكروه . إن ثورة الطبيعة العنيفة خيلت إلى أن هذه هي نهاية العالم وفناء من عليه . فحاولت أن أسري عن نفسي بقراءة الفاتحة ووضعت آيات من القرآن اعتدت قراءتها كلما شعرت بخوف أو اضطربت . وهممت بأن أوقظ زوجي ، ولكن قلبي لم يطاوعني ، إذ تذكرت العمل المضني الذي يقوم به من طلوع الشمس حتى غروبها . كل هذا وصغيرتي تنام بجانبى نوماً هادئاً . وحاولت أن أنام ، فلما لم أستطع قمت من فراشي وتوضأت وصليت ركعتين لله تعالى . لعله يسري عني ويزيح هذا الكابوس الذي أشعر به . وكان الصلوة بعثت في نفسي الراحة المنشودة فتمت ، ولكن نومي لم يطل إذ استيقظت على الطرق لثالث مرة ، وقد اشتد حتى خيل إلى أن

باب الغرفة كاد يقلع . فصرخت قائلة : من ؟ من هنا ؟ ولما لم يجبنى أحد ، أيقظت زوجي وقصصت عليه ما سمعت . فقال وهو نصف نائم : هذا صوت المطر يا فاطمة ، نامي ولا تنزعجي . غير أني لم أستطع أن أنام ؛ فقد كنت لا أزال أسمع الطرق . وأخيراً وأنا بين اليقظة والنوم رأيت الباب يفتح بكل لطف وسكون ، ثم رأيت شعباً طويلاً يلبس ملابس بيضاء ، يدخل الغرفة ويقترب مني شيئاً فشيئاً حتى وقف إلى جانبي . وانعقد لساني من شدة الخوف ، فلم أقو على الكلام أو الصراخ . وكأنه فطن إلى ما أردت فعله ، فقال بهدوء : لا تخافي مني لا أريد إلا زينب الصغيرة . وأخذها من جانبي ، ومسك يدها ، وخرج بها من الغرفة . فصرخت صرخة خرجت من أعماق قلبي ، استيقظ على أثرها زوجي وابنتي ، وأخذت أتلمس ابنتي فاذا بها ما زالت إلى جانبي ، فأخذتها وضممتها إلى صدري في قوة وعنف ، وصرت أقبلها بشغف ولطفة ويدي تتحسس جسمها الصغير وتتلاعب بشعرها لأجد في لمسي إياها الراحة التي كانت تملأ جوارحي كلما فعلت ذلك . ولكني لم أستطع ، فبكيت بكاء مرا واضطربت أعصابي ، حتى خيل إلى زوجي أني قد جئت ؛ وما زال بي يلاطفني ويهدئ من روعي ، حتى استطعت الكلام . فقصصت عليه ما وقع ، ولكنه سخر مني وقال ضاحكاً : لا تخافي شيئاً إننا مؤمنون ، ولن يسيئنا الله في أعز ما نملك . هذا كابوس لأنك أكلت كثيراً ليلة أمس ، ثم نمت بعد العشاء مباشرة وساعد على الكابوس الطبيعة الثائرة . - أرقدي إلى جانبي ، لقد بدأت الديكة تصيح ، وعما قريب تبدد الشمس ظلمات الليل ، ويذهب معها كل خوف .

لم أترك ابنتي تبتعد عني طوال اليوم التالي ؛ إذ استمر يساورني شعور مبهم من الخوف على وحيدتي . ولم يكد ينتصف النهار حتى قربت مني ووضعت رأسها على صدري ، ثم ضمتني إليها بحنان وقبلتني كعادتها وقالت : « أمي هنا واوا » مشيرة إلى عنقها . خفق قلبي وتذكرت الليلة الماضية ، فادت الأرض تحت قدمي ، ولو أن الأرض انشقت وابتلعتني في تلك اللحظة ، لكان أهون علي من رؤية ابنتي وهي تشكو . أرسلت أحد الغلمان لنداء زوجي فحضر مسرعاً ؛ إذ لم تكن من عادتي أن أناديه أثناء عمله . فأخبرته بما وقع ، فأشار على بوضع كمادات دافئة على عنقها ، وأخذ حارته وذهب لاستدعاء طبيب المركز . وخيل إلى وأنا في انتظاره أن الزمن لا يتحرك وأن غياب طال . ولم تلفظ زينب كلمة واحدة رغم كل الجهود التي كنت أبذلها معها . وأخيراً حضر الطبيب مع زوجي . وما كاد يفتح فمها

حتى هز رأسه كمن لا حيلة له أمام إرادة الخالق ، وقال : الطب لا يجدى ولا ينفع . تشجعوا فالموت علينا حق وأنتم ما زلتم صغار . . . فقطعت عليه كلامه بصرخة حادة ، إذ كنت أرى طفلى العزيزة وهى فى أشد الألم تعاني سكرات الموت . وأخيراً أسلمت الروح ، وصعد ملكٌ صغير إلى السماء . فقطعت عليها كلامها ، وسألتها : ألم يخبرك الطبيب بأى شئ ماتت . قالت : نعم ، سألته فقال إنه مرض من أخطر الأمراض التى تصيب الأطفال ، إنه الخناق .

ومرت فترة كدت أنسى فيها هذه الحادثة ، لأن الله أنعم على بطفلة أخرى . وعملت بنصيحة أهل القرية هذه المرة ، فتناسيتها أول الأمر ، ثم بعثها بلميم إلى أم عندها تسعة أولاد . واستحوذ على عقل أحد المشايخ ، فأنفقت كثيراً من مال زوجي ، وبعثت بعض الحلوى فى صنع التعاويذ وإطلاق البخور ؛ فلقد كنت أخاف عليها أشد الخوف . ولكن كان هناك هاتف يهتف فى أذنى دائماً : انتظري لم يحن الوقت بعد . لا تخافى الآن . وأخيراً حان ميعاد الزيارة المنتظرة ، وفى ليلة العيد زارنى الشبح زيارة تشبه الأولى ، ومريت أيام العيد دون أن يحدث شئ ، فكدت أطير فرحاً ، وبدأت أشعر بأن قلقي على طفلى هو الذى أوحى إلى هذا الحلم المزعج . ولكن فى نهاية الأسبوع خرجت طفلى تلعب مع سائر أولاد الجيران ، وعاد الجميع إلى أمهاتهم ، ولكنها لم تعد . وبجثنا عنها فى كل مكان فلم نجد لها أثراً ، وأخيراً وبعد أيام انتشلت جثتها من التربة . وذاع الخبر عند أهل القرية ، فأطلقوا على اسم الشيخة فاطمة . وحاولوا محاولات عدة لعل أتنبأ لهم بشئ ، كما تنبأت بموت طفلى ، ولكنى لم أستطع .

لم أطق صبراً بعد ما حدث لى ، فاعتزمت الرحيل وخاصة عندما أيقنت أنى أحمل بين أحشائى طفلاً . وكنت لا أستقر فى مكان حتى أرحل عنه . ووضعت فى هذه الأثناء مولوداً ذكراً هو هذا . وأخيراً وصل بي المطاف إلى هذه القرية . وسمع الجميع بقصتى ، وكنت قد عزمتم على الرحيل من هنا بعد يومين من وصولي ، ولكن ما لقيته من عناية ورعاية جعلنى أطيل إقامتى ، وخاصة عند خالتى أم على . فقد أشفقت على وحاولت أن تسرى عنى بحكاياتها المسلية . فقلت لها :

— لا تيأسى من رحمة الله . إن المؤمن مصاب والله يمتحنك .

فأجابتنى والدمع يترقرق فى عينيها :

— لقد امتحنني بما فيه الكفاية . لقد وهب لي طفلتين جميلتين ، ولم أكد أتمتع بهما حتى أخذهما مني ، ولا أدري لذلك سبباً . . . ثم قالت فجأة :
 — إن عيد الأضحى بعد يومين ، سأمضي اليوم هنا عند خالتي أم علي لتروح عني ، وتبعد عن مخيلتي الخواطر المزعجة ، سأمكث عندها حتى مطلع الفجر . ثم أرحل إلى قرية بعيدة لا أعرفها ، ولا أعرف من أهلها أحداً . . . قرية بعيدة لا يستطيع الطيف أن يصل إلى فيها . إن الخوف يقلقني ولا يريحني لا ليلاً ولا نهاراً ، ومصير ولدي محمد المعلق يذهب بعقلي . أرى خيوط الأمل فأتعلق بها ، ثم يعاودني اليأس القاتل فلا أستطيع الهدوء . لقد فقدت بنتين ولكن . . . محمد . . . إنني لا أستطيع فراقه ، ولا أطيق البعد عنه لحظة من لحظات حياتي .

وأخذت تبكي في حرارة بكاءً مريراً أليماً ، وكانت الزفرات تخرج من بين جوانحها فتهمز مشاعري . ولكني تركتها تبكي أول الأمر حتى تزيل شيئاً مما بها ، وتريح أعصابها المحطمة ، فالبكاء في هذه الحال علاج نافع . وأخيراً بدأت أحدثها حديثاً طويلاً عن رحمة الله الواسعة ، وأذكرها بعطفه على عباده، وأنه لا شك سيوليها من رحمته وعطفه الشيء الكثير ، وسترزق أولاداً ينسونها ما مرت به من شقاء وبؤس . وهكذا مر الوقت وأنا ألاطفها حتى رأيت الدمع يحف من مقلتيها ، وأعدت الابتسام إلى ثغرها . وقد كان لحديثي بعض الأثر ، فرأيت نوراً من الأمل إلى جانب ما كنت قد رأيت من ألم .

وتركتها بعد ذلك وعوامل اليأس والأمل تتنازعها . إن الموت نهاية كل كائن حي . ولكن من منا يستطيع أن يزيل عن أم آلامها ويجعلها تنظر إلى الموت نظرة فلسفية ! ولم يسعني بعد تركها أن أتم زيارتي المعتادة فقد كنت مرهقة الأعصاب حزينة النفس ، فأثرت أن أنضم إلى صديقاتي .

مضى أسبوع العيد وحان ميعاد رجوعنا ، فذهبت لزيارة خالتي أم علي لأستطلع أخبار فاطمة البائسة ، وإذا بها تستقبلني ضاحكة كعادتها . ولما سألتها عما كنت أود أن أعرف قالت :

— سافرت قبل العيد كما قالت ، ولا ندري عنها شيئاً الآن . لقد حاولت أن أخفف عنها ، ولكن . . . ثم هزت كتفها ، وقالت ضاحكة : ماذا من موت طفل أو اثنين أو حتى ثلاثة ، إننا هنا في الريف نلد في سرعة ، وأولادنا أكثر من النمل من عاش عاش ومن مات مات . هه ! إنها عصبية دعينا منها ، إنني لا أحب أن

أفكر كثيراً فيما يحزني ، ولهذا حافظت على جالي ! ثم بدأت تسرد قصصها الشيقة المعتادة .

لقد حاولت كثيراً أن أعرف أخبار فاطمة بعد ذلك ، ولكن تلك العجوز المرحّة ، كانت مفتاحي الوحيد إليها ، وقد فقدت في أخبار فاطمة كل لذة وشوق ، إنها معنية بأحاديثها هي . ترى أين ذهبت يا فاطمة ؟ وماذا أصابك ؟ ألا فليطف بك الله فلكم تأملت !

راجية فراهي

في رثاء الأستاذ طه الراوي

أيا موت يكفيني فقد طفحت كأسى
لقد دب حزني في دمي ، في تأمل
أنوح على الأس الكئيب بلوعة
فبالأس ولى من أحبها أنا
تيتمت مالي من ألوذ بعطفه
مضى الوالد الحاني وخلفت بعده
وأبعد قسراً عن أكف حبيبة

وإن كنت لا تعيا فقد سئمت نفسي
وفي شعري الباكي ومن ثم في لبسي
وما عشت لن أنسى النياح على أس
أجرع ألواناً من الهم والبؤس
توحدت في دنيا الخديعة والدس
لألقى سهام النائبات بلا ترس
فبات رهين الترب في ظلمة الرمس

وجئت إلى بغداد أنشد سلوة
ولكنها الأقدار! تأبى سوى الأسى
فجعت بأستاذي غداة قصده
وذلك أن النحس لا شك صاحبي

وقلت يموت الهم في روضة الدرس
ويحلو لها أنى مطأطة رأسي
لأروى صدى فكري فصدقتي حدسي
فان رمت سيراً سار في موكبي نحسي

أتيت ألقى الدرس من ثغر ربه
رجوت بك النصر العزيز على الأسى
عرفتك لم يكن حلال بمرآك ناظري
فأحببت فيك الفكر بالعلم زاخرا
وما أنا وحدي قد رزئت وإنما

فوا حسرتا قد مت يا صاحب الدرس
فخاب رجائي ، فاستكنت إلى يأسى
ولا غرو—نشرالروض ينبي عن الغرس
وأكبرت فيك النبل ياطيب النفس
مصيبة رب العقل فاجعة الجنس

عجبت لقلبي صار للحزن موثلاً
عجبت لأيام السرور تصرمت
وأعجب من هذا أناس تبالهوا
وكان مدى الأيام في بهجة العرس
ولم تبق غير الذكريات من الأنس
يقولون يا هذي اتركي ما مضى وانسى

أتيت أغنى الفجر أشجى ملاحنى
فيا طفلة تلهو لقد صرت شيخه
فلا تبخلى بالدمع ما ساعف البكى
وبكى لنا نحن - ا لضعاف - فدأبنا
ونحن عبيد للفناء يسوقنا
وعدت كبوم القفر في مغرب الشمس
بدا جذعها من شدة الحزن كالقوس
فليس لدمع حين ينهل من حبس
غرور وكيد واعتراك على الفلمس
فنصبح في دار وفي غيرها نمسى

لمحمد عباس عماره

شهرات

شهرية الفن

المعرض الدولى للفنون الجميلة المعاصرة

القاهرة — مارس ١٩٤٧

إذا لم يكن هذا المعرض العظيم دوليا بأدق معانى الكلمة (لأن بعض الدول ولا سيما الممتازة فى الفن كإيطاليا وأسبانيا لم تمثل فيه) فهو رمز قوى جدا للتعاون الفنى بين الدول ووعد حسن للمستقبل بحيث يكون المعرض المقبل دوليا حقا .

أما الذى نلاحظه فى المعرض الذى أقيم فى السراى الكبرى بالجمعية الزراعية الملكية بالجزيرة ، فهو وفرة بعض الأقسام ، لا أعنى وفرة المعارضات فقط ، بل وفرة المزايا الفنية أيضاً . ومن الأقسام التى تمتاز ، القسم البلجيكي . ففى هذا القسم معروضات كثيرة العدد ، كثيرة الاختلاف ، شديدة التنوع . ينقسم كتالوج هذه المعارضات على حسب الأجيال أولاً . فالباب الأول هو الباب المخصص للماضى ، فيه آثار للتصوير ، والرسم ، والنحت . والباب الثانى مخصص للفنانين الأحياء

فيه آثار التصوير والرسم والنقش والنحت ، وفيه نقود ، وقسم صغير مخصص « للتصوير البلجيكي الحديث » .

أما الباب الثالث والأخير فيجمع تحت عنوان « الصنائع الفنية » صمغ اللك ، والخزف ، والبللور ، والطرارز ، والكتب . وفى أسماء الفنانين الأحياء اسم يوجد أكثر من مرة ، فى التصوير والنقش ، وهو اسم الرسام المعروف جيمز إنسور James Ensor ونحن نعتزف بكل تواضع أننا نفضل نقوش هذا الفنان على اللوحتين المعروضتين علينا . فى نقوشه شئ من السخرية ومن المرارة . فى اللوحات لاحظنا لبول فرونييه ، « الميناء القديم فى مارسيليا » (١) فيه دعوة البحر الجذابة ، وإن لم ير البحر ، فالدعوة فى سوارى المراكب ، وفى الجو الصافى الناضر ، وفى هذه الألوان الرقيقة المتنوعة . هناك لوحة أخرى استوقفت عنايتنا هى لوحة فرانتز

ماسيريل ، عنوانها « المرأة الغاسلة » (١) تختلف هذه الصورة عن الصورة التي كنا نتكلم عنها — فاذا كانت الأولى واضحة منيرة في الرسم والألوان ، فالثانية تعجب لقوتها في التعبير وثبات تكوينها . أما الألوان ، فهي عميقة الإشعاع ، حازمة التعارض . ولنقل كذلك شيئاً عن لوحين لفنانين مختلفين ولكن موضوعهما واحد ، وهو « حديقة بروكسيل » — الأولى لجستون برتران [٤٧٠] Gaston Bertrand وقد تكون « كلاسيكية » (بالقياس إلى المذاهب المحدثه ، بالطبع) يكاد الناظر إليها يميزها بكلمة الاستقرار ، استقرار الجو ، قبل كل شيء ، فالسما هنا ثقيلة ، واطئة ، تغمر كل شيء بضوء غائم ، تسطره الأشجار بسوقها السود قد نشرت بينها بسط العشب الأخضر . أما اللوحة الأخرى فتكاد تميز بكلمة الحركة ، لا تظهر فيها السماء وإنما يعرف الناظر أنها غائمة أيضاً ، ولكن هذا لم يمنع الفنان من استعمال الألوان فوجود اللون ملحوظ قبل كل شيء ، فقد عارض الرسام إميل ماهي [٤٧٧] Emile Mahy في لوحته هذه بين اللون الأحمر الوردى (وهو أرض الحديقة) واللون الأصفر الفاقع في أعماق اللوحة واللون الأخضر (العشب) . وعارض كذلك بين سطور سوق الأشجار وسطور السياج الحديدي . ولا سبيل إلى وصف كل المعروضات في هذا القسم ، ولا حتى وصف كل المعروضات الممتازة في الأقسام المختلفة . وحسبي لأختم الملاحظات عن القسم البلجيكي ، أن ألفت إلى الخزف والزجاج المزخرف ، وبوجه خاص إلى المرايا ذات اللعان الأخاذ بفضل حواشيها القائمة .

والزائر الذي يتبع سياق الأقسام يبلغ القسم الفرنسي بعد أن زار القسم البلجيكي ، فيجد فيه كل ما وجده في سابقه من تفتن وتنوع . وبلجيكا تعطي عن قنفا فكرة شاملة رائعة ، ولكن ليس في معروضاتها ما يميزها تمييزاً قاطعاً من جملة الفن الأوربي . وفي الحق أن في فرنسا دائماً « ميلا ظاهراً ثائراً إلى التجديد واحتفاظاً قويا مطمئناً بالتقاليد » كما يقول المسيور . ل . دوبوى R.L. Dupuy ، القوميسير العام للقسم الفرنسي في الكتالوج الذي طبع بالعنوان الآتي : « فنون فرنسا الجميلة » . إن زيارة القسم الفرنسي تثير فكرتين : الأولى أن فرنسا ما زالت وطن الفن الخالد . والثانية أن فيها متنوع ،

مختلف أشد الاختلاف ، ولكنه في نفس الوقت واحد مؤتلف أشد الائتلاف . في هذا القسم يستطيع الزائر أن يرى أثاراً لأعظم الفنانين في العالم ، ويستطيع أيضاً أن يرى آثار الفنانين المحدثين الذين يتبعون الطرق التي فتحت لهم بعد جهاد العطاء الماهرين . ويجب أن نهى القوميسارية الفرنسية باتقان الكتالوج ؛ فقد وضعت إلى جانب كل اسم من أسماء الفنانين نبذة قصيرة واضحة عن حياته ومذهبه ومنهجه . فلنبداً بالتصوير . لجروير لوحة « في انتظار العاصفة »^(١) خرجتها مأساة الحياة ، إن صح هذا التعبير ، بحمرة فاجعة ، فيها امرأة متهالكة على سرير أحمر ، من هذه الحمرة الأرجوانية المشرقة تحت أشعة الشمس ، ولكنها تظهر هنا قاسية صارمة في هذا الضوء الباهظ الذي يغمر كل شيء . ولنلفت الزائر أيضاً إلى لوحة لأندريه لوت « ميناء بوردو »^(٢) وفي هذا الميناء ولد منشئ نظرية « الكوبيسم » . وهناك لوحة أخرى تستحق الالتفات

في هذا الكنز الثمين صاحبها لوترون « السين في باريس »^(٣) ولكننا نعرف أن مناظر باريس التي رسمها لوترون كانت من أسباب شهرته الواسعة . والذين يعرفون باريس من الزائرين ، وخاصة باريس في وقت البرد والضباب ، سيعجبون بألوان هذه الصورة الرقيقة التي فيها انعكسات الرمادي والأزرق الصافي والأبيض . ويجرى النهر هادئاً بطيئاً ، بين شاطئيه القاتنين . ولنختم هذا الفصل القصير السريع ناصحين للقراء أن يقفوا لحظة غير قصيرة أمام رسم بيكسو الوحيد الذي يعرض علينا وهو يمثل رءوس ثلاثة رجال^(٤) . وقد قيل عن هذا الرسام العظيم ، الذي يعتبر بدون شك أشهر رسام في العالم الآن ، كل الذي يمكن أن يقال . ولكني أريد أن أعبر عن دهشي أمام هذه الرءوس الثلاثة . فهل من الممكن أن أثراً قنياً يجمع هذا المقدار من السذاجة والدقة ويعد المعنى في وقت واحد ؟ فرسم بيكسو هذا عبارة عن خطوط

(١) Francis Gruber, *L'attente de l'orage* [15]

(٢) André Lhote, *Port de Bordeaux* [21]

(٣) Lotiron, *La Seine à Paris* [24 bis]

(٤) Picasso, *Trois têtes d'homme* [153] تأسف لأن الزواج وضع على هذا

النقش بطريقة ساءت إليه ، فقد التقى طرفا الزواج في وسط الرسم فشطراهما شطرين .

دقيقة رسمتها يد صناع ماهرة ، فهي ثابتة مستقرة قد تحقق فيها التوازن بين براعة التأليف وقوة التصرف . ويلي قسم التصوير قسم آخر يمتاز بروعته وثروته العظيمة من الاختراع والإبداع مع الوفاء لما لهذا الفن من جمال موروث ، هو قسم الطراز ، وهو من أهم الفنون التي تفوقت فيها فرنسا منذ عهد بعيد . ويجب أن نقول شيئاً عن تاريخ هذه الوسيلة للتعبير الفني . وقد استعرنا هذه المعلومات البسيطة التالية من نشرة صغيرة أذيعت عن معرض « الطراز الفرنسي » في باريس (يونيو-يوليو ١٩٤٦)^(١) فأصل الطراز الفرنسي يرجع إلى القرن الثالث عشر ، على الأقل ، ولكن ليس من الممكن تحقيق مصدر هذه الحرفة القديمة . وقد مرت بالطراز الفرنسي أوقات مجد وأوقات خمول . وقد جمد هذا الفن في القرن الثامن عشر ، فلم يكن إلا تقليداً دقيقاً للتصوير . وقد أغلقت دور الطراز أثناء الثورة . « وتحرك القرن التاسع عشر » كما يقول المسيو بيير فيرلي Pierre Verlet في النشرة التي أشرنا إليها) غير

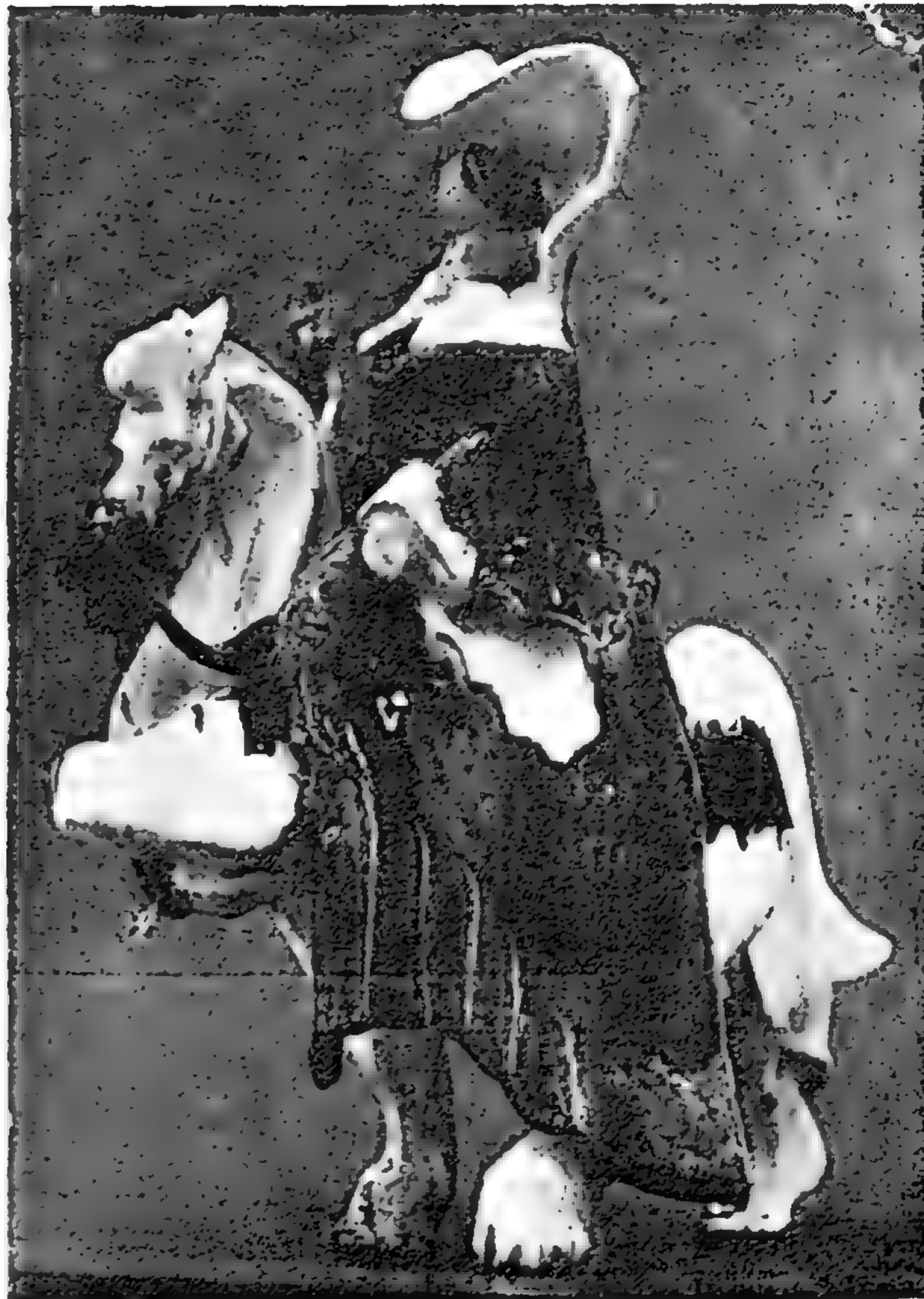
موفق وإن حاول المهارة محاولة دائمة ، لأنه لم يفهم الأسلوب الصحيح للطراز ولم يكن بد من انتظار وقتنا الحاضر لنشهد نهضة قيمة لهذا الفن . « وقد ردت رسوم لورسا Lurcat وكوتو Coutaud ومارشان وغيرهم من الفنانين الفرنسيين إلى الطراز جلاله القديم . وفي معرض القاهرة أمثلة عجيبة للكمال الذي وصل إليه الفنانون المحدثون . لمارشان طراز عنوانه « بنات البحر »^(٢) عارض فيه بين ازدهاء الألوان وبروز الأجسام . وقد امتدت إحدى بنات البحر في أعلى الطراز وجلست الأخرى في شماله ، ومن حولها في الحاشية الشهباء خصائص البحر في ألوانها المختلفة . وطراز آخر لسافين Savin « الصيد » يذكر بالطراز القديم في تركيبه وألوانه المطفئة . ولا نريد أن نصل إلى القسم البريطاني دون أن نسجل إعجابنا بالشطرنج ذي اللونين الأخضر والوردي . يمتاز القسم البريطاني بالتصوير والكتيب . أما التصوير فلحظنا فيه لأجستس جون Augustus John صورة ديLAN توماس [١٣] Dylan Thomas

(١) La tapisserie française du moyen âge à nos jours (Editions des Musées Nationaux, Paris)

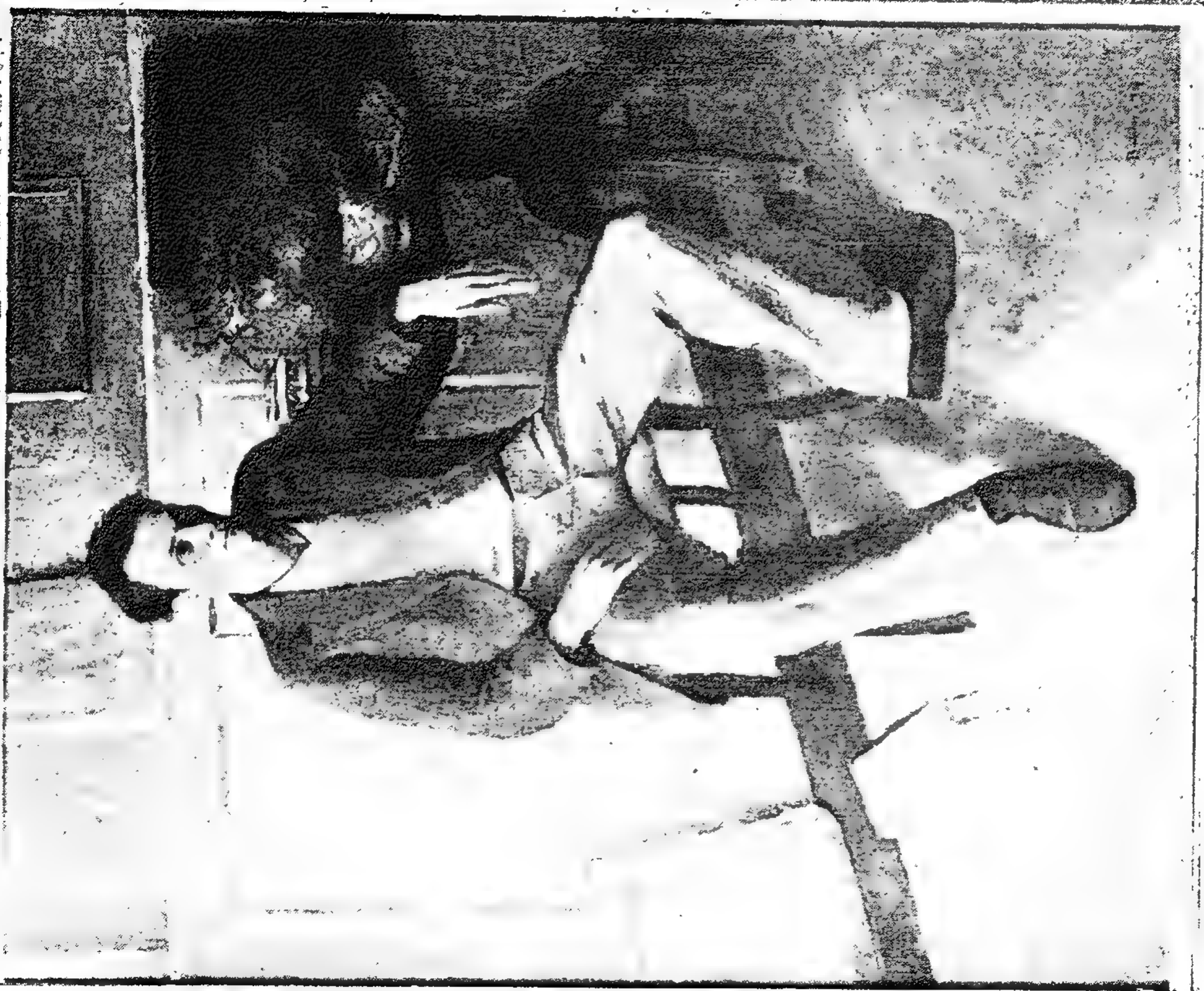
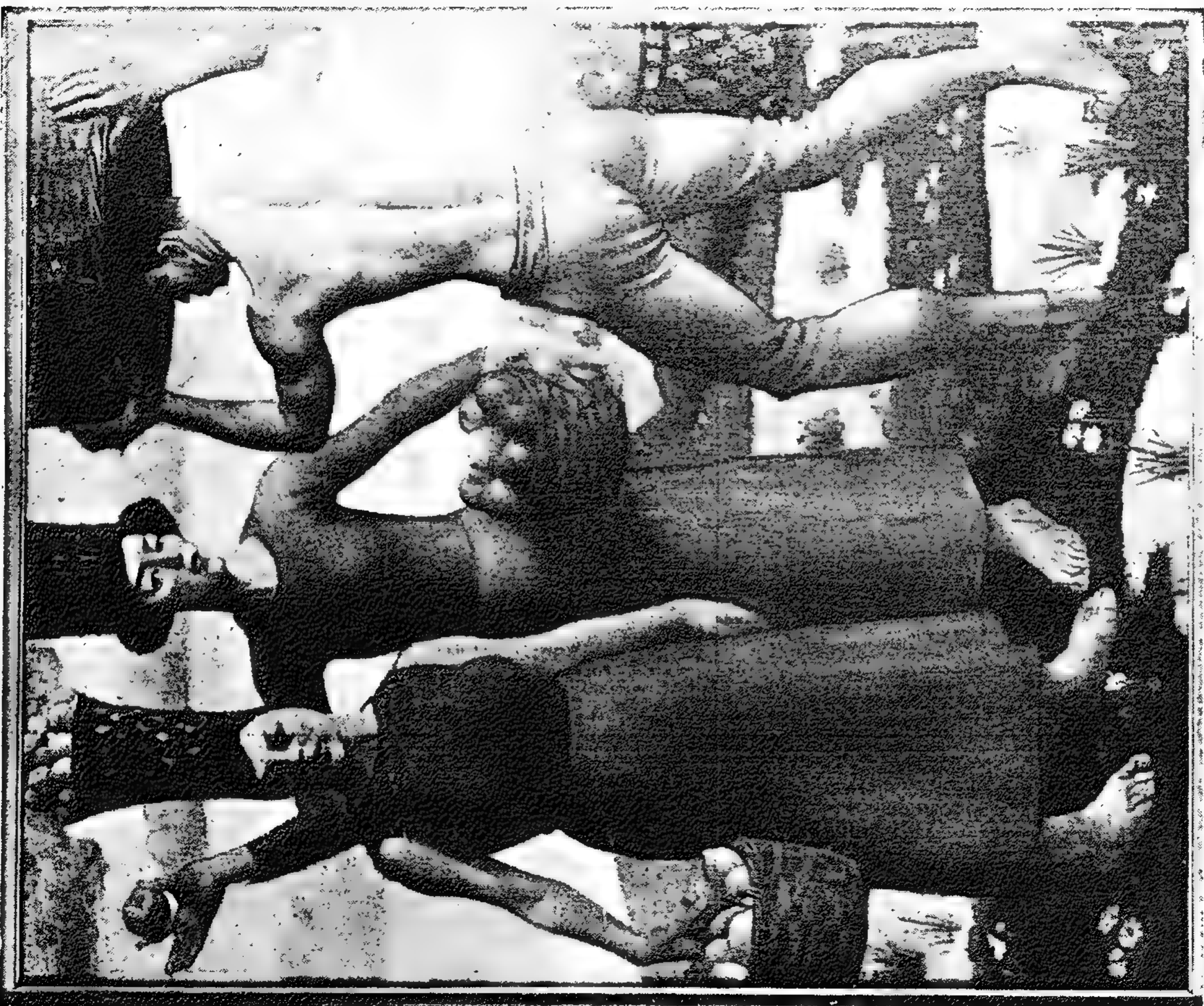
(٢) A. Marchand, Les Néréïdes



القسم الفرنسي
٦٥ — « أورفيوس وآلهة الشعر »
للوسيان كوتو



القسم الفرنسي
أنموذج جميل من الحزف الفردي

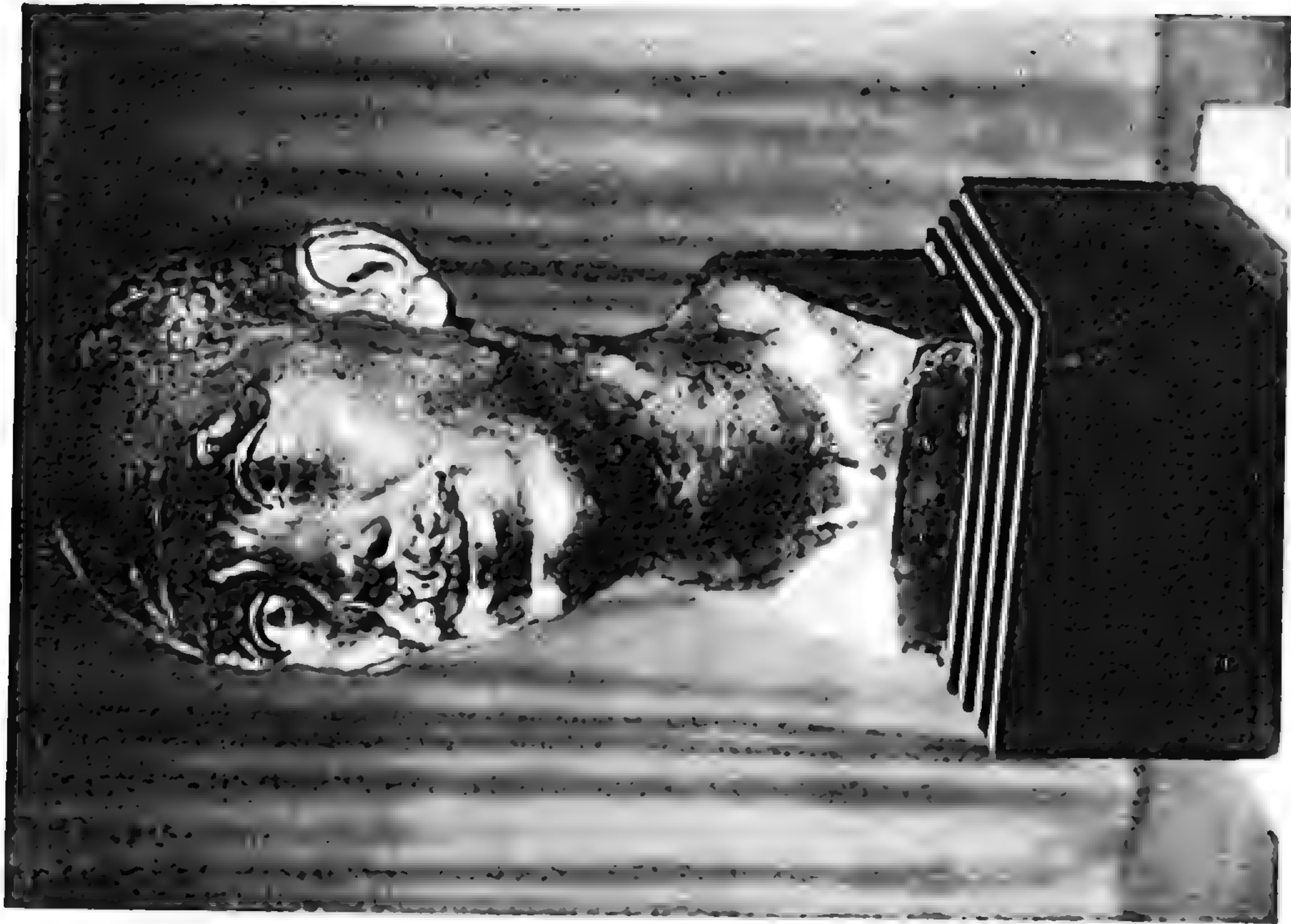




القسم الأمريكي — ٦ — «بائع يانکی متجول» لکاتون وودفیل



القسم الأمريكي — ٤٧ — «أبي وأمي» لجون ستيوارت کاري



ويؤثر في نفسنا من هذه الصورة قوة النظرة ودقة الألوان . ولمارك جرتلر لوحة سماها « متخيري الثمار » (١) وهي لوحة غريبة فيها مزاج عجيب من مذهب المحدثين وذكريات من سذاجة القدماء . وفي الحق أن هذا المزاج فائن . أما الذي يروع الزائر حقا في القسم البريطاني فهي الكتب والنقوش والرسم . ولا شك أن قسم « المجلس البريطاني » للكتب المصورة قد بلغ غاية الجمال وانتهى إلى قيمة عالية جدا فنية . . . وغير فنية أيضاً! وهذه المعروضات تستحق من هذا المقال جزءاً أطول من الأسطر التي بقيت لنا . ونحن نعتذر إلى القراء المعجبين بالمطبوعات الثمينة من إيجاز هذه الملاحظات .

تكلما عن الأقسام التي عرضت علينا آثاراً قيمة جدا في تاريخ الفن الحديث . أما الأقسام الأخرى فقد عرضت علينا مثلاً للفن كما هو الآن في بلادها . وقد لاحظنا في القسم الصيني رسوماً دقيقة غريبة ، تملؤها قوة الإدراك للطبيعة الهادئة استوقفت عنايتنا في القسم الأمريكي لوحة روبرت جواثمي Robert Gwathmey « آخر النهار » [٥٤] وهي تمتاز بتوازن أجزائها وتنوع الألوان الداكنة تضيئها ألوان أخرى زاهية .

أما القسم السوفيتي فهو يمتاز في النقوش والرسوم وبوجه خاص رسوم قصة « همليت » و « دون جوان » Don Juan للورد بايرون وقد رسم الأولى ب. فافورسكي B. Favorsky والثانية إتشئيستوف Etchéistov ولاحظنا في الزخارف صندوقاً صغيراً من العظم د. م. سولوفتزووف M. Solovtsov وسكيناً ذا نصاب منقوش لنيجوديايف Negodiaev . ويظهر أن اليونان ما زالوا أوفياء للفن الذي برع فيه آباؤهم وهو النحت . ولهذا سنتكلم عن النحت اليوناني ونترك التصوير لأنه لم ينجح بشيء جديد بالنسبة إلى ما رأيناه في الأقسام الأخرى! أما النحت اليوناني ففيه قوة ودقة ومهارة ، تجدد القوة في أكثر الآثار المعروضة ، وهذا طبيعي في فن النحت . وتظهر الدقة بوجه خاص في أثر أنطون سوخوس Antoine Sochos « أثينية » [٥٤] التي تذكر بآثار القدماء من اليونان في زينة شعرها ومكر ابتسامتها . ويذكرنا بالنحت القديم العظيم أثر آخر هو « فتاة » لبلا رفتوبولو [٥٤] Bella Raftopoulo

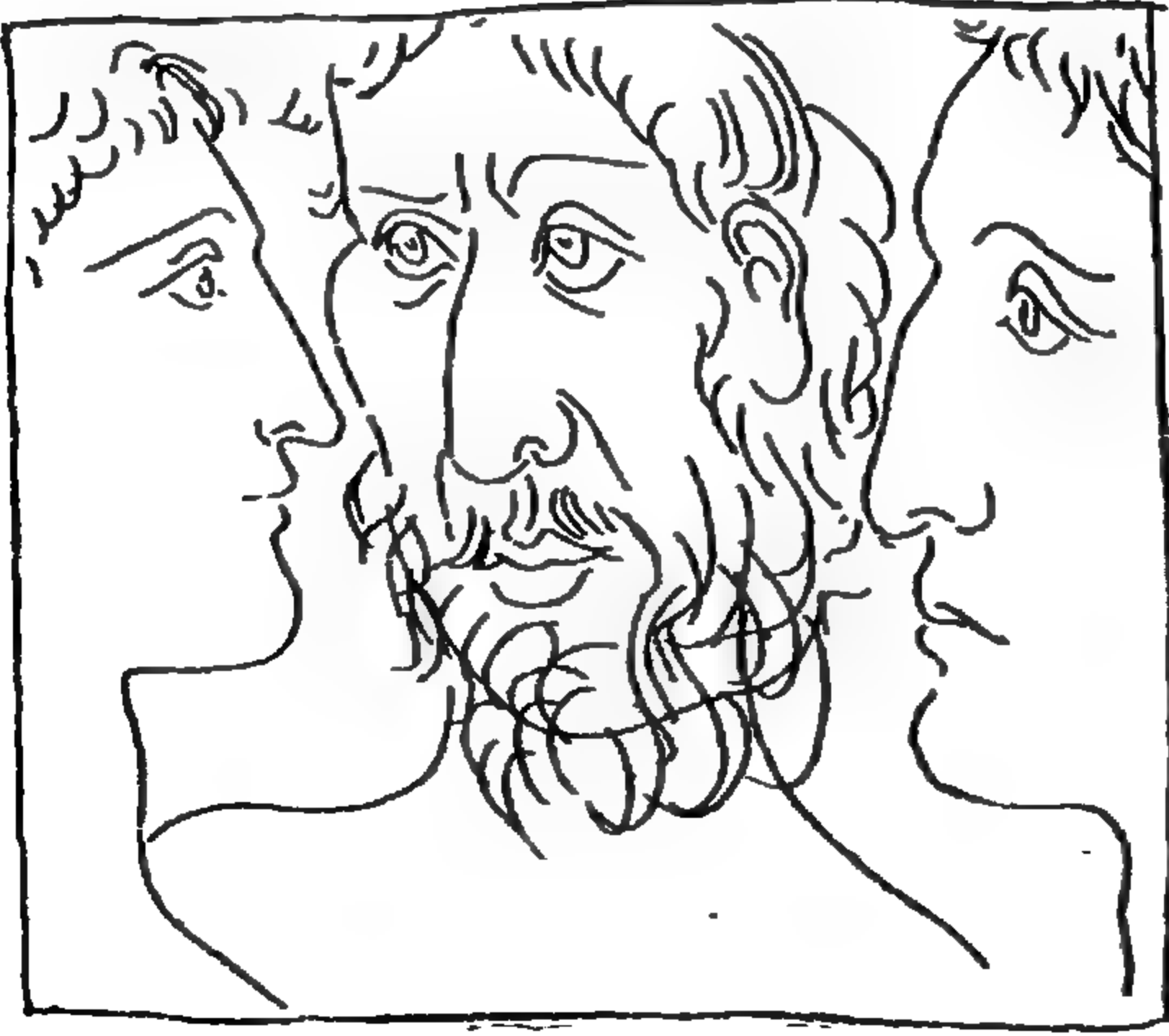
ويستحق هذا النحت إطالة النظر إليه .
ويلاحظ الزائر أن هذه الفتاة تميل
رأسها قليلاً نحو الشمال ، فتثير التفكير
في بعض الآثار القديمة التي تمثل
الإسكندر .

ولنختم هذه الشهرية بملاحظات
سريعة عن المعروضات المصرية، نبدوها
بالأسف الشديد لنشر الكتالوج
المصرى باللغة العربية وحدها ، وقد
نشرت دول أخرى كثيرة كتالوجاتها
وفيها قسم باللغة العربية وهذا حسن .
فاذا أردنا من الأجانب الزائرين
(وكلنا يعرف أن في مصر الآن عدداً
غير قليل منهم وأنهم أكثر زيارة
للمعرض من المصريين مع الأسف أيضاً)
أن يفهموا ويقوموا جهداً فنياً ، فمن
الواجب أن نجعل لهم سبيلاً إلى هذا ،
فنبين لهم عن هذه المعروضات بلغة
يفهمونها كما فعلوا بالنسبة إلينا .^(١)
تنقسم المعروضات المصرية إلى ثلاثة
أقسام : التصوير والنحت والصنائع
الفنية . ونقول عن القسم الأخير إنه
يبشر ببلوغ الإبداع في الصناعة الفنية
في مدة نرجو أن تكون قصيرة . أما
النحت المصرى ، فهو يمثل بآثار فنائنا
الكبير الرحوم محمود مختار . والقارى

يعلم أن قيمة مختار قدرت في باريس
قبل أن تقدر في القاهرة . أظن أن
كل المصريين ومحبي مصر ، شعروا بعاطفة
لم تكن فنية فقط حين رأوا صورة
المغفور له على باشا إبراهيم لمختار . إن
هذا الأثر يمتاز من غيره بإنسانيته ،
إنسانية الفنان وإنسانية العالم . وفي
قسم التصوير المصرى آثار كثيرة ، ولكن
الجيدة قليلة . (ولسنا ندرى لماذا لم
نر بين هذه المعروضات آثاراً للأستاذ
عبد الله حامد ، ومن عسى أن يكون
المسئول عن ذلك ؟) وحسى أن
ألفت إلى لوحات محمود سعيد ، أستاذنا
الأكبر في هذا الفن . يسر الزائر
أن ينظر ثانية أو ثالثة أو أكثر إلى
لوحات محمود سعيد وخاصة « الدعوة
إلى السفر » [١٢٠] وفيها هذا
الابتسام المصرى القديم كأنه الهلال
المتلى . وانظر أيضاً إلى لوحة
أحمد صبرى ، أشهر مصورينا
للأشخاص : « توفيق الحكيم » [٤]
وفي يده كتاب . . . لعله « حمار
الحكيم » . وانظر أخيراً إلى لوحات
هذا الملون العظيم ، محمد ناجى ، مصور
الحبشة .

وما ينبغي لنا أن نختم هذه ،

(١) علمنا في آخر لحظة أن الصيغة الفرنسية للكتالوج المصرى ظهرت بعد افتتاح
المعرض بأسبوع .



١٥٣ - رؤوس ثلاثة رجال ليكاسو

الشهرية الناقصة دون أن نهدي ونشاطه الخصب على تشجيع الفن
أجمل الشكر إلى جمعية محبي الفنون وتحييه إلى القلوب . فنحن مدينون
الجميلة ، وينوع خاص إلى رئيسها للجمعية ورئيسها بهذا المعرض الرائع
صاحب السعادة محمد محمود بك الذي ستلوه من غير شك معارض
خليل الذي وقف جهده العظيم أكثر روعة وجمالا .

أمينه طه حسين

شهرية السياسة الدولية

تميزت السياسة الدولية خلال الشهر المنقضى بحادثين ، بل بحادث واحد :
حادث مؤتمر موسكو ، وحادث بيان ترومان ، وتميزت معها « السياسة
المشرقية » بتضمن جدول أعمال مجلس جامعة الدول العربية الخطير من المسائل .

مؤتمر موسكو

ففى يوم الاثنين العاشر من شهر مارس اجتمع مؤتمر موسكو ، وهو مؤتمر وزراء الخارجية لدول الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية وبريتانيا العظمى وفرنسا ، للنظر فى مختلف الشؤون المتصلة بعقد معاهدتى الصلح مع النمسا وألمانيا ، بعد أن تم التوقيع بباريس فى العاشر من شهر فبراير على معاهدات الصلح مع توابع ألمانيا فى الحرب : إيطاليا وبلغاريا ورومانيا والمجر وفنلندا .

و صناعة الحرب ، ولأنها تطالب بوضع منطقة السار تحت إدارتها كما كانت موضوعة إثر الحرب العالمية الأولى ، وهى مقتنعة أن عدول انجلترا عن استمرار الموقف من تلك المنطقة هو الذى أعان نفوذ هتلر على التمكين لنفسه فى الجماعة الجرمانية .

لكن أعمال مؤتمر موسكو لم تعرض لشيء من ذلك كله ، بل بدأت بعد إجراءات الترحيب وتبادل التحية والدعاء بالتوفيق بتذكير من جانب الاتحاد السوفيتى بمؤتمر موسكو السابق وباجتماع بوتسدام بعده ، وبأنهما يشيران إلى معالجة الوضع الديمقراطى للحكومة الصينية حتى تستقر فى الصين الأمور وتستتب الأحوال . ولم تستطع الدول الثلاث الأخرى أن تعارض الاقتراح السوفيتى ، وإن اكتنفه شيء

وكان المفروض أن مسألة الرور ومسألة السار ستكونان من مضاعفات العرض لتسوية الشؤون الألمانية ؛ لأن فرنسا تنادى بتدويل الرور حتى تحول دون استثمار ألمانيا مناجمها الغنية بالفحم والحديد فى سبيل صناعة الأسلحة

من المفاجأة ، لكن وزير خارجية الولايات المتحدة قد استمهل أربعاً وعشرين ساعة قبل أن يدلى برأيه النهائي فيه، وإن كان قد لوح باشتراطه حضور الصين أثناء عرض حالها . ثم رد من ناحيته بمفاجأة أخرى هي مطالبته الدول المحتلة لألمانيا والنمسا، وهي الدول الأربع العظمى جميعاً ، بتقديم بيان عن قوات احتلالها لا في هاتين الدولتين فحسب بل في سائر الدول التي حاربت الحلفاء في أوروبا .

فرد له الرفيق مولوتوف صاعه بالاستمهال أربعاً وعشرين ساعة كذلك قبل أن يدلى برأيه النهائي في الطلب الأمريكي . وكان وزير الخارجية السوفيتية قد عارض في حضور الصين أثناء مناقشة أمرها ، لكن الحكومة الصينية قد أعلنت احتجاجها على هذه المناقشة إذا هي لم تحضرها ، وأبلغت الاحتجاج إلى وزيرى خارجيتى الدولتين الأنجلوسكسونيتين بوساطة سفارتها في موسكو . وقامت بذلك أولى المضاعفات التى واجهت المؤتمر . لكن لم يعدم المجتمعون وسيلة للتغلب عليها ؛ فقد قرروا المناقشة تنفيذاً لقرارى موسكو وبوتسدام السابقين ، كما قرروا أن تجرى المناقشة عن طريق تبادل المذكرات .

وإذن فلن يجرى العرض للشؤون الصينية فى جلسات ، وإذن فلا ضرورة لحضور الصين بالذات .

على أن مضاعفة ثانية قد قامت قبل أن يضىء دور مناقشة الاقتراح الأمريكى الخاص بعدد القوات المحتلة للبلاد العدو ؛ فقد هاجم الاتحاد السوفيتى الولايات المتحدة وبريتانيا العظمى إذ اتهمهما بممالة النازيين فى منطقتى احتلالهما ، وإذ اتهمهما أيضاً بابقاء آلاف النازيين فى الشكنات الحربية على قدم الاستعداد كأنهما تريدان أن تأتيا بهم حدثاً . فاستغل وزير الخارجية البريطانية هذا الاتهام وأشار إلى عدد الأسرى الألمان فى مختلف أراضى الدول العظمى ، وطالب بالادلء بأرقام هذا العدد عند كل من روسيا وفرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة . فلاح أن العدد الأكبر فى ذاته لا يزال فى روسيا ، دون اعتبار إلى نسبة القوات الألمانية التى كانت مشتركة فى مختلف الميادين .

وبينا يسود جو مؤتمر موسكو ذلك الإكفهار الناشئ من تلك المضاعفات إذا بأمر يتم عليه الاتفاق فى اجتماع ودون مناقشة ، وهو شطب بروسيا من الوجود الجغرافى . فقد قرر المؤتمر توزيع المقاطعات البروسية الباقية داخل

الحدود الألمانية على ما يجاورها من
الوحدات بحيث لا تبعث إلى عالم الوجود
تلك الدولة التي سببت الحروب الثلاثة
الآخيرة في سنة ١٨٧٠ سنة ١٩١٤ جميعاً .

بيان ترومان

ولم يكذ ينقضى على انعقاد مؤتمر
موسكو ثمان وأربعون ساعة حتى فاجأه
الرئيس ترومان وفاجأ العالم كله معه
بخطاب ألقاه في اجتماع عقده مجلسا
الكونجرس الأمريكى وحضره جميع
شيوخ الولايات المتحدة ونوابها ، وقد
طلب فيه « الموافقة على عقد قرض
بمبلغ أربع مئة مليون من الدولارات
لمساعدة اليونان وتركيا » ، كما طلب
تحويله سلطة إرسال رجال من المدنيين
والعسكريين الأمريكين إلى هاتين
الدولتين يعاونون فيهما « على أعمال
التجديد والانشاء » ، ويشرفون على
طريقة استخدام المساعدة المالية التى
يحصلان عليها .

ولم يخف الهدف الذى يسدد له سهامه
إذ أشار بعد ذلك إلى « أنه يدرك
تماماً مدى ما سيعقب هذه المساعدة
الأميركية لليونان وتركيا من نتائج
مضادة لروسيا » . وأضاف أن « حالة
لفوضى والارتباك ستسود جميع أقطار
الشرق الأوسط إذا وقعت اليونان تحت
سيطرة الأقلية المسلحة » .

وقد أثار خطاب الرئيس ترومان
اهتمام العالم كله وقلقه ؛ فقد أجمعت
الاتجاهات المتباينة على أنه تهديد
صارخ لروسيا ، وأنه إقدام جريء على
تهيئة أسباب حرب عالمية ثالثة . وهو
على الأقل فرض للحصار على الكتلة
السلافية ولا سيما إذا هو قدر توسيع
دائرة المساعدات بحيث تشمل إيطاليا
والبحر غرباً ، والصين وكوريا شرقاً ،
وسوريا ولبنان والعراق وإيران
جنوباً .

على أن التعقيب على هذا الحدث
العالمى قد اختلف باختلاف البيئات

وقد برر الرئيس ترومان مطالبه
بإثارة أن « العالم يواجه اليوم حالة
دقيقة تشمل السياسة الخارجية والطمأنينة
الوطنية » . وذكر أن اليونان وتركيا
ينبغي أن تظفرا بالمساعدة لكي تستطيعا
المحافظة على استقلالهما وسلامة أراضيها .

السياسية والاقتصادية والاجتماعية . أما جماعة الرأسماليين الأمريكية وجماعة المحافظين الانجليز فقد رحبوا به الترحيب كله . وقد رأى الأولون أنه يفتح الأبواب لرءوس أموالهم تستثمر في تلك المناطق التي كانت روسيا قد أخذت تنافسهم فيها بعرضها سلعتها ، ولا سيما بنزولها ، بأسعار تنقص عن الأسعار الأمريكية نقصاً عظيماً . وقد رأى الآخرون أن فيه إنقاذاً لإمبراطوريتهم من التفكك ، وهم يؤثرون بطبيعة الحال أن يستولى عليها « أشقاؤهم أو أبناء عموماتهم » الأنجلوسكسونيون ما داموا هم قد فقدوا وسائل الاحتفاظ بها والتسلط عليها وقد نال منهم الضعف والافلاس .

أمد أحرار العالم فقد وجدوا في خطاب الرئيس الأمريكي أقوى ضربة موجهة إلى أمانى البشرية في سبيل الهدوء والسلامة ، كما وجدوا فيه معولا ينقض به الأنجلوسكسونيون على بناء الأمم المتحدة الذي لم يتكامل بعد .

وأما الاشتراكيون والشيوعيون فقد رأوا فيه رمياً من الأمريكيين إلى استعمار العالم . وقد وصفت اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي البريتاني على حد ما أذاعته برقية لرويتز بأنه « تحد لل قوى الديمقراطية في العالم قد يؤدي — ما لم يحارب ويقضى عليه — إلى التدخل في كافة الدول من أجل الأهداف الأمريكية التي ترمى إلى استعمار العالم » .

وأما روسيا المقصودة بذلك الخطاب بالذات فقد تلقت في صمت دام يومين ثم انهالت صحيفتها « أزفستيا » عليه بأقسى عبارات النقد والوعيد . والمتنظر أن يعرب المارشال ستالين عن رأى الاتحاد السوفيتي عند ما يقابله وزير الخارجية الأمريكية لمناسبة وجوده في مؤتمر موسكو .

وأما أهل الذكر في مصرفينصجون بالوقوف موقف الحيدة من الكتلتين المتبارزتين حتى لا تصيبنا بالمجان ويلات الانضمام إلى ناحية إذ تعتبره الناحية الأخرى عداء لها ومخاصمة .

مجلس الجامعة العربية

وتشخص الأنظار في بلاد المشرق كله إلى مجلس جامعة الدول العربية المنعقد في القاهرة منذ اليوم السابع عشر من شهر مارس ، وقد حشد جدول أعماله بمشاكل تلك البلاد جميعاً . وقد يتوقف على مواقف المجلس ومندوبي

الدول المثلة فيه مصير جامعة الدول العربية ذاتها .

الكبرى الذى يدعو إليه الملك عبدالله ويقاومه السوريون أشد المقاومة .

فستعرض على المجتمعين مسألة إحالة القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة ، وقد كان هذا الاتجاه هو الذى بدا فى دورة بلودان على أن تتقدم الدول العربية شاكية انجلترا صاحبة الانتداب ، فلاحقتها انجلترا حتى سبقتها غير مشكوة بل شاكية من التبعات الملقاة عليها .

وسيعالج المجلس مسألة الخلاف الطارىء بين الملكة الأردنية والجمهورية السورية ، وهو الخلاف الذى تجسم فى إغلاق الحكومة الأردنية قنصليتها فى دمشق . وهو يرجع فى ظاهره إلى ما تعتبره حكومة عمان إهمالا من جانب الحكومة السورية فى منع الحملات التى يقوم بها نفر من الأردنيين القاطنين دمشق موجهة ضد السلطات والأنظمة فى عمان ، ويرجع فى باطنه إلى مشروع سوريا

المصرى البريتانى ، وإلى الوساطة التى بذلتها سوريا وبذلتها لبنان، والتي يقال إن العربية السعودية قد بذلتها هى الأخرى ، إلى جانب تصريحات أدلى بها رئيس الوزارة العراقية ، ولم يلق شئ من ذلك كله ترحيباً من مصر بل لقى النقد واللوم والمؤاخذة . بل إن فى الجو المصرى لقلقاً يرجع إلى خشية المصريين ألا تكون تلك الوساطة صادرة من تلقاء تلك الدول العربية ذاتها، بل أن تكون حكوماتها مدفوعة من قبل « الغير » إليها دفعاً . وقد يكون من أثر ذلك القلق البادى إذا ثبتت أسبابه وتحققت دوافعه أن ترى مصر الانسحاب من الجامعة العربية ، وفى انسحاب مصر منها قضاء عليها فهى التى تضى عليها شيئاً من المهابة .

محمود عزمى

شهرية المسرح

لن نفع حرب طروادة تأليف جان جيرودو^(١)

تدور هذه المسرحية على مقدمات حرب طروادة التي خلدها أعظم شعراء الملاحم هوميروس في الياذته منذ نحو ثلاثين قرناً .

وقصة حرب طروادة هي قصة كل حرب على الرغم مما نسجته الأساطير وأبدعه الخيال في حكاية أسبابها وملابساتها . فما يعدو منشؤها قيام دولة قوية الشوكة عزيزة الجانب واسعة السلطان بأزاء يونان على الشاطئ الآسيوي المقابل من بحر إيجه ، وقوع عاصمتها طروادة على مدخل الدردنيل بحيث تسيطر على طرق التجارة بين بلاد بحر إيجه وبلاد البحر الأسود . ولقد كتب المؤلف العصري

جان جيرودو مسرحيته عام ١٩٣٥ في إبان تلك الوعكة النفسية المتخلفة من عقابيل الحرب العالمية الأولى وحالة التوتر العصبي المؤذنة بنشوب الحرب العالمية الثانية . فجاءت قصته عن طروادة بمنظرها وملابسها وأسماء أبطالها من قصص العصر القديم ،

ولكنها بموضوعها وفخاها وأفكارها قصة العصور كلها . وهو يصور لنا فيها ما تضطرب به هذه الفترات من الصراع بين أنصار السلم الذين يغضون على القذى من أجله ويروضون أنفسهم على احتمال كل مكروه في سبيله ، وبين دعاة الحرب الذين يحرضون على إضرام نارها وخوض غمارها ، ولو توسلوا إلى ذلك بالتهويل وإشاعة الأباطيل .

ولقد شاعت عبقرية جيرودو أن يكون داعية السلم في تلك الفترة قائداً قديماً من مساعير الحرب ، هكتور ، بطل طروادة الأكبر وقد عاد إلى المدينة منتصراً بعد حرب ضروس دامية . لقد كره هكتور الحرب كما يكره المرء صديقاً له ظهر مينه وافتضح زغله وغشه .

على أن هكتور لا يكاد يعود إلى أسوار طروادة بجنده الظافرين المتعبين حتى يجد المدينة في هرج ولغط . لقد اختطف أخوه الأصغر باريس زوجة

منلاس ملك أسبرطة ، هيلين الحسناء
الإغريقية ، آية الجمال وصورة الكمال ،
وأنزلاها في قصر أبيه الملك الشيخ بريام .
فاذا أهل طروادة بها معجبون ، شبابهم
وشييوخهم أجمعون ، قد راعهم ما رأوا
من كمال جمالها ، فعلقت قلوبهم بها .
وانطوت نفوسهم على حبها ، وبلغ
إعجابهم حد العبادة وهيامهم حد
الجنون . وترامت إلى طروادة الأنبياء
بأن الإغريق ثائرون لكرامتهم التي
امتهنت ، وحرمتهم التي انتهكت ،
وأنهم يتذاكرون في أخذ الثأر ويفكرون
في حملة تأديبية لمقابلة الشر بالشر .

لا أدري وايم الحق كيف تستطيعين
الكلام عن الحرب في يوم كهذا .
إن السعادة تنزل فيه على الدنيا !
كاساندر : « مثل نزول الثلج
تماماً » .
أندروماك : « السعادة والجمال
أيضاً . أنظري إلى هذه الشمس . إن
في أكناف طروادة منها أطباقاً من
اللؤلؤ لا يجتمع مثلها في قاع البحار .
ولو قدر للناس أن يهتدوا يوماً من
الأيام إلى طريق الحياة في سلام ،
فهذا هو اليوم » .

وفي هذا اليوم ، وتحت تأثير
الظروف الملائمة ولا سيما إذا أدخلنا
في الحساب تقدم هكتور في العمر وعلو
سنه ، ووضعنا في الميزان الجنين الذي
تؤذن بوضعه امرأته — نقول في هذا
اليوم وتحت تأثير هذه الملابس أظهر
هكتور العزيمة الصادقة التي
لا مترجح عنها ولا متحول على إغلاق
أبواب الحرب .

وليس لدينا في صفة هذا التنكر
للحرب أبلغ من قوله في مناجاة له مع
امرأته : « لقد كنت فيما مضى أتمثل
في الذين أصمد إلى قتلهم أضداداً على
النقيض مني ، أما في المرة الأخيرة
فكنت كأني عاكف على مرآة : كان
الموت الذي أنا قادم على إنزاله

فلا حديث في طروادة إلا عن الحرب
المنتظرة ولم تسكد جيوش طروادة
تستقر في أسوارها وتستجم من مشاق
الحرب السابقة وويلاتها ، ولما تجف
الدموع في عيون الطرواديات على
من تكن فيها من إخوه لوولد . ويتفق
حديث الحرب هذا في أبهى أيام الربيع
والمدينة مخضرة الجنباب ، مزدهرة
الوهاد والنجاد ، تسبح في غمرة من
الضياء والبهاء توحى بحياة الدعة
والقناعة واجتلاء الجمال والتمسلي
بالسعادة ، كما عبرت عن ذلك
أندروماك زوجة هكتور أبلغ التعبير
في قولها لأختها كاساندر المتكهنة :
أندروماك : « عجباً يا كاساندر !

بالشخص المائل بين يدي يبدو لي كأنه ضرب من الانتحار أنا قادم عليه .

وهكذا بلغت كراهة هكتور للحرب ونفوره منها وتفتح ذهنه إلى أنها مسبة للإنسانية وكفران بنعمة الحياة .

وكان على هكتور لكي يقر السلام أن يزيل علة الخصام بين قومه الطرواديين وبين الإغريق الناقمين لاختطاف الشاب الأمير الطروادي لزوجة الأمير الأسبارطي .

فصرف هكتور إلى الأمر همته ، واستفرغ وسعه واستنفد طاقته ، حتى غلبت إرادته على إرادة باريس أخيه ، وعلى إرادة أييه ، وعلى الكثرة الساحقة من شيوخ طروادة المعجبين بروعة جمال هيلين ، ونزلت هيلين نفسها على إرادته ، وارتضت العودة إلى يونان مع رسول اليونانيين .

وهنا نتنفس الصعداء مستبشرين . لقد بطلت أسباب العداوة ، فلا جرم إذا قلنا مع القائل : « لن تقع حرب طروادة » .

ولكن حرب طروادة — على الرغم من ذلك جميعه — قد وقعت . أجل ! وقعت ودامت — كما روى لنا المؤرخ لأسبق — عشر سنوات ، واشترك فيها

مع اليونان أحلاف اليونان ، يناصبهم مع الطرواديين أقوام من سائر الألوان . فأية إرادة دفعتهم إلى الحرب إذن ؟

أية إرادة تدفع الأمم أجمعين إلى مجازر الحرب طوال هذه السنين منذ القدم إلى هذا الزمن الذي نحن فيه ؟

لقد جعل جيروودو هذه الإرادة فوق المؤامرات الحزبية ، وفوق الحكمة السياسية ، وفوق النظريات المثالية ، وفوق مشيئة البشر كافة . إنها المرض المستكن ، إنها الغريزة العمياء ، مرض الحرب وغريزة الحرب . وإن شئت العبارة عنها بكلمة جامعة من لغة المأساة الفاجعة فهي « القدر » . هي إرادة القدر .

ولقد كان هكتور بطل الحرب الداعى إلى حقن الدماء يحس في إبان دعوته إلى السلم وتصميمه عليه بتلك الإرادة الخفية العليا القاضية بالحرب :

« لو أن الأمهات جميعهن بترن الأصبع السبابة اليمنى من أكف أبنائهن لرأيت جيوش العالمين تقاتل من غير الأصبع السبابة . . . ولو أنهم بترن أرجلهم اليمنى ، لسعت الجيوش بعضها إلى بعض كلٍّ على رجل واحدة . . . ولو أنهم قحَّان عيونهم فصاروا عمياناً ، لما عدست الدنيا جيوشاً ، ولرأيتهم يخبطون

خبط العشواء في حومة الوغى يتحسس بعضهم مقاتل بعض .

ومع إحساس هكتور بقوة القدر التي يصطدم بها فانه لم يضعف . واستقبل رسل اليونان وعلى رأسهم عوليس أمير إيتاك الداهية . وسكت القائد العظيم على الوعيد ، وصبر على الازهانة حتى الصفع ، وهانت عليه في سبيل السلام سابقة أمجاده وسمعته بين قومه وكرامة شخصه وعزة نفسه .

وفي اللحظة التي تهب فيها عوليس للعودة إلى مركبه ومعه هيلين ؛ في هذه اللحظة التي تنتهي بها القصة نهاية سعيدة موفقة ، شاء القدر أن تقع الواقعة ، فاندفع إياس في سكره وضم يديه الغليظتين إلى صدره في عريضة ماجنة أندروباك زوجة هكتور . وهنا رفع هكتور حربته . وإنه لا شك قاتل بها إياس ، ولتقع من بعدها حرب طروادة .

هذا هو المنتظر ، وفيه ولا ريب تصوير رائع لقدرة القدر . ولكن المؤلف لا يقنع بذلك ، إنه يريد أكثر من ذلك .

فقد ترك إياس يهرب . فانطلق لسان الشاعر المتحمس الشيخ ديموكوس يذيع ما وقع من عار ، ويستنفر إلى درك الشار . فيهوى

هكتور إليه بحربته المرفوعة ، فيهوى الشاعر إلى الأراض صارخاً . فاذا بادر أهل طروادة إليه يستطلعونه ، ألقى إليهم الكذبة التي جرت وراءها النكبة : ألقى إليهم وهو يجود بنفسه أن القاتل إياس اليوناني ، فيلحق منهم إياس من يقتلونه ، وتقع حرب طروادة . وبذلك يبلغ جيروودوما أراده من تصوير القدر في أفزع صوره ، وهي صورة القادر الساخر .

فالرواية كما رأينا تعد بحق « أنشودة اليأس » على نحو ما وصفها بير بريسون ، ولكنه مع ذلك يأس الشجاع لا تأنف منه الرجولة ولا تعافه النفس . ثم هي كسائر مؤلفات جيروودو قوية البيان ، أنيقة الوشى ، بارعة العبارات ، طريفة الأخيلة ، غنية بالأفكار وبدائع المعاني وبالتحليل النفسي وبخاصة للنساء ، مطبوعة بذلك الطابع الرائع من السخر الرهيب الجاد .

ولقد اضطلعت الفرقة الفرنسية التي تحيي الموسم التمثيلي الأجنبي بدار الأوبرا الملكية بتمثيل هذه المعاني الدقيقة والأفكار الرفيعة ، وتصوير هذا الفن الطريف البديع المبتكر للجمهور . وهي ولا وشك مهمة شاقة . ولكن الفرقة ونفت مع ذلك للاستيلاء على

مشاعر الكثرة من المتفرجين ، أما القلة التي لا تهتز للمعانى المجردة والمناظرات العالية فليس لهذه الفرقة ولا غيرها من سبيل إلى إرضائها . وقد اقتسم الأدوار النسوية فيما بينهم الأوانس والسيدات : ميشيل ألفا في دور أندروماك الزوجة الفاضلة وقور الهيئة رصينة اللهجة ، وأليس سابرتش في دور كاساندر المتكهنة بملاحمها الحادة وجيدها المترفع ووقفها المتصلبة القاسية ، وجيزيل كسادسى في دور هيلين في جمالها وسذاجة إحساسها واكتفائها بنفسها وقلة احتفالها بما حولها ، ومارى لويز جودار في دور هيكوبا زوجة الشيخ بريام ملك طروادة في حنكتها وخبرتها بطبائع النساء والرجال وصراحتها في تسمية الأشياء بأسمائها وعرضها على حقيقتها . وأما شخصيات الرجال فقد كان أجذبهم للأنظار الفتى (جاك فرانسو) العارى البدن حتى حقويه في جمال محاسره واعتدال قوامه وحركة الدلال في مشيته وامتزاج التهور والانطباع في لهجته ، وبريام (جان فرنيه) في وقار شيخوخته وامتزاج البساطة والأبهة في هندامه ، وديموكوس الشاعر الشيخ (جان بول مولينو) والمهندس (جان جاك ستين) ، وترويليس (أنطوان فليرى) ، وعوليس (لوسيان باسكال) ، وفى وسط هؤلاء جميعاً وفى وسط الرواية كلها هكتور (جان مارشا) يدير الحركة من حوله فى يسر واقتدار .

ولقد صادف الاحتفال بتمثيل هذه الرواية الذكرى الثالثة لوفاة مؤلفها العظيم . ولعل الأكثرين كانوا يحسون وهم يصفقون للرواية أنهم يرسلون من الأرض المصرية تحية الصداقة والاعجاب خالصة زكية إلى ذلك الأديب المجاهد الراقد فى باريس رقدته الأبدية .

صهار بوريدان تأليف روبر دى-فليز و ج . ا . كيافيه (١)

هذه طرفة مستملحة لطيفة من نوع المسرحية الباريسية الخفيفة . ولقد حرص المؤلفان فيها قبل كل شئ على ابتسامه المتفرجين ، على ضحكهم ، على فحجتهم بالضحك العالى ، على قهقهتهم الصاخبة ، فى فترات متعاقبة متقاربة . فالرواية — مع اشتغالها على الكثير

من صدق الملاحظة وعمق التحليل — قائمة على روح الفكاهة ، روح الفكاهة فيما يدور من حديث ، وفيما يلقى من مواقف ، وفيما يعرض من شخصيات . فهذا بطل القصة جورج بولان له عشيقات ثلاث . ولا غرو ، فهو شاب وسيم الطلعة أنيق الهندام ميسور الحال ، ثم هو إلى ذلك جميعه وفوق ذلك جميعه ، قد رزق الموهبة التي لا تضارع في اجتذاب النساء ، إذ كان محدود الأفق قليل الذكاء .

واتفق أن استأذن خادمه في الغيبة بضعة أيام ، وأقام قريباً له في موضعه ، فأخطأ لجهله وقرب عهده بخدمة السيد في تبليغ مواعيده الغرامية ، فاذا العشيقات الثلاث يوافينه في الدار في يوم واحد ، وساعة واحدة .

فلم يجد له مخلصاً إلا الهرب وتركهن التصرف وتسوية حسابهن بعضهن مع بعض .

وقدم جورج على صديقه لوسيان دى فرسان في بلدة بعيدة عن باريس ، وكانت للصديق زوجة جميلة أوديت ، وخليلة ظريفة فرناند شانتال ، وفتاة يتيمة مشبوبة العاطفة يكفلها وهي ميشلين ابنة صاحب له كان من الرسامين .

فاذا هذا الهارب من العشيقات الثلاث يشتبك في هوى أولئك الغواني الثلاث .

ويتبين من تطورات القصة ومجرى وقائعها أن صاحبنا مخلص في حبه للنساء ، ولكنه من ذوى الطبائع المترددة الحائرة لا يقطع برأى ولا يأخذ بعزم في إثارة امرأة على أخرى ، ولا في إثارة لفيفة تبغ من صنف على لفيفة من صنف آخر .

ومن ثمة تسمية الرواية بحمار بوريدان الذي أثر أنه انقطع عنه الماء والعلف مدة ، ثم جاءوه بالاثنين معاً ، فوقف حمار بوريدان موقف الحيران ، لا يدرى بأيهما يبدأ وهو الجوعان العطشان . وما زال المسكين في حيرته حتى نفق وأدركته المنية في وقفته .

على أن جورج كان أسعد في الختام من حمار بوريدان . والفضل في ذلك راجع إلى صاحبه لوسيان دى فرسان الذي أعان على زواجه بالفتاة ميشيلين ، فأفاد من ذلك الزواج أن حفظ على نفسه زوجته وعشيقتة ، كما أقام بذلك الزواج صرح السعادة لصديقه المتخبط في حيرته والفتاة المحبة المشمولة بعطفه وكفالاته .

وكان جان مارشا في دور جورج متفرزاً بالحياة في مراحله ، خفيف الظل

في مجانته ، مضحكا في ريكته ، مؤثرا تمثيل الفتاة ميشلين المحبة الغضوب ،
 في حيرته . وكان بأسكال في دور العنيدة العروب . ولا حاجة إلى ذكر
 الصديق مثال الرجل السياسي في إجادات ماريون دلبو في تمثيل المرأة
 رصانته وكياسته في أدق المواقف الماجنة ؛ فقد أقامت على ذلك الدليل
 وأعقدها . كما أجادت جيزيل كسادسي أكثر من مرة .

عبد الرحمن صرقي

شهرية السينما

مهر الموسى (شركة فوكس للقرن العشرين) (١)

هذا الفيلم يصور لنا قصة « حد الموسى » التى كتبها سمرست موم فى سنة ١٩٤٤ وعهد بها إلى دافيد زانوك لينتجها . وقد عجز كثير من واضعى السيناريو عن اقتباس تلك القصة للسينما ، وزعم معظمهم أنها لا تصلح لأن تكون موضوع فيلم لأنه من العسير تصوير حياة شاب متصوف يبحث عن معنى الحياة . وأخيراً تقدم الكاتب السينمائى لامار تروتى وهو أحد المعجبين بسمرست موم ، وأخذ على عاتقه وضع سيناريو لتلك القصة ووضعه فعلاً فى حين أخذ ادموند جولدنج المخرج يحشد العناصر اللائقة لتمثيل شخصيات القصة ، وإعداد مناظرها .

لفهم معنى عنوان القصة يجب أن نرجع إلى تلك الحكمة التى صدر بها سمرست موم كتابه وهى : « من العسير أن يسير الإنسان على حد الموسى . كذلك قال الحكيم إن الطريق إلى الخلاص شاقة . » فالكاتب

إذن يبحث فى روايته عن حل بعض المشاكل الإنسانية ، وهى المشاكل التى تعرض لبطل القصة لارى داريل والتى نجدها فى حديث يدور بينه وبين خطيبته إيزابيل . كانت إيزابيل تبحث لارى على العمل . ولكنه أبى أن يقوم بعمل ما لأن ذلك يحول بينه وبين تأملاته ؛ فهو يريد أن ينصرف إلى التفكير العميق ، وأن يجوب الأقطار ليتعرف كنه الحياة ، ومعناها ، إن كان لها معنى ، وليتعرف أهى سلسلة من أخطاء القدر الأعمى . أدركت إيزابيل أن ليس لها محل فى حياة لارى حتى يعود إليه صفاء النفس ، وهدوء البال ، فأذنت له أن يرحل . سافر إلى باريس وأقام فيها مدة ، ثم لحقت به خطيبته فوجدته على تلك الحال التى تركته فيها . فرفضت الزواج منه ، لا لأنها كفت عن الولع به بل لأن دخله ضئيل ولا يريد أن يزيده بالكد والعمل . ثم سافر لارى إلى الهند بعد أن مارس

بعض المهن المضيئة، وهناك عاش في دير من الأديرة الصوفية وتفرغ لتأملاته بين أحضان الطبيعة . لم يدرك هناك كل ما كان يبحث عنه وإنما استطاع أن يجد راحة النفس في عمل الخير وطيبة القلب والعطف على الغير .

وأخيراً عاد إلى باريس حيث قابل إيزابيل التي كانت قد تزوجت من ثرى خانه الحظ فافتقر بعد الزواج . كانت لا تزال تكلف بلارى وتهيم به هياماً شديداً . فاعتقدت أن في استطاعتها أن تستأثر به الآن . غير أن حبها الأعمى يفقدها معشوقها إلى الأبد . كانت لايزابيل صديقة فقيرة ومن ثم كانت وديعة الأخلاق رقيقة الشعور . وقد تزوجت تلك الفتاة، وكانت تدعى صوفى، عن حب وأنجبت طفلاً . غير أن القدر شاء أن يموت الزوج والطفل في حادث أليم ، وأن تمتحن الزوجة بداء الخمر . واستسلمت لدائها هذا حتى نبذها أهلها فسقطت شر سقطه وأخذت تختلف إلى منازل الدعارة . صادفها لارى وايزابيل في أماكن اللهو في مونتمارتر، فجالسهما ففكر لارى أن ينقذها من تلك البيئة ، ونجح فعلاً في أن يمنعها من الخمر ، وأخيراً قرر أن يتزوج منها ، وأسر إلى إيزابيل بمشروعه ؛ ولكن الغيرة تدفع تلك المرأة إلى

أن تعرقل هذا المشروع فتأتى بصوفى إلى منزلها وتتركها في الغرفة مع زجاجة الخمر ، ومن البديهي أن صوفى لم تقاوم إغراء الكأس فتستسلم لدائها وتفر هاربة .

كان هذا الحادث هو سبب القطيعة بين لارى وإيزابيل التي كلفت لى تحتفظ بلارى ما وسعها الكفاح . وينصرف الشاب عنها ويعود إلى أمريكا لينقطع لحياة أمل وجهاد .

والشاهد يخرج من عرض هذه القصة وقد أضناه التعب من طول الفيلم وكثرة مناظره وطولها الذى لا مسوغ له مطلقاً . وأرى أن مثل رواية «حد الموسيقى» وهى تعرض آراء فلسفية ، سواء أكانت قيمة أم غير قيمة ، لا تصلح للسينما مطلقاً . فهى تتطلب لا براز آراء مؤلفها حواراً طويلاً بين الشخصيات في حين أن السينما للآن لم تسجل إلا حوادث ومناظر . وقد يكون المسرح أكثر ملاءمة لمثل هذا الحوار إن فرضنا أننا نستطيع تحويل المسرحيات إلى جلد فلسفى . ولم تبد آراء لارى ولا المشكلات التى أشقته طوال الجزء الأول من الفيلم واضحة جلية ، فقد شابها بعض الغموض لعجز المخرج عن الإبانة عنها في تصويره للقصة . وقد يكون الكاتب مسئولاً

عن هذا الغموض أيضاً . لقد خيّل لنا أنه باحث عن كنه الحياة ومعناها ثم يعرض عن هذا البحث وينهى القصة بحثنا على حب الغير وطيبة القلب . أظن أنه أتى بجديد في قصته وقد جاءت المسيحية بكل هذا منذ ألفى سنة ؟ وقد اختير الممثل تيرون باور ليقوم بدور لارى ، ذلك الشاب الذى أقلقته مشكلة الحياة فارتدى في أحضان الصوفية وصار يبشر بحب الغير . وقد يكون تيرون باور ممثلاً في رأى الأمريكين مادام جميل الطلعة وسيمها أنيق اللبس . غير أنى لأدرى لم أسند إليه هذا الدور وهو بعيد كل البعد عن تلك الشخصية التى حاول أن يخرجها لنا . كفاه أن يمثل دور لاعب الرجبي والبيز بول أو العشاق البلهاء . أما حين تيرنى التى قامت بدور عشيقته إيزابيل فقد كانت وسطاً بين الإخفاق والنجاح . كان لها فى بعض المواقف تعبيرات بغيضة إلا أنها نجحت فى إظهار تلك الرغبة البهيمية التى كانت تدفعها نحو لارى . ولا أرى بين الممثلين الثانويين فى الفيلم من يستحق الذكر إلا آن باكستر وقد قامت بدور صوفى ، فبدت فى أول الفيلم فتاة هادئة ، وديعة خجولا ، واحتفظت بهذا الهدوء وتلك الوداعة حتى حين أصبحت امرأة ساقطة تعمل فى أماكن اللهو فى مونتارتر ، فأثبتت قدرتها على التمثيل المتقن والتعبير الصادق ؛ واضطلع كلفتون وب بدور خال إيزابيل ، فوفق فى إظهار تلك الشخصية بما لها من مميزات ومعالم . نجح فى تصوير الرجل الأنيق المتحذلق ذى العادات الراقية والذوق المترف والذى يحرص على أن تكون له صلات بأرفع الشخصيات ، غير أنه قد غالى فى منظر الوفاة بعض الشيء فى صياحه وبكائه .

لكل نصيب (فيلم بلامونت) (١)

تقع حوادث هذا الفيلم أثناء الحرب العالمية الأولى فى بلدة أمريكية هادئة حيث كانت تعيش جودى مع أبيها الأرمل . تقابلت ذات يوم مع طيار ، فأحبته وأحبها من أول وهلة ، فقضيا معاً ساعات قلائل ، ثم تجمع بينهما الأقدار لأن الطيار رحل عن البلدة فى اليوم نفسه ولم يعد إليها إذ لقي حتفه فى الأعمال الحربية . وقد كان كلف جودى بالشاب شديداً إلى حد

أنها ما كادت تقابله حتى أسلمت نفسها له ، فأنجبت منه طفلاً . وقد حاولت جودى أن تنقذ سمعتها وسمعة أبيها ، فذهبت إلى المدينة عند الوضع وكلفت إحدى ممرضات مستشفى الولادة أن تحضر الطفل إلى البلدة لتركه على قارعة الطريق . وكانت تأمل أن تأخذه إلى دارها عندما يجده سكان البلدة . ولكن مشروعها لم ينجح لأنها اضطرت أن تتركه لصديقة لها كانت قد فقدت ابنها منذ عهد قريب . رضيت جودى بهذه الحال وخاصة أن وجود ابنها عند تلك الصديقة يسمح لها أن تراه وترعاه وتداعبه متى شاءت وكيف شاءت . استمرت الحال كذلك حتى فقدت جودى والدها ، ففكرت في الزواج إلى المدينة ومعها طفلها ، فذهبت تطالب بالطفل ، لكن صديقها أبت أن تنفصل عنه وقد شغف بها معتقداً أنها أمه . رحلت جودى منكسرة النفس ولكن غير يائسة من استرداد طفلها . لا بد لها أن تكافح ما وسعها الكفاح ، ولا بد أن تضحي ما استطاعت التضحية حتى يتحقق أملها وتنعم بالحياة مع ابنها . تواصل جودى حياة الكفاح والتضحية حتى تصبح من الأثرياء . وأخيراً تشاء الأقدار أن تنعم بولدها بعض الوقت إذ لم يطب للطفل أن

يعيش معها وهو لم يالفها فينفر منها ويبتعد عنها ، وتشعر هي أنه في شقاء متصل لابتعاده عن المرأة التي ألفها واعتقد أنها أمه . وأمام هذه الحقيقة المريرة تترك جودى الولايات المتحدة وتذهب إلى لندن حيث تعيش حتى الحرب العالمية الثانية . وفي ذات يوم تعلم أن ابنها قادم لتمضية إجازته في العاصمة الانجليزية فتأمل أن يقبل دعوتها لتمضية أسبوع في منزلها . غير أنها تجده مشغولاً عنها بخطيبته فلم تسمح لها الظروف أن يضمها وإياه منزل واحد . ثم تعلم أنه يريد الزواج من خطيبته ، ولكن التقاليد العسكرية تحول دون هذا الزواج ، فتدلل له العقبات وتنظم له حفلة قرانه . وأخيراً لايسع الفتى ، وقد عرف حقيقة شخصيتها ، إلا أن يفوه لها بكلمة طالما انتظرتها منه وهي : أماء !

والقصة كما نرى تبتدى في ظروف عجيبة لعل المنطق الأمريكى يستسيغها ، إلا أن منطقنا لا يقبلها مطلقاً . وقد نهم بالرجعية ، ولكنى أؤثر الرجعية على سلوك المؤلف في تلك القصة . فكيف نستسيغ أن تستسلم فتاة مثل جودى ، وهي الريفية الهادئة الدمثة الأخلاق ، الفياضة الشعور ، لفتى من أول وهلة . ولنلاحظ أنها لم تقض مع

هذا الشاب إلا ساعات قليلة كانت من جمال ودقة في التحليل .
 هي الوحيدة في حياتها . ثم إن خاتمة وقامت بدور جودى فى أداء متقن
 القصة كانت سريعة مليئة بالمفاجآت التى يدل دلالة قاطعة على دراية تامة بنفسية
 قد يستسيغها أيضاً النطق الأمريكى الأم المثلة أوليفيا دى هافلاندى، فنالت
 فحسب . أما قصة الأم التى تكافح بهذا الأداء المتقن جائزة التمثيل
 فى سبيل ابنها فهى قصة لا تخلو لسنة ١٩٤٦ .

مرسى لامل

تعتذر المجلة لاضطرابها إلى تأجيل نشر
 بعض المواد ومنها مقال هام للأستاذ
 محمد رفعت بك أحد كتّابها الأصليين .

من هُنا وهُنا لـ

وثنية إخوان الصفاء

نشر الأستاذ جبور عبد النور في مجلة « الأديب » البيروتية (١) مقالا ، بعنوان « معالم الوثنية في رسائل إخوان الصفاء » ، حاول فيه أن يجعل من إخوان الصفاء جماعة اتفقت كلمتهم على هدم الإسلام والرجوع إلى الوثنية القديمة وإلى الوثنية الحرائية بصفة خاصة ، وحاول الكاتب أن يدلل على ذلك كله بما فهمه من بعض نصوص وردت في الرسائل وأشار إلى صفحاتها في الطبعة المصرية .

رجعت إلى النصوص التي ذكرها الكاتب ، ولكنني عجبت أشد العجب من أن الأستاذ جبور لم يكن دقيقاً في نقل النص ؛ فقد عمد إلى تلخيص أجزاء من النص هي التي تتفق مع القضية التي افترضها ، ودفع باقي النص الذي يدحض فروضه ويخالفها . هذا أول ما ألاحظه على بحث الأستاذ جبور . ملاحظة أخرى هي أن الأستاذ الكاتب فهم النصوص على هواه هو ، لا كما أرادها إخوان الصفاء ، وحمل

النصوص من المعاني مالا تتفق مع سياق ماورد في الرسائل . ولعل للأستاذ الكاتب عذره في ذلك ، فدراسة رسائل إخوان الصفاء من أشق الدراسات العربية وأعسرها ، والباحث للرسائل في حاجة إلى مقارنة كل النصوص مقارنة دقيقة ، وأن يربط بعضها ببعض ؛ فقد تجد مثلاً في الجزء الرابع شرح ما في الجزء الأول . فإذا لم يفتن الباحث إلى طريقة الإخوان في الكتابة ، فقد لا يخرج بنتيجة من دراسته . أضف إلى ذلك كله أن بالرسائل بعض الرموز التي يصعب الوصول إلى معرفتها وفك أسرارها إلا إذا اطلع على التأويل الباطني للإسماعيلية . فلا شك أن هناك علاقة وثيقة بين الإسماعيلية وإخوان الصفاء ، فمعرفة أسرار الإسماعيلية يؤدينا إلى معرفة وفهم نصوص رسائل إخوان الصفاء .

ملاحظة ثالثة هي أن بحث الأستاذ جبور قد ملئ بالمغالطات الجريئة في

سبيل الدفاع عن الفروض التي اقترضاها . نرى ذلك كله واضحاً في هذا البحث المنشور في مجلة «الأديب» .

فتى الجزء من البحث الذى جعل عنوانه « فصل الملك عن النبوة » أراد الكاتب أن يوهماً أن إخوان الصفاء هم أول من قال بفصل النبوة عن الملك ، وأنهم يخلصون صاحب الشريعة بصفات معينة كما يجعلون للملك خصالاً أخرى ، وفى ذلك تتضح وثنيته ! فلا أدري ماهى الوثنية فى ذلك ! ولعل الكاتب لم يقرأ ما ورد فى القرآن الكريم عن سليمان ومملكة سبأ ، وكيف فرق القرآن بين الأنبياء وملوك الدنيا ، وقد زخرت كتب التاريخ والتفسير بذلك كله ولم يقل باحث واحد بوثنية هؤلاء المؤرخين والمفسرين . ولكن الفكرة التى اختمرت فى عقل الأستاذ جبور جعلت إخوان الصفاء هم أول من فرق بين النبوة والملك ، وبذلك اتضحت فى عقائدهم الفكرة الوثنية لقولهم بهذا رأى . أما قول إخوان الصفاء : « إن النبى محمد صلى الله عليه وسلم أقام بمكة فى أول مبعثه نحواً من اثنتى عشرة سنة يدعو الناس ويعلمهم معالم الدين حتى استوفى خصال النبوة وأحكمها ثم هاجر

بعد ذلك إلى المدينة وأقام بها نحواً من عشر سنين فى ترتيب أمر الأمة وتحذير الأعداء وجباية الخراج والعشر ومصارعة الأعداء والمهادنة... حتى أحكم أمر الملك » (١) فقد شاء الأستاذ جبور إلا أن يقطع النص ويأخذ منه ما يتفق مع ما اقترضه ؛ فقد اكتفى بأن أشار إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم فى الطور المكى كان نبياً بدون سلطان ثم أصبح فى الطور المدنى نبياً وملكاً . أما ما أدلى به « الإخوان » عن تعليل ذلك ومن أن الله جمع الملك والنبوة لسليمان وداود ويوسف ومحمد ، وحرص الإخوان على مصلحة الناس فى أن يستند الملك إلى الدين والدين إلى الملك ، إلى غير ذلك من الآراء العديدة التى وردت فى الرسائل فقد أرى الأستاذ جبور أن يتحدث عنها أو أن يشير إليها ، بل خرّج هذه النصوص تحريماً يناقض ما جاء فى الرسائل وعلق عليها بقوله : « فهم إذن لا يرون أن الدين والدنيا قد اجتمعا فى شخص الخليفة ، كما يعتقد سائر المسلمين ، بل يسمون بأن هذا الاجتماع هو أمر طارىء » . فالرسائل تتحدث عن الأنبياء والأستاذ جبور أبى إلا أن يجعله عن الخلفاء . وإذا فرضنا أن الحديث عن الخلفاء فهل

درس الأستاذ جبور التاريخ الاسلامى حتى يعلم أن سائر المسلمين لم يعتقدوا أن الخليفة يجمع الدين والدنيا ، فقد كثرت الفرق الإسلامية لخلافهم في الخليفة .

وفي الفصل الذى سماه الأستاذ جبور « تفضيل المجوسية على اليهودية » نراه قد تعدد تشويه ما جاء في الرسائل ؛ فقد استغل الكاتب المعنى الشائع للمجوسية دون تحقيق عقيدة المجوس ، تحقيقاً علمياً . ولعله إذا قرأ كتاب « الفِصَل في الملل » لابن حزم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ . مثلاً لأدرك أن عدداً من الصحابة والتابعين منهم على ابن أبى طالب وسعيد بن المسيب وقتادة وجمهور أصحاب أهل الظاهر قالوا إن المجوس أهل كتاب ، وقد أثبت ابن حزم ذلك في كتب أخرى ذكرها في كتابه هذا (١) ، ومع ذلك لم يأبه الأستاذ جبور بقول إخوان الصفاء عن عقيدة المجوس « بأنه الذى يريد الخير لنفسه ولأبناء جنسه كلهم ، ولا يريد لأحد من الخلق سوءاً لا لمن كان على دينه ويوافقه ، ولا لمن يخالفه ويضاده في مذهبه ، حتى ولو ظلمه وتعدى عليه ؛ لأنه يعلم أن في السماء إلهاً خيراً فاضلاً

عادلاً حكماً علياً لا تقفى عليه خافية في أمر خلقه ، وهو يجازى المحسنين باحسانهم ويكافئ المسيئين على إساءاتهم » . (٢) ومن ناحية أخرى لم أجد في الرسائل ما يشير ولو إشارة خفيفة إلى أن القصة رويت لتفضيل المجوسية على اليهودية كما تخيل الكاتب ، إنما رويت القصة للتدليل على أن من اعتقد رأياً أو ذهب مذهباً وتصوره وتحقق به صارت أخلاقه وسجاياه مشاكلة لمذهبه واعتقاده ؛ لأنه يصرف أكثر همه وعنايته إلى نصرته مذهباً في جميع تصرفاته ، فيصير ذلك خلقاً له ، وسجية وعادة يصعب إقلاعه عنها وتركه لها (٣) « وإذا فرضنا وذهبنا إلى أن الاخوان أرادوا التفضيل فانما هو تفضيل بين شخصيتين لا بين عقيدتين . والغريب أن يذهب الأستاذ الكاتب إلى أن القصة ختمت بتمجيد المجوسية فكانت أفضل الأديان ! بينما ختمت القصة في الرسائل بأن أعيد اليهودى إلى أهله مكسوراً» وأن المجوسى حدث الناس بها فجعلوا يعجبون من أمرهما . فواضح جداً الفرق بين الخاتمتين . ولا أدري ما الذى دفع الأستاذ جبور إلى هذا التحريف .

(١) ج ١ ص ٩٢ الطبعة الاولى المصرية سنة ١٣٤٧ هـ .

(٢) الرسائل ج ١ ص ٢٣٧ — (٣) شرحه .

أما في الجزء الذي كتبه بعنوان « هرمس وفيثاغورس » فلعل الكاتب قد تواضع لدرجة جعلتنا نشك في سعة اطلاعه على ما خلفه علماء المسلمين . فالكتب العربية ذكرت أن هرمس هو نبي الله إدريس ، ولم يكن إخوان الصفاء وحدهم هم الذين ذهبوا هذا المذهب ، بل من المؤرخين من يجعل هرمس هو توت إله قدماء المصريين ، ومنهم من يسمى هرمس أخنوخ أو إدريس نبي العبرانيين ، وتكاد الكتب العربية التي سبقت إخوان الصفاء تجمع على أن إدريس (أو هرمس) هو منبع العلم وأول من تحدث في الجواهر العلوية والحركات النجومية ^(١) فلا غرابة في أن يتبع إخوان الصفاء رأيًا قال به علماء المسلمين قبلهم . وبمنطق الأستاذ جبور يجب أن يكون هؤلاء العلماء وثنيين . فاني لا أستطيع أن أقبل استنتاج الكاتب بأن إخوان الصفاء وثنيون لقولهم إن هرمس هو إدريس ، أو قولهم إن فيثاغورس من حران بدلا من بلاد اليونان . قد اعترف إخوان الصفاء مراراً في رسائلهم بأنهم يتبعون الفيثاغوريين في آرائهم ، فكان الأحرى

بالأستاذ جبور أن يبحث علاقة الفيثاغوريين بعقيدة إخوان الصفاء ، فان مثل هذا البحث جدير بأن يتشبه به كاتب بدلا من تعلقه بقولهم إن فيثاغورس من حران ، واستنتاجه أنهم وثنيون حرانيون لذلك .

ويزداد شك الأستاذ الكاتب وحيرته عندما يصل إلى الرسالة التاسعة من العلوم الناموسية والشرعية ؛ فقد فهم الكاتب أن الاخوان يقومون بجميع شعائر الدين الاسلامي الحنيف فروضه وسننه ، ويعرفون ماحله الاسلام وما حرّمه فيقومون بهذه ويتركون تلك . ولكن عند الأستاذ الكاتب أن ذلك كله لكم أمرهم عن العامة ! وفي الوقت نفسه يقول إن الاخوان يقومون بالشعائر الوثنية التي تبين طقوسها بجلاء في عبادة الصائبة لاعتقادهم أنهم أحق الناس بالعبادة الفلسفية الالهية والأخذ لها والتجديد لما دثر منها . ولكن الكاتب لم يبين لنا كيف كان الاخوان يقومون بالشعائر الوثنية ، هل كانوا يقيمونها خفية أم على مرأى ومسمع من الجاهير ؟ الواقع أن الكاتب فهم ذلك لأنه لم يشأ أن يفهم النص بأكمله فاكتفى بجزء من النص وترك أكثره .

(١) الشهرستاني ج ٢ ص ١١٢ (على هامش الفصل لابن حزم) . والقطبي مادة إدريس وهرمس . وطبقات الامم لصاعد .

ففى هذا النص من الرسائل إشارة صريحة إلى أن الاخوان علويون ، فهم أقرب الناس إلى النبي الكريم ، وأنهم أولى الناس بحمل شعائر الدين الاسلامى وأخص الناس به . ولكن الكاتب تغاضى عن ذلك كله فى سبيل التدليل على ما ألزم نفسه به من فروض ، ولو أدى ذلك إلى إهمال النص . وكذلك لم يشأ الكاتب أن يبحث معنى قولهم «العبادة الفلسفية الالهية» واكتفى بأن فسرهما من عنده بأنها العبادة الوثنية وترك أقوال إخوان الصفاء أنفسهم فى شرح هذه العبادة بقولهم «الاقرار بوحداية الله»^(١) وأن العمل بالعبادة الفلسفية الالهية إيمان ولا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون مسلماً والاسلام سابق على الايمان^(٢) وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان إماماً للمسلمين والمؤمنين عارفاً بالعبادة الفلسفية الالهية.^(٣) ولو اطلع الأستاذ على رسالة الجامعة من رسائل إخوان الصفاء وقارن بين نصوص الرسائل كلها ، لاستطاع أن يدرك أن المقصود « بالعبادة الفلسفية الالهية » هو ما يعرف عند الاسماعيلية والصوفية بعلم الباطن وأن العبادة الشرعية الناموسية هى علم الظاهر . ولعل

الأستاذ جبور إذا أعاد قراءة الرسائل المطبوعة سيجد أنها مفعمة بالإشارة إلى الظاهر والباطن ، وإلى أن العبادة الفلسفية الالهية هى العبادة بالباطن الذى قال به الاسماعيلية ومنهم إخوان الصفاء .

وقد بدا للكاتب أن الأفق القائم قد انجلى له لحديث الاخوان عن الأعياد الاسلامية العادية والأعياد التى سماها بالأعياد الفصلية التى كان يتخذها القدماء . ولكن الأمر أبسط مما توهمه ؛ فقد ينجلي له الأفق القائم لو لم يحدل النص أكثر مما يتحمله ، فقد قارن إخوان الصفاء الأعياد (الفصلية) بأعياد المسلمين بقولهم : «وإذا أنعمت النظر إلى أعياد الشريعة الاسلامية وجدتها موافقة لها (أى للأعياد الفصلية) وذلك أن نبينا عليه السلام من لأمته فى شريعته ثلاثة أعياد ، فالأول منها عيد الفطر ، وهو أعظم فرح يكون بخروج الناس من شدة الصوم إلى الفطر كفرح أهل الأرض بقدوم الربيع والخصب بعد ذهاب الشتاء ، ثم عيد الأضحى وهو يوم تعب ونصب لأنه يوم الحج فيكون الوفد الشرعى فيه شعثاً غبراً ويحتاج فيه إلى إراقة دم ويكون فرحاً مزوجاً

(١) الرسائل ج ٤ ص ٣٠١ — (٢) الموضوع السابق — (٣) ج ٤ ص ٣٠٢

بغير ونصب ، فيكون الفرح دون الفرح الأول كفرح الفلاسفة بالعيد الثاني من سنتهم ، إذ كانوا يستقبلون المهجير والرمضاء والسائم وشدة الصيف . واليوم الثالث في السنة الشرعية يوم وصيته عند انصرافه من حجة الوداع بغدير خم ، وفرحه ممزوج لأنه خالط ذلك بنكث وغدر ، موافقاً للعيد الثالث الفلسفي المتقلب فيه الزمان من الصيف إلى الخريف ، فتناهى حال الثمار وأخذها في النقصان والجفاف . واليوم الرابع هو يوم الحزن والكآبة فهو يوم قبض فيه النبي صلى الله عليه وسلم إلى رضوان الله ومحل كرامته صلى الله عليه وسلم وإن كان عيداً له لما وعده ربه تعالى بقوله « وللاخرة خير لك من الأولى » فهو بانتقاله إلى جوار الله وكريم فنائه عيد له غير أنه مشوب بمصائب أمته وانقطاع الوحي وفقدان شخصه الكريم . (١) ثم ذكر الاخوان أنهم اتخذوا لأنفسهم أعياداً خاصة توافق أيضاً هذه الأعياد الشرعية وهذه الأعياد الفصلية ، وهي خلاصة ما أرادوا ذكره عن الأعياد ، بخلاف ما فهمه الأستاذ جبور . ولا صحة لما ذهب إليه الكاتب من أن الاخوان

« كانوا يصلون بصلاة قدماء اليونان ويدعون بالأدعية الأفلاطونية ويتوسلون بالتوسل الادريسي ويناجون مناجاة الأرسطاطالية » فقد وردت هذه الألوان من العبادة في الرسائل منسوبة إلى قدماء اليونان وأنها عبادة الفلاسفة الالهيين . ولكن فات الأستاذ جبور أن يعرف ما الذي قصد إليه إخوان الصفاء بقولهم : « ولما تمت الفضيلة لواحد من أهله (أى من أهل النبي صلى الله عليه وسلم) وأصحابه قال مفتخراً : أنا أرسطاطاليس هذه الأمة . » (٢) فمن هذا النص الذي أهمله الأستاذ الكاتب نستطيع أن نذكر أن ذكر أفلاطون وإدريس وأرسطاطاليس في النص السابق رموز أريد بها الأئمة من أهل البيت. (٣)

وقد ذهب الكاتب إلى أن إخوان الصفاء كانوا يحللون القرايين وذبح الحيوانات في الهياكل قرباناً لمن يعبدونه . فهذا القول لا يتفق مع ماورد في الرسائل ، وقد فسر الاخوان قربانهم بقولهم إنه « التقرب بما تقرب به ابراهيم من الكبش المنون به عليه فداء لولده الذي قد رعى في أرض الجنة أربعين خريفاً » . ثم قولهم : « فان تمكنت

(١) ج ٤ ص ٣٠٦ — (٢) ج ٤ ص ٣٠٢

(٣) راجع الرسالة الجامعة لـ إخوان الصفاء .

أن تتقرب بكبش رعى في أرض الجنة ولو شبراً فافعل ولا تقعد عنه واجتهد في ذلك . . . » (١) وربما لم يستطع الكاتب أن يفك هذه الرموز أو أن يصل إلى حل هذه الأسرار ، ففسرها بما يتفق مع فروضه . ولو كان قد اطلع على كتب التأويل عند الاسماعيلية او على رسالة الجامعة لأدرك أن لهذه الاشارات تأويلاً باطنياً ؛ فالقربان عندهم هو العهد والميثاق ، والكبش هو حجة الإمام أو كبير دعااته ، وأرض الجنة هي أرض الدعوة (٢) ، وبذلك نستطيع أن نفهم أقوال إخوان الصفاء في قربانهم على النحو الذي أرادوه هم ، لا على النحو الذي فهمه الأستاذ الباحث .

أما قوله : « وينتهون من ذلك إلى القول بأن الهياكل التي بناها الفلاسفة هي شبيهة بالهياكل الموجودة في السماء » فهو تحريف لقول إخوان الصفاء « وبنائهم الهياكل في الأرض على مثال ما هي مبنية في السماء » . فكلمة مثال

أقصد حمى ممثوله دون المثل
ذا إير النحل وهذا كالعسل

هنا في نص الرسائل لها مدلولها ، المصطلح عليه في الرسائل وفي كتب ولا أوافق الأستاذ جبور في قوله إنهم من عبدة الكواكب السيارة ، لا أوافق له لسبب بسيط وهو أنه لم يرد

(١) ج ٤ ص ٣٠٩

(٢) راجع تأويل قصة إبراهيم في كتاب سرائر النقطاء لجعفر بن منصور البين ، وتأويل الحج في كتاب تأويل دعائم الاسلام للقاضي النعمان بن محمد ، وفي انجاس المؤيدية لداعي الدعاة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي . وكلها فتوغرافية مكتبة جامعة قواد لأول بالندهره .
(٣) راجع مقدمة ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة (تحت الطبع بشركة الكاتب المصري) .

نص ولا إشارة إلى ذلك في الرسائل . وإن كان الأستاذ قد استدل بقولهم إن الكواكب السيارة لها تأثير في عالم الكون والفساد ، فلعل الكاتب يوافقني على أنه ليس إخوان الصفاء وحدهم الذين قالوا بهذه المقالة ، ولعله قد قرأ ما ورد في مروج الذهب للمسعودي فقد أفرد فصلاً خاصاً بذلك . ووضع الأستاذ الكبير المرحوم نالينو المستشرق الايطالي كتاباً في الفلك عند العرب ، وقد ذكر من قال بتأثير الكواكب في عالم الكون والفساد . وكذلك نقول إن الحرائين — الذين يريد الكاتب أن ينسب إخوان الصفاء إليهم — ليسوا وحدهم الذين ذهبوا هذا المذهب . واستدل الكاتب بأن الاخوان من المثمنة ليس بصحيح ؛ لأن الناظر في الرسائل يعتقد لأول وهلة أنهم خمسة لا مثمنة .. والحقيقة كما قلت من قبل أنهم كانوا في هذه الناحية فيثاغوريين لا يرتبطون بعدد من الأعداد بل جعلوا لكل عدد أصلاً من أصول عقيدتهم (١) . وإذن نستطيع — مطمئنين — أن نرفض هذه الفروض التي افترضها الأستاذ جبور عن وثنية إخوان الصفاء والحرائية ، وأن نعيد ما قاله الباحثون السابقون عن إخوان الصفاء من أنهم من الاسماعيلية . ولعل الأستاذ جبور قد لحن إلى ذلك دون أن يشعر بجديته عن العلاقة التي بين نصوص الرسائل ونصوص رسائل جابر بن حيان . وأن جابر بن حيان كان على صلة بالإمام جعفر الصادق الإمام السادس للشيعة الاثني عشرية والخامس للشيعة الاسماعيلية ، فوجود هذه الصلة بين أقوال إخوان الصفاء وأقوال جابر تدعونا إلى الوقوف طويلاً للبحث عن علاقتهما بعضهما ببعض وعلاقة الاخوان بالاسماعيلية . وهذا ما أرجو أن أتناوله في مقالات أخرى .

محمد كامل حسين

(١) راجع مقدمة كتاب المجالس المستنصرية .

من وراء البحار

مصر والسودان

تثير مطالب مصر من إنجلترا ، تعليقات مغرضة في الصحف والمجلات البريطانية ، قد يختلف كل منها في نزعتيه ولهجته باختلاف مذهب الصحيفة أو المجلة ، ولكنها تجتمع كلها في تأييد وجهة النظر البريطانية . وقد رأينا أن ننقل نموذجاً من مجلة « العالم اليوم » التي يصدرها المعهد الملكي للشؤون الدولية . وهي تعتبر من أكثر المجلات اتزاناً في بحثها للشؤون الدولية . وقد تكلمت في مقالها الافتتاحي في عدد شهر فبراير عن بريطانيا ومصر ، ومستقبل السودان ، فقالت بعد عبارة قصيرة ليست هي المرة الأولى التي تبين فيها أن مسألة السودان لم تكن حجر عثرة في طريق الاتفاق مع مصر فقط ، بل هي الصخرة التي تتحطم عليها الجهودات في سبيل الاتفاق . ففي سنة ١٩٣٠ عدل عن محاولات الوصول إلى الاتفاق وهي على أهبة النجاح لسبب واحد ، هو استحالة التوفيق بين وجهتي نظر الحكومتين المصرية والبريطانية في هذا الشكل . ولذلك كان مما يدعو للاغتياب في سنة ١٩٣٦ ، أن وجد سبيل للاتفاق في المعاهدة القائمة أمكن به نجاح المفاوضات في شأن جميع المسائل الأخرى ، على أن تترك المسألة التي لا يمكن حلها لتكون موضوعاً مستقلاً للبحث فيما بعد . فقد اتفق الطرفان في تلك المعاهدة على أن تظل إدارة السودان على حالتها الناشئة عن الاتفاق على الحكم الثنائي الذي عقد في سنة ١٨٩٩ مع « الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات أخرى فيما بعد » ، لذلك استمر السودان يديره حاكم عام ذو سلطة عليا « يعين بناء على توصية الحكومة البريطانية » . على أن مصر لم تنزل عن سيادتها عليه إذ أن المادة ١١ (فقرة ٣) تنص على أنه « يجب ألا يتعارض ما نص عليه في هذه المادة مع مسألة السيادة على السودان » . وفضلاً عن ذلك استطاعت مصر أن تزيل بعض الموانع التي فرضتها عليها الحكومة البريطانية بعد مقتل الحاكم العام في سنة ١٩٢٤ ومنها إعادة فتح المناصب الإدارية للموظفين المصريين . على أن التسوية لم تؤد إلى أكثر من وضع الصعوبة على الرف . وما زالت

مصر مصر على أن السيادة على السودان مرتبطة بالتاج المصري . وهي تزعم أن وحدة وادي النيل ضرورية لأمنها وسعادتها ، على حين تتمسك الحكومة البريطانية بأن الاشتراك المصري الانجليزي في إدارة تلك البلاد هو بمثابة وديعة للشعب السوداني على قول مستر رمزي مكدونلد في برقية أرسلها إلى القاهرة في سنة ١٩٢٤ ، وصرح فيها أنه يجب ألا تثار مسألة السودان بل يجب أن تترك إلى أن يتم العمل فيه (أي إعداد السودانيين للحكم الذاتي) . وتؤيد الحكومة البريطانية الحالية هذا الرأي ، وتلاحظ أنه عندما يحين الوقت لكي يقيم السودانيون الحكومة التي يرغبون فيها يكونون بالطبيعة أحراراً في اختيار بقاء علاقته مع مصر أو عدم بقائها .

ومما يؤسف له فيما يتعلق بأمل الوصول إلى تسوية أن استمر الساسة المصريون واستمرت الصحافة المصرية مدة خمس وعشرين سنة ينادون بوحدة وادي النيل . وفي سنة ١٩٣٠ كانت النظرية التي استعملها النحاس باشا (وكان يوشذ رئيساً للحكومة) فيما يتعلق باتفاقية الحكم الثنائي هي أن السيادة المصرية على السودان لا تتجزأ بالرغم من هذه الاتفاقية ، إذ أن

غرض هذه الاتفاقية إداري محض لا سياسي . أما الزعماء الحاليون اليوم فيظهر أنهم يكتفون بالزعم أن السودان ومصر شيء واحد ، ولا يرون من الضروري أن ينيروا أذهان شعبهم فيما يتعلق بالظروف التي عقد فيها اتفاق الحكم الثنائي . أي إن هذا الاتفاق قد تم بعد إعادة فتح السودان (الذي نجح في الانتفاض على سوء الحكم المصري) بحملة مؤلفة من جنود بريطانية وجنود دريهم البريطانيون ، وقاد هذه الحملة لورد كتشير . ونتيجة هذا أن السواد الأعظم من المصريين لا يعرفون إلا أن البلاد السودانية كانت في وقت ما جزءاً من أراضي الخديو ، وأن رخاء مصر يتوقف على مياه النيل إن لم تتوقف عليها حياتهم . ومن المؤكد أن لمصر كل حق في أن تطلب ضمانات كاملة لسلامة حدودها الجنوبية ، وأن تكون واثقة كل الثقة ألا تتعرض مواردها من مياه النيل للخطر . على أن هذه الأمور معترف بها تماماً في بريطانيا والسودان . وقد عقدت اتفاقية مياه النيل في سنة ١٩٢٩ بوجه خاص لكي تزيل كل خوف ، بأن أية مشروعات مستقبلية لرى السودان وحجز المياه فيه ، لن تعرقل على أية حال ما تطلبه مصر من

مياه . وقد نصت هذه الاتفاقية على إنشاء خزان جديد في السودان تعود كل الفائدة منه على مصر . وتقرر في هذه الاتفاقية مبدأ عدم اتخاذ أية ، إجراءات في السودان تضر بمصالح مصر ، وأن يكون هناك تعاون بين مصالح الري في البلدين .

أما فيما يتعلق بالمأزق الحالي فإن ما يسمى بـ « بروتوكول السودان » ، لم ينشر . ولكن من الواضح أن الحكومة البريطانية تصر على مبدأ أن يكون مصير السودان في المستقبل من شأن

السودانيين أنفسهم بالاختيار الحر . وفي رأي هذه الحكومة أنها لا تستطيع « أن تنزل عن حقوق شعب في الاستقلال الذاتي بالاتفاق على ذلك مع طرف ثالث » .

ومما يجعل هذا القول أكثر صواباً أنه قامت حركة وطنية استقلالية في السودان نفسه . على أنه مما يؤسف له أن هذه الحركة يمثلها حزبان مختلفان اختلافاً كبيراً في كثير من وسائلهما وأغراضهما .

ولكن كلا الحزبين ينادي بأن يكون السودان مستقلاً وبعيداً عن أي تدخل من بريطانيا أو من مصر .

حول الأدب الفرنسي كامو

أبدى مستر ماسون في صدر مقاله عن كامو Camus في مجلة « سكروتني » الإنجليزية ، عدد يناير سنة ١٩٤٧ ملاحظة تسترعى النظر ، هي قوله إن في الأدب الفرنسي المعاصر ظاهرة عجيبة ، هي أن ثلاثة على الأقل من كتاب النثر قد نشر كل منهم بحثاً فلسفياً ، ومسرحية ، ورواية قصصية .

فقد كتب مسيو ألير كامو ، فضلاً عن قصتيه « الغريب » و « رسائل لصديق ألماني » ، مسرحيتين هما « سوء التفاهم » و « كاليجولا » ، ومقالاً عن السخافة باسم « أسطورة ستييف » ، وجمعت له

مجموعة مقالات لم يكن قد بلغ فيها مستواه الناضج ، صدرت تحت اسم « العرائس » . وبالرغم من أن مسيو كامو يقرن اسمه ببول سارتر وسيمون دي بوفوار على أنه من أتباع مذهب الوجودية ، فإن هذا الوصف لا يدل على الحقيقة أكثر من القول بأن الكتاب الانجليز أودن ودای لويس وسبندر هم أنصار مذهب واحد . وكل ما يشترك فيه هؤلاء الكتاب الفرنسيون الثلاثة أن لكل منهم فلسفة تظهر في مسرحياته وقصصه . ولمسيو كامو الذي كان معلماً للفلسفة آراء طريفة ، قد

لا تكون متناسقة كفلسفة صرفة ، ولكنها تمثل نظرة نحو الحياة والموت يشترك فيها كثيرون من الناس في زماننا .

ولعله عمد إلى شرح هذه الفلسفة في روايته « الغريب » ، ولكن في هذه الرواية أيضاً فضيلة نادرة هي أنه فكر فيها وبنّاها من أول صفحة إلى آخر صفحة ، بل نجد أن الصفحة الأخيرة مرتبطة كل الارتباط بالصفحة الأولى . وفي هذه الرواية ميزة أخرى هي أن معناها الحقيقي لا يعرف إلا في النهاية . ويجب قراءتها حتى هذه النهاية لكي يعرف مغزاها . فالمؤلف إذن قابض تماماً على مادته وهو يتناولها في أسلوب بين متزن لا يعترضه حشو أدبي .

وقصة « الغريب » التي تروى على لسان بطلها ، هي قصة مرسو الذي يعيش في الجزائر ويعمل عملاً كئيباً بسيطاً . . . وقد وضع والدته قبل ثلاث سنوات في دار للعجزة بمارنجو . وفي ابتداء الرواية تكون والدته توفيت ، فذهب يشيعها إلى مقرها الأخير . وعند عودته إلى الجزائر يذهب إلى حوض للسباحة ليقابل فيه ماري التي كانت تعمل على الآلة الكاتبة في المكتب الذي يعمل هوفيه . فيذهبان في المساء إلى رؤية شريط سنائي هزلي ثم يبيتان معاً . وتبغى

الفتاة الزواج منه فلا يمانع بالرغم من عدم تحمسه ، ولكن قبل حدوث الزواج يساعد مرسو رجلاً يعرفه بمن يتاجرون في النساء في مشاحنة له مع إحدى ضحاياه ، وتتوطد بينهما الصداقة فيذهبان بصحبة ماري في يوم السبت التالي إلى أحد المصايف . وهناك يتبعون بعض الأعراب الذين هم أصدقاء لأخي المرأة المعتدى عليها ، وينشب بينهما وبين الأعراب عراك يجرح فيه الصديق . على أن مرسو يتدخل بين المتعاركين ، ويستولى على مسدس صديقه حسماً للنزاع . ويحدث بعد ذلك أن يخرج للنزهة ، وكانت الشمس تسطع حارة ويتصيب من جسده العرق ، فاذا به يعود إلى مقابلة أحد الأعراب الذي يرغب أن يستأنف العراك ، ويخرج هذا الأعرابي سكيناً فاذا مرسو يفرغ المسدس فيه ويرديه جثة هامدة . كان من المستطاع أن تنتهي هذه القضية باعتبارها قتلاً حدثت مع ظروف مخففة . ولكن إجابات بطل القضية أمام قاضي التحقيق تصدم آراء القاضي المسيحية ، فيأخذ في التوسع في تحقيقه ، ويرى حتى في مسألة وفاة الوالدة معنى جديداً ، ويزيد المتهم عناداً وتمسكاً بما يعتقد أنه الحق ، فيحكم عليه بالموت . وعندما يذهب إليه

القسيس قبل تنفيذ الحكم يأبى أن يقابله بل ينهال عليه ضرباً ، وتكون رغبته الأخيرة أن يشهد تنفيذ الحكم عليه جمهور ساخط .

قد تكون هذه القصة مقتبسة من إحدى الصحف كما فعل ستندال في قصته «الأحمر والأسود» ، ولكن أبرز ما فيها ليس النضال بين بطلها وبين الهيئة الاجتماعية ومصطلحاتها ؛ فمرسو في هذه القصة شهيد العقيدة لا شهيد الهيئة الاجتماعية ، ومأساته هي مأساة جميع الذين يشاطرون مسيو كامو رأيه . فهناك ثلاثة آراء أساسية يتجه

إليها المؤلف في كتابه : أولها أن بعض الأشياء التي تعتبر ذات أهمية هي في الحقيقة عديمة الأهمية . وثانيها أن هنالك قيماً خاصة ، ولكن ليس من الضروري أن نأخذ بهذه القيم أو نهملها . ومن وراء الثقة بالنفس توجد عقيدة في بعض القيم لا تتأثر حتى بالموت المحتوم . وقبل مناقشة هذه الآراء يحسن

أن نذكر أن بعض الناقدين يرون في بطل الرواية أنه نضبت فيه جميع موارد الاحساس ، ويرى الآخرون أنه يفيض بالحياة الداخلية ، ويرى كاتب المقال فيه أن هذا اللاشعور منه هو طريقة تبعث على الاهتمام في بطل الرواية ، ويجب أن ننظر إليه على أنه يمثل

اتجهاً جديداً في الحياة . ولقد حرص مسيو كامو على أن يكثر البطل من الحديث عن نظرتة إلى الشئ العديم الأهمية ، ومن هذه الأحاديث نشعر بأن للبطل قيماً خاصة في الحياة ، أولها الطموح إلى الرجولة ، فان اضطهاده جعل منه رجلاً وبطلاً .

وليس من السهل أن نرى في هذه القصة مأساة . أجل ! إن فقد المرء حياة عشرين سنة هي مسألة مؤلمة لدى أولئك الذين يقيسون الحياة بهذا المقياس ؛ ولذلك كان ما تقوم عليه هذه السألة : هل هناك فيما وراء موت البطل في مقبل العمر ما يدل على القدر المحتوم ؟ إن الأمر المحتوم في هذه القصة على ما يظهر هو احتمال حدوث المصاب دائماً ، حتى الحياة لتظهر كفخ نصب لحيوان . ولكن لا يمكن الدلالة على أن مسيو كامو أراد شيئاً غير فكرة الموت المحتوم الذي يجعل الأمور متساوية في الأهمية وعدم الأهمية .

وإذا سألنا ما هو اتجاه البطل في هذا العالم لرأيناه القبول السلبي لظروفه . وفي المأساة التي تحل به كل التأثير الذي نجده في خير القصص الأمريكية ، إلا أن في الفلسفة الساخرة للمؤلف الفرنسي ما لا يوجد عند غيره من الكتاب .

من كتب الشرق والغرب

LE HEROS DANS LA VALLEE HEUREUSE

ETIEMBLE

البطل في الوادى السعيد^(١)

يتكلم الناس اليوم عن الرور بقدر ما تكلموا عنه عام ١٩٤٤ ، ويبدل في إعادة إنشائه من الجهد أكثر مما بذل في تخريبه . ذلك لأن هذا الوادى سيبقى كأحد الأماكن التى يقرر فيها مصير حضارتنا . واد غنى وواد مهول ، واد بائس فى ذلك الوقت الذى كان يدعى — ويا لغرابة ذلك — وقت السلام . وأكثر بؤساً — لو كان هذا ممكناً — فى وقت الحرب المعلقة حين كانت القنابل النهائية بالآلاف الأطنان تحتفر فيه آلاف الهوات المبتغاة . وكان طيارو الحلفاء ، الذين كانت تبحث عنهم فى يقظة القذائف والمدافع الثقيلة والمطارادات المعادية ، يطلقون عليه اسم الوادى السعيد .

كان جول روا Jules Roy ضابطاً ، ثم انضم مبادراً إلى حركة فرنسا المحاربة ، فطار فوق ألمانيا كثيراً ، أكثر من زملائه . وحقا لقد كان

العمل فى القاذفات الليلية رهيباً حتى لقد كان سلاح الطيران الملكى يحل من كل ارتباط حربى أولئك الذين يبقون على قيد الحياة بعد الطيران الثلاثين : إذ ثبت لقيادة القاذفات بعملية حساية بسيطة أن قليلا جدا من الطيارين من يعود بعد طيرانه عشرين مرة ذهاباً وإياباً . ولكن كما يعرف المقامرون ما يدعونه « بالخوارق » ، وهى مجموعة أرقام تقسد عليهم حسابهم ، كذلك كان لمكتب قيادة القاذفات « خوارقه » وهم قواد الطائرات والطيارون الذين يبقون أحياء بعد أن يطيروا عشرين مرة فوق المحور . ولا أتم جول روا مهماته الثلاثين بانتظام ، علم هذا « الخارق » من رؤسائه أن عليه أن يواصل عمله المهلك لنقص فى عدد الرجال . ورغم ذلك فقد رجع من الوادى السعيد ، رجع محطم الأعصاب . ولا عاودته قوته واتزانته

(١) كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

قص علينا حياة الطيارين . فبعد أن كتب « أناشيد وصلوات لبعض قائدى الطائرات » ، ألف كتابه « سماء وأرض » . و « سماء وأرض » هو أيضاً العنوان الذى اتخذته مجموعة الكتب التى يشرف عليها فى طبعة شارلوت Editions Charlot وقد أضاف إليها منذ قليل قصة عن تجربة « الوادى السعيد » . ونال هذا المؤلف جائزة تيوفرست رنودو Théophraste Renaudot الأدبية لعام ١٩٤٦ ، وهكذا أثبت محكمو جائزة رنودو مرة أخرى أنهم أسلم ذوقاً من محكمى جائزة جونكور Goncourt .

وشفريه ، الطيار الأول والشخصية الأساسية فى « الوادى السعيد » ، شبيه كأخ شقيق بشخصية باتريس فى « سماء وأرض » . وباتريس وشفريه ، كلاهما شبيه بجول روا . فهما كما جاء فى رؤية يوحنا : « لم يحبوا الحياة خشية من الموت » . أو كما قال جول روا : « كانت فكرة الموت الوشيك تفسد كل شئ » . ولو كان الطيارون أقل تأثراً ، لسحروا عدداً أقل من النساء ، ولكن فكرة الموت الوشيك تفسد عليهم كل شئ حتى هؤلاء النسوة المتأهبات . أكانت تفسد كل شئ ؟ كلا . فالأخوة فى الشجاعة والرجولة تسيطر على الشاعر جميعاً

وتفقت من ذلك الفساد . وهذا التعاطف القاسى الذى تعبر عنه كلمات عسكرية خشنة ، والذى لا يعرفه إلا أولئك الذين يواجهون الموت معاً ، هذا التعاطف يفيض على هذه الأقاصيص إنسانية ؛ فهو وحده ، بين تلك الآلات الميكانيكية الشنيعة التى تكون الطيران فى أيامنا ، الذى يؤكد للطيارين أنهم ليسوا بالآلات أوتوماتيكية . وفى وقت السلام ، كان يستطيع الطيار فى الطيران التجارى ، أن يحتفظ بذاتيته . « وكان المرء يلقى حتفه لأن إطاراً انفجر ساعة الرحيل أو لأن محركاً احترق أثناء الطيران ، ولكن ذلك هو الذى كان يعطى للحياة قيمتها . » فقائد الطائرة وملاحها الجوى يعرفان أن شجاعتهما ومقدرتهما ، تواجه ضربات القدر وعناصر الطبيعة ، بقوى لا يمكن إهمالها . أما أثناء الحرب الهتلرية ، فلم يكن بين الطيار وبين الموت إلا قانون جاف من قوانين المتوسطات الحسائية ، أى نسبة مئوية معلومة من الخسارة ؛ فقد ولى ذلك الزمن ، زمن المبارزات الجوية بين المطاردات حيث كان يستطيع قائد الطائرة بشئ من المداورة ومن إحكام الهدف ، أن ينتصر ويخرج سليماً . كان الانسان عندئذ سيد مصيره . أما اليوم

فنعلم ساعة الرحيل أن عدداً محدداً من الطيارين ، لا يزيد أو ينقص إلى اثنين أو ثلاثة ، لن يعودوا إلى قاعدتهم .

إذهب إذن وبين للمدنيين حياة الطيارين وظروفهم ! كتبت امرأة غبية إلى مورين ، صديق شفرييه : « أريد أن يكمل المجد هامتك » . فرد عليها مورين « أتتكمين عن المجد ، إنه يعرفنا » . وذات يوم كانت إحدى الفتيات تهمس إلى شفرييه في تبسل وذ هول قائلة : « يا له من مرح ذلك الذى تستشعره وأنت تقذف برلين بالقنابل » . فلم يرد عليها « بل لم يرفع كتفيه » . ذلك لأنه مقتنع بأن أى شخص يستطيع أن يقع دون احتياط في البطولة كما يقع في بالوعة مفتوحة على حافة الافريز . قال لى مالرو **Malraux** ذات يوم أثناء حرب أسبانيا : « لقد رأيت فريقاً من أولئك الذين يدعون أبطالاً ، رأيتهم في الطيران . وهم جميعاً طفليسون أو مصابون بداء الكذب » . أما أمام قيادة القاذفات فلم يكن هناك محل لأن يمثل الطيار دور البطل . في كل صفحة نلقى الخوف « كان يدع ركبتيه ترتجفان . . . كان السهم يحتفر صدره وبطنه . جف عوده من الخوف وهو في طائرته . . . أحس شفرييه فمه يمتلئ مرة أخرى بالمرارة . . .

احتاج صوت المدفعى من الخوف والصراخ . . . كان شفرييه قد انغمركالعبادة في لجة الفزع من التصادم . . . كل مساء يأتى يمزق أحشاءه . . . كنت خائفاً . . . الخ »

الفزع ساعة الرحيل ، الفزع من الطيران جماعات ، والفزع من الليل وكل الأنوار مطفأة والطائرة تحمل ستة أطنان من القنابل قد تنفجر في أية لحظة ، كان شفرييه يلوم نفسه أحياناً على كل تلك المخاوف ، ولكنه في الأغلب كان يتقبلها إذ أنه رغم ذلك لم يكن ليدع مكانه في الطائرة بأى ثمن كن . « ولم يكن يدرى كيف يتخلص منها دون أن يفقد نفسه في الوقت عينه . »

استسلام لا أمل فيه . . . ويحدث في أحيان قليلة قبل الهجوم مباشرة أن يعرف الطيار تلك الهنيهة من السلام العظيم ، سلام يعرفه أولئك الذين يحسون استعدادهم للموت ، وتلك هى البطولة الحقة ، بطولة من لا يحس بطولته بل يتهم نفسه بالضعف . رجال أبطال حقا ، أولئك الذين « كانوا يؤدون مهمتهم دون اندفاع ، ويكادون أن يؤدوها دون إيمان ، ذلك لأن المهمة نفسها قد محت فيهم كل اندفاع وكل إيمان . » رجال يجدر بنا أن نفضلهم ،

لهذا السبب ، على القطيع الانساني .
وذلك الذى يقبل دون بغض ودون
وهم « أن يواجه الموت القاسى ، موت
قاذفات القنابل ، ماذا عليه لو لم يسيطر
على بطنه أو على مثانته : ذلك الرجل
هو البطل » . وتلك حال شفرييه .
لا أثر للاحتقار ولا أثر للكره فى
حنايا نفسه . وإنه ليذكر عدوه القاتل
النازى ، فى أشد ساعات القتال ،
ويذكر قطعة اللحم البشرى وهو يحترق
فى طائرة السرشميت . وهو يرثى له
إذ يفنى فى سبيل قضية غير عادلة ،
ويرثى له إذ لا يتقن مهمته إلا ضد
الانسانية . وأما عن شفرييه فانه
سيموت دون شكوى بشرط أن يصل
«إلى سماء خاصة ، وأن يستنشق هواء
خاصاً ، وأن يذوق خبزاً خاصاً» ، هواء
الحرية وسماؤها وخبزها . وترى شفرييه
الضابط المحترف والذى كان كل شئ
فيه يؤهله لكراهة الألمانى لكونه
ألمانيا ، وللوطنية الضيقة الأفق ، وللخوف
من الشعب ومن الطبقات الدنيا ،
متحدداً مع أعضاء المقاومة السرية ، وتراه
يحس قدرته على محو قرينه التى ولد بها
وعلى اعتبار وطنه مقصوراً على البلاد
التى بقيت حرة . « ففى اليوم الذى
وافق فيه على محاربة فكرة ما ، قد
وسع نطاق فكرته عن الوطن فعبر بها

الحدود وخلصها من كل ما قد يحددها .
وربما كان وطنى الحقيقى هو السماء
لا الأرض ، كما قال لمورين « ، صديقه
الأسوأ منه حظا والذى مات فى إحدى
ساعات الرحيل .
وهكذا نرى مزية هؤلاء الرجال
ومزية هذه القصة . أهى قصة ؟ كلا ،
ليست كذلك لو اعتبرنا « ثيسوس »
لأندريه جيد و«الباب الضيق» قصتين .
ولا هى برواية رغم ما نراه فى بدئها من
حبك روائى وما نلمحه فى ثناياها من
عودة ظهور بعض الشخصيات ، وهى
ليست مجموعة من الأقاويص . ولا قصة
حياة ذاتية (أوتويوجرافى) ، وليست
مقالا ولا مؤلفاً أخلاقيا . ولنقل إنها
كتاب فحسب . وإنى أفضل هذا
الكتاب على كتاب « قواد الطائرات
فى الحرب » الذى كتبه سانت إكسوبرى
قبل موته . فلقد رأينا فى آخر كتاب
سانت إكسوبرى صحائف مدهشة فى
تفسير أساييع الهزيمة فى يونيه . ١٩٤٠
إذ يراها كأنها عقاب سماوى ، فكانت
بهذا تردد روح الهزيمة الفيشية . أما
شفرييه فانه يرفض ذلك الدين الذى
ساد أيام بتان ، ويدوله أن فيه مساساً
بالإله : « فان الله لا يفضل شيئاً على
شئ . . . ولا يعرف حقل الرجل
العادل بمقدار ما فيه من سنابل ،

ولا تروى مياه السماء أرض المؤمنين فحسب « . وإني لأعترف بأنى أحب هذه الصراحة النيرة . فالقيم الأخلاقية لا تختار كأسعار البورصة بقصد المضاربة (وليس من المهم أن تصعد أو تنخفض) .

وربما لم يكن فى «الوادي السعيد» مزايا الأسلوب التى تكثر لدى مؤلف «الطيران ليلا» . فلغة سانت إكسوبرى أكثر طواعية لارادته وأكثر حساسية من لغة جول روا ، وهى لهذا تستولى علينا بطريقة أيسر . ومن ذا الذى ينسى بسمه التجارة فى « خطاب إلى أحد الرهائن » ؟ وإن سانت إكسوبرى لا يبدو غامضاً عندما يؤكد لنا أنه مستعد للقتال عن طيب خاطر « لينقذ

صفة ما فى بسمه البحارة ، صفة فى بسمتك وبسمتى ، وبسمه الخادمة، لينقذ معجزة تلك الشمس التى جاهدت كل ذلك الجهاد منذ ملايين السنين لتنتهى أخيراً بوساطتنا إلى هذه الصفة لبسمه ناجحة » . وإن ترتيب الكلمات هنا ليساعد على إبراز الشاعر . ومن هنا يحى خطر هذه الميزة للاحتفاظ ، إذ أنها تستطيع أن تجعل للأفكار السيئة سلطاناً علينا . ولا شئ من هذا عند جول روا ؛ فلغته ليست عاطفية ، ونادراً ما تكون ضعيفة بعض الضعف (فى ذلك المساء لم يكن جو القداس غير عادى) وهى دائماً مساوية لأولئك الذين تقص حياتهم وموتهم .

إتيامبل

نقلها عن انفرنسية مصطفي كامل فوده

COMMENTAIRES AUTOUR D'UN GRAND LIVRE :
LA PENSÉE EUROPÉENNE AU XVIII^e SIÈCLE
BERNARD GUYON

حول كتاب خطير

الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر (١)

في صباح يوم من أوائل سنة ١٩٤٤ ، وفي باريس ذات الوجه العابس المكتئب ، باريس سنوات الحرب والاحتلال ، عندما أثبت أن بول هازار قد فاجأته النية ، تولاني ذهول واغتمام ، وانتاب قلبي حزن عميق . شعرت أن فرنسا ربما لم تفقد بفقده « رجلا عظيما فذا » ، وعقلية ملهمة وهاجة ، من تلك العقليات التي تقلب أوضاع حياتنا وتحول مناهج تفكيرنا ، تحيط بها هالة من نور العبقرية ؛ ولكنها فقدت رجلا ينذر أمثاله بين الرجال ، جديراً بالاعجاب « شريفاً » بكل ما يتضمن هذا اللفظ الجميل من معان في اللغة الفرنسية : من أمانة هي أقصى ما تكون عليه الأمانة ، إلى تعلق بالحقيقة هو أشد ما يكون عليه التعلق بالحقيقة ، تلك الحقيقة التي في سبيل السعي إليها والبحث عنها أنفق جل حياته . كان يعمل بعزم

وكد لا يعرفان الفتور ، وكان متواضع الخلق ، معتدل الطبع ، بعيداً عن كل عوى حزبي ، صافي الذهن ، نافذ البصيرة ، على ثقافة واسعة كان لا يفتأ يزيدها وينميها . وموجز القول إنه من النفر الذين يرفعون شأن أوطانهم ، أكثر من العباقرة — وأغلب ما يصدر الشر عن العباقرة — ويعلمون قدرها ، وينمون ثروتها لعقلية ، ويهيئون الفرص الجديدة لاستمرار كيائها ، وذلك بآثارهم التي يتكابدون المشاق وينفقون السنين في إعدادها وإنشائها ، لا يسمع لهم صوت ، ولا يعلم أحد عنهم شيئاً .

وكان بول هازار — عندما مسه جناح الموت القاتم — قد بدأ يخرج من هذا الصمت وذلك الخمول ، ويذيع اسمه وينتشر في الأوساط الفرنسية ويتجاوزها إلى بلاد العالم أجمع ، وقد فتحت له الأكاديمية أبوابها ، على

(١) كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصري » .

أثر كتاب أصدره هو غاية في الإبداع عنوانه : « أزمة الضمير الأوربي في القرن الثامن عشر » ، يتضمن آراء من شأنها أن تحدث انقلاباً في بعض الاتجاهات والأهداف التاريخية المتوارثة ؛ ولكنه قبل ذلك بسنوات طوال ، كان قد احتل أرفع مكانة من قلوب الطلاب ، فرنسيين وغرباء ، يقبلون عليه في ازدياد مستمر ، ويستشيرونه ويستمعون إليه كل الاستماع ، يكونون له غاية الحب ، مفتونين بعلمه الذي كان يعرف طريقه إلى القلوب ، مأخوذين بوسع معارفه التي لم تكن يوماً من الأيام سيلاً إلى العدوان ، معجبين بحرصه على أناقة الأسلوب وسحر العبارة ، ذلك الحرص الذي يندر أن يوجد بين كبار أساتذة الجامعة .

كان أستاذاً قديراً ، وهذا أمر جدير بالذكر ؛ لأن القديرين من الأساتذة آخذون في القلة يوماً بعد يوم . لم يكن « بليغاً » في بلاغة كوزان أو حتى في بلاغة بروتير أو جول لميتر ، بل كان يعنى أكثر ما يعنى بتكوين عقليات . كان حازماً جاداً ، يجمع إلى الحزم والجد دعابة القول . لا يشعر سامعه مطلقاً بالسأم والضجر . وكنا نخرج من محاضراته ظافرين بالوفير الجديد من المعلومات ، مفعمين بالغبطة والانشراح . وهو إن تميز بشئ فعلى الأخص بلباقته في الإرشاد والتوجيه ، يسدى الضروري من النصائح . ويحتنب العاثر من الخطوات ، ويتحاشى كل مسعى غير مجد ، وذلك في رقة لفظ وعذوبة منطق ، من غير ما تهاون أو تسامح مرذول . يشهد العزائم الواهنة ، ويحد من زهو المغرورين ، ويبعث الثقة في قلوب الوجلين المترددين ، وكان

كنت واحداً من السعداء الذين كانوا يتزاحمون ساعين إلى محاضراته في السربون حوالى ١٩٢٢ ، والذين كانوا فيما بعد يحدقون به داخل قاعات الكوليج دى فرانس ، حيث كان يخلو إلى نفسه ، طارحاً عن ذهنه كل تفكير في الامتحانات والتحضير لها ، ويواصل بحوثه العلمية في ذلك الطريق الجديد الذى اشتقه وفرنان بلانسيرجيه حديثاً ، أعنى طريق الأدب المقارن .

يعرف أيضاً كيف يقضى حاجة من هو في حاجة إلى المادة في تكتم وحذر . إن بول هازار لم يكن عقلاً كبيراً فحسب ، بل كان أيضاً ذا قلب ذكى عظيم .

زرتة قبل أن توافيه منيته ببضعة أيام ، ولم يكن هناك ما يندرج بالفاجعة الوشيكة . لا شك أنه مثل غيره من رجال الفكر الفرنسيين قد أثرت في أعماق نفسه مصائب قومه ، غير أنه كان يعلم أن لتلك المصائب نهاية قريبة . وكان صدره يحيش بالأمل ، شأنه في ذلك شأن كل ذوى البصيرة من أبناء الوطن . وقد انتهز فرصة هذه السنوات التي اضطر فيها إلى السكون ، ليقبل على العمل بنشاط وحرارة كان لا يعهد لها في نفسه من قبل . وكان يتحدث إلى بحاسة الشباب عن مكتشفاته الحديثة في تلك الميادين المظلمة من ميادين الفكر الصوفي في القرن الثامن عشر ، التي شرع الآن يجول فيها . وقد أبدى لي على الأخص اغتباطه بانتهاء الجزء الثاني من تلك اللوحة الفنية الضخمة التي بدأ العمل فيها منذ عشر سنوات خلت ، والتي سيكون عنوانها : « حركة الفكر الأوربي في القرن الثامن عشر » .

وها هو ذا الكتاب يظهر اليوم ، وقد وصل إلينا من فرنسا يثير فينا شعور الأسى والاعجاب معاً . وأريد

الآن أن أقدمه في كلمة وجيزة ، وأن أجلو المسائل العقلية الجليلة الخطيرة التي يريدنا أن نتأمل فيها .

قصد بول هازار في هذه المجلدات الثلاثة (ومنها واحد للشروح ، والحواشي ، والأخيران للنصوص) . إلى دراسة تطور الحركة الفكرية في أوروبا ، مبتدئاً من حيث انتهى في مؤلفه السابق ، أي من ١٧١٥ — تلك السنة التي انفجرت فيها « الأزمة » بعد أن ظلت طويلاً مكبوتة كامنة — إلى الساعة التي أشرف فيها جيل جديد على الظهور ، ليتجه ، عشية الثورة الفرنسية ، بالمسائل القائمة اتجاهات غير اتجاهها ، ويحطم أصناماً غير التي حطمت ويعرض حقائق غير التي عرضت . فالمادة للمؤلف غزيرة مترامية الأطراف ، ومع ذلك فمؤرخنا يمتلك ناصيتها ، ويحيط بأشتاتها بسهولة تامة . وهو يظهر لنا بوضوح تاريخ الفكر في هذه السنوات الستين ، عبارة عن قصة مجهود فخم انتهى في آخر أمره إلى إخفاق ذريع .

مجهود ضخم هو في الوقت نفسه هدمي وبنائي . وعملية الهدم فيه منصبية على الدين المسيحي ، وكانت صحيحة الهادمين : « لنسحق الرجس » . كلنا يعرف ذلك ، وتلك الظاهرة من تاريخ

هذا العصر ، معلومة لدينا أكثر من غيرها . ومزية بول هازار في هذا الجزء من كتابه ، أنه يجعلنا نحس ، بالناحية الفاجعة الحادة ، لهذا النزاع الفكرى البعيد المدى ، الذى لم يكن ، على حد تعبير الكاتب ، سوى « قضية الله » . ونجد ناحية طريفة أخرى في كتابه ، هى أنه أخرج من الظلمة وخمول الذكر أولئك الذين طمسهم ظلم وجوراً عبقرية فولتير وديدرو وأمثالها ؛ لأنهم تولوا في هذه القضية مهمة الدفاع ، نذكر منهم فريرون ، وباليسو ومن نهجوا نهجهما ؛ فقد بذلوا هم أيضاً جهداً مجوداً ، لا ينقصهم الذكاء ولا تعوزهم الشجاعة ولا تخنلهم حدة الذهن وسرعة الخاطر .

وعلى أية حال ، لا يكتفى أن تفصل الثوب وتقطع أجزائه ، بل يجب أن تتم خياطته ؛ فإذا استبدل بالمثل الأعلى المسيحى الذى رفض رفضاً نهائياً ؟ شرع الفلاسفة يبحثون عن مذهب إنسانى جديد ، مذهب إنسانى يكون الانسان فيه مركز هذا العالم ، ويقصى الله عنه إقصاء فعلياً . لاشك أنه توجد أشكال متباينة للنظرية الإلهية ، غير أن هذه الأشكال كلها لا تجعل من الله إلا ذلك الكائن الأعلى القصى الذى لا يهتم أدنى اهتمام بالأحداث الحائرة التى تمر

بهذا العالم الأرضى وهو ما يتخذه الدين الطبيعى إلهاً له . إن هذا المذهب الانسانى الجديد يحصر جهوده ويوجهها نحو بناء مدينة للبشر ، وهو يستعين بالعلم لنشر السعادة فيها . فالعلم يفتح أمام الانسان آفاقاً لا حد لها من الاحتمالات ، فنرى بوفون يضع الانسان في موضع المركز من عالم يكون هو ملكاً عليه ، هذا في حين يحاول مفكرون آخرون أن يبنوا الحق على أساس الطبيعة . ومؤلف « روح القوانين » الشهير له في هذه المحاولة شأن عظيم . ويفكر غير هؤلاء في مسائل الأخلاق ويخرجون من تفكيرهم بأن الأخلاق لا بد أن تهدف كلها منذ اليوم إلى تحقيق السعادة ، وهم يردون إلى اللذة والشهوة اعتبارهما بعد أن أفهمتنا التعاليم المسيحية أن نحذرهما وأن نترفع عنهما . غير أن هؤلاء المفكرين يشيدون في الوقت نفسه بالفضائل الجديدة من تسامح ومحبة للبشر ، ويجهدون أنفسهم في سبيل تطبيق نظرية الأخلاق الطبيعية في العلاقات بين سكان المدينة نفسها ، ويحلمون بالعقود الاجتماعية ، في الوقت الذى يمجدون فيه مبادئ الحرية والمساواة ، ويحيطون مبدأ الملكية بنوع من الاحترام هو أقرب ما يكون إلى التقديس . والأمر الأخير

الذى لا يقل تأثرنا به عن تأثرنا بغيره من هذه المشروعات الطموح الواسعة .
 أننا بينما نرى الملوك لا يفتأون يشتبكون في حروب تافهة دامية ، نجد رجال الفكر يرسمون الخطط لتشييد سلم دولي ، ويضع الأب دى سان بيير أسس أول عصبة للأمم .
 يحشد بول هازار كل هذه الوقائع في عدد من الفصول تمتاز بوضوحها وتركيزها ، وتبدو فيها فكرة البناء في مجموعها عند هؤلاء المفكرين من رجال القرن الثامن عشر ، كوحدة متماسكة متناسقة ، من غير أن يتخذ الكتاب لعرض ذلك صبغة الرسالة العلمية الجافة . ثم يدرس المؤلف في سلسلة من الفصول التكميلية ، ذيوع هذه الفكرة بفضل وسائل التعميم والنشر ، فينسب بطبيعة الحال شأنًا عظيمًا لموسوعة ديدرو ودالمبير الشهيرة التي دارت حولها معارك حامية الوطيس .
 وفي المجلد الثاني الذى يحتوى وحده على الجزء الثالث كله تحت عنوان « الانحلال » ، يتناول بول هازار مسألة الإخفاق الذى انتهى إليه هذا المجهود الضخم . ويبدو لي هذا الجزء أكثر طرافة وأمتن من أى جزء آخر ، كما يبدو لي أن الكاتب شاء أن يضمه آراءه الخاصة تحت ستار الجمود الواجب

على المؤرخ الذى يريد أن يقف بل هو واقف فعلا موقف الموضوعية من كتابه . وإن القارىء يشعر من خلال بعض الصفحات اضطراب نفس قلقة تبحث عن الحقيقة . ويطلعنا المؤرخ ، من غير أن يحرف في النصوص أو أن يحملها أكثر مما تحمل ، ومن غير أى هوى وأى تعسف ، يطلعنا أو بالأحرى يبرهن لنا — وقد استحال في نفس الوقت فيلسوفًا — على الصعوبات ، المعقدة التى كان يصطدم بها حلم الفلاسفة . وهو يرجع كل هذه الصعوبات إلى خطأ في أساس فهم معنى كلمة « الطبيعة » . فهناك تعارض بين الطبيعة والعقل نشأ عنه النزاع الهائل بين أصحاب المذهب التجريبي وأصحاب المذهب العقلي . وهناك تعارض بين الطبيعة والطبية شجر عنه الخلاف حول طبية الرجل الهمجي ومنافع أو مساوىء الحضارة . ونحن مدينون بقصة « كانديد » ، آية هذا العصر ، للعراك الذى احتدم بين أهل التفاؤل وأهل التشاؤم ، وهو واحد من أوجه النزاع الكبير بين فولتير وروسو . وهناك تعارض بين الطبيعة والحكومة الصالحة ، أدى إلى البدعة القائلة بالاستبداد المستنير . وهناك تعارض بين

الطبيعة والحرية . ونجد مونتسكيو ، وقد بدأ على أساس تعريف للقانون يقوم على الجبرية ، يسائل : كيف يصل إلى نظام تسوده الحرية .

ثم يتابع بول هازار تحليله ويصور لنا مطالب رجل العاطفة وموقفه إزاء هذا الجفاف البادى فى مثل أعلى فوق عقلى . ويتناول فى الفصول الثلاثة الأخيرة من مؤلفه الرائع المسألة الميتافيزيقية الأساسية ، فيظهر لنا ما كان من أمر ثلاثة من كبار الفلاسفة الإلهيين فى ذلك العصر : وهم : بوب ولسنج وفولتير ، وقد عجزوا عن أن يستبدلوا بالدين الذى يجدون فى هدمه ، ديناً آخر ، هو القدريّة التى تدفعهم إلى مناهضة رجال الأكليروس مناهضة بلغت أقصى حدود السفالة ، وتذهب بهم إلى الإلحاد الصريح .

ونحن نرى من هذه النظرة التحليلية السريعة غزارة المادة فى هذا الكتاب . وأرجو أن أكون قد جعلت القارىء يلمس قوة التركيز والتأليف عند صاحبه ، والطريقة البارة التى يمتلك بها ناصية مادته . أما الذى أرانى عاجزاً عن بيانه — مالم أستشهد بصفحات كاملة — فهى اللذة فى مطالعة الكتاب . وقد يبدو أحياناً أن هذه

الصفحة أو تلك كلفت صاحبها عناء أكثر مما يجب فجاءت مهذبة فوق مايلزم . فالعيب الذى كان يخشى أن ينزلق إليه بول هازار هو المغالاة فى التأنق ، نتيجة الاهتمام المفرط برشاقة العبارة ، وقد وقع فى التجربة فكان يستجيب فى مؤلفه إلى هذا الإغراء . وكنا نود لو أنه أقلع قليلاً عن أسلوب التكلف وأخذ أكثر بالأسلوب الطبيعى . غير أن من حقه علينا أن نبادر فنقول إن هذا العيب ليس فى الواقع إلا وجهاً واحداً لصفة نادرة تميز بها بول هازار ؛ فالعناية بهذيب العبارة أصبحت من الندرة فى عصرنا إلى درجة أننا لا نستطيع أن نمر بدون حكم على هذه المأخذ الطفيفة .

والذى يجب أن نذكره قبل أن ننتهى من مديحنا هو ما امتاز به بول هازار من أمانة تامة فى الاستقصاء العلمى . وأخشى أن تفوت ملاحظة ذلك العدد الكبير من القراء الذين سيطالعون هذا الكتاب من غير أن يرجعوا إلى المجلد الثالث الخاص بالشروح والمراجع ، ويعتبر تكملة لا غنى عنها . ولا يسعنى إلا أن أُلج فى توصية من سيثير فيهم مقالى رغبة الاطلاع على هذا الأثر ، أن يقتنوا كذلك المجلد الثالث . فهم لن يقتبسوا

منه درساً رائعاً في منهاج النقد فحسب، بل سوف يقعون فيه على ذخيرة لاتقنى من الإرشادات النفيسة المتممة للبحث، كما سيجدون نقطة ابتداء تمهد لهم سبيل التعمق في دراسة بعض المسائل التي عرض لها بول هازار، عليهم يوفقون لحل جديد لها. وبمثل هذه البحوث المتصلة يتكوّن العلم، فالعلم ليس بالأمر الجامد المستقر. إن العلم يصنع صنعاً.

ويبدو لي أن لكتاب بول هازار، على ما أحيط به من مظاهر الوقار والجد اللازمة لكل مؤلف تاريخي، أقول يبدو لي أن لهذا الكتاب الذي يؤرخ لحركة الفكر الأوربي في القرن الثامن عشر، قيمة عصرية حقة. ولهذا السبب فاني لا أعتبره أهم أثر أنتجه الأدب الفرنسي في تلك الأشهر الأخيرة فحسب، بل أقوى الآثار تنبهاً للفكر وتحريكاً للعاطفة.

ومن واجبتنا ألا ننكر على أنفسنا أننا لم نكد نتقدم البتة منذ مائة وخمسين عاماً وهذا الفكر الأوربي مافتى يواجه العضلة نفسها: هل نستبدل بالمسيحية ديناً جديداً؟ أم نبعث فيها حياة أخرى؟ وإن عملنا على إزالتها فماذا نعوضها؟ وإذا كانت الخطوب المروعة التي أوشكت أن تهدم

روح الحضارة الغربية إلى الأبد قد انتهت، فإن المشكلة لا تزال قائمة كما هي، وعلينا نحن رجال اليوم تقع تبعة حلها على ضوء تجارب الماضي.

والكتاب يركز انتباهنا كله في هذه المسألة الأساسية، غير أنه يثير أيضاً من المسائل الأخرى ما لا نستطيع أن نقف إزاءه جامدين، فهو يقرب إلى أذهاننا ومشاعرنا تلك الحقيقة التي تدعى «أوربا». وليس الفكر الفرنسي هو موضوع الدراسة بل الفكر الأوربي. ولا بد أن يشعر الشاب الفرنسي عند قراءة هذا الكتاب بلذة هي لذة من يكتشف اكتشافاً حقاً، وذلك يرجع إلى ما في هذا الأثر من تغير في وجهة التاريخ. وسوف يكون هذا الشاب لنفسه عن تاريخ بلده الفكري آراء جديدة، لأنه سيجد هذا التاريخ ممزوجاً بتاريخ البلاد المجاورة يلقيه ويأخذ عنه في الوقت نفسه، عن طريق محسوس أو غير محسوس، ولكنهما يكونان جزءاً من حقيقة واحدة.

وسوف يشعر هذا الشاب بالغبطة ويملؤه الزهو عندما يدرك أن فرنسا وأوربا كانتا في ذلك العصر تمتزجان في ميدان الفكر امتزاجاً كلياً؛ وللمرة الثانية من تاريخ الحضارة الأوروبية،

تشرف فرنسا على القارة كلها ، أما المرة الأولى فكانت في تلك الفترة الباهرة التي تقع بين نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر ، والتي تعتبر بحق فترة إحياء ونهوض . ومما يثير فينا الإعجاب ، ويجب هذه السيادة إلى قلوبنا على الأخص ، ويدعونا إلى الفخر بها جهرا ، أنها لم تشبها سيادة مادية ؛ فلا جيوشنا أغارت على أوروبا ولا تجارنا غزوها ، بل رجال الفكر منا ورجال التريفة ومتعهدو البساتين والطباخون فقط . وفي الوقت الذي كانت الهزائم المروعة تتلاحق على فرنسا ، الدولة الحربية البحرية المستعمرة ، وفي الوقت الذي كان فردريك الثاني ملك بروسيا ينكل بجيوشها في روسباخ ، من الجميل حقا أن نرى أنوار المعرفة تنبعث منها كأسطع ماتكون ، وأن نرى فريدريك نفسه يجد غير لائق به أن ينظم شعراً لا يكرن فرنسا ، وأن نرى الأكاديمية التي أنشأها في عاصمة ملكه قد اختارت لمباراة أدبية أقامتها موضوعاً عنوانه : « الأسباب التي تجعل من اللغة الفرنسية لغة جامعة عامة » .

ربما كنت قد أسهبت في موضوع لا يثير إلا اهتمام الفرنسيين ، فليغفر لي قارئ ذلك الإسهاب . أما بعد فليس موضوع مقالى إلا واحداً من موضوعات كثيرة يعرضها لنا هذا السفر النفيس مادة للتأمل . وإن هناك لموضوعات أخرى ليس إلى حصرها من سبيل ، ولكنى أرجو أن يكون ما ذكرت كافياً ليحفز القراء على مطالعته ، وهذا ما قصدت إليه من مقالى .

برنارد هيربره

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكيم

ظـهـر حـدـيـثـا

على باب زويرة قصة تاريخية للأستاذ محمد سعيد العريان (دار الكاتب المصري)

كتاب رائع بأدق معاني هذه الكلمة وأوسعها وأصدقها في وقت واحد، كتاب من هذه الكتب النادرة التي تظهر بين حين وحين ، فتحيي في النفوس أملاً ، وترد إلى القلوب ثقة واطمئناناً ؛ لأننا نشعر حين نقرأه بأن الحياة الأدبية في مصر ما زالت خصبة قوية قادرة على الانتاج ، وعلى الانتاج القيم الممتع الذي لا تتردد مصر في أن تفاخر به وفي أن تعرضه إذا عرضت لأهم الحية كتبها الممتعة وأدبها الرفيع .

كتاب لم يخرج صاحبه إلا بعد جهد أي جهد ، واستقصاء أي استقصاء ، وعناء عنيف لا يجب أن يحتل بعضه كثير من كتابنا الذين يحبون الطرق المطروقة والسبل المألوفة ، ويكرهون أن يشقوا على أنفسهم بالقراءة المضنية والبحث المتصل ، ثم بالتفكير فيما قرءوا والاستنباط مما بحثوا عنه ، ثم بالعرض المتقن لما استنبطوا وبالإبانة الرائعة عما أرادوا أن يقولوا لقرائهم . وكل هذا قد فعله الأستاذ محمد سعيد العريان دون أن يظهر أحد على ما كلف

نفسه من مشقة ، وما حل عليها من جهد ، وما أخذها به من شدة في القراءة والبحث والاستقصاء ، ثم بالفقه الجاد الحازم الذي لا يعرف ضعفاً ولا تخاذلاً ولا إثارةً للعافية ولا كلفاً بالنجح اليسير .

وقد أراد الأستاذ العريان أن يعرض طرفاً من تاريخ مصر ، من تاريخها العسير المؤلم الذي تكثر فيه الحوادث وتلتوى بالمؤرخين وبقراء التاريخ جميعاً . وهذا الطرف الذي يمثل انقضاء سلطان المالك في مصر ، وزوال الاستقلال المصري بأيدي الفاتحين من الترك العثمانيين . ويكفي أن أذكر هذا الموضوع ليشعر القارئ بعسره ومشقته ، وما يفرض على من يريد تحصيله وتمثله من جهد وعناء . ثم لم يرد الأستاذ العريان أن يضع كتاباً في تاريخ هذا العصر من عصور مصر يعرض فيه الحوادث عرضاً دقيقاً مستوفياً للشروط التي يحرص المؤرخون على استيفائها ، ولم يرد أن يتحدث إلى المؤرخين وحدهم ؛ وإنما أراد أن

يتحدث إلى المثقفين جميعاً ، فأثر مذهب القاص على مذهب المؤرخ ، وأعمل خياله في الوقت الذي أعمل فيه عقله ، فأضاف بذلك جهداً إلى جهد وعناء إلى عناء ، ووفق في الأمرين جميعاً توفيقاً أعترف بأنى لم أشهد مثله في الأعوام الأخيرة التي خيل إلينا فيها أن الإنتاج الأدبي في مصر قد أفسده حب السهولة ، وكاد يرده إلى العقم وكسل الكتاب والقراء جميعاً .

أما من الناحية التاريخية فقد بدأ المؤلف حديثه بتلك السنين المضطربة التي انتهى فيها ملك السلطان قايتباي بين طمع الطامعين من الأمراء والولاة ورؤساء الجند من المالك، ومضى في طريقه حتى صور أبرع تصوير وأقواء ما كان من اختصاص هؤلاء الأمراء والولاة والرؤساء حول العرش أولاً ، وحول المنافع القريبة والبعيدة بعد ذلك ، وما كان من تولية وعزل ، ومن تتويج وخلع ، ومن أسر وقتل ، وما كان من كيد في القصر وخارج القصر ، وما كان يجري على ألسنة الشعب من حديث ، وما كان يضطرب في قلوبه من أمل ، وما كان يخامر نفوسه من يأس ، حتى ارتقى السلطان الغوري إلى عرش مصر ، فرد إلى الملك أمنه وإلى السلطان استقراره ، ولكنه روع النفوس وملاّ القلوب هلعاً وفزعاً ولوعة وحسرة ، لإسرافه على الناس في الظلم وإسرافه على نفسه في البخل ، وتهالكه على جمع المال ، يأخذه بحقه ويأخذه بغير حقه ، ويطلق أيدي أعوانه في أموال الرعية حتى يعم الفساد وينتشر الخوف ، وتظلم الحياة . ثم يستأنف الكيد حول هذا السلطان الشيخ في القصر وخارج القصر ، وفي مصر وخارج مصر ، ثم ينتهي الأمر إلى الكارثة حين تشب الحرب بينه وبين العثمانيين ، وحين تنهزم الجيوش المصرية ، لاعتن ضعف ولا عن جهل ، ولكن عن خيانة السادة والقادة والرؤساء . ثم تكون المقاومة الأخيرة الرائعة التي يبذلها شعب قد لقي من ظلم المالك شراً عظيماً ، ولكنه على ذلك مؤثر لاستقلاله حريص عليه ، يفضل أن يظلمه ملوكه وسلاطينه على أن يتحكم فيه الأجنبي ، ولا تطيب نفسه عن هذه الإمبراطورية العظيمة ذات الأطراف المترامية في الشمال والجنوب وفي الشرق والغرب ، وذات الألوية المنتشرة على البحرين جميعاً . ولكن المقاومة لا تجدى على هذا الشعب البائس شيئاً ، لأن المالك قد نحّوه عن الأمر ، فلم يعتمدوا عليه في تدبير الملك ، ولم يقيموا سلطانهم على

إرادته ورضاه ، ولم يلتمسوا عنده الجنود المدرين ، وإنما استغله استغلالاً ، ولم يحكموه لمصلحته هو ، وإنما حكموه لمصلحتهم .

هذا كله يصوره المؤلف تصويراً رائعاً، يروع البصقه وقوته ودقته وقرب مأخذه وبعده عن العسر والالتواء . وأما الناحية الخيالية ، فليست أقل من هذه الناحية التاريخية روعة وجالا ، ولعلها أن تكون أسحر منها للقلوب وأخلب منها للعقول . وأى غرابة فى ذلك وطبيعة الخيال البعيد القوى أن يسحر القلوب ويخلب العقول ويشغل القارئ عن نفسه أثناء القراءة وبعد انتهاء القراءة .

والكاتب يبدأ قصته فى ذلك الغور الذى كان مستودعاً يجد فيه المالك مادتهم من الرقيق الذين يختطفون أو يختلسون أو يؤخذون عنوة ثم يجلبون إلى القاهرة ليتعلموا فيها فنون الحرب والحكم ، ثم ليصبحوا جنداً وقادة وأمراء وملوكاً وسلاطين ، وليدبروا أمر هذه الإمبراطورية الواسعة البعيدة الأرجاء .

نحن إذن فى هذا الغور نشهد أبعث تعطف على ابنها الصبي بقلب يملؤه ، الحنان والحسرة . فهذا الصبي وحيداً وهو عزائها عن أبيه الذى ذهب

يطلب ثأر والده ، فلم يعد إلى إمرأته منذ عشر سنين ، حتى يئست من عودته ، ووقفت حبها وأملها على هذا الصبي . فهى ترعاه يقظان ، وتحرسه نائماً ، وهى كذلك ذات ليلة إذ تحس نبأه ، فتخرج من خيمتها مستقصية ثم تعود فلا تجد ابنها ، لأنه قد خطف كما يخطف غيره من أبناء الغور . وقد أقسمت أمه لتسعين فى طلبه حتى تدركه أو يدركها الموت .

من هنا تبدأ القصة ، ومن هنا يسلك بنا الكاتب طريقين متوازيين : إحداهما طريق الصبي طومان الذى يذهب به خاطفه إلى بلاد الروم ثم إلى الإمبراطورية المصرية حيث يباع لأمير القلعة فى حلب ، ثم يمضى مع سيده الذى يصبح عمه ذات يوم . وما أحب أن أفصل ذلك للقراء ؛ فقد ينبغى أن يلتمسوا تفصيله فى الكتاب . وما يزال الصبي طومان يمضى فى طريقه إلى المجد ، محتملاً للخطوب ، مصابراً للأحداث ، مذلاً للعقاب ، حتى يرقى عمه عرش مصر ، وحتى يصبح هو مستشاره وذراعه اليمنى فى تدبير الملك ، ثم خليفته على مصر حين يذهب للقاء العثمانيين ، ثم خليفته على العرش بعد أن يقتل فى الموقعة ، ثم زعيم المقاومة المصرية حتى يتفرق عنه الجند

منهزمين ، ثم طريداً يغدره أعرابى فيسلمه إلى سلطان العثمانيين ، ثم أسيراً يطاف به في القاهرة ، ثم قتيلاً قد علقت جثته على باب زويلة .

أما الطريق الثانية فهي طريق الأم التى خرجت من الغور تطلب ابنها ، فهي تمر ببلاد الروم ، ثم بالإمبراطورية المصرية ، وهي تلقى في هذه الطريق أهوالاً وأهوالاً ، وهي لا تعرف مكان ابنها إلا بعد أن يقتل الغورى ويصبح ابنها سلطاناً . وهي تسعى لتلقاه ، وتبلغ مصر مع المنهزمين ، ولا تتيح لها الحرب لقاء ابنها على كثرة ما تحاول من ذلك ، ولكنها تراه ذات يوم وفي آخر طريقها وفي آخر طريقه جثة معلقة على باب زويلة .

وهاتان الطريقان لا تخلصان لطومان وحده ولا لأمه وحدها ، وإنما هما ممتلئتان بضروب مختلفة من الناس ، وبألوان متباينة من الأحداث والخطوب ، ويفنون تمايزة من الشخصيات : شخصيات الرجال الطامعين الطامعين ، والضعفاء الأذلاء ، والذين يترددون بين العزة والذلة ، والذين يكيدون في سبيل المال ، والذين يكيدون في سبيل الحب ، والذين يكيدون في سبيل السلطان ، والذين يعيشون لذاتهم ،

والذين يعيشون لعبادة الله والتخلص من أوزار الحياة الدنيا . وشخصيات النساء اللاتي يكدن ليدخلن القصر ، ثم يكدن ليبلغن العرش ، ثم تخرجهن الثورات من القصر ، فيكدن للعودة إليه ، وتنزلهن الفتن عن العرش فيمكن ليرقن إليه مرة أخرى . كل هؤلاء وغير هؤلاء تكتظ بهم الطريقان . والأشخاص في هذه القصة كثيرون ، قد تفرقت بهم الطرق والتوت بهم المذاهب ، واختلفت بهم وعليهم الأهواء ، وهم مع ذلك لا يصرفون القارئ عن قراءته ولا يردونه عن غايته ، وإنما يدفعونه إلى هذه الغاية دفعاً ، ليس منهم إلا من يثير في القارئ عاطفة حب أو بغض ، أو رغبة في الاستطلاع ، أو تذكراً لشخصيات أخرى من شخصيات التاريخ ، أو تفكيراً في بعض الأحداث ، والخطوب التي يشهدها هنا وهناك في حياة العصر الحديث .

قلت لك إنه كتاب رائع بأدق معاني الكلمة وأوسعها وأصدقها في وقت واحد .

وإذا كان الناقد مستشاراً للقراء ، وإذا كان المستشار مؤتمناً كما يقال ، فاني أشير على القراء أن يقرءوا هذا الكتاب ، فسيجدون فيه أدباً رفيعاً

وتاريخاً صحيحاً وتحليلاً دقيقاً وأسلوباً لا في هذا الكتاب وحده ، بل
رصيناً ، لولا هذه الإينات التي يسرف في كل مايكتب ، وأكاد أُملى في
بها الكاتب على نفسه وعلى الناس ، كل مايقول .

طه حسين

كيريليانا دراسات مختلفة بمناسبة مرور ألف وخمسمائة سنة على وفاة القديس
كيرلس الاسكندري ، ٤٤٤ — ١٩٤٤ ، في ٦٠٠ ص ، ١٩٥٥ X ٢٥٥٥ سم ،
(دار الكاتب للمصرى ١٩٤٧)

KYRILLIANA, *Spicilegia edita Sancti Cyrilli Alexandrini XV recurrente saeculo* — Etudes variées à l'occasion du XVe centenaire de Saint Cyrille d'Alexandrie (444-1944).

إن للمواظبة والأناة وطول البال
جزاء في هذه الدنيا سيما إذا تسلطت
على موضوع علمي وتضافرت على
تحقيق أمنية سامية انطوت في سريرة
القلب . لقد ظهرت في خلال هذا
الشهر « كيريليانا » وهو كتاب يجمع
بين دفتيه عدة دراسات علمية من
تاريخية ولاهوتية وفنية وأثرية لعدة
علماء أجلاء قاطنين في الشرق الأوسط
بمناسبة مرور ألف وخمسمائة سنة على
وفاة القديس كيرلس الإسكندري
(المتوفى سنة ٤٤٤) . فقد حالت
ظروف الحرب دون إصدار هذه المجموعة
سنة ١٩٤٤ ، ولكن لم تقل العراقيل
عزم الأستاذ الأب ساني باستي مدرس
اللاهوت في الكيريكية الفرنسييسكانية
الشرقية في الجزيرة ، بل زادته تمسكا
بمشروعه الجليل . ولا غرو أن وجد

لدى إدارة دار الكاتب المصري خير
معوان لتحقيق أمنيته ؛ إذ قامت هذه
الدار بطبع الكتاب طبعا أنيقا يعد
فتحاً جديداً في باب النشر في مصر .
فلم يوجد حتى الآن في مصر إلا مطبعة
المعهد الفرنسي للآثار الشرقية لطبع
الكتب العلمية التي تحوى ، زيادة
عن اللغات الغربية الحديثة واللغة
العربية ، اليونانية والقبطية والمصرية
القديمة . أما الآن فقد برهنت دار
الكاتب المصري أنها جديرة بأن تقوم،
مع المعهد الفرنسي ، بمهمة طبع بعض
الكتب العلمية التي تستوجب دقة
فنية خاصة وتقديمها في ثوب قشيب
خلاب يتجلى فيه الذوق الفني مع الدقة
العلمية . وهذا مما يفرح له كل من
يريد الخير لبلادنا ويرجو لها التقدم
المواصل في نشر الثقافة العالية .

هذا من جهة الشكل . أما من جهة الموضوع فأننا نغبط كل الاغبط لادبراز سفر مثل « كيريليانا » إلى حيز الوجود . وهذا لأن القديس كيرلس الإسكندري مصرى ولد ونضج وعمل في القطر المصرى طيلة حياته . وكل ما يمت إلى تراثنا الثقافى والروحى بصلة لا يسعنا إلا أن نقبله بترحاب وأن نشيد به . فقد حان لنا أن ننكب على تاريخنا فى مختلف عصوره ، وأن نستشف من وراء ثناياه عظات عبراً تريدنا ثقة بأنفسنا وتشارك فى تكوين شخصيتنا القومية العصرية . زد على ذلك أن الأبحاث التى وردت فى هذا الكتاب قد ديجتها أقلام شخصيات ممتازة فى ميدان العلم ، أخذ كل منها يحمل ناحية من نواحي شخصية القديس كيرلس أو يصف بعض مظاهر البيئة التى عاش فيها . ولئن أردنا أن نحلل كل هذه المقالات تحليلاً مسهباً لضاق بنا انقار . فالكتاب أعظم من أن يوفى حقه فى أسطر . فهو يستحق أن يكون فى مكتبة كل من يهتم بتاريخ مصر الدينى وتراثها الثقافى . غير أننا استصوبنا أن نشير ، ولو بطريقة عابرة ، إلى أهم مقالات هذا السفر الغزير المادة لعلنا نلفت نظر قراء مجلة «الكاتب المصرى» الغراء إلى بعض

مواضيع من شأنها أن تثير اهتمامهم . أما المقالات فهى مكتوبة بلغات ثلاث منها العربية ومنها الفرنسية ومنها الإيطالية مع بعض نصوص يونانية وقبطية . افتتح الكتاب سيادة القاصد الرسولى بكلمة غزيرة المعنى على إيجازها ، بهذا الأسلوب الأخاذ الذى هو سر طريقة المنسنيور أرثر هيوز وقد نوه فيها بضرورة اتحاد الكنائس ، عملاً بكلمة السيد المسيح : « ليكونوا واحداً » . ثم أدرجت فى الكتاب براءة البابا ييوس الثانى عشر — بالعربية والفرنسية — الخاصة بالقديس كيرلس فخر الكنيسة الشرقية ، التى ظهرت سنة ١٩٤٤ . ثم أخذ الأستاذ الأب امبروجيو ريدولفى يوضح (بالإيطالية) صورة القديس كيرلس الروحية على ضوء هذه البراءة وما سبقها من نصوص رسمية أخرى صدرت من السلطات الدينية الرومانية . أما موقف القديس كيرلس من المجمع الأفسسى فقد كان موضع اهتمام الأب نيرون اليسوعى ، أستاذ تاريخ الكنيسة فى جامعة بيروت . وقد حاول فى هذا البحث أن يدافع عن بعض مواقف غامضة للقديس كيرلس كانت قد أثارت شيئاً من الريبة لدى نفر من المؤرخين (مقالة بالفرنسية) . ويلي هذه الأبحاث مقال طويل

غاية في الدقة (بالحرية والفرنسية) لأبوين من رهبان حريصا في لبنان ، عنوانه « القديس كيرلس ومعضلة اتحاد الكنائس » . وهو بحث تاريخي مستفيض آلى المؤلفان على نفسيهما ألا يخوضاه إلا بروح خاصة دعواها « الروح الاتحادية » بخطتها التاريخية المحضة . وقد وصلا إلى هذه النتيجة : « إن حياة الكنيسة مدة القرون العشرة التي ظل فيها الشرق والغرب متحدين لا بد أن تقدم لنا أساساً راهناً ، متفقاً عليه ، نسند إليه جدالاً جدياً وفعّالاً حول المعضلات الاعتقادية واللاهوتية التي تفصل بين الكاثوليك والأرثوذكس » . وقد أشارا إلى أن الفريقين يوجدان ، في مسألة الاتحاد ، تجاه حكيمين لا مناص منهما : مسألة خلاص النفس ، ومسألة إرادة الضمير يجب أن يتلاشى أمامهما جميع الاعتبارات العالمية . حبذا لو كانت تتحقق أمنية هذين الكاتبين التزيين وأن يكون نداؤهما للوحدة مسموعاً لدى الجميع . . . وقد ألحق بالمقال مجموعة وافرة من المصادر التاريخية . ويلها بحث بالايطالية لاهوتي للأب باستي في آراء القديس كيرلس الخاصة بالمسيح . والمرحوم الأستاذ هنري مونييه **Henri Munier** ،

سكرتير الجمعية الجغرافية سابقاً ، بحث بالفرنسية غير تام في مسقط رأس القديس كيرلس (وهو على ما يلوح المحلة الكبرى) . وقد كرس الأب أييل الدومينيكي ، الأستاذ في المدرسة الكتابية بالقدس **Ecole Biblique de Jérusalem** مقالا مهماً بالفرنسية عن « صلوات القديس كيرلس بفلسطين » . والأب أييل أكبر إحصائي في جغرافية فلسطين وتاريخها ، وقد توفر على دراستهما نيفاً وخمسين سنة ؛ وقد أصبح كتابه عن « جغرافية فلسطين » من المراجع التي لا يستغنى عنها في هذا الباب . وقد ساهم الدكتور دريوتون ، المدير العام لمصلحة الآثار المصرية في هذه المجموعة ببحث (بالفرنسية) عن معلومات كيرلس الإسكندري الخاصة بالديانة المصرية القديمة . وقد انتهى إلى أن المصريين المثقفين من أهل القرن الخامس كانوا يلجأون إلى مؤلفات اليونان الأقدمين للوقوف على أسرار آلهتهم القومية . والقديس كيرلس عندما كان يقتبس معلوماته في الديانة القديمة من مؤلفات فلوترخوس وفورفوريوس لم يكن إلا متبعاً مألوف عصره . وللاب نيولفوبجشان (بالايطالية) :

الأول في نظرية التهذيب والتعليم عند القديس كيرلس ، يدرس فيه تطور مدرسة الإسكندرية المسيحية ومقارنة منهج التعليم فيها مع طرق التعليم الأخرى . والآخر عن « كيرلس ودانت » حاول فيه أن يفحص عن مدى تأثير الشاعر الإيطالي بالأفكار الشرقية خصوصاً بأفكار مدرسة الإسكندرية والمذهب الكيرلى .

أما تأثير القديس كيرلس في طقوس الكنيسة الشرقية فقد خصص له بحثان (بالفرنسية) : بحث موجز للأبطويل ، مدير المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك بالقاهرة ، عالج الموضوع من وجهة الكنيسة البيزنطية ، ذاكرًا فيه بعض النصوص اليونانية التى تتغنى بفضائل العالم الإسكندري ، وبحث مسهب ، للأستاذ يسي عبد المسيح ، جمع فيه النصوص القبطية التى تعزى إلى القديس كيرلس .

وأخيراً بحث بالفرنسية مسهب علمى متين ، مزين بصور تخطيطية دقيقة للأستاذ الدكتور إسكندر بدوى من جامعة فؤاد الأول ، فى « الكنائس المصرية الأولى إلى عهد

القديس كيرلس » ، وقد قسمه إلى قسمين : قسم عام يتناول نظرة تاريخية شاملة وتعيين زمن الكنائس وشروط بنائها والعوامل التى أثرت فيها وتصميماتها العامة وطرق تشييدها وزخرفتها ؛ والقسم الثانى يعالج بعض الكنائس والأديرة التى لا تزال آثارها قائمة حتى اليوم فى مريوط وسوهاج ودندرة وصقارة وأبى منس ومصر القديمة . ولو سمحنا لنفسنا أن نبدى رجاء فهو أن يتحفنا الأستاذ بدوى يبحث عربى شامل للكنائس والأديرة المصرية نحن فى حاجة إليه . والدكتور بدوى خير من يستطيع أن يقوم بهذه المهمة .

هذه هى « كيريليانا » : تحفة كما يتضح من مجرد سرد المقالات . فانا نرجو لها أحسن قبول ، مع الأمل أن تكون رسالة خير بين أبناء الوطن الواحد ، موجهة إعجابهم نحو شخصية مصرية فذة من أجداهم ، مشيرة انتباههم نحو تراثهم المجيد ، فاتحة باباً جديداً من الدراسات العلمية النزيهة الهادئة ، واضحة صفحة ناصعة فى تاريخنا الذى هو أعظم من أن تستنفد ذخائره عزائم أولاده أجمعين .

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي للدكتور حسن إبراهيم حسن أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة فؤاد الأول . الجزء الثالث (مكتبة النهضة المصرية)

هذا هو الجزء الثالث من كتاب التاريخ الإسلامي ، أو الأجدد أن نسميه الموسوعة التاريخية ، التي أخرجها الدكتور حسن إبراهيم حسن ، أستاذ التاريخ بجامعة فؤاد الأول وعميد كلية الآداب السابق ، ليكون مرجعاً جديداً في التاريخ الإسلامي يضاف إلى الكتب القديمة التي تركها السلف أساساً ومرجعاً للتاريخ القديم . وهو يتميز عن هذه الكتب بحسن التبويب والتقسيم ، وبالأجمال دون الاسترسال ، وبالاقتصار على كل ما يفيد القارئ المثقف والمتعلم ، مع إهمال كل ما يشك في صحته وكل مرجوح من الروايات ، هذا مع ذكر الأسانيد التي رجع إليها المؤلف ، وهي مئات الكتب العربية والأوربية ، والمخطوطات ، يذكرها المؤلف ويدعم آراءه في كل صفحة من صفحات كتابه بهذه الأسانيد ، معاوناً القارئ بذلك على الاستزادة من التوسع في أية مسألة إن أراد . وقد صدر الجزء الأول من هذه الموسوعة في سنة ١٩٣٥ وهو يبحث في تاريخ العرب قبل الإسلام ، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة

الأموية ، والحضارة العربية في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ، وكان مقسماً في خمسة أبواب . وقد علمنا أن هذا الجزء قد نقد وتصدر الطبعة الثانية منه قريباً بعد أن زيد فيه حتى صار عشرة أبواب وأدخلت عليه إضافات كثيرة .

وظهر الجزء الثاني من هذه الموسوعة في سنة ١٩٤٥ وهو يعالج العصر العباسي الأول (من سنة ١٣٢ إلى ٥٢٣٢ هـ) ، وكان في ثمانية أبواب .

أما الجزء الثالث من هذا التاريخ الذي صدر أخيراً فهو يبحث في العصر العباسي الثاني (من سنة ٢٣٢ إلى ٥٤٤٧ هـ) وهو يشمل عهد المتوكل إلى قيام الدولة السلجوقية . ولم يقتصر فيه على تاريخ البلاد الشرقية وحدها ، بل تكلم عن مصر والمغرب والأندلس . وهذا الجزء من هذه الموسوعة يقع في عشرة أبواب ، أولها عصر نفوذ الأتراك ، ثم عصر أسير الأمراء ثم عصر بني بويه في العراق ، ثم الكلام عن الدول المستقلة والحركات السياسية والدينية والعلاقات الخارجية

والحالة الاقتصادية والثقافة والفن والحالة الاجتماعية .
 ولا نعود للتنويه بما في هذا الجزء من الفهارس والمراجع التي تدل على دقة البحث وسعة الاطلاع ، مما يجعل لهذه الموسوعة قيمة خاصة بحيث لا يستطيع الاستغناء عنها كل باحث في التاريخ . فالدكتور حسن إبراهيم حسن قد خدم التاريخ الإسلامى خدمة كبيرة بإخراجه هذه الموسوعة الكبيرة التي نرجو أن تتم في القريب العاجل .

هرب البترول في الشرق الأوسط للدكتور راشد البراوى (مكتبة النهضة المصرية)

هذا البحث الجليل يحيط بمسألة البترول التي أصبحت على قول المؤلف « ذات أهمية بالغة في السياسة الدولية » . ولقد صار « التسابق على امتلاك موارده أو السيطرة عليها طابع العصر ، وهو تسابق تستخدم فيه كافة الأسلحة والأساليب » . وقد تكلم المؤلف في الفصل الأول عن زيت البترول والشركات الكبرى ثم انتقل إلى بترول الشرق الأوسط وعالج الامتيازات الاحتكارية وبداية الصراع على البترول ، ثم احتكار هذا البحث الجليل يحيط بمسألة البترول التي أصبحت على قول المؤلف « ذات أهمية بالغة في السياسة الدولية » . ولقد صار « التسابق على امتلاك موارده أو السيطرة عليها طابع العصر ، وهو تسابق تستخدم فيه كافة الأسلحة والأساليب » . وقد تكلم المؤلف في الفصل الأول عن زيت البترول والشركات الكبرى ثم انتقل إلى بترول الشرق الأوسط وعالج الامتيازات الاحتكارية وبداية الصراع على البترول ، ثم احتكار

البترول في القطر المصرى ، ثم الموصل بين إنجلترا وفرنسا وعودة الموصل إلى العراق ، والرأسمالية البريطانية وسيطرتها على بترول العراق وإيران ، والحد من الاحتكار الانجليزى والنضال على بترول الشرق الأوسط بين إنجلترا وأمريكا ، واطراد هذا النضال وسياسة المحور ثم سياسة روسيا .

ووصف الكاتب في نهاية بحثه الشائق الطريق أمام الشرق وبعض أساليب مكافحة شركات البترول .

في مجلات الشرق

الأدب ينهار !

يشفق الأستاذ أديب مروّة أن يكون الأدب صائراً إلى الانهيار ، في مقال له بمجلة « المعهد » التي تصدر في صور- لبنان ، عنوانه « دولة الأدب في طريق الانهيار » ، يقول فيه :
« ليس أهون على المتبع في أيامنا الحاضرة من ملاحظة انصراف الناس — على العموم — والرأى العام المثقف، عن مطالعة كل ماله علاقة بالأدب إلى ما تقدمه الصحافة من هذا الخليط العجيب من المعلومات والأنباء ، والحكايات الساذجة . . . هذه الألوان التي طغت على ما سواها من الأغذية الفكرية التي تتطلب شيئاً من التعمق والروية والتمحيص ، بما في ذلك الأدب والشعر والفلسفة . . . »

ثم يوازن الكاتب بين عدد القراء الذين يقبلون على الآثار الأدبية الرفيعة والقراء الآخرين الذين يقبلون على طائفة من المجلات المصرية سماها بأسمائها ، فزعم أن الأولين لا يزيدون على واحد إلى كل مائة من قراء تلك المجلات المبتذلة الداعرة . ثم يأخذ بعد هذه الموازنة في التماس أسباب هذا الانهيار الذي يصفه ، فيرده في تحفظ إلى الأدباء الكبار الذين انصرفوا عن الأدب إلى الصحافة التماساً للرزق من بابه الواسع ، أو إلى طبيعة العصر الذي تسيطر عليه المادة من جميع نواحيه وشعاره السرعة ، أو إلى أثر السياسة التي استأثرت باهتمام الناس في هذه السنين الأخيرة وصرقتهم عن الأدب بطبيعة الحال .

تعاون الصحافة العربية

ونشرت مجلة « المعهد » في العدد نفسه ما يأتي :
« شجعت مجلتنا « الكتاب » و « الكاتب » زميلاتها المجلات المصرية على الحد من أنانيتها بالتعاون مع مجلات الأقطار الشقيقة ، وقد اقتدت بهما بعض تلك المجلات ! أليس هذا فتحاً جديداً سجلت امتياز هاتان المجلتان الراقيتان ؟ »

قبس من المغرب

وهاتان مجلتان قد وردتا إلى من المغرب ، وما قرأت شيئاً من مجلات المغرب منذ بعيد . وكلتا المجلتين تصدر عن تونس ، وكلتاها مؤرخة ، (أكتوبر - نوفمبر سنة ١٩٤٦) ، ونحن الآن في شهر مارس من سنة ١٩٤٧ . ما أبعد الشقة بين البلدين إذا كانت مجلات تونس لا تصل إلى القاهرة إلا بعد خمسة أشهر من صدورها هنالك !

وحدثت صديقي المغربي حديث هاتين المجلتين اللتين ظلتا في حقيبة ساعي البريد بين تونس والقاهرة خمسة أشهر . . . فقامت على وجه صديقي سحابة من الهم وهو يقول متكلفاً الابتسام : إنك يا صديقي أسعد حظاً من إخوانك هنالك في المغرب لم تصلهم رسائلهم ولا جرائدك ، ولا مجلاتك ولا شيء من مطبوعاتك ، منذ سنة ١٩٤٠ . . . لقد وصل إليك بريد المغرب الثقافي بعد أن ناء بحمله ساعي البريد خمسة أشهر ؛ فليت المغرب يتلقى بريد الشرق الأدبي الذي يحمله ساعي البريد إليه منذ ست سنين أو يزيد ! إن المغرب يا صديقي لم يقرأ

كتاباً عربياً واحداً من مطبوعات الشرق منذ سبع سنين ، إلا ما يعرض له في السوق السوداء ؛ وللكتب العربية في المغرب سوق سوداء لعلها أكثر رواجاً من سوق الخبز في اليونان ! لأن الفرنسيين في المغرب ، يحظرون على المغاربة أن يقرأوا كتاباً عربياً في ضوء النهار ! . . .

فما أسعد حظي إذن وبين يديّ عدداً أكتوبر سنة ١٩٤٦ من مجلتي « الثريا » و « المباحث » . أفريد القراء أن أعرض عليهما بعض ما قرأت في هاتين المجلتين الناهضتين ؟

بحسبي أن أنظر في غلاف مجلة الثريا لأرى قلم « الرقيب » - حتى في الصفحة الأولى من المجلة - قد عبث ما عبث ، فالتوت السطور وتباعد ما بين الكلمات ، لأن هنا صورة زعيم من زعماء المغرب لا ينبغي أن يقال في التعريف به إنه زعيم حزب « الشورى » أو حزب « الاستقلال » وكلتا « الشورى » والاستقلال » كلمتان بغضتان إلى الاستعمار الفرنسي في المغرب لا ينبغي أن تقع عليهما عين عربي هنالك ولا في

دروس التهجي والمطالعة ؛ ومع ذلك ،
فلا يزال هناك أدباء وشعراء يكتبون
وينظمون يقاومون القهر الفرنسي بقوة
الروح العربي المتوثب ؛ ولا زلنا نقرأ
مباحث ممتعة في مجلة «الثريا» لمثل
الأديبة الفاضلة عائشة بنت عمر عن
« المرأة التونسية في مفترق الطرق » ،
ولا تزال نقرأ شعراً في مجلة «المباحث»
للسيد علي بن محرز يقول فيه :
الصبح تبين فرقه
والشرق توحد مقصده

فهل نشارك وثبته
ونمد يداً لنعاهده
الحق تعزز جانبه
وأباة الضيم تعاضده
عاهدنا الله لنصره
صدقاً والفعل يؤيده

قل جاء الحق وصولته
فجر الاسلام بدا غده
بالعزم سترفع رايته
وبناء النصر نشييده

وظيفة الأديب

وفي عدد مارس من مجلة «الأديب»
كلمة للأستاذ عبد الله برى عنوانها
« وظيفة الأديب في الشعب » يقول فيها :
« إن الأديب الشعبي مظهر من
مظاهر التفوق في معنويات الاجتماع ،
ومن واجبه أن يفهم وظيفته في البعث ،
ومكانته في التدريب ؛ لكي يفهم
الحى الناطق أن الأديب هو فوق
النظام ؛ لأنه هو الذى وضع النظام ،
وأنه فوق الدولة ؛ لأن الدولة تتعهد
السياسة وما فيها من فساد ، أما هو
فيتعهد الأخلاق والمبادئ ، ولولا
هذه لفسد ما في الكون جميعاً .

« وليس كبيراً ألا يقدر الشعب
مواهب الأديب ، وألا تمد الحكومة
في سعيه الخالق ؛ فوظيفته أن يبدع
أمة في طبيعتها احترامه وفهمه مادام
يعرف كيف يؤدي رسالته الإنسانية
تأدية كاملة . ورب أديب كان في
أدبه أكبر من حكومة وفي أخلاقه
بمقدار شعب ! . . .

« على الأديب أن يتوقع من إنتاج
أدبه إحياء أمة يحيا هو في حياتها .
وإذا آمن بغير ذلك ، تبدل احترامه
إلى ازدراء ، واقلب إيمانه إلى
انتحار . . . »

في مجلات الغرب

من موسكو

جزء الآداب السوفيتية Soviet Literature عدد ٧ (يوليو ١٩٤٦)

في الآداب - اقرأ في هذا العدد صفحة بقلم الكاتب ألكسندر أنيكست عن الشاعر السكوتلاندى روبرت برنز Robert Burns . وهذا الشاعر الذى مات منذ قرن ونصف قد ظفر فى أثناء القرن الماضى فى روسيا بشهرة واسعة . والكاتب الروسى يعرض علينا تأثير هذا الشاعر فى روسيا ، كما عرض من قبل تأثير شكسبير^(١) . وقد أثار روبرت برنز إعجاباً عظيماً فى بيئات التأثيرين من الروس وهم الذين ترجموه لأول مرة . وقد نفى أحد مترجميه ميخائيل ميخائيلوف ومات وهو يعانى الأشغال الشاقة .

الثانى وكيف استأثر به الشعر شيئاً فشيئاً . والكاتب يؤيد آراءه ببعض الصور ومن بينها صورة جميلة جداً لـ غلام ناشى .

وتجد فى آخر العدد السابع من هذه المجلة حديثاً قصيراً عن النساء اللاتي يرأسن الفرق الموسيقية . ولا نكاد نعلم أن بلداً آخر غير روسيا يعرف رئيسات لهذه الفرق . وقد تتطوعت إحداهن وهى فيرا رود Vera Rode فى الجيش السوفيتى سنة ١٩٤١ . فكلت تنظيم فرقة موسيقية لفرقة الحرس التى كانت تعمل فيها . وكان هذا يقع لأول مرة فى التاريخ . وقد تفوقت فرقة الحرس فى موقعة موسكو ونالت وسام الشرف كما نالت السيدة الموسيقية وساماً أيضاً . ثم مضت مع الفرقة وشهدت معها جميع المواقع ، وهى تدير فرقها الموسيقية فى ثياب السهرة وقد حلت صدرها الأوسمة .

فى الفن - وافرأ فى العدد التاسع من هذه المجلة فى سبتمبر مقالا عن الشاعر الروسى مايكوفسكى Mayakovsky الذى انتحر منذ أعوام ، يعرض تطور هذا الشاعر فى التصوير الذى كان فنه

(١) الكاتب المصرى عدد ١٧ (فبراير ١٩٤٧) .

من باريس

مجلة الفكرة *La Pensée* عدد ٩ (أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر سنة ١٩٤٦)

وهي مجلة العقلين المحدثين ، التي قيل عنها إنها كثر ثير الليث واتجاهها يسارى جدا كما قلنا سابقاً. (١) الجائع الذي يريد ترويع الطبقة في السياسة — بمناسبة العام المئوي لظهور كتاب برودون Proudhon العظيم « منهج التناقضات الاقتصادية أو فلسفة البؤس » (٢) ، نشرت مجلة « الفكرة » مقالا لجورج كونيو Georges Cogniot لم يتم في هذا العدد .

التي قيل عنها إنها كثر ثير الليث الجائع الذي يريد ترويع الطبقة الوسطى ، وهي : « إنما الملك هو السرقة » . وقال برودون أيضاً : « إن الصورة الوحيدة للحكم هي عدم الحكم » . ويختم جورج كونيو هذا القسم قائلاً إن برودون يظهر مخيفاً أثناء ملك لويس فيليب وأثناء الجمهورية الثانية . ولكن يرى هو

وفي الصفحات التي تعرض علينا يدرس صاحب المقال ما يسميه « لغز برودون » . ويبدأ هذا البحث بملاحظات قصيرة في تاريخ حياة الفكر الاشتراكي وفي مناهجه . ويذكر في أول مقاله بعض الجمل التي كتبها برودون والتي كانت من أسباب شهرته ، التي أخافت أصحاب رءوس الأموال الفرنسيين في القرن الماضي . كانت لبرودون صيحة الحرب ،

في مذهب برودون تناقضات أي تناقضات ، وألغازاً أي ألغاز ! وأول دليل يعرضه علينا صاحب هذا المقال على تناقضات برودون هو أن الكتاب والفكرين ورجال السياسة الفرنسيين في عهد فيشي استطاعوا أن يرجعوا إلى كتبه أكثر من مرة حين أرادوا أن يثبتوا أن سياسة الماريشال وأعوانه سياسة لها متابعها في الفكرة الاشتراكية . ثم يلتفت ج . كونيو إلى حياة

(١) الكاتب المصري عدد ١٤ (نوفمبر ١٩٤٦) .

(٢) نعتذر إلى قراء « الكاتب المصري » (عدد ١٨ مارس سنة ١٩٤٧) من خطأ وقع في عنوان رسالة كارل ماركس التي أصدرها رداً على كتاب برودون . والعنوان الصحيح لرسالة ماركس هو « بؤس الفلسفة » يعارض به عنوان « فلسفة البؤس » . وهذا الخطأ الذي تنبه إليه لم يأت منا نحن ، وإنما جاء من الميسور روبرت آرون الذي نقلنا نصه حرفياً في مجلة « لانيف » *La Nef* عدد يناير سنة ١٩٤٧ ، ص ٣٧ .

برودون ، ويجعل لهذا القسم من درسه العنوان الآتي : « البورجوازي الصغير الحالم » . (١)

ويعتقد الكاتب أن في هذا التعبير سر حياة برودون المتأرجحة بين الثورة والرجعية ، حياة رجل « محافظ ومناصر للتقدم في وقت واحد » كما قال برودون عن نفسه . وبعد تاريخ حياته ، يتجه صاحب المقال إلى طرق تفكيره ، ليعلم ويعلمنا ما هو الفرق بين برودون والاشتراكية العلمية . فالذي يفرق بين برودون وبين الاشتراكيين العلميين ، والذي يفرق بينه وبين كارل ماركس ، هو موقفه أمام المادية الاستنباطية . وهذا لأن برودون أبدل الاستنباط بالتوفيق . ومصدر هذا في رأي جورج كونيوس معرفة غير دقيقة بطرق الاستنباط عند مؤلف « فلسفة البؤس » . وهنا تقف القطعة الأولى لهذا المقال ، فلنتنظر إتمامه لنعرف إلام يريد صاحبه . فالذي قرأناه للآن يشير إلى شيء من النقد اللاذع ضد برودون .

في الجدال — في نفس هذه المجلة شهرية تحت عنوان « جدال » ما أظن

أنك تجد مثلها في المجلات الأخرى . وإحدى المجادلات التي تظهر في هذا العدد عنوانها « جان بول سارتر ، المركسية ، والعلم » (٢) . بعد قراءة الصفحة الأولى من هذه الشهرية يستطيع القارئ أن يسأل نفسه : ولماذا سميت هذه الشهرية « مجادلات » ولم تسم « فلسفة » أو ، على الأقل ، « مناقشات ؟ » . فالجواب على هذا السؤال في الجمل الأخيرة للمناظرة بين ج . ب . سارتر وأندريه لانتين André Lentin (وهو محرر مجلة « الفكرة » الذي رد على مقالين لجان بول سارتر ظهرا في مجلة « العصور الحديثة » في نقد المادية الاستنباطية) . والجواب على هذا السؤال الساذج ، كما قلنا ، في لطف هذه الأسطر الأخيرة من المجادلة : « هذه هي السخافات البارة التي يمكن أن تقيد في ثلاثة صفحات فقط . فأما البحث الكامل عما في المقال من أغلاط فيحتاج إلى مجلد ضخم من الحجم المتوسط . ومن حيث إن لدى مجلة « الفكرة » أشياء أخرى تستحق النشر فإننا نقف بالنفقات عند هذا الحد . »

(١) L'utopiste petit-bourgeois

(٢) Jean-Paul Sartre, le Marrisme et la Science

مجلة لارسه *L'Arche* (عدد ٢١)

في الأدب — كلنا يعرف أن مسألة اليوم في أدب الغرب وفلسفته تدور حول ثلاثة أسماء هي: « كيركجارد ، هيدجر وكافكا » (١).
وجعل مكس برود هذه الأسماء عنواناً لمقاله في هذا العدد من مجلة « لارش » . وهو مقال قد يهتم به الذين يعنيههم أمر هؤلاء الكتاب الثلاثة وإن كان شديد الغموض .
اقرأ أكثر من مرة مقالا قصيراً ولكنه بعيد المدى ، عنوانه « ظروف الشعر » وصاحبه الشاعر الفرنسي بيير ريفيردي (٢) ، يحاول فيه أن يعطي عن الشعر تعريفات دقيقة ولكنها مقاربة ؛ لأن التحديد غير ممكن بالنسبة إلى موضوع مجرد كالشعر . وغاية يسير ريفيردي أن يقول ما هو الشعر وأين يكون ، بعد أن يبين ما ليس شعراً . فيرى أولاً أن الشعر ليس في الأشياء ، إذ لو كان فيها لاستطاع كل واحد منا أن يحده وأن يكون شاعراً . « فالشعر عند الكاتب نقص ، أو فراغ في قلب الانسان ، أو بعبارة أدق ، هو قدرة الشاعر على أن يسد هذا النقص ويملاً هذا الفراغ . »

مجلة فوتين *Fontaine* عدد ٥٧ (ديسمبر ١٩٤٦ - يناير ١٩٤٧) .

في الأدب — بعد مجهود بيير ريفيردي في تحديد الشعر ، نجد نفس المحاولة بالنسبة إلى القصة في مقال كتبه جايتان بيكون (٣) عن كتاب عنوانه « الزمان والقصة » لجان بويون (٤) قسم الناقد مقاله إلى ثلاثة أقسام : في القسم الأول يعرض علينا تحديد القصة عند الكاتب ، فالقصة باختصار « هي التعبير عن الواقع » إنما الواقع الانساني كائن في الزمان ، فالقصة إذاً وصف له . وفي القسم الثاني من تقديمه

(١) Max Brod, *Sur Kierkegaard, Heidegger et Kafka*

(٢) Pierre Reverdy, *Circonstances de la poésie*

(٣) Gaëtan Plcon, *D'une philosophie du Roman*

(٤) Jean Pouillon, *Temps et Roman*

هذا ، يجادل الناقد في تعريف القصة بأنها التعبير عن الواقع . وحسبي أن أثقل جملة من ختام هذا الجدل لأعطى فكرة تقريبية عن رأي الناقد ، فهو يقول إن القصة « هي الميدان الذي يظفر فيه الكذب نفسه بحقه في الوجود بحيث نرى فيه حقا كل تصوير يرفضها الفنانون دائماً ؟ » . أما القسم الثالث فيبين فيه صاحب المقال رأيه هو في المشكلة وبنوع خاص قلقه أمام هذه الفلسفة الجديدة للقصة . أليست هي صورة من النظريات الفنية التقليدية التي صورتها الفلسفة الخالدة والتي يرفضها الفنانون دائماً ؟

من لندن

مجلة هوريزون *Horizon* (فبراير سنة ١٩٤٧)

في الأدب — إقرأ في هذا العدد مقالاً قيماً عن الأديب والمؤرخ ليتون ستراكي لجون راسل^(٢) . يقول الكاتب عن هذا الأديب الكبير في أول مقاله إنه ناصح وصديق لا يذم منه للذين يقومون التقليد الانساني في انجلترا وفرنسا . وبعد أسطر قليلة يحاول فيها أن يصور هيئة ليتون ستراكي ، جعل يدرس شخصيته ، فيذكر قول ناقد فرنسي في الدين عن بيل Bayle ويطبقه على مؤلف « الذبث وإسكس » « إنه لا يتهم الإله ، بل يربكه » . ثم يلتفت جون راسل إلى رأي ستراكي في التاريخ ، فيرى أن هذا العلم

عنده ليس شيئاً مكتوباً ، ولكنه شيء يدور حول الحديث أو بعبارة أوضح ، إن التاريخ عند ليتون ستراكي كان سلسلة من المناجاة بينه وبين أشخاص اختارهم ، فهو ، كما يقول الناقد ، « متخصص في الإيف intimiste » وقد حاول المؤرخ البريطاني أن يؤلف مثل التراجم القصيرة التي ألفها الفرنسيون أمثال فونتنيل Fontenelle وكوندرسيه Condorcet . ولا سبيل إلى أن ننقل للقارى ما يعرضه ناقد مجلة « هوريزون » في براعة وإتقان . فحسبي أن أشير للقارى إلى هذا المقال الشامل الممتع .

أمينه طه حسين

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير: طه حسين

فهرس

طه حسين	المعذبون في الأرض (قصة)	٦١٣
محمود عزمى	تقرير ديوان المحاسبة	٦٢٣
محمد رفعت	حيرة الترك بين الشرق والغرب	٦٢٩
محمود تيمور	ذاهب مع الريح	٦٤١
سليمان حزين	روابط الطبيعة والتاريخ في وادي النيل	٦٥٣
عبد الرحمن صدقي ...	قبل السفر (قصيدة)	٦٦٤
روحيه أرناؤديز	الأصول القرية للوجودية	٦٦٥
محمد عبده عزام	شعري الضائع (قصيدة)	٦٨١
يحيى حقي	أم العواجز (قصة)	٦٨٣
سلامه موسى	ماذا أفدت من هذا العمر	٦٩١
فؤاد صروف	خليل مطران	٧٠٣
ريمون فرنسيس	عالم البيت في مسرحيات بلوتس	٧٠٩
هنري القيم	صورة الفنان (قصيدة)	٧١٨
هنري بيرلين	بريطانيا التي غيبتها الحرب ولم تتغير	٧٢٠

من هنا وهناك (كلارا عزمى — بشر فارس)

شهرية الفن — شهرية السياسة الدولية — شهرية المسرح — شهرية السينما

من وراء البحار — من كتب الشرق والغرب — ظهر حديثاً

في مجلات الشرق



تصدرها دار الكاتب المصري

شركة مساهمة محدودة

القاهرة

مدرسة الزواجيات

يليهما

روبير و چفشيف

تأليف أندريه جيد

تعريب صبرى فهمى

فتاة فى نشوة الحب ، ثم زوج فى يقظة العقل تهتم زوجها

دفاع الزوج عن نفسه

حكم الابنة على والديها

الثنى ٢٥ قرشاً

البريد ٢٤ ملها



٣١٢ صفحة

هـ . ج . ولز

ظلم الآلهة

وكيف جاء إلى الأرض

تغريب محمد بدران



التمن ٣٠ قرشاً

البريد ٢٤ ملياً



٣٢٠ صفحة

فرنسوا موريالك

والدة

تعريب محمد عبد الحميد عنبر و عبد المجيد عابدين



الثنى ٢٠ قرشاً
البريد ١٦ ملياً

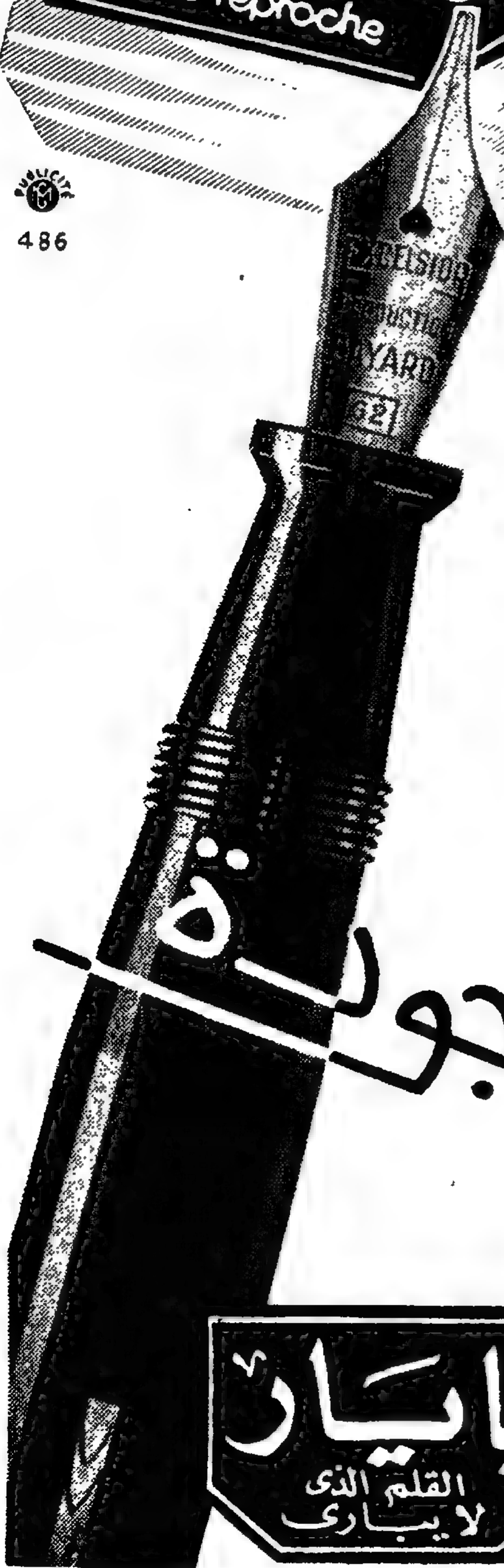


١٧٥ صفحة

BAYARD
le stylo
sans reproche



486



جورج

بایارد
القلم الذي
لا يبارى

تباع كتب
دار الكاتب المصري
ومجلة الكاتب المصري
في سوريا ولبنان
في المكتبة العمومية
لصاحبها عطا مكي
دمشق — شارع فؤاد الاول
بيروت — جادة الافرنسيين
الموزع الوحيد في سوريا ولبنان

تباع كتب
دار الكاتب المصري
بالعراق
في المكتبة العصرية
ببغداد

لصاحبها محمود حلمي
تليفون ٦٤٨٠ — ٤٢٧٦ — ٩٤٧٠
وعند وكلائها في الالوية
الموزعين الوحيدين في العراق

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصري في أول كل شهر عن دار الكاتب المصري ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعها .

الاشتراك

١٠٠ قرش في السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً في السنة للخارج أو ما يعادلها .
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب
المصري . لا تقبل الاشتراكات لأقل من
سنة كاملة .

نمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصري تعنى بكل
ما يرد إليها من المقالات والرسائل
ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

إدارة الكاتب المصري

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الإدارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published
by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصري

الكاتب المصري



مايو ١٩٤٧

جمادى الثانية ١٣٦٦

مجلد ٥ - عدد ٢٠

السنة الثانية

المعذبون في الأرض

لم تنزل من السماء ، كما تنزل الملائكة ، رحمة وروحاً على الأرض .
ولم تخرج من النهر ، كما كانت العذارى الحسان من بنات الماء يخرجن في الزمان
القديم من الجداول والأنهار ، ومن العيون والينابيع . ولم يحملها إلينا السحاب ،
ولا أرسلها إلينا نجم من النجوم . وإنما نشأت في القرية ، وفي أسرة بائسة
شقية من أسرها ، كما ينشأ غيرها من عشرات العذارى ، بل من مئاتهن
وألفهن في المدن والقرى دائماً . ولكنها امتازت من أترابها :

بوجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه تقي اللون لم يتخدد

ولم يكن أحد يعرف من أين جاءت بهذا الوجه السطح الطلق المشرق
النتى . فقد كان وجه أبيها جهماً غليظاً قد احتفرت فيه الأخاديد احتقاراً ،
وفعل به البؤس والشقاء ، وشظف العيش الأفاعيل . وكان وجه أمها صورة
رائعة للقبح ، إن جاز أن تكون للقبح صورة رائعة . وكان ضيق الحياة
وخشونة العيش ، وهذه الضرورات المخرجة التي تدفع البائسين من العمل
إلى مالا يحبون ، وترضيهم آخر الأمر عما يكرهون . كان هذا كله قد غشى
وجهي هذين الأبوين بغشاء صفيق مؤلم من الكآبة ، والذلة ، والحزن ،
والغفلة ، والغباء .

ولم تكن تمتاز بإشراق الوجه ونقاؤه فحسب ، وإنما كان إشراق وجهها
ونقاؤه مظهراً لصورة رائعة بارعة من الجمال والحسن ، قد أسبغت على جسمها

كله ، فكان شيئاً رائعاً متقناً كأنما صنع في تمهل وتأنق وأناة ، كأحسن ما يتمهل المثال البارع ويتأنق ويستأنى بعمله ، فيخرج تمثاله آية في الروعة وفتنة للعيون والقلوب جميعاً .

وكان صوتها ، إذا تكلمت ، رخصاً عذباً صافياً ممتكناً ، لا تكاد الأذن تسمعه حتى يحضر في النفوس هذا الوقت القصير بين انطلاق الفجر في ظلمة الليل كأنه السهم ، وإشراق الشمس على الأرض حتى تملأها جمالاً ونوراً . كان صوتها يحضر في النفس هذا الوقت القصير الذي يكون بين انطلاق الفجر وإشراق الشمس ، والذي يترقق فيه نسيم رقيق عليل ، ويسقط فيه الندى كأنه تحية حلوة ، ملؤها الحياة والنشاط ، قد أرسلتها السماء إلى الأرض ، وتستيقظ فيه الطبيعة نشيطة متكسلة مع ذلك : تتغنى الطير وتحف الأوراق ، وتهف الغصون ، ويهمس الضوء الفاتر إلى الأرض أن أفيق وتأهبي ، فقد أوشك موكب الشمس أن يلم .

كان صوتها يحضر في النفس هذا كله إذا تكلمت ، ولم تكن تتكلم إلا قليلاً ، وكان صوتها ذاك الرخص العذب الصافي ، يلائم وجهها المشرق النقي ، وخلقها الرائع السوي ؛ فكان شخصها أشبه شيء بآية من آيات الموسيقى التي لا تلهي السمع وحده ، وإنما تلهي كل ما في الإنسان من ملكات الحس والشعور والتفكير . وكان الناس يتساءلون ، ولا يكفون عن التساؤل : من أين جاء هذان الأبوان اللذان آثرتهما الطبيعة بالدمامة والقبح ، بهذه الآية التي استأثرت بأرق الحسن وأنقاءه ؟ وكان فقيه القرية إذا ألح الناس في التساؤل أمامه ، تلا عليهم هذه الآية من القرآن ، منكرّاً عليهم تساؤلهم وإلحاحهم فيه : « توبل الليل في النهار ، وتوبل النهار في الليل ، وتخرج الحي من الميت ، وتخرج الميت من الحي ، وترزق من تشاء بغير حساب » . ثم يقول لهم : ويحكم ! ما تنكرون أن يهب الله الجمال للقبح ، وهو يوبل الليل في النهار ، ويوبل النهار في الليل ! إنكم لا تنكرون أن ينشق الليل المظلم عن النهار المبصر ، ولا أن ينهزم ضوء النهار أمام ظلمة الليل ، فلم تنكرون أن يهب الله خديجة هذه لأُمها محبوبة لأبيها شعبان ؟

وكانت محبوبة هذه امرأة نَصَفًا ، تطوف بأهل القرية تصنع لهم الخبز ، وتصنع لهم من الخبز نوعاً خاصاً هو هذا الذي يتخذ من الذرة رقيقاً مستديراً

واسعاً ، لا تحسن أن تصنع غيره من خبز القمح . فكنت تراها في آخر الليل ملمة بهذه الدار أو تلك ، تهى العجين . وكنت تراها في أول النهار جالسة أمام الفرن ، تدير يديها السريعة الصناع قطع العجين ، فتسويها في سرعة مدهشة على الشكل الذي ينبغي أن يسوى عليه ، ثم تقذفها إلى النار قذفاً خفيفاً رقيقاً ، ثم تستردها من النار وقد منحتها النضج الذي يجعلها سائغة في الأفواه والحلوق والبطون . وكنت تراها حين يرتفع الضحى ويوشك النهار أن ينتصف عائدة إلى بيتها ذاك الوضع الحثير ، وقد حملت أجراها طائفة من هذا الخبز تضيفها إلى طائفة ، وتعيش عليها مع زوجها وبنيتها وبناتها ، يقنعون بهذا الخبز في كثير من الأيام ، وقد يضيفون إليه هذا الإدام أو ذاك ، إن ساق الله إلى شعبان رزقاً ، أو تفضلت بعض الأسر الموسرة على هذه الأسرة المعسرة بشئ من طعام . فان لم يكن هذا ولا ذاك فالخبز وحده ، أو الخبز مع شئ مما تنبت الأرض وتصل إليه الأيدي القصار من البصل والفجل ، وهذه الأعشاب التي لا يتحرج البائسون من أن يستعينوا بها على الحياة .

وكان شعبان رجلاً مقترراً عليه في الرزق ، قد ورث عن أبيه مهنة لا تغني من جوع ، كان بناء متواضعاً لا يقيم الدور التي تتخذ من الحجر والآجر واللين ، وإنما يقيم البيوت والحجرات التي تتخذ من الطين الغليظ : تراب يجمع ويصب عليه الماء ، ويخلط به بعض الهشيم ، ثم تسوى منه قطع متلائمة أو غير متلائمة يضاف بعضها إلى بعض لتمتد في الفضاء وترتفع في الجو ، وتدور أو تستطيل حول رقعة ضيقة من الأرض ، حتى إذا ارتفعت فبلغت القامة أو أقل من القامة ، مد عليها شئ من سعف النخل ، فاستقام منها بيت أو حجرة يأوى إليها البائسون من أهل القرى ، فتقيهم أيسر ما ينبغي أن يتقوا من عادات الطبيعة .

وأهل القرى لا يبنون هذه البيوت في كل يوم ولا في كل أسبوع ، وإنما يبنونها حين يتاح لهم البناء ، وحين تأذن لهم الظروف أن يتخذوا البيوت والحجرات ، أو أن يقيموا الغرفة فوق هذه الحجرة أو تلك ، أو فوق هذا البيت أو ذاك .

فكان يعمل اليوم أو اليومين أو الأيام القليلة ، ليظل بعد ذلك متعطلاً

أياماً أو أسابيع . وكان يوسع على أهله بهذه القروش التي يغلها عليه عمله من حين إلى حين ، يكسوهم إن استطاع لهم كسوة ، ويمتعهم بقليل من الطيبات إن طالت يده إلى قليل من الطيبات . فلم يكن بد من أن يعمل الصبية حين شبوا ليقوتوا أنفسهم حيث يعملون ، وليرجعوا على أهلهم بفضل ما يساق إليهم من الرزق .

وكانت خديجة كاعباً ، تعمل في دار من دور اليسار ، تقبل مع الصبح المسفر فتنفق ما تملك من نشاط في خدمة أهل الدار ، وتعود مع الليل المظلم إلى بيت أبويها فتنفق الليل فيه . وكانت راضية بهذه الحياة باسمها على شيء من حزن كان يستقر في قلبها ويتغلغل في ضميرها ، ولا يبين عنه لسانها حين ينطق ولا وجهها حين يأخذ ما يأخذ من الأشكال . كانت تفكر من غير شك في بؤس أبويها وإخوتها الصغار ، ولكنها لم تكن تعبر عن هذه الخواطر الكثيرة البائسة بلفظ أو لحظ أو حركة ، إنما كانت تحفي حزنها كما يخفي البخيل كنزه ، وربما نمت بهذا الحزن نعمة ضئيلة مرة ، تغمر هذا الصوت الممتلئ العذب فتترك في نفوس السامعين أثراً غريباً . وربما نمت بهذا الحزن سحابة خفيفة رقيقة تمر بهذا الوجه المشرق الجميل ، مرا سريعاً لا يتيح للذين يرونها أن يفكروا فيها فضلاً عن أن يسألوا عنها . كانت حياتها في تلك الدار بهجة متصلة ورضا مقيا ، تقطعها بين حين وحين وفي لحظات قصار جداً هذه النيمة التي بهم أن تنبئ بالحزن ، ولكنها تذوب قبل أن تنبئ بما همت أن تنبه إليه .

وكانت ربة الدار محبة لخديجة رفيقة بها ، عطوفاً على أهلها ، تبرهم كلما سنحت لها الفرصة ، وتحسن إليهم كلما أتيح لها الاحسان . وكانت كثيراً ما تدعو محبوبة إلى الدار وتكلفها بعض العمل اليسير الهين أو الغليظ الضعيف ، تأجرها على ذلك ، لا بالقروش التي تضعها في يدها ، ولكن بالثوب تهديه إليها من ثيابها هي الخليعة ، أو من ثياب أبنائها وبناتها ، أو من ثياب زوجها ، وبالطعام تكلفها حمله إلى زوجها وبنها ، وبالطرف تطرفها بها في أيام الأعياد وفي أيام السعة والرخاء ، حين تلم أيام السعة والرخاء . ولكنها لم تكن تقف عند هذا النوع من البر ، وإنما كانت تحرص على أن يكون رفقها بالأسرة متجدداً ، وعطفها عليها متصلاً .

وفي ذات يوم سمعت ربة الدار في فناء دارها من نحو حظيرة الماشية صياح امرأة تصيح ، وبكاء فتاة تبكي ، وصوت عصا تلهب جسما بضرب متصل ، وصراخ صبية يجأرون بالشكاة ؛ فتخرج من حجرتها مسرعة ، ولا يروعاها إلا محبوبة قد ألقت ابنتها على الأرض وأخذت بشعرها الطويل الجميل تجذبه باحدى يديها جذبا عنيفاً ، ويدها الأخرى ترتفع وتنخفض بغصن يابس من هذه الغصون التي تتخذ لإدارة الخبز في النار واستخراجه منها ، وغير بعيد من هذا المنظر الأليم طبقان من خبز قد نخبنا ناحية ، ومحبوبة تنظر إليهما وتسأل عنهما الفتاة ، بينما تمن يدها في جذب الشعر ، وتمعن الأخرى في رفع العصا وخفضها .

قالت ربة الدار منكرة : ماذا أرى ! وماذا أسمع ! ثم أسرع إلى محبوبة فردتها عن الفتاة وانتزعت من يدها العصا ، وإلى الفتاة فأنهضتها وفرقت بينها وبين أمها . ولكن محبوبة أمعت في بكاء متصل فيه شهيق وزفير . ثم لم تلبث أن أخذتها نوبة عصبية ، من هذه النوبات التي تأخذ أمثالها من النساء حين يمعن في الشهيق والزفير ، حتى اضطرت ربة الدار إلى أن تنضحها بشئ من ماء لتردها إلى الاتزان والسكون .

فلما ثابتت محبوبة إلى نفسها واستنبأها ربة الدار عن خطبها وخطب الفتاة ، سمعت منها كلاماً لم يكد يبلغ نفسها حتى انهلت دموعها له غزيراً : سمعت منها أنها وجدت في زاوية من زوايا بيتها هذين الطبقين ، فلم تشك في أن ابنتها تخون سادتها وتسرق ما في دارهم من متاع . لم يبق إذن إلا أن تسرق ، فتحون من يحسنون إليها وإلى أهلها ، ويتيحون لهم حياة فيها شئ من نعمة ورضا ! لم يبق إذن إلا أن تسرق فتدخل الشر على أهلها وتزيد عيشهم ضيقاً إلى ضيق ، وحياتهم شقاء إلى شقاء . من أجل هذه السرقة التي استكشفتها قتر عليهم في الرزق، فردت هي عن بعض الدور التي كانت تصنع فيها الخبز ، ولم يدع زوجها إلى بناء البيوت ولا إلى تسوية الطوب منذ وقت طويل . لقد كنا نسأل عى مصدر هذا الشقاء ، فقد عرفناه الآن . إن لنا ابنة سارقة تخون سادتها وتختلس ما عندهم من متاع .

قالت ربة الدار وقد كفكت عبراتها : على رسلك أيتها المرأة ! فان ابنتك لم تسرق هذين الطبقين ، وإنما كافتها أن تحملهما إليكم أمس مع الليل ، وفيهما

شئ من طعام ، كدأى معها دائماً . وما أرى إلا أنها قد نسيتهما حين أقبأت على عملها مع الصبح . قالت محبوبة : فانها لم تحمل إلينا أمس طعاماً كما أنها لم تحمل إلينا طعاماً قط . وانجلى القصة بعد قليل ، وتبين أن خديجة كانت تستحي أن ترفض ما تكلفها سيدتها أن تحمل من الطعام إلى أهلها ، وكانت تستحي أن تحمل إلى أهلها هذا الطعام ؛ فكانت إذا خرجت بالطبق أو الأطباق تخفت مما فيها تهديه إلى الفقراء إن وجدت في طريقها الفقراء ، وتلقيه إلى الكلاب إن لم تجد في طريقها إلا الكلاب ، وتلقيه في عرض الطريق إن لم تجد في طريقها ناساً ولا كلاباً . ثم تضع الأطباق في زاوية من زوايا البيت ، فإذا أصبحت عادت بها إلى الدار باسم ظاهرة الرضا ، كأنها قد وسعت على أهلها بما حملت إليهم من رزق . ولكنها في ذلك اليوم قد أعجلت عن حمل الطبقين ، ولم تذكرهما إلا حين رأت أمها مقبلة تحملهما وتسألها في غلظة عنهما أين كانا ومن أين سرقتهما . ثم لا تمهلها ولا تنتظر منها جواباً ، وإنما تجذب شعرها باحدى يديها ، وتلهب جسمها بذلك الغصن اليابس في يدها الأخرى ، ويأخذها الغضب فتصيح ، والفتاة يأخذها الألم فتبكي ، وكلما أمعنت الفتاة في التحيب أمعنت أمها في الصياح .

منذ ذلك اليوم عرفت ربة الدار أن خديجة خادم لا كالخدم ، وفتاة لا كالفتيات ، فأثرتها بالمودة ، واختصتها بالحب ، وكادت تتخذها لنفسها صديقاً . وقصت على زوجها القصة آخر النهار ، فرق للفتاة وأهلها ، وأوصى امرأته بها وبهم خيراً ، وتلا قول الله عز وجل : « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم . »

وفتيان القرية يتسامعون بقصة خديجة هذه، ويتحدثون بما تصور هذه القصة من تعفف لا يجذونه عند الأغنياء ، ومن حياء نادر لا يجذونه فيما يشهدون من أمور الناس ولا فيما يقص عليهم من أحاديث الجدات . وفتيان القرية يتحدثون عن جمال خديجة الفاتن ، وحسنها الذي يسحر العيون ويغلب القلوب ويملك الأبواب . وفتيان القرية يسرون في أنفسهم حباً لخديجة وإعجاباً بها وطمعاً فيها ، ويعلنون بألسنتهم إطراء لخديجة وثناء عليها . والأمانى تلعب

بعقولهم كل ملعب ، وتسلك بقلوبهم كل سبيل . ثم يتقدم الخاطب ذات يوم من أسرة ليست عظيمة الحظ من الثراء ، ولكنها بعيدة كل البعد عن الإعدام . لها أرض تزرع غير بعيد من القرية ، ولها ماشية تخرج من الدار مع الصباح وتعود إليها مع المساء ، وتغل على الأسرة خيراً كثيراً .

والفتى قوى موفور الصحة ، عظيم النشاط ، جميل المنظر ، منطلق اللسان ، ولا سياحين يأخذ زينته ويذهب إلى المسجد ليشهد صلاة الجمعة ثم يعود فيأخذ مع رفاقه في ضروب من العبث وفنون من الحديث .

وأسرة خديجة تسمع أول الأمر ولا تصدق ، ثم تعرف بعد إنكار ، وتقبل بعد تردد فيه كثير من الأمل الذي يحى النفوس ، والخوف الذي يميت القلوب . وما يمنع هذه الأسرة البائسة أن تجد في هذه الخطبة روحاً من الله ، سيتيح لها رخاء بعد شدة ، وسعة بعد ضيق ؟ وما يمنعها أن ترى نفسها وبؤسها ، فتشفق من إصهارها إلى أسرة ذات سعة ويسار ؟ ولكن الفتى صادق محب ملح في صدقه ووجه . وأسرته لا تعدل برضاه وسعادته شيئاً آخر ، فهي صادقة ملحة في صدقها ، تبتغي الوسائل إلى إقناع البؤس بأن يصهر إلى النعيم . وقد استقامت الأمور بين الأسرتين ، ولكنها لم تستقم في نفس خديجة ، فهي تمتنع على هذا الزواج ، وتلج في الامتناع ، تؤثر حياتها هذه التي تجيها خادماً على تلك الحياة التي تدعوها إلى الحرية والاستقلال بأمر نفسها والقدرة على معونة أهلها . وهي تمتنع وتمتنع وتلج في الامتناع ، حتى تثير الريبة في نفس أبويها ؛ فما ينبغي أن تصر على هذا الإباء إلا أن تكون قد قصرت في ذات نفسها ، وفرطت فيما للشرف على الفتاة من حق .

ومحبة تفضى بسرها هذا البشع إلى سيدة خديجة في صوت يقطعه البكاء وتغمره الدموع . ولكن سيدة خديجة تردّها إلى القصد وتعيد الطمأنينة إلى نفسها البائسة وقلبها القلق ؛ وما تزال بالفتاة تلاينها حيناً ، وتجاشئها حيناً آخر حتى تختلس منها الرضا اختلاساً . وقد احتفلت أسرة الفتى ليوم الزفاف واحتفلت سيدة خديجة ليوم الزفاف أيضاً ، وهيئت الفتاة لهذا اليوم المشهود من حياتها كأحسن ما تهيا الفتيات من بنات الطبقة الوسطى لمثل هذا اليوم . وأبت سيدة خديجة إلا أن يبدأ الزفاف من دارها لا من دار شعبان .

وفي ذات ليلة كانت محبوبة قد انكفأت على وجهها أمام بيتها الحقيق ،

تريد أن تبكى فلا تجد الدموع ، وتريد أن تتكلم فلا تجد الألفاظ ، وإنما يتردد في حلقها صوت خفى منكر ، إن دل على شئ فأنما يدل على خوفها وهلعها مما ستكشف عنه ساعة من ساعات هذا الليل حين يدخل الفتى على زوجته . وهي كذلك ملقاة على الأرض يضطرب جسمها من حين إلى حين اضطراباً عنيفاً ، وتجري في أطرافها رعشة تحف لحظة وتعنف لحظة أخرى ، ويتردد في حلقها هذا الصوت المنكر البغيض ، والفرح من حولها يملاً قلوب الشباب بهجة وسروراً .

ثم تنطلق الزغاريد كأنها سهام من فضة تشق ظلمة الليل - الحالكة ، وتسمع طلقات للبنادق هنا وهناك ، ويظهر جمع من النساء والصبية قد نصبوا شيئاً يشبه أن يكون راية قانية ، وهم يهتفون بألفاظ ينكرها السمع ويمجها الذوق ، وسهام الزغاريد منطلقة يتبع بعضها بعضاً ، كأنما تريد أن تمزق أحشاء الليل تمزيقاً ، وامرأة وقاح تهز محبوبة هزاً عنيفاً وترجرها زجراً مخيفاً ، وتقول لها في صوت يسمعه الناس : أفيق ! ثوبى إلى نفسك ! ماذا تخافين ؟ لقد بيضت خديجة وجهك ووجه شعبان .

وتثوب السكينة إلى محبوبة قليلاً قليلاً ، وقد أقامها النساء فأجلسنها وقدمن إليها شيئاً من ماء لتسترد صوابها كاملاً وقوتها موفورة .

وتنقضى الليلة كما تنقضى ليالى الأعراس ، ويقبل النهار من غد ، ولكن خديجة لا تبدو للزائرات إلا مكرهة على ذلك إكراهاً . تسمع منهن كل شئ ولا تقول لهن شيئاً ، تحاول أن تمسك دموعها فلا تجد إلى إمساك الدموع سبيلاً . وهن يسألنها ، ويتساءلن فيما بينهن ما خطبها وما مصدر هذه الكتابة التى تغمر نفسها ، وهذه الدموع التى تغمر وجهها ؟ ومتى رأى الناس فتاة يملاً قلبها الحزن فى مثل هذا اليوم الذى تفيض فيه القلوب فرحاً وبشراً ! هن يسألنها فلا يجدن عندها جواباً ؛ لأنها هى لا تجد عند نفسها جواباً ، أو قل إن الجواب مستقر فى نفسها ، ولكنها لا تستطيع أن تبديه لأنها لا تستطيع أن تصل إليه ولا أن تظهر عليه . وهن يتساءلن فيما بينهن فلا يجدن جواباً لما يدور على ألسنتهن من سؤال . ولو جرت أنفسهن على سجيتهن لاخترعن الجواب على تساءلهن اختراعاً . وأى شئ أيسر عليهن من الرينة تثار بالحق وبالباطل ! لقد رأينا الفتاة أمس ترف إلى زوجها شاحبة الوجه ممتعة اللون

زائغة البصر ، لا تمسك نفسها إلا في جهد ، كأنما كانت تساق إلى الموت وهي تنظر إليه . ولقد كانت أمها ملقاة على الأرض تضطرب اضطراب من مسها الصرع وركبها الشيطان . أليس في كل هذا وفي بعض هذا ما يريب ؟ ولكنهن رأين الراية القانية ترفع في ظلمة الليل وبين خفقان المصاييح . والضحي يرتفع ، والنهار يوشك أن ينتصف ، وهذه سيدة خديجة قد أقبلت زائرة لها ، تحمل إليها التحية وتحمل إليها الهدية أيضاً ، فترى وتسمع ويرونها ما ترى وما تسمع .

ثم تخلو إلى الفتاة خلوة تطول شيئاً ، وتخرج من عندها متضاحكة تقول لمن حولها : عبث أطفال ، وحياء فتاة غافلة لن تلبث الأيام أن تذهب به كما تذهب بكثير من الأشياء .

ولكن الأيام تمضي ولا تذهب بشيء ، أو يخيل إلى من حول خديجة أن الأيام تمضي كما تعودت أن تمضي في أعقاب الأعراس . فالفتاة هادئة مطمئنة وإن كان وجهها الصبوح قد فقد غير قليل من جماله وبهجته ، وغشيته سحابة مقيمة من حزن رقيق يزيد بها إلى النفوس حبا ، ويزيد موقعها في القلوب حسناً ، وإن كان صوتها الرخص العذب الصافي الممتلئ ، قد جرت فيه نعمة حزينة متكسرة ، تجعله ألد موقعاً في السمع ، وأسرع نفوذاً إلى القلب . وزوج الفتاة سعيد مغتبط كأحسن ما يسعد الأزواج ويغبتطون .

وينطلق الفجر ذات يوم جريئاً يريد أن يمحو آية الليل ، وتغمر الأرض هذه الساعة الحلوة التي تكون بين انطلاق الفجر وإشراق الشمس ، والتي كان صوت خديجة يحضرها في النفوس بما يملؤها من ترقق النسيم ، وحفيف الأوراق وهفيف الغصون ، وسقوط الندى ، وغناء الطيور واستيقاظ الطبيعة . وفي هذه الساعة الهادئة الحلوة يخرج النساء والعداري من أهل القرية ساعيات إلى النهر متغنيات جمال الحياة كأنه حلم يلم بنفوسهن في آخر عهدها بالليل ، وأول عهدها بالنهار . ثم يعدن إلى القرية صامتات ، قد أخذن الابتسام يغادر ثغورهن قليلاً قليلاً ، وأخذت الكتابة تغشى وجوههن شيئاً فشيئاً ، وأخذن الهن يستيقظ في قلوبهن فنوناً وألواناً ، وأخذن يتهيان لاحتمال أثقال الحياة وآلامها ما غمرت الشمس قريتهن بنورها الملح الثقيل . ذهبن إلى النهر فرحات مرحات ، وعدن إلى القرية كسفات البال بألسات

النفوس . وافترقت خديجة حين تقدم النهار قليلا فلم توجد ، وإنما وجدت على شاطئ النهر وفي مكان بعيد من حيث تعود النساء أن يملأن جرارهن جرة مملوءة وإلى جانبها بعض الحلى . والتمست خديجة في النهار فلم يظفر بها الباحثون . قالت سيدتها وهي تكفكف دموعاً تريد أن تنسجم ، وتثبت صوتاً يريد أن ينفطر : لقد أكرهت خديجة إكراهاً على الزواج ، ومس حياءها النقى ونفسها الطاهرة منه دنس . لم يستطع الحب أن يغسله فغسله الموت .

قال سيد خديجة : وصنع الله لأبويها ! فقد كتب على محبوبة أن تطوف ما عاشت بالدور تصنع لأهلها الخبز ، وكتب على شعبان ألا ينظف يديه ولا ثيابه من الطين .

طه حسين

تقرير ديوان المحاسبة

لما استكمل المصريون سلطانهم البرلمانى بنفاذ الدستور فيهم سنة ١٩٢٤ ، اتجه خاصتهم إلى الدعوة لاستتمام الهيئات المشرفة على صحة تطبيق الأحكام الدستورية والمعاونة على تحقيق الرقابة البرلمانية ، والواقية من طغيان الاجراءات الادارية ، فطالبوا بإنشاء « محكمة دستورية عليا » تفصل فى دستورية التشريعات التى تصدر حتى من البرلمان نفسه ، و « ديوان محاسبة » يسهر على تمشى وسائل إيرادات الدولة ، وأساليب نفقاتها ، مع أحكام القوانين المالية ونصوص الدستور ، و « مجلس دولة » يقوم القضاء الادارى فيه انعوج من أوامر الادارة وقراراتها ويرفع عن الناس مظالم هذه الأوامر والقرارات .

وقد تلكأت مصر فى إنشاء محكمتها الدستورية العليا ، لكنها انتهت إلى إقامة صرح ديوان المحاسبة منذ أربع سنين ، ومجلس الدولة هذا العام . وفى حين أن القضاء الادارى بمجلس الدولة يتولى أحكامه مستقلا دون أن يرجع فيها لأحد ، ودون أن تعقب عليها هيئة ، فإن ديوان المحاسبة يعمل فى الواقع عيناً للبرلمان ويرجع إليه بنتائج أعماله عن طريق التقارير التى يقدمها إلى مجلسيه عن الحساب الختامى للحكومة المصرية لكل سنة من سنواتها المالية . وكان آخر هذه التقارير هو الذى قدمه رئيس ديوان المحاسبة محمد بهى الدين بركات باشا فى الثانى عشر من شهر يناير الماضى عن حساب ختامى الحكومة المصرية للسنة المالية ١٩٤٥ - ١٩٤٦ . وقد أخرجته المطبعة الأميرية بالقاهرة فى مجلد من ثلاث مئة وست وعشرين صفحة من قطع مضابط البرلمان الكبير . وقد تناول واضعه فيه بالبحث والملاحظة والتعليق الحساب الختامى عن تلك السنة المالية للحكومة المصرية ولجامعة فؤاد الأول وجامعة فاروق الأول ، كما تضمن التقرير فى ملحقات له نصوص كتب متبادلة ، وقرارات وزارية هى بعض أسانيده التى يحيل إليها فى سياق تقديمه الملاحظات والتعليق بالآراء .

أما التقرير عن الحساب الختامى للحكومة المصرية فقد تقدمته « مقدمة » ووزع بعدها على خمسة أقسام : الملاحظات العامة ، والإيرادات ، والمصروفات ، والمخازن والأعمال الصناعية والمزارع الحكومية ، وحسابات التسوية . وأما تقرير الحسابين الختاميين للجامعتين فقد قدم لأولها بملخص للإيرادات والمصروفات ووزع العرض فيها على أقسام للإيرادات والمصروفات والمخازن وحسابات التسوية . وأما الأسانيد فمتصلة في عمومها بموضوع اعتبار بعض التبرعات من التكاليف ، وإعفاؤها من الضريبة ، وقد كان محل خلاف ، لا يزال بين ديوان المحاسبة من ناحية ، ووزارة المالية ومصلحة الضرائب من ناحية ثانية . وإن المطلع على تقرير ديوان المحاسبة الأخير ، وهو الرابع ، ليعتبره بعد استيعابه ورقة اتهام للأداة الحكومية في مصر تسند إليها فوق التغاضى والتغافل جرائم « مخالفة قواعد الميزانية ، وتجاوز الاعتمادات ، والخروج السافر أو المقنع على قواعد الدستور المقررة بالمادة ١٤٣ منه » ، إلى جانب « تجاوز وزير المالية حدود سلطته » و « تحطى القوانين ومخالفة أحكامها بمجرد اتفاق موظف صغير أو كبير مع الوزير » ، كما تسند « النقص الفاضح في السجلات » و « عدم توافر الدقة والنظام في كثير من الحسابات بالفروع المختلفة » ، وكذلك « انطواء مسائل يخطئها العد في كثير من الأحيان على اختلاس أو تزوير أو تبديد أو إهمال ترتب عليه أضرار بصالح الخزينة » والسكوت على ذلك كله رغم « كتابات الديوان المتكررة وصرخاته المتوالية » ووصفه بالالتجاء إلى تغيير القوانين لأن المشرفين على تنفيذها ثبت عجزهم وقصورهم عن القيام بمهمتهم الإدارية والفنية بأنه « سبيل ملتبس للتهرب من المسؤولية ولستر العيوب » .

وليس المقام مقام تحليل غائر للتقرير وذكر تفاصيل الأمور التي يدل بها على صحة تلك التهم الخطيرة التي يسندها إلى الأداة الحكومية المصرية ، ولكننا نذكر على سبيل المثال ليس غير بعض الملاحظات التي تضمنها التقرير في بعض بنود « ملاحظاته العامة » إذ دلل في بعضها على « وقوع تجاوزات في بعض أبواب الميزانية جملتها ١,٤٧٤,٧٨٥ جنيه دون استئذان سابق من البرلمان بشأنها » ، وفي هذا مخالفة صارخة لحكم صريح من أحكام الدستور ، ودلل في بعضها الآخر على « عدم تضمين مجلد الحساب الختامى جميع متأخرات

الحكومة » ، و « تضمين فائض الميزانية بمبالغ كبيرة ثم تحصيلها فعلا لكن لم يثبت حق الدولة فيها بصفة قاطعة إذ لا يزال أمرها محل طعن أمام القضاء » بدل ترحيلها إلى حساب الأمانات تحت تسويتها إلى أن يفصل فيها القضاء نهائيا ، كما دلت على « فقد المستندات وضياع عدد من الملفات والوثائق الرسمية وما قد ينبئ عنه ذلك من إهمال أو تعمد إخفاء » ، وعلى « تأخر بعض الوزارات والمصالح في إرسال مستندات الصرف الخاصة بها إلى الديوان لمراجعتها » .

وقد تناول التقرير في أقسامه المتعددة كل تلك البنود بالتفصيل . وقد تقف والقراء معه عند تفصيل من تفصيلات بند « متأخرات الإيرادات » وعدم تضمين الحساب الختامي جميع هذه المتأخرات ، وهو التفصيل المتصل بالسلطات البريتانية على التخصيص . فقد أثار التقرير إلى أن هذه السلطات قد شغلت منذ سنة ١٩٣٩ مساحات من الأراضي بمينائي الاسكندرية والسويس دون أن تحرر عنها عقود إيجار ، « ولم تقم السلطات المشار إليها بتسديد الإيجار المستحق رغم المكاتبات التي وجهت إليها في هذا الشأن » . وكذلك أشار التقرير إلى متأخرات إيجارات بعض المطارات التي شغلها تلك السلطات ، كما أشار بعد ذلك إلى ما يكاد يتاخم القضيحة من نوع تلك المتأخرات ، وهي المبالغ المستحقة لمصلحة السكك الحديدية والتلغرافات والتليفونات . فقد اتضح أنها تبلغ في الظاهر ١,٥١٥,٣٥٥ جنيه ، وأن هناك « إلى جانب هذه المتأخرات الظاهرة مبلغاً يقرب من تسعة ملايين من الجنيهات لم يظهر فيها ، وهو عبارة عن الزيادات التي تقرر في أثناء الحرب على أجور نقل البضائع والركاب ولم تدرج هذه الزيادة في الفواتير التي أرسلت إلى القوات الأجنبية نظراً لأن أمر استحقاقها كان موضع خلاف بين مصلحة السكك الحديدية وتلك القوات » . كما اتضح أن « استمارات الجيش البريتاني تبلغ قيمتها مئات الألوف من الجنيهات قد أهملت مصلحة السكك الحديدية المطالبة بها ، وإنها حين بحثت عنها قد وجدت مفقودة » .

ثم يعرض التقرير بعد عرضه لتلك « المتأخرات » إلى « المرفوعات والاعفاءات » . وقد اتضح مما ورد في هذا الصدد أن « قد كان للسلطات العسكرية البريتانية النصيب الأكبر في رقم المسموحات الجمركية إذ بلغت ١٢,٦٤٥,٤٧١ جنيه ، وهو ما يعادل ٩٨,٠ من مجموع المسموحات ، كما بلغ مجموع المسموحات التي

تمتعت بها هذه السلطات منذ سنة ١٩٤٠ إلى آخر أبريل سنة ١٩٤٦ مبلغاً قدره ٧١٧,٢٠٧,٧٦ جنيه . وإلى هذا فقد « لاحظ الديوان أنه فضلاً عما تتمتع به السلطات البريطانية من إعفاءات تم التعاقد عليها في سنة ١٩٢١ وألحقت بمعاهدة سنة ١٩٣٦ ، فإن وزارة المالية قد منحت السلطات العسكرية الأجنبية امتيازات وتسهيلات مؤقته بلغ عددها اثنين وعشرين امتيازاً ، وكان من مقتضاها أن أعفيت تلك السلطات في سنة واحدة من دفع نيف وثمانية وثلاثين مليوناً من الجنيهات » . وهي إعفاءات يلاحظ الديوان « أنها لم تعرض على البرلمان للحصول على موافقته عليها تطبيقاً لحكم المادة التاسعة من معاهدة سنة ١٩٣٦ ذاتها التي نصت على أن ما تتمتع به القوات البريطانية من إعفاءات ومميزات أنها قد قررت على سبيل التحديد » . وكذلك يضمن التقرير ملاحظاته إشارة « إلى إعفاء بريد أفراد الجيش البريطاني من رسوم التخليص » ويرى أن الاتفاق على هذا الاعفاء « مخالف للقانون رقم ١ لسنة ١٩٢١ الخاص بتقرير رسوم البريد ، فضلاً عن أن المعاهدة المصرية الانجليزية المبرمة في سنة ١٩٣٦ لم ينص فيها على أى امتياز أو تخفيض للرسوم البريدية » .

وقد عني التقرير بين أهم ما عني به بمصلحة الضرائب ومخالفة بعض تصرفاتها للقانون والدستور واتصال غير واحد من هذه التصرفات بالسلطات البريطانية أيضاً . وذكر في ذلك الصدد قرارات لوزير المالية باعتبار « التبرعات لاكتابات الشكر للانتصار التي تقوم بجمعها هيئة من رجال الجالية البريطانية في مصر ، والتبرعات الممنوحة لمساعدة منكوبي سوريا ولبنان ، والتبرعات لإقامة مؤسسة صحية تخليداً لذكرى المغفور له أحمد ماهر باشا بمدينة الاسكندرية من نوع التكاليف التي تحتسب ضمن المصروفات ولا تحصل عنها ضريبة » ، في حين أن الديوان يذهب « إلى أن التبرعات مهما يكن نوعها لا يجوز أصلاً تحميل حساب الأرباح والخسائر بها ؛ إذ أنها لا تعتبر من المصاريف اللازمة لاستثمار المنشأة وإنتاج الأرباح ، وأنها لا تخرج عن كونها وجهاً من وجوه استعمال الربح ، فضلاً عن أن مصلحة الضرائب جرت على هذا المبدأ ذاته بالنسبة للزكاة الشرعية » ، والدستور ينص صراحة على أن « فرض الضرائب أو إلغائها أو الاعفاء منها لا يكون إلا بقانون » .

وكذلك ذكر التقرير النقابة التجارية للملكة المتحدة ، وقد امتنعت

هذه النقابة عن تسديد الضرائب المستحقة عليها مخالفة أحكام الأوامر العسكرية المقررة ، فكانت مسألتها بين المسائل التي لفت الديوان نظر وزارة المالية إليها والتي عالجها في تقريره عن الحساب الختامي لسنة ١٩٤٢ - ١٩٤٣ .

وقد تبين للديوان أخيراً أنه تم الاتفاق بين وزارة المالية وممثلي الشركة « على أن تخضع أرباح الشركة ، عن العمليات الخاصة بالمشتريات والمبيعات المحلية لغير القوات المحاربة ، للضريبة على أساس أن الشركة رجحت في هذه العمليات » ، كما تبين له أن هذا الرأي « قد استند فيما انتهى إليه من نتائج إلى ما ثبت من أن أسهم الشركة ملك للحكومة البريطانية » . ويلاحظ التقرير « أن ملكية المنشأة ليست محل بحث في هذا الشأن ، وأن طبيعة الأعمال التي تباشرها هي التي تحدد ما إذا كانت هذه الأعمال تخضع للضريبة أو تعفى منها » . وقد رأى الديوان من المناسب أن يشير في ذلك الصدد إلى ما أورده حضرة المستشار الملكي المساعد للضرائب في مذكرته المرفوعة بتاريخ ٢٤ يناير سنة ١٩٤٥ لسعادة وكيل وزارة المالية لشؤون الضرائب ؛ فقد قرر حضرته فيها أنه « ليست هناك معاملة خاصة بالنسبة للحكومات مادامت تقوم بأعمال خاضعة للضريبة ، ولا استثناء من هذه القاعدة العامة إلا للجيش البريطانية في مصر بمقتضى أحكام القانون الصادر بمعاودة التحالف المصرية الانجليزية ، على أن يكون الإعفاء بالنسبة للأعمال التي تقوم بها هذه الجيوش لا التي يؤديها الغير لها ، كالوردين ومن في حكمهم » ، كما نوه حضرته في ختام مذكرته « بضرورة تنفيذ أحكام قوانين الضرائب ولوائحها بكل دقة على هذه الشركة » . وحرر الديوان لوزارة المالية كتاباً بما تقدم « طلب في ختامه المبادرة إلى استيفاء إجراءات الربط والتمويل الخاصة بتلك الشركة وفقاً لما تقضى به أحكام قوانين الضرائب ، مع اتخاذ الإجراءات الكفيلة بصون حقوق الخزانة في تلك الضرائب وسرعة تحصيلها » .

ونقف بالقراء عند هذا الحد من التمثيل . والتقرير عامر بمجالات المخالفة ومواضع المؤاخذه . وقد قدم الديوان تقريره إلى البرلمان فوفته لجنة المالية بمجلس الشيوخ حقه من الدرس ، ووفاه المجلس كله حقه من التقدير ، ووفى رئيس الديوان ومعاونيه حقهم من الشكر . وسيبقى على البرلمان أن يسلح الديوان بما ينقصه من وسائل التحري ومن تمكين هذه الوسائل من الفعل

والانتاج والحسم . والديوان يشكو من أن الوزراء يتغافلون عن إجابته جميعاً ولا يبدون رأياً فيما يكتبه إليهم ، ويرجو العمل على معالجة الأمر .
أما نحن فقد سرنا أن يتيح لنا رئيس تحرير « الكاتب المصرى » مطالعة تقرير ديوان المحاسبة إذ طلب إلينا أن نخص مقالنا هذا به . وقد سرنا أن يذيع « الكاتب المصرى » شيئاً عن ديوان المحاسبة حتى يقدر القراء شيئاً من فضله .
على عدل الأمور فى الإدارة الحكومية المصرية .

محمود عزمى

في أفق السياسة العالمية

حيرة الترك بين الشرق والغرب

خطب مستر ترومان رئيس الولايات المتحدة في ١٢ مارس الماضي أمام الكونجرس أو المؤتمر الأمريكي الذي يجمع بين شيوخ الدولة ونوابها ، وطلب إليه الموافقة على عقد قرض بمبلغ أربعائة مليون دولار لمساعدة اليونان وتركيا . وقد قال في عرض خطابه : « إنه في سبيل تقدم الشعوب في ظلال السلم وإبعاد أسباب القهر والاستبداد ، نهضت الولايات المتحدة بدور رئيسي في تكوين هيئة الأمم المتحدة . . . ولا يمكن أن نحقق أغراضنا إلا إذا عقدنا النية على مساعدة الشعوب الحرة في المحافظة على نظمها الحرة وسلامة وطنها ضد الحركات العدوانية التي تحاول فرض نظمها الدكتاتورية عليها . . . فاذا أمسكنا عن مساعدة اليونان وتركيا في هذا الوقت العصيب فسيكون لأمساكنا هذا آثار بعيدة المدى تصيب الغرب والشرق جميعاً . . . » وقبل ذلك بأسابيع قليلة تكلم مستر جيمس بيرتر الوزير الأمريكي السابق أمام لجنة الشؤون الخارجية لمجلس الشيوخ الأمريكي فقال : « إن ما قد تعانيه أوروبا في المستقبل من قلق واضطراب سيكون مصدره على الأرجح بلاد البلقان » . والخطابان يعيدان إلى الذهن القول الذي اشتهر في الربع الأول من هذا القرن بأن بلاد البلقان إنما هي مستودع البارود الذي قد ينفجر في أي وقت فتندلع نيران الحرب .

وقد اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى فعلا من البلقان عندما اغتال طالب صربي في يونية سنة ١٩١٤ الأرشيدوق فرانس فردينند ولي عهد النمسا وزوجته في أثناء زيارة رسمية لمدينة سراييفو عاصمة البوسنة . واقتربت ساعة نشوب الحرب العالمية الثانية من غير شك حين اعتدت إيطاليا على ألبانيا في أبريل سنة ١٩٣٩ قبل الحرب بين ألمانيا والحلفاء بأقل من خمسة أشهر . وها هو ذا الرئيس الأمريكي ومعه وزيره السابق يندران بأن البلقان سيكون

من جديد موطن الداء ومصدر الشرر إذا ما تلبدت الغيوم في جو أوروبا السياسي وأذنت باقتراب عاصفة الحرب الهوجاء .

ولم يعمد الرئيس الأمريكي في خطابه إلى الأسلوب الدبلوماسي المرن ولكنه جهر في صراحة بأن المساعدة التي ستقدمها أمريكا لتركيا واليونان إنما يراد بها علاج مسألتين : الأولى في اليونان وهي وضع حد لأعمال الإرهاب التي تقوم بها فئات مسلحة يقودهم الشيوعيون متحدّين في ذلك سلطة الحكومة ومهددين حياة الدولة ذاتها . والثانية في تركيا وهي مساعدة تركيا على الوفاء بمطالبها العصرية التي لا غنى عنها للاحتفاظ بسلامة أراضيها ، تلك السلامة التي يتوقف عليها السلام العام في الشرق الأوسط .

والمسألتان في حقيقة الأمر متصلتان ويكمل بعضهما بعضاً . فالضغط على اليونان من ناحية الشيوعيين سيؤدي بطبيعة الحال إلى إحراج مركز تركيا وإحاطتها من معظم جهاتها بسور شيوعي حديدى قد لا تقوى على دفعه . والضغط على تركيا من ناحية المضايق ومطالب روسيا بشأنها إنما يراد به الوصول إلى اليونان وبجر إيجه ثم البحر المتوسط . وتركيا واليونان بحكم موقعهما الجغرافى تقفان حارستين في مفترق الطرق بين الشرق والغرب ، وكلتاها تحتل منطقة على جانب عظيم من الخطورة الاستراتيجية في البحر المتوسط والشرقين الأدنى والأوسط والاثنتان قد اتجهتا في سياستهما وجهة غربية ديمقراطية بعض الاتجاه جعلتهما غريبتيّن عن سائر بلاد البلقان التي اضطبغت جميعها باللون الشيوعي بعد الحرب العالمية الثانية وأصبحت موالية لحكومة الاتحاد السوفيتى التي تريد أن تأخذ طريقها ذلولاً إلى البحر المتوسط ، فلا تقف تركيا أو اليونان حائلاً بينها وبين ذلك البحر .

والحقيقة أنه لا يعترض طريق روسيا إلى البحر المتوسط في زمن السلم أى حائل في تركيا أو في اليونان لا من حيث الملاحة التجارية ولا من حيث الملاحة الحربية . ولكن الدول حتى بعد إقرار السلم وميثاق هيئة الأمم المتحدة لم تفتأ تفكر وتدبر خططها وسياستها بعقلية الحرب . فاذا نشبت حرب أخرى واشتبكت فيها روسيا فان تركيا إن لم تكن متحالفة معها ستسيطر حتماً على المضائق وتغلق في وجهها بوابتى البسفور والدردنيل المؤديتين إلى البحر المتوسط . وقد تكون تركيا متحالفة مع الجانب المعادى لروسيا فتفتح البوابتين لأعدائها كما فتحتهما

في أثناء حرب القرم ، وتعرض بذلك أساطيلها وقواعدها في البحر الأسود وقواتها في جنوبي روسيا وغربي آسيا لأعظم الأخطار . وليس في وقوف تركيا موقف الحيدة في زمن الحرب ما يجنب روسيا موارد التلف والخسران التي تتوقاها ؛ فقد كانت تركيا محايدة في الحرب العالمية الثانية ، ونال روسيا بسبب ذلك الحياد من الضر والعنت ماجعلها تنقم على تركيا وتسى إليها حتى الآن ؛ فقد سدت تركيا المضائق حقا في وجوه المتحاربين ، ولكن ألمانيا لم تلجأ في حربها مع روسيا إلى القوة البحرية بل كان جل اعتمادها في مواصلاتها على الطرق البرية والجوية ، على حين كانت روسيا في حاجة ملحة إلى فتح المضائق حتى تستطيع أن تتصل بحلفائها لإسعافها بالأسلحة المختلفة والمؤن والذخيرة في أيام محنتها عن طريق البحر المتوسط بدلا من استخدام طريقى البحر الشمالى وخليج فارس وكلاهما طويل موحش مخوف بالأخطار الحربية والطبيعية .

لذلك كان تشدد روسيا الآن وعدم سماحها لتركيا بأن تستأثر بفتح البوابتين المؤديتين إلى البحر المتوسط . ولذلك أيضا كان تمسك تركيا بحقها الطبيعى تسندها بريطانيا والولايات المتحدة ، وكلاهما تأييان على روسيا أن تصبح لها قواعد في البحر المتوسط توطد فيها نفوذها وتستطيع منها وقت الحرب أن تشب بسهولة إلى المواضع الاستراتيجية الحيوية في منطقتى القناة والشرق الأوسط . ومن هذا يتضح أن المحنة الحالية التى توشك أن تتردى فيها كل من تركيا واليونان إنما سببها وقوفهما في طريق عملاقين عظيمين يريدان أن يتسليا بلعبة سياسة القوة في العالم . وإذن فويل للدول الصغيرة التى تعترض طريقهما وتحاول أن تحول دون أن يأخذ بعضهما برقاب بعض . فهذه الدول إذا انحازت إلى أحد الجانبين تعرضت لسخط الجانب الآخر ونقمته ، وإن هى هادنت أو حايدت الفريقين باءت بغضب الاثنين ، فهى في الحالين الضحية وكبش الفداء ! ولقد كانت ظروف الحرب العالمية الأولى مؤذنة بقرب تحقيق أحلام روسيا والخلاص من عقدة المسألة الشرقية ، بالموافقة على إقامة قيصر روسيا بعد انتهاء الحرب على عرش الخلافة العثمانية في مدينة قسطنطين ووضع المضائق في يدها ؛ فقد ارتضى الحلفاء الثلاثة بريطانيا وفرنسا وروسيا ذلك الوضع لروسيا بعد الحرب ، وأكدوا ذلك بمعاهدة سرية بينهم عقدت في لندن في سنة ١٩١٥ . ولكن لم تكد تمضى سنة واحدة على هذا الاتفاق حتى قامت الثورة الكبرى في

روسيا فأودت بكل ما خلفته حكومة القيصر من خطط ومواثيق ومعاهدات سرية كانت أو جهرية ، وأعلن الثوار على الملأ أنهم يؤمنون بالمساواة بين الشعوب ، ويستنكرون اغتصاب الأقاليم التي ليست لهم ، وأنهم لا يقرون المعاهدات السرية ويبرءون منها ومن شروطها . ومالبثوا أن شفَعوا القول بالفعل ، فأعلنوا نزولهم عما وعدت به روسيا في معاهدة لندن وفضحوا سرية المعاهدة فأعلنوا نصوصها ، وبذلك قضوا بأيديهم على الآمال التي كادوا يحققونها بعد كفاح دام قرابة ثلاثة قرون . ألم تكن القسطنطينية والسيطرة على المضائق هي أول أهداف السياسة الروسية منذ اعتلى بطرس الأكبر عرش روسيا ؟ وهل كانت بيزنطة أو القسطنطينية التي وعد بها الروس إلا أرض المعاد ، التي سيورها الله للأرثوذكس ولو بعد حين ؟

لقد أنكر الثوار الروس في سنة ١٩١٧ ذواتهم وبصالحهم ، وسيطرت النظريات والمبادئ على تفكيرهم وعقولهم ، فأضاعوا الفرصة التي ظل الروس يترقبونها قروناً طويلة . وكانت ثمرة الإخلاص وإنكار الذات أن توثقت العلاقات بين تركيا وعدوتها التقليدية ، وارتبطتا بمعاهدة سنة ١٩٢١ وائتلفت سياستهما الخارجية ، وجعلت تركيا منذ ذلك الوقت توجس خيفة من دول الغرب وتظن بها الظنون ثم تولى منها فراراً .

وكانت الثورة الكمالية قد قامت في يوم من صيف سنة ١٩١٩ ودوّت من هضاب الأناضول صرخة الأموات الذين بعثهم مصطفى كمال من قبورهم ، فكأنما نفخ في الصور ، وكأنه يوم النشور ، فاذا الحياة تدب في أجسام الموتى ، وإذا الهزيمة والجوع والضعف تتلاشى أشباحها أمام إرادة أمة قد صممت أن تحيا مستقلة عزيزة الجانب لا سلطان لأجنبي فوق أرضها وإن تألبت عليها جميع القوى العاشمة .

وكانت الدول الغربية هي مبعث تلك القوى العاشمة التي تأمرت في سيقر سنة ١٩٢٠ على تمزيق أوصال تلك الدولة ، فأخذت اليونان تراقيا وجزر بحر إيجه ، وتسابقت إيطاليا واليونان إلى أزمير وغربي الأناضول ، وأعلن استقلال الحجاز وأرمينية وكردستان وانفصال الولايات العربية ، وتألّفت لجنة دولية تشرف على القسطنطينية والمضائق ، وأخرى تشرف على الشؤون المالية . وبذلك استحالَت تلك الدولة التي كانت ملء الأسماع والأبصار قبل مضي سنة

واحدة من إعلان الهدنة سلطنة حقيرة متخاذلة تحت حاية الدول ورحمتها . فهل كان غريباً بعد ذلك أن تنأى تركيا بقضها وقضيضها عن دول أوروبا الغربية ، وأن تجعل بينها وبينهم سدّاً منيعاً حتى لا تلدغ من جحرهم مرتين ؟ ولكن إذا كان الكماليون قد أشاحوا بوجوههم عن أوروبا واستدبروا الغرب ، فانهم كذلك لم يأنسوا إلى الشرق ولم يأبهوا بمصاير العرب والإسلام . وقد كان في مقدمة ميثاقهم الوطني أن ينزلوا نهائياً عن الأقاليم التي تتكلم كثرتها اللغة العربية . وكان الأتراك في قرارهم هذا معذورين ؛ فقد ضاقوا ذرعاً بمشاكل العرب وثوراتهم وناء واتحت عبء الخلافة الإسلامية بأثقال شنت جهودهم واستنفدت أموالهم وعرضت مصالحهم الوطنية الخاصة للتلغ والبوار . ولذلك نراهم أسقطوا من حسابهم بعد الانتصار سياسة الجامعة العربية أو الإسلامية التي استند إليها سلاطين آل عثمان في كفاحهم ضد أوروبا ، وخاصة في عهد عبد الحميد الثاني . فكانت أماناً لهم من تألب دول أوروبا عليهم عدة سنوات .

وبينا كان الكماليون يأترون بالخلافة ويتربصون بها الدوائر كان المسلمون في أنحاء العالم الاسلامي يظهرون سخطاً شديداً وقلقاً مستمراً خوفاً على مصير تركيا والخلافة بعد الحرب . فكان موقف المسلمين إذ ذاك شبيهاً بموقف المواطنين الرومان المنتشرين في معظم أنحاء العالم عقب غارات المتبربرين وسقوط روما في القرن الخامس الميلادي ؛ فقد كانت الحياة من غير روما وحكمها أمراً لم تتحمله نصوص القانون الروماني ولم تتصوره عقول الناس حينذاك . وكذلك ظن المسلمون بعد الحرب العالمية الأولى أن كيانهم الديني يوشك أن ينهار إذا ضاع استقلال تركيا أو ذهبت منها الخلافة . حقا لقد سكت المسلمون حين قامت حركة الثورة أو النهضة العربية في أثناء الحرب بزعامة الشريف حسين أمير مكة ضد الخلافة العثمانية ، ولكن ما كادت الحرب تضع أوزارها حتى علا الضجيج وارتفع صوت الاحتجاج عالياً من بين صفوف المسلمين ، وخاصة من الهند ، ضد ما كان قد بيته الحلفاء لتركيا غير مقدرين أن مصاب السلطنة والخلافة في النهاية لن يكون عن طريق الحلفاء بل عن طريق الكمالين أنفسهم .

وكانت مفاجأة أليمة للعالم الاسلامي أن تصل أنباء إلغاء السلطنة العثمانية وإقالة السلطان محمد السادس في نوفمبر سنة ١٩٢٢ ثم فراره

قبيل اجتماع الدول في لوزان سنة ١٩٢٣ لإقرار الصلح بين تركيا والحلفاء . وفي هذا الصلح نزل الأتراك من تلقاء أنفسهم عن الولايات العربية ، وقد كانوا مستطيعين لو أرادوا بعد انتصارهم على الإغريق وإحباط مساعي الحلفاء ضدهم أن يحتفظوا ولو بالسيادة الروحية على ولاياتهم السابقة . ولكنهم آثروا أن يقطعوا مرة واحدة كل ما كان بينهم وبين العرب والمسلمين من أسباب . وقد وجدت تركيا من روسيا — وهي تناضل أكبر سياسي الغرب في المؤتمر — أكبر نصير وأفصح لسان يترجم للمؤتمرين عن أصدق آماني تركيا بالاتفاق مع روسيا . وكانت نقطة الخلاف التي تهم روسيا والدول بطبيعة الحال هي مسألة المضايق . فقد أصرت بريطانيا وحلفاؤها على إعلان حرية المضايق في السلم والحرب ، حتى تستطيع عند الحاجة أن تحترق أساطيلها المضايق وتهدد روسيا . وبعد جلال وجدال ودفاع مجيد قامت به روسيا لتأييد حق تركيا القديم في السيطرة على المضايق رأت أن تتحرر المضايق في معظم أجزائها وأن يترك لتركيا حق مرور قواتها داخل المضايق وحق تحصين القسطنطينية وإبقاء حامية بها تتألف من ١٢.٠٠٠ جندي ، وحظروا مرور السفن الحربية إذا كانت مجموع حمولتها تفوق حمولة السفن التابعة لأقوى دولة على البحر الأسود . فاعترض المندوب الروسي وقال إن هذا لن يمنع تجمع أساطيل أكثر من دولة واحدة تريد أن تحترق المضايق ، فأبت الدول تعديل الشرط . ورأى المندوب التركي عصمت إينونو الرئيس التركي الحالي أن يساير الدول الغربية ويمالها بعد أن أجابت تركيا إلى معظم طلباتها في أدرنة وتراقيا ومنطقة المضايق . وخرجت روسيا من المؤتمر غاضبي من تركيا التي تخلت عنها في أخرج ساعات المؤتمر ، فأصرتها في نفسها ولم تنسها ، ولكن تركيا لم تبال وخرجت من المؤتمر موفورة القوة عزيزة الجانب مزهوة بانتصارها وبتودد الدول الغربية إليها . وما كادت تنتهي جلسات مؤتمر لوزان حتى جد الكاليون في انقلابهم مولين وجوهم دائماً نحو الغرب ، فشفعوا إلغاء السلطنة بإلغاء الخلافة وإعلان الجمهورية التركية ، وساروا في طريقهم جميعاً تسربلهم البذلات الأوربية خالعين طرايشهم مزينين رءوسهم بالقبعات الافرنجية من كل رسم وصنف وعلى كل لون . وقد حرروا نساءهم وأنزلوهن حلقات الرقص ، واستصحبوهن إلى المقاهي والأسواق . ثم مالبثوا أن ألغوا الطرق الصوفية والتكايا ، وحرموا دراسة الدين . وبعد أن

كان دين الدولة الإسلام أصدروا في سنة ١٩٢٨ قراراً يجعل الدولة مدنية علمانية، وأبدلوا بالحروف العربية الحروف اللاتينية، وسار كمال أتاتورك على رأس وزرائه وكبار موظفيه ومعهم السبورة والطباشير ليعلموا الناس على اختلاف طبقاتهم وأعمارهم الكتابة بالحروف اللاتينية الغربية، التي اعتبرها الجميع كأنها السحر الذي سيحل لهم طلاس النهضة ويفتح لهم أبواب الثقافة الغربية على مصاريعها. ولم يتجه الكاليون في وثبتهم هذه إلا مرة واحدة ناحية الشرق، وذلك حين نقلوا عاصمتهم من القسطنطينية التي صارت إسطنبول إلى أنقرة في قلب الأناضول إمعاناً في التبرؤ من آثار السياسة الرجعية القديمة.

ولم يطل التجافي بين تركيا وروسيا، فقد قام خصام عنيف بين تركيا وبريطانيا بشأن الموصل، وكانت تركيا في مؤتمر لوزان قد اشترطت في مقابل النزول عن الولايات العربية التي كانت تابعة لها أن تحتفظ بالعناصر المسلمة غير العربية، وكان الأكراد الذين يسكنون حول الموصل من أقوى هذه العناصر. وكانت معاهدة سيفر التي لم يقدر لها التصديق والنفاذ قد منحت الأكراد استقلالهم؛ فبات الأكراد يتربصون بالكاليين الدوائر؛ فما إن أصدروا قرارهم بإلغاء الخلافة حتى قامت بينهم في سنة ١٩٢٥ ثورة دينية جامحة لم يستطع الأتراك قمعها إلا بمشقة بعد ثلاثة أشهر. وأرادوا أن يأمنوا جانب الأكراد في المستقبل فطالبوا بريطانيا بترك الموصل الذي كانت قد احتلته منذ ١٩١٨ وأدخلته في حدود دولة العراق الجديدة. ولما استعصى حل الخلاف أحييت المسألة إلى مجلس عصبة الأمم، وقد تكونت لجنة دولية وقررت في النهاية ضم الموصل إلى العراق ما دام الانتداب البريطاني باقياً. وقد وقع هذا القرار على تركيا وقعاً أليماً، وأيقنت أن الدول الغربية تعتبرها كروسيا دولة ثائرة خارجة عن نطاق الغرب.

وكان ارتياح روسيا لخسارة تركيا في نزاعها مع دول الغرب عظيماً؛ فما كادت الأنباء تتراعى به حتى أرسلت رسلها لعقد محالفة جديدة بينها وبين تركيا في ديسمبر سنة ١٩٢٥. وبمقتضى هذه المعاهدة ضمن الفريقان بعضهما لبعض أن يلتزما الحياد الودي إذا هاجم أحدهما فريق ثالث وأن يلجأ إلى المفاوضة بطريق ما لحل مشكلاتهما التي يتعذر تسويتها بالطرق الدبلوماسية. ومنذ ذلك الوقت استقرت الحال في تركيا، وقنعت بمعاهدتها مع روسيا غير ناظرة

إلا إلى مستقبلها لا بالغرب تحتمى ولا إلى الشرق تنتمي . وبذلك استطاعت تركيا الجديدة في مدى اثني عشر عاماً أن تفرغ لتنفيذ برنامج الإصلاح الكمال الذي خلق من تركيا دولة فتية موطدة الأركان مرهوبة الجانب ، ومن الأتراك شعباً جديداً ناهضاً سرعان ما استرعى العالم بنهضته وحيويته .

وحيث فرغت تركيا من تثبيت قواعد نهضتها الانتقالية في بلادها وبدأت ثمار الإصلاح تنضج وتؤتي أكلها ، كانت آثار النظم الفاشية والنازية قد سادت أوروبا وآسيا ، وأصبحت آثارها ماثلة أمام أنظار الساسة في كل مكان ؛ فقد تنمرت اليابان على الصين واغتصبت منها منشوريا في ١٩٣١ متحدية في ذلك عصبة الأمم . وبدأت إيطاليا تتحرش بأثيوبيا غير عابئة بمعارضة إنجلترا ومعها عصبة الأمم . وخرجت ألمانيا من عصبة الأمم في سنة ١٩٣٢ ثم خرقت نصوص معاهدتي لوكارنو وفرساي . عند ذلك بدا للشعوب جلياً أن المواثيق والمبادئ التي أعلنتها عصبة الأمم لن تغني فتية عن الحرب ، وأيقن كمال أتاتورك أن بلاده وشبه جزيرة البلقان كلها قد أصبحت مستهدفة لعدوان إيطاليا عاجلاً أو آجلاً ، وأن مصلحة البلاد العليا تناديه بأن ينبذ سياسة الانطواء والعزلة التي سارت عليها تركيا في الماضي . وكانت بريطانيا تمهد الطريق بين دول البحر المتوسط لمقاومة العدوان الفاشي إذا أعلنت إيطاليا خروجها على سياسة التأمين الجمعي التي يقوم عليها ميثاق عصبة الأمم ، وفتوتت العلاقات بين تركيا وبريطانيا . ودخلت تركيا العصبة ووقفت وقفها المشرفة الشهيرة في دفاعها عن السلم في السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الثانية . وكأنما أرادت أن تستغفر لخطاياها القديمة ، فقررت أن تحدث حدثاً سياسياً يؤمن قضية السلام العام من جهة ، ويصون مصالح تركيا والشعوب الصغيرة التي تكثفها شرقاً وغرباً من جهة أخرى . وإنه لمن معجزات الزمن أن تقوم تركيا في شبه جزيرة البلقان ، التي طالما سالت في أوديتها الدماء أنهاراً من جراء الحروب والثورات التي اشتبكت فيها سلباً وإيجاباً ، بدور المصلح المخلص الداعي إلى الأمن والسلام بين هذه الشعوب المتعسة .

فبدأت تركيا بعقد معاهدة الصداقة مع الإغريق ، ثم أقنعت سائر دول البلقان بأن خلاصهم متوقف على اتحادهم واعتمادهم على أنفسهم ، وأنه لا فائدة ترجى لهم من الاستناد إلى واحدة من الدول الكبرى ، وأن مصالحهم العظمى تقضي عليهم ألا ينساقوا أو ينزلقوا إلى منحدر المنافسات الدولية القائمة في أوروبا

الغربية إذ ذاك . وعلى ذلك تم الاتفاق على ميثاق البلقان سنة ١٩٣٤ بين تركيا واليونان ورومانيا ويوغسلافيا ، ولم يشذ عن الاتفاق سوى ألبانيا وكانت في سياستها تابعة لإيطاليا ، وبلغاريا وكانت لها مطامع لا يتيسر تحقيقها إذا حافظت الدول على الحالة القائمة .

ثم التفتت تركيا إلى الشرق وكانت علاقاتها مرضية بالدول التي استقلت كبلاد العرب والعراق ومصر وإيران وأفغان ، ولم يسؤها أن ينفصل عنها الشام ولبنان وفلسطين وشرق الأردن تحت انتداب إنجلترا وفرنسا ؛ فقد جاهدوا جميعاً وكافحوا كما جاهد الكاليون وكافحوا لأجل استقلال بلادهم والتخلص من ربة الحكم الأجنبي . وبعد أن كانت هذه الدول مجرد ولايات أو إمارات أو ممالك فقيرة متخاذلة متأخرة لا يؤبه لها كثيراً ، أصبحت هي كذلك في مدى خمسة عشر عاماً بفضل نهضاتها الثقافية الاقتصادية دولا فتية محترمة مرموقة الجانب تؤمن بمستقبلها السياسي والاقتصادي ، وتحسب الدول الكبرى حسابها .

وعند ذلك ألمّ الحنين بتركيا إلى الشرق ، وعادت بها الذاكرة إلى سابق مكانتها في قلوب المسلمين ، وأحست في قرارة نفسها بأن الشرق هو صخرة الأمان التي يجب أن تلوذ بها تركيا إذا اكفهر الجو في الغرب ولعت بوارق الحرب حول المنطقة الخطيرة في المضائق التي تسيطر عليها . ولكن كبرياء الترك وكرامتهم أبنا عليهم أن يعترفوا بالحقيقة كلها، فقرروا أن يكون اتحادهم شرقياً صرفاً لا إسلامياً ولا عربياً فوثقت علاقاتها مع إيران الجديدة ، وجعلت تسعى بالصلح بين إيران والعراق وأفغانستان . وأخيراً تم تأليف ميثاق سعد أباد قرب طهران في سنة ١٩٣٧ بين تركيا والعراق وإيران وأفغان على الأسس نفسها التي قام عليها ميثاق البلقان . وكان الأمل معقوداً باشتراك مصر والعربية السعودية في الميثاق . ولو فعلتها مصر لكان مركزها ثانوياً في الاتحاد ولقضى على فكرة الجامعة العربية وهي في المهد . وانتهزت تركيا فرصة الاضطراب الدولي في الأيام التي سبقت الحرب العالمية الثانية فدعت الدول لتعديل معاهدة لوزان فيما يخص المضائق ، لتسترد كامل حقها في تحصينها وتسليحها ، حتى لا يتعرض أمنها لعنت إحدى الدول المهاجمة كإيطاليا . وقد أقرت الدول ذلك في مؤتمر منترو سنة ١٩٣٦ وكان من صالح روسيا آنئذ أن تحول تركيا

دون تسرب أساطيل الأعداء إليها ، كما رأت إنجلترا أن يكون أصدقاءها في البحر المتوسط مسلحين وعلى أهبة الاستعداد لرد هجمات العدو المشترك . وقد نص في المعاهدة ، استمالة لروسيا ، على أن لدول البحر الأسود حق مرور أساطيلها في المضائق إذا اشتبكت في حرب . ولكن المعاهدة أبقت حق التصريح والمنع بيد تركيا نهائياً تستعمله كما تشاء في السلم أو في الحرب ، وهو ما تعمل روسيا الآن لنقضه لجعل مهمة الدفاع عن المضائق محصورة في أيدي دول البحر الأسود فحسب وفي مقدمتها طبعاً روسيا وتركيا ؛ إذ أن الدول الأخرى تابعة لروسيا في سياستها .

ولما نشبت الحرب الأخيرة عانت تركيا منتهى العنت والشدة في المحافظة على حيديتها ، ولكنها باءت من الحيدة بغضب روسيا وسخطها الشديد ، فقد تقمت عليها موقفها العدائي الجاحد في إبان محنتها الكبرى ، فاقبلت الصداقة القديمة بينهما إلى عداوة أعادت إلى الذاكرة ما كان بين الدولتين قديماً من جفاء ومرارة وعداء مستحكم . وقد ظهرت آثار ذلك جلية في إنذارها لتركيا بعدم تجديد معاهدة سنة ١٩٢٥ ثم برغبتها في تعديل معاهدة منترو لا على أساسها الدولي الأول بل وفق مصالح روسيا وفي نطاق دول البحر الأسود فحسب .

ولما هاجمت إيطاليا وألمانيا شبه جزيرة البلقان في صيف سنة ١٩٤١ وأخذت دولها تتساقط واحدة تلو أخرى في أيدي المحور ، تلفت العالم ليرى أثر ميثاق البلقان بدخول تركيا الحرب إلى جانب الحلفاء ، ولكن سياسة الرئيس إينونو الرصينة الحصيفة أملت على تركيا سياسة الحذر والترقب . وحسنا فعلت تركيا ؛ فلو أنها دخلت الحرب وقوات المحور في دفعها الأولى لاستطاع الألمان بسهولة أن يخضعوها ويتخذوا منها معبراً إلى منطقة الشرق الأوسط ، ثم إلى قناة السويس وخليج العجم .

وكذلك افتقد الناس ميثاق سعد أباد وتقبوا عن آثاره حين أغار الحلفاء على إيران وعزلوا الشاه رضا بهلوى ليتخذوا من إيران طريقاً إلى القوقاز فروسيا بدلاً من طريق المضائق التي سدتها تركيا بحيديتها ، أو بالحرى التي لم يستطع الحلفاء اختراقها لمناعة مركز الألمان فيها بعد إخضاعها اليونان وجزر بحر إيجه . وبحث الناس أيضاً عن بقايا الميثاق حين قام رشيد الكيلاني

بشورته الحربية في بغداد واضطر الملك والوصى على عرش العراق إلى الفرار .
وعبثا حاول المتقبن أن يجدوا أثراً للمواثيق التي جاهدت تركيا في إبرامها ؛
فقد أكلتها نيران الحرب المخربة ومزقتها سياسة الحرب فيما مزقت شذر مذر :

. وكانت تركيا كلما دنت ساعة الحرب زاد اتصالها بدول الغرب ، فعقدت مع
إنجلترا في سنة ١٩٣٨ قرضاً مالياً كبيراً أعقبه بعد شهور قليلة قرض آخر من
الولايات المتحدة . وفي سنة ١٩٣٩ عقدت تركيا محالفتها مع بريطانيا لمدة
خمس عشرة عاماً ، وبمقتضاها تعهدت بريطانيا بمساعدة تركيا إذا هاجمتها
دولة أخرى ، على أن تقدم تركيا المساعدة لبريطانيا إذا هوجمت في منطقة
البحر المتوسط ومست فيها مصالح تركيا . وفي تلك السنة أيضاً تعاهدت تركيا
وفرنسا ، وقد نزلت لها الأخيرة عن سنجق الاسكندرونة التابع أصلاً لسوريا ،
وذلك بعد نزاع دام بضع سنوات .

ولكن ما كادت تنتهي الحرب العالمية الثانية وتظهر بوادر النزاع بين
تركيا وروسيا حتى عاد حينئذ تركيا إلى الجامعة الاسلامية أو الشرقية ، وبدأت
تتحسر على الجاه والنفوذ الديني الذي كان لها في الماضي وبفضله استطاعت وهي
حينذاك الدولة الضعيفة المتخاذلة أن ترعج روسيا وسائر الدول الأوربية
المسيحية . فكم كان يكون جاهها وتأثيرها اليوم وقد تجددت قواها لو أن معها
أصوات مئات الملايين من المسلمين الناهضين في كل مكان والذين كانوا يدينون
لتركيا بالخلافة !

ويبدو أن دول الغرب نفسها ، قد اقتنعت أخيراً بأن تركيا يجب أن تظل
دائماً على الشرق ، وأن تعود كإحدى الدول العظمى حتى تقوى على مواجهة
الضغط السوفيتي ، في تلك المنطقة العظيمة الخطر بين الشرق والغرب . وهم
يرون أن أي نظام دفاعي في منطقتي الشرق الأدنى والأوسط لا تركز دعائمه
على عزمات الجندي التركي المشهور سيكون حتماً نظاماً هزيعاً مصيره إلى الفشل
لا محالة . لذلك نسمع الآن تصريحات من الرئيس إينونو ومن وزرائه يرددون
فيها رغبة تركيا المخلصة في عقد معاهدات صداقة مع دول الجامعة العربية
وسائر الدول الشرقية ، وأنهم في سبيل هذه الصداقة مستعدون أن يمنحوا
السوريين التسهيلات الاقتصادية المطلوبة في سنجق الاسكندرونة . وقد بدءوا
فعلاً في هذا العام بعقد معاهدات مع العراق وشرق الأردن . وقد يكون

مشروع سوريا الكبرى — إذ صح — أحد أركان هذه السياسة العليا التي تحتضنها بريطانيا وتشجعها أمريكا مالياً وسياسياً .

ولكن الدول العربية الحديثة العهد باستقلالها هي لهذا السبب شديدة الحرص على تنمية قوميتها واستقلالها ، وهي تتخشى إذا قويت تركيا أن تعود إليها النزعة السلطانية ثانية ولاتلبث أن ترحف إلى الجنوب . وقد أصبح العرب الآن من الكفاية والنضج السياسي بحيث لا يجوز عليهم أساليب الخداع والسياسة القديمة التي تنتهجها الدول الغربية لخدمة مآربها الخاصة . وخير لتركيا ولسائر الدول المتوسطة والصغرى أن تنبذ سياسة التكتل والمحالفات ، وأن تحتذى حذو الممالك الاسكندنافية في حيدها وتماسكها وتمسكها بمصالحها بين الفريقين المتنافسين . ولم يخدم تركيا الحديثة خير من سياسة كمال أتاتورك الذي فك وثاق تركيا من الغرب والشرق جميعاً وولاهم الوجهة التركية الخالصة التي ترضاهم في ظل السلام العام .

محمد رفعت .

ذاهب مع الريح

أربعة أشهر قضيناها في ربوع العالم الجديد . . .

آن أن نفكر في الرحيل . . .

مضينا نلتمس وسيلة الانتقال إلى أوربة فعلمنا أن الأماكن في البواخر والطائرات محجوزة كلها إلى ثلاثة أشهر . . .

لا مناص لنا إذن من البقاء ثلاثة أشهر في بلاد العم سام . . . ثلاثة أشهر تقضيها لا مهمة لنا ولا عمل إلا محض الانتظار !

ذلك حكم قضت به علينا شركات البواخر والطائرات ، ولكن أليس لهذا الحكم من استئناف ؟

علمتنا المدرسة ونحن نتلقى علم الهندسة أن أقرب بعد بين نقطتين هو الخط المستقيم وها نحن أولاء نريد تطبيق تلك البديهية الهندسية فيما نريد من الانتقال ، فنتخذ الطريق المستقيم الرسمي في طلب التذاكر ، فإذا أقرب مسافة بيننا وبين ما نريد هو ثلاثة أشهر طوال عراض ! . . .

وهالنا مآزقنا الحرج ، فخرجنا على تلك البديهية الهندسية نطلب ملتويات الطرق ، لعلها أقرب بعداً ، وأيسر جهداً . . .

دخلنا سوق الشفاعات والوساطات ، فخرجنا بصفقة الرابع ، وتوارت عن أذهاننا تلك البديهية الهندسية ، كأنما تلوذ بالفرار من خجل وخزي إننا على وشك السفر خلال أيام معدودات ، فلنكن على أهبة ، حتى يبلغنا الموعد القريب . . .

وبعد أيام تلقينا نبأ من الشفيح الأعظم بأن الطائرة ستقلنا بعد أيام ثلاثة . . . فأمضينا هذه الأيام نطوف في نيويورك طوفات عابرة ، هي تحيات وداع . . . وداع للمطاعم ، للمنتزهات ، للملاهي ، للطبيب : نتزود منه بتلك الابتسامة الخاطفة التي كانت كل ما في جعبته حين قدمنا عليه من

تحية واحتفاء ، وهى اليوم كل ما فى جعبته من نصيح وإرشاد . . . وأخيراً وداع لذلك الصديق الكريم الشارع الخامس الذى صحبنا أربعة أشهر لم نلق منه إلا صدى رجباً ، ومعيناً عذباً يفيض بالمباهج والمسرات !
فى صبح يوم السفر ، أطلت من نافذة حجرتى ، أتطلع إلى منظر ألفته حتى ملته : أبنية سوامق ، وطريق صادر وارد ، ومتنزه فى أقصاه صغير . . .
وقفت أرنو إلى ذلك المنظر المألوف لى ، فاذا به فى هذه اللحظة ينزع عنه تفاهته وابتذاله . . .

إنه ليدو لى كأنما يتجلى لناظرى أول مرة . . .
مفاتيح جديدة ، تتوضح لى ، لم أعهد لها من قبل . . .
لكأن الشارع كان يستر عني جوانب منه ، ضن بها على . . . ولكأنه كان يدخرها لهذا اليوم ، يل لهذه اللحظات ، حتى أفارقه بشوق جديد ، وشغف مزيد !

أربعة أشهر ترادفت ، وعيني تتردد فى هذا المنظر ، دون أن آبه له ،
واليوم وأنا على وشك فراقه أرانى متشبثاً به ، رانياً إليه ، أتملى محاسنه ومفاته ،
كأنى أريد أن يحتويه صدرى ، لا يفلت منه شئ !

يا القلب الانسان ! . . . إنه يظل غافلاً عن قيمة الشئ ، لا يفطن إليها إلا حين يتركها أو تتركه . . . إنه لا يكتشف الكنز إلا حين يضيعه !
أنت إذا ملكت شيئاً أهملته ، فكأنك تقول : فيم الاهتمام والتعجل ، وهو طوع يمينى ، وبين يدي من وقتى فسحة للتمتع به . . . فتنتوى الأيام بعد الأيام ، وأنت عن شيئك غافل ، حتى إذا أحسست أنك موشك أن تفقده ، تواتبت قواك من تلقاء نفسها تتشبث به ، وقد احتد شغفها ، واشتد كلفها ، وتستبين لعينيك مزايا يدهشك أنك لم تحس الانتفاع بها قبل . . .

وأقوى ماتكون هذه المزايا توضحاً لناظرك ، حين لا يستطيع الوقت أن يسعفك بفترة استمتاع وانتفاع ، فلا تملك إلا أن تدع ذلك الشئ ، وقد أتبعته من قرارة نفسك حسرات تلو حسرات !

ظلت هذه الخواطر تعتلج فى رأسى ، فكبر على نفسى أن يكون بها كل هذا التشوق والتعلق بذلك المنظر ، فرحت أسائل القلب :
ترى ماذا يكون منى إن تلقيت الآن نبأ بتأجيل موعد السفر أربعة أشهر ؟

ترى هل أتخذ في مسلكي نحو هذا المنظر شأناً غير ما كان من شأني معه
في أربعة الأشهر الماضية ؟

أم يتكرر ما كان مني قبل ، فأغفل عنه ، ولا أكرث له ، حتى تحين
ساعة الوداع ؟

... , ركبنا السيارة ، قاصدين مطار لاجوارديا . . .

ما أشبه الليلة بالبارحة !

الطريق هو الطريق ، والمشاهد هي المشاهد ، ولكن شتان بين شعورين :
شعور القدوم ، وشعور الرحيل !

دخلنا المطار ، وانتظرنا في البهو الدائر يزخر بالناس بين رائح وغاد ،
وبين جالس إلى أمتعته ، ومقبل على الميزان يستوفى إجراءاته . . .

ورحت أتطلع إلى تلك الرسوم العظيمة ترين جدار المطار . . . رسوم تسجل
مراحل الطيران في مختلف عهوده .

ولبثنا ننتظر ، وامتد بنا الوقت ، ولكن ما حيلتنا ، والجيش عليه أن
يظل في الانتظار ، وأن يكون متأهباً مرهف السمع ، يرتقب صوت النفير !
وحانت ساعة الفرج ، وسمعنا مضخم الصوت يقول :

— القاصدون . باريس يتقدمون !

فتجمع الشمل ، وانتظم الصف ، وخرجنا إلى ذلك المشي المظلل ، كأنه
عرش بستان . . .

وما كدنا نبلغ أقصاه ، حتى لاح لنا « شمروخ » . . .

وقفت أتأمل لحظة . . .

أنت و « أبو الهول » صنوان ، يحمل كل منكما اسماً من مصر . . .
ففيكما نفحة من الوطن . . . كلاهما في وقفته المتطلعة شامخ مهيب ،
وكلاهما في مظهره الجميل سمح المحيا مفتر الثغر . . . إنه لقال طيب ،
فعلى بركة الله !

احتوانا صدر « شمروخ » والوقت ظهر . . .

إنه كأخيه « أبي الهول » في وثارة مقاعده ، ونظام طاقاته ، وسائر

شياته . . .

لوح النور هو هو ، يوصى بشد النطاق ، ويحظر التدخين . . .

وهذا الفتى الأمريكى وزميلته السمحة ، فى لبوسهما الرمادى الرسمى المهندم كأنهما طيفان من هوليود !

وأقفل الباب ، ذلك الفاصل بين عالم الأرض والسماء ، بل إنه لفاصل يقرر مصاير الركب ، فكأن صريه إذ يوصد يقول :

ثمة حقبة متميزة من حياتنا قد ختمت بنخيرها وشرها ، وصارت ماضياً مطوياً ، وها هى ذى حقبة جديدة تبدأ ، ما برحت مجهولة لنا ، وإن كانت مسطورة فى لوح القدر المغيب !

ورحت أتأمل تلك الفترة التى مضت من حياتى فى ذلك العالم الجديد ، وطاقات بالرأس أفكار . . .

يقولون إن الحياة ماض وحاضر ومستقبل . . . ولكن فى هذا رأى كثير من إلقاء الكلام على عواهنه دون دقة وتمحيص . . .

ليت شعرى : أى شئ هو الحاضر ؟ أين هو ؟

ما الحاضر إلا وهم مصور لو حاولت قبضه لما تحصل فى يدك منه شئ ... إنه لير بك خطفاً ، وينزلق عنك إنزلاق الزئبق الرجراج . . .

فليس فى مقدورك أن تدعى الاستمتاع بشئ منه إلا أن توهم نفسك إيهاماً . . .

إن خفقة القلب ، وفيها معنى الوجود . وسر الحياة — لا تكاد تبدأ حتى يبتلعها الماضى من فوره ، فكأنها قذيفة منطلقة يغيها ذلك الفضاء العريض ... وإن الكلمة ، وهى ترجان النفس وتعبير الشعور ، لا تكاد تنفرج عنها الشفتان ، حتى يتلقفها الماضى فيدونها فى سجله العتيد . . .

ذلك الماضى تنين هائل يفر لك أفواهه يئنة ويسرة ، وتحقق بك مخالبه من كل جهة ، مرتصداً يقظان لكل إشارة أو عبارة ، ولكل حركة أو حس ، منهوماً صديان لا يشبع مهما يطعم ، ولا يروى مهما يعب !

إنه لا يفتأ يقطعك ويعتصرك حتى يحين وقت تفتى فى جوفه ، فتصبح نسيجاً فى جسمه ، ونقطة من دمه ، تصبح صفحة من الماضى !

وليت شعرى : أى شئ هو المستقبل ؟ أين هو ؟

سديم غامض ، مهما أنفذت فيه بصرك ، لم يستبن لك فيه قليل

أو كثير . . .

ما برح هذا السديم في طور التكوين لم يتخلق ، فهو في ذمة أقدار محجبة
تصوغه وفق هواها . . .

ليس المستقبل إذن إلا خيالا غامضاً جوهره الظنون !
الحياة ماضٍ وحده . . .

إنه الحقيقة الثابتة منقوشة في سجلك الصخري لا تبلى . . .
في استطاعتك أن تتحدث في هذه الحقيقة حديث خبرة وعلم ، وتصفها
وصف رؤية وتمعن ، ولا تملك أن تمحو منها مثقال ذرة ، وإن بذلت في ذلك
غاية الجهد . . .

ليس لك أن تستمتع بشيء سوى الماضي . . .

ليس الإنسان في الحق إلا حشد ذكريات وذكريات !

ظل « شمروخ » يطير ، وأنا مستغرق في تأمل ، تطوح بي الخواطر في
شتى الآفاق ، وقد ألقى النظرة بعد النظرة من الطاق ، أشهد قطع السحاب
تسبح في السماء ، تارة تلتحم وتربد منذرة بوابل هتان ، وطوراً تتقشع لتأذن
للمشمس أن تبعث ابتسامتها تحيينا ، وتبث في نفوسنا الطمأنينة والرضا . . .
وفي الساعة الخامسة مساء ، هبطنا مطار جندار . وظهرت السيارة الحافلة
فامتطيناها تجوس بنا دروب تلك القرية الكثيرة المنعزلة ، هذه المستعمرة الجوية
التي اتخذت محطاً لرحال الطائرات ومثابة استجمام . . .

وزاد هذه القرية وحشة وكآبة أن السماء كانت غائمة توالى رذاذها . . .
وبلغت بنا السيارة مقصف المطار ، ذلك المبنى الذي يماثل بيت فلاح ثرى
من سادة الريف . . .

وبعد أن طعمنا تناهى إلينا أننا في المطار نبئت ، ولكن علينا أن نكون
على تمام أهبة الرحيل ، فقد يباغتنا أمر بالمضي إلى ركوب الطائرة !
وأقلتنا السيارة الحافلة إلى ما يسمونه هنالك الفندق ، وما هو إلا ثكنة
وحق السماء ، لا تَجَسَّى ولا مغالاة !

في ذلك المكان حينما حياة الجندي في شتى مظاهرها : حجر بلغ بها التواضع
حد الشظف ، وأسرّة عجاف لا يسترها إلا ما تمس إليه الحاجة من فرش
ساذجة ، وضجعة ارتقاب وتوفز ، نتوهم في الفينة بعد الفينة أننا مزعجون
بطلب الرحيل !

صحوت في الخامسة صباحاً ، كأنما عز على نفسي أن يوقظها أمر مسيطر .
فاستيقظت هي ، تمثلاً بقول القائل :
« يدي لا بيد عمرو ! »

لا جديد في شأن الرحيل . . . الجو عابس ، وبين السماء والأرض يريد
لا ينقطع من رذاذ ، فكأنه يحمل إلينا رسالة الانتظار !
عدنا إلى مبنى المقصف ، لا عمل لنا إلا أن نطعم ونستريح وننتظر . . .
من أسس الرحلة الجوية أن ننتظر ، وأن نروض أنفسنا دائماً على هذا
الانتظار !

أمضيت الوقت على تلك المقاعد الوثيرة ، أثقل بصرى في الحاضرين ،
وما قئ الرذاذ ينقر زجاج النوافذ . . .
لكاننا نحن طلاب « شمروخ » في جزيرة موحشة ، قذفنا حطام سفينة
محطمة إلى الشاطئ ، فبقينا نرتقب النجدة !
وكنت كلما برمت بالانتظار مضيت أسائل ضباط المطار ومن إليهم من
الأعوان ، ولكن لا جديد !
ليس في جعاب المسؤولين من الجواب إلا ابتسامة غامضة ، وإيماءة
خاطفة !

وأخذ الصبح يتجمعون للعب بالورق ، وانعقدت سحائب اللفائف ،
وطالعتنا الكؤوس والأقداح تروح ملأى وتغدو فارغة . . .
إنى لأغبط هؤلاء اللاعبين ؛ فلقد اندمجوا فيما بين أيديهم ، فأنساهم كل
شئ . . . نظراتهم مشرعة إلى الورق ، كلماتهم عاجلة يتطارحونها تارة في
ضحك وتارة في عبوس ، حركاتهم آلية وهم يوزعون الورق في مهارة كهارة
الحواة والمهرجين . . . إنى لأحسبهم قد سُحروا صوراً كتلك الصور الأنيقة
الملونة التي تحلى ورق اللعب ، صور الملوك عليهم تيجان مذهبة ، والصبايا
تزدان بالزهر الناضر . . .

ضجرت بهؤلاء اللاعبين في موقف جد . . . فنهضت أتلفت حولي لأشغل
نفسي بشئ ، فألفت نثراً من المجلات ، فأقبلت أقرأ : ثمة مقال تلوح طرافته ،
قصة صحفي أمريكي يصف ما شهد في زورة لإحدى المناطق الألمانية الخاضعة
للاحتلال الروسي . . .

إن الصحفي ليطنب في الإشادة بما يلقي به الروسيّ ضيفه من كرم وحفاوة ،
إنه لكرم يذكرنا سماحة الشرق والعربى في كتب الأولين ، أولئك الروسيون
يقيمون مأدبة لذلك الصحفي الأمريكي ومن معه في التاسعة صباحاً ، مأدبة
ترخر باللحوم والألبان والأشربة ، فلما أكلوا حتى أتحموا أخبرهم مضيفهم القائد
الروسي أن ليس هذا إلا تصبيحة وعجالة ، فأما الفطور التام فهو في
الحادية عشرة . . . في الحادية عشرة !

أمامك ساعتان أيتها المعدة لكي تهضمي ما ألقى إليك من لحم ولبن وخمر ،
وتشمري لما تفجؤك به المائدة الجديدة بعد . . .

وقد مضى اليوم سلسلة من المآدب موصولة الحلقات ، وكان مسك الختام
عشاء حافلا في الساعة الأولى بعد منتصف الليل !

أما ألوان الطعام فكثيرة ، لا ينتهى لصحافها عرض . . . وكانت معارك
الطعام تدور على نغات الموسيقى ومطايبات الأحاديث !

أوربة اليوم بين منتصر ومنهزم ، أما المنتصر فيقضى يومه يفكر متى
يهضم ما أكل ليستزيد ، وأما المنهزم فيقضى يومه يفكر متى يتبلغ بشئ يسكت
به سعار الجوع !

حقاً أن أوربة اليوم مجال لمجاعة شاملة ، وأن هذه المجاعة لتمثل في نهـم
المنتصر ، كما تتمثل في حرمان المهزوم !

كان طريفاً أن يجرى الصحفي الأمريكي على أسلوب الأرقام والإحصاء في
التعقيب على تلك الضيافة ، وقد خرج من الحساب بأنه أنفق . هـ في المائة من
يومه أكلاً ، و . ٣ في المائة نائماً ، وهـ ١ في المائة متنقلاً ، وهـ في المائة مقبلاً
على مهمته المجيدة التي رحل من أجلها في همة ونشاط !

وأنهني مضخم الصوت يقول :

— ركاب « شمروخ » يستعدون للسفر !

فألقيت بنظرة على الساعة في معصمى ، فاذا بها قبيل الساعة مساء !
غيبنا جوف « شمروخ » واعتلى بنا صهوة الرياح يستقبل المحيط ، ويتأهب
لاجتيازه قدماً لاريث ولا هدوء . . .

وكان الضباب ما برح مركوماً ، والرذاذ يداعب زجاج الطاقات ، ولكن
« شمروخ » مضى يشق ذلك الحجاب الثقيل المعتم ، ويسمو إلى آفاق الصفاء

والنور ، وإذا بنا نلمح تحتنا بساطاً ناصع البياض ، كأنه غوارب موج ، أو بطاح مترامية من جليد لا يدرك نهايتها الطرف ، وعلى حواشى السماء يزهو وشى أرجوانى من صبغة الشمس فى لبوس المغيب !

كان « شمروخ » رشيقيّاً فى طيرانه ، فلبثنا نعبّر المحيط فى سكينّة وأمان ... وتراخت الأعصاب بعد توتر ، قهالكت على ذلك المقعد الطيع ، وقد أردته أن يكون فراشاً فكان . . . وجذبت الدثار على ركبتيّ ، وأسلمت للنوم جفنيّ ، وسرعان ما استجاب لى السبات !

وفى منتصف الخامسة صباحاً صحت من نومي ، فألفت الطائرة على مقربة من مطار شانون موشكة على التصويب . . . كان أول صنيع لنا فى مطار شانون أن نصلح من ساعاتنا ، فتقدمنا بها نحواً من ثلاث ساعات . . .

أنت فى رحلات الجو كما تدين تدان ! . . . هذه ساعات من حياتنا نخسرّها اليوم ، وما هى إلا تلك الساعات التى استزدناها يوم ذهابنا إلى العالم الجديد ! قضينا ساعة فى المطار ، تناولنا فيها طعام الإفطار ، وعدنا إلى الطائرة نستأنف الارتحال إلى باريس . . .

وما هى إلا ثلاث ساعات حتى كنا فى مطار عاصمة الفرنسيين . . . ها نحن أولاء نثوب إليك يا باريس بعد غيبة أربعة أشهر ، فكيف أنت ؟ وما حالك الآن ؟

لن تكونى لنا إلا محطة استبدال مطية بمطية ، فنصيبك منا نظرات المتعجلين ومرور الكرام !

كنا نحسب أننا سنقضى فى باريس يوماً أو بعض يوم ، فاذا بها تأسرنا عشرة أيام ثقّال !

إنى لأسائل نفسى الساعة :

كيف قضيت تلك الأيام ؟

لقد كانت مشار إرهاق وإجهاد ، لم نطعم فيها الراحة إلا غراراً ، جو أحرق ، كأن به جنّة ، لا قرار له على حال ، فمرة هو قيظ متلهب ، وحيناً هو أهوية وأمطار !

وهذا الكد بين مكاتب العملة وشركات الأسفار . . .

أعصاب متوترة ، ونفس ثائرة ، وحيرة في موعد الرحلة ووسيلة الانتقال... هل نسافر بالقطار أو بالطائرة أو بالسيارة أو مشياً على الأقدام ؟ يعلم الله ! في تلك الأيام المضطربة التي عشناها كان لزاماً علينا أن نصطنع الحذر الشديد والتحيل الدائب . . .

وقد يغدو المرء على الرغم منه مخاتلاً كذوباً ، فأوضاع الحياة ثمة لا تعين على حق وصدق وتصريح !

إن القيم الأخلاقية تبدو لنا الآن غريبة الوجه ، لا تلائم ملابسات العيش وسوق الحياة . . .

هذه القيم تلين وتتلوى إزاء ما تقتضيه الحال الراهنة في ذلك العهد العجيب . . .

على أن القانون يتجنى على الناس فيريدهم على الخضوع لسلطانه ، وإلا وصمهم بوصمة المروق على الأوضاع . ولو أنصف القانون لتبين له من أعداء هؤلاء الخارجين عليه ما يدعوه إلى الرفق والإشفاق !

شدّ ما يحلو لنا في فسحة الحياة وطمأنينة العيش أن نتلهى بالحديث عن المخطئين المتجاوزين الذين يتعدون حدود العرف والقانون والأوضاع ، وأن نتعوذ منهم كل التعوذ ، وأن نرميهم بمرذول التعوت ، وما ينبغي لأحد منا أن يأذن لنفسه بهذه الجعجة والاستطالة ، حتى يرى نفسه قد باشر تلك التجربة ، وأحاطت به تلك الملابس ، لينظر : أمستطيع هو حقاً أن ينجو من سلطانها عليه ، فإن كتبت له النجاة ، وتيسر له التماسك والتمتع ، كان في حل من أن يندد بمن شاء من صرعى الخطايا والذنوب !

تبدو لنا باريس بعد أربعة أشهر ، كما هي باريس التي مررنا بها من قبل ، إلا فيما ندر من الظواهر . . .

ولعل مؤتمر السلام الذي اختار مقرّه في باريس قد أعان على أن تظهر المدينة على نحو لا يخلو من بهاء !

فقد تكاثرت سيارات الأجرة ، وعمرت الأندية بالأجانب من أعضاء المؤتمر ومن إليهم من أعوان وصحفيين وزوار . . . فكنت تلمح في باريس أطيافاً من روائها في ماضيها البعيد !

وربما كان أوضح معالم باريس هو سوقها السوداء . . . ولكنها اسم على غير مسمى ؛ فقد احتلت كل مرافق الحياة ، وأصبحت هي السوق الحرة التى لا مناص منها لمن يشتري ويبيع !

هذه السوق السوداء تتغلغل فى كل شئ ، وتنشب أظفارها فى كل مكان ، حتى إنها لتسئل إلى مؤتمر السلام !

فى المجالس الرسمية سوق ييضاء تتناقل فيها الخطب والمشاورات وتتداول الآراء ، ولكن بخطا بطيئة لا تبلغ غاية ولا تصيب هدفاً . فالبضاعة فى تلك المجالس الرسمية قليلة تافهة ، والعملة نادرة ، ولكن خلف هذه السوق الحرة الجامدة سوقاً سوداء رائجة البضاعة ، متوافرة العملة ، تعقد فيها الصفقات الكبيرة من الاتفاقات والمحالفات والخطط والمكايد ، على حساب الشعوب التى ألقيت إليها كؤوس من خمر المبادئ الرفيعة والمثل الانسانية تظل بها ساهية لاهية !

ويوماً وقع بصرنا على صديقنا الحوذى الخمور ، وهو على عرشه المتزلزل واربم الأتف ، فسألناه جولة فى غابة بولونيا . . .

إنه هو هو فى دكتاتوريته الحمقاء ، يفرض الأجرة كما يشاء . . .

وراحت المركبة تكرر بنا فى الطريق . . .

لم ينل منجل الحرب من غاية بولونيا إلا قليلا قليلا . . . ولكن شتان ما بين الغابة أمس واليوم ! . . . كأنى بها طريحة المرض ، مجهودة الأنفاس ، يعودها الناس جموعاً وفرادى . . . وإن نظرة واحدة إلى وجوههم وسماتهم وهيئاتهم لتوحى إلينا بما يكابدونه من إقفار وإجذاب وعبوس . . .

إنه حقا لعراك عنيف ذلك الذى يعتلج اليوم فى صدور أهل باريس . . . إنها لحرب أخرى أشد من الحرب الماضية هولا ، تشنها فرنسا على البؤس والفاقة والهزيمة !

ثمة ابتسامات تتخيل على الوجوه ، ولكنها ابتسامات مجتلبة مزورة تشف عن هموم وحسرات !

وبدا صديقنا الحوذى الخمور يتحدث ، ويسترسل فى الحديث ، كأنه يناجى نفسه . . . وكنا على مقاعدنا وراءه نصغى . . .

كان يشكو ويتذمر ، وينتحل المعاذير من دكتاتوريته فى المغالاة فى

الأجور ، وكأنما يأخذ علينا استكثارتنا لما فرض من أجر ، على حين أننا لم نساومه في شئ ، ولم نبد أقل اعتراض !

إنه ليدافع عن نفسه ، معاتباً مرة ومغلظاً في القول أخرى
 إن روح التمرد تشيع في نفسه ، ولكن على أى شئ يتمرد ؟ أمن أجلنا وقد أذعنا لمطلبه ؟ إنه ليتسخط على الزمن ، على ذلك الغلاء المتماهى . . .
 لقد استرسل في الكلام جريئاً محتد اللهجة . . . إنه لقول جرى وایم الله !

حسب ذلك المأفون أن عهد التحرر من ربقة الألمان راجع إليه بفيض من الخير غزير ، فروّعه ألا يتحقق من ذلك شئ
 إنه لا يتورع عن أن يترحم على ذلك العهد السابق البغيض . . . كان في ذلك العهد يملأ كرشه ، ويحصل على النبيذ بثمن قليل ، فيطعم هنيئاً ، ويشرب مريئاً !

بهذا القول كان يثرثر ، والعهدة عليه ، أخزاه الله !
 لقد كانت عربة الأجرة هي الوسيلة الأولى للانتقال في باريس عصر الاحتلال ، وكان سائقها « سيد الموقف » غير منازع ، لم يكن أمامه منافس في الميدان ، فراح يصول ويحول وقد خلا له الجو ، فكيف لا يتغنى بمغانم تلك الأيام ، وكيف لا يتبعها واسع الرحمات !
 لم يكن الحوذى نفسه هو الذى يتكلم ويتندم ، وإنما كان بطنه الخاوى هو الذى يعوى !

انسرحت أفكر فيما يقول الرجل . . .
 أهكذا تذوب الوطنية في أتون الأحشاء المتوقد ؟
 أهكذا تتحلل المثل العالية في قدر الجوع هذا التحلل الزرى ؟ .
 ليس البشر جميعاً قديسين وأصحاب مثل رفيعة ؛ فان الدنيا تموج بتلك الحشرات التى تعيش لتأكل حتى تنبج البطون !
 ومهما يكن من أمر ، ففي حديث هذا الرجل معنى يجب ألا يكون نصيبه منا الغفلة أو الإغفال . . .

ليس لنا أن نزدري فلسفة البطون . . . إن اللقمة لها مكانتها المرموقة في تاريخ البشرية ، وإنها لن تفقد هذه المكانة على مر الأحقاب والدهور !

إني لأرى فلسفة البطون تتدسس إلى كل شيء ، وإني لأراها تدفع بالأفراد كما تدفع بالشعوب !

ليس الجوع أو خوف الجوع وما يتفرع عنه من التشهى والنهم والجشع إلا المحراك الأول فى قيادة الأمم وسياسة الدول ، وقد تحولت تلك الكلمات فى معجم السياسة إلى كلمات « المجال الحيوى » و « المنافذ على البحار الدافئة » و « المواقع الاستراتيجية » و « حرية مسالك المياه » وما إليها . . . وتفسير هذه الكلمات الجديدة فى معجم الحقائق المستورة هو معدة طاوية خاوية تبحث عما يملؤها ، فان امتلأت اشتد كلبها وتطلبت المزيد ، وكأنما تتخشى أن يعصفها سعار الجوع من بعد ، فهي تتماهى فى الأكل لا فتور ولا وناء !

وقد أدرك بعض عقلاء السياسة أثر البطن فى حكم الشعوب ، فاستبدلوا بالحكمة التليدة : « جوع كلبك يتبعك » تلك الحكمة الجديدة « أشبع كلبك يجبك ! »

فالحاكم الحصيف الذى يريد أن يسيطر وأن يتأمر ويأمن الخروج والعصيان ، يتوخى دائماً إشباع البطون ؛ فالتخمة تورث الكسل والفتور والتبلد ، وليس بعد امتلاء البطون إلا الجمود والحمود ، فيخبو الذكاء ، وتتعطل الفطنة ، وتستحب الراحة والدعة والاستسلام . . .

لا طاقة لبطين على ثورة ، ولا صيحة لمتخم وخيم !
تركنا باريس لحوزيها يوازن بين الحرية والرغيف . . . !
وأقلتنا الطائرة إلى جنيف بعد طيران ساعة ونصف ساعة . . .
رحلة كان مقدراً لنا أن يقطعها بنا القطار فى عشر ساعات ، ولم يكن لنا بدٌّ من أن نمضيها وقوفاً فى ممرات القطار مرهقين بالزحام بين كومات من الأمتعة والأناسى ، لا نكاد نظفر بكسرة من خبز ، أو جرعة من ماء !
بورك فيك يا نسور الجوّ من خلق الإنسان ، وإن كانت عثراتك لا تقال !

محمود نيمور

روابط الطبيعة والتاريخ في وادى النيل

حديث الوحدة في وادى النيل حديث يمكن أن يطول ، دون أن يمل الكتابة فيه الكاتبون ، أو أن يمل القراءة فيه القارئون . وهو مما يمكن أن يتناوله الباحثون من نواح وجوانب متعددة ، منها الناحية القومية الخالصة ، ومنها الناحية السياسية العامة ؛ ثم منها الناحية الدراسية التى تبحث عن الوحدة فتردها إلى أصولها فى البيئة وفى التاريخ ، وتكشف عن مقوماتها فى الطبيعة وفى حياة الناس . وقد تناول الوحدة فى المدة الأخيرة كثير من الكتاب فى الصحف والمجلات ، وفى بعض الكتب والنشرات ؛ وعمد هؤلاء الكتاب فى أغلب الأحوال إلى استعراض الوحدة ومظاهرها العامة . أو إلى إبراز ضرورتها والحاجة إليها بالنسبة لأهل وادى النيل فى الجنوب وفى الشمال . ولكن هناك ناحية تستحق البحث والتمحيص وتستأهل الدراسة والعرض ؛ تلك التى تمس الوحدة من حيث أساسها الطبيعى الذى ترتكن إليه ، ومن حيث طابعها التاريخى الذى تتسم به . فالوحدة فى وادى النيل أمر طبيعى ، قضت به ظروف البيئة منذ بدأ الانسان يستقر على جوانب النيل ؛ وهى إلى جانب ذلك قد سارت مع الزمن ، وخلدت روحها خلود التاريخ ؛ وما ذلك كله إلا لأنها من نتاج بيئة فرضت على جماعات البشر أن تعيش متحدة على ضفاف النيل ، وأن تعمل متكيفة متساندة متكاملة ، وأن تستجيب لدوافع البيئة فى الوحدة على نحو لا نظير لمثله فى أى إقليم آخر من أقاليم الأرض . ولعلنا أن نستطيع فى هذا المقال أن نلم بطرف أو أطراف قليلة من مقومات هذه البيئة النيلية ، ومن مظاهر ما ترتب عليها من وحدة بقيت لأرض النيل على مر العصور ، وستبقى — إن صدقت دراسة العلم ، وهى صادقة للاحالة — ما عاشت سلاسل البشر على ضفاف النيل (١) .

(١) للكاتب مقال آخر تناول فيه وحدة وادى النيل من جوانب أخرى غير ما يتناوله اليوم . أنظر « الكاتب المصرى » فبراير ١٩٤٦ .

وقد ينبغي أن نبدأ حديث الوحدة ونشأتها واستمرارها في وادى النيل بأن نعرض لبعض المصطلحات والتعريفات الجغرافية التى جرت بها أقلام بعض الكتاب فى غير كفاية من الدقة ، والتى ترتب على عدم العناية بتكييفها وتحديد دلالاتها غير قليل من سوء الفهم فالكتاب كثيراً ما يخلطون بين لفظى « حوض النيل » و « وادى النيل » ، على حين يفرق الجغرافيون بينهما تفريقاً ظاهراً ؛ فهم يقصدون بالحوض مجموعة الأراضى التى تغذى النهر بمياه الأمطار التى تسقط عليها ، وتلك التى يغذيها النهر بمياهه الجارية . وإذا طبقت هذه القاعدة على نهر النيل فإن حوضه يشمل الحبشة وهضبة البحيرات ، وهما تغذيانه بمياه الأمطار ، كما تشمل السودان ومصر ، وهما لا تغذيانه إلا بقدر محدود ولكنهما تتغذيان بمائه وتعتمدان عليه . أما وادى النيل فيقصد به ، فى عرف الجغرافيين ، تلك الجهات التى ترتبط فيها حياة السكان ارتباطاً مباشراً وقويا بل حيويًا بمياه النهر ؛ ويتخذ الارتباط صوراً وأشكالا متباينة ؛ فقد يتمثل فى أن السكان يرتوون بمياه النهر ويسقون منه مزارعهم لانعدام المطر أو قلة كفايته فى فصل من السنة أو طوال العام ؛ وقد يتمثل فى اعتماد السكان ، إلى حد قريب أو بعيد ، على صيد الأسماك وحيوان الماء من مجرى النهر ؛ كما قد يتمثل فى استخدام النهر كطريق للملاحة وشریان للاتصال ، إلى غير ذلك من مصالح الحياة وحاجاتها المباشرة . وإذا نحن طبقنا هذه القاعدة على نهر النيل وجدنا الحبشة تخرج من واديه وإن دخلت فى حوضه . فأهالى الحبشة لا يعتمدون على النهر فى الاستقاء أو فى الرى أو صيد النهر أو الملاحة ؛ وإنما تتجمع جداول النهر وتجرى روافده فوق أرض الحبشة دون أن تمس حياة السكان فى شىء ظاهر ، والمياه تنحدر فيها سريعة وتجرى متدفقة فى فصل الأمطار ، ثم تكاد ألا يكون بها ماء فى فصل الجفاف . ولو أن تلك الروافد العليا انعدمت أو لم توجد فى الحبشة إطلاقاً ما تغير مجرى الحياة كثيراً فى تلك البلاد . وغاية ما حدث أن جريان الروافد الحبشية قد زاد من قيمة تلك الهضبة بالنسبة لبلاد أخرى تقع داخل نطاق « وادى النيل » . وكذلك الحال فى الهضبة الاستوائية وإن اختلفت عن الحبشة بعض الشىء . ففوق الهضبة الاستوائية بحيرات متسعة ، وفيها بعض المجارى الصالحة للملاحة أو لصيد الأسماك ، وفى بعض الجهات تتصل حياة

السكان إلى حد ما بالمسطحات المائية والأنهر الجارية ؛ ولكن الحال هنا تختلف اختلافاً ظاهراً عما يكون عليه الارتباط بالنهر في أرض السودان ومصر حيث يعتمد على النهر في الاستقاء في فصل معين من السنة أو طوال العام ، ويعتمد عليه في الري والزراعة إلا في جهات خاصة من السودان الجنوبي في موسم الأمطار ، ويعتمد عليه في صيد النهر في الجهات التي تقل فيها الزراعة كما هي الحال في أراضي منطقة السدود وبحر الجبل والغزال ، كما يعتمد عليه في الملاحة والاتصال وربط أجزاء الوادى بعضها ببعض في مصر والسودان على حد سواء . ولو أن النيل لم يمر في مصر والسودان ما قامت حضارة ولا مدنية في سهولها التي يزداد بها الجفاف وتسود الصحارى كما اتجهنا نحو الشمال . لذلك كله فإن لفظ « وادى النيل » إنما يقصد به مصر والسودان مع امتداد يسير نحو الهضبة الاستوائية .

هذا التعريف الجغرافى للفظى الحوض والوادى ضرورى لتحديد ما نقصد « بوحة وادى النيل » . فلقد حاول بعض الناس عن جهالة حيناً وعن قصد سئ حيناً آخر أن يشوهوا هذه الوحة ؛ فقالوا إن المطالين بها لابد أن ينتهى بهم الأمر إلى إدخال الحبشة ضمن نطاقها ؛ وهذا ما لا يوائم الواقع ما دمتنا نطالب بوحة الوادى دون وحده الحوض . والحق أن المطالبة بوحة الحوض لا تستقيم ومقتضيات الطبيعة التي وحدث بين مصر والسودان فى الاعتماد على النهر فى حياتهما الماضية وحياتهما الحاضرة والمستقبل ، والتي فرقت بين الحبشة وبين ما دونها من أرض الوادى فى أن الحبشة لا تعتمد على النهر وإن كانت تغذيه . ولقد كانت استجابة أبناء الوادى فى مصر والسودان لدوافع الوحة السياسية خلال تاريخهم الطويل مقصورة على وادىهم فى نطاقه الطبيعى ، أما الحبشة فقد رد أبناء الوادى إليها الجميل فمدوا إليها يد التجارة والثقافة فى عصر قدماء المصريين أيام كانت الحبشة تؤلف جزءاً من بلاد بنت ، ثم مدوا إليها صلاتهم الروحية فى العهد المسيحى ، عندما انتشرت ثقافة المسيح عليه السلام وديانته من مصر إلى بلاد الحبشة عن طريق البحر الأحمر وربما كانت أيضاً عن طريق وادى النيل والنوبة العليا . ولكن هذه الصلات جميعاً من تجارية وثقافية وروحية بين مصر والنوبة من جهة وبين الحبشة من جهة أخرى لم تنته فى يوم من الأيام إلى صلات سياسية

أو وحدة شعبية أو قومية ؛ لأن الطبيعة لم تكن تستلزم ذلك ، والحاجة لم تكن تمليه لا على « أبناء الوادى » ولا على « أبناء الهضبة » .

وقد كانت الحال غير ذلك فيما يختص بالسودان وصلاته بمصر . فإ كانت مصر ولا السودان إلا شطرين متكاملين من إقليم واحد ترتبط حياته بنفس المصدر ويستقى روحه من نفس ينبوع . ولذلك فإن الوحدة الحضارية وما تمثلت فيه من صلات تجارية ومادية ، ثم صلات ثقافية وروحية ، كان لابد أن تنتهى إلى الوحدة السياسية ؛ تلك التى بدأت فى مصر وامتدت نحو الجنوب حيناً ، وبدأت فى السودان وامتدت نحو الشمال حيناً آخر . وما دام الأمر كذلك فإن وحدة وادى النيل فى العصر التاريخى ، وكذلك وحدته فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، إنما يقصد بها تلك الوحدة الطبيعية والدائمة بين شطرى الوادى فى الشمال والجنوب ؛ وهى وحدة تقوم على المشاركة الطبيعية فى مصدر الحياة ، وتستند إلى هذا الوادى العظيم ونهره الذى لا يمكن أن تدب حياة أو موت فى أحد شطريه إلا سرت مع مياهه إلى الشطر الآخر .

وهناك مغالطة أخرى جرت بها بعض الأقلام فى الآونة الأخيرة ؛ فكتب بعض المغرضين أننا إذا طالبنا بالوحدة فى وادى النيل فانما ينبغى أن نطالب بها أيضاً فى أحواض بعض الأنهر الأخرى ، ومنها الدانوب على سبيل المثال . ولكن القياس هنا مع الفارق الكبير جداً ، حتى بالنسبة لمن يقنعون من الجغرافيا بالبسائط أو بالقشور . فليس فى حوض الدانوب كله إقليم يعتمد على مياه النهر فى رى النبات والزراعة إلى أى حد ملحوظ ؛ وماء الدانوب لا يبعث الحياة فى جوف بادية ولا ينفخ الروح فى قلب فلاة كما يفعل ماء النيل ؛ بل إن ماء الدانوب لا يصلح حتى لمجرد الاستقاء فى حافته الطبيعية كما يصلح ماء النيل ؛ وليس نهر الدانوب من الناحية الجغرافية الخالصة « واد » حتى يمكن أن نتحدث فيه عن الوحدة . ولئن كانت مياهه تستخدم فى الملاحة فما ذلك لربط أجزائه بعضها ببعض بقدر ما هو لاستخدام النهر كطريق للوصول من داخلية القارة إلى البحر الأسود . وفوق ذلك كله فإن حوض الدانوب ينقسم من الوجهة الطبيعية إلى ثلاثة أجزاء على الأقل ؛ فقسمه الأعلى جبلى له حياته الخاصة وتاريخه الخاص الذى يتصل بقلب أوربا الجبلى ؛ وقسمه الأوسط حوض قائم بذاته يقال له حوض المجر ، وهو حوض كان فى يوم من

الأيام يمتلئ كله بالماء ، ويؤلف بحيرة كبيرة ملائها الرواسب المتدفقة من جهات مختلفة ، وتحيط بالحوض الجبال والمرتفعات من جميع الجهات تقريباً ماعداً بعض المنافذ . وقد كان لهذا الحوض تاريخه الخاص وقوامه المستقل من حيث الطبيعة ومن حيث السكان والسلالات التي تعيش فيه ؛ بل إنه لا يزال إلى اليوم يفصل ما بين صقالبة الجنوب وصقالبة الشمال ، ويفصل ما بين أهل البلقان وأهل داخلية أوربا الشرقية والوسطى . ثم إن هذا الحوض ينتهي من الشرق بما يعرف بالباب الحديدى ، وهو خانق طبيعى يفصل ما بين الدانوب الأوسط وسهول رومانيا . حيث يجرى الدانوب الأسفل فى مناطق تختلف فى حياتها وتاريخها وسكانها عن حوض المجر إلى أبعد الحدود ؛ وهذا هو القسم الثالث فى حوض الدانوب . فهذه الحالة التى نشاهدها فى نهر الدانوب تكشف لنا كيف تختلف الطبيعة ويتغير السكان ويتميز التاريخ وتتباين السلالات وتتنافر الثقافات ، ولا تأتلف المصالح ولا الغايات إلا فيما يتصل باستخدام النهر كوسيلة للمواصلات والنفوذ إلى بحر مغلق تقريباً كالبحر الأسود . وتلك حال لا يمكن أن يسلم جغرافى ، ولا حتى دارس عادى منصف ، بأنها تشبه من قريب أو بعيد ما نشاهده فى وادى النيل .

من هذه التعاريف والمقارنات نخرج بأننا إذ نتحدث عن الوحدة فى وادى النيل فانما نتحدث عن وحدة طبيعية ، قضت بها ظروف البيئة ذاتها ، ولا سبيل إلى جحودها أو المكابرة فيها ؛ وإذا نحن حاولنا ذلك فلن نغير من الواقع شيئاً ولن ننال الحقيقة بشئ . فالله الذى خلق فأبدع قد رتب الأمور على أن ينبى بعضها على بعض ، وأجرى النيل على أن تتصل فيه أجزاء الوادى بعضها ببعض . وليس للانسان إلا أن يسعى فى ربوع هذه الوحدة القائمة ، والى يشاء الله ويأبى إلا أن تكون دائمة مادام نهر النيل .

وفى أرض وادى النيل ، أو فى أجزائه السفلى على الأقل ، بدأت جماعات البشر — لأول مرة فى تاريخ الانسانية — تتعلم كيف تعيش متحدة ، وكيف تعمل متكافة . فهذا النهر العظيم كان يأتى بالفيضان فى كل سنة ، فيغمر الأرض ويعدها للزراعة . ولكن الاستفادة من المياه فى الري كانت لا تتم ، ولا يمكن أن تتيسر ، إلا إذا ضبط الجريان ، وقسم الوادى إلى حياض تحدها الجسور ، وتجري بينها الترعة والقنوات ، تحمل الماء من النهر إلى الحوض ، ثم تعود فترده

من الحوض إلى النهر بعد أن يكون قد أرسب ما فيه من طمى يغذى تربة الحوض ويعدها للزراعة . وهذا العمل الهندسى كان يقتضى فى حد ذاته أن توحد جهود الجماعة وأن تنظم ، حتى يمكن التحكم فى مياه النهر وتسخيرها فى صالح المجتمع . وبذلك فإن نظام الزراعة الذى بدأ فى مصر قبل أن يبرز فجر التاريخ قد علم الناس الوحدة والتضامن الاجتماعى ، كما علمهم حسن النظام وحب التكافل . وفوق ذلك فإن فيضان النهر نفسه كان مصدر خطر مشترك بالنسبة للسكان جميعاً سواء منهم من يعملون فى الزراعة ومن يشتغلون بغيرها من حرف الحياة . فتضافرت جموعهم ونظمت حشودهم واتحدت سواعدهم فى إقامة الجسور الكبرى على ضفاف النهر ، وفى حراستها إبان ارتفاع مياهه ، ثم فى إقامة كومات التراب العالية لتقام عليها القرى فوق مستوى الفيضان . وبذلك كله كان وادى النيل الأدنى مدرسة طبيعية هائلة تعلم فيها الإنسان أن يعيش متكافئاً مع أخيه الإنسان ، وتعلم كيف يخدم الجماعة ويستجيب لدوافع النظام فيها ؛ فنشأت الحكومات محلية أولاً ، ثم نشأت إقليمية فى الوجهين القبلى والبحرى بعد ذلك ، ثم اتحد الوجهان فى مرحلة لاحقة ؛ حتى إذا ما تم ذلك سرت روح الوحدة مع وادى النيل ومياه النهر نحو الجنوب ، كما يسرى الدم فى العروق والشرابين . وتخطت الوحدة إقليم النوبة الشمالية ، وهو إقليم صعبوبة يضيق فيه النهر ولا تتيسر الزراعة والاستقرار ، حتى بلغت إقليم دنقلا فاستقرت فيه استقرارها فى مصر ذاتها سواء بسواء . فظهرت هناك مدينة لم يكن غريباً ولا مستغرباً أن تشبه المدينة المصرية أو المدينة النيلية الشمالية فى كثير جداً من الأشياء ؛ لأنها كانت مثلها من ثمار ذلك النهر العظيم . وامتدت اتصالات أبناء الوادى من مصر فى أول الأمر ، ثم من مصر ودنقلا بعد ذلك ، حتى شملت الوادى فى وسط السودان وجنوبه ، وانتشرت بعض معالم الحضارة والمدينة الشمالية إلى أطراف الجنوب .

ومع ذلك فلم يكن عهد الفراعنة أول عهد اتصلت فيه روابط الحضارة والتجارة والمدينة والثقافة بين أدنى النيل وأعلاه . وإنما سبق ذلك عهد طويل يعرف بعصر ما قبل التاريخ كانت الحضارة فيه لا تزال فى دور التكوين . ويقال إن معالم كثيرة من مدينة مصر الأولى أتت فى الأصل من ناحية الجنوب مع هجرات القبائل الأولى من ذلك الاتجاه ؛ كما أن مصر ردت دينها—

إن صح أن يعتبر ذلك ديناً - فتفتحت من روحها وأنفذت كثيراً من معالم حضارتها السابقة للتاريخ حتى بلغت أعلى النيل في السودان الجنوبي . ولعل هذا أن يكون من وراء ما نعرف اليوم من تشابه غريب بين نظام القبائل وأحكامها ومعتقداتها وعاداتها ، بل فنها وموسيقاها ، في بعض جهات النيل الأبيض وبحر الجبل والغزال بل الهضبة الاستوائية الشرقية ، وبين ما كان معروفاً في مصر قبل أن يطلع التاريخ ، بل بعض ما كان معروفاً من مصر في المراحل الأولى من العهد التاريخي .

ولقد استمر هذا الاتصال المتبادل بين مصر والسودان أو بين شطري الوادي خلال عصر التاريخ . وكان في بعض الأحيان يقوم على أساس العطاء من جانب مصر والتلقى من جانب السودان ؛ كما كان يقوم أحياناً أخرى على عكس ذلك ، فتعلو يد الجنوب ويفيض على الشمال من خيريه وبركته ويفي عليه من قوته ووحدته . ولعلها لا ينبغي لنا أن نجاوز العهد القديم والتاريخ القديم دون أن نشير إلى ظاهرة من تلك الظواهر المباركة التي تعم فيها الجنوب عن الشمال ثم فاق الأخ المتعلم أخاه المعلم ، فوعى الدرس في وقت نسيه فيه ابن الشمال ، واستجاب للوحدة فخرج أميره بفنحي ففتح مصر حتى أقصى الشمال ؛ ولم يقابله الشعب في الشطر الشمالي للوادي مقابلة الغازي ، وإنما قابله مقابلة المحرر من ربة غلبة أجنبية أو شبه أجنبية ، والمنقذ من انحلال داخلي . وفي أعقاب ذلك جاءت الأسرة الخامسة والعشرون وملوكها من دنقلا ؛ وقد حكموا الوادي في الجنوب والشمال . فان دل ذلك على شيء فعلي أن الوحدة في العهد القديم لم تقم بالضرورة على أساس الغلبة من جانب مصر ، وإنما كان الحاكم يأتي من أي إقليم تتركز فيه القوة ؛ ولم يجاوز توحيد دنقلا مع الشمال ما حدث قبل ذلك من توحيد الدلتا مع الصعيد . ولا يمكن أن يقال عن نفوذ قوات الوحدة من الجنوب إلى الشمال أو من الشمال إلى الجنوب في أقاليم وطن كبير واحد ، إنها قوات فتح وغزو . وما يصدق على عهد الأسرة الخامسة والعشرين يصدق على غيره من العهود التي حاول فيها أبناء شطر من الوادي أن يمدوا وحدتهم إلى الشطر الآخر . وقد لا يزيد ما حدث من انتقال قوات الوحدة في داخل نطاق هذا الوطن النيل الكبير بين مصر والسودان على ما حدث من جهاد الموحدين في أقطار وأوطان كثيرة من العالم

القديم ، وما تكرر مثله إبان توحيد كثير من الأمم في عهدنا الذي نعيش فيه .
ومع ذلك فليس لمؤرخ أن يقول عن تلك الحركات المحلية والقومية إنها حركات
فتح وغزو وعدوان .

وإذا نحن انتقلنا من العهد الفرعوني وما سبقه إلى العهود اللاحقة لمسنا
آثار جهود أبناء الوادي في الوصل بين شطريه بروابط الثقافة والمدنية والحضارة
مادية ومعنوية . ففي العهد المسيحي مثلاً تلت مصر ديانة المسيح عليه السلام
من الشرق ، ولكنها عادت فنشرتها نحو الجنوب . وما كانت تملك بحكم الطبيعة
أن تحبس لنفسها هذا النور الجديد من الفكر الديني ؛ بل انتقلت المسيحية
مع ماء النهر حتى استقرت في إقليم دنقلا ومروي ؛ وانتشرت من النوبة في اتجاه
إرتريا ، ثم مع النيل الأزرق في اتجاه سنار . واستمرت المسيحية هناك إلى
أن جاء الاسلام ، بل حتى بعد انتشار الدين الجديد . ويقال إن الكنيسة
النوبية الجنوبية بقيت على شيء من الكيان إلى القرن الخامس عشر الميلادي .
ومقدم الاسلام ذاته وانتشار العرب إلى شمال السودان ووسطه ، وتعميرهم
تلك السهول المكشوفة ، إنما تقوم شاهداً آخر على ما بين أجزاء وادي النيل
من صلة تاريخية وروحية مكينة . فالعرب لم يعبروا البحر الأحمر مباشرة إلى
السودان ؛ والدين الجديد لم يبلغ السودان من الجزيرة العربية رأساً ، كما
حدث في حالة بعض الأقطار الأخرى . وإنما دارت قبائل العرب حول البحر
الأحمر إلى برزخ السويس ، وبلغت مصر واستقرت بعض الوقت على جوانب
الوادي ؛ ثم انتقلت نحو الجنوب وهاجرت على طول الوادي ؛ وكان ذلك
حوالي القرن الثاني عشر الميلادي وما يليه . وبعد أن بلغ العرب أرض دنقلا
انتشروا في اتجاهات ثلاثة ؛ فذهب فريق منهم نحو شرق السودان ومنطقة
كسلا ، وذهب فريق آخر نحو كردفان ودارفور وما وراءهما إلى منطقة وادي
وتشاد ، واندفع فريق ثالث نحو أرض الجزيرة وبلاد الفنج . ولكن الشيء
المهم أن مصر كانت طريق الثقافة وال عمران إلى السودان ، وأن هؤلاء العرب
الذين صبغوا السودان بصبغتهم العربية الحاضرة إنما أتوا عن طريق مصر .
ولم يكن في ذلك شيء من الغرابة ؛ فقد قضت الطبيعة منذ البداءة أن يشارك
السودان مصر في كل شيء حتى في تلقي العناصر الجنسية وتلقي الثقافة والنور
من الخارج . ومصر لم تكن لتستطيع أن تحبس عن السودان ما تملك أو

ما تستعير ؛ فهو منها وهى منه ، وهما جميعاً من النيل الذى يصل ولا يقطع ويربط ولا يحل ، ويقضى بأن يسير التاريخ فى الشمال وفى الجنوب على نهج موحد لا سبيل معه إلى انفراد ولا إلى انفصال .

ومع ذلك فقد يسائل القارىء : ولماذا وقفت موجة العرب ولم ينتشر الاسلام ليغمر السودان الجنوبي بنوره ، ولو عن طريق الاحتكاك الثقافى إذا لم يكن التوسع الجنسى سهلاً وميسوراً ؟ والجواب على ذلك عند أهل التاريخ ؛ فانتشار السكان انتشاراً طبيعياً لا يقوم على الغزو والفتح القاهر يتطلب قروناً طويلة ؛ كما أن انتشار الثقافة ذاتها يتطلب مثابرة ومداومة ودفعاً دائماً وتغذية دائمة ؛ ولكن موجة التوسع العربى وانتشار الاسلام عن طريق التجارة والاتصال الثقافى أصيبت بصدمة عنيفة فى الشرق الأدنى عامة وفى مصر خاصة عندما دخلت جميعاً تحت سلطان الدولة العثمانية ، فحل الأتراك محل العرب ، ودخل الشرق فى ظلمة شاملة وخبا نور المدنية بل كاد مشعل الثقافة أن ينطفىء ، فانقطعت حركة العرب من أساسها وتوقف سيل الاسلام فى منبعه ، ودخل السودان كما دخلت مصر فى دور مظلم لم يستطع معه تيار المدنية والوحدة أن يتابع سيره فى السودان إلى حوض الجبل والغزال ؛ واستمرت الحال على ذلك حتى جاء العهد الحديث .

وفى هذا العهد تجددت الحياة فى وادى النيل ، وجاء محمد على فبعث الوحدة والنهضة فى أرض مصر التى خرجت إلى المدنية وأخذت بأسبابها فى سرعة محجية . ولكن الشئ الطريف أن هذه النهضة المصرية لم تستطع ، وما كان لها أن تستطيع ، أن تنطوى على نفسها فى أدنى الأرض . فطبيعة الأشياء كانت تقضى دواماً بأن تسير الحياة مع النهر . وما يصيب مصر من نهضة لا بد أن يمتد إلى السودان . فذهب محمد على وذهبت معه مصر تتلمس تلك الوحدة الشاملة التى رسم الله حدودها مع حدود « وادى النيل » . ولم يسر أبناء الشمال مع النيل الأزرق والعطبرة إلى الحبشة ، وإنما ساروا مع النيل الأبيض إلى حوض الجبل والغزال ومشارف الهضبة الاستوائية ، وذلك كله طريق الحق الذى رسمته يد الله حين قضت أن ترتبط أجزاء وادى النيل ، وأن تبقى الوحدة السياسية فى حدود « الوادى » لا تتعداه إلى « الحوض » بمعناه الأوسع الأعم . والشئ الطريف أيضاً أن السودان قبل عهد محمد على كانت تعمره قبائل كثيرة متنافرة

متخاصمة ، لا تربطها حكومة مركزية موحدة ، ولا يسود أراضيها نظام إدارى موحد أو متقارب ؛ وإنما كان الانحلال السياسى قد أصاب السودان إلى حد أبعد مما أصاب مصر ذاتها أيام المالك ؛ ولم تكن هناك حكومة ذات حجم معقول فى أى جزء من أجزائه غير أرض الفنج على النيل الأزرق وبعض جهات محدودة فى الشرق وفى الغرب . ومع ذلك كله فسرعان ما استجاب السودان لدافع الوحدة وداعيها ، كما استجابت مصر من قبل ، وانتهى الأمر بأن اتحدت أرض النيل مما أشاع النهضة فى أرجائها وأعاد للوادي بعض مجده التليد . وعندما أتم محمد على وخلفاؤه توحيد ربوع السودان مع مصر صار التاج رباط الوحدة المقدسة بين شطرى هذا الوطن العظيم ؛ بل صار رمز الوحدة ورمز النهضة فى وادى النيل من أقصاه إلى أقصاه . ومع ذلك فقد شاءت الأقدار أن يعيد التاريخ نفسه ؛ فبعد أن وصل أبناء النيل إلى مشارف خط الاستواء ، امتدت يد الشر والاستعمار إلى الشرق الأدنى من جديد ، وسقطت مصر فريسة فى يد من لا يرحم ولا يدع رحمة الله تهبط بالخير على الأرض أو تجرى بالقرب بين الناس ؛ وانقطع حبل الحياة بين الشمال والجنوب ، وخبا نور المدنية ، وكاد مشعل الثقافة ينطفىء من جديد ؛ فكانت القطيعة بين مصر والسودان ، ودخل الجنوب فى عهد من النفوضى والتقاطع يسأل عنهما أولئك الذين تسببوا فى القطيعة وشطروا الوادى شطرين ، ثم حاولوا أن يربطوا بينهما ربطاً مظهرياً لا يمس الجواهر كما ينبغى أن يمس ، ولا يصل الحياة كما ينبغى أن توصل .

تلك قصة وادى النيل والحياة فى وادى النيل . قصة نهر أمر الله ماءه فجرى بين الجنوب والشمال ، وهدى الله أهله فاستجابوا لنعمته فى الخير ولبوا ندائه فى الوحدة ؛ وقصة حياة اتصلت فى الشمال منذ أقدم العصور وامتدت إلى الجنوب فأخذت عنه وأعطته واتصلت بينها وبينه أسباب الآخذ وأسباب العطاء فى غير من ولا تقدير ؛ فأخرج الله للناس فى التاريخ أمة وادى النيل ، عريقة كأعرق ما تكون الأمم ، مجيدة كأجعد ما تكون الشعوب . وتلقت العالم عن هذا الوادى السعيد كيف يعيش الانسان متكاملًا مع أخيه الانسان ، وكيف تتضافر الجهود فتجعل من هذا الوطن الأكل كمانة الله فى أرضه . ولئن كان قد أتى حين ، أو أتت أحيان ، من الدهر انقطع فيها حبل التاريخ

وبدت وحدة الأمة كأنها قد قطعت أو تبددت ، فما كان ذلك إلا أمراً طارئاً موقوتاً تسبب فيه طغيان أتانا من الخارج أو انحلال أصابنا في الداخل ؛ ولكن مصر . . . بل أستغفر الله . . . ولكن أرض النيل جميعاً كانت قادرة دائماً على أن تجدد التاريخ ، قديرة دائماً على أن تعيد بناء الوحدة ، تلك التى أنعم الله بها على أبناء النيل فى واديهـم الخالد ؛ بل تلك التى رسمتها الطبيعة وأمر بها الله . . . وإذا كانت أرض النيل قد استطاعت أن تجدد وحدتها وأن تستعيد مجدها مرات ومرات خلال تاريخنا الحافل الطويل ، فما أحرأها أن تفعل ذلك وأن تستعيده فى مستقبلنا القريب !

وما خاب منا من آمن بأن ما رسمته يد الله فلن تحموه يد الانسان وإن طغى !

سليمانه هزيب

قبل السفر

دُعَاءُكَ إِنِّي لِلدُّعَاءِ لَسَائِلُ
تَعُودُ هَذَا مِنْكَ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ
وَأُخْرِجُ حَيٍّ لِلدُّعَاءِ مُغَرَّبٌ
دُعَاؤُكَ أَبْغِيهِ وَإِنْ كُنْتَ مَيِّتَةً
دُعَاؤُكَ يَا زَوْجِي الْحَبِيبَةِ فِي الثَّرَى
يُصَعِّدُ مِنْ تَحْتِ الْجَنَادِلِ عَارِمًا
وَمَا أَبْتَغِي مِنْكَ الدُّعَاءَ لِطَائِلٍ
وَلَكِنِّي عَوَّدْتُ مِنْكَ شَمَائِلًا
بِرَغْمِي أَنْ تَبْقَى بِأَرْضِي، وَأَتَى
دُعَاءُكَ أَضْعَافًا فَإِنِّي رَاحِلُ
فَكَيْفَ وَسَيَّرِي مُبْعِدُ مُتَطَاوِلُ
وَحِيدٌ، كَسِيرُ الْقَلْبِ، أَرْمَلُ ثَاكِلُ
رَهِينَةٌ رَمَسَ غَيْرَ أَنِّي آمِلُ
أَحْسُ بِهِ يَغْزُو التَّرَى وَيَحَاوِلُ
قَوَى الصَّدَى تَنْقُدُ مِنْهُ الْجَنَادِلُ
فَمَا لِلدُّعَاءِ بَعْدَ فَقْدِكَ طَائِلُ
وَمَا زِلْتُ تَحْدُونِي إِلَيْكَ الشَّمَائِلُ
لَأَرْضِكَ وَحْدَى نَحْوَ قَوْمِكَ رَاحِلُ

عبد الرحمن صرقي

LES ORIGINES PROCHAINES DE L'EXISTENTIALISME LA PHILOSOPHIE DE NIETZSCHE

ROGER ARNALDEZ

الأصول القريبة للوجودية*

فلسفة نيتشه

فلسفة نيتشه ناشئة عن فلسفة شوبنهاور التي كانت تجعل من الإرادة قوام العالم . ولكن على حين ينتهى شوبنهاور بفلسفته إلى تشاؤم ميتافيزيقي عميق ، فإن نيتشه يعكس القيمة وينتهى ، إن لم يكن إلى التفاؤل ، فعلى الأقل إلى مذهب تأكيد وقوة يناقض المذهب الخلقى المؤسس على الشفقة والميل إلى الاضمحلال اللذين تتميز بهما آثار سابقه .

فقد كان شوبنهاور يعتبر الإرادة قوة عمياء لتقرير الذات تدرك غايتها بأن تبعث في مجموع الأفراد الذين تتألف منهم الطبيعة رغبة في الحياة لا تقل عن تلك الإرادة عمية ومجافاة للعقل . وهذه الرغبة في الحياة تظهر عن طريق الشهوات والأمانى التي تقلق الكائنات والإنسان بصفة خاصة ، والتي تثير بينها العداوة فتدفعها إلى أن يبید بعضها بعضاً في سبيل البقاء . فالإنسان باعتباره فرداً يحاول أن يحافظ على نفسه وعلى نوعه ، تخدعه إرادته فتحمله على أن يعمل في سبيلها وحدها . ومن ثم يستسلم للألم . وليس من مخرج أمامه إلا في أن يبید رغباته بهدم نفسه ، أو في أن يلغيها عن طريق الزهد الذي يفضي به إلى أن يترفع عن كائنه الفردي حتى يصل عن طريق التأمل الذي يعتمد على الخلق أو الجمال ، إلى إدراك الواقع الفريد غير المتجزئ الذي يؤلف العالم والذي يفنى الإنسان فيه .

وعن هذا الأساس يصدر تفكير نيتشه .

فالإرادة عنده ، ما سيطلق عليه اسم « إرادة القوة » ، هي ما يقوم عليه

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة « السكاتب المصرى » .

العالم . والوجود في نظره ليس خضوعاً سلبياً لهذه الحياة كأنما منحناها منحاً ، وليس هو استمتاعاً بها ، وليس هو أن تقبلها كأنما نحن إناء لها فتشيع فينا ، إنما الوجود هو إرادة الوجود ، هو تأكيد الذات . وقد أخذنا ابتداء من هذه المسألة نتبين اختلافاً جوهرياً بينه وبين شوبنهاور الذي كان يعتبر الإرادة ، قوة طبيعية ، يعتبرها ماهية القوة ومادة محركة دافعة .

أما عند نيتشه فالإرادة على العكس من ذلك ليست إلا فعلاً حرّاً ، قراراً حازماً ، أو إذا أردنا أن نستعير عبارة قديمة فهي فعل خالص . وهي تشبه من بعض الوجوه حركة برجسون الخالصة من حيث إنها لا تحتاج إلى دافع أو محرك ، أي لا تحتاج إلى جوهر سابق لها يحققها . هنا تبدو وجودية نيتشه . ولكي نتبين طبيعتها على وجهها الصحيح سنفحص عن كثر هذه المقارنة التي استعرناها من برجسون .

الفكرة المتداولة عن الحركة تحمل قبل كل شيء على متحرك ينتقل ، ولكنه قبل أن يتحرك وُجد في حالة سكون . مثال ذلك : عربة كانت ساكنة في بادئ الأمر ثم أخذت تتحرك . فهذه الفكرة المتداولة تقوم إذن على أن الحركة رهينة بالمتحرك . وإذا كان المتحرك في أول الأمر ساكناً فنحن منتهون إذن إلى أن نكون الحركة من السكون ، ابتداء من السكون . وهذا ما يميز مفارقات زينون في إنكار الحركة .

لذلك يضع برجسون نظرية حلسية ، من الصعب جداً إدراكها ، عن حركة بدون دافع ، عن حركة تنفي كل سكون ، ولا تكون إلا حركة واندفاعاً ونشاطاً ، وهي الحركة الخالصة .

كذلك الأمر بالضبط فيما يتعلق بفكرة الفعل الخالص من حيث إمكان تطبيقها على الفعل الإرادي عند نيتشه . فالأفكار المتداولة تبحث وراء كل فعل عن فاعل له ، وراء كل تأكيد عن شخص يريد يوجد قبله دون أن يكون استعمل إرادته . ومن ثم كان من الصعب أن يفهم الظهور المفاجيء لهذا الأمر « كُنْ » Fiat الذي هو قوام الحركة الفعالة أي القرار أثناء اتخاذه . وكان يراد إيجاد حركة من السكون ، والآن يراد إحداث فعل إرادي مبتدئاً من ماهية سابقة له أو من جوهر موجود قبله لا تكون الإرادة إلا إحدى صفاتها أو تلحقهما بطريقة سلبية . أما نيتشه فيذهب إلى عكس ذلك . ورغبة

منه في تجنب هذا الأمر المحال فانه يفترض إرادة قائمة وفاعلة باستمرار، أى إن قوام وجودها اتخاذ قرارات ، فهو يوحد بين الفاعل والفعل الإرادى فلا يوجد فاعل خارج هذا الفعل ومتميز عنه ، بل يوجد هذا الفاعل وينشئ نفسه من طريق هذا الفعل .

وهذا التعديل الجوهرى في وجهة نظر شوبنهاور عن فكرة الإرادة نفسها حمل نيتشه إلى إلغاء الأساس الذى بنى عليه أستاذه مذهبه في التشاؤم . فلا يوجد فرد كالتحرك تحركه الإرادة ويخضع بتأثير هذا الدفع لجميع ألوان الآلام السلبية .

وقد يخيل إلى الإنسان العادى بلا شك أنه لعبة في أيدي أقدار تتجاوزه ، وأنه سلبى بحت ومدفوع في شهواته بقوى تستولى عليه في أعماق نفسه ، ولكنه لا يستطيع أن يلائم بينه وبينها ملاءمة كلية تامة ، لأن آلامه تقوم بينها وبينه . ومهما يكن من شئ فإن في فلسفة كل من نيتشه وشوبنهاور كائناً يضحى به في سبيل الشقاء والألم . ولكن هذا الكائن عند أحدهما هو الفرد ، على حين هو عند الآخر الرجل العادى الذى يملك القوة التى تسمح له بأن يؤكد ذاته باعتباره فرداً . أو بعبارة أخرى يلتمس شوبنهاور العلاج للحالة الانسانية فيما دون الفردية ، في التأمل المتصوف ، في الوحيد الفريد غير المنقسم ، على حين يلتمسه نيتشه فيما فوق الفردية ، في القوة التى تكفل لذات الفرد الإنسانى وآلامه ، في الفعل الإرادى ، فهذا الفعل وحده هو الواقع الحقيقى . وهذا الذى يريد هذه اللذات وهذه الآلام وبقراها ويضعها في المستوى الأرقى للحقيقة الخالصة ، دون غشاء ودون إيهام . وقصارى القول يلتمس نيتشه هذا العلاج في الانسان الأعلى .

فوجودية نيتشه أساسها إذن الاستبعاد المطلق لأى كائن يسبق وجوده الافعال ، وفي هذا — كما يظهر — هدم للنظرية الفلسفية القديمة ، نظرية الموضوع . فليس الإنسان موضوعاً لأفعاله ، كما أنه حين يفعل لا يأتى بشئ من شأنه أن يحسن أو يزين طبيعته الشخصية . فليس هذا الانسان إلا ما فعل ، وليس وجوده إلا عن طريق فعله ، يصبح هذا أو ذاك بفضل أفعاله . وهو لا يجمع صفات قد يزيد ثراؤه باقتنائها ، بل يتحول تحولا مطلقاً في كل فعل من أفعاله ، يختلف عن نفسه في كل مرة باختلاف أفعاله فيما بينها ، أى إنه غير

متأثر بالصفات والقيم الانتقالية التي يتقلدها وهو عابر ؛ لأنه سواء عليه أن يكون هذا أو ذاك ، وسواء عليه إذن ما تضيفى عليه أفعاله . فالشيء الوحيد الجدير بالاعتبار دون غيره من الأشياء هو القوة التي تعلن عن نفسها في كل فعل ، أو التأكيد الذي تشتمل عليه هذه القوة .

ومن ثم ينكر نيتشه بعنف كل حساب أو تدبير يواصل الإنسان بهما تقدير ما يربح وما يخسر من نتيجة أفعاله ؛ فالرجل الذي يتصوره نيتشه يناقض من جميع الوجوه الرجل المدبر الحكيم الذي يتولى إدارة روحه وثروته الروحية كما يتولى إدارة منزله ومزارعه ساعياً وراء الإنتاج والادخار . فنيشه يرى أن الإخفاق النهائي الذي لحق بنابليون خير ألف مرة من نجاح الأعمال لرجل بورجوازي في عصر جيزو .

فالإخفاق والنجاح لا تقدرهما مباشرة قيمة العمل ؛ لأنه كثيراً ما تحقق التفاهة أغراضها لأن هذه الأغراض نفسها تافهة فهي في متناول من يجعل منها غايته ، على حين يخفق غالباً أصحاب النفوس السامية ذات الأهداف الرفيعة الواسعة تلك التي لا ترمى إلى تحقيق أغراض في مستوى أقدارها ، بل في المستوى الذي تريد أن تبلغه هي . ولكن الذي يجب أن يحسب لأصحاب هذه النفوس في حياتهم هو أنهم أرادوا أن يكونوا عظاماً ، لأن حياتهم في الواقع لن تقوم إلا بهذه الإرادة . والعظمة إذا اشترط فيها أن تكون تتويجاً لأمر يستر وراءه إرادة مطمئنة مستريحة في المجد ، فلن تكون إذن إلا أحقر ألوان الزهو والغرور . فلنحذر إذن العجب بأنفسنا . ويستعيد نيتشه الفكرة القديمة السابقة على سقراط عن الحركة العالمية التي تسلب اللحظة الحاضرة كل واقعية . فما نستطيع الإعجاب به في أنفسنا ، وما يجعلنا نباهى به حين نقول : إنا كذا وكذا ، ليس من كيائننا الحالي في شيء ، إنما هو ماض ميت متجمد مدفون . وإذا وقفنا لنجد أنفسنا ، فلن نجد من أسباب التمجيد إلا القيمة الميتة . ولن نستطيع إدراك القيمة الحقيقية إلا فيما يؤلف الحياة أثناء حركتها ، فيما من شأنه وحده أن يرفع من قيمتها ، وهو الفعل الإرادي .

وكل تفكير في الذات خطأ يغض من قدر الانسان ، وتصوره أسطورة أورفيوس أبلغ تصوير . ينبغي دائماً أن نسير قدماً دون أن نلتفت إلى وراء ، وإلا فقدنا طلسم الحياة . والفلسفة التي تعكس الذات وتقيم الآلهة

الباطلة الزائفة وهى الماهيات الدائمة والجواهر والطبائع ، هذه الفلسفة مقضى عليها بلا رجوع .

نستطيع حينئذ أن نفهم المعنى العميق لمذهب قلب القيم ولمذهب الموجدة . فاذا عرض مذهب نيتشه الخلقى على أنه رفض لذلك الحسد الدنى الذى يضمه ضعفاء هذا العالم للأقوياء ، وعلى رد الحقوق الطبيعية المقررة للاستقرائية الإنسانية إلى أهلها ، فقد هذا المذهب ما يرمى إليه من معنى ميتافيزيقى ، واقتصرنا بذلك على المظاهر الخارجية التى يرمز إليها .

ورسالة نيتشه ذات أفق فلسفى لا يقل اتساعه عن أفق الرسالة المسيحية التى تريد أن تهدمها وتقوم مقامها . فان فكرة الإنسان الأعلى تقوم مقام فكرة القديس . والانحدار إلى الإنسانية البسيطة ، وهو نتيجة لهذا الزهو الباطل الذى يدفع الإنسان إلى العجب بنفسه ومن ثم إلى الانصراف إلى نفسه أى إلى رجل خيالى ميت والتحول عن الاندفاع العظيم الذى يؤلف كنه الحياة ، هذا الانحدار شبيه من جميع الوجوه بانحدار آدم وزلته ؛ فالإنسان خاطئ إذن ، وهو مجرم يحد من موج الحياة ، بل يذهب إلى وقف هذا الموج فى نفسه وهو يبسط يداً آثمة إلى هذه القيمة الرفيعة التى كان ينبغى أن يخدمها وأن يبرزها جلية واضحة فى أفعاله الإرادية . وهو هارب من الحياة كما يهرب الجندى من الجيش . فى حين أن الإنسان الأعلى هو المؤمن الوفى الذى يواجه واجب الحياة المحتم ، وهو القادر على أن يلتزم دون حساب أو تدبير ، ودون أمل فى الجزاء ، لمجرد حب الحياة .

ومن ثم فالإنسان الأعلى لا يخضع للتردد المتبدل بين التفاؤل والتشاؤم . فهو لا يتوقع شيئاً من نتيجة أعماله . ولا يخضع للتردد المتبدل بين الخير والشر ، فليس من أمر يدعنه له إلا ذلك الذى يدفعه إلى أن يريد أن يحيا حياة كاملة . وهو إذ يختار هذا الاتجاه يصير المصدر الوحيد لكل القيم لأن اختياره ينهى قيام كل سلطة خارجية . وأخيراً لا يخضع للتردد المتبدل بين اللذة والألم ؛ فان كلا من هاتين الحالتين النفسيتين ، يمكن على حد سواء أن يستعمل كضخم للحياة من طريق قوته وعنقه ، فان الألم واللذة يتصلان فى حالاتهما القصوى وينتهيان إلى شعور حيوى قد أثير فى عنف شديد ، ولا تعارض بينهما ؛ فان عدم امكان الملاءمة بينهما لا يبدو إلا حين يظهران فى مظهرهما العادى المألوف .

مذهب نيتشه إذن مذهب بطولة . على أنه يحق لنا أن نسأل هنا :
 ألا يكشف هذا المذهب عن الوجودية الخالصة ، وذلك حين يدرج تحت اسم
 الحياة لوناً من ألوان الطبيعة لا يختلف عن الماهيات الكلاسيكية إلا في قوة
 اندفاعه المطلقة ؟ فالحياة عند نيتشه هي الحياة البيولوجية ، تلك التي يدرسها
 العالم وعلى وجه خاص صاحب مذهب التطور . أو ليست تلك الفكرة البيولوجية
 فكرة مشتركة شاملة (إذا كان لنا أن نستعير عبارة سينوزا) أى إن من
 شأنها أن تلائم كثرة من الكائنات ؟ والإنسان الأعلى الذى يقبل الحياة
 أنخلص لقيم تختلف عن تلك التى يخلص لها إنسان أعلى آخر غيره ؟ وبعبارة
 أخرى ألا يكون مذهب نيتشه الخلقى عاجزاً في نهاية الأمر عن أن يبين
 ما ينبغى أن يكون للفعل الإرادى من مميزات خاصة ، ومن خواص تميزه
 كل التمييز من غيره ؟ وهذا المذهب الخلقى البطولى ألا ينتهى إلى مذهب خلقى
 عام يخضع إذن لما وجهه كيركجارد من نقد إلى الأبطال وأمثالهم ؟

هذا الانحراف للوجودية عند نيتشه مرده إلى نفوره من كل لون من ألوان
 الضعف ، وإلى ما ورثه عن شوبنهاور . فقد ظن أن الأمراض والعاهات تنمى
 فى الإنسان هذه الموجدة على الأصحاء المزهرين الذين ضرب لنا سارتر مثلاً
 عنهم فى كتابه « التأجيل » *Le Sursis* . فقد عرض علينا مريضاً فى مصحة
 يتهيج لوقوع الحرب لأنها ستصيب « الواقفين على أقدامهم » . ومهما يكن
 من أمر الموجدة التى يقول بها نيتشه والتى تقدها ماكس شيلر ، فإن الشئ
 الذى لم يتنبه إليه نيتشه هو أن كثيراً ما تقوم فى المريض إرادة قوية فى طلب
 الحياة بحيث نستطيع أن نقول إن الحياة التى يحتفظ بها هذا المريض إنما هى
 أثر من آثار إرادته . وهذه حالة من الحالات التى كان يمكن اعتبارها
 تطبيقاً خالصاً لمذهب نيتشه ، والتى تحملنا على أن ندهش من أن ميل هذا
 الفيلسوف للقوة الجسمية وللم والدم قد دفعه إلى إهمالها وإلى اعتبار أن
 الفعل الإرادى لا يعدو أن يكون انفجار حياة بلغت من الشدة والعنف
 مبلغاً كبيراً ، على حين كان يجب عليه لو أنه بقى أميناً للوجودية أن يتبين
 على العكس من ذلك أن الحياة تعتمد على الفعل الإرادى وأنها رهينة
 به ، وأن الإنسان خالق ما فى نفسه من بشرية . ولكن لو أنه اتبع هذا
 الطريق لانتهى حتماً إلى النتائج التى ذكرها شيلر فى كتابه « رجل الموجدة »

أى لاظطر إلى أن يعترف ببعض القيم الخلقية التى كان ينكرها : مثل الإذعان والتواضع والشفقة الخ . . . تلك القيم التى توصف بالقيم المسيحية والتى ذكرها الإنجيل . وبعبارة أدق فإن خطأ نيتشه يقوم فى اعتقاده أن الفعل الإرادى لا يمكن أن يكون قويا عنيماً إلا إذا اتجه فى الاتجاه الذى تمليه مقتضيات الحياة البيولوجية . وقد كان محقا حين قرر أن قيمة هذا العقل لا تقاس بالنتيجة التى يظفر بها صاحبه نجاحاً كانت أو إخفاقاً . ولكنه لم يواصل جهده ولم يتعمقه حين رغب فى تكييف الإرادة باعتبارها عملاً داخلياً ؛ لأنه استمر يقيسها بعنصر خارجى عنها وهو الميل الطبيعى للحياة البيولوجية . فليست الحياة هى التى يجب أن تحدد للإرادة اتجاه مراكز تطبيقاتها ، إنما الإرادة هى التى يجب على العكس أن تحدد معنى الحياة وتبين اتجاهها . فالناسك الذى يزهد فى كل اللذات الحسية والشعورية ، والذى يتجه إذن عكس التيار الطبيعى للغرائز الفسيولوجية يوجه هو أيضاً حياته اتجاهها خاصا ، ولكنه ليس الاتجاه المحدود الأفق الذى يستفاد من المعنى البيولوجى للحياة ، بل هو اتجاه أبعد مدى على أساس من الحياة الإنسانية أكثر سعة ، وقوة فعلة الإرادى يمكن أن تكون عظيمة ، بل هى فى الواقع عظيمة .

وقد يرجع موقف نيتشه أيضاً إلى مبدأ تفكيره فى مذهب شوبنهاور . فان هذا الفيلسوف يرى فى الكون قوة أساسية وهى الإرادة التى تبدو فى مختلف الكائنات على شكل إرادة الحياة . والانسان إذ يتلقى فردياً هذه الغريزة العمياء التى تدفعه إلى المحافظة على الحياة وإلى إزاعتها ينخدع بإرادته انخداعاً يكون مصدر آلامه . وكأن نيتشه لم يزد على قبول التحدى مع احتفاظه بكل القضية . فان الانسان الأعلى هو الذى يعرف كيف يقر ما فى نفسه من إرادة فى الحياة ، فيتخذ هذه الإرادة لحسابه ويستجيب للحياة . ولكن ينشأ عن ذلك أن إرادة الحياة أى القوة الحيوية لها بعض التقدم ، وأن الفعل الإرادى لا يمكن ممارسته إلا فى سبيلها . فلا يمكن والحالة هذه أن نتصور رفض الإرادة للحياة . والرجل الذى يصدر عنه هذا الرفض يعتبر فى رأى نيتشه رجلاً ضعيفاً عاجزاً عن مواجهة الحياة وعن ابتلاء لذاتها وآلامها ، لا ثائراً قويا يستطيع أن يوجد لنفسه حياة أخرى شخصية قوية ، وذلك بأن يقاوم ما فى الاتجاهات الحيوية العضوية من

دفع . وإلى هذا بالضبط يلجأ مكر الضعفاء ؛ فقد سموا قوةً هذه المقاومة الروحية التي ليست في الواقع إلا وهمًا باطلاً . ولا شك في أن هناك ألواناً من العزلة المعنوية لا تُخفى تحت ستارها إلا جبنًا ، لا سيما إذا قصرت نفسها على مواقف روحية . ولكن لا ينبغي أن نخلط بينها وبين النضال الفكري الحقيقي الذي تنكشف نتائجه في الحياة كلها والذي يؤثر في جميع ألوان السلوك بل في أشدها اضطباعاً بالمادية . وعدم الاكتراث بالعالم والتسلل من مشكلات الحياة الواقعية يستحقان اللوم من غير شك . ولكن الرفض في مثل هذه المواقف ، رفض متهرب يختلف كل الاختلاف عن الرفض الإيجابي الذي تواجه به أحياناً مقتضيات الحياة الطبيعية .

هذه هي المبادئ الجوهرية المميزة لمذهب نيتشه بما تشتمل عليه من قيمة ومن مأخذ . . . والآن إذا استعرضنا النظريات الهامة التي شهرت فلسفة نيتشه استطعنا أن نربطها في يسر بالأصول الأساسية وأن ندرك معناها الدقيق . لا شك أن من المميزات الأساسية التي اتسمت بها المذاهب الفلسفية في القرن التاسع عشر ميلها إلى التاريخ وإلى الاعتبارات المتصلة بالتطور . فالزمن بالقياس إلى هيجل هو الوسيلة التي يتجلى الفكر من طريقها والتي بفضلها ينشأ هذا الفكر نفسه في مظاهره المتوالية . أما نيتشه فمن جراء تفكيره في الفعل الإرادي وعلى أثر الاتجاه البيولوجي الذي اتخذته هذا التفكير ، قد أنكر بشدة فكرة النضج المتصل للكائن الإنساني خلال العصور التاريخية المختلفة . فقد كتب في مؤلفه « نظرات غير عصرية » ما يأتي : « من الجائز أن يعيش الكائن دون ذكرى تقريباً ، بل أن يعيش سعيداً ، والحيوان دليل واضح على ذلك . ولكن يستحيل عليه إطلاقاً أن يعيش دون نسيان . ولأوضح فكرتي في شكل أقرب إلى السهولة أقول إن هناك حدًّا من الأرق والتذكر والحاسة التاريخية يُلحق الأذى بالكائن الحي ويؤدي به إلى الهلاك سواء كان الأمر متعلقاً بإنسان أو بشعب أو بثقافة » .

والمستول عن هذا الانحطاط هو الفكر Geist فالفكر نصيب الضعفاء ، يجعلهم أبرع Klüger من غيرهم ، ويسمح لهم بخداع الأقوياء . ويقول نيتشه بهذا الصدد في كتابه « أصيل الأصنام » : « أغنى بالفكر التدبر

والصبر والمكر والمداورة والسيطرة الكبيرة على الذات وكل ما هو محاكاة وتقليد . يتضح لنا من ذلك كل أوجه الاتصال بين الفكر والزمن . فالتدبر والصبر وألوان الترتيب التي يجب أن تعتمد على الحساب والتدبير وسنوح الفرصة ، كل ذلك لا يتأتى دون مدة زمنية . وذلك لأن الضعيف الذي يشعر بالثقة في نفسه محتاج إلى اتخاذ كل هذا الاحتراس ، إلى بناء كل هذه الأسوار التي يحيط بها نفسه وهي احتياطاته وحيله ومكايده . وتفكير الضعيف هو أن الزمن سيضني القوى ، سيضني قوة القوى التي يستعملها هذا القوى في غير حذر ، على حين يستخدم هو الزمن لإقامة سور يقاومه به على مر الزمن . والعبارة الشهيرة « الزمن يعمل في مصلحتنا » تتخذ هنا كل قيمتها ومغزاها .

وبعبارة أخرى يستخدم الزمن والتاريخ في تحقيق السلطات « الزمنية » وفي جمع الأموال والثروة . والضعيف آخر الأمر هو الذي يتاح له من جمع المال والحلف ما يقوم بهما ويعتمد عليهما . أما إذا اعتزل ولم تبق له إلا نفسه فلا يمكن تصور وجوده حتى في نظره هو . وقد كتب رابليه : « جمع المال من خصال الضعفاء » . أما الإنسان الأعلى الذي ينادى به نيتشه ، الإنسان النبيل فيرتفع عن هذه الفتنة . فالنضال الذي تقوم به إرادته يخلو من كل طمع في الغنيمة . والخطأ الجسيم الذي يؤخذ على داروين أنه أسس نظريته على مبدأ « الكفاح من أجل الحياة » . ونحن نقرأ في « أصيل الأصنام » : « يخيّل إلى أن قضية « الكفاح من أجل الحياة » الشهيرة تبدو في الوقت الحاضر مفترضة أكثر منها مثبتة . هذا الكفاح نصادفه ولكن على أنه حالة استثنائية . فالحياة لا تلوح في مجموعها في مظهر عوز ومجاعة ، إنما تلوح في مظهر ثراء وفيض بل في مظهر إسراف وتبذير . وحيث يقع النزاع يقع في سبيل السلطة . . . ينبغي ألا نخلط بين مالتوس وبين الطبيعة . » ويتضح لنا هنا التنافر بين أسلوبين من التفكير متعارضين تعارضاً مطلقاً : أسلوب التفكير الانجليزي وأسلوب التفكير الألماني . وينكر نيتشه في اشمئزاز التفاؤل الأنجلوسكسوني الساذج السخيف الذي يعتقد أن التطور يحتفظ عن طريق الانتقال بأكثر الأجناس البشرية والأفراد تسليحاً للحياة . فالتطور والتاريخ وموضوعهما السوق يحتفظان بما يؤلف هذه السوق ، أي هذا القطيع الضخم من الضعفاء . ونظرية

داروين عن التطور تعتبر في الواقع تقهقراً . فليس التاريخ إلا سلسلة من انحطاط طويل الأمد أهم مراحله هي إسرائيل والمسيحية والاشتراكية . ويقول نيتشه في كتابه « إرادة القوة » : « أشد ما يلفتني حين ألقى نظري إلى مال الرجال هو أني أرى فيه دائماً عكس ما يراه داروين وأتباعه أو ما يريدون أن يروه حين يقولون بتخير الأقوى وخير منتجات النوع وبتطور هذا النوع . وما نلمسه عن طريق التجربة تقيض ذلك تماماً ، وهو انزواء النجاح وعدم الحاجة إلى النماذج العليا الممتازة وتسلب النماذج المتوسطة بل الأقل من المتوسطة تسلطاً لا مفر منه . »

ولو أننا أردنا أن نلخص هذا الموقف اللاتاريخي المطلق الذي يقفه نيتشه لكان أوضح سبيل إلى ذلك هذه الفقرة من كتابه « نظرات غير عصرية » : « اللاتاريخية شبيهة بطبقة من الهواء المحيطة التي فيها وحدها تتولد الحياة » . ولا ريب أن الإنسان ليس غريباً عن التاريخ ؛ فان له تاريخه الخاص ، ولكنه تاريخ عليه أن يصنعه هو . وتقرأ في نفس المؤلف : « حق أن الإنسان لا يصبح إنساناً . . . إلا بقوته على أن يستعمل الماضي ليجعل منه حياة ، وعلى أن يستخرج من الماضي ما يعمل فيه التاريخ Geschichte من جديد ولكن إذا أسرف الإنسان في التأريخ Historie حرم الوجود والكيان » . واضح إذن الآن أن التاريخ الذي يرفضه نيتشه ليس إلا ذلك الذي يدعى إنتاج الإنسان وإنشاء القيم الإنسانية . ولكن نيتشه يحتفظ بالتاريخ إذا حمل على أنه الملكة التي تكون للأعمال اللازمية في استعادة ماض بأكمه تتولاه هذه الأعمال فتبعته من جديد وقد تحول وزاد ثراؤه . لحياتنا لا تمتد في التاريخ ولا تخط أثرها الفردي في تاريخ عام ، ولكنها توجد التاريخ بأن تقرر نفسها في كل لحظة ، عن طريق استئناف كامل خارج الزمن وبالقدر الذي ترضى فيه أن توافق على الماضي ، أو على ماض معين هو الذي تختاره مع بقائها حرة في اختيارها . حياتنا ليست إذن مرتبطة بالتاريخ على الإطلاق ؛ « فالتاريخ في خدمة الحياة بالقدر الذي يكون فيه في خدمة سلطة لاتاريخية » (المرجع السابق) . وهذه السلطة هي الإرادة في فعلها الخالص .

وكما رفض نيتشه واقعية جوهر سابق الوجود يكون موضوعاً لأعمالنا ، كذلك رفض واقعية التاريخ إذا اعتبر الأساس العام لرغباتنا وأفكارنا وحاجاتنا

ونياتنا ، ينبغي أن يخضع التاريخ للفعل الذى لولاه لهُوى فى النسيان . ولكل إنسان تاريخ إن أراد ذلك . ولكن يجوز أن يريده بإرادة ضعيفة ، يريده ليعتمد عليه فيخضع له بمجرد أن يكون أوجده . والذى ينبغي أن يكون هو أن يريد الانسان هذا التاريخ بإرادة قوية ليُجعل منه أداة يستخدمها سلطانه . ونظرية الرجعة الدائمة تبين بوضوح أننا لا نستطيع أن نقدم التاريخ على أنه تطور وتقدم وسعى إلى الأمام نحو مثل أعلى علينا إدراكه ، نحو نموذج للوجود علينا تحقيقه . وإذا نظرنا إليه خلال الانسان الأعلى فهو لا يعدو أن يكون مجموعة متوالية غير خاضعة للعقل والمنطق من المفاجآت التى تسقط على العالم فى الزمن القائم كأنها الصواعق ، وتترك أثرها فيه . وما من عنصر من عناصر الاستمرار يجدر أن يكون موضع اعتبار ، وليس ثمة مانع للصواعق يستطيع أن يوجه البرق فى اتجاه معين قد دبر من قبل . وعبثاً يحاول المتبصرون أن يجمعوا كل الأحداث التى يحتمل تبصرهم فى إدراكها فيوحدوا اتجاهها فى زمن مستمر غير منقطع لا فراغ فيه ولا اصطدام متحد الوتيرة ، أو إذا اختلف نسقه فلا يكون إلا اختلافاً طفيفاً . وعبثاً يحاولون أن يقنعوا أنفسهم أنه لا توجد مستحدثات مطلقة ، وأنهم باستمرار نزلاء مطمئنون فى عالم واحد أعدته لهم منذ الآن عناية إلهية وجهزته لهم فى سبيل تحقيق رفاهيتهم على أكل الوجوه . ويأتى « السادة بالطبع » فيدخلون الاضطراب على كل شىء ، ويمنعون الضعفاء من مواصلة حلمهم فى الحياة الناقهة . وتقرأ فى « أنساب الأخلاق » هذه الفقرة الرهيبة « . . . ذلك الذى جعلت الطبيعة منه سيداً ، ذلك الذى يظهر قويا فى أعماله وفى آثاره ، ماذا تهمة المعاهدات ؟ لا يمكن أن تدخل مثل تلك العناصر فى الحساب ولا يمكن توقعها ، فهى تصل مثل الأقدار دون سبب ودون علة ، دون مراعاة ودون حجة . هى تلم فى سرعة البرق . . . »

على أن القوى السيد الذى حين يقارن بقطيع الضعفاء يختلف عنه كل الاختلاف إلى حد أنه لا يمكن أنه يكون منه حتى موضع بغض ، هذا القوى لا يخلو إلى نفسه مع ذلك فى عزلة مطلقة . حق أنه رجل العزلة وأنه يقيم « حيث تهب ريح صرصر عاتية » (زارادشت) . ويتجه الفكر إلى فىنى حين يقول : « جعلتمونى أشيب قويا ومنعزلاً » ، ينبغي أن نعرف كيف نخلو إلى أنفسنا ، ومما يتميز به الانسان الأعلى أنه يستطيع احتمال العزلة . ونجد هنا

شيئاً من روح باسكال لا سيما في هذه الملاحظة : « اتضح لي شيئاً فشيئاً ما في تكويننا وتربيتنا من نقص عام . فقد تبينت أن كيفية احتمال العزلة لا يتعلمها أحد ، ولا يبحث عنها أحد » (فجر) . والعزلة هي دائماً القفر المروع الذي تقرر فيه جميع الأفعال . لأننا مهما استشرنا من إخصائيين ومهما فحصنا من أمثلة وسابقات فانه يأتي وقت نبقى فيه معترلين دون أن نجد سبيلاً حتى إلى مناجاة أنفسنا . إنما نحن في حالة توتر تام لنقول نعم أو لا ، هاتين الكلمتين الفاصلتين . وأملنا في النجاح وثقتنا بأن اختيارنا سديد لا يمكن في هذه اللحظة الدقيقة أن يحتفظا بأية قيمة ؛ لأننا في هذه اللحظة بالذات تقامر عليهما وتقامر فيهما . هنالك لا نستطيع أن نعتمد على شيء أو على أحد . ففي العزلة تنكشف مواقف التردد : « فهناك مواقف تردد قاسية مريرة ، وقليل من يملك من الشجاعة والقوة الخلقية ما يسمح له بمواجهتها ؛ فقد تكون راكباً من ركاب سفينة ، وتستكشف أن ربان السفينة والنوتي يخطئان أخطاء خطيرة ، وأنتك متفوق عليهما في فن الملاحة ، فتسائل نفسك حينئذ : لم لا تثير السفّر عليهما فتلقى بهما في أعماق السجن ؟ ألا يلزمك تفوقك بذلك ؟ ولكن أليس من حقهما هما من ناحيتهما أن يسجناك لأنك تفسد ما يجب لهما من الطاعة ؟ هذا رمز لمواقف أخرى أرفع شأنًا وأشد قسوة يرد فيها دائماً نفس السؤال آخر الأمر وهو : حين تعرض مثل تلك الحالات فيم يمتحننا تفوقنا ثقة بأنفسنا ؟ » (فجر) . فوجه التردد بالقياس إليك يكون إذن بين أحد أمرين فتسائل : هل أخضع للقوانين العامة ؟ هل أحترم النظام المقرر ؟ أم هل أتبع القانون الذي يمليه تفوقي أي القانون الذي تمليه قوتي ؟ ولكنك إذا شعرت بالتفوق في نفسك واجترأت على أن توجه إلى نفسك هذا السؤال ، فإنك بذلك وحده تعتزل غيرك وتضع نفسك خارج المركز العام ، خارج القواعد الخلقية « الأخلاق هي غريزة القطيع بادية في الفرد » (العرفان المرح) .

بقي إذن أن نعرف كيف نحتمل هذه العزلة وكيف نخوض غمار أمر لا في سبيل غاية أو لادراك نجاح ، بل لمجرد امتحان القوة . وكل رجل في ظرف من ظروف حياته يعرف العزلة والتردد بين موقفين ، وقليل من يعرف كيف يواجه مثل تلك المواقف أو من يستطيع ذلك . ولكن الذين يقوون على ذلك ، أولئك يجهلون ماعسى أن يكون « الخطأ ، أو التبعة ، أو المراعاة » (أنساب

(الأخلاق) . « وقوام عملهم أن ينشئوا أشكالاً مدفوعين في ذلك بفطرتهم ، وأن يتركوا آثاراً عميقة . . . تسود فيهم هذه الأثرة الرهيبة ، أثرة الفنان ذي النظر الشديد القسوة » (المؤلف السابق) ، هم أثرون ، ولكن أثرهم ليس مصدرها انعطافهم على أنفسهم وتمجيدهم لذاتهم ، هم أثرون مثل القوى التي تجهل غيرها من القوى ، إلا حين يقتضى الأمر هدمها . وعزلتهم تجعل منهم كائنات مطلقة . تجعل منهم كائنات مطلقة أو آلهة لا تنزل عن عزلتها ، ولكنها مع ذلك تحدث في العالم لمجرد حضورها الفعال تعديلات عميقة الأثر ، لا سيما في مواطن الضعفاء . فالحضور المستكبر المزدري للانسان الأعلى ، حضوره « الغائب » سينزع القطيع من سعادته البليدة التافهة التي تشبه سعادة الأنعام ، إذ يوجد فيه ضمير السوء . « نعم يا صاحبي أنت ضمير السوء في نظر أقربائك لأنهم ليسوا خليقين بك » (كذلك تحدث زارادشت) .

حينئذ يقوم الانسان الأعلى بدور مماثل لدور الرقابة التي يقول بها فرويد ، فهو يكبح في الضعيف كل الحركات التي من شأنها بسط الذات ولا سيما غريزة الحرية . « لا ينبت فيهم (الأقوياء) . . . ضمير السوء ، ولكن لولاهم لما ظهر هذا النبات الشنيع ولما وجد ؛ فإنه بسبب طغيان طبيعتهم الفنية ، وعلى أثر ضربات مطارقهم ، اختفت من العالم كمية هائلة من الحرية ، أو على الأقل اختفت عن الأعين مضطرة إلى أن تنتقل إلى حالة قوة مضمرة . غريزة الحرية هذه التي أصبحت في حالة مضمرة على أثر القهر ، والتي اضطرت إلى الانكماش والارتداد ، وإلى الاتزواء في الداخل ، وهي لم يبق لها مجال تمارس فيه إلا داخل نفسها ، هذه الغريزة ، هذه الغريزة وحدها (ولم نلبث أن تنبها إلى ذلك) كانت في مبدأ ضمير السوء . « ينقسم الانسان على نفسه ويفقد وحدة قوته الحيوية ، ولن يصل بعد ذلك إلى أن يطابق بينه وبين نفسه . ولا يقتصر السادة على شن الحرب على الرقيق ، بل يوجدون النزاع والشقاق في قلوب هؤلاء الرقيق أنفسهم . وضمير السوء هذا الذي يشبه إلى حد بعيد سوء النية التي يذكرها سارتر والتي تزيّف الواقع الانساني في أساسه والتي تعتبر مصدر الموجدة والتبديل المطلق للقيم ليس إلا الضمير المنعكس الذي يضبط به الانسان اندفاع التيار الحيوى ، ولعله أن يكون الضمير نفسه ولا يزيد عليه شيئاً .

ابتداء من ذلك الوقت لن يسكن الانسان آثاره ، فسيقوم دائماً فاصل بينها وبينه ، وهو فاصل التفكير الذى صدرت عنه هذه الآثار ، فاصل الرجوع إلى الوراء الذى يتخذ للحكم عليها والتحقق منها أهى مطابقة مطابقة تامة للغرض الذى فكر فيه الذهن طويلاً . فان كل أثر خارجى لن يكون الا امتداداً لأثر داخلى يواصله الانسان فيما بينه وبين نفسه وعلى نفسه . هذا الأثر الداخلى الذى يشكل به صورته ويعذب نفسه ، لأنه أصبح هو نفسه الموضوع الذى تمارس عليه سلطته المرتدة التى لا تستطيع أن تنمو نمواً طبيعياً فى الخارج . والشئ الذى يحل محل الحياة فيصبح موضع الاعتبار فى رأيه هو الحياة الداخلية المشتملة على مثل أعلى للطهر والتسلل من الحياة الواقعة ، ولكنه فى الحق مثل أعلى للفرار والحين . هذا الموقف الناشئ عن إرادة فاسدة عديمة الحيوية تنشئ هى أيضاً « قيماً » ، ولكنها قيم خيالية معكوسة ليس لها أى طابع مطلق ولا تظهر إلا فى هذا الشقاق الداخلى ، فى التعارض بين الانسان وبين نفسه ، والتناقض بينه وبينها . وكل هذه القيم الجديدة لا توجد إلا على أنها مثل أعلى شاحب سلبى يرتسم على ظهر القيم الحقيقية التى تطرح فى الظلام والتى تسمى فى هذه المناسبات : الشر والقبح . وهى قيم احتجاجية ليست شيئاً فى ذاتها ، ولم تكن لتصير شيئاً لو لم تجد أمامها الحق الذى تحتج عليه . وهذا مصدر الاضداد المتقابلة التى تتألف منها الأخلاق : الخير والشر ، الجمال والقبح ، العدل والظلم الخ والانسان إذ يعجز عن إقرار الحياة ينقسم بين واقعيتها المادية التى ينبذها مدفوعاً فى ذلك بالزهد والاشمئزاز ، وبين مثل أعلى لا يحققه ولكنه وهمٌ حيوى يعينه على احتمال مابقى من حياته التعسة .

أما السادة فيعرفون كيف ينتزعون أنفسهم من هذا المثل الأعلى الوهمى . « وحين يعمل الفكر بجذ وحزم وأمانة يستغنى إطلاقاً عن مثل أعلى . والعبارة الشائعة التى تطلق على هذا الاستغناء هى « الالحاد » (أنساب الأخلاق) . فليس الالحاد إلا الحرية المطلقة التى تترك للانسان فى عزله حتى دون أن يبقى له العزاء فى أن يواجه نفسه ؛ لأنه لا يجد فى نفسه أية صورة من صور الإله حتى يطمئن لها ويرضى عنها . وهى عزلة فاجعة ! عزلة الرياح العاتية العنيفة ! ولكن هذا الالحاد هو بالضبط الذى « تنفس مرتاحين فى جوه

نحن أصحاب الأفكار الروحية لهذا العصر . ويضيف أيضاً : « إنه الكارثة التي يحتمها ضغط قوى على غريزة الصدق لأكثر من ألفى عام ، مما دفع هذه الغريزة في نهاية الأمر إلى أن تحرم على نفسها كذب الإيمان بالإله » (المؤلف السابق) .

وسواء بحث الانسان عن مثل أعلى خيالى ، أم استكشف فجأة بطلان هذا المثل الأعلى ووهمه ، فانه فى كلتا الحالين يبين عن رغبة أكيدة تصر على معرفة الحق . على أننا نشهد خلال القرون آثار هذه الرغبة وكأنها ربح تعصف بكل شئ ، قهدهم على التوالى العالم السخيف للآلهة الباطلة الزائفة التي يكون الانسان أوجدها لا لشيء إلا ليوهم نفسه أن فى هذه الآلهة الكنف والسند والهدى . « مات الاله » بهذا يتنبأ زارادشت . والرغبة فى الحق لها هى أيضاً زهدا ومثلها الأعلى فى الطهر . وهى تنتهى إلى عالم أجوف يصبح الميدان الواسع لسلطان الأقوياء . لأن الرغبة فى الحق لا تنتهى فى الواقع إلى أمر يستكشف ، أو إلى شئ يكون موضع حب أو تأمل ، أو إلى حل يأتى بالراحة والاطمئنان فى آخر الأمر ، أو إلى ضمان نهائى للانسان الراحل المتجول . هى لا تؤدى إلا إلى مشكلة أبدية . وشعور الانسان أنه لا يوجد شئ بالاضافة إليه إلا هذه المشكلة وهى معرفته أيستجيب للحياة أم يرفضها ، دون سبب ودون نصيحة ، هذا الشعور هو الذى يعتبر فى نهاية الأمر الواقع الانسانى الوحيد وأساس المغزى الذى سنطلقه أحراراً على وجودنا ، وهو لن يكون إلا معنى شخصيا مقصورا علينا . والانسان لا يعدو أن يكون كائناً ، ويعتبر هو نفسه مشكلة بالقياس إلى نفسه .

هذه النتيجة التى تظهر فيها بجلاء وجودية نيتشه من شأنها أن تذيب الفرع فى النفوس الضعيفة الوجلة . ولم يظهر مذهب قرأه الانسان فى مثل هذا الحرمان وهذه العزلة ، فلا تبقى له بعد ذلك إلا إرادته . ولنلاحظ أن هذه الإرادة ليست بحال من الأحوال شيئاً أو حالاً ، إنما هى تؤول إلى فعل ينبغى أن يجرؤ الانسان على الاقدام عليه وعلى المجازفة فيه . والخطوط الأساسية التى تؤلف هذا المذهب فيما يتصل بالوجودية قوامها معارضة فكرة الجوهر وفكرة الحقائق الأبدية ، واستخدام حرية مطلقة تظهر عن طريق إرادة القوة . وقد لا تكون وجودية نيتشه هذه مطابقة لكل فلسفته ؛ فان نيتشه

الذى عبر دائماً عن أفكاره عن طريق الاستعارات والأمثال لم يضع مذهباً مقررّاً ، بل هو العدو اللدود للمذهب المقرر الذى يبدو فى أجلى صورة فى آثار هجل صاحب الرأى المناقض للوجودية مناقضة مطلقة . ومن ثمّ يمكن أن نجد خلال مجموعة آراء نيتشه أقوالاً كثيرة نستطيع أن نصور بها مظهراً آخر من مظاهر هذا الفيلسوف . ولكن لم يكن غرضنا فى هذا المقال أن ندرس فلسفته دراسة تاريخية، وأن نعرضها فى جملة عرضاً دقيقاً . إنما أردنا أن نبين أن فى آثار نيتشه مجموعة من السمات المتصلة التى تعتبر بلا شك أدلة على قيام فكرة وجودية فيها .

هذا المظهر من مظاهر الوجودية الذى يمثله نيتشه والذى نلقاه عند سارتر هو المظهر الملحد . وحين ندرس كيركجارد فى مقال تال سنفحص المظهر الآخر الذى يعتمد فى أساسه على التجربة الدينية ، والذى على الرغم من هذا الاختلاف الجوهرى يعرض أفكاراً مماثلة قد نقلت إلى أفق آخر ، ولكنها ملازمة حتماً لكل فكرة وجودية ولا يمكن فصلها عنها .

روحية أم نالديز

نقلها عن الفرنسية توفيق شحاته

شعري الضائع

لستُ أدري أين ضاعتُ هذه الأشعارُ مني
قلمٌ سَطَرَ يوماً بعضَ أوهامِ وطنٍ
وتخيَّلتُ الذي سَطَرَ (م) فنّاً أيّ فنٍّ
ثم محتّه الليالي وهي تستضحكُ مني
بعضُ أشعاري ضاعتُ وهي يوماً ضيّعتني

ربما كانت دموعاً ولكم تنثر عيني
ربما كانت رؤى بلد هباء قد طافتُ بذهني
ربما كانت كأحلامي التي لم تُغنِ عني
حبيبٌ طاف بكأسي عندما كنتُ أغني
وتلاشي مسرعاً من قبلي أن تأخذُ مني
بعضُ أشعاري ضاعتُ وهي يوماً ضيّعتني

طائرٌ غرَّدَ يوماً بأهازيجٍ ولحنٍ
فثنى غصني إليه آهِ من هذا الثني
ها فقد طار بعيداً وصداه عند أذني
أيّ غصنٍ هو فيه لستُ أدري أيّ غصنٍ ؟
بعضُ أشعاري ضاعتُ وهي يوماً ضيّعتني

إنها كخفقات قلبي إنها لمحات عيني
 إنها أحلام نومي هل يعيها كل ذهن؟
 إنها فيما يظن النا من من هذا التجني
 خطرت من غير إذن ونأت من غير إذن
 بعض أشعاري ضاعت وهي يوماً ضيعتني

كل ما فيها ظنون ذهبت مع بعض ظني
 كيف أسترجع ما يضر نى فؤادي ويُعنى؟
 كيف أسترجع لحناً ضاع من صوت المغنى؟
 كيف أسترجع طيفاً مرّ فيما بين جفني؟
 بعض أشعاري ضاعت وهي يوماً ضيعتني

أيها القلب ابق لي أذ ت فشرياً نك دت
 أنت كأمي وشرابي ونداماي وخذني
 كل نبض فيك لحن يُخلد النفس ويُفني
 فيك أحلام كثر ورؤي يعشقن فني
 كل ما في الكون تعب ير عن الألفاظ يُفني
 بعدها لست أبالى أي شعير ضاع مني
 بعض أشعاري ضاعت وهي يوماً ضيعتني

أم العواجز

سبحان الذى وسع ملكه الخلق كله ، ولا اعتراض على حكمه . فلا أبتغى هنا إلا أن أروى قصة إبراهيم أبو خليل وهو يهبط درجات الحياة : كورق الشجر فى الحريف ، قد ترفعها الرياح قليلا ، ولكنها — حتى فى ارتفاعها — تنطق بالهبوط المكتوب عليها رويداً رويداً إلى أن تتوسد الثرى وتدوسها الأقدام . شهادته وهو ينزل آخر درجات السلم ، وقد علمت فيما بعد أنه يتم وتلطم فى صغره (ولا أدري أهو حضرى ، أم ريفى ، واعتقادی أنه من أولاد البلد) . واستفتح شقاءه بالخدمة فى المنازل ، ثم إذا به بائع ترمس على عربة يد صفت عليها قنارية ، زينت حلوقها بالورد والريحان . وقد سمعت أنه — بعد ذلك دكاناً صغيراً للعطارة ، ثم ارتد بائعاً متجولاً كل بضاعته دبائيس وإبر مواعد الغاز ومشابك الغسيل يقفز بها من ترام إلى ترام . وفى حياته فترات متقطعة لم يصلنى خبرها ، وأغلب ظنى أنه ذاق لتشرده أحياناً لسعة الأسفلت فى قره ميدان .

وكان قبل أن أعرفه بقليل يحتل فى الميدان ركن الرصيف الثالث المواجه لدكان التركى بائع الحلاوة الطحينية ، يجلس وأمامه « مشنة » فيها فجل وجرجير وكراث ، لا يزيد نداؤه عن قوله « الفجل ورور ، الجرجير العال » . لا ينطق وجهه بأثر ما يدل على هذه العهود التى تقلب فيها ، وهذه المهن التى ظلت تركله واحدة بعد أخرى . فهؤلاء الناس يتقبلون الحياة كما هى ، لكل نهار قسمته ، وكل يوم ينقضى يموت — مثلهم — بلا تركة ، هم يدخلون الحلبة وقد مات إحساسهم : — أمن الجهل مات أم من البلادة أم من القناعة والرضا — فلا تطرف أعينهم للكلمات النهائية عليهم . ولكن يجدر بك ألا تسارع إلى الحكم عليه فقد تكون ظالماً له ؛ فانك لو عرفت مثلى لوجدته رجلاً سليم الطوية أنيساً مهذب اللفظ كريماً . ورغم ما يبذله من جهد ليتصيد لقمته ويقيم

أوده فان قلبه لا يعرف الحسد ولا الضغينة . تنبئك عيناه اللتان خيمت عليهما السحابات إن في قلبه ميلاً دفيناً إلى الفكاهة والدعابة ، وتأسرك نظرتة لأن الابتسامة فيها تملص من حجاب أثر حجاب ، فكأنك تشهد تصويراً سينمائياً بطيئاً لابتسامة العين كيف تكون . وكان إذا رفع وجهه إلى ظل عينيه بكفه ، فيخيل إلى أن العالم قد تضاءل إلى هذا الإطار الذي انفردنا فيه نحن الاثنين ، وأن حديثه مسارة خافتة في خلوة .

يحتل أبو خليل مكانه المعهود قبل الظهر بقليل ، فاذا جاء العصر ، حين تفرغ أوتكاد « مشنة » النهار ، قام وسار متاثلاً كعادته ، وأخذ يجول في الميدان ويمر على كثيرين من أصحاب الدكاكين ، ويتريث عند هذا أو عند ذاك ، فيسألونه عن حاله ، ويسألهم عن حالهم ، وبعضهم يتندر معه ، ويضاحكه . وكان له صديق يشتري منه رغيفاً يحشوه بالطعمية ويدسه تحت إبطه ، وصديق آخر يشتري منه أرخص السجائر ويضعها في علبة من الصفيح فوق حزامه بين جسده وثوبه ، ثم يترك أصدقاءه إلى رصيف المسجد ليتنسم الهواء — كما يقول — وليتعرف على الوارد في ذلك اليوم . فاذا بلى جديد ما يراه عاد إلى مكانه وجلس وبسمل وأكل غذاءه ، حتى إذا فرغ منه قبل يده ظهراً وبطناً وحمد الله ، وهياً لجسده جلسة مسترخية وأشعل سيجارة يدخنها بلذة كبيرة ، فهو صاحب مزاج . . . ثم يختفي عن الميدان ولا يعود إلا قبيل الغروب ومعه « مشنة » المساء . أما عشاؤه فرغيف وقطعة من الحلاوة الطحينية يشتريها من جاره البحري ثم يذوب من الميدان حين يخلو من المارة . ولا أدري أين ينام . ولكني سمعت أنه يشارك امرأة عجوزاً مقعدة هتاء في حصيرة في حجرة صغيرة تحت حنية سلم في آخر رقاق في نهاية الدحديرة . هل تزوج ؟ هل له أولاد ؟ هل له أقارب ؟ لست أدري . إنني أحب أبا خليل فلا أريد أن أتحدث هنا عما سمعته عن علاقته العجيبة (ولابراهيم قلب شفيق) بتلك العجوز المقعدة المصنة ، ولا أريد أيضاً أن أتحدث عن خيائته لها بين الحين والحين إذا ما فتح الله عليه ، في تل قريب من السيدة ، فلا أعلم أن نفسي تعاف شيئاً كما تعاف التحدث عن هذا الحى وأهله .

وذات يوم مشرق صاف ، أقبل أبو خليل على مكانه المعهود من الرصيف

فوجد الركن الآخر قد احتلته امرأة حولها ثلاثة صبية ، وعلى صدرها رضيع كأنما يشرب من صدرها خمراً فهو مغمض العينين نشوان لا يفيق ، والطامة الكبرى أنها جلست أمام « مشنة » مملوءة بالفجل والجرجير والكراث . ولما بدأت تنادى « زرع العصارى يا فجل ، الحزمة بلميم » ارتفع لها صوت مجلجل في الميدان . يا فتاح يا عليم ! وجلس أبو خليل لحظة وهو صامت يرقبها ، ثم تنهد وانصرف عنها ، وأخذ ينادى هو أيضاً على بضاعته ، وحاول أن يرفع صوته فوق صوتها فلم يستطع وأخذته نوبة من السعال . أراد أن يكلمها ويسألها من أين أتت ولماذا وقع اختيارها على هذا المكان بعينه ، ولكنها لم تأبه له ، ولم ترد عليه . تباع بيد ، وتفرق صبيانها بيد ، وتنقل بثني ركبها طفلها المخمور من ثدى إلى ثدى ، ثم تتحرك كالقعدة نحو قلتها فيتعري فخذاها قليلاً . ولكن هيات ! إن قلب أبي خليل تأثر لا يهش لها . لعلها إغارة مفاجئة ستنتشع غمتها في الصباح . . .

ولكنه وجدها في الصباح التالى أيضاً كالرصد أمامه ، وأخذ يتلفت إلى وجهها وإلى المارة وإلى جيرانه ، ويقوم ويقعد ، ويترك « مشنته » ويذهب يروى لأصدقائه هذا الخبر الداهم ، ثم يعود فاذا صوتها مجلجل في الميدان كأنما تنادى على معشرها في يوم الحشر العصيب .

واشترى أبو خليل في تلك الأيام بدل العشر خمس سجائر .

انتهت حيلته وانصرف همه إلى مراقبة هذه المرأة الجسور التي هجمت عليه تنافسه في رزقه . والغريب أنه بدأ يعجب بها ، وحاول أن يتسم لها مرة ، ومضت الأيام فاذا « مشنته » تقترب قليلاً من « مشنة » بدر ، كأنما يريد أن يقول لها « لنشترك معاً » ولكنه لم يقلها . وأحست بدر أن المقام قد استقر بها وإن إبراهيم صفر اليدين من السلاح ، بل أدركت أنها أصبحت ذات سلطان عليه ، فتزلت ذات يوم وردت عليه ، ثم لم يمض طويل وقت حتى كانت إذا قامت لبعض حاجتها في الخرابة المجاورة أوصته أن يجعل باله إلى أولادها . وطال غياب أبي خليل عن مشنته ، وتسكعه عند أصدقائه ووقوفه على باب المسجد هب النسيم أو لم يهب ، في قلبه أمل خفى . لعل بدر هي رزقه الذى أمطرته به السماء ذات يوم على غير ميعاد . وليس أحب إليه من أن يسلم قياده لهذه المرأة الجريئة ويعيش معها في كنفها ، إنها امرأة — كالرجل — يحق

له أن يباهى بها الناس أجمعين . سيتودد إليها ، وسيضحكها ليضحك معها ، وسينتظر حتى تقضم هي أولاً من الرغيف لقمة أو لقمتين ثم تعطيه إياه فيأكل من حيث رفعت فمها ، هي التي ستوقظه في الصباح ، وتغطيه بالليل ، وإذا تحابث وغاب عند أصدقائه من أصحاب الدكاكين بحث عنه وجرتة إلى حيث يجب أن يكون . هكذا كانت تحدثه نفسه . ولكن هل يفتحها ؟ إنه لا يحسر على ذلك ؛ فهو لا يعلم عنها شيئاً ، وليس في الميدان من يعرفها . وفي تلك الأيام اشترى أبو خليل غداءه من الطعمية نسيئة .

ولما اقتربت مشنته من مشنتها حتى تلاصقتا حدثته بدر ذات مساء - دون أن يسألها - عن حياتها ، فاذا بها أيضاً من المشاكل التي كتب على إبراهيم أن تكون نصيب روحه وعينية في هذه الدنيا . قالت له إنها حرة وغير طليقة ، متزوجة وتعيش كالأرمل ، فلها زوج غائب لا تدري مكانه ، هو صعيدى يحمل على ظهره ربطة كبيرة من الفانلات والجوارب والقوط يدور بها على المقاهى ، يلزمها زمناً ثم يختفى فجأة ، وتسمع أنه سافر مرة إلى وجه بحرى ومرة إلى وجه قبلى ، ولا تدري أهو يهرب منها أم من ثأر قديم يخشاه أم له هوثأر يجرى وراءه ليسلم له شرفه . وقد مضى على اختفائه آخر مرة قرابة سنة ونصف سنة وهي لا تعلم أحى هو أم ميت ، والغالب أنه حى يرزق ، وإلا لجاءها نبأ وفاته لأن على ذراعه وشماً باسمه واسم بلده . أم تراهم سلخوا جلده ؟ أقاتل هو في السجن أم مقتول لا يدري أين قبره ؟ اختفى وترك لها أولادها ، فخرجت تسعى إلى رزقها ، وقادها حسن حظها إلى جوار رجل طيب مثل إبراهيم أبى خليل .

ومرت أيام أخرى فاذا الألفة بينهما تزيد ، وأخذت بدر تحنو على إبراهيم ، وتشترى له طعامه ولا تطالبه بئس منه ، لأنها خلطت مشنته بمشنتها ، ونقوده بنقودها ، والكل في جيبها . وظنت أن حياتها قد انتهت إلى تلك الصورة ورضيت نفسها ذات يوم (ولا تسل أعن اختيار كان أم عن اضطرار ، فليس من اليسير أن تجد بدل الغائب صعيدياً آخر . . .) وقالت لإبراهيم : « لقد اتسخ ثوبك فتعال معى الليلة أغسله لك » .

وكان إبراهيم جالساً أمامها وظهره إلى الطريق ، وأخذ يحدثها وهو لا يشعر بمرور الناس ولا الزمن . . . ترى هل ما يراه حقيقة أم من وهم عينيه ؟ خيل إليه أن شفيتها تحتلجان فجأة ، ولعت أسنانها وتألقت عيناها ، لا الشواد وحده

بل البياض أيضاً ، وسمرت نظراتها إلى ما وراءه ، فالتفت فوجد صعيد خان أبيض
ظهره ربطة كبيرة يسعى إليهما بخطى وثيدة . نظرة واحدة جعلته عليم ! صد
القادم رجل خشن لا يرحم ولا يستسيغ الدعابة . . . وحط الرجل حـ أبي خليل
القرفصاء وكان كل ما قاله لبدر :
إحداهما

— كيف الحال ؟

فأجابته :

— الأشياء رضا والحمد لله على سلامتكم .

وأطرق الفتى الصعیدی قليلا ، ثم أدار رأسه ووجه نظرة واحدة إلى
أبي خليل فاطمأن قلبه والتفت إلى زوجه يقول :
— لكل شيء أوان ، لكن الصبر طيب .

وقام برهومة ينفذ التراب من على مقعدته ، وغاب عن بصرهما وابتلعه
زحمة الميدان ومرت أيام كثيرة لم أره فيها ، قيل إنه أصيب بالحمى ، وقيل
بل هي العجوز المقعدة قد علمت بخبر بدر فست في طعامه شيئا انتظرت حتى
بذلتها لها شابة من جاراتها فلحقه منه أذى كبير .

غبت عن الميدان وأهله زمناً طويلاً . ولما عدت إليه ومرت على الرصيف
المواجه للتركي بائع الحلاوة الطحينية لم أجد بدرا أم العيال ولا إبراهيم . . .
ثم حدث ذات يوم أن بكرت في الخروج لبعض أعمالى ودخلت الميدان قبل
أن تفتح المتاجر ، وأخذت أسنانى تصطك من البرد إذ كنا في شهر وصفه
بين الشهور القبطية : قلب الشتاء طوبة ، الحفاة يدسون أصابعهم المتورمة
تحت الابط ، ويسرون كأنما تطأ أقدامهم العارية شوكا . . . ينبعث في الميدان
بين الحين والحين سعال أجش غليظ ، ثم يتلوه صمت ، ثم يسمع بوضوح
— وهو همس — نتف من حديث بين أصوات لا يزال يثقلها النعاس وبلغم
الصدر ، ورغم ماتقع عليه عين السائر من الغادين والرائحين فلا مفر له من
الشعور بأنه في مدينة مهجورة لا تعرف هؤلاء المارة ولا يعرفونها . وإذا بي
نفاة أكاد أصطدم بإبراهيم أبي خليل : ثيابه رثة ممزقة ، ورأسه عار ، وأقدامه
حافية ، يسير كالترنح نظرتة المعتمة هي هي ، وابتسامته لم تتغير . خرج
في تلك الساعة المبكرة ليؤدي وظيفته التي يجب أن تبدأ وتنتهى قبل أن تنتشر

الحركة في الميدان . أصبحت له مهنة جديدة : هي البخور . وهو عمل لا يتطلب إلا كفة ميزان قديمة ، وسلسلة غليظة ، وبعض نشارة الخشب وشيئاً من فتات اللبان والشيخ يضعها وكسر الخبز في مخللة تعلق بالكف وربما ألقى فيها أيضاً الملايم والعشرينات الخردة . أدركت لحظة رأيته أن هذه هي المهنة التي ولد لها أبو خليل ، وكان يجب أن أتوقع أنه سينتهي إليها ؛ لأنها توافق طبعه ، فهي مهنة سهلة ينعم صاحبها بلذة التسكع ويتسلى بالتطواف على أشكال وأنواع من الناس . ثم إن دخلها ثابت — فهو من قبيل الاشتراكات ! — وليس لها سعر معلوم ، ولا تخضع لرقابة ولا تبور فيها بضاعة إذا كسدت . يعترف صاحبها أنه لا يرقى إلى مرتبة الباعة السريجة الذين يكسبون رزقهم بعرق جبينهم ، ولكنك لا تستطيع أن تهمه بالشحاذة ، فما هو ذا أمامك خارج إلى عمله وعدة الشغل في يده . وإذا كانت هذه المهنة هي هكذا عند عامة أصحابها إلا أنها شيء آخر في نظر أبي خليل . فهو قد مل التجارة بأنواعها لأنها شد وجذب وخداع وحيطة ، ولكن البخور لا يركز إلا على العواطف وحدها ، وهو يؤمن أن تحيته التي يستفتح بها صاحب الدكان صباحه مجلبة للبركة لأنها صادرة من قلب صاف عطوف محب للخير . مسكين أبو خليل ! إنه لا يعرف الحياة ولا طبائع الناس . لازمته بعد ذلك أياماً كثيرة ، ورأيت بعيني الأسطى حسن الحلاق لا يرضى — فهو ليس بالأبله — أن يدفع إليه المليم إلا بعد أن يحرقه داخل الدكان ليبخر له المقعد والمرآة والطشت المقطوعة حافته بقدر رقبة الزبون . ورأيت صاحب المطعم الوطني لا تقع يده إلا على طعمية واحدة بقيت من أمس أو أول من أمس . أما التركي فيعطيه المليم ويصرفه بحنق وضجر . ولما ألفه أكثر أصحاب المتاجر أصبحوا يعطونه المليم سواء تصاعد البخور أم لم يتصاعد ، فأهمل أبو خليل تجارته وأصبحت مجمرته منطفئة معظم الصباح ، أو إذ الاح فيها بصيص من النار لم ينبعث منها إلا دخان أسود كريه الرائحة تتأذى منه الأنوف . . .

وذات يوم مشرق صاف ، أحسست وأنا أسير إلى جانب إبراهيم أن الميدان قد سكن فجأة كما يسكن الجو قبل الأعاصير ، ثم أقبل من شارع مراسينا رجل له عينان براقتان كعيني الصقر ، ثوبه قد ضم سبعين رقعة ، وعلى رأسه عمامة خضراء ، له خطوة مجدة نشيطة لاتعرف الإعياء . قامته منتصبه ولسانه

لا ينقطع عن تلاوة الأدعية والأوراد ، وفي يده مجمرة ينبعث منها دخان أبيض جميل ذكى الرائحة ، بل إن سلسلتها صفراء لامعة . . . يا فتاح يا عليم ! صد أصحاب الدكاكين هذا القادم صدًا غنيًّا أول يوم ، فهم زبائن أبي خليل وليس من المعقول أن يشتروا في الصباح الواحد بركتين قد تفسد إحداهما الأخرى . . . ولكنه عاد في اليوم الثاني والثالث والرابع ، ثم تناول أول مليم . . . ثم عاد ومر على كل دكان من جديد سواء رق له قلب صاحبه أم لم يرق . . . وقد سحرني دأب هذا الرجل وقوة إرادته ، فتركت صديقي الأعمش وسرت وراء هذا القادم العجيب ، فاذا به يجرجرني من السيدة زينب ، إلى ميدان باب الخلق ، إلى القلعة إلى السيدة عائشة ، ويشق القرافة إلى السيدة نفيسة ثم إلى السيوفية والخيمية وبوابة المتولى ، ثم إذا به يأوى إلى مقهى صغير في سيدنا الحسين ، ويخلع عمامته الخضراء ، ويجلس ليدخن الجوزة ، وجلست إلى جواره وأنا ألث وأتصبب عرقًا . . . رأيت يسه ساعة من أجل الوصول إلى زبون واحد . . . ولم ألق في حياتي من يسعى إلى رزقه بهمة هذا الرجل وصبره وجلده .

وترك برهومة مجمرته وأصبح يكتفى بالمرور وحده على أصحاب المتاجر عليهم يذكرونه ويعطونه المعلوم . وتضاءل دخله ، واضطر إلى الوقوف وسط الميدان تارة ، وعلى باب الست تارة أخرى ، فاذا ببعض الزائرين يدسون في يده ماتجود به نفوسهم ، إذ حسبوه شحاذًا يتعفف عن السؤال . والعجيب أن أبا خليل ربي له بعد قليل طائفة من الزبائن تخلص له ، وتبحث عنه ، حتى تعطيه مافيه القسمة . مسكين أبو خليل ! إنه لا يعرف الحياة ولا طبائع الناس . . .

وذات يوم مشرق صاف وبرهومة في مكانه المعهود إذ دوت بالقرب منه صرخة عالية طافت بالميدان كله « حى ! قيوم ! » وتجمع الناس حول المجذوب الذى صرعه الوجد ، ووقفت فوق رأسه إحدى لابسات اللس الأسود والمداس الأصفر وعقد الكهرمان الغليظ واندفعت ترغرد . . . واستفاق المصروع ولكن فمه مطبق لا ينبس ببنت شفة ، وعيناه المصابتان بالحول تحمقان في وجوه المجتمعين حوله وقد اغرورقت فيهما الدموع . ثم رفع كفين ملائهما خواتم زرق وخضر وحمز ومسح وجهه وتهاى لجمع النقود . . .

ولما سمع أبو خليل في الموعد عينه تلك الصرخة ذاتها في اليوم الثاني والثالث ترك مكانه والتفت إلى المسجد وهو يتمم :

« يا أم العواجز ! مدد ! »

كان قد مل الحياة ، وركبه الاعياء والضعف ، وزادت سحابات عينيه ، وانحنى ظهره . . . واتجه بخطوات متثاقلة إلى مقام أم العواجز ، حوله صفوف من الشحاذين قد جلسوا القرفصاء — حتى تحالم هكذا خلقوا — وأسندوا ظهورهم إلى جداره ، يحيطون به إحاطة القمل بقبة الفقير . هيهات أن يجد له مكاناً بالدرجة الأولى بجوار الباب ، فتركه ودار حول المسجد حتى وصل إلى الميضاة وجلس على بابها . فالتفت إليه من يسبقه في الأقدمية ووجه إليه نظرة نكراء : مفيش يكره الشحاذ إلا الشحاذ مثله . . .

وهناك تركت أبا خليل ونقضت منه يدي ، فقد أصبح من أهل دنيا غير دنيانا . في دنيا لا مخرج لها ، بل لها باب واحد للدخول قد كتب فوقه : « باب الوداع » .

عبي مقي

ماذا أفدت من هذا العمر

سن الستين أشبه الأشياء بالقمة تقف عليها في سياحتنا على هذا الكوكب ونسائل : ماذا أفدنا من الماضي ، وماذا ننتظر من المستقبل ؟ وفي أعماق العقل الكامن وسوسة كأنها لغط في النفس : سن الستين هي سن الإقالة : يجب أن تقال أنت من الحياة .

وفي هذا العام ١٩٤٧ الذي أتم فيه هذه السن أجدني قد أخرجت كتاباً « كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين » وكأنه احتجاج على الشيخوخة . ولو أن مي كانت حية لقلت لي على عاداتها : ها أنت ذا تتشاءم وتحاول أن تتفائل ، تحس الضعف فتتخذ القوة .

ولكني كنت أجيب بأني ما زلت أحس حماسة الروح بل غلواءه ، واني أستطلع الدنيا كما لو كنت طفلاً . وحسبي هذا برهاناً على أنني بعيد عن الشيخوخة .

وأعود إلى أيام الطفولة والصبا بل الشباب أيضاً ، فأجد أنني من حيث التعلم المدرسي أو الجامعي قد عشت في صحراء لم أنتفع بشيء منها . وإنما كان انتفاعي بما كسبت من تربيتي الذاتية : من جامعة الكتب في اللغتين الانجليزية والفرنسية ، ومن سياحاتي في أوروبا ، وأخيراً ، ولهذا أكبر قسط في تربيتي ، من اختبارات الشخصية . وقد تكون الفترة التي عشتها وأنا على وجدان يقظ بالحوادث فذة من حيث إنها فترة الانتقال من مجتمع الأمس إلى مجتمع الغد ، ومن تحول الإنتاج بن النظام القروي الزراعي إلى النظام المدني الصناعي ، ومن الغيبات إلى الماديات . والحق أنني لا أكاد أعرف عصرًا تجمعت فيه عوامل اقتصادية واجتماعية انقلابية مثل عصرنا هذا . فان الفترة التي تقع بين ١٩٠٠ و ١٩٥٠ هي تاريخ بشري يزيد في مغزاه ونتائجه للمستقبل على القرون التي تقع بين ٥٠٠ و ١٥٠٠ . أجل ! لقد عشنا بسرعة

في هذه الفترة بل هرولنا نحو المستقبل . وهناك من تخلفوا لأنهم لم يطبقوا هذه السرعة أو الهرولة ، فلهثوا وعرقوا ثم قعدوا . وبعد أن قعدوا واطمأنوا أخذوا يحفظون عن « ظهر قلب » قواعد الفعل الماضي في حين بقينا نحن في الهرولة نحو المستقبل . وليس شك في أننا نعثر ؛ ولكن العثار مع السعى خير من السلامة مع القعود والركود .

والتربية الحقيقية ، وهي ثمرة العمر لكل انسان ، هي في النهاية اختباره طوال حياته . وليست هذه الاختبارات هي ما يقع لنا بل هي الرجوع والاستجابات لما وقع لنا . ونحن نختلف كثيراً في هذا ؛ فان هناك من يستجيبون بالصدود والاعتزال . وهناك من يستجيبون بالإقدام والمكابدة ، وهؤلاء هم الذين ينتفعون بالاختبارات . أما المعتزل الذي يؤثر السلامة بالصدود والاعتزال والإحجام والانكفاف فهو ميت حتى لو طال عمره إلى المائة ؛ لأن الحياة لا تقاس بالطول وحده إذ أن لها عرضاً وعمقاً أيضاً . ولا يكون لها العرض والعمق إلا بأن ننغمس فيها ولا نقف على ساحلها متفرجين بل نقتحم عباها ولو تعرضنا بذلك للموت المبكر .

وفي كل حياة من المصادفات ما يعد حسناً أو سيئاً ، وبعضها يقود إلى النمو والخصب ، وبعضها يؤدي إلى البوار والدمار . ومصر نفسها مصادفة سيئة لكل مصري من حيث إنها مأساة جغرافية . إذ هي تقع في ملتقى القارات الثلاث الكبرى ، كما أنها تقع في طريق الملاحة بين آسيا وأوروبا . ثم هي فوق ذلك تخلو من الجبال التي تيسر الدفاع ؛ ولذلك وقعت في أسر الغزو المتكرر . وكان آخر غزاتها هؤلاء الإنجليز الذين أحالوها إلى عزبة للقطن ومنعوا عنها الصناعة والتعليم ، وأيدوا الرجعية وضربوا أبناءها المخلصين الثائرين على الاستبداد ، وعمموا فيها الفاقة والجهل والمرض .

ونحن المصريين جميعاً سواء في هذه الكارثة ، كارثة هذه المصادفة التاريخية بغزو الإنجليز لوطننا وبقائهم فيه أكثر من ستين سنة ، يفرضون علينا القيود وقيمون السدود ويحالفون الرجعيين لقمع الروح المصري . وكثير مما عانيته في حياتي من المصادفات السيئة التي عطلت نشاطي وبعثت قواي يرجع إلى هذه المحالفة القائمة بين الرجعيين المصريين والمستعمرين الإنجليز فيما اتفقوا عليه من

قيود للحرية كانت تضطرنى إلى أن أدرج بدلا من أن أدير ، بل كانت تضطرنى أحيانا كثيرة إلى أن أقعد بدلا من أن أدرج . وهناك من الكتاب فى مصر من استسلموا لهذه القيود وارتضوها ، بل صاروا يخيفون الجمهور من الحرية وينعون ما فيها من استباحات تؤدى إلى أخطار . ولكنى لم أدخل قط فى معسكرهم إذ لا أطيق العمل فى هذا الجو الخانق للضمير والذهن .

أما مصادفاتى الحسنة التى أخصبت حياتى فكثيرة ، أذكرها بالشكر للاقدار التى هياتها لى . وأولها وأكبرها قيمة أنى لم أعرف قط الحاجة المالية ، وكذلك لم أعرف الترف المخدر . فأننا أتمتع بذلك القلق الذى يبعث على الاهتمام اليقظ المنبه ، ولكنه لا يؤدى إلى الهمة المرهق المجد . ثم صادفتى مصادفة حسنة أخرى هى أنى عرفت اللغتين الفرنسية والانجليزية فى سن مبكرة . وقد وصلتا بينى وبين الثقافة العالمية العصرية . ولذلك ارتفعت اهتماماتى من المشكلات « القروية » الصغيرة التى تحفل بها صحفنا من جرائد ومجلات إلى مشكلات عالمية بشرية منبسطة الآفاق .

ثم هناك مصادفة أخرى مؤلة للعالم منبهة لرجال الذهن . فأنى عشت عمرى فيما بين ١٨٨٧ و ١٩٤٧ فى عصر انقلابى انفجارى رائع من حيث الاكتشافات والاختراعات والثورات ؛ لأنه عصر المعارك التاريخية والصراع الخطير بين مجتمع آفل وبين مجتمع بازغ . كأن حوادث ألف سنة قد تجمعت فى بؤرة زمنية ، كما يتجمع ضوء الشمس من العدسة ، فصرنا نرى الانقلاب تلو الانقلاب . والعالم يعانى الآلام من هذه الانقلابات التى تنبه المثقفين إلى الدرس وتحرك ذكاءهم وتبسط لهم رؤيا زاهية للمستقبل لا يراها غيرهم فى السعادة القادمة من خلال المخاض الحاضر وآلامه .

وعندما أعرض لحياتى الماضية أجدنى ممتازا امتيازاً واضحاً جداً بصفة طفلية هى الاستطلاع . وهذا الاستطلاع يحطم القيود التى وضعها العرف أو كثيراً منها ، فيتسع ميدان الاختبارات ويزيد بذلك الوجدان . وهذا الاتجاه نفسه ، أى الانتفاع بالاختبارات ، يغير القيم والأوزان بحيث إن ما يعده غيرى نكبة قد أعده أنا نعمة لأن له قيمة لا يراها هو فى التربية والتنوير والنمو . فقد وقعت فى كوارث وأحزان أحمضت حياتى فترة . ثم اكتسبت من الكوارث نوراً وحكمة ، فاكسبت من الأحزان حناناً ورقة ، لأحب أن أفقدها . أجل ! لقد تضررت

من الألم حين مات ابن أختي وهو في السنة الأخيرة بكلية الطب ، وبقيت في نفسى لوعة تمزقتى كلما ذكرته . ولكن هذه اللوعة قد استحوطت بالزمن إلى حنان رحيم لا أحب أن أفقده . وكذا الشأن في جميع الأحزان الماضية تطفئ كيمياء الزمن نارها وتحيلها إلى ذكريات رفيقة تؤنس ماضينا . ولذلك أكنز هذه الذكريات وأستثيرها بعد عشرين أو ثلاثين سنة للذة لا للألم ، مع أن وطأتها حين وقوعها كانت بمثابة الصدمة التي تذهل وتجمد .

وأظنى أمتاز أيضاً بعقل حر مفتوح يحسن الضيافة للآراء الجديدة . وليس لى فضل فى هذا ، وإنما الفضل للغتين الانجليزية والفرنسية اللتين أتاحتا لى الاتصال الدائم بالثقافة الأوروبية العصرية . وهى تمتاز بالحرية المستفيضة كما يمتاز المجتمع الأوروبى بحرية لا يعرفها المجتمع المصرى . ومن هنا أصبحت ثقافتى ارتيادية أتمسك الجديد فى الآراء وأعرضه على مجتمعنا كى أوقفه إلى الحياة العصرية . ومن هنا كان ما يبدو من أنى يسارى متطرف ، مع أنى لو كنت فى مدينة أوروبية لكنت أعد عاديا ليس بى أى تطرف . وليس شك أن بعض اتجاهى هذا يعود إلى أنى مسيحى لا أحس أنى مقيد بتقاليد الأكثرية فى مصر . ولو سئلت ما هو « بيت القصيد » أو « إيماءة حياتى » كما تبدو من مؤلفاتى وسيرتى واتجاهى ، لقلت إنها الحرية . فانى أحب عرابى وفولتير لدفاعهما عن الحرية كل فى ميدانه . وقد ألفت كتابين عن حرية الفكر . وأحب كتاب « الجمهورية » لأفلاطون و « الانسان والسرمان » لبرنارد شو ؛ لأنهما يتجردان من التقاليد فى بحث التأصيل البشرى . وأحب إبسن فى « بيت عروس » لأنه يبسط آفاقاً جديدة للحرية فى شخصية المرأة .

وأنا الآن فى الستين أعد نفسى صائراً ولست كائناً كما يقول أندريه جيد . ولذلك أعنى بأن أتعلم كلمة جديدة أو أشرع فى دراسة علم جديد أغير أو أطور به . وفى هذه الأيام مثلاً أجد أنى مزحوم بدراسات كثيرة ، منها هذه السيائية أى علم اللغة من حيث صحة التعبير وملاءمته . كما أن اهتماماتى بالسيكولوجية والتطور والاجتماع تجعلنى أشكو قلة الفراغ . وفى العالم الآن ثقافة جديدة قد تجرثمت فى بداية هذا القرن وهى الآن تتبلور وتتجوهز ، هى ثقافة عالمية غير وطنية . أحس أنى من أبنائها ودعاتها . وقد أثبتت لنا القبلة الذرية ضرورة الاتجاه العلمى وخطورته معاً . لأن الحضارة القائمة ، حضارة السادة على هذا

الكوكب ، هي حضارة العلوم المادية ، والأخطار القائمة هي أخطار العلوم المادية . ولذلك فإن الأمة التي تهمل العلوم إنما تهمل حياتها . وقد حاولت في مصر طوال حياتي الماضية أن أعظم التوجيه العلمي بمؤلفات شعبية مختلفة . وكثيراً ما نبتت الخصومات بيني وبين بعض الكتاب على هذا الأساس ، أى إنى كنت أنتقص قيمة مؤلفاتهم لأنها لم تكن تتجه الاتجاه العلمى أو على الأقل كانت تتجاهل الأسس العلمية وتستسلم لمزاعم غيبية تافهة . ولذلك تعد مؤلفاتى من أدوات التطور الذهنى فى مصر ، وليست كذلك مؤلفات كثير من الكتاب الذين عاصرونى . ففى الوقت الذى كنت أولف فيه عن «العقل الباطن» أو « نظرية التطور وأصل الانسان » أو « البلاغة العصرية واللغة العربية » أو « حرية الفكر » ثم « حرية العقل » أو « غاندى والحركة الهندية » أو نحو ذلك مما يوجه ويغير ، كان غيرى يؤلفون عن الخلفاء الراشدين أو الأمويين أو العباسيين ! أجل . كنت أنشد الآفاق وأرتاد المجهل فى الوقت الذى كانوا هم فيه يشرحون لقرائهم قواعد الفعل الماضى ، مع أن هذه القواعد معروفة ، ومشروحة فى مئات الكتب القديمة ولا تحتاج إلى زيادة فى الشرح والايضاح . فان جميع الذين كتبوا مثلاً فى ترجمة عمر بن الخطاب لم يكتبوا عنه بأوفى مما كتب ابن أبى الحديد منذ نحو ألف سنة . وجميع الذين يخرجون لنا من وقت لآخر تراجم عن أبى نواس أو المهدي أو المأمون لم يزيدوا كلمة عما كتبه مؤلف الأغاني أو غيره من المؤلفين القدماء . ولكن الجمهور الذى يتعطش إلى الثقافة العصرية كى يفهم الحضارة العصرية لا يجد غير هذه الموضوعات القديمة ، فيبقى ، أى هذا الجمهور ، قديماً غير عصرى .

وهناك أشياء آسف لها كثيراً . منها أنى عطلت عن الكتابة إلا تحت اعين المراقبة نحو خمسة عشر عاماً فى الحربين الكبيرين ؛ إذ حتم علينا الانجليز ألا ننشر حرفاً فى جريدة أو مجلة أو كتاب إلا بعد أن يقرأه رقيب . وقد قرئت لى كتب فى الأدب والعلم وحذف الرقيب منها ما شاء . . . وهذا التعطيل قد جمد فكرى مدة طويلة ؛ لأن قطع التفاعل بين المؤلف وبين الجمهور يجعل الثقافة محدودة . لأن الثقافة اجتماعية . لا نهتم بها إلا فى مجتمع حى يوافقنا أو يعارضنا ، ولكنه فى كلتا الحالين ينبها . وقد قطع الاستعمار البريطانى بيننا وبين الجمهور هذه السنين الطويلة ، فقطع عنا بذلك التنبيه الذى

كان يحركنا إلى التفكير والدراسة الخصبية ، كما قطع عن الجمهور التنوير الذى كان يحتاج إليه .

وشئ آخر آسف له هو أن الحكومة المصرية ، بايعاز المستعمرين الانجليز أيضاً ، قد سنت قانوناً تستطيع أن تحرم به أى مصرى خارج القطر من رعويته المصرية ، ويكفى لذلك قرار من مجلس الوزراء بلا محاكمة أو دفاع . وقد منعنى هذا القانون من أن أترك مصر منذ عشرين سنة ، مع أن مثلى يحتاج إلى أن يزور أوروبا مرة كل عام أو كل بضعة أعوام حيث يتجدد بالايحاء والتغيير الذهنى والترفيه النفسى . ولكن المتسلطين الذين يعيشون فى مصر بالامتيازات القديمة ، هذه الامتيازات التى هى فضيحة مصر الآن فى جميع المحافل المتمدنة ، يخشون رجلاً مثلى يسارع إلى شرح الآراء الجديدة والإصلاحات العصرية . فما هو أن أضع قدمى فى باريس حتى أجد قراراً بحرمانى من الرعوية المصرية . وعندئذ يجب أن أتسكع سائر عمرى إلى أن أموت خارج وطنى بعيداً عن أولادى . ولهذا آثرت البقاء فى القاهرة على التسكع ، بلا وطن ، فى مدن أوروبا . وظنى أن هذا القانون سيبقى إلى أن أموت . ولن أرى أوروبا التى تشع أنوارها على هذا الكوكب .

وأخيراً أعود إلى السؤال الذى لا يفتأ يتكرر : هل ربيت نفسى ؟ وهذا السؤال يعيد إلى ذهنى وصف ه. ج. ولز للوزير البريطانى الكبير جلادستون بأنه لا يعد متعلماً أو حاصلًا على تربية . وذلك لأنه « كان يجهل الأثنولوجية أى علم وصف السلالات البشرية وخصائصها . وأن رؤيته للتاريخ كانت ناقصة لأنه لم يكن يدرك الصورة الحقيقية للبيولوجية أى علم طبقات القشرة الأرضية وتاريخ الأحياء ، كما كان يجهل الأفكار الابتدائية عن البيولوجية أى علم الحياة . وكذلك كان يجهل العلوم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية العصرية والآداب والفكر الحديث » .

وإذا قست نفسى بهذا المقياس الذى عينه ولز كي يبرهن على جهل جلادستون فانى أجد أنى حاصل على التربية التى قصدها ؛ لأننى أدرك كل هذه الأشياء التى ذكرها وأكثر منها مما يجرى على طرازها . والحقيقة أن الذين يستطيعون أن يسموا أنفسهم ممتازين بتربية صحيحة فى أيامنا قد لا يبلغون واحداً فى الألف . والبرهان على هذا أن الذين يفهمون مثلاً النظرية النسبية

لأينشتين أو الطاقة الذرية قليلون جداً . وهذه القلة ترجع إلى أن وسائل التربية معدومة أو نادرة في بقاع كثيرة . وذلك الذي يصل على الرغم من كل ذلك إلى تربية تكاملية حاوية بحيث تتسع عنده المعارف وتتكامل وتتناسق ، هذا الرجل يحتاج إلى أن يفنى العمر كي يحقق هذه الغاية . وطلب العيش يحول دون ذلك عند ٩٩٩ في الألف من الناس .

والواقع أن الذين يقودون العالم منذ أيام جلادستون إلى الآن كانوا ولا يزالون في عداد الجهلة . فقد روى ولز مثلاً عن جلادستون أيضاً أن السرجون لبوك راققه في زيارة لداروين ، فكان طوال وقته يتحدث عن المشكلة البلغارية كأنها كل شيء في وجدانه ، أي إنه لم يكن يدري القيمة البشرية الكبرى لنظرية التطور التي أخرج داروين إنجيلها للعالم . ولكن أليس هذا حال الساسة إلى الآن ؟ هل وزراء بريطانيا أو فرنسا أو الولايات المتحدة أو مصر في ١٩٤٧ أفضل من حال جلادستون في ١٨٧٠ ؟

إن العالم منكوب بتقاليد في التربية والتعليم . وفي المدارس والجامعات رواسب ثقافية تبعد الذهن بل تحول دون التفكير ، كأن هناك محظورات لايجوز التفكير فيها . اعتبر مثلاً هذا الفقر المصنوع في العالم ، فإن الانتاج الزراعى ثم الانتاج الصناعى يكفيان ، مع التنظيم ، كي يعيش كل فرد على هذا الكوكب وهو موفر الطعام والكساء والسكن ، آمن على نفسه وجسمه من المرض والجريمة ، متعلم أقصى تعليم ، مستمتع بالفراغ الذى يمكنه من زيادة معارفه . ولكن الساسة الذين يتولون شؤون هذا العالم لا يزالون في مستوى جلادستون يهتمون بمشكلة بلغاريا أكثر مما يهتمون بنظرية التطور . والعجب أنك عند ما تبحث مشكلة بلغاريا تجد أنها نبتت من الجهل أيضاً ، وأن الذين يحاولون حلها جهلاء يثرثرون وهم يعتقدون أنهم يفكرون .

وقد سبق أن قلت إنى لا آسف كثيراً على أنى لم أخصص ؛ لأن الإخصائيين ، كما أرى في أخلاقهم ، لا يتوسعون أو يتعمقون في الدراسات التى لا تمس العلم أو الفن الذى أخصوا فيه . وأعتقد أخيراً أن الزهو هو الذى يمنعهم من هذا التوسع أو التعمق ، وأنهم يحسون استكفاء ذاتيا لا يحتاجون معه إلى زيادة . وأقول فى نفسى عندئذ إنى لست كذلك وإنى لو كنت قد أخصيت فى علم تجريبى لما زهيت . ولكن هذا الفرض ليس سيكولوجياً لأنه يتجاهل العواطف الاجتماعية .

ولكنى لا أشك أنى بعيد عن الزهو فى غير تعمد أو تكلف ، وأن بعدى عن الزهو هو الذى يجعلنى أتابع الثقافة بروح الطالب ، وهو الذى يجعل أسلوبى خالياً من التفصح . وكثير من الكتاب يتفصح فى خيلاء وزهو لأنه يسلك فى حياته وأخلاقه سلوك الخيلاء والزهو . ولهذا السلوك أثره فى نفسه لأنه يحمل على الاستكفاء فلا يدرس ولا يتزید من المعارف . ولذلك أستطيع أن أجزم بأن التفصح فى الكتاب برهان على كراهة التزید أو التطور فى الدراسة . وليس هذا لأن التفصح يشغل وقته بل لأنه يكسبه زهواً فيقنع بالخيلاء والتبخر . وفى ذهنى الآن كاتب من هؤلاء المتبخرين يكتب من وقت لآخر عن الأخلاق . قعدت إليه ذات مرة أحدثه عن الأخلاق وأنها هى والاجتماع ثمرة الوضع الاقتصادى . فلم ألق منه غير الضحك . فانتقلت من البيئة إلى الوراثة وذكرت له كتاب كرافت أبنج عن « السيكوباتية الجنسية » فلم أستنبط منه غير الدهشة . أجل ! إن تفصحه المتحلق قد حال بينه وبين تربية نفسه ؛ إذ هو قانع بهذه الخيلاء اللفظية وسيموت بها جاهلاً لشؤون هذا الكوكب الذى عاش عليه .

ولذلك أعتقد أن أعظم الأهداف للتربية هو الاتجاه . أى كيف نتجه فى هذه الدنيا وبماذا نهتم ؟ نهتم باقتناء الفصاحة أم باقتناء المعارف ؟ بمشكلة بلغاريا أم بنظرية التطور ؟ نهتم بأن نكون وجهاء نسير فى خيلاء وزهو أم عقلاء نفكر فى سداد وفهم ؟

فى عصرنا هذا يجب أن نقيس التربية الحقبة بأدق وأكبر من المقياس الذى وضعه ه. ج. ولز. وعندئذ لا نجد أحداً ، ولا واحداً ، يمكن أن يقال إنه حاصل على تربية حقة . فان العلوم خاصة والثقافة عامة مشتتة غير منظمة ، وتحصيلها لهذا السبب شاق . وأعمارنا تبنى فى محاولات عقيمة وإن تكن مخلصه للتعليم ؛ حتى إذا انتهينا إلى الطريقة واهتدينا إلى المنهاج وجدنا أن الشباب قد ولى .

وقد يبعثنا هذا إلى القول بأن العمر يجب أن يزيد حتى يبلغ المائة مثلاً ، ونجنى فى العقود الأخيرة ما جهدنا لأجله واختبرناه فى العقود الأولى . ولكن وببذلك يجب تنظيم المعارف ومناهج الدراسة وترقية الصحافة حتى تعود جميعها أدوات ووسائل للتنوير . لأن الواقع أن بعضها الآن أدوات ووسائل رتبيل الأذهان ومطاردة الذكاء ، ونشر الظلام . والعالم حافل بالتبسات

واستغراضات للجهل الفاشي ، هذا الجهل الذي يجد دعامة بين المعلمين والأدباء والفلاسفة الذين يدعون إلى مزايم وعقائد يوحون منها إلى القراء والمتعلمين بأنها آراء وحقائق . وقد سبق أن عانى جيته مثل هذه الحال حين قال : « ليس هناك أفطع من الجهل النشيط » .

وإذن أجيب على سؤالى : هل ربيت نفسى ؟ بأنى مازلت « حائراً » فى سياق التربية . وأنى أسر حين أحس أن لى شخصية نيوروزية قلقة مستطلعة أطمع فى أكثر مما أستوعب ، وأن الثقافة تحتل المكان الأول من اهتماماتى . بل أحس أحياناً أنها الاهتمام الوحيد ، حتى إنى لأفجأ نفسى من وقت لآخر بخطاب يرسله إلى صديق فأرجى فتحه إلى الغد كي أتصفح كتاباً جديداً هذا اليوم . وأسراً أيضاً حين أجد أن القيم البشرية عندى تأخذ مكان القيم الاجتماعية . وعندى أن هذا الانتقال هو البرهان فى عصرنا على الحكمة والفهم . فان القيم الاجتماعية ، بالحاح العادات والتقاليد ، تغمرنا وتقيم فى نفوسنا « عواطف » تحملنا على السعى والجهد لما يسمونه « منافسة » وأخرى أن يسمى « محاسدة » لاقتناء أتومبيل أو عربة أو لقب أو نحو ذلك مما يحملنا المجتمع على احترامه . وكثير من الناس يموتون شهداء هذا الجهد السخيف . وحين تنتقل إلى القيم البشرية نجد أن حياة الصحة والصلاح الاجتماعى والفهم والقناعة بالحاجات الضرورية والاستمتاع بما فى الدنيا من أطايبها المجانية خير ألف مرة بل مليون مرة من تلك القيم الاجتماعية . وليس فى الدنيا ما يعدل فنجاناً من الشاى أو كسرة من الخبز مع الجبن تحت ظل شجرة (كما قال الإمبراطور أوريليوس) أو قراءة كتاب منير أو الحديث إلى المجرة فى منتصف الليل فى الريف أو تحية الشمس فى بزوغها ، أو ، حين أكتب ، البحث عن بشائر المستقبل والتشبت بها وشرحها فى مقال أو كتاب .

وإذا سأل القارىء : ماذا تستنتج من اختباراتك ، وما تكهناتك للمستقبل بعد أن قضيت نحو أربعين سنة وأنت على اتصال وجدانى بالعقل العام على هذا الكوكب ؟

فأنى أجيب : بأن الحاضر يومى إلى المستقبل إيماءة واضحة نراها بالعين وأحياناً نسمعها صاخبة بالأذن ، هى الاشتراكية التى سوف تعم الدنيا كلها . وليس هذا لأن الناس سيتحولون من أشرار إلى أبرار ، بل لأن الانتاج

الصناعى سيحتم ذلك . كما سيحتم توافر النقل وضرورة التجارة ، على أبعاد كوكبية، أن يحال العالم إلى دولة واحدة تتجه نحو ثقافة واحدة ولغة واحدة . وهذا النظام الاشتراكى العام سوف يرفع المرأة من الأنثوية إلى الانسانية ؛ لأنه من جهة سيفتح لها أبواب العمل والاختبار والتعلم كالرجل سواء ، كما أنه من جهة أخرى سيغنيها عن عناء الواجبات المنزلية العديدة . وليس هذا لأنها ستترك المنزل بل لأن كثيراً من الواجبات المنزلية ينتقل بالحضارة إلى خارج المنزل . ويتضح هذا من المقارنة في مصر بين المرأة في الريف والمرأة في المدينة . فان الأولى تعجن وتخبز وتحلب البقرة وتصنع الجبن وتخيظ ملابسها وتحمل جرة الماء من الجدول وتجمع الوقود إلى غير ذلك من الواجبات التى لا تعرفها المرأة في المدينة . ثم المقارنة بين المرأة في القاهرة والمرأة في نيويورك تزيدنا فهماً بأن الحضارة تلغى الواجبات المنزلية التى ترهق ربات البيوت الآن وتحول بينهن وبين العمل فى الخارج أو بين تربية أنفسهن . ولذلك نحن صائرون نحو تحقيق الرؤيا التى حلم بها إبسن فى شخصية « نورا » هذه الأثى التى أصرت على أن ترتفع من الأنثوية إلى الانسانية .

وأستطيع أن أستنتج من حياتى الماضية أن أعظم العقبات التى تؤخرنا فى مصر كما تؤخر كثيراً من أمم آسيا وأوربا ، بعد الاستعمار ، هى هذه الرواسب من الثقافات والتقاليد والغيبيات الفرعونية والبابلية وأمثالها التى انحدرت إلينا . وهى تتخذ ألواناً من الصيغ والأساليب ، وتعرض عجلة التاريخ وتعوق التطور . والبيئة الصناعية وحدها هى التى تحطمها ؛ لأنها ، أى هذه البيئة ، لا تنهض إلا على العلم . وهو نار كاوية تحرق جميع هذه الرواسب وتبددها هباء .

والحضارة الجديدة المنتظرة هى الحضارة الصناعية ، هى الحضارة التى لا يبعد أن تلغى الزراعة من العالم . وليس هذا بالعمل العظيم المستحيل كما يتوهم بعضنا ؛ فان الكيمياء الصناعية تصنع الآن مركبات كىماوية عديدة كان صنعها قبل هذا القرن مقصوراً على الجسم الحى نباتاً كان أو حيواناً . فاذا استطاعت الكيمياء الصناعية أن تصنع مادة البروتين فان الزراعة تعود عناء لا ضرورة له نباتاً . وعندئذ يحال العالم إلى حدائق وغابات تعنى بها الطبيعة وحدها . وإذا كنا نظن أن صنع البروتينات لا يزال بعيداً فيجب أن نذكر الطاقة الذرية . لأن أى إنسان منا لو أنه ، قبل خمس سنوات ، سئل أيهما أقرب

إلى خيالنا : استخدام الطاقة الذرية قنابل للتدمير أو صنع البروتين كيمائياً ،
لظن هذا الثاني أيسر بكثير من الأول .

وظنى أيضاً أن الزمن ليس بعيداً حين نشرع ، حتى في مصر ، في تطبيق
نظرية التطور بالانتخاب التناسلي ، أى اليوجينية ، وفي العالم نحو أربعين
دولة متمدنة تمنع غير الصالحين للتناسل من أن يعقبوا . والأمة التي تعارض
في مثل هذا الإصلاح ستتخلف في ميدان التطور البيولوجي أى الرقي البشرى
الصميم .

وأخيراً أقول إنى أرى إيماءة ثقافية جديدة هي التخلص من المذهب
الانفصالي ، مذهب ديكارت ، بين الروح والجسم ، أو بين الحياة والمادة ،
أو بين العقل والمادة ، إلى المذهب الاتصالي الذي يقول بأن القوة هي المادة
المتدفقة والمادة هي القوة المتجمدة . وفي هذا القول وثبة ثقافية واسعة
إلى المستقبل سوف تكون كبيرة الأثر في الحضارة القادمة . وقد سبق للفيلسوف
العظيم سينوزا أن نبه إلى ذلك في لغة فلسفية . ونحن نقتنع هذه الأيام بصحة
تفكيره عن طريق العلم التجريبي ، ونصل إلى وحدة وجودية في الطبيعة ثم
نتدرج إلى ما يلائمها في المجتمع .

وعندما أرتفع إلى هذا التفكير أحس أن كثيراً من الاهتمامات بل الهموم
الوطنية التي حجبت النور وعكرت الصفاء اللذين كنت أنشدهما في حب وولاء
بشريين ، هذه الهموم تذوب وتبتدد . أجل ! إنى أحب أن أعترف . فانى
ما كتبت كلمة واحدة ضد المستعمرين الانجليز إلا وأنا في ألم وارتعاش وآسف أكثر
مما أحس من غيظ وحنق وكفاح . وكذلك كان الشأن عندما كنت أكافح ،
الرجعيين المستغرضين والجهلاء النشيطين من المصريين . فانى أخجل حين
أقول إنى أحب جميع هؤلاء الانجليز المستعمرين والمصريين المستبدين . وفي نفسى
رجاء بأن يتغيروا وأن يروا رؤياى وأن ينسلخوا من الاستعمار والاستبداد ،
ويفتحوا عقولهم للثقافة الجديدة : للحرية والإخاء والمساواة . وجميعها مستطاع
لو أنهم كفوا عن « الجهل النشط » الذى يمارسونه .

وقد احترفت الثقافة وقضيت عمري أقرأ وأكتب . وزادتني هذه الحرفة ،
وجدانا بالدنيا ، كأنى أحس أكثر وأرى أبعد ، حتى لقد صغرت همومى الشخصية
إلى جنب اهتماماتى العامة . ودراستى للأدب والفلسفة قد أوهجت خيالى وأحدثت

ذكائي . ثم انعكست هذه الدراسة إلى حياتي فأصبحت قيمي وأوزاني الخاصة قيماً وأوزاناً أدبية وفلسفية . ولذلك كثيراً ما أنصح للشبان بأن يقرأوا الأدب والفلسفة ، وأن يحاولوا كتابة القصة وقرض الشعر . لأنهم وهم في هذا النشاط يتخيلون الحال المثلى ويصعدون بأذهانهم إلى السماء ويختارون أسمى المعاني وأنصح الكلمات . وكل هذا ينعكس على حياتهم الخاصة فيرتفعون عن التبذل ويحيلون الحياة إلى فن جميل .

ولو أني مت ثم بعثت وخيرت في الحرفة التي أحترف لما اخترت خيراً من أن أقرأ وأكتب . ولكني مع ذلك سوف أموت وفي نفسي شيء من الطاقة الذرية . لأنه يجب على كل إنسان في عصرنا أن يستوفي ثقافة علمية معينة يدرك منها هذا المنهج البشري الجديد للتسلط على المستقبل . ولم أجد الفرصة لهذه الثقافة كما كنت أشتهي وإن كان حظي منها قد يحسدني عليه غيري . أجل ! لقد تركت الطاقة الذرية في نفسي مركب تقص أعانيه كل يوم .

سلام موسى

خليل مطران

لست أحسبني مبتكراً أو مغالياً إذا قلت إن الاحتفاء بشاعر عربي قضى نصف قرن أو يزيد وهو يشدو ، لهو حدث جليل القدر عظيم الدلالة من أحداث الأدب في العالم العربي ، بل من أحداث اليقظة العربية كلها . فقد عاصر هذا الشاعر نهضة العرب في عنفوانها ، وعب من النبع الأدبي الذي أجرى في عروقتها سورة البعث ، وعرف رجالها ، وخاض غمارها ، وشارك في ذلك كله بقلم صادق عف حفيف ، فكان لها على الأيام لساناً يتغنى أحياناً ، ويتأسى أحياناً ، وينذر أو يرشد أحياناً ؛ فهو ابن قرون متطاولة من الأدب العربي ، قد احتشدت لتنتفض انتفاضة البعث في نصف قرن ، وهو رائد قرون من آمال ومنى لاتزال في ضمير المستقبل ، ولكنها احتشدت أيضاً لتولد في نصف قرن . فهذا الصدر النحيل الذي وصفه الشاعر نفسه بقوله :

الله في صدر وهى وتقوّست منه العظامُ
خاوٍ كجوف الغار تملؤه المخاوف والظلام

قد انطوى على طيوف الماضي ومنى المستقبل جميعاً ، فلما تفتطرت في فطرته السليمة أعارها من خياله أجنحة ومن بيانه قوة ، فاذا هي في سماء الحياة شعر خالد .

بين نبع رأس العين في بعلبك ، وأعمدة هيكل الشمس في قلعتها ، رأت نور الحياة أول ما رآته ، هذه الفطرة العبقريّة الشاعرة . وإذا لها من ذلك النبع الرقراق صفاء هو في النفس صدق سريرة ، وإذا لها من تدفقه الهادئ من جوف الأرض ومن روعة تلك الأعمدة الجبارة ، عزيمة الجبار ولكن بغير صلصلة الحديد . ثم ترعرعت هذه الفطرة بين دوالي الكرم على منكبى « جارة الوادى » ، فتفتحت فيها أحلام الشباب وأزهار العقل ، فرقصت

وشدت ، ثم بلغت أشدها في بيروت بين قن لبنان العتاق ، وصفحة البحر الذي هرم الزمان ولم يهرم . وهناك تمرست أول ما تمرست بسورة الصراع الدائر الرحي يومئذ ، بين النفس العربية المنبعثة من طوايا التراث المسترد ، المتطلعة إلى الحق والحرية ، وبين قوى الظلم والجمود التي تحاول أن تلزمها الرغام . ثم شددت رحالها إلى الغرب ، إلى باريس التي كانت يومئذ مؤثلا لفئة من أحرار العرب . فلم تكد تلقى عصا الترحال ، حتى وقفت حيرى حيال فرار خطير . ولكن حيرتها لم تطل . وما هي إلا هنيهة من الزمن ، عانت فيها عذاب الكفاح النفسى ، حتى حزمت أمرها على أن تختار . وقد كانت مخيرة فيما تأخذ وفيما تدع : أتغرب كما كانت تنوى أن تفعل ، إلى حيث يكفل لها العيش الرغد والراحة بل الثراء ، أم تشرق فتعود إلى ميدان النضال ، وليس في العودة من شئ مكفول سوى شدائد النضال وآلامه ! ولعل أنصح دليل على الخير المركب في هذه الفطرة ، وعلى قوة المني التي كانت تجتاح النفس العربية في ذلك الحين ، أن فطرة الخليل اختارت أن تشرق ، مؤثرة غمرة الجهاد والكفاح ، على أفياء الثروة والراحة . وكذلك بت الفتى وهو في باريس ، وعزم أن يعود إلى مصر ، مشيحاً بوجهه عن الشق الغربى من كرة الأرض . فلم يكد يطأ أرضها ، ويحس بعبق التاريخ يجرى في عروقه مرة أخرى ، حتى انطلقت فطرته الشاعرة على سننها ، وإذا الآثار المنطوية فيها من بعلبك وزحلة وبيروت ، قد أخذت تمتزج بها وتشد من أزرها آثار الجهاد المصرى الرانى إلى نور الحرية والكرامة ، وآثار الجهاد العربى المشوق إلى بعث يعيد عصر المأمون وهارون الرشيد ، وآثار الحضارات القديمة ، التي قامت في هذا الوادى آية تجلو أسرار التاريخ النابض بالحياة المتجددة على الدهور .

وعلى أن خليل مطران كان صحفياً مبدعاً ، في العقد التالى من سنى حياته وعلى أنه اشتغل بشؤون المال والاقتصاد والزراعة ، فان فطرة الشاعر العبرى فيه وقفت مرة أخرى ، كما وقفت في باريس من قبل ، حيال قرار خطير : أتجعل قبلتها في الشعر أن تجارى الفحول من شعراء العربية أم تجعل قبلتها أن تتمثل خير ما جاء به الفحول ، ثم أن تنطلق في آفاق الحياة الرحبية ، حتى تفتتح للشعر العربى أبواب الآداب العالمى ، يأخذ منه ويعطيه سواء

بسواء ؟ وفي البيان الموجز الذي صدر به الخليل « ديوان الخليل » ، قال :
 « عدت إليه وقد نضج الفكر واستقلت لي طريقة في كيف ينبغي أن يكون
 الشعر ، فشرعت أنظمه لترفيه نفسي حيث أتخلى ، أو لتربية قومي عند وقوع
 الحوادث الجلي ، متابعاً عرب الجاهلية في مجارة الضمير على هواه . . .
 موافقاً زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب . . . وذلك مع
 الاحتفاظ جهدى بأصول اللغة وعدم التفريط في شئ منها إلا ما فاتنى علمه . . .
 ولم أكن مبتكراً فيما صنعت ؛ فقد فعل العرب في كل زمان قبلى ، مالا يقاس
 إليه فعلى . . . فأصرح غير هائب أن شعر هذه الطريقة — ولا أعنى منظوماتى
 الضعيفة — هو شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال معاً . . . »
 وما كان النزاع الذى دار في نفس الخليل في الحالين ، نزاعاً يسهل
 الفصل فيه . وكان الاختيار الذى أثره ووطن العزم عليه ، غير مايؤثره السواد
 من الناس . وليس هذا بالشئ العجيب ؛ فالخليل من الصفوة في كل عصر
 وفي كل قبيل . والحياة منذ كانت الحياة ، لم تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام ،
 إلا بفضل القلة المصطفاة من الأحياء التى تأبى المتابعة والمطابقة التامة ، وتخرج
 على الكثرة التى قلما ترضى عنهما بديلاً . فتسير هذه الفئة القليلة بالحياة
 صعباً يستحثها ناموس كناموس الجاذبية لا يردّ ، يأتيها نداؤه من وراء حجب
 الغيب ، فتلبى النداء راضية مختارة . وهذا في نظرى سر العظمة في حياة
 الخليل وفي شعره . فقد كان في وسعه أن يغرب وأن يثرى ، ولو فعل لكان
 خليقاً أن ينظم شعراً حسناً ، ولكنه اختار أن يشرق ، فاذا حياته قد فنيت
 في حياة الشرق العربى ، أو هى اتسعت حتى تضم حياة الشرق العربى بين
 جوانحها . وكان في وسعه أن يجارى الفحول أو يحاول أن يجاريهم ، ولو فعل
 لكان خليقاً أن يستعيم له في بعض الأغراض قصائد أو مقاطع من قصائد
 تعد في الطبقة الأولى ، ولكنه اختار أن ينظم شعراً « ليس ناظمه بعبد » ، على
 مايقول ، وأن يفتح للشعر العربى باب المستقبل حتى يكون « شعر الحياة
 والحقيقة والخيال معاً » ، وإذا هو بما قد اختار ، رائد له من مجد الرواد فضل
 الإقدام على المجاهر يرفع الستار عن مناكبها .

ولو طلب المال في الغرب ، وأوتى ما طلب ، لكان في وسع العالم أن يسلبه
 ما آتاه . ولو سعى وراء المتعة في الشرق أو في الغرب ، ونالها ، لكان نيل

المتعة كفيلاً في حد ذاته باضمحلالها . ولو حاول أن يجارى الفحول واستقام له ما يريد ، لما خرج عن أن يكون واحداً من عشرات أو من مئات ، يحذو حذوهم ويجرى على غرارهم . ولكنه أبى كل هذا ، وأركب النفس مركباً خشناً صعب المراس ، ولو هو لم يفعل سوى أن يحزم أمره على هذا الاختيار في كلا الحالين ، ولو هو لم تواته فطرته الشاعرة العبقريّة على آيات وروائع ، لكان حسبه فخراً أنه اختار كما اختار . فليس في وسع أحد أن يسلبه فضل ما فعل . ولذلك حين أعود إلى أوراق ديوان الخليل ، التي بليت بين يدي منذ بدأت أطلعها منذ ربع قرن أو أكثر وأقرأ فيها في قصيدة المساء :

عمرين فيك أضعت ، لو أنصفتني لم يجدرنا بتأسفى وبكائى
عمر الفتى الفانى ، وعمر مخلص بيسانه لولاك فى الأحياء
فغدوت لم أنعم كذى جهل ، ولم أغنم كذى عقل ضان بقاء

أقول : ليس هذا المهرجان الذى حجت فيه العريية إليك ، ولا هذا التكريم السامى الذى أسبغه عليك . سوى آية واحدة من آيات البقاء التى كتبت لشعرك ، مادام فى الدنيا عرب يتلون سورة أو يترنمون بقصيد . والشعر سلّم يرتقى الناس عليه من القريب إلى القصى ، ومن المدرك إلى الخفى ، ومن الحياة التى أسدل على وجهها برقع كثيف ، إلى الحياة فى جوهرها المطلق الرحب المنبسط أمام وجه الشمس . والشاعر يصنع لنا هذا السلّم من خيال يرى ما لا نرى ، وشعور يحس ما لا نحس ، وفكر يدرك الحقيقة المستترة وراء ظواهر الأشياء . وأنت تقف إلى جنب الشاعر فلا ترى مأساة الدهور فى الوردّة الذابلة ، ولا صراع الحقيقة أو الظلم أو الفضيلة ، فى سيرة الرجل المسجى أو الجنين المجهض أو الشمس الغاربة ، ولا الآمال والمنى التى تموج فى صدور خلّاق هى « عد الرمال » . حتى إذا نطق الشاعر رأيت بعينه ، وسمعت بأذنه ، وأدركت بعقله ، وإذا ستار من الأستار المسدلة على روائع الكون ومعجزات الحياة ، قد رفع قليلاً فرأيت مشهداً يفتن الأبواب ، وألفيت ضياء يدنيك قليلاً من فهم الحقيقة .

وشعر الخليل حافل بآيات رائعة على هذه الأغراض التى ينشدها الشعراء ، ولا تتم نعمتها العلوية إلا لكبارهم .

مختارات من شعر مطران

في الكفاح

ليس بالكفء لعيش طيب
ليت البلاد التي أخلاقها رَسبت
النار أسْوَعُ ورداً في مجال عُلى
ولكن قوماً يذودون عن
ويدفعهم حبُّ أوطانهم
وإن غالبهم جيوش النسايا
كلُّ من شقَّ عليه العيش حرّاً
يعلو بأخلاقها تيّار طغيان
من بارد العيش في أفياء فينان
حقيقتهم من يد المعتسدي
ويجمعهم شرفُ المقصد
تغالبُ ، وإن جاهدتُ تجوّد

في الدعوة إلى اليقظة

نمنا على جهل وقد
فإذا انقضت آجالنا
وإذا بُعثنا بعدها
لا يعصم الأمم الضعيفة فطرةً
فتكون حائطها المنيع على العدى
ولم أرَ شيئاً كخصلة ثابتاً
عاش الكرام ونحن لم
فمن الرقاد إلى العدم
فكانها رؤيا حلم
إلا فضائلُ بالتجارب تكسب
وتكون قوتها التي لا تغلب
نَبَتُ عنه آفات البلى والمعاديب

في صور الطبيعة والنفس

يا للغروب وما به من عبرةٍ
أوليس نزعاً للنهار وصرعة
أوليس طمساً لليقين ومبعثاً
أوليس محواً للوجود إلى مدى
حتى يكونُ النورُ تجديداً لها
للمستهام ، وعبرة للرائ
للمس بين جنازة الأضواء
للك بين غلائل الظلماء
وإبادة لعالم الأشياء
ويكون شبه البعث عود ذكاء

وكم في فؤادي من جراح ثخينة
أرى روضةً ، لكنها روضة ذوت
وأنظر من حولي مشاةً وركباً
كأنى في رؤيا يرفُّ الأسى بها
يحجّبها مبرّداى عن أعين الناس
وأصغى وما في مسمعى غير وسواس
على مزجيات من دخانٍ وأفراس
طوائف جنّ في مواكب أعراس

أنا الأسد الباكي أنا جبَلُ الأسى
أنا الرمسُ يمشى دامياً فوق أرماس

وكان بهمُ الصبحُ أن يتطلعا
ويرفع ثوبَ الليل عنه ليخلعا
وينتضّ أزرارَ السماء ليستعنا
فلم يطو منه الذيل إلا وقد وعى
دماً طاهراً أجراه إثم فتى نذل

وإلى ذلك كله كان قلم الشاعر في يد الخليل مزماراً يوقع عليه الحنان
الوفاء لمن يرحل من لداته ، حتى صار ديوان مراثيه صفحة مشرقة من تاريخ
هذه الحقبة الحافلة بالعطاء .

إلا أنني أحس أنني أظلمك أيها الخليل ، حين أقسم وأبوء وأستلّ من
شعرك أبياتاً من هنا ، وأبياتاً من هناك ؛ فما كان البيت في قصيدك غاية
تحدو إليها ركائبك ، ولا كان المعنى الحاصل في شعرك منفصلاً عن المعنى العام
الذي يضم الحياة كلها . ولكن ما حيلتي ! فلا بد لي من شيء كالوشور يحمل
ذلك الضياء المتوهج المنبعث من فطرة شاعرة عبقرية . مازال سناها يغمر العالم
العربي منذ نصف قرن أو يزيد .

فانفحنا أيها الخليل ، مد الله في عمرك ، من جديدك ، أو انشر علينا
من قديمك شعراً نسمو به فوق ذواتنا الصغيرة إلى مسابح النجوم .

« تالله ما ظلكُ الغمام معاقلُ » تنأى عليك ، ولا النجوم حصون »

عالم البيت في مسرحيات بلوتس

كما يقال عن بلوتس ، الكاتب المسرحي الروماني العظيم (٢٢٧ - ١٨٤ ق . م) ، إنه كتب عن نفسه سطوراً أعدها للنقش على قبره جاء فيها : « منذ وفاة بلوتس غرق فن التمثيلات الهزلية في حزن عميق ، فأقفر المسرح ، وهزم البكاء الضحك واللعب والمرح والشعر » . ونحن لا يهمننا أن تكون هذه الرواية صحيحة أو ملفقة ، وحسبنا أنها تدل على اعتراف بلوتس بعقريته ومنزلته في عالم الفن . وقد استوحينا من هذه السطور فكرة العكوف على دراسة آثار عظيمة الشأن ، لكثرة ما انطوت صفحاتها من معان قيمة ، ولدى النجاح الباهر الذى لازم تمثيلها ، ولخطورة المسائل التى أثارت حولها على مر الأزمنة والأجيال . وما أكثر ما مثلت مسرحيات بلوتس بعد موته مثيرة في كل مرة نفس الرضا والاستحسان ، حتى لجأ متعهدو الحفلات إلى الاكتناف باسم بلوتس كلما أقدموا على تنظيم مسرحيات لكتاب لا يعرفهم الناس . ويقول عنه هوراس إنه كان ممن تهتم روما بدراسة آثارهم ، وتتسابق إلى الملاعب الضيقة لتتعم بمسرحياتهم . وكذلك يعترف له فارون ، وكيكرو ، وبلين بالسبق في عالم الحوار ويعادلون بينه وبين نوابغ الفن الهزلى الجديد .

ولندع المشكلات العديدة التى عالجها النقاد بمناسبة مسرحيات بلوتس لتحديد عددها أو للكشف عن المصادر اللاتينية واليونانية التى استقى منها الكاتب بعض عناصر خاصة بالموضوعات والأبطال والمواقف الهزلية ؛ لأن هدف هذا البحث هو الوصول إلى الناحية الإنسانية ، قبل أية ناحية أدبية أو علمية . والشئ المجدى في المسرحيات الهزلية بنوع عام ، سواء كانت من تأليف أريستوفان أو بلوتس أو مولير ، هو أنها تتحف المشاهد أو القارىء بصورة صادقة للحياة . وهناك جوهر باق دائماً ، لا يمسه اختلاف العصور

والأجيال ، ولا تغير الأوضاع الاجتماعية والالتزامات الخلقية ؛ فالأبطال تتبدل أسماءها ، وتختلف مراتبها في الحياة ، ولكن الحقائق البشرية ثابتة على ما هي عليه ، لا انحراف في تيارها ولا اضطراب . أما اللذة التي نلسمها عند مطالعة مسرحيات بلوتس التي لم يعمل فيها الدهر ، ولم يلم بها النسيان ، فهي راجعة إلى التقارب ، المسلي حيناً والمخجل في أكثر الأحيان ، الذي يحول بخاطرنا أثناء المطالعة ، بين العالم الذي نقله بلوتس إلى المسرح والعالم الذي نعرفه نحن ونعيش فيه . وأين السبيل إلى حياة لا تفرض علينا معاملة الأشخاص التي طوى عليها بلوتس صفحات آثاره ، من أهل السوء والفساد ، والبطل المغرور بنفسه المفتون بها ، والطفيل الثقيل النفس ، والمادى الذي لا يؤمن إلا بماله ، والرقيق الماكر ، والمرأة الخليعة الخادعة ، والعاشق الجمال أو العنيف الغيور ، والأب القاسى أو الضعيف الخ . . . وينبغي ، إذا أردنا أن نجد معرقتهم ، وأن نتبين ما لبعضهم من شخصيات وطبائع ، أن نحصرهم في نطاق أضيق إلى حد ما من نطاق المسرحيات التي يظهرون فيها من وقت إلى وقت . ونحن نقصد في هذا المقال عالماً بعينه في مسرحيات بلوتس وهو عالم البيت ، أو بتعبير آخر : الحياة المنزلية الخاصة ؛ وأفراد الأسرة هم ، بطبيعة الحال ، أول من يواجهنا عند دخولنا بيتاً .

إذا نظرنا إلى الآباء وجدنا الطيب منهم مثل « هانون » (في مسرحية القرطاجي) الذي يجد ويبحث ، ولا يستسلم لراحة ما قبل الاهتداء إلى ابنتيه ؛ ومثل « ديمونس » (مسرحية الحبل) الذي يهجر المكان المليء بذكريات ابنته بعد أن فقدتها ، وينتقل إلى عزبة نائية على شاطئ البحر . ويبدو لنا أن هناك بعض التشابه بين شخصية « أيجيون » (مسرحية الأسرى) وبين « ديمونس » وقد أثر عطفه الأبوى في حياته اليومية ، فأصبح متسامحاً متساهلاً مع رقيقته ، عطوفاً متقرباً إلى مواطنيه ؛ ولا عجب في ذلك إذا فطنا إلى نفسية « أيجيون » وهو الأب المتألم الذي تمر بخاطره صورة ابنه الأسير فلا يفكر إلا في تحريره . وقد يحدث أحياناً أن تسمو العواطف النبيلة بالآباء إلى حد يكاد ينسينا أننا في صميم المسرحيات الهزلية . لنضرب لذلك مثل « فيلتون » (مسرحية الثروة) ، إنه يحث ابنه على الفضيلة ، وهو يؤثرها

على المال والجاه ؛ ولنسمعه يحدث ابنه قائلاً : « إذا أردت أن تضمن لنفسك كمال الحكمة ، فلا تظن في يوم ما أنك حصلت على قسط كاف منها » . وفي موضع آخر : « أضف بعض الحسنات إلى بعض ، فلن يصيبك أحد بسوء » .

غير أنه واضح أن بلوتس ينقلب على الآباء كلما تقدموا في السن ؛ فهم حينئذ مهما صنعوا مخطئون ، وعلى كل حال معرضون للنقد والسخرية . وقلاً ينشأ خلاف بين هرم وابن فاسد أو مبذر حتى ينهض عبد ماكر ، فيندس بينهما ، فيخدع الأول ويسلبه قيمة ديون الابن المسرف ، ويستدرج الشيخ إلى أفدح الحلول وأثقلها . ونحن نسخر من « أوكليون » (مسرحية القدر) لكثرة ما يساور نفسه من قلق وخوف وشك ؛ وفي مسرحية « الباكييس » ، شيخ مستهتر اسمه « نيقربول » يجمع في نفسه كل ما يمكن أن يتصوره الانسان من حمق وبلاذة وبلاهة ، غير أنه يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيقع في شباك فاتنة من بنات اللهو والسوء ، فيذكرنا بتصرفه « ديفون » (مسرحية البائع) إذ أنه ، على كبر سنه وذنوه من الموت ، يظن أنه قد دب في عروقه دم الشباب ، فيأتي من الأعمال ما لا يليق برجل في سنه ؛ وأنت تسمعه مثلاً يقص على أصدقائه تفاصيل مغامراته ، أو تراه يكثر على زوجه في وقاحة وقبح ، وهو يقول : « لا يبق لي إلا القليل من العمر ، وأنا أريد أن أمضي هذا الوقت بين اللذة والخمر والحب » . وفي مسرحية « الحمّار » ، يهبط الفساد بشيخ إلى أسفل الذل وأرذله ، إذ ينقصه المال ، ويضيق برقابة زوجه فيتملق رقيقاً خسيساً ، ويتودد إليه ليشركه في لهو ابنه ومجونه .

والأمهات في آثار بلوتس كآباء يختلفن كل الاختلاف في أخلاقهن وعقليتهن . فهناك الأم الساهرة على أبنائها مثل « أنومي » (في مسرحية القدر) ، إنها تسعى ما استطاعت ليتحقق أمل ابنها في الفتاة التي يحبها مع افتقارها إلى المال ؛ ولكن حبها لا يفقدها قدرتها على إدراك الأمور كما يجب أن تدرك ، ولا يقوم عقبة في سبيل حبها لأخيها موجدور ؛ فهي ، وإن كانت تؤثر أن يبقى أخوها أعزب ليعود ماله إلى ابنها ، تجد له امرأة غنية في سن تناسبه ، لكنها لا تلومه على انصرافه عن الزوج التي اختارتها له ، وتعلقه

بفتاة فقيرة . أما في مسرحية « أنفيريون » فموقف « أكين » ، على دقته وشدوذه ، لا تشوبه شائبة ؛ فهي محتفظة بكرامتها من أول القصة إلى آخرها ، وإخلاصها لزوجها مما يزيد شكوكه إهانة ويزيد « أكين » غضباً وشقاء . غير أن مسرحيات بلوتس لا تزدحم بأمثال « أكين » و« أونيمي » ، ويكفيها برهاناً أن نصغى إلى « أونيمي » وهي تتحدث إلى أخيها : « إن الذى يليق برجل مثلك يا أخى هو أن يقول الحق . من المحال أن يعثر رجل على امرأة كاملة » . والواقع أن المرأة في نظر بلوتس هي في الغالب عبارة عن عقاب يفرضه الرجل على نفسه عند ما يضحي بحريته في سبيل بائعة يبتغيها ؛ ومن هنا كانت ثقة المرأة بنفسها ، واعتدادها برأيها ، وإيمانها بسلطانها . لتسمع مثلاً « دوريب » (مسرحية البائع) تندد بزوجها : « ها هو ذا الرجل الذى ائتمنته على شخصى ومالى ، ها هو ذا الوحش الذى قدمت له مهراً جسيماً ؛ ولكن أين « دوريب » من « أرتيمون » (مسرحية الحمار) ؛ فقد برعت تلك الأخيرة في فرض إرادتها على زوجها ، فلم تسلمه درهماً من مهرها ، ليقتنع بما تنزل عنه له من حين إلى حين ، وقد سلمت مالها لرقيق يدبره ويستثمره ، ورجل مثل « موجادور » يعلم علماً يقيناً أن ثروة المرأة الشخصية سلاح مرعب ؛ ولذلك نفهم لم يعترض على الزواج من ثرية ، وهو يقول : « تخضع المرأة دون مهر لسلطة زوجها ، على حين تكون المرأة ذات المهر له مصدر شقاء وعذاب » ، وتفهم أيضاً لم تزوج من فتاة فقيرة . أما حديث « بريلىكتومين » عن المرأة (مسرحية الجندي الفخور) فحديث قاطع بأن المرأة الرقيقة حلم لا يتحقق ، ثم يقول : « إنه شئ محبوب أن يكون للانسان امرأة طيبة القلب ، ولكن أين يوجد على وجه الأرض مثل هذا الكنز ؟ » ونحن لسنا في حاجة إلى تبين مافى هذه الآراء من غلو وجور .

أما الشبان من فتيان وفتيات ، فبلوتس لا يظهرهم على المسرح إلا مشغولين بالحب . والحب في الواقع من أهم العوامل التى تكشف كل قناع عن الشخصية ، « فليزيتيل » (مسرحية الثروة) متم ولكنه قوى النفس ، لا يحجم عن المجهود اللازم لاخذ لبيب الشباب ونزعاته ؛ وهو يتطلع إلى مثل عال يصرفه عن اللذة الرخيصة التى هي آفة الرجولة ، بل هو يقيم حساباً

ووزناً للأسباب المتضاربة المتناقضة قبل أن يقف عند حل معين ، فالحب في نظره « مفسدة للاخلاق ، يجذب الانسان إلى هاويته ، فيجرده من ماله . » وليس « ليزيتيل » من عابدى الثروة ، المحافظين عليها ، ونراه على عكس ذلك ، يتزوج من فتاة دون مهر ليعين أباهما الرجل المسرف . أما « ييستوكير » (مسرحية البا كيس) فهو مثال الشاب الذى يفتنه الحب فجأة ، فى مستهل الحياة . ومع تأثره القوى بعظمت مربيه الحكيم ، فانه يلعب بالنار إلى أن يحترق ، وبدلاً من أن يتقى شر الفاتنة التى تستعطفه ، وتلتمس رعايته ليحميها من جذى تخشى بطشه ، نراه يجادلها ويناقشها ويفاتحها فى الخطر الذى يلحقه إن هو طأوعها وأذعن لإلحاحها ، جاهلاً أو متجاهلاً أن عمله لا بد مؤد إلى الهلاك . ولتنصت إليه وهو يرد على « با كيس » التى ترجو منه ألا يتركها : « ما أنت فى حاجة إلى أن تطلبى إلىّ فى إلحاح أن أعود إليك ، وأنا لا أقوى على فراقك ، ولو عزمت عليه ، فقد أصبحت شيئاً هامداً تفعلين به ماشئت أن تفعلى ، مادمت أسير حبك . »

ونجد فى مسرحية « كركوليو » « فيدروم » وهو الشاب الهوائى الخجول، الذى ينتظر ساعات الليل ليلتقى بعشيقته وهى « غسل قلبه » ؛ أما الباب الذى تقف خلفه محبوبته « فأعز عليه من مقلة عينه » ؛ وهو عند مايتاح له أن يراها ، يتغنى أمامها بأنشودة العشاق ، ويأتى بالأساليب المألوفة ، فتارة يشقى وتارة يسعد ، وتارة يشكو وتارة يتهج ، وهو دائماً مضطرب بين الحنين والحسرة .

وأقطع دليل على العذاب المضمئ المهلك الذى يؤدي إليه الهيام ، هو ماحدث « لالسيزيمرك » (مسرحية السلة) ؛ بلغ به الحزن مرحلة الجنون ، فاضطره إلى الاعتراف بأنه : « معذب ، موزع ، مضطرب ، مصاب ، مقلب على كل وجه » وفى موضع آخر : « أريد وفى نفس اللحظة لا أريد ، هكذا يسخر الحب منى ومن قلبى » . وإذا حيل بينه وبين رؤية الفتاة التى يحبها ، نراه يفكر فى الإثم والانتحار ، ثم يقبض على خنجر ويصيح ، وهو على شكل لا يخلو من إثارة الضحك : « رّحب بى يا موت وضمنى إلى صدرك ؛ انى مقبل عليك كصديق ، ومسرّع إليك بكل إرادتى » . ثم يطول عليه المقام ، فيغير نغمته ويسائل : « ترى ، أين أسدد الضربة ؟ هنا أو إلى اليسار ؟ »

وما من شئ يهدد الصداقة ويعكر صفوها ، مثل الحب وما يبعثه من غيرة . يعهد « منيزيلوك » إلى صديقه « بيستوكير » في مسرحية « الباكيس » ، أن يفتش له عن عشيقته ، ثم يسمع أنه عثر عليها وحررها واستأثر بها ، فيأس من الثقة والایمان ، ويثوب إليه القنوط ، ويدعن للشك ؛ ولكن تأتي الساعة التي يأسف فيها العشاق ، تحت تأثير السامة أو الحكمة ، على مجونهم ، فيكفوا عن الحب وجنونه . وفي مسرحية « البائع » ، يأسف « شارين » لأنه انزلق كغيره على منحدر الشر ، بعد أن فقد تقدير والده ومودته ؛ ولكن ساعات الأسف والتوبة قصيرة على كل حال ، ولا تلبث أن تتلاشى وتزول أمام أول مغامرة .

ومن المتعذر أن نطيل الحديث عن الفتيات ؛ فقد كان اختلاطهن بغيرهن من الناس نادراً وقتئذ في روما ؛ فلا غرابة أن نرى في مسرحية « البائع » فتاة ماهرة عاكفة على عملها مثل « باسيكونبسا » ، لا تحشى منافسة أية فتاة في عمرها ، فيما يتعلق بطراز الصوف ؛ وهي في حبها مخلصة لمن يقع عليه اختيارها . وكذلك تحاول « فيليني » (مسرحية الحمار) ، في مهارة واحترام ، أن تلوم أمها على الطريقة التي تسلكها معها ، إذ أنها تصرفها عن عاشقها ، مع أنها أعدت نفسها لقبول أية توضيحية في سبيل حبها : « سأعاني الجوع يا أماه ، إذا أمرتني به » ، وهي تعبر عن شعورها وعطفها في أساليب رقيقة عذبة فتقول : « إن الراعي الذي يعنى بقطيع سيده ، له شاة يتركها له مولاه لتكون أمله في الحياة ؛ فدعيني يا أماه أخص أرجريب بحبي وليكن حبيب قلبي ، مادام هو الذي احطفيته » .

و« سيليني » (مسرحية السلة) شبيهة « باسيكونبسا » و « فيليني » ، فإنها وهبت حبها لشاب دون غيره ، ولا تقوى على رد العذاب عن قلبها . كلما غاب حبيبها : « إنه سيأتي ! ما أبطأ هذا اللفظ في نظر المحب ، ولماذا لا تقول إنه آت ؟ » ثم تعلم أن « السيزمرك » مقبل على الزواج من بنت عمه ، فتحزن لهذا الخبر ، ولكنها تمضي تقول : « إني أعزه مهما أقدم عليه من عمل » . وتلج على « جيمنازي » في أن تحدّثه في هدوء ولطف وألا تقول له شيئاً يؤذيه .

إذا كان عالم البيت في المسرحيات التي نعرض لها لا يحتوى إلا على آباء يمتازون بعطفهم على أبنائهم أو بنفورهم منهم ، وبحسن سلوكهم أو قبحه ، وعلى زوجات وأمهات كاللاتي رأينا ، وعلى شبان يلعب الحب على أنواعه في حياتهم الدور الأول ، دون أن تتسرب إلى هذا العالم الضيق المحكم شخصية خفيفة الظل ، حلوة الحديث ، مشرقة الوجه ، غريبة الحيل — تعذر علينا أن نلمس مصدر الضحك والفكاهة والمرح في مسرحيات بلوتس ؛ هذه الشخصية هي بالذات الشخصية التي فطن مولير إلى أهميتها في عدد كبير من تمثيلياته ، أعنى الخدم والرقائق .

يضحكننا الرقيق بمداعبته من يقابلهم في الحياة ، وهو يكر ، وينصب الشراك ، ويدس لهذا ، ويأتمر بذاك ، ويخلق المصاعب لثالث ، وكل ذلك في شئ من الحرية ؛ لأنه يسعى لغيره ولا يبتغى أية نتيجة أو فائدة من وراء عمله ؛ لا أثر إذن لمصلحة فردية فيما يفكر فيه ويقلبه في ذهنه ، أو يرتجله لا تقاذ موقف حرج ؛ وهو يتوقع فوق كل ذلك أن يكون الضرب بالعصا ، والتقييد بالسلاسل ، والعمل في الطواحين ، جائزة نجاحه أو إخفاقه . وقد اختار الرقيق لنفسه لتهدأ ولباله لينعم ، ألا يعير أى اهتمام لتلك الأمور القاسية في ذاتها .

يطيل « مسينيون » (مسرحية « المنكم ») و « سترويل » (مسرحية القدر) البحث في مميزات الرقيق الكامل ؛ وهو في نظرهما ، العبد الذي ينفذ لساعته ، وعن طيب خاطر ، أوامر سيده ، تلك الأوامر التي لا بد له أن يتدرب على إدراكها ، أو بعبارة أخرى : يتمرن على التنبؤ بوقوعها ، ومن واجبه أن يتنبه إلى كل كبيرة وصغيرة ، ولا ينقطع عن التفكير فيها ، كما عليه أيضاً أن يدبر المال ويستغله باخلاص . والرقيق المثالي هو الذي يعيش دائماً في خوف من التورط في خطأ أو سيئة ؛ لأنه من الحق أن يغفل عن العقاب الذي ينزل بالرقيق البليد أو السيئ السلوك .

ولكن من العبث أن نغلو في حسن ظننا بالرقيق ؛ فإذا تيسر لهم أن يعرضوا على ساداتهم ، ولا سيما الشبان منهم ، حلاً لموقف عسير مصدره في أغلب الأحيان حاجتهم إلى المال ، فهم لا يخضعون في ذلك لاخلاص يدفعهم إلى الخير فحسب ، بل لعقلية خاصة ، ولغريزة قوية تحثهم على المكر والخداع

والمغالطة من جهة ، وعلى مقاومة الصعاب والتغلب عليها من جهة أخرى .
والشخصية التي صورها بلوتس ببراعة فنية قلما نجدها عند غيره هي
شخصية « إبيديكوس » في المسرحية التي سميت باسمه . وإليك فكرة وجيزة
عن الدور الذي يلعبه فيها : يبحث الشيخ « بريشان » عن فتاة غير شرعية
أنجبها فيما مضى من الزمان ، في حين يهيم الشاب « ستراتيبوكليس » بمغنية ،
فيتدخل الرقيق بينهما بحيله المألوفة وبلاغته المقنعة ، فيوهم الشيخ بأن
عشيقة ابنه هي الفتاة التي يبحث عنها ، فيعتقها الشيخ ؛ ثم يقع ما ليس في
الحسبان ، إذ أن « ستراتيبوكليس » يعود من سفر ، وفي صحبته أسيرة يحبها ،
فيأمر عبده بأن يحصل له على المال اللازم لشراؤها ، فيذعر « إبيديكوس »
ويضطرب ، وقد فهم من أول لحظة أنه لابد من أن ينقض حيلته السابقة ،
وأن يهدم بيديه ما عمل على تشييده ؛ ونراه يسعى إلى الشيخ ، ويظهره على
سر ابنه ، أى إن له عشيقة في المدينة ، ربما ضحى بمال جسيم لتحريرها ؛
فيفزع الشيخ ، ويرجو عبده أن يمد له مجل معقول ؛ فيطيل العبد التفكير ثم يقول :
« اعمل كأنك تريد أن تحرر الفتاة لنفسك لتتعم بحبها ، ثم أرسلها حيث شئت
بعيداً عن المدينة » . فكانت نتيجة ذلك أنه عهد إلى « إبيديكوس » بذلك
الإجراء ، فقدم لسيده الشاب المال اللازم ، ولسيده الشيخ فتاة محررة من
زمن بعيد . ثم يأتي منافس يريد أن يشتري عشيقة الشاب ، فيحاول العبد
الماكر الماهر أن يبيع للمنافس الفتاة التي سبق أن قدمها للشيخ . وهنبا
تفسد الأمور ، ويكاد السر يفتضح ، ويجد « إبيديكوس » نفسه مهدداً من
كل صوب . ولكن ، لحسن حظه ، يتضح أن الأسيرة هي بالذات الابنة
غير الشرعية التي طالما بحث عنها الشيخ ؛ فيبدأ بال « إبيديكوس » ويفيض
قلبه أملاً في الخلاص وهو يقول للشيخ : « لماذا تجهد نفسك في التفتيش
عنى . . . هأنذا . . . لا أطلب أن تعفو عني ؛ تريد أن تغلني ؟ إني أمد
إليك يدي . . . أسرع وضع فيها الأغلال » ؛ فيختلط على « بريشان »
أمره ، ولا يتبين شيئاً من تلك الجرأة وذلك التهكم ، حتى يلمس عند عبده
حقيقة الأمر ؛ ويتعرف الشيخ على ابنته ، فيسرع لفك أغلال « إبيديكوس »
فيمتنع هذا الأخير حتى يلح « بريشان » ويتوسل إليه ، فلا يجد الشيخ مفراً
من الازدعان ، بل إنه يحسن على عبده ، ويرد إليه حريته .

من المتعذر أن نتحم هذا المقال بحكم قاطع على مسرحيات بلوتس . وكيف يكون الحكم عليها بعد مجرد تعليقات على الشخصيات التي يتكون منها عالم البيت؟ وإن دلّ هذا البحث إلى شيء فأنما يدل على قدرة بلوتس على الابداع الفني وضمانه حركة وحياة للعالم الذي شيده .

ونحن نعلم جلياً أن مسرحياته لا تخلو من بعض التناقض في تحليل الشخصيات ، وأن الوصف فيها يكاد يكون كاريكاتورياً ، إن صح هذا القول؛ ولكن هذا لا يقلل من قيمة تصويره ووصفه وتحليله ؛ فهو دقيق حينما يلاحظ ويرقب من حوله ، وموفق عندما يتخيل ويتصرف ، وبارع كلما حاول أن يلهم الحياة لمخلوقاته ، فهو يفكر ويعمل ويتحدث ويشعر مع أبطاله كأنه واحد منهم ، وربما صادفهم في مدن اليونان والشرق ، وعلى كل حال ، فقد تردد عليهم وألفهم في روما ، فأحسن إدراك أخلاقهم وشعورهم والأدوار التي يلعبونها في الحياة ؛ ثم دوّن في ذاكرته ، ثم في آثاره ، الألفاظ التي يستعملونها ، والحركات التي يأتون بها ، والمواقف التي يختارونها ، متمشين في كل ذلك مع الضرورة والحاجة والطبقات الاجتماعية التي ينتمون إليها .

وأنا أسلم أنه تعلم ، في أغلب الظن ، فن المسرح ، ولا سيما العناصر الهزلية ، في مدرسة من سبقه من الكتاب مثل منادر ، وفيليمون ، وديفيل ؛ ولكنه لم يلقنه أحد الشخصيات التي يدين بها لعبقريته ومواهبه الفنية ؛ ثم لم يعلمه أحد سر تفهمها وتصويرها بالدقة والبراعة التي يشهد له بها كل من تصفح مسرحياته .

ربمونه فرنسيس

PORTRAIT DE L'ARTISTE

HENRI EL KAYEM

صورة الفنان

هو ذا ، على يمين جماعةٍ في السامر مقبلين على سَمَرهم ، قصيرُ القامة رُبعةٌ ، متشبثٌ بغليونه كما تعلّق المنظر الطبيعي بِمَرْكَب ، ضاحكٌ السنّ ، لأن الضحك يشتمل أيضاً على اليأس .

✱

وهو صامتٌ طويل الصمت ، متطلعٌ إلى معرفة السرّ في صمتك . قد أجمع العزمَ على مَضَض أن يكون في جملةِ الزمرة ، ولكنه مع ذلك متحاملٌ على نفسه لكي يقترب من نفسك من حيث لا تشعر . وهو أحياناً يتكلم ، ولكنه سرعان ما يذكر أن الكلام هو الطريق الأعظم للخيال ، وأنه في الاستطاعة أن يقصّ على سامعه المُجامل المُروّاق حكايةً لا آخر لها ، وأن الحكاية إذا انبسط حبلها كانت حبلَ بهلوان ناهيك به من حبل . فاذا هوى إلى الواقع اقترن ذلك منه بضحكةٍ مكتنمةٍ مقتضبة .

✱

ثم هذا هو كذلك ، فيما وراء ذلك . ظاهرُ الاذعان والتسليم ، أمامَ لوحة تصوير ، يُشهدك على ما في هذه المهمة من العُسْر والمشقة ، ويسألك — وإنما نفسه يسأل قبل سواها — ألمٌ يكن من الأحجى والأرشد لو اتجه غير هذه الوجهة ونَهَجَ غير هذا النهج . وينظر البعضُ إلى هذا الاتضاع على أنه كبرياء . ألا حَيُّوا هذه الكبرياء التي تبسط يدها وتتصدق عليكم بدينار من الذهب النضار .

*

انحدر مُنْفَلِتًا من جبال المناطق الحارة ، جاريًا حول تقاطيع جسم الأرض
وأعطافها ، مزيجاً عند مساقط الشلالات ، هامساً بين أوراق الشجر ، معانقاً
للبساتين ، معتدلاً بقوة ، حاملاً رسائل من بعيدٍ يؤديها للفلاح ، ويؤديها كذلك
إلى عاشق الأحلام . ذلك هو النهر .

*

إنها هنا ، في كل مرحلة من مراحل تطوره ، كأن شيئاً لا يمكن الابتداء
به من غيرها . وجههٌ وسيمٌ كان من حظ الرسام ، ليكون له معدنٌ صفاء في
أيام الشقاء .

وما أعرف شيئاً له من الروعة في حياة الإنسان ما لوجود الطفلة ، لا شيء
أعجب منها ، هنا في أحوال أنوائنا ، وألوان الموائيق المختلفة في أقواس سمائنا .
في قربها تنمحي كهولتنا ، لأن شبابها الناعم بمحض وجوده يكفل للزمن
نظاماً عجيباً .

*

في معرض عُرضت فيه تصاوير للأطفال ، استجمع الفنان قصة حياته
مجملةً ، ضاحكاً من عبثهم بالمنظور ، متعجباً من أنه ما برح شديد القرب
من دهشتهم الحائرة .

*

في الصيف ، استولت على الرياض فترة . وعانت زرقة السماء كل أنواع
العَبَث ، وهذه سَكينة الظهيرة كلالٌ وإعياء . وإذا كان الفنان راقداً في غرفته
في الطابق الأول ، فإن أحلامه ماضيةٌ به إلى منظر الطبيعة منذ الماضي القديم
السحيق : امرأةٌ منصوبةٌ القامة واقفةٌ ، وصدرها مشرئبٌ في مهاب
الريح ، فخورٌ بأنها الرضيع الرءوم لهذه الأرض .

هنري القيم

تقلمها عن الفرنسية عبد الرحمن صدقي

BRITAIN, WAR-CHANGED AND CHANGELESS

HENRY BAERLEIN

بريطانيا التي غيرتها الحرب ولم تتغير*

من الطبيعي أن يسائل المرء بعد حرب كبيرة متى تعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل ، بحيث تكون في الوضع الذي كان يعتقده عاديا . على أنه لو لم تتم الحرب ألا تتغير الأمور في الدولة غير الراكدة بحيث يصبح ما هو عادى اليوم غير عادى في الغد ؟ هنالك المثل الفرنسى القائل كلما بدت الأمور متغيرة كانت متماثلة ، فكيف نوفق بين هذه المتناقضات في الظاهر ؟ إننا سنحاول إثبات أن بريطانيا اليوم تختلف عنها في السنوات السابقة للحرب الأخيرة ، وأنها في الوقت نفسه لا تزال هي بريطانيا تلك الأيام .

ماهى التغيرات البارزة التي سببتها الحرب ؟ أول ما يبرز للعيان التغيرات المادية ؛ ففي لندن وفي غيرها من المدن الكثيرة جروح شريفة وأرض فضاء حيث كان يقوم هنا بناء وهناك آخر ، وساحات نمت فوقها الأزهار البرية التي هى أكاليل تبجيل للحداد . على أن هذا الدمار ليس هو أهم الخسائر الهامة التي تحملتها بريطانيا . فلقد كانت خسارتها في قوى الرجال فادحة . ولاريب في أن شباب الأمة كانوا السواد الأعظم من الضحايا التي قدمت على مذبح الأقدار ، فصار ما بقى من الأيدي لا يكفى للقيام بالأعمال . ثم في الوقت نفسه ، لا يستطيع أولئك الذين خدموا في الجيوش المسلحة ، وعاشوا عيشة تختلف كل الاختلاف عن دورة الصناعة المستمرة ، أن يوطنوا النفس على حياة تسير على وتيرة واحدة . فالجواد الذي ربي للسباق ليس أصلح جواد يشد إلى العربات . والكثير من هؤلاء الشبان نشأ في وسط متضع وارتفع إلى مرتبة عالية في الجيش . وليس عجيباً ألا يرغب بعض هؤلاء في العودة إلى المكان الذي كانوا يشغلونه لو لم تتم هذه الحرب . وإني لأعرف رجلاً

* مکتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

كان يعمل في حانوت أبيه الذي يبيع أدوات الطهى ولوازم البيت في بلدة من البلاد الواقعة على شاطئ البحر ، وقد وصل في الجيش إلى مرتبة كابتن ، وأبى أن يعود إلى مهنة البيع . غير أن ساقى النبيذ في النادي الذي اشترك فيه ، ارتفع في الجيش أيضاً إلى مرتبة كابتن ، ومع ذلك أثر أن يعود إلى عمله السابق . وبينما يضع على صدره شارة لا تمنح لغير الضباط ، نراه يقوم بعمله خير قيام كما يجب أن يفعل ساقى النبيذ دائماً في الأندية ، وهو يخاطب رجالاً هم أصغر منه سناً ، ولو استمرت الحرب لكان يصدر الآن إليهم الأوامر ، بكل مجاملة ، وكلمة « سيدى » تحتّم كل عبارة من عباراته . والواقع أن هذا المسلك يتوقف على طبيعة الشخص .

ذكرنا أنه لم يبق في بريطانيا من الرجال ما يكفي للأعمال التي ينبغي القيام بها . فلنسائل إذن لماذا لا يظل النساء بعض الوقت في عملهن ، وقد سبق أن حللن محل الرجال في ميادين عدة داخل بريطانيا ؟ لقد نفذ هذا الإجراء لحد ما ، فقد استمر آلاف من الفتيات اللاتي عملن في سيارات الأجرة في عملهن بناء على رغبة السائقين الذين وجدوا منهن خدمة صادقة ، وتستطيع الفتيات القيام بهذا العمل بمثل الكفاية التي يظهرها الرجال . لذلك كان من حسن التدبير الاقتصادي أن يبقين في هذا العمل ليقوم الرجال الذين شغل هؤلاء الفتيات مكانهم بأعمال غير ميسورة للنساء .

وفي بريطانيا اليوم عدد من أسرى الحرب يقومون بأعمال مختلفة كالزراعة مثلاً ، ولا يرغب الزارعون في كثير من الأحوال أن يستغنوا عن هؤلاء الأسرى ، لا سيما الألمان منهم ، الذين هم أكثر نشاطاً من غيرهم . والزراعة تشغل على غير ما يعتقده الناس أكبر نسبة من العمال في بريطانيا . ولا يقوم الاعتراض على تشغيل الأجانب فيها كما هو الشأن مثلاً في صناعة التعدين . على أن في هذه الصناعة نقصاً ظاهراً في الأيدي العاملة ، فالكثيرون من العمال يأبون اليوم أن يربوا أولادهم على هذا النوع من العمل . وقد قوبل اقتراح تشغيل البولونيين في المناجم بالاعتراض من نقابات العمال ومن البولونيين أنفسهم ، إذ أنهم لا يرحبون كثيراً بهذا العمل . ولكن جمعيات التعدين رضيت بهم الآن ، على أن يكون من المفهوم أنهم أول من ينحى عنه إذا كان العرض بين العمال البريطانيين يزيد على الطلب .

ومن التغيرات النفسية في بريطانيا بعد الحرب تقلص الميل إلى العزلة ، لا بين الرجال والنساء الذين كان من نصيبهم أن يعملوا أثناء الحرب في البلاد الأجنبية وحدهم ، بل أيضاً بين الذين أقاموا في البلاد البريطانية . وقد أتاحت للبريطانيين الفرصة في أنحاء كثيرة من بريطانيا لأن يتصلوا ببعض الحلفاء ، وحدث أن تم الزواج بين عدد كبير من النرويجيين والهولنديين وغيرهم من الحلفاء المقيمين مؤقتاً في بريطانيا وبين عدد من الفتيات البريطانيات . وسيقيم بعض هؤلاء الأزواج في بريطانيا ، وسيرى جيرانهم أن الأجانب قد يكونون من خيار الناس . ومن العوامل التي قاومت الميل إلى العزلة أن الحرب كانت حدثاً عالمياً ؛ وكانت الصحف تنتقل بنا إلى سائر أنحاء الكرة الأرضية ، فصار أقل الناس ابتعاداً عن دأره على علم ، لحد ما ، بأماكن كان يجهلها كل الجهل .

وأمام هذه التغيرات في الطباع الوطنية البريطانية يجب أن نحسب حساباً للأمر التي بقيت وستبقى على ما يظهر ثابتة لا تتغير : مثال ذلك أن من العادات الثابتة في المعهد الدولي بلندن منذ مائتي سنة أن تلقى محاضرة أسبوعية تستغرق ساعة واحدة تماماً . فإذا أراد المحاضر أن يتكلم أكثر من ساعة كان عليه أن يستأذن المستمعين . وقد حدث منذ سنوات عدة أن فلكي القصر كان يلقي محاضرة ، ففسى نفسه وهو يسرد أقوالاً في غاية الخطورة وتابع كلامه بعد فوات الوقت بعشرين دقيقة ، فأثار ذلك نقد الحاضرين . وقد وجه أحد زائري المعهد سؤالاً لأحد موظفيه — ولكل عضو أن يستصحب زائراً — هل عدل عن هذه المحاضرات في الوقت الذي كانت فيه لندن هدفاً لأسلحة هتلر الكريهة ؟ فأجاب : كلا ! إن نابليون لم يقف محاضرات المعهد ، ولم يستطع هتلر وقفها .

ومثل حسن لهذا الاستمرار نجده في محل كريد الشهير لحياكة الثياب وهو الآن في جيله السابع ؛ فأصحابه كانوا أول من حاك أثواب النساء من الصوف . وقد انتقل رأس هذه الأسرة من الريف إلى لندن في سنة ١٧١٠ . ومنذ بضعة أشهر كان أحد أفراد سلالة يتحدث إلى إحدى الصحف وقرأ عليه الصحفي عبارة أراد أن يضمنها مقاله ، وفيها يذكر « مجموعته الجميلة من ثياب سنة ١٩٤٧ » . على أن مستر كريد أبدى شيئاً من القلق لأن الصحفي لم ير

تلك الثياب ، ولكنه رضى أخيراً بالعبارة لأن أسرة الصحفى ظلت ثلاثة أجيال ترتدى الثياب من صنع كريد . فللصحفى إذن الحق فى إبداء هذا الرأى حتى قبل أن يرى ما سيظهر فى الموسم الجديد . ثم قال مستر كريد : « يجب أن تضيف لهذا القول أن نوع الأصواف الانجليزية التى ترسل للخارج لم يتأثر بالحرب مطلقاً » .

وقد يكون من فائدة بريطانيا أن تنظر إلى نفسها بالعين التى ينظر بها الأجانب إليها . وقد كان فى بريطانيا فى السنوات الأخيرة من الأمريكين أكثر من غيرهم من الأجانب . وانتقد هؤلاء بعض الأمور ، ولو استطاعوا تغيير هذه الأمور لفعلوا ، ومنها عدم وجود وسائل التدفئة فى الدور . وذكر أحدهم أنه وجد فنادق لندن أكثر استعداداً بوسائل الراحة بعد أن زار بلاكبول ، غير أنه وجد فى الفندق الريفى من حسن المجاملة وعناية صاحب الفندق ماعوضه كثيراً ، فتلك الجهات البعيدة تكتسب عطفك بجميل العذر . وذكر أنه قابل قتي وفتاة فى عربة القطار ، فقدا له قطعة من الكعك ، فرفضها معتذرا متأثراً بفكرة الطعام المحدد للناس فقالت له الفتاة لا بأس إنها غير متقنة ، فأخذ القطعة ليثبت لها العكس فوجدها لذينة جداً .

ولقد أتقن هذا الأمريكى وسيلة إلى غسل قمصانه . ذلك أنه يشتري قطعة من الصابون وشيئاً من الشكولاته ويتخذ مظهر الوداعة ، ثم يتحدث إلى صبي من خدام الفندق زاعماً أنه من أصل بريطانى وأنه ابتداء تعليمه فى مدارس بريطانيا عندما كان صبيّاً أصغر منه . فلا يلبث هذا الغريب أن يكتسب عطف الصبي بهذا الحديث . وقد يقول له الصبي على سبيل المجاملة : « لا أظن أنك تتكلم الانجليزية كغيرك من الأمريكين » . وعندئذ يحدثه عن مشكلته فيقول الصبي إن له ألياً ، وأنه سيسألها هل تستطيع غسل بعض القمصان ، وحينئذ يعطيه شلنين ونصف شلن من النقود ، وقد يعيدها الصبي فى اليوم التالى قائلاً إن أمه لا ترغب فى قطعة النقود ، وإنما تريد قطعة من الصابون ، وحينئذ يفسر له الأمريكى أن النقود ليست لأمه بل له ويرسل قطعة الشكولاته لأخيه ، وإذا القمصان تعود نظيفة . أما الأجر فيطلب إليه ستة بنسات عن القميص

فكان لا يدفعها بل يزيد لها ثلاث مرات ، فصار عنده مورد من القمصان النظيفة .

أجل ! فبالرغم من الشدة السائدة في الوقت الحاضر ببريطانيا وبالرغم من كل الأمور التي لم تتغير وما تم من تغيير في السنوات الأخيرة . فان الحياة في كثير من أنحاء العالم أقل متعة منها في بلاد الانجليز .

هنري بيرلن

نقلها إلى العربية ز. ي. ع.!

تنبية

سقط عند طبع قطعة « صورة الفنان » المنقولة عن الفرنسية للأستاذ هنري القيم الاشارة إلى أنها مقتبسة من كتاب له سيظهر في باريس . وهو أثر لما علق بنفسه من صور الفنان المصري العظيم محمود بك سعيد .

من هُنا وهُنا

مصطفى عبد الرازق فقيد العاطفية الذهنية

ولقد تعرفت في مصطفى منذ عرفته
روحه الشعرية متلاثلة خلال ما كان
يصدر عنه من إشعاع يفعل فعله الأخاذ
فيمن يقتربون منه أو يتصلون به ، كما
تعرفت فيما بعد أن نفسيته — وقد امتزج
فيها قلبه بذهنه — قد انطبعت بطابع
الشاعر الفيلسوف ، فحلا لي دائماً أن
ألقبه « بموسيه مصر » على تميزه بأن رفعة
إحساسه ورقته لم يدخل فيهما عامل
من عوامل المراتة والاكتساب بل كانتا
من خصائص طبيعته الأصلية المتجلية .
ولذلك فلشد ما كان ألمه يوم
قصرته اعتبارات الأسرة التقليدية
على أن يتولى منصباً تحده فيه القيود ،
وهو المنطلق ، ويخضعه للعمل الآلي
وهو المحلق في سماء الوحي والالهام .
على أنه لم يرض أن يقيد ولم يرض أن
يخضع ، فكان يبادر ، بعد أن يفرغ
من ساعات عمله بإدارة المعاهد ثم
بوزارة الحقانية إلى التناحي والاستلham
والكتابة ، ولقد حظيت بمشاركته
في بعض مقطوعات قصيرة نشرتها لنا
« الجريدة » بتوقيع « اثنان » ، ولكن

رزئت مصر ورزى العالم الاسلامي
في فذ من أفذاذها القلائل ب وفاة
الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فجزعت
فيهما عليه القلوب ، ورثاه فيهما صفوة
من أصدقائه ومريديه . لكن مدركا
بشريا ممتازاً أفسح أركاناً من مصر
وأبعد مدى من العالم الاسلامي قد
هلع لوفاة مصطفى . وأنا من الذين
كتب لهم أن يقفوا على بعض جوانب
اتصال ذلك المدرك بالفقيد ، فجنّت
أذكر هذا الاتصال وأسجل ذلك الهلع
على فقدته ، والمدرك الهالع إنما هو
مدرك « العاطفية الذهنية » .

عرفت مصطفى منذ عهد الشباب
أيام كنا نحصل العلم بباريس ،
وتوثقت بيننا عرى الأخوة طوال
السنوات التي ترددت خلال أصبوحة
كل يوم من أيامها وأمسيته على داره
ودار آله حيث اكتملت مصريتي المتعقلة
فيما كان يختلف عليها من عديد البيئات
ومتنوعها ، بعد أن نشأت بين جماعة
الطلبة المصريين بباريس ثم تدرجت
في نادى المدارس العليا بالقاهرة .

حضرتي الكبرى كانت باسماعى إلى كثير مما دون وما لم ينشر بعد ، وقد تجلت فيه آيات الاحساس والابداع . وسيعرف الناس يوم يكتب لتلك المدونات أن تنشر كيف ظلمت المقادير مصر والعالمين العربى والاسلامى إذ عرجت بمصطفى عن طريق عبقريته الواسع إلى درب الوظائف الضيق فخرمتها جميعاً خير النتائج الروحى والغنى . وقد فهم هو فرحى يوم تولى كرسى الفلسفة الاسلاميه بكية الآداب ، وفهم غضبى يوم ترك هذا الكرسى ليتولى منصب الوزارة ، كما فهم جزعى على صحته يوم أسندت إليه مشيخة الأزهر ، فتمثلت متاعبه التى لم تحملها روحه الرقيقة السابجة .

هلعت « العاطفية الذهنية » لوفاة مصطفى . وقد أردت تسجيل هلعها وأنا أعرف أن مدرستها ليس من مدركات هذا الجيل المفضلة ، ولكنى أناجى به جيل ما قبل الحرب العالمية الأولى ، وأذكره لأولئك الذين أخذوا معنا فى السربون و كوليچ دى فرانس بتعاليم برجسون وكروازيه ودوركيم وليفى برول ، وعلى هؤلاء وعلى مصطفى الحزن الأليم .

كلارا عزمى

جولة مستطلع

معرض للآثار الإسلامية *

يتوهم التوهم أن الفن العربى الاسلامى ينحصر مداه بين تلك الخشبات المتداخلة والرخامات المحفورة والزجاجات الملونة والطنافس المزهرة والقباب المنحوتة وما يجرى مجراها جميعاً . وأن هذه الألوان متقاربة متشابهة ، إنما تصدر عن مبدأ واحد وتنتهى إلى غاية هى هى ، وأنها فى الجملة ضرب من البراعة أو الرشاقة ، ليس للشعور أصل فيها ولا للفكر مدخل إليها . والحق أن الفن العربى فى عهوده الوضاعة غنى بالأنواع والأشكال ، مترع بالاحساسات والمعانى ولا سبيل إلى كشف هذا إلا من طريق التصفح والتأمل .

هذا ، ولم تنشئ الدولة دار الآثار

* أنظر ص . ٧٢٨ ، ٧٢٩ . من تصوير المتحف العربى .

العربية عبثاً ، فذلك هو الغرض من الانشاء . فأحسن بالأستاذ المستشرق جاستون فييت مدير الدار إذ يفتن لهذه الحقيقة ، فلا يقعد عن تهيئة المعارض السنة بعد السنة ، فيدفع إلينا متعة متواصلة فيها رقة وفيها بعد : تتلاحق إزاء أعيننا النعمة ألطف الآثار وأروعها في نماذج مختلفة ومذاهب متفاوتة وعهود متباينة . ووراء كل ذلك تبصير وتهذيب وتثقيف .

ومعرض هذه السنة مجرى على نمط جديد ، إذ يضم نفائس يبلغ عددها نحواً من مائة وخمسين إنما كلها مطوى عن الأبصار غير منشور للجمهور inédits . وعهود هذه النفائس تتردد بين القرن السابع والقرن الخامس عشر للمسيح ، والنفائس منتقاة من مجموعات خاصة كالتي لصاحب السمو الأمير يوسف كمال ولصاحب المقام الرفيع شريف صبرى باشا وللمرحوم على إبراهيم باشا ولحرم أسعد باسيلي باشا والسادة جاك ماتوسيان ور. عدس وبنسيلوم .

وأغلب هذه النفائس أوان من الخزف الايراني وهي تنقسم قسمين : أحدهما عتيق مصدره البلاد الواقعة شمالي إيران ، والآخر مستحدث بعض الاستحداث موطنه مدينة قاشان التي

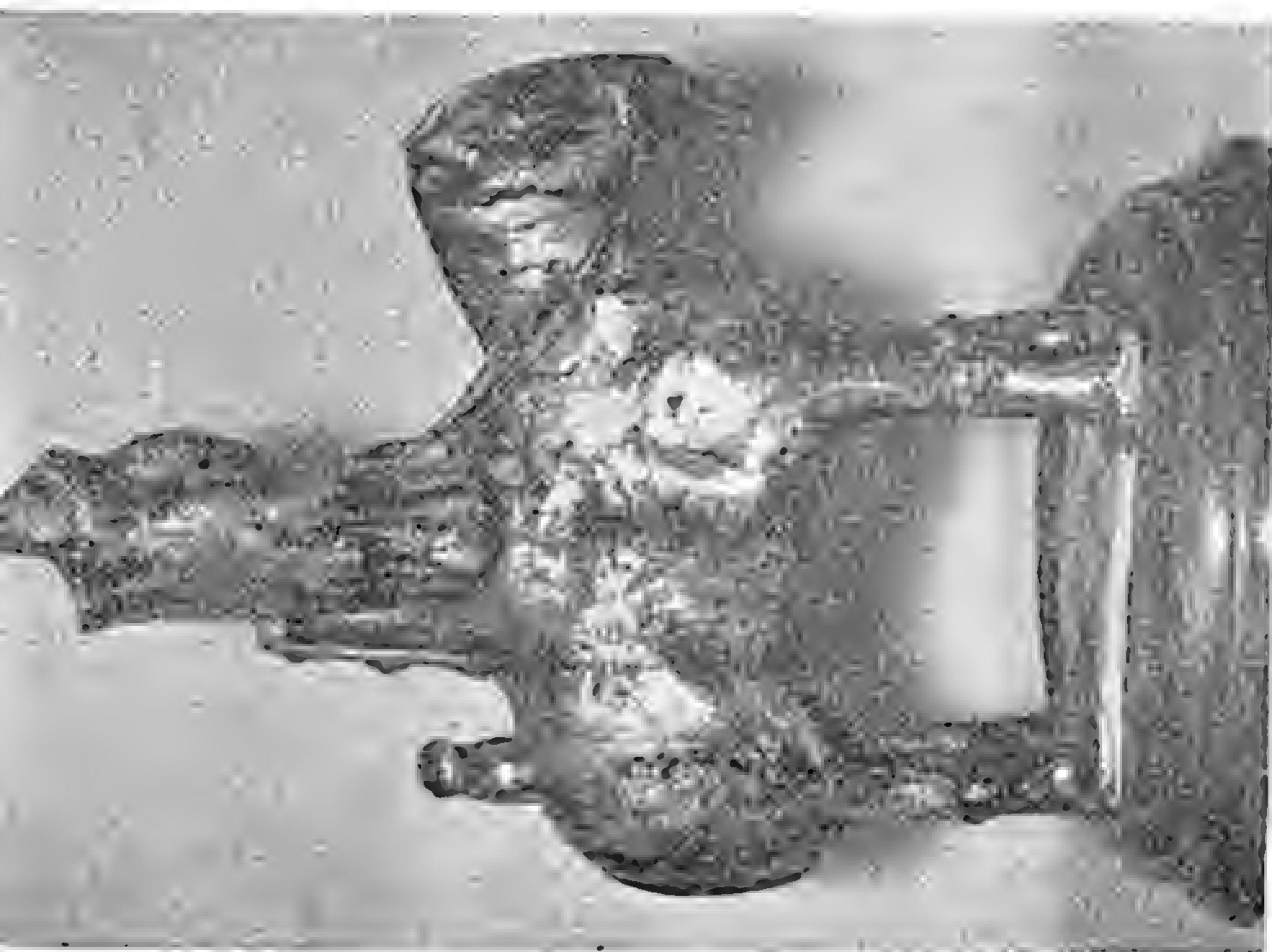
عُرفت بغضاثرها التي تدعى « القاشاني » أو « القاشي » في لغة العامة على حد قول ياقوت في « معجم البلدان » . ويمتاز الخزف الايراني بالتزويق المستدق المستغرب ، قد تخيله صاحبه اتفاقاً مرتعشاً ثم دس فيه برفق ألواناً نابضة قد تجدد في الذي اشتد منها مثل التموج الذي يهرك في الحجارة الكريمة وأما القاشاينات فهي أروع مظهر وأدخل في الصناعة المحكمة ، ولكنها ليست بذلك ألطف ولا أتم . وإني أؤثر سذاجة الأولى كأنما خشونتها تجذبني أو كأنني ألح فيها البداوة ونقاوة الفطرة .

وفي المعرض ، إلى جنب الخزف ، ألوان من النحاس والحلي والقصدير والنسيج تزينها الدقة في العمل والحسن في الصياغة والبراعة في التأليف والحدق في الحبك . ويلي هذا كله قوارير وكؤوس من الزجاج ، إذا نظرت إليها وبدا لك أن تطيل النظر سرحت كأنك تحلم حلماء ، وذلك للركة الفائقة التي في المينا وللخطوط الزخرفية التي تتعانق في بطونها ورقابها تعانقاً ناعماً بل مفاجئاً .

والحق أن سر الفن العربي الاسلامي في الزخرفة . ولى في هذا حديث هياته في اللغة الفرنسية أجمل طرفاً منه ههنا فأقول : إن الزخرفة



١ — طين من الحرف المطلي . ذو زخارف متداخلة .
اللوائل الثانية : الأسود والأصفر الذهبي . نيسابور . القرن ١٠ .
الارتفاع ٥ ، القطر ٢٠ . (من مجموعة جاك ماتوسيان .)



٢ — تمثال فارس بتدلي زره خلف ظهره .
من الحرف المطلي بالآزرق الفيروزي . الري . القرن ١٣ .
الارتفاع ٢٦ ، القطر ٢٢ . (من مجموعة ر . عدس .)



٢ — سلطانية من الخزف ذي البريق المعدني .
الألوان : الأبيض والأسود . قاناك . القرن ١٣ .
الامتداد : ١٠ . القطر : ٢٢ . (مجموعه متحف المتحف الوطني)



٤ — قارورة من الزجاج المزركش بالطين .
الألوان : الأحمر والأزرق والأبيض . مصر . القرن ١٤ .
الامتداد : ٣٢ . القطر : ١٧ . (مجموعه المتحف الوطني)

العربية الاسلامية ليست من الارتجال في شئ . فمن الخطأ الشائع أن يظن أحد أنها وليدة العبث . فان هذه الزخرفة مشتقة اشتقاقاً من العقيدة الاسلامية . فهي منطقية بل واجبة . ومن الخطأ كذلك أن يمتد الظن إلى أن العرب المسلمين عدلوا عن تصوير الأشكال الحية بسبب التحريم الذي ورد في الحديث فمالوا إلى الزخرفة . فان التحريم لم يوجه الفن العربي إلا بعد نكبة التتر، قاتلهم الله ! والدليل ما وصل إلينا من الآثار القديمة التي مثلت فيها صور الأحياء ، بل الصواب — عندي — أن الزخرفة في الاسلام وما يأخذ مأخذها أو يدخل تحتها مثل الاقتضاب في التخطيط إنما انبعثت من التصورات الدينية ، ومن هنا طرافتها وقوتها ثم تأثيرها في التزاويق التي تزين طائفة من الآثار المسيحية سواء في مصر والشام أو في بيزنطة وإسبانية . وبعد ، لا يسعني إلا أن أشكر للأستاذ المستشرق ج . فييت إقامة هذا المعرض اللطيف وأهنته بنجاحه وأهني كذلك الأستاذ حسين راشد والدكتور محمد مصطفى أميني الدار . فقد ألهمني المعرض وألم غيري ، بفضل ما ضم من أصناف الألفاف ، صوراً وفكراً تهز وتلذ .

في المعرض الدولي للفن الحديث

هذا المعرض الذي أقيم الشهر الماضي في القاهرة دل على أمرين سأقصر الكلام عليهما . أما الأمر الأول فسلطان التصوير الفرنسي الحديث على قرائح المصورين كلهم وعلى مراقمهم أيا كان موطنهم . ولا عجب في هذا ، فمعلوم أن باريس كانت منذ منتصف القرن الماضي مظهر المذاهب الجديدة في التصوير تمثلاً وتفكيراً وتأدية . وليس هنا مجال تبيان ذلك . وظلت باريس طوال قرن أو يزيد قبله أهل الفن . ويؤيد هذه الحقيقة ما مثل لنا في هذا المعرض . فليس في التصاوير الزيتية التي للبلجيكيين والانجليز والأمريكيين وغيرهم مأتى جديد ولا منحى غريب ، في الجملة . والفرنسيون أنفسهم لم يخرجوا عن أساليبهم ولا عليها ، فلا تزال طرائقهم هي إياها لم يطرأ عليها تبدل حتى انحراف قد يحدث من جراء الحرب التي عانتها أوربة أشد المعاناة ، فكان

الوعى الباطن لم يتحرك بعد ، النشاط الفنى من التقليد وأدخله تحركه فى ناحية من نواحي الأدب . فى حيز المذكرات بالبصيرة . على أن الحكم لا يسير إلا على الذين عرضوا من المصورين الفرنسيين فهناك أساتذة مثل Matisse ، و Léger ، و Gischia لم يرسلوا إلينا بشئ أو مثل Braque و Rouault و Picasso قنعوا بعرض تخطيطات ، وليست تخطيطية بيكسو Picasso^(١) بشئ إلى جنب ألواحه المشهورة .

ولا يسير الحكم كذلك على مصورى البلدان التى لم تشارك فى المعرض ، نحو إسبانية وإيطالية وألمانية ، وكانت هذه الثلاث - ولا سيما الأولى - تأخذ من فرنسا وتعطيها أيضاً ، فهل ننسى أن بيكسو صاحب المذهب « المكعبى » cubisme إسباني المولد والمنشأ ، وأن المذهب « الاستقبالي » futurisme ولد فى إيطاليا سنة ١٩١٠ ، وأن Kandisky الروسى اجتهد فى ألمانية وفيها نشر كتابه « الروحاني فى الفن » Ueber das Geistige in der Kunst (مونخ سنة ١٩١٢) حيث حرر

متخيلاتنا .

ذلك هو الأمر الأول . وأما الثانى فان القسم المصرى حقيق بالالتفات . وقديماً بينت رفعة التصوير والنحت عندنا بفضل أفراد ، وعملت تقدمهما على سائر الفنون كالشعر والمسرح . والحق

(١) نشرتها الآنسة أمينة طه حسين فى تضاعيف المقال الواقع الطيف الذى خرج منها الشهر الماضى .

أن التصوير في هذا القسم يرجع في أكثر جزئياته إلى مختلف المذاهب الفرنسية المعاصرة . فهذا يمضى على أسلوب Roger de la Fresnaye وهذا في طريق « الضواري » Les Fauves وهذا في جهة Dufy الذى يصور مثل طفل ، وهذا لا يزال متشبهاً بالقواعد الأكاديمية . ولكن في القسم ، إلى جنب براعة إيمى نمر ومحمد ناجى وسعيد حامد الصدر ومحمد حسن وأحمد صبرى ، ترى إستحداثاً تستطيع أن ترده إلى الجو المصرى . وهو مائل لك في ألواح محمود سعيد التى عملها بين ١٩٣٠ و ١٩٣٨ حيث التأليف القائم على إيقاع كأنه من تفر الطبل أو نفخ الزمر ، وحيث اللون النحاسى المسلول من رفيف البشرة المصرية سفعها رياح الصيف . وهذا الاستحداث في تماثيل مختار أيضاً، فكأنها تلف في ثناياها سرّ تربتنا الخالدة .

تكرم خيل مطران

لأربع وثلاثين سنة خلت كرمت الأقطار العربية شاعرها المتفنن المتصرف خليل مطران . وجرى التكرم في مصر بمهمة الأديب سليم سر كيس رحمه الله . وقد اشتركت فيه الحكومة المصرية وأدباء مصر ولبنان وسورية . وفي ذلك اليوم رصن النثر وشرف الشعر . وما كنت لأحضر التكرم إذ كنت طفلاً ، ولكنى قرأت بعد ذلك ما قيل فوزنته .

قرأت النثر الذى قيل سنة ١٩١٣ :
كلمة الريحاني التى عنوانها « هجروها »
وكلمات زيدان وجبران ومى وأنطون
الجميل ، وكلها ماثلة حتى اليوم في
خاطرى . وقرأت الشعر ، ولا أزال
أروى منه درراً . قال حافظ بعد أبيات
تندى رقة وتطفر خيالا ، تمثل فيها
روضتين تتناحيان :

فاذا لهجتان من لهجات الشر
ق قد شاقتا فؤادى فهاما

ثم في هذا الزمن أدرك نفر من أعضاء النادى الشرقى القائم في القاهرة أن الخليل لا يزال حقيقاً بعناية الأم العربية . وما أجمل ما أدركوا وما أصوبه ! فخطر لهم أن يكرموه مرة ثانية وقد أرادوا أن

تلك سورية تفيض يـاناً

تلك مصرية تسيل انسجاما

فطنة عند رقة عند ظرف

عند رأى تخاله إلهاما

... ورأى الزهر ما رأيت فظن

الشمس رأذ الضحى فشق الكماما

وسعى بالأريج والنفح والطيب

وأهدى عن الرياض السلاما

وإذا الشاعر يسمع الروضة

المصرية تقول لأختها السورية :

قد سمعنا خليلكم فسمعنا

شاعراً أقعد النهى وأقاما

وطمعنا في شأوه فقعدنا

وكسرنا من عجزنا الأقالما

فمشى النثر خاضعاً ومشى الشعر

وألقى إلى الخليل الزماما

وقال شبلى الملائم يخاطب الشعر:

تتلامس الأرواح فيك وتشتكى

عند التفرق ثقلة الأجسام

من قصيدة مطلعها :

لمشت إلى الأهرام أرض الشام

لوتستطيع جوى إلى الأهرام

وفيه يقول للخليل :

أما أنا فبلطف روحك شاعر

والشوق شوق والهيام هيامى

فاذا سمعت النوح فهو صبايتى

وإذا استطبت الريح فهي سلامى

ثم قال شوق وإسماعيل صبرى

وحفى ناصف والخليل نفسه ما قالوا

من محكم الشعر وجيده .

ذلك ما قرأته . أما الذى سمعته

من أيام فى دار الأوبرة الملكية

(٢٩ مارس ١٩٤٧) وقد نشرته

صحف ومجلات ، فلا أذكر منه الساعة

سوى كلمة وزير المعارف عبد الرزاق

السنهورى الذى اجتهد فوصف ودقق

فبلغ ، وكلمة أنطون الجميل وقد

أرادها خفيفة ترقص فيها الذكريات

النواعم وتتعانق ، وسوى أبيات انطلقت

فى قصيدة عبد الرزاق محي الدين

مندوب الحكومة العراقية .

أقول إن أصحاب فكرة التكريم

أحسنوا النية وإن المتكلمين من خطباء

وشعراء دلوا على نبل ومروءة . ولكن

الحفلة لم يجدر بها الخليل إلا بدءاً

وختاماً : أما البدء فبالرعاية الملكية

السامية ، وأما الختام فبشكر الخليل

وكأنه — حفظه الله — تظن للشعر

الذى سيقال فيه فجاءت قصيدته بلاغة

مقتضى المقام .

نحن الأدباء إنما نعد هذا التكريم

تحية لطيفة شريفة هيأها نفر من

الناس ودعوا إلى المشاركة فيها طائفةً من الناس ، والفريقان ممن يسيل في شمائله ماء الكرم . نحن الأدباء أدرى بخليلنا فهو أستاذنا وضريرنا وحبينا . فكيف لا يتكلم ، إلى جنب بعض المتكلمين ، لطفى السيد وهو الذى عاصر الخليل وعاشه ، وطه حسين وهو أول من جرؤ على غير استجراء فقال فيه إنه أكبر شعراء العصر ، ومحمود عزمى وهو البصير بسعى الخليل الصحافى العربى ، والمازنى وهو الذى أدرك بفضلله أن شعرنا قابل للتجديد، وأين هذا وهذا من أدباء مصر ولبنان وسورية ؟ وكيف لا يتحدث ثراً أو شعراً من أخذ عن مطران وتأدب عليه واغترف من فيضه واهتدى برأيه : أليس أحب إلى الخليل أن ينهض أحد من مدرسته ، كما نقول اليوم — فيعلن فضله من أن ينشده قصيدة شاعر لا ينفك يقطع أبيات على طريقة بادت أو شاعر قد أصفى أو شاعر قد جف ؟ ثم أين الذى تكلم فى مطران الناثر المتمكن واللغوى المتعمق ؟ وهل تعجب متكلم أن مطران لا يزال مبعداً عن الحُجُوع اللغوى .

ليست غاية التكريم تصفيقاً . إن تكريم الأديب الفعل يكون بالنظر السليم فى آثاره مع استخراج طرائفها ودقائقها وخصائصها مع ألوان أثرها . وما أغنى مطران عن التصفيق وما ألصقه بقلوبنا نحن ! تقدره حق قدره ونحبه ونجله . فهل يوفيه حقه الأدباء فى هذه المجلة الموقوفة للأدب الصر ؟

معرض الكتاب اللبنانى

ذلك معرض لم نعرف أول الأمر حقيقة شأنه . أمعرض هو للكتاب المطبوع فى لبنان أم للكتاب الذى يؤلفه لبنانى . أليس غريباً أن يختلط الأمر على المستوضح . أما سبب اختلاطه فأنك ترى جنباً إلى جنب كتباً للبنانيين أمثال ميخائيل نعيمة مطبوعة فى القاهرة وأخرى للبنانيين أمثال الفاخورى مطبوعة فى بيروت ، وثالثة لمصريين منحدرين من قريب أو بعيد من أصل لبنانى ، مطبوعة فى القاهرة . وأغرب من هذا ومن ذاك أنك تجد كتباً لغير اللبنانيين أصلاً وفرعاً لسلامه موسى وهو مصرى قح وآخر ، نحو كتاب لقسطنطين زريق وهو فى السلك السياسى السورى .

خلط عجيب ! أتدرى ما وراءه؟
الاعلان المحض ، إعلان جاعة من
الوراقين من هناك ومن هنا أيضا ،
وربما لم يستأذن المؤلفون في عرض
مؤلفاتهم كأنما هم أدوات كتابة ، وقد
اشمأز أحد مؤلفينا من ذلك التناول
فتقدم إلى صاحب العرض برفع كتبه
فرفعت .

أهذا هو الكتاب اللبناني؟ بضعة
مطبوعات ليست نقطة من بحر ، بل هي
نقطة غامضة من بحر زاخر : بحر
التأليف اللبناني . حقاً إن من يتجر
بتأمل المفكرين وجهد الباحثين
وصبابة الشعراء وثقافة النقاد قد يغره
الاقدام أحياناً .

وأعجب من هذا أن الزائر
للمعرض يفاجأ بنشرة عنوانها
« الكتاب اللبناني » فيها سرد عجيب
لمجموعة من الكتب المطبوعة هنا
وهناك وهناك ، وقد ألفها كتاب
وشعراء لبنانيون وسوريون ومصريون .
وإنما الغرض الظاهر من إذاعة هذه
النشرة هو استعارة اسم لبنان لترويج
مطبوعات تزين مكتباً أنشئ لتوزيع
الكتب اللبنانية وغيرها في القاهرة .
ولا بأس أن ينشأ مثل هذا
المكتب ، بل أقول إن إنشائه واجب

ومرغوب فيه . ولكن لا تحسن الدعاية
على مثل هذا النحو . فكان الأولى أن
يقصر أصحاب هذا المكتب وأصحابهم
من الوراقين عرض الكتب التي
يتجرون بها وأن يكون المعرض باسم
المكتب دون غيره وبين جدرانه .
فاننا لا نرضى للثقافة اللبنانية أن تموه
في مصر . أمن المعقول أن يقام معرض
للكتاب اللبناني غير مرتب على
تسلسل تاريخي أو ترابط فكري أو
تناسق مطبعي ؟ أمن المعقول أن تهمل
تأليف الشدياق والشرتوني وإبراهيم
اليازجي واسكندر المعلوف وأمين الريحاني
وعبد الله العلايلي ونظرائهم من عليّة
الكتاب وصفوة الباحثين ؟ أو من
الجائر أن يغفل غافل عن دائرة
المعارف للبستاني وعن مجلة الجنان ثم
مجلة الأديب التي تكافح في سبيل
الأدب الخالص أي كفاح رعاها الله
وأبقاها ، ثم أين مجلة المكشوف ومجلة
الطريق وغيرها مما يعمل في جهد
وثبات ؟ لم أصب ذلك كله في
المعرض وإن ذكر بعضه في النشرة .
إن في أدباء لبنان وعلمائه من
يستطيع أن يقيم في مصر معرضاً للكتاب
اللبناني يكون غاية في الروعة
والحسن .

شهرات

شهرية الفن

POETE PEINTRE ET PEINTRE POETE

HILDE ZALOSCHER

شاعر رسام ورسام شاعر*

من الفنانين من يسلكون في التعبير عما يريدون أكثر من طريقة واحدة .
وتلك الظاهرة ، ظاهرة الموهبة المزدوجة ، ليست من الأمور النادرة .
فان كثيراً من تراجم رجال الفن لتشهد على ما كان يساورهم من حيرة في أى السبل يسلكون ، وعلى ما كان يأخذهم من تردد في التعرف إلى حقيقة ميولهم . وإذا كان من النادر أن نجد فناناً موسيقياً يعبر بوسائل التصوير ، إلى جانب الموسيقى ، أو يعبر بالشعر — مع استثناء الموسيقى فاجنر — فاننا نرى الحدود بين فن التصوير والشعر ، مطموسة غير جلية ، ونلاحظ أنه كثيراً ما يكون الشاعر رساماً أو الرسام شاعراً .
وعلى الرغم من أن وسائل التعبير في كل من هذين الفنين تبدو متباينة كل

التباين ، فان تغير كل منهما بفعل الآخر أمر جد ملحوظ .
ونحن إذا أنعمنا النظر في الآثار التي ينشئها الفنان الثنائي الموهبة ، اتضح لنا أن الأمر ليس مجرد توافر في القدرة والاستعداد، وتبين لنا على الأخص أن المسألة ليست ضرباً من ضروب التبادل والتكافؤ ، بمعنى أن الرسام من جهة ينظم الشعر ، كما أن الشاعر من جهة قد يمارس التصوير — إن هاتين الظاهرتين لتختلفان اختلافاً جوهرياً واضحاً ، كذلك الأسباب والعوامل التي تدفع الرسام إلى الشعر أو الشاعر إلى التصوير ، تتفاوت فيما بينها تفاوتاً كلياً صريحاً .
وهكذا تكون مسألة الإزدواج في العبقرية ذات اعتبارين : الاعتبار

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة «الكاتب المصري» .

الأول يتصل بالظاهرة في غرضها العام ، والاعتبار الآخر يتعلق بالاتجاهات الخاصة التي تظهر في كلتا الحالتين ، وإن أول ما يسترعى انتباهنا هو أن عدد الفنانين من ذوى الموهبة المزدوجة لم يكن واحداً في كل الأوقات ، فتارة نجد عصوراً خالية منهم تماماً ، فلا يكون الشاعر فيها إلا شاعراً ، ولا يكون الرسام إلا رساماً ، تعقبها عصور تختلط فيها الفوارق بين هذين الفنين ، فيكاد كل شاعر أن يكون في الوقت نفسه رساماً أو كل رسام أن يكون شاعراً . هذا من جهة ، ومن وجهة أخرى تبدو لنا بعض الأزمنة أكثر وفرة في الشعراء الرسامين من غيرها إذ تكون شخصية الرسام الشاعر هي البارزة . ونستطيع أن نقول بصفة عامة إن ظاهرة الموهبة المزدوجة تكون في حالة الرسام الشاعر أكثر منها في أية حالة أخرى .

بعضهم على الاعتقاد بأن الفنون المختلفة تفصل بينها حدود صريحة ، وأن كل فن بما له من وسائل خاصة في التعبير يصل إلى نوع من الأسلوب لا نجده في فن آخر ، وأن هذا الأسلوب يعتبر إلى حد كبير نتيجة وسائل التعبير ذاتها . ويخيل إلينا تبعاً لذلك أننا على حق إذا اعتقدنا أن هذه الوسائل ليست قابلة للتبديل ، ولكنها في الواقع ليست كما نعتقد .

إن نظرة فاحصة سريعة تطلعنا على أن الفوارق بين الفنون كان يحرص في بعض العصور على إبقائها أشد الحرص ، وهم يمارسون كل فن على أنه مستقل قائم بذاته له قوانينه الخاصة . فالتحت يسعى إلى إبراز الحجم ، والمعمار يعنى بتجسيم فكرة هندسية ومنظمة فراغية ، والتصوير ينقل على سطح ذي بعدين عالماً ذا أبعاد ثلاثة ، وذلك تبعاً لقواعد التصوير . ويتجلى هذا الاحترام للفوارق والحدود في عصر النهضة الإيطالية وفي القرن السابع عشر الفرنسي إلى درجة ما ، فلا تختلط الفنون ، بل يزاوّل كل منها داخل نطاقه ، في حين أن الفن « الغوطي » والفن الشاذ Le Baroque تسودهما روح مخالفة كل المخالفة . ففن المعمار في

وهنا يحمل بنا أن نقول إننا لانكاد نتناول مسألة الفنان المزدوج العبقرية ، حتى تلتوى بنا الطريق شيئاً وتتجه بنا نحو مسألة غير الأولى ولكنها متصلة بها ، تثير فينا ملاحظات جديدة كما تكشف عن نواح أخرى لا بد من إيضاحها وتفسيرها . وقد يحمل ذلك

هذه الحقبة من الزمن كان يؤلف بين مختلف الفنون الشقيقة كالنحت والتصوير ، ويسخرهما ليستحدث من تضامهما نوعاً من الأثر الفنى الجامع الشامل . كانت الفنون يحملتها تساهم خاضعة لقوانين واحدة ، وكل فن لا يحيا ولا تقوم له قائمة إلا داخل الكيان الفنى العام وبامتزاجه بالفنون جميعها . فينجم عن ذلك تهاون فى الأساليب الخاصة . فالمعمار يصاغ ويصب كالنحت ، والنحت بالاضاءة المهدبة وبمزج المواد المختلفة يتخذ خصائص التصوير . وكما أن الجوقة الموسيقية على الرغم من تباين آلاتها ، تحركها فكرة واحدة فتنشئ الأثر الموسيقى المؤلف ، كذلك فى الفن « الشاذ » ، تعتبر الفنون من تصوير ونحت ومعمار ، آلات متنوعة تنصهر كلها وتتحد فى الأثر الفنى العام .

وفى القرنين التاسع عشر ، والعشرين ، حيث توجد مادة أغزر فى متناولنا ، نستطيع أن نتيين هذه الاتجاهات نفسها . ففى العصر الرومانتيكى ، ترجع الحدود بين مختلف فروع الفن للمرة الثانية إلى الإيهام الشديد ، ونلاحظ تغيرات من جهة ومن أخرى . ثم نلقى من جديد هذا التغير وذلك التبادل فى الوسائل الفنية بصورة ملحوظة جداً فى الفن التعبيرى *L'expressionnisme* .

والتصوير فى الرومانتيكية مثله فى التعبيرية ، يقصد إلى الإفصاح عن فكرة ؛ فالوسائل التصويرية التى هى بطبيعتها وجوهرها جعلت لتصف الأشياء وتقربها إلى الحس ، أضحت وهى ذات قيمة مجردة ، فصلت عن

إن هذا الامتهان ، أو إن شئت قل للتعبير عن هذه الظاهرة بعبارة ملموسة ، هذا الخلط بين الفنون لا يوجد فى الفنون التشكيلية وحدها فقط ، فالأثر الصحيح الكامل للأسلوب « الشاذ » ، الأثر الذى يجسم روح ذلك العصر ، أليس هو الأوبرا ، تنصهر فيه وتمتزج فنون

موضوعها الذاتي ، وأخذت ترمى إلى التعبير عن فكرة أو الترجمة عن شعور ، وصيغ اللون على حد التعبير إلى موسيقى (والدادائية Le Dadaïsme من جهتها تطمس الحدود بين الموسيقى والشعر ، وهي تكتسب أهميتها في نظرنا لهذا السبب نفسه) والقصة الحديثة أيضاً تأخذ عن الموسيقى منهاجها في التأليف ، فتبدو مثلاً قصص فولكنر Faulkner مؤلفة كسلسلة متتابعة من أصوات عدة ؛ ونجد هكسلي Huxley في قصة : « المتناقضات » Point Counter Point يسلك في إنشاء أثره الأدبي طريقة تلحين الأنغام المجتمعة المتعددة . ويجمل بنا على ما أظن أن نحلل هذه التجارب ، مستحضرين بحث ليسنج Lessing في موضوع « لاوكون أو عند حدود الفنون » ؛ ففي هذا البحث يضع عميد المدرسة الكلاسيكية الألمانية أسس الأسلوب ، ومن بين الفروض التي يذكرها ، يبدو أن أهمها هو الفرض القائل بتحديد الفنون ، وضرورة استقلال كل واحد منها ، فلا اختلاط ولا تداخل بين مختلف الميادين الفنية ، وتبدو جماعة لاوكون Laokon كثال لفن فاسد يثقل فيه الطابع المسرحي المؤثر على أثر كان يحسن به أن يكتفى بوسائل النحت ، ويظل مخلصاً لما يتوافر في تلك الوسائل من احتمالات جالية خاصة (فنحن نرى إذاً أن مبدأ التداخل بين فروع الفن ليس حديث العهد) .

وتؤدي بنا هذه الاعتبارات إلى اعتبارات أخرى تتصل كلها بالمسألة الرئيسية ، أعنى العلاقة بين مختلف الفنون . لقد رأينا أن أجيالاً بأسرها تصر على « خاصية » الوسائل الفنية ، وتحرص كل الحرص على إقامة السدود النظرية خشية أن يفيض وأن يطغى فن على فن مجاور له ، كما رأينا أن بعض الفنانين — من وجهة نظرهم الفردية — يتبعون هذه الخطة نفسها . وعلى تقيض ذلك ، ترفع هذه الحواجز وتحتفى عند بعض الفنانين وفي بعض العصور ، فتتصهر الفنون المختلفة وتتحد كلها في صورة من الجبال الجديدة . وهنا تبدو ظاهرة أخرى ، نود أن نسميها ظاهرة « الاستبدال » . ونحن نسأل : لأي سبب وبمحكم أى قانون دفين تظهر الفنون المختلفة في التاريخ على التعاقب ، تنبعث منها أشعة وضاءة ، ثم تحتفى ليحل محلها فن آخر ؟ لماذا ترتفع الموسيقى في بعض العصور إلى ذروة رائعة ، في الوقت عينه الذي تجتاز فيه الفنون التصويرية

والآداب حياة الخمول والبساطة ؟
 ماذا ترى يكون السبب الذى يحمل
 الفنان فى لحظة من اللحظات على اختيار
 هذه الوسيلة للتعبير بدلا من تلك ؟
 فمثلا يتفق ازدهار الفنون التصويرية
 فى القرن الخامس عشر فى إيطاليا مع
 كساد موسيقى يكاد يكون تاما ،
 هذا فى حين أن الموسيقى كانت مزدهرة
 فى هولندا . ولكن عندما أصيب فن
 التصوير الايطالى خلال القرنين
 السادس عشر والسابع عشر بالفساد ،
 تقدمت الموسيقى على رأس الفنون كلها
 تحت رعاية بالسترينا Palestrina
 وفى هذه الفترة نفسها ، ظهر فى هولندا
 جيل من الرسامين أوتوا موهبة خاصة
 أمثال رمبرانت Rembrandt وروبنس
 Rubens ، وفرمير Vermeer ،
 ورويسدايل Ruisdael . . . نشروا
 فى أنحاء أوربا كلها النفوذ الفنى
 الذى تميزت به بلادهم ، على أن الموسيقى
 التى كانت مزدهرة فيما قبل ، كادت
 تختفى اختفاء كليا . وهذه الظاهرة
 نفسها — ولا بد أن نسميها ظاهرة
 لأننا لم نعرف لها بعد قانوناً منظماً —
 هذه الظاهرة قد تبدت فى العصور
 الماضية . ففي النصف الأول من القرن
 الماضى سادت الموسيقى وساد الشعر فى
 ألمانيا فى حين ضعف فن التصوير

وقلت أهميته ، وفى النصف الثانى من
 هذا القرن نفسه ، بلغ الفن التعبيرى
 الفرنسى حدا يكاد يكون فريداً فى
 نوعه ، أما الشعر والموسيقى فقد تأخرا
 إلى المرتبة الثانية .
 إنها عجيبة حقا تلك الظاهرة ،
 ظاهرة الاستبدال ، وعجيب هذا
 التفضيل الذى يبدو فى بعض العصور
 لفن معين ، مع عدم الاكتراث بفن
 غيره ، إنها ظاهرة عجيبة نود لو عرفنا
 علتها . وقد يكون من السهل أن نفسر
 ازدهار الفنون على وجه العموم بعوامل
 اقتصادية وسياسية وجنسية . لا شك
 أن لهذه العوامل نصيبها ، ولا شك أن
 بعض الأجناس — ويفهم من كلمة
 الجنس معناها الجغرافى — تميل إلى
 الأخذ بوسائل معينة للتعبير . ونحن
 نعتقد أيضاً أن للألوان المختلفة من
 الإحساس ما يناسبها من ضروب الإنتاج
 العقلى . وعلى تقيض ذلك نجد العوامل
 السياسية الاقتصادية ذات تأثير
 مزدوج على حد التعبير ، فبقدر
 ما يكون صحيحاً أن فترات الرخاء
 والهدوء والاستقرار ينجم عنها ازدهار
 عقلى روحى ، بقدر ما يكون صحيحاً
 أن السنوات التى تحتد فيها الأزمات
 السياسية ، وتعرض فيها الأوطان
 للغزوات والاحتلال ، تحرك فى الشعب

نجزم بأن الروح السائدة في وقت من الأوقات تبدو بشكل متساو في جميع الفنون من تصويرية وأدبية وموسيقية ، بل الواضح أن لكل فن قانونه الخاص ونسقه الخاص ؛ والذي نلاحظه أن شكلاً من الأشكال الفنية يكون لسبب لا تزال نجهله ، في مقدمة الفنون ، وأن شكلاً غيره يكون متأخراً ، ثم ينقلب الوضع فجأة ، فيتقدم المتأخر ويصبح على رأس الحركة الفنية . ونجد أيضاً ، كما سبق أن أشرنا ، فترات تاريخية تبدو فيها كل الحدود ملغاة ، فنتبين خلالها تحفزاً مشتركاً وترعة واحدة ذات وسائل متعددة غير منتظمة . هل هذه الظاهرة التي تعاود الكرة خلال العصور دليل الانحطاط ؟ أم أنها تنبئ بمذهب في الجبال جديد ، أو ربما كانت حركة التوائية رجعية في مظهرها ، تطويرية في غرضها ؟ لا نستطيع لذلك جواباً . وعلى أية حال ، نعتقد نحن أن هذه الظاهرة ليست على الإطلاق نظرية فنية قابلة للجدل . إن وجودها وحده كاف لإقناعنا بها . وأما قيمتها الفنية فتتوقف على ما يصنع بهذه النظرية أتباعها .

ولهذا السبب نظن أن من حقنا أن نسأل أنفسنا هل انفصال الفروع

كل القوى الروحية الكامنة . فالكلاسيكية الفرنسية رمز واضح لفترة تاريخية عرفت بالتوازن التام ، في حين أن التعبيرية — وهي ليست أقل قوة من الناحية الفنية — تفتحت وازدهرت على الرغم من حرب ١٨٧٠ — ١٨٧١ التي لم تكد تمسها في شيء . ومن جهة أخرى نجد القوة الروحية في الرومانتيكية الألمانية كأنها نتيجة مباشرة للحروب النابليونية . وتكرر هذه الظاهرة في غير أوربا ، فالفن البوذي بلغ أجمل ما بلغ أثناء حكم الملك آزوكا الذي تميز بالعظمة القومية ، على حين لم يزدهر الشعر في الصين في يوم من الأيام ولم يرق إلى مرتبة من السمو كما ازدهر وسما في هذه الأزمنة الفاجعة حيث انتشرت المغامرات ، وتعرضت البلاد لغزوات البرابرة ، ودفعت بها الحرب الأهلية إلى الفوضى الصريحة . لذلك لا بد لنا من الاعتقاد أن ازدهار الفنون وازدهاءها يرجعان إلى أسباب وعوامل أخرى ، كما يجب أن نعلم أن القوى التي تولد عصراً زاهياً ، أكثر خفاء وأبعد غوراً وأشد تعقداً .

وعلى أية حالة ، لا يكون النمو في فروع الفن المختلفة على نسق واحد وفي سرعة واحدة ، ولا نستطيع أن

انفنية المتنوعة واستقلالها قضية أولية ، أم هو مجرد نظرية أخذت بها مدرسة من مدارس الجبال ؛ وسنضطر إلى العودة إلى هذا السؤال الذى يمس من قريب السؤال الذى ساءلناه أنفسنا عن المعنى السيكولوجى لهؤلاء نفر من الفنانين ذوى الموهبة المزدوجة . كانت ظاهرة العبقرية المزدوجة نادرة فى العصر الكلاسيكى الألمانى ، أى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وهى الفترة التى بلغت فيها عبقرية جيته ذروتها ، وكان جيته الوحيد الذى شذ عن هذه القاعدة . أما غيره من الفنانين — وكان شأنهم فى ذلك شأن ليوناردو دا فنشى Leonardo da Vinci فقد طرخوا كل أبواب الانتاج العقلى والروحى ، مدفوعين بمبدأ « الكلية » L'universalisme ولكن الفنان المزدوج الموهبة — الرسام الشاعر ، والشاعر الرسام — لم يكن له فى حقيقة الأمر وجود ، بل على النقيض ، كانت الروح الكلاسيكية ، ويمثلها ليسنج ، تصر على احترام الحواجز الفاصلة ، فكان ميدان الشعر وميدان التصوير فى ذلك الوقت منفصلين انفصالا محسوساً واضحاً . وقد خضع التقليديون الفرنسيون لهذا النظام نفسه ، فابتعد

عالم الصور عن عالم الأفكار ، وقل أن نرى كاتباً كلاسيكياً — فرنسياً كان أو ألمانياً — يدرس القيم التصويرية فى منظر طبيعى ، وقل أن نراه يصور لنا وجهاً بشرياً . إن الأثر الكلاسيكى مستقل قائم بذاته ، جوهره أدبى صريح . فاذا جاء العصر الرومانتيكى ، اختفت الحدود اختفاء يندر بالخطر ، واختلطت أنواع الفنون ، وكثر الفنانون من أصحاب الموهبة المزدوجة ، حتى لتكاد ترى الرسامين فى ذلك الوقت شعراء أو كتاباً . وسواء أكان الفنان الرومانتيكى فرنسياً أم إنجليزياً أو ألمانياً فهو آخذ بمذهب العمومية . ونستطيع أن نقول إن الأديب الفنان هو فتح من فتوحات الرومانتيكية (الرومانتيكية فى معناها الواسع ، أى التى تصور إتجهاً روحياً ، ولا ترمى إلى إنشاء مدرسة) . وبمجرد أن تطنى الحسية على العقل ، وبمجرد أن تتفوق الكلمة فى التعبير عن صورة من الصور يصبح الرسام كاتباً . وفى فرنسا يمتزج الرسامون والنحاتون والشعراء الرومانتيكيون امتزاجاً من القوة بحيث لا نجد غرابة فى أن يترك جوتييه Gautier معمله فى ريو Riault لينضم إلى جماعة البلاس رويال La Place Royale كذلك لانسطيع

أن تقول عن شاتيون Chatillon إنه عندما يصور أبرع منه عندما يكتب . وقد كتب بول هويه Paul Huet إلى بودلير في الثاني من سبتمبر عام ١٨٦٨ : « إن مصوري الطبيعة في أيامي يدعون جان جاك روسو ، وبرناردان دي سان بيير ، وشاتو بريان ، وجورج ساند . هؤلاء هم المعلمون ، هؤلاء هم المصورون . » وهم ليسوا مصورين بما أوتوا من أسلوب ، بل برغبتهم في أن يصبحوا فنانين . ويتمثل ذلك في قول فيني Vigny في مذكراته ، وقد شغف كل الشغف بالألوان والأحجام : « لو كنت رساماً ، لوددت أن أكون رفائيل من النوع الأسود » (وصفة السواد لازمة للرومانتيكية) . وبودلير ينفس عن مرضه في أشعاره وفي لوحاته القائمة الرائعة ، كما يحاول ميريمى Mérimée في كثير من الفن أن يثبت بالريشة ملامح كارمن . وقد ترك لنا فرومنتان Fromentin مناظر دقيقة الرسم رائعة ، في الوقت نفسه الذي ترك لنا قصة حياة دومينيك العاطفية ، وغير هؤلاء نجد موسيه Musset ويير لوتي Pierre Loti يسندلان غير مرة بريشة الرسام قلم الكاتب أو الشاعر .

وفكتور هوجو ، على وجه الخصوص ، مع كونه زعيم المدرسة الرومانتيكية ، قد ترك لنا أثراً تصويرياً جديراً بأن نغنى به أشد عناية . ويعتبر هوجو النموذج الأكبر للفنان الكاتب ، وذلك للطريقة التي يمتزج بها فن التصوير بآثاره ، وللأهمية التي يعلقها هو على هذا الفن ، الذي كان له شأن أى شأن في نموه ونضجه . كان هوجو دائم الكف بالرسم ، والكراسات الموجودة في متحف فكتور هوجو Musée Victor Hugo ، تشهد على ما كان من محاولات الطفل ، وهو بعد في الثانية عشرة من عمره ، في تثبيت بعض الرؤى الداخلية التي كانت تلازمه . ثم تأخذ الصناعة الفنية عنده في التحول والتطور ، حتى يتم لها هذا التطور فيما بعد شيئاً فشيئاً وبغير عنف . وعلى أية حال نجد هوجو يستخدم في كتابته نفس القلم الصلب الذي يستخدمه في رسمه ، ثم يستبدل به فيما بعد ريشة الاوزة ، وإن في أسماء أساتذته الروحيين لدلالة كبيرة : فهو يأخذ عن رامبرانت Rembrandt الظل والنور le clair-obscur ، ويقتبس عن جويا Goya هذه الصور البشرية التي تكتنفها الأسرار ،

إلا أن للمنظر الطبيعي المكنة الأولى في أثر هذا الرومانتيكي الحق . ومع أن البحوث الكثيرة تقيم الدليل على أن هوجو كان يدرس ويعمل وجهاً لوجه مع الطبيعة ، فإن الرؤى الخارقة المضطربة ، والأقاصيص المربعة التي ترويها له مربيته ، والرموز الغريبة هي التي كانت تلازم مخيلته : « برج الفئران » ، « المشنوق » ، « البرج القديم » ، « الموج » ، وغيرها من تصورات مروعة جاثمة تحت عنوان « مصيرى » *Ma destinée* . وهو ليله الشديد إلى التأمل ، ورغبته القوية في اجتلاء الأسرار ، كان يحاول أن ينتزع من الطبيعة ومن نفسه هو مايطويان من خفايا ، فيترجم عن تصوراته برموز تعرض له بالرغم عنه وكأنها صادرة عن عقله الباطن ، وهو يجتنب الضوء القوي ، ويختار الضوء الغائم ، ويبحث عن الظلال ، وهو لذلك لقب « ترتر » الليل *Le Turner de la nuit* .

ويجتهد هوجو في البحث عن وسائل فنية جديدة للتعبير عن إحساساته الخاصة ، التي لا تخلو أحياناً من الغرابة . وجاء له في خطاب لبودلير (سنة ١٨٦٦) : « انتهيت بأن استخدمت في رسومي الطباشير ، ويجتهد هوجو في البحث عن وسائل فنية جديدة للتعبير عن إحساساته الخاصة ، التي لا تخلو أحياناً من الغرابة . وجاء له في خطاب لبودلير (سنة ١٨٦٦) : « انتهيت بأن استخدمت في رسومي الطباشير ،

ومداد السبيا *La sépia* والفحم والهباب وكل المركبات الغريبة التي تستطيع أن تعبر على وجه التقريب عما يخالج بصرى وذهنى . » وقد استعمل هوجو البن نفسه .

وعلى أثر هجرته ، تقوى إحساساته وتلج عليه أشد اللحاح ، وتصبح حاجته إلى التعبير عنها أقوى ما تكون ، وفي لحظة من اللحظات يقترب من حدود ما وراء هذا العالم . فاسمعه يقول : « إنى أريد أن أترجم عما أرى في الظلام » . ويرى إميل برنار *Emile Bernard* أن هوجو كان يبحث فعلاً عن ارتسامات لأفراد لا زالوا على قيد الحياة فيما وراء الأثير ، وهو يجد تسلية في ملء مخطوطاته ببقعات الحبر ، رغبة منه في أن يستكشف من خلالها رسالات أو رموزاً تأتيه من العالم الآخر . (وقد يدفعنا ذلك إلى الاعتقاد أن أصحاب مذهب السيريالزم *Surréalisme* وجدوا عند هوجو مادة يقتبسون منها .) وكل ما تقدم قمين بأن يجعل من فكتور هوجو حالة لها أهمية عظيمة وشأن كبير . وإذا كنا أطلنا هذا التحليل وأسهبنا فيه ، فذلك لأن هوجو يعتبر إلى حد ما نموذجاً ، وهو مثال كامل للشاعر

الرسم . والطبيعة التصويرية visionnaire التي يتميز بها فنه ، والناحية الرمزية التي تتصل اتصالاً وثيقاً بذكريات طفولته ، كثيراً ما تقربه إلى الحالات العصبية المرضية névrose . ولكن لهذا السبب نفسه ، نجد أثره يكشف بسهولة عن هذه النفس الكبيرة المضطربة ، وما يضطرب فيها من نزعات عاطفية وثورات وجدانية .

ويتضح اهتمام الكاتب بالفن الشقيق — فن التصوير — من الناحيتين العملية والنظرية ، فقد طالت مناقشات هولدرلين Holderlin ، ونوفاليس Novalis وواكنرودر Wackenroder حول الأغراض التي يهدف إليها التصوير فيبتكر كل من تيك Tieck ، وواكنرودر — وهما من أول مؤسسي المدرسة الرومانتيكية — في قصتهما ، شخصية بطل رسام يجتهد في البحث عن فن جديد . إذ أن المدرسة الرومانتيكية تهدف فيما تهدف إلى إحداث تعديل في الدور الذي يلعبه الفن على وجه العموم ، فتتوالى النشرات ، التي على الرغم من إبهامها وتناقضها ، نستطيع أن نخرج منها بفكرة محورية ، وهي أن الفن قبل كل شيء مظهر من مظاهر الدين ، وهو الصورة المحسوسة لهذا الدافع المبهم وهذا الألم الملح الذي

ومع ذلك فما من مدرسة ساهمت أكثر من المدرسة الرومانتيكية الألمانية في هذا المزيج بين أنواع الفنون ، وساعدت على إنماء الثروة الأدبية . إن هذه الفترة التاريخية الخاصة بتخلق أو تجمع على رقعة من الأرض محدودة ، جيلاً من الفنانين أضافوا إلى نبوغهم الفني طابع الكشف البصري voyant ، وكلهم إما من المتصوفة وإما من المصابين بالخلل العصبي ، وهم لا يقيمون اعتباراً إلا لحرفة الفن وحدها ، ولا يهتمون أكتبوا أم صوروا ، فالأمر الذي يعنون به قبل غيره ، هو أن يترجموا عن هذا الشعور الحاد الذي يبعثه فيهم سر الحياة ، وأن يعبروا بالأخص عما يخفق ويدب وراء ظواهر المادة ، وهم يحسون به إحساساً

لا نعرف كنهه والذي هو أساس الشعور الرومانتيكي . والسبيل الوحيد إلى الخروج من هذا الألم المقيم والفرار من ذلك الضيق الحاد ، هو حالة النعمة الالهية ، هو الشعور الديني . فالى مثل هذه الحالة وذلك الشعور يتطلع الفنان، ومن هذه الرغبة نشأ ما يسمى بالحنين الرومانتيكي . وعلى ذلك يكون الرومانتيكيون من المتصوفة . وبطبيعة الحال لسنا نغنى بذلك أنهم يعتقدون عقيدة معينة أو أنهم يتبعون مذهباً حازماً مقررأ . فشعورهم الديني يجمع في الوقت نفسه بين الصوفية الكاثوليكية ومذهب وحدة الوجود الجرمانى Panthéisme . ويعودة الرومانتيكيين — عن طريق خفى — إلى القوى اللاشعورية ، تلك القوى التى أعقبت على التوالى مختلف الأشكال الدينية التى أخذ بها الانسان — بعودتهم إليها استطاعوا أن يصهروا كل هذه المذاهب ليرجعوا إلى الإحساس الأول . ألم يتغن هولدرلين Holderlin بالآلهة اليونانية! أو لم يبعث نوفاليس إلى الحياة الميثولوجيا الجرمانية ؟ والرسامون النازاريون Nazaréens ألم يأخذوا من جديد بالنظرة الساذجة العاطفية التى كان يتميز بها فرا أنجليكو Fra Angelico ، شأنهم فى ذلك شأن

سابقى الرافائيلية Préraphaélites الانجليز ؟ أو لم يعتنق الأشقاء شليجل Schlegel المذهب الكاثوليكي ؟

وقصة تيك Tieck ، وهى أول ثمرة من إنتاج الرومانتيكية الألمانية ، هى قصة الرسام فرانتز شترنبالد Franz Sternbald والأثر الرئيسى لهذا الرسام الهائم ، هو أثر دينى ، رسم واجهة هيكل لكنيسة جبلية ، إلا أن فرانتز ، عندما يعرض آراءه الفنية ، لا يتحدث إطلاقاً عن صناعة التصوير ، بل عن الاحساس الذى يريد التعبير عنه وعن الفكرة التى يرغب فى ترجمتها ، وهذه الفكرة هى لون من الكاثوليكية العميقة الحلولية Panthéiste فهو يريد كما أراد هوجو ، أن يعبر بوساطة منظر طبيعى عن « ذلك الشعور باللانهاية ، عن هذا الميل إلى ما هو إلهى ، وهذا الاندفاع السامى لنفس فى حالة الانجذاب Extase . » ويقول لنا فرانتز بصفة خاصة : « هلا استطعت يا صديقى أن تسجل هذه الموسيقى الرائعة التى أنشأتها السماء اليوم ؟ » . ويرى زلجر Solger ، شارح « الجمال » فى المدرسة الرومانتيكية ، أن الفلسفة والدين والفن ليست إلا وسائل متنوعة للتعبير عن نفس الاحساس الصوفى

في الانسان . ومن البين أن مبدأ «الكلية» يفرض نوعاً من التقارب ، وهو يبيح التبادل بين الأشكال المتنوعة لمختلف الفروع الفنية .

وفي إحدى الدوريات الرسمية الرومانتيكية أصدر ولهم Wilhelm وكارولين شليجل Caroline Schlegel تحت عنوان « لوحات » ، مقالا ضمنوه آراءهم في الفنون التشكيلية ، ويبدون فيه بكل وضوح هذه الفكرة : « يجب أن تقرب بين الفنون وأن نبحث عن وسائل الانتقال والتطرق بينها . فقد تتحول بعض آثار النحت إلى لوحات ، وقد تصبح اللوحات قصائد ، والقصائد تنقلب إلى موسيقى . ومن يدري ! فربما ارتفعت الموسيقى الكنسية الرائعة من جديد على صورة معبد مشيد في الفضاء . » ثم يعود ولهم شليجل فيكتب : « ليس نادراً أن تهب على الآثار العظيمة لكبار الشعراء روح من فن آخر . »

وكان هذا الموضوع من الموضوعات المحببة لتييك ، وكان دائم الرغبة في تناوله ، وهو يقول : « كيف لا يباح للمرء ، في هذا العالم المنقلب الأوضاع ، أن يفكر بواسطة الأنغام ، وأن ينشئ الموسيقى بالألفاظ والأفكار؟ آه ، يا إخواني الأعزاء ، إن أغلب الأشياء

في عالمنا هذا ، يلمس بعضه بعضاً أكثر بكثير مما تظنون . » والظاهر أننا لا نستطيع أن نطالب بدقة أن يكون هذا المبدأ الفريد أساساً لكل الفنون ، غير أن الرومانتيكيين توصلوا إلى ذلك ، « فليست الفنون وحدها ، بل العلوم كلها أيضاً ، هي التي يجب أن تتحد وأن تهدف إلى غرض واحد » . فالفنان « الكلى » universel هو في الوقت نفسه عالم . (وقد يحسن بنا أن نضع إلى جانب هذا الفرض فرض ليسنج الذي يتعارض معه كل التعارض .) وإذا كان الكتاب في ذلك العصر قد أطالوا التأمل والتفكير في فن التصوير وأعلنوا اختلاط الفنون جميعها نظرياً ، فقد حقق الرسامون فعلاً هذا الفرض . فنجد كل الرسامين الرومانتيكيين العظام على وجه التقريب شعراء نابغين ، والكلمة هي كلمة الرسام الشاعر قبل أي إنسان آخر . وأهم هؤلاء وأعظمهم كاسبار دافيد فريدريش Caspar David Friedrich ، وكان يجمع بين الفنين في درجة واحدة ، مثله مثل فكتور هوجو ، حتى لقد نسال أنفسنا لماذا ذاع صوتهما فيما بعد ، أحدهما كرسام والآخر ككاتب . ربما اختار كلاهما إحدى الموهبتين للاتصال بمحيطه — أي للاتصال

الرسمى—محتفظا كلاهما بالأخرى للتعبير عما أراد أن يكون سرًّا فيما بينه وبين نفسه . لن نعرف أبداً علة ذلك . ولكن الأمر الذى لا شك فيه أنهما أوتيا المقدرة على التعبير بالفن كإلهما وبنفس القوة على وجه التقريب .

وفريدريش Friedrich الرومانتيكى كان مثل فكتور هوجو شديد الكلف بالظلام ، وقد اختار الغسق عنصراً لفنه ؛ وهو كالفنان الفرنسى يميل إلى العزلة والحزن ، ويسعى وراء التصور الداخلى . وكانت الفرقة التى يعمل فيها مغمورة بالظلمة ، ولوحاته يسودها جو باهت داكن ، لا أثر فيها لتألق الألوان وازدهائها ، مع ميل واضح صريح إلى مداد السبيا Sépia . والغريب فى الأمر هو هذا الاتفاق بينه وبين هوجو على التعبير بوساطة المنظر الطبيعى عن شعور الألم والحزن ، وهو يحمل الطبيعة معنى رمزياً بعيد العمق ؛ فالمناظر التى يصورها لا تقرب من الواقع ولا تراها العين ، بل يشعر بها هو وينتزعها من قلبه انتزاعاً . وتتجلى ظاهرة العبقرية المزدوجة كذلك عند فيليب أوتو رونج Philippe Otto Runge وهو الرسام الذى تتمثل فيه الرومانتيكية الألمانية ، وقد اعتنق الحركة الجديدة عملياً ونظرياً . ولم يكن يعبر بالتصوير والشعر فحسب ، بل كان مثل تيك ، مقتنعاً كل الاقتناع بأن الوسائل التى يستخدمها الفنان للتعبير ، إنما هى من الأمور الثانوية . وقرأ له فى إحدى رسائله سنة ١٨٠٦ :

« إن هذه الاحساس بالاتحاد بين العالم وبيننا ، وهذه الغبطة وذلك الانشراح الذى نشعر بهما فى أعماق أعماق نفوسنا ، وهذا الائتلاف الرفيع الذى يهز فى نشاطه كل وتر من قلوبنا ، وهذا الحب الذى نستند إليه ويرشدنا عبر الحياة ، إن كل ذلك عينه هو الذى يعذبنا ويقلقنا ويشير فىنا الشعور بأننا نجتاز اللحظة الأخيرة من حياتنا ، وعندئذ تنشأ فى نفوسنا فكر جديدة ، نترجم عنها بالألفاظ أو بالأصوات أو بالصور . »

وفى نظر الرسام رونج كما كان فى نظر الكاتب تيك ، فكرة دينية تكمن وراء كل محاولة للإنشاء والابتكار . أما وسيلة التعبير فهى ضرورة من الضرورات . فلا ندهش إذاً عندما نرى تصوير رونج شاحباً عارياً ، تثقله الرموز ، وهو يضمن كل بحوثه الميتافيزيقية دراسة مستفيضة فى الرموز ، ينشئها فى صبر وأناة . ونتيجة ذلك أن الرسام رونج استطاع أن يعبر عن هذا « الائتلاف بين الكون وبيننا » ،

بوساطة الكلام خيراً مما عبر عنه بوسائل التصوير .

والأمر الجدير بالاهتمام ، أننا نلقى عند رونج هذا الاعتقاد العميق نفسه بأن الفن والدين ذات واحدة . حتى أننا قد نقول إن الحركة الرومانتيكية الألمانية ، هي قبل كل شئ مذهب ديني جديد ، (يعود فيه إلى الظهور فرض وحدة الوجود القديمة) ولا بد أن يكون التصوير في مثل ذلك العصر ضعيفاً ، يحد من قوته ما كان يفتقر إليه من وسائل التعبير ، وهو مضطر لأن يعوض عن هذا النقص وإلى أن يوسع ميدانه ، وأن يفيض على الفنون المجاورة ، وأن يقتبس عن الشعر والموسيقى ، الوسائل التي تساعد على أن يترجم بسهولة عن عاطفة من العواطف ، فكان الشعر والموسيقى يحملان إذن في العصر الرومانتيكي عبء الروحية كله ، وتبتكر الرومانتيكية أعظم آثارها في ميداني الشعر والموسيقى ، ويتأخر التصوير ، وتبدو أهميته في بحوثه أكثر منها في قيمته الفنية الخالصة . وتعود هذه الحالة إلى الظهور في إنجلترا ، فنجد أهم الرسامين أمثال دانتى جبريل روسيتي Dante Gabriel Rossetti ، ووليم بليك William Blake يتدربان على الشعر . وإذا كان روسيتي لم يتجاوز مستوى التصوير الرومانتيكي العام — وهو مستوى غير ذي قيمة تذكر — فليك يروعنابتخيلاته الهذائية التي نلمسها في لوحاته ، وهي في شعره أعنف منها في تصويره . وهذه التخيلات الجاثمة تقربه من هؤلاء الرسامين والشعراء الذين يعبر إدجار آلان بو Edgar Allan Poe أباً روحياً لهم . وباتهاء الرومانتيكية تختفي ظاهرة التلاقى والاستطراق بين الفنين ، تلك الظاهرة التي توجد الفنان الثنائي الموهبة . ويتميز النصف الثاني من القرن التاسع عشر بالواقعية R alisme التي تمر أولاً بالمذهب الطبيعي Naturalisme ثم تأخذ طريقها نحو المبدأ الانطباعي Impressionisme تاركة خلفها تلك الظاهرة التي تعتبر في نظرها ضرباً من الهواية . ويظهر مذهب روجي جديد تكون القيمة فيه للأسلوب والشكل والصناعة الفنية ، وسريعاً ما يكتسح المذهب الأول الذي كان ينصب اهتمامه على الاندفاعات النفسية الداخلية . ويقول الفنان الانفعالي : « إن الإلهام هو جملة مجهود أربع وعشرين ساعة . » ويصبح زولا ، وهو لسان الطبيعيين « الفن هو

الطبيعة » . وقد ترددت هذا العبارة مراراً حتى كادت تفقد معناها ، ولكننا إذا تأملناها عن قرب ، لمسنا الناحية غير الروحية في ذلك المبدأ .

ومن هذه اللحظة انفصل ميدان التصوير عن ميدان الشعر انفصالاً حازماً . وإذا غضضنا النظر عما كتب الفنانون من قصص حياتهم autobiographies وما أصدر بعضهم من رسائل عن فن التصوير ، فإنا نجد الرسام رساماً فقط وقبل كل شيء ، وسيزان Cézanne . يقصد مارجي Marguet في قوله : « ليس فيه إلا البصر ولكن يا له من بصر ! » وأسلوب هذا الزمن نتيجة مباشرة لماديته . ويصبح الفن المختار في تلك اللحظة ذاتها هو فن التصوير ، ويبتكر العصر أعظم آثاره في هذا الفن الذي هو إدراك مباشر حسي للكون . والانفعالية ، إذا مارست الوسائل المباشرة التصويرية البحتة ، وإذا تحرت الدقة في الصناعة الفنية ، فهدفها الوحيد هو استحداث صورة ملموسة ، موضوعية حسية لهذا الكون ، معرضة عن القيم العاطفية . والموضوع نفسه غير ذي أهمية ، والفكرة التي تكون من نتاج الخيال ، تستبعد لتأخذ مكانها في مجالها الخاص . ولا ينظر نظرة

الارتياح إلى هذا الرسام الذي « أعاد أربع عشرة مرة رسم صورة كومة من التبن » ، وقد استرسل في رقيات غامضة مستغلقة . ثم « الفن للفن » ، والغرض الوحيد منه هو استشعار اللذة عن طريق الحواس . (وقلما استطاع أسلوب أن يصل كما وصل هذا الأسلوب الجديد إلى الهدف الذي سعى إليه ، وحقق غرضه تحقيقاً كاملاً .)

ويدور الزمان الأزلي دورته ويعود عودته ، فينقضي هذا العصر ، ويأتي عصر جديد تستعيد العاطفة فيه حقها . لقد أفلست مادية القرن التاسع عشر إفلاساً فاجعاً ، وأصبح من المدرك أن خلف الظواهر ، في ميادين متنوعة ، قوة كامنة تفعل فعلها . وعقلنا غير كاف لادراكها . وقد زعزع برجسون وفرويد الايمان بالقدرة المطلقة لارادة الانسان نفسه ، وظهر من النشاط الخلاق الذي نادى به برجسون ، و« اللاشعور » الذي ابتدعه فرويد ، أنهما أمران لكل منهما كيانه الخاص ، ونحن عاجزون عن فهم تصرفاتهما والتحكم فيها .

وعلى أثر الشعور بالكارثة وتوقع الأزمة الشاملة للقيم القديمة ، أتى جيل جديد فألقى جانباً هذه القيم ، متحدياً بعنف كلا من العقل والمادية ، منطوياً

ويعتبر فان جوج Van Gogh سابقاً لهم ومتنبئاً ؛ لم يكن رساماً شاعراً ، بل نبيا فناناً ، وهو يمثل أصدق تمثيل نوع الفنان في ذلك الوقت ، ونجد هذا « المهدى » يسعى وراء الوسيلة التي يعبر بها عما يحمل من رسالة ، وما يفيض به من حياة ، وإلى جانبه أوديلون ريدون Odilon Redon ، وجيمس إنسور James Ensor وكلاهما رسام يدعى في الوقت نفسه الجلاء البصرى ، وكلهم يغترفون من دخائل نفوسهم مادة قههم ، ويبدعون صوراً من هذرهم وهذيانهم ، وكل واحد منهم شديد الايمان بأن له دعوة تصوفية يريد أن يبلغها . ولو شاء الفنان التعبيرى لقال كما قال رونج الرومانتيكى : « أغمضوا عيونكم عندما تصورون » . وبطريقة خفية يلتقى المذهب الرومانتيكى بالمذهب التعبيرى ، ولا شك أننا بعيدون كل البعد عن الاعتقاد أن الأمر بينهما لا يزيد عن مجرد الاستعارة والاقتباس ، والأحرى أن هذه الظاهرة تتم عن العودة إلى طور من أطوار الضمير الانسانى . فكل المذهبين يستعينان بالقوى الدفينة في اللاشعور ، وكلاهما أضعفا من شأن تحكم الارادة الواعية ، فساعدوا بذلك على انطلاق الاتجاهات اللاشعورية

على نفسه ، يبحث عن خلاصه في ذات نفسه . ما أشبهه في ذلك بالرومانتيكيين ! وما أشبه رسالته برسالتهم ! وتستبدل العناية بالشكل والأسلوب بمقتضيات الفن القديمة أى الانجذاب الروحى ، والنشاط الحيوى ، النشاط الابداعى الذى شرحه برجسون . وتظاهر الالهية فينا ، ذلك التظاهر الذى لا ندركه بغير إرادتنا . وقد نشأت الحركة التعبيرية في ألمانيا كما نشأت الرومانتيكية فيها ، والحركتان تتشابهان في أن للعاطفة فيهما الشأن الأول ، غير أن شخصية الفنان تتغير فجأة كما لو كان بفعل ساحر ، فنرى في ألمانيا: كوبن Kubin و كوكوشكا Kokoschka ، و فرائز مارك Franz Marc ، و اهرنشتين Ehrenstein و مونش Munch ؛ وفي فرنسا : كلوديل Claudel و كوكتو Cocteau ، وجوجان و بول فاليرى Paul Valéry ؛ وفي روسيا : شاجال Chagal وماياكوسكى Majakowski ، وكانديوسكى Kandinsky ؛ نرى كل هؤلاء يستخدمون القلم مرة والريشة أخرى ، ورسالتهم أشبه برسالة الرومانتيكيين فهي ضرب من النبوءة ، وهى بذلك تتجاوز حدود التصوير ومقتضياته .

انطلاقاً حراً . والحقيقة أن المنهج الكلاسيكي يتلخص في أن الرومانتيكية والتعبيرية ليستا إلا مظهرًا من مظاهر الرجوع إلى العاطفة عتب المذهب العقلي الموضوعي الذي كان سائدًا في الحتمية السابقة . وذلك يوضح للمرة الثانية ذلك الازدواج في الانسان الذي يترجح بينها نمو الفكرة الغربى ، ويرتكز في آخر الأمر عليها . لم نحاول مطلقاً أن نضيف قسماً جديداً إلى التقسيم الذى أقره علم النفس الحديث . غير أن شخصية الرسام الشاعر وشخصية الشاعر الرسام تختلفان اختلافاً أساسياً نستطيع معه أن ننظر إلى الأمر نظرتنا إلى نوع من الازدواج . وعلى أية حال لا يمكننا أن نرى في هذه الظاهرة مجرد لون من ألوان التبادل أو ضرب من ضروب الوفرة في المواهب . إن هذين اللونين من الشخصية يمان عن تباين إن لم يمان عن تعارض في الاتجاه الفكرى ، وكل منهما يطبع زمانه بطابع روحى متنوع ، مستحدثاً أسلوباً مختلفاً في التفكير والإبصار والشعور . وموجز القول أنهما أبدعا لكل عصر شخصية سيكولوجية خاصة به .

في الأوقات التى يطغى عليها الفكر المادى ، ويتجه الفن إلى الحواس أو العقل ، يصبح التصوير هو الفن المفضل الذى يوافق خيراً من أى فن آخر ، التعبير عما يجيش في العصر من روحيات . وازدهار هذا الفن يتوقف على نوع الرجل الذى ينتجه ذلك العصر ، وعلى الجو ، والبيئة الروحية التى تلائم غايات الفنون التشكيلية ووسائلها . وفن ذلك الزمن يخرج أولاً رسامين نابغين ولكنهم رسامون فقط ، والادراك المباشر واشتراك الحواس يكفلان ذلك . ونجد دليل ما نقول في التصوير الهولندى في القرن السابع عشر ، والأسباني أثناء حكم فيليب الثانى ، والفرنسى في القرن التاسع عشر . ويتخذ الشعر في تلك الأزمنة بصنعة استثنائية وسائل التصوير . ليس الشاعر هنا رساماً غير أنه يعنى بفن التصوير ، هذا إذا كانت شخصيته من القوة بحيث تفيض خارج ميدانها ، أو إذا كان يجمع إلى الطابع العقلى إرهاف الحواس ، ويمثل جيته أكل تمثيل هذا اللون من الشخصية السيكولوجية ، فالتجربة الحية الشخصية تتحول معه إلى تفكير ، بنفس السهولة التى يتحول بها التفكير إلى تجربة حية . والأثر الفنى يحتفظ دائماً بطابعه النفيس طابع الحياة والكلية ، الذى تبدو فيه جميع أجزائه مرتبطة إلى غير انفصال .

وحياة جيته يتمثل فيها هذا التوازن التام ؛ فقد اكتملت فيه كل الصفات اللازمة لأن يكون وزيراً أو عالماً ، شاعراً أو فيلسوفاً . ولكننا إذا استثنينا جيته ، نجد أن هذه العصور لم تكن لترتاح إلى اختلاط الفنون بعضها ببعض ، وكان جيته فريداً في زمانه . والرسامون المعاصرون لمربرانت والمعاصرون لسيزان يعتبرون القول أمراً زائداً لا داعي له . ووسائل التصوير هي الوسائل المناسبة التي هيئت للتعبير عن معنى الحياة الواقعية الموضوعية .

ولكن عندما تطالب المدرسة الرومانتيكية هي والمدرسة التعبيرية بجعل العاطفة والوجدان أساس كل إنتاج ، وعندما يسعى الأثر الفني في التعبير عن عاطفة لا في نقل الطبيعة ، وعندما يستدعى الأمر أن يبث الفنان قلقه وأن يبكي بأسه ، هنالك يسود القول ، القول المفعم بتأثيره السحري ، هي السكرة تسرى بفعل الرق ، والنشوة يهتز بها الذهن . ذلك هو زمن الشعر . وبما أن التصوير يكون الدافع إليه موضوعياً ، فهو غير جدير بأن يستوعب إحساس الفنان المباشر الواقعي للأشياء . ينطوى الفنان على نفسه ، وهو إذا أراد التعبير عن هذه العواطف المختلطة

المضطربة وجد وسائل التصوير غير كافية ، بل وجدها عاجزة عن أن تترجم العاطفة في انطلاقها وفي طابعها المؤثر . وصفة الاستقرار على وجه الخصوص في هذه الوسائل لا تتفق مطلقاً مع الحركة التي تتميز بها روح العصر . ومن ثم يستعين التصوير بالقول . إن الفنان في الأزمنة الرومانتيكية هو شاعر قبل كل شيء ، والرسامون كذلك هم شعراء ، وفي ظنهم كلهم أنهم المصطفون *les élus* . وإذا أردنا تبسيط المسألة ، قلنا إن ازدواج الشاعر الرسام والرسام الشاعر تملخص في هذا التعارض : إنها تمثل حالتين من حالات الزمن ، أو بالأصح حالتين من حالات الإنسان . فالفنون التشكيلية توافق فكرة عصر مادي يميل إلى واقع ملموس موضوعي . والشاعر وإن ظل شاعراً ، يستطيع أيضاً التعبير بوسائل التصوير . ولكن الأمثلة لذلك نادرة ؛ لأن العصر يتطلب احترام الحدود الروحية ، وبالعكس في الأزمنة التي تكون الأسبقية فيها للخيال والعاطفة ، وتكون السيادة فيها للشعر ، يشعر الفنان بقلّة وسائله وضعفها ، فيستعين بالقول والمقابلة : شاعر رسام ورسام شاعر ، يعبر عنها تعبيراً أصح إذا قلنا : شاء

يمارس التصوير إلى جانب الشعر ،
ورسام شاعر بكل معنى الكلمة . وهذه
الظاهرة الأخيرة تتجاوز حدود المسألة
الفنية الخالصة . وهي تمس قوى
إنسانية أكثر غموضاً وإبهاماً ، وهي
تتصل بالغريزة الدينية ، ولذلك توضع
في الاعتبار السيكولوجي . فما عسى
أن تكون العلاقة بين هذه الظاهرة
والمظاهر الأخرى للنشاط الروحي عند
الانسان ؟

لقد استطعنا أن نلاحظ أن مسألة
اختلاط الفنون بعضها ببعض تقرب
من مسألة العاطفة الدينية . وعند
دراستنا لهذه الظاهرة ، لم نشعر بهذه
الحاجة تؤثر تأثيراً عنيفاً في تطور
أسلوب من الأساليب أو في ما تصير
إليه شخصية من الشخصيات الانسانية .
في تلك اللحظات التي يكون الاتجاه
الروحي فيها — لسبب غامض —
مشرّباً بصوفية حادة دائمة العنف في
الانسان ، يصبح الفن صورة من صور
الدين ، ونشاطاً ميتافيزيقياً ، ويضحى
الفنان من القوم المختارين الذين
حملوا رسالة عليهم أن يؤدوها . في
هذه الحالة تصبح الوسائل من الأمور
الثانوية ، ويستخدم كل شيء للتعبير
عن الانخراط الروحي . تختفي معالم
الحدود ، وترتفع الحواجز . فقد أنجز

وتم الأثر الفني الشامل . ويظهر
الرسام الشاعر ، والفنان المتعدد النشاط .
وأوجه النشاط هذه هي نتيجة الانفعال
الديني . وسواء أكان ذلك في
الرومانتيكية أو في التعبيرية ، فإن
الرسام الشاعر يظهر عندما تستعيد
الغريزة الدينية مكانتها . فلا يعود
الفن لوناً من ألوان التلذذ الحسي ،
بل يكون « فعلاً » دينياً .

ولا شك أن عذرنا معنا إذا كنا
— لهذا السبب — نتابع استنتاجاتنا .
نحن نعلم أن أول إنتاج فني عند
الانسان لم يكن متصلاً اتصالاً وثيقاً
بالعاطفة الدينية فحسب ، بل كان
الصورة التعبيرية الوحيدة لها . وفي
تلك الأزمنة البعيدة بلا شك كان من
المستحيل أن تفصل الأثر الفني عن
الدين ، ونحن مضطرون أن ندعو ديناً
كل معتقد ، سحراً كان أو روحانياً
animiste أو طوطمياً totémiste .

والأثر الفني في هذه الأوقات هو
في الوقت نفسه أثر معتقد أشد التعقيد ،
سواء في ثروته الوجدانية أو في طرق
تعبيره . والحقيقة أن كل ألوان الفن
كان لها نصيب فيه : من رقص ورقيات
وموسيقى ، وتصوير ونحت وتمثيل .
كانت هذه الفنون في جملتها تصهر
معاً وتستخدم في التعبير عن هذا

الشعور الذى يدب فى مناطق من الحياة الروحية ، لم يسر غورها ولم توصف بعد ، فى منطقة نائية حيث استقرت بذرة خفية تتطلع نحو النور . فى هذا الزمن الذى كان الانسان فيه مستسلماً كله لعاطفة مثيرة مقلقة ، وهو يجسم هذه العاطفة ويثبتها فى أثر ، ندعوه أثراً فنياً ، هل كان لفروع الفن المختلفة وجود ؟ نسأل أنفسنا هذا السؤال ونحن نعلم أن جوابنا عليه بالنفى . إن تبويب أوجه النشاط الفنى المتنوعة كان غير مستطاع لأنه لم يكن موجوداً . كانت الفنون على تباينها ممتزجة ، متضامنة ، مشتركة فى الأثر الفنى ، ونحن نعتقد أن هذا التصنيف المطبوع بالطابع المدرسى الصريح ، هو نتيجة استقلال الفن . وهذه

الظاهرة على أية حال جاءت متأخرة . وهى ليست من الأوليات بل هى تصنيف صناعى ، وفرض من شأنه أن يقتلع إلى حد ما الجذر الحية للابتكار الفنى . وهذا التصنيف يظهر فى هذه اللحظة ، التى حرر فيها الفن وتخلص من هذه العلاقات الأصلية وأصبح مستقلاً عن الدين ، يكفى نفسه بنفسه فى بحوث تتعلق بالجمال .

ولكن إذا عاد الابداع الفنى ، لأسباب مجهولة بعد ، إلى مصاده الطبيعية ، وإذا عاد الفنان إلى ادعاء النبوة والرسالة ، فسيستعيد الفن لونه القديم ، ويتجه إلى التأثير فى حواس الانسان ، ويستخدم من جديد كل وسائل التعبير ، ويصبح كما كان فى أول نشأته شاملاً ومعقداً .

لغباريه زالوش

تقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكيم

شهرية السياسة الدولية

ساد الشهر المنقضى فى ميدان السياسة الدولية ثلاثة حوادث جسام : مؤتمر وزراء الخارجية فى موسكو ، ومضاعفات بيان الرئيس ترومان عن المساعدة المالية لليونان ، وعودة الجنرال ديغول إلى الميدان السياسى

مؤتمر موسكو

أما مؤتمر موسكو فقد انتهى بعد شهر ونصف شهر إلى ما كان النقاد السياسيون قد انتظروا انتهاءه إليه قبيل انعقاده . وكانوا قد انتظروا نجاحه فى المعاهدة النسوية وإخفاقه فى المعاهدة الألمانية . لكن هاتين المعاهدتين وإن كانتا هما موضوع المؤتمر فى دورته المنقضية ، لم تكونا هما بالذات مظهر الجو الذى ساد المؤتمر ومظهر الدلائل على ما يكتنف العلاقات الدولية من ملابسات . إنما هى المواقف التى وقفها وزراء الخارجية بعضهم قبل بعضهم الآخر التى تحمل تعاليم ما يتلمسه المعقبون . وقد كانت تلك المواقف مؤذنة من اللحظات الأولى بانتشار روح الشك وإساءة الظن ، ولا سيما بين الوزير الأمريكى من ناحية والوزير السوفيتى من ناحية أخرى . وكان طبيعيا

أن تنتشر تلك الروح منذ انعقد المؤتمر لأن الرئيس ترومان قد قذفه بعد ثمان وأربعين ساعة من افتتاحه بقنبلة يئانه عن المساعدات المالية الأمريكية لتركيا واليونان وبما تضمنه البيان من إشارات صريحة إلى أن الاتحاد السوفيتى هو المقصود من تلك الاجراءات بالذات .

وقد دلل على تلك الروح — إذا كانت هى فى حاجة إلى التدليل — ما أحاط بمقابلة المارشال ستالين لوزير الخارجية الأمريكية من ملابسات ؛ فقد كانت هى آخر المقابلات التى جرت بينه وبين وزراء الخارجية المؤتمرين ، وقد جرت بعد وقت قليل إنه انقضى فى التردد ، وفى تحديد شروط الاجتماع وما قد يدور فيه من حديث .

والى هذه العلاقة التى خيم عليها ماخيم من عدم الثقة المتبادل، استطالت الأحاديث على غير جدوى بين الجانب السوفيتى والجانب البريطانى حول تعديل معاهدة التحالف المعقودة أثناء الحرب تعديلا يتمشى مع الحالة الجديدة التى خلقها فى الميدان الدولى قيام الأمم المتحدة ووجود ميثاقها العتيد .

وحتى المعاهدة النمسية التى انتظر المعقبون لها وحدها النجاح بين أعمال المؤتمر، لم يكن التوفيق فيها أمراً ميسراً . فقد تضمن تقرير وكلاء وزراء الخارجية الأخير عنها اتفاقهم على ثمانى نقط واختلافهم على ثلاث . وكانت النقط التى اتفقوا عليها هى موضوعات مجرى الحرب ، ونقل الأشخاص الذين هم من أصل ألماني من النمسا إلى ألمانيا ، وجلاء القوات المتحالفة عن النمسا ، وإعادة الممتلكات النمسية التى أخذها الألمان من النمسا إليها ، ورفض مطالب النمسا من الأمم المتحدة ، وممتلكات النمسا فى بلاد الحلفاء ، والعقود المبرمة بين النمسا وألمانيا ، والممتلكات الفنية والأدبية والصناعية . وكانت المسائل التى اختلفوا عليها مسائل

الحدود ، والأشخاص المشردين ، والديون النمسية .

وقد قوبلت تلك النهاية التى انتهى إليها مؤتمر موسكو حتى كتابة هذه السطور بنوع من خيبة الأمل فى إنجلترا ، ونوع من الغيظ فى أميركا ، ونوع من الألم فى فرنسا ، وإن لم يصدر إفصاح عن هذه الأنواع بصفة رسمية إلا عن إنجلترا . فقد صرح مصدر رسمى فيها بأن « وزارة الخارجية البريطانية تشعر بخيبة الأمل للاخفاق الذى منى به مؤتمر وزراء الخارجية فى موسكو فى الوصول إلى اتفاق على أية مسألة من المسائل الكبرى ، وإن كانت بريطانيا تعتبر هذا المؤتمر كخطوة أولية لتسوية بعض المشاكل ، ولم تكن تتوقع أن يصل المؤتمر إلى أية تسوية نهائية للمسائل المعروضة عليه باستثناء مسألة النمسا » . واستطرد المصدر يقول : « إن الحكومة البريطانية لا تتوقع إمكان الوصول إلى أى اتفاق شامل فيما يختص بالمسألة الألمانية فى هذه الدورة من المؤتمر ، وإنه ليس هناك ما يدل على أن بريطانيا تنوى إدخال أى تعديل على سياستها فى ألمانيا أو سياستها الخارجية عموماً » .

مضاعفات بيان ترومان

وأما مضاعفات بيان الرئيس ترومان عن المساعدة المالية التي يقترح تقديمها بشروط لتركيا واليونان فقد ظهرت في أكثر من ميدان داخلي وخارجي ودولي .

ففي الولايات المتحدة ذاتها قامت في وجهه معارضة من جانب بعض الشيوخ الذين رأوا فيه خروجاً على ميثاق الأمم المتحدة أدت إلى تعديله بحيث أضيفت عليه صفة الوقتية المعلقة على استطاعة المنظمة الدولية القيام بالمساعدة المقترحة .

وفي تركيا قام اعتراض على شرط الإشراف على طريقة التصرف في المساعدة المالية ، إذ اعتبره الأتراك تدخلاً في صميم السيادة التركية وإعلاناً لعدم الثقة في الإدارة التركية ، وهما ما لا يقبلونه .

وفي أوروبا يتنقل مستر والاس نائب رئيس الولايات المتحدة في عهد روزفلت ووزير التجارة المستقل لخلاف بينه وبين وزير الخارجية السابق على سياسة أميركا الخارجية ، مهاجماً بيان الرئيس ترومان في مقالات يكتبها وخطب يلقيها . وقد وقعت بينه وبين مستر تشرشل مشادة أبرزتهما في موقفين متناقضين التناقض كله . وقد شاء مستر تشرشل أن يصف مستر والاس بأنه « شيوعي متستر » وقد رد مستر والاس على مستر تشرشل بأنه « عامل للحرب متستر » وتدخل في الميدان مستر ايليوت روزفلت نجل الرئيس روزفلت ، إذ خطب في اجتماع عقد تحت رعاية « المواطنين الأميركيين التقدميين » بمناسبة ذكرى والده وحضره سبعة آلاف شخص ، فوصف مستر والاس بأنه « مسيح سياسي » ذو بصيرة نافذة وعلى خبرة تامة بحلول السياسة العالمية والأميركية . وقال إن الوكيل السابق للولايات المتحدة لا يهدف إلى شيء سوى السلام العالمي ، وإنه يحضّر شعوب العالم على مساعدة الشعب الأميركي في إجبار ساسة تلك الشعوب على الرجوع إلى مبادئ فرانكلن روزفلت .

وفي مجلس الأمن طلب الاتحاد السوفيتي معارضة المساعدة التي انطوى عليها بيان الرئيس ترومان لأنها منطوية في نظره على مد اليونان بأسلحة قد

تفضى آخر الأمر إلى تعريض السلم من العالم وما يقتضيه من حماية لتخوم والأمن الدولى فى جنوب أوربا الشرقى اليونان الشمالية أو الغربية إنما هو لنوع من الخطر . فرفض المجلس طلب الاتحاد السوفيتى من حيث المساعدة ، لكنه قرر أن حفظ السلم فى تلك الناحية من يجوز أن تستأثر به دولة أو اثنتان أو أكثر .

عودة ديحول إلى الميدان

وأما عودة الجنرال ديحول إلى الميدان السياسى الفرنسى فقد تجلت إثر خطب ألقاها لمناسبة ذكرى التحرر وهاجم فيها الدستور الفرنسى الجديد ودعا الفرنسيين إلى « التجمع » قصد تعديله . وهو إنما يعيب على الدستور الجديد تضيق سلطان السلطة التنفيذية عن طريق إخضاعها الكامل للجمعية الوطنية ، وإفساد التمثيل القومى عن طريق « الانتخاب بالقائمة » أى تمكين النظام الحزبى وطغيانه على إرادات الأفراد . وقد انبرت الهيئات الفرنسية لمقاومة الهجوم الذى شنه الجنرال ديحول على النظام الفرنسى القائم . فعقب على خطبه رئيس الوزارة الفرنسية والرئيس السابق بلوم ، وهما من أساطين الاشتراكيين ، وعقب توريز وهو السكرتير العام للشيوعيين، كما تناولت الصحف الموقف بالتعليق الجدى .

لكن الجنرال ديحول قد مضى فى سبيله ، وافتتح مكاتب لتسجيل أسماء أنصاره والتابعين ، فبلغ عددهم فى إحصائهم الأخير ثلاث مئة ألف . وهو بالنسبة لملايين الناصحين الفرنسيين عدد ضئيل ، وإن كان بعض المعقبين يخشون — إذا لم تتدارك الأمور — أن تنقلب الحركة الجديدة أداة عدم استقرار فى الكيان الفرنسى الداخلى .

محمود عزمى

شهرية المسرح

الروايات الختامية للفرقة الفرنسية

مطلع نجم عظيم

شهدنا هذا النجم منذ بداية الموسم وبلغ الموسم منتصفه . ثم عرضت الفرقة يلمح في الحين بعد الحين لمحات بارقة خاطفة ، في قصة بول جيرالدى

التحليلية الظرفية « لو أنى أردت » ، ثم في تلك المساة الرائعة القوية الزاخرة بالروح الشعرية والفكرة العالية الفلسفية التي أسماها مؤلفها جان جيرودوباسمها الغامض المتناقض « لن تقع حرب طروادة » .



عظيم » . وهنا بعد لحظات قصار من البداية ، سطعت ميشيل ألفا النجم المتألق سطوعها العظيم . هنا انتفضت عن قوة كامنة انفجارية لم تدع من الشهود السامعين كيئاناً مهما تكن صلابته إلا زلزلته ، ولا

وكان هذا النجم يتألق فيجذب الأنظار ، ولكنه لم يكن يستأثر بها طول الوقت . لقد كان في الفرقة التي تحيي ذلك الموسم الفرنسي على مسرح دار الأوبرا الملكية أكثر من نجم متألق في منظومتى الرجال والنساء . قلباً مهما يكن بروده وجموده إلا هزته ، ولا نوطاً من نياطه إلا مزقته . هي هنا في دور الفتاة المشبوبة التلب ، العارمة الحب ، ولم يكن حبها حلاًماً من أحلام العذارى بالزواج فحسب ، بل هو حب عظيم لأنها كانت

تحب في حبيبها الحب نفسه . ولقد هبطت عليهما دوقه حسناء من ذوات الخطوة في البلاط الملكي كما تنحط الداهية غير مرتقبة ولا مستنظرة ، فنازعتها هذا الحب ، واستعانت على ذلك بما تملكه من نفع للفتى وشفاعة لأسرته وكانت من الأسر المغضوب عليها المبعدة من بلاط شمس الملوك لويس الرابع عشر . وتتجسد ميشيل ألفا شخصية الفتاة كلود في بساطتها وطهارتها وقوة طبعها التي نفردتها عن عامة البشر . وهنا تظهرنا المثلة العظيمة في أسارير وجهها ولحمة عينيها وحركة جسمها المشدود الأعصاب ونبرة صوتها المنفعل الكظيم على مبلغ ألمها الغاضب وحدة غضبها الأليم . ويغلو بها الألم ويشد قبضه على مخنقها فتتحصن منه أحياناً بالتهكم المرير . وهي تبدو في ذلك جميعه وكأن نفسها تستعذب الألم الذي تلغنه .

ولعل أروع المواقف التي وقفها ميشيل ألفا وألجعتها ، هذا الموقف الذي أبت فيه الفتاة أن تعتمد الغض من غريمتها ونجس قيمتها للغلبة على قلب من تحب والظفر بإيثاره . فهذه خطة ترتضيها محظيات البلاط ويبلغن بها المراد . ولكن فتاتنا لا تحفل النجاح وإنما مطلبها الحب في تمام صدقه وكماله . ومن

أجل ذلك اختارت الموقف الذي تتجلى فيه عظمة نفس المحب في إذلاله النفس العزيزة أمام المحبوب ، إنها ستبكي بالدموع الغزار الحرار بين يديه وستصف له مبلغ حبها له ومقدار هيامها به .

وليس مثل ألفا في تحميلها الجمل القصار أبلغ المعاني المؤثرة الكبار . وما أنس لا أنس صوتها تصيح بغريمتها التي تم لها الظفر بمن تحب : « إذهبي فالحق به . إذهبي فالحق به . » صيحة مفاجئة فيها قوة ، قوة اليأس كله .

ثم حوارها مع صديقها الشاعر الكهل في ختام الفصل الثاني وقد ضاع كل رجاء :

هي : « من أجلك عدلت عما كنت عليه عازمة . »
هو : « ليكون لك على ذلك حسن الجزاء . »

هي : « من يجزيني ؟ ...
يجزيني الله ؟ »

هو : « أرجو ذلك . »
هي : « ولكنه لم يشأ هذا الذي جرى . . . إنه لأحرى بعدله أن لا يحيط علمه بما جرى الليلة هنا . »

وأخيراً — في الفصل الأخير —

تتحقق الفتاة أن الفى لا يزال يحبها على الرغم من زواجه بغيرها . فترضى بما قسم لها ، ويعاودها الايمان بالعناية ويعمر نفسها :

« لقد ساورتني الشكوك ، وصدر منى فى حق الله تعريض وتجديف ولكنه هو الوهاب الكريم الذى حبانى بهذا الحب ، وهو الذى جعل هذا الحب عظيماً حتى خرج من أحبيته بنصيب منه . »

وتأمر بأن تغلق عليها أبواب القصر لتخلو فيه بقلبها الكايم وحبها العظيم .

ويهمس صوت بين المغتبط والحزين ، صوت الفتاة ميشيل ألفا عميق الرنين ، بهذه الكلمة ، كلمة الختام ، وقد خيم فى القصر الظلام :

« لم يبق لى بعد هذا أمنية أتمناها لقد بلغت ما أردت . »

وتنزل الستار بين عاصفة من التصفيق والتهليل لم يسبق لها مثيل . ويخرج المتفرجون وهم أجمعون لا يزالون تحت تأثير ما شهدوه مهتاجي النفوس جياشى الشعور . وذلك جله ، إن لم يكن كله ، من فيض هذه المرأة ، هذه الجنّية العبقريّة

ميشيل ألفا . فلقد كانت مع إجادة من حولها من المثلين والمثلات كافة ، هى المسيطرة على المسرح حتى فى فترات غيابها عنه .

ولقد أقسم من أقسم أنها فى هذه الرواية قد استولت على الأمد وجرت إلى النهاية ، وبلغت الغاية التى ليست وراءها غاية . وأحسبني كنت من المقسمين . فلما أن شهدتها بعد أيام معدودات فى مسرحية بول كلوديل « البشرى المبلغة إلى ماري » ، ونظرت إليها فى أطار فيولين المتسلاة القديسة بعد أن كانت كلود العاشقة الواهة ، عجبت لها كيف خرجت من صورة إلى صورة ، فى هذا اليسر وهذه السهولة .

ثم لم ألبث أن رأيت ما لم أقض . منه العجب : رأيتها هى التى عهدتها قد انتهت إلى أبعد الغايات — تمضى فى التفوق وراء ذلك أشواطاً ، حتى لقد فاقت نفسها أضعافاً .

هذه هى ميشيل ألفا . وإني — وايم الحق — لا أزخرف القول حين أقول إنى كنت أشهداها فى هاتين الروايتين وكأنى أشهد فى السماء عن كشب مطلع نجم عظيم .

شهرية السينما

سعادة منتصبة (شركة إخوان وارنر) (١)

والمعجبون بفن بيت دافيز التمثيلي وجدوا في هذا الفيلم ما راقهم واستمال نفوسهم . فهي تضطلع فيه بدورين مختلفين كل الاختلاف ، وقد أدتهما رغم اختلافهما وتباينهما أداء متقناً لم نألفه إلا من القليل من ممثلي هوليوود . لقد أعجبنا بها في دور الفتاة الطيبة الطوية الرقيقة الاحساس المأدبة الأخلاق ، كما أعجبنا بها أيضاً في دور الفتاة التي تميل إلى الدعابة واللهو والمجون . فمع هذا البون الشاسع الذي يفصل بين الشخصيتين لقد أجادت بيت دافيز في إحيائهما . وهي في سبيل ذلك بذلت مجهوداً خليقاً بالثناء يسر لها الانتقال من شخصية إلى شخصية دون أن تسبغ على إحدى الشخصيتين صفات الأخرى . فبيت دافيز في دور بات المأدبة تختلف كل الاختلاف عن بيت دافيز في دور كيت الوديدة . وقد يكون تمثيلها وحده هو العامل الأساسي لنجاح هذا الفيلم الذي يقدم

لنا قصة هاتين الأختين اللتين تنازعتا رجلاً واحداً . لقد كانت كيت تحب الشاب بيل إمرسون حبا عظيماً ، وكان الشاب يبادلها هذا الحب حتى علمت بات أخت كيت التوأم بأمر هذا الهيام ، فتقربت إلى بيل وتسلطت على حواسه فانقاد لها وأسلم نفسه إليها ، وسرعان ما نسي غرامه وتزوج من هذه الفتاة المأدبة . وكيت كانت في حالة يأس شديدة مما يجري حولها ولا تجد سلوى إلا في الرسم الذي كانت تهواه . على أن زواج بيل بات لم يكن زواجاً موفقاً . فالمرأة لا تعرف الاخلاص بل هي تؤثر اللهو والمجون . فقد جعلت لنفسها عدداً كبيراً من العشاق حتى اضطر الزوج إلى الانفصال عنها وإلى طلب الطلاق منها . ثم تموت بات في عاصفة في عرض البحر ، وتنجو منها كيت بأعجوبة . وشاءت الأقدار أن يوجد في يد كيت خاتم بات . فيعتقد الكل أنها بات . فها هي ذي فرصة

لكيت لتظفر بحب بيل وتعيش معه كزوجة . لم تكن كيت تعلم بما جرى بين الزوجين من شقاق أدى بهما إلى الانفصال . ومهما تبذل كيت من مجهود ومهما تكافح في سبيل حب بيل الذي يعتقد أنها زوجته ، لاتنجح في استرداد سعادتها المغتصبة . ولكنها أمام إخفاقها في محاولتها تلوذ بالفرار وتعود إلى منزلها . غير أن الشك كان قد وجد سبيله إلى بيل ، فهو لم يعتد هذه الأخلاق السامية من بات ، فيدرك محاولة كيت ويلحق بها ليعيش معها .

والقصة متقنة الحبكة ، منطقية الحوادث ، حتى إنها أخرجت مرتين في السينما ، وكانت الممثلة الانجليزية اليزابيث برجنر تقوم بدور الفتاتين في أول مرة . إلا أن خاتمة القصة غير محتملة الوقوع ؛

وإخراج القصة لا يخلو أيضاً من إتقان ؛ فقد غنى المخرج بتفاصيل دقيقة في المناظر ، وقد أجاد في تصوير العاصفة البحرية حتى أسبغ على هذا المنظر طابعاً واقعياً جعل المشاهد في لهفة شديدة . وقصارى القول أن هذا الانتاج جدير بأن يعد من أحسن إنتاج هذا الموسم تمثيلاً وإخراجاً .

الوطن (أفلام راؤل بلوكان) (١)

وفيلم «الوطن» مقتبس من مسرحية تحمل العنوان نفسه كتبها فيكتوريان ساردو في ١٨٦٩ وهي تدور حول ثورة هولندا على أسبانيا التي كانت تحتلها سنة ١٥٦٨ في عهد فيليب الثاني ملك أسبانيا ونصير الكاثوليكية في أوروبا . كان الدوق دالب يحكم بروكسل حكماً إرهابياً ، مما ولد في قلوب المواطنين البغض له ولأسبانيا ودفعهم إلى الكفاح في سبيل استرداد حريتهم واستقلال

بلادهم . وكان يرأس حركة المقاومة في المدينة الكونت دي ريزور وهو أحد النبلاء الهولنديين . وفي ذات يوم أتهم الكونت بأنه توجه ليلاً إلى معسكر جيوم دورونج . ولكن يتقنه من هذه التهمة شهادة ضابط أسباني يقيم عند الكونت ؛ فقد قال هذا الضابط إنه رأى ريزور خارجاً عن حجرة امرأته في تلك الليلة . وبما أن ريزور كان في معسكر جيوم دورونج في هذه الليلة فقد أصبح على يقين من خيانة امرأته الأسبانية دولوريس . أما عشيقها فهو الشاب كارلو الذي كان موضع عطف الكونت وأحد رؤساء حركة المقاومة في المدينة . وكارلو لا يريد أن يضحي باستقلال بلاده في سبيل إرضاء نزوات عشيقته وقد كانت تريد أن تهرب معه في الليلة التي كان جيوم دورونج على أهبة الهجوم على المدينة ليخلصها من المحتلين ويرد إلى شعبها الحرية . فتفكر دولوريس في خيانة زوجها لاحقاً في أسبانيا ، بل حباً في الحب ، فتذهب إلى الكونت دالب وتطلعه على تفاصيل المؤامرة بعد أن يعدها بالألمس عشيقها بأذى . ويقبض على المتآمرين ويحكم عليهم بأن يموتوا حرقاً .

وللقصة كما ترى من هذا الملخص قيمة عصرية . فهناك تشابه كبير بين حوادثها وبين حركات المقاومة التي نشأت إبان الحرب في فرنسا ، وما اعتري هذه الحركات من صعوبات وما امتحن به أعضاء هذه الحركات من اضطهاد وعذاب . وهناك شبه آخر بين تعسف القوات الأسبانية وحكمهم الارهابي وبين تصرفات القوات الألمانية في الحرب الأخيرة .

ودل إخراج القصة على ذوق فني بارع ومهارة فائقة . فقد أظهر المخرج العناصر المؤثرة في القصة بشتى الأساليب ، فمن موسيقى قوية التعبير إلى غناء بأصوات تتفق مع الموقف ، وضوء يتناسب وجلال المنظر . هذا عدا جمال التصوير حتى أن بعض مناظر الفيلم يمكن أن تعد لوحات فنية رائعة . أما عن التمثيل فلا أريد أن أنسب نجاحه إلى بيير بلانشار فحسب ؛ فقد كان مع هذا الممثل كواكب آخرون لم يقل أدائهم روعة عن أدائه هو . إلا أنني أرى أن بيير بلانشار بتمثيله قد ارتفع عنهم ورفع فنه التمثيلي إلى أعلى درجات السمو . فلا مغالاة في أدائه ولا إسراف في تعبيره ، بل لزم اعتدالا لا يلزمه إلا الفنان الجدير بهذا الاسم .

من وراء البحار

. معالجة الفقر وزيادة السكان في بولونيا

من الواجب على الدول التي تعاني مشاكل الفقر وتكاثف السكان ، مثل مصر ، أن تعنى بالوقوف على الوسائل التي تتخذها الدول الأخرى لمعالجة مثل هذه المشاكل . ولقد عمدت بولونيا أخيراً إلى وضع مشروع يستغرق إنجازَه ثلاث سنوات ، لعلاج هذا المشكل الكبير ، وكتبت مجلة « العالم اليوم » الانجليزية عدد مارس سنة ١٩٤٧ ، فصلاً في هذا المشروع . وهي ترى أن هذا المشروع الذي قدم للمجلس الوطني البولوني في سبتمبر ١٩٤٦ ، يعتبر من أهم التشريعات التي سيكون لها أثر كبير في حياة بولونيا وأنه أول تشريع اقتصادي في أوروبا الشرقية . ولكي نفهم مغزى هذا المشروع ، يجب النظر إلى الحالة الاقتصادية في بولونيا فيما قبل الحرب وما هي عليه الآن . وقد نص المجلس الوطني عند قبول المشروع على أن « الغرض الأكبر للاقتصاد البولوني في المدة التي يتناولها المشروع هو رفع مستوى المعيشة للطبقات العاملة فوق المستوى التي كانت عليه قبل الحرب » . ولعل

بولونيا أشد حاجة إلى هذا الأمر من أية دولة أوربية أخرى . فقد كانت بولونيا قبل الحرب أمة فقيرة يزداد الفقر فيها انتشاراً بسبب ضغط السكان على الأرض . وكانت فيها أكبر مشكلة في أوروبا الشرقية هي مشكلة البطالة الزراعية الخفية . فربع السكان أو ثلثهم من العائشين على الزراعة يعتبرون زائدين عن الحاجة ، أي أنهم يستطيعون أن يهجروا الأرض دون إقلال للإنتاج الزراعي .

هذا الضغط على الأرض معناه الفقر المقنع بين الزارعين ، ولم يكن هذا الفقر ثابتاً بل كان يزداد ؛ فإن عدد الذين يعيشون على الزراعة يزيد بسرعة أكثر مما يستطيع الزارع أن ينتجه . وهكذا كان يتضاءل إيراد الزارع وهذا يمنع الادخار والتقدم الفني في الزراعة ، وفي الوقت ذاته يوقف اتساع الطلب على المنتجات الصناعية .

وهذا التكاثف في السكان الذين يعيشون على الأرض هو في الوقت ذاته سبب ونتيجة لقلة رأس المال . واتساع

نطاق هذا التكاثف يقضى على تقدم الاقتصاد البولوني . وما جاءت سنة ١٩٣٠ حتى ظهر من الضروري اتخاذ وسائل فعالة إذا أريد الخروج من هذا المأزق . ولكن الحالة الاجتماعية الاقتصادية لبولونيا فيما قبل الحرب لم تكن تسمح بإيجاد علاج إلا في فكرة المهاجرة الدولية . وقد بذل بعض المجهود في العمل على الانتفاع بالمنطقة الوسطى الصناعية ببولونيا مع الاعتماد على القروض الخارجية ، ولكن هذا العمل لم ينظم ، ونشأ عن ذلك أن هذه القروض أفادت الصناعات المحتكرة التي كسبت كثيراً باستغلال المستهلك .

ولقد تغيرت الحال الآن ونقص عدد سكان بولونيا ثمانية ملايين عنه قبل الحرب . وقد خرب ٧٥ في المائة من عاصمتها وارسو وانتقلت الدولة بأجمعها إلى الغرب ، وبذلك صار لها موارد صناعية كبيرة وشبكة للنقل كثيفة وساحل طويل . وقد تغير تكوينها الاجتماعي تغيراً تاماً ، وفقدت طبقة كبار الزراع والمالكين والجيش قواعدهما الاقتصادية ، وصار الطريق ممهداً لإعادة البناء وإن كان هذا العمل كبيراً بسبب اتساع التدمير . وقد يرى الزائر لبولونيا لأول مرة

أن هذا التدمير فظيع للغاية لأن وارسو خربت تخريباً كبيراً ، فجميع القسم القديم من المدينة حول ساحة النصر هو عبارة عن أطلال ، وحى بارز لكوفكا هو عبارة عن واجهات حوانيت قائمة في أسفل تلال ، وترى واجهة المحطة الكبرى معلقة في الجو ، وكان ذلك نتيجة التدمير المنظم شارعاً فشارعاً وداراً فداراً ، ولم يبق لحي اليهود من أثر .

ولقد كان قرار إعادة بناء العاصمة قائماً على معنى عاطفي أكثر منه اقتصادي ، ولكنه أمر لا بد منه ، والعمل فيه يسير سريعاً على أساس تعاوني على اعتبار أن البلدية هي صاحبة الأرض . ويتبادر للزائر أن هناك نشاطاً يدل على حيوية كبيرة ، لا سيما عندما يرى النساء العاملات يقمن بطلاء الأبنية ، وعربات الفلاحين محملة بأدوات البناء ، والفتيات الشرطيات ينظمن وسائل السير .

لقد تغير الأساس الاقتصادي في بولونيا إذ كانت خسارتها من السكان أكبر خسارة بين الدول الأوربية فيما عدا روسيا . وكان تعداد بولونيا في سنة ١٩٣٩ خمسة وثلاثين مليوناً يعيش منهم إحدى عشر مليوناً وثمانمائة ألف في الأراضي الشرقية

التي اقتطعت من إدارة بولونيا . وقد عمل إحصاء للسكان في فبراير سنة ١٩٤٦ ، فبلغ ٢٣ مليوناً ، ٩٣٠ ألفاً ونترج أكثر الألمان في المناطق التي ضمت إلى بولونيا وحل محلهم بولونيون ولا يزال هنالك تحول في السكان نحو الأراضي الجديدة .

ولقد فقدت بولونيا ثلث مساحتها السابقة أي أنها فقدت ١٨١ ألف كيلومتر مربع من مجموع مساحة قدرها ٣٩٠ ألف كيلومتر مربع . ولكنها كسبت في الشمال والغرب ١٠١ ألف كيلومتر مربع أي أن مساحتها تقصت بعشرين في المائة مما كانت عليه . فالمساحة التي انتزعت منها هي أكبر قليلاً من إنجلترا وويلز ، والمساحة التي كسبتها هي أكبر قليلاً من أسكتلندا وشمال إيرلندا . ومع ذلك فإن القيمة الاقتصادية للأراضي التي ضمت إليها أكبر كثيراً من الأراضي التي خسرتها . فقد صار ما تمتلكه من صناعة الفحم ضعف ما كان لها ، ثم إنها كسبت أماكن صناعية عظيمة متقدمة جداً تتصل بطرق حديدية جيدة وقنوات إلى مينائي شتيتين ودانترج . ولم تخسر خسارة صناعية غير أنها فقدت أكثر آبارها من البترول وأملاح البوتاس . وقد كسبت الزراعة البولونية

بهذا التغير ، فإن المساحة التي استولت عليها روسيا أكثرها أحراش ومستنقعات في حين أن القسم الذي استولت عليه فيه مزارع منظمة كل التنظيم . وعلى ذلك صارت علاقة الأرض بالسكان الزراعيين خيراً من قبل ؛ فقد كان عدد السكان الزراعيين ٢٠ مليوناً فنقص إلى ١٥ مليوناً في حين أن الخسارة في المساحة الزراعية هي السدس . وليس معنى ذلك أن حال الفلاح صارت خيراً منها الآن فلقد أصيب بتدمير رأس ماله ودخله ولكن عندما يتوزع السكان الزراعيون على الأرض يتحسن حاله .

على أن الحالة الزراعية سيئة الآن بسبب الخسارة في المواشي ويقدر البعض أنه ليس من الميسور أن تسترد بولونيا مواشيها قبل خمسة عشر سنة إلا إذا التجأت إلى استيراد المواشي على نطاق واسع . ففي الأراضي التي كانت تكون جزءاً من بولونيا السابقة لم يبق من المواشي غير ٥٣ في المائة مما كانت عليه في سنة ١٩٣٨ ، وفي الأراضي الجديدة لا تزيد النسبة عنها قبل الحرب على ١٦ في المائة .

ولقد أدى التنظيم الزراعي إلى تغيير في البناء الذي تقوم عليه الزراعة فقد تقرر أن تقسم جميع الأملاك التي

تزيد على ٥ هكتاراً (١٢٠ فدان) السوفييت في سنة ١٩٤٦ . ولكن في أراضي بولونيا القديمة ، ١٠٠ هكتار (٢٤٠ فدان) في الأراضي الجديدة

وقضى هذا التنظيم بضم المزارع الصغيرة في وحدات اقتصادية كي تكون أصغر الملكيات يبلغ ١٢ فداناً في المساحة . على أن القاعدة الاقتصادية الآن هي الانتقال من الزراعة إلى الصناعة حيث بدت بشائر نجاح التنظيم الجديد . فلقد أدت الحرب إلى تخريب الصناعة البولونية ولكن المصانع في الأراضي التي ضمت إلى بولونيا لم تتأثر بالتخريب بقدر ما تأثرت بالاهمال ، فاعادتها ميسورة . وهذه المصانع التي كسبتها بولونيا ستكون عاملاً مهماً في رفع مستوى المعيشة .

والمشروع الجديد يضع هدفاً خاصاً بكل صناعة يجب بلوغه مع جمع الصناعات في وحدات متقاربة حتى تبلغ في سنة ١٩٤٩ إلى مستوى هو ١٥١ في المائة في سنة ١٩٣٨ .

ولما كانت هذه الأهداف تتطلب لتحقيقها استيراد بعض الضروريات فقد شمل هذا المشروع التجارة الخارجية فوضع لكل سنة ميزاناً تجارياً . ولقد كانت تجارة بولونيا الخارجية قائمة في الأكثر على الاتجار مع بلاد

ويتوقف نجاح هذا المشروع على عاملين أولهما كفاية النظام الداخلي وقدرته على العمل لازدياد الانتاج الصناعي والزراعي ؛ ويسند الصناعة الآن نقابات العمال ، كما يسند الزراعة حسن توزيع الأدوات الزراعية والظاهر أن الحكومة ستلقى نجاحاً وإن كان يحتمل أن تقوم صعوبات في سبيل حشد الطعام للفلاحين .

والعامل الآخر هو التجارة الخارجية وهذه تتوقف على الحالة العامة في العالم . فقد يحتمل في حالة الفوضى الحالية ألا تستطيع بولونيا الحصول على الواردات الضرورية ، على أن بولونيا في مركز قوى لأن لديها دائماً زيادة في الفحم تقوم بتصديرها .

وبالجملة كانت التغيرات في حدود بولونيا مما زادها مقدرة على محاربة الفقر بأن صارت نسبة السكان إلى الأرض خيراً منها في الماضي وزادت مقدرتها في الصناعة . وستكون عاملاً مهماً في الاستقرار السياسي والاقتصادي بأوروبا الشرقية .

مصر والسودان والمعاهدة

في العدد الأخير من مجلة « القرن التاسع عشر وما بعده » الانجليزية ، عدد ابريل ، بحث للفتنانت كولونيل بيردود عن مصر والسودان والمعاهدة استعرض فيه علاقة مصر بالدول الأوربية لا سيما إنجلترا وفرنسا منذ عهد محمد علي إلى هذه الأيام التي يصف فيها موقف إنجلترا بقوله : « لقد وصلنا الآن إلى الاعتراف بحق مصر بالتححرر الكامل في محيطها الداخلي ، وقد سحبنا جيوشنا من الدلتا وتنازلنا عن حق حماية المصالح الأجنبية ، وأعلنا أخيراً عزمنا على سحب قواتنا من منطقة القنال في تاريخ لا يتجاوز سبتمبر سنة ١٩٤٩ . » على أنه يرى أن بعض المخاوف لا تزال قائمة بالنسبة للشريان الحيوى الذى يمر بأرض مصر . غير أن القوة الجوية قد غيرت جميع النظريات السابقة للدفاع الجيوش الأرضية ، ومن المؤكد أن الذين يتفاوضون في عقد معاهدة جديدة مع مصر سيعملون على إيجاد محالفة عسكرية تؤدي إلى تأليف هيئة دائمة لتنظيم الدفاع المشترك عن تلك المساحة في حالة تهديد مصر بواسطة دولة كبيرة أخرى . وفي هذه الظروف لا يمكن الفصل بين الدفاع عن مصر وعن القنال ، وما يتخذ من تدبير للدفاع عن أحدهما لا بد أن يشمل الآخر .

ولا شك في أن هذه المشكلة كانت بسيطة نوعاً ما قبل التطور الحديث في قوة إلقاء القنابل ، فإن مياه القناة هي في كل مكان منخفضة أكثر من الأرض المحيطة بها ووجود ثغرة في جوانبه لا يسبب دائماً خطراً كبيراً ، ولكن إلقاء قنبلة ذرية على القناة مما يجعله عديم الفائدة إلى الأبد ، كما أن إلقاء قنبلة ذرية على القاهرة مما يقضى قضاء مبرماً على مصر بأجمعها . ولعل البحث في إلقاء القنابل الذرية مما يؤدي إلى مباحث عميقة ، وكل ما يجب ملاحظته أن العامل الأساسى في حماية مصر هو القدرة على إصابة المطارات البعيدة ومصادر صنع القنابل الذرية . وفي المحادثات التى جرت بين الحكومتين البريطانية والمصرية ليس هنالك ما يحمل على الظن بأن هذه المسائل لا يمكن تسويتها تسوية مرضية . ولسنا نعلم المسائل التى أثرت في محادثات مستر يفن وصدقي باشا في أكتوبر سنة

١٩٤٦ ، ولكن من الراجح أنهما تناولا جميع وجوه الدفاع المشترك وقد يستنتج أنهما اتفقا على ذلك حيث إنه لم يثبت العكس .

فما هي العظمة التي يتنازع عليها الفريقان ؟ من الواضح أن مستقبل السودان هو موضوع الخلاف الهام بين الفريقين وهو موضوع ينطوى على مبادئ دولية ذات مغزى .

وقد بحث كاتب المقال في شئ من الاسهاب عن السودان منذ عهد محمد على ثم خروج المصريين منه ثم إعادة فتحه وما كان من عقد الاتفاق على الحكم الثنائي . وهو يرى أن النص في مقدمة هذا الاتفاق لم يكن موقفاً من الوجهة الانجليزية لأنه يضع الاتفاق على أنه مشاركة انجليزية في عمل مصر وكان يحسن في رأيه لصالح الانجليز أن يقضى النص بالمشاركة المصرية في عمل قام به الانجليز ؛ فهذا الاتفاق حفظ موقف مصر الدستوري ومكانة التاج المصري في حين أنه ترك عبء إدارة البلاد وتطورها على عاتق الانجليز .

وهو يزعم أن موقف الانجليز من السودان مع ذلك سليم فهم لا ينكرون حق مصر في أن تستمر على شركتها في تلك البلاد بل هم يؤكدون فقط وفاقاً للرقى في الأفكار الدولية الحديثة ،

والعمل الذي جرت عليه جمعية الأمم من قبل ووريثتها الحاضرة ، أنه عندما يحين الوقت يكون للسودانيين حق الاختيار ؛ وهذا الاختيار إذا هم أرادوا قد يتخذ حتى شكل تقوية الروابط مع مصر .

أما الجانب المصرى فيجئ في رأيه إلى اعتبارات المكانة والعاطفة ؛ فمصر تتخذ رأس مالها من الاصرار العاطفى على وحدة وادى النيل . وهذه الفكرة المفيدة في الخطط الحربية السياسية لا تحمل ضوء البحث . ففي السودان بين سكان وادى النيل نرى أهل الشمال يستطيعون أن يدعوا بعض التشابه الجنسى مع مصر إذ أنهم من أصل عربى واحد . ولكن في جنوب الخرطوم حيث نرى الوثنيين يحلون محل المسلمين نجد قبائل أفريقية ليس لها أية صلة جنسية أو ثقافية بمصر . بل إننا في الشمال نرى أن سكان وادى النهر خليط من الجنس النوبى والسودانى . وإذا ابتعدنا عن النهر وجدنا قبائل لا تعرف بوجوده . وهذا ما يسمونه وحدة الوادى .

وبعد أن ذكر أنه لا يوجد رأى عام سياسى في السودان وصف ظهور حزين في تلك البلاد ، ثم قال : إن مصر في اهتمامها العاطفى بمكانتهم

الوطنية لم تجد الشجاعة لاعلان مشكلتها الحقيقية وهي مستقبل مياه النيل فان السودان المستقبل إذا كان معادياً لمصر يستطيع أن يكون خطراً على تقدم مصر بأن يحول دون التسهيلات لزيادة موردها من المياه . وليس الموضوع متعلقاً باحتمال منع المياه بقدر ما هو متعلق بالحصول على الكمية الضرورية من المياه في الوقت المناسب . ثم إذا رغبت مصر في أن تعد مليونين آخرين للزراعة وبذلك تستغل مياه النيل إلى أقصى حد فيجب أن تنفق وتشغل منشآت كبيرة للرى في الأراضي السودانية . وقد تقوم مشاكل غامضة كحق قبائل أوغندة في المرعى . وفي الوقت الحاضر تفقد كمية كبيرة من المياه في مستنقعات السدود وهذه يمكن أن تسير إلى اللكال إذا أنشئ نظام صحيح للرى والصرف ؛ وهذه المياه لا فائدة منها للسودان . وهناك اتفاق قائم على استعمال مياه النيل عقد في سنة ١٩٢٩ وليس من المعقول مطلقاً أنه عندما يحين الوقت لنقل الادارة إلى يد سودانية مسئولة ألا تضمن بريطانيا مطالب مصر ضماناً كاملاً بعقد اتفاق جديد ، فليس إذن في هذه المسألة مالا يمكن تسويته ودياً تسوية معقولة حول مائدة مؤتمر . وإذا رغبت مصر فان موقفها يمكن حمايته بتسوية وضمان دولي . والتقدم بمثل هذا المطلب للأمم المتحدة يكون منطقياً أكثر من خطل الرأي في التقدم إليها بموضوع السيادة المستقبلية . فميثاق الأمم المتحدة يقضى على أعضائه باحترام الحقوق الانسانية الأساسية وتقدم العلاقات الودية القائمة على مبدأ الحقوق المتساوية وحق الشعوب في تقرير مصيرها . فاذن ليس نظام الأمم المتحدة هو المحكمة التي يحتمل أن توافق على محاولة إنكار هذه الحقوق على السودانيين . وهو يزعم أن تأييد الجامعة العربية لم يكن حماسياً . ويرى في ذلك دليلاً على قوة قضية البريطانيين .

من كتب الشرق والغرب

OEDIPE OU THESEE

ETIEMBLE

أوديب أو ثيسوس*

ترجم منذ قليل ونشر بالعربية في مجلد واحد مؤلفان لأندريه جيد : « أوديب » و « ثيسوس » (١) . ولقد مر على ظهور « أوديب » ستة عشر عاماً ، أما « ثيسوس » فلم يظهر في الفرنسية إلا حديثاً ، وهو مع ذاك اختيار موفق ذلك الذى يجمع في ثوب واحد لحظتين من لحظات تطور يمثل فيه أوديب و ثيسوس ، كلا منهما على حدة أولاً ، ثم هما معاً وجهاً لوجه أخيراً ، ضرورات يكمل بعضها بعضاً .

فأمام أبى الهول ولغزه « ما كائن يسير على أربع في الصباح ، وعلى اثنين في الظهر ، وعلى ثلاثة في المساء ؟ » يجب أوديب : إنه الانسان . الانسان هو الجواب على أسئلة الانسان . وعلى كل فأوديب يمزج بين الانسان

والفرد . وهو ، كما تشكو منه جوقة من رجال الشعب ، « فردى ممعن فى فرديته » . وأوديب الذى لا يعرف له أباً ، يفخر بأن سعادته وحالته من صنع يديه ، وأنه ليس مديناً فى ذلك لأحد : « لم توهب لى السعادة وإنما أخذتها » . وهو لا يحب العرافين ولا يرغب فى استشارة الآلهة « إن تيرسياس يثقل علينا بصوفيته وأخلاقياته » . وهذا التأثير يوافق رغم ذلك على أنه من المستحيل أن نمنع الشعب من إشار المعجزات على التفاسير الطبيعية المنطقية . ويعترف : « من الخير أن يكون أمثالى فى الناس قليل » . وهكذا يحكم أوديب على عرش طيبة ، ويخرج من نعيم إلى نعيم طيلة سنوات عدة ، ويتزوج من جوكست ، فله امرأة وابنان وبنتان ، ويبقى

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

(١) نقلهما إلى العربية الدكتور طه حسين ونشرتهما دار الكاتب المصرى .

عرشه ثابتاً رغم الشقاء الذى تعانيه
الكثرة . ثم إذا بوباء يحمل ، ويقول
وحى الآلهة كلمته وهى ليست أبداً :
الانسان . فالآلهة تريد أن يعاقب قاتل
الملك لا يوس الذى كان يحكم طيبة ، قبل
الملك الحالى . والبقية معروفة : فوحى
الآلهة القديم كان يقضى بأن يهلك
لا يوس بيد ابنه ؛ فقرر لا يوس التخلص
من ذلك الابن اللعين ؛ ثم ألقى الطفل
فاذا برأع يتلقاه ويريه ويعامله كأنه
ولده ، ثم يشب ويكبر فاذا به يقتل
فى الطريق رجلاً مسناً أثقل عليه ،
ثم يصل بعدئذ إلى طيبة والحزن مخيم
عليها ، ويتزوج هذا الشاب الجميل
من جوكانست . ثم يكتشف أوديب
كل ذلك أثناء تحقيقه فى مقتل الملك
لا يوس . ولقد سبق أن تنبأ له
كربون بذلك حين قال إن الله لا يلهم
أولئك الذين ينظرون بعيونهم ؛ فأوديب
ابن لا يوس وقاتله ، وابن جوكانست
وزوجها ، وأبو أنتيجون وأخوها ،
أوديب الملك لم يكن يرى إلا سعادته ،
ولقد عمى حتى تقبل القول بأن الله :
« يوجد صلة خفية بين سعادة البعض
وبين شقاء الكثرة » . وما يكاد
أوديب يحس بأنه مذنب وقاتل حتى
يفقأ عينيه . لقد سبق أن قال له
تيرسياس : « إذا كانت عيناي مقفلتين

فما ذلك إلا لكى تبصر عيون نفسى » .
ولقد سخر أوديب من ذلك عندئذ .
ولكنه عندما أمسى لا يبصر شيئاً أخذ
يعترف بأنه هو الآخر « يشاهد الظلمة
الالهية » . وذلك الذى كان يبنى
سعادته على شقاء الآخرين ، ها هو ذا
يتألم ليسعد الآخرين ؛ ولكن ظلامه
لم يضئه إلا قليلاً كما أشعره بذلك
تيرسياس الذى لا يرحم ، حين قال
له : « ما ينبغى أن تريد لهم السعادة
وإنما ينبغى أن تريد لهم النجاة » .
ويبدو أن الإله قد أوشك على الانتصار
« خذ بحظك من الندم ، أقبل على
الإله الذى ينتظرك . سيوضع عنك
وزرك » .

ومن يكون فى جرم أوديب ولا يقبل
ذلك العرض ؟ وهكذا ينتهى أمر
أوديب بانتصار الكهنة .

ثم يفر من وطنه طيبة ، ويذهب
إلى كولونا حيث كان ثيسيوس على
وشك أن يلقاه . كان جيد يحلم منذ عهد
طويل بكتابة لقاء البطلين وذلك ما تم
فى كتاب « ثيسيوس » .

يقول ثيسيوس : « وإنه ليدهشنى
ألا يتحدث الناس إلا قليلاً عن التقائنا
فى كولونا ، وعن هذه المواجهة بين
مصيرنا فى آخر الشوط الذى كتب
لكل واحد منا أن يقطعه » . وإنها

لصفحات رائعة الجمال تلك التي يبرز فيها جيد الرجل المقهور أمام الرجل المنتصر : يبرز فيها ابن لا يوس أمام ثيسوس . لقد استسلم أوديب لما يهي له النجاة . ولكي يشهد عظمة الآله ، رضى أن يعمى ناظره ، ولكي يستغفر من أخطائه العظيمة أمام محكمة نفسه ، اختار أن يرتكب خطايا جديدة . ولكي يفسر لنفسه ما قدر لذريته من عار لجأ إلى « نوع من الإثم المستأصل » (لن يستطيع الانسان أن ينقى نفسه من دون معونة إلهية) . لقد اعتنق أوديب المسيحية . « قلت حين أتم حديثه : أيها العزيز أوديب لا يسعني إلا أن أثني على هذه الحكمة التي تصطنعها والتي تتجاوز طاقة الانسان . ولكن تفكيرى لا يستطيع أن يرافق تفكيرك في هذه الطريق . فأنا ابن هذه الأرض ، وسأبقى ابنها ، وأرى أن الانسان كائناً من يكون ومهما يكن حظه من هذا الإثم المستأصل ، يجب أن يلعب بالورق الذي أتيح له في هذه الدنيا . تلك أقوال ثيسوس قاهر المينوتور ، ذلك المينوتور الذى يحمله كل واحد بين جنبيه .

ويريد البعض أن يقول إن الحديث يصور جيد في شخصيتين : جيد في

«اللاخلقى» *L'Immoraliste* وجيد في «الباب الضيق» ؛ جيد في « وهل أنت أيضاً كذلك ؟ » *Numquid et tu* وجيد في «القوت» *Les Nourritures* وذلك خطأ . ويكون خطأ أيضاً أن نفترض أن جيد قد بقى متردداً بين إغراء هذين الصوتين . فأننا نعلم الآن رأى جيد فى الآله ، وفى الانسان وفى السعادة وفى النجاة . ولقد فسر نفسه فى « الآله ، ابن الانسان » . وهو يحذر من أن يمزج فى الآله « شيئين مختلفين تماماً حتى إنهما يتعارضان » . أولاً الآله الذى يمثل الكون جميعه والقوانين الظاهرة التى تحكم العالم ، إلهاً شبيهاً بـ *Zeus* لدى اليونان ، أو شبيهاً بـ « الآله أو الطبيعة » *Deus sive natura* فى مذهب سبينوزا ، وثانياً « جماع كل مجهودات الانسان نحو الخير ونحو الجمال » . يقصد بذلك شيئاً يشبه المسيح أو يشبه بروميتيه *Prométhée* ومثل ذلك الآله « هو خير ما يصل إليه الانسان ، وكل الفضائل تساهم فى ذلك . ولكن ذلك إله لا يسكن الطبيعة ؛ إنه لا يوجد إلا فى الانسان ولا يوجد إلا الانسان ، أو قل إنه يخلق فى الانسان . وكل جهد يقصده إلى إبراز الآله بالصلاة إنما هو جهد ضائع » . وينتهى جيد إلى

أن يقول : ذلك وحده هو الاله الذى أستطيع وأريد أن أعبد .
 وذلك الذى كان يرفض فى مبدأ الأمر الاختيار، انتهى بأن اختار بروميتيه ضد دوس . وأمام أبى الهول الخالد أجاب هو أيضاً : الانسان بأكمله ولاشئ غير الانسان . وهو يقول على لسان ثيسوس : « وأنا أسعى وحيداً راضياً إلى الموت . فقد ذقت نعم الأرض ، ويحلولى أن أفكر فى أن الناس بعدى وبفضلى سيرون أنفسهم خيراً منا وأسعد وأدنى منا إلى الحرية . ولقد أبليت فى خدمة الانسانية المستقبلية ما استطعت . لقد حييت . » فلم يعد الأمر أمر النجاة وإنما هو أمر السعادة . وقد كتب جيد فى أحد كتبه الأولى : « البحث عن النجاة هو الأثرة » . وعندما ترك ثيسوس النجاة ، لم يعد يريد إلا أن « يقيم مدينته » ، وأن يخلف وراءه أثينا . أوديب أو ثيسوس ؟ ليس جيد من أولئك المانويين *manichéens* الذين يقسمون العالم إلى قسمين . فلقد كان جيد كأوديب ، وإنه ليذكر باحترام ذلك المقهور العظيم ، وهو يقترب من الثمانين ، ولكن جيد لم يعد كأوديب . لقد استطاع تيرسياس أن يقهر أوديب ولكنه لم يستطع أن يقهر أندريه جيد .

اتيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

ظفر حديد

مدرسة الزوجيات يليها روبر و منهيف تأليف أندريه جيد ترجمة الدكتور صبرى فهمى (دار الكاتب المصرى) .

هذا كتاب رائع ، أو قل هذا سفر رائع ؛ فانه مجلد واحد يشتمل على كتب ثلاثة للكاتب الفرنسى العظيم أندريه جيد . وروعة هذه الكتب تأتي من موضوعاتها أولا، ومن مذهب الكاتب فى إنشائها ثانياً ، ومن فنه فى هذا الانشاء بعد ذلك . وقد قال الأستاذ أتييه مؤرخ أدب أندريه جيد أن هذه الكتب الثلاثة تمثل عقل أندريه جيد وتفكيره وتزوجه إلى الاصلاح أكثر مما تمثل فنه وأسلوبه فى الانشاء .

وأندريه جيد لم يقصد فى هذه الكتب الثلاثة إلى الامتاع الفنى الخالص ، وإنما قصد إلى لون من ألوان الاصلاح الاجتماعى ، وأراد أن يدعو إليه ، ويحث عليه ، ويرغب فيه ، ويعرضه للبحث والنقد والتحريض . وهو على ذلك لم يستطع أن يخالف عن فنه ولا أن يتحول عن مذهبه فى الانشاء ؛ فهو لم يخرج لنا كتباً يرتب فيها النتائج على مقدماتها ويعرضها عرض الباحثين المفلسين ، وإنما

وينخيل إلى أن الأستاذ المؤرخ الأديب قد أسرف على نفسه وعلى أندريه جيد فى هذا الحكم الذى لا يخلو من بعض القسوة . فليس بد من أن يكون هناك فرق بين كتاب أو كتب يقصد بها إلى الفن الأدبى فى نفسه ، إلى الفن الأدبى الذى لا يحاول إلا تصوير الميول والعواطف والأهواء ، فيلائم فى هذا التصوير بين جمال المعانى وجمال الألفاظ ،

اصطنع مقداراً يسيراً من الخيال لا يبعد عن مذهب الفلاسفة من جهة ، ولا يورطه في هذا المذهب من جهة أخرى . فعرض علينا في الكتاب الأول « مدرسة الزوجات » فتاة فرنسية ساذجة نشأت في أسرة من الطبقة الوسطى ، تحتفظ الأم فيها بالتقاليد الدينية احتفاظاً شديداً ، وينأى الأب فيها عن هذه التقاليد نأياً ظاهراً ولكنه لا يتجرح به ولا يغلو فيه . وقد لقيت هذه الفتاة شاباً من طبقها أحبها وأحبته وملك عليها أمرها كله ، ولكنها لم تكد تملك عليه من أمرها شيئاً . وقد فتننت به أشد الفتن ، فأمنت له وأمنت به وفننت فيه ، ولكنها لم تكد تزف إليه حتى أخذت خيبة الأمل تتكشف لها شيئاً فشيئاً ، وإذا بينها وبين زوجها خلاف بغض يكاد يدفعهما ، أو قل يكاد يدفعها هي إلى أن تفارقه ، لولا شدة التقاليد . وهي تنتهي آخر الأمر من الضيق به والانصراف عنه ، إلى حيث تفارق الحياة كلها ؛ فهي قد تطوعت حين أعلنت الحرب للعمل في بعض المستشفيات التي تعالج فيها الأمراض المعدية فلقيت حتفها هناك . وهذا الكتاب يعرض علينا في صورة يوميات ، تسجلها الفتاة منذ خطبها هذا الشاب إلى أن تزوجها ، إلى أن ظهر بينهما الخلاف ، إلى أن اشتد هذا الخلاف وانتهى إلى نتيجته المحتومة . وهذا المذهب نفسه ، مذهب اليوميات التي تسجل بين حين وحين وتصور العاطفة كما هي والرأي كما هو في غير تكلف ولا تصنع ، أسلوب من الفن برع فيه أندريه جيد كل البراعة . فاذا لاحظت أنه لم يرد بهذا الكتاب أن يصور عواطف المرأة ، وإنما أراد قبل كل شيء أن يبين ما ينبغي أن يقوم عليه الزواج من الاخلاص الصريح والصراحة الخالصة والحب البريء من النفاق كل البراءة ، عرفت أن اختياره لهذا الأسلوب ونجاحه فيه أبرع النجاح وأروع آية من آيات الفن .

أما الكتاب الثاني « روبر » فهو دفاع الزوج عن نفسه بعد أن قرأ هذه اليوميات التي نشرت بعد وفاة امرأته ، وفيه يعرض أندريه جيد مذهب الرجل المحافظ في الحياة عامة وفي الحياة الزوجية خاصة ، ويدافع عنها دفاعاً متهاكاً لا قوة فيه ، ولكنه يصور تصويراً دقيقاً مذهب المحافظين فيما ينبغي أن تكون عليه المرأة من طاعة الزوج والخضوع له والاحتفاظ بالتقاليد والامعان في الإيمان بالدين كما تراه

الكنيسة لا كما يراه الرجل الحر . وقد ولد لهذين الزوجين فتى وفتاة . فأما الفتى فتأثر أباه وذهب مذهبه ، فأصبح أثراً غالياً في الأثرة ، متكلفاً مسرفاً في التكلف ، وصولياً لا يحفل إلا بما يبلغه غايته . وأما الفتاة جنيف ، فتأثرت أمها وترعت نزعها إلى الحرية ، ثم إلى التمرد الذي تعرضه الحياة في بيئة يشتد فيها الخلاف بين الزوجين ، ويذهب فيها أحدهما مذهب النفاق على حين يذهب فيها الآخر مذهب الصراحة والاخلاص . وهذه الفتاة هي التي ترسل إلى أندريه جيد الكتاب الثالث الذي يسمى باسمها ، تعرض فيه بغضها لمذهب أبيها في الحياة ، وحبها لحرية أمها وصراحتها وسخطها مع ذلك على ما فرضت أمها على نفسها من خضوع وإذعان . وهذه الفتاة قد ولدت في آخر القرن الماضي ونشأت في أول هذا القرن ، ولم تتأثر بحرية أمها وحدها ، وإنما تأثرت معها بالمدرسة وبالبيئة الفرنسية الباريسية قبيل الحرب الأولى ، فاندفعت في التمرد إلى غير حد ، أو قل إنها اندفعت في التمرد إلى الحد الذي اندفع إليه أندريه جيد نفسه . ففيها سذاجة قوية صريحة ، وفيها إيمان بالنفس ، واعتداد بالرأي ، وبغض

للإذعان ، وطموح إلى إرضاء الغريزة ، كل ذلك في غير خبث وفي غير إشار للشر ، وإنما هو التمرد وما يثير في النفس من هذا الانخداع الجامح . والفتاة من أجل هذا كله تتعرض لألوان من الفتنة ، فتوشك أن تتورط في حب زميلة لها في المدرسة لولا أن أمها تستنقذها من هذا الخطر . وهي تبغض الزواج أشد البغض ؛ لأنه يهدر حرية المرأة وكرامتها . وهي تخاف من الحب لأنه يوشك أن يهدر هذه الحرية أيضاً . وهي مع ذلك تريد أن تكون أمّاً ، لا لأنها تعرف الأمومة وتقدر تبعاتها وتحب هذه التبعات ، بل لأنها جامحة ترى في ذلك تحقيقاً لحريتها . وهي من أجل ذلك تعرض نفسها في سذاجة غافلة على طبيب الأسرة وصديقها الذي يوشك أن يكون لها أباً ؛ لأنه صديق أبيها قبل أن يتزوج أمها . والطبيب أستاذ في كلية الطب يعرف كيف يرد الفتاة إلى الرشيد بسخريته الظريفة الرفيقة ، ونصحه الحازم الرشيد . والفتاة تقص قصتها على أمها آخر الأمر ، وقد ذهبت لزيارتها في ذلك المستشفى الذي كانت تعمل فيه ، فتسمع الأم وترتاع لهول ما تسمع أول الأمر ، ثم تطمئن إلى أن ابنتها

قد ردت إلى الرشد ، ولكنها على ذلك ملتاعة لا تعرب عن لوعتها ، وإنما تفهم الفتاة هذه اللوعة ، وتعرف أن أمها قد أحبت هذا الطبيب ، وأن الطبيب قد أحب أمها ، وأن هذا الحب كان نقياً بريئاً لم يعرب قط عن نفسه ، لأن هذا الاعراب لم يكن يلائم الفضيلة ، ولا الخلق ولا الطهر ؛ فكلما العاشقين قد كان متزوجاً .

فهذه الكتب الثلاثة كما ترى تعرض قضية الزوجات ، أو قل تعرض قضية المرأة من جميع نواحيها ، أو قل إنها تعرض آراء أذريه جيد فيما ينبغي أن تكون عليه المرأة من حرية وكرامة واستقلال ، وفيما ينبغي أن يكون عليه الزواج من رعاية لهذه الحرية وحماية هذه الكرامة ، واحتفاظ لكل الزوجين بشخصيته كاملة نقية لا يفسدها خضوع ولا إذعان ولا نفاق .

وما أشك في أن هذا الكتاب أو هذه الكتب ستثير كثيراً من الجدل في نفوس الذين يقرءونها ؛ لأنها تعرض لموضوعات لا تخلو من دقة شائكة أحياناً . ولكن ما فائدة الكتب التي تقرأ فلا تثير في النفوس حاجة إلى البحث والنقد والمعارضة والانكار ؟

وقد ترجمت هذه الكتب ترجمة دقيقة كأحسن ما تكون الدقة ، في لغة قريبة يسيرة سهلة لا تشق على القراء وربما شقت على الذين يحبون الجزالة والرصانة بعض الشيء ، وربما كان الفرق بين الترجمة في لغتها العربية ، وبين الكتب في نصها الفرنسي أعظم مما ينبغي أن يكون . ولكن الشيء الذي لاشك فيه هو أن المترجم خليق بأجمل الشكر وأصدقه ؛ لأنه أهدى إلى قراء العربية كتباً سيجدون في قراءتها متاعاً عقلياً وفنياً ، وسيجدون في قراءتها بنوع خاص ما يخرجهم من هذه الحياة الراكدة التي نحياها في هذه الأيام .

طه حسين

طعام الآلة للكاتب الإنجليزي ه. ج. ويلز (دار الكاتب المصري)

من الملاحظ في شأن الكتاب الذين يشغلون الناس في حياتهم ويضعون حشداً من المؤلفات ، أنهم على أثر وفاتهم تمر عليهم فترة من الزمن ، قد تكون قصيرة تظل بضع سنوات أو طويلة تمتد إلى عشرات السنين ،

الأدب وعكف على تأليف القصص . وكان أول ما فكر فيه أن يعيش في الجو الذي أحبه ، وهو جو لا تعوزه مادة الخيال والغرابية ؛ فظهرت قصصه العلمية التي منها « أول رواد القمر » و « آلة الزمن » و « بشر كآلهة » ، و « جزيرة الدكتور مورو » و « حرب العالم » . وكانت معالجة الموضوعات العلمية على هذه الصورة الشائقة لدى الجمهور الانجليزي جديدة وطريفة حقاً ، فأقبل الجمهور على كتبه إقبالا ، وسار بقدم ثابتة إلى مكانه في مقدمة كتاب العصر .

وكان ويلز من وقت لآخر يخرج إلى القصص الخالية من غرائب العلم ، وكان يقطعها من تجاربه والوسط الذي يعيش فيه ، ومن هذه القصص « الحب ومستر لويشام » و « سيرة مستر بولى » و « كيبس » وأخذ يترجع بين هذه الموضوعات الانسانية ، والموضوعات العلمية القريبة إلى قلبه . وكانت الحرب العالمية الأولى مما جعله يتجه بكلية إلى المسائل الانسانية . ولكنه لم يكن يحصرها في بيئته بل كان يهتم أشد الاهتمام بالمسائل التي تمس البشرية بأجمعها ، وأخذ يفقد اهتمامه بالقصة وإن اتخذها في بعض كتبه ستاراً رقيقاً يخفى وراءه

يهمل فيها الناس الاقبال في شغف على مؤلفاتهم كما كانوا يفعلون . وكان الزمن يتمهل في هذه الفترة ويزن مؤلفاتهم بميزان ليصدر عليها حكمه الأخير .

وهذا ما حدث في أزمئة قريبة للكاتب الفرنسي أناتول فرانس وللکاتب الانجليزي د . هـ . لورنس ، وهذا ما يحدث الآن للكاتب الانجليزي هـ . ج . ويلز الذي لم تمض سنة على وفاته .

ومن الطبيعي أن يضع الزمن في الميزان أعمال رجل مثله ، كان دائم النشاط منذ اتخذ الأدب مهنته في حياته .

أخرج ولز من المؤلفات عدداً كبيراً ، واتسعت دائرة تفكيره حتى شملت مشكلات الانسانية ، بعد أن ابتداء بداءة متواضعة نسبياً بمشكلات العلم ، متخذاً من هذه المشكلات موضوعاً لقصصه .

أجل ! بدأ ويلز كتاباته القصصية بموضوعات العلم ؛ فقد كانت دراساته متجهة نحو العلوم أكثر من الآداب ، ووجد في هذه الدراسة لذة . ولكن مطالب الحياة صرفته عن هذه الدراسة قبل أن يذهب فيها إلى آخر الشوط ويجعل منها غرض حياته ، واتجه إلى

آراءه . فنشر طائفة من الكتب منها « الطريق الذى يسير فيه العالم » ، و « بعد الديمقراطية » ، و « صورة الأشياء المقبلة » . وأخرج كتابه المعروف « خلاصة التاريخ » ، واشترك فى وضع كتب عن « علم الحياة » و « عمل الانسان وثروته وسعادته » .

وهكذا تطورت حياة ه . ج . ولز فى كتاباته ، وظل يكتب ويؤلف إلى الأيام الأخيرة فى المسائل التى تهم الانسان ، إلى أن انتهت حياته منذ سنة تقريباً ، وقد أشرف على الثمانين من عمره .

فأى هذه الوجوه الثلاثة من ولز سيحكم له الزمن ويكتب له البقاء : أهو ولز مؤلف القصة العلمية ، أم ولز مؤلف القصة الواقعية ، أم سيحكم الزمن لولز الكاتب الاجتماعى الانسانى؟

لسنا نستطيع التنبؤ الآن ، ولنترك ذلك لحكم الزمن . غير أن الأحوال تدل على أن القصص العلمية ربما كانت أقرب مؤلفاته إلى قلوب القراء ،

وأقربها إلى تمثيل ولز فى خير عصوره . فقد كان العلم محبباً حقيقة إلى قلبه ، وكانت حماسة الشباب الناشئ واهتمامه يملآن قلبه ، ولم يكن بعد قد اتخذ لباس الواعظ كما فعل فى كتاباته الأخيرة ، ولم يكن قد زعم لنفسه النبوة والتقدير فى عالم متحول لا يثبت على حال .

وفى قصة « طعام الآلهة » التى نشرتها دار الكاتب المصرى نرى ولز فى قدرته الحقيقية حين كان يجمع بين العلم والخيال . وهى قصة غريبة يقوم موضوعها على أن طعام الآلهة الذى تشير إليه أساطير اليونان وجد فى الأرض ، وجده أناس من البشر ، فكان لذلك نتائج غريبة تركها للقارى .

وقد أتىح نقل هذه القصة إلى العربية بقلم الأديب المعروف الأستاذ محمد بدران ، فكان فى ذلك ضمان لقراء العربية ، بأن يجدوا هذا الكتاب فى ثوبه العربى مطابقاً كل المطابقة للأصل الانجليزى ، وقد نقل أسلوب المؤلف نقلاً أميناً .

لقطة قصة للأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله (دار الكاتب المصرى)

على أنى أوتر أن أعرض هذه القصة على القراء عرضاً موضوعياً غير مكثف بما قدمت من أسباب التعريف بها ؛ فهي قصة لقطة : فتاة من بنات الخطيئة ، امتدت بها أسباب الحياة ، فأواها ملجأ من ملاجئ اللقطاء ، إلى عشرات من أمثالها ومثيلاتها ، عاشت بينهم كما يعيش كل لقيط ولقطة في مثل ذلك المكان ؛ فلما أتمت المرحلة التى ينبغى أن تغادر فيها الملجأ لتتصل بالحياة والأحياء وتطلب لنفسها أسباب العيش ، أحست وجود نفسها إحساساً قويا باعد ما بينها وبين الناس وفرض عليها لونا من العزلة وألواناً من الحرص والحذر وسوء الظن بالناس ، ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تستر ماضيها — أو ماضى أبويها على الأصح — ولم تسلم من كيد الناس ؛ واكتفتها أسباب الشقاء ، كأنما أراد القدر أن تكون كفارة تلك الخطيئة التى لم تقترفها ولم يكن لها بدفعها يدان ؛ وما زال الكيد يلاحقها حتى فرض عليها أن تغادر القاهرة التى عاشت بها بضع عشرة سنة منذ دفعت إلى الملجأ مضغة لحم فى قماط حتى بلغت مبلغها من

أصدرت دار الكاتب المصرى حتى اليوم بضعة وعشرين كتاباً ، فى عام وبعض عام ، أكثرها مما ترجم عن الفرنسية ، أو الانجليزية ، إلا أربعة كتب مؤلفة — فيما أحصيت — هى كل ما اختارته للنشر حتى اليوم من بين المؤلفات التى قدمت للدار ؛ وهذه القصة التى بين يدي هى واحد من هذه الكتب الأربعة . . .

وليس هذا هو كل ما ينبغى أن يذكر — على الهامش — للتعريف بهذه القصة ؛ لقد كان لها السبق كذلك فى مضمار آخر ، حين أرادت السيدة هدى شعراوى أن تسدى إلى الأدب يداً من أيادها فسبقت بين المؤلفين جائزة ، هى جائزة فاروق الأول للقصة ، يمنحها عن رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، مؤلف أحسن قصة تقدم للمباراة .

فهى إذن قصة ذات شأن ؛ أو هى — على الأرجح — قصة ذات حظ ، وحسبها من ذلك أن تظفر بمثل هذا التقدير مرتين : مرة عن رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، ومرة عن رأى الدكتور طه حسين بك .

الشباب والجمال والأنوثة ، لتلمس أسباب العيش ممرضة في بعض مستشفيات الاسكندرية . وراها طبيب شاب في المستشفى الذي تعمل فيه فافتن بها وأراد أن يتخذها زوجة ؛ وأحست الفتاة هوى إليه ، فآثرت — حباً له وإشفاقاً عليه — أن تسر إليه حديث ماضيها ؛ ونشأت الأزمة حين وقفت بينهما التقاليد بعنفها وقسوتها ، ووضع القدر سبابه على شفتيه يحذر الفتى ويحذر الفتاة . أما الفتاة فكانت مؤمنة بأنها لم تخلق للحب والزواج وتسكوين أسرة وقد عرفت ما هي في رأى نفسها ورأى المجتمع ، فاستشعرت الخوف من ذلك الطارىء الجديد الذى يهمس في قلبها وقلب صاحبها بأغانيه . وأما الفتى فلم يكن يؤمن بهذه التقاليد ولم يشغله من ذلك الأمر إلا التفكير في الوسيلة التى يستديم بها رضا أبيه وأسرته المحافظة ولو بالكذب والحيلة . . .

وراح الفتى يدبر أمره، ووقفت الفتاة تتربص وتنتظر ، لم يزايلها تشاؤمها ولم يستطع الحب أن يحملها على شئ من حسن الظن بالأيام ؛ وخيل إلى الفتى في بعض مراحل تديره أنه قد وفق فيما أراد وتدانى له البعيد حين ظفر بموافقة أبيه وأمه ؛ وقال لفتاته : ها نحن أولاء قد ربنا الجولة الأولى !

ولكن نتيجة الجولة الثانية لم تكن مما يتوقع حين نجمت أمور لم تكن في حسابانه ولا حسابان صاحبتة ، وإن كانت من سوء الظن بالأيام بحيث تتأهب نفسها في كل لحظة لطوارئ الشر ؛ وآثرت الفتاة أن ينقطع ما بينها وبين فتاها ليصفوا ما بينه وبين أهله ، وإن كانت هي الضحية . وزاد الفتى تشبثاً بها وإصراراً على تنفيذ ما اعتزم وإن انقطع ما بينه وبين أهله وبين الناس جميعاً . ونجمت أمور جديدة وزادت الأمور تعقيداً واستعصت على الحل ، وترقرقت في العيون نظرات ، وتحيرت على الشفاه كلمات ، وأطبق الصمت الحزين على رجال ونساء ، ثم نطق القدر كلمته وانحلت العقدة !

هذا مجمل القصة ، وهي قصة بسيطة الموضوع ؛ كما قد يلاحظ القراء من هذا التلخيص ، ولكنها كما قلت قصة ذات شأن ، أو ذات حظ ، لا من حيث موضوعها ، بل من حيث الطريقة التى تناولها بها المؤلف والأسلوب الذى جلاها فيه ، والعاطفة التى تنبض في يوانه ، وحرصه على دقة التصوير وبلاغة التعبير ، إلا قليلاً من المواضع اضطره فيها التحليل فأسرف في الوصف والتكرار وتجميل العبارة ؛ وإلا ما ألزم

نفسه من أسلوب في الحوار جرى به في القصة كلها على نسق واحد ، على غير ما يقتضيه الحوار من تنوع في الأسلوب بتنوع الأشخاص الذين يدور بينهم الحديث ، ويتنوع موضوع الحديث ، حتى لا يبدو أثر الصنعة فيما يدور بين المتحاورين من فنون الكلام .

على أن الملاحظة الجديرة بالذكر في الموضوع هي تلك الصورة التي جلا فيها المؤلف شخصية تلك « اللقيطة » فعلا فيما وصفها به من الذكاء والألمعية وطهارة النفس ودقة الحس وقوة الشخصية ، فجاءت صورة نادرة المثل أو معدومة المثل ، بين اللقطاء وأبناء الناس على السواء ! أفتراه قد أرادها كذلك : لقيطة من طراز خاص ليس مثله في الأحياء ليقص قصة ويصف حادثة فحسب ؛ أم تراه أراد أن يقدم للقارئ « صورة عامة » لتكون قصته بضعة من الحياة التي يحياها الناس ليحملهم على أن يحسوا بما حولهم إحساساً قويا يثير في أنفسهم ما يثير من ألوان الفكر والشعور ؟

وإلى جانب شخصية اللقيطة التي أبرزها المؤلف في هذه الصورة النادرة ، كانت شخصيات أخرى غلا ماغلا في وصف بعض جوانبها ، ولكنه أغفل

منها جوانب أخرى ذات شأن في تحديد الشخصية . فثمة شخصية السيد الأمين ، وهو شيخ من أهل الدين والفضيلة ، أثر المؤلف أن يجعله من القصة في مثل موضع القساوسة من المجتمع الأوربي حين يمسحون على رؤوس الأشقياء ليهبوا لهم الطمأنينة والسلام الروحي ويحملوا عنهم خطاياهم أو خطايا آبائهم ؛ وهو عنصر لا نكاد نجده في هذا المجتمع المصري الاسلامي ؛ وقد كان لهذا الشيخ في القصة دور ذو شأن ، ولكن المؤلف مع ذلك لم يحدد شخصيته تحديداً يضعه من نفس القارئ في مثل موضعه من الحياة إن كان مثله في حياتنا موضع ، ومثل شخصية السيد الأمين ، شخصية الدكتور ك . في عدم التحديد وقلة الوضوح ، إلى شخصيات أخرى كانت تبرز لموضعها من الحادثة ثم تختفى فلا يكاد يعرض لها ذكر إلا حين يريد المؤلف أن تذكر لينتقل بالقصة من مرحلة إلى مرحلة .

ولكن ذلك كله لا ينقص من قدر قصة قرر مجمع فؤاد الأول أن يمنح مؤلفها جائزة القصة لسنة ١٩٤٥ ، واختارها الدكتور طه حسين بك لتخرجها دار الكاتب المصري هذا الإخراج البديع بين المطبوعات العربية الحديثة .

القواعد النحوية : مادتها وطريقها للاستاذ عبد الحميد حسن وكيل دار العلوم (مطبعة العلوم — القاهرة)

مؤلف هذا الكتاب هو أستاذنا عبد الحميد حسن وكيل دار العلوم وأستاذ الأدب بها ، وهو إلى أستاذه في الأدب عالم في النحو ومحقق في اللغة وشيخ من شيوخ المربين الذين عالجوا طويلاً فن التريية (البیداجوجيا) علماً وعملاً ؛ وقد ندبته وزارة المعارف للمشاركة في إلقاء طائفة من المحاضرات العلمية ، أو التربوية ، على طائفة من أساتذة اللغة العربية في معهد الدراسات العليا الذي أنشأته وزارة المعارف في عهد ما لتتيح لهؤلاء الأساتذة فرصة لمتابعة الدراسات الجديدة والآراء المستحدثة في العلم أو في الفن الذي يتصل بعملهم في معاهد التعليم . وقد اختار الأستاذ عبد الحميد حسن أن يكون موضوع محاضراته لهؤلاء الأساتذة الطلاب في معهد الدراسات العليا ، الحديث عن القواعد النحوية من حيث مادتها وطريقة تدريسها وكيف يتأدى بها النفع ؛ فمن وحى حديثه في تلك المحاضرات إلى هؤلاء الأساتذة الطلاب ، كانت مادة هذا الكتاب . وقد قدمنت القول بأن الأستاذ المؤلف إلى أستاذه في الأدب والنحو واللغة — شيخ من شيوخ المربين في مصر ؛ بل لعل صفته هذه الأخيرة أظهر ، وهو بها أشهر ، وقد تخرج على يديه في دروس التريية جيل من المعلمين في أيديهم اليوم مقاليد التعليم في مختلف معاهده ؛ لا جرم كان كتابه هذا الذي نعرضه اليوم ليس كتاباً خالصاً للنحو وقواعده ومادته ، فهو — إلى ما جمع من ذلك كله فأوعى — كتاب في فن التريية ، يعالج فيه شيخ من شيوخ هذا الفن طريقة جديدة لتعليم اللغة بصفة عامة ، وتعليم النحو بصفة خاصة ؛ بل إن المؤلف لم يقتصر على هذين البابين فيما أبرز من خصائص علمه ، وهو أستاذ الأدب في كلية دار العلوم ، فعالج كتابه إلى كل ذلك باباً من أبواب الأدب فيما أورد من تاريخ النحو وصلته بسائر فروع اللغة ، وتنازع الاختصاص بين هذه الفروع ، ثم شيوخ النحو وأصحاب المذاهب فيه ، وطبقاتهم ، وما اشتجر بينهم من ألوان الخلاف ، وتطورات هذه المذاهب على السنين ، وما ألف في النحو من الكتب ، وطريقة المؤلفين فيه ، وصلة ذلك كله بطريقة

تعليم النحو والغاية منه على اختلاف العصور ، إلى غير ذلك من الباحث التي تدخل في اختصاص أهل الأدب ومؤرخيه ؛ فأنت ترى من ذلك أنه كتاب قد جمع الخصائص العلمية لمؤلفه بين دفتين ، فهو كتاب في اللغة ، وفي النحو ، وفي الأدب ، وفي التربية ؛ وإن كان على ما جمع من هذه الفنون لم يخرج عن موضوعه الأصل وهو « القواعد النحوية : مادتها وطريقتها » ذلك لأن الأستاذ المؤلف إلى ما قدمت من صفاته : أستاذ من أساتذة المنطق !

هذا هو الكتاب الذي يقدمه الأستاذ عبد الحميد حسن اليوم إلى قرائه من أهل الأدب وأساتذة النحو وعلماء التربية ، ليلفتهم جميعاً إلى أمر ذي بال لم يلتفت إليه أحد قبل اليوم من المشتغلين بعلم العربية وتعليمها التفاتاً قوياً يحملهم على أن يتساءلوا فيما بينهم : لماذا نعلم النحو ، وإلى أي غاية نقصد منه ، وهل نحن بالغون بطرائقنا هذه فيه تلك الغاية ؟ وهي الأسئلة التي يفرضها هذا الكتاب على قارئه فلا يكاد يخلص منه حتى يعود إليه يلتمس فيه جواب ما سأل .

وإذن فهو كتاب يُستطيع

المشتغلون بعلم العربية وتعليمها — إذا أحسنوا الاصغاء إلى ما فيه من جديد الرأي — أن يجعلوه نقطة التحول إلى لون جديد من ألوان الدرس لعله أن يحملهم على التماس الأسباب لتجديد هذا النحو وطرائق تعليمه .

وإذن فهو كتاب فيه ثورة وتمرد على باب من أبواب العلم القديم ، ولكنها ثورة هادئة متزنة ليس فيها صخب ولا تحد ولا مجاهرة بالعصيان ، لأن مؤلفه هو الأستاذ عبد الحميد حسن الذي تلحظه في أحفل المجالس بأسباب الصخب والثورة هادئاً ساكناً لا تكاد تطرف له عين أو تختلج شفة كأنما خلا المجلس منه . وهو في هدوئه ذاك يفكر ويقدر ويزن الأسباب والنتائج ليخلص من كل ذلك إلى الرأي الهادئ المتزن كأنما قد استجمع له الفكر في مجلس قد خلا إلا منه !

وددت لو أحسن الاصغاء إلى ما في هذا الكتاب من جديد الرأي كل مشتغل بعلم العربية وتعليمها ؛ لننتهي عن قريب إلى الرأي في أمثل الطرق للنهوض بهذه اللغة التي تموت كل يوم مائة مرة وتحيا على ألسنة الناطقين والكتاب من المتعلمين والجهال على السواء !

حديث في الطب للدكتور مصطفى الديوانى (مكتبة النهضة المصرية — القاهرة)

مؤلف هذا الكتاب طيب يمت إلى الأدب بسبب ، أو بتعبير آخر : هو طيب يحاول أن يكون أديباً ؛ وهو طراز من أهل الفن لا يريد أن يقتصر على فنه وما يتهيأ له فيه من أسباب الاختصاص ، ولكن يريد أن ينفذ بفنه إلى فنون أخرى ؛ أو هو لا يريد أن يكون فنه خالصاً له وحده من دون الناس ؛ بل يريد أن يشاركه فيه غيره فيكون له وللناس ما يعلم من خصوصيات هذا الفن ، اعتداداً بعلمه ، أو اعتداداً بالناس وحرصاً على أن ينتفعوا بما يعلمه ، بكل وسائل الانتفاع ؛ فهو طيب ، ولكنه لا يكتفى بأن يقتصر نشاطه في التطيب على الطائفة القليلة أو الكثيرة من المرضى التى تلتبس عنده أسباب الطب لأدوائها ، بل يريد أن يكون طبيباً للناس فى بيوتهم وإن لم يسعوا إليه ، وأن يقوم لهم أسباب العلاج أو أسباب الوقاية وإن لم يلتمسوا عنده أسباب العلاج أو أسباب الوقاية ؛ وعلى نهجه ذاك أصدر هذا الكتاب ليضيفه إلى ما أصدر من قبل من كتب فى هذا الباب . ويضم كتاب «حديث فى الطب» طائفة من المقالات نشرها من قبل مفرقة فى طائفة من المجلات والصحف يحاول فيها حديثاً شعبياً مبسطاً لتعريف الناس بما لا بد أن يعرفوا عن طائفة من الأمراض والآداب الصحية وأسباب التوقى والحذر فى الشؤون التى تتصل بالصحة العامة ومسائل أخرى تتناول هذه الموضوعات من قريب أو من بعيد؛ ففيه حديث عن الفيتامينات ، وعن المسكنات والنومات والمليينات والمسهلات ثم عن طائفة من المباحث الجنسية ، وعن بعض ما تحتاج إليه الأم لبعض ما يعرض لطفلها ، إلى مباحث أخرى يجد فيها كل قارئ حاجته من « الثقافة الصحية العامة » أو بعض حاجته ؛ فهو كتاب من حيث الفكرة العامة ينبغى أن يحرص على العلم بموضوعه كل قارئ ؛ على أن الكتاب — وقد أسلفت الحديث عن مؤلفه — لا يخلو من بعض هنات شكلية يجب أن يتنزه عن مثلها كاتب يريد أن يعرض بضاعته على القراء .

في مجلات الشرق

العراق فلسطين العدد ٣٩ (مارس ١٩٣٧)

السينما العربية — يحاول المحرر أن يتحدث عن السينما العربية بوجه عام ، من حيث هي قصة وإخراج ، فيزعم أن السينما العربية لم تخرج حتى اليوم غير قصتين اثنتين لا غبار عليهما ، هما قصتا « ليلي » ، و « العزيمة » ؛ أما ما عداهما فشئ لا يؤبه له ولا يعد في باب الإنتاج الفني ؛ بل إن هاتين القصتين لم تسلا في رأيه من العيب ؛ فأولاهما قد أخرجتها شركة مترو جلدوين ماير قبل أن تخرجها مصر إخراجاً لم يبلغ من الجودة إخراجها الأول ، والقصة الثانية — على أنها قد بلغت من الجودة مبلغاً مافى الإخراج والتصوير والتشيل والحوار والصوت والموضوع — قد خسرت فيها الشركة التي أخرجتها لأنها لم تصادف الاقبال الذي يفي بتكاليفها . . .

ثم يأخذ المحرر بعد ذلك في الحديث عن موضوعات القصص المفضلة عند الشركات السينمائية العربية والقاعدة التي يقوم عليها اختيار تلك القصص ، أو التي تسمح على مقتضاها القصص الصالحة لتكون ملائمة لتلك القاعدة ، ثم يلخص كلامه فيما يلي :

١ — إن المخرجين الحاليين العرب يغيرون نهاية القصة بحيث يطعن هذا في كيان القصة الفني .

٢ — إن القصص التي يخرجونها لا موضوع لها ولا قصد ، فهي مجرد سرد حوادث يكثرون من إدخال المعجزات فيها .

٣ — إن المخرجين الحاليين لا يحسنون اختيار القصص ، مع أن الأدب العربي قديم وحديثه غاص بكل حسن منها .

الأديب بيروت ، الجزء الرابع (ابريل ١٩٤٧)

العدالة والرحمة — من مقال فيه أن يبين الصلة بين العدالة للأستاذ فوزى غازى المحامى ، يحاول والحرية ، فيقول :

كان دوماً يرمى من الاحسان إلى العدل
وبعبارة أعم : من الحب إلى العقل ،
أى إنه كان كلما تطور وتنور ، يدخل
في شرعته وقوانينه ما كان يعتبره
لا يخرج عن نطاق الرحمة والاحسان ؛
فضرب الرقيق كان مباحاً من العدالة
غير محظور ، بيد أن الحب الدافق في
بعض الأرواح كان يحظر عليها حظراً
معنوياً الاقدام على مثل هذا الفعل ؛
لأن الاحسان والشفقة قد لا يرضيان
عنه ؛ ولكن بينما كان قلب الإنسان
وضميره هما رادعيه تطورت الأيام
فاستبدل بالضمير والقلب يد المجتمع
وعقله ، وأنزل العقوبة والقصاص
بكل من تحدثه نفسه اقتراف جرم
ضرب الأرقاء .

« إن عدالة لا تورق على أغصانها
براعم الاحسان لا تعود على المجتمع
بالسلام والطمأنينة .
«إن الإنسان حب وعقل ، لكنه
حب قبل أن يكون عقلاً : حب باتحاد
قلبه مع قلب أخيه ، وعقل باحترام
مواهب أخيه وذاتيته ؛ وإذا لم يتحد
الاثنان في الفرد اختل التوازن فيه ،
فأصبح آلة حاصدة أوقلباً حنوناً سموحاً
يحيا بالعاطفة فتعم الفوضى في المجتمع .
« وهكذا يبدو أن العدالة يجب
أن تمزج بالاحسان لتستكمل ذاتها
وحقيقتها . يثبت التاريخ أن الإنسان
ما قئ منذ أقدم عهوده يجعل من
الاحسان هدفاً يعتمد الوصول إليه ،
وأنه على دروب القرون والأجيال

« مرحلة التطور » كما يزعم من يزعم ،
وليست في الموقع الجغرافي ؛ وليست فيما
يتجاذب العالم الآن من تيارات أهل
اليسار وأهل اليمين ؛ وإنما العلة في
تقاعس الرجال وتحكم الأهواء ؛ وكل
ما يذكر غير ذلك وهم باطل ، فهو
ينقضه سبباً بعد سبب ، حتى ينتهي إلى
ما يسمونه مشكلة النزعات اليسارية فيقول :
« أما مشكلة اليمين واليسار فانها
أعظم هذه « الموهومات » أثراً وتأثيراً ،
إذ انبعثت في حياتنا وليس لنا يد فيها

يسار ويمين — وفي العدد نفسه
من مجلة « الأديب » ، مقال للأستاذ
عبد اللطيف شرارة ، عنوانه « حقائق
ولكنها أوهام » يتحدث فيه عن حال
الأمة العربية في حاضرها ، ويناقش
الأسباب التي يرد إليها ما يراه من فوضى
في العقائد ، وضغن في الأفئدة ،
واعوجاج في السير ، وخلط في المقاييس
وخبط في ظلمات العضلات . . . فيرى
كل ما يقال من أسباب هذه العلل ،
أوهاماً وأباطيل ؛ فليست العلة هي

ولا لقيامها مبرر في أجواء تفكيرنا .
« ومن الطبيعي المعقول أن ينقسم
الغرييون إلى معسكرين : يمين ويسار ،
لأن هذا النمط من المعسكرات الفكرية
يأتلف في جوهر تركيبه وقرارة مفهومه
وحتى في طريقة التعبير عنه ، مع
تاريخ الغرب وعقلية سكانه وأطوار
نشوئه ونموه ؛ وذلك لأن الحضارة
المادية أخذت الحياة على أنها « دائرة »
يتقلب فيها الأحياء ولا يخرجون منها ،
فكان من المنتظر أن تنشأ عندهم فلسفة
الحرية . والحرية في عالم الحوادث
والأشياء والوقائع ليست أكثر من
فلسفة . وكان من المنتظر أيضاً أن
يتصادموا ويتقارعوا في إطار حضارتهم ،
فهم يعلنون عند نهاية كل قراع أن

المدى الحيوى كان سبباً رئيسياً في
تصادمهم ، وأخيراً كان من المنتظر
أن ينقسموا إلى يمين ويسار ؛ إذ ليس
في الدائرة حين تقسمها إلى شطرين
غير هذين النعتين لشطريها .
« ولكن الحضارة الشرقية لم
تأخذ الحياة في يوم من الأيام على أنها
دائرة بل كانت ولا تزال في نظرها
الأصيل « سلماً » يرتقيه . الإنسان ،
ولا يأتلى يرتقيه ، إلى أعلى الدرجات ،
إلى أكل الكمالات ، إلى منبع
الخيرات ، إلى سيد الكائنات ، إلى
الله . ولذلك ، كان هذا الشرق مهد
الأديان ، ومهبط الشاعرية ، وسرير
الصوفية من أقصى الأيام إلى هذا
اليوم ! »

مراحل التاريخ العربى — ولا أستطيع
أن أدع هذا العدد من مجلة
« الأديب » حتى أوجز لقراء هذا
الباب حديثاً للأستاذ حنا نمر ،
عنوانه « التاريخ العربى تحت مبعض
العقل » يعيب فيه على مؤرخى العرب
— من أقدم العصور حتى اليوم — أنهم
نظروا إلى هذا التاريخ في أكثره على
أنه تاريخ أفراد لا تاريخ أمة ؛ وأثر
هذا الطراز من البحث التاريخى
في رجال السياسة والاجتماع من العرب ،

فوقع في وهم عديد كبير من المصلحين
والقادة أن في قدرة كل واحد منهم أن
ينهض بالأمة ، فإفْلَحُوا في أداء
رسالتهم ولا أفْلَحْتَ بهم الأمة ؛ « لأن
الأفراد لا يقدرُونَ على قيادة الأمم إلا
إلى حد محدود لا يستطيعُونَ أن
يتجاوزوه . »
ويخلص الكاتب من الحديث عن
مقدار تأثير الفرد في الأمة وتأثير الأمة
بالفرد ، إلى الحديث عن مراحل
التاريخ العربى كما يحددونها من

- جاهلية وأموية وعباسية ، فينكر أن يكون هذا التقسيم صحيحاً ؛ لأنه ينسب المراحل إلى مؤثرات فردية لا إلى خصائص شعبية عامة . ثم يقول :
- « ونحن نرى أن التاريخ العربي مر في أطوار وأدوار وعهود :
- ١ - عهد النزاع بين القبائل في الشمال .
- ٢ - عهد الثقة بالنفس والاطلاع على القوى الكامنة في العرب أو ميل القبائل إلى الاتحاد بعد يوم الفيل والكلاب وذى قار .
- ٣ - عهد النزاع بين القديم والجديد ، ويبتدىء قبيل الإسلام وينتهى بفتح مكة .
- ٤ - عهد الانتفاض والانتفاض ، عهد انتفضت به الرجعية قبل موتها ، وانتفض فيه أنصار التقسيم قبل هزيمتهم وينتهى في وسط خلافة أبي بكر .
- ٥ - عهد الفتح وينتهى في أواخر خلافة عمر .
- ٦ - عهد الانقسام والخلاف على الغنيمة والملك وما رافقهما من بعث طراز قبلي جديد وينتهى في أوائل خلافة علي .
- ٧ - عهد الخلاف بين القبيلة والقومية وبين الإنسانية والتمسك بتعاليم الكتاب وينتهى في أواخر خلافة معاوية .
- ٨ - عهد انتصار القومية العربية وينتهى في خلافة عمر بن عبد العزيز .
- ٩ - عهد انقسام العرب واتحاد الفرس ونهوضهم بانتهاء خلافة السفاح .
- ١٠ - عهد النزاع بين العرب والفرس وينتهى بقتل الأمين .
- « ويتلو ذلك عهود نازع الأتراك فيها الفرس وانقسمت الأمة إلى دويلات كان للقومية فيها الأثر الأقوى ، وظلت القومية العربية ضعيفة تجاهد حتى بعثت قوة فياضة بعد الحرب العالمية الأولى . »

المرأة دمشق العدد الأول (ابريل ١٩٤٧)

المرأة العربية - هذا حديث جرى بين المحرر وسيدة أجنبية متزوجة بسورى ، عن المرأة العربية كما تراها بعد المخالطة والعشرة ؛ وكان أول الحديث عن الشعر والشعراء والمكان الذى وضع الشعر

العربي فيه المرأة ، فزعمت السيدة أن الشعر العربي لم يتجدث عن المرأة ، بل عن جسدها ؛ ولم يصور إنسانيتها ، بل أنوثتها ؛ بل أثر في تصوير هذه الأنوثة الصور التي تلهب الحواس ولا تلهب الأرواح . . . ثم هي تردّ هذه الآفة في الشعر العربي إلى الحجاب فقد أورث هذا الحجاب الرجال شعوراً بالحرمان ، « والمحروم لا يتحدث إلا عن الأكلة التي لم يذقها ! »

قال لها المحرر : « معنى ذلك أن الشعر لا يبلغ المكانة الصوفية إلا حين يشبع الشاعر ؟ »

« قالت بعناد : نعم ، لتشبع روحه على الأقل . . . »

« إن هذه الفرقة بين الرجل والمرأة ، قد خلقت من مجتمعكم كائنات غريزية ، لا يكاد يقترب جنس من جنس حتى تستيقظ فيه أحط الرغبات . أنظر إلى شبابكم وإلى تلك النظرات الجائعة تلمع في عيونهم حين تقع على امرأة متبرجة بعض التبرج . إن صداقة الجنسین ستبقى معدومة في مجتمعكم

ما دامت أرواح الطرفين لم تشبع . « لقد تبلورت فكرة الجنس في مجتمعنا فتحدد لها زمان ومكان ، أما في مجتمعكم فهي لكل زمان ولكل مكان . . . حتى في الترامواي ، لا يكاد الشاب يعطى مقعده لسيدة حتى تراه يسترخى اشتهاً . ويؤم شفتيه نظراً ويكثر من رفع يده إلى ربطة عنقه ليستلفت نظر السيدة إلى أناقته ، كأن النزول عن مقعد لسيدة يكفي للايقاع بها . . . »

« إن شبابكم يفتشون عن الأنس فلا يجدونه إلا في جسم المرأة ، ويفتشون عن الحب فيطارحونه كل امرأة . . . لأن غذاءهم الروحي ناقص فهم في جوع روحي دائم . . . »

« إنني لا أهاجم الشباب لأستثنى الشابات بل أشمل الجميع . . . « أعذرنى ياسيدي إذا صارحتك بأنه ليس عندنا فتاة أو سيدة تسترق النظر من وراء الباب وتحقق في كل شاب . . . إن عندنا صراحة تمنع مثل هذه السرقة . . . سرقة المتعة الرخيصة . »

المرحل مكة المكرمة العدد الرابع (مارس ١٩٤٧)

خطوط الحياة — من مقال للأستاذ عبد القدوس الأنصاري ، عنوانه « جرب الطريق الآخر ! » في هذه الحياة جملة شبكات من

خطوط مختلفة الاتجاه والأهداف وثلاثة منها هي الخطوط الرئيسية :

« يعتاد سلوك الطريق الأول ، أولئك الواهنون الضعفاء الذين هانت نفوسهم ، وهؤلاء القوم هم حثالة الأمم . . . »

« ويمتطي ثانی الطرق ، أولئك الأبطال المغامرون الذين لا يبالون بنصب جسومهم في سبيل الترفيه عن ضائرتهم وشعوبهم ؛ هؤلاء القوم هم الرواد وهم القادة في الأمم . . . »

ويسلك ثالث الخطوط فريق ثالث يزعمون أن يمثلوا دورهم على مسرح الحياة ولكن ليس بين مقاعد النظارة وهؤلاء هم العاملون في الأمم .

يحسن بك — يا صديقي القاري — إن كنت ممن يهفو إلى معالي الأمور أن تحدد مركزك . حيال خطوط الحياة الثلاثة ؛ وإذا لم تصل إلى هدفك المنشود في طريق من طرق الحياة ، فحذار من أن تركبك هواجنس الهمة واليأس . . .

. . . جرب الطريق الآخر ! »

المواهب توكومان — الأرجنتين العدد الثامن (ديسمبر ١٩٤٦)

وهذه مجلة من مجلات الشرق ولكنها تصدر في الغرب ، في المهاجر البعيد ، حيث يعيش الآلاف من أبناء العربية كراماً موفورين قد تبوءوا مكانتهم مؤمنين بأن من حق العربي حيث كان أن يعيش ، وأن يسود . . . فعاشوا ، وسادوا . وهذه مجلة تنطق بلغتهم وتعبر عن خواج أنفسهم ، يعبر بها البريد آلاف الأميال ، بين توكومان والقاهرة . . . رسالة من النازح إلى المقيم .

هذا المقال الأول يتحدث فيه

الأستاذ يوسف صارمی محرر المجلة عن « نهضتنا الأدبية الحاضرة » حديثاً نجد صدهاء في القاهرة ، أو لعله هو صدى حديثنا عن نهضة الأدب ؛ وما خفقة قلب العاشق إلا صدى لخفقة قلب عاشق !

وهذه مقالات عن غوامض أبي العلاء ، وسوريا في ميدان الشرف القومي ، ومعرض الكتاب والشعراء ، وفجعة شبيب أرسلان — إلى فصول ومختارات وقصائد ؛ فكأنما لم يبعد العهد ولم تتناء الديار .

أوسع الله للعربي وأبعد صيته !

فهرس المجلد الخامس

فبراير — مايو ١٩٤٧

دراسات أدبية

إتيامبل	طه الحاجرى
* التروبادور وشعراء الأندلس (١) ٩٦	فصول لم تنشر من آثار الجاحظ ٥٥
* روجيه كايوا يضع نظرية مذهب كلاسيكى جديد (٢) ٣١٣	طه الراوى
ريمون فرنسيس	رأى فى ترتيب المعجم العربى الحديث ٦٣
الشاعر رابندراناث طاغور ٣٠٦	طه حسين
الهجاء السياسى فى مسرحيات اريسطوفان ٥٠٦	فراز كفكا ١٩٧
عالم البيت فى مسرحيات بلوتس . ٧٠٩	عبد العزيز أحمد
س . د . غويطالين	المرأة فى الأندلس ٥٢٢
جولدتسيهرأبو الدراسات الاسلامية ٨٥	فؤاد صروف
	خليل مطران ٧٠٣

دراسات فلسفية

عباس أحمد	روجيله أرنالديز
قصة سلامان وأبسال ١٤١	* أصول الوجودية (٤) ٢٩٤
ألكسندر كواريه	* الأصول القريية للوجودية —
* كوندريسيه (٣) ٢٦٦ و ٤٩٠	فلسفة نيتشه (٥) ٦٦٥

* كل مقال أمامه هذه العلامة كتب خاصة للمجلة بقلم كاتب أوربىين أو أمريكىين .

(١) Etienne, Troubadours et poètes hispano-mauresques

(٢) Etienne, Roger Caillois théoricien d'un classicisme neuf

(٣) Alexandre Koyré, Condorcet

(٤) Roger Arnaldez, Les origines de l'existentialisme

(٥) Roger Arnaldez, Les origines prochaines de l'existentialisme.

La philosophie de Nietzsche

دراسات اجتماعية واقتصادية

سلامه موسى	محمود تيمور
إهتمامات ودراسات العالمية ٦٩	سائح في العالم الجديد ٣٩
ذكريات الحرب الكبرى الأولى ٢٤٨	الأيض والأسود وقصص أخرى ٢٢٦
ماذا افدت من العمر ٦٩١	كيف تلهو نيويورك ٤٢٩
هنري بيرلين	ذاهب مع الريح ٦٤١
* الحياة في بلد محايد - في السويد (١) ٥١٥	محمود عزمى
* بريطانيا التي غيرتها الحرب	تقرير ديوان المحاسبة ٦٢٣
ولم تتغير (٢) ٧٢٠	مراد كامل
محمد عبد الله عنان	حول مشروع بحيرة طانا ١١٠
حماية حقوق التأليف ٤٥٩	

دراسات تاريخية

سليم حسن	محمد عبد الله عنان
الفلاح المصرى يشكو اضطهاد	الصحافة في عصر اسماعيل ٢٥٨
طبقة الموظفين ٢٣٥	

دراسات سياسية

سليمان حزين	حسن محمود
بين العلم والسياسة ٤٣٥	من فلسطين إلى السودان ٢٧٨
روابط العلم والتاريخ في وادى النيل ٦٥٣	محمد عبد الله عنان
محمد رفعت	مسألة الهند وقضية الباكستان . ٧٨
حديث الامبراطورية البريطانية . ٢٣	محمود عزمى
الحركة الوطنية في ليبيا ٢١٤	في بلاد المغرب ٣٣
حيرة الترك بين الشرق والغرب . ٦٢٩	صفحة دبلوماسية خلال قراءات . ٤٢٤

Life in a neutral country: in Sweden today, by Henry Baerlein (١)

Britain, war changed and changeless, by Henry Baerlein (٢)

دراسات فنية

أحمد فكرى	سهير القلماوى
خطرات فى الفنون الجميلة ١٢٩	وقفة خالدة ٤٦٦
حسين فوزى	هيلديه زالوشر
هواة الموسيقى الغربية ٤٤٦	* الأثر الأخير لزعماء الفن (١) ٣٢٢

قصص

راجية فهمى	محمد عبده عزام
ليلة العيد ٥٣٢	ثوبان أسودان ٥٠٢
طه حسين	محمد مفيد الشوباشى
ما وراء النهر ٧	حيوش كبرى أنوشروان ٤٧٤
رفيق ٤١٣	محمود الدسوقي
المعذبون فى الأرض ٦١٣	الاختان ١٢٦
فخرى شهاب	فى صحراء الأقدار ٣١٧
اللحن الضائع ١١٩	يحيى حتى
فرائز كفكا	أم العواجز ٦٨٣
طبيب القرية ١٠٣	

شعر

إبراهيم محمد نجا	عبد الرحمن صدقى
اللحن الأخير ٢٨٨	بعد انتضاء طامين ١٠١
أحمد الصافى النجفى	قبل السفر ٦٦٤
مقطوعات من الشعر ٥٢٠	على محمود طه
بشر فارس	أندلسية ٥٢
إلى فتاة ٢٤٧	ليعه عباس عماره
عبد الرحمن الحميسى	فى رثاء الأستاذ طه الراوى ٥٣٩
إنطلاق ١٢٤	محمد عبده عزام
هنرى القيم	شعرى الضائع ٦٨١
صورة الفنان ٧١٨	

رثاء

طه حسين

محمد كامل حسين

مصطفى عبد الرازق ٣٤٠ الدكتور على باشا ابراهيم ٣٣٧

من هنا وهناك

بشر فارس

كلارا عزمى

أنستاس مارى الكرملى ١٥٢ مصطفى عبد الرازق قعيد العاطفية
جولة مستطلع ٧٢٦ الذهنية ٧٢٥

على حافظ

مبارك ابراهيم

خطاب إلى الطفل الناشئ في القرية ١٥٣ كلمة عن آدم بيد وقطة مختارة منها ٣٤٥

محمد كامل حسين وثنية إخوان الصفاء ٥٦٥

شهرية الفن

أمينة طه حسين

هيلديه زالوشر

للمعرض الدولى للفنون الجميلة
المعاصرة ٥٤١ * شاعر رسام أو رسام شاعر (١) ٧٣٦

شهرية السياسة الدولية

محمود عزمى فبراير ١٥٦ ، مارس ٣٦٠ ، ابريل ٥٤٨ ، مايو ٧٥٦ .

شهرية المسرح

حسن محمود الموسم الغنائى التمثيلى فى دار الاوبرا الملكية ١٥٩ .
عبد الرحمن صدقي تارتيغ أو الدجال ٣٦٨ ، لوأتى أردت ٣٧٠ ، لن تقع حرب
طراوده ٥٥٣ ، حمار بوريدان ٥٥٧ ، الروايات الختامية للفرقة الفرنسية ٧٦٠ .

شهرية السينما

أحر شفايف ١٦٢ ، ذات الشهرة السيئة ١٦٣ ، الحسناء والوحش ٣٧٣ ، رسائل غرامية ٣٧٤ ، عطلة الأسبوع المفقودة ٣٧٥ ، حد الموصى ٥٦٠ ، لكل نصيبه ٥٦٢ ، سعادة مقتضبة ٧٦٣ ، الوطن ٧٦٤ .

من وراء البحار

الموسيقى في ألمانيا ١٧٢ ، فن الحديث الصحفي ١٧٤ ، أدباء الألمان في الوقت الحاضر ٣٧٧ ، مصر والسودان ٥٧٣ ، حول الأدب الفرنسي كما هو ٥٧٥ ، معالجة الفقر وزيادة السكان في بولونيا ٧٦٦ ، مصر والسودان والمعاهدة ٧٧٠ .

من كتب الشرق والغرب

فؤاد وصفى أبو الذهب إتيامبل
صور من العنف والقسوة في الأدب * البطل في الوادي السعيد (١) . ٥٧٨
الأمريكي ١٦٥ * أوديب أو ثيسوس (٢) ٧٧٣
برنارد جيون حول كتاب خطير - الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر (٣) . ٥٨٣

ظهر حديثا

إبراهيم أنيس وإبراهيم الشرييني أمينة السعيد ويوسف مراد وسيد قطب
الأساس في تعليم القراءة ٣٨٦ روضة الطفل ٣٨٦
الشيخ أحمد محمد شاكر جيد (أندريه)
مسنند الامام أحمد ١٨٠ تعريب صبرى فهمي
أمين دويدار ومحمود زهران مدرسة الزوجات-دروير-جنثيف ٧٧٧
قصص المدرسة ٣٨٦ حسن إبراهيم حسن
تاريخ الاسلام السياسي والديني
والثقافي ٥٩٩

Etiemble, Le héros dans «La vallée heureuse» (١)

Etiemble, Œdipe ou Thésée (٢)

Bernard Guyon, Commentaires autour d'un grand livre «La pensée française au XVIIIe siècle» (٣)

محمد عبد الحلیم عبد الله	راشد البراوى
٧٨٣ لقطه	٦٠٠ حرب البترول فى الشرق الأوسط
محمد كرد على	عبد الحمید حسن
١٧٩ أقوالنا وأفعالنا	٧٨٦ القواعد النحویة : مادتها وطریقتها
مصطفى الديوانى	فیشتیر
٧٨٨ حدیث فى الطب	مائة سنة من الحیاة السویسیة فى القاهرة ٣٨٣
ولز (ه.ج.)	٥٩٥ کیریلیانا
تعریب محمد بدران	محمد سعید العریان
٧٨٠ طعام الآلهة	٥٩١ على باب زویلة
یوسف کرم	محمد عبد الله عنان
الفلسفة الأوریة فى العصر الوسیط ١٧٨	٣٨٥ تراجم إسلامیة : شرقیة وأندلسیة

فى مجلدات الشرق

شکب أرسلان ١٨٣ ، عیید ١٨٣ ، إخوان الصفاء ١٨٤ ، أنصار الأدیب ١٨٥ ،
مکتبة الاسکوریال ١٨٥ ، سمر الیالی ١٨٦ ، العقل والله ١٨٦ ، وضعنا الاجتماعی ١٨٧ ،
رکود الشعر ١٨٧ ، فن الکذب ٣٨٩ ، بریطانیا فى الشرق ٣٩٠ ، مؤتمر الأدباء العرب
٣٩١ ، الأدباء کسالى ٣٩٢ ، الأدب ینهار ٦٠١ ، تعاون الصحافة العربیة ٦٠١ ، قبس
من المغرب ٦٠٢ . وظیفه الأدیب ٦٠٣ ، السینما العربیة ٧٨٩ ، العدالة والرحمة ٧٨٩ ،
یسار ویمین ٧٩٠ ، مراحل التاریخ العربی ٧٩١ ، المرأة العربیة ٧٩٢ ، خطوط
الحیاة ٧٩٣ ، المواهب ٧٩٤ .

فى مجلدات الغرب

من موسکو ١٨٨ ، ٤٠٠ ، ٦٠٤ ، من باریس ١٩٠ ، ٣٩٣ ، ٦٠٥ ،
من لندن ١٩١ ، ٦٠٨ .

محمد عبد الحليم عبد البدر

لفظة

قصة

جائزة فاروق الأول للفقرة

من مجموع فوائد الأول للغة العربية

التمن ٢٥ قرشاً
البريد ٢٤ مليماً

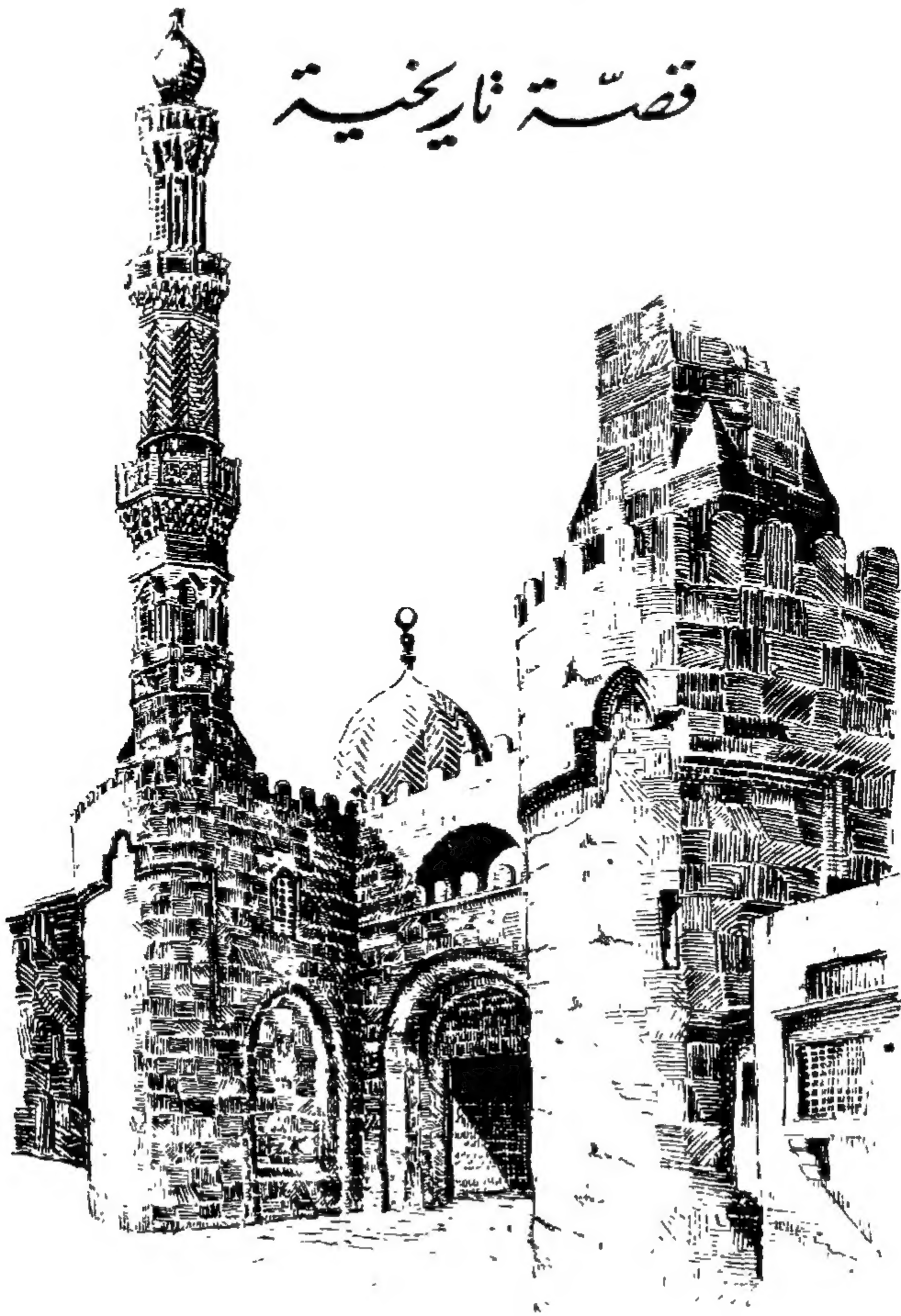


٢٥٠ صفحة

محمد سعيد العريان

على باب زويلة

قصة تاريخية



اكتسبت رائحة بأدق معاني هذه الكلمة وأوسعها وأصدقها في وقت واحد
كتاب من هذه الكتب النادرة التي تظهر بين حين وحين

٣٥٠ صفحة ، طبعة مزينة بالصور الثمن ٣٠ قرشاً البريد ٢٨ مليماً

